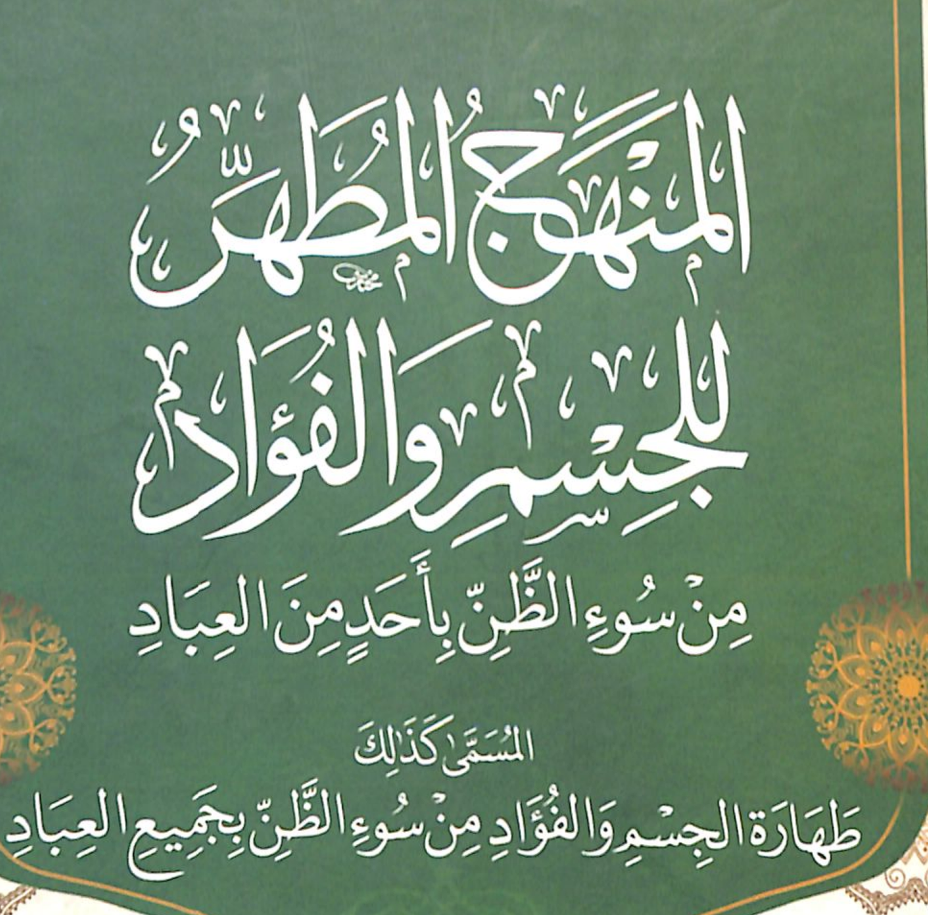
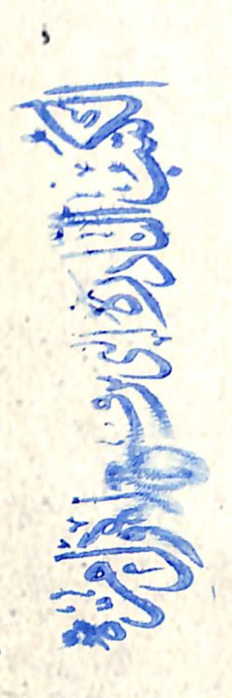


المنهج المطهر للجسم والفؤاد

من سوء الظن بأحد من العباد

المسمى كذلك

طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بجميع العباد



تأليف

الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

المتوفى سنة ٩٧٣ هـ

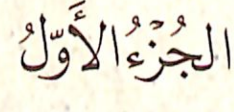
تحقيق

محمود مرسي حسن

تقديم

د. محمد عبد القادر نصار

الجزء الأول









هاتف محمول: ٠١١٢١٠٧٧١٧٤ ٠٠٢

Email: darelehsan@gmail.com

الكتاب: المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد

تأليف: الإمام عبد الوهاب الشعراني

تحقيق: محمود مرسي حسن

الناشر: دار الإحسان

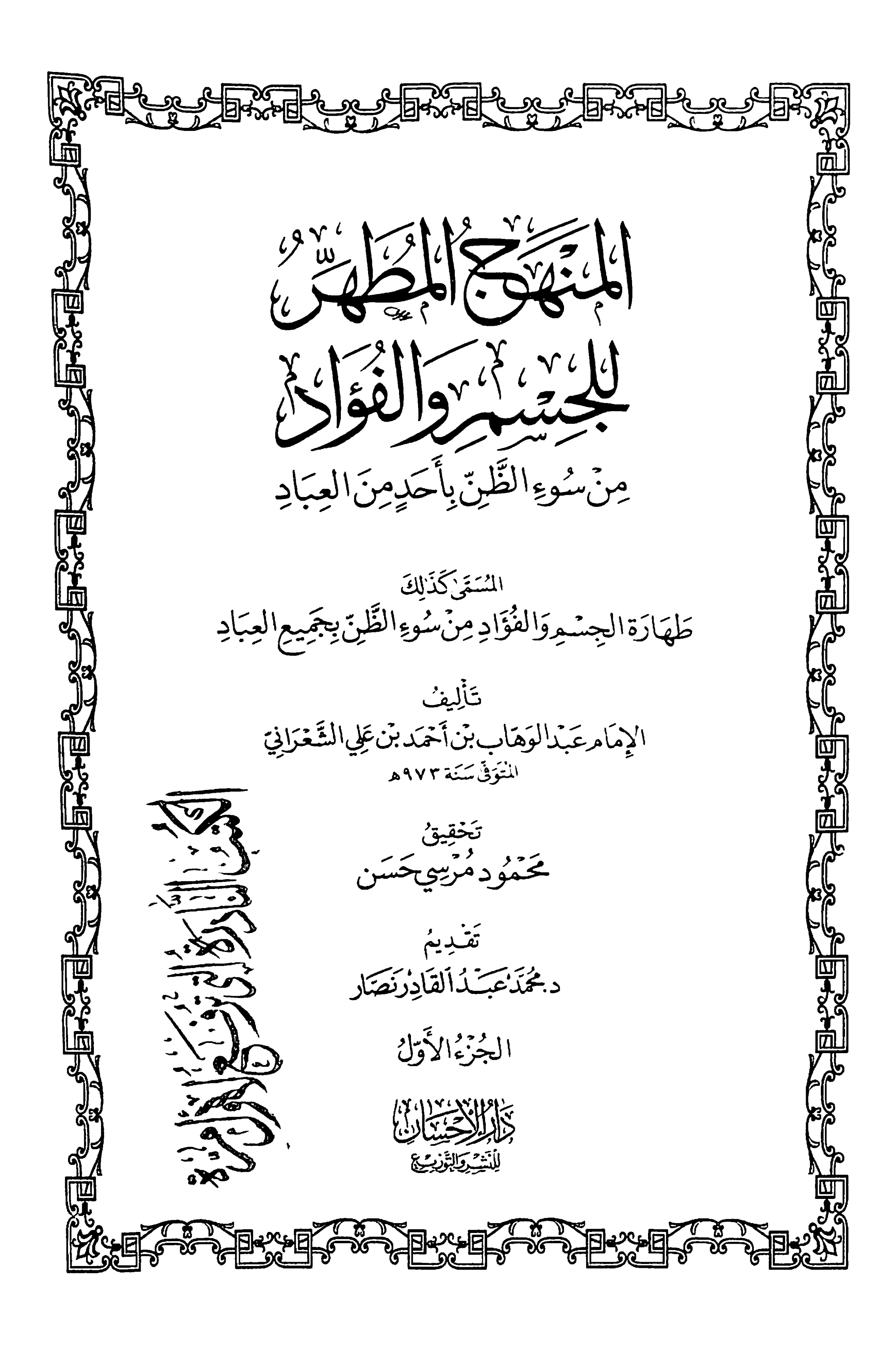
سنة الطباعة: ٢٠٢٣

بلد الطباعة: القاهرة، مصر

الطبعة: الأولىٰ

رقم الإيداع: ٢٧٥٨٢/ ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: 978-977-6816-43-5



المنهج المطهر للجسم والفؤاد

من سوء الظن بأحد من العباد

المسمى كذلك

طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بجميع العباد

تأليف

الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني

المتوفى سنة ٩٧٣هـ

تحقيق

محمود مرسي حسن

تقديم

د. محمد عبد القادر نصار

الجزء الأول

دار الإحسان

للنشر والتوزيع



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي المتقين والصلاة والسلام على خير النبيين سيدنا محمد وآله وصحبه.

كانت بداية كتاب المنهج المطهر منذ نحو اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا حين استقدمت نسخته المخطوطة الأولى من السعودية بما كلفني في ذلك الوقت قدرًا معتبراً من المال، أي عشرة آلاف جنيه مصري اليوم بسعر الريال في السوق السوداء. ثم يسر الله بنسخة أخرى من مقتنيات مكتبة شهيد علي باشا كتبت لحفيد المؤلف الشيخ يحيى بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب الشعراني سنة ١٠٣٣ بعد انتقال الإمام الشعراني بستين عامًا فقط. وهذا النسخة كان أخبرني بها الشيخ أبو أحمد كابر الشنقيطي ثم المدني الذي توفي منذ شهور قليلة رحمه الله تعالى. وهو من الكتب التي لم تكثر مخطوطاتها ربما لحجمه الكبير وتأخر تأليفه في حياة الإمام إذ يفوق حجمه «المنن الكبرى» و«العهود المحمدية».

واستغرق نسخ الكتاب نحو عام كامل نظرًا لعظم حجمه وكان هذا نحو سنة ٢٠١٠ شمسية. ثم ظل ملف الكتاب على الحاسوب في طي الحفظ إلى ما بعد إنشاء دار الإحسان بخمس سنوات حين انتهينا من نشر مؤلفين كبيرين آخرين للقطب الشعراني هما الطبقات الوسطى ومختصر الفتوحات المكية. ثم أعطيت الملف للمحقق كي يبدأ العمل فيه. وانتهى من تحقيقه على النسخة السعودية التي وإن كثرت مزاياها من جمال الخط وحسن التنسيق والزخرفة، لم تخل من سقط وتصحيف. ثم ظهرت النسخة التركية، فتوجب مقابلة الكتاب كاملًا عليها. وغني عن البيان أنَّ كلا النسختين مصري الأصل، أي إنهما نسختا في مصر أرض الكنانة التي حوت مشاهد كبارٍ من آل بيت النبي ﷺ في القرنين الحادي عشر ومطلع الثاني عشر.

وغير ممكن في هذه السطور الوفاء بذكر ما لهذا الكتاب الفريد من المزايا، وحسبه

أنه يختلف في خطته ومادته عن بقية كتب الأخلاق التي ألفها العارف الشعراني، كـ«بهجة النفوس والأحداق»، و«المنن الكبرىٰ» و«الأخلاق المتبولية» و«هادي الحائرين» وغيرها. وأهم ما يتميز به الكتاب أنه يخرج عن دائرة الأخلاق المغلقة نسبيًا إلىٰ الحياة العامة ليسجل مشاهد شديدة الثراء موضوعًا ولغةً للحياة في القرن العاشر الهجري بما يُحْضِرُ هذا القرنَ وما قبله وأحيانًا ما بعده أمام أعيننا بتفاصيله ودقائقه، ولا يقترب كتاب آخر في هذا الثراء اللغوي والاجتماعي من كتابنا هذا سوىٰ كتاب «المنن الكبرىٰ» لاعتناء القطب الشعراني فيه بذكر الكثير من تفاصيل حياته الشخصية.

وقد كنت أود أن أتشرف بالمشاركة مع محقق الكتاب الشيخ محمود مرسي النقشبندي الجودي بأكثر مما شاركت به، ولكن حالت أحوال الدنيا دون ذلك، ومع بعض الأسف علىٰ عدم تيسر ذلك، فحسبي أن أجد عند العارف السكندري بعض السلوىٰ إذ يقول: «لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها، فلو أراد لاستعملك بغير إخراج» و«لا تترقب فراغ الأغيار، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه». وقد استعملنا الله تعالىٰ فيما استعملنا فيه، فليس لنا إلا الرضا باختياره تبارك وتعالىٰ.

وأحمد الله تعالىٰ- وقد جاوزت من العمر ستة وخمسين عامًا بالسنين الهجرية قضيت ردحًا منها خادمًا لكتب سيدي عبد الوهاب الشعراني تحقيقًا ونشرًا، ولا يزال في الجعبة المزيد- علىٰ ما وفق إليه وأسأله تعالىٰ أن يحسن ختامنا ويصلح أعمالنا ويحققنا بما حقَّق به أولياءه الصالحين وأحبابه المقربين كسيدي عبد الوهّاب الشعراني، رضي الله عنه وعن مشايخنا الجودية وعنا بهم.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

محمد نصار

القاهرة في العشرين من جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٤٤٤

مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد خير خلق الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه

وبعد:

فإن للتراث الشعراني مركزًا رئيسًا في حقل المؤلفات الإسلامية عمومًا، ودوائر التربية خصوصًا، فيكاد ينعقد إجماع أهل الطريق علىٰ أن من خصائص كتب الإمام الشعراني تربية المريد وتهذيب نفسه، لاسيما إن جمع مع مطالعتها السلوك علىٰ يد شيخ مربٍّ.

وقد سبق لدار الإحسان المباركة أن أخرجت موسوعتين عظيمتين من الحدائق الشعرانية الغناء، هما «مختصر الفتوحات المكية» و«الطبقات الوسطىٰ». وهذه موسوعة أخرىٰ أكبر تتضمن عصارة ذوق الإمام، وخلاصة سيره، وعلومشهده ﷺ.

وكانت عناية شيخنا د. محمد نصار بهذا الكتاب قديمة تعود إلىٰ سنوات حيث قام بدفعه للنسخ فور أن حصل علىٰ مخطوطه، ثم شاء الله تعالىٰ أن يتأخر صدوره عشر سنوات وازدادوا ثلاثًا أوخمسًا، ثم منَّ الله عليَّ، فدفعه إليَّ شيخي، فعملتُ علىٰ العناية به مدةً طويلة من الشهور والأيام تخللتها بعض الأعمال الأخرىٰ، فلما أوشك علىٰ دخول مرحلة الطباعة ظهر لنا مخطوط آخر، فأخرنا صدور الكتاب لنقابله علىٰ المخطوط الجديد، حتىٰ صار الكتاب أخيرًا بين يدي القاريء الكريم.

يبدأ الإمام كتابه الجليل بمقدمة دسمة تهيئة للقاريء وتمهيدًا للولوج إلىٰ الكتاب، كما يذكر فيها بعض الأمور المعينة علىٰ حسن الظن، كتحري أكل الحلال الخالص، إذ بقدر ما يشوب مال الإنسان من الشبهات يتمكن منه سوء الظن بقدر ذلك.

وفي المقدمة نبه الإمام ﷺ علىٰ مسلكين خطيرين جدًّا يقع فيهما بعض الناس وخصوصًا طلبة العلم الشريف:

الأول: أخذ التصوف ومعرفة أمراض النفس وعللها والسعي في طرق علاجها من كتب التصوف مباشرةً دون سلوك علىٰ يد شيخ من الأحياء، إذ لكل عصر علله وأمراضه المختلفة عن تلك التي عالجها المشايخ السابقون، وإن توافقت بعض العلل والأمراض التي لا يخلو عصر منها، إلا أنه لا تخلص منها أيضًا إلا بالسلوك علىٰ يد شيخ.

الثاني: عدم حمله الأوصاف التي يصف بها المشايخ مدعي الطريق علىٰ نفسه، بل يقيمها ميزانًا يزن بها غيره من المشايخ وأهل الطريق، فيحاكمهم لما يقرأ، ويرميهم بالادعاء، ويتباكىٰ علىٰ خلوِّ الطريق من الصادقين، بينما كان مقصود أولئك المشايخ أن يفتش الإنسان في نفسه عن هذه الصفات المذمومة ويعالجها علىٰ يد شيخ مربٍّ.

ثم يذكر الإمام أنه قسَّم الكتاب إلىٰ مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة:

الباب الأول: في الأجوبة عن الأنبياء عمومًا.

الباب الثاني: في الأجوبة عن بعض الأنبياء خصوصًا

الباب الثالث: في الأجوبة عن بعض الصحابة والتابعين.

الباب الرابع: في الأجوبة عمن بعدهم من العلماء والفقهاء والأمراء والتجار والمباشرين وغيرهم من بقية المؤمنين.

وأما الخاتمة: ففي الجواب عمن آذىٰ الإمام الشعراني!

غير أن الإمام لم يلتزم بتقسيم الكتاب أربعة أبواب، ولكنه زاد عليها حتىٰ بلغت ثلاثة عشر بابًا، وإن كانت كلها في نفس نوع الباب الرابع. والعجيب أن الإمام لم يعد إلىٰ المقدمة لتعديل هذه الخطة، مما يرجح أنه كتب المقدمة قبل أن يشرع في الكتاب. ويستبعد أن يكون الإمام قد رأىٰ لطول الباب الرابع تقسيمه أبوابًا ثم نسي أن يذكر ذلك في المقدمة؛ لأنه يحيل أحيانًا في الأجوبة علىٰ أبواب بعد الباب الرابع، فيقول مثلًا: «وقد أجبنا عنه في الباب السادس، فانظره»[1].

---

(١) بالنظر إلىٰ أن هذا مع وقع في «الطبقات الوسطىٰ» من النص علىٰ الاقتصار علىٰ ترجمة من له كلام في

وهنا لا بد من التنبيه على حصول سبق قلم من الإمام في عد الأبواب، فقد ذكر الباب السابع بعد الرابع مباشرةً، دون أن يعنون للبابين الخامس والسادس، ثم كرر العنونة بالباب التاسع مرتين وراء بعضهما البعض، وكذلك حصل في الباب الثاني عشر تكرار العنونة به مرتين، ثم انتقل للباب الثالث عشر. وقد قمنا بتعديل ذلك، لذلك فالأبواب على الحقيقة اثنا عشر بابًا، بلغت عدد الأجوبة فيها (١٤٢٠) جوابًا. وبعيد أن تحدث هذه الأخطاء من الناسخين في النسختين معًا، خاصةً مع وجود الاختلافات بينهما، أي إن إحداهما ليس مأخوذًا عن الأخرى.

تجديد باب النبوَّات:

خصص الإمام الباب الأول كما قلنا للأجوبة عن الأنبياء عمومًا، والباب الثاني للأجوبة عن أعيانهم صلوات الله وسلامه عليهم ونفعنا بهم. وأجوبة الإمام عن الأنبياء هي بحق تجديدٌ بالمعنى التراثي للكلمة، أي إعادة إحياء ما اندرس من كمال الاعتقاد في الأنبياء، وإن لم يُسبَق ﷺ إلى إبراز وتدوين مثل هذه الأجوبة إلا ما رجع إليه من «الفتوحات المكية» ذلكم البحر الخضم الذي يجيد الإمام استخراج درره، ولكن استشهاده بنصوص «الفتوحات» استشهاد الذائق بما يوافق ذوقه، أو يدل عليه، إذ مستقبحٌ في التجديد بمعناه التراثي لا الحداثي مخالفة أئمة الهدى السابقين، أو مخالفة مناهجهم أو أصولها، وإنما الجديد المقبول ما وافق الأصول والمناهج، وأعاد إحياء الدين وتعظيمه في قلوب المؤمنين. وقد صرَّح الإمام ﷺ أنه لم يجب عن الأنبياء إلا على حسب ذوقه من مقامهم العالي. بل لقد حذَّر من الهجوم على الأجوبة عن الأنبياء دون أن يكون للمجيب إشراف على سامي مقامهم. ومن تلك الأجوبة تستطيع أن تستخلص قواعد عامة ترد إلى كل قاعدة منها الفرع الموافق لها، فمثلًا:

السلوك ينتفع به مع ما نجده من ترجمته للعديد من المجاذيب وعدم تعديل الإمام للمقدمة، قد يستنتج أيضًا أنه ترك الأمر على ما هو عليه لأن الواردَ عارَض الفكرَ، فكان تركه للمقدمتين دون تعديل إشارة إلى سير المؤلف على ما يقع في قلبه بخلاف ما كان انتواه بفكره.

• **قاعدة:** كل ما ورد من خطاب لوم أو عتاب أو أمر بمزيد تقوىٰ أو نهي موجهًا للأنبياء، فالمراد منهم أممهم. وإنما وُجِّه الخطاب للأنبياء لقدرتهم علىٰ تحمل صولة الخطاب الإلهي، بخلاف أممهم.

• **قاعدة:** كل استغفار يقع من الأنبياء أو بكاء علىٰ الذنوب ونحو ذلك، فالقصد منه استغفارهم عن ذنوب أمتهم، أو تعليم أمتهم كيفية التضرع، أو استغفارهم مما ترتب آثار دعوتهم من دخول المعاندين في دائرة الإثم والعذاب، وذلك لعظيم شفقتهم. وهذا التعليل الأخير هو ما كان يجيب به الإمام غير ما مرة عن سيد الوجود رحمة الله للعالمين سيدنا محمد ﷺ.

• **قاعدة:** إقبال الأنبياء علىٰ صناديد قومهم وكبارهم إقبال منهم علىٰ صفات الكبرياء والعز لله عز وجل التي كان مظاهرها أولئك الصناديد والأكابر.

• **قاعدة:** خوف بعض الأنبياء من بعض المخلوقين سواء كان خوف أذىٰ أو شماتة إنما هو خوف من الله تعالىٰ، لكون جميع الكون مظاهر أفعاله.

وبهذا تستطيع أن ترد كل حادثة ترد عليك إلىٰ واحدة من تلك القواعد وغيرها مما استخلصته من أجوبة الإمام.

ولا يخلو باب النبوات من نكات علمية تكاد لا تجدها في غير هذا الكتاب، كعدم كون المعجزةِ هي الباعثة علىٰ إيمان من آمن، بل آمن من آمن بالأنبياء لوجود النور في قلبه الموافق للنور الذي جاء به النبي المرسل، وإنما كان احتجاجهم بالمعجزات كالعذر لهم عند قومهم.

ومن النكات اللطيفة أيضًا أن للنبي الرسول حالة يكون فيها مرسلًا لا نبيًّا، وذلك إذا أُمر بتبليغ ما لم يؤمر هو نفسه بالعمل به.

وقد خصص الإمام القسم الأول من الباب الثاني للأجوبة عن أعيان الأنبياء سوىٰ سيدنا محمد ﷺ، وخصص القسم الثاني منه للأجوبة عن سيدنا محمد ختام الأنبياء

والرسل وإمامهم ﷺ. كما أنه خص أبوي النبي ﷺ بمبحث طويل للرد على من يقول بعدم نجاتهما نفعنا الله بهما في الجواب (٧٠).

علو مقام الصحبة:

أما الباب الثالث الذي خصه الإمام بالأجوبة عن الصحابة والتابعين، فهو فريد عجيب، يدهشك حين تقرأ فيه كيف يغفل أكثر الناس تعظيمًا للصحابة عن مثل هذا الجواب؟ بل ربما يقعون في انتقاص الصحابي دون أن يقصدوا، كجوابه ﷺ عنهم في قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ هذا غير جوابه ﷺ عن أعيانهم.

وجوب تحسين الظن في الصحابة الذين طعن فيهم المبتدعة كالسيدين معاوية وعمرو رضي الله عنهما:

لا يفوت إمام عظيم مثل مولانا الشعراني في موسوعةٍ علمية منهجية كـ«المنهج المطهّر» التي يقصد من إبرازها تطهير الفؤاد والجسم والعقل من سوء الظن التنبيهُ على أخطر مزلق يجر لسوء الظن في الصحابة ألا وهو سوء الاعتقاد في سيدنا معاوية رضي الله عنه، بل عدَّ الإمام مجرد الوقوع في سيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص رفضًا يجب على العالم أو شيخ الطريق أن يحذر منه، ويسعى في إزالته، ويحكي عن نفسه أنه «قد تردد إليَّ بعض الراوفض الذين كانوا يسبون معاوية وعمرو بن العاص، فلا زلتُ بهم حتى ترضوا عنهما». وأفرد للجواب عن سيدنا معاوية الجواب رقم (١٠٢). هذا غير جوابه عنه في ضمن أجوبة أخرى: (٧٣) (٩٢) (٤٢٠).

الأجوبة عن التابعين:

وهو القسم الثاني من الباب الثالث، فقد خصصه الإمام للجواب عن التابعين وتابعيهم، وغالب الأجوبة إنما هي توجيه وتفسير لبعض أقوالهم المشكلة أو اختياراتهم الفقهية المؤدية لسوء الاعتقاد فيهم أو تجهيلهم.

الباب الرابع: بحر خضم ودر كامن

يتناول الإمام في هذا الباب الجواب عن عموم الناس، والمقصود بعموم الناس هنا من سوى الأنبياء والصحابة والتابعين وتابعيهم، من العلماء والصوفية والفقهاء والأطباء والتجار والأمراء وعوام المسلمين، بل والنصارى واليهود كما تراه في الجواب رقم (١٣٠٧).

نمط جواب الإمام:

يسير الإمام على نمط واحد في حكاية الفعل أو القول محل الجدل، ثم يذكر قول المعترض المنكِر، فيقول مثلًا: ومما أجبتُ به عن العالم - الشيخ ، ولاث الناس به أو أنكر الناس عليه، ثم يسوق اللوث أو الإنكار. وقد لاحظتُ أنه يعبر عن كبار أهل العلم بـ«العلماء»، وعن متوسطهم أو من لم يُعرَف بغير نقل الأقوال الفقهية بـ«الفقهاء» وعن شيوخ التربية بـ«المشايخ»، وعن بقية الصوفية من المريدين أو من لم يبلغ درجة المشيخة أو عوام الصوفية بـ«الصوفي» أو «الفقير».

أما المعترضون فيصفهم بصفة مما يلي: الناس، طلبة العلم، الحاذقون من الفقراء، الصادقون، الفقهاء، الحاذقون، المجادلون، الأقران، جماعة الأقران، العلماء.

ويلاحظ من تنويعه في ذلك أنه ليس كل الاعتراضات المؤدية إلى سوء الظن قد تصدر من أصحاب النفوس الخبيثة، بل قد تصدر من الصادق. كما أن تعبيره بقوله «الناس» يشعر بأن بعض هذه التصرفات يتساوى في سوء الظن بأهلها جميع الناس، بخلاف تعبيره بالحاذقين فهو مشعر بأنه لا يظن الظن السيء في مثل تلك الواقعة المجاب عنها إلا الحاذق الذكي الذي لم يلجم عنان فكره بحسن الظن، وعدم قياس مقاصد العلماء أو المشايخ على مقاصده هو. وإذا علمنا ذلك علمنا أنه حيث عبَّر عن المعترضين بـ«المجادلين» أفاد أن مثل هذا الاعتراض لا يصدر إلا عن مجادل لا يبغي لنصرة الحق سبيلًا.

وقد يكرر الإمام الجواب عن نفس القول أو الفعل بطريقة أخرى، ولذلك أحلنا عند تكرار الجواب بطريقة أخرى إلى الأجوبة الأولى.

مقاصد الكتاب تطهير القلب من سوء الظن لا تصحيح أفعال الفاسدين:

قد يقول قائل: إذا كانت جميع الأفعال التي ظاهرها الفساد لها تأويل كما يذكر الإمام، فقد ارتفع الفساد جملة، بل ولا يكاد يوجد فاسد واحد، وهو خلاف الواقع.

والجواب: أن مقصود الإمام ليس تصحيح فعل الفاسد نفسه، بل مقصوده تطهير القلب من سوء الظن بالخلق، إذ كل فرد مطالب بمناقشة نفسه لا مناقشة غيره، وحينئذٍ فلو لم يكن مقصد أحد المجاب عنهم من الفعل أو القول الذي أنكر عليه نحو ما أجاب به الإمام عنه، فعليه حينئذٍ أن يتوب عن ذلك. ولا أدل علىٰ ذلك من تنبيه الإمام في بعض أجوبته إلىٰ عدم جواز الإنكار إلا بعد معرفة المقصد بسؤال الشخص عنه، أو بتعليمه، فإن أصر علىٰ خطئه، وجب الإنكار عليه بقدر خطئه. ومما يؤيد ذلك أيضًا أن الإمام قد يجيب عن المنكَر عليه في فعله الموهِم، والمنكِر عليه في اعتراضه.

وهناك بعض الأقوال أو الأفعال التي لا يصح تأويلها لمخالفتها القطعي، ومن ذلك الجواب رقم (١١٠٣) حيث أنكر الإمام علىٰ الصوفي صاحب الواقعة ولم يجب عنه.

جحا وأشعب:

من الملفت للنظر جوابه عن جحا وأشعب، وقد كان الجواب عن السيد جحا آخر جواب في الباب الثالث، والجواب عن أشعب أول جواب في الباب الرابع. وهذان الرجلان بالخصوص صارا مادةً للتندر والتفكه، الأول بسذاجته الشديدة، والثاني بما يبدر منه من بوادر أطلقت عليه «أشعب الطماع»، فيرىٰ الإمام أن التندر عليهما سوء ظن لا يليق أن تظنه بمسلم، فضلًا عن كونه من التابعين كالسيد جحا، وأما ما نقل عنهما فسببه صفاء قلب الأول ونقاؤه، حتىٰ يظن أن لا أحد يخدعه. وأما الثاني فلظنه في إخوانه المسلمين الخير والكرم، وأنهم لا يمنعونه من طعامهم.

التصوف السنيُّ نوعان:

نستنبط من أجوبة الإمام عن الصوفية أن التصوف السنيَّ عنده نوعان:

الأول: التصوف الجنيدي، وهو تصوف المجاهدات والذكر وسلوك وسائل السلوك المختلفة باختلاف المشارب. وهذا النوع من التصوف هو الذي يُشترَط في شيخ الطريق فيه الشروط المعروفة عند القوم التي قد يحصل لها بعض التغير حسب المناسب لأحوال الزمان.

الثاني: تصوف الخرقة، وهو تصوف الرسوم وإقامة شعار الذكر والحضرات دون سلوك مجاهدة حقيقية تخلع المرء عن نفسه لترقىٰ به مراقي السلوك وقطع عقبات النفس. وهو غالب ما يكون بين العوام. ولهذا لا يُشترَط في الشيخ في مثل هذا النوع من التصوف الشروط اللازمة للشيخ من النوع السابق؛ لأنه مجرد اجتماع علىٰ الذكر. ومع ذلك لا يخلو أهل هذا النوع من وليٍّ يكون بينهم، بل قد يبلغ الواحد منهم أن يربيه المشايخ في البرزخ، وإن كان هذا نادرًا شديد الندرة.

التكيف مبدأ صوفي متجدد:

يراد بالتكيف تغير طريقة التربية حسب ما يلائم العصر. وقد أشار الإمام لمفهوم التكيف دون المصطلح عند سوقه الفرق بين السلوك عند السلف، والسلوك عند الخلف:

* فالسلوك عند السلف- كما يقول الإمام الشعراني- لم يكن فيه تلمذة مريد علىٰ شيخ واحد والتزام به كما في عصور الخلف، بل كان بمجرد صحبة بعضهم بعضًا، فيُلَقِّحُون بواطن بعضهم بعضًا. أما الخلف فمالوا إلىٰ اختصاص المريد بشيخ واحد، وانحصاره عليه، لما زادت الكثائف والحجب، جمعًا للهمة، ومنعًا للشتات.

* كذلك كان السلوك عند السلف الأوائل بتغليب الخوف، حتىٰ عهد الإمام الجيلانيّ، فرأىٰ المشايخ تغليب الرجاء علىٰ الخوف، لضعف همم الخلف عن همة السلف.

وأما مصطلح «التكيف» نفسه فقد استفدتُه من الشيخ عبد الواحد يحيىٰ، إذ يستخدمه للدلالة علىٰ تغير أشكال التربية والسلوك بحسب كل عصر. وإلىٰ هذا المبدأ يمكن إرجاع كل التغيرات التي طرأت علىٰ أنماط التربية منذ عصر السلف إلىٰ عصرنا الحالي.

ومما يدخل في باب «التكيف» زيارة الأولياء والاستمداد منهم. ومن العجيب أننا صرنا نرىٰ من بعض من يدعي التصوف التهوين من زيارة الأولياء، أو النداء عليهم بالمدد، أو الاستغاثة بهم ونحو ذلك، زعمًا منه أن ذلك كله ليس من أساس التصوف، وإنما هو من مكمِّلاته -إن أحسن التعبير- أو من الدخيل عليه.

والحق أنه بالنظر إلىٰ عمل المشايخ المتأخرين وتسليكهم، نجد أن زيارة الأولياء، والاستمداد منهم جزء لا يتجزأ من ذات السلوك. وقد سُئل شيخُنا محمد نصار ﷺ مرةً عن اهتمام متأخري المشايخ بالزيارات والاستمداد بما لم يكن في أولهم، فقال: لأن استعداد الأوائل كان مناسبًا للتلقي من الأسماء والصفات مباشرة، بخلاف الأواخر، فكان لا بد من الواسطة.

ومما يُحمل أيضًا علىٰ مبدأ التكيُّف قول الإمام زروق: «ارتفعت التربية بالاصطلاح ولم يبق إلا التربية بالهمة والحال» فقوله بالاصطلاح إشارة إلىٰ التربية علىٰ النمط الأول المعهود.

وما زال المشايخ يتعاملون مع كل زمن بمبدأ التكيف، لذا قد يظن الجاهل أو الغافل اختلال شرط من شروط التربية في مشايخ عصره أو طرق زمانه، أو في أنماط التربية وكيفيتها في العصور المتأخرة إذا حاكمهم إلىٰ المدوَّنات السابقة، وهذا خطأ جسيم، لأن كل ذلك وسائل قد يرىٰ مشايخ كل عصر الأخذ بغيرها، تكيفًا مع الزمان واستعدادات أهله. ومن هنا قال ولي الله الدهلوي: «ولم يعلموا أن عناية الحق واحدة في الحقيقة تتلون ألوانًا وتتنوع أنواعًا، بحسب مصلحة الناس... وكان الناس يحكمون بحكم ما تدرجوا في السلوك وبحكم ما رأوا من استعداد الناس».

فالتكيُّف في الطرق الصوفية هو أجلىٰ مظاهر المرونة والتجديد في الدعوة والسلوك، وما التصوف غير جانب عظيم عملي من جوانب المنهج السني القويم. والمرجع الأول والأخير في ذلك للمشايخ المأذونين في كل عصر. ولو تتبعنا تغير بعض الأنماط والأشكال والوسائل في كل عصر عن سابقه، لوجدنا أمثلة متعددة.

مصادر تمويل الزوايا والصوفية:

كانت مصادر تمويل الزوايا الصوفية -كما سنطالع في هذا الكتاب- تعتمد بشكل رئيس علىٰ ثلاثة:

الأول: الأوقاف الخاصة بالزواية.

الثاني: هبات وزراء إستنابول، وعطايا الأمراء المماليك، وكبار موظفي الدولة بمصر.

الثالث: نفقات كبار التجار.

أما تخصيص راتب للمشايخ الذين لا تقع تحت أيديهم زوايا، فكان يتم غالبًا من الجوالي (وهي ما يدفعه أهل الذمة) وكان هذا الأمر يستدعي سفر المشايخ بأنفسهم إلىٰ إستنابول، ليرسم له السلطان راتبًا دائمًا من الجوالي. ونادرًا ما نجد شيخًا صاحب أملاك ينفق منها علىٰ مريديه وزاويته.

وكان المصدر الثاني والثالث وسفرة الجوالي سببًا للوث الناس بمشايخ الوقت حينها ممن يعتمدون علىٰ تلك المصادر. وكان هذا اللوث بالمشايخ يأتي من الداعمين أنفسهم إذا غضب منهم الشيخ، أو لم يبد لهم موافقة أو دعمًا فيما يريدونه؛ إذ الداعم المموِّل أميرًا كان أو تاجرًا، كان يرىٰ لنفسه في كثير من الأحيان الفضل المباشر علىٰ هؤلاء المشايخ وزواياهم، لذلك نرىٰ الإمام الشعراني يؤكد في غير ما موضع أن الفضل للقابل لا للمعطي، وأنه لا ينبغي الإقدام علىٰ هذا الدعم إلا إن رأىٰ الفضل لمشايخ الوقت بقبول هبته.

ويأتي بعد ذلك المنكِر الثاني، وهم عموم الناس ممن لا يفهمون مقصود المشايخ، فيحسبون تقديمهم للأمراء، وتقريبهم للتجار، وقبولهم العطايا منهم، توسلًا إلىٰ نيل الدنيا والجاه، وهو ما نفاه الإمام هنا، موضحًا مقاصد المشايخ كما تراه في غير ما جواب.

لكن الأعجب حين يمر بك إنكار العامة أو مريدي الزاوية علىٰ الشيخ إذا ردَّ عطايا الأمراء! فليوثون به، بحجة أن إطعام الفقراء والنفقة عليهم بأموال أو مكوِّنات هذه

الأعطيات والهبات المردودة أنفع وأجدىٰ!

علاج الهجوم المعاصر علىٰ السنة:

أساس الهجوم المعاصر علىٰ السنة قياس العلماء المعاصرين لعقول ونفوس علماء السلف علىٰ عقول ونفوس أهل عصرهم، فالنقاد الحداثيون «ذاهلون في تطبيقهم لمنهجهم التاريخي عن أنهم يحاولون إسقاط عقليتهم اللاأدرية المتفشية في الدوائر الأكاديمية اليوم علىٰ عقلية المحدِّثين التراثيين وعلماء الحديث، ويظنون أنهم يتناولون موضوع الدين بطريقة معزولة تمكنهم من تزييف أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يعلمون أن مسألة الجحيم والنار كانت عند علماء المسلمين حقائق ملموسة لا فكرًا تجريديًا. وكانت مخافة الله سبحانه وتعالىٰ أقوىٰ من كل ما يستطيع الدارس الحديث أن يتصور. ومن العبث اتهام ناس كهؤلاء بذنب لا يُغتفَر مثل تزييف أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام. وما من شيء أبعد عما يسمَّىٰ علميًّا من إسقاط العقلية الحداثية التي تعد عاهة في تاريخ الإنسان علىٰ زمن عاش فيه الإنسان في عالم الفكر التراثي بحقائق الدين التي صاغت حياته ذاتها»[1].

وهذا القياس للغير علىٰ النفس، أو للسلف علىٰ أهل العصر هو ما يعالجه هذا الكتاب الجليل، إذ إن أساس الاعتراضات الموجهة لأئمة الحديث الشريف سوء الظن والقياس الفاسد وعدم تصور المقاصد الصحيحة.

فلسفة علم الجرح والتعديل:

أبان الإمامُ الشعراني في بعض أجوبته هنا عن بعض وجوه فلسفة الجرح والتعديل عند علماء المسلمين، فإذا كان مبنىٰ كتابه هذا علىٰ إحسان الظن بالمسلمين جميعًا، والتماس المخارج الحسنة لهم، فكيف يُفهَم تجريح علماء الحديث لبعض الرواة. هنا يجيب الإمام ﷺ أنه لما كان القصد من الجرح حفظ الشريعة الإسلامية، كان تجريح

---

(١) سيد حسين نصر، «مثالات الإسلام وحقائقه» (ص٩٨) دار آفاق.

المحدِّث لبعض الرواة أمرًا مطلوبًا، بل يثاب عليه.

وفي بيان أعمق يوضح الإمام الشعراني أن الإثابة قد تنال بعض المجروحين أنفسهم إذا كانوا ليسوا كذلك في نفس الأمر. وهنا ينتقل الإمام لقضية خطيرة، وهي إذا كان هناك احتمال - وهو احتمال متحقق - أن بعض الرواة المجروحين لم يتحقق فيهم شرط جرحهم، بل هم عدول في نفس الأمر، مما يعني أن مروياتهم التي ردها العلماء أحاديث يُعمَل بها، وفي ردها بسبب التجريح منع للعمل بها، فيجيب الإمام أن الفائدة من هذا حصول التخفيف على الأمة، بتضعيف بعض الأحاديث أو ردها بناء على تجريح راويها، وهذا التخفيف هو مراد الشارع: «ذروني ما تركتكم». ومن هنا نستطيع أن نفهم معنى تصحيح الصوفية لبعض الأحاديث كشفًا، كحديث «من عرف نفسه، فقد عرف ربه». ولذا فإن بعض تلك الأحاديث التي يصححها كشف الصوفية يصعب على العامة العمل بها، فوقع التخفيف لهم بردها على وفق قواعد الجرح والتعديل، فلم يكلفوا بها، وأوجد الله طائفة من أوليائه تدرك صحتها، فتعمل بها، فلا يخرج حديث عن العمل به..

الميول الشهوانية المنحرفة:

من القضايا المهمة التي تناولها الإمام قضية التخنث، أو مرض الأبَنَة كما عُرِف في ذلك العصر، أو المثلية (الشذوذ الجنسي) كما في اللغة المعاصرة. وكان الإمام ﷺ يرى أنه مرض كسائر الامراض بسبب اختلال في طبيعة المخنَّث (الشاذ جنسيًا)، فالمصاب بهذا الشذوذ غير آثم ما لم ينجر إلى الممارسة المحرَّمة، فإن وقع في الرذيلة لحقه الإثم، ووجب عليه الحدُّ.

ثم يأخذنا الإمامُ إلى صور من معاملة السلف الصالح، وكبار الأولياء مع المصابين بهذا المرض حيث الاحتواء والتذكير دائمًا بعاقبة الصبر عن الوقوع في المحرَّم، والتعامل معهم كالتعامل مع غيرهم من المرضي بلا نفور أو تنفير، بل كان يصل الأمر ببعض المشايخ إلى استضافة أولئك المخنثين في بيوتهم، وإعانتهم على مجاوزة هذا الأمر، إما

بعلاج طبي، أو بالسلوك. والعلاج الطبي ذكره الإمام الشعراني هنا كما ستراه في الجواب رقم (٩٢٩). وقد كان الإمام نفسه يستضيف أولئك المرضىٰ ويعينهم علىٰ تجاوز مرضهم، واعتبر أن ذلك من الأخلاق التي منَّ الله عليه بها، كما في «لطائف المنن والأخلاق».

المشايخ والأمراء: حل المشكلة

شكلت علاقة الروحي بالزمني (ممثلي الدين بالحكام) جدلًا واسعًا علىٰ مدار التاريخ الإسلامي خاصة في العصور المتأخرة. ويمثل الكتاب الذي بين أيدينا كنزًا فريدًا في علاج هذه القضية. فللمشايخ عند الإمام الشعراني مواقف مختلفة من الحكام حسب اختلاف المشرب والمشهد، غير أنهم يشتركون جميعًا في عدم الانطلاق من الأغراض النفسانية في الاعتراض والسطوة أو في الموافقة والمخالطة، فأهل الطريق منزهون عن مثل ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فنمط تجاوب المشايخ مع الحكام ليس واحدًا، فبعض المشايخ يذهب مذهب العزلة وعدم المخالطة واجتناب الشفاعات عند الحكام، نفورًا من الدخول في دائرة أهل الظلم، - ولا يخلو حاكم بعد الخلافة الراشدة عن ظلم يقع فيه- ولبعض آخر من المشايخ مشهد مختلف، وهم المشايخ الجلاليون خاصة المأذون لهم بالتصرف في الحكام، فأولئك لهم السطوة الكاملة علىٰ الحاكم، وقد يتوجهون إلىٰ الله في عزله أو حبسه أو مرضه إن خالف أمرهم ورد شفاعتهم، ومن أشهرهم سيدي الولي الكامل السلطان الحنفي الشاذلي، وسيدي إبراهيم الجعبري، إلا أن هذه السطوة مشروطة بوجود الإذن الخاص، وليس كما يظن بعض القاصرين من إمكانيتها لكل من بلغ الغاية في الولاية والعلم.

وهذان النمطان ليسا غريبين، ولكنهما كذلك ليسا وحيدين بحيث ينتفي النمط الثالث، وهو مخالطة الحكام والأمراء بالتودد والإعظام، لأجل ما يعود علىٰ الرعية من مصلحة وراء ذلك، كقبول الشفاعة في المظلومين، وتخفيف وطأة الحاكم عليهم، فيخالط أهلُ هذا النمط الحاكمَ، ويجيبون عنه، ويأكلون من طعامهم، ويقلبون هداياهم وأعطياتهم، وفيهم من يستخلص الله له الحلال الصرف من مال الأمير كما يستخلص اللبن من بين الفرث والدم، فلا يقع في إثم الأكل من مال الأمراء الغير الحلال، أو يكون من أصحاب

العلامات الذين يكشف الله لهم حل المال من عدمه طعامًا كان أو أعطية. ومنهم من لا يستخلص الله له الحلال، وليس من أصحاب العلامات، إلا أنه يأكل ويقبل الهدايا والأعطيات، ليميل إليه قلب الأمير فيقبل شفاعته وتوسطه للناس. لكن مع ذلك فإنه يتحمل عن الأمير أو الحاكم آثار بعض مظالمه ديانة وفتوةً، ويؤخذ من حسناته ليوضع في ميزان الأمير. بل إن دواوين الحكام والأمراء لا تخلو من وليٍّ يتظاهر بوظيفةٍ رسميةٍ ليرفع بعض البلاء عن المتهمين لدىٰ الحاكم، كما كان حال سيدي داود بن ماخلا.

وهناك نمط أخير وهم الذين يشاهدون في الأمراء مظهر الكبرياء الإلهي، فأولئك يكون تعظيمهم للحاكم من هذا المشهد، أي لظهوره علىٰ العباد بتجلي صفة الكبرياء، فهو يعظمه من باب تعظيم المظهر. وكان علىٰ هذا القدم سيدي علي الخواص رضي الله عنه كان يقبل أيدي الأمراء من هذا المشهد.

وليس الاختيار بين نمط من هذه الأنماط متروكًا للنفس وما ترجحه بعقلها، وإنما مبناه علىٰ الذوق الصوفي والإذن. ومن هنا فإن المقلد لنمط من هذه الأنماط من غير ذوق أو إذن تنزلق قدمه وينحدر، سواء قلد نمط السطوة، أو نمط التودد، فلا بد من السلوك والتحقق بالمشهد ذوقًا لا تفعلًا.

مساق علاقة الروحي والزمني بين ذوق الشعراني واستقراء رينيه جينو (عبد الواحد يحيىٰ):

من خلال استقراء أجوبة الإمام الشعراني نرىٰ أن مراحل علاقة الأمير بالشيخ -والمراد به هنا الشيخ الولي- تبدأ أولًا بطلب الأمير من الشيخ أن يتوجه بهمته لينال هذا الأمير ولاية أو منصبًا كبيرًا، مع وعد بالإصلاح والشفاعة في المظلومين والرجوع للمشايخ الأولياء فيما يعن له، أي إنه إقرار من السلطة الزمنية بخضوعها للسلطة الروحية خضوعًا مطلقًا، فإذا ما حصلت للأمير الإمارة التي رغب فيها بتوجه الشيخ غالبًا ما يدير ظهره له، ويتمرد علىٰ الخضوع له، فلا ينفذ له أمرًا، ولا يقبل له شفاعة. واستقراء عبد الواحد يحيىٰ موافق لهذا، فـ«هذا الصراع يقع دائمًا بنفس الطريقة، وذلك أننا نرىٰ المحاربين وهم

أصحاب السلطة الزمنية يثورون ضد السلطة الروحية بعد أن كانوا خاضعين لكلمتها، لكنهم ينقلبون عليها ويعلنون استقلالهم عن أي سلطة عليا، بل يسعون إلىٰ أن تكون هذه السلطة تابعة لهم تأتمر بأمرهم، وأن تكون أداة لخدمة سلطتهم، مع أنهم استمدوا سلطتهم منها في بادئ الأمر. وهذا وحده كافٍ لبيان أن مثل هذه الثورة لا بد أن تنطوي علىٰ انقلاب في العلاقات الطبيعية»[1]

صور من الحياة الاجتماعية:

يعطي الكتاب صورًا متنوعة عن الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، كحفلات الختان وحضور المهرجين (خلبوص المغاني) فيها. وككون طبخ الملوخية إشارة للفرح، فكان الناس يمتنعون عن طبخها إن أصاب جارهم مصاب، ويستعيبون من يطبخها في وقت مصاب جاره.

كما يعطينا صورة عن كيفية خروج الحج وترتيب القافلة، بدءًا من تعيين أمير الحاج، وبحث ذلك الأمير عن شيخ يخرج معه تبركًا به ليتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في حماية قافلة الحج من هجوم قطاع الطريق، وتقطير الإبل أي جعلهم في شكل قطار، وأن السفر يكون علىٰ الهودج، أو علىٰ المحفة التي تحمل بين جملين، وكان لا يقدر عليها إلا كبار القوم من الأغنياء والأمراء وكانت دليلًا علىٰ الترف. ويخبرنا أيضًا عن الملاقاة، وهي التمويل الذي يأتي من قلعة الأزلم أو العقبة لبعض أعضاء القافلة تتكون غالبًا من دقيق وبقسماط. وفي أثناء السفر هناك محطات تنزل فيها قافلة الحج لأكل الطعام، وكذلك يعقد الأمير خيام مطابخ، ويرسل منها ما يسمَّىٰ عند المصريين «طَبْلِيَّة» لمن يفضلهم الأمير من أهل القافلة. وأما عند الرجوع للبلد، فأول دخول الحجيج إلىٰ البلد يتفرق تقطير الجمال في عشوائية ملاحَظة، ويأتي المعارف إلىٰ الحاج مهنئين بالحج مع حملهم له بعض العطايا والهدايا، وكذلك الحاج يتحف كل من زاره بهدية.

وأما عن الاصطياف قديمًا، فقد كانت الخلجان المنتشرة في القاهرة مصطاف أهلها، وكانت البيوت التي علىٰ النيل والخلجان تؤجر في الموسم لراغبي الاستجمام والتمتع بنظر

---

(١) رينيه جينو، «الهيئة الروحية والسلطة الزمنية» منشورات رواق البحوث العمية والتحقيق بالأزهر، ص ٣٥.

الخلجان والنيل والمراكب فيها، وكان مالكو هذه المنازل يرفعون أجرتها أيام الموسم.

كما نجد في الكتاب بعض الأمثال التي كانت جارية في هذا العصر كقولهم «العداوة في الأهل، والحسد في الجيران»، «ما عند أهل الجنة خير من أهل النار».

وإلىٰ هنا نمسك عنان القلم عن الجولان في هذه الحدائق الغناء التي لا ينضب معينها، وإلا فما زالت الفوائد والفرائد لم نعرضها بعد، كمتىٰ يصح إنكار الفقهاء علىٰ الصوفية؟ وكيف يكون ذلك الإنكار؟ وهل تكسف شمس معرفة العارف؟ وما أثر ذلك؟ وهل درجة الكمال واحدة لجميع الرجال؟ أم أن الكمال أمر نسبي؟ وكجوابه عن بعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة وابن تيمية والزمخشري والبقاعي، وحديثه عن الأولياء الذين يمدون علماء الأمصار بالعلوم، وما سر نجاح شفاء المريض علىٰ يد طبيب دون آخر؟ ولم كان التجديد للدين كل مئة عام؟ وبم يتحقق التجديد؟ وهل كان كبار الأولياء كالجيلاني والجنيد وأضرابهما مجتهدين مطلقين؟ وما هي العهود التي دست عليه في «البحر المورود»؟ وغير ذلك الكثير والكثير.

ولا يفوتني في الختام أن أتوجه بالشكر إلىٰ فضيلة الدكتور محمد سعد الذي عمل علىٰ تخريج الأحاديث وترجمة الأعلام الواردة في الكتاب.

أسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يحققنا بمقصود هذا الكتاب

من حسن الظن وطهارة القلب والجسم

ببركة مؤلفه العارف العظيم.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم

محمود مرسي حسن

شبرا مصر – القاهرة المحروسة

عصر الخميس ١٤/ جمادىٰ الأولىٰ/ ١٤٤٤هـ

الموافق ٨/ ١٢/ ٢٠٢٢م

منهج التحقيق

١- نسخ النص وتصحيحه.

٢- مقابلة الأصلين.

٣- استكمال السقط إذا لم يوجد في الأصلين من مصادر الإمام كـ«الفتوحات المكية» أو من كتبه الأخرىٰ. وكذلك الحال عند وجود خطأ في الأصلين.

٤- تخريج الأحاديث الشريفة تخريجًا مختصرًا في أول موضع يرد فيه الحديث.

٥- الترجمة للأعلام.

٦- ترقيم الأجوبة.

٧- تفسير الكلمات الغامضة.

٨- وضع عناوين للفقرات داخل الأجوبة.

٩- التصحيح اللغوي لبعض الكلمات إلا ما غلب علىٰ الظن أنها محكية عن العوام فتركناها كما هي.

١٠- الإحالة في علىٰ رقم الأجوبة التي يشير إليها الإمام عند سوقه لأجوبة أخرىٰ.





تحقيق اسم الكتاب

ورد هذا الكتاب باسم «المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد» علىٰ صفحة عنوان المخطوطين. وفي خاتمة الكتاب أسماه الإمام: «طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد».

وقد ذكر المليجي في رسالته: «السر الرباني» عدة كتب تدور في فلك العنوان والموضوع نفسه:

١- «طهارة أجسام الموحدين من سوء الظن بأحد من المسلمين».

٢- وكتاب «المنهج المطهر للقلب والفؤاد من سوء الظن بأحدٍ من العباد».

٣- وكتاب «طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالسعداء من العباد».

٤- كتاب «الأجوبة عن الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين».

٥- «طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالله تعالىٰ وبالعباد».

٦- وكتاب «مختصر طهارة الجسم والفؤاد»، وهو علىٰ النصف منه.

٧- وكتاب «طهارة لسان المؤمن وفؤاده من سوء الظن بالله تعالىٰ وبعباده».

٨- وكتاب «طهارة الجسم والجنان من سوء الظن بالله والملائكة والجان».

والغالب أنها كتب مختلفة في نفس الموضوع إلا أن الإمام كتبها علىٰ مستويات مختلفة.

وقد اخترنا لعنوان الكتاب الجمع بين ما ثبت علىٰ صفحة عنوان المخطوطين وبين ما ذكره الإمام في خاتمة الكتاب، خاصة أن أحد المخطوطين كُتِبَ لحفيد الإمام الشعراني الشيخ الشيخ شرف الدين يحيىٰ الشعراني.

وصف المخطوطات

١- نسخة شهيد علي باشا. ورقمها بالمكتبة ١٤٩٠، وتقع في ٣٧٥ لوحة. كتبت في سنة ١٠٣٣ هجرية لحفيد المؤلف وشيخ السجادة الشعرانية في وقته الشيخ شرف الدين يحيىٰ بن عبد الرحمن بن سيدي عبد الوهاب الشعراني ﷺ. وناسخها أحمد خادم الأبواب الشعرانية، هكذا دون اسمه. وجاء العنوان علىٰ الصفحة السابقة علىٰ صفحة العنوان: طهارة الجسم والفؤاد في المواعظ والنصائح. ثم جاء اسم الكتاب علىٰ صفحة الغلاف: المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد ، كما في النسخة الأخرىٰ. وقد كتبت بخط نسخي واضح وجميل كالنسخة الأخرىٰ. ومسطرة هذه النسخة ٣٥ سطرًا. ورمزنا لها بالرمز «أ».

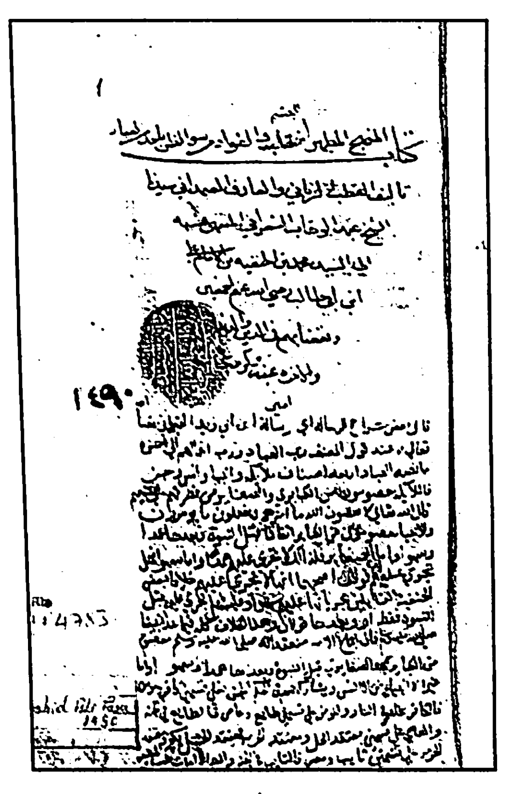
٢- نسخة مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة، وأصلها بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، ورقمها ١٦٢/ ٢١٧. وجاء العنوان عليها: المنهج المطهر للجسم والفؤاد من سوء الظن بأحد من العباد. وقد سبقت صفحة الغلاف إضافة فهرس كامل للكتاب في صورة جدول. وهي نسخة ثمينة جدًا مذهبة الحواف. وتقع في ٣٢٩ لوحة. وناسخها الشيخ محمد النجاحي سنة ١١١١ هجرية. ومسطرتها ٣٥ كالنسخة الأخرىٰ. ورمزنا لها بالرمز «ب».

ومن الواضح أن بين النسختين نسبًا، وأنهما مأخوذتان عن أصل واحد، إذ يتوافقان أحيانًا في السقط، كما توافقا في الخطأ في عد الأبواب كما أشرنا إليه في المقدمة.

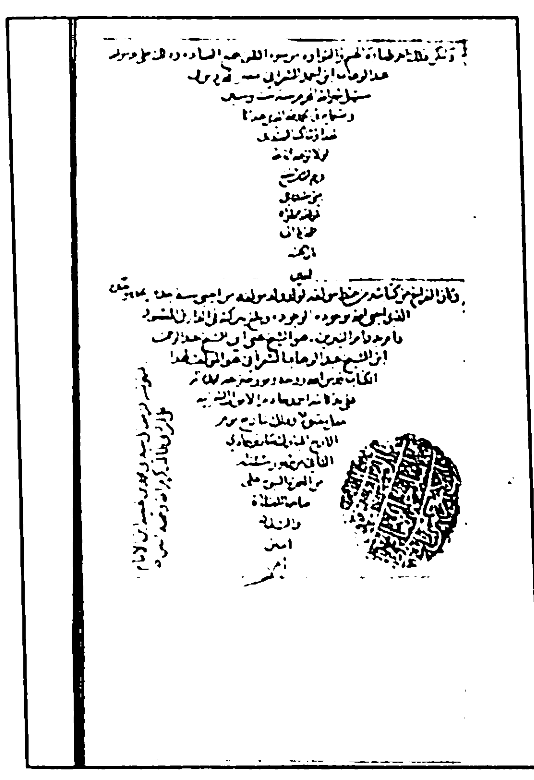


صور المخطوطات

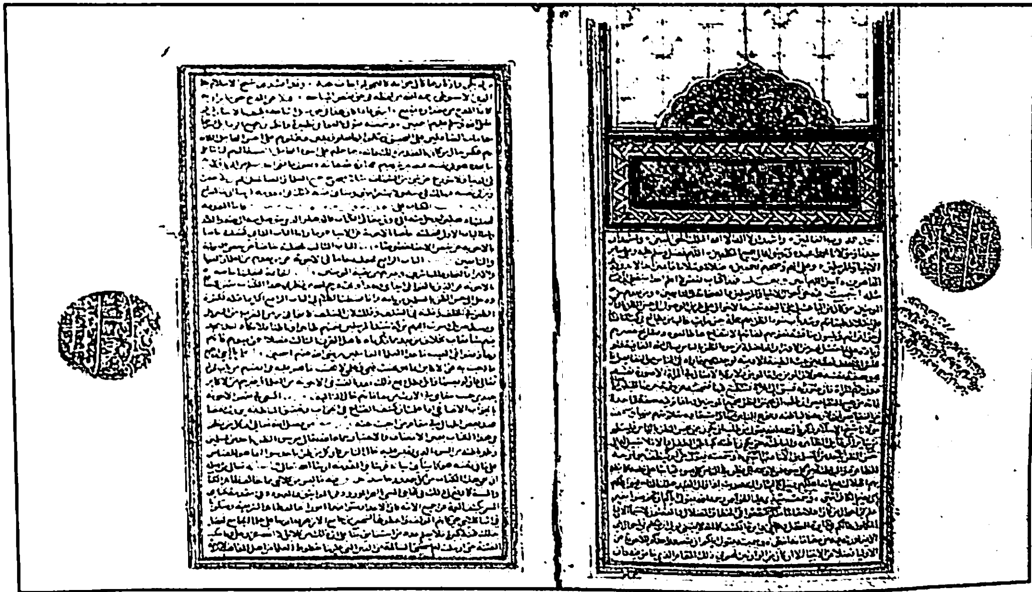
النسخة (أ)



صفحة العنوان

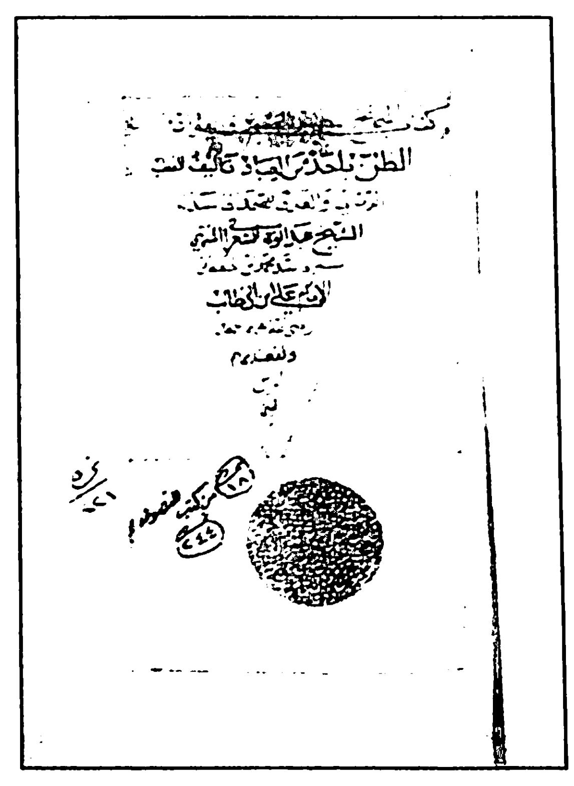


الصفحة الأخيرة



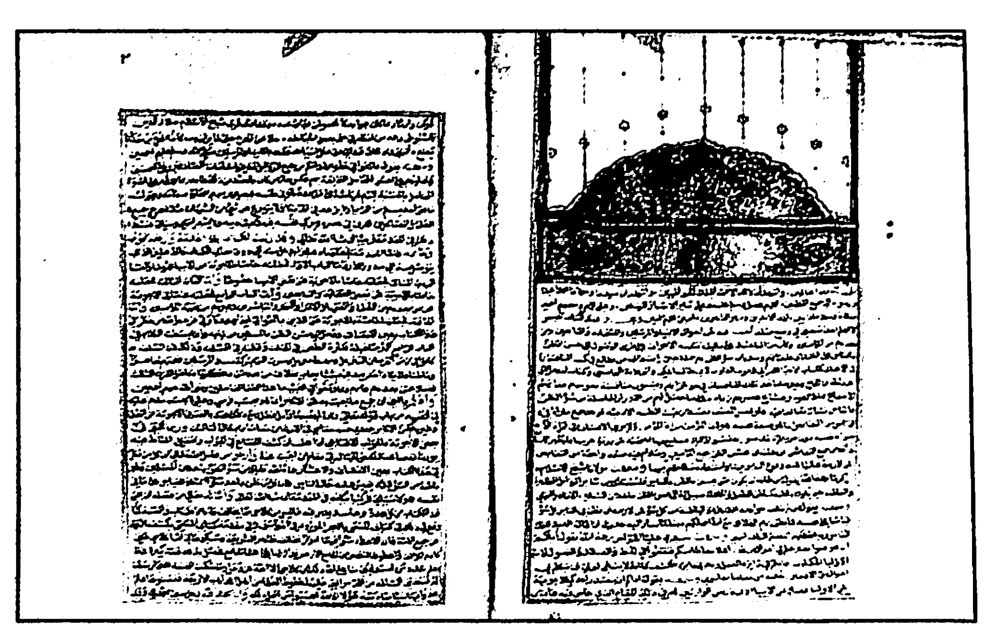
الصفحة الأولى

النسخة (ب)



صفحة العنوان

الصفحة الأخيرة



الصفحة الأولى

صورة من فهرست النسخة (ب)

صورة أخرىٰ من فهرست (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله إلىٰ جميع المكلفين، اللهم فصلِّ وسلم عليه وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آلهم وصحبهم أجمعين، صلاةً وسلامًا دائمين، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، آمين اللهم آمين.

وبعد:

فهذا كتاب نفيس، لا أعلم أحدًا سبقني إلىٰ وضع مثله، أجبت فيه عن أحوال الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، ومن بعدهم من المؤمنين. وكان من الباعث لي علىٰ تأليفه تنبيهُ الإخوان علىٰ طريق الوصول إلىٰ حسن الظن بالناس علىٰ اختلاف طبقاتهم، وسدُّ باب سوء الظن بهم جملةً، حين رأيتُ غالب من يطالع في كتب المناقشات في الأعمال ككتاب «الإحياء» للغزالي[١]، و«قوت القلوب» لأبي طالب المكي[٢]، و«الرعاية» للمحاسبي[٣]، وكتاب «المدخل» لأبي عبد الله بن الحاج[٤] وغيرها، يأخذ

(١) محمد بن محمد بن محمد الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الطوسىٰ الشافعي ولد سنة ٤٥٠ هـ بطوس، له مصنفات منها: «إحياء علوم الدين»، «الوسيط»، «تهافت الفلاسفة»، «الاقتصاد في الاعتقاد». توفي: ٥٠٥هـ. طبقات الشافعية (٦/ ١٩١)، الأعلام (٧/ ٢٢).

(٢) أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي ثم المكّي. نشأ بمكة، وتزهد، وسلك، ولقي الصوفية، وصنّف، ووعظ، وكان صاحب رياضة ومجاهدة، من مؤلفاته: «قوت القلوب»، «علم القلوب»، وغيرهما، توفي ببغداد سنة: ٣٨٦هـ. شذرات الذهب (٤/ ٤٦٠) ووفيات الأعيان (٤/ ٣٠٣).

(٣) الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله: من أكابر الصوفية. كان عالمًا بالأصول والمعاملات، واعظًا مُبكيًا، ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد. له مصنفات منها: «آداب النفوس» «الرعاية لحقوق الله عزوجل» «رسالة المسترشدين» وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره توفي: ٢٤٣هـ. الأعلام (٢/ ١٥٣)، معجم المؤلفين (٣/ ١٧٤).

(٤) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي، المعروف بابن الحاج، كان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك سمع بالمغرب من بعض شيوخه. وقدم القاهرة وسمع بها الحديث وحدث بها، وهو مشهور بالزهد والخير والصلاح، من مصنفاته: «المدخل»، توفي بالقاهرة سنة ٧٢٧ هـ. شجرة النور الزكية (١/ ٣١٣) والديباج المذهب (٢/ ٣٢١).

تلك المناقشات في حقِّ أقرانهم، وينسون مناقشة نفوسهم، ففاتهم الانتفاع بمن ضعوه وبمشايخ عصرهم، زيادةً على ما حصل لهم من الأوزار الحاصلة من سوء الظن بالناس. نسأل الله العافية.

فلو فتَّش المنصِف نفسه من حيثُ الطينةُ الآدميةُ لوجد جميع ما رآه في الناس من النقائص إنما هو صفة نفسه هو، لأن المؤمن مرآة المؤمن، ولا يرى الإنسان في المرآة إلا صورة نفسه دون جرم المرآة، فإن صورته تسبق إلى المرآة فتنطبع فيها، فتحجبه عن رؤية جرمها، فليطهر الإنسان ذاته من جميع النقائص إن طلب أن يحسن الظن بجميع المؤمنين، وما دام فيه صفة واحدة من النقائص، فمِن لازمه غالبًا ظنه وقوع الناس فيها واستبعاده سلامتهم منها.

وسمعت مولانا شيخ الإسلام زكريا[1] ﵀ يقول: من طلب أن يكون ممن يحسن الظن بالناس، فليتطهر من سائر الرذائل الظاهرة والباطنة حتى يكون باطنه كباطن الطفل الصغير، وإلا فلا سبيل له إلى حسن الظن بأحد من المسلمين إلا نادرًا. انتهى.

وسمعته يقول: من لم ينظف جوارحه الظاهرة والباطنة من كل سوء، فمِن لازمه أن يظن في الناس كلَّ سوء قياسًا على نفسه، كما يظن بهم الهلاك، مع أنه أهلكُهم دينًا، كما أشار إليه حديث «إذا قال العبد: هلك الناس؛ فهو أهلكُهم»[2] أي بضم الكاف. انتهى.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص[3] ﵀ يقول: إياكم أن تخوضوا بغير علم في أحوال من

---

(١) شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري المصري الشافعي، قاض مفسر، من حفاظ الحديث، ولد (٨٢٣هـ) وتعلم في القاهرة وكُف بصره سنة ٩٠٦ هـ نشأ فقيرًا معدمًا، له مصنفات منها: «فتح الرحمن» في التفسير و«شرح إيساغوجي» في المنطق و«أسنى المطالب في شرح روض الطالب» في الفقه الشافعي و«شرح شذور الذهب» في النحو. توفي: ٩٢٦هـ ودفن قريبًا من الإمام الشافعي. الأعلام (٣/ ٤٦) والكواكب السائرة (١/ ١٩٨) هدية العارفين (١/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٣)، وأبو داود (٤٩٨٣) وأحمد (٧٦٨٥) بلفظ: إذا قال الرجل.

(٣) سيدي علي الخواص البرلسي، أحد العارفين بالله، وأستاذ الشيخ عبد الوهاب الشعراني الذي أكثر اعتماده في مؤلفاته على كلامه وطريقه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك كان يتكلم على الكتاب،

كان أعلىٰ مقامًا منكم، فتقعوا في الخطأ والضلال والفضول، لاسيما الأولياء المكمَّلون، فإنكم في دائرة العقل وهم في دائرة الكشف، كما أنه لا ينبغي لولي أن يتكلم في أحوال نبي إلا فيما ورثه فيه من مقاماته. انتهىٰ.

وسمعته يقول: إياكم أن يتصدر أحدُكم للأجوبة عن الأولياء فضلًا عن الأنبياء إلا إن كان من الوارثين لهم في ذلك المقام الذي خاض فيه، فإن من لم يكن وارثًا ربما كان جوابه كالهجو لمن أجاب عنه.

وقد أنشدني شيخ الإسلام جلال الدين السيوطي[1] رحمه الله من لفظه في حق بعض أشياخه:

علا عن المدح حتىٰ ما يـزان به　　　كأنما الـمدح في مـقـداره يصنع

انتهىٰ.

فإذا كان هذا في حق مثل أشياخه، فكيف بالأنبياء والمرسلين صلىٰ الله عليهم أجمعين؟!

وسمعته يقول: بالغوا في تطهير ذواتكم من جميع الرذائل، لتعرفوا مقامات الصادقين علىٰ التحقيق، [وتتكلموا فيها بعلم ويقين][2] وتحملوهم علىٰ أحسن المحامل اللائقة بهم، عكس حال من كان بالضد من ذلك، فإنه ربما حملهم علىٰ أسوأ المحامل بالنسبة إليهم، قياسًا علىٰ ما يجده هو في نفسه، فيصير يرميهم بحجارة صفاته ويقول: ما بقي أحد يسلم من الرياء، ولا يزهد في الدنيا، ولا يتورع عن شيء من الشبهات مثلًا، فيخرِج جميعَ العلماء والصالحين الذين في عصره، ويزكي نفسه، فيهلك في دينه ولا يشعر. انتهىٰ.

والسنة، وأحوال القوم ومقاماتهم بكلام نفيس عال، كان يذعن لكلامه جماعة من علماء مصر الشيخ شهاب الدين ابن السبكي، والشيخ شهاب الدين الرملي وغيرهما، ت سنة ٩٩٣ هـ. الكواكب السائرة (٢/ ٢١٩).

(١) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، ولد مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ. ونشأ في القاهرة يتيمًا، وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه رجالًا وغريبًا ومتنًا وسندًا واستنباطًا للأحكام منه، وأخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها «الإتقان في علوم القرآن»، «تدريب الراوي»، «جمع الجوامع» وغيرها. ت ٩١١ هـ. شذرات الذهب (١٠/ ٧٤)، الأعلام (٣/ ٣٠١).

(٢) ساقط من «ب».

وسيأتي بسط ذلك في المقدمة قريبًا إن شاء الله تعالىٰ.

وقد رتَّبتُ الكتاب علىٰ مقدمة وأربعة أبواب[1] وخاتمة.

فأما المقدمة، فجعلتُها دهليزًا يُدخَل منه إلىٰ ذوق معاني الكتاب، كالدهليز الذي يُتوصَّل منه إلىٰ صدر الدار.

وأما الباب الأول، فجعلتُه خاصًا بالأجوبة عن الأنبياء عمومًا.

وأما الباب الثاني، فجعلتُه خاصًا بالأجوبة عن بعض الأنبياء خصوصًا.

وأما الباب الثالث، فجعلتُه خاصًا بالأجوبة عن بعض الصحابة والتابعين.

وأما الباب الرابع، فجعلتُه عامًّا في الأجوبة عمن بعدهم من العلماء والفقهاء والأمراء والتجار والمباشرين وغيرهم من بقية المؤمنين[2].

وأما الخاتمة، فجعلتُها خاصةً بالأجوبة عن الذين بالغوا في إيذائي وعداوتي.

فرحم الله من نظر في هذا الكتاب بعين الإنصاف، ودخل إلىٰ حسن الظن بالمسلمين من بابه.

وإنما بَسطت الكلامَ في الباب الرابع أكثر مما قبله، لكثرة الطعن في الخلف، وقِلته في السلف، وذلك لأن السلف كانوا في زمن القرب من التنزيل، ومهبط جبريل، وسرت إليهم بركةُ سيِّد المرسلين، فعمَّتْهم ظاهرًا وباطنًا، فلا يكاد أحد يجد فيهم شيئًا يُعاب، بخلاف من بعدهم ممن ذكرناه، كأهل القرن الثالث، فضلًا عمن بعدهم، فإنهم ربما وقعوا في العيب، ماعدا العلماء العاملين رضي الله عنهم أجمعين.

واعلم يا أخي أن جميع ما أجبتُ به عن الأكابر إنما هو بحسب فهمي وعلمي، لا

---

(١) لم يلتزم الإمام بتقسيم الكتاب علىٰ أربعة أبواب، بل بلغ عددها (١٣) بابًا، غير أنه أسقط منها في العد الخامس والسادس، فبلغت جملة الأبواب فعليًّا أحد عشر بابًا. مع العلم أن الأجوبة من بداية الباب الرابع في نوع واحد وهو الجواب عن عموم الناس.

(٢) وزاد الإمام علىٰ ذلك بأن أجاب عن بعض غير المسلمين من النصارىٰ واليهود، كما سيطالع القارئ الكريم في الجواب رقم (١٣٠٧).

بحسب ما هم عليه في أنفسهم، من باب قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ومع ذلك فقد بالغتُ في الأجوبة عن العلماء وغيرهم من الأكابر جَهْدي حسب مقامي في الإرث من مقاماتهم حالَ التأليف.

وربما أكتفي في بعض الأجوبة بالجواب الإقناعي[1] إذا علمت أن كشف القناع في الجواب وتحقيق المناط فيه يورث نقصًا عند بعض الجهال في مقام من أجبت عنه!

وأرجو من فضل الله تعالىٰ أن كل من نظر في هذا الكتاب بعين الإنصاف والاعتبار حماه الله تعالىٰ من سوء الظن بأحد من المسلمين، وطهَّر باطنه من السوء الذي يقيس عليه حالَ الناس، فإن كل من ظن بأحد سوءًا إنما هو للقياس علىٰ ما في نفسه هو، كما سيأتي قريبًا بيانه في المقدمة إن شاء الله تعالىٰ.

وأسأله تعالىٰ من فضله أن يحمي هذا الكتاب من كل عدو وحاسد يدس فيه ما ليس من كلامي مما يخالف ظاهر الكتاب والسنة، كما وقع لي ذلك في كتابي المسمَّىٰ بـ«البحر المورود في المواثيق والعهود» وفي مقدمة كتابي المسمَّىٰ بـ«كشف الغمة عن جمع الأمة» فإن الأعداء دسُّوا فيهما أمورًا تخالف ظاهر الشريعة، وسكبوها في أثناء كلامي حتىٰ كأنهم المؤلِّف، وأعطوها لشخص من الجامع الأزهر، فدار بها علىٰ علماء الجامع، فحصل بذلك فتنة كبيرة، فلا يعلم عددَ من استغابني بناءً علىٰ أن ذلك من كلامي إلا اللهُ عزَّ وجلَّ. وما سكتت الفتنةُ حتىٰ أرسلتُ لهم نسختي السالمةَ من الدس التي عليها خطوطُ العلماءِ من أهل المذاهب الأربعة، ففتشوها فلم يجدوا فيها شيئًا مما دسه هؤلاء الأعداءُ، فسبُّوا من فعل ذلك.

وأنا بحمد الله رجلٌ سنيٌّ محمديٌّ، وقد قرأتُ كتب الشريعة وآلاتها من فقه وحديث وتفسير، ونحو وأصول، ومعاني وبيان وعقائد علىٰ أئمة الشريعة قبل أن أؤلف الكتب، فلا يكاد يخفىٰ عليَّ شيءٌ مما دسوه أنه مخالفٌ لأهل السنة والجماعة، فكيف أضعه في مؤلَّفي؟!

---

(١) أي الذي لا يحتاج إلىٰ تحقيق البراهين والأدلة، بل يُكتفىٰ فيه بالقدر الذي يقنع السامع؛ ولهذا سمي إقناعي.

وقد أخبرني الشيخ الصالحُ العلامةُ الشيخُ شهابُ الدين ابن الشِّلْبي الحنفيُّ[1] أنهم دسوا على الإمام مصطفى القرماني[2] في شرحه لمقدمة أبي الليث السمرقندي[3] قولهم عند قول المؤلِّف: (ولا يستقبل الشمس والقمر): أي لأن الخليل عليه الصلاة والسلام كان يعبدهما؛ فأفتى علماء مصر بكفره وقتله، فخرج هاربًا في الليل، فلم يرجع إلى مصر. انتهى.

واعلم يا أخي أني من تلك الواقعة ما ألفتُ كتابًا ولا نصيحة إلا وتعرضتُ في ذلك لذكر ما دسه الأعداء في كتبي، لأزيلَ ما بقي في نفوس بعض المتهورين من إضافة تلك الأمور المدسوسة إليَّ، مع أنهم لم يجالسوني ولا خالطوني ولا فاوضوني في علم ولا سمعوه مني، ولا بلغهم ذلك على لسان من يوثق به.

فأسأل الله تعالى أن يسامح الداسَّ والمصدِّق في ذلك، وجميعَ من استغابني بقصد التشفي للنفس، أو بقصد نصرة الشريعة. آمين اللهم آمين.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن غالب مؤلفاتي لا يكاد أحد يعرف موادها، ولا محل استنباطها من الكتاب والسنة وكلام الأئمة، فهو فتح من الله تعالى بحسب الوارد في ذلك الوقت. وإن قدر أني ذكرتُ فيها كلامًا لغيري، فإنما ذلك على وجه الاستشهاد لصحة كلامي، فإني لا أحبُّ أن أنفردَ بقول في العلم لا يوافقني الإخوان عليه وإن كان حقًّا في نفس الأمر. ومن شك في قولي هذا فلينظر إلى كتبي التي ألفتُها في الأخلاق والآداب

(١) شهاب الدين المصري الحنفي، المعروف بابن الشِّلْبي، كان عالمًا كريم النفس، كثير الصدقة على الفقراء والمساكين، وله اعتقاد في الصالحين والمجاذيب، ذا حياء وعلم وعفو. ت ٩٤٧هـ وكانت جنازته حافلة بالأمراء والعلماء والتجار وغيرهم، ودفن في حارة باب النصر. الكواكب السائرة (٢/ ١١٦) شذرات الذهب (١٠/ ٣٨٢).

(٢) مصطفى بن زكريا بن أيدغمش القرماني، مصلح الدين من فقهاء الحنفية، من أهل القاهرة، له تصانيف، منها: «التوضيح في شرح مقدمة الصلاة» لأبي الليث السمرقندي ورسالة في «حكم اللعب بالنرد والشطرنج» ت ٨٠٩هـ. الأعلام (٧/ ٢٣٤)، الضوء اللامع (١٠/ ١٦٠)

(٣) أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي الإمام الفقيه المحدث الزاهد، الملقب بإمام الهدى، من مؤلفاته: «تفسير القرآن»، «بستان العارفين»، «تنبيه الغافلين»، ت ٣٧٣هـ. السير (١٦/ ٣٢٢)، الأعلام (٨/ ٢٧).

ككتابي المسمَّىٰ بـ«العهود المحمدية» أو المسمَّىٰ بـ«البحر المورود» أو المسمىٰ بـ«الميزان الخضرية في عقائد أكابر الصوفية» أو «الميزان الخضرية المدخلة لجميع أقوال أئمة المذاهب ومقلديهم في الشريعة المحمدية» وغيرها من كتبي، **فإن فائدة تأليف الكتب إنما هو ذكر ما يفتح الله به علىٰ قلوب المؤلِّفين مما لم يذكره أحد قبله. وأما ذكر مقالات الناس وجمعها فغايته أنه سواد في بياض.**

وقد بلغنا أن الشيخ أبا مدين[1]، والشيخ أبا الحسن الشاذلي[2]، والشيخ أبا العباس المرسي[3] وأتباعهم لم يضعوا شيئًا من الكتب، وقالوا: كتب الإنسان إنما هي قلوب أصحابه. وكانوا يقولون لأصحابهم إذا نقلوا لهم كلامًا لغيرهم ممن مضىٰ: لا تطعمونا القديد، أي لا تنقلوا إلينا إلا ما فتح الله تعالىٰ به علىٰ قلوبكم من الأسرار في هذا الزمان، لنستفيده منكم، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

ولنشرع بعون الملك الوهاب في مقدمة الكتاب، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي الزاهد شيخ أهل المغرب، سكن تلمسان، وكان كبير الصوفية والعارفين في عصره، من أهل العمل والاجتهاد منقطع القرين في العبادة والنسك، كان آخر كلامه الله الحي ثم فاضت نفسه، ت ٥٩٠هـ وقد قارب الثمانين، وقبره بها مشهور. الوافي بالوفيات (١٦/ ٩٥) شذرات الذهب (٦/ ٤٩٥).

(٢) أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار المغربي رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، وصاحب الأوراد المسماة «حزب الشاذلي» ولد في بلاد «غمارة» بريف المغرب، تفقه وتصوف بتونس، وسكن «شاذلة» قرب تونس، ورحل إلىٰ بلاد المشرق فحجّ ودخل بالعراق، ثم سكن الإسكندرية. ت ٦٥٦هـ بصحراء عيذاب في طريقه إلىٰ الحج. الوافي بالوفيات (٢١/ ١٤١)، الأعلام (٤/ ٣٠٥).

(٣) أبو العباس المرسي أحمد بن عمر الأنصاري العارف الشهير، قطب زمانه ورأس أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وعلامة أوانه في العلوم الإسلامية، وله القدم الراسخ في علم التحقيق، وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه، ت ٦٨٦هـ بالإسكندرية. حسن المحاضرة (١/ ٥٢٣) ذيل مرآة الزمان (٤/ ٣١٨).

مقدمة

في ذكر أمور هي كالدهليز للتخلق بحسن الظن بجميع عباد الله المؤمنين وللتخلق بعدم المبادرة إلى الإنكار

[كيفية التخلق بحسن الظن]

اعلم يا أخي أنه لا يصح لعبد من أمثالنا التخلُّق بحسن الظن بعباد الله تعالىٰ إلا بأحد شيئين: إما بالجذبات الإلهية، وإما بالسلوك علىٰ يد شيخ صادق، بحيث يُملِّكُه قيادَ نفسه ويحكِّمُه فيها، حتىٰ يطهِّرَه من سائر الرعونات النفسانية، والرذائل البشرية، ولا يبقىٰ في باطنه قيامُ غلٍّ ولا حقد ولا مكر ولا حسد ولا خداع مذموم، ولا شيء يكرهه الله تعالىٰ جملةً واحدةً، حتىٰ لو أن جميع ما في سريرته برز للناس لفرح به واستبشر، ولم يخجل ولم يتكدر، فإنه حينئذٍ لا يصير يظنُّ في الناس إلا خيرًا قياسًا علىٰ حاله هو، حتىٰ لو أراد أن يسيء الظن بأحد من الخلق لما اهتدىٰ إلىٰ ذلك.

وما دام في باطنِ العبد أو ظاهرِه خصلةٌ واحدةٌ مذمومةٌ، فمِن لازمه سوءُ الظن بالناس في تلك الخصلة، ولعلَّ جميعَ أعمال العبد الخالصة لا يرضىٰ بها يوم القيامة واحدٌ من أخصامه الذين أساء بهم الظن ولو مرة واحدة، لاسيما إن كان المظنون به السوء من اللئام الذين لا يغفرون زلَّة ولا يسترون عورة. فإذا كان هذا في سوء الظن بواحد من الناس فقط، فكيف بمن أساء الظن بخلائق لا تُحصَىٰ؟! فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم.

واعلم يا أخي أن كلَّ من فتح علىٰ نفسه بابَ سوء الظن بالناس، كثُرت أخصامه يوم القيامة، وربما فنيت حسناته التي يُوفىٰ منها الخصوم، ثم وضعوا عليه من سيئاتهم، وقُذِف به في النار كما ورد[1].

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطىٰ هذا

ومن المعلوم أن أعمالَ أمثالِنا لا يكادُ يتحصَّل لنا منه شيء يصل إلىٰ الدار الآخرة، لكثرة ما يدخلها من الآفات المحبِطة لها، فيا طول تعب أحدنا! ويا خسارتنا في يوم تطيش فيه الموازين بالذرة الواحدة!

فالعاقل من عمل علىٰ سد باب سوء الظن بالخلق جملة واحدة، ليبقىٰ له بعض حسنات تستره بين الناس في الدار الآخرة. ولا يتهاون في العمل علىٰ سدِّ هذا الباب إلا كلُّ من ليس عنده كمالُ إيمان بيوم الحساب.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من فتح علىٰ نفسه بابَ سوء الظن بالناس، هتك الحقُّ تعالىٰ سريرته، وفضحه بها في الدنيا والآخرة. انتهىٰ. فبابٌ يحصل عليك يا أخي من فتحه ما ذكرنا، يجب علىٰ كل عاقل غلقُه بإجماع كل عاقل.

[أكل الحلال من الأمور المعينة على حسن الظن]

ثم من الأمور المعينة لك يا أخي علىٰ حسن الظن بالله تعالىٰ وبعباده أكلُ الحلال، فقد أجمعوا علىٰ أن كل من أكلَ الحرامَ أظلمَ قلبُه ولو كان من أكابر الأولياء. وإذا أظلم علىٰ العبد قلبُه، وقع في المعاصي، وصار لا يفرِّق بين طريق الحق والباطل. وربما اغتر بعد ذلك بكثرة حلم الله تعالىٰ عليه، وعدم معاجلته بالعقوبة مع إسباغ النعم عليه، حتىٰ غرق في الخطايا وصار يقول: ما ثَمَّ أحد من الأمة الآن يسلم من أكل الحرام، ولا من الوقوع في المعاصي؛ قياسًا علىٰ حاله هو، حتىٰ لو أراد أن يحسِنَ ظنه بأحد من الأولياء، فضلًا عن غيرهم، لما قدر علىٰ ذلك، بل يزِن الناسَ كلَّهم بميزان عقله الجائر، ونظره القاصر، وجلَّ مقامُ الأولياء والأكابر من العلماء عمَّا ظنَّه هذا الجاهلُ فيهم، بل سمعتُ بعضَهم يقول: إن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر؛ فلذلك أفردتُ للأنبياء بابًا كما مرت الإشارةُ إليه في الخُطبة، وأجبتُ عنهم فيه بحسب مقامي في الإرث لهم حالَ

من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضىٰ ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» والترمذي (٢٤١٨).

كتابتي للجواب عنهم. فمن وجد عن الأنبياء أو أكابر الأولياء والعلماء جوابًا أحسنَ من جوابي، فليلحقه بذلك الموضع من هذا الكتاب[١] رجاءَ الأجر والثواب، وقيامًا بواجب حقِّ الأنبياء والأولياء والصالحين.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: سمعت سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله[٢] يقول: قد أجمع القومُ كلُّهم على أن جميع أعمال العبد وأقواله وعقائده وخواطره لا تكون إلا على صورة اللقمة حِلًّا وشبهةً، نورًا وظلمة، فمن أكل الحلال الخالص كانت أعمالُه كلُّها خالصةً سالمةً من جميع الآفات التي تحبطها أو تنقص أجرها. ومن أكل الحرام والشبهة كانت أفعالُه وأقوالُه وعقائدُه وخواطرُه كلُّها كذلك مذمومةً من كبائر وصغائر ومكروهات، وخلاف الأولى، على حسب المادة التي تقوَّى بها العبدُ على ذلك الفعل، فلو أراد الذي يأكل حلالًا خالصًا أن يعصي ربه لما وجد عنده داعية لذلك، ولو أراد من يأكل الحرام أو الشبهة أن يطيع ربه طاعةً خالصةً لما وجد عنده كذلك داعية للفعل. قال: ومن شك في قولي هذا، فليمتحن نفسه عند أكله الحلالَ والحرامَ والشبهاتِ، فهناك يعرف صدق قولي يقينًا. انتهى.

وسمعتُ سيدي محمد المُنيِّر رحمه الله[٣] يقول: الأعمالُ الصالحةُ الصرفُ تنشأ من أكل الحلال الصرف، والأعمالُ الحرامُ الصرفُ تنشأ من أكل الحرام الصرف، والأعمالُ التي

---

(١) أي في هامش الكتاب لا في المتن نفسه، كما أفاده غير واحد.

(٢) برهان الدين إبراهيم بن علي بن عمر الأنصاري المتبولي ثم القاهري الأحمدي، قدم من بلده متبول من الغربية إلى طنطا فأقام بضريحها مدة ثم تحول إلى القاهرة ونزل بظاهر الحسينية فكان يدير بها مزرعة ويباشر بنفسه العمل فيها من عزق وتحويل وغير ذلك من مصالحها، وكانت شفاعته عند السلطان والأمراء لا ترد. ت ٨٧٧هـ. الضوء اللامع (١/ ٨٥)، الأعلام (١/ ٥٢).

(٣) شمس الدين أبو عبد الله المنير البلبيسي الأصل الخانكي، أحد أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي، كان يحفظ كتاب الروضة للنووي على ظهر قلب، ومكث في بدايته ثلاثين سنة، يقرأ في النهار ختمة، وفي الليل ختمة كل يوم وليلة، وكان يحج كل سنة، ويرد إلى مصر، ويقيم بها شهرًا، ثم يزور بيت المقدس، توفي ٩٣١هـ. الكواكب السائرة (١/ ٩٥) الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ١١٤).

دخلَها التخليطُ تنشأ من أكل الشبهات، فلا يكاد يسلم لمن يأكل الشبهاتِ عملٌ صالحٌ أبدًا، بل أعماله كلها مخلوطة بالرياء والنفاق والكبر والإعجاب، وحب الصيت والشهرة بالصلاح، ونحو ذلك على قدْر ما في تلك اللقمة من الحلال والحرام، والحكم في ذلك للأغلب حِلًّا وحرمة، فإن كان الحرام غالبًا كان الرياء والنفاق ونحوهما غالبًا، شاء العبد أم أبىٰ. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول مرارًا: الجسد يتلون بلون القلب، والقلب يتلون بحسب اللقمة، ومن قال غير ذلك فليس عنده تحقيق.

وسمعتُ سيدي محمد بن عنان رحمه الله[1] يقول: الأعمال تابعة لنور القلب أو ظلمته الناشئين من نور تلك الطُّعْمة أو ظلمتها من حيثُ الحِلُّ والحرمةُ، فصاحب النور لا يفعل إلا صالحًا، ولا يظن بالناس إلا خيرًا، وصاحب الظلمة بالعكس. انتهىٰ.

فكل يا أخي حلالًا إن طلبتَ أن تكون حسنَ الظنِّ بعباد الله، واسأل الله تعالىٰ أن يفتحَ عين بصيرتك للتورع في اللقمة وغيرها لينوِّرَ قلبك، وبالغ في التورع جَهْدَك، كما كان عليه سلفك الطاهر، فقد بلغنا أن أحدهم كان لا يأكل لأحد طعامًا إلا إن علم تداول عشرة أيدي عليه في الحِلِّ قبل صاحب ذلك الطعام.

وبلغنا أن أحدهم كان لا يأكل لمن يُعتقَد فيه الصلاحُ طعامًا، لأن هذا إنما سمح له بطعامه لأجل صلاحه، وهو لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون صالحًا في باطن الأمر كما ظنَّه صاحبُ الطعام، فهذا قد أكل بصلاحه طعامًا؛ وإما أن يكون علىٰ خلاف ما ظنَّه صاحبُ الطعام فيه، فهذا قد أكل حرامًا بالنصب والحيل والتلبيس.

وبلغنا أن أحدهم كان له أرض ورثها من آبائه، وكانت من إقطاع النبي ﷺ لجده الأعلىٰ، وكان يحرث فيها ويزرع ويأكل منها، فاشتغل يومًا عن ملاحظة بقرته التي يرعاها فيها، فخرجت إلىٰ طين جاره، ورجعت وفي قوائمها طين من طين جاره، فتكدر لذلك وصار يبكي

---

(١) محمد بن عنان رضي الله عنه، كان رضي الله عنه من الزهاد العباد، وكان علىٰ قدم في العبادة، والصيام، وقيام الليل من حين البلوغ، وكان يضرب به المثل في قيام الليل، وفي العفة، والصيانة، ولما بلغ خبره إلىٰ الشيخ كمال الدين إمام جامع الكاملية سافر إلىٰ بلاد الشرقية بقصد رؤيته فقط. توفي ٩٢٢هـ. الطبقات الكبرىٰ للشعراني (٢/ ١٠٣).

إلىٰ أن مات ويقول: كيف آكل من هذه الأرض بعد أن اختلط فيها شيء من طين جاري؟!

وبلغ من ورع السلف أن أحدهم استعار من أمِّه رداء ليخرج به [إلىٰ] السوق. فحضرت الصلاةُ، فصلَّىٰ فيه فأعاد تلك الصلاة، وقال: كيف يقبل الله صلاتي وعليَّ رداءٌ لم أستأذن صاحبتَه أن أصلي فيه؟!

وبلغني من ورعهم أن أحدهم كان يصطاد السمك من الدِّجْلة ويأكل منه، فنفض جندي يومًا سفرته في الدجلة، فأكل السمك من ذلك اللباب، فما أكل للدِّجلة سمكًا حتىٰ مات. كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «تنبيه المغترين».

وكان طريقُ وصولي إلىٰ حسن الظن بالمسلمين حتىٰ ألفت هذا الكتاب شدةَ تحرزي من أكل الحرام والشبهات، حتىٰ إنني صرتُ لا آكل طعام قاضٍ ولا مباشر ولا تاجر يبيع علىٰ الظلمة وأعوانهم، ولا طعام فقير ليس له حرفة يأكل منها، لأنه ربما أكل بدينه وصار ما عنده من الطعام إنما هو مما يرسله الناس إليه لأجل دينه وصلاحه. وكذلك كنتُ لا آكل طعامَ الأعراس الواسعة، ولا طعام النذور، ولا طعام تمام الشهر والجمع للأموات، ولا من طعام أحد يمسك الميزان من قباني[1] وغيره إلا إن وثقت بدينه وورعه.

وبالغتُ في التورع حتىٰ كنتُ لا أمرُّ تحت ظل عمارة أحد من الولاة وأعوانهم. ولما عمل السلطان الغوري[2] الساباط[3] الذي علىٰ مدرسته وقبته الزرقاء[4]، تكدَّرتُ غاية

---

(١) القباني: من يقوم بوزن الكميات الكبيرة من السلع.

(٢) السلطان الملك الأشرف أبو النّصر قانصوه بن عبد الله الجركسي، المشهور بالغوري وسمّاه ابن طولون جندب، وجعل قانصوه لقبا له. والغوري نسبة إلىٰ طبقة الغور أحد الطبقات التي كانت بمصر معدة لتعليم المؤدبين. كان يذكر أن مولده في حدود (٨٥٠هـ). ومهد طريق الحجّ بحيث كان يسافر فيه النّفر اليسير، وكانت فيه خصال حسنة، وكان يصرف لمطبخ الجامع الأزهر في رمضان ستمئة وسبعين دينارًا، ومائة قنطار عسل، وخمسمئة إردب قمح للخبز المفرق فيه. ت٩٢٢هـ. انظر: شذرات الذهب (١٠/ ١٥٩)، الأعلام (٣/ ٢٣٣).

(٣) وهي المظلة الخشبية المعلقة بين جامع السلطان الغوري ومدرسته بقيت حتىٰ سنة ١٨٨٢م ـ ثم أعيد بناؤها.

(٤) كانت القبة مكسوة بقاشاني أزرق، إلا أنها لم تلبث كثيرًا حتىٰ ظهر بها خلل جسيم سنة (٩١٧هـ) فأمر السلطان الغوري بهدمها وإعادة بنائها وكسوتها، ولم يمض عامان علىٰ إعادة البناء حتىٰ عاد إليها الخلل سنة

التكدير، وكنتُ إذا أردتُ حاجةً في ناحية باب زويلة[١]، أدخل من سوق الوراقين وأخرج من الباب الذي وراء ذلك الساباط.

فاعلم ذلك يا أخي، واسْعَ في تنظيف طعامك من الشبهات، ولا تتهور في ذلك، فإنك تصير من أحباب الله، وربما أراحك الحقُّ تعالىٰ من تعب التفتيش في الورع إذا صدقتَ معه تعالىٰ في ذلك، واستخلَص لك الحلالَ من بين فرث الحرام ودم الشبهة بحوله وقدرته، كما يستخلِص لعباده اللبن من بين فرث ودم، فإن من لم يستخلِص الحقُّ تعالىٰ له الحلالَ كما ذكرنا، فيا طول تعبه وأكله من الحرام والشبهات! ويا كثرة وقوعه في سوء الظن بالعباد!

[دقيقة في التورع الجارِّ لسوء الظن]

ثم إن هنا[٢] دقيقة ينبغي التفطن لها، وهو أن في ضمن التورع بالعلامات المتوهَمة سوءَ الظنِّ بصاحب ذلك الطعام مثلًا، فإن المتورِّع لو أحسن به الظن ما تورع عن أكل طعامه. وهذا هو ورع غالب الناس ليوم القيامة، فما ربح هذا المتورع بتركه الأكل لذلك الطعام ربما خسره بسوء ظنه بصاحبه، وربما رجح إثم سوء الظن المذكور علىٰ ثواب ذلك التورع، فلا خلاص للعبد إلا باستخلاص الحق تعالىٰ له الحلال [لا][٣] غير ذلك[٤].

(٩١٩هـ) فأمر بهدمها مرة أخرىٰ وإعادة بنائها وكسوتها، ثم هدمت القبة وأبدلت بقبة خشبية سنة ١٨٨١م، ثم هدمت وحل محلها السقف الخشبي الحالي.

(١) أحد أبواب مصر القديمة، وهو معروف مشهور بالقاهرة، ويقع في ناحية سوق الغورية.

(٢) بالأصلين: هذه.

(٣) زيادة من عندنا اقتضاها السياق.

(٤) ورد في «لطائف المنن» لسيدي ابن عطاء الله السكندري: «وأخبرني الشيخ العارف ياقوت: قال: عزم عليَّ إنسان فقدَّم لي طعامًا، فرأيتُ عليه ظلمة كالمكب، فقلتُ في نفسي: هذا حرام، فامتنعتُ من أكله، ثم دخلتُ علىٰ الشيخ أبي العباس ﷺ، فقال أول ما جلست: ومن جهلة المريدين من يُقدَّم له طعام فيرىٰ عليه

فاعمل يا أخي على رضا الله عزَّ وجلَّ يُعْطِك معرفة الحلال والحرام بالرؤية أو بالذوق أو الشم، ويُغْنِك عن جميع العلامات المتوهَمة، كما عليه أهلُ الله عزَّ وجلَّ. فيجد أحدُهم الحلالَ طيبَ الرائحة، والحرامَ مُنْتِنًا كالجيفة، فيأكل أو يترك، فالعاقل من تنبه لهذه الدقيقة إن أراد السلامةَ من الإثم في تورعه.

[فائدة أخرى لأكل الحلال]

وسمعتُ سيدي محمد بن داود رحمه الله[1] يقول: من فوائد أكل الحلال إجابةُ دعاء العبد لنفسه ولإخوانه في الشدائد. وإن من يأكل الحرام لا يستحقُ إجابةَ الحقِّ تعالىٰ دعاءَه. وقد روىٰ الطبراني عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: «يا رسول الله، ادع الله تعالىٰ أن يجعلني مجاب الدعوة. فقال: يا سعد أطب مطعمك تكن مجاب الدعوة»[2]. انتهىٰ.

فيجب علىٰ كل من صار ملجأً للناس في قضاء حوائجهم عند الله تعالىٰ، أو عند أحد من الخلق أن يحتمي عن أكل الحرام والشبهات، ليجيبَ الحقُّ تعالىٰ دعاءَه للناس في إزالة كربهم، ويفوز بحسن ظنه الخير في جميع الناس كما جُرِّب.

وليحذر من خوف عاقبة حسن الظن بكل الناس عملًا بظاهر حديث: «احترسوا من

ظلمة، فيقول: هذا حرام، يا مسكين ما يساوي ورعك سوء ظنك في أخيك المسلم، هلا قلت هذا طعام لم يردني الله به» [الأعمال الكاملة، ابن عطاء الله (ص ٤٥٧)، دار الإحسان].

(١) محمد بن داود النسيمي المنزلاوي، الشيخ الصالح أحد المتمسكين بالسنة المحمدية في أقوالهم وأفعالهم. ألف رسالة سماها «طريقة الفقر المحمدي» ضبط فيها أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله التي ظهرت لأمته، وكان يقول: ليس لنا شيخ إلا رسول الله ﷺ وكان يضرب به المثل بمصر، وبسيدي محمد بن عنان، والشيخ يوسف الحديدي في اتباع السنة. توفي:٩٠١هـ ببلدة النسيمية، ودفن بجوار زاويته وقبره بها ظاهر يزار رحمه الله. الكواكب السائرة (١/ ٤٦) و شذرات الذهب (١٠/ ١٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٩٥).

الناس بسوء الظن»[(١)]، وبحديث: «من الحزم سوء الظن»[(٢)] فإنه ليس مراد الشارع بذلك الحث علىٰ إساءتنا الظن بالناس؛ لأن ذلك شرع لم يأذن به الله تعالىٰ، وإنما المراد: عاملوا الناس وأنتم علىٰ حذر منهم، كمعاملة من يسيء بهم الظن، مع عدم سوء الظن بهم.

فاعلم ذلك يا أخي، واعمل عليه تجنِ ثمرته، فإن الله تعالىٰ لا يعاتب عبدًا في الآخرة علىٰ حسن ظنه بعباده أبدًا، وإنما يعاتبه علىٰ إساءته الظن بهم[(٣)]. وفي الحديث: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي خيرًا»[(٤)]، فانظر يا أخي كيف أمرنا الحق تعالىٰ بأن يكون ظننا به الخير دون الشر، ليقتدي به عباده في ظنهم الخير ببعضهم بعضًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إياكم وسوء الظن بالله تعالىٰ أو بأحد من عباده، فتجنوا ثمرةَ ذلك من وقوع عذاب الله تعالىٰ بكم في الآخرة. وسمعتُه يقول: من ظنَّ بالله تعالىٰ عند موته أنه لا يعذبه في قبره، ولا يشدد عليه الحساب، ولا يخسِر له الميزان، ويثبت قدميه علىٰ الصراط حتىٰ يجاوزه إلىٰ الجنة، فعل له ذلك. ومن ظنَّ به الضدَّ من ذلك فربما فعل معه ذلك. انتهىٰ.

فرحم الله من أتىٰ إلىٰ حسن الظن بالله وبعباده من بابه الذي ذكرناه، عملًا بقوله تعالىٰ

---

(١) أخرجه مرفوعًا الطبراني في «الأوسط» (٥٩٨)، وابن أبي الدنيا في «مدارة الناس» (١١٣)، ورواه من قول مطرف بن الشخير أحمد في «الزهد» (١٣٥٤)، والبيهقي في «السنن» (٢٠٤١٦)، وذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص٦٥ من عدة طرق وقال: وكلها ضعيفة، وبعضها يتقوىٰ ببعض. قلت: وظاهره يوهم التعارض مع قوله تعالىٰ وقد أجاب العجلوني في «كشف الخفا» (١/ ٥٥) بقوله: يجاب بحمل الحديث «احترسوا» ونحوه علىٰ أهل التهمة ونحوهم، والآية ونحوها علىٰ خلافهم.

(٢)أخرجه ابن أبي الدنيا في «مدارة الناس» مرفوعًا (١١٤)، وأخرجه موقوفًا علىٰ عمر ﵁ ابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ٨٠١).

(٣) وكان بشر الحافي يقول: «صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، وصحبة الأخيار تورث حسن الظن بالأشرار، وإن الله عز وجل لا يسأل قط عبدًا في الآخرة لم حسنت ظنك بعبادي» [انظر ترجمته في «الطبقات الوسطىٰ» ترجمة رقم (١٤٢)، دار الإحسان].

(٤) أخرجه البخاري بنحوه (٦٩٧٠) ومسلم (٢٦٧٥).

من طريق الإشارة: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وسلك طريق القوم على يد أشياخ الطريق، حتى ينظفوا باطنه من سائر الرذائل، وسعى في سد باب سوء الظن بالله تعالى وبعباده جملةً، لتسلم له أعماله الصالحة إلى الدار الآخرة، ويحصل له أجرُها لا سيما أعمال أمثالنا، فإن مثلها لو وُضِعَ في كفة، ووُضِعَ سوء الظن في الكفة الأخرى، لربما رجح عليها إثم سوء ذلك الظن، كما سيأتي بسطُه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي[1] إذا أخذ على من يريد [الطريق] العهد بالتوبة يقول له: وعليك يا ولدي بحفظ قلبك ولسانك. واعلم أنه لا يصح لك الإخلاصُ في شيء من أعمالك الصالحة، وأنت متلطخ بشيء يكرهه الله عزَّ وجلَّ في ظاهرك أو باطنك. وما لم تنظف باطنك من سائر المذمومات الشرعية حتى تصير في مقام لا يخطر الميل إلى الفحشاء على خاطرك، كما لا يخطر على قلب الشيخ الفاني الميل إلى الشرب من ثدي أمه، فأعمالك كلها محتفَّة بالآفات المحبطة لها، وربما لم يصل لك من أعمالك الصالحة عندك شيء إلى الدار الآخرة. انتهى، وسيأتي بسط ذلك قريبًا إن شاء الله تعالى.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول: كلُّ من أساء الظن بأحد من المسلمين أو غيرهم فكأنه ينادي على نفسه على رؤوس الأشهاد: ألا اشهدوا على أن ذلك هو صفة باطني.

وكان يقول: أكثرُ الناس ظنًّا للسوء أهلُ السوء، وأعرفُهم بالآفات أكثرُهم آفات، إلا أن يكون أحدُهم من مشايخ الطريق، فإن مشايخ الطريق إنما يعرفون آفاتِ المريدين من طريق الإلهام غالبًا، لا من صفات أنفسهم، لتطهرهم من الآفات بالمجاهدات. انتهى. فعُلم أن غالبَ من ينصح إخوانَه من المريدين، لا ينصحُهم إلا بما ذاقه في نفسه من الآفات.

---

(١) نور الدين علي بن خليل المرصفي الشافعي العالم الصالح المربي، كان ملازمًا للذكر والعبادة والتواضع والخير، ومن الأئمة الراسخين في العلم، له المؤلفات النافعة في الطريق، واختصر رسالة القشيري ﷺ، وتكلم على مشكلاتها، ت سنة نيف وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته بقنطرة الأمير حسين بمصر، وقبره بها ظاهر يزار ﷺ. الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ١١١)، الأعلام (٤/ ٢٨٦).

وكان محمد بن عبد الله التميمي رحمه الله[1] يقول: لا يعيب أحدٌ علىٰ الناس إلا بفضل ما عنده من العيب، إلا أن يكون نبيًّا يُوحىٰ إليه، أو وليًّا مُلْهَمًا. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إياكم أن تحملوا شيخكم إذا بيَّن لكم عيوبكم علىٰ أنه ما اهتدىٰ لذلك إلا بذوقه لها في نفسه قبل ذلك، فإنه سوء أدب لا يليق بالمريدين، إنما الواجب علىٰ المريد أن يعتقد في شيخه الكمال والتطهير من سائر الأدناس، وأن جميع ما ينصحه به من الأمور إنما يعرفها من طريق الإلهام لمكان صدق المريد.

وكان الإمام النووي رحمه الله[2] يقول: يجب علىٰ طالب العلم أن لا يبادر إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من إخوانه إلا بعد حمله علىٰ سبعين محمَلًا من الخير. فإن لم يقبل باطنُه من تلك المحامل محملًا، وطلب السلامة من الإنكار، فليرجع علىٰ نفسه باللوم وليقل لها: يحتمِل فعلُ أخيك أو قولُه سبعين محملًا ولا تحملينه علىٰ واحد منها! أنت إذًا والله أسوأ حالًا من أخيك! ونحو ذلك في مقدمات «شرح المهذب».

وقد أنشد بعضهم في ذلك:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم

وعادىٰ محبيه بقول عداته ... وأصبح في بحر من الشك مظلم

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إن أردت يا أخي أن تسلم من سوء ظنك بالناس، وتسلم لك أعمالك الصالحة من الآفات، فاسلك طريق القوم علىٰ يد شيخ صادق، ليخرجَك بالتدريج من ظلمات المعاصي إلىٰ نور الطاعات، حتىٰ لا يصير في باطنك شيء من الأدناس، وهناك تصير تحسن الظن بالناس ضرورةً، قياسًا علىٰ حالك

---

(١) محمد بن عبد الله التميمي، أبو مخلد البصري. ذكره البخاري في «تاريخه» وذكره ابن حبان في «الثقات» روىٰ عن ثابت البناني وأيوب السختياني وعلي بن يزيد بن جدعان ويزيد الرقاشي. «تهذيب التهذيب» (٩/ ٢٨٦).

(٢) أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي الإمام الحافظ المؤرّخ الفقيه، ولد سنة ٦٣١هـ ونشأ نشأة صالحة، حفظ القرآن صغيرًا، وكان كثير العبادة والذكر والصيام، من مصنفاته: «روضة الطالبين»، «المجموع»، «الأذكار» وغيرها، ت ٦٧٦هـ. شذرات الذهب (١/ ٥٥)، الأعلام (٨/ ١٤٩).

من طريق الإشارة: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وسلك طريق القوم على يد أشياخ الطريق، حتىٰ ينظفوا باطنه من سائر الرذائل، وسعىٰ في سد باب سوء الظن بالله تعالىٰ وبعباده جملةً، لتسلم له أعماله الصالحة إلىٰ الدار الآخرة، ويحصل له أجرُها لا سيما أعمال أمثالنا، فإن مثلها لو وُضِعَ في كفة، ووُضِعَ سوء الظن في الكفة الأخرىٰ لربما رجح عليها إثم سوء ذلك الظن، كما سيأتي بسطُه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي[1] إذا أخذ علىٰ من يريد [الطريق] العهد بالتوبة يقول له: وعليك يا ولدي بحفظ قلبك ولسانك. واعلم أنه لا يصح لك الإخلاصُ في شيء من أعمالك الصالحة، وأنت متلطخ بشيء يكرهه الله عزَّ وجلَّ في ظاهرك أو باطنك. وما لم تنظف باطنك من سائر المذمومات الشرعية حتىٰ تصير في مقام لا يخطر الميل إلىٰ الفحشاء علىٰ خاطرك، كما لا يخطر علىٰ قلب الشيخ الفاني الميل إلىٰ الشرب من ثدي أمه، فأعمالك كلها محتفَّة بالآفات المحبطة لها، وربما لم يصل لك من أعمالك الصالحة عندك شيء إلىٰ الدار الآخرة. انتهىٰ، وسيأتي بسط ذلك قريبًا إن شاء الله تعالىٰ.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالىٰ يقول: كلُّ من أساء الظن بأحد من المسلمين أو غيرهم فكأنه ينادي علىٰ نفسه علىٰ رؤوس الأشهاد: ألا اشهدوا علىٰ أن ذلك هو صفة باطني.

وكان يقول: أكثرُ الناس ظنًّا للسوء أهلُ السوء، وأعرفُهم بالآفات أكثرُهم آفات، إلا أن يكون أحدُهم من مشايخ الطريق، فإن مشايخ الطريق إنما يعرفون آفاتِ المريدين من طريق الإلهام غالبًا، لا من صفات أنفسهم، لتطهرهم من الآفات بالمجاهدات. انتهىٰ. فعُلم أن غالبَ من ينصح إخوانَه من المريدين، لا ينصحُهم إلا بما ذاقه في نفسه من الآفات.

---

(١) نور الدين علي بن خليل المرصفي الشافعي العالم الصالح المربي، كان ملازمًا للذكر والعبادة والتواضع والخير، ومن الأئمة الراسخين في العلم، له المؤلفات النافعة في الطريق، واختصر رسالة القشيري ﷺ، وتكلم علىٰ مشكلاتها، ت سنة نيف وثلاثين وتسعمائة، ودفن بزاويته بقنطرة الأمير حسين بمصر، وقبره بها ظاهر يزار ﷺ. الطبقات الكبرىٰ للشعراني (٢/ ١١١)، الأعلام (٤/ ٢٨٦).

وكان محمد بن عبد الله التميمي ﵀[1] يقول: لا يعيب أحدٌ على الناس إلا بفضل ما عنده من العيب، إلا أن يكون نبيًّا يُوحىٰ إليه، أو وليًّا مُلْهَمًا. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵁ يقول: إياكم أن تحملوا شيخكم إذا بيَّن لكم عيوبكم علىٰ أنه ما اهتدىٰ لذلك إلا بذوقه لها في نفسه قبل ذلك، فإنه سوء أدب لا يليق بالمريدين، إنما الواجب علىٰ المريد أن يعتقد في شيخه الكمال والتطهير من سائر الأدناس، وأن جميع ما ينصحه به من الأمور إنما يعرفها من طريق الإلهام لمكان صدق المريد.

وكان الإمام النووي ﵀[2] يقول: يجب علىٰ طالب العلم أن لا يبادر إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من إخوانه إلا بعد حمله علىٰ سبعين محمَلًا من الخير. فإن لم يقبل باطنُه من تلك المحامل محملًا، وطلب السلامة من الإنكار، فليرجع علىٰ نفسه باللوم وليقل لها: يحتمِل فعلُ أخيك أو قولُه سبعين محملًا ولا تحملينه علىٰ واحد منها! أنت إذًا والله أسوأ حالًا من أخيك! ونحو ذلك في مقدمات «شرح المهذب».

وقد أنشد بعضهم في ذلك:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم
وعادىٰ محبيه بقول عداته ... وأصبح في بحر من الشك مظلم

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵁ يقول: إن أردت يا أخي أن تسلم من سوء ظنك بالناس، وتسلم لك أعمالك الصالحة من الآفات، فاسلك طريق القوم علىٰ يد شيخ صادق، ليخرجَك بالتدريج من ظلمات المعاصي إلىٰ نور الطاعات، حتىٰ لا يصير في باطنك شيء من الأدناس، وهناك تصير تحسن الظن بالناس ضرورةً، قياسًا علىٰ حالك

---

(١) محمد بن عبد الله التميمي، أبو مخلد البصري. ذكره البخاري في «تاريخه» وذكره ابن حبان في «الثقات» روىٰ عن ثابت البناني وأيوب السختياني وعلي بن يزيد بن جدعان ويزيد الرقاشي. «تهذيب التهذيب» (٩/ ٢٨٦).

(٢) أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي الإمام الحافظ المؤرّخ الفقيه، ولد سنة ٦٣١هـ ونشأ نشأة صالحة، حفظ القرآن صغيرًا، وكان كثير العبادة والذكر والصيام، من مصنفاته: «روضة الطالبين»، «المجموع»، «الأذكار» وغيرها، ت ٦٧٦هـ. شذرات الذهب (١/ ٥٥)، الأعلام (٨/ ١٤٩).

أنت، ولا تكاد تصدق أن أحدًا منهم يقع في معصية فيما بينه وبين الله تعالىٰ. انتهىٰ.

[التحذير من طلب التخلص من الآفات من الكتب دون السلوك على شيخ]

فإياك أن تطلب الوصول إلىٰ مقام حسن الظن بالله تعالىٰ وبعباده بمطالعة شيء من كتب المتصوفة كـ«الإحياء» للإمام الغزالي، و«القوت» لأبي طالب المكي، و«رسالة القشيري» ونحو ذلك من كتب الرقائق، فإننا ما رأينا أحدًا قط بلغ مقامات الرجال بمطالعة كتاب. وأيضًا فإن بينك وبين أصحاب هذه الكتب من الزمان نحو خمسمئة سنة، ومعلوم أن الأمراض التي بنا الآن لم تكن في زمانهم حتىٰ يعلمونا طريق الشفاء منها، وإنما وضعوا ما في كتبهم دواءً لأمراض أهل عصرهم، وأين المقام من المقام؟! بل سمعتُ بعضَهم يقول: إن فسقة ذلك الزمان كانوا أحسن من كثير من المريدين الآن!

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من أراد الدخول إلىٰ مقام حسن الظن بالناس، فلا ينظر في كتاب «المدخل» لأبي عبد الله بن الحاج رحمه الله، فربما سبق فهمُ من ينظر فيه إلىٰ أخذ تلك المناقشات التي فيه في حق غيره وينسىٰ نفسه، فيهلك بسوء ظنه في سائر المسلمين من علماء وصلحاء، ومعتكفين وصائمين، وحاجين ومجاهدين، وطباخين وغيرهم من سائر المسلمين. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول: إياكم أن تبادروا إلىٰ الإنكار علىٰ أحد في فعل يحتمل التأويل، لأن المبادرة لا تجب إلا في المعاصي المحقَّقة كشرب الخمر والغصب. انتهىٰ.

وقد نهيتُ مرةً شخصًا من طلبة العلم عن مطالعة كتاب «المدخل» فحذرتُه من وقوعه في سوء الظن بالعباد والزهاد والعلماء والصالحين وغيرهم، فلم يُصْغِ إلىٰ قولي وطالع فيه، فأورثه ذلك الوسوسةَ في المآكل والمشارب والملابس، وصار لا يأكل شيئًا أو يلبسه إلا بعد أن يغسله سبعًا إحداهن بتراب، أو يغسل فمه منه كذلك، وصار لا يصلي خلف أحد في الصلوات الخمس ولا غيرها، نسأل الله العافية.

وسبب ذلك أنه صار يطالع الكتاب ويجعل تلك المناقشات التي جعلها الشيخ في

كتابه في حق غيره وينسىٰ نفسه، وغاب عنه أن الشيخ رحمه الله إنما قصد أن كل من طالع فيه يأخذ تلك المناقشات في حق نفسه، ويسعىٰ في إزالة ما عنده من العيوب والنقائص والدسائس علىٰ يد أحد من العلماء العاملين، لا أنه يشتغل بعيوب الناس وينسىٰ عيب نفسه، ويصير يزدري العلماء والصالحين.

وقد نقل الشيخ محيي الدين الكافيجي الحنفي رحمه الله[1] عن علماء الحنفية: من ازدرىٰ عالـمًا يُخشَىٰ عليه الكفر. وكان الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه[2] يقول: كل من ازدرىٰ أحدًا من العلماء والصالحين ضُرِبَ بسهم مسموم في قلبه، ولم يمت حتىٰ تفسد عقيدتُه في الله تعالىٰ ورسوله، فلا يصير يرجو من الله تعالىٰ مغفرةً ولا من رسول الله شفاعةً، فيجني ثمرة ذلك في الدنيا والآخرة، بموت القلب في الدنيا، والعذاب في الآخرة. انتهىٰ.

وقد روىٰ الطبراني وغيره أن الصحابي الذي قتل إنسانًا في الجهاد بعد أن قال: لا إله إلا الله، وقال: إنه إنما قالها متعوذًا بها لا إيمانًا، لما مات لم تقبله -أي ذلك القائل- الأرض وأنهم دفنوه ثلاث مرات والأرض تقذفه، فأعلموا بذلك رسول الله ﷺ، فأمر بوضعه في غار وأن يسدُّوا الغار عليه، وقال: «سبحان الله! إن الأرض لتقبل من هو شر من هذا، ولكن أخرجه الله تعالىٰ لكم لتعتبروا»[3] الحديث بمعناه، فانظر يا أخي عقوبة سوء الظن، فإن هذا القائل لو كان أحسن الظن بمن قال له: لا إله إلا الله، لم يُعاقَب بعدم قبول الأرض له، والله تعالىٰ أعلم.

---

(١) أبو عبد الله محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد الكافيجي الحنفي، ولد سنة ٧٨٨هـ، واشتغل بالعلم أول ما بلغ، وكان الشيخ رحمه الله صحيح العقيدة في الديانات، حسن الاعتقاد في الصوفية، محبًا لأهل الحديث من مصنفاته: «شرح قواعد الإعراب»، «حاشية علىٰ تفسير البيضاوي». توفي ليلة الجمعة رابع جمادىٰ الأولىٰ سنة ٨٧٩هـ. بغية الوعاة (١/ ١١٧)، ديوان الإسلام (٤/ ٦٤).

(٢) الشيخ عبد الله القرشي كان رضي الله عنه جليل القدر، وكان يعظم الفقراء أشد التعظيم، ويقول: إنهم انتسبوا إلىٰ الله تعالىٰ، وكان رضي الله عنه يقول: ما رأينا أحدًا قط أنكر علىٰ الفقراء، وأساء بهم الظن إلا ومات علىٰ أسوأ حالة. وأخباره كثيرة مشهورة رضي الله عنه. انظر: الطبقات الكبرىٰ للشعراني (١/ ١٣٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٦٢) وابن ماجه (٣٩٣٠)، وأحمد (١٩٩٣٧).

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: مثال من يطالع كتاب «المدخل» أو ربع المهلكات من كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي، ويأخذ تلك المناقشات في حق غيره دون نفسه، مثال واعظ وقف على شفير بحر النيل أيام زيادته والجروف تنهدم شيئًا بعد شيء. وجعل ظهره للبحر ووجهه للناس، وصار يقول للناس: إياكم أن تقربوا من الجرف ينهدم بكم، فما درى إلا وقد انهدم به جرفه قبل الناس. انتهى.

وسمعتُ أخي أفضل الدين[١] رحمه الله يقول: من أكل الحرام، كثرت خصومه يوم القيامة. فقلت له: لماذا؟! فقال: لأن قلبه يظلم فيصير مِقْرَاضًا في العلماء والصالحين وأهل الخير والموحدين لا يعجبه حال أحد منهم، حتى يصيروا[٢] كلُّهم أخصامه يوم القيامة. وسمعتُه يقول: إذا أكل الحرام مُنِع من دخول حضرة الله، وطُرِد إلى حضرة الشيطان، وصار يمدح الفسقة ويذم الصالحين. انتهى.

وكان أبو تُراب النَخْشَبي[٣] رضي الله عنه يقول لأصحابه كثيرًا: إياكم والدخول إلى حضرة الشياطين، فإن من دخلها كره فراقها. وكان يقول: إذا ألف القلب الإعراض عن الله، صحبته الوقيعة في أولياء الله، ورماهم بالبهتان والزور، وآذاهم بغير ما اكتسبوا. انتهى.

وسمعتُ سيدي محمد بن عنان رحمه الله يقول: من أراد أن يكون من أهل حضرة الله عزَّ وجلَّ فليتطهر من سائر الأدناس، وما دام عند العبد خصلة واحدة من الرذائل، فليس هو

---

(١) الشيخ أبو الفضل الأحمدي صاحب الكشوفات الربانية، والاتفاقات السماوية، والمواهب اللدنية، من أكابر أولياء الله، حج رضي الله عنه مرات على التجريد فلما كان آخر حجة كان ضعيفًا قيل له: في هذه الحالة تسافر. فقال: لترابي فإن نطفتي مرغوها في تربة الشهداء ببدر؛ فكان كما قال، فمرض مرضًا شديدًا قبل بدر بيومين ثم توفي، ودفن ببدر كما قال، وذلك في سنة:٩٤٢هـ. وهو من إخوة الشيخ الشعراني في الطريق. انظر: الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ١٤٩).

(٢) بالأصلين: يصيرون.

(٣) أبو تراب عسكر بن الحصين النَخْشَبي الإمام القدوة شيخ الطائفة، صحب حاتمًا الأصم حتى مات، ثم خرج إلى الشام، وكتب الحديث الكثير، ونظر في كتب الشافعي، ودخل البصرة وتزوج بها، وصحب شقيقًا البلخي ثم نزل مكة، ت ٢٤٥هـ. السير (١١/ ٥٤٥)، شذرات الذهب (٣/ ٢٠٨).

من أهلها، فإن رؤوس الحضرة الإلهية ثلاثة أصناف: أنبياء، وأولياء، وملائكة، وليس عند أحد من هؤلاء شيء من الأدناس، لاسيما رؤية العبد نفسه فوق أحد من المسلمين، فإنه هو الذنب الذي أُخرِج به إبليسُ من الحضرة الإلهية، ولُعِن وطُرِد.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: ينبغي أن يُقال لمن يقع في أعراض الناس ويسيء الظن بهم: هل أنت يا أخي أحسن حالًا منهم أو مثلهم أو دونهم؟ فإن قال: أنا خير منهم، قلنا له: فإذن أنت وإبليس سواء في ذلك؛ وإن قال: أنا مثلهم، قلنا له: فاعذرهم بما تعذر به نفسك في العوج، وإن قال: أنا دونهم في الدين والتقوىٰ، قلنا له: فاشتغل بنفسك ولا ترم الناس بحجارتك، ولعله يتنبه لنقص حاله، ويكف عن سوء الظن بالناس، قال تعالىٰ: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وسمعته رحمه الله يقول: لسوء الظن بالناس مقدمات من الظان والمظنون فيه، فإذا أحس العبدُ بشيء من ذلك، فينبغي له أن يجعلَ موضعَ سوءِ الظنِّ النصيحةَ، والتوبةَ عن الوقوع في تلك المقدمات والقرائن، فإنها أنفع لكلٍّ منهما، بخلاف سوء الظن لا فائدة فيه بوجه من الوجوه، إنما هو محض إثم لا غير. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: ما ثَمَّ أكثر خصومًا يوم القيامة ممن يأكل الحرام، ويسيء الظن بالناس، فإن غالب أهل عصره كلَّهم يصيرون أخصامًا له من علماء وصلحاء وزهاد وعبَّاد وأمراء وتجار ومباشرين، حتىٰ لا يكاد أحد من أهل بلده أو غيره من معارفه يسلم منه، فهو من أشقىٰ العالمين. ولو أنه نظر بعين البصيرة في أعماله الصالحة كلها، لوجدها لا ترضي واحدًا من خصمائه يوم القيامة، فضلًا عن خلائق لا يحصون.

قال: وبلغنا أن صاحب سوء الظن بالناس يُمسَك علىٰ الصراط وهو ينتفض بأهله حتىٰ تذوب مفاصلهم، وفي رواية «يحبس في جهنم، ويقال له: اثبت هنا ما ظننتَه من السوء في فلان، فإن لم يثبت ذلك، سقط إلىٰ النار»[1] انتهىٰ. وسمعته أيضًا يقول: ربما

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ وإنما أخرج أبو داود (٤٨٨٣) من حديث أنس الجهني عن النبي ﷺ، قال: «... ومن رمىٰ مسلمًا بشيءٍ يريد شينه به، حبسه الله علىٰ جسر جهنم حتىٰ يخرج مما قال » وأحمد (١٥٦٤٩)

لا [يخلص للعبد الصالح من أعماله الصالحة شيء يرضىٰ به خصم واحد يوم القيامة. وسمعتُه مرارًا يقول: ربما لا][1] يسلم لأمثالنا شيء من الأعمال حتىٰ يصل إلىٰ الدار الآخرة، بل يضمحل كلُّه ويذهب في هذه الدار، لكثرة الآفات المحتفة بها.

وسمعته مرارًا يقول أيضًا: لا يصل عمل عبد إلىٰ الدار الآخرة إلا بعد زهده في الدنيا وشهواتها. وأما من ملكته شهوات الدنيا، فعمله تابع للدنيا في الفناء، بخلاف من كمل له حب الآخرة وصار من أبنائها، فإن أعماله باقية ببقاء الآخرة التي لا فناء لها. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن من لازمِ محب الدنيا الميلَ إلىٰ أكل الشهوات ولو حرامًا، وحب الرئاسة والجاه، والرياء والنفاق والشحناء، والكبر والحسد والحقد والمكر، والخديعة والسخريةَ بالمؤمنين، ومراعاةَ الخلق بأعمالهم، حتىٰ يُضْعِف مراعاتَه للحقِّ جلَّ وعلا. ومعلوم أن الأعمال تابعة للنية صلاحًا وفسادًا، كما أنها تابعة لأغراض الدار التي يعمل لأجلها، فمن كانت أعماله لأجل شيء من حظوظ الدنيا، فلا يكاد يصل إلىٰ الآخرة منها بشيء، بل يفنىٰ بفنائها، إلا ما كان عليه من حقوق العباد، فإنها باقية مع صاحبها يوم القيامة، حتىٰ يُقتَصَّ منه لأربابها. وما دام العبد يميل إلىٰ من يمدحه ويكره من يذمه، فهو من أبناء الدنيا، فلا يصل من أعماله الصالحة عنده شيء إلىٰ الآخرة يثاب عليه. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله[2] يقول: علامةُ أبناء الآخرة أن يفرحَ أحدُهم بالبلاء والجذام والبرص والجوع والفقر والأوجاع التي تمنعه من أن يتهنىٰ بأكل أو نوم، فمن فرح بذلك فهو من أبناء الآخرة في الأجر والثواب. قال: وفوق هذا من عمل محبةً في امتثال أمر الله، لا للدنيا ولا للآخرة، كما عليه الأنبياء وكمَّل ورثتهم.

والطبراني في «الكبير» (٤٣٣).

(١) ساقط من «ب».

(٢) عبد القادر بن محمد الدشطوطي الشيخ الصالح المعمر، كان مقبول الشفاعة في الدولتين الجراكسية والعثمانية، وكان متقشفًا يحب سماع القرآن، وكلام الصوفية، وهو من أكابر أرباب الأحوال ت ٩٢٤هـ. الكواكب السائرة (١/ ٢٤٧).

وسمعتُه يقول: من عمل للآخرة، أي لأجل ثوابها خالصًا، كان عمله أضوأ وأنور من عمل محب الدنيا. ومن عمل امتثالًا لأمر الله ومحبةً لمجالسته تعالىٰ في الآخرة، كان عمله أضوأ وأنور ممن عمل لأجل الحور والقصور، والتلذذ بالمآكل والمشارب في الجنة.

فاعمل يا أخي علىٰ أن يكون عملُك خالصًا لوجه الله، لتُحْشَرَ مع الأنبياء والمرسلين وكمَّل العارفين، والله يتولىٰ هداك وهو يتولىٰ الصالحين. وعليك بحسن الظن بعموم المسلمين من فقراء وفقهاء وأمراء، ومباشرين وتجار ودلالين، وسائر المحترفين.

وقد سمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: لا يكمل الفقير حتىٰ يخلصَ من تبعات الخلائق كلِّها من مال وعِرْض وسوء ظن. ويقبح علىٰ من جعله الله قدوةً في هذه الدار، ومربيًا للمريدين، ومرشدًا للسالكين أن يُوقَف يوم القيامة في موقف يشيب فيه الوليد، ويصير الخلائق يدَّعون عليه بما وقع فيه من أعراضهم وسوء ظنه بهم، ومن كان يعتقده في دار الدنيا واقف ينظر إلىٰ ذلك، فيا فضيحة أمثالنا في ذلك الموقف العظيم الذي يُفتضَح فيه أهل النصب والتلبيس وموافقة إبليس!

وسمعتُه رضي الله عنه يقول: يحتاج من يريد أن يكون حسنَ الظنِّ بالناس غيرَ مبادر إلىٰ الإنكار عليهم إلىٰ أمرين عزيزين:

الأول: أن يعمل علىٰ جلاء باطنه من سائر الرذائل والأدناس.

الثاني: أن يتحقق ذلك المنكر الذي أساء بصاحبه الظن من طريق كشفه. وهيهات أن يصل أحد من أمثالنا إلىٰ ذلك، وغالب الظن الواقع من الناس اليوم ببعضهم بعضًا وهم وتلبيس، وحظ نفس وحسد.

وسمعته رضي الله عنه يقول: لا يجب الإنكار علىٰ أحد إلا بمشاهدة فعله لذلك المنكَر أو ببينة عادلة ليس عندها تعصب ولا حسد، وحينئذٍ له المبادرة إلىٰ الإنكار. وإن احتاط لنفسه، فليتربص وينتحل لصاحب ذلك المنكر ببادئ الرأي المحاملَ الحسنة، فإذا لم يصح حمل صاحب ذلك الفعل علىٰ محمل حسن منها بوجه من الوجوه، فحينئذٍ له المبادرة إلىٰ الإنكار.

وسمعتُه يقول: إياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار بناءً علىٰ ما أشاعه بعض الأعداء عن بعضهم بعضًا، سواء كانت العداوة ظاهرة أو بالقرائن، كمعاداة الأقران لمن ارتفع عليهم من أقرانهم، وأقبل عليه الناس بالاعتقاد وقبول الشفاعات والهدايا ونحو ذلك، فإن أقرانه ربما تنفسوا في حقه لشدة ما عندهم من الحسد والبغض، وحملوه علىٰ أسوأ المحامل. ورموه بالكبائر الباطنة حين عجزوا عن إثبات وقوعه في شيء من الكبائر الظاهرة، إذ الغالبُ علىٰ أهل العلمِ والدينِ السلامةُ من الوقوع في مثل ذلك، وما بقي للحسود إلا أن يرمي من يكرهه بمثل الرياء والنفاق وحب الرياسة ونحو ذلك من الأمور الباطنة، ويقول: لعلها تُقبَل في حقِّه، فينقص قدْره عند الناس.

فإياكم أيها الإخوان والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ شخص بالإشاعة، واعملوا علىٰ جلاء بواطنكم من الرذائل، وحلُّوها بالمحاسن، حتىٰ يصير أحدكم لا يحمل الناس إلا علىٰ المحامل الحسنة قياسًا علىٰ حاله هو.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا يقول: ما ثم أعز من الورع في المنطق، فإياكم أن تظنوا في أحد سوءًا بإشاعة الناس في هذا الزمان، ولو سمعتموه من المشهورين بالعلم والصلاح، فإن غالبهم يغلب عليه السذاجة، فيظن أن أحدًا لا يكذب في قوله، وينسىٰ ما يترتب علىٰ ذلك من المفاسد.

وسمعتُه ﷺ يقول: لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار بسوء الظن في الأمور المحتملة للخير وللشر، وإنما تكون المبادرة في مثل ما إذا رأينا شخصًا مكلَّفًا جالسًا عندنا، فقام إلىٰ جرَّة خمر، فشرب منها من غير جهل ولا إكراه ولا ضرورة، أو فيما إذا أخرج صلاةً عن وقتها عامدًا، فمثل ذلك هو الذي ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، ولا يمكن حمله علىٰ محمل حسن، لأن ذلك كالمكابرة في المحسوسات، بخلاف ما إذا بلغنا مثل ذلك علىٰ ألسنة الناس الذين لا يتورَّعُون في المنطق، فإننا نحمله علىٰ المحامل الحسنة جَهْدَنا إلىٰ سبعين محملًا كما مر بيانه، فإن لم يصح حمله علىٰ واحد منها، أنكرنا عليه أدبًا- لا وجوبًا- واحتياطًا، ثم رجعنا علىٰ أنفسنا باللوم حيث لم نحمله علىٰ المحامل الحسنة،

لأن معلومات الله لا تنحصر في علمنا، ولعل له في ذلك عذرًا لم يطلعنا الله تعالىٰ عليه.

فإن وقع أن أحدًا من المجادلين نازعنا في ذلك، وقال بالمبادرة إلىٰ الإنكار بالإشاعة، وأنه يبعد الكذب من الناس في مثل ذلك؛ قلنا له: إن التزمتَ معنا ذلك في حق نفسك، وأن جميع ما يقوله أعداؤك أو المتهورون فيك صحيح، سَلَّمنا لك، فإن قال: هذا لا يصح في حق مثلي، بخلاف غيري؛ قلنا له: هذه دعوىٰ تحتاج إلىٰ دليل، ولعل حجته تندحض بيقين.

وسمعت أخي أفضل الدين ﵀ يقول: عليكم بحسن الظنِّ بإخوانكم المسلمين، وإياكم وسوءَ الظن والعملَ بالقرائن في مثل ذلك، فإن الله تعالىٰ لم يتعبدنا بسوء الظن بأحد من خلقه، وإنما تعبدنا بحسن الظن بخلقه، فلا يسألنا سبحانه لم حسَّنتم ظنَّكم بعبادي؟! إنما يسألنا عن سوء ظننا بهم. انتهىٰ.

وتقدم في هذه المقدمة أن المراد بحديث: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[1]، وبحديث: «من الحزم سوء الظن»[2] أي عاملوا الناس وأنت علىٰ حذر منهم، كمعاملة من تسيئون به الظن مع عدم سوء الظن بهم، وأن الحث علىٰ سوء الظن بالناس لم يأت لنا به الشرع. انتهىٰ.

وقد جاء النهي عن التجسس علىٰ عيوب الناس في الكتاب والسنة، وأجمع العلماء علىٰ تحريم ذلك، وعلىٰ حمل الناس علىٰ المحامل السيئة، وقالوا: كل من رأيتموه يحمل الناس علىٰ المحامل السيئة، فإنما ذلك صورة حاله هو في نفسه، ولو أنه كان طاهر الباطن من سائر الرذائل، لحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة علىٰ صورة حاله هو، إلا أن يكون من أشياخ الطريق، فإنه يحمل علىٰ الاطلاع علىٰ ذلك من طريق الإلهام كما مر بيانه.

ومن شك فيما قلناه من هذا الميزان، فلينظر إلىٰ من خُلِق عنينًا لم يذق حلاوةَ الجماع ومقدماتِه أبدًا، لو أنه رأىٰ شابًّا يكلِّم أجنبية في عطفة ويساررها وهو يلتفت يمينًا وشمالًا كيف لا يظنُّ به سوءًا أبدًا، وإنما يقول: إن تلك المرأة زوجته أو من محارمه مثلًا، بخلاف

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الشاب الذي يتمنىٰ أنه لو قدر علىٰ الزنا لفعل، فإنه ربما يبادر إلىٰ سوء الظن بذلك الرجل، قياسًا علىٰ نفسه هو.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص يقول: أجمع القوم علىٰ أنه لا يصح لأحد مقامُ حسنِ الظنِّ بالناس إلا بعد تطهير باطنه من سائر الرذائل، بحيثُ لو أخرج جميع ما في باطنه للناس في طبق لم يجدوا فيه شيئًا يستحيي منه أو يخجل به.

فإياك يا أخي أن تحمل أحدًا علىٰ محمل سيء ما دُمتَ لم تتنظف من سائر الرذائل، بل الواجب عليك أن تنتحل له الأجوبةَ الحسنةَ ما أمكن، ولو لم تعتقد أنه من أهلها بالقرائن التي ظهرت منه، كما أن الواجب عليك إذا رأيت في أحد نقصًا ولو من طريق الحس فضلًا عن الكشف أن ترجع علىٰ نفسك باللوم والتوبيخ. ثم يجب عليك أن تروض نفسك بالجوع والمجاهدة والرياضة علىٰ يد أحد من أشياخ الطريق، حتىٰ يصير خاطرُ الفحشاء لا يستقر في قلبك، كما عليه أهل الله عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

فعُلم أن كلامنا هذا إنما هو في الأمور التي قد يُخفىٰ معرفة ميزانها علينا، أما نحو أخذ المكس وشرب الخمر والغيبة في الناس بغير طريق شرعي، والسعاية بهم عند الحكام ونحو ذلك من الذنوب، فلا يجوز لنا حمل من فعلها علىٰ المحامل الحسنة إجماعًا كما مرت الإشارة إليه قريبًا، بخلاف ما يحتمل ويحتمل.

ومن فهم ما قررنا من وجوب تطهير الباطن من سائر الرذائل، عذر القوم في قلة إنكارهم للمنكرات المتوهَمة المبنية علىٰ سوء الظن، فإنهم لشدة نظافة بواطنهم من الرذائل، لم يصر عندهم سوء يحملون الناس علىٰ مثله. وربما قال بعض الفقهاء عنهم: إن أحدهم لا يأمر بمعروف ولا ينهي عن منكر علىٰ وجه نسبتهم إلىٰ قلة الدين، وهو خطأ، فإن كل من تطهر باطنه لا يكاد يرىٰ منكرًا محققًا إلا في النار.

وقد بلغنا عن سيدي أحمد الزاهد رحمه الله[1] أنه هجر فقيرًا من جماعته حين كسر جرة

---

(١) أحمد بن أبي أحمد بن محمد بن سليمان أبو العباس شهاب الدين المعروف بالزاهد، فقيه متصوف شافعي من أهل القاهرة، كان مولعا بترميم المساجد القديمة، نقموا عليه فتواه برأيه من غير نظر، جيد

خمر على باب الجامع كانت مع غلام جندي، فقيل للشيخ في ذلك، فقال: لم أهجره من حيثُ إزالتُه المنكَر، وإنما ذلك من حيثُ ظنُّه السوءَ بالناس، ورفعُ طرفه بغير حاجة، ولم لا كان غض طرفه؟! فلم ينظر إلا إلى مواقع قدميه، أو كان ظن بتلك الجرة أنها خَلٌّ. انتهى.

وبلغنا عن إبراهيم بن أدهم[1] أن شخصًا صحبه مدة طويلة، فقال: يا إبراهيم، لمَ لمْ تنصحني؟! فقال: إن الفقراء ينظرون إلى إخوانهم بعين الوداد لا بعين الانتقاد، ومن كان كذلك عمي عن نقائص الناس، فسل عن عيوبك غيري. انتهى.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من علامة من طهَّر الله تعالى باطنه بالرياضة من المريدين أن يصيرَ يبادرُ لحسن الظن بالناس، ولا يحتاج إلى تفكُّرٍ في ذلك عكس من لم يتطهر. انتهى.

ولا يخفى عليك يا أخي أن جميعَ ما في هذا الكتاب من الأجوبة ابنُ وقته كما مرَّت الإشارة إليه في الخُطبة، لأن تأليفي له إنما هو بحسب الوارد، لكن يتجدد في كل يوم، ومثل ذلك يحتاج إلى من يتعقبه ضرورةً، لعدم قدرة المؤلِّف على استحضار جميع شروط كل مسألة، وما يرد على منطوقها ومفهومها حالَ التأليف.

فرحم الله تعالى من تعقب كلامي في هذا الكتاب وغيره بقيد أو شرط أو توجيه أوضح مما قلته، نصيحةً لدين الله ولرسوله وللمؤمنين، فإني والله أغار على دين إخواني المسلمين أن ينقص بسوء ظنهم في بعضهم، أو مقابلتهم بالأذى، وسوء الظن لمن آذاهم أو أساء بهم الظن، فضلًا عن زيادتهم على ذلك بالعداوة والبغضاء والشحناء وتمني السوء ونحو ذلك مما ورد أنه يَخلِق الدين، ويمنع رفع الأعمال إلى السماء وقبولها.

في العلم مع سلامة الباطن والعبادة، من مؤلفاته «رسالة النور»، «هدية المتعلم وعمدة المعلم»، «تحفة المبتدي ولمعة المنتهي» ت ٨١٩هـ. إنباء الغمر (٧/ ٢٢٩)، الأعلام (١/ ٢٢٦).

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور القدوة الإمام العارف سيد الزهاد، أبو إسحاق الخراساني البلخي، نزيل الشام، ولد في حدود ١٠٠هـ، وهو من أولاد الملوك، صحب الثوري والفضيل بن عياض ت ١٦٢هـ. السير (٧/ ٣٨٧) وفوات الوفيات (١/ ١٣)

ثم لا يخفي عليك يا أخي أيضًا أنني إنما وضعتُ هذا الكتاب بالأصالة للأجوبة عن عالم الشهادة من الإنس، وسد باب سوء الظن ببعضهم بعضًا، كما هو الغالب على كل من جمعتهم علة الجنسية من أهل الحرف والصنائع، فيجد الأمير لم يزل مشغولًا بذكر أقرانه من الأمراء تارةً بالتصريح بتنقيصهم، وتارةً بالتعريض، ولا يكاد يجده مشغول القلب بأحد من غير أقرانه إلا نادرًا، وكذلك القول في العالم، والفقير الذي لم يفطم على يد شيخ، وكذلك جميع مشايخ الأسواق ومشايخ الدلالين، وكبراء التجار والمباشرين، ولا يجد أحدهم تعبان القلب إلا من جهة من هو في حرفته.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من شأن البشر وقوعُ الحسد منهم لبعضهم بعضًا إذا ارتفع أحدُهم عليهم، وكذلك كان أولَ ابتلاء ابتلى الله تعالى به عباده أن أرسلَ إليهم رسلًا من جنسهم، امتحانًا لهم، لينظر تعالى وهو العالم بما يقع منهم في المستقبل هل ينقادون لمن أرسله ربهم إليهم من جنسهم أم يعصون أمره، فيحق عليهم الشقاء. وقد طلب بعض الكفار أن الله تعالى يرسل إليهم رسولًا من الملائكة، ووعدوا ربهم أن يطيعوه إذا وقع ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨-٩] أي لما سبق في علمنا من وجود أهل القبضتين اللتين للجنة والنار، أي ولو جعلنا الرسول إليهم ملكًا، لجعلناه في حكم الرجل من حيثُ وقوعُهم في العصيان لأمره بحكم القبضتين، بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١] الآية. ونظيرُ ما قررناه قولُ الكفار في النار: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فإنهم ما قالوا ذلك إلا بلسان الحال الذي ذاقوه في النار، فظنُّوا أن ذلك الذوق يبقى معهم إذا رجعوا إلى دار الدنيا، ولذلك ردَّ الله تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] أي ولو رددناهم إلى الدنيا لم نردهم إلا بحكم القبضتين كما سبق في علمنا.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: لا حسد إلا بين الجنس الواحد، ولذلك

كان لا حسد بين الملك والبشر. انتهىٰ.

فلهذا المعنىٰ أكثرتُ في الكتاب الأجوبةَ عن الأنبياء والصحابة والتابعين، والأكابر من العلماء والعارفين، لأنهم هم الذين ارتفعوا في المقام عن جنسهم وقومهم، ودعوا الناس إلىٰ حضرة الله عزَّ وجلَّ.

كما أني أكثرت الأجوبة عن أفعال القدرة الإلهية في كتاب «الرد علىٰ الملحدين»[1] خوفًا علىٰ بعض إخواني من المسلمين أن يقع في شيء فيه رائحة الاعتراض علىٰ أفعال القدرة الإلهية، وبيانًا لكل شيء أبرزته القدرة كاملًا في ذاته، وهو عين الحكمة لا مخلوق بالحكمة، لئلا تكون الحكمة الإلهية تحت حكم غيرها، فإن الله تعالىٰ عليم خبير، وأحكم الحاكمين، فلا ينبغي لأحد أن يقول: لولا أن الله تعالىٰ فعل كذا، لكان أراحنا من كذا، كما يقع فيه بعض من بعُد عن حضرة الأدب مع الله تعالىٰ، فخفتُ علىٰ بعض إخواني من المقت، وأعلمتُهم أن الواجب علىٰ كل عبد العملُ علىٰ جلاء مراقبة قلبه من جميع الرذائل حتىٰ يقربَ من حضرة الله تعالىٰ، وينظرَ أفعالَه تعالىٰ من خلف حجاب سرِّ القدَر، ويراها كلَّها فعل حكيم عليم، سبق بها العلم الإلهي الذي لا يقبل التبديل ولا التغيير.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: يجب علىٰ كل مؤمن أن يجيب عن أنبياء الله تعالىٰ، وعن أوليائه وجميع المسلمين، لاسيما شيخ الإنسان، ونقلة الأخبار من الحفاظ، فإن تجريحهم وتنقيصهم يؤدي إلىٰ الطعن في كل ما جاؤونا به عن الشارع ﷺ من الأحكام وغيرها. انتهىٰ.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول لبعض طلبة العلم: أجب عن العلماء والصالحين من أهل عصرك أو غيرهم جَهْدَك، ولا تقل نحن لا نعرف مقاماتهم حتىٰ نجيبَ عنهم، فإن الله تعالىٰ يقبل جُهْدَ المقل. وقد بلغنا عن شخص من بني إسرائيل وصف الحقِّ جل وعلا في تنزيهه له بما لا يليق إلا بالخلق، فنهاه المسيح عليه السلام عن ذلك، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا عيسىٰ دعه فإنه مجدني بقدر وسعه وطاقته. انتهىٰ.

---

(١) لم أقف علىٰ مخطوط له، ولعله من الكتب المفقودة للإمام رضي الله عنه.

وسمعت أخي أفضل الدين ﷺ تعالىٰ يقول: لا ينبغي أن يتكلم علىٰ مقامات الأنبياء ويخوض في معاني أفعالهم وأحوالهم إلا من كان وارثًا لهم. وأما من لا نصيب له في إرثهم، فلا يصلح له أن يجيب عن أحد منهم، وإن كان له الأجر في ذلك بحسب علمه وفهمه ونيته الصالحة.

قال: وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي، الذي أذعن له الأشياخ في سائر العلوم وترجموه بأنه «مربي العارفين» وغيره مربي المريدين، يقول: ليس لأحدنا ذوق في مقامات الأنبياء، أي في عينها، وإنما للناس الإشراف عليها بحكم المجاورة فقط، كما يرىٰ أحدنا خيال النجوم علىٰ وجه الماء في الأرض. انتهىٰ.

وبلغنا عن الشيخ الكامل أبي يزيد البَسْطَامي ﷺ [1] أنه كان يقول: منحني الله تعالىٰ من مقام رسول الله ﷺ مقدارَ شعرة من جلد ثور عبورًا لا مكث فيه، فكدتُ أحترق، فناديتُ الإقالةَ، وطلبتُ الإغاثةَ بالخروج منه، وعلمتُ أنه لا طاقةَ لولي بدخول مقام أحد من الأنبياء فضلًا عن المكث فيه، وإنما للأولياء المجاورة لمقامات الأنبياء فقط، كما يجاور آحاد الناس أحدًا من الأنبياء في دور أهل الدنيا والآخرة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: جميع من تكلم في مقامات الأنبياء كالقاضي عياض [2] ونحوه إنما تكلم في ظل مقامهم وخياله، لا في شخصه وعينه وحقيقته. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي ﷺ يقول: يجب علىٰ كل عالم أن يجيب

---

(١) سلطان العارفين أبو يزيد طيفور بن عيسىٰ بن شروسان البسطامي أحد الزهاد كان جده مجوسيًا أسلم، كان يقول: إذا رأيت الرجل قد أعطي من الكرامات حتىٰ يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتىٰ تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود والوقوف عند الشريعة، له مقامات ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة، توفي ٢٦١هـ. السير (١٣/ ٨٦) البداية والنهاية (١١/ ٤١).

(٢) شيخ الإسلام القاضي أبو الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي، استبحر من العلوم، وجمع، وألف، وسارت بتصانيفه الركبان، من مؤلفاته: «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ»، «إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم»، «مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار». ت ٥٤٤هـ. السير (٢٠/ ٢١٢) طبقات الحفاظ للسيوطي ص٤٧٠.

عن أهل حضرة الله تعالىٰ، فقلتُ له: ومن هم أهل حضرة الله تعالىٰ؟ فقال: العلماء العاملون، والفقراء الصادقون، وأهل الخير من أصحاب الصنائع من المؤمنين، وهكذا.

وسمعته مرة أخرىٰ يقول: أهل حضرة الله تعالىٰ هم الأنبياء والملائكة والأولياء. وأما غيرهم فإنما هم كالخدم لهم، فينبغي الجواب عنهم بحكم التبعية. انتهىٰ.

[طريق معرفة أولياء الله تعالى]

فإن قال قائل: فمن أين تعرف أولياء الله تعالىٰ في هذا الدار؟ **فالجواب**: أنهم يُعرَفون بأحد أمرين: إما برؤية أحدهم في حضرة الله تعالىٰ من طريق الكشف؛ وإما بتقيد أحدهم في جميع أعماله وأحواله بالكتاب والسنة، فيكون زاهدًا ورعًا، عابدًا مخلصًا، لا يكاد أحد يراه علىٰ شيء يخالف ظاهر الشريعة مما يكتبه كاتب الشمال أبدًا، فلا بد في طريق معرفة الولي من أحد هذين الأمرين، وإن كان المنقول عن أئمة الشرع أن المعصية لا تنافي الولاية، مع أن الله تعالىٰ لا بد أن يمنَّ عليه بالتوبة علىٰ الفور حتىٰ لا تضره الجناية، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: أعظمُ علامة تكون لنا علىٰ ولاية شخص شهودُ قلوبنا له في حضرة الله تعالىٰ في حال الصلوات الخمس، أو في حال الذكر، أو في حال المراقبة. وما عدا ذلك فإنما غايته حسن ظن به لا غير، فإن حكمَ من يدخل حضرة الله تعالىٰ في معرفة أوليائه حكمُ أهل الحارة الواحدة أو البلد الواحد أو السوق الواحد، فإن الغالبَ عليهم معرفةُ بعضهم بعضًا، لا يكاد أحدهم يجهل أحدًا من أهل حارته أو بلده أو سوقه.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ يعرف من قام الليل ممن نام برؤية وجهه. ونمتُ ليلةً عن قيام الليل، فأتاني وقال لي: ما رأيناك الليلة هناك! يعني في حضرة القائمين في الليل للتهجد أو غيره من العبادات.

وسمعتُه مرةً يقول: معرفة أحدنا للولي في هذه الدار لا تنافي حديث «إن الله تعالىٰ أخفىٰ أولياءه في عباده»[1]، لأن معرفتنا لا تتعدىٰ الظن إلىٰ القطع، فكان ذلك الولي خفيٌّ

---

(١) أورده البيهقي في «الزهد الكبير» من كلام ذي النون المصري (٧٥٩).

عنا، أو يكون المراد بالحديث أن الله تعالىٰ أخفىٰ أولياءه عن عباده المحجوبين الذين لا كشف عندهم، دون عباده الخواص من أهل الكشف.

فإن أردتَ يا أخي معرفة أهل حضرة الله تعالىٰ، فتخلق بصفاتهم من زهد وورع وقيام ليل، وكف جوارح عن المعاصي ظاهرًا وباطنًا، وأنت تصير تعرفهم بوجوههم وصفاتهم ويتعرفون إليك. وقد طلب الإمام عبد الرحمن الأوزاعي[1] من إبراهيم بن أدهم الصحبة فلم يجبه، وقال: الطيرُ لا يطير إلا مع شكله. انتهىٰ.

[المقصود بحضرة الله في كلام القوم]

فإن قال قائل: فما هي حضرة الله تعالىٰ التي يشير إليها القوم، يقول أحدهم: دخلتُ حضرة الله، وخرجتُ من حضرة الله، ورأيتُ فلانًا في حضرة الله، ونحو ذلك؟ **فالجواب:** أن مرادَهم بحضرة الله تعالىٰ استحضارُ العبد أنه بين يدي الله عزَّ وجلَّ وهو تعالىٰ ينظر إليه، أو شهود العبد لربه كأنه من شدة قربه من حضرته يراه، وهي حضرة الإحسان المشار إليها بحديث «اعبد الله كأنك تراه»[2]، فما دام أحدهم يشهد أحد هذين المشهدين، فهو في حضرة الله عزَّ وجلَّ، ومتىٰ حُجِب عن أحدهما خرج من الحضرة. وقد أشار بعضهم إلىٰ حضرة الإحسان بقوله:

ويشاهدكم قلبي كأني لكم أرىٰ

فلم يثبت الرؤية للحق تعالىٰ، وإنما شاهده كأنه يراه من غير جزم بالرؤية، فعُلِم أنه ليس الحضرة مكانًا معينًا من السماوات أو الأرض كما قد يتوهمه بعضهم، والله أعلم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: ما كلُّ أحد يطيق شهود أنه بين يدي الله

---

(١) أبو عمرو الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد شيخ الإسلام، وعالم أهل الشام. كان مولده في حياة الصحابة سنة: ٨٨هـ. وكان يسكن بمحلة الأوزاع بدمشق، ثم تحول إلىٰ بيروت مرابطًا بها إلىٰ أن مات. وقيل: كان مولده ببعلبك، يقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها ت ١٥٧هـ. السير (٧/ ١٠٧)، الوافي بالوفيات (١٨/ ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).

عزَّ وجلَّ وإنما ذلك خاص بأكابر الأولياء، وأما غيرهم فربما يُمنَع أحدُهم من دخول الحضرة ليلًا ونهارًا، لعدم قدرته علىٰ دوام هذا الشهود، بل لو تكلَّف ذلك لاحترق، لأنها حضرة يؤاخذ العبد فيها بالخطرات وفعل المكروهات، كما يؤاخذ غيرهم بالكبائر.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﷫ يقول: لا يحصل لأحد القدرةُ علىٰ طول دوام شهوده أنه في الحضرة الإلهية إلا بعد طول إدمان لتقلب النفس من صاحبها في تلك الحضرة، وسرعة خروجها من حضرة الله عزَّ وجلَّ بإسدال الحجاب، لاسيما إن كانت متلطخة بشيء من المعاصي الظاهرة أو الباطنة، بل لو قدِّر أنه أكره نفسه علىٰ المكث في حضرة الله تعالىٰ، لزهقت وتقلبت من ذلك الشهود في أسرع من لمح البصر. ومن أراد أن تكون له قدرة علىٰ المكث في حضرة الله عزَّ وجلَّ فليُكْرِه نفسه علىٰ المكث فيها شيئًا فشيئًا، من دقيقة إلىٰ ثانية إلىٰ عشر درجة إلىٰ خمسها إلىٰ ربعها إلىٰ ثلثها إلىٰ نصفها، وهكذا إلىٰ درجة ثم إلىٰ درجتين، ثم إلىٰ أكثر من ذلك، بحكم التدريج إلىٰ ساعة ثم إلىٰ ساعتين ثم إلىٰ ثلاث، وهكذا إلىٰ يوم كامل أو ليلة كاملة إلىٰ يوم وليلة، ثم أكثر من ذلك، ثم إلىٰ جمعة، ثم إلىٰ شهر، ثم إلىٰ سنة، ثم إلىٰ أكثر إلىٰ نحو ثلاثين سنة، كما هو معروف بين القوم، وهناك يصير أحدهم لا يخرج من حضرة الله تعالىٰ، لأنه لا يجد مكانًا في الوجود إلا وهو فيه في حضرة الله عزَّ وجلَّ. وقد كان سهل بن عبد الله ﷺ[1] يقول: لي أكثر من ثلاثين سنة وأنا أكلم الله تعالىٰ، والناس يظنُّون أني أكلمُهم.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷫ يقول: إذا كمُل الإنسان في مقام الحضور مع الله تعالىٰ، صار قلبُه مع الله تعالىٰ في سائر الأماكن التي يرىٰ العبد نفسه فيها، لا يتكلف للحضور مع الله تعالىٰ، كما لا يتكلف لدخول النَّفَس وخروجه، وربما أعطىٰ الله تعالىٰ له هذا المقام في السكتة التي تقع بعد مجلس الذكر، فيصير الحق تعالىٰ بعد كل شيء أو مع كل شيء أو

(١) سهل بن عبد الله بن يونس أبو محمد التَستُري شيخ العارفين الصوفي الزاهد ولد سنة ٢٠٠هـ، وصحب خاله محمد بن سوار، ولقي في الحج ذا النون المصري وصحبه، وكان من أعيان الشيوخ في زمانه، وله كلام في التصوف والسنة، توفي في الحرم ٢٨٣هـ. تاريخ الإسلام (٦/ ٧٥٦)، شذرات الذهب (٣/ ٣٤٢).

قبل كل شيء، فلا يحجبه عن ربه شيء من الكون كما عليه رؤوس أهل الحضرة المحمدية.

ثم اعلم يا أخي أن جميع ما أُجِيبَ به عن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ومقلديهم في هذا الكتاب ليس هو من باب حسن الظن بهم فقط من غير علم بمَنازِع أقوالهم وأفعالهم كما قد يُتوهَم، وإنما أجبتُ عنهم بعد اطلاعي علىٰ مستندات أقوالهم من الكتاب والسنة أو القياس أو الإجماع، كما بينت ذلك في كتاب «الميزان الخضرية المدخلة لجميع أقوال المجتهدين ومقلديهم في الشريعة المحمدية»[١] وهو مجلد ضخم.

ومما وقع لي حين فرغت من تأليف هذا «الميزان» أنني رأيتُ الإمام أبا حنيفة[٢] والإمام مالكًا[٣] رحمهما الله تعالىٰ مع أبينا آدم عليه الصلاة والسلام في قبة وهما يقولان للناس: ما أحد أجاب عنا مثل ما أجاب هذا الشاب. فلا يعلم أحد مقدار ما حصل لي من السرور بكلام هذين الإمامين إلا الله عزَّ وجلَّ.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﵀ يقول: إياكم أن تطعنوا في قول عالم أو فعله إلا إن كنتم أعلم منه بالكتاب والسنة، فإن الشريعة جاءت علىٰ ثلاثمئة وستين طريقة، لا يتبع عبد منها طريقة واحدة إلا أدخلته الجنة، كما رواه الطبراني مرفوعًا[٤]. انتهىٰ.

فإن كنتَ يا أخي اطلعتَ علىٰ هذه الطرق كلِّها ولم تجد كلام هذا العالم الذي اعترضتَ عليه يوافق طريقةً واحدةً من هذه الطرق، فحينئذٍ لك الإنكار.

---

(١) مطبوع، مشهور باسم «الميزان».

(٢) أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي بن زوطىٰ التيمي، الكوفي، مولىٰ بني تيم الله بن ثعلبة. الإمام، فقيه الملة، عالم العراق. ولد: ٨٠هـ في حياة صغار الصحابة، وعني بطلب الآثار، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهىٰ، والناس عليه عيال في ذلك. ت ١٥٠هـ. السير (٦/ ٣٩٠)، الوافي بالوفيات (٢٧/ ٨٩).

(٣) شيخ الإسلام حجة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك ولد سنة ٩٣هـ، نشأ في صون ورفاهية وتجمل، كان صلبًا في دينه، بعيدًا عن الأمراء والملوك، قال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، من أجل مصنفاته «الموطأ» ت ١٩٧هـ. السير (٨/ ٤٨)، الأعلام (٥/ ٢٥٧).

(٤) لم أقف عليه فيما اطلعت عليه من مصادر، وقد ذكره الشعراني في لواقح الأنوار (٢/ ٢٧٨).

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: لا يخلو كلامُ أحدٍ من الأمة من ثلاثة أحوال: إما أن يوافقَ صريحَ السنة، وإما أن يخالفَ صريحَها، وإما أن لا يظهر لنا فيه موافقةٌ ولا مخالفة، فإن كان موافقًا للشريعة، وجب علىٰ كل أحدٍ العمل به؛ وإن كان مخالفًا لها، حرم علىٰ كل مسلم العمل به؛ وإن لم يظهر لنا موافقته ولا مخالفته، فأحسن أحواله الوقف، فلا نذمُّ قائله ولا نمدحُه. انتهىٰ.

وأنا أرجو من فضل الله عزَّ وجلَّ أن كل من نظر إليَّ يوم القيامة من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، وجميعِ من أجبت عنه من المؤمنين يبتسم في وجهي، ثم يأخذ بيدي في أهوال ذلك اليوم وشدائده، كما أن من اعترض علىٰ أحد منهم ولم يجب عنه، ربما ينظر إليه شزرًا نظر الغضب، ثم لا يأخذون بيده عقوبةً له.

علىٰ أن جوابي عندي في حق الأكابر كالهجو لهم لاتهامي لنفسي في ذوقي لمقامهم، لأن غايتي إنما هو النظر إلىٰ مقاماتهم من بعيد، كما ينظر أهل الأرض إلىٰ خيال نجوم السماء في الماء.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: يجب علىٰ كل مسلم الرد عن أكابر المسلمين بحسب مقامه هو، وقد يستأنس لذلك بقوله تعالىٰ: فإن لم يصبها وابل فطل.

وكان يقول: اعتقادنا في جميع ما أجبنا به عن الأكابر من العلماء العاملين أنه دون مقامهم الذي يجب لهم، وربما يكون ما يتقرب أحدنا به إلىٰ الله تعالىٰ يستغفر هؤلاء الأكابر منه، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن كل شخص محبوس في دائرة من هو فوقه في المقام من شيخه إلىٰ دائرة رسول الله ﷺ التي هي أوسع دوائر الخلق أجمعين في معرفة الله عزَّ وجلَّ ومعرفة أحكامه وشرائعه، فقد أجمع أهل الكشف علىٰ أن جميع علوم الخلق وداوئر عقولهم من باطنية علم رسول الله ﷺ وباطنية عقله.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: احرص علىٰ أن تكون يا أخي من جملة ورثة رسول الله ﷺ في علوم شريعته، فإن دائرة علمه تحتوي علىٰ دوائر جميع الأنبياء

والمرسلين، وجميع العلماء والصالحين إلىٰ يوم الدين، فمن حصل له مقام هذا الإرث، فكأنه ورث جميع مقامات المقربين، كما كان عليه الإمام علي بن أبي طالب، وأكابر الأولياء كالشيخ أبي مدين، والشيخ محيي الدين[1]، وقد ترجم بعض العارفين الشيخ أبا مدين بقوله: الشيخ أبو مدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين.

وسمعتُه ﷺ يقول: كل من لم يحصل له مقام الإرث لرسول الله ﷺ ولو في بعض المقامات، فليس له أن يجيب عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لبعده عن مقام الإشراف علىٰ مقاماتهم، فإن أجاب عن أحد منهم مع عدم الإشراف، فإن ذلك من باب الحدس بالظن، أين الثريا من الثرىٰ؟!

قال: وربما كان العالم وارثًا لنبي من الأنبياء غير محمد ﷺ، فينطق عند طلوع روحه باسم ذلك النبي من العزير أو المسيح أو موسىٰ أو إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فيظن بعض الحاضرين أن ذلك العالم تهوَّد أو تنصَّر عند موته، لعدم نطقه بمن هو من أمته، وهو محمد ﷺ، والحال أنه مؤمن بمحمد ﷺ، وإنما نطق باسم ذلك النبي لكونه واسطة بينه وبين رسول الله ﷺ، فاستغاث به ليأخذ بيده ويوصله إلىٰ حضرة محمد ﷺ، ليشاهد وجهه، فيحصل له الأمان من أن تناله النار إن شاء الله تعالىٰ ببركته ﷺ، فإنه ﷺ نبيُّ الأنبياء، فهم كالوزراء له، وهو الملك الأعظم كما هو مقرر في كتب الخصائص، فكان كل نبي ممن يتقدمه بالظهور يُبعَث بطائفة معينة من شريعة محمد ﷺ، لينوب عنه في تبليغها مدة عمره، كما يؤيد ذلك ما ورد من حكم عيسىٰ إذا نزل بشريعة محمد ﷺ دون شريعته التي كان بُعث بها أيام غيبة جسم محمد ﷺ، فكان حكمها حكم ما نُسِخ من شريعة محمد ﷺ.

فإن قال قائل: إن من يكون من هذه الأمة لا يحتاج إلىٰ أحد من الأنبياء يأخذ بيده

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، المعروف بابن عربي، صاحب التصنيفات في التصوف وغيره، ولد في شهر رمضان سنة ٥٦٠هـ بمرسية «بالأندلس» سمع ببغداد ومكة ودمشق، وسكن الروم، من مؤلفاته: «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم» و«محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» وغيرها ت ٦٣٨هـ. فوات الوفيات (٣/ ٤٣٥) والأعلام (٦/ ٢٨١)

لاستغنائه عنه برسول الله ﷺ، **فالجواب**: صحيح ما قلت، وهو عين ما قررناه، فإن ذلك النبي ما أخذ بيد أحد من هذه الأمة إلا من باطنية محمد ﷺ، فإن الأنبياء حكمهم بعد ظهوره كحكم علماء أمته، لو أن أحدهم ظهر ما كان يحكم إلا بشريعة محمد ﷺ بقرينة قوله ﷺ: «لو كان موسىٰ وعيسىٰ حيين لما وسعهما إلا اتباعي»[1]. انتهىٰ.

فحكمُ أخذِ أحدٍ من الأنبياء حكمُ أخذِ أحدٍ من الأولياء بيد مريده علىٰ حد سواء، فلا يقدح ذلك في استناده -أي ذلك المؤمن- إلىٰ محمد ﷺ، فإن المريد وشيخه ومن فوق شيخه من الأشياخ إلىٰ رسول الله ﷺ لم يخرجوا عن دائرة محمد ﷺ، فكل شيء حصل من الخير علىٰ يد أحد من هؤلاء الوسائط، فهو ببركة رسول الله ﷺ، لأنه نبيُّ الأنبياء كلِّهم، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠] ما قال الله تعالىٰ: «فبهم اقتده» وإنما قال: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ﴾ أي إن هداهم لك بالأصالة، فاهتداؤك بهديهم الذين بُعِثوا به هو هداك بالأصالة، فما اهتدىٰ حقيقة إلا بهداه لا بهداهم. وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١]، فإن أخذ العهد علىٰ الأنبياء بالإيمان بمحمد ونصرته يصيرهم كأنهم من جملة أتباعه من أمته. فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول كثيرًا: الأنبياء كلهم بالنسبة إلىٰ محمد ﷺ كأنهم أمراء العساكر وهو الملك الأعظم، فكان كلُّ نبي منهم يبعث بطائفة من شريعة محمد علىٰ قدر حظه ونصيبه من النيابة.

قال: ولذلك جاء النسخ في شريعة محمد ﷺ، وذلك ليحصل لأمة محمد ﷺ أجر العمل بتلك الشريعة التي نُسخت بموت ذلك النبي مثلًا، فيتعبد الأمة بذلك الحكم مدة من الزمان،

(١) قال الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري في أفضل مقول في مناقب أفضل رسول ﷺ ص١١٦: الحديث بهذا اللفظ باطل لا أصل له. قلت الحديث موجود بلفظ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي» أخرجه أحمد (١٥١٥٦)، والدارمي (٤٤٩).

ثم يأمرهم الشارع بتركه وفعل أمر آخر غير الأول، فكانت شريعة محمد ﷺ هي مجموع الشرائع المتقدمة كلها، وكأنه أرسل بها كلها وعمل بها أمته، فللعامل بشريعة محمد ﷺ من الصحابة من حين بعث النبي ﷺ إلىٰ أن مات أجر من عمل بجميع شرائع الأنبياء المتقدمين.

قال: وقد فتشنا من طريق كشفنا، فلم نجد حديثًا نُسخ أو آية نُسخت إلا وكانت شرعًا لنبي ممن تقدم، كلُّ ذلك لشدة اعتناء الحق تعالىٰ بمحمد ﷺ وأمته، حتىٰ لا يفوتهم ثوابُ غالب شرع أحد ممن تقدم، حتىٰ إن هذه الحقيقة سرت في أئمة المذاهب ومقلديهم. فيقبل المجتهد علىٰ العمل بما ظهر له من الأحكام مدة، ويدين الله به هو وأتباعه، ثم يبدو له حكم آخر من ذلك الحديث مثلًا هو أولىٰ عنده من الحكم الأول، فيتركه ويعمل بالحكم الذي ظهر له ثانيًا، كما هو مشاهد في كتب الأئمة، فيُقال لأحدهم: هذا مذهب فلان، فيقول: هذا ضعيف، ولا يجد في قلبه داعية للعمل به، وقد كان أصحابه وأتباعه يعتمدونه ويعملون به، ويدينون الله تعالىٰ به إلىٰ أن ماتوا. انتهىٰ.

فإن قال قائل: فهل يصل أحد من الأولياء إلىٰ مقام أحد من الأنبياء في الإرث لمحمد ﷺ، أم حظُّ الولي من الإرث ولو كان قطبًا دون حظِّ ذلك النبي من مقام الإرث لرسول الله ﷺ؟ **فالجواب**: لا يصل وليٌّ أبدًا إلىٰ مقام نبي أبدًا لا من حيثُ نبوتُه ولا من حيثُ ولايتُه، لأنه إذا كانت دائرة ولاية النبي تبتدي من بعد انتهاء دائرة ولاية أكبر الأولياء، فكيف بدائرة النبوة؟! انتهىٰ.

وقد تلخص من جميع ما ذكرناه في هذه المقدمة أنه يجب علىٰ كل مسلم التطهرُ من سائر الأدناس الظاهرة والباطنة، ليصيرَ يجيبُ عن الأكابر من أنبياء أو أولياء أو غيرهم علىٰ وجه يقرب من الصواب اللائق بمقامهم، فإن كلَّ من لم يتطهر كما ذكرنا فهو بعيد عن حضرتهم، وليس له إشراف علىٰ مقام أحد منهم حتىٰ يجيب عنهم، وأنه يجب علىٰ كل مسلم أن يجيب عن جميع أعدائه فضلًا عن أصدقائه، وأن ينتحل لهم الأجوبة الحسنة ما استطاع، وأنه لا يجوز له الوقوف مع سوء الظن لحظةً واحدة، لما في ذلك من عدم الوفاء بحق أخوة الإسلام، وأنه يحرم علىٰ الناظر في هذا الكتاب أن يحملَ

مؤلِّفه على المحامل السيئة، وأنه إنما أجاب عن أقرانه من أهل عصره، ليفعلوا معه نظيرَ ما فعل معهم بغير نية صالحة، بل يجب على كل ناظر في هذا الكتاب، وكل سامع أحدًا يجيب عن أحد أن يحمله على أحسن المحامل، كأن يجيب عن الناس ليميلوا إليه، فلا يقعون في غيبته رحمةً بهم بالأصالة، وبنفسه بحكم التبع، فإن وقوع الأشياخ أو المريدين الصادقين في مثل ذلك بعيد جدًا، كما يظن ذلك من لم يخالطهم، وربما أنشد مع ذلك قوله مالك بن دينار رضي الله عنه[1]:

ذهب الرجال المقتدىٰ بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزين بعضهم بعضًا ليدفع مُعوِر[2] عن مُعورِ

لأن ذلك من مالك جرىٰ علىٰ الغالب من حال العوام دون الخواص، فإن العامي ربما كان يجيب عن هفوات صاحبه، ليجيب الآخر عن هفواته كذلك لغرض نفساني. وأما الخواص فلا يجيب أحد عن أخيه إلا لغرض شرعي، سواء كان ذلك الجواب في غيبة أخيه أو حضوره.

فاعلم ذلك يا أخي وتأمل في هذه المقدمة، وأمعن النظر فيها كلَّ الإمعان قبل أن تدخل إلىٰ مطالعة الكتاب، فإنها تعينك علىٰ تعقل ما فيه من الأجوبة وعلىٰ حسن الظن بجميع العباد من عالم الشهادة.

وأما عالم الغيب من الجان والملائكة، فقد ألفتُ فيهما كتابًا سميتُه بـ«طهارة الجسم والجنان من سوء الظن بالله تعالىٰ أو بالملائكة والجان» وصدَّرتُه بأجوبة ترد علىٰ الذين يلحدون في آيات الله تعالىٰ بغير علم، كما يصفون الملائكة والجان بما ليس هما عليه من الصفات، وذلك لتسلم الناس من الطعن في المقدورات الإلهية، ومن الغيبة في الملائكة

---

(١) مالك بن دينار مولىٰ لبنىٰ ناجية بن سامة بن لؤي بن غالب القرشي أبو يحيىٰ من زهاد التابعين وعبادهم ممن يصبر علىٰ الفقر الشديد، والورع الجهيد وكان يأكل من كد يده من الوراقة، وهو من أعيان من كتبة المصاحف مات ١٢٣هـ. مشاهير علماء الأمصار ص١٤٧، السير (٥/ ٣٦٢).

(٢) المُعْوِرُ من الرِّجالِ: القبيحُ السِّيرة.

والجان، فإن وصف الشخص بما ليس هو عليه من الصفات الموفية بالنسبة إليه مُلْحَقٌ بالغيبة المحرمة، فأحببتُ للإخوان السلامة من مثل ذلك.

وقد كمل بهذين الكتابين الجوابُ عن جناب القدرة الإلهية، وعن عالم الغيب والشهادة. فرحم الله من حمي سمعه وبصره ولسانه وفؤاده عن الخوض بغير علم في ذات الله وصفاته وأحوال أنبيائه ورسله وجميع عباده من الملائكة والجان، فإن جميع أعمال العبد ربما لا يرضىٰ بها كلُّ واحد يوم القيامة في نظير سوء الظن به.

وقد سمعتُ شيخَنا شيخَ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إذا أراد الله تعالىٰ أن يرقي عبدًا من عبيده إلىٰ الدرجات العلىٰ التي لا يبلغها بعمل، فربما قيَّض له الأعداء، فأشاعوا عنه شيئًا من الرذائل في بلده أو إقليمه، حتىٰ لا يكاد أحدٌ من العلماء والصالحين، فضلًا عن غيرهم يسلم من الوقوع في عرضه بغير علم، فينقل الله تعالىٰ أعمالهم الصالحة إلىٰ صحيفته، فيصبح في ليلة واحدة وهو أكثر الناس عملًا من حيثُ لا يشعر الذين وقعوا في غيبته، وهم مع ذلك يظنون أنهم أحسن حالًا منه. انتهىٰ.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واحذروا من سوء الظن بأحد من الخلق إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

ولنشرع في مقصود الكتاب فنقول وبالله التوفيق:



الباب الأول

فيما أجبتُ به عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحكم الإجمال

[وجوب اعتقاد أن النبوة غير مكتسبة]

اعلم يا أخي أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أن النبوة مكتسبة، فإن الكسب لا يصل إلىٰ مثل ذلك، لأن الحق جلَّ وعلا لما خلق الخلق قدَّرهم علىٰ منازل متفاوتة بحسب ما سبق في علمه تعالىٰ، فخلق الملائكة ملائكة، والرسل منهم أو من البشر رسلًا، والأنبياء أنبياء، والأولياء أولياء، والكافر كافرًا، والمؤمن مؤمنًا، والمنافق منافقًا، وهكذا لا يُزاد في كل نوع ولا ينقص، وليس لمخلوق عمل ولا تحصيل لمقام لم يُخلَق له، بل وقع الفراغ من ذلك كلِّه، فلا يجري أحد في غير مجراه، ولا يمشي أحد في مَدْرَجة أحد. ولو أن ذلك يصح لأحد لحصل مقام النبوة لمن ليس بنبي في الأزل، وذلك محال، فلكلِّ شخص سُلَّمٌ يخصه إن كان سعيدًا، أو دَرَكٌ يخصه إن كان شقيًا، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصحف.

[شبهة من قال: إن النبوة مكتسبة]

فإن قلتَ: فما شبهة من قال إن النبوة مكتسبة؟ **فالجواب**: لعل شبهته ما بلغه من أنه لابد للأنبياء قبل رسالتهم من التعبد والعزلة والانقطاع عن الخلق إلىٰ الحق تعالىٰ، ليتقوىٰ استعدادُ أحدِهم، ويرجع إلىٰ حالته التي جعلها الحق تعالىٰ له حين قدَّر المقادير، فلما نظر بعض الحكماء إلىٰ ذلك، ظَنَّ أن النبوة حصلت بتلك العزلة والانقطاع والتعبد، فقال به، وذلك وهم وقصور نظر.

فإن قلتَ: فما سبب إنكار بعضهم النبوات علىٰ هذا الوجه المعروف؟ **فالجواب**: لعل سببه توهمه أن كلَّ من صفا جوهرُ ذاته من كدورات الشهوات، والتزمَ مكارمَ الأخلاق، صار نبيًّا من غير أن يُوحَىٰ إليه علىٰ لسان ملك سماوي، لانتقاش جميع العلوم السماوية في مرآة قلبه حينئذٍ، فاستغنىٰ عمن يخبره بجميع الأحكام التي كان يُوحىٰ بها إليه، ولا شك أن الأمر علىٰ خلاف ما توهمه هؤلاء الفلاسفة، فما بلغنا قط عن وليٍّ مُلْهَمٍ أو حكيمٍ

صفا جوهرُه أنه أحاط علمًا بما يجري عليه حاله في كلِّ نَفَسٍ أبدًا، وغايته أن يعلم بعضًا ويجهل بعضًا، ويخطيء تارةً ويصيب أخرىٰ، بل لو سُئل اللوحُ المحفوظُ عما خطَّ الحقُّ تعالىٰ فيه من العلوم الإلهية والكونية ما عرف ذلك، كما سيأتي بسطُه في هذا الباب. فعُلم أن النبوة اختصاصٌ إلهيٌّ، وليست من فيض العقل والأرواح العلوية. وقد جهل وأخطأ من قال إنها مكتسبة.

[ضابط الفرق بين الوهب والكسب]

وذكر الشيخ محيي الدين في الباب الرابع والثمانين من «الفتوحات المكية» أن ضابط الوهب والكسب أن يقال: كلُّ ما كلفنا الشارع به فهو مقام مكتسب، وكلُّ ما لم يكلفنا به فهو وهب، ولذلك قال القوم: إن المقامات مكاسب، والأحوال مواهب. فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(١) ومما أجبتُ به من يتوهم أن المكر يدخل فيما جاءت به الرسل إلينا، كالقول فيما جاءنا من طريق الإلهام عن الله تعالىٰ.

والجواب: قد أجمع أهل الكشف علىٰ أنه لا يصح أن يدخل المكر الإلهي في شيء جاءنا علىٰ ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن الله تعالىٰ ما أرسل رسله إلا ليهدونا ويبينوا لنا ما أشكل علينا لا ليمكروا بنا، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] قولًا مطلقًا، فكل مؤمن أخذ بما جاء به رسوله فهو آمن فيه من مكر الله، خلاف ما يأخذه المؤمن عن الله من طريق الوجه الخاص المسمىٰ بالإلهام، لا بد من عرضه علىٰ الكتاب والسنة قبل العمل به، لأنه يدخله المكر والاستدراج، فإن لله تعالىٰ في عباده مكرًا خفيًّا قد لا يشعر به العبد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] فمن أراد السلامة من مكر الله به، فلا يضع ميزان الشرع من يده، فيزن به كل ما جاءه عن ربه من طريق الإلهام، فإن قبلته الشريعة عمل به وإلا أهمله.

وقد قال الشيخ الأكبر في الباب الثالث والأربعين وخمسمئة من «الفتوحات»: اعلم أن الحقَّ تعالىٰ تارةً يعطي عباده الوحيَ منه إليهم، وتارةً علىٰ أيدي رسلهم، فما جاءك

علىٰ يد الرسل فخذه من غير ميزان، وما جاءك من غير واسطة بينك وبين الله تعالىٰ فخذه بميزان الشريعة، فإن الله تعالىٰ نهاك أن تأخذ منه كلَّ عطاء، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فصار أخذك من رسولك أنفع لك، وأحصل لسعادتك، لعصمته ﷺ، فعُلم أن أخذك من الرسل علىٰ الإطلاق، وأخذك من الله علىٰ التقييد لعدم عصمتك. فانظر في هذا الأمر ما أعجبه! كون الرسول مقيَّدًا، والأخذ عنه مطلقًا، والحق تعالىٰ مطلقًا والأخذ منه مقيَّدًا. انتهىٰ، فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٢) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الأنبياء الذين لم يرسلوا كان الوحي إليهم في المنام علىٰ لسان جبريل.

والجواب: أن الذي عليه جمهور العلماء أن الوحي إليهم كان في اليقظة علىٰ لسان جبريل، ورأيتُ في كتاب «الدرر الملتقطة» لسيدي الشيخ عبد العزيز الديريني[1] أن وحي الأنبياء الذين لم يرسلوا كان في المنام علىٰ لسان جبريل دون اليقظة. انتهىٰ فلا أدري هل رأىٰ في ذلك دليلًا صحيحًا أم لا؟ والله أعلم.

(٣) ومما أجبتُ به من يقول: إن خواص الملائكة أفضل من خواص البشر.

والجواب: أن الأدب الوقف عن مثل ذلك حتىٰ نجد دليلًا صريحًا في ذلك. وأيضًا فإن من شرط التفاضل أن يكون في جنس واحد، والملك والبشر جنسان، فلا يُقال: الحمار مثلًا أفضل من الفرس، وإنما يُقال: هذا الفرس أفضل من هذا الفرس، اللهم إلا أن يُقال: التفاضل راجع إلىٰ الأرواح، فلا منع، لأن أرواح البشر كالملائكة، فالملك علىٰ هذا جزء من الإنسان، فالكل من الجزء، والجزء من الكل. وقد قال بعض أهل الكشف: كنتُ لا أذهب في مسألة تفضيل الملائكة علىٰ البشر إلىٰ شيء، حتىٰ رأيتُ رسول الله

---

(١) عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني فقيه شافعيّ من الزهاد. نسبته إلىٰ «ديرين» في غربية مصر، وقبره بها، من مؤلفاته: «التيسير في علم التفسير» و«الدرر الملتقطة في المسائل المختلطة» و«طهارة القلوب» توفي: ٦٩٤هـ. الأعلام (٤/ ١٣)، شذرات الذهب (٧/ ٧٨٥)، معجم المؤلفين (٥/ ٢٤١).

ﷺ في بعض الوقائع(1) وأخبرني بأن خواص الملائكة أفضل من خواص البشر. وأعطاني الدليل على ذلك. انتهى.

قلتُ: وهذا لا ينهض دليلًا يُعتمَد عليه لعدم عصمة الرائي.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: ما ذهب إليه المعتزلة من تفضيل خواص البشر بحسب ما فهموه من قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] لا ينهض دليلًا لهم، لاحتمال أن لا يكون المراد بالآية الترقي من الأدنى إلى الأعلى، وإنما المراد نفيُ استنكاف كلٍّ من المسيح والملائكة المقربين عن أن يكون عبدًا لله عزَّ وجلَّ وكأن لسان حضرة الله عزَّ وجلَّ يقول: إذا كان المسيح الذي ادعيتُم فيه الألوهة لا يستنكف أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون، فغير المسيح عندكم وغير الملائكة المقربين من باب أولى، فليس في ذلك نص على تفضيل خواص الملائكة على خواص البشر، مع أن نشأة الإنسان أكمل من نشأة الملك، لأنه يثاب على اجتنابه المنهيات دون الملك، فإنه لا يتوجه إليه. انتهى، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] فليتأمل.

ثم إن الخلاف لا ينبغي أن يكون إلا في غير مولانا محمد ﷺ. أما هو فقد وقع الإجماع على أنه أفضل خلق الله على الإطلاق، فلا مخلوق أفضل منه، كما سيأتي بسطه في الجواب عن محمد ﷺ فراجعه(2)، والحمد لله رب العالمين.

ثم إن مما تمسك به من يفضل خواص الملائكة على خواص البشر كونُ الملائكة دائمًا عاكفين في مقام القرب من الله تعالى، وليس لخواص البشر هذا المقام إلا في حال صلاتهم فقط، إلا أن يمدَّ الله تعالى أحدًا منهم بما فوق ذلك، كمحمد ﷺ ومن ورث مقامه من أكابر أتباعه، ومما تمسك به من فضَّل خواص البشر على خواص الملائكة ما

---

(1) أي في بعض الرؤى.

(2) انظر رقم: (٥٢)، (٦٢).

ورد «إن الله تعالىٰ يباهي بالمصلين خواص ملائكته»[١]. انتهىٰ.

وكأن لسان حال حضرة الله عزَّ وجلَّ يقول للملائكة: إني لم أبتلِ أحدًا منكم مما ابتليتُ به البشر، لأني قربتُكم ابتداءً، وأما البشر فجعلتُ بينهم وبين مقام شهودهم القرب مني حُجُبًا كثيرة، وموانع عظيمة من أمراض نفسية، وشهوات حسية، وبديع أهل ومال، وولد وخدَّام، وأهوال عظام، فقطعوا ذلك كله بالمجاهدة حين سجدوا واقتربوا. انتهىٰ.

وقد اختلف العلماء أيهما أفضل: من شرَّفه الله ابتداءً أو من ابتلاه ثم شرَّفه؟ ولكل منهما وجه، فمن وجد دليلًا صريحًا في فضل الملك علىٰ البشر أو عكسه، فليلحقه بهذا الموضع، والحمد لله رب العالمين.

(٤) ومما أجبتُ به من يفاضل بين الأنبياء والرسل بعقله ما عدا محمدًا ﷺ: اعلم يا أخي أنه لا ذوق لنا في مقامات الأنبياء حتىٰ نتكلم عليها، وغايةُ أمرنا أن نتكلم عليها بحسب الإرث المناسب لحالنا. وقد أخبرنا الحق جل وعلا أنه فضَّل بعض النبيين علىٰ بعض من غير أن يعين لنا من هو الأفضل، ولولا أن رسول الله قال: «أنا سيد ولد آدم»[٢] ما ساغ لنا أن نفضله بعقولنا ولا عرفنا مقامه.

ثم إنه يكفينا الإيمان بكونهم متفاضلين في نفس الأمر، اللهم إلا أن يُطلِع الله تعالىٰ أحدًا من أهل الكشف علىٰ شيء، فله المفاضلة به في نفسه دون إذاعته للناس.

وقد رأيتُ في الكلام علىٰ صلاة الجمعة من «الفتوحات» ما نصُّه لولا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفاضلوا بين الأنبياء»[٣] لعينتُ من هو أفضل الرسل بعد رسول الله ﷺ علىٰ

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما جاء عن عبد الله بن عمرو قال: «صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب، فرجع من رجع، وعَقَّبَ من عَقَّبَ، فجاء رسول الله ﷺ مسرعًا، قد حَفَزَهُ النفس، وقد حسر عن ركبتيه، فقال: أبشروا، هذا ربكم قد فتح بابًا من أبواب السماء، يباهي بكم الملائكة. يقول: انظروا إلىٰ عبادي قد قضوا فريضةً، وهم ينتظرون أخرىٰ» أخرجه ابن ماجه (٨٠١) وأحمد (٦٧٥٠) والبزار (٢٣٦٥).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٢٧٨) وأبو داود (٤٦٧٣) والترمذي (٣١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٤) بلفظ «لا تفاضلوا بين أنبياء الله» ومسلم (٢٣٧٣).

الترتيب، ولكن تركنا ذلك لما يؤدي إليه من تشويش قلب المحجوبين. انتهىٰ.

وقال في الباب الثاني والستين وأربعمئة: لا يعرف مراتب الرسل والأنبياء إلا عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام إذا نزل آخر الزمان، فهو الذي يترجم عن مقامات الرسل لكونه منهم، وأما نحن فلا سبيل لنا إلىٰ ذلك. انتهىٰ.

وذكر في الباب الثالث والسبعين من «الفتوحات المكية» أيضًا: من فاضل بعقله بين الأنبياء فقد وقع في الفضول، فإن نحو قوله تعالىٰ: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] لا ينهض دليلًا في تفضيل إبراهيم علىٰ موسىٰ وعكسه، للجهل بأي المقامين أفضل: الكلام أم الخُلَّة. وأطال في ذلك، ثم قال: فعُلِم أن كلَّ من فاضل بين الرسل بغير نص صريح، فقد دخل في التفرقة بين الرسل، ويُخشَىٰ أن يكون ذلك قريبًا من الكفر.

وقال في الباب الثامن والخمسين والمئة: من فاضل بين الأنبياء والمرسلين بغير نص، فقد وقع في غيبتهم وتنقيصهم، قياسًا علىٰ قول العلماء بكراهة التفضيل بين الناس، لما يؤدي إليه من كراهة أحدهم تفضيل أحد من أقرانه عليه، وما فضلت الأنبياء والمرسلون علىٰ بعضهم بعضًا من جهة رسالتهم فقط، وإنما فضلوا بأحوال أُخر ما هي عين ما وقع فيه الاشتراك. وما من جماعة يشتركون في مقام إلا والأصل أنهم متساوون فيما اشتركوا فيه. وقد يكون ما يقع به التفاضل يؤدي إلىٰ التساوي كما هو مذهب أبي القاسم ابن قَسي[1] ﷺ، ومن قال بقوله من الطائفة، فيكون كل واحد من الرسل فاضلاً من وجه، مفضولًا من وجه آخر.

قال الشيخ محيي الدين: والذي عندنا أن كلَّ رسول ورد فيه نص بالتفضيل يكون

(١) أحمد بن الحسين أبو القاسم ابن قسي، أول ثائر في الأندلس عند اختلال دولة الملثمين. وهو رومي الأصل، استعرب وتأدب وقال الشعر ثم عكف علىٰ الوعظ وكثر مريدوه. من مصنفاته: «خلع النعلين في الوصول إلىٰ حضرة الجمعين» مختصر في التصوف، شرحه محيي الدين ابن عربي. توفي: ٥٤٥هـ. الأعلام (١/ ١١٦)، هدية العارفين (١/ ٨٤).

فاضلًا من جميع الوجوه علىٰ غيره، كما في محمد ﷺ، فلم يساوِه أحد من الرسل في مقام من مقاماته. انتهىٰ.

وقال في «الفتوحات» في الجواب التاسع والعشرين من أسئلة[1] الحكيم الترمذي[2]: الذي نقول به نحن أن معنىٰ المفاضلة المعقولة من قوله تعالىٰ: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] أي أعطينا هذا ما لم نعط هذا، وأعطينا هذا ما لم نعْطِ من فضله، ولكن من مراتب الشرف، فمنهم من فضَّله الله تعالىٰ بأن خلقه بيديه وأسجد له ملائكته، ومنهم من فضله بالكلام كموسىٰ، ومنهم من فضله بالخلة، ومنهم من فضله بالصفوة وهو يعقوب ﵇، فهذه كلها صفات مجد وشرف. لا يُقال: إن خلته أشرف من كلامه، ولا كلامه أشرف من خلقه بيديه، لأن ذلك كله راجع إلىٰ ذات واحدة لا تقبل الكثرة ولا العدد، إذ جميع المراتب مرتبطة بالأسماء الإلهية، فمن فاضل بعقله فكأنه يقول: الأسماء الإلهية بعضها أشرف من بعض، ولا قائل بذلك شرعًا ولا عقلًا. انتهىٰ، فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(٥) ومما أجبتُ به من يتوهم أن كلَّ رسولٍ خليفة.

والجواب: أن الرسول لا يكون خليفة إلا إن نصَّ الله تعالىٰ علىٰ خلافته، كداود عليه الصلاة والسلام، فهو رسول وخليفة، لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]. وأما آدم فأجمل له الخلافة ولم يأمره بأن يحكم. وقد سُئل الشيخ محيي الدين عن الفرق بين الخليفة والرسول، فقال: كل من أمر ونهىٰ، وعاقب وعفا، وأمرنا الله بطاعته ولم يكن له إذن من الله في نفسه أن يأمر وينهىٰ، بل تبرع بذلك، فهو رسول لا خليفة. انتهىٰ.

---

(١) وهي ١٥٥ سؤالاً، وضعها الإمام العارف الحكيم الترمذي علىٰ سبيل الامتحان لأصحاب الدعاوىٰ من غير المحققين. وقد أجاب عنها في الباب (٧٣) من «الفتوحات المكية». والسؤال التاسع والعشرون المقصود هنا هو:؟

(٢) محمد بن علي بن الحسن بن بشر المحدث الزاهد أبو عبد الله الحكيم الترمذي الصوفي. سمع الكثير من الحديث بخراسان والعراق، من مؤلفاته: «ختم الولاية وعلل الشريعة» و«نوادر الأصول في أحاديث الرسول» و«الرياضة وأدب النفس» ت ٢٩٣هـ. الأعلام (٦/ ٢٧٢) وطبقات الشافعية للسبكي (٢/ ٢٤٥).

والشح فيهم، وتعالي الله عن مثل ذلك إذا استخدم أحدًا من الداعين إليه في دعاء عباده إلىٰ حضرته، فصح حينئذٍ طلب الأجرة المجهولة من الله تعالىٰ بخلاف الخلق. انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: من ردَّ رسالة نبي ولم يؤمن بها، كان لذلك النبي أجر المصيبة، وأجره علىٰ الله تعالىٰ بعدد من رد رسالته كثروا أم قلوا، فالنبي مأجور علىٰ كلِّ حال من حيثُ نيتُه الصالحةُ وأمنيته، فيعطيه الله تعالىٰ ثواب دعاء جميع من كان يحب هدايتهم للإيمان وفروعه ولم يهتدوا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الرسالة نعت إلهي.

والجواب: أنها نعتٌ كونيٌّ، إذ هي أمر متوسِطٌ بين مرسِل ومرسَل إليه. والمرسَلُ به قد يُعبَّر عنه بالرسالة، وقد تكون الرسالةُ حالَ الرسول، فتزول بانقضاء التبليغ، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[المائدة: ٩٩] فلا يثبتها الرسول إلا بواسطة روح قدسي ينزل بها تارةً علىٰ قلبه، وتارةً يتمثل له الملك رجلًا. وكلُّ وحيٍّ لا يكون كهذه الصفة، فلا يسمَّىٰ رسالة بشرية، وربما يسمىٰ وحيًا إلهامًا ووجودًا، فافهم، والله أعلم[١].

(٩) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الغيب الذي يطلع الله تعالىٰ عليه من ارتضىٰ من رسول لا يكون إلا بواسطة ملك.

والجواب: أنه قد يكون من غير واسطة ملك، قال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥] إذ هذا الروح مقامه فوق مقام الملائكة، بل الملائكة لا تعرفه، لأنه ليس من جنسها، فإنه روح مجرَّد غير محمول ولا نوراني، والملائكة لا تعرف إلا من كان روحًا في نور[٢]، فالروح هنا هو المُلقىٰ من عند الله علىٰ قلوب عباده. والرسالة في هذا المقام مرتفعة، لأن عين الوحي المنزَّل هو عين الروح.

ثم إن المراد بهذا الغيب الذي يطلع الله تعالىٰ عليه من ارتضاه من رسله هو علم

---

(١) انظر الجواب (١٤).

(٢) «الفتوحات» الباب (٢٨٧).

التكاليف، لا الغيب المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] ولذلك قال في آخر الآية ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]، لأن هذا الغيب هو الذي يغيب عنه العباد، ولا تستقلُّ عقولهم بإدراكه، ولهذا جعل الحق تعالىٰ له الملائكة رَصَدًا لئلا يلقي الشيطان إلىٰ ذلك الرسول ما ليس من جنس تلك التكاليف.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إن قيل: هل هذا الغيب الذي يطلع الله تعالىٰ عليه من ارتضاه من رسول يكون بواسطة ملك أو بلا واسطة؟ **فالجواب**: قد سُئل عن ذلك الشيخ محيي الدين، فقال: تكون بلا واسطة ملك، وتكون الملائكة الرَّصَد تحف ذلك الرسول، كالهالة حول القمر، والشياطين من ورائها لا تجد سبيلًا إلىٰ هذا الرسول، حتىٰ يظهر الله تعالىٰ لذلك الرسول من علم الغيب المتعلِّق بالتكاليف ما شاء، فإنه هو الذي كان خفيًّا عنه وعن العباد[1].

وأما الغيب الذي انفرد به الحقُّ تعالىٰ فيسمىٰ الغيب المحالي، لا يقدر أحد علىٰ تصوره حتىٰ يتكلم عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٠) ومما أجبتُ به من يتوهم في الأنبياء أن تغير أجسامهم عند الوحي لضعف استعدادهم، وكذلك البرد الذي يأخذهم عند الوحي، كما أشار إليه قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٢]

والجواب: أنه ما ثم في الخلق أقوىٰ من الأنبياء، لأنهم حملوا الوحي، وسمعوا من الكفار في حقِّ الله تعالىٰ ما لم تقدر السماوات والأرض والجبال أن تحمله كما سيأتي بسطه، ولكن سبب البرد أن الملَك إذا ورد علىٰ رسول بأمر من الله عزَّ وجلَّ وتلقىٰ ذلك منه الروح الإنساني، وتلاقيا أحدهما بالإصغاء والآخر بالإلقاء وهما نوران، نشأ من ذلك احتداد المزاج واشتعل، وتقوت بذلك الحرارة الغريزية المزاجية، وتغير وجه الشخص بذلك، وهو المعبَّر عنه بالحال، وذلك أشدُّ ما يكون.

(١) «الفتوحات» الباب (٣٢١).

ثم إن تلك الرطوبات البدنية تصعد بخاراتٍ إلىٰ سطح كرة البدن لاستيلاء الحرارة، ومن ذلك يكون العرق الذي يطرأ علىٰ صاحب الحال للانضغاط الذي يحصل بين الطبائع من التقاء الروحين.

ثم إن الهواء الخارج من البدن بالرطوبات يغمر المسام بقوته، فلا يتخلل الهواء البارد من خارج، لكن إذا سرىٰ عن ذلك النبي وانصرف الملَك عنه، سكَن المزاج وزالت تلك الحرارة، وانفتحت المسام، وقبل الجسمُ الهواءَ الباردَ من خارج، فتخلل الجسم وحصل البرد في المزاج، واستولىٰ علىٰ الحرارة فأضعفها، فذلك سبب البرد والقشعريرة الحاصلين لصاحب الوحي، فطلب زيادة الثياب عليه ليسخن بدنه. وهذا خاص بما إذا كان التنزل علىٰ القلب بالصفة الروحانية. أما إذا كان التنزل علىٰ ظاهر الرسول، فلا يحصل شيء من ذلك، كما هو مقرر في شرح البخاري وغيره.

[سبب اضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند تلقي الوحي]

وقد سُئل الشيخ محيي الدين عن سبب اضطجاع الأنبياء علىٰ ظهورهم عند نزول الوحي، فقال: سبب ذلك قوة الوارد، وإلا فما ثم أقوىٰ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإذا ورد عليهم الوارد الإلهيُّ الذي هو صفة القيومية، اشتغل الروح الإنساني المدبِّر عن تدبيره بما يتلقاه من الوارد الإلهيِّ من العلوم الإلهية، فلم يبقَ للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده، فلذلك رجع إلىٰ أصله، وهو لصوقه بالأرض المعبَّر عنه بالاضطجاع ولو كان علىٰ سرير، فإن السرير هو المانع له من وصوله إلىٰ التراب.

ثم إذا فرغ روحه من ذلك التلقي وصدر الوارد إلىٰ ربه، رجع الروح إلىٰ تدبير جسمه، فأقامه من ضجعته. وما بلغنا قط عن نبي أنه تخبط عقله وجسده عند نزول الوحي أبدًا. هذا مع وجود الواسطة في الوحي وهو الملَك، فكيف إذا كان برفع الوسائط، فربما كاد أن يذوبَ جسدُه فضلًا عن الاضطجاع[١]. انتهىٰ.

---

(١) «الفتوحات» الباب (٣٣).

وذكر أيضًا في الباب الثاني والأربعين وثلاثمئة من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أن أقوىٰ العباد من ينزل عليهم الوحي، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن الوحي الذي أُنزِل عليهم لو نزل علىٰ الجبل تصدع من خشية الله. ومما يشهد لهم بالقوة كونُهم سمعوا في الله تعالىٰ ما لا يليق بجلاله، وثبتوا عند ذلك مما ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠].

قال: وسبب ذلك أن الحق تعالىٰ تجلىٰ لهم في حضرة ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [الزمر: ٤]، ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ [الأنبياء: ١٧]، فعلموا- يعني الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- من الله تعالىٰ ما لم تعلمه السماوات والأرض والجبال، فأنتج لهم هذا العلمُ قوةً في نفوسهم حملوا بها ما سمعوا من الأقوال التي لا تليق في جناب الحقِّ جلَّ وعلا، من نحو: المسيح ابن الله، والعزير ابن الله، فلم يتزلزلوا. ولو أن مثلَ ذلك نزل علىٰ من ليس له هذه القوة، لذاب عظمه. فانظر يا أخي ما أكثف حجاب من اعتقد أن لله ولدًا! وما أشد عماه عن إدراك الحقائق! انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١) ومما أجبتُ به من يتوهم أن حكم النبوة ينقضي بانقضاء الدنيا كالرسالة.

والجواب كما أجمع عليه أهل الكشف: أن حكم النبوة باقٍ في الجنة لا يختص حكمه بالدنيا، بخلاف الرسالة، فإن حكمها إنما يبقىٰ إلىٰ دخول الخلق الجنةَ أو النارَ فقط.

وإيضاح ذلك أن حقيقةَ الرسالة إبلاغُ كلامٍ من متكلم إلىٰ سامع، فهو حال لا مقام، والأحوال لا بقاء لها، وإنما تتجدد الرسالة في كل حين وزمان، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ﴾ [الشعراء: ٥] فهو محدَث الإنزال والتنزل لا الوجود؛ لأن كلامه تعالىٰ قديم، ولذلك كان علمُ الرسالة يظهر للنائم في صورة اللبن، لأن الرَّسْل هو اللبن، والله أعلم.

(١٢) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الأنبياء الذين كانوا قبل نوح عليه الصلاة والسلام كانوا مرسلين فهمًا من عموم قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

والجواب: قد أجمع الناس على أن أول رسول أُرسل بعد الفَتْرة الأولىٰ هو نوح عليه الصلاة والسلام، فليس قبله رسول، إنما كانوا أنبياء فقط، فكان كلٌّ واحد على شريعة من ربه عزَّ وجلَّ فمن شاء من الناس دخل مع ذلك النبي شرعَه، ومن شاء لم يدخل.

ثم إن دخل معه أحد ورجع كان كافرًا، ومن لم يدخل ليس بكافر، وكذلك من أدخل نفسه ثم كذَّب الأنبياء يكون كافرًا، ومن لم يفعل وبقي على التصديق والبراءة لم يكن كافرًا، ولا ينافي ذلك الذي قررناه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] فإنه ليس بنص في الرسالة، وإنما هو نص في أن في كل أمة شخصًا عالمًا بالله تعالىٰ وبأمور الآخرة ينذرهم لا علىٰ وجه الرسالة، وذلك هو النبي لا الرسول، إذ لو كان المراد به الرسول لقال إليها ولم يقل فيها، فلم يكن بعد آدم رسول إلا نوح عليه الصلاة والسلام.

قال الشيخ محيي الدين ﷺ: وكان من هؤلاء الأنبياء الذين لم يرسلوا إدريس، فلم يأت لنا نص في القرآن برسالته، إنما جاء أنه كان صدِّيقًا نبيًّا فكان هو والأنبياء الذين جاؤوا بعد آدم عالمين بالله تعالىٰ، وكان كل من شاء وافقهم ودخل معهم في دينهم وتحت حكم شريعتهم، ومن شاء لم يكلف ذلك، فأول شخص افتتح الله به الرسالة بعد الفترة الأولىٰ نوح، والسلام. فاعلم ذلك فإنه نفيس.

(١٣) ومما أجبتُ به من يتوهم أن ردَّ قوم الرسول رسالته عليه وعدم انقيادهم له لضعف همته.

والجواب: أن عدم انقيادهم لرسولهم ليس لضعف في همته، وإنما ذلك لغلبة الرحمة عليه، فلا يقدح ذلك في كمال ذلك الرسول، فيسقط بذلك قول من يقول: لو كان الواعظ مخلصًا في وعظه، لأثَّر كلامُه في الحاضرين، فإنه لا أصدق من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومع ذلك فلم يؤثر قولهم في جميع السامعين، بل قال نوح الصادق الأمين: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦] فلما لم يَعُم قبول كلامه في السامعين مع تحققنا علو همة الرسل، علمنا أن الهمة ما لها أثر جملة واحدة في

المدعوين، وإنما قَبِل من قَبِل من حيثُ ما وهب الله تعالىٰ له من المزاج الذي اقتضىٰ له قبول مثل ذلك، وهو المزاج الخاص الذي لا يعلمه إلا الله، وبه كان كفر أول من كفر ممن ليس له أبوان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. ولو كان تأثير الكلام إنما هو من صدق الداعي فقط، لأسلم كل من شافهه نبي من الأنبياء بمجرد خطابه له، كائنًا من كان.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من سمع من واعظٍ قولًا ولم يؤثر فيه، فالعيب منه لا من الواعظ، ولو كان ذلك السامع سليم العقل، لأثر فيه كلُّ حقٍّ من كلام جاءه[1] علىٰ يد كل إنسان ولو كان كافرًا، لأن الحقَّ حقٌّ ولو كان علىٰ لسان كافر لم يعمل به، فكل عامل يقبل كلَّ حق جيء إليه به، ولا يلتفت إلىٰ من جاء به.

ثم إن وقع أن ذلك الشخص الذي لم يؤثر فيه كلام الواعظ إذا حضر مجلس واعظ آخر وأثر فيه، فليس ذلك من حيثُ صدقُ الواعظ الثاني، وإنما ذلك من حيثُ وجودُ نسبة بينه وبين الواعظ الثاني من اعتقاد فيه أو إحسان له ونحو ذلك. فما أثر في السامع سوىٰ نفسه، والسلام.

وفي القرآن العظيم ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٧٢] أي الذين قبلوا التوفيق علىٰ مزاج خاص، فللهادي الذي هو الله الإبانة والتوفيق، وليس للهادي من المخلوقين إلا الإبانة خاصة.

(١٤) ومما أجبتُ به من يتوهم أن النبوة نعت كوني فقط دون كونها نعتًا إلهيًا.

والجواب: أن النبوة من النعوت الإلهية، كما صرح بها الشيخ محيي الدين في الباب الخامس وخمسين ومئة من «الفتوحات»، وقال: إن مما يثبتها في جناب الحضرة الإلهية الاسم «السميع» كما يثبت حكمها أيضًا صيغة الأمر الذي في الدعاء، نحو: ربنا اغفر لنا وارحمنا، وإجابة الحق تعالىٰ لعباده فيما سألوه فيه.

قال: وليست النبوة بمعقول أمر زائد علىٰ ما ذكرناه، إلا أنه تعالىٰ لم يطلق علىٰ نفسه

(١) بالأصلين: حياة، والصواب ما أثبتناه.

اسم النبي[١]، كما أطلق علىٰ نفسه اسم الولي، مع كونه تعالىٰ أخبرنا وسمع دعانا. انتهىٰ.
فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين[٢].

(١٥) ومما أجبتُ به من يقول: يجوز اجتماع رسولين معًا في آن واحد لشخص واحد أخذًا من قصة موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام.

والجواب: أن ذلك ممتنع في العصر الواحد، إلا أن يكونا ينطقان في رسالتهما بلسان واحد في آن واحد، فإن موسىٰ وهارون هكذا كانا، قال تعالىٰ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤] ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] ونحوهما من الآيات، فلم يكن لكل واحد منهما عبارة تخصه دون الآخر، لاسيما وموسىٰ يقول عن هارون: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، فكانت رسالة هارون حقيقة من باطنية موسىٰ لا مستقلًا.

ويلغز بذلك فيُقال لنا: رسول أُرسل من باطن رسول؟ وهو هارون من باطنية موسىٰ، لكنها رسالة مقيدة لا مطلقة. وإيضاح ذلك أن رسالة هارون كانت بسؤال موسىٰ، كما أشار إليه قوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ [القصص: ٣٤]، ومعلوم أن الرسالة المستقلة المطلقة لا تكون بسؤال، بل هي موهبة من الله تعالىٰ. وبما قررنا عُلِمَ أن من قال برسالة هارون مطلقًا، فما حقق النظر، أو منع رسالته مطلقًا، فما حقق النظر، والحمد لله رب العالمين.

(١٦) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الشيطان له تسليط علىٰ قلب الرسول أو النبي فهمًا من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] الآية.

الجواب: أنه ليس للشيطان علىٰ قلوب الأنبياء سبيل، فهو يلقي إليهم وهم لا يعلمون ما يلقيه إليهم، فهم معصومون من العمل بوسوسته، لا من إلقائه إليهم الأمرَ الذي وسوس به.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: الأنبياء معصومون من العمل بوسوسة

(١) بالأصلين: الشيء، والصواب ما أثبتناه.

(٢) انظر الجواب (٨).

إبليس حالَ تنزل الوحي عليهم وغير ذلك، ألا ترىٰ أن الشيطان لما علم أن النبي ﷺ بهذه المثابة من عصمة قلبه كيف أتاه بشعلة من نار مخيَّلَة من جهة القبلة، فرمىٰ بها في وجهه ﷺ، ليفتنه بذلك عن صلاته والإقبال عليها، فتأخر النبي ولم يقطع صلاته وأخبر بذلك أصحابه[1]، فاعلم ذلك.

وقد أجمع أهل الكشف قاطبةً علىٰ أن جميع المرسلين معصومون من مطاوعة إبليس في شيء من الأمور قطعًا، لتوقف حجية السنة علىٰ القول بالعصمة، ولأن الرسول مشرِّع لنا بجميع أفعاله وأقواله وتقريراته، فلو صدق عليه الوقوع في مخالفة، لصدق عليه تشريع المعاصي، ولا قائل بذلك.

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي يقول: يُشترَط في حق الرسول العصمةُ في جميع ما يبلغه لقومه[2] عن الله عزَّ وجلَّ، فإن عصم من غير هذا الوجه فهو من مقام آخر غير هذا، كأن يُخاطَب بالتأسي به، فيصير ذلك التأسي أصلًا لا يجوز عليه فعل حرام قطعًا ولا مكروه إلا لبيان الجواز[3].

قال المحققون: ومن الفرق بين المعصوم والمحفوظ أن الأنبياء معصومون من كل فعل لا ثواب فيه حتىٰ المباح، بخلاف الأولياء، فإذا فعل الأنبياء المباح لا يفعلونه إلا علىٰ بيان أنه مباح، فهو واجب عليهم، أعني فعل المباح، لأن التبليغ واجب عليهم، بخلاف الأمة، والله أعلم.

---

(١) إشارة إلىٰ حديث أبي الدرداء قال: «قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: أعوذ بالله منك. ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثًا. وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك. قال: إن عدو الله إبليس، جاء بشهابٍ من نار ليجعله في وجهي. فقلت: أعوذ بالله منك، ثلاث مرات. ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة» أخرجه مسلم (٥٤٢) وابن حبان (١٩٧٩) والنسائي (١٢١٥).

(٢) بالأصلين: لقوله.

(٣) «الفتوحات» الباب (١٦٠).

وذكر في «الفتوحات» في الباب الثامن والستين وثلاثمئة في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦] الآية: هذا يُسمىٰ علم الحاصل في عين الفائت. فيفضل الحاصل علىٰ الفائت من حيثُ إنه قد يكون في ذلك الحاصل سعادةُ العبد(١).

قال: ومنه ما رُوي أن رسول الله ﷺ قبل رسالته حين كان يرعىٰ الغنم بالبادية، كان يريد أن يدخل إلىٰ مكة، فيصيب فيها ما يصيب الشباب من اللعب المباح، فكان يدخل مكة فيرسل الله تعالىٰ عليه النوم، فيفوته تحصيل ما دخل لأجله، فيستعجل الرجوعَ إلىٰ غنمه(٢)، فكان في ذلك عصمته من حيثُ لا يشعر، ومن هنا قالوا: من العصمة أن لا تجد. انتهىٰ.

(١٧) ومما أجبتُ به من يفهم من أحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي قصها الحقُّ تعالىٰ علينا ما لا يليق بمقامهم، كآدم والخليل وموسىٰ ولوط وسليمان عليهم الصلاة والسلام.

والجواب كما ذكره الشيخ في الباب الثاني والسبعين وثلاثمئة من «الفتوحات» أنه يجب تنزيهُ جميع الأنبياء مما نسبه إليهم بعضُ من فسَّر القرآنَ مما لم يجيء في كتاب ولا سنة، زاعمًا أنه فسَّر القرآن بالكتاب والسنة.

وقد جاء من فعل مثلَ ذلك بأكبر الكبائر والطامَّات، قال: وذلك كمسألة إبراهيم الخليل وما نسبوه إليه مما يوهم وقوعه في الشك، ولم ينظروا في قوله ﷺ: «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم»(٣)، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يشك في إحياء الموتىٰ، معاذ

---

(١) ولإيضاح المعنىٰ أكثر إليك هذا الموضع من «الفتوحات المكية» الباب (٣٦٨): «ورأيت في هذا المنزل علوما جمة، منها: علم الحاصل في عين الفائت؛ لأنه لو لا ذلك ما علمتَ فضل الحاصل علىٰ الفائت في حقك إذا كان فيه سعادتك، ولا فضل الفائت علىٰ الحاصل إذا كان الفائت مطلوبك ولو حصل لك أشقاك وأنت لا تعلم، فكان الفضل فيه في حقك فوته، فإن بفوته سعدتَ، وهذا لا يكون إلا لمن أسعده الله، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٧٢)، والحاكم وقال: صحيح علىٰ مسلم ووافقه الذهبي (٧٦١٩).

(٣) أخرجه البخاري(٣١٩٢) ومسلم (١٥١).

الله أن يشك نبيٌ في مثل ذلك! ولكن لـمَّا عَلِمَ أن لإحياء الموتىٰ وجوهًا متعددة، لم يدر بأي وجه منها يكون إحياء الله تعالىٰ الموتىٰ، وهو مجبول عليه الصلاة والسلام علىٰ طلب العلم، عيَّن الله تعالىٰ له وجهًا من تلك الوجوه، حتىٰ سكن ما كان عنده، فعلم كيف يحيي الله الموتىٰ، لا نفس إحياء الموتىٰ.

قال: وكذلك قصة لوط ويوسف وداود ويونس وغيرهم كلُّها يجب تأويلها علىٰ أحسن الوجوه.

قال: وكذلك ما نسبوه في قصة سليمان إلىٰ الملكين. وكل ذلك، أي مما لا يليق ولا يقبل التأويل، إنما هو نقل عن اليهود استحلوا بذلك أعراض الأنبياء والملائكة. وقد جرح الله تعالىٰ اليهود وغضب عليهم، فلم يلتفت الناس الذين قبلوا كلامهم لتجريح الله تعالىٰ لهم، بل ملؤوا تفاسيرهم للقرآن بذلك، فالله يحفظنا وإخواننا من غلطات الأفكار، آمين آمين آمين. انتهىٰ.

وقال أيضًا في الباب الرابع والخمسين ومئة من «الفتوحات»: ينبغي للوعاظ أن يراقبوا الله تعالىٰ ويستحيوا منه، ويكون أحدهم عالمًا بما يورده مما ينبغي لجلال الله ولمقام أنبيائه، ويجتنب الطامات في وعظه، لا سيما ما ذكره المؤرِّخون عن اليهود من ذكر زلات للأنبياء الذين أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم، ومدحهم في كتابه العزيز بالاصطفاء والاجتباء. وأطال في ذلك.

ثم قال: والداهيةُ العظمىٰ أن يجعلَ أحدُهم ذلك تفسيرًا لكلام الله عزَّ وجلَّ ويقول: قال المفسرون كذا في نحو قصة آدم وداود عليهما الصلاة والسلام، ويذكر تأويلات فاسدة، وأحاديث واهية لم تأتِ لنا من طريق يحتج بها، بل ينتهي النقل فيها عن اليهود الذين قالوا في الله تعالىٰ ما قالوا من البهتان والزور، فمن أورد مثل ذلك في مجلس وعظه مثلًا، مقتته الملائكة ونفروا عنه، بل مقته الله لكونه فتح لمن في قلبه مرض من العصاة باب حجة يحتج بها إذا وقع في معصية، ويقول في نفسه: إذا كان الأنبياء وقعوا في مثل هذا مع علو مقامهم، فأيش أكون أنا؟! وحاشا والله الأنبياء أن يفعلوا ما فهمه اليهود من قصصهم. وأطال في ذلك.

ثم قال: فالواجب على الواعظ أن لا يذكر في وعظه إلا الأخبار الصحيحة. أو ما فيه ترهيب أو ترغيب بشرطه المعروف بين المحدِّثين.

[سبب تأذي الملائكة ممن يذكر في الأنبياء ما لا يليق بمقامهم]

فإن قلتَ: فما سبب تأذي الملائكة ونفرتهم ممن يذكر في الأنبياء ما لا يليق بمقامهم؟ ومن أين عرفوا تنزيه الأنبياء عما لا يليق؟ **فالجواب**: سبب ذلك أن الله تعالىٰ عرَّف الملائكة ذلك من طريق الإلهام، فإذا سمعوا في حقِّ الأنبياء ما لا يليق، نفروا من ذلك المجلس، خوفًا من نزول البلاء عليهم بسبب وقوع ذلك الواعظ في أنبيائه وأصفيائه بالجهل، فالملائكة عالمون بقصص الأنبياء وأحوالهم. وفي الحديث: «إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلًا- يعني من نتن رائحته ورائحة ما لفظ به- فتمقته الملائكة»[1]. فعُلِمَ أنه لا ينبغي للواعظ أن يذكر إلا ما فيه تعظيم الله تعالىٰ وتعظيم أنبيائه وأحكامه وتعظيم حرماته، والتوبيخ لمن تعداها.

والغرض الأعظم من الواعظ أن يرغب الناس في أعمال الآخرة ويخوِّفهم من الوقوع في المعاصي والرغبة في الدنيا لا غير. ويختم ذلك بذكر جملة من أهوال يوم القيامة وذكر الحساب والميزان والصراط، ليتأهب الناس لمثل ذلك قبل موتهم، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين، والله أعلم.

(١٨) ومما أجبتُ به من يتوهم عدم تأكد برِّ آبائه الذين لم يذكرهم من آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ أبيه الأقرب، وينسىٰ تنبيه الحق تعالىٰ له علىٰ ذلك بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

والجواب: أنه يتأكد علىٰ كل مؤمن برَّ آبائه من الأنبياء وغيرهم بطريقه الشرعي، والدعاء لهم بالرفعة في الدرجات، رجاء أن يكون ذلك وسيلةً إلىٰ محبتهم لنا، والأخذ بيدنا في أهوال يوم القيامة.

وعبارة الشيخ محيي الدين في الباب النيف والخمسين والأربعمئة من «الفتوحات»:

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٢) والطبراني في «الأوسط» (٧٣٩٨).

يجب علىٰ كل مسلم برُّ أجداده وآبائه المسلمين، كما ينبغي له أيضًا برُّ غير آبائه من الأنبياء[1] من آدم إلىٰ أبيه الأقرب.

قال: ولقد اعتمرتُ مرةً عن أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، وأمرتُ أصحابي بذلك، فوجدنا أبواب سماء الدنيا التي فيها آدم قد فُتحِت تلك الليلة، وعرجت ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالىٰ، ونزلت ملائكة إلىٰ الأرض كذلك، وتلقونا بالترحيب والتهليل إلىٰ أن بُهِتنا منهم وذهلنا من كثرتهم، لأجل صلة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام تلك الليلة، فعُلِمَ أن رحم أبينا آدم مقطوعة عند غالب الناس، ولأجل ذلك عظُم اهتمامُ الملائكة لما وصلت، لقلة وقوع ذلك من الناس.

قال الشيخ: وقد ألهمني الله تعالىٰ صلتها فوصلتها، ووُصِلَت بسببي أيضًا[2]، وكان ذلك بتوفيق إلهي، ولم أر لأحد من أقراني في ذلك قدمًا حتىٰ أمشي علىٰ أثره فيها. وما قال تعالىٰ في غير موضع من القرآن: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ إلا ليذكرنا ببر أبينا عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فلم ينتبه أحد لهذه الأبوة ولا لوجوب حقِّها وبرِّها، وما أشبه هذه الذكرىٰ من الله تعالىٰ بقوله: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ وأين زمن هارون عليه الصلاة والسلام من زمن مريم عليها الصلاة والسلام؟! فاعلم ذلك. انتهىٰ.

وسيأتي آخر الباب إن شاء الله تعالىٰ وجوبُ اعتقاد أن أبوي نبينا محمد ﷺ من أهل الجنة، وذلك [في] أقسام أهل الفترات[3]، فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(١٩) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الدليل علىٰ من يدعي أنه رسول لا ينسحب في

---

(١) بالأصلين: الأولياء. والسيخ نقل العبارة مع تصرف من «الفتوحات المكية».

(٢) لأنه أمر تلاميذه أن يعتمروا عن سيدنا آدم مثله يقول الشيخ: «ولقد رأيتُ ذلك ذوقًا بمكة في عمرة اعتمرتُها عن أبينا آدم ﷺ، فظهر لي ذلك في مبشرة رآها بعض الناس لنا وللجماعة التي أمرتهم في تلك الليلة بالاعتمار معي عن أبينا آدم رأىٰ فيها من التقريب الإلهي وفتح أبواب السماء وعروج تلك الجماعة، وتلقاهم الملأ الأعلىٰ بالتأهيل والسهل والترحيب إلىٰ أن بهت وذهل مما رأىٰ» انظر «الفتوحات» الباب (٤٥٤).

(٣) الجواب (٧٠).

الدلالة علىٰ ما جاء به ذلك المرسَل، وأنه يحتاج إلىٰ دليل آخر.

والجواب: أن الذي عليه المحققون أن الدليل علىٰ تصديق من يدعي الرسالة ينسحب في الدلالة علىٰ ما جاء به الرسول، ولا يحتاج إلىٰ دليل آخر.

[هل يكون الرسول غير نبي؟]

فإن قلتَ: فهل يُتصوَّرُ لنا تجرد الرسالةِ عن النبوة، فيكون رسولًا غير نبي؟ **فالجواب:** قد ذهب بعضُهم إلىٰ تصور ذلك، وهو فيما إذا أُوحِيَ إلىٰ الرسول بشرع يتعلق بأمته دونه، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨] ونحوِ ذلك مما لا نصيب له هو في العمل به، ويكون ذلك واردًا علىٰ تعريفهم الرسول بأنه نبي أُوحي إليه بشرع ليبلغه إلىٰ غيره، زيادة علىٰ عمله هو به قبل ذلك. والذي نقول به أنه نبي أيضًا من حيثُ قولُ الله تعالىٰ له: قل كذا لأمتك. والله تعالىٰ أعلم.

(٢٠) ومما أجبتُ به من يتوهم بعقله أن لا فائدة لإرسال الرسل مع وجود العقل، كما عليه بعضهم في تحكيمهم العقل في التحسين والتقبيح.

والجواب: أن الشريعة قد جاءت علىٰ قسمين: قسم يستقلُ العقل بإدراكه؛ وقسم ليس للعقل فيه مجال، فإنا نجهل بالضرورة ما لنا وإلىٰ أين ننتقل، كما نجهل سبب سعادتنا إن سعدنا، أو شقاوتنا إن شقينا، كل ذلك لجهلنا بما في علم الله تعالىٰ وما يريده بنا، ولماذا خلقنا، فنحن مفتقرون بالضرورة إلىٰ التعريف الإلهي بذلك علىٰ ألسنة الرسل، فلولا إرسال الرسل ما عرفنا الفرق بين طاعة ولا معصية، ولا تميز أحد من أهل القبضتين في هذه الدار، قال تعالىٰ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فما قامت حجة الله تعالىٰ علىٰ عباده ظاهرًا إلا بإرسال الرسل، وما سعد من سعد وشقي من شقىٰ إلا بالقسمة الإلهية، وليس للرسل أثر في ذلك، إنما عليهم البلاغ فقط، قال الله تعالىٰ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾[المائدة: ٩٩]، وإذا عمل أحد بما جاء به رسوله فليس ذلك من أثر الرسول، وإنما هو بالقسمة.

ولسان حال من لم يعمل بما جاء به رسولُه يقول إذا أمره رسولُه بفعل شئ: هل نفعل ما قسمه الحقُّ تعالىٰ لنا أم ما لم يقسمه؟ فلا يسعُ الرسول إلا أن يقول: افعلوا ما قسمه الحقُّ تعالىٰ لكم.

فإذا قالوا له: هل نفعل ذلك في الوقت الذي جعله الحقُّ تعالىٰ فيه [أم قبله؟ فلا يسعه أن يقول إلا: في الوقت الذي جعله الحقُّ تعالىٰ فيه][1] فإذا قالوا له: فإذن لا يُطلَب الفعل المذكور منا إلا إذا دخل الوقت الذي جعله الحقُّ تعالىٰ فيه، فاصبر علينا. فيقول لهم: بهذا أمرتُ.

فقد بان لك حكمةُ بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام في كل زمان، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فما عاند بعد إرسال الرسل إلا من لم ينصح نفسه ممن حُقَّ عليهم كلمةُ العذاب.

[النواميس الوضعية والشرائع الإلهية]

وكان الشيخ محيي الدين ابن العربي رحمه الله يقول: جميع الحدود التي حدَّها الربُّ جلَّ وعلا في هذه الدار لا تخرج عن قسمين: قسم يُسمَّىٰ سياسة حِكمية بكسر الحاء؛ وقسم يُسمَّىٰ شريعة، وكلاهما إنما جاء لمصلحة بقاء أعيان الممكنات في هذه الدار.

فأما القسم الأول: فطريقُه الإلقاءُ بمثابة الإلهام عندنا، وذلك لعدم ظهور شريعة بين أظهر أهل ذلك الزمان، فكان الحق تعالىٰ يلقىٰ في فطر نفوس الأكابر من الناس الحكمةَ، فيحدون الحدود ويضعون النواميس، كلِّ مدينة وإقليم وجهة بحسب ما يقتضيه مزاجُ أهلِ كلِّ واحدة منها وطبعائهم، فانحفظ بذلك أموال الناس ودماؤهم وأهلوهم وأرحامهم وأنسابهم، وسَمُّوا ذلك نواميس، ومعناها أسباب خير؛ لأن الناموس في الاصطلاح هو الذي يأتي بخير عكس الجاسوس. فهذه هي النواميس الحكمية التي وضعها العقلاءُ عن إلهام من الله تعالىٰ من حيثُ لا يشعرون، وذلك لأجل نظام العالم وصلاحه وصحةِ ارتباط بعضه ببعض.

قالوا: ويتعين عقلًا استعمال النواميس الوضعية أيام الفَترات لنظم شمل العالم. وقد

---

(١) ساقط من «ب».

يأجر الله تعالىٰ من وضع ذلك في زمن الفترات. انتهىٰ[١].

وقال أيضًا في الباب التاسع وثلاثين وثلاثمئة من «الفتوحات»: اعلم أن الشرع على قسمين: شرع منزل إلهي؛ وشرع حكمي سياسي عند فقد هذا الشرع. فلا تخلو أمة من تدبير يقوم بسياستها، لإبقاء المصلحة في حقها، سواء كان ذلك الشرع إلهيًّا أو سياسيًّا.

فإن قلتَ: فهل كان لواضعي هذه النواميس علم بأنها تقربهم إلىٰ الله أم لا؟ فالجواب: لم يكن لهم علم بذلك، بل ولا يعلمون إن ثم بعثًا ولا نشرًا ولا حشرًا، ولا جنة ولا نارًا ولا شيئًا من أحوال الآخرة، لأن ذلك ممكن، وعدمه أيضًا ممكن، ولا دليل في ترجيح أحد الممكنين، بل رهبانية ابتدعوها، فلهذا كان مبنىٰ نواميسهم ومصالحهم علىٰ إبقاء الصلاح في هذه الدار لا غير.

ثم إنهم لما انفردوا في نفوسهم بالعلوم الإلهية من توحيد الله تعالىٰ، وما ينبغي لجلاله من التعظيم والتقديس، وعدم المثل والشبيه، صاروا يحرضون الناس علىٰ النظر الصحيح، وكان جُلّ انشغالهم في ذلك.

ثم لما عرفوا ذلك، بحثوا عن حقائق نفوسهم حين رأوا أن الصورة الجسدية إذا ماتت ما نقص من أعضائها شيء، فعلموا أن المدرِكَ والمحرِك لهذا الجسم أمرٌ آخر زائد عليه، فبحثوا عن ذلك الأمر الزائد، فعرفوا نفوسهم بما حده لهم عقلُهم لا غير، فأورثهم ذلك ترددًا بين التنزيه والتشبيه، وحيرةً بين سلب المعرفة وإثباتها في حق العالم.

فلما أورثهم ذلك ما ذُكر، أقام الحقُّ تعالىٰ لهذا الجنس الإنساني شخصًا ذكر أنه جاءهم من عند الله برسالة يخبرهم بها، فنظروا بالقوة المفكِرة، فرأوا أن الأمر جائز ممكن، فلم يعزموا علىٰ تكذيبه، ولم يروا علامةً تدل علىٰ صدقه، فوقفوا وسألوه: هل جئت بعلامة من الله تعالىٰ نعرف بها صدقك في أنك رسوله؟ فإنه لا فرق بيننا وبينك إلا ذلك، فجاءهم بالمعجزة، فمنهم من آمن عندها، ومنهم من كفر. انتهىٰ[٢].

---

(١) «الفتوحات المكية» الباب (٦٦).

(٢) نفس المصدر والباب.

وسيأتي قريبًا بسطُ ذلك، وسيأتي الكلامُ علىٰ المعجزة والفرق بينها وبين السحر والكرامة في هذا الباب إن شاء الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢١) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بالأصالة للموحدين، ليرقوهم في الدرجات، وغيرهم إنما هو بحكم التبع.

والجواب: أن الذي عليه أهل الكشف قاطبةً أنهم لم يُبعثوا بالأصالة إلا للمشركين، ليدعوهم إلىٰ التوحيد، لكون المشركين أبعدَ الخلق من حضرة الله تعالىٰ، فكانوا هم الأصل في إرسال الرسل، ليردوهم إلىٰ الله تعالىٰ بعد شرودهم من حضرة القرب. وبذلك أجاب الشيخ محيي الدين من سأله عن ذلك في الباب الثاني والسبعين من «الفتوحات» قال: ولهذا أهدىٰ النبي ﷺ البُدْن[1] مع قوله عنها: «إنها شياطين»[2] ليثبت عند العقلاء العالمين بمثل ذلك أن من مقامه ﷺ رد البعداء من حضرة البعد إلىٰ محل القرب. وإنما أشعرها في جنب سنامها الأيمن مع أن سنامها أرفع ما فيها، لينبه علىٰ كبرياء المشركين التي كانوا عليه في نفوسهم. وأيضًا فإن الصفحة مشتقةٌ من الصَّفْح، فكان فيها إشعار من الله تعالىٰ أن يصفح عمن كان هذه صفته إذا طلب التقرب من حضرة الله تعالىٰ.

فإن قيل: فما حكمةُ جعله ﷺ النعال في رقاب البدن؟ **فالجواب**: حكمةُ ذلك الإشارة إلىٰ زوال الكبرياء التي كانت عند المشركين قبل إسلامهم وإهدائهم البُدْن، وزوال صفة الشيطنة التي كانت في البُدْن، فكأنها توضع النعال في رقابها تُصْفَع بها كما يُفْعَل بأهل الهوان والذلة، ومن وصل إلىٰ مثل هذه الحالة، فما بقي عنده كبرياء تظهر.

فإن قيل: قد أهدىٰ ﷺ مرةً غنمًا وهي طاهرة من الشيطنة، فما الحكمة من ذلك؟ **فالجواب**: هو إشارة إلىٰ مثل تقريب الموحدين قربانهم، ليترقوا في مقامات التوحيد، فقد علمتَ بذلك أن حكمةَ بعثة الرسل ردُّهم الشاردين، وترقيتَهم للموحدين. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري عن علي رضي الله عنه (١٧١٨)، ومسلم (١٣١٧).

(٢) أخرجه أبو داود من حديث البراء بن عازب (١٨٤) والنسائي (٤٣٥٦).

[الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾]

فإن قلتَ: فما الحكمة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] دون أن يقول «شخصًا» بدل ﴿رَسُولًا﴾، ولم قال ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ دون قوله «مثيبين»؟ فالجواب: إنما قال تعالىٰ: ﴿رَسُولًا﴾ ولم يقل «شخصًا» لأنه لا بد من إثبات رسالة النبي المبعوث عند من وُجِّه إليه أولًا حتىٰ يجب عليه امتثالُ أمره واجتنابُ نهيه، فلو قال تعالىٰ: «شخصًا» بدل ﴿رَسُولًا﴾ ما كان يفيدُ ما ذكرناه، فلابد أن تقومَ الدلالةُ الظاهرةُ عند كلِّ شخص شخص ممن بُعِثَ إليهم، فرب آية يكون فيها غموض أو احتمال بحيث أن لا يدرك بعضُ الناس دلالتَها، فلا بدَّ أن يكون الدليلُ علىٰ صحة الرسالة في غايةِ الوضوح عند كلِّ من قام له، حتىٰ يثبت عنده أنه رسول، وحينئذٍ إن جحد بعدما تيقن، تعينت مؤاخذتُه.

قال الشيخ محيي الدين: وفي هذه الآية رحمةٌ عظيمةٌ لما هم الخلق عليه من اختلاف الفِطَر المؤدي إلىٰ اختلاف النظر. وما فعل الله تعالىٰ ذلك إلا ليفتح به بابَ الرَّحمة علىٰ من يريد رحمتَه من عباده. انتهىٰ[1].

وأما حكمة قوله تعالىٰ: ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ دون «مثيبين» فلما قدمنا من أن إرسال الرسل بالأصالة إنما هو للمشركين ليدعوهم إلىٰ التوحيد. وأما ترقية الموحدين في مقامات التوحيد والأعمال الصالحة فهم بحكم التبع، فكان ذكر التعذيب للمشركين هو اللائق بالحال.

[السبب المانع من العمل لمن سمع كلام الدعاة إلى الله]

فإن قلتَ: فما السبب المانع من العمل لمن سمع كلام الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ من الموحدين الجامعين لشروط التكليف، العالمين بوجوب العمل بما سمعوه منهم؟ وهل حكمه في الآخرة كحكم من لم يسمع أصلًا تمسكًا بظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، فيكون الحقُّ تعالىٰ قد تفضل عليه وعفا عنه، أو يكون حكمه كحكم من سمع ولم ينتفع، فيكون تحت المشيئة؟ فالجواب

---

(١) «الفتوحات» الباب (٣٧٤).

عن السؤال الأول: أن المانع هو عدم القسمة، وإن كان ذلك لا ينهض حجة له شرعًا. وأما الجواب عن السؤال الثاني: فالمسؤول عنه تحت المشيئة الإلهية.

[ليس من شرط الداعي نفوذ بصره في غالب المدعوين]

فإن قلتَ: فهل من شرط الداعي إلىٰ الله تعالىٰ من رسول أو وارث نفوذ البصر في غالب المدعوين؟ فالجواب: ليس ذلك شرطًا في حقه، إنما الشرط نفوذ بصره في المدعو إليه فقط، فهو ينظر في عين كل مدعو ويدعوه، فإن رآه يجيب ولابد، دعاه من الطريق التي يمكن المدعو منها الإجابة بطريق الإلحاح والتشديد؛ وإن رآه لا يجيب دعاه من غير إلحاح ولا تشديد، لإقامة الحجة عليه خاصة. ومن هنا قالوا في كل داع إلىٰ الله إنه حجة علىٰ أهل زمانه، والله أعلم.

[السبب المانع من سماع خطاب الحق لعباده]

فإن قلتَ: فما السبب المانع من سماع خطاب الحق تعالىٰ لعباده، ومن استغنائهم عن إرسال رسول إليهم؟ فالجواب: أنه لم يسبق في علمه أن يكون الأمر إلا علىٰ ذلك، فلا سبيل إلىٰ تغيير ما سبق. وأيضًا فإنه ليس كل مخلوق يطيق سماع خطاب الله عزَّ وجلَّ ولو أنه قوَّىٰ عباده علىٰ ذلك، لبطلت حكمةُ إرسال الرسل التي سبق بها العلم.

وقد سُئل عن مثل ذلك الشيخُ أبو [محمد] طاهر القزويني رحمه الله[1]: فأجاب بقوله: اعلم يا أخي أن الحقَّ جلَّ جلالُه لما خلق جميعَ الكائناتِ من فضله وإحسانه، لم يتركهم هَمَلًا غافلين عما يرجع إلىٰ مصالحهم في الأمور الدينية والدنيوية، بل بعث إليهم منهم رسلًا مبشرين ومنذرين، ليبلغوا إلىٰ أسماع عباده كلامَه، حين كان تعالىٰ منزهًا عن المجيء إليهم والنزول عليهم. وبتقدير أن يجيء إليهم أو ينزل وَحيه إليهم كالرسل ما

(١) أبو محمد طاهر بن أحمد بن محمد القزويني، كان أديبًا فاضلاً، كان يغلب عليه علم الكلام، له تصانيف منها: سراج العقول في منهاج الأصول، نور الحقيقة ونور الطريقة. يواقيت العلوم ودراري النجوم، ت ٥٨٠هـ. التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٩٦)، معجم الأدباء (٤/ ١٤٥٦).

كانوا يهتدون إلىٰ فهم كلامه تعالىٰ بغير صوت ولا حرف، ولا يطيقون رؤيته وسماع كلامه كفاحًا، لعدم سبق علمه تعالىٰ بإقدارهم علىٰ ذلك.

قال: وقد ألمَّ بعضُ الشعراء بهذا المعنىٰ، فقال:

ولما تعذر أن نلتقي وطال النزاع وزاد الألم

سعيت إليك برجل الرسول وناجاك عني لسان القلم[1]

قال تعالىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] فعُلِمَ أنه تعالىٰ لم يرسل لنا الرسل إلا بفضله، كما أنه ما خلق الكون إلا بفضله، إذ لا يجبُ علىٰ الحق تعالىٰ شيء ولو أوجبه علىٰ نفسه، كما هو مقررٌ في كتب العقائد.

قال: ومن هنا كانت النبوة غير مكتسبة، بل محض فضل منه ورحمة، خلاف ما ادعاه المعتزلة ومن تابعهم من قولهم بوجوب النبوات عقلًا من جهة اللطف. وعند أهل الحق أن النبوات جائزة عقلًا، واجبة تواترًا ونقلًا تنتهي إلىٰ المعاينة، وأنها من فضل الله ورحمته وتدبيره في الملك والملكوت بأوامره ونواهيه علىٰ ما يشاء كيف يشاء.

[حقيقة النبوة]

قال: وحقيقةُ النبوة خطابُ الله تعالىٰ لشخص بقوله: «أنت رسولي» «وقد اصطنعتك لنفسي»، الله أعلم حيث يجعل رسالاته[2]، ولذلك لم تكن مكتسبة يتوصل إليها بالنسك والرياضة كالولاية كما ظن بعض الحمقىٰ؛ لأن الله تعالىٰ قد حكىٰ عن الرسل ما يخالف ذلك بقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾[إبراهيم: ١١]، وأمر محمدًا ﷺ أن يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] فقد علمت أن النبوة صفة راجعة إلىٰ اصطفاء الحق تعالىٰ شخصًا بخطابه، لا إلىٰ نفس ذلك الشخص الذي هو النبي حتىٰ يُقال: إنه استحق النبوةَ لذاته، فافهم.

---

(١) لأبي إسحاق الصابي.

(٢) كذا بالأصلين.

[بقاء النبوة بعد الموت، والرد على المعترض على ذلك]

فإن قلتَ: فإذن النبوة باقية بعد الموت لا تبطل به ولا بالنوم والغفلة؛ **فالجواب**: وهو كذلك. **فإن قال قائل**: إن النبوة مأخوذة من النبأ أي الخبر، إذ النبي مخبِر عن الله تعالىٰ، ومن مات لا يخبر؛ **قلنا له**: حدُّ النبوة صادقٌ عليه أبدًا حيًّا وميتًا كحكم نكاحه، كما قال ﷺ: «زوجاتي في الدنيا زوجاتي في الآخرة»(١)، وقال أيضًا: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»(٢).

[الحكمة في عدم كون الرسل من الملائكة]

فإن قال قائل: هلا كان الحق تعالىٰ أرسل الملائكة بدل الرسل من البشر، لأنهم بهيئتهم الملَكية كانوا أدعىٰ إلىٰ الحق والاستجابة لهم، حتىٰ إن الكفار كانوا لا يقولون ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: ٢٤]؛ **فالجواب**: أن السؤال قد سبق من كفار مكة، وأجابهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]. والمعنىٰ في ذلك والله أعلم: أن في الرسالة امتحانًا واختبارًا للناس، فينظر تعالىٰ ما يكون من عباده إذا أرسل إليهم رسولًا منهم، وهو العالم بما يكون قبل أن يكون هل يقوم بهم داء الحسد، فلا يطيعون ذلك الرسول، أم يطيعونه؟ إذ الحسد لا يكون إلا في الجنس الواحد، فليس بين البشر والملك حسد.

وأيضًا فإن غالب البشر لا يطيقون رؤيةَ صور الملائكة بحقائقهم وصفاتهم، فضلًا عن سماع كلامهم، والجنس إنما يستأنس بالجنس. ولا عجب من فزع الآدميِّ من صورة الملَك الذي يَسدُّ الخافقين بنشر جناح واحد من أجنحته(٣).

---

(١) قال الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ٢٨١) لم أجده بهذا اللفظ، وفي البخاري (٧١٠٠) عن عمار أنه ذكر عائشة فقال: إني لأعلم أنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.

(٢) أخرجه البزار (٦٨٨٨)، وأبو يعلىٰ (٣٤٢٥) والبيهقي في «حياة الأنبياء» (١).

(٣) إشارة إلىٰ حديث أخرجه البخاري (٣٧٤٨) عن ابن مسعود في قوله تعالىٰ: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ» قال: « رأىٰ جبريل، له ستمائة جناح»، زاد أحمد (٣٧٤٨) «كل جناح منها قد سد الأفق».

وقد ذكر الشيخ أبو [محمد] طاهر القزويني رحمه الله أن الله تعالىٰ خلق في أقاصي بلاد الصين وجزائرها أناسًا لو أبصرونا خرُّوا لوجوههم موتىٰ. ولو أبصر واحد منا صورة أحدهم لانشقت مرارته خيفة منه. انتهىٰ(١).

وحديث بدء الوحي مشهور، فإن رسول الله ﷺ مع قوته وشهامته لما رأىٰ المَلَك أولًا بجبل حراء، قاعدًا علىٰ كرسيٍّ بين السماء والأرض، وله صوتٌ هائل، امتلأ منه رعبًا وهوىٰ من الجبل إلىٰ الأرض، وجاء إلىٰ بيت خديجة وهو يقول: «زملوني زملوني»(٢) فعلىٰ هذا لو بعث الله تعالىٰ ملائكةً رسلًا إلىٰ عباده، لفروا منهم ولم يطيقوا سماع كلامهم، بل ربما صعقوا لهيبتهم وماتوا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] أي لماتوا من هيبته في الحال.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: أولُ ابتلاءٍ ابتلىٰ الله الخلقَ به في الدنيا إرسالُه الرسل إليهم منهم. وكان من رحمة الله بنا أننا آمنا بهم من غير اجتماع. ولو أننا كنا في زمنهم، لربما قام بأحدهم داء الحسد، فلم يؤمن برسوله، فكان يدخل النار. انتهىٰ.

وكان يقول أيضًا: كان للصحابة كمالُ الإيمان، وللتابعين كمالُ العلم، ولتابع التابعين كمالُ العمل. ولما فات غير الصحابة مشاهدة رسول الله ﷺ، أعطاهم الله الإيمان بالغيب، جبرًا لما فاتهم من كمال الإيمان، فأشبهوا الصحابة في درجة إيمانهم بالغيب، بل قال بعضهم: إن الصحابة ما فضلوا إلا لمشاهدتهم رسول الله ومعجزاته. وأما نحن فصدَّقنا ما بلغنا عنه من غير مشاهدة شيء من أحواله، فكان لنا الفضل بذلك عند الله تعالىٰ حيثُ صدَّقنا وآمنا بما وجدناه منقولًا في أوراق سواد في بياض، ولم نطلب علىٰ ذلك دليلًا ولا ظهور آية، فلله الحمد علىٰ مجيئه بنا في الزمن الأخير، ولو أننا جئنا في عصره ﷺ لما عرفنا ما كان يقع عند مشاهدته ﷺ، هل إذا كان يقوم بنا داءُ الحسد فلا نطيقه، أم كنا نغلب نفوسنا ونطيقه؟ فإن الصحابة لولا مَنَّ الله تعالىٰ عليهم بقوة الإيمان،

---

(١) القزويني، «سراج العقول» (٣٥٧).

(٢) حديث بدء الوحي أخرجه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

لربما توقفوا عن تصديقه. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من فائدة كون الرسول من جنس المرسَل إليهم الاستئناسُ بحكم الجنسية، ليمكنها الأخذ عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: لما اصطفىٰ الله تعالىٰ الأنبياء في سابق علمه للنبوة وأداء الرسالة، رشحهم كذلك في مبادئ أمورهم، وحماهم من مكايد الشيطان، وصفَّىٰ سرائرهم من الكدورات، وشرح صدورهم بنوره، وزينهم بالأخلاق الجميلة، وطهَّرهم عن الرجس والرذائل، كما يشهد لذلك ما في البخاري وغيره «من أن جبريل عليه السلام شقَّ عن قلب رسول الله ﷺ وهو يلعب مع الصبيان، فأخذه وصرعه وشقَّ عن قلبه، فاستخرج منه شبه علقة، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب من ماء زمزم، ثم لأمه وأعاده كما كان في مكانه»[1]. انتهىٰ.

وهذا لا يستحيل في العقل حتىٰ يحتاج إلىٰ التأويل كما أنكره الروافض ومن تبعهم. انتهىٰ.

قال سيدي علي الخواص رحمه الله: وليست صورةُ الشقِّ المذكور في الحديث مثلَ صورة شقِّ الذبح بالسكين كما قد يُتوهم، وإنما ذلك كشف لباطنه ﷺ بيد جبريل من غير ألم يصيبه أو دم يصبُّه، وحاشا حشاه ﷺ من مثل ذلك، بأبي هو وأمي.

قال: وهذا قريب مما قالوه في إخراج الذرية من ظهر آدم. وما توقف في تصور ما قلناه إلا من وقف مع المألوفات ولم يخرج عنها. ويؤيد ما قلناه قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١] أي لم يحصل في صدرك للهوىٰ منفذًا، ولا للشيطان عليك سبيلًا، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الثابت في البخاري حادثة شق صدره ﷺ في الإسراء (٧٠٧٩)، أما ما نقله الشيخ رحمه الله فقد أخرجه مسلم (١٦٢).

(٢٢) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الشرع جاء مخالفًا للطبع فهمًا من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧] الآية.

والجواب: أن الشرع ما جاءنا إلا بموافقة الطبع السليم، كما ذكره الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والتسعين ومئتين من «الفتوحات» وقال: إذا كان الأمر كذلك، فلا أدري من أين جاء الإنسان المشقة والكلفة. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن الصفات التي جُبِل الإنسان عليها لا يصح أن تتبدل، إذ هي ذاتية له في هذه النشأة الدنيوية والمزاج الخاص، وذلك كالشح والجبن والبخل، والحسد والحرص والتكبر، والغلظة وطلب القهر، وأمثال ذلك، ولما كانت لا تتبدل جعلَ الحقُّ تعالىٰ لها مصارف، وصرفها إليها حكمًا مشروعًا، فإن تبعت النفسُ تلك المصارف، سعدت ونالت الدرجات، وتجنبت إتيان المحارم، لما تتوقعه من خوف وقوع المضرة، وشحَّت بدينها، وحسدت من أنفق المال في مرضاة الله تعالىٰ، أو طلب العلم لله تعالىٰ وعمل به، وحرضت علىٰ فعل الخير، وتكبرت بالله تعالىٰ علىٰ من تكبر عن امتثال أمر الله، وأغلظت القول والفعل في كل موطن علمت أنه يرضي الله، وطلبت القهر لكل من عادىٰ الحق تعالىٰ وقاتل أولياءه، وهكذا.

فقد علمت بهذا أن النفس لم تزل عن صفاتها، وإنما صرفت تلك الصفات في المصارف التي علمت أن ربها يحمدها عليها، فالاسم الاسم، والمعنىٰ مختلف. وعلمت بذلك أيضًا أن الحق تعالىٰ لم يحجر علىٰ العبد ما يقتضيه طبعه كما توهمه صاحب السؤال السابق، فلم يهلك الخلق إلا سُلطان الأغراض النفسانية، فإنه هو الذي أدخل عليهم الألم والمكروه، ولو أنهم صرفوا أغراضهم إلىٰ ما أحبه لهم خالقهم، لاستراحوا ولم يلحقهم ضيق ولا حصر.

[حاجة الناس إلى نور التوفيق]

فإن قلتَ: فهل يحتاج الناس مع الشرع الوضَّاح إلىٰ أمر آخر في طريق هدايتهم؟ فالجواب: نعم يحتاجون إلىٰ نور التوفيق المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى

ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[النور: ٣٥]، فلا تكمل الهداية إلا بنور الشرع مع نور التوفيق، والنور الواحد بمجرده لا يظهر له ضوء، ولاشك أن نور الشرع الآن قد وضح كوضوح الشمس، ومع ذلك فلم يبصره الأعمىٰ ولم يؤمن به، ولو كان نور البصيرة موجودًا كذلك بمجرده ولم يظهر للشرع نور، لم يدر صاحب نور البصيرة كيف يسلك؛ لأنه في طريق مجهولة لا يعرف ما فيها ولا ما ينتهي إليه، فالماشي في هذه الطريق إن لم يحفظ سراجه من الأهواء وإلا هبت عليه الرياح الزعازع، فأطفأته وأذهبت نوره. ومرادنا بالزعازع كل ريح تؤثر في نور توحيده وإيمانه، فإذا هبت ريح لينة، أمالت سراجه ولسانه- يعني السراج- حتىٰ تحير في الطريق، فتلك الريح كمتابعة الهوىٰ في فروع الشريعة، وهي المعاصي التي لا يكفر بها الإنسان، ولا تقدح في توحيده وإيمانه. فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣) ومما أجبتُ به من يتوهم أن المعجزة شرط لإجابة دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

والجواب: أن الذي عليه الجمهور من أهل الكشف أن المعجزة ليست بشرط في ذلك، لأنها ما خرجت عن كونها ممكنة، والقدرة لا تتعلق إلا بإيجاد الممكنات. وإذا أتىٰ الرسول بالممكن، فإنما يكون المعجِزُ في ذلك عدمَ الإتيان ممن أُرسل إليهم بمثل ذلك الذي تحدَّىٰ به الرسول، مع كون ذلك ممكنًا ولابد، فيحتمل وقوعه وعدم وقوعه.

ثم إذا نظرنا إلىٰ الذين انساقوا بالمعجزة إلىٰ الإيمان، رأينا أن ذلك إنما كان لاستقرار الإيمان عندهم، فتوقفت استجابتهم علىٰ المعجزة لضعف إيمانهم. وأما غيرهم فما احتاج إلىٰ ظهور ذلك، بل آمن بأول وهلة بما جاء به رسولُه، لقوة نصيبه من الإيمان، فلذلك استجاب بأيسر سبب. وأما من ليس له نصيب من الإيمان فلم يستجب بالمعجزة ولا بغيرها، كأبي جهل وأبي لهب، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأنعام: ١٢٥].

فقد علمت أن أصحاب العقول السليمة إذا شاهدوا المعجزات، لم يبقَ عندهم شك في أن ما جاء به ذلك الرسول حقٌّ من عند ربه عزَّ وجلَّ بخلاف العقول المؤفة[1]. وفي مثل ذلك نظم بعضُ يهود الشام أبياتًا، وقدمها للشيخ صدر الدين القونوي[2]، فأجابه الشيخ عليها، وهي هذه:

أيا علماء الدين ذمي دينكم ... تحير دلوه بأوضح حجة

إذا ما قضىٰ ربي بكفري بزعمكم ... ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

دعاني وسدَّ الباب دوني فهل إلىٰ ... الدخول من سبيل بينوا لي قضيتي

قضىٰ بضلالي ثم قال: ارض بالقضا ... فها أنا راض بالذي فيه شقوتي

فإن كنت بالمقضي يا قوم راضيًا ... فربي لا يرضىٰ بشؤم بليتي

وهل لي رضا ما ليس يرضاه سيدي ... وقد حرت دلوني علىٰ كشف حيرتي

إذا شاء ربي الكفر مني مشيئة ... فها أنا راض باتباع المشيئة

وهل لي اختيار أن أخالف حكمه ... فبالله فاشفعوا بالبراهين غلتي

فأجابه الشيخ صدر الدين رحمه الله بقوله[3]:

صدقتَ، قضىٰ ربي الحكيم بكل ما ... يكون وما قد كان وفق المشيئة

وهذا إذا حققتَه متأملًا ... فليس يسد الباب من بعد دعوة

---

(١) أي أصابتها آفة.

(٢) الشيخ الكبير الشهير صدر الدين، أبو عبد الله القونوي محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف. صحب الشيخ محي الدين ابن عربي. وله تصانيف في السلوك منها: «النفحات» و«تحفة الشكور» و«تجليات» و«تفسير الفاتحة» في مجلدة. توفي بقونية ٦٧٢هـ وأوصىٰ أن يُحمل تابوته إلىٰ دمشق ويُدفن مع شيخه ابن عربي فلم يتهيأ له ذلك. انظر: الوافي بالوفيات (٢/ ١٤١) وهدية العارفين (٢/ ١٣٠).

(٣) الصحيح أن الأبيات لعلاء الدين القونوي، وهو علي بن إسماعيل بن يوسف الشافعي، كان تقيًا حسن السمت كثير العلم والإفادة، انتفع به الناس في مصر والشام، أقام بالقاهرة ثلاثين سنة، ثم ولي قضاء الشام وأقام دون عامين إلىٰ أن مات في رابع عشر ذي القعدة سنة (٧٢٩هـ) تسع وعشرين وسبعمائة وعمره (٦٢) سنة. «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (١٠/ ١٣٤).

لأن من المعلوم أن قضاءه بأمر على تعليقه بشريطة
يجوز لا يأباه عقل كما ترىٰ حدوث أمور أخرىٰ تأدت
كما الري بعد الشرب والشبع الذي يكون عقيب الأكل في كل مرة
فليس يبدع أن يكون مُعلَّقًا قضاء الإله الحق رب البرية
بكفرك مهما كنت بالبغي رافضًا تعاطي أسباب الهوىٰ مع مكنة
فمن جملة الأسباب مما رفضته مع الأمر والإمكان لفظ الشهادة
فأنت كمن لا يأكل الدهر قائلًا أموت بجوع إذ قضىٰ لي بجوعة

فلم يكتف اليهودي بهذا الجواب، وطلب منه جوابًا أوضح من ذلك، فقال له: الجواب الذي يريده لا يذكر إلا مشافهة لمن يكتم أسرار الله.

[حدُّ المعجزة التي أيَّد الله تعالى بها رسله عليهم السلام]

فإن قلتَ: فما حدُّ المعجزة التي أيَّد الله تعالىٰ بها رسله؟ **فالجواب:** قد حدَّها علماءُ الأصول بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة من المرسَل إليهم، بأن لا يظهر بينهم مثل ذلك الخارق.

والمراد بـ«التحدي» هو الدعوىٰ للرسالة، وبـ«المثل» هو المثل العادي وإن لم يقترن بالتحدي، إذ المراد اكتفاؤنا بدعواه الرسالة لا غير. فإذا قيل له: إن كنت رسولًا، فأتِ لنا بمعجزة، فأظهر الله تعالىٰ لنا علىٰ يديه معجِزًا، كان ظهوره دليلًا علىٰ صدقه، ونازلًا منزلة التصريح بتصديق الله له علىٰ التحدي. قالوا: وأصل التحدي أنه تَفَعُّل من الحَدِي، أي تكلف الحَدِي علىٰ وجه يباري فيه الحادي شخصًا آخر. وخرج بقولهم: «مقرون بالتحدي» الخارق المتقدم علىٰ التحدي، وذلك يتناول ما وُجِد من النبي قبل النبوة، وهو المسمىٰ عند علماء الأصول «إرهاصًا» أي تأسيسًا للنبوة من أرهصت الحائط إذا أسسته. وخرج أيضًا بـ«الخارق للعادة» غيرُ الخارق كطلوع الشمس كل يوم، والخارقُ من غير تحدٍّ، ككرامات

الأولياء(١)، وخرج أيضًا الخارق المتقدم علىٰ التحدي والمتأخر عنه بما يخرجه عن المقارنة العرفية، وخرج أيضًا الشِّعر والشعبذة والكهانة من المرسَل إليهم، إذ لا معارضة بذلك.

فمرادهم بالخارق علىٰ ما قررناه أن يظهر علىٰ خلاف العادة، كإحياء ميت، وإعدام جبل، وانفجار ماءٍ من بين الأصابع، ونحو ذلك.

[الفارق بين ما وقع على أيدي الأنبياء، وما سيقع على يد الدجَّال]

فإن قيل: قال العلماء: إن المعجزة دليل واضح علىٰ صدق الرسول لاستحالتها علىٰ يد كاذب، وقد ورد في الدجال أنه يحيي ويميت إذا خرج(٢)، فكيف الحال في ذلك؟

والجواب: أن ما يقع علىٰ يد الدجال أمور مُخيَّلة لا حقيقة لها، بخلاف ما يقع علىٰ يد الأنبياء، هذا ما ظهر لي في الجواب.

وقد توقف الشيخ محيي الدين في الجواب عن ذلك حيثُ سُئل عنه، وقال في باب الصلاة من «الفتوحات» في قوله ﷺ: «وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»(٣) إنما استعاذ ﷺ من فتنته تشريعًا لأمته لا منه، لعظيم فتنته، وذلك لما يظهر للخلق في دعواه الألوهية، وما يخيله للناس من الأمور الخارقة للعادة، مثل: إحياء الموتىٰ وإمطار السماء، وغير ذلك مما ثبت في الأخبار والآثار. ثم إن جعله ذلك آيات علىٰ صدق دعواه في غاية الإشكال، وذلك من أكبر القوادح فيما قرره أهل الكلام في العلم بالنبوات من استحالة المعجِزة علىٰ

---

(١) ويجوز أن يتحدىٰ الولي بكرامته علىٰ دعوىٰ ولايته، وحينئذٍ تفارق الكرامة المعجزة أن المعجزة خارق يتحدىٰ به علىٰ دعوىٰ الرسالة، والكرامة خارق يتحدىٰ به علىٰ دعوىٰ الولاية، قال الشيخ عبد الله الشرقاوي في حاشيته علىٰ الهدهدي: « والصحيح أنه يجوز أن يدعي الولاية ويتحدىٰ بالكرامة، أي يدعيها دليلًا علىٰ صدقه، فيقول: أنا ولي الله تعالىٰ. وآية ولايتي أن ينفلق البحر مثلًا. ويعلم أنه نفسه ولي بخلق علم ضروري له بذلك. وحينئذ فلا تفترق المعجزة من الكرامة إلا بدعوىٰ الرسالة فقط. وعلىٰ هذا يكون تعريف المعجزة المذكور شاملًا للكرامة، فإن كلًّا أمرٌ خارق للعادة مقرون بالتحدي».

(٢) أخرجه البخاري (١٨٨٢)، ومسلم (٢٩٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧٩٨) ومسلم (٥٨٩).

يد الكاذب، فإنه يبطلُ بهذه الفتنة عند من لم يبلغه تكذيبه من الصادق كلُّ دليل قرروه.

وأيُّ فتنة أعظم من فتنة تقدح في الدليل الذي أوجب السعادة للعباد؟![1] فأسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا وإخواننا من أهل الكشف والوجود، الجامعين بين المعقول والمشهود، آمين. انتهىٰ.

وكان الشيخ أبو [محمد] طاهر القزويني رحمه الله يقول: البرهان القاطع علىٰ ثبوت نبوة الأنبياء هو المعجزات، وهو فعل يخلقه الله تعالىٰ خارقًا للعادة علىٰ يد مدعي النبوة مقترنًا بدعواه. وذلك الفعل يقوم مقامَ قول الله عزَّ وجلَّ له: «أنت رسولي» تصديقًا لما ادعاه.

مثاله: قام إنسان في ملأ من الناس بحضرة ملك مُطاع، فقال: يا معشر الحاضرين، إني رسول من عند هذا الملك، وإن علامة صدقي أن الملك يقوم فيرفع التاج عن رأسه. فيقوم الملك في الحال ويرفع التاج عن رأسه عقب دعوىٰ هذا المدعي، أليس ذلك الفعل منه يتنزل منزلة قول الملك: صدقتَ أنت رسولي؟ لكن يجب أن يراعىٰ في ذلك ثلاثة أمور كما قررناه، وهي: الفعل الخارق للعادة، واقترانه بالدعوىٰ، وسلامته من المعارضة، إذ لو رفع الملك التاج بقول غيره أو بعد ذلك بمدة لا يكون حجة لهذا المدعي. فهذه الثلاثة أمور بمجموعها برهان قاطع علىٰ صدق مدعي الرسالة نازل منزلة التصديق بالقول، وهو مثل حصول العلم بسائر الأشياء من شواهد المقال وقرائن الأحوال.

[رد قول المعترض: إن اقتران المعجزة بدعوى النبي لا ينهض دليلًا على صدقه]

فإن قيل: إن اقتران المعجزة بدعواه لا ينهض دليلًا علىٰ صدقه، لأن نفس الاقتران بالإضافة إلىٰ دعواه وإلىٰ غير دعواه من طريق الأقوال والأفعال بمثابة واحدة؛ **فالجواب**: أن سبيل تعريف الله تعالىٰ عباده صدق الرسل بالمعجزات، كسبيل تعريفه تعالىٰ ألوهيته

---

(١) وقد أجاب الإمام الشعرانيُّ عما يقع علىٰ يد الدجَّال بأنه أمور متخيَّلة غير حقيقية يفتن بها ضعاف العقول، فإن الدجل هو إظهار الباطل في صورة الحقِّ، وما كلُّ أحد ينفذ بصره حتىٰ يدرك الأمور المتوهمة ويميزها عن غيرها. انظر: «اليواقيت والجواهر» (المبحث التاسع والعشرين). وانظر تعليقه علىٰ الموضع المذكور في «مختصر الفتوحات المكية» ص: (١/ ٣٢٠).

بالآيات الدالة عليها، وذلك قد يكون مرة بالقول ومرة بالفعل. فتصديق القول كقوله ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وتصديقه بالفعل كما علَّم آدم الأسماء كلَّها، ثم قال للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، وقد علَّم الله تعالىٰ نبيَّنا ﷺ القرآن، ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] [و] كما عجزت الملائكة عن معارضة آدم عليه الصلاة والسلام، كذلك عجزت العرب عن معارضة محمد ﷺ بالقرآن، فدلت الأسماء هناك والقرآن هنا علىٰ صدق النبي الذي هو أول الأنبياء، وعلىٰ صدق محمد الذي هو آخر الأنبياء، فعلىٰ هذه الصفة صح أن المقترن بدعواه المعجزة له تأثير عظيم وينتهض دليلًا، بخلاف الاقتران بما لا يعجز الخلق عنه عادة.

[خرق العوائد على وجوه كثيرة]

فإن قلتَ: فهل خرق العوائد أمر متحد أم هو علىٰ وجوه كثيرة؟ **فالجواب**: هو علىٰ وجوه كثيرة، منها ما يكون عن قوة نفسية، فإن أجرام العالم تنفعل للهمم النفسية، هكذا جعل الله تعالىٰ الأمر فيها؛ وقد تكون عن حيل طبيعية كالقلفطريات ونحوها، وهي معلومة عند العلماء؛ وقد تكون عن نظم حروف بطوالع، وذلك لأهل الرصد؛ وقد يكون بأسماء يتلفظ بها ذاكرها، فيظهر عنها ذلك الفعل المسمَّىٰ خرق عادة في عين الرائي لا في نفس الأمر، وهذه الأمور كلها تحت قدرة المخلوق بجعل الله تعالىٰ.

قال الشيخ أبو طاهر: ولا يكون خرق العادة إلا لمن خرق العادة من نفسه بكثرة العبادة والطهارة الباطنة والظاهرة، بحيث صار منقادًا للشرع في كلِّ حركة وسكون، فإن خرق العادة إن لم يكن عن استقامة فهو مكر واستدراج لصاحبه من حيثُ لا يشعر.

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي يقول: ليس خرق العادة إلا مرة واحدة، فإذا عاد ثانيًا صار عادةً، [و] في الحقيقة الأمر جديد دائمًا، وما ثم ما يعود، فما ثم خرق عادة، وإنما هو أمر يظهر في زي غيره لا عينه، فلم يعد فما هو عادة. فلو عاد لكان عادة، وانحجب الناس عن هذه الحقيقة. قال: وقد نبهتك علىٰ ما هو الأمر عليه إن كنت تغفل ما أقول،

لأن الله تعالىٰ خلّاق علىٰ الدوام، فأين التكرار؟![1]

فإن قلتَ: فكم يكون الإعجاز علىٰ ضرب؟ **فالجواب**: يكون علىٰ ضربين لا ثالث لهما: **الأول**: أن يمكن صدقه، فيدعي في ذلك أن الذي هو مقدور لكم في العادة إذا أتيتُ به دليل علىٰ صدق دعواي، فإن الذي أرسلني يصرفكم عنه، فلا يقدرون علىٰ معارضته، وكل من كان في قدرته ذلك يجد العجز في ذلك الوقت، فلا يقدر علىٰ إتيان ما كان قبل هذه الدعوىٰ يقدر عليه، وهذا أقطع للبس[2] من **الضرب الثاني**، وهو أن يأتي بأمر لا يكون في مقدور البشر أبدًا، ولا يقدر عليه إلا الله، كإحياء الميت ونحوه من إنزال المطر، لكن الوصولُ إليه علىٰ طريق العلم أنه حي في نفس الأمر عزيزٌ لا يدركه إلا أهل الكشف منا، فإننا رأينا عصا موسىٰ حية، وعصي السحرة حيات، ولم يفرق العامة بين الحياتين، فلهذا كان الوصول إلىٰ علم ذلك عزيزًا جدًّا[3].

[المراد بتلقُّف عصا موسى لما صنعوا]

فإن قلتَ: فما المراد بتلقُّف عصا موسىٰ لما صنعوا؛ **فالجواب**: المراد بتلقفها انكشاف الحال للسحرة والناس أنها حبال وعصي حين ظهرت حجة موسىٰ عليهم، لا أن الحبال والعصي انعدمت، إذ لو انعدمت لدخل عليهم اللبس في عصا موسىٰ، وكانت الشبهة تدخل عليهم فلا يؤمنون، فتنبه يا أخي لذلك فإنه نفيس، وإيضاحه أن الله تعالىٰ قال: تلقف ما صنعوا، والسحرة لم يصنعوا الحبال والعصي بسحرهم، وإنما صنعوا في أعين الناس صور الحيات، وهو الذي تلقَّفته عصا موسىٰ، ولو كان علىٰ خلاف ما قلنا، لقال: «تلقفت حبالهم وعصيهم» فكانت الآية عند السحرة خوف موسىٰ من الحيات، وأخذ صورها من الحبال والعصي. وعلىٰ ما توهمه بعضهم من أن عصا موسىٰ ابتعلت الحبال والعصي في بطنها يقال: إن الذي جاء به موسىٰ من قبيل ما جاءت به السحرة، إلا

---

(١) انظر «الفتوحات»، الباب ١٨٦.

(٢) بالأصلين: للنفس. والمثبت من «الفتوحات».

(٣) انظر «الفتوحات»، الباب ١٨٧.



أن سحر موسىٰ أقوىٰ من سحر السحرة.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: إنما أظهر موسىٰ الخوف من عصاه حين ظهرت في صورة حية، ليعلم السحرة أن ذلك منه ليس بسحر، لعلمهم أن أحدًا لا يخاف من فعل نفسه. وأطال في ذلك.

ثم قال: فعُلِمَ أن المرادَ بتلقفها للحبال والعصي انكشافُ الحال للناس والسحرة أنها حبال وعصي، كما يبطل الخصمُ بالحقِّ حجةَ خصمِه ويظهر بطلانها، لا انعدم الحبال والعصي. ذكره في الباب السادس عشر والباب الأربعين من «الفتوحات».

قال: والسحر مأخوذ من السَّحَر الزماني، وهو اختلاط الضوء والظلام، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح، ولا هو بنهار لعدم طلوع الشمس، فكذلك القول في هذا الذي يُسمَّىٰ سحرًا ما هو باطل محقق فيكون عدمًا، فإن العين أدركت أمرًا ما لا شك فيه، وما هو حقٌّ محض، فيكون له وجود في عينه، فإنه ليس هو في نفسه كما يشهده العين ويظنه الرائي، والله أعلم.

[هل قولهم «كل معجزة لنبي تجوز أن تكون كرامة لوليٍّ» مطلق أم مقيَّد]

فإن قلتَ: فهل يجب تقييد كلام العلماء في قولهم: «ما كان معجزة لنبي، جاز أن يكون طريقة لولي» بقيد أم هو مطلق؟ **فالجواب**: الذي عليه الجمهور أن ذلك جائزٌ مطلقًا ما لم يكن من خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وخالف في ذلك المعتزلة والشيخ أبو إسحاق الإسفراييني[1] فقالوا: لا يجوز أن يكون ما ظهر معجزةً لنبي أن يكون مثله كرامةً لوليٍّ من سائر الخوارق، وإنما مبلغ الكرامة إجابة دعوة، أو موافاة ماء في محل لا يُعهَد فيه ماء، ونحو ذلك مما ينحط عن خرق العادات.

---

(١)) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني، الملقب بركن الدين، الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي. نشأ في إسفرايين (بين نيسابور وجرجان) ثم خرج إلىٰ نيسابور وبنيت له فيها مدرسة عظيمة فدرّس فيها. من مؤلفاته: «الجامع في أصول الدين»، و«رسالة في أصول الفقه». توفي:٤١٨هـ. وفيات الأعيان (١/ ٢٨)، الأعلام (١/ ٦١).

وقال الشيخ محيي الدين: ما قاله الأستاذ رحمه الله هو الصحيح عندنا، إلا أنا نشترط أمرًا آخر لم يذكره الأستاذ، وهو أنا نقول: لا يجوز أن تكون المعجزة كرامةً لوليٍّ إلا إذا قام الوليُّ بذلك الأمر المعجِز عادةً علىٰ وجه التصديق لذلك النبي، دون أن يقوم به علىٰ وجه الكرامة لنفسه، فلا يمتنع ذلك كما هو مشهود بين الأولياء.

قال: ويقع لنا كثير من ذلك، قال: اللهم إلا أن يقول ذلك الرسول في وقت تحديه بمنع وقوعها من غيره في ذلك الوقت خاصة، أو في مدة حياته خاصة، فإنه جائز أن يقع ذلك الفعل كرامة لغيره بعد انقضاء زمانه الذي اشترطه. وأما إن أطلق ذلك النبي ولم يقيد، فلا سبيل إلىٰ ما قال الأستاذ . انتهىٰ. ذكره في الباب السابع والثمانين بعد المئة من «الفتوحات».

وظاهر إطلاقهم أنه لا فرق في تلك المعجزة التي تصح أن تكون كرامةً لوليٍّ بين القرآن وغيره للزوم التحدي به أيضًا[1]. وبذلك صرح اليافعي رحمه الله قال: ولا التفات إلىٰ من يقول: إن ذلك يؤدي إلىٰ الالتباس بين الكرامات والمعجزات، لأن بينهما فرقًا واضحًا، وهو أن المعجزة إذا توقفت الإجابة عليها، يجب علىٰ النبي أن يتحدىٰ بها ويظهرها. والكرامة يجب علىٰ الوليِّ أن يخفيها إلا عن ضرورة أو إذن أوحال غالب عليه لا يكون له فيه تعمُّلٌ ولا اختيار. ومن ذلك أن يريد بإظهارها تقوية يقين المريدين، كما وقع لبعضهم أنه غرف عسلًا من الهواء ووضعه في يد مريده. وأيضًا فإن الولي لا يدعو إلا إلىٰ شرع مقرر ثابت لا شك فيه، فهو بحكم التبع لنبيه فيما دعا إليه، فلا يحتاج إلىٰ دليل علىٰ صحة طريقه ودعواه، بخلاف النبي، لأنه يدعو بشرع أتاه من ربه عزَّ وجلَّ ربما يكون فيه نسخ شريعة لغيره، فيحتاج إلىٰ ما يؤيده.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: كانت معجزات الأنبياء بحسب ما هو غالب علىٰ قومهم، فأتىٰ موسىٰ بما يبطل السحر لما كان السحر غالبًا علىٰ قومه، وأتىٰ عيسىٰ بإبراء الأكمه والأبرص لما كان الطب غالبًا علىٰ قومه، وأتىٰ محمد ﷺ بالقرآن

(١) أي وليس ذلك مرادًا لهم، فلا يقع التحدي بمثل القرآن، بل يقع التحدي بأسرار القرآن، فيكون للولي كرامة، وللنبي معجزة.

الكريم المعجِز بفصاحة كل بليغ و مِصْقَع[1] فصيح، لما كان الغالب على قريش التفاخر بالفصاحة والبلاغة. انتهىٰ.

[الرد على من يعترض على كون القرآن معجزة مع أنه ليس فعلًا]

فإن قال قائل: قد شرطتُم في المعجزة أن تكون فعلًا كما مر، ثم إنكم ادعيتم أن القرآن معجزة، والقرآن كلام الله وصفة من صفاته كالعلم والقدرة، فلو جاز أن يكون صفة الكلام معجزة، لجاز أن يكون صفة العلم والقدرة معجزة؛ **فالجواب**: أن المعجِز حقيقة إنما هو الله تعالىٰ، فإنه خالق العجز والقدرة. وإنما سُمِّي الفعلُ الخارقُ للعادة معجزةً علىٰ طريق التوسع والمجاز لا علىٰ الحقيقة، كمن نظر إلىٰ صاعقة تقع من السماء فيقول: انظروا إلىٰ قدرة الله تعالىٰ، والحال أنها إنما هي من آثار قدرته لا عين قدرته، فإن العجز إنما يكون عن مقدور عليه، وليس إحياء الميت مثلًا من مقدور البشر حتىٰ يقال إنه عجز عن إحياء الموتىٰ.

وقد يحس الإنسان من نفسه عدم القدرة علىٰ شيء، والقدرة علىٰ شيء، ويعلم أن عدم القدرة ليس بعجز مطلقًا، كما أن عدم العلم ليس بجهل مطلقًا، فإن الجدار مثلًا عادم للعلم وليس بجاهل، لفقده شرط العلم والجهل معًا الذي هو الحياة.

والعامة يعبرون عن عدم القدرة بالعجز، وذلك وهم وتخييل، لأن العجز يقارن المعجوز عنه، كالقدرة تقارن المقدور عليه، فعُلِمَ أن مرادهم بقولهم القرآن معجزة، أي من حيثُ نظمُه وتأليفُه علىٰ الهيئة الغريبة والأساليب العجيبة، وذلك من فعل الله تعالىٰ الخالق لكل شيء. فمن هنا كان معجزة لنبينا ﷺ؛ لأن الله تعالىٰ قد أعجز جميع قومه أن يأتوا بمثله دلالةً علىٰ صدق رسوله ﷺ. وليس مرادهم بقولهم القرآن معجزة من حيثُ إنه صفة قائمة بذات الله تعالىٰ، فزال الإشكال، لأن القرآن يُطلق علىٰ القراءة وعلىٰ المقروء، كما هو مقرر في علم الكلام، فافهم.

---

(١) مِصْقَع: فصيح بليغ.

[الفرق بين المعجزة والكرامة]

فإن قلتَ: فما الفرق بين المعجزة والكرامة؟ **فالجواب:** قد ذكر الأئمة في ذلك فروقًا كثيرة، فقال بعضهم: إن الفرق بينهما أن المعجزةَ تقع عند قصد النبي وتحديه، والكرامةَ تقع من غير قصد الولي. وضعَّف بعضهم هذا الفرق وقال: إنه يجوز أيضًا أن الكرامة تقع بقصد الولي، وإنما الفرق الصحيح أن المعجزة تقع مع التحدي، والكرامة لا يتحدىٰ بها الولي. وقال بعضهم: التحدي لا يختص بالنبي، فيجوز للوليِّ أن يتحدىٰ بكرامته علىٰ ولايته إذا عرف في ذلك مصلحة ومنفعة له وللخلق، ليهديهم إلىٰ طريق الحقِّ. وقال بعضهم: الفرق بينهما أن المعجزة لا تقع إلا بعد دعوىٰ ومع سكوته لا يكون معجزة، بخلاف الكرامة يجوز أن تقع مع كلامه ومع سكوته معًا، والله أعلم.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: أظهر الفروق بين المعجزة والكرامة ما قاله أشياخنا: إن الولي إذا ادعىٰ بالفعل الخارق أنه وليٌّ صُدِّق، لأنه لا يقدح في معجزة النبي. وإن ادعىٰ بالفعل الخارق أنه نبي كذبناه، والكاذب لا يكون وليًّا لله تعالىٰ، فلا يظهر علىٰ يديه ما يظهر علىٰ أيدي الأنبياء والأولياء. ويؤيد ذلك قولُ الأشياخ: إن المعجزات علامات صدق حيثُ وُجِدَت، فلا تظهر علىٰ يد الأولياء إذا ادعوا النبوة، لأنها لو وُجدت عندهم لانقلب الصدق كذبًا، وذلك محال، والله أعلم.

[الفرق بين السحر والشعبذة]

فإن قلتَ: فما الفرق بين السحر والشعبذة؟ **فالجواب:** أن السحر في اللغة أداء الباطل في صورة الحق؛ والشعبذة خفة اليد في تقليب الأشياء، منسوبة إلىٰ رجل اسمه شعباذ معرَّب.

[السحر ثابت واقع]

فإن قلتَ: فهل السحر حق؟ **فالجواب:** نعم، هو عندنا حق علىٰ معنىٰ أنه ثابت واقع، خلافًا للمعتزلة والروافض والدهرية في إنكارهم السحر. ودليلُنا علىٰ ثبوته إجماعُ الأمم سلفًا وخلفًا من المسلمين والكفار من بلاد الإسلام وبلاد الهند والروم والفرس، ونطقُ القرآن بذلك.

[الفرق بين المعجزة والسحر والشعبذة]

فإن قلتَ: فما الفرق بين المعجزة والسحر؟ **فالجواب**: أن من الفرق بينهما أن المعجزة قد تبقىٰ بعد النبي زمانًا، والسحرُ سريعُ الزوال.

فإن قلتَ: فما الفرق بين الشعبذة والمعجزة؟ **فالجواب**: أن المعجزة يُظهرها النبيُّ علىٰ رؤوس الأشهاد وعظماء البلاد. وأما الشعبذة فلا يظهرها صاحبها إلا علىٰ الصغار وضعفاء العقول وجهلة الناس.

[السحر لا يبدل الصورة]

واعلم يا أخي أن الناس قد اختلفوا في السحر وأثره، فقيل: إنه يمكن به تبديل الصورة، فيقلب الإنسان كلبًا أو خنزيرًا أو تمساحًا. **والذي يظهر لنا أن مثل ذلك من خرافات العوام والنساء.**

وأما التفريق به بين المرء وزوجه فهو ثابت بصريح القرآن، وقد ذمت الشريعة الساحر، لأن الله تعالىٰ قد أمر بالاجتماع والألفة، والساحر يفرق بين الناس غالبًا.

ثم إن الله تعالىٰ لما علم أزلًا أن الافتراق لابد منه لكل مجموع مؤلَّف، لحقيقة خفيت عن الخلق، شرع لنا الطلاق رحمةً بنا، لنكون تحت الإذن في جميع أحوالنا، محمودين عنده غير مذمومين، إرغامًا للشياطين الذين يطلبون التفرقة بين الخلق، ومع ذلك فقد ورد «أبغض الحلال إلىٰ الله الطلاق»[1] وذلك لأنه كالرجوع إلىٰ العدم، فإن بائتلاف الطبائع ظهر وجود التركيب، وبعدم الائتلاف كان العدم وتعطيل كثير من تأثيرات الأسماء الإلهية، فلأجل هذه الرائحة، كره التفريق بين الزوجين وغيرهما، لعدم الائتلاف والاجتماع، والله أعلم.

[الفرق بين المعجزة والكهانة]

فإن قيل: فما الفرق بين المعجزة والكهانة؟ **فالجواب**: أن الفرق بينهما أن المعجزة فعل خارق للعادة مقرون بالتحدي -كما مر تقريره- يقوم مقام تصديق الله تعالىٰ لذلك الرسول

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨)، والبيهقي في السنن (١٤٨٩٤).

بالقبول. وأما الكهانة فهي كلمات تجري علىٰ لسان الكاهن تارة توافق، وتارة تخالف.
ومن الفرق بين الكاهن والنبي: أن النبي لا يكون قط إلا كامل الخُلُق والخَلْق، وأما الكاهن فالغالب عليه أن يكون ناقص الخَلْق، مختل العقل، فإن قُدِّر أنه ادعىٰ النبوة بكهانته، فربما يقابله بدعواها كاهن آخر، فلا يُقدَر علىٰ الفرق بين الكاهنين البتة، بخلاف النبوة، فإن النبي إذا تحدىٰ بالمعجزة وقابله مدعٍ كاذب لا يجوز أن يظهر له معجزة مثل معجزة الصادق. وقد تقدم أن معنىٰ المعجزة تصديق الله الصادق، فكيف يكون تصديقًا للكاذب؟! فاعلم ذلك.

[ردُّ قول من يجوِّز إظهار المعجزات على يد الكاذب]

فإن قلتَ: إذا جوزتم إضلال الله من شاء من عباده وإغواءهم فما يشعركم أنه تعالىٰ يؤيد بالمعجزة بعض الكذابين إضلالًا وإغواء؛ **والجواب**: أن ذلك محال، لأن تأييد الله تعالىٰ العبد بالمعجزة نازل منزلة قول الحق تعالىٰ لذلك العبد: «صدقتَ وأنت رسولي» كما مرَّ، وتصديق الكاذب من المحال لذاته وعينه، إذ كلُّ من قال الحقُّ تعالىٰ له: «أنت رسولي» صار رسولًا وخرج عن كونه كاذبًا، والجمع بين كونه كاذبًا وكونه رسولًا صادقًا محال.

وكان أبو [محمد] طاهر القزويني رحمه الله يقول: ذكر بعض الأئمة أن إظهار المعجزة علىٰ يد الكاذب من المقدورات، بناءً علىٰ أن ما علم الله أن لا يكون لا يخرج عن كونه مقدورًا، وخلاف المعلوم مقدور، ثم هو وإن كان مقدورًا فهو غير واقع قطعًا، كما لا ينقلب العلم جهلًا، والقدرة عجزًا، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤) ومما أجبتُ به من عنده قصور نظر عن معرفة أسرار الشارع في بعض الأحكام التي أباحها، ويجد في نفسه ضيقًا وحرجًا من فعلها ويقول: أي شيء أعمل؟! هذا شيء أباحه الشرع! كأنه يقول في نفسه: إن عنده من الحكم ما هو أحوط في الدين، ولا يتفكر في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]

والجواب: أن من اختار غير ما اختار الله تعالىٰ، حُرِم الإيمان أو قَرُب من الكفر، كما

يقع في ذلك كثيرًا من غلب عليه الخبث، فيرىٰ أمورًا قد أباحها الشارع، فيكره ذلك ويجد في نفسه منها ضيقًا وحرجًا، ويقول: لو أن الحكم لي فيها، لحجرتُها وحرمتُها، فيرجِّح نظره في ذلك علىٰ نظر الشارع، ويجعل نفسه أرجح ميزانًا منه، وينخرط في سلك الجاهلين.

وقد كان الشيخ محيي الدين يقول: إياك أن تعيب علىٰ الناس وتغضب عليهم إذا فعلوا أشياء من مباحات الشرع، وتقول إذا عجزتَ عن كف الناس عنها: أي شيء أصنع؟! هذا شيء قد أباحه الشرع! فتصير علىٰ كره وحنق في نفسك في استعمال الناس شرع ربهم، وذلك من أعظم ما يكون من سوء الأدب. ذكره أواخر باب الحج من «الفتوحات» وأطال في ذلك[١].

ثم قال: ومثل هذا المعترض ممن أضله الله علىٰ علم، فإننا نعلم ونتحقق أن الشارع[٢] هو الله. وأما الرسول فإنما هو مبلِّغ عن الله تعالىٰ في أحكامه فيما أراه الله، لا ينطق قط عن هوىٰ نفسه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وفي الحديث: «وسكت عن أشياء رحمةً بكم فلا تسألوا عنها»[٣]، فما قرر الشارع من الشرائع إلا ما تحصل به المصلحةُ في العالم، فلا يُزاد فيها ولا يُنقَص منها. ومهما زيد فيها أو نقص منها أو لم يعمل بما قرره الشارع، فقد اختل نظامُ المصلحة المقصودة للشارع فيما أنزله من الشرائع وقرره من الأحكام. وقد عاب العارفون بالله تعالىٰ علىٰ من قال: لو رأىٰ النبي ﷺ ما أحدث الناس من كذا أو كذا، ما أباحه؛ لإيهام هذا القول أن الله تعالىٰ لم يعلم أن مثل ذلك يقع من عباده إذ كان هو المشرِّع سبحانه وتعالىٰ لا غيره، فرجَّح مثل هذا نظره علىٰ نظر الله تعالىٰ، ولا يخفىٰ ما فيه.

فإن قلتَ: فإذا كان الله تعالىٰ هو المشرِّع وحده، فما معنىٰ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

(٢) بالأصلين: الشرع. والمثبت من «الفتوحات» وهو الصواب.

(٣)أخرجه الحاكم بنحوه (٧١١٤)، والبيهقي في «السنن» (١٩٧٢٥) والدارقطني في«السنن» (٤٣٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٥٨٩) وقال ابن حجر في المطالب العالية (٢٩٣٤): رجاله ثقات إلّا أنه منقطع.

تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فهل دعاء الله غير دعاء الرسول أو هو عينه؟ فالجواب كما قال الشيخ في الباب التاسع عشر وخمسمئة من «الفتوحات»: إن دعاء الله تعالىٰ له خصوصية علىٰ دعاء الرسول، وذلك أن الرسول إن دعانا بالقرآن فهو مبلِّغ وترجمان عن الله تعالىٰ، والله تعالىٰ هو الداعي لا الرسول، فإجابتنا حينئذٍ لله تعالىٰ، والإسماع للرسول. وأما إذا دعانا بغير القرآن، فهذا هو دعاء الرسول، فتكون إجابتنا فيه للرسول. ثم إنه لا فرق في الحقيقة بين الدعاءين ولا بين الإجابتين، لرجوع ما دعانا به الرسول إلىٰ الله تعالىٰ، وإن تميز[1] كل منهما عن الآخر بخصوص وصف. وقد روي الطبراني مرفوعًا: «إني شرعت لكم مثل القرآن أو أكثر»[2]، وفي حديث آخر: «إن الله تعالىٰ فرض فرائض، وفرضتُ فرائض»[3].

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: من استحكم فيه سلطانُ الإيمان بما أنزل الله تعالىٰ، لا يجد في نفسه قط حرجًا مما قضي الشرع بإباحته صريحًا أو سكت عنه، كاجتماع الناس في مواضع التنزهات، وحضور النساء الواعظ، والتفرج علىٰ خروج الحاج[4] ونحو ذلك. وفي الحديث: «لا تمنعو إماء الله مساجد الله»[5] قولًا عامًا، فلا يمنع النساء من المساجد إلا عند حصول ريبة أو فاحشة، وحينئذٍ لا فرق بين المساجد وغيرها، كخروجها للسوق لبيع غزلها مثلًا.

---

(١) بالأصلين: يمين. والمثبت من «الفتوحات».

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما أخرجه أبو داود (٣٠٥٠) من حديث العرباض بن سارية السلمي بلفظ «ألا وإني والله قد وعظت، وأمرت، ونهيت، عن أشياء إنها لمثل القرآن، أو أكثر»، والبيهقي في «السنن» (١٨٧٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٧٢٢٦).

(٣) الجزء الأول منه أخرجه الطبراني في الصغير (١١١١)، والدارقطني في السنن (٤٨١٤) أما الجزء الثاني من الحديث «وفرضت فرائض» فلم أقف عليه.

(٤) أي علىٰ موكب الحجاج.

(٥) أخرجه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢).

ثم شرطُ المنع التحقُّقُ لا التوهُّم، فلا ينبغي للفقيه أن يغار إلا في المواطن التي شَرَع الحقُّ تعالىٰ له الغيرةَ فيها ولا يتعداها، فإن كلَّ غيرةٍ خرجت عن حكم الشرع، فهي خارجة عن حكم تمام العقل، وعن الأدب مع الشارع، لانبعاثها من هوىٰ النفس، كما إذا غار الشخصُ علىٰ زوجته إذا كشفت وجهها في الصلاة أو في الإحرام، فإن الله تعالىٰ قد شرع لها ذلك، بل أوجب عليها كشف وجهها في الإحرام، مع أنه أغير من جميع خلقه، كما في حديث الصحيحين: «إن سعدًا لغيور، وأنا أغير من سعد، والله تعالىٰ أغير منا»[1]، وفي رواية: «لا أحد أغير من الله، ومن غيرته أنه حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[2]. انتهىٰ.

فمن زاد علىٰ ما جعل الله تعالىٰ له الغيرةَ فيه، فكأنه يقول: أنا أغير من الله ومن رسوله؛ لأنه قد غار علىٰ أمر ليس هو بفاحشة عند الله تعالىٰ. وما أحسن قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فإنه تعالىٰ نفىٰ الإيمان عمن هذه صفته، وأقسم بنفسه تعالىٰ لنبيه أن من وجد حرجًا ولم يسلم، فليس بمؤمن، فلو عرض هذا المعترض حالَ نفسه في الإيمان، لوجدها بعيدة عن مقام الإيمان. انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي ﵀ يقول: لولا تعلق الأغراض النفسانية ما أنزل الله تعالىٰ آية الحجاب، فإنها إنما أنزلت باستدعاء بعض النفوس، ولذلك كان أهل الله تعالىٰ يفرقون بين الحكم الإلهي إذا نزل ابتداءً من الله تعالىٰ، وبين الحكم الإلهي إذا كان نزوله بعد استدعاء بعض العباد، فكأنه تعالىٰ مسؤول في ذلك الحكم[3].

قال: وقد كان ﷺ يحب التخفيف عن أمته ما أمكن. وقال لمن سأله عن الحج: «أكل عام يا رسول الله؟ قال: لا، ولو قلت: نعم لوجبت، ولم تستطيعوا»[4].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو عوانة في المستخرج (٤٧١٨)، وأصله عند مسلم (١٤٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٤) ومسلم (٢٧٦٠) بلفظ: «ولذلك حرم الفواحش»... بدلا من: «ومن غيرته أنه...».

(٣) انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

(٤) أخرجه مسلم (١٣٣٧)، وأحمد (١٠٦٠٧).

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول[1]: من أدب العارف أن يأخذ الأمر الإلهي المنزَّل ابتداءً بالاعتناء به أشد من الاعتناء بما نزل عن سؤال، فالله تعالىٰ يُفهمنا وإخواننا مقاصد الشارع، حتىٰ لا نخرج عما شرع.

ثم إن المرجحين نظرهم علىٰ نظر الشارع في المعنىٰ علىٰ قسمين: أحدهما: من يغلِّب الحرمة؛ والثاني: من يغلِّب رفع الحرج عن هذه الأمة رجوعًا إلىٰ الأصل، فهذا الثاني أقرب منزلة عند الله تعالىٰ من الذي يغلِّب الحرمة، إذ الحرمة أمر عارض عرض للأصل، ورافع الحرج قد دار مع الأصل الذي يعود حال الناس في الجنة إليه يتبؤون من الجنة حيث شاؤوا، وأطال في ذلك[2].

ثم قال: فإياك يا أخي وهوس الطبيعة، فإن العبد ممكور به وهو لا يشعر، وما أغفل أهل الأهواء عن هذه المسألة وإن كانوا مؤمنين! «وقد دعا بعض الصحابة رسول الله ﷺ إلىٰ طعامه، فقال له النبي ﷺ: وهذه؟ وأشار إلىٰ عائشة رضي الله عنها. فقال الرجل: لا، فأبىٰ أن يجيبه مرارًا حتىٰ قال: نعم، فخرج النبي ﷺ وعائشة يتدافعان حتىٰ وصلا إلىٰ منزل ذلك الرجل»[3]. وفي القرآن العظيم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فأين إيمانك اليوم؟! وأين تأسيك برسول الله ﷺ في مثل ذلك لو رأيت صاحب منصب من شيخ أو قاض أو وزير أو سلطان يفعل مثل هذا تأسيًا برسول الله ﷺ؟ هل كنت تنسبه إلا إلىٰ سَفْسَاف الأخلاق؟ وكذلك كان ﷺ يردف زوجته وراءه علىٰ البعير وغيره، وأظنك لا تفعل اليوم مثل ذلك، بل تعيب علىٰ من فعله وغاب عنك أن مثل هذه الأمور لو لم تكن من مكارم الأخلاق ما فعلها رسول الله ﷺ، فإنه بُعِث ليتمم مكارم الأخلاق[4].

---

(١) الكلام المنقول عن الخواص نقله المصنِّف عن الشيخ الأكبر في «مختصر الفتوحات» فلعل الشيخ الخواص قاله علىٰ سببيل الحكاية عن الشيخ الأكبر، أو توافق كلام الخواص مع كلام الشيخ الأكبر.

(٢) انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

(٣)أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه مسلم (٢٠٣٧)، والنسائي (٣٤٣٦).

(٤) انظر «الفتوحات» الباب (٧٢).

وكان الشيخ محيي الدين ﷺ يقول: عليك يا أخي بالغَيْرة الإيمانية الشرعية لا تزد عليها، فتشقىٰ في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فلكونك لا تزال متعوب النفس فيما لا ينبغي الاعتراض عليه. وأما في الآخرة فلما يؤدي إلىٰ سؤال الحق تعالىٰ لك عليه، بنحو قوله تعالىٰ: كيف ترجِّح نظرك علىٰ نظري ونظر رسولي؟ انتهىٰ(١).

وذكر أيضًا في الكلام علىٰ صلاة العيدين من «الفتوحات» أن من الأدب مع الشارع أن لا يشتغل العبد في يوم العيد إلا بما شرعه الشارع للنفوس من أكل وشرب وبعال، فإن هذه الأمور في يوم العيد مثل سنن الصلاة في الصلاة، وإن كان أصلها مباحة، فتعود سنةً في يوم العيد، كما أن جميع ما يفعله يوم العيد من الفرائض بمنزلة الأركان في الصلاة، فلا يزال العبد في يوم العيد في جميع أفعاله كالمصلي.

قال: ولهذا سُمِّي يوم العيد؛ لأنه يعود علىٰ الإنسان بالأجر في كلِّ مباح يفعله تأسيًا. وقد قررنا مرارًا أن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام [يعطي](٢) بذاته الاعتراض عليهم من النفوس الأبية إذا أمروها بما لا تهواه، فلذلك شرع لنا أن نسلِّم علىٰ نبينا في التشهد، كأنا نقول: أنت في أمان من اعتراضنا عليك يا رسول الله، أو مخالفة شرعك، لتقر بذلك عينه ﷺ. انتهىٰ.

وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في مبحث وجوب الإذعان لما جاءت به الرسل من كتابنا المسمىٰ بـ«اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر» فراجعه ترَ العجب، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥) ومما أجبتُ به من يتوهم من نحو قوله تعالىٰ لموسىٰ وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ **[طه: ٤٤] أنهما كانا يغلظان القول علىٰ فرعون، ومن يتوهم من نحو قوله تعالىٰ لنبينا محمد ﷺ:** ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **[الحجر: ٨٨]، وقوله:** ﴿أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾

---

(١) نفس المصدر والباب.

(٢) زيادة ضروية لاستكمال السياق.

[الزمر: ١١]، وقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥] **ونحوها أنه ﷺ كان متكبرًا قبل أن يخفض جناحه، أو غير مخلص قبل أن يؤمر بالإخلاص، أو مرتكبًا للرجز قبل أن يؤمر بهجره.**

والجواب: أن ذلك وهم باطل، فإن عنصر الأنبياء مطهَّر مما ذُكِر بسابق العناية لا بعمل عملوه، ولا بخير قدَّموه، فلم يكن في أحدٍ منهم قبيح اللفظ، ولا متكبرًا ولا مرائيًا ولا متلطخًا برجز لتقديس ذواتهم، ولكن الحق تعالىٰ اختار لهم أن تكون أحوالُهم كلُّها تحت أمره لا بحكم الطبع، ليحصل لهم ثواب امتثال الأمر، فإن من ليس هو تحت أمر لا ثواب له بحكم الأصالة شرعًا، وإن كان النبي ﷺ قال لحكيم بن حزام: «أسلمتَ علىٰ ما سلف لك من خير»[1] حين سأله عن أمور كان تبرر بها في الجاهلية، فافهم.

وسمعتُ مولانا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الغلظة الناشئة عن حظ النفس. وإن وقع من أحدهم غلظة، فإنما ذلك غيرة لجناب الحقِّ حين انتُهكت حرماتُه. انتهىٰ.

[مدخَل تكبر فرعون وأبي جهل وغيرهما ممن لم يمتثل أمر الرسل]

فإن قلتَ: فمن أين دخل التكبر علىٰ فرعون وأبي جهل وغيرهما ممن لم يمتثل أمر الرسل عليهم الصلاة والسلام، والحقُّ تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال ابن عباس: إلا ليعرفون، ومن عرف الله تعالىٰ كيف يصح له التكبر علىٰ رسله وما جاء به رسله؛ **فالجواب**: أنه دخل الكبر علىٰ من خالف الرسل من جهة القسمة الإلهية. والنكتة في ذلك كونه تعالىٰ أضاف العبادة التي هي الذلة والافتقار إليهم في اللغة، فلو قال تعالىٰ: «وما خلقتُ الجن والإنس إلا لأذلهم» لم يصح من أحد تكبر من سائر الجن والإنس، كما لا يصح تكبر من غير التعليق علىٰ أحد.

[سبب تكبر الثقلين عن الاستجابة دون غيرهما]

وقد سُئل الشيخ محيي الدين رحمه الله عن سبب تكبر الثقلين دون غيرهما [من سائر

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٦) (٢٢٢٠)، ومسلم (١٢٣).

المخلوقات، فقال: سبب تكبر الثقلين دون غيرهما][1] كون المتوجه على إيجادهما أسماء اللطف والحنان والرحمة والشفقة والتنزل الإلهي، فلما أبرزهم إلى هذا الوجود، لم يروا عظمة غيرهم ولا عزّه ولا كبرياءه ولا جبروته، فقالوا: ربنا لم خلقتنا؟ فقال تعالىٰ: لتعبدوني، أي لتكونوا أذلاء بين يدي، فلم يروا صفة قهر ولا عزة تذلهم، ورأوا الحقَّ تعالىٰ قد أضاف فعل الإذلال إليهم، فتكبروا بذلك. ولو أنه تعالىٰ قال: ما خلقتكم إلا لأذلكم، لبادروا إلىٰ الذلة من نفوسهم، خوفًا من سطوة هذه الكلمة وقهرها، كما قال تعالىٰ للسماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] لأجل قوله تعالىٰ ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ فافهم.

وأما غير الثقلين فإنما لم يقع منهم تكبر، لأن المتوجه علىٰ إيجادهم من الأسماء الإلهية أسماءُ الجبروت والكبرياء والعظمة والعزة والقهر، فلذلك خرجوا أذلاء تحت هذا القهر الإلهي، فلم يتمكن لهم أن يرفعوا أنفسهم علىٰ أحد من خلق الله عزَّ وجلَّ فضلًا عن رسل الله، بل لم يجدوا في أنفسهم طمعًا للكبرياء علىٰ أحد[2]، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦) ومما أجبتُ به من يتوهم جواز أن الله تعالىٰ قد يخاطب أولياءه بأمر يخالف ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من غير علم الرسل.

والجواب: أن ذلك ممتنعٌ قطعًا، فإن كلَّ ولي محبوس في دائرة رسوله لا يصح أن يصل إلىٰ حضرة الله تعالىٰ إلا بواسطة نبيه، فلا يصح أن الحقَّ يسارر وليًّا بحكم يخالف شرع نبيه أصلًا، ولا يجوز تصديقه علىٰ ذلك؛ لأن الله قد راعىٰ شرعَه الظاهرَ علىٰ لسان نبيه، فلو قال إنسان: إن الله تعالىٰ أباح لي الحرامَ الفلانيَّ، أو أوجب عليَّ المندوبَ الفلانيَّ؛ كذبناه، لأن في تصديقه نسخ الشريعة المطهَّرة، ولا يكون نسخ شريعتنا إلا علىٰ

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر: «الفتوحات» الباب (٤٩).

لسان نبينا لعدم وجود من ينسخ شرعه إلىٰ يوم القيامة. ومن هنا يُعلَم أن قولَ بعض أهل الشطح: «إن أكل الحرام أو ترك الصلاة لا يؤثر فيَّ» كذبٌ علىٰ الله تعالىٰ.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين في باب أسرار الصوم من «الفتوحات» أنه لو كُشِف لوليٍّ عن تقدير الله تعالىٰ عليه معصيةً لا يجوز له المبادرة إلىٰ فعلها، كما لا يجوز له المبادرة إلىٰ الفطر في يوم كشف له أنه يمرض فيه، بل يجب عليه التربصُ حتىٰ تقع المعصية في فعله[1] أو سهوًا أو يحصل له المرض، وذلك لأن الله تعالىٰ ما شرع له الفطر إلا مع التلبس بالحال المبيح للفطر.

قال: وهذا هو مذهبنا ومذهب المحققين من أهل الله تعالىٰ عزَّ وجلَّ. وأما قوله ﷺ لعمر بن الخطاب: «وما يدريك أن الله تعالىٰ اطلع علىٰ أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غَفرتُ لكم؟»[2] فلا ينافي ما قلناه، لأنه قال: قد غفرتُ لكم، ولم يقل أبحتُ لكم، بل أبقىٰ المعاصي علىٰ حالها، والمغفرة لا تكون إلا عن وجود ذنب.

فإن قلتَ: فإذا كُشِف للعبد عن كون الحقِّ تعالىٰ لا يؤاخذه علىٰ معصية، فهل يجوز له فعلها؟ **فالجواب**: لا يجوز له ذلك، علىٰ أن الاطلاع علىٰ عدم مؤاخذته ليس عندنا بواقع أصلًا، وإن كان جائزًا عقلًا.

وقد ذكر الشيخ في الباب الرابع عشر من «الفتوحات» أن باب الوحي بالأحكام قد أُغلِق بعد موت محمد ﷺ إلىٰ يوم القيامة، وما بقي للأولياء إلا وحي الإلهام بتعريف الولي بأسرار الشريعة لا غير، وذلك داخل في جملة الشريعة غير خارج عنها. ولو أن الوحي علىٰ لسان جبريل كان باقيًا بعد موت محمد ﷺ، لكان عيسىٰ إذا نزل ربما لا يحكم بشريعة محمد ﷺ، وإنما كان يحكم بشريعته التي يوحي بها إليه جبريلُ، وقد صحَّت الأحاديث بأنه يحكم إذا نزل بشريعة محمد ﷺ. انتهىٰ.

ومما يؤيد أن باب الوحي قد أُغلِق بعد موت رسول الله ﷺ أيضًا قولُ الشيخ في الباب

(١) بالأصلين: عقله. والموضع منقول بالمعنىٰ من «الفتوحات» وما أثبتناه الأنسب للمعنىٰ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٥)، ومسلم (٢٤٩٤) بلفظ: «لعل الله اطلع ...».

الثامن والثلاثين من «الفتوحات»: اعلم أن الله تعالىٰ لما أغلق باب الرسالة بعد موت رسول الله ﷺ، كان من أشد ما تجرعت الأولياءُ مرارتَه، لانقطاع الوحي الذي يكون به الوصلة بينهم وبين الله تعالىٰ، ولكن قد لطف الله تعالىٰ بهم، وجعل لهم الحضور معه حال مُناجاته بكلامه في الصلاة وغيرها. انتهىٰ.

ومما يؤيد ذلك أيضًا قولُه في الباب الثالث والسبعين: اعلم أنه بموت رسول الله ﷺ ارتفعت نبوة التشريع، لقوله ﷺ: «إن النبوة والرسالة قد انقطعتا، فلا نبي بعدي ولا رسول»[1] أي لا نبي بعدي ولا رسول يشرِّع شريعةً مستقلةً غيرَ شريعتي، فلا يصح لأحد أن يشرِّع بعد رسول الله شرعًا مستقلًا أبدًا، وإنما يشرِّع المجتهدون ما اقتضاه نظرُهم في الأحكام، فهو من جملة شريعته؛ لأنه هو الذي قرر حكم المجتهد، وأعطاه الدليل في ذلك، فلولا تقريره ذلك ما ساغ لنا اتباعُ أحد بعده، بدليل أن المجتهد لو شرع شيئًا لم يعطه الشارع فيه دليلًا، فلا يُعمل به، لأنه شرع ما لم يأذن به الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وقال أيضًا في الباب العاشر وثلاثمئة من «الفتوحات»: قد ارتفعت نبوة التشريع بموت رسول الله ﷺ، وانسدت أبواب الأوامر الإلهية والنواهي، فلا أحد يصح له أن يدعي شرعًا مستقلًا بعده ﷺ إلىٰ يوم القيامة. ومن ادعىٰ ذلك، وجب علينا تكذيبه سواء أوافق ذلك شرع محمد ﷺ أو خالفه.

قال: وأما قبل بعثة محمد ﷺ، فلم يكن في ذلك تحجير، ولذلك قال العبد الصالح خضرٌ عليه الصلاة والسلام: وما فعلتُه عن أمري، فإن زمانه أعطىٰ ذلك، وهو علىٰ شريعة من ربه فيما أمره تعالىٰ به، وقد شَهِد له الحقُّ تعالىٰ بذلك عند موسىٰ وعندنا وزكَّاه. وأما اليوم فإن الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام علىٰ شريعة محمد ﷺ إما بحكم الوفاق، وإما بحكم الاجتماع. وعلىٰ كل حال، فذلك لا يكون لهما إلا من باب التعريف الإلهي علىٰ يد ملك الإلهام لا بواسطة جبريل، وذلك ليس بنبوة، وكذلك عيسىٰ إذا أُنزل لا يحكم إلا بشريعة محمد ﷺ يُلهمه الله تعالىٰ بها علىٰ سبيل التعريف لا علىٰ سبيل

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٧٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٨١٧٨)، وأبو يعلىٰ (٣٩٤٧).

النبوة وإن كان نبيًا. انتهىٰ.

وذكر الشيخ أيضًا في الباب العاشر وثلاثمئة من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أن الوحي لا ينزل به الملك قط بعد موت محمد ﷺ علىٰ أحد من الأولياء، فضلًا عن غيرهم، ولا يأمره بأمر إلهيّ جملة واحدة، لأن الشريعة قد استقرت وتبين الفرض والمندوب والحرام والمكروه والمباح، فانقطع الأمرُ الإلهيُّ بانقطاع النبوة والرسالة، وما بقي أحد من خلق الله تعالىٰ يأمره الله تعالىٰ بأمر يكون شرعًا يتعبد به أبدًا.

فإن قُدِّر أنه تعالىٰ أمره بفرض أو غيره أو نهاه عن حرام أو غيره، كان الشارع قد سبقه به. وإن قال: إن الله تعالىٰ أمرني بفعل المباح الفلاني؛ قلنا له: لا يخلو أن يرجع ذلك المباح في حقِّك واجبًا أو مندوبًا، وذلك عين نسخ الشريعة التي أنت عليها، حيث صيرتَ المباح واجبًا يُعصَىٰ الله تعالىٰ بتركه، أو مندوبًا برأيك. وإن قال: إنما أوحي إليَّ بأن المباح مباح علىٰ حاله الذي جاءت به الشريعة؛ قلنا له: لا فائدة إذًا في الوحي الذي جيء به إليك. وإن قال: لم يخبرني بذلك ملك، وإنما أمرني الله تعالىٰ به من غير واسطة؛ قلنا له: هذا أعظم من الأول، لأنك ادعيتَ أن الله تعالىٰ كلَّمك كما كلَّم موسىٰ عليه الصلاة والسلام، ولا قائل بذلك لا من علماء النقل ولا من علماء الذوق. ثم إنه تعالىٰ لو كلَّمك أو قال لك ما كان يلقي إليك في كلامه إلا علومًا وأخبارًا، لا أحكامًا وشرعًا، بل لا يصح أن يأمرك بأمر جملة واحدة. انتهىٰ.

وقال في الباب الحادي والعشرين: من قال بعد محمد ﷺ من الأمة أن الله تعالىٰ أمره بشيء، كذَّبناه وقلنا له: هذا تلبيسٌ من النفس أو الشيطان، فإن الأمرَ من قسم الكلام وصفته، وذلك باب قد سُدَّ بعد رسول الله ﷺ، وما بقي في الحضرة الإلهية أمرٌ تكليفيٌّ إلا وهو مشروع، وما بقي للأولياء إلا سماع الشريعة وامتثال أمرها واجتناب نهيها.

فإن قلتَ: إن للأولياء المناجاة الإلهية مع الله تعالىٰ؛ قلنا: المناجاة لا أمر فيها ولا نهي، وإنما هي كالدعاء أو الحديث والسمر، وما وصل أحد من الأمة إلىٰ المحل الذي أخذ منه محمد ﷺ الشرع أبدًا ولا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقال في الباب الثاني والستين وأربعمئة: اعلم أن الله تعالىٰ قد ختم بشرع محمد ﷺ جميع الشرائع، فلا رسول بعده يشرِّع شريعةً إلا ما قرره من اجتهاد علماء أمته في استنباط الأحكام من الكتاب والسنة.

قال: وأعني بالسنة الحديث لا الاستنباط من قياس فرع علىٰ فرع، بل فرع علىٰ أصل، فإن قياس الفرع علىٰ الأصل هو الحقيق باسم الاستنباط والاجتهاد. وقد جعل العلماء القياس أصلًا رابعًا، كما جعلوا الإجماع أصلًا ثالثًا، وقالوا: إن الأمة لم تجمع علىٰ أمر إلا ولا بد أن يعرفوا له دليلًا يرجعون إليه، ولكن لم يصل إلينا ذلك، وذلك لأن فطر العلماء مختلفة ونظرهم مختلف، وإذا أجمعوا علىٰ أمر، فذلك الأمر مقطوع به، وهم فيه علىٰ بصيرة من شرع نبيهم. انتهىٰ.

[الفرق بين تنزل الوحي على قلب النبي وتنزله على قلب الوليّ]

فإن قلتَ: فما الفرق بين تنزل الوحي علىٰ قلب النبي وتنزله علىٰ قلب الولي؟

فالجواب كما قاله الشيخ في الباب العاشر ومئة: أن الفرق بينهما أن تنزله علىٰ النبي يكون علىٰ قلبه وعلىٰ صدره، وذلك لكون نبوته مشهودة له. وأما تنزله علىٰ الوليِّ من طريق ملَك الإلهام، فيكون من جنبه من خلف حجب كثيرة، وذلك لأن الوحي له علىٰ يد ملك مغيَّب لا يراه، فهو للولي في الظَّهْر لا في الظهور. وإلىٰ ذلك الإشارة بقول القوم: إن أبا يزيد البَسْطَامي لم يمت حتىٰ استظهر القرآن، أي من الله تعالىٰ عليه بتعرف معاني القرآن من جهة ظهره بطريق الإلهام. ومن استظهر القرآن هكذا فهو الذي أدرجت النبوة بين جنبيه كما ورد[1].

قال الشيخ محيي الدين: وأنا ممن استظهر القرآن كذلك، حتىٰ أني نسيتُ آيات من القرآن، فأتاني بها ملَك الإلهام عن الله تعالىٰ، ورأيتُ لها حلاوةً وذوقًا لم أجده قبل ذلك. هكذا قال رحمه الله، فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الحاكم (٢٠٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحىٰ إليه...» وابن أبي شيبة (٢٩٩٥٣).

(٢٧) ومما أجبتُ به من يتوهم من نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤] أن لرسول الله ﷺ أن يتصرف بالعبارة فيما أنزله الله تعالىٰ عليه، وأن هذا القرآن ترجمة محمد ﷺ لا من ترجمة الله تعالىٰ لما فيه من الصوت والحرف.

والجواب: قد أجمعت الأمة سلفًا وخلفًا علىٰ أن ما نتلوه بالحرف والصوت هو كلام الله حقيقة، ولا يلزم من تلاوتنا له بالصوت والحرف أن يكون في أصله بصوت وحرف، وذلك كما ينطق الواحد منا بالقرآن بصوت وحرف، وهو في قلبه لا صوت ولا حرف، وأكثر من ذلك لا يُقال.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين في الباب الحادي والستين وثلاثمئة من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أن الله تعالىٰ لما أنزل الكتب الإلهية لم يكتف بنزولها من غير إبانة الرسل لها، لما في العبارة من الإجمال والتفصيل. ومعلوم أنه لا يفصِّل العبارة إلا العبارة، فنابت الرسل مناب الحق تعالىٰ في تفصيل ما أجمله في كتابه. ولولا أن حقيقة الإجمال سارية في العالم ما شُرِحَت الكتب، ولا تُرجِمَت من لسان إلىٰ لسان، ولا من حال إلىٰ حال، قال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] وهو ما أنزل خاصة. وأما ما فصَّله الرسول وأبان عنه فهو تفصيل ما نزل لا عين ما نزل، إذ البيان وقع بعبارة أخرىٰ. انتهىٰ.

وقد قلتُ مرةً لسيدي عليِّ الخوَّاص ؒ: هل كان لرسول الله ﷺ أن يتصرف فيما أنزل الله تعالىٰ عليه بعبارة من تلقاء نفسه؟ فقال: لا يصح ذلك، وحاشاه من مثل ذلك حاشاه! قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] فلو صدق في حقِّه أنه تصرف في القرآن، لكان مبلِّغًا لنا عبارته هو وفهمه لا عين ما أنزل الله، وذلك محال أن يقع منه، لعصمته ﷺ عن مثل ذلك.

ثم إنه ﷺ إذا تصرَّف في العبارة فلا يخلو إما أن يأتي بعبارة تنقص معانيها عن معاني كلام الله، أو جامعة لمعاني الكلام علىٰ التمام، وكلاهما ممتنع في حقه. ثم أيُّ فائدة لعدوله ﷺ عن كلام الله تعالىٰ وإتيانه بكلام آخر؟! فتأمل واعتقد أن رسول الله ﷺ ما بلغ الأمة إلا عين ما نزل عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨) ومما أجبتُ به من يتوهم في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي قصها الحقُّ تعالىٰ عنهم أنهم كغيرهم من الناس، فيَلْحَق الذمُّ بهم كآحاد الناس.

والجواب: أن حال الأنبياء يخالف حال غيرهم في سائر الأحوال لارتفاع مقامهم، فلو قُدِّر أن أحدًا من الأنبياء وقع في صورة الذنب، فهو يترقىٰ به كطاعاته، بخلاف غيرهم من الأمم، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: إن الأنبياء لا ينقلون قط من حال إلا لأعلىٰ منه، لترقيهم مع الأنفاس. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن الله تعالىٰ إذا أراد إيقاع صورة مخالفة من عبد مقرَّب لحكمة يظهرها في الوجود بحسب ما سبق به في علمه، فلا بد أن يزين لذلك العبد المقرب الوقوعَ في تلك المخالفة بتأويل يقع له فيه وجهة الحق، لا يقصد به ذلك المقرَّب انتهاك حرمة أحكام الحق، ولا يستحضر قبح ما يفعله، لأن معرفة المقرَّب وحضور عقله يمنعه من الوقوع في مسمَّىٰ المخالفة، كما سيأتي بسطُه في الجواب عن آدم عليه الصلاة والسلام إن شاء الله تعالىٰ.

ثم إن ذلك المقرَّب إذا وقع منه ذلك الفعل بتأويل أو تزيين، فلا بد أن يظهر الله تعالىٰ له فساد ذلك التأويل الذي أداه إلىٰ فعل ما ذُكر، كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام حين وقع في الأكل من الشجرة بالتأويل.

ثم إذا علم بفساد ذلك التأويل وأنه خطأ، علم حينئذٍ أنه عصىٰ الأمر، لغلبة سلطان الإرادة عليه، وحكم عليه لسان الشريعة بالعصيان، ويشهد علىٰ نفسه عند نفسه أنها عصت. أما حال وقوع الفعل فلا يظهر له أنه عصىٰ لشبهة التأويل، فكان حكم المقرَّب في حال نفوذ الأقدار فيه بالتأويل، كحكم المجتهد في زمان فتواه إياه بأمر ما اعتقادًا منه أن ذلك عين الحكم المشروع في المسألة.

ثم في الزمان التالي يظهر له بالدليل أنه أخطأ، فيكون لسان الظاهر يحكم عليه أنه مخطيء في زمان ظهور الدليل الأول لا قبل ذلك. وبعيدٌ أن يأتي أحد من المقربين مسمَّىٰ المخالفة بتعشق وميل كما يقع لآحاد الناس، فافترق حكم المقرَّبين عن حكم غيرهم. وفي كلام السلف الصالح: ليس من يأتي المخالفة وهو يبكي كمن يأتيها وهو يضحك.

وذكر الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والخمسين وخمسمئة من «الفتوحات»: اعلم أن مشهدَ الأنبياء والأكابر وقوعُ الأفعال الإلهية علىٰ يديهم من حيثُ ما هي وقوع لا من حيثُ ما هي حكم، تنزيهًا لهم عن انتهاك حرمة، وذلك من جملة ما يكون لهم من الشهود الأخروي، عجله الله تعالىٰ لهم في هذه الدار. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تعتقد في الأنبياء أنهم كغيرهم من مسمًّىٰ المعصية والخطيئة، فإنهم في حضرة الإحسان علىٰ الدوام، مشاهدون لرؤية الله تعالىٰ لهم، فلا يصح منهم وقوع معصية حقيقية، وكذلك كُمَّل ورثتهم من الأولياء.

فإن قيل: قد سُئل أبو يزيد البَسْطَامي ﷺ: هل يزني العارف؟ فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]؛ **فالجواب**: أن مرادَ العارفين عدمُ التحجير علىٰ الحقِّ تعالىٰ، لغلبة شهودهم لحضرة الإطلاق التي يفعل الله منها ما يشاء، فكذلك جوَّز أبو يزيد وقوعَ العارف في الزنا أدبًا مع الله تعالىٰ، هروبًا من التحجير والتقييد، كأنه يقول: إن كان الحقُّ تعالىٰ قدَّر علىٰ العارف في سابق علمه ذلك وقع وإلا فلا، لكن لا بد للعارف من حجاب حتىٰ يقع، أدناه التأويل والتزيين.

ويؤيد ذلك حديث: «إذا أراد الله تعالىٰ إنفاذ قضائه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم، حتىٰ إذا أنفذ فيهم قضاءه وقدره، ردَّها عليهم ليعتبروا» رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»[1]، ومعنىٰ «ليعتبروا» ليستغفروا ويتوبوا فورًا، و«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[2] كما ورد في الصحيح.

واعلم يا أخي أنه ليس المرادُ بهذه العقول التي تُسلَب عقولَ التكاليف الشرعية، لأن

---

(١)أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٠٨)، والديلمي (٩٦٦) قال الحافظ السخاوي: رواه، أبو نُعيم في «تاريخ أصبهان» ومن طريقه الديلمي في «مسنده» من حديث سعيد بن سليمان بن حرب عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس به مرفوعًا، وكذا أخرجه الخطيب وغيره بلفظ: «إن الله إذا أحب نفاذ أمر» وذكره، وأعله الخطيب بلاحق بن الحسين، وقال: إنه كذاب يضع. انتهىٰ، وسعيد أيضًا متروك. انظر: المقاصد الحسنة (ص: ٨٠)، ولم أقف عليه في «نوادر الأصول».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٢٨١)، والبيهقي في «السنن» (٢٠٥٦١).

ذلك يؤدي إلىٰ رفع إثم المعاصي من الأرض جملةً، لخروج العاصي عن حد التكليف. وإنما المراد بها تعقل حضور العبد مع الله حال المعصية، إذ من المحال أن يعصي أحد ربه علىٰ الكشف والشهود. فاعلم ذلك وإياك والغلط، والله تعالىٰ أعلم.

وذكر الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والستين وثلاثمئة من «الفتوحات» في قوله تعالىٰ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] أن المراد بـ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ هنا المعصومون من الأنبياء، والمحفوظون من الأولياء، لأن هؤلاء الذين أخلصهم الله تعالىٰ إليه بما ألقىٰ إليهم وفيهم من نور العصمة والحفظ، فلا يجد الشيطان إليهم سبيلًا يسلك إليهم منه، فإذا عجز إبليس من ذلك النبي أو الولي، تجسد له في صورة إنسان مثله، فيتخيل الولي مثلًا أنه إنسان ويأتيه بالإغواء من قبل أذنه، فيُدْخِل له فيما حُجِرَ عليه التأويلات، أدناها أن ذلك التأويل يسهل عليه الوقوع في تلك المخالفة، ويقول له: لا يضرك مثل هذا الذنب، لتكفيره باستغفارك وطاعاتك، ولولا الذنب ما كانت المغفرة، ويقول له: أيش كنت أنت؟! فإنك لم تقدّر علىٰ نفسك الذنب، ولو أنك لم تذنب لم يظهر للحق تعالىٰ حكم علىٰ عباده، كما أشار إليه حديث: «لو لم تذنبوا»[1] ويطيل له إبليس في التأويلات. وإنما يفعل مع المؤمن ذلك لعلمه لعنه الله أن الإنسان العاقل لا يقدم علىٰ معصية الله تعالىٰ ابتداءً دون تأويل وتزيين من النفس أو الشيطان.

ثم إنه إذا جاء للمؤمن بهذه الأمور وزيَّن له سوء عمله حتىٰ رآه حسنًا، مال المؤمن إلىٰ الوقوع في المخالفة، لا يكاد يشعر به إلا الفَطِن الحاذق في دينه، وصار كأنه من أهل الاجتهاد عند نفسه إن أخطأ فله أجر، وقال له الشيطان: أنت مأجور علىٰ كل حال، وحينئذٍ يتم للشيطان مراده من العبد. وإن أيقظ الله العبد لكيد هذا العدو، لم يتم له مراده، ورد إبليس خاسئًا.

وتأمل يا أخي في إبليس لما أُري أن آدم محفوظ من الله تعالىٰ، وجنود العصمة قد أحاطت به من جميع الجهات كيف قال له: إن الله تعالىٰ ما نهاك إلا عن القرب من الشجرة لا من الأكل منها؛ فجاءه بصورة القرب لا بصورة الأكل، وصدق إبليس وهو

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٧٤٩)، والترمذي (٢٥٢٦).

الكذوب في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] [وكذلك كان الأمر والله، فأورثه ذلك الأكل الخلد في الجنة والملك الذي لا يبلىٰ][1] والاجتباءِ، وما قال له: متىٰ، بل عمّىٰ عليه الأمر.

[الفرق بين الإرادة من الله، والأمر من الله]

فإن قلتَ: ما الفرق بين الإرادة من الله والأمر من الله، فإن المعاصي بإرادة الله لا بأمره؟ **والجواب**: أن فلك الإرادة واسع، فلا يتوقف علىٰ ما فيه رضا الله، بل يكون فيه وفي غيره، فإن الأمر فيه نوع ترجيح لرضا الله وحث علىٰ الوقوع، بخلاف الإذن والإرادة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. هذا من حيثُ الحكمُ الشرعيُّ، وأما من حيثُ كونُ الطاعة والمعصية خلق الله تعالىٰ علىٰ يد المكلَّف، فمؤداهما واحد لرجوعهما إلىٰ واحد. وقد قال ﷺ: «والخير كله في يديك، والشر ليس إليك»[2] ففرق بين الخير والشر، مع علمه بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، فاعلم ذلك، وارفع مقام الأنبياء علىٰ غيرهم كما هو في نفس الأمر، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩) ومما أجبتُ به من يتوهم أن استغفار الأنبياء ومغفرة الله لهم لا بد أن يكونا عن ذنب وقعوا فيه، ولو لم نعرفه نحن.

والجواب: قد أجمع أهل الكشف علىٰ أنه لا يُشترَط في استغفار الأكابر وجودُ ذنب وقع منهم، كما صرح به الشيخُ محيي الدين في الباب السابع والأربعين ومئتين من «الفتوحات». وإنما يستغفرون مما لعله يقع منهم في المستقبل من الأمور التي كان ينبغي سترها عنهم، بمعنىٰ أن الله تعالىٰ يحول بينهم وبين الوقوع فيها، حذرًا من حيثُ حضرةُ الإطلاق، وإلا فهم عالمون بعصمتهم من حيثُ حضرةُ التقييد.

قال: ولهذا ما بلغنا عن نبي قط أنه ندم علىٰ ما قاله مما أُوحِيَ به إليه.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠).

قال: وأما ما كان عن نظر من غير وارد وحي، فقد يندم علىٰ ما جرىٰ منه، كما وقع له في أسارىٰ بدر، وكما وقع له في تأبير النخل لما مر علىٰ الأنصار وهم علىٰ رؤوس النخل، فقال: «ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يا رسول الله، يلقِحُون النخل. فقال: ما أرىٰ هذا يجدي شيئًا؛ فتركوا التلقيح، فجاء البلح شِيصًا[1]، وقل حمل النخل، فأخبروه بذلك. فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف: ١١٠]، فإذا أخبرتكم بشيء عن الله فخذوه، وما أخبرتكم به من قبل نفسي، فأنتم أعلم بأمور دنياكم»[2]. انتهىٰ.

وقد سألت سيدي عليًّا الخواص عن مثل ذلك، فقال: لا ينقص مقام الأنبياء بنقص تدبيرهم في أمور الدنيا، لغلبة الاشتغال بالله تعالىٰ وبالدار الآخرة علىٰ قلوبهم، حتىٰ لم يبقَ لأحدهم التفات إلىٰ عمارة دار ولا ترقيع ثوب ولا غسله، لكن لم يمت رسول الله ﷺ حتىٰ صار أعلم الناس كلِّهم بأمور الدنيا، لا يشغله ذلك عن ربه ولا عن الدار الآخرة. انتهىٰ. وفي القرآن العظيم: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف: ١١٠]، فساواهم، ثم قال: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فانصرف عنهم.

وقد أجاب أكابر العلماء عن استغفار رسول الله ﷺ بأنه إنما كان لأمته لما أوحىٰ الله تعالىٰ إليه بما يكون بينهم من الحروب والفتن بعده، فكان كلما تذكر ذلك، استغفر لهم. ويؤيده كونه ﷺ أطلق الاستغفار وقال: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»[3] فلم يقل: «أستغفر من ذنوبي التي أقع أنا فيها» فافهم.

فقلتُ له: فما تقولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، فجعل له ذنبًا؟ فقال ﷺ: المراد بالذنب ذنب أمته. وإنما أضافه له من حيثُ إنه مشرِّع مبيِّن، فلولا بيانه لما كان ذنبًا، فاسم الذنب مضاف إليه، والفاعل به غيره. انتهىٰ، وسيأتي بسط ذلك في الأجوبة عن نبينا ﷺ.

---

(١) الشِّيصُ: تمر لم يتم نضجه لسوء تأبيره أو لفسادٍ آخَرَ.

(٢) أخرج قصة تأبير النخل مسلم (٢٣٦١)، وأحمد (١٣٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧)، والترمذي (٣٢٥٩).

فإن قال قائل: فما تقولون في استغفار غيره من الأنبياء؟ فالجواب: كان استغفار الأنبياء السابقين علىٰ زمن رسول الله ﷺ ومغفرة الله تعالىٰ لهم إنما هو من جهة كون الحقِّ تعالىٰ ستر عنهم كونهم نوَّابًا لمحمد ﷺ مدةَ غيبة جسمه في الأصلاب، فكانوا يظنون أنهم أنبياء مستقلون غير نواب له، فلأجل ذلك استغفروا حين أطلعهم الله تعالىٰ علىٰ كونهم نوَّابًا. هذا ما أعطاه الكشف، والله أعلم. انتهىٰ.

وسُئل الشيخ محيي الدين رحمه الله عن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وعن قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فقال رضي الله عنه: من علم العليم الخبير أن يؤدِّب الصغير بالكبير، فأدَّب الله تعالىٰ الأمم بتأديب رسلها، لتبلغ باستعمال أدب رسلها إلىٰ مأمولها من الدرجات، فخاطب الرسول، والمراد من أُرسل إليه، فابحث عليه. وفي المثل الساري: «إياك أعني واسمعي يا جارة» فالخطاب للرسل، والمراد به غيرهم من أممهم[1].

[الحكمة في توجيه الخطاب للأنبياء حين يكون المقصود منه أممهم]

قال: والحكمة في ذلك قوة الأنبياء علىٰ تحمل صولة خطاب الله عزَّ وجلَّ بالزواجر والقوارع دون أممهم، فرحمهم بذلك لضعفهم. هذا إن كان المراد بالخطاب المؤمنين، فإن كان المراد به الكفار، كانت الحكمة في ذلك مقابلة الإعراض بالإعراض، فإن الكفار لما أعرضوا عما جاءت به رسلُهم من عند ربهم ولم يعملوا به، أعرض الله عنهم بالخطاب، فأسمعهم في غيرهم عقوبةً لهم، وإلا فقرائن الأحوال وقواعد الشرائع تشهد بأن الأنبياء معصومون من الوقوع في كل شيء يحبط أعمالهم ويسخط ربهم[2]. فافهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠) ومما أجبتُ به من يتوهم أن ولاية الأولياء قد تفضل بعض الأنبياء، كما وقع في بعض أهل الشطح.

---

(١) «الفتوحات» الباب (٥٥٩).

(٢) نفس المصدر السابق، نفس الباب.

والجواب: أن الذي عليه جمهور أهل الكشف من الأولياء أن ولاية الوليّ لا تلحق في الشرف والرفعة ولايةَ النبي أبدًا، وكما فضل النبي علىٰ الولي من جهة النبوة، كذلك فضله من جهة الولاية، وكما أن ولاية الوليّ وإن جلت وعظمت لا تلحق نهايتُها بدايةَ النبوة، فكذلك ولاية الولي وإن عظُمت لا تلحق بدايةَ ولاية النبي، هذا هو الحقُّ الذي ندين الله تعالىٰ به.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من ظن أن مقامَ الولاية يلحق مقام النبوة في حال من الأحوال، فقد أخطأ الطريق، فإن الله تعالىٰ شرَّف الأنبياء علىٰ الأمم بسابق العناية، فلا يلحقهم أحد. ولو أن وليًا تقدَّم إلىٰ العين التي أخذ منها الأنبياء لاحترق.

وسمعتُه يقول: الأولياء علىٰ مَدْرَجة الرسل سلكوا، فكما كان ﷺ يتعبد قبل نبوته بشرع من قبله من الأنبياء- أي علىٰ رأي بعضهم- فكذلك الأولياء يتعبدون قبل فتحهم بشريعة محمد ﷺ تقليدًا للعلماء من غير اجتماع برسول الله ﷺ، فإذا اجتمعوا به- أي من طريق كشفهم- استغنوا عن التقليد. وبعضهم يُلهَم بشريعة محمد ﷺ علىٰ يد ملَك الإلهام، حتىٰ كأنه أخذ الشريعة عن رسول الله ﷺ من غير واسطة.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: كما أن النبي ﷺ لما جاءه الوحي، انقطع عن التعبد بشرع غيره واتبع ما أُوحِيَ إليه، فكذلك الولي له العمل بما جاءه من طريق الإلهام الخاص في حقِّ نفسه لا في حق الأمة، وإن خالف ما عليه بعض المجتهدين، ولا يمتنع عليه العمل إلا بما فيه خرق للإجماع، فافترق عن النبي بذلك، مع أن جميع ما يأتي به ملَك الإلهام إلىٰ الوليّ لا يكون إلا من باطنية شرع محمد ﷺ بلا شك، فلا يصح أن يأتيه بشيء من خارج دائرة شرع محمد أبدًا بإجماع أهل الكشف والوجود، فهم كالمقررين بإلهامهم شريعة محمد ﷺ، كما كانت أنبياء بني إسرائيل يقررون شرع التوراة بوحيهم، فافهم.

وقد ذكر الشيخ في الباب الأحد والتسعين وأربعمئة من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أنه ليس لأحد ممن تقدَّم أو تأخر علمٌ في الدنيا والآخرة إلا من باطنية علم محمد ﷺ، فإنه

ﷺ أخبرنا أنه أُوتيَ علم الأولين والآخرين[1]، يعني الأنبياء والعلماء المتقدمين علىٰ زمن بعثته والمتأخرين عنها، ونحن من الآخرين بلا شكٍّ، وقد عمم ﷺ الحكم في العلم الذي أوتيه، فشمل كلَّ منقول ومعقول، ومفهوم وموهوب. فاجهد يا أخي أن تكون ممن يأخذ علمه من نبيِّه محمد ﷺ، لكونه أعلم خلق الله بالله تعالىٰ وبجميع أحكامه علىٰ الإطلاق، وإياك أن تُخَطِيء أحدًا من علماء أمته بفهمك إلا بعد تثبت وطول تأملٍ، فإن ذلك العلم الذي تُخَطِيء ذلك الشخص فيه قد يكون من جملة علم رسول الله ﷺ الذي أخبر أنه أوتيه.

قال: وهذا الذي نبهتُك يا أخي عليه من كون جميع علوم الأولين والآخرين لا يكون إلا من باطنية علم محمد ﷺ من علوم الأسرار، فاحتفظ به وإياك أن تقول: لقد حجرت واسعًا، وإن الله تعالىٰ قد يعطي بعض المقرَّبين علمًا من الوجه الخاص الذي يكون بينه وبين قلب عبده المؤمن من غير واسطة محمد، كما أعطي الخضر ما شاء من العلوم التي لم يعطها موسىٰ عليه الصلاة والسلام الذي هو رسول زمانه؛ لأنا نقول: نحن ما حجرنا عليك أن لا تعلم مطلقًا، وإنما حجرنا عليك أن لا يكون لك علم ذلك إلا من باطنية محمد ﷺ، شعرتَ بذلك أم لم تشعر به.

قال: وقد وافقنا علىٰ ذلك أهل الكشف قاطبةً كما مرت الإشارة إليه. وصرح بذلك الإمام أبو القاسم ابن قسي صاحب كتاب «خلع النعلين» وهو من روايتنا عن ولده عنه في سنة تسعين وخمسمئة بتونس، رحمه الله. انتهىٰ.

فعُلِمَ مما قررناه أنه ليس في وحي الإلهام للولي تشريع، وإنما هو تعريف له بأسرار الشريعة لا غير، لأن نبوة التشريع قد انقطعت بموت محمد ﷺ، وغايةُ أمر الولي أنه يقوي إيمانه بشريعة محمد ﷺ بوحي الإلهام، حتىٰ يصير كأنه أخذها عن رسول الله ﷺ بلا واسطة، وهناك يصحُّ لهذا الوليِّ مقامُ الأخذ عن رسول الله ﷺ والتصدر لإرشاد أمته، لقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾[يوسف: ١٠٨] الآية.

وعُلِمَ أيضًا أن مراد من قال: «إن مقام الولاية أتمُّ من مقام الرسالة» وإن كان الصحيح

---

(١) تقدم تخريجه.

خلاف قوله أنه في حق ولاية النبي مع رسالته، لا في حق ولاية الولي مع رسالة النبي، فافهم. ولعل شبهته شرف المتعلَّق ودوامه، فإن الرسالة لها الانقطاع لتعلق حكمها بالخلق والتكاليف. وأما الولاية فإن متعلَّق حكمها بالله تعالىٰ، ولها الدوام في الدنيا والآخرة. انتهىٰ.

[ردُّ ما أُشيع عن الشيخ الأكبر أنه يقول بتفضيل الولاية على الرسالة]

واعلم يا أخي أن من جملة من أُشِيعَ عنه أنه يقول بتفضيل الولاية علىٰ الرسالة علىٰ الإطلاق الشيخَ محيي الدين بن العربي رحمه الله، وحاشاه من مثل ذلك، فإنه جهل بمقام الأنبياء. وقد ذكر في الباب الرابع عشر من «الفتوحات» ما نصه: اعلم أنه لم يقصم ظهور الأولياء شيء غير انقطاع النبوة والرسالة بموت محمد ﷺ، فقد قصم والله ذلك ظهورهم، لفقدهم الوحي الإلهي الذي هو قوت قلوبهم وأرواحهم.

قال: ولو كان أحد من الأولياء في مقام أحد من الأنبياء فضلًا عن كون الولاية أتم وأكمل ما قصمت ظهورهم، ولا كانوا احتاجوا إلىٰ وحي علىٰ لسان غيرهم، لكن من جملة رحمة الله بالأولياء أنه أبقىٰ عليهم وحي المبشرات في المنام علىٰ لسان ملَك الإلهام، ليستأنسوا برائحة الوحي. انتهىٰ.

وقال في الكلام علىٰ التشهد في باب أسرار الصلاة من «الفتوحات»: قد سَدَّ الله تعالىٰ باب الرسالة عن كل مخلوق بموت رسول الله ﷺ إلىٰ يوم القيامة. وتبين لنا بذلك أنه لا مناسبة بيننا وبينه ﷺ في المقام، فإنه في المرتبة التي لا ينبغي أن تكون لنا. انتهىٰ.

وقال في شرحه لـ«ترجمان الأشواق»[1]: اعلم أن مقام النبي ممنوع لنا دخوله، وغاية معرفتنا به من طريق الإرث النظر إليه كما ينظر من هو في أسفل الجنة إلىٰ أهل عليين، وكما ينظر أهل الأرض إلىٰ كواكب السماء.

قال: وقد بلغنا عن أبي يزيد البَسْطَامي أنه قال: فُتِحَ لي من مقام النبوة مقدار خرم إبرة

---

(١) ديوان شعري للشيخ الأكبر، وقد شرحه بنفسه في «ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق».

تجليًا [لا][1] دخولاً، فأردت دخوله فكدتُ أحترق. انتهىٰ.

وقال في الباب الثاني والستين والأربعمئة من «الفتوحات»: اعلم أنه لا ذوق لنا في مقام النبوة حتىٰ نتكلم عليه، وإنما نتكلم علىٰ ذلك بقدر ما أُعطينا من الإرث فقط، وذلك كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود. وإيضاح ذلك أنه لا يصح لأحد منا دخول مقام الرسالة، وإنما يراه كالنجم علىٰ الماء.

وقال في الباب السابع والستين وثلاثمئة: لقد أعطيتُ من مقام العبودية التي اختُص بها رسول الله ﷺ مقدار الشعرة، فما استطعت القيام به. انتهىٰ.

فهذه نصوص الشيخ محيي الدين ﵀ ترد قول من نسب إليه القول بتفضيل الولاية علىٰ مقام الرسالة، فإن كلامه وكلام غيره ليس في تفضيل ولاية الولي مع رسالة الرسول، وإنما هو في ولاية الرسول مع مقام رسالته هو، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(۳۱) ومما أجبتُ به من يتوهم أن الوحي الذي ينزل به ملَك الإلهام علىٰ الولي له رتبة الوحي الذي ينزل به الملَك علىٰ النبي في نفس الأمر، وأن الأنبياء ما فضلوا الأولياء سوىٰ بالشهرة كما سمعتُه من بعض أهل الشطح.

والجواب: أن وحي الأولياء لا يلحق وحي الأنبياء بوجه من الوجوه أبدًا، وذلك لأن وحي الأنبياء لا يكون إلا بتشريع، وأما وحي الأولياء فإنما يكون بالأمر باتباع نبيهم، وتفهيم ما جاء به مما لم يتحقق للولي علمه، أو تبيين معانيه للناس، أو بيان مرتبته في الصحة، كحديثٍ قال العلماء بضعفه، فيخبره ملَك الإلهام بأنه صحيح ونحو ذلك.

وذكر الشيخ في الباب الرابع والستين وثلاثمئة في وحي الأولياء ما نصه: اعلم أن جماعة من أصحابنا غلطوا في الفرق بين وحي النبي ووحي الولي، كأبي حامد الغزالي وأضرابه، فقالوا: الفرق بين وحي النبي والولي نزول الملَك، فإن الولي ملهمٌ لا ينزل

(۱) ساقط من «ب».

عليه ملَك، والنبي هو الذي ينزل عليه الملَك، مع أنه يشارك الأولياء أيضًا في أمور يكون مُلهَمًا فيها من حيثُ إنه جامع بين الولاية والنبوة. انتهىٰ.

قال الشيخ محيي الدين: والحقُّ أن الكلام لا ينبغي أن يكون إلا في الفرق فيما نزل به الملَك، لا في نزول الملَك، فإن الذي ينزل به الملَك علىٰ الرسول أو النبي خلاف ما ينزل به الملَك علىٰ الوليِّ التابع. وقد ينزل الملَك علىٰ الوليِّ ببشرىٰ من الله بأنه من أهل السعادة، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] في الذين قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ [فصلت: ٣٠].

قال: ولعل سبب من منع تنزل الملَك علىٰ الولي عدم ذوقه لذلك، وظنه أنه قد عم بسلوكه جميع المقامات، فلما ظن ذلك بنفسه ولم ير ملَكًا نزل عليه أنكره وقال: نزول الملَك خاص بالأنبياء، فذوقه صحيح وحكمه غير صحيح، مع أن هؤلاء الذين منعوا نزول الملَك علىٰ الولي قائلون بأن زيادة الثقة مقبولة، وأهل الله كلُّهم ثقات عدول.

قال: ولو أن أبا حامد ومن قال بقوله اجتمعوا في زمانهم بأحد من خواص أهل الله تعالىٰ، وأخبرهم بتنزل الملَك علىٰ الوليِّ، لقبلوا منه ذلك ولم ينكروه.

وقال الشيخ محيي الدين: وقد نزل علينا ملَك الإلهام ما لا يُحصَىٰ، وأخبرنا بذلك جماعة ممن كانوا ينكرون تنزل الملَك علىٰ الوليِّ، فرجعوا إلىٰ قولنا. انتهىٰ.

وقال في الباب الثالث والعشرين وثلاثمئة: اعلم أن وحي البشائر للأولياء هو الوحي الأعمُّ الذي يكون من الحقِّ تعالىٰ إلىٰ العبد من غير واسطة، يؤيد الله تعالىٰ به من صدق مع الله تعالىٰ من الأولياء. وقد يكون أيضًا بواسطة ملَك مغيَّب عن الولي، ولكن النبوة من شأنها الواسطة ولابد، فلابد من الملَك فيها، والمبشرات ليست كذلك، فالعارف لا يبالي ما فاته من الوحي المتعلِّق بالبشائر علىٰ لسان نبيه[1]، مع بقاء المبشرات عليه من جهة ولايته هو. انتهىٰ.

وقال في الباب الثامن ومئتين: اعلم أن علوم الغيب تنزل [بها][2] الأرواح علىٰ قلوب

---

(١) في «الفتوحات»: ما فاته من النبوة.

(٢) ساقط من «ب».

العباد، فمن عرفهم تلقاهم بالأدب، وأخذ منهم بالأدب، ومن لم يعرفهم أخذ علم الغيب ولا يدري عمن أخذه، كالكهنة وأهل الزجر وأصحاب الخواطر وأهل الإلهام[1]، فكل هؤلاء يجدون العلم بذلك في قلوبهم ولا يعرفون من جاءهم به، بخلاف أهل الله، فإنهم يشاهدون تنزل الأرواح علىٰ قلوبهم، لكونهم لا يرون الملَك النازل، لأن رؤيته حال الإلقاء من خصائص النبوة والرسالة. فالولي إن شهد الملائكة لا يسمع إلقاءها عليه. وإن سمع إلقاءها عليه لا يشهد أشخاصها، مع كونه يعلم أن ذلك الوحي من الملَك بلا شكٍّ، فلا يجمع بين رؤية الملك وسماع الإلقاء منه إليه إلا نبي أو رسول، وبهذا يفرق بين الولي والنبي.

[محلُّ الإلهام من العبد]

فإن قلتَ: فما محل الإلهام من العبد؟ **فالجواب:** محله النفس، قال تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] أي فجورها لتجتنبه ولا تعمل به، وتقواها لتعمل به وتعلمه، فهو إلهام إفهام وإعلام، لا كما يظنه من لا علم له. قال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] والدسُّ إلحاق خفي بازدحام، فألحق هذا الجاهلُ العملَ بالفجور بالعمل بالتقوىٰ، وجمع في موضع التفريق، لكونه جمع بينهما في العلم والعمل، فأخطأ الشرائع. وسبب ذلك رمي ميزان الشريعة من يده، ولو أن ميزان الشريعة كانت في يده لعلم أنه مأمور بالتقوىٰ، منهي عن الفجور، وتبين له الفرق بين الأمرين، والله أعلم[2].

[أنواع وحي الأولياء]

فإن قلتَ: فهل وحي الأولياء علىٰ نوع واحد دائمًا أو علىٰ أنواع؟ **فالجواب:** هو علىٰ أنواع: **فمنها ما يكون متلقىٰ بالخيال** كالمبشرات في عالم الخيال، وهو الوحي في النوم، فالمتلقىٰ خيال، والنازل كذلك، والموحىٰ به كذلك؛ **ومنها ما يكون خيالًا في حسٍّ** علىٰ ذي حس؛ **ومنها ما يكون معنىٰ** يجده الوليُّ في نفسه من غير تعلُّق حس ولا خيال بمن

---

(١) بالأصلين: الأفهام. والمثبت من نص «الفتوحات».

(٢) انظر «الفتوحات» الباب (٣٥٣).

نزل به؛ ومنها ما يكون كتابة، ويقع ذلك كثيرًا للأولياء كحبيب العجمي[1] وأبي عبد الله قضيب البان[2] وبقي بن مخلد[3] تلميذ الإمام أحمد بن حنبل[4]، وكان أضعف الجماعة في ذلك، فكان لا يجده إلا بعد القيام من النوم مكتوبًا في ورقة بخط مخالف لخط سائر الخلق، وتقرأ من سائر الجوانب، والله أعلم.

[لا يُشترَط في وحي المبشرات أن يكون في النوم]

فإن قلتَ: فهل يُشترَط في وحي المبشرات أن يكون في النوم دون اليقظة؟ **فالجواب:** لا يُشترط فيه النوم، فقد يكون في اليقظة، وقد يكون في النوم، وعلىٰ كلِّ حال فكل ما جاء للوليِّ من وحي المبشرات فهو رؤيا بالخيال في الحس لا بالحس، فإن المتخيَّل قد يكون من دخل في القوة، وقد يكون من بخار بتمثل روحاني، وقد يكون هو التجلي المعروف بين القوم إذا كان المزاج مستقيمًا مهيأً لقبول وارد الحق، فيكون حينئذ خيالًا حقيقيًّا، والله أعلم.

[كيفية تنزل الوحي على قلوب الأولياء من طريق الإلهام]

فإن قلتَ: فما كيفيةُ تنزل الوحي علىٰ قلوب الأولياء من طريق الإلهام وحفظهم من الشيطان؟ **فالجواب:** كيفية ذلك أن الحق تعالىٰ إذا أراد أن يوحي إلىٰ وليٍّ من الأولياء

---

(١) حبيب بن محمد العجمي أبو محمد البصري الزاهد، أحد الزهاد المشهورين الموصوفين بالزهد والورع والكرامات و استجابة الدعاء ت ١١٩هـ. تاريخ الإسلام (٣/ ٦٢٧)، تهذيب الكمال (٥/ ٣٨٩).

(٢) الحسين بن عيسىٰ بن يحيىٰ الحسني، أبو عبد الله المعروف بقضيب البان: متصوف من أهل الموصل. تفقه حنبليًا وصحب عبد القادر الكيلاني وغيره. له أخبار في الزهد كثيرة. توفي: ٥٧٣هـ الأعلام (٢/ ٢٥١).

(٣) بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي الحافظ أحد الأعلام، وصاحب التفسير والمسند. ولد في رمضان سنة ٢٠١هـ، وهوالذي نشر الحديث بالأندلس وكثره. توفي في جمادىٰ الآخرة ٢٧٦هـ. انظر: طبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٤٠) الأعلام (٢/ ٦٠).

(٤) أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي أبو عبد الله، إمام في الحديث والفقه، صاحب المذهب الحنبلي. ولد ببغداد ونشأ بها وسمع الحديث من شيوخها، من مؤلفاته: «المسند» و«الزهد» و«فضائل الصحابة» توفي ببغداد:٢٤١هـ. وفيات الأعيان (١/ ٦٣)، معجم المؤلفين (٢/ ٩٦).

بأمر ما، جلّىٰ لقلب ذلك الولي صورة ذلك الأمر، فيفهم الولي من ذلك التجلي بمجرد مشاهدته له ما يريد الحق تعالىٰ أن يُعْلِمَ ذلك الولي به، فيجد الولي في نفسه علم ما لم يكن يعلم قبل ذلك، كما وجد النبي ﷺ العلم في الضربة بين كتفيه[1] وفي شربة اللبن[2] ثم إن من الأولياء من يشعر بذلك، ومنهم من لا يشعر به، بل يقول: وجدت في خاطري كذا وكذا، ولا يعلم من أتاه به، هل هو من لمَّة الملك أو غيره، ولكن من عرف ذلك فهو أتم، لأنه حينئذٍ يُحفَظ من الشيطان.

[المحدَّثون يعرفون حديث الحقّ معهم]

فإن قلتَ: فهل يعرف المحدَّثون -بفتح الدال- وهم الذين يحدثهم الحقُّ تعالىٰ في سرائرهم بحكم الإرث لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حديثَ الحقِّ تعالىٰ معهم في نفوسهم أم لا؟ **فالجواب:** نعم، يعرفون حديثه تعالىٰ لما هم عليه من الصفاء وعدم الكدر، قال ﷺ: «إن يكن من أمتي محدَّثون فعمر»[3] أي أصالة. ولابد لكلِّ مقام من وارث بعد صاحبه إلا ما يخرج بالنص. ثم لا يخفىٰ عليك يا أخي أن مرتبة التحديث دون مرتبة الكلام الذي يكون للأنبياء، فإياك والغلط.

[إرث الأولياء من الأنبياء السابقين]

فإن قلتَ: فهل يكون كلُّ واحد من الأولياء علىٰ قلب واحد من الأنبياء كما ورد في

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة ربي تبارك وتعالىٰ في أحسن صورة. قال: أحسبه في المنام فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلىٰ؟ قال: قلت: لا. قال: فوضع يده بين كتفي حتىٰ وجدت بردها بين ثديي. أو قال: في نحري، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض...» وأحمد (٣٤٨٤) وابن أبي شيبة (٣٢٣٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «سمعت رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم، أُتيت بقدح لبن، فشربت حتىٰ إني لأرىٰ الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم» ومسلم (٢٣٩١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٦)، ومسلم (٢٣٩٨).

حديث: «إن لله تعالىٰ أولياء منهم من هو علىٰ قلب إبراهيم، ومنهم من هو علىٰ قلب عيسىٰ... إلىٰ آخره»[1]. **فالجواب**: هم في ذلك علىٰ حالين: منهم من يكون علىٰ قلب نبي، ومنهم من يكون علىٰ قدمه دون قلبه.

وقد قال الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والأربعين وثلاثمئة: كنتُ قبل أن اجتمع بالأنبياء في واقعة أظنُّ أن الأولياء كلَّهم علىٰ قلوب الأنبياء، فلمَّا اجتمعتُ بهم، قالوا لي: لا تقل علىٰ قلوب الأنبياء، وقل علىٰ أقدامهم، لأنهم علىٰ آثارنا مقتدون، ولو أنهم كانوا علىٰ قلوبنا لنالوا ما نلنا. فلما أطلعني الله تعالىٰ علىٰ ذلك، صرتُ أجيب من سألني عن ذلك بأن للأولياء معراجين: أحدهما يكونون فيه علىٰ قلوب الأنبياء، لكن من حيثُ هم عليهم الصلاة والسلام أولياء وأنبياء فيما لا تشريع فيه، لكن لا يخفىٰ أنه لا يلزم من كون الوليّ علىٰ قلب بعض الأنبياء مساواته له في المقام، بل لابد للنبي من خصوص وصف يتميز به عن الوليّ الذي هو علىٰ قلبه، فافهم.

والمعراج الثاني يكونون فيه علىٰ أقدام الأنبياء أصحاب الشرائع، فيأخذون معاني شرعهم بالتعريف من الله تعالىٰ، ولكن من مشكاة نور الأنبياء، فلا يخلص لهم الأخذ عن الله تعالىٰ، ولا من الروح القدسي، وما عدا ذلك فإنه يخلص لهم من الله ومن الروح القدسي من طريق الإلهام. انتهىٰ.

وقال الشيخ أيضًا في الباب الخامس والعشرين من «الفتوحات»: لم يبق للأولياء بعد موت رسول الله ﷺ إلا الفهم في الكتاب والسنة، كما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2]، وما

---

(١) ذكره الشيخ الأكبر في الفتوحات (١/ ١٦١) ولم يذكر أنه حديث، ولم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما أخرج الطبراني في الكبير (١٠٣٩٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: لا يزال أربعون رجلًا من أمتي قلوبهم علىٰ قلب إبراهيم، يدفع الله بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال. ...» وأحمد (٢٢٧٥١) بنحوه، وأبي نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٥٠٦).

(٢) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ، أول الناس إسلامًا في قول كثيرين، ولد قبل البعثة بعشر سنين، شهد المشاهد كلها إلا تبوك استخلفه النبي ﷺ علىٰ المدينة، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد، ومناقبه كثيرة جدًا، ولي الخلافة بعد عثمان رضي الله عنه، ت سنة ٤٠ هـ. أسد الغابة (٤/ ٨٧)، الإصابة (٤/ ٤٦٤).

بقيٰ بأيدي العلماء بالله إلا أن يرزقهم الله تعالىٰ الفهم في القرآن. انتهىٰ.

[حفظ الوليِّ من تلبيس إبليس]

فإن قلتَ: فمتىٰ يُحفظ الوليُّ من إبليس ومن التلبيس؟ **فالجواب:** أن هذا السؤال سُئل عنه الإمام الغزالي وابن سيدبون[1] رجل من وادي آشت، فقالا: إذا ارتقىٰ الولي من عالم العناصر وفُتِحَ لقلبه أبواب السماء، حُفِظَ من إبليس ومن التلبيس، لأن كلَّ ما يراه الولي هناك حقٌّ. انتهىٰ.

وغلطهما الشيخ محيي الدين في ذلك، فقال في الباب الثالث والثمانين ومئتين من «الفتوحات»: مما غلط فيه الغزالي وجماعة قولُهم: إن الولي إذا ارتقىٰ إلىٰ ما فوق عالم العناصر، حُفظ من إبليس، وذلك لا يصح إلا إذا كان العروج للوليِّ بجسمه مع روحه، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ إن صح أن أحدًا يرثه في هذا المعراج، ولكن لم يبلغنا وقوع ذلك لأحد بعده ﷺ. أما من عرج بخاطره وروحه من غير انفصال بموت وجسده في بيته، فقد لا يُحفظ من التلبيس، اللهم إلا أن يكون ذلك الولي ممن له علامة بينه وبين الله تعالىٰ يفرِّق بها بين وحي الحق تعالىٰ وبين وحي إبليس، فهذا محفوظ من التلبيس. ومن الأولياء ما يأخذ ما يلقيه إليه إبليس بوجه آخر عن الله تعالىٰ، فيرد إبليس خاسئًا، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «اليواقيت والجواهر».

وفي الباب الثامن والستين من «الفتوحات» أن الله تعالىٰ ربما مكر بإبليس، فيستعمله في ضد مرتبته، وذلك أنه تعالىٰ يلهم إبليس فعل الخير مع بعض العباد من حيثُ لا يشعر إبليس بذلك، فيفعل العبد ذلك الخير، فيسعد به علىٰ رغم أنف إبليس، كأن يقع لإبليس الوسوسة للعبد أيضًا بفعل خير ليفعله طاعةً له، ثم بعد ذلك يستدرجه إلىٰ فعل ما يكره الله عزَّ وجلَّ، فيؤجر العبد علىٰ تلك الطاعات، ثم يحفظه الله تعالىٰ من مطاوعته في

(١) أحمد بن سيدبون، من خلفاء أبي مدين. التقاه الشيخ الأكبر بمرسية سنة (٥٩٥هـ). لقبه الشيخ بـ«الإمام الأوحد». توفي سنة (٦٢٤هـ). يُنظر: «بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي»، الشيخ عبد الباقي مفتاح.

المستقبل. فلو عَلِم إبليس أن ذلك العبد يسعد بوسوسته له بفعل الخير ما كان ألقىٰ إليه شيئًا. وتسمّىٰ الصوفية مثل هذا من إبليس استدراجًا للعبد، فإنه إنما يأمره بخير ليجره بعد ذلك إلىٰ الشر. قال الشيخ: ولم أر أحدًا نبه علىٰ مكر الله بإبليس أبدًا. انتهىٰ.

[سبب خلع الله تعالى على الأولياء اسم «الوليّ» دون الأنبياء]

فإن قلتَ: لم خلع الله تعالىٰ علىٰ الأولياء اسم «الولي» دون الأنبياء؟ مع أن الأنبياء أحق بأن يخلع تعالىٰ عليهم اسم «الولي» الذي هو علىٰ صورة اسم من أسمائه، لشدة قربهم من حضرته تعالىٰ؛ **فالجواب**: أن ذلك لحكمة بالغة، وهي أنه تعالىٰ لما أغلق باب الوحي بعد رسول الله ﷺ، كان ذلك من أشد ما يجرع الأولياء من أثره، لانقطاع الوصلة بينهم وبين من يكون واسطتهم إلىٰ الله تعالىٰ، فجبر الله تعالىٰ مصيبتهم ورحمهم بأن خلع عليهم جواز إطلاق اسم «الولي» الذي هو من جملة أسمائه تعالىٰ.

وأما حكمة عدم خلع الحق تعالىٰ علىٰ الأنبياء اسم «الولي» فلاستغنائهم عن الجبر بما هم عليه من كمال الأدب مع الله تعالىٰ، فلا يحتاجون إلىٰ الجبر. وأيضًا فإنهم معصومون من محبة مشاركتهم للحق تعالىٰ في شيء فيه تعظيم لهم، ليتميز الحقُّ بصفات التعظيم دونهم، ولذلك لم يشتهر نبينا ﷺ باسم «الولي» وإن كان وليًا قطعًا، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥] بل سمَّاه بـ«العبد» وبالرسول الَّذين لا يليقان بالله تعالىٰ، تشريفًا له ﷺ عن أن يزاحم رتبة ربِّه تعالىٰ في الأسماء.

فإن قلتَ: فإن الله تعالىٰ قد سماه «رؤوفًا رحيمًا»؛ **فالجواب**: أن ذلك كان له ﷺ من الوجه الخاص المطلق، ليغيظ بذلك قومًا مخصوصين. ولما علم رسول الله ﷺ ما تجرَّعه علماء أمته من مرارة انقطاع الوحي والرسالة، جعل لهم نصيبًا من الرسالة، ليكونوا بذلك عبيد الله تبعًا له ﷺ، إذ أشرف لقب يكون للعبد أن يُقال: «عبد الله» فقال: «ليبلِّغ الشاهد الغائب»[1] فأمرهم بالتبليغ، ليصدق عليهم اسم الرسالة التي هي من ألقاب العبيد، بمعنىٰ أنهم رسل رسول الله ﷺ. وقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله امرأ»، وفي رواية «نضر الله

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

امرأ سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها»[1]. انتهىٰ، أي حرفًا بحرف من غير تصرُّف في العبارة التي قلتُها، كما تبلِّغ الرسل كلام ربها باللفظ الذي يلقيه إليهم بواسطة أو بغيرها. وما فاز بهذه الدرجة حقيقةً إلا المحدِّثون الذين يروون أحاديثه بالألفاظ التي بلغتهم عن رسول الله ﷺ من غير تغيير لها -أي المقالة- فهؤلاء هم الذين فازوا حقيقة بدعاء رسول ﷺ لهم بالرحمة والنضارة التي هي الجمال، بخلاف من يروي الحديث بالمعنىٰ، فإنه ربما لا يناله شيء من دعاء رسول الله ﷺ، لأنه إنما ينقل إلينا صورة فهمه هو.

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله يقول: لا يحشر يوم القيامة في صفوف الرسل عليهم الصلاة والسلام إلا من بلَّغ الوحي من كتاب وسنة بلفظه كما سمعه، فإذا نقل الصحابة الوحي علىٰ لفظه، فهم رسل رسول الله، وإذا نقله عنهم التابعون فهم رسل الصحابة، وهكذا الحكم جيلًا بعد جيل إلىٰ يوم القيامة، فإن شئنا قلنا في المبلِّغ إلينا: إنه رسولُ رسولِ الله، وإن شئنا أضفناه لمن بلَّغ عنه. وإنما جوزنا حذف الوسائط، لأن رسول الله ﷺ كان يخبره بالوحي جبريلُ أو ملَكٌ من الملائكة عن الله تعالىٰ، ولا نقول فيه إنه رسول جبريل ولا رسول ذلك الملَك.

وكان رحمه الله يقول: كلُّ عبد سُمِّي بـ«الوليّ» فقد نقص من عبوديته بقَدْر ما أخذ من هذا الاسم. ومن أراد أن لا ينقص الولي فليسمه بالمحدَّث -بفتح الدال المشددة- فإنه أولىٰ له من اسم «الوليّ» كما أفادنيه الخضر عليه الصلاة والسلام.

[الوصول لأخبار السماوات يكون للأنبياء والأولياء]

فإن قيل: فهل الوصول إلىٰ أخبار السماوات خاص بالرسل أم يكون للأولياء كذلك؟

فالجواب: يكون ذلك للأنبياء وللأولياء، لكن مع اختلاف الطريق، فإن النبي يعرف أخبار السماوات تارةً بالإسراء بالجسم أو بالوحي علىٰ يد ملَك، وتارةً بالكشف الروحي من طريق ولايته، والوليُّ لا يعرف ذلك إلا من طريق الكشف الصحيح إذا انجلت مرآة قلبه، إذ القلب إذا انجلىٰ صار كالمرآة الصقيلة المقابلة للوجود العلوي والسفلي.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٠) والترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٠).

ومن جملة ما ينطبع في مرآة قلوبهم الملأ الأعلىٰ وألواح المحو والإثبات وما يكتب فيها؛ لأنه يرتسم كلُّه في قلب الولي بحكم التمثيل، كما مُثِلَت الجنةُ لرسول الله ﷺ في عَرْض الحائط وقال: «لما تقدمتُ أردتُ أن أقطف لكم من تمرها قطفًا، فلو أخرجتُه إليكم لأكلتُم منه ما بقيت الدنيا»[1] وقال: «لما تأخرْت خفتُ أن يصيبني لهب النار» وأخبر أنه رأىٰ فيها عمرو بن لحي[2] الذي سيَّب السوائب، وصاحب المحجن، والمرأة التي حبست الهرة حتىٰ ماتت جوعًا إلىٰ آخر ما قال[3].

[المراد بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء]

فإن قيل: فما المراد بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، هل هم علماء الظاهر أو علماء الحقيقة؟ **فالجواب**: كلُّ الفريقين وارث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالعلماء هنا حفَّاظ الأحكام الشرعية، والأولياء حفَّاظ الأحكام الباطنة في علم الحقيقة زيادةً علىٰ الأحكام الظاهرة، فهم المراد بالعلماء حقيقة، لجمعهم بين مقامي علم الظاهر والباطن الموروث عن الأنبياء.

[الفرق بين الوارث المحمدي والوارث لغيره من الأنبياء]

فإن قلتَ: فما الفرق بين الوارث المحمدي والوارث لغيره من الأنبياء؟ **فالجواب**: من الفرق بينهما أن ورثة الأنبياء آياتهم في الآفاق من خرق العوائد وغيرها، وآية الوارث المحمدي في قلبه، فلذلك كان **الوارث المحمدي مجهولًا في العموم، معلومًا في الخصوص**، لأن خرق عادته إنما هو حال وعلم في القلب، فهو في كل نَفَس يزداد علمًا بربه علم حال وذوق، ولا يشعر أحد بذلك علىٰ مرور الزمان[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥) ومسلم (٩٠٧).

(٢) عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، من قحطان: أول من غير دين إسماعيل ودعا العرب إلىٰ عبادة الأوثان. كنيته أبو ثمامة. وفي نسبه خلاف شديد. الأعلام (٥/ ٨٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٠٤) والنسائي (١٤٨٢) وابن حبان (٢٨٣٨).

(٤) انظر «الفتوحات» الباب (٤٣٨).

فإن قلتَ: إن الأنبياء الذين كانوا أصلًا في الإرث لنبينا محمد ﷺ مدة غيبة جسمه كان لهم آيات ظاهرة، مثل بعض الآيات التي وقعت لنبينا محمد ﷺ؛ **فالجواب**: أن تلك الآيات إنما ظهرت من حيثُ كونُهم رسلًا لا من حيثُ كونُهم ورثته، وكان ذلك من الله تعالىٰ لطفًا بأمة ذلك النبي، وإقامة للحجة علىٰ من لم يمتثل أمره، ألا ترىٰ إلىٰ قصة الإسراء برسول الله ﷺ وتكذيب بعض قومه له لما خرج إليهم صباح ليلة الإسراء، وذكر لأصحابه ما جرىٰ له في إسرائه وما رأىٰ من العجائب، وما وقع بينه وبين ربه من المكالمة كيف أنكر عليه بعض الناس، لكونهم لم يروا لذلك أثرًا في الظاهر، لاسيما وقد زادهم حكمًا في التكليف.

وانظر إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام لما جاء من عند ربه، وكساه الله تعالىٰ نورًا علىٰ وجهه حتىٰ تميز به عن الناس، كيف صدَّقه قومه فيما ادعاه وما رآه أحد إلا عمي، فكان يمسح وجه كل من عمي بثوب مما عليه، فيرد الله عليه بصره من شدة نوره الذي سرىٰ إلىٰ ثيابه من جسده، ولذلك ورد أنه كان يتبرقع حتىٰ لا يرىٰ أحد وجهه فيعمىٰ[1].

فإن قلتَ: فهل أُعطِيَ أحد من الأولياء هذه الكرامة؟ **فالجواب**: نعم، كانت للشيخ أبي يعِزَّىٰ المغربي[2]؛ لكونه كان موسويَّ المقام، فكان لا يراه أحد إلا عمي.

قال الشيخ محيي الدين: وممن رآه فعمي شيخنا أبو مدين لما دخل إليه، فمسح عينيه بالثوب الذي كان علىٰ أبي يَعِزَّىٰ ، فرد الله عليه بصره.

[المفاضلة بين من فاض نوره على وجهه وبين من كان نوره في قلبه]

فإن قلتَ: فهل الأفضل من الأولياء من فاض نوره علىٰ وجهه أو من كان نوره في قلبه وليس علىٰ وجهه منه شيء؟ **فالجواب**: من كان نوره في قلبه فهو الأفضل، لكونه يعلم ما يأتي وما يذر من الأفعال والأقوال والأحوال، فإن النور علىٰ الوجه فتنة علىٰ صاحبه إن لم يكن

(١) ذكره ابن الجوزي في «مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» (٢/ ٦٩) من كلام وهب.

(٢) أبو يعِزَّىٰ يلنور بن ميمون بن عبد الله الدكالي الهزميري، وقيل: هو من بني صبيح من هشكورة، دفين قرية تاغيا من بلاد مغراوة، المعروف بـ أبي يعزىٰ: أحد الزهاد المشتهرين في المغرب توفي ٥٧٢ هـ وقد نيف علىٰ المائة بنحو الثلاثين سنة. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ (٢/ ٢١٠)، الأعلام (٨/ ٢٠٨).

معصومًا أو محفوظًا، اللهم إلا أن يفيض النور من قلبه علىٰ ظاهره من غير قصد، فلا حرج علىٰ الوليّ في ذلك. وقد كان أبو الحسين النُّوري[1] إذا دخل المسجد أضاء المسجد من نور وجهه حتىٰ رأىٰ بعضهم إبرة كانت وقعت منه، بحكم الإرث لرسول الله ﷺ في ذلك المقام. وقد مر رجل من إخواننا علىٰ سيدي عليٍّ الخواص، فقلتُ له: يا سيدي انظروا إلىٰ نور وجه هذا الرجل! فرفع رأسه إليه وقال: اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت! فقلتُ: لماذا؟! فقال: إذا أراد الله بعبد خيرًا، جعل نوره في قلبه، ليميز بين الحقِّ والباطل. وإذا أراد به سوءًا، جعل نوره علىٰ وجهه، وسلب قلبه النور، فوقع في كل فاحشة. انتهىٰ.

[فرق آخر بين الوارث المحمدي والوارث لغيره من الأنبياء]

وقال الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والثلاثين وأربعمئة من «الفتوحات»: **إن قيل**: ما الفرق بين الوارث المحمدي والوارث لغير محمد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ **فالجواب**: الفرق بينهما أن الوارث المحمدي يشهد نفسه خلف كلِّ نبي في أماكن بعددهم، لكون جميع الأنبياء جُمعت حقائقهم وشرائعهم في محمد ﷺ وفي شريعته، فمن آمن به وصدقه، فقد آمن بجميع الأنبياء حقيقة.

فإن قيل: فهل إذا تعددت صورتُه خلف جميع الأنبياء، يصير يعلم بنفسه وأنه هو أم لا؟ **فالجواب**: نعم، يعلم في نفسه أنه هو عينه في كل صورة، وليست صورة أولىٰ من أخرىٰ، والله أعلم.

فإن قيل: فإذا أُقيم العبدُ في عمل ليس فيه نصٌّ عن الشارع، وإنما قلَّد فيه مجتهدًا ما من علماء الأمة، فهل يُحشر يوم القيامة وارثًا لذلك المجتهد أو وارثًا لرسول الله ﷺ من حيثُ إنه هو الذي قرر ما استنبطه المجتهد؟ **فالجواب**: يُحشر يوم القيامة وارثًا لذلك المجتهد،

---

(١) أبو الحسين أحمد بن محمد بن الحسين النّوريّ البغداديّ المولد والمنشأ، وأصله من خراسان وإنما سمّي النّوريّ؛ لأنه كان إذا حضر في مكان ينوّر، كان أعظم مشايخ الصوفيّة في وقته، كان صاحب لسان وبيان، كان من أقران الجنيد بل أعظم، من تصانيفه: «مقامات القلوب» توفي: ٢٩٥هـ. النجوم الزاهرة (٣/ ١٦٣)، معجم المؤلفين (٢/ ١٦٦).

ومتبِعًا للنبي ﷺ أيضًا، وإن كان ذلك في نفس الأمر شرعًا له.

فإن قلتَ: فما حكم من أُقيم في عمل لا عن نصٍ ولا عن تقليد، بل عن نظر واجتهاد، فهل يكون وارثًا لأحد في هذه المسألة أم لا؟ **فالجواب**: لا يصح أن يكون وارثًا إلا من أصاب الحقَّ فيها، فإن أصابه كان وارثًا، وإن أخطأ لم يكن وارثًا.

فإن قلتَ: فما حكم من انفرد في العمل الذي عمله من كل رسول ونبي ومجتهد ولم يتبع نص أحد منهم؟ **فالجواب**: أن مثل هذا يُحشر أمةً وحده، كقِسِّ بن ساعدة[1]. ثم إنه معدود من أتباع رسول الله ﷺ من حيثُ انشراحُ صدره، لأن صدر الموحِّد لا ينشرح إلا لما يوافق دين الإسلام، فإن سرَّ رسول ﷺ أعطاه المادةَ التي نظر فيها حتىٰ انقدح له ما انقدح في تلك المسألة عند نفسه، فهو وإن أخطأ فيها، فهو مأجور معذور. هكذا سمعتُه من بعض العارفين، فتأمله.

[هل العلم الذي يدركه العقل والحواس يسمى موروثًا عن الأنبياء؟]

فإن قلتَ: فهل العلم الذي يدركه العقل والحواس يسمىٰ موروثًا عن الأنبياء؟ **فالجواب**: لا يُسمَّىٰ ذلك موروثًا، إذ الموروث إنما هو ما جاءت به الأنبياء مما لا تستقل العقول بدركه، كما تقدم في هذا الباب مما تحيله العقول بأدلتها.

[هل يورث علم العالم في حياته؟]

فإن قلتَ: فهل يُسمَّىٰ ما اكتسبناه من عالم في حياته موروثًا أم لا إرث إلا بعد موته؟ **فالجواب**: لا يُسمَّىٰ موروثًا إلا ما كان بعد موت المورِث وانتقاله إلىٰ البرزخ. وأما ما اكتسبناه منه حالة حياته فيُسمَّىٰ هبات وعطيات ومنحًا، ويكون الوارث فيها نائبًا وخليفةً لا وارثًا.

فإن قلتَ: فما المراد بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ

---

(١) قس بن ساعدة بن عمرو الإيادي، خطيب العرب وشاعرها وحكيمها وحليمها في عصره، وهو أول من علا علىٰ شرف وخطب عليه، وأول من اتكأ في خطبته علىٰ سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه: أما بعد وأدركه رسول الله ﷺ قبل النبوة ورآه بعكاظ وكان يؤثر عنه كلامًا سمعه منه. الوافي بالوفيات (٢٤/ ١٨٠) ومعجم الشعراء (ص: ٣٣٨) والمعارف (١/ ٦١).

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] كيف يكون الظالم لنفسه من ورثة الكتاب؟ والجواب: أن المراد بمن ظلم نفسه هنا هو من حمَّلَها من الطاعات فوق طاقتها، إيثارًا لجناب الحقِّ تعالىٰ علىٰ إراحته نفسه، لا من ظلم نفسه بالمعاصي، لأن مثله لا يكون مصطفىٰ من هذه الحيثية، بأن كان مصطفىٰ من حيثُ كونُه مسلمًا. وقد قيل لأبي الدرداء[1]: إلىٰ كم تحمِّل نفسك في العبادة فوق طاقتها؟ فقال: إنما أريد بذلك إسعادها يوم القيامة. انتهىٰ.

وذكر الشيخ في الباب الثمانين والثلاثمئة: أن الإرث للأنبياء كلَّه يرجع إلىٰ نوعين: معنوي ومحسوس. فالمحسوس هو حفظ الأخبار المتعلِّقة بأفعاله ﷺ وأقواله وأحواله. وأما المعنوي فهو تطهير النفس من مذامِّ الأخلاق، وتحليتها بالمكارم، وتذكره رؤية الله تعالىٰ له في كل حال يكون فيه، ويؤيده قول عائشة ﵂: «كان ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحيانه»[2]. انتهىٰ.

وقال في الباب السادس والثلاثين من «الفتوحات» في حديث: «العلماء ورثة الأنبياء»[3]: [اعلم أن المراد بهذا إنما هم علماء هذه الأمة المحمدية، لأنه قال: «ورثة الأنبياء»][4] ولم يقل: ورثة نبي خاص، فكل من عمل الآن بجميع شريعة محمد ﷺ، فكأنه عمل بجميع شرائع الأنبياء، وله من الأجر والثواب مثل أجر من عمل بجميع شرائعهم في حياتهم، لكن فيما قررتُه شريعتنا من شرائعهم لا مطلقًا، فإن ما نسخته شريعتنا لا ثواب في العمل به بعد النسخ.

---

(١) أبو الدرداء مشهور بكنيته وباسمه، واختلف في اسمه فقيل: عويمر بن زيد، وعويمر بن عامر، ويقال: ابن عبد الله الأنصاري الخزرجي، أسلم يوم بدر، وأول مشاهده أحد، كان فقيهًا عاقلًا حكيمًا، آخىٰ رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان، وجمع القرآن في حياة رسول الله ﷺ، وهو سيد القراء بدمشق ت ٣٢هـ. الاستيعاب (٤/ ١٦٤٦)، الإصابة (٤/ ٦٢١).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا كتاب «الأذان» باب «هل يتبع المؤذن فاه ههنا وههنا...» (١/ ١٢٩)، ومسلم (٣٧٣).

(٣) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وأحمد (٢١٧١٥).

(٤) ساقط من «ب».

[الكشف الصحيح لا يخالف الشريعة أبدًا]

فإن قلتَ: فهل الكشف الصحيح يخالف الشريعة في شيء من الأحكام؟ **فالجواب**: لا يخالفُ الكشفُ الصحيحُ الشريعةَ أبدًا؛ لأنه يخبر بالأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها، وذلك هو الشريعة بعينها. قال الشيخ محيي الدين: وقد صححنا أحاديث كثيرة من طريق كشفنا، ثم وجدناها في كتب الحفَّاظ صحيحةً، ولم يكن لنا علم بها قبل الكشف، **فإن الكشف الصحيح لا يأخذ من الشارع إلا ما صح**. وهذا هو مقام الخضر عليه الصلاة والسلام.

[المجتهدون وارثون لرسول الله ﷺ في مقام اجتهاده]

فإن قلتَ: فهل المجتهدون وارثون لمحمد ﷺ في مقام اجتهاده باستنباطهم الأحكام من الكتاب والسنة؟ **فالجواب**: نعم، وهم من أكبر الوارثين للنبوة، وإن تفاوت الاجتهادان من حيثُ إن اجتهاده ﷺ ينتهي إلىٰ اليقين، وغيره قد لا يتعدىٰ الظنَّ. وإيضاح ذلك أن الشارع أمر المجتهدَ المطلقَ أن يعمل بكل ما أدىٰ إليه الاجتهاد [في الأحكام][1].

فإن قلت: فإذن المجتهدون الوارثون لرسول الله ﷺ في منازل الأنبياء والرسل من حيثُ الاجتهادُ؛ **فالجواب**: نعم، وهو كذلك، فإنه ﷺ أباح لهم الاجتهاد في الأحكام، وذلك تشريع عن خبر الشارع، فكل مجتهد مصيب من حيثُ التشريعُ، كما أن كلَّ نبي معصوم. انتهىٰ.

وفي هذا القدر كفاية في الجواب عن الأنبياء عمومًا. ولنشرع بعون الله تعالىٰ في الأجوبة عنهم خصوصًا، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) زيادة من «ب».

الباب الثاني

في الأجوبة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحكم الخصوص

اعلم يا أخي أنه لا ذوق لنا في شيء من أحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حتىٰ نتكلم عليها بحكم المطابقة، فإن طاعتهم ليست كطاعتنا في المقام، ولا ذنوبهم التي قصها الله تعالىٰ علينا كذنوبنا في الوصف، وأين الثريا من الثرىٰ؟! فاللائق بنا الإيمان بما أضافه الحقُّ تعالىٰ إليهم منها علىٰ علم الله تعالىٰ فيها، لا علىٰ حدِّ ما نتعقله نحن منها قياسًا علىٰ أحوالنا في طاعاتنا ومخالفاتنا. وذلك قريب من مقام اتباعنا لإيمان السلف بآيات الصفات وأخبارها، بجامع قصور فهمنا عن إدراك حقيقة كلٍّ من المقامين وإن تفاوتا.

وهذا الذي ذكرناه أسلم لنا وأحوط في ديننا، لكونه طريقًا بين طريقين، إذ لا سبيل إلىٰ سلب ما أضافه الحقُّ تعالىٰ إليهم من اسم الذنب، ولا إلىٰ إلحاق الذنوب بهم علىٰ حدِّ ما نتعقله نحن من ذنوبنا من حيثُ الذمُّ والقبحُ. ومن هنا قال بعض العارفين: إن جميعَ ما قصَّه الله علينا في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من اسم الذنب كلّه صوريٌّ لا حقيقي. انتهىٰ.

إذا علمت ذلك، أقول وبالله التوفيق:

(٣٢) مما أجبت به عن سيدنا ومولانا والد الأنبياء والمرسلين السيد آدم عليه الصلاة والسلام في نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]: اعلم يا أخي أن معصية أبينا آدم عليه الصلاة والسلام إنما كانت صورة ما يقع من أولاده الذين هم في ظهره لا منه عليه الصلاة والسلام، فالحكاية عنه والمراد بها غيره، نظير قوله تعالىٰ في حقِّ نبينا محمد ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، فإن هذه الأمور ونحوها من المحال وقوعه ﷺ في شيء منها لعصمته. وبذلك قال جمهور العلماء وأهل الكشف.

وكان الشيخ الكامل الراسخ سيدي عبد العزيز الديريني ﷺ يقول: لم تكن معصية

أبينا آدم عليه الصلاة والسلام حقيقية، وإنما كانت صورية، فأوقع الله تعالىٰ علىٰ يديه ما وقع، لينتقل ذلك عنه إذا مات إلىٰ بنيه سلفًا لخلف علىٰ وجه التحذير والاعتبار، فكأنه عليه الصلاة والسلام يعلِّم بنيه الذين يقعون بعده في المعاصي بصورة ما وقع علىٰ يديه من الأكل من الشجرة، وما وقع له بسببها من تطاير الحُلَل والهبوط والندم والبكاء وكثرة الاستغفار كيف يفعلون إذا وقعوا في شيء من المعاصي والرذائل الحقيقية، فيتوبون ويستغفرون، ولا يحتجون علىٰ حضرة الله تعالىٰ بالقضاء والقدر كما وقع لإبليس.

وقد درج الأكابر من أهل الله عزَّ وجلَّ علىٰ كثرة لوم نفوسهم إذا وقعوا في شيء من المخالفات، مع علمهم بأن جميع ما وقع منهم كان بقضاء وقدَر لا مرد له، وما مرق من إقامة الحجة عليه إلا من مقته الله وأشقاه.

وقد قررنا مرارًا أنه يجب علىٰ العبد أن يقيم الحجة علىٰ نفسه دون حضرة ربه، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٦]، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، لأن الحق تعالىٰ لا يخبر إلا بالواقع، فيجب علىٰ كلِّ عبدٍ الإيمان بما أضافه الحقُّ تعالىٰ إليه، وإن لم يتعقله. انتهىٰ.

وكذلك قررنا مرارًا أن العبد لو قَدِرَ أن يقول: كيف تؤاخذني علىٰ أمر قدرته عليَّ قبل أن أُخلق؛ لقال له الحقُّ جل وعلا: وهل تعلَّق علمي بك في الأزل إلا علىٰ صورة ما أنت عليه؟ فلا يسعه إلا أن يقول: نعم. ومن هنا قال السيد آدم عليه الصلاة والسلام حين أكل من الشجرة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، مع علمه عليه الصلاة والسلام يقينًا بأن ما وقع فيه صورةً كان بقضاء وقدر لا مرد له، وأن الله تعالىٰ قدَّر ذلك عليه قبل أن يخلقه من التراب، ففتح عليه الصلاة والسلام بذلك لأولاده بابَ التوبة والندم والاستغفار وكثرة البكاء والنوح إذا وقع أحدُهم في مخالفة، كما فتح إبليس لأتباعه وجنوده بابَ الإصرار والشقاء والإدبار والاستكبار وعدم الرضا بإقامة حجة الله عليه ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وهنا أسرار من علمها عَرَف حكمة قوله تعالىٰ في آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾، وفي إبليس ﴿أَبَىٰ

﴿وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] لكن يجب عليه كتم تلك الحكمة، ولا ينبغي له وضعها في كتاب، لأن الكتاب يقع في يد أهله وغير أهله.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: كان في أكل أبينا آدم عليه الصلاة والسلام من شجرة النهي بيان حكم حضرتي الأمر والنهي، وأن من كمال العبد المؤمن من حيثُ الحكمةُ الإلهيةُ معرفتَه لهما، ليدرك الفرق بين مقدار الوصل ومقدار الهجر، فيشكر إذا قربه الحقُّ تعالىٰ من حضرته بالطاعات، ويندم ويحزن ويستغفر إذا أبعده الحقُّ تعالىٰ بالوقوع في المخالفات. ومن هنا قالوا: إن نشأة بني آدم أكمل في المقام من نشأة الملائكة؛ لأن الملائكة لا يذوقون للنهي طعمًا لعدم ميلهم إليه ووقوعهم فيه، ففاتهم الأجر الذي جعله الله لبني آدم في نظير اجتنابهم للنهي، وفاتهم مقام محبة الله تعالىٰ المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وإن كانت تلك المحبة وردت علىٰ سبيل الجبر لما وقعوا فيه من كسر القلب بالوقوع في المعاصي.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: لولا ذوق بني آدم للأكل من شجرة النهي التي هي كناية عن الوقوع في المعاصي ما عرفوا مقدار ما أنعم الله تعالىٰ به عليهم في امتثالهم أمره بالوقوف بين يديه في العبادات، لأنه لا يُعرَف مقدار شيء إلا بضده.

وكان يقول أيضًا: لولا أن السيد آدم عليه الصلاة والسلام لم يأكل من الشجرة الأكل الصوري، لربما كان غير المعصومين من ذريته المؤمنين ناقصين من الأجر والثواب، وكثرة الشكر لله عزَّ وجلَّ لعدم من كان يعلِّمهم كمال الأدب مع الله في كيفية التوبة. وأما هو عليه الصلاة والسلام فكان كاملًا في كل حال، والله تعالىٰ عنه راضٍ حال أكله من الشجرة وحال توبته وندمه علىٰ حد سواء، لأن تلك المعصية كان المراد بها تأديب غيره من ذريته، وتحذيرهم من مواطن السخط، لا هو عليه الصلاة والسلام.

وقد أجمع أهل الكشف قاطبةً علىٰ أن ترقي الأنبياء في المقامات الشريفة دائم، فلا ينتقلون من حال إلا لأعلىٰ منها وأكمل، وأن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ الأرض كان هبوط كرامة وشرف وترقٍ في المقام، إذ الأرض هي محلُّ خلافته التي شرُف بها، ولم

يجعل الحقُّ تعالىٰ تلك الجنة التي كان فيها محلًّا لخلافته، ولا محلًّا لإخراج ذريته من صلبه من سائر الأنبياء وأتباعهم وجميع المؤمنين والكافرين الذين هم أهل الدارين، فلو لم يخرج من تلك الجنة، لكان كالعقيم ولم تعمر الدنيا، ولم تحكم حضرات الأسماء في أهلها، ولا كان إرسال أنبياء ولا شرائع، كما هو الأمر في الدار الآخرة.

وإنما كان وصف الحقِّ تعالىٰ له بالعصيان والغواية وغير ذلك تقبيحًا لصورة المعصية من حيثُ هي، ليحذر بنوه من الوقوع في المعاصي الحقيقية بطريق الأولىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفيَّ رحمه الله يقول: كان خروجُ آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة التي كان فيها خروجَ كرامة وزيادة في مقامه؛ لأن الرجل الذي يخرج من ظهره ذرية أتمُّ نشأة ممن لا يولد له. وقد امتن الله تعالىٰ علىٰ الرسل عليهم الصلاة والسلام من طريق الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: لو لم يكن من فائدة آدم عليه الصلاة والسلام إلا كون مثل حسنات جميع أولاده المسلمين في صحيفته، لكان ذلك كفاية في شرفه، لأن حسنات الولد من حسنات الوالد، وليس علىٰ الوالد من أوزار بنيه شيء. انتهىٰ.

وسمعت أخي الكامل الراسخ أفضل الدين رحمه الله يقول: جميع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان الحقُّ تعالىٰ قد أطلعه عليه قبل ذلك، وكأن لسان حال الحضرة الإلهية يقول لأهلها: إنه قد سبق في علم الله أنه تعالىٰ قال: لابد أن أخرِج من ظهر آدم ذرية طائعة وعاصية، وأرسل إليهم رسلًا علىٰ لسان جبريل وغيره من الملائكة يأمرونهم بالطاعات، وينهونهم عن المخالفات من طريق وحي التشريع الظاهر والإلهام الباطن، وأجعل من ذريته أنبياء ورسلًا وأولياء صالحين، ومؤمنين وكافرين، وجاحدين ومقرين، وأنزِل إليهم كتبًا فيها شرائع وأحكام وتكاليف، وأخلُق لهم دارين: اسم إحداهما الجنة، والأخرىٰ النار، وأجعل معهم الجنَّ كذلك في الدارين، فالجنة للأنبياء والمرسلين ومن أطاعهم وصدَّقهم، والنار لإبليس ولجميع الأشقياء الذين خالفوا كتبي ورسلي، ويكون

شرف عبدي آدم بذلك.

وسبق في علمي أيضًا أن أوقع علىٰ يديه صورة ما يقع من بعض بنيه من المعاصي، وأعلِّمه كيف يخلصون منها إذا وقعوا فيها، لنرشدهم إلىٰ ذلك، وأن من تاب منهم وأكثر من الاستغفار والندم، قُبلَت توبته، ولم ينقص بذلك مقامه عندي. ثم إنه لابد له ولمن تبعه في صورة ما يقع علىٰ يديه من أن أقيم الحُجة عليهم في الظاهر، وأنادي عليهم بالعصيان تقبيحًا في عين أولاده المحجوبين لا في عينه، وتقييدًا لهم عن الوقوع في محارمي لئلا يتساهلوا في الوقوع فيها وينظروا لوجه إرادتي وقضائي وقدرتي، فلا يتوبون ولا يستغفرون، فإن ذلك وإن كان بإرادتي فأنا غير راض عنهم فيه بحسب ما سبق في علمي، فاثبت يا آدم ولا تضجر مما نسبتُه إليك ظاهرًا، فإنك عندي من المصطفَين الأخيار. واعلم يا صفيي بأنه لا يكمل في مقام المحبة لي إلا من يقدِّم حقي في المراعاة علىٰ حظِّ نفسه، ويقيم الحُجة عليها في المخالفة، ويلومها أشدَّ اللوم.

واعلم يا آدم أني كريم حليم، ولا ينبغي للكريم الحليم أن يخرِج أحدًا من حضرته وجواره إلا بحُجة يقيمها عليه، أي ليميز سيده بالكمال المطلق، ويميز نفسه بالنقص المقيد النسبي، يعني من حيثُ كسبُه، وإلا فالأفعال كلها خلق الله عزَّ وجلَّ ليس فيها نقص؛ لأنه تعالىٰ ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] فافهم. انتهىٰ.

ثم لما أعلمه الله تعالىٰ بما ذكرناه، صار عليه الصلاة والسلام مترقبًا لخروجه من تلك الجنة التي كان فيها إلىٰ الأرض التي هي محل خلافته وكرامته، لتخرج تلك الذرية من ظهره، ويطيع من يطيع منهم، ويعصي أمر ربه من يعصي منهم، وترتب الأسباب علىٰ مسبَّباتها بحسب ما سبق في علمه تعالىٰ.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]: إنه تعالىٰ علَّم آدم الأسماء الإلهية والكونية كلَّها، حتىٰ القصعة والقُصيعة، والفسوة والفُسية، والمحراث والطاحون والفأس والقِدْر، وغير ذلك مما يحتاج إليه الخلق في تلك الجنة التي كان فيها، وفي الدار التي يهبط إليها، فلما استعمل الخلق الذين هم في الجنة الأسماء

المتعلِّقة بهم، بقيت الأسماء المتعلقة بأهل الدنيا متعطلة عن الاستعمال، فكان آدم عليه الصلاة والسلام ينتظر خروجه إلىٰ الأرض، ليستعمل أهلها تلك الأسماء والآلات المتعلِّقة بهم، إذ الجنة التي كان فيها ليس فيها طاحون ولا محراث ولا فأس ولا قِدْر ولا نحو ذلك، لعدم حاجة أهلها إليها فيها، وكلُّ محب لله تعالىٰ من المؤمنين يحب تنفيذ قضاء الله تعالىٰ السابق وقَدَره في عباده، ليظهر فضله وكرمه علىٰ عباده، ولا يقع الخُلْف فيما أخبر به علىٰ ألسنة رسله، وكأن لسان حال القدرة الإلهية يقول لآدم عليه الصلاة والسلام في سره: إني لا أخرجك من جواري الخاص إلا بحُجة تُقام عليك بعد أكلك من الشجرة، ونهيي لك عن قربها، فإذا فعلتَ ذلك فهو أوان إخراجي لك من جواري الخاص إلىٰ محل آخر من جواري غير الخاص بالنسبة إلىٰ شهود أولادك المحجوبين، وإلا فليس شيء أقرب إليَّ من شيء، إنما الأمر رفع حجاب وإسداله لا غير، فأرفع الحجاب رحمةً بأولادك الطائعين، ليناجوني علىٰ الكشف والشهود، وأسدِل الحجاب علىٰ أولادك العاصين من المسلمين، حتىٰ يقعوا فيما قدرتُه عليهم من المعاصي رحمةً بهم، وإزالةً لخجلهم مني حال وقوعهم في معصيتي لو لم أسدِل الحجاب بيني وبينهم، فأنا أراهم وهم لا يروني، ولا يحجبني عنهم حجاب.

واعلم يا آدم أنني ما قدرتُ عليك القربَ من الشجرة والأكلَ منها دون أن آمرك بالأكل منها في الظاهر إلا لما سبق في علمي أني أملأ الدارين من أهلها من المطيعين والعاصين، فلو أنىٰ رضيتُ لك الأكل منها ظاهرًا مع نهيي لك عنه، لصار الأشقياء من أولادك سعداء، وصارت القبضتان قبضة واحدة، لامتثالهم أمري، فلذلك أردتُ بك الوقوع فيما ذُكِرَ، ولم آمرك به، لتعمر الداران الجنة والنار بأهلهما تبعًا لأعمالهما، فأنا أريد الفحشاء من عبادي ولا أرضاها ولا آمر بها، إن الله لا يأمر بالفحشاء.

فكانت المسألة بمثابة جماعة من خوَاص ملك قال لهم ملكهم: إني أريد أن أحدِث في ملكي أمرًا، وأرتب عليه أحكامًا، وأنهىٰ خليفتي عن شيء في الظاهر، وأريد وقوعه منه في الباطن، وأجعل عدم الإذن له في ذلك الشيء ظاهرًا، كالإذن له في الباطن، ولله المثل الأعلىٰ،

فكل من كان حاضرًا ذلك الاتفاق من المقرَّبين أو اطلع عليه من طريق كشفه أو آمن بذلك لا يسمي آدم عاصيًا حقيقة أبدًا. وكل من كان غائبًا عن مجلس هذا الاتفاق [يسميه عاصيًا بلا شك، وكذلك القول فيمن لم يُكشَف له عن هذا الاتفاق به](١) أو لم يؤمن به، يجزم بأن آدم عاصٍ جزمًا، ويستدل بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١] ونحوها من الآيات.

فما ثم عند من حضر ذلك الاتفاق من المقرَّبين إلا مطيع، فمن لم يطع الأمر، أطاع الإرادة، وما خرج أحد عن قبضة تصريف الحقِّ تعالىٰ فيه أبدًا، حتىٰ فرعون والنمرود حين ادعيا الألوهية، ما ادعياها إلا بإرادة الله تعالىٰ، فافهم، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا، فالإرادة لها الفَلَك العام، وإن كان لا يجوز الاحتجاج بها علىٰ وجه الإطلاق؛ لأنه لا يسعَد إلا من جمع بين موافقة الأمر والإرادة دون من احتج بالإرادة وحدها، وذلك لأن من امتثل أمر ربه ما امتثله إلا بالإرادة، وما كل من أطاع الإرادة يكون مطيعًا لأمر الله تعالىٰ، لأن الكفار ما كفروا إلا بإرادة الله تعالىٰ، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: كلُّ من احتج بالإرادة المجردة عن امتثال الأمر فهو شقي ليس له في السعادة قدم، فإنه لا يصح لأحد أن يعصي ربَّه أو يطيعه إلا بالإرادة، فلا يخرج عبد عن أن يكون مطيعًا لربه من وجه واحد أو من وجهين، فإن تعلقت الإرادة الإلهية للعبد بامتثال الأمر، امتثله لا محالة، وسُمِّي ذلك العبد مطيعًا لله تعالىٰ ظاهرًا وباطنًا من الوجهين؛ لأن الأمر وافق الإرادة. وإن لم تقض الإرادة الإلهية للعبد امتثال الأمر، لا يصح له فعل طاعة، وسُمِّي عاصيًا للأمر [ظاهرًا](٢)، مطيعًا للإرادة باطنًا. انتهىٰ.

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول في قوله تعالىٰ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾: اعلم يا أخي أنه بلغنا أن الحقَّ تعالىٰ كان قد أوحىٰ إلىٰ آدم عليه الصلاة والسلام وهو في الجنة التي كان فيها من الوجه الخاص الذي يكون بين العبد وربِّه المسمَّىٰ بالإلهام وقال له: يا آدم، إني أريد أن أبرز ما كان في مكنون علمي من باب ترتيب الأسباب الإلهية والكونية علىٰ مسبَّباتها،

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

وأقدر علىٰ يديك صورة ما يقع من ذريتك المؤمنين من المعاصي دون ما يقع من أولادك الكفار، فاثبت لذلك، فإني لا أواخذك بصورة ما يقع علىٰ يديك مما يقع بنوك فيه حقيقة، وأجعل صورةَ ما يقع علىٰ يديك صورةَ نفوذ الأقدار الإلهية في دار لا تكليف فيها مما ليس فيه انتهاك لمحارمي ولا غضب مني علىٰ فاعله، فاعلم ذلك ولا تخبر به أحدًا من أولادك، فتفتح لهم باب انتهاك محارمي والاحتجاج عليَّ، فلا يندمون ولا يستغفرون. انتهىٰ.

فإذا علمت يا أخي ما ذكرنا لك، لاح لك أن نداء الحقِّ تعالىٰ علىٰ آدم عليه الصلاة والسلام بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ إنما هو لأجل المحجوبين عن حضرة الاتفاق المذكور، لأنهم هم الذين يتعدون في العادة حدودَ الله تعالىٰ ويقعون في المعاصي، بخلاف من رُفع حجابهم من المقرَّبين، فإنهم يعرفون الأمر علىٰ ما هو عليه، وأن ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام من الأكل من الشجرة والنداء عليه بالعصيان كان المراد به غيره بلا شك، وقد يزجر الملكُ عبدَه المقرَّبُ عنده ليخوِّف عبده الآبق عن طاعته، برضا ذلك العبد المقرَّب دون كراهة منه لذلك، باتفاق علىٰ ذلك بينه وبينه، ليقول العبيد الخارجون عن طاعة الملك: إذا كان هذا فعله مع عبده المقرَّب، فكيف فعله بالعبد المطرود من أمثالنا عن حضرته؟! ويأخذون في أسباب دخولهم في قاعة الملك خوفًا ورهبًا. فكان آدم عليه الصلاة والسلام بما وقع منه من الأكل والتوبة فاتحًا لباب أحكام الدنيا، وحاملًا عن جميع بنيه المؤمنين شدة الندم والحزن والبكاء والنوح. فقد نقل وهب بن مُنبِّه[1] أن آدم عليه الصلاة والسلام لما وقع في الأكل من الشجرة، بكىٰ حتىٰ اجتمع من دموعه بركة ماء مكثت البهائم والسباع والطيور تشرب منها نحو ثمانين سنة، فكان من فتوته وشدة عزمه وحسن شفقته ورحمته أن تحمل عن عصاة بنيه الموحدين هذا البكاء العظيم الذي كان اللائق بهم فعله إذا وقعوا في المعاصي الحقيقية. ولولا ذلك لاشتد عليهم البكاء والنحيب

---

(١) وهب بن مُنبِّه بن كامل الإمام العلامة الأخباري القصصي أبو عبد الله الأبناوي اليماني الصنعاني. أخو: همام بن مُنبِّه، ولد في زمن عثمان ﷺ سنة ٣٤هـ ورحل وحج وروىٰ عن: ابن عباس، وأبي هريرة وأبي سعيد، والنعمان بن بشير، وغيرهم ت ١١٤هـ. السير (٤/ ٥٤٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٤٩).

والندم والحزن حتىٰ منعهم معايشهم وأكلهم وشربهم، فجزاه الله تعالىٰ عن بنيه خيرًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: أجمع أهل الكشف علىٰ أن نداء الحق جلَّ وعلا علىٰ أبينا آدم عليه الصلاة والسلام بالعصيان والغواية كان المراد به غيره، فكان من فتوته عليه الصلاة والسلام أن تحمَّل عن أولاده المسلمين صولةَ الخطاب الإلهي، ولولا أنه حمل ذلك عنهم لذابوا من صولته، نظير ما حمل نبينا محمد ﷺ عن أمته صولة خطاب الحق تعالىٰ بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ونحوهما من الآيات. وأما نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا﴾ [البقرة: ٢٧٨] فكذلك لم يكن لهم الخطاب بذلك إلا علىٰ لسان رسول الله ﷺ، فكأنهم لم يسمعوا ذلك إلا منه، فلذلك حملوه، ولو أنهم سمعوا ذلك من الله تعالىٰ بلا واسطة لذابوا. فكان من رحمة الله تعالىٰ بعباده أن جعل فيهم أنبياء وأولياء يتحملون عن أممهم وأتباعهم ما لا يطيقون حمله من صولة الخطاب الإلهي. هذا في أولاد آدم عليه الصلاة والسلام الموحدين.

وأما المشركون فكان من حكمة الله تعالىٰ أن أمرهم ونهاهم في حجابية أحبابه وأصفيائه، بنحو قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ فكان ذلك في مقابلة الإعراض بالإعراض، لما أعرضوا عن خدمة ربهم وعبادته، أعرض الله عنهم بالخطاب بغضًا لهم، لعدم استحقاقهم له، وخاطبهم بالواسطة علىٰ لسان رسله بنحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ [الجمعة: ٦] فحُرِمُوا لذةَ خطاب الله تعالىٰ في الدنيا. وأما في الآخرة فإنما خطابهم علىٰ وجه التوبيخ نحو قوله تعالىٰ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧].

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: لم يحب أولياء الله تعالىٰ التجارة للدنيا وشهواتها، وإنما أحبوها ليتلذذوا بخطاب الحق تعالىٰ لهم بنحو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ

ﵟاللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاﵞ [المائدة: ١٢] لم يخاطب بالقرض إلا أهل الجِدَة[1] لا الفقراء الذين لا يملكون شيئًا زائدًا علىٰ ضروراتهم. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي ﵀ يقول: يجب جزمًا اعتقاد أن الله تعالىٰ قد عصم أنبياءه من الوقوع في كل شيء يكرهه، لشدة اعتنائه تعالىٰ بهم، وجميع ما خاطبهم تعالىٰ به من العنف والشدة كان برضا منه ومنهم، فكما تجلىٰ لهم بالجمال الممزوج بالجلال، كذلك ينبغي للأنبياء أن يخاطبوا قومهم باللين والشفقة والرحمة، لأنهم علىٰ الأخلاق الإلهية درجوا، فكما أن الحقَّ تعالىٰ لو تجلىٰ بالجلال الصرف للموحدين لذابوا، فكذلك الأنبياء لو خاطبوا قومهم بشدة وغلظة لنفروا منهم، قال تعالىٰ: ﵟوَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَﵞ [آل عمران: ١٥٩]، فافهم.

فعُلِمَ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليسوا بمحل للمخالفات مطلقًا، بل المخالفات تنفر منهم كما تنفر الظلمة من النور، ومن كان كذلك لا يحتاج إلىٰ نهي عن الوقوع في شيء من المخالفات ولا شدة خطاب بالقوارع والزواجر، فرحم الله من اعتقد تطهير أنبياء الله تعالىٰ من كل شيء يشينهم في الدنيا والآخرة. آمين، آمين، آمين.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مقيمون دائمًا في حضرة الإيقان التي هي فوق حضرة الإحسان، فهم دائمًا يعبدون الله تعالىٰ علىٰ الكشف والمشاهدة له من غير حجاب سوىٰ حجاب العظمة، فإن نزلوا عن ذلك وخرجوا من حضرة الإيقان، دخلوا حضرة الإحسان، فيعبدون الله تعالىٰ فيها كأنهم يرونه، فلا يصح في حقِّهم معصية حقيقة بوجه من الوجوه، فإذا كانت حضرة الإحسان لا يصح منهم فيها الوقوع في شيء من المعاصي، فكيف بحضرة الإيقان؟! فإنه لا بد للعاصي من حجاب حتىٰ يقع في المعصية، ومحال أن يعصي عبد ربه علىٰ الكشف والشهود بأنه يراه تعالىٰ، إذ لا بد من ضرب الحقِّ تعالىٰ الحجاب علىٰ العاصي لئلا يهلك من شدة الحياء ومن شدة الهيبة. انتهىٰ.

---

(١) الجِدة: الغنىٰ.

وسمعته ﷺ يقول: ما أخبرنا الشارع أن الله تعالىٰ خلق آدم علىٰ صورته -أي التي يتجلىٰ فيها للنائم حتىٰ يراه- إلا لكون صورة آدم منه وإليه لا يصح أن يتدنس بشيء من المخالفات، لما هي عليه من الشرف والعظمة.

قال: ومن هنا يعلم كل عارف أن الإنسان هو بذاته علم الله عزَّ وجلَّ فإنه المقصود من العالم، ولما خلقه الله تعالىٰ كانت حقائقه كلها متبددة في جميع العالم، فلما ناداها الحقُّ تعالىٰ من جميع العالم، أجابت واجتمعت، فكان من جميعها الإنسان. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: ما وقع أحد في معصية إلا وهو محجوب عن شهوده الحقِّ تعالىٰ بسبعين ألف حجاب.

وكان كثيرًا ما يقول لمن سأله عن معاصي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: إياك يا ولدي والخوض في مثل ذلك، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يصح في حقِّهم معصية حقيقية، وإذا كان الوليُّ إذا دخل حضرة الإحسان لا يصح منه وقوع في معصية فيها، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟! ولما دخلها الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه[١] وهو صغير كان يقول: أعرف عبدًا لله في هذا الزمان من منذ وعىٰ علىٰ نفسه لم يأتِ معصية لله تعالىٰ قط؛ فكان أصحابه يعرفون أنه يعني بذلك نفسه، لأنه لا أحد يعرف ذلك من غيره إلا بوحي إلهيّ. وكذلك بلغنا عن معروف الكرخي رحمه الله[٢] أنه كان يقول: لي منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالىٰ والناس يظنون أني أكلمهم! فهذا فرع صغير من فروع أتباع الأنبياء مكث في حضرة الإحسان ثلاثين سنة لم يخرج منها، فكيف بمن هو أكبر منه؟! انتهىٰ.

---

(١) شيخ الديار المصرية وعالمها أبو الحارث الليث بن سعد الفهمي مولاهم الفقيه، كان إمامًا ثقة حجة رفيعًا واسع العلم سخيًا جوادًا محتشمًا. قال عنه الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به وكان أتبع للأثر من مالك ت ١٧٥هـ يوم الجمعة يوم نصف شعبان عن إحدىٰ وثمانين سنة. العبر في خبر من غبر (١/ ٢٦٦)، السير (٨/ ١٣٦).

(٢) معروف الكرخي: هو معروف بن الفيرزان، وقيل: ابن فيروز أبو محفوظ، وقيل: أبو الحسن، من أهل كرخ بغداد، كان إمام وقته وزاهد زمانه ت ٢٠٠هـ ببغداد، وقبره مشهورٌ بها يزار، رحمه الله. النجوم الزاهرة (٢/ ١٦٧)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٣١).

وكان الشيخ الكامل محيي الدين بن العربي ﵀ يقول: من أعظم دليل علىٰ عصمة الأنبياء من كلِّ ذنب كون الحقِّ تعالىٰ جعلهم مشرِّعين لأممهم بجميع أقوالهم وأفعالهم، فلو أنه كان يصح وقوع أحد منهم في معصية حقيقية، لصدق عليهم تشريع المعاصي لنا، لنقع فيها تأسيًا، ولا قائل بذلك، وقد قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فأمرنا تعالىٰ بالتأسي به في جميع أحواله، والله لا يأمر بالفحشاء. انتهىٰ.

وكان يقول أيضًا: قد أجمع أهل الكشف علىٰ أن الأسباب المانعة من وقوع الخواص في المعاصي مع عدم التقدير ثلاثة لا رابع لها: **الأول**: الحياء من الله تعالىٰ، كأن يكون يشهد نظر الله إليه؛ **الثاني**: الخوف من عذاب الله تعالىٰ، ومؤاخذته له؛ **والثالث**: الرجاء في ثواب الله. وهذه الثلاثة مجتمعة في كلِّ نبي لله تعالىٰ بلا شك، فما منهم أحد إلا وهو معصوم من الوقوع فيما يكرهه الله تعالىٰ، مستحي من الله تعالىٰ، خائفٌ منه، راجٍ فضله وثوابه من باب المنة لا من باب الاستحقاق. انتهىٰ.

قلتُ: ومن هنا تعرف يا أخي معنىٰ حديث: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»[1]، وقيل: إنه أثر، فإن معناه أن صهيبًا لو لم يخف الله تعالىٰ، لبقي له مع عدم التقدير سببان مانعان من الوقوع في المعاصي، وهما: الحياء، والرجاء، وقس علىٰ ذلك، كما لو قيل: نعم العبد صهيب لو لم يستحي من الله، أو لو لم يرجُ ثواب الله، أو لم يقدِّر الله تعالىٰ عليه معصية، لم يعصه، والله أعلم.

وسمعتُ أخي الشيخ أفضل الدين ﵀ يقول: مما يؤيد قولنا إن معاصي الأنبياء كلَّها صورية لا حقيقية، وأنها تعقبهم الاجتباء والاصطفاء، وأن مقامهم لا ينقص بها حال

---

(١) قال الإمام السيوطي في التدريب (٢/ ٦٢٤) قال العراقي وغيره: لا أصل له. وقال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة (١٢٥٩): اشتهر في كلام الأصولين وأصحاب المعاني وأهل العربية من حديث عمر، وذكر البهاء السبكي أنه لم يظفر به في شيء من الكتب. وكذا قال جمع جم من أهل اللغة، ثم رأيت بخط شيخنا أنه ظفر به في مشكل الحديث لأبي محمد ابن قتيبة لكن لم يذكر له ابن قتيبة إسنادًا وقال: أراد أن صهيبا إنما يطيع الله حبًا لا لمخافة عقابه. انتهىٰ.

فعلهم لها قولُ الشيخ الكامل القطب الرباني أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: لو عرف آدم عليه الصلاة والسلام أنه لما ينزل إلىٰ الأرض من الجنة التي كان فيها، يعود إليها وإلىٰ الجنة الكبرىٰ بمئة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي منهم محمد ﷺ، لأكل الشجرة كلَّها متأولًا للنهي؛ وكذلك يؤيده قول الشيخ الكامل أبي مدين التلمساني رضي الله عنه: لو كنتُ مكان آدم عليه الصلاة والسلام، وأطلعني الله تعالىٰ علىٰ ما أطلعه من الثمرة المترتبة علىٰ ذلك، لأكلت الشجرة كلَّها. انتهىٰ.

وكذلك يؤيده قول الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والثلاثين من «الفتوحات المكية» بعد أن أثنىٰ علىٰ آدم عليه الصلاة والسلام بما هو أهله: كان هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ الأرض بعد أكله من الشجرة هو وحواء هبوط شرف وكرامة، لا هبوط عقوبة لهما كما وقع لإبليس، فإن آدم عليه الصلاة والسلام أُهبِطَ بحكم الوعد السابق من الله تعالىٰ أن يكون خليفةً في الأرض، وفي ذلك كماله. انتهىٰ.

ومعنىٰ كونه خليفة، أي يخلف الحِنَّ والبِنَّ[1] الذين كانوا قبل آدم في الأرض، وكانوا من الملائكة الأرضين لا السماوية، فإنهم هم الذين شهدوا وقوع الفساد وسفك الدماء في الأرض، ولذلك قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فكان منهم ذلك الاعتراض الصوري كالدعاء والابتهال إلىٰ الله تعالىٰ أن يحمي آدم عليه الصلاة والسلام من وقوعه هو وذريته في الفساد إن أُنزلوا إلىٰ الأرض، كما يشفق الواحد منا علىٰ أخيه إذا بلغه عنه أنه عزم علىٰ خدمة ملِك يستعمله في أمر يخاف منه. ولو أن هؤلاء الملائكة كانوا سماوية لم يقع منهم ذلك الأمر الذي فيه رائحة ظهور اعتراض علىٰ أفعال القدرة الإلهية، وتزكية لنفوسهم، وتجريح لغيرهم، لصفاء عنصرهم من الكدورات الطينية. فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: في قوله تعالىٰ عن الملائكة ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ إلىٰ آخره: اعلم أن القائل ذلك إنما هم الملائكة الأرضيون

---

(١) الحِنَّ والبن: مخلوقات كانت قبل آدم عليه الصلاة والسلام، انظر «البداية والنهاية» (١/ ١٢٨).

المخلوقون من الأرض المتراكمون بعضهم فوق بعض إلىٰ السماء، لذوقهم الفساد في الأرض في أنفسهم، لقربهم من الأرض، وكثافة حجابهم، ولو كانوا من ملائكة السماوات، لم يقع منهم اعتراض، لصفاء عنصرهم ورفع حجبهم الطينية، فإن كلَّ مخلوق تابعٌ لما خُلِقَ منه من لطيف وكثيف من الأرض السابعة إلىٰ العرش العظيم. وكان محمد ﷺ خلاصة الأرواح، وخلاصة الأجسام، فهو أكمل الخلق روحًا وجسمًا ﷺ. انتهىٰ.

وكان ؓ يقول: لم يبلغنا في كتاب ولا سنة أن المرادَ بهؤلاء الملائكة الذين اعترضوا الملائكةُ السماويةُ، كما أنه لم يبلغنا في كتاب ولا سنة أن أحدًا من ملائكة السماوات أفسد فيها وسفك دم أخيه، بل ليس فيهم دم أصلًا. ومن نازعنا في ذلك فعليه الدليل، ولعله لا يجد ذلك أبدًا، وكون ذلك هو الظاهر للأفهام لا ينهض دليلًا قطعًا. انتهىٰ.

وقد وقع بيني وبين بعضهم نزاع في أن معصية آدم ﵇ لم تكن صورية، وإنما كانت حقيقية، فقلتُ له: يكفيك أنك تجرِّح أباك الأعظم بالفهم من غير دليل مقبول عند أولياء الله تعالىٰ العارفين بمقامات أنبيائه ورسله. وليت شعري ماذا يترتب علىٰ إثبات المعاصي الحقيقية في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الآن؟! ما ذاك إلا فضول! فإن لم تجب يا أخي عنهم الأجوبةَ الحسنةَ وإلا فكف عما يؤدي إلىٰ نقائصهم، ويجريء العوام علىٰ الوقوع في معاصي الله عزَّ وجلَّ.

فإن قلتَ يا أخي: إنما قصدتُ بتحقيق معاصيهم الإيمانَ بقضاء الله وقدَره، وأن أحدًا من الخلق لا يخرج عن تقدير الله فيه بما شاء الله؛ **قلنا لك**: لم يبلغنا أن أحدًا من المسلمين صرَّح بوجوب اعتقاد معاصي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام علىٰ حد ما نتعقله من معاصينا، بل حرَّموا ذلك. ومن طالع كتاب «الشفاء» للقاضي عياض وغيره، عَرَف صدقي فيما أقول. وإذا كان العلماء أجمعوا علىٰ طلب الكف عما شجر بين الصحابة وعدم الطعن فيهم، فكيف بأنبياء الله تعالىٰ ورسله؟!

فقال: أنا ما اعتقدتُ ذلك إلا لظاهر قوله تعالىٰ في القرآن: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، فقلتُ له: أتمم الآية ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، فلا يجوز لك

يا أخي بعد أن اجتباه ربُّه وتاب عليه وهداه أنك تذكره بسوء، فإن «التائب من الذنب كمن لا ذنب»[1] كما ثبت في الصحيح، [فمعصيته عليه الصلاة والسلام لو لم تكن صورية][2] فقد ثبتت توبته وقبولها وحصل الاجتباء الظاهر كما هو الباطن، فإن الله تعالىٰ كان راضٍ عنه حال أكله من الشجرة كما مر. وإذا كان الإمام أبو بكر ﷺ ما زال بعين الرضا من الله قبل إسلامه، فكيف بأبي الأنبياء والمرسلين علىٰ نبينا وعليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام. فقال لي: إن الإمام أبا بكر ﷺ لم يسبق له نهي عمَّا كان فيه بخلاف السيد آدم! فزجرتُه عن ذلك، فسكتَ قليلًا ثم قال: قد ورد أن الله تعالىٰ قال لآدم وحواء: «اهبطا إلىٰ الأرض، فإنه لا يجاورني من عصاني»، وهذا مؤذِنٌ بأن هبوطهما إلىٰ الأرض كان عقوبة لهما.

فقلتُ له: وعلىٰ تقدير ذلك فقد سمعتَ قولَ الله تعالىٰ إنه تاب عليه وهدىٰ، فلا يجوز بعد قبول الله تعالىٰ توبتَه أن يُذكَر بسوء كما قررتُه لك آنفًا؛ فتاب بحمد الله تعالىٰ وشكر فضلي علىٰ ذلك، فالحمد لله رب العالمين.

واعلم يا أخي أن في قول أبينا آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] تعليمًا لنا إذا وقعنا في معصية حقيقية أن نعترف بها ونندم ونستغفر الله منها، ولا نحتج بالقضاء والقدر، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج بذلك، بل قال مع علمه بأن ما وقع فيه كان بقضاء وقدر لا مرد له: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فعَلَّم ﷺ بذلك أولاده الآتين بعده أن يقولوا مثل ذلك إذا وقعوا في مخالفة قدَّرها الحقُّ تعالىٰ عليهم، فتحًا لباب التوبة من الله تعالىٰ عليهم ضدَّ ما فعل إبليس بعد الإباية عن السجود، فإنه قال للحق تعالىٰ لما قال له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧]: كيف تؤاخذني علىٰ أمر قدَّرتَه عليَّ قبل أن أُخلَق؟! فلذلك سعِد آدم ومن تبعه، وشقِي إبليس ومن تبعه، فإن آدم اعترف بذنبه في الظاهر وأقام حجة ربه علىٰ نفسه، وإبليس لم يعترف بذنبه وجادل بغير حق، والله

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) والبيهقي في «الكبرىٰ» (٢٠٥٦١) والطبراني في «الكبير» (١٠٢٨١).

(٢) ساقط من «ب».

تعالىٰ يقول في الكفار: وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ كما تقدم ذلك في الباب الأول.

وقد مضىٰ الأنبياء والمرسلون وأتباعُهم من الأولياء من أذنب ومن لم يذنب علىٰ الاعتراف لله بالفضل والكرم. وقد بلغنا أن الحقَّ تعالىٰ أدحض حجة إبليس وقال له: متىٰ علمتَ أني قدَّرتُ عليك الإبايةَ عن السجود لآدم: قبل وقوعها منك أم بعدها؟ فقال: بعدها. فقال الحقُّ تعالىٰ له: بذلك آخذتُك. انتهىٰ. فإذا كان إبليس الذي يوقع الناس في المعاصي بحكم الإرادة الإلهية أُقيمَت عليه الحُجة، فغيره من أتباعه أولىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إنما أخبرنا الحقُّ تعالىٰ باجتباء آدم عليه الصلاة والسلام بعد اعترافه بالذنب، لنكف عن وصفه بذمٍّ من حيثُ أكلُه من الشجرة سدًّا لباب الغيبة في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولنفعل مثل صورة فعل أبينا ونعترف بذنوبنا ونتوب منها إذا وقعنا فيها فورًا من غير إصرار، كما أنه تعالىٰ ما أخبرنا بجدال إبليس إلا ليحذِّرَ من مثله إذا وقعنا في مخالفة أمر الله بإرادة الله. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول: أقبحُ من كلِّ قبيح قولُ العاصي لربه ولو في سره: كيف تؤاخذني علىٰ أمر قد قدَّرتَه عليَّ قبل أن أُخلَق؟ وأحسنُ من كلِّ مليح قولُ العبد: رب إني ظلمت نفسي واعترفتُ بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وكان رضي الله عنه يقول: من اعترف بذنبه هنا من المؤمنين وأضاف الذنب إلىٰ نفسه، جازاه الله تعالىٰ يوم القيامة بالتأنيس، والكلام الذي يغيب به عقل العبد من شدة لذته، فيقول له: يا عبدي، لا تخف مني اليوم، فإن ما وقع منك ما كان إلا بقضائي وقدري النافذَين فيك بإرادتي، فلا أجمع عليك خوفين. انتهىٰ.

وقد رأىٰ بعضُهم الباري جلَّ وعلا في المنام وقال له مثل هذا القول، فكاد يطير من الفرح حيث صار الحقُّ تعالىٰ يقيم له المعاذير، لكن لا يخفىٰ أن ذلك لا يكون إلا في مع معاصي أهل الإسلام، فإياك والغلط.

وانظر يا أخي ما أحسن جزاء العبد المتأدب مع سيده في الدنيا! ولو أن العبد قال مثل ذلك لربه في دار الدنيا، مقته وطرده عن حضرته لسوء أدبه.

واعلم يا أخي أن الله تعالىٰ لم يقص علينا في توبة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام سوىٰ الاعتراف والندم. وما زاده العلماء من الإقلاع وعزم أن لا يعود، فلا ينافي ما ذكرناه، بل هو من جملة ما تضمنه الندم، فإن من شأن من يندم علىٰ ذنبه الإقلاع وعزم أن لا يعود، ورد الظلامات. فلو أن شخصًا تاب من غير عمل بشروط التوبة، لقلنا له: توبتك غير صحيحة، وهي توبة الكذَّابين. ولو أن شخصًا اعترف بذنبه وندم عليه، لقلنا له: توبتك صحيحة، حملًا له علىٰ أنه أقلع وعزم علىٰ أن لا يعود.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: لا ينافي كون معصية آدم صورية لا حقيقية ما وقع علىٰ يديه من الندم والبكاء والحزن، لأنا نقول: إن ذلك أيضًا صوريٌّ حمل به عن بنيه ما يُخِلُّونَ [به] من كمال الشروط.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: من زعم أن معصية أبينا آدم عليه الصلاة والسلام وندمه وحزنه كان حقيقيًا، أو أن هبوطه من الجنة إلىٰ الأرض كان عقوبة، فقد أعظم الفرية علىٰ أبيه، وباء بإثم عظيم، والله ما كان ذلك عقوبة وإنما كان زيادة في الدرجات لما حصل من هبوطه من إخراج الذرية التي سبق بها العلمُ الإلهيُّ، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وغير ذلك من مصالح الدارين. ولو لم يكن إلا أن مثل ثواب طاعات جميع أولاده المسلمين يكون في صحائفه، وأما أوزارهم فليس عليه منها شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الإسراء: ١٥].

وكان الشيخ أبو العباس بن العريف[١] يقول: لم يعص آدم حقيقة، وإنما كان ذلك منه بيانًا لصورة ما يقع من ذريته الذين كانوا في ظهره، فإنه كان كالسفينة الحاملة لجميع أولاده.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إنما قال تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ دون ذكر أمنا حواء عليها السلام لأن آدم هو الأصل من حيثُ كونُها خُلِقَت منه، وكانت حواء كالجزء

(١) أبو العباس بن العريف أحمد بن محمد بن موسىٰ الصنهاجي الأندلسي الصوفي، كان ذا عناية بالقراءات وجمع الروايات والطرق وحملتها وكان متناهيًا في الفضل والدين منقطعًا إلىٰ الخير، وكان العُباد وأهل الزهد يقصدونه ويألفونه، توفي بمراكش ٥٣٦هـ. العبر في خبر من غبر (٤/ ٩٨)، السير (٢٠/ ١١١).

منه، وكان في عدم إضافة المعصية إليها سترًا لها لضعفها عن تحمل صولة الخطاب بالنداء عليها بالعصيان، فلذلك جُمِعَت مع آدم في الخروج والهبوط فقط دون سببهما. انتهىٰ.

فإن قلتَ: فهل كانت خطيئة داود وغيره صورية؟ **قلنا**: نعم، لا يبعد ذلك اقتداءً بأبيهم آدم عليه الصلاة والسلام، فحمل عن العصاة من قومه صولةَ الخطاب، وكان كالمعلِّم لقومه كيفية ما يصنعون إذا وقعوا في الذنوب لا غير، إذ التعليم بالفعل ولو صوريًّا أبلغ من التعليم بالقول.

فإياك يا أخي ونسبة المعاصي إلىٰ الأنبياء علىٰ حدٍّ ما تتعقله من نفسك، وأقرَّ بأن ذلك جهل بمقام الأنبياء، لما فيه من مساواتهم لأممهم في المقام. وإنما الواجب عليك التأويل كما في آيات الصفات وأخبارها، أو رُدَّ العلمَ في ذلك إلىٰ الله تعالىٰ العالم بأحوالهم ومقاماتهم.

ومما يدلك علىٰ أن معاصي الأنبياء صورية وتعليمٌ لقومهم كيف يفعلون إذا وقعوا في ذنب أن ذلك النبي الذي أُضيفَت إليه خطيئة لم يقع منه إلا مرة واحدة، ولم يبلغنا تكرار وقوع ذنب من نبي أبدًا، وذلك لأن محلَ الأنبياء ينفر منه الذنب، كما تنفر الظلمة من النور.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من الفرق بين معاصي الأنبياء الصورية ومعاصي غيرهم أن معاصي الأنبياء تقع من غير ميل إليها، بل نفوذ أقدار لا غير. وأما غير الأنبياء فلا يقعون في معصية إلا مع ميل لها، ومن هذا الميل أُخِذوا بالعقوبة، فلو قُدِّر أن العاصي قال: يا ربِّ، كيف تؤاخذني علىٰ أمر قدرته عليَّ؟ قال له الحقُّ تعالىٰ: فهل تعلَق علمي بك إلا علىٰ ما أنت عليه؟! فلا يسعه إلا الإذعان والاعتراف.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: كان ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كالحَتْم الواجب وقوعه في الوجود، أعني من حيثُ الحكمةُ الإلهيةُ لا من حيثُ التشريعُ في الظاهر، فلذلك فتح آدم لأولاده السَّعْد الصَّرفَ، ولأولاده الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا باب التوبة والاعتراف إذا وقعوا فيما جرىٰ به القضاء والقدَر.

قال: وفاتح القبضة كما قلنا لا إثم عليه، لأنه لم يفتحها لنفسه، وإنما فتحها لغيره بإرادة الله، كما قالوا: إن معرفة الله تعالىٰ واجبة، ومع ذلك فلا ثواب فيها لعدم دخولها في

أحكام العبيد الذين يطيعون ويعصون، فالمعرفة لهم كالباب الذي يدخلون منه لوجوب فعل التكاليف عليهم، فإن من لا يعرف الله تعالىٰ لا يصح إرساله ولا تقريبه، ولا يعتقد صحة ما جاءت به الرسل من عند الله تعالىٰ. ونظير ذلك أيضًا كوننا لا نطالب الكفار بفروع الشريعة حتىٰ يدخلوا في دين الإسلام، وماداموا لم يدخلوه فلا نطالبهم بها، وإن كان عليهم الإثم والمؤاخذة بها في الدار الآخرة، كما هو مقرر في كتب الكلام. فكان آدم عليه الصلاة والسلام بما وقع علىٰ يديه كالآلة التي ينفذ الله تعالىٰ بها قضاءه وقدره من غير أن ينقص له مقام بذلك.

وكان سيدي علي الخواص ﷺ يقول: إنما أُهبِطَ آدم من الجنة زيادة تشريف له، ليتخلق في الأرض بالذِّلة والمسكنة اللذين لا يليقان بالجنة التي كان فيها، لعلو عنصرها بخلاف الأرض، فإن الذِّلة والمسكنة من أعلىٰ أوصاف العبيد فيها. وقد رأىٰ أبو يزيد البَسْطَامي ربه في المنام، فقال: يا رب بم يتقرب إليك المتقربون؟ قال: بما ليس من صفتي. فقال: يا رب وما هو؟ فقال: الذلة والافتقار. انتهىٰ.

وذلك من أعجب الأمور أن يتقرب إلىٰ السيد بما ليس من صفته، ويبعد عنه إذا تخلق بصفته، يعني غير المأذون للعبد فيها، بخلاف نحو الكرم والعفو والصفح واحتمال الأذىٰ ونحو ذلك، فافهم.

وسمعتُ سيدي محمد المُنيِّر ﷺ يقول: إنما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية، وإن كان يعلم أن ذلك كان بقضاء وقدر لا مرد له، ليعلِّم بنيه الأدب مع الله عزَّ وجلَّ إذا وقعوا في المعاصي وتعدوا حدوده، فيضيفوا القبيح إلىٰ أنفسهم، والحسن إلىٰ الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وسمعته يقول أيضًا: إنما فعل آدم مثل ما فعل بعد الأكل من الشجرة، ليرقي أولاده الآتين بعده في مقامات الأدب والرضا عن ربهم عزَّ وجلَّ وتطلب الحكمة من الله فيما يقع علىٰ يدهم من التقديرات، ليحمدوا الله تارة، ويشكروه تارة، ويستغفروه تارة، ويوبخوا نفوسهم تارة.

وكان سيدي عبد القادر الجيلي[1] رحمه الله يقول: قد يبتلي الله تعالىٰ عبده بالزَّلة ليرقيه بها في مقامات لم يكن يبلغها إلا بتلك الزَّلة، لما يقع له فيها من الذُّل والخجل، وقد كان قبلهما يرىٰ نفسه علىٰ أقرانه، ويُعجَب بأعماله، ويُدِل علىٰ الله تعالىٰ بها، ويستبعد أن مثله يعذبه الله عزَّ وجلَّ، وهذا من أقبح الذنوب التي تورث صاحبها المقت. ومن هنا قالوا: المعجب ينتظر من الله المقت، والمذنب ينتظر من الله المغفرة. فإذا قدَّر الله تعالىٰ علىٰ المعجب بنفسه ذنبًا واشتُهر به في بلده، صار يرىٰ نفسه أحقر الناس، ويستحيي أن يجلس بين اثنين، وذلك أقرب ما يكون من حضرة ربه عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله يقول: يجب جزمًا اعتقادُ أن هبوط آدم وحواء كان زيادة في شرفهما، ولا يجوز أن يُقال: إن ذلك كان عقوبةً لهما؛ إنما كان الهبوط عقوبة لإبليس فقط، لأن آدم أُهبِطَ يصدق الوعد له بأن يكون خليفةً في الأرض، وقد تاب الله تعالىٰ عليه واجتباه بعدما تلقىٰ الكلمات من ربه عزَّ وجلَّ بالاعتراف بذنبه الصوري، وكان هذا الاعتراف منه في مقابلة قول إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فعرَّفنا الحقُّ تعالىٰ مقامَ الاعتراف عنده وما ينتجه من السعادة، لنتخذ ذلك طريقًا إذا خالفنا أوامر ربنا.

وأما إبليس فعرَّفنا اللهُ تعالىٰ بدعواه الخيرية أن في مثل ذلك الطرد عن حضرة الله عزَّ وجلَّ لنتجنب مثل هذه الدعوىٰ، فلا نقول: نحن خير من أحد من المسلمين. وكان هبوط إبليس إلىٰ الأرض إنما هو للإغواء واكتساب الأوزار، وقد كانت معصيته لا تقتضي تأبيد الشقاء، فإنه لم يشرك بالله شيئًا في هذه الحضرة، وإنما أخبر أنه خير من آدم علىٰ وجه الافتخار بما خلقه الله عليه، ولذلك أخبر الله تعالىٰ أنه يقول للإنسان: ﴿ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، فكان أول من سنَّ الكفر

(١) شيخ الإسلام، علم الأولياء محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي، الحنبلي، شيخ بغداد. مولده: بجيلان في سنة ٤٧١هـ. وقدم بغداد شابًا، فتفقه علىٰ أبي سعد المخرمي. له مصنفات منها: «الغنية لطالب طريق الحق» و«الفتح الرباني» و«فتوح الغيب» ت ٥٦١ هـ. السير (٢٠/ ٤٣٩)، الأعلام (٤/ ٤٧).

والشرك في الأرض، فرجع عليه وزر كل مشرك وكافر وعاصٍ علىٰ وجه الأرض»[١].

قال الشيخ محيي الدين: لما دخلت خزانة علم القرآن، رأيتُ فيها أن إبليس أطاع الله تعالىٰ في تلك الحضرة في كل شيء إلا في السجود لآدم عليه الصلاة والسلام. قال: وعلمت منها الحكمة في قوله تعالىٰ في آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ وفي إبليس: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾. انتهىٰ.

وكان يقول: كان فيما قصَّ الله تعالىٰ علينا من قصة آدم عليه الصلاة والسلام تأنيس لأهل الله عزَّ وجلَّ إذا وقعوا في زلَّةٍ وحطَّ مقامهم العليُّ بذلك عند الناس، فيعلمون أن ذلك الانحطاط لا يقضي بشقائهم ولابد، فيكون هبوطهم كهبوط آدم عليه الصلاة والسلام، فإنه للتكريم عندنا بلا شك، إذ الحقُّ تعالىٰ لا يتحيز ولا يختلف حكم قربه بعلو ولا سفل، فليست السماء التي أُهبِطَ منها أقرب إليه من الأرض، وإذا كان الأمر علىٰ هذا الحدِّ، فعين هبوط الوليِّ في عيون الناس عند الزلَّة وما قام به من الخجل والذل والحياء والانكسار بسبب تلك الزلَّة هو عين الترقي إلىٰ أعلىٰ مما كان فيه؛ لأن علو مقام الوليِّ إنما يكون بزيادة العلم والحال، وقد زاد هذا بالذلة والانكسار من العلم بالله ما لم يكن عنده قبل ذلك، فافهم[٢].

فعُلِمَ بما قررناه أن زلَّات أهل الله تخالف زلات غيرهم، لعدم ذلهم وقلة حيائهم وعدم اعترافهم، فلا يزدادون بالزلة إلا طردًا ومقتًا كإبليس، ونحن إنما نتكلم علىٰ زلات أهل الله تعالىٰ التي هي نفوذ أقدار جارية عليهم في حال غفلة أو سهو لا يقصدون بها انتهاك حرمات الله، إذ الإيمان المكتوب في قلوبهم يمنعهم من ذلك.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي رضي الله عنه يقول: لولا وقوع المعاصي في الأرض، لأهلك العجب غالب الناس، لا سيما العباد الذين توالت عليهم الطاعات طول عمرهم، فإن أحدهم يصير يستبعد أن الله تعالىٰ يُعذِب مثله أو يؤاخذه، وربما رأىٰ أنه إنما يدخل الجنة بعمله لا بفضل ربه، كما ورد في العابد الذي يقول له الحقُّ: «ادخل الجنة برحمتي. فيقول:

(١) «الفتوحات» الباب (٣٩).

(٢) نفس المصدر والباب.

يا رب، بل بعملي»(١). فلو تأمل هذا العابدُ، لوجد نفسه من أبعد الأبعدين عن الله عزَّ وجلَّ.

قال: فعُلِمَ أن أهل حضرة الله تعالىٰ لا يزدادون بكثرة العبادة إلا ذلًّا وتواضعًا لله عزَّ وجلَّ، كالأنبياء ومن طاب عنصرهم من الصحابة والتابعين، فإن الله ما شرعها إلا ليذل بها النفوس الأبية، ولا يرىٰ العبد بها شفوف نفسه علىٰ أحد من خلق الله. انتهىٰ.

فإن قيل: فهل نقص آدم بالجحد الذي وقع منه لما وهب ابنه داود من العمر ما وهب؟

فالجواب: لم ينقص آدم بذلك، وإنما زاد مقامه، فإنه طلب أن يرد الله تعالىٰ عليه تلك المدة التي وهبها لداود ليعبد الله تعالىٰ فيها بعبادة أعظم من عبادة داود، لنقص داود عنه في مرتبة المعرفة، لما أعطيه من علم الأسماء التي جهلتها الملائكة. ثم إن آدم بعد ذلك كان عزمه أن يجعل ثواب تلك العبادة التي يفعلها في المدة لو رجعت إليه في صحائف ولده داود، لما هو عليه من المحبة له، كما أشار إليه هبته له مدةً من عمره دون غيره من سائر بنيه، فاعلم ذلك.

[الحكمة في كون الإيمان يخرج عن العبد حال العصيان]

فإن قلتَ: قد ورد أن العبد منا إذا عصىٰ خرج منه الإيمان، وإذا خرج منه الإيمان فلا يخفىٰ حكمه، فما الحكمة في ذلك؟ **فالجواب:** قد ذكر الشيخ في الباب الثامن والستين من «الفتوحات»: أن الحكمة في كون الإيمان يخرج عن صاحبه حال الزنا والسرقة مثلًا هو أن يخرج عن صاحبه ليحميه من نزول العذاب عليه بوقوعه في تلك المعصية، فإن الإيمان لا يقاومه شيء، فهذا هو المراد بقوله ﷺ: «إذا زنىٰ العبد خرج عنه الإيمان حتىٰ يصير عليه كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان»(٢)، وما بعد بيان رسول الله ﷺ من بيان. ومنه يُعلَم أن خروج الإيمان هنا ليس هو بخروج حقيقيٍّ عن صاحبه، إنما هو وقاية علىٰ صاحبه لا غير، فهو مؤمن ولو خرج إيمانه كما ذكر. انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين رحمه الله يقول: لا يخلص لمؤمن قط معصية لا تكون غير

---

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم (٧٦٣٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٦).

مشوبة بطاعة أبدًا، بل لابد من شوبها بطاعة، وهي إيمانه بأنها معصية تسخط ربه تعالىٰ عليه، فهو من الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا عسىٰ الله أن يتوب عليهم، أي يرجع عليهم بالرحمة، وعسىٰ من الله تعالىٰ واجبة الوقوع. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: من النكت الخفية أن المؤمن لا يأتي معصية توعد الله تعالىٰ عليها بالعقوبة إلا ويجد في نفسه الندم عند الفراغ منها، وفي الحديث: «الندم توبة»[1]، وقد قام به الندم فهو تائب، أي من جهة حقِّ الله تعالىٰ لا من جهة حقِّ الخلق، فسقط حكم الوعيد بهذا الندم بكراهته للمعصية حال الفعل، وعدم رضائه بها، فهو من حيثُ كونُه كارهًا لها ويؤمن بأنها معصية ذو عمل صالح، وهو من حيثُ كونُه فاعلًا لها ذو عمل سيء، فهو من الذين ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فيرجىٰ له التوبة والرحمة، لكن لا يخفىٰ أن من آمن بكونها معصية وكره فعلها وندم عليه بعد الفراغ ذو عمل صالح من ثلاثة وجوه، وهو ذو عمل سيء من وجه واحد وهو ارتكابه إياها.

واعلم أن الله تعالىٰ ما دام يخلق المعصية للعبد فلا يمكن العبد أن يتوب، فإذا ترك الحقُّ تعالىٰ خلقَ المعصية، تاب العبد لا محالة، ولو أراد أن يعصي ربه لما وجد ما يعصي به، فتأمل.

ومما يؤيد عدم تحتم العقوبة علىٰ العاصي قوله تعالىٰ: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨]، فلم يتعرض سبحانه وتعالىٰ للمؤاخذة بذلك الشرِّ، وإنما ذكر أنه يراه، فلابد أن يراه، ثم لا يكون من الكريم إلا الكرم، وإذا كان الكريم من عباده إذا توعد تجاوز وعفا، فكيف بأرحم الراحمين؟! وإن وقع أنه آخذ أحدًا من العصاة فإنما ذلك إظهار لفضله ومنته علىٰ الذين لم يؤاخذهم، كما يؤدب السلطان بعض خدَّامه ليعرف غيره فضله عليهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وأحمد (٤٠١٢) وابن حبان (٦١٢).

[التوبة لا تكون إلا في الدنيا]

فإن قلتَ: فهل التوبة من المقامات المستصحَبة إلىٰ قيام الساعة أم تكون في الآخرة أيضًا؟ **فالجواب**: حكم التوبة إنما هو في الدنيا لكونها دار تكليف. أما الآخرة فلا حكم للتوبة فيها إلا أن يكون الاسم «التوَّاب» حاكمًا فيها بالقوة لا بالفعل، فلا يستغني مؤمن عن التوبة مادام في دار الدنيا.

فإن قلتَ: فما تقول في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] فإنه يشعر بأن حكم التوبة ينقطع في الدنيا قبل قيام الساعة؟ **فالجواب**: وهو كذلك، فإن الشمس إذا طلعت من مغربها، أُغلِقَ باب التوبة، فلا ينفع نفسًا إيمانُها، ولا ما تكتسبه من خير بذلك الإيمان، وعلىٰ ذلك حملوا حديث: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق حتىٰ يأتي أمر الله»[1] أي حتىٰ تطلع الشمس من مغربها، فهي علامة علىٰ عدم قبول الإيمان. وإيضاح ذلك أن المؤمن لا يُغلَق له باب، فإنه جازه وتركه وراء ظهره، فكان غلقه من سعادته حتىٰ لا يخرج بعد ما دخل، فلا يرتد مؤمن بعد ذلك، لأنه ليس للإيمان باب يخرج منه، فكان غلق باب التوبة رحمة بالمؤمن، ونقمة علىٰ الكافر.

فإن قلتَ: فما حكم من لم يصح له توبة من المصرِّين علىٰ الذنوب؟ **فالجواب**: يجب علىٰ أحدهم التوبة من الإصرار، فإن لم يصح لهم توبة من الإصرار، وجب عليهم التوبة من الإصرار علىٰ الإصرار وهكذا أبدًا ما عاش، فإن مات أحد مصرًّا علىٰ ذنب، فلله تعالىٰ رحمةٌ خاصةٌ بالمصرِّين من أهل الإسلام. ومن فهم ما قلناه علم أنه ما ثم لنا ذنب لا دواء له أبدًا.

[الأفضل ترك الدعاة معاهدة قومهم على أن لا يعصوا الله]

فإن قال قائل: فهل الأولىٰ معاهدة الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ قومهم أن لا يعصوا ربهم في المستقبل، أم ترك ذلك وكلُّ ذنب وقع منهم وجب عليهم التوبة منه؟ **فالجواب**: ترك المعاهدة علىٰ ذلك أولىٰ، لأنه لا يخلو من أن يكون الذنب الذي عاهد العبد ربه علىٰ تركه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠).

مقدَّرًا عليه في الأزل أم لا، فإن كان غير مقدَّر فلا فائدة للعهد، وإن كان مقدَّرًا اتصف عند نقضه بمعصية أخرىٰ وهي نقض العهد، ولو أنه لم يعاهد ربه، لكان عليه معصية واحدة.

ومن هنا يُعلَم حكمةُ قوله تعالىٰ في المؤمنات المبايعات: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [الممتحنة: ١٢] فإنه لولا أن في طلبهن المبايعة علىٰ ذلك رائحةَ ذنبٍ ما أمره تعالىٰ بالاستغفار لهنَّ، وذلك لأن خلقَ الأفعال لما بايعن رسول الله ﷺ عليه راجعٌ إلىٰ الله تعالىٰ لا إليهنَّ، مع أن شهودهن أن لهنَّ قدرةً علىٰ الوفاء بما عاهدنه عليه شرك بالله، وقد بايعنه علىٰ تركه، فلذلك احتيج إلىٰ استغفار الرسول لهن، فتأمل.

[من كمال الملك إظهار الطائع والعاصي]

واعلم يا أخي أن من كرم الله تعالىٰ وكمال ملكه إظهارَ الطائع والعاصي معًا، ليظهر كرمه وفضله علىٰ عباده، وليروا نفوسهم أحقر الخلق، فمن رأىٰ نفسه بعبادته وإخلاصه، كان جميع معارفه أحسن حالًا منه. وكان سهل بن عبد الله التَستُري يقول: من رأىٰ نفسه خيرًا من الكلب، فالكلب خيرٌ منه. وكان الإمام مالك يقول: أهلُ الفضل هم أهل الفضل ما لم يروا فضلَهم، فإذا رأوا فضلهم فلا فضل. انتهىٰ.

ويؤيد ما ذكرناه قولُ الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري[١] في كتاب «الحكم»: معصية[٢] أورثت ذلاً وانكسارًا خيرٌ من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا. انتهىٰ، أي خير من حيثُ الأثر لا بحكم الأصالة، فإنه يُشترَط في الطاعات حتىٰ تُسمَّىٰ طاعة أن لا يحصل بها لصاحبها عجب ولا كبر ولا زهو، ومتىٰ حصل فيها شيء من ذلك، فقد خرجت عن كونها طاعة في الباطن، لاسيما العلم، فإنه لا يكون نورًا يهدي صاحبه إلىٰ الخير إلا إذا

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، تاج الدين أبو الفضل الإسكندراني الشاذلي. صحب الشيخ أبا العباس المرسي صاحب الشاذلي وصنف مناقبه ومناقب شيخه، من مؤلفاته: «الحكم العطائية» و«تاج العروس» و«لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن» توفي: ٧٠٩هـ. الدرر الكامنة (١/ ٣٢٤)، الوافي بالوفيات (٨/ ٣٨).

(٢) هكذا بالأصلين، والمشهور من «الحكم»: رُبَّ معصية... إلخ.

كان مخلصًا فيه، وإلا فهو ظلمة علىٰ صاحبه في الدنيا والآخرة، وإن كان في أصله نورًا.

وقد كان سفيان الثوري[١] رحمه الله يقول: المذنب المعترف أفضل من الطائع المعجب بعمله، لأن المذنب ينتظر المغفرة من الله، والمعجب ينتظر المقت. انتهىٰ. فلا تُلَبِس علىٰ نفسك يا أخي، فإن الناقد بصير.

وسمعت عليًا الخواص رحمه الله يقول: ما تحقق عبد بمقام العبودية إلا وصار يكره مشاركةَ الحقِّ جلَّ وعلا في المدح، فهو يحب كل شيء ينكس رأسه بين الناس، حتىٰ يتميز الحقُّ تعالىٰ بمقام العزِّ، ويتميز هو بمقام الذلِّ. فقلتُ له: ولو كان الذي ينكس رأسه معصية؟ فقال: لا، إذ الكامل من يفر من مواطن سخط الله عزَّ وجلَّ وإن وقع أن كاملًا أحبَّ المعصيةَ، فإنما ذلك من حيثُ تقديرُ الحقِّ تعالىٰ عليه ذلك، لا من حيثُ كسبُه لها، فإياك والغلط. انتهىٰ.

وسمعته مرةً أخرىٰ يقول: من تحقق بمقام العبودية الكامل، صار يشكر الحقَّ جلَّ وعلا، كلما حجبه عن مشاهدته، وإن كان الحجاب علىٰ العارفين من أشدِّ العذاب عليهم، ويقول في نفسه: لو لا أن حجابي عنه فيه مصلحة لي ما حجبني إحسانًا للظن بربه، ثم لا بد للعبد من الاستغفار من حيثُ كسبُه لذلك الحجاب، لاسيما إن كان بالمعصية، فافهم.

وكان رضي الله عنه يقول: ما شرع الله التكاليف بالأصالة إلا ليذل بها النفوس الشامخة المتكبرة، ويزيد بها المتقربين تقريبًا وإجلالًا، وشكرًا له وتواضعًا لعباده، فلم يقع لأحد منهم تكبر بعمله علىٰ أحد من الخلق، وكيف يصح منهم تكبر بعملهم وقد رأوا ما وقع من إبليس حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، بل حاشاهم عليهم السلام من الوقوع في مثل ذلك ولو ذهلوا عن قصة إبليس لطيب عنصرهم عليهم السلام، وكثرة تخلقهم بأخلاق الله عزَّ وجلَّ في نحو حديث: «ينزل ربنا إلىٰ سماء الدنيا كل ليلة»[٢] الحديث، وما أخبرنا بذلك إلا ليعلمنا التواضع مع الخلق إذا قرَّبنا ورفع رتبتنا.

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي، أحد الأئمة الأعلام، قال شعبة وغير واحد: سفيان أمير المؤمنين في الحديث، من مؤلفاته: «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» كلاهما في الحديث. ولد: سنة٩٧هـ ومات بالبصرة سنة ١٦١هـ. طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٩٥)، الأعلام (٣/ ١٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨).

إن الملوك وإن جلت مراتبها لها مع السُّوقة الأسـرار والسمر

انتهى.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ يقول: من شأن أهل الله عزَّ وجلَّ إذا وقع أحدهم في زلَّة أن يشكر الله تعالىٰ عليها من حيثُ التقديرُ، كما يشكر الولد البار لوالديه علىٰ ما يفعل والده معه مما تكرهه النفوس ويقول: لولا أن والدي رأىٰ لي في ذلك مصلحة ما فعل ذلك معي، فلا يحمله إلا علىٰ أحسن المحامل، وكذلك إذا رآه عند بحر أو بئر وعرك أذنه أو صفعه مثلًا خوفًا عليه أن يقع في البحر أو البئر، تقضي عقول الناس أن ذلك الفعل إنما هو لمحبته فيه لا بغضًا له.

قال: وبالجملة فلو لم يكن في وقوع العبد في الزلة إلا كونها مزيلة للعجب والكبر اللذين يقعان من غالب المؤمنين عادةً، لكان ذلك كفاية في شدة اعتناء الحقِّ تعالىٰ بذلك العبد الذي يخلص عنصره من الكدورة، فإن الكبر والعجب هما الذنبان اللذان أُخرج بسببهما إبليس من الجنة. انتهى.

فالكامل يشكر الله في مثل ذلك من حيثُ التقديرُ، ويستغفره ويتوب إليه من حيثُ كسبُه ومخالفتُه لأمر ربه.

وفي الباب التاسع والثلاثين من «الفتوحات المكية»: اعلم أن الله تعالىٰ ما قصَّ علينا ما قصَّ من خطيئة أبينا آدم -يعني الصورية- وما يترتب علىٰ ذلك من التوبة والاجتباء إلا لنظنَّ بالله تعالىٰ خيرًا إذا زلَّ أحدُنا زلةً ونزل عن مكانه العليِّ الذي كان يشهده من نفسه من استشعاره القرب من حضرة الله تعالىٰ والأنس به، وإن تلك الزلة لا تقتضي بشقائنا الأبدي ما دمنا موحدين ولابد، بل يجب علينا أن نظن بربنا خيرًا وأن هبوطنا عن مقامنا العليِّ الذي شهدناه بسبب تلك الزلة كهبوط أبينا آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة في الصورة من حيثُ ترقينا بها في مقامات الذلِّ والانكسار [اللذين هما أفضل أوصاف العبودية، فإنه ما ثم طريق إلىٰ القرب من حضرة الله عز وجل إلا بكثرة الذل والانكسار][1].

---

(١) ساقط من «ب».

ومن طلب القرب من الحضرة بغير هذين الوصفين فقد رام المحال، فإن حضرة الله تعالىٰ محرَّمٌ دخولها من كان فيه عزة نفس أو صفة غنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فمن لم يكن فقيرًا ولا مسكينًا، فربما حرم من وصول صدقات الحقِّ تعالىٰ إليه، فكأنه في البحر وهو عطشان. وأطال في ذلك.

ثم قال: فعُلِمَ أن القرب إلىٰ الله تعالىٰ إنما هو بالقلوب وبالصفات المأذون للعبد في التخلق بها دون غيرها، فإن لله تعالىٰ أسماء حرمًا لا يجوز لأحد التخلق بها، كالكبر والعظمة والقهر إلا بتأويل أو إذن من الشارع، كالتبختر في الحرب، وإظهار العظمة علىٰ الكفار ونحو ذلك. وثم أسماء أذن الشارع لنا في التخلق بها علىٰ الدوام من غير تحجير، كما هو مبسوط في شرح أسماء الله تعالىٰ. وأطال في ذلك.

ثم قال: ومن أعجب الأشياء أن يكون القرب من المحبوب بالتخلق بضد صفاته، كالذلَّة والافتقار دون العزِّ والكبرياء. وأطال في ذلك.

ثم قال: فعُلِمَ أن عين هبوط الوليِّ منَّا عند الزلَّة وما يقوم به من شدَّة الذلَّة والحياء والخجل هو عين ترقيه إلىٰ مقام هو أعلىٰ مما كان فيه؛ لأنه استفاد بتلك الزلَّة علمًا بالله تعالىٰ لم يكن عنده قبل وقوعه في الزلَّة، وعرف بالقطيعة مقدار الوصل الذي كان فيه، ومقدار الأنس الذي كان يجده في الطاعات. وقد قالوا: من سبقت له العناية، لم تضره الجناية. انتهىٰ.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول: ما سلَّط الله تعالىٰ إبليس علىٰ عباده الموحدين إلا ليردهم إليه بالأصالة، فيتذكروا بتلك القطيعة ومرارتها حلاوةَ الوصل. وربما قرَّب الحقُّ تعالىٰ أحبابه إلىٰ حضرته بعين ما طَرَدَ به أهلَ شقاوته، وإذا حقت كلمة الشقاء علىٰ عبد، فما حسناته إلا ذنوب. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: من سبقت له السعادة، كان كالزرع الذي تميله الرياح يمينًا وشمالًا، وأصله ثابت في الأرض، ولا يخلَّد في النار موحِدٌ لله تعالىٰ ولو ارتكب معاصي الثقلين من الموحدين. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رضي الله عنه يقول: من وقع في زلَّة من الزلات، فحصل له بذلك خجل وذلٌّ وانكسار فهو علىٰ علامة سعادته، ومن لم يحصل له ذلٌّ وانكسار وخجل بزلَّته وأصرَّ علىٰ الذنب، فذلك دليل علىٰ شقاوته كما وقع لإبليس.

وكذلك كان الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه يقول: لا ينبغي الاعتراضُ علينا إذا قلنا: إن العبد ربما ترقىٰ بزلَّته إلىٰ أعلىٰ مما كان فيه، لأننا إنما نتكلم علىٰ زلَّات أهل الله تعالىٰ الذين تخلَّفت عنهم العنايةُ الربانيةُ في وقت من الأوقات. أما من أحاطت به خطيئته وأصرَّ علىٰ المعاصي بذلك [فهو][1] من إخوان الشياطين. وهو من أدل دليل علىٰ شقاوته؛ لأن المعاصي بريد الكفر، أي مقدمته. وأطال في ذلك.

ثم قال: واعلم أنه ربما ظنَّ بعضُ الأولياء أنه نزل عن مقامه العليّ بالزلَّة التي وقع فيها، لما حصل له من الخجل والذلّ بسببها. والحال أنه ترقىٰ بسببها إلىٰ مقام أعلىٰ مما كان فيه، لأن زيادة مقام الوليّ إنما تكون بزيادة الذلّ والمسكنة لله تعالىٰ. وقد كان قبل الزلَّة بضد ذلك، بل ربما استبعد دخولَ مثلِه النار، وذلك أبعد ما يكون من حضرة الله عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

فإن قيل: فما حكمة إخفاء الله تعالىٰ علىٰ بعض الأولياء وجه ترقيه بالمعصية، أي بسببها حتىٰ يحصل له الذلُّ والانكسار؟ **فالجواب:** الحكمة في ذلك عدم تجري أحدهم علىٰ المعاصي بعد ذلك، فلا يصير يندم علىٰ وقوعه فيها، فيهلك مع الهالكين. ولو أنه كان أطلعه علىٰ عاقبتها، لربما كان يبادر إلىٰ فعلها ويبطل سرَّ القضاء والقدر، فكان من حكمة الله تعالىٰ أن يحبس وليَّه في مقام الندم والقطيعة، حتىٰ يكاد جسمه يذوب وقلبه ينفطر، كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام صورة من بكائه وندمه، وتطاير الحُلل عن بدنه، والتاج من رأسه، والنداء عليه بأنه لا يجاورني من عصاني، كلُّ ذلك كان منه عليه الصلاة والسلام صوريًّا لا حقيقيًّا، وكان ذلك كله من باب التحمُّل عن أولاده العاصين من المسلمين كما مر تقريره. وكانت تلك الدموع التي جرت من عينيه حتىٰ صارت بركة ماء يشرب منها البهائم والسباع ثمانين سنة هي دموع جميع العصاة من بنيه المسلمين

---

(١) زيادة من عندنا لاستكمال السياق.

إلىٰ يوم القيامة. ومن عرف مقام الأنبياء لم يتوقف في مثل ذلك، وعرف أن جميع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام من البكاء وإظهار الندم كان صوريًّا لا[1] حقيقيًّا، ولكنه عن زلَّات بنيه العاصين لا عن زلَّته هو، كما قلنا في معنىٰ حديث: «إنه ليغان علىٰ قلبي، فاستغفر الله تعالىٰ في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»[2]: إن ذلك الغين ليس هو من وقوع نبينا ﷺ في معصية، وإنما ذلك من وقوع أمته الذين يقعون في المعاصي بعده، فكانت الرحمة تطرقه عليهم، فيستغفر الله لهم بسبب ذنوبهم لا بسبب ذنبه هو، فافهم.

ولم تزل الأنبياء وجميع الدعاة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ يشفقون علىٰ قومهم ويتحملون عنهم أثقال البلايا والمحن، لا يغفلون عن مصالحهم ولا عن تعليمهم الأدب مع الله تعالىٰ ساعة في الليل أو نهار.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله يقول: ما وقع للسيد آدم وداود وغيرهما من الأكابر من شدَّة البكاء والندم والنوح إنما هو أمور صورية، ليعظموا الذنب في عيون قومهم. وبالغوا في البكاء والنحيب مبالغةً في نصح قومهم، حتىٰ لا يبقىٰ عليهم حُجة في عدم نصحهم، وفي ذلك تعظيم حرمات الله عزَّ وجلَّ أيضًا.

[توجيه اسوداد جسده عليه السلام بعد الأكل من الشجرة]

فإن قيل: قد ورد في الأثر أنه عليه الصلاة والسلام لما أكل من الشجرة اسوَّد وجهه [وجسده][3] كلُّه، فأُمر بصيام الثلاثة أيام البيض فصامها، فابيض بكل يوم ثلث جسده، ولو أنها كانت صورية، لم يسوَّد جسده؛ **فالجواب**: أن تسويد وجهه وبقية جسده كان أيضًا صوريًّا، ليري بنيه قبحَ المعصية لينزجروا عن معاصي ربهم. انتهىٰ.

قلتُ: ومعنىٰ قوله: «ليري بنيه» أي بطريق الإخبار لهم إذا وُجدوا، فإنهم لم يكونوا

---

(١) بالأصلين: و، والصواب ما أثبتناه بدليل السياق.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) وأبو داود (١٥١٥) بلفظ: «مائة مرة»، ورواية «سبعين مرة» أخرجها البخاري (٦٣٠٧) بلفظ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

(٣) بالأصلين: وجهه، والصواب ما أثبتنا بدلالة السياق.

موجودين في الدنيا حالَ أكله من الشجرة واسوداد جسده. وكذا القول في جميع ما تقدم من قولنا إن ندمه واستغفاره وبكاءه وغير ذلك كان صوريًا، فافهم.

ويحتمل أن يكون اسوداد جسده عليه الصلاة والسلام حقيقيًا، ويكون ذلك علامةً علىٰ سيادته إذا رجع إلىٰ الجنة التي أُخرِجَ منها، وتكون سيادته حاصلة له بأكله من الشجرة من حيثُ إنها كانت صورية يعلِّم بها بنيه كيف يفعلون مع ربهم إذا وقعوا في معصية. فكان كمن يعلِّم قومه شرائع ربهم، ولا شك في حصول السيادة له بذلك، فإن الجنة التي أُخرِج منها لم تكن محل سيادته، وإنما سيادته في الأرض فكأنه بأكله من الشجرة وهبوطه إلىٰ الأرض، حصلت له السيادة، أي ظهرت عليه، ولم يكن لون يدل علىٰ السيادة إلا لون السواد كما فهمه الخلفاء من بني العباس، فكانوا يخطبون للناس بالعمامة السوداء، والله أعلم.

ويؤيد ذلك ما قالوا في الحجر الأسود، فإنه خرج من الجنة وهو أشدُّ بياضًا من اللبن، فسوَّدته خطايا بني آدم[1]، أي جعلته سيدًا بالتقبيل له. وكان أدلُّ شيء علىٰ سيادته إذا رجع إلىٰ الجنة لونَ السواد، فكساه الله تعالىٰ اللون الأسود، ليعلم أهل الجنة أنه سوِّد بهذا اللون، وبذلك الخروج، فكما زاد مقامه بالسواد عما كان عليه في الجنة، فكذلك القول في سواد جسد آدم عليه الصلاة والسلام.

وكان بياض جسده بصيام الثلاثة أيام البيض بمثابة نزع من خَلَعَ عليه الملكُ خلعةَ السيادةِ بعد أن كان طاف بها شوارع المدينة كلها حتىٰ علم بها جميع الناس، فليس نزعه لها مؤذِن برفع السيادة عنه كما فهمه بعضهم، وإنما هو لكون غالب بنيه لا يفهمون أن السيادة تكون بالسواد، إذ معرفة ذلك خاص بخواص بنيه. وأما عوامهم فلا يعرفون السيادة إلا ببياض الجسم، فافهم.

[الخلاف بين جمهور العلماء وأهل الكشف في الجنة التي أُهبط منها آدم]

فإن قيل: فهل الجنة التي كان فيها آدم عليه الصلاة والسلام وأكل من شجرتها هي

---

(١) أخرج الترمذي (٨٧٧) واللفظ له، وأحمد (٢٧٩٥) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «نزل الحجرُ الأسودُ من الجَنَّةِ، وهو أشدُّ بَيَاضًا من اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بني آدَمَ».

الجنة التي يدخلها المسلمون بعد البعث والحساب والصراط، أم جنة أخرىٰ في علم الله تعالىٰ؟ **فالجواب**: أن الذي عليه جمهور العلماء أن الجنة التي كان فيها آدم هي الجنة الكبرىٰ التي يدخلها الناس بعد البعث والصراط، والذي عليه أهل الكشف قاطبة أنها جنة فوق رأس جبل الياقوت، وبذلك صرح الشيخ الكامل صفي الدين بن أبي المنصور[(١)] في رسالته والمجريطي[(٢)] في كتابه «إخوان الصفا»[(٣)] قالوا: وهي التي ينتقل إليها جميع أرواح الموحدين بعد الموت، ويراها الناس في منامهم ومكاشفاتهم في الدنيا. وأما الجنةُ الكبرىٰ فلا يدخلها الناسُ إلا بعد البعث والحساب والصراط، وكذلك القول في النار حيثُ رؤيت في الدنيا في المنام إنما هي نار البرزخ التي يُعذَّب بها الميت في قبره، أو يُفتَح له طاقة في قبره ينظر إليها كما ورد.

وعبارة الشيخ صفي الدين في رسالته: اعلم يا أخي أن عهد الأرواح متقدم علىٰ عهد النفوس بألفي عام، فإن عهد النفوس لم يقع إلا في الجنة البرزخية التي كان فيها آدم عليه الصلاة والسلام حين استخرج الحقُّ تعالىٰ من ظهره ذريته، وهي محل عالم الأرواح، فلما استُخرِجت الذريةُ من ظهره، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[الأعراف: ١٧٢] ردهم إلىٰ ظهره. ولهذه الجنة وجه إلىٰ الدنيا، ووجه إلىٰ الآخرة، فهي فوق الدنيا في المقام، وتحت الجنة الكبرىٰ في المقام، فمن حيثُ إن الحقَّ تعالىٰ أباح له فيها ما أباح، كان له وجه إلىٰ الجنة الكبرىٰ، ومن حيث إنه حجر عليه فيها ما حجر، ومنع فيها ما منع، كان له وجه إلىٰ الدنيا التي هي دار التكليف والتحجير، بخلاف الجنة الكبرىٰ المدخَرة في علم

---

(١) الشيخ صفي الدين الحسين بن علىٰ، المعروف بابن أبىٰ منصور الصوفي المالكي، من مصنفاته: «كتاب الرسالة». ولد سنة ٥٩٥هـ وتوفي: ٦٨٢ هـ. هدية العارفين (١/ ٣١٣) ومعجم المؤلفين (٤/ ٣٧).

(٢) مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي أبو القاسم: فيلسوف رياضي فلكي، كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم. مولده ووفاته بمجريط (مدريد) ذهب بعض المؤرخين إلىٰ أنه مؤلف «رسائل إخوان الصفاء» ولم يثبت ذلك. من كتبه: «اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني» و«رتبة الحكيم» و«غاية الحكيم» توفي: ٣٩٨ هـ. الأعلام (٧/ ٢٢٤) وهدية العارفين (٢/ ٤٣٢).

(٣) لا يُعرف علىٰ التحديد مؤلف «رسائل إخوان الصفا» والبعض نسبها للمجريطي.

الله، فإنه لا يحجر فيها، بل يتبوأ أهلها منها ما شاؤوا، ولا يصح لأهلها فيها حجاب عن ربهم حتىٰ يصح لهم وقوع في مخالفة، بخلاف جنة البرزخ فيها الحجاب. ولذلك ظهرت فيها المخالفة علىٰ يد آدم عليه الصلاة والسلام، وصحت وسوسة إبليس لآدم وحواء فيها، فلو كانت الجنة الكبرىٰ لما ظهرت المخالفة من أحد من أهلها، ولا الإخراج منها، ولا وجود إبليس فيها ولا عصيانه وغير ذلك مما ينافي حكم الجنة الكبرىٰ المدَّخَرة في علم الله تعالىٰ إلىٰ أن تُنَزَل الكتب، ويُرسل الرسل، وتُعمل الأعمال المناسبة لها وللدار الأخرىٰ التي يدخلها الناس بعد البعث والحساب والصراط.

قال أهل الكشف: ولو كانت الجنة التي تنتقل إليها الأرواح بعد الموت هي الكبرىٰ التي هي دار النعيم، لم يحتج الناس إلىٰ خروجهم منها للبعث والحساب والصراط، ثم يدخلونها بعد ذلك، بل كانت هذه الأمور تقع لهم في قبورهم مثلًا. وأطال في ذلك.

ثم قالوا: وهذه الجنة البرزخية هي التي رآها رسول الله ﷺ في صلاته للكسوف، وأراد يتناول منها العنقود العنب، كما أن ما رآه من لهب النار حين تأخر في صلاته هي نار البرزخ، فإنه ﷺ ذكر أنه رأىٰ عمرو بن لُحَي الذي سيب السوائب فيها، ورأىٰ فيها المرأة التي حبست الهرة حتىٰ ماتت جوعًا، فلو كانت هذه هي النار الكبرىٰ، لما كانوا يخرجون منها بعد ذلك.

ثم إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أُخرِج من جنة البرزخ، نزل إلىٰ الدنيا لقربها منها في المرتبة والاتحاد، كما أنه إذا أُخرِج من الدنيا بالموت، يرجع إليها كما نزل منها إلىٰ الدنيا، فلا يزال فيها وكل من انتقل وينتقل من ذريته إلىٰ أن يتكامل العدد وتنتهي المُدَد، فينتقل حكم الدنيا وحكم البرزخ للدار الآخرة بعد المحشر بنفخة الفزع.

قال الشيخ صفي الدين: ومن نازعنا في أن الجنة التي وقع لآدم فيها ما وقع هي الجنة الكبرىٰ. فعليه الدليل. انتهىٰ كلامه، فليتأمل.

وبلغنا أن الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله سُئل عن الجنة والنار: هل خلقتا الآن أم لا؟ فقال رضي الله عنه: هما مخلوقتان لا مخلوقتان! فقيل له: كيف؟ فقال: لأن جنة كلِّ مؤمن إنما تُبنىٰ من أعماله بعد وجوده في دار التكليف، ولا ينافي ذلك ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿أُعِدَّت

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أي أُعدَّت لهم قبل دخولهم إليها بعد أن بُنيت من أعمالهم.

قال: وقوله في الحديث: «إن الله تعالىٰ خلق جنة عدن وغرس فيها أشجارها ودلىٰ فيها ثمارها»[١] لا ينافي في ذلك، لأنا نقول: المراد بـ«خلق» قدَّر وقضىٰ، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. وأيضًا فإن حضرة الحقِّ تعالىٰ لا ماضي فيها ولا آت، فله تعالىٰ أن يخبر عن المستقبل المحقق الوقوع بالماضي. فقيل له رضي الله عنه: فما معنىٰ قولكم في الجنة والنار في الشقِّ الثاني أنها غير مخلوقتين؟ فقال: لأن الله تعالىٰ كان قد خلق السور المحيط بالجنة، والدرك المحيط بالنار، وعيَّن لكل واحد من أهل الدارين مكانًا من دَرَج أو دَرَك بحسب أعماله، بمثابة البنَّاء إذا خطَّ بالجصِّ مواضعَ البناء من بيت وقصر وغرفة، أو درك بعد درك.

قال: ويؤيد كشفنا هذا حديث: من فعل كذا بنىٰ الله له بيتًا في الجنة[٢]، ومن قال كذا وكذا غرس له كذا في الجنة[٣]. انتهىٰ[٤].

ثم إن الناس في بنائهم علىٰ أقسام: فقسم ليس له بناء إلا في الجنة وهم الأنبياء لعصمتهم، ويلحق بهم من لم يعمل معصية من الأولياء لحفظهم. وقسم يبني في الجنة تارة ويبني في النار أخرىٰ بحسب طاعاتهم ومعاصيهم، وهم المؤمنون غير المحفوظين من التخليط. وقسم ليس له بناء إلا في النار وهم الكفار علىٰ اختلاف طبقاتهم، فعُلِمَ أن بناء كلِّ إنسان ينتهي بانتهاء عمله في آخر نفس يكون له في الدنيا، إلا أن يكون ممن جعله

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٧٢٣)، وفي «الأوسط» (٥٥١٨)، دون قوله «وغرس فيها أشجارها» وقال الهيثمي: وأحد إسنادَيِ الطبراني في «الأوسط» جيد. مجمع الزوائد (١٨٦٣٩) (١٠/ ٣٩٧).

(٢) من هذه الأحاديث: «من بنىٰ لله مسجدًا بنىٰ الله له بيتًا في الجنة». أخرجه مسلم (٥٣٣)، والبخاري ٤٥٠، وحديث: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا، غير فريضة، إلا بنىٰ الله له بيتا في الجنة».

(٣) منها: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة» أخرجه الترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٤) انظر «الفتوحات» الباب (٦١).

الله تعالىٰ في البرزخ، كثابت البناني وأضرابه، فكأنه يُقال لكل من انتهىٰ بناؤه في دار: اخرج إلىٰ دارك التي بنيتَها بأعمالك فاسكنها؛ فلهو أعرف بها من داره في الدنيا. لكن لا يخفىٰ أن بناء العبد في جنة البرزخ لا حقيقي، بخلاف الجنة الكبرىٰ. انتهىٰ، فليُتأمل.

[لا يجوز رد علوم الكشف إلا بنص صريح قاطع لا بالفهم]

قلتُ: والذي أقول به أن صاحب الكشف مع كشفه، وصاحب النقل مع ظاهر نقله. **ولا ينبغي لأحد رد علوم الكشف إلا بالنصوص الصريحة القاطعة لا بالفهم**، علىٰ أن الكشف الصحيح لا يأتي إلا موافقًا للشريعة ومؤيِّدًا لها، لأن حقيقته هو الإخبار بالأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها، كما هو الأمر في الشريعة، فالواجب علىٰ كل محجوب اتباع ما عليه جمهور العلماء من طريق النقل، لعصمة النقل بخلاف الكشف، فقد يكون ذلك تلبيسًا من إبليس، والله أعلم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تسارعوا إلىٰ العمل بكشف وليّ إلا بعد عرضه علىٰ الكتاب والسنة وموافقته لهما، فلو كُشِفَ لوليٍّ عن تقدير شيء من المعاصي علىٰ تلميذه، لا يجوز للتلميذ المبادرة إلىٰ فعل ذلك، ويقول: أقع فيها وأستريح من شهود قبح صورتها بيني وبين ربي حيث كان لابد من وقوعي فيها، كما يقع من بعض التلامذة السَّاذجين الجاهلين بقواعد الشريعة، بل الواجب علىٰ التلميذ الصبر أو التصبر، وسؤال الإقالة من ذلك الذنب، ومحوه من ألواح المحو والإثبات إن كان ذلك مطمح بصر شيخه. وإن كان مطمح بصر شيخه اللوح المحفوظ -أعني عن المحو- توقف المريد كذلك، لاحتمال أن يكون ذلك اللوح ليس هو اللوح المحفوظ، وإنما هو لوح يخيل مثله له إبليس، فإن الله تعالىٰ قد أعطىٰ إبليس قوة يخيِّل بها إلىٰ الولي ما شاء من سماء وأرض وكرسيّ وعرش ولوح وقلم وعماء، بحسب ما يرىٰ قلب ذلك الولي يستمد منه ويأخذ العلم عنه.

فإن أيد الله تعالىٰ ذلك الوليّ بالتأييد الإلهيّ، أعطاه الفرق والتمييز بين السماء المتخيَّلة والسماء الحقيقية، أو الكرسي الحقيقي والكرسي المتخيَّل، وهكذا القول في العرش والعماء واللوح والقلم الأعلىٰ أو الثلاثمئة وستين قلمًا التي تكتب في ألواح

المحو والإثبات، كما قاله في «الفتوحات المكية» فيرجع إبليس خاسئًا.

وإن لم يؤيد الله تعالىٰ ذلك الولي بإعطائه الفرق والتمييز بين السماء الحقيقية مثلًا والمتخيَّلة، أخذ ما جاء به إليه إبليس فضلَّ وأضل، لكن نقل الإمام الغزالي أن من أولياء الله تعالىٰ من يأخذ ما جاء به إبليس ويقلبه بالنية الصالحة إلىٰ خير، فيسعد بذلك علىٰ رغم أنف إبليس، حتىٰ إن إبليس لو علم أنه من أهل ذلك المقام لما كان يأتيه بشيء من ذلك، لأنه ليس له إلىٰ بني آدم خير البتة. انتهىٰ.

[جواز أن يطلع الوليّ على اللوح المحفوظ]

فإن قيل: وبهذا يجوز تصديق الوليِّ أنه يرىٰ ما في اللوح المحفوظ؟ **قلنا**: يجوز ذلك عقلًا، لكنا لا يجب علينا العمل بما أخبرنا به عن اللوح إلا إن وافق الشريعة.

فإن قيل: فهل ذلك من الغيب المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية؟ **فالجواب**: لا، بل هو من قسم الشهادة في حقِّ ذلك الوليِّ، وليس هو غيب إلا في حقِّ المحجوب، هكذا سمعتُه من سيدي عبد القادر الدشطوطي ﷺ، فعُلِمَ أن كل من ادعىٰ الولاية وعمل بكشفه الذي يخالف ظاهر الشريعة المطهرة أو أمر تلميذه بفعله، فهو شخص ملبَّس عليه، أو هو شيطان في صورة إنسان، وليس له نصيب في اتباع الشرائع، فليحذر الإخوان من الاجتماع بمثل هذا المدَّعي كلَّ الحذر، فإن إضلال الخلق لا يجوز إجماعًا فعله لأحد من الخلق؛ لأنه نعت أخص لله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]، وقد أَذِن للأنبياء وأتباعهم في الثاني، ولم يأذن لهم في الأول.

وقد نازعني في ذلك شخص من مشايخ العجم، وقال: للعارف بالله أن يتخلق بجميع الأسماء. فقلتُ له: هذا زندقة! فطال الكلام بيني وبينه من بكرة النهار إلىٰ قريب الزوال، وقطعتُه بحمد الله بالحُجَّة.

فإياك يا أخي ومعاشرة مثل هذا ثم إياك، فقد قال الإمام مالك ﷺ: من تصوف من غير شرع تزندق. انتهىٰ. وإذا كان الحق تعالىٰ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:

٢٨] فكيف يأمر بهذا الدعاة إلىٰ شرعه وشرعه يكذبهم؟!

[خلاصة]

فعُلِمَ من جميع ما قررناه لك يا أخي صريحًا وإيماءً أنه لا يصح رفع المعاصي من الأرض جملة، إذ لو رُفِعَت لتعطل كثير من حضرات الأسماء الإلهية، ولو أن الحقَّ تعالىٰ كان شاء رفعها لما خلق إبليس، وكأن من سأل رفع المعاصي من الأرض، سأل الله تعالىٰ أن يغير ما سبق في علمه الأزلي، وذلك محال. وإيضاح ما قلناه من أنه لو رُفِعَت المعاصي من الأرض لتعطل كثير من حضرات الأسماء أنه تعالىٰ سمَّىٰ نفسه «المعز» و«المذل» و«الكريم» و«المانع» و«الغفار» و«شديد العقاب» ولا ذل إلا بالمعصية، ولا انتقام إلا ممن فعلها.

وأن زلات أهل الله تعالىٰ لا ينقص بها مقامهم تبعًا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام في معاصيهم الصورية، وذلك لأن أهل الله تعالىٰ لا يأتون المخالفات إلا بحكم نفوذ القضاء والقدر السابق فيهم من غير ظهور ميل ولا شهوة طبع، فكأنها صورية، بخلاف معاصي غير أهل الله من العوام، فإنهم لا يزدادون بها إلا طردًا ومقتًا؛ لأنهم يأتونها بحكم الشهوة والطبع والغفلة الشديدة والاستغراق في لذتها، وليس من يأتي المعاصي وهو يبكي، كمن يأتيها وهو يضحك. وقد بلغنا عن بعض الأولياء أنه كُشِفَ له وقوعه في معصية، فكاد أن يذوب عظمه ولحمه. انتهىٰ.

وعُلِمَ أيضًا أنه لا يجوز استسلام العبد للأقدار الإلهية الجارية عليه بمعصية إلا بعد شدة مجاهدة ومدافعة في ردِّها تعظيمًا لحرمات الله تعالىٰ، وفرارًا من مواطن سخطه.

وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: غالب الرجال إذا ذُكِر القَدَر أمسكوا إلا الكُمَّل، فإنهم لا يمسكون عن ذلك. قال: وقد فُتِح لي فيه روْزَنَةٌ[1]، فنزلتُ منها ونازعتُ أقدار الحقِّ بالحقِّ للحقِّ، فالرجل هو المنازع للقَدَر لا الموافق له. وقد حكىٰ الله تعالىٰ عن الكفار: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥] إلىٰ آخر النسق، ومع ذلك لم يقبل الحقُّ تعالىٰ اعتذارهم. انتهىٰ. فالعبد يجب عليه مدافعة الذنب إذا

---

(١) الرَّوْزَنَةُ: الفتحة في الجدار.

رأىٰ عنده ميلًا إليه، ويعصي إن لم يدافع، أقلُّ ما في ذلك أن يخفف عنه العذاب بالمدافعة.

وقد رأىٰ بعض الأولياء في كشفه أنه لا بد من زناه بجارية سيدي ياقوت العرشي[1]، فصارت تلك الزنية نقطة سوداء في سجادته، فكان يقول: متىٰ أراك يا نقطة قد مُحيتِ؟! فنام عند سيدي ياقوت ليلة، فوقع بجاريته، وفتش علىٰ النقطة فلم يجدها، فاغتسل وصلىٰ ركعتين، ثم فرش سجادته علىٰ البحر وسار، فقال له سيدي ياقوت: ما هذا وذاك؟! فقال: ذاك قضاؤه، وهذا فضله. انتهىٰ.

وعُلِمَ أيضًا أنه يجب علىٰ العبد ولو شهد أنه لا يتحرك إلا إن حركته القدرة الإلهية، ولا يفعل إلا ما قدَّره الله تعالىٰ عليه في سابق علمه أن يبادر إلىٰ التوبة عن كل مخالفة، ويقوم بما كلَّفه الله تعالىٰ به، ولا يجوز له الاحتجاج بالإرادة، فإنها حُجَّة إبليس ولم تنفعه، إذ لا ينفع الاحتجاج بالإرادة إلا إذا وافقت الأمر الإلهيَّ كالطاعات، فيجب علىٰ كلِّ مكلَّف التوبةُ من جميع المخالفات، ومن لم يتب طبع الله علىٰ قلبه، فلا يزداد بالمعاصي إلا منعًا وطردًا، لأنها رجس لا يمكِّن صاحبه من دخول حضرة الله عزَّ وجلَّ في صلاة ولا غيرها، فإن المصر علىٰ المعصية تصير المعاصي كالوصف اللازم له، بخلاف التائب عقب كل زلَّة، فإنه كالمتطهر بالماء للحدث أو الخبث. ومثل هذا المصر يكون تطهيره بالنار يوم القيامة إن لم يتداركه العفو والشفاعة، فتكون النار له هناك كالماء هنا، فاعلم ذلك.

وعُلِم أيضًا مما قررناه أن هبوط آدم من تلك الجنة كان هبوط تقريب وشرف، لا هبوط بُعْد وقطيعة عكس هبوط إبليس، فإن هبوطه كان هبوط بُعدٍ وطرد ومقت بحكم الوعد السابق له من الله عزَّ وجلَّ، فكما كانت حسنات ذرية آدم كلِّهم في صحيفته عليه الصلاة والسلام، كذلك أوزار جميع العصاة في صحائف إبليس لعنه الله، من كفر وشرك، ونفاق وظلم وغير ذلك، فكان خروجه من الجنة إنما هو لاكتساب الأوزار. ومعلوم أن

---

(١) سيدي ياقوت العرشي: كان إماماً في المعارف عابداً زاهداً وهو من أجل من أخذ عن الشيخ أبي العباس المرسي ﷺ، وأخبر به سيدي أبو العباس ﷺ يوم ولد ببلاد الحبشة، ومناقبه رضي الله تعالىٰ عنه كثيرة مشهورة بين الطائفة الشاذلية بمصر، وغيرها. توفي: ٧٠٧هـ بالإسكندرية ﷺ. الطبقات الكبرىٰ للشعراني (٢/ ١٨).

الجنة التي كان فيها مع آدم عليه الصلاة والسلام ليست بدار كفر ولا شرك ولا نفاق ولا ظلم، وكانت معصيته حقيقية لا صورية ضد آدم، ولذلك لم يقع منه توبة ولا استغفار ولا اعتراف بإقامة الحُجَّة عليه، فلذلك شقي شقاء الأبد.

[هل يصح أن يسلم إبليس؟]

وقد اختلف العلماء في إبليس هل يصح أن يسلم أو لا؟ علىٰ قولين. والجمهور من أهل النقل والكشف: لا يصح منه إسلام، لأنه هو الذي سنَّ الكفر والشرك في العالم، بخلاف جنوده من كفار الجنِّ والإنس يصح منهم الإسلام، كما هو مشاهد في الإنس لكلِّ الناس، وفي الجنِّ لأهل الكشف، إذ لو صح إسلام إبليس الأكبر في دار التكليف، لتعطلت قبضة أهل الشقاء، ولم يبقَ لهم من يوسوس لهم بالمعاصي. ومعلوم أن أحدًا من الجنِّ والإنس لا يعصي إلا بواسطة وسوسته، فهو الذي يسنُّ الكفر والشرك في جميع العالم، ولو أنه يصح منه إسلام، ما كان دخل النار أبدًا. وقد جاءت النصوص القطعية بدخوله النار، وأنه يخطب في النار لأتباعه، ويتبرأ منهم ويقيم الحُجَّة عليهم في محل يصدق فيه الكذوب، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] لكن لا ينفعه ذلك التبرؤ، لأنه لم يكن في دار التكليف، كما لا ينفعه قوله للإنسان إذا وسوس له بالكفر وكفر: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] لأنه خوف نفاق، وما وسوس له بالكفر أو الشرك حتىٰ يصوره في نفسه ذوقًا علىٰ صورة إذا حصلت في نفس المشرِك أو الكافر، كان بها مشركًا أو كافرًا، وزالت عنه صورة التوحيد، فإذا تصورها في نفسه علىٰ هذه الصورة، فقد خرج من التوحيد ضرورة، وحصل له بذلك الشقاء الأبدي، فإنه كان عزمه أن يشقىٰ العباد ما عاش، فعاد وبال نيته عليه. وقد قال الشيخ أبو مدين ﷺ: دخول الخلق في الجنة أو النار إنما هو بأعمالهم. وأما خلودهم في الدارين فإنما هو بنياتهم. انتهىٰ، وهو كلام نفيس.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لو صح توحيد إبليس بقوله: ﴿إِنِّى

بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦] لذهب صفة الشرك من العالم، ولم يجد المشرِك من يوسوس له بذلك في قلبه، لفقد من يمد المشرك بصفة الشرك. ولا يخفىٰ عليك أن إبليس مشرِك بلا شك ولا ريب، وهو أول من أشرك بالله، وأول من سنَّ الشرك في الأرض، فهو أشقىٰ العالمين، وليس كونه في النار في الطبقة الرابعة منها تخفيفًا عليه، وإنما هو لكون مدار الشرك والكفر وسائر المعاصي التي دخل أهلها بسببها النار عليه، فهو كالقطب، فوقه ثلاث طبقات، وتحته ثلاث طبقات. فقلتُ له: إن ظاهر قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ الا ان دعوتكم فاستجبتم لي﴾ يوهم أن ما دعاهم إليه كان موجودًا عندهم، كامنًا فيهم، ليوافق قوله تعالىٰ: (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون). فقال ﷺ: وهو كذلك، فإنه مظهِر بوسوسته ما كان كامنًا فيهم فقط، لا موجد ذلك فيهم، فإنه لا يأتي أحدًا بالوسوسة إلا بعد وجود الميل من ذلك الأحد، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي قبل أن تميلوا، ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ حيث ملتم، لأني واقف دائمًا تجاه قلوبكم، وأنتم ككفتي الميزان وقبتها، وقلبكم كلسانها، فما دام قلبكم لا يميل فيه، فاللسان في قبة الميزان لم يخرج، وذلك إما لعصمة أو لحفظ، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] أي عبادي المخلصين من الأنبياء، والمحفوظين من الأولياء. ثم بتقدير أن العصاة عليهم الحُجَّة بتقدير ميلهم، فإبليس مؤاخذٌ بذلك من حيثُ كونُه هو الداعي لهم إلىٰ ذلك. والأحكام الشرعية جارية علىٰ الخلق من حيثُ تظاهرُهم بالمعاصي غالبًا، لا من حيثُ كونُها كامنة فيها. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول مرةً أخرىٰ: إياكم أن تقروا أحدًا من أهل الشطح علىٰ جوابه عن إبليس نظير ما أجبنا به عن آدم عليه الصلاة والسلام، فإنه لعنه الله قد أصر علىٰ ذنبه ولم يستغفر منه، ثم بتقدير أنه يندم ويبكي فذلك نفاق لا يُقبَل منه، كما قررناه مرارًا.

قال: ولا يقع في الجواب عن إبليس إلا من لم يشم من الشريعة رائحة ممن يتمشيخ بنفسه من غير إذن، ويترك التقيد بالكتاب والسنة، فإياكم ثم إياكم من صحبة مثل هذا. انتهىٰ.

قلتُ: وقد جادلني شخص وَرَدَ مصرَ من مشايخ العجم في سنة ثلاث وأربعين وتسعمئة في شأن إبليس، وقال: إن إبليس يتوب عند كلِّ معصية عقب وسوسته بها للناس. واستدل علىٰ ذلك بحديث: «إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويلي، أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأُمِرتُ بالسجود فأبيتُ، فلي النار»[١]. فقلتُ له: لو صح له الندم والبكاء حقيقةً لكان سعيدًا من جملة المؤمنين ولم يُخلَّد في النار. وقد جاءت النصوص القطعية بدخوله مع القبضة التي فتح هو بابها النار خالدين مخلدين، وقد ضبط جمهور المحدثين قوله ﷺ: «ولكن أعانني الله عليه فأَسْلَمُ»[٢] بضم الميم، أي سلمني الله من العمل بوسوسته مع بقائه هو علىٰ الكفر. ثم بتقدير أن شيطانه ﷺ يصح أن يُسلِم، فذلك خصوصية له ﷺ، لأن كلامنا إنما هو في القرين، ليس هو في الشيطان الأكبر صاحب المرتبة بإجماع. فسكت العجميُّ ساعةً ولم يدر ما يقول. ثم قال: إن قوله تعالىٰ في إبليس أنه قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يقتضي توحيد إبليس، لأن قوله هذا فيه جمع بين الشرك والتوحيد، فهو يوسوس بالشرك للناس، لينفذ قضاء الله تعالىٰ في عباده، وهو يعلم في نفسه ويتحقق أن الله تعالىٰ واحد لا شريك له. فقلتُ له: هذا باطل؛ لأنه ممد لجميع المشركين بالشرك، ولولا ذلك ما أشركوا، لفقد من يوسوس لهم به. ولو أنا سلمنا عدم إشراك إبليس من وجه، وتوحيده من وجه آخر، لكان فيه جمع بين الضدين، وهو محال، فإنه إذا وُجِد الشرك، ذهب التوحيد، فلا يجتمع توحيد وشرك في قلب أبدًا، وكذلك كان الكفار لا يوزن لهم أعمال يوم القيامة ولو قالوا: لا إله إلا الله في دار الدنيا؛ لأنهم لم يقولوها عن إيمان بها، فكذلك القول في إبليس، فهو مشرك بالله ظاهرًا وباطنًا قطعًا. انتهىٰ.

[محاورة إبليس وسهل بن عبد الله التَستُري]

وقد بلغنا أن إبليس اجتمع بسهل بن عبد الله التَستُري رضي الله عنه فقال له سهل: كيف أقسمتَ بالله تعالىٰ لآدم وحواء كاذبًا وقلتَ لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]؟

---

(١) أخرجه مسلم (٨١) وابن ماجه (١٠٥٢) بلفظ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد... »

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٤) والترمذي (١١٧٢) والنسائي (٣٩٦٠).

فقال: معاذ الله أن أقسم كاذبًا، وإنما أقسمتُ بالإله الذي يخطر ببال العبد، وكل ما خطر بالبال فالله تعالىٰ بخلافه، فما وقع إقسامي إلا بإلهٍ نحتُّه بفكري، وتعالىٰ الله عن ذلك.

ثم قال له: يا سهل، كيف تحكمون بخلودي في النار وأنا فديتُ جناب الحقِّ جلَّ وعلا بروحي، وحملتُ عن جنابه جميع أوساخ النِّسب -بكسر النون- عن العاصي، وتخلَّف عن ذلك جميعُ الأنبياء والمرسلين حين عرض ذلك عليهم؟! وذلك أن الحقَّ تعالىٰ قال بعد أن وقف الأولين والآخرين بين يديه: إني أريد أن أحدث في ملكي أمرًا، وأجعل العالم قبضتين: قبضة سعادة، وقبضة شقاء، فأخلق المعاصي والفواحش، وأتبرأ من إضافتها إليَّ في الظاهر، ويصير الوجود العلوي والسفلي كله يلعن من تُضاف الفواحشُ إليه، فسكت القوم أجمعون، ولم يتجرأ منهم أحدٌ يتقدم لها غيري، فلولا أنا لكانت الفحشاء تُضاف إلىٰ ربكم، وخرجتُم عن أدب العبودية والمحبة لربكم، فإن من شأن المحب أن يتحمل عن سيِّدِه ومحبوبه كلَّ مذموم، ويحب أن يُضَاف إليه من كلِّ عيب ونقص في العالم.

فقال له سهل ﷺ: لو كان ذلك منك علىٰ وجه المحبة والتعظيم للحقِّ جلَّ وعلا ما طردك ولا أشقاك بذلك، إذ الحكمة تأبىٰ ذلك.

فقال إبليس: ما معنىٰ اللعن والطرد في لسانكم؟

فقال سهل ﷺ: معناه الطرد عن حضرته الخاصة.

فقال: من كان في قبضة الحق جلَّ وعلا لا يتحرك إلا إن حركته قدرته تعالىٰ، فكيف طرده؟

فقال سهل: مطرود عن حضرة الأمر إلىٰ حضرة الإرادة المطلقة المجردة عن امتثال الأمر، وتلك حضرة لا تقتضي السعادة، وإنما تقتضي الشقاء لأهلها، إذ هي حضرة النهي.

فقال إبليس لسهل ﷺ: يا سهل، أما قال تعالىٰ لي: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٤]؟

فقال: نعم.

فقال إبليس: فما وسعني إلا امتثال أمره، فكما كان أنبياؤكم تحت أمره، فكذلك أنا تحت أمره.

فقال له سهل: إنما يكون تحت أمره تعالىٰ لو كان ذلك ابتداءً منه تعالىٰ، فإنه ما قال لك: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ إلىٰ آخره إلا جوابًا لك حين أقسمتَ بعزته تعالىٰ لتغوينهم أجمعين، فشقيتَ أنت بذلك، وهذا جزاء من طلب السوء لأحد من العباد، بخلاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فما منهم أحد إلا وهو يطلب الهدايةَ والخيرَ لقومه، فافترقت يا لعينُ عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولم يصلح ما قلت أن يكون حُجَّةً لك.

فقال: يا سهل، إن الله تعالىٰ يقول في كتابكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. وقد عرض تعالىٰ علىٰ جميع أنبيائكم أن ينوبوا عنه في وسوسته الناس بالفواحش، ليظهر حكم القبضتين، فما رضي أحد منهم بذلك، ولابد في الوجود من قائم يقوم عن الحقِّ بذلك، فإنه تعالىٰ قال: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]. ومعلوم أن الوسوسة بالفحشاء إضلال، وقد نفىٰ تعالىٰ عن نفسه الأمر بها، فأيهما أكثر محبة للحق تعالىٰ: من قد فدىٰ جنابه بنفسه وتقدم لتنفيذ قضائه وقدره في عباده، وجعل نفسه منديلًا للقاذورات، أم الذي تنزه عن ذلك، وأضاف الوسوسة بالفحشاء إلىٰ ربه؟

فقال سهل: قد تقدم الجواب أنك لم تفعل ذلك لإيثار جناب الحقِّ تعالىٰ علىٰ جناب نفسك، وإنما ذلك لخبث باطنك ومحبتك السوء للناس.

فقال: يا سهل، فكيف يزعم أحدكم أنه أكثر إخلاصًا لله تعالىٰ مني ومراقبة له، ولو أن أحدكم أنكر عليه أهل بلده وقاموا عليه ورموه بالزندقة والبهتان والرمي بالعظائم، لتغير من فَرْقه[1] إلىٰ قدمه، وأنا جميع الوجود يلعنني ويسبني ليلاً ونهارًا ويضيف إليَّ كلَّ سوء، فلا يتغير مني شعرة واحدة علىٰ أحد منهم، اكتفاء بعلم الله تعالىٰ فيَّ. فقال سهل: ليس تغير الداعي منا إلىٰ الله تعالىٰ من مثل ذلك لحظِّ نفس، وإنما ذلك مسارعة لمرضاة الله تعالىٰ وخوفًا علىٰ أتباعنا أن تنفر منا، فيفوتهم الاهتداء بهدي الرسل الذي ندعوهم إليه، فرجع تغيرنا وتأثيرنا إلىٰ مرضاة الله ومحبة الخير للأمة، وذلك لا يقدح في كمال الداعي

---

(١) الفَرْقُ من الرأس: الفاصلُ بين صفين من الشَّعْر.

إلىٰ الله تعالىٰ، بل هو علامة علىٰ كماله، وفرق بين من يريد وقوع ما يرضي الله، ومن يريد وقوع ما يغضب الله.

فقال إبليس: يا سهل، كيف يصح غضب الحقِّ تعالىٰ من شيء يفعله؟! فإنه الفاعل الحقيقيُّ لكلِّ ما في الوجود، والغضبُ لا يكون إلا لمن تقع الأمور قهرًا عليه، وتعالىٰ الله عن ذلك.

فقال سهل: غضب الله تعالىٰ مباين لغضب خلقه، فليس غضبه من حيثُ وقوعُ شيء في الوجود عن غير إرادته، وإنما غضبه كناية عن كون ذلك الأمر سبق في علم الله مؤاخذةُ كلِّ من ظهر علىٰ يديه، فكأنه يحذِّر عباده من الوقوع فيه، ويأمرهم بالتوبة منه فورًا، لعدم قدرة الخلقِ علىٰ تحمل سخط الله ومقته، وقطع مادة الرضا عنهم.

فسكت إبليس، ثم قال: يا سهلُ، كيف تزعم خطباؤكم ووعاظُكم وجميعُ علمائكم أنهم أنصار دين الله وأنصار شريعة محمد ﷺ، وأحدهم ليلًا ونهارًا يسعىٰ في تكذيب الشارع ﷺ فيما أخبر به من علامات الساعة؟

فقال له سهل: كيف ذلك؟!

فقال: إن نبيكم أخبر أنه لابد أن يكثر الزنا وشرب الخمر[1] وترك الصلاة[2] ومنع الزكاة[3] وتطفيف المكيال والميزان وغير ذلك مما يقع بين يدي الساعة، فأنا أقول لمن سبقت له الشقاوة: افعل ما قدَّره الله عليك، لتصدِّق نبيَّك فيما أخبر به، وجميعُ وعاظكم وخطبائكم

---

(١) أخرج البخاري (٥٢٣١) من حديث أنس ﷺ قال: «لأحدثنكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر...».

(٢) أخرج ابن حبان (٦٧١٥) من حديث أبي أمامة ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: لتنتقضن عرىٰ الإسلام عروةً عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضًا: الحكم وآخرهن الصلاة» والحاكم (٧٠٢٢).

(٣) أخرج مسلم (٢٨٩٦) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم». وأبو داود (٣٠٣٥) وأحمد (٧٥٦٥).

وعلمائكم يقولون: لا أحد من الخلق يقع في ذلك. ومعلوم أن من لازم ذلك تكذيبُ الشارع فيما أخبر، فأيُّنا أكثر نصرة للشارع: من سعىٰ في تصديقه أو من سعىٰ في تكذيبه؟

فقال سهل: إن نصرة الشارع لا تكون إلا في إرشاد الناس إلىٰ ما يرضي ربهم لا فيما يسخطه، فإن ذلك سعي في خذلان الشارع، ومن خذل الشارع، فأين نصرته له؟

فقال إبليس: أفتقومون عني بالوسوسة للخلق بالمعاصي وأنا أترك ذلك؟

فقال سهل: لا.

فقال: فكيف العمل؟! تمنعوني من الوسوسة للناس بالوقوع فيما قدَّره الله تعالىٰ عليهم في سابق علمه، وأنتم لا ترضون توسوسون لهم بذلك! ومعلوم أن من لازم ذلك خُلْفُ الوعد من الشارع، فإن أحدكم لا يزال يقول للخلق: لا أحد منكم يعصي ربه أبدًا ولو بقي في الدنيا ساعة واحدة، ولا بد من شخص يهجم ويوسوس للناس بما جعله الشارع من مقدِّمات الساعة، ويسعىٰ في تنفيذ قضاء الله وقدره في عباده.

فقال له سهل: قد تعبدنا الله تعالىٰ بنهي الناس عن معصية الله إلىٰ قيام الساعة، فما أخرجنا عن أمره، وأنت شقِيٌّ، ولو لزم من وسوستك تصديق رسول الله ﷺ، فذلك غير مقصود لك. ومعلوم أن الأجر والثواب والفضل لا يكون إلا بالقصد، ولازم المذهب ليس بمذهب عند جمهور علماء الأصول. ومن هنا لم يقل أحد من العلماء بإشقاء أحد من الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ من حيثُ كونُهم كانوا سببًا لمؤاخذات الله تعالىٰ عباده، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فأخبر تعالىٰ أنه لولا إرسال الرسل ما عذَّب أحدًا من عباده، فكما لا يؤاخذ الله الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ بلازم رسالتهم، فكذلك لا يرضيه منك لازم إغوائك ووسوستك بالمعاصي للعباد من تصديق رسله تعالىٰ فيما أخبروا به من علامات الساعة.

فسكت إبليس ثم قال: يا سهل، إن الله تعالىٰ قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وأنا شيء بلا شكٍّ، فكيف تقولون إن رحمة الله لا تنالني، وما دليلكم في ذلك؟

فقال سهل: دليلنا قوله تعالىٰ عقب ذكر هذه الرحمة ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلىٰ آخر النسق، فأخرجك من دخولك في كتابة هذه الرحمة، لأنه ليس فيك خصلة من هذه الخصال التي ذكرها الله تعالىٰ فيمن كتب هذه الرحمة لهم.

فنظر إبليس إلىٰ سهل مبتسمًا وقال: يا سهل، التقييد صفتك لا صفة الحقِّ تعالىٰ؛ لأنه لا يدخل تحت التحجير، ولو حجر علىٰ نفسه بالكتابة المذكورة، ولا يدخل تحت الإلزام، فله أن يخلف ذلك إذا شاء.

قال سهل: فغصصتُ بريقي، ولم أجد له جوابًا! ثم قال لي: يا سهل، ليتك سكتَّ عن هذا الجواب المؤذِن بالجهل بالله تعالىٰ![1] والله ما كنتُ أظنُّ بك هذا الجهل العظيم مع شهرتك بالعلم والولاية! انتهىٰ كلام سهل ﷺ.

وقد وقع لي مع إبليس نظير ذلك بساحل بيلاق تحت المدرسة الجيعانية، فبحث معي في الأمور الواقعة من افتتاح الله تعالىٰ الوجود الظاهر إلىٰ استقرار الخلق في الجنة والنار، وأعانني الله تعالىٰ عليه، فأدحضنا جميع حججه.

فإياك يا أخي أن تصغىٰ لما يقوله إبليس من المجادلة، فإن كلامه كلّه غرور ومكر واستدراج للعبد، وربما استدرج بعض الموحدين لله تعالىٰ من غير مراعاة قواعد الشريعة، حتىٰ صار يقيم لإبليس العذر ويقول: وأيش هو إبليس؟! إنما هو عبد تحت أمر ربه لا يتحرك إلا إن حرَّكه تعالىٰ. وربما وقع من يجيب عنه في الكفر واستوجب الخلود في النار، وهو يعتقد بنفسه أنه موحِدٌ لله تعالىٰ.

هذا ما فتح الله تعالىٰ به عليَّ من الجواب في حقِّ أبينا آدم عليه الصلاة والسلام. فرحم الله من تتبع هذا الجواب وأصلح ما يراه غير لائق، وفاءً بحق أبيه عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣) ومما أجبتُ به عن السيد نوح عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ

---

(١) في «أ»: بأحكام الله تعالىٰ.

عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]: اعلم يا أخي أن نوحًا عليه الصلاة والسلام ما دعا علىٰ قومه بالغرق إلا من باب الشفقة عليهم أن يكثر عصيانهم لربهم إذا طال عمرهم علىٰ وجه الأرض، من باب قوله ﷺ: «وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[1]، فطلب عليه الصلاة والسلام بغرقهم تخفيف العقاب عليهم، فإنه قد ورد تفاوت أهل النار في العذاب بحسب تفاوتهم في المعاصي قلة وكثرة. ويحتمَل أن يكون ذلك منه ﷺ غيرةً لله عزَّ وجلَّ أن يرىٰ أحدًا يكفر به مع حجابه في ذلك الوقت عن شهود القبضتين.

[سبب اعتذار سيدنا نوح عن الشفاعة يوم القيامة]

وإنما كان يعتذر يوم القيامة إذا سألوه في الشفاعة بأنه دعا علىٰ قومه إظهارًا لمقام محمد ﷺ عليه في ذلك اليوم، وكذلك الأمر في اعتذار الخليل وعيسىٰ، نظير قول موسىٰ: «يا رب، نبي يأتي من بعدي يكون أكثر أتباعًا مني» إنما قال ذلك ليتلذذ بسماع كلام الله تعالىٰ له في حقِّ محمد، وبيان فضله، لا علىٰ وجه الحسد له لعصمته، نحو قوله تعالىٰ: «تأدب يا موسىٰ، فإنه لولا محمدٌ ما خلقتُك ولا خلقتُ سماءً ولا أرضًا ولا شمسًا ولا قمرًا» إلىٰ آخر ما ورد في الآثار.

[الدليل على أن دعاءه على قومه كان شفقة]

ويؤيد ما قلناه من أن دعاءه عليهم كان شفقة عليهم قوله: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ ﴾ [نوح: ٢٧]، فكان ذلك كمن خاف فتنة في دينه بضلاله، فسأل الله تعالىٰ أن يقبض روحه لئلا يضر نفسه وغيره بالإضلال.

وأما قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧]، فكان من طريق كشفه الصحيح. قال وهب بن مُنبِّه: وقد صحَّ قولُه في أولاد من سلموا من الغرق، فولدوا أولادًا فجَّارًا كفَّارًا، فسقط قول من قال: إن الدعوة التي يعتذر عنها هو قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ ﴾ لأنه حجر علىٰ الحقِّ تعالىٰ في المستقبل. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٢٦٨٠).

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزَّهون عن الوقوع في مثل ذلك. وكان وهب بن مُنبِّه يقول: لم يكن نوح عليه الصلاة والسلام من أهل الذنب، وإنما سُمِّي نوحًا لكثرة نوحه علىٰ قوله لما مرَّ علىٰ جيفة كلب: ما أشد نتن هذا! فأوحىٰ الله إليه: أخلق أنت أحسن منه. انتهىٰ. فكان ينوح علىٰ قوله هذه الكلمة، وقيل: إن ذلك خطر بباله ولم يتلفظ به، والله أعلم.

(٣٤) ومما أجبتُ به عن السيد موسىٰ عليه الصلاة والسلام في قوله لربه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي اختيارك: بأن ذلك منه عليه الصلاة والسلام من باب المناجاة والخضوع لربه عزَّ وجلَّ والتبري من الحول والقوة، كما يقول العبد: يا رب، [اغفر لي][1] ذنوبي فيما قدَّرته عليَّ، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين. فإياك يا أخي أن تظن أن قوله ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] كلمة غضب ورعونة نفس في حضرة ربه، فإن ذلك وقوعٌ في حقِّ الأنبياء، لعصمتهم من سوء الأدب.

وأما ما ورد من أنه عليه الصلاة والسلام لطم ملك الموت حين طلب قبض روحه[2] فلا يُذكَر في كتاب، وإنما يُذكَر مشافهةً لأهل الأسرار الإلهية المؤتمنين عليها.

(٣٥) ونحو ما ذكرناه من قوله ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] قوله عليه الصلاة والسلام حين ضيق الله عليه الرزق: «أَنفذَتْ خزائنُك، أو ضاقت عن موسىٰ بن عمران؟!» فإنه إنما قال ذلك مناجاةً لربِّه عزَّ وجلَّ أي لم تنفذ خزائنُك يا ربِّ، حاشاها من ذلك! ولكن جودك فائض علىٰ جميع الوجود، وأنت تفعل ما تشاء من زيادة الرزق ونقصه بحسب الأوقات التي سبق بها العلمُ الإلهيُّ أن يكون الرزق فيها كاملًا وناقصًا، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجهلون أن الرزق المقسوم أزلًا ليس فيه زيادة ولا نقص، وإنما يسألون الرزق من ربهم إظهارًا للعبودية والفاقة والحاجة إليه تعالىٰ، فافهم.

وفي بعض الآثار أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام حين ضيَّق

---

(١) زيادة ضرورية يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).

عليه الرزقَ، وأحوجه إلىٰ الوقوف علىٰ أبواب بني إسرائيل، وشقَّ عليه وسأل الغنىٰ عن طعامهم: «يا موسىٰ، إذا كان هذا الخُلُق والحِدَّة منك علىٰ بني إسرائيل وأنت محتاج إلىٰ طعامهم، فكيف خُلُقُك معهم إذا أغنيتُك عنهم؟ فقال موسىٰ: يا رب، فلك الحمد علىٰ تضييق رزقك عليَّ». انتهىٰ.

(٣٦) ومما أجبتُ به عنه أيضًا لما دعا علىٰ ألف نبي فماتوا في ساعة، كيف صح عنه عليه الصلاة والسلام الدعاء علىٰ الأنبياء مع أنه معصوم من الغيرة والحسد؟

والجواب: أنه عليه الصلاة والسلام كان شكا إلىٰ ربه كثرةَ سؤال بني إسرائيل له حتىٰ أبرموه، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ ألف نبي ليساعدوه، فلما بلغ الأمر حدَّه في المساعدة، سأل الله تعالىٰ موتَهم عند انتهاء آجالهم لا قبله.

وأما قول وهب بن مُنبِّه: إنه دعا عليهم لما وجد في نفسه غيرة، فلم يصح ذلك عنه، والله أعلم.

(٣٧) وأما قول موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] **يعني فرعون، وقول بعضهم: إن الخوف من المخلوقين لا ينبغي وقوعه من ولي، فضلًا عن رسول، فالجواب**: أن موسىٰ وهارون كانا كاملين، ومن شروط الكامل أن يرىٰ ضعفه وعجزه، ولا يرىٰ له قوة يدفع بها عن نفسه إلا إن أمدَّه الله تعالىٰ بقوة، وأذن له في دفع عدوه بها. ومعلوم أن الحقَّ تعالىٰ لم يأذن لهما في الإغلاظ علىٰ فرعون، وإنما قال تعالىٰ لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، فكان قولهما: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ كالشكوىٰ إلىٰ الله تعالىٰ أن يدفع شرَّه حتىٰ يؤديا رسالة ربهما. وأما قول موسىٰ في سورة «الشعراء»: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١] أي خفت من الحقِّ تعالىٰ أن يسلطكم عليَّ، فرجع خوفه من الخلق إلىٰ الخوف من الله تعالىٰ، لأن الكامل لا يخاف من المخلوقين مع قطع النظر عن خالقهم أبدًا؛ لأن مخلوقًا لا يؤثر في مخلوق إلا بإذن الله، فافهم، والله أعلم.

(٣٨) ومما أجبتُ به عنه حين لطم عين ملك الموت ففقأها[(١)]: أن ذلك كان بإذن من ربه، لعصمته عن مثل ذلك، ولذلك لم يعاتبه الله عليه، فافهم.

(٣٩) ومما أجبتُ به عن السيد يونس عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]: فظن بنا خيرًا وأننا لا نضيق عليه، بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، فإن المراد بقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ﴾ أي ضُيِّق عليه رزقه، فليس المراد ما يتبادر إلىٰ الأذهان؛ لأن الأنبياء معصومون عن الجهل بشيء من أسماء الله تعالىٰ وصفاته وحضراتها.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] إلىٰ آخر النسق؛ فالجواب: أن ذلك من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، فنهىٰ الحقُّ تعالىٰ محمَّدًا ﷺ أن يقف في مقام من هو دونه من الأنبياء، وأمره أن يترقىٰ عن ذلك إلىٰ ما هو أعلىٰ منه، وهو الصبر علىٰ من خالف من قومه، وعدم السؤال بمعاجلتهم بالعذاب شفقةً عليهم ورحمةً بهم، وإيضاح الكلام في ذلك لا يذكر إلا مشافهة لمن يكتم الأسرار، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠) ومما أجبتُ به عن السيد يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]: أن المراد همَّت به لتنال غرضها منه لعدم عصمتها، وهمَّ بها ليدفعها عنه بشدة وعنف، فالهَمُّ منها ومنه مشترك، والقصد مختلِف، وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] البرهانُ هو الوحي، وذلك أن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه أن ادفعها عنك بلطف وخفة، فإنها امرأة ناقصة علىٰ كلِّ حال عن درجة الرجال في القوة

---

(١) أخرج البخاري (١٣٣٩) عن أبي هريرة ﷺ قال: «أرسل ملك الموت إلىٰ موسىٰ عليهما السلام، فلما جاءه صكه ففقأ عينه، فرجع إلىٰ ربه فقال: أرسلتني إلىٰ عبد لا يريد الموت، قال: فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إليه فقل له يضع يده علىٰ متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن؛ فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلىٰ جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر».

علىٰ ردِّ نفسها عما تريده، وعن دفع الرجال كما يدفعونها لو وقع بينها وبينهم مضاربة مثلًا.

وقد ذكر في «الفتوحات المكية» نحو ذلك، فقال: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ لتقهره علىٰ ما تريده منه، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ليقهرها بالدفع عنه بشدة وغلظة، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: ادفعها بلطف ورفق، فإنها امرأة ضعيفة الحال علىٰ كلِّ حال لا تحتمل شدَّةَ عزمك، وقوة بطشك، وأنت نبي مرسل، فهناك عَذَرَها عليه الصلاة والسلام في عجزها عن ردِّها نفسها عما أرادته من يوسف، وفي شغفها بذلك الجمال العظيم، فالهَمُّ منها ومنه لفظ مشترك، والقصد منهما مختلف. انتهىٰ[1].

فعُلِمَ أنه لا يجوز أن يُقال: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من المعاصي دون الميل إليها كما فهمه بعضهم، فجوَّز في حقِّهم الهَمَّ بالمعاصي. والذي عليه كُمَّلُ العارفين أجمعين أن الأنبياء معصومون من شهوة الميل، فضلًا عن الميل، وإذا كان سليمان الدنبلي أحد أولياء الله تعالىٰ بمكة يقول لي: منذ خمسين سنة ما خطر علىٰ بالي مكروه فضلًا عن مخالفة الله عزَّ وجلَّ بالصغائر؛ فكيف بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام؟! وكذلك بلغنا عن الإمام الليث بن سعد ﷺ أنه كان يقول: من منذ وعيتُ علىٰ نفسي ما أظنُّ أنه خطر علىٰ بالي قط معصية. وكذلك بلغنا عن أبي سليمان الداراني[2] ﷺ أنه كان يقول: ما أتذكر أني فعلتُ شيئًا يُستحيا منه بيني وبين الله عزَّ وجلَّ سوىٰ قربي من عيالي. فاعلم ذلك، وإياك والخوض في أعراض أنبياء الله عزَّ وجلَّ والحمد لله رب العالمين.

(٤١) ومما أجبتُ به عن السيد داود عليه الصلاة والسلام في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]: المراد بالحقِّ الذي يحكم به

---

(١) انظر: «الفتوحات» الباب (٣٦٧).

(٢) أبو سليمان الداراني، اسمه عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، وقيل: عبد الرحمن بن عسكر العبسي الداراني، كان من واسط وتحول إلىٰ الشام ونزل داريا (قرية غربي دمشق)، وكان إمامًا حافظًا كبير الشأن في علوم الحقائق والورع أثنىٰ عليه الأئمة، وكان له الرياضات والسياحات، وله كرامات وأحوال ت ٢٠٥هـ. النجوم الزاهرة (٢/ ١٧٩) ووفيات الأعيان (٣/ ١٣١).

عليه الصلاة والسلام هو الوحي، والمراد بالهوىٰ الاجتهاد لا الهوىٰ المذموم في الشرائع، نهاه عنه[١] وأمره أن ينتظر الوحي من الله تعالىٰ في كلِّ حادثة، وذلك ليكون تابعًا لربه لا مشرِّعًا من عند نفسه. وثم مقام رفيع ومقام أرفع، مع أن الاجتهاد لا يُؤذَن فيه إلا عند فَقْدِ الوحي. وأما النبي فهو مستغنٍ عنه بالوحي، فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ نظير قوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] فنبهه علىٰ أن التقيد بالوحي أكمل من اجتهاده.

وقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾أي تنقص به عن مقام الرسل السابقين علىٰ زمانك، فأراد منه تعالىٰ الرقي إلىٰ مقام إخوانه من الأنبياء والمرسلين، كقوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ونحوهما من الآيات، فليس المراد بالضلال ضد الهدىٰ، لأن الأنبياء معصومون عن مثل ذلك، وقد أنشد الشيخ محيي الدين بن العربي في ذلك:

عجبت لمعصوم يقال لـه اتبع ولا تبتدع واحكم بما أنـزل الله

وكيف يرىٰ المعصوم يحكم بالهوىٰ

إلىٰ آخر ما قال[٢]. ويحتمل أن الله تعالىٰ خاطبه بذلك والمراد به غيره علىٰ جاري عوائده تعالىٰ مع أصفيائه، بجعلهم يتحملون صولة الخطاب والشدائد عن قومهم في الدنيا والآخرة.

(٤٢) ومما أجبتُ به عنه في نحو حديث: «كانت خطيئة أخي داود عليه الصلاة والسلام النظر»[٣]: بأن المراد بالنظر هنا أنه عليه الصلاة والسلام رفع رأسه إلىٰ السماء

---

(١) أي عن الاجتهاد.

(٢) «الفتوحات» الباب (٣٤٦).

(٣)عزاه السيوطي في الجامع الكبيرللديلمي (١٦٥٧٤)، وقال ابن عراق الكتاني في تنزيه الشريعة المرفوعة (٢/ ٢١٦): قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط لا أصل له وقال الزركشي في تخريج أحاديث الرافعي هذا حديث منكر فيه ضعفاء ومجاهيل وانقطاع.

مرةً وهو غافل عن الاعتبار بذلك، لا أنه نظر إلىٰ امرأة أو رآها كما أشاعه اليهود لعنهم الله تعالىٰ، لأن الأولياء إذا كان أحدهم يُؤاخَذ بكلِّ حركة أو سكون لا حضور له مع الله تعالىٰ فيهما، فكيف بكُمَّل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؟! وقد كان أحمد بن رُزَيْن ﷺ يقول: من رفع بصرَه إلىٰ شيء بغير قصد الاعتبار، كُتِبَت له خطيئة. انتهىٰ. ورفع الإمام عمر بن عبد العزيز[1] ليلة بصره إلىٰ السماء، فحصل عنده قساوة في قلبه، فذكر ذلك لوالدته، فقالت: لعلك يا ولدي نظرتَ إلىٰ السماء علىٰ غير وجه الاعتبار وأنت غافل عن الحضور مع خالقها عزَّ وجلَّ. فقال لها: نعم. فقالت: يا ولدي، إن الله تعالىٰ إذا اعتنىٰ بعبده المؤمن، أخذه بكلِّ حركة أو سكون لم يقعا عن حضور مع الله واعتبار. انتهىٰ.

وكان سيدي علي الخواص ﵀ يقول: قد أطلق رسول الله ﷺ في الحديث خطيئة النظر، فيجب حملُها علىٰ ما يليق بمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يجوز حملُها علىٰ ما يليق بمقام غيرهم. وإننا لما رأينا الحقَّ جلَّ وعلا يُؤاخِذ أولياءه برفع بصرهم إلىٰ شيء علىٰ غير وجه الاعتبار والحضور معه، حملنا من باب أولىٰ الأنبياء علىٰ نحو ذلك.

ويؤيده ما ورد أن داود عليه الصلاة والسلام لم يرفع طَرْفه إلىٰ السماء بعد أن عوتب علىٰ النظر حتىٰ خرج من الدنيا، وكان إذا رفع رأسه إلىٰ السماء في دعاء يصير في غاية الحياء من حيثُ هي قبلة الدعاء. ومعلوم أن غض الطرْف من العبيد بين يدي ربهم مطلوب، وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا يتحيز، لكن الشرع قد تبع العرف في كثير من الأحكام، فمنع العبد من الصلاة عاريًا في الظلام أو في خلوة، وجوَّز له الصلاة في ثوب وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا يحجبه شيء، فلما كان الثوب[2] يحجب بصر الخلق عن رؤية العورة، اكتفىٰ الحقُّ تعالىٰ من عباده بذلك بين يديه، فافهم. انتهىٰ.

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان، أمير المؤمنين أبو حفص الأموي ﷺ، الخليفة الصالح، والملك العادل، ولد بالمدينة سنة ٦٠هـ، بعثه أبوه من مصر إلىٰ المدينة ليتأدب بها، فكان يختلف إلىٰ عبد الله بن عبيد الله يسمع منه. توفي: ١٠١هـ. فوات الوفيات (٣/ ١٣٣) والأعلام (٥/ ٥٠).

(٢) بالأصلين: القرب، خطأ من الناسخ، والصواب ما أثبتناه.

وكان الشيخ محيي الدين ابن العربي رحمه الله يقول: لم يبلغنا في حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف تعيين الخطيئة، ولا أنها نظره عليه الصلاة والسلام إلىٰ امرأة أو رآها حين اغتسلت فوق سطح لها، وأنها لما شعرت بظلِّه وهو في سطح له، هزت رأسها فتجللت بشعرها، كله من تحريف اليهود بعض نسخ الزبور؛ فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من النظر إلىٰ ما لا يحل لهم، فكان قصد اليهود بذلك استحلال أعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وكانوا قد عادوا داود عليه الصلاة والسلام لما أخبرهم بصفة محمد ﷺ في ثلاثة مواضع من الزبور، وأنه ينسخ بكتابه جميع الكتب التي قبله. وأطال في ذلك.

ثم قال: فعُلِمَ أنه لا يجوز لواعظ أن يتكلم بخطيئة آدم ولا داود ولا قصة يوسف بحسب ما يتبادر إلىٰ الأذهان علىٰ رؤوس الأشهاد، فإن ذلك يفتح باب انتهاك حرمة الأنبياء، والاستهانة بحقوقهم، وتجرؤ العوام علىٰ الوقوع في المعاصي، والنظر إلىٰ ما لا يحل، ويقولون ولو في نفوسهم: إذا كان الأنبياء وقعوا قبلنا، فأيش قدْرُنا نحن حتىٰ نقدر علىٰ منع نفوسنا عن النظر إلىٰ الأجانب؟!

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: لو كانت خطيئة داود عليه الصلاة والسلام النظر إلىٰ امرأة أو رياء، لبلغنا ذلك عن علماء السلف رضي الله عنهم، فلم يبلغنا ذلك عن أحد من الصحابة والتابعين وتابع التابعين والأئمة المجتهدين، وإنما حدث ذلك بعدهم.

قال: والعجب كلُّ العجب ممن ذكر مثل ذلك في تفسير القرآن، وصار من بعده يقولون: هكذا رأيناه في التفسير لفلان، وقد قالوا: لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه، ولا نقل زلات العلماء التي خرجوا بها عن الصراط المستقيم. انتهىٰ.

فإن قال قائل: فإذا كانت خطيئة داود عليه الصلاة والسلام إنما هي رفع بصره إلىٰ السماء غافلًا، فكيف بكىٰ حتىٰ نبت العشب من دموعه؟! فإن مثل ذلك لا يقتضي هذا البكاء العظيم؛ **فالجواب**: أن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجل عن استهانة شيء من الذنوب ولو صغُرت عند غيرهم، وربما تكون الطاعات التي يتقرب بها غيرهم إلىٰ الله تعالىٰ يستغفرون هم منها من حيثُ نقصُها وخطورُ الخواطر فيها، كما قالوا: حسنات

الأبرار سيئات المقربين، فكما يبكي الوليُّ علىٰ وقوعه في الزنا مثلًا السنة وأكثر، كذلك يبكي النبي علىٰ رفع بصره إلىٰ السماء غافلًا.

ثم يا ليت شعري أي ثمرة لمن يخوض في أعراض الأنبياء ويطلب تحقيق الذنوب والخطيئات في حقِّهم إثباتًا للنقائص في جهتهم؟! وأيش يضره إذا ترك الخوض في مثل ذلك؟! فإن الله تعالىٰ لا يسأله عنه يوم القيامة أبدًا، ولا كلَّفه بتحقيق النقائص في حقِّهم في دار الدنيا، وكيف يفتح للعامة باب الخوض في أعراض أكابر حضرته المطهَّرين من سائر الأدناس؟! وإذا كان الله تعالىٰ قد طهَّر أهل بيت النبوة من الأدناس بسابق العناية لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه، إكرامًا لرسول الله ﷺ، مع كونهم غير معصومين، فكيف بإخوانه من الأنبياء والمرسلين المعصومين؟! وإذا كان العلماء أجمعوا علىٰ وجوب الكف عما شجر بين الصحابة وتحريم الخوض فيه، فكيف بالأنبياء والمرسلين؟!

أما يخشىٰ هذا الخائض في أعراض الأنبياء من غضب الله تعالىٰ ومقته، أو أن تمسخ صورته صورة خنزير بسوء أدبه مع خاصته وصدور أهل حضرته؟! بل نقل الثقات أن شخصًا في زمن السلطان محمد بن قلاوون[1] كان يصلي خلف إمام، فلما طأطأ الإمام، مسح علىٰ عَجِيزَته من ورائه وسخر به، فمسخ الله صورته خنزيرًا، وخرج هاربًا إلىٰ البراري حتىٰ لحق بالخنازير. انتهىٰ. فإياك يا أخي ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣) ومما أجبتُ به عن السيد هارون عليه الصلاة والسلام في قوله لأخيه: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فإن بعضهم قال: مقام الأنبياء يجل عن أن يراعي أحدهم شماتة عدويه، فإن بعض الأولياء الذين هم أنقص مقامًا من الأنبياء بما لا يقارب يصل إلىٰ مقام لا يشهد فيه إلا الله، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟!

والجواب: أن من يراعي شماتة الأعداء أكمل في المقام ممن لا يراعي الخلق، فإن

---

(١) محمد بن قلاون بن عبد الله الصالحي الملك الناصر ابن المنصور. ولد في صفر سنة ٦٨٤هـ، وحج بعد استقراره في السلطنة ثلاث حجات وكان عظيم المكر طويل الصبر علىٰ ما يكره إذا حاول أمرًا لا يسرع فيه بل يحتاط غاية الاحتياط. توفي: ٧٤١هـ. انظر: البدر الطالع (٢/ ٢٣٦).

من كمال مقام العبد أن يشهد الحقَّ تعالىٰ والخلقَ معًا في آن واحد. وربما كان الجزء البشري الذي يتأثر من شماتة الأعداء يَدِق في الكُمَّل ولا ينقطع بالكلية، كما قاله بعض أهل الكشف، خلافًا لما عليه المحققون، وليس عند غيرهم من ذلك علم، غاية أمر الوليِّ الذي غاب عن شهود الخلق أنه لحقته دهشة من عظمة الحقِّ جلَّ وعلا، فاستولت عليه وأخذت مجامع قلبه، فلم يقدر علىٰ شهود غير الله مع الله، مع أن الغير ثابت موجود في حضرته، ولكن حُجِب هذا العبد عنه، كصاحب المصيبة بموت ولده العزيز يصير يدخل البيت ويخرج وهو آخذ في جهازه، ثم يقول: أين صاحبنا فلان؟! اليوم ما رأيناه! فيقول الناس له: إنه جالس علىٰ بابكم من بكرة النهار. فيقول: والله من شدة الهم ما رأيناه! مع أن حاسة بصره صحيحة وهو يراه، لكن لم يشتغل به، فكأنه مفقود، فتأمل ذلك.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين في «الفتوحات المكية» أنه اجتمع في بعض الوقائع بالسيد هارون عليه الصلاة والسلام، قال: فقلتُ له: يا نبي الله، إنك قلتَ لأخيك: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾[الأعراف: ١٥٠]، ومن الأعداء في حضرتكم حتىٰ تشهدوها؟! والواحد منا يصل إلىٰ مقام لا يرىٰ إلا الله، ونحن لا نصلح تلامذة لكم! فقال: صحيح ما قلتَ، ولكن هل زال العالم في نفس الأمر كما هو في شهودكم أم العالم ثابت وحُجِبتُم أنتم عن شهوده؟! فقال: هو ثابت وحُجِبنا نحن عن شهوده، فقال: فقد نقص أحدُكم من العلم بالله تعالىٰ عند شهوده بقدر ما حُجِب عنكم من شهود العالم، فإن العالم كله آيات الله ودلائله. انتهىٰ. قال الشيخ محيي الدين: فقبلتُ رجلَه، وشكرتُ فضلَه علىٰ كونه أطلعني علىٰ ما لم يخطر علىٰ بال، وعلمنا أن مقامات الأنبياء لا ينالها غيرهم[1]. فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(٤٤) ومما أجبتُ به عن السيد أيوب عليه الصلاة والسلام في قوله لربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، كيف سأل الإقالة من المرض ولم يصبر وهو نبي مرسل؟! وبعض أولياء هذه الأمة يقول في مرضه: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني؛ فإذا كان هذا عزم وليٍّ، فالأنبياء أولىٰ بقوة العزم.

(١) «الفتوحات» الباب (٣٦٧).

والجواب: أن يقال: إن قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] أكمل من مقام تجلده وتصبره السابق له، لأن العبد كلما ترقىٰ في مراتب الكمال والتقريب من حضرة الله عزَّ وجلَّ كلما ضعفت نفسُه وجسدُه من شدَّة هيبة الله تعالىٰ، حتىٰ يصير يتألم من قرصة برغوث، وربما عجز عن حمل قميصه، كما يعرف ذلك أهل الله عزَّ وجلَّ، بخلاف من بعُد من حضرة الله تعالىٰ من العيَّاق والمجرمين، فإنه يكون كالفراعنة، وربما ضُرِب المقارع والكسَّارات، وقُطِّع لحمُه وسُلِخ جلده ولم يقل آه! وتأمل يا أخي إذا ضُرِب أحد في بيت الوالي ولم يتأوه كيف يقولون الحاضرون له: ويلك! قل: أنا في حسب الله، أو في حسب النبي! فلا يقول ذلك، فيقولون له: أنت حديد! بخلاف العالم أو الصالح إذا ضربوه يصيح من أول ضربة.

فكان من جملة اعتناء الحقِّ تعالىٰ بأيوب عليه الصلاة والسلام أنه حبسه في مقام التجلد والتصبر، حتىٰ كانت الدودة تقع منه فيردها إلىٰ مكانها، لينيله بذلك أجر الصابرين.

ثم إنه نقله من ذلك المقام [إلىٰ][1] الرضا حتىٰ صار يتلذذ بالبلاء ويكره مفارقته، لينيله بذلك أجر الراضين. ثم إنه تعالىٰ ردَّه بعد ذلك إلىٰ مقام التألم بالمرض، لكن مع الصبر والرضا دون التلذذ من غير مقاومة للقهر الإلهيّ، لينيله الأجر من وجوه عديدة، فإن الكامل يكنىٰ «أبا العيون» فعين يحِس بها التألم، وعين يحِس بها التلذذ، وعين يدفع بها عن نفسه ما يؤذيها، كالتضرع والدعاء وسؤال الإقالة، وعين يسأل بها ربَّه في دوام البلاء، وأنه لا يختار خلاف ما اختار له سيِّدُه، كما هو مقرر بين الصادقين من القوم.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من ابتلاه الله تعالىٰ بمرض ولم يسأل الإقالة منه، فهو ممن يطلب مقاومة القهر الإلهيِّ، [وليس ذلك من أوصاف كمَّل العبيد، ولو رق حجابه لكان سأل الإقالة من أول ما نزل به المرض. وقد أجمع العارفون علىٰ أن شدة الصبر علىٰ الألم من شدة قوة النفس وكِبْرها، فهي تظهر القوة وتقاوم بها القهر الإلهي][2]

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

فلا تسأل الإقالة إلا إذا نزل عليها البلاء فوق طاقتها، فترجع ذليلةً صاغرةً قهرًا عليها، وتلقي سلاحها وإن مَنَّ الله تعالىٰ عليها برقة الحجاب، رجعت ذليلة خاضعة مختارة. وقد سُئل العارف بالله تعالىٰ محمد بن علي الحكيم الترمذي ﵁ عن صفة الخلق، فقال: ضعف ظاهر ودعوىٰ عريضة. انتهىٰ.

فعُلم أن تصبُّر العبد وصبره علىٰ البلاء أكملُ من مقام العوام الذين لا صبر عندهم، وأنقصُ من مقام الراضين بالبلاء المتلذذين به، كما أن مقام الراضين المتألمين بالبلاء أكمل من مقام المتلذذين به، لإعطائهم كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فإن الله تعالىٰ ما ابتلىٰ عبده إلا ليتألم بالبلاء، ويصبر مع الرضا به. فإن رضي به من غير إحساسه بالألم، فقد خرج عن كونه بلاء وصار نعمة، والواجب علىٰ صاحب النعمة الشكر لا الصبر، فكان من كمال أيوب عليه الصلاة والسلام أن قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] كهيئة الشافع عند ربه في ذلك الجزء الذي لا يقدر علىٰ الصبر علىٰ الألم، فضلًا عن الرضا به، فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(٤٥) ومما أجبتُ به عنه أيضًا عليه الصلاة والسلام في حثوه الذهب في حجره لما أمطرت السماء جرادًا من ذهب، قال بعضهم: كيف يقع من نبي مرسل أنه يحثو الذهب في حجره الذي هو دنيا، ومعلوم أن ذلك ينافي الزهد فيها، والأنبياء معصومون عن الرغبة في الدنيا، كما أن الأولياء محفوظون من ذلك، بل من شرط الوليِّ إذا رأىٰ الذهب انقبض خاطره منه، فكيف بالنبي؟!

والجواب: أن من كمال العبودية إظهارَ الفاقة والحاجة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ بقرينة قوله في الحديث: «إن الحقَّ تعالىٰ قال له لما حثا الذهب في حجره: يا أيوب، ألم أكن أغنيتُك عن مثل هذا؟! قال: بلىٰ يا رب، ولكن لا غنىٰ لي عن بركتك»[1]. انتهىٰ. فأقرَّه الحقُّ تعالىٰ علىٰ أخذه ذلك الذهب، مع كونه لم يكن شديد الحاجة إليه بحكم العادة، لكونه كان من أوسع الناس مالًا، ولو أنه كان فقيرًا لما توجه إليه عتب من الحقِّ تعالىٰ في ذلك، فكان حثو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩١) والنسائي (٤٠٩).

السيد أيوب عليه الصلاة والسلام الذهب في ثوبه إظهارًا للحاجة والفاقة إلىٰ فضل ربِّه عزَّ وجلَّ أكمل ممن قنع باليسير من الدنيا، فإن هذا يظهِر قلة الحاجة إلىٰ فضل ربِّه.

وما رد الأكابر الدنيا حين عُرِضَتْ عليهم إلا خوفًا علىٰ قومهم لا علىٰ أنفسهم، فربما اقتدىٰ بهم قومهم في أخذ الدنيا مع حجابهم عن مذهبهم، فيهلكون ولا يعرف أحدهم يتخلص عن محبتها. وقد عرض جبريل بإذن الله عزَّ وجلَّ علىٰ محمد ﷺ أن يجعل له جبال مكة ذهبًا تسير معه حيث سار[1]، فردها ﷺ احتياطًا لأمته وشفقة عليهم، وإلا فاعتقادنا الجازم في حقِّه ﷺ أنه لا يشغله عن الله تعالىٰ شاغل من الكونين.

ويحتمل أن يكون حثو أيوب عليه الصلاة والسلام من الذهب إنما كان علىٰ وجه التبرك به، من حيثُ إنه حديث عهد بتكوين ربه عزَّ وجلَّ كما قال ﷺ في المطر إذا نزل[2].

فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل أيوب عليه الصلاة والسلام علىٰ أنه إنما حثا من الذهب محبةً في الدنيا، فإن ذلك محال في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم. وإذا كان المريد لا يثبت له قدم في طريق القوم إلا حتىٰ يتنزه عن الميل إلىٰ الدنيا وشهواتها، ويتساوىٰ عنده الذهب والتراب علىٰ حد سواء، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟!

وكان سيدي علي المرصفي ﷺ يقول: للمريد في محبة الدنيا ثلاثة أحوال: أن يحبها ويحب جمعها عنده بحكم الطبع، ولا ينفقها في مرضات الله تعالىٰ، وهذا مذموم شرعًا. **الثاني:** أن يخرج حبها من قلبه، ولا يصير له ميل إليها، ويتساوىٰ عنده الذهب والتراب علىٰ حدٍّ سواء، وهذا أكمل من الحال الذي قبله. **الثالث:** أن يحب الدنيا بتحبيب الله عزَّ

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن (٢٣٤٧) من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا. قلت: لا يا رب ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا - أو قال ثلاثًا أو نحو هذا - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك» وأحمد (٢٢١٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩٨) من حديث أنس قال: قال أنس: «أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر. قال: فحسر رسول الله ﷺ ثوبه، حتىٰ أصابه من المطر. فقلنا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ قال: لأنه حديث عهد بربه تعالىٰ» وأبو داود (٥١٠٠).

وجلَّ لا بحكم الطبع، فيجمعها ويكُف بها نفسه وعياله عن السؤال للناس، وينفق ما زاد عن حاجته في سبيل الله تعالىٰ أولًا فأولًا، بحيث لا يبيت علىٰ دينار ولا درهم إلا لغرضٍ شرعيٍّ، كأن يوفي به دينه، أو ينتظر محتاجًا يدفعه إليه ونحو ذلك، وهذا أكمل من الحالين قبله، لما فيه من الأدب مع الله تعالىٰ من حيثُ إنه جعل حوائج الناس لا تُقضَىٰ في هذه الدار إلا بالذهب والفضة، وغيرهما إنما هو بحكم التبع لهما، فمن لم يرفع قدْر الذهب والفضة علىٰ التراب في الميل إليهما، فقد أخطأ الحكمة الإلهية.

وإيضاح ذلك كما قاله الشيخ محيي الدين في «الفتوحات»: إن الأكابر ما تاجروا أو باعوا واشتروا في الدنيا إلا لغرض صحيح شرعيٍّ، وذلك أنه تعالىٰ ما خاطب بقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] إلا أصحاب الأموال، فمن لا مال له من الزهَّاد، فقد حُرِم لذَّة هذا الخطاب، فلذلك سارع الأكابر من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلىٰ التجارة بعد كمالهم، ليفوزوا بلذَّة ذلك الخطاب، وبمجالسة الله عزَّ وجلَّ في أمره لهم بالصدقة والإنفاق في سبيل الله عزَّ وجلَّ[1]. وتأدية الأمور بالأصالة إلا إذا كانت تحجب القلب عن مشاهدة ربه عزَّ وجلَّ . وأما إذا لم تحجب القلب فهي كمال في ا لعبد، كالتزويج فإنه أفضل من العزوبة. ومن قال من العارفين: إن فراغ يد العبد من الدنيا أفضل من أخذها وإنفاقها؛ فإنما ذلك خوفًا علىٰ الأتباع كما مرت الإشارة إليه في ردِّ نبينا محمد ﷺ جبال الذهب والفضة، فإنه إنما ردَّ ذلك خوفًا علىٰ أمته أن يتبعوه في جمع الدنيا، فتتشرب قلوبُهم حبَّها، فلا يقدرون علىٰ الخروج منها، فافهم، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن تعاطي شيء يحجبهم عن مشاهدة ربهم، فلو علم أيوب عليه الصلاة والسلام أن ما حثاه في ثوبه من الذهب يحجبه عن ربه عزَّ وجلَّ ما أخذه، كما سيأتي بسطه في مبحث الجواب عن سليمان عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[ص: ٣٥].

---

(١) «الفتوحات» الباب (٥٦٠).

[توجيه حثو العباس المال في حجره ونظر النبي إليه شزرًا]

ونظير ما وقع من حثو أيوب عليه الصلاة والسلام الذهب في حجره ما ورد «أن رسول الله ﷺ قسَّم مرةً ذهبًا، فقال لعمه العباس: يا عم خذ لك من هذا الذهب ما شئت. فحثا في ردائه شيئًا لا يستطيع حمله، فصار يعالج نفسه في حمله فلا يقدر علىٰ ذلك، فصار النبي ﷺ ينظر إلىٰ العباس شزرًا»[1] الحديث، فإن الواجب حمل العبَّاس رضي الله عنه علىٰ أنه إنما فعل ذلك إظهارًا لكثرة الفاقة والحاجة إلىٰ فضل الله تعالىٰ، لا محبة في الدنيا من حيثُ هي، ولا يجوز حمل العبَّاس علىٰ الوجه المذموم، لأنه من كبار الصحابة الذين هم أعلىٰ مقامًا من سائر الأولياء. فافهم.

فإن قال قائل: فما تقولون في قوله تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؟ **فالجواب كما قاله الشيخ أبو الحسن الشاذلي:** إن معنىٰ الآية ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي للآخرة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ، فالكامل يحب الدنيا لينفقها في مرضات الله عزَّ وجلَّ، ويحب الآخرة لكونها دارًا يشاهدون ربهم فيها. هذا مطلوب الأكابر، وأما الأكل والشرب والجماع وغيرها، فليس ذلك مطلوبهم. انتهىٰ.

وأما نظره ﷺ للعباس رضي الله عنه شزرًا، فإنما ذلك تقبيح للدنيا في أعين المحجوبين من الأعراب الحاضرين، أو ليُنقَل ذلك عنه ﷺ لمن بعده من أمته حتىٰ لا يأخذوا من الدنيا إلا قدْر حاجتهم، ويدَعوا الباقي للفقراء والمساكين مثلًا، فافهم، فهو ﷺ راضٍ عن العباس في أخذه ذلك الذهب الكثير، لأن ذلك لا يشغل مثلَ العباس رضي الله عنه عن ربه عزَّ وجلَّ، حتىٰ لو قُدِّر أنه لم يكن هناك إلا أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لكان يُظهِر للعباس السرورَ بفعله لمعرفتهما بمشاهدة الأكابر، بخلاف الأعراب. انتهىٰ.

[وجوب استثناء الأنبياء عليهم السلام مما ورد بنقصان بني آدم]

قلت: ومما يجب استثناءُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قوله تعالىٰ فيما نُسِخَت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢١)، والبيهقي في «السنن» (١٣٠٢٨).

تلاوتُه: «لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغىٰ ثالثًا، ولو أن له ثالثًا لابتغىٰ رابعًا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله علىٰ من تاب»[1]، فإنه يجب حمل ابن آدم فيه علىٰ غير الأنبياء، وعلىٰ غير من حفظه الله من الأولياء، فإنه لا يصح في حقِّهم طلبُ الزيادة من الدنيا إلا بتأويل كما مر بيانه قريبًا، بأن يريدها للإنفاق في سبيل الله مثلًا، فإن الإجماع قد انعقد علىٰ زهد الأنبياء في الدنيا، فكيف يبتغي أحدهم الزيادة من الدنيا لغير مرضاة الله عزَّ وجلَّ؟! وإيضاح ذلك أن الأَدَم في اللغة المشتق منه اسم «آدم» عليه الصلاة والسلام هو ظاهر الجلد، ومن لازمه غالبًا السمرة، فكأنه تعالىٰ يقول: لو أن لبني آدم الراغبين في الدنيا، القاصرين نظرهم علىٰ شهود زهرتها ونعيمها دون الآخرة واديين من ذهب، لابتغوا ثالثًا إلىٰ آخره. أما من خرق ظاهر الجلد ودخل إلىٰ الباطن من أبناء الآخرة، فلا يبتغي زيادة من الدنيا إلا إن رأىٰ مرضاة الحقِّ فيها لرفع حجابه.

وقد خرج السيد إبراهيم بن أدهم وأضرابه من الدنيا اختيارًا، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟! فكلام الله تعالىٰ في غاية البلاغة والتحقيق، وما من عام إلا وهو يقبل التخصيص، إلا إن أجمع العلماء علىٰ عدم تخصيصه وعدم إخراجه عن عمومه، فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والله أعلم.

(٤٦) ومما أجبتُ به عن السيد سليمان عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، قال بعضهم: كيف صح من نبي مرسل طلبُ ملك لا ينبغي لأحد من بعده؟! ومعلوم أن العبد لا يملك مع سيِّده شيئًا، فهو يأكل ويشرب ويلبس من مال سيِّده، وليس له ملك لشيء من ذلك في الدارين، وكيف يصح له طلب التحجير علىٰ الحقِّ جلَّ وعلا بأنه لا يعطي ذلك المُلْك لأحد من بعده؟! ومن لازم مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الزهدُ في الدنيا، وهذا السؤال ما هو لسان الزاهدين، فكيف الحال؟

والجواب: أنه لا يلزم من طلبه المذكور شيء مما ذكره المعترض لا ملك ولا تحجير

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٨).

ولا محبة للدنيا؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من مثل ذلك. وسداهم ولحمتهم أدب مع الله تعالىٰ، ومعرفة أسمائه وصفاته، فلا يقعون في شيء يناقض العصمة.

وإيضاح ذلك أنه ثم مقام في النبوة يقتضي طلب هذا المُلك، كما أنه ثم مقام في النبوة يطلب من العبد أن يطلب رؤية الباري جلَّ وعلَّا في هذه الدار، ليرتِّب الله تعالىٰ بسبب ذلك الأسباب علىٰ مسبَّباتها، فمنهم من يُمنَع ويدخر الله تعالىٰ له أفضل مما طلب.

وربما أطلع الله تعالىٰ سليمان عليه الصلاة والسلام من طريق كشفه علىٰ أن جميع ما طلبه قد قسمه الله تعالىٰ له، فلا يصح أن يكون لأحد بعده، فطلب ذلك من باب إظهار الفاقة والحاجة إلىٰ فضل الله تعالىٰ الذي تفضل به عليه، وعيَّنه له، ولم يجعله لأحد بعده.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إنما طلب السيد سليمان عليه الصلاة والسلام الملك إظهارًا لكثرة الحاجة والفاقة، كأنه عليه الصلاة والسلام يقول: أنا محتاج إليك يا رب بحيث تَعُمُّ حاجتي كلَّ ما طلبتُ من الملك. ومعلوم أنه كلما عظُمت حاجة العبد وفاقته إلىٰ الله تعالىٰ، كلما كثُر شكره. وإذا كثر شكره، ازداد مقامه عند الله رفعة وتقريبًا من حضرته تعالىٰ، فما ازداد عليه الصلاة والسلام بسؤاله المُلْك إلا فقرًا إلىٰ ربِّه، وذلك مطلوب الأكابر، إذ من المحال أن يسأل نبي مرسلٌ من ربه عزَّ وجلَّ ما يزداد به حجابًا عنه، وينقص به مقامه، فإنه سَفَهٌ يجب تنزيهُ الأنبياء عنه.

وسمعتُ سيدي محمد المُنيِّر ﷺ يقول: إنما طلب سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[ص: ٣٥] ليصح له الزهد فيه علىٰ الكشف والمعاينة من حيث إن ذلك أفضل ممن يزهد في الدنيا بحكم الفرض والتقدير.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ما طلب أحد من الأكابر من ربه كثرة الرزق إلا إظهارًا للفاقة والحاجة، أو لينفق منه علىٰ الفقراء والمساكين ويزداد به شكرًا، وكأنه يقول: يا ربِّ، أوسع عليَّ الرزق، لازداد لك به شكرًا، فإني محتاج إلىٰ جميع ما في الوجود، ولك الشكر علىٰ كلِّ ذرة في الوجود. انتهىٰ.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﷺ يقول: كلام السيِّد سليمان عليه الصلاة والسلام في

غاية الأدب والصدق، لأنه نكَّر قولَه ﴿مُلْكًا﴾ فلم يخص شيئًا في طلبه، وقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥] أي لأن ما تعطيه يا رب لعبد ما هو عين ما تعطيه لعبد آخر، أي لأنه لابد في ذلك من زيادة أو نقص، ولو في كبر الجِرْم وصغره، وطول عمره وقصره، حتىٰ لو سقطت ورقة من شجرة أو شعرة من جسد مملوك له، خرج عن المثلية، إذ المثلية في الوجود منقولة غير معقولة، ولو كانت المثلية معقولة ما تميز شيء في الوجود عن شيء، ولكان عين عمر عين زيد. انتهىٰ.

وكان سيدي علي المرصفي ﷺ يقول: ما قال سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[ص: ٣٥] إلا بعد أن كُشِفَ له أن تسخير الريح والشياطين لا يقع لأحد من الأنبياء بعده، فما سأله إلا عن أمر محقق يكون له دون غيره من باب الفضل والمنة، إذ الأنبياء لا تجهل أن أحدًا لا يملك مع الله شيئًا في الدارين. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عبد القادر الدشطوطي ﷺ يقول: لا فرق بين قول سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾[ص: ٣٥]، وبين قوله: يا ربِّ، أعطني رغيفًا؛ فإن الدنيا كلَّها لا تزن عند الله جناح بعوضة، وإن وقع أن أحدًا من الأولياء عظَّمها، فإنما ذلك من حيثُ كونُها نعمة عليه من الله عزَّ وجلَّ، وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام: يا موسىٰ، إذا جاءتك باقلاية مسوَّسة، فخذها بالتعظيم واشكرني عليها، فإني أنا مهديها إليك. انتهىٰ.

وبلغنا أن النملة التي كلمت سليمان قالت له: وما ذلك الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك؟! فقال: الخاتم. فقالت: أفٍ لملك يحويه خاتم. انتهىٰ.

فعُلِمَ من جميع ما قررناه أنه لا يجوز نسبة السيد سليمان إلىٰ حبِّ الدنيا والملك لذاتهما، لأن الأنبياء معصومون عن محبة ما يحجبهم عن ربهم عزَّ وجلَّ. ومن شأن الكُمَّل أن أحدهم كلما ازداد رزقًا، كلما ازداد فاقة وفقرًا إلىٰ ربه عزَّ وجلَّ، ومثل ذلك محمود شرعًا.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ٧] فلا ينافي ما ذكرناه،

لأن الكامل لم يرَ نفسه استغنىٰ إذا وسَّع الله عليه الدنيا، بل يزداد فقرًا وحاجة إليه، وفي ذلك كماله، والله أعلم.

(٤٧) ومما أجبتُ به عنه أيضًا في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [ص: ٣٢ - ٣٣] فَهِمَ بعضُهم أنه عليه الصلاة والسلام اشتغل بالخيل حين عُرِضَت عليه عن صلاة العصر حتىٰ توارت الشمس بالحجاب -أي غربت- فقال: ردُّوا الخيل عليَّ. فلما ردوها عليه، قطع أعناقها وسوقها، لكونها شغلته عن صلاته، فقال من لا يعرف مقام السيد سليمان: كيف شغلته الخيل عن صلاته مع أنه نبي مرسل، والوليُّ من هذه الأمة لو كان الوجود كلُّه في يده ما شغله عن ربه؟! وكيف ساغ له إتلاف الخيل، مع أنها لا قصد لها في اشتغاله بها عن ربه؟! وكيف وقع في إتلاف المال وذلك معدود من السَّفَه؟! ومعلوم أن الأنبياء منزهون عن مثل ذلك.

والجواب: أن السيد سليمان عما فهمه هذا الشخص بمعزل، فإن المراد بقوله: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢] أي أحببت الخيل حين ذكرتني بربي، فإنها من نعمه الجديدة التي وردت عليَّ، فأحببتها من حيثُ كونُها مذكِّرةً لفضل ربي عليَّ لا لذاتها، فلما توارت عن سليمان بالجدار، قال: ردُّوها عليَّ ثانيًا، لازداد بها ذكرًا لنعمة الله، وشكرًا له علىٰ المشاهدة العينية -بالعين المهملة- دون الغيبية -بالمعجمة- فلما ردُّوها عليه، طفق يتمسح بأعناقها وسوقها، أي يمسحها بيده ويمسح بها جسده علىٰ وجه التبرك بها، فافهم. وهذا نظير اغتسال نبينا محمد ﷺ من ماء المطر حين نزل، وقال: «إنه حديث عهد بربه»[1] أي بتكوينه وإنزاله. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من عادة العبيد مع سيِّدهم إذا أنعم عليهم بنعمة أن يتمسحوا بها تبركًا وإجلالًا لنعمة ربهم، فسقط بذلك قول من قال: إن إتلاف الخيل سفه لا يليق بالعقلاء، فكيف وقع فيه نبي مرسل؟!

ولم يحتج من حمل سليمان علىٰ أنه مسحها تبركًا إلىٰ قوله: إن ذلك من باب تعارض

---

(١) تقدم تخريجه.

مفسدتين، وأن سليمان ارتكب أخفهما وهو إتلاف الدنيا لمصلحة الآخرة، فإن حمل السيد سليمان على مثل ذلك لا يليق بمقامه، لأنه مقام دنيٌّ بالنسبة لمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإذا كان الوليُّ لا يشغله شيء من الكونين عن الله تعالىٰ، فكيف يشغل الأنبياء؟! هذا أبعد البعيد!

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الجواب عن أحد من الأنبياء وأنت غير وارث لمقامهم، فإن خطأك أكثر من إصابتك. وإن كنت ولابدَّ مجيبًا عنهم، فاسلك طريق القوم علىٰ يد شيخ صادق، لتصير تشم روائح مقامات الأنبياء بحكم الإرث للأولياء، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨) ومما أجبتُ به عن السيد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] **كيف ساغ له أن يعبر بالنفس في جناب الحقِّ مع أنه نبي مرسل، ويصف الله تعالىٰ بما لم يطلقه علىٰ نفسه؟**

والجواب: أنه يُحتمَل أنه ورد عليه من الله وحي بذلك، أو يكون مراده إضافة خلق نفسه إلىٰ الله تعالىٰ في الشقين، وإلىٰ نفسه من حيثُ النسبةُ فقط، أي تعلم ما في نفسي التي هي لك بحكم الخلق والملك، ولا أعلم ما في نفسك التي هي ملكك ونفختها في جسدي، فافهم.

(٤٩) ومما أجبتُ به عن سيِّدنا ومولانا محمد سيِّد الأولين والآخرين في قوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] **فَهِم قوم من ذلك أنه عتاب له ﷺ، وقالوا: العفو لا يكون إلا عن ذنب.**

والجواب: أن هذه الآية بشرىٰ خاصة ليس فيها عتاب، وإنما ذلك استفهام لمن أنصف وأعطىٰ نبي الله حقَّه.

وقد سُئل عن ذلك الشيخ محيي الدين، فقال: هو سؤال استفهام عن العلة لا سؤال توبيخ، لأن العفو قد تقدَّمه. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾ [التوبة: ٤٣] مثل قوله تعالىٰ لعيسىٰ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، كأنه تعالىٰ يقول لمحمد ﷺ: أفعلت ذلك ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [التوبة: ٤٣]؟! فإما أن

يقول عند ذلك: نعم أو لا، فإن العفو والتوبيخ لا يجتمعان، لاسيما وقد تقدم العفو في الذكر، فإن من وبَّخ فما عفا، لأن التوبيخ مؤاخذة بلا شك، وهو تعالىٰ قد عفا عنه. ثم لما كان هذا اللفظ يفهم منه في اللسان التوبيخ، جاء لأجل ذلك بالعفو ابتداءً، لينبه العارف بمواقع الخطاب أنه تعالىٰ ما أراد التوبيخ الذي ظنه من لا علم له بالحقائق[1]. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠) ومما أجبتُ به عنه ﷺ أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس: ١-٢] إلىٰ آخر النسق: اعلم يا أخي أن الله تعالىٰ يغار لعبده المنكسر القلب أكثر مما يغار لجنابه الإلهيّ، فإذا حضر عندك مِلِك مطاع نافذ الأمر زائرًا، ثم جاءك فقير ذليل زائرًا، فأقبل علىٰ الفقير أكثر من الملك، إلا إن كنت ممن تخاف سطوته، فإنك حينئذ لم تصل لذلك المقام، ولا تُعرِض عن الفقير حتىٰ يفرغ من حاجته التي جاءك لأجلها، وذلك لأن تجلي الحقِّ تعالىٰ في الحضور مع ذلك الفقير أعظمُ من تجليه في الحضور مع ذلك السلطان الذي صورته صورة المنازع لله تعالىٰ في الكبرياء والعظمة، «ومن نازع الحقَّ تعالىٰ فيهما قصمه»[2] كما قال تعالىٰ في الحديث القدسي، فإن تجلي الحقِّ تعالىٰ عند المِلك المطاع في هذه الدار خفيٌّ جدًّا، لأنه تجلٍّ في غير موطنه اللائق به، لما فيه من التقييد الذي لا يليق بجناب الله تعالىٰ، وما عاتب الله تعالىٰ نبيه ﷺ بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] إلىٰ آخره إلا لكون ذلك الأعمىٰ فقيرًا منكسر القلب، فغار تعالىٰ لمقام العبودية والفقر أن ينهضم لأجل صفة عزٍّ أو قهرٍ وُجِدَت في غير محلها، فانظر غيرةَ الله تعالىٰ لعبده الفقير المنكسر! وفي ذلك شرف لرسول الله ﷺ، لاعتناء الحقِّ تعالىٰ بتربيته، وإن كان مشهده ﷺ تعظيم صفات الله تعالىٰ حيث ظهرت، إذ الكُمَّل من أهل الله تعالىٰ من أدبهم أن يقوموا بواجب الأدب من الإجلال والتعظيم لنعوت الله عزَّ وجلَّ

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (٥٥٨) «حضرة البصر».

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة قالا: «قال رسول الله ﷺ: العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته» وأبو داود (٤٠٩٠).

حيث ظهرت، وإن وقع أن أحدًا منهم عُوتِب في ذلك، فإنما ذلك العتاب خاص بحال دون حال، فلا يطرد.

ثم إن عوتب ثانيًا في ذلك الحال كان كالأول. وإيضاح ذلك أن الله تعالىٰ ما عاتب نبيه ﷺ في إقباله علىٰ الأغنياء إلا في حال حضور الفقراء معهم، ولو أن الغني جاء وحده، لكان من الأدب معه الإقبال عليه، كما أشار إليه حديث: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[1].

[دقيقة: الكامل يرى فقر الملوك أكثر من فقر الفقراء]

وهنا دقيقة، وهو أن الكامل ينظر فقر الملوك إلىٰ الله وإلىٰ الدنيا أكثَرَ من فقر عموم الفقراء من حيثُ احتياجُ الملِك إلىٰ كثرة الثياب والخدم والطعام والنفقة علىٰ الجند، فإذا نظر الكامل إلىٰ الملِك، وجده أشدَّ فقرًا، فكان أولىٰ بالإقبال عليه. وأيضًا فإن الملك ما زار الفقير حتىٰ خلع كبرياءه وعظمته قبل أن يدخل، فما لقي الفقيرَ إلا وهو فقير، ولو أنه وقف مع رؤية كبريائه وعظمته ما زار الفقير، بل كان يرسل إليه إن احتاج إليه، فأنزل يا أخي الملك منزلته، تكن حكيم الزمان. فعُلِمَ أن باجتماع الأغنياء والفقراء حصل العتب لا بالانفراد.

[سبب تصديه ﷺ لأغنياء قريش]

وقد سُئل الشيخ محيي الدين عن قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥ - ٦]، فقال: اعلم أن الغنىٰ صفة ذاتية للحقِّ جلَّ وعلا، فإنه هو الغني الحميد، أي المستحق لأن يُثنَىٰ عليه بهذه الصفة. وكان مشهد رسول الله ﷺ حين عاتبه ربه إنما هو الصفة الإلهية التي هي الغنىٰ علىٰ الإطلاق، فلهذا تصدَّىٰ رسول الله ﷺ لأكابر قريش، لظهور هذه الصفة فيهم دون الفقراء، فإنها تعطي بذاتها الشرف والرفعة في ذلك الوقت الذي تصدَّىٰ فيه لهم، فكان قصده ﷺ بإقباله علىٰ الأغنياء إنما هو تعليم أمته أن يتصدوا لمن اتصف بصفة الغنىٰ من الخلق، لكونها من صفات الحقِّ تعالىٰ لا لعلة أخرىٰ. ثم إذا رسخوا في هذه المقام أُمِروا بالترقي إلىٰ عدم التخصيص من حيثُ إن صفات الحقِّ كلِّها

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٢) والبيهقي في «السنن» (١٦٦٨٦) والطبراني في «الصغير» (٧٩٣).

من جملة شعائر الله تعالىٰ، ويصير أحدهم يغار علىٰ هضم جناب المنكسرة قلوبهم أيضًا من حيث إن الله تعالىٰ أخبرنا أنه عندهم[1].

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إنما تصدَّىٰ رسول الله ﷺ لأغنياء قريش لأنه داعٍ إلىٰ الهدىٰ، فرأىٰ أن الناس كلَّها تبع للأغنياء والرؤساء، فإذا أسلم الغني أو الرئيس، أسلم بإسلامه خلق كثير. وكان له ﷺ علىٰ مثل هذا حرص عظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فكان في عتاب رسول الله ﷺ مع هذا المشهد تعليم لنا وتأديب، فإن الإنسان محل الغفلات، وهو فقير بالذات، وغناه عرضي، لأنه ما استغنىٰ إلا بغيره، كما يشهد لذلك التعبير بـ﴿اسْتَغْنَىٰ﴾ بسين الطلب، فلم يقل: «أما من هو غني» لأن العبد فقير علىٰ الحقيقة لما استغنىٰ به، فكان من مكارم أخلاق رسول الله ﷺ إقباله علىٰ الفقراء وإعراضه عن الأغنياء علىٰ ما قررناه آنفًا.

ولا يجوز حمل أحد من الأكابر فضلًا عن سيد المرسلين أنه يقبل علىٰ غني لأجل غناه، لأن الأنبياء لا يجوز في حقِّهم الطمع في مخلوق، وإنما يطلبون حاجتهم من الله، ويرون الأغنياء والأمراء أبوابًا من أبواب الله التي جعلها يخرج منها حوائج الخلق عادة. وفي القرآن العظيم: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، قال العلماء: والحكمة هي غنىٰ الداعي عن مال[2] المدعوين، والموعظة الحسنة هي تمهيد بساط للمدعوين يريهم الداعي فيه ما لهم في ذلك الفعل من الحظ والمصلحة في الدنيا والآخرة، حتىٰ يكون أحدهم هو المبادر لفعل ما يأمره به الداعي. وأما دعاء الناس بغير تمهيد بساط، فلا يكاد أحد منهم يجيب الداعي، لحجابهم عن نفع ما يُدْعَون إليه. انتهىٰ، فاعلم ذلك فإنه نفيس.

(٥١) ومما أجبتُ به عنه ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]،

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (١٦٣).

(٢) بالأصلين: حال، والمثبت من «الدرر واللمع» للمؤلف، وهو الصواب.

قال قائل: إن رسول الله ﷺ كان أكمل الناس عقلًا ومعرفةً بأمور الدنيا والآخرة، فكيف يحتاج إلىٰ مشورة من هو دونه؟!

والجواب: أنه لا إشكال في ذلك، لأن المشاورة ما شُرعَت لكونهم أعقل منه ﷺ، وإنما ذلك لكون الحقِّ تعالىٰ له في كلِّ موجود وجه خاص لا يكون لغيره، فقد يلقي الله تعالىٰ إلىٰ ذلك الشخص من الوجه الخاص ما لم يلقِه إلىٰ أحد من خواص عباده، بدليل قصة الخضر مع موسىٰ عليه الصلاة والسلام، فإن الله تعالىٰ زكَّاه عند موسىٰ بأنه أعلم. ومعلوم أنه ما[1] هو أعلم من موسىٰ إلا من جهة الوجه الخاص الذي بينه وبين ربه عزَّ وجلَّ. أما من جهة علم التشريع فما ثم أعلم به من الرسول الذي جاء به، فما عتبه الله تعالىٰ إلا من جهة إطلاقه في محل التفصيل، فإن الأنبياء ما تعودوا أخذ العلم المتعلِّق بالتشريع من الله إلا بواسطة ملَك يأتيهم به عن الله، غير ذلك لا يعرفون، فاعلم ذلك، فإنه نفيس.

(٥٢) ومما أجبتُ به من يتوهم من قوله: «كما صليت علىٰ إبراهيم»[2] أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أعلىٰ في مقام الصلاة عليه من محمد ﷺ.

والجواب: أن للناس في ذلك كلامًا كثيرًا، وأحسن ما اطَّلعنا عليه من الأجوبة أن ذلك لا يقتضي تفضيل إبراهيم عليه، لأنه ﷺ كان معلِّمًا للصحابة كيف يصلون عليه حين سألوه ذلك، فما وسعه إلا التواضع مع أبيه الخليل، فهو أفضل خلق الله علىٰ الإطلاق، كما صرَّح به ﷺ في قوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[3] انتهىٰ.

وإنما خص السيادة بيوم القيامة مبالغةً في السيادة، لكون الخلق كلِّهم يكونون حاضرين في ذلك الموقف علىٰ وجه الأرض، بخلاف [غير][4] يوم القيامة. وإنما خص

---

(١) بالأصلين: إنما.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٥).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (٢٢٧٨).

(٤) زيادة ضرورية من عندنا، لاستقامة المعنىٰ.

أولاد آدم في الحديث لكون النوع البشري أعلىٰ الأنواع، فتكون سيادته علىٰ غيرهم من باب أولىٰ. وإيضاح ما ذكرناه من الجواب أن من شأن العبد إذا قالوا له: مرادنا أن تعلّمنا ألفاظًا مُفَخَمَةً نفخمُك بها، فلا يسعه إلا التواضع أو السكوت. وقد ورد في بعض طرق حديث التشهد أنهم لما قالوا: «يا رسول الله، قد عرفنا السلام عليك، فكيف نصلي عليك؟ تمعر وجهه ﷺ حتىٰ تمنىٰ السائل أنه لم يكن يسأله عن ذلك»[١]. وهذا جواب حسن فتح الله تعالىٰ به عليَّ لا أعلم أحدًا نبَّه عليه قبلي.

وقد انعقد إجماع المسلمين كما نقله شيخ الإسلام الصفدي[٢] ﵀ علىٰ أنه ليس بعد الله تعالىٰ أعلىٰ مقامًا من محمد ﷺ علىٰ الإطلاق، لا روحًا ولا جسمًا.

[استعداد الابن أقوى من استعداد أبيه]

فإن قلتَ: فعلىٰ هذا يكون استعداد الابن أقوىٰ من استعداد أبيه؟ **فالجواب:** والأمر كذلك، صرَّح به الشيخ محيي الدين في الباب الثاني والسبعين من «الفتوحات» وعبارته: اعلم أن استعداد الابن دائمًا أقوىٰ من استعداد أبويه، لأنه خُلِقَ من امتزاج الأبوين لا من واحد منهما، بل من المجموع حسًّا ووهمًا، فجمع استعداد الاثنين. ومن هنا كان كمال الابن الكامل أعظم من كمال أبيه، كما قالوا ذلك في حقِّ محمد ﷺ، فإنه أكمل من أبيه آدم ومن أبيه إبراهيم بإجماع، فعُلِمَ أنه ليس لكلِّ ابن هذا الكمال إلا إن كان مستقيمًا علىٰ شرع ربه.

وقال في الباب السادس والأربعين وثلاثمئة: اعلم أن محمدًا ﷺ هو روح العالم كلِّه، فروحه هي نفس العالم الناطق السعيد كلِّه، وحال العالم قبل ظهوره حال الجسد المسوَّىٰ، وحاله -أعني العالم- بعد موته ﷺ بمنزلة الجسد النائم، وحال العالم حين يُبعَث يوم القيامة بمنزلة الانتباه من النوم، فالعالم كله نائم من حين مات رسول الله ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) خليل بن أيبك بن عبد الله، الأديب صلاح الدين الصفدي، أبو الصفاء. ولد في صفد (بفلسطين) وإليها نسبته. وتعلم في دمشق وتعانىٰ صناعة الرسم فمهر فيها، ثم حبب إليه الأدب فولع به، من مؤلفاته: «الوافي بالوفيات»، و«نكت الهميان» ترجم به فضلاء العميان. توفي: ٧٦٤ هـ. الدرر الكامنة (٢/ ٢٠٧) والأعلام (٢/ ٣١٥).

وقال في الباب الخامس من «الفتوحات»: إنما كان محمد ﷺ أفضل من أبيه آدم وأبيه إبراهيم، لأنه كان حاملًا لمعاني الأسماء التي كانت مع آدم، ولم يكن مع آدم إلا ألفاظها. وأما الخِلَّة فكانت مع إبراهيم بحكم النيابة لمحمد ﷺ.

فإن قيل: قد ورد في الحديث: «لا تفضلوني»[1]؛ **فالجواب**: نحن ما فضلناه من ذوات نفوسنا، وإنما الله تعالىٰ هو الذي فضَّله، وجعل جميع الأنبياء نوَّابًا له من آدم إلىٰ عيسىٰ، كما أبان عن ذلك حديث: «لو كان موسىٰ وعيسىٰ حيين ما وسعهما إلا اتباعي»[2]. ومما يدل علىٰ أن عيسىٰ كان نائبًا لمحمد ﷺ فيما بيده من الشريعة كونُه لا يحكم إذا نزل إلا بشريعة محمد. ولو أنه كان له حقيقة لحكم به إذا نزل، فجميع الأنبياء كأمراء العساكر، ومحمد ﷺ هو الملك. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «كنتُ نبيًّا وآدم بين الماء والطين»[3]، ومعلوم أن النبوة لا تكون إلا بمعرفة الشرع المقرر عليه من عند الله. انتهىٰ.

وقال الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والثلاثين وثلاثمئة من «الفتوحات»: قد أنزل الله تعالىٰ محمدًا أربع منازل لم ينزلها غيره من الأنبياء:

الأول: أنه اختصه بالعروج وأعطاه ضروب الوحي كلها، وإنزاله علىٰ القلب والأذن.

الثاني: أعطاه علم الأحوال كلِّها، وذلك لعموم رسالته إلىٰ جميع الناس، فلا بد أن يكون علم رسالته يعم أحوالَهم كلَّها.

الثالث: أنه أعطاه علم إحياء الأموات معنىٰ وحسًّا، فأحيا أمته حسًّا بما قصَّ عليهم من أخبار الرسل، وأحياهم معنًىٰ بالعلوم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الحاكم (٤٢٠٩) من حديث ميسرة الفخر قال: «قلت لرسول الله ﷺ: متىٰ كنت نبيا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد»، وأحمد (٢٠٥٩٦) والطبراني في «الكبير» (٨٣٣) وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٨٣٧) وأما الذي علىٰ الألسنة بلفظ: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين» فلم نقف عليه بهذا اللفظ، فضلًا عن زيادة: «وكنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين» وقد قال شيخنا في بعض الأجوبة عن الزيادة: إنها ضعيفة والذي قبلها قوي. المقاصد الحسنة (ص: ٥٢١).

الرابع: أنه أعطاه علم الشرائع المتقدمة كلِّها وزيادة، نحو حديث: «أُعطيت أشياء لم يعطهن أحدٌ قبلي»[1]. ولما كان شرع الأنبياء قبله هو شرعه، قال الله تعالىٰ له: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] أي لا بهم، وهداهم هو هداك بالأصالة. وسيأتي الجواب عن هذا السؤال أيضًا في هذا المبحث مع زيادة علىٰ ما هنا، والله أعلم.

(٥٣) ومما أجبتُ به عن سيدنا محمد أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]: قد تقدم في الأجوبة عن الأنبياء عمومًا أن أحوال الأنبياء لا ذوق لنا فيها، سواء الطاعات وغيرها، فلا يجوز لنا الخوض فيها إلا بحسب ما ورد لا غير علىٰ علم الله تعالىٰ فيه، ولا يجوز لنا قياس حالهم علىٰ حالنا. وكلُّ من ذاق شيئًا من آداب الأولياء فضلًا عن الأنبياء، خاف علىٰ هضم شيء من مقامات الأنبياء. وإن لم يتعقلها في حقِّهم، وجب عليه تأويلها، كما يجب تأويل آيات الصفات في مذهب الخلف ﷺ، فكما لا يجوز لنا حمل آيات الصفات علىٰ المعاني التي يتبادر إليها الأذهان علىٰ حدِّ ما نتعقله نحن، كذلك لا يجوز حمل ذنوب الأنبياء علىٰ حد ما نتعقله نحن من الذنوب، أين مقام الغارق في الخطايا والذنوب ليلًا ونهارًا من المعصومين؟!

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: ذنوب الأنبياء كلُّها صورية، بيَّنوا بها صورة ذنوب قومهم، وكيفية الخروج عنها بالتوبة، فهم مثابون عليها ثواب الواجبات، لوجوب البيان عنهم. وقد صرَّح العلماء بذلك في المكروه إذا فعله الشارع بيانًا للجواز. انتهىٰ. هذا بحسب الإجمال.

وأما بحسب الإيضاح والتفصيل، فاعلم يا أخي أن أحسن ما رأيتُ في كلام العلماء من الأجوبة عن رسول الله ﷺ عما توهمه بعضهم من معنىٰ الذنب أن المراد ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك قبل النبوة، وما تأخر أي بعدها، أو أن المراد ما وقع وما لم يقع علىٰ طريق الوعد بأنه مغفور له، أو أن المراد بما تأخر ما لم يعلمه، وبه قال سفيان الثوري، أو أن المراد بالمتقدِم والمتأخِر معًا ما كان قبل النبوة، أو أن ذلك جاء علىٰ وجه التأكيد

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري بلفظ «خمسًا» (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

للمبالغة، كما تقول: أحسن لمن عرفك ولمن لم يعرفك، أو أن المراد بـ ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ ذنب أبيك آدم ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ من ذنوب أمتك، أو أن المراد لو كان لك ذنب قديم أو حديث، لغفرته لك علىٰ سبيل الفرض والتقدير. انتهىٰ ما رأيته من كلام المفسرين.

[جواب الإمام الشعرانيِّ عن هذه المسألة على حسب إرثه منه ﷺ]

وأما جوابي أنا عن نبيي بحسب فهمي، وما عندي من رائحة الإرث من مقامه ﷺ فهو أن المراد بذنبه ﷺ ما لزم من رسالته ﷺ من تعريض من خالف ما جاء به من الهدىٰ نفسَه للعذاب من الكفار وعصاة المسلمين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فأضيف إليه ذنوب عصاة أمته من حيثُ تشريعُه ﷺ لأحكامها، فإنه لو لا تبيينه ﷺ للحرام والمكروه لأمته، ما عُذِّب أحد بفعل حرام، لجهله بأن الله تعالىٰ حَرمه فكان كالمباح، والمباح لا يُعذَّب فاعلُه بإجماع. ولما كان من مرتبة الأكابر وكثرة شفقتهم علىٰ قومهم أن يؤاخذوا نفوسهم بما كانوا سببًا فيه لعذاب قومهم وإن لم يقصدوا ذلك، طمأن الله عزَّ وجلَّ قلب نبيه ﷺ، وأخبره بأنه تعالىٰ لا يؤاخذه من حيثُ كونُه كان سببًا في تعذيب من خالفه من أمته بلازم رسالته، وأن غاية ما وقع منه ﷺ أنه مبيِّنٌ ومظهِرٌ لمن شقي في علم الله تعالىٰ لا غير، وليس في يده ﷺ من إشقائهم شيء، فلما تأمل ﷺ فيما لزم من رسالته من تعذيب من خالفها ممن حَقَّ عليه التعذيب من أمته، صار يستغفر من ذلك، ويخاف من المؤاخذة به. ولعلَّ هذا الذنب هو المراد أيضًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] أي ذنبك من حيثُ لازمُ رسالتك، وذنوبُ المؤمنين والمؤمنات مطلقًا، أو المراد به الداعون إلىٰ الله، أي استغفر لهم من حيثُ لازمُ دعائهم الناس إلىٰ شرعك بحكم النيابة بعدك. ومعلوم عند كلِّ عاقل أن الله لا يؤاخذهم بلازم دعائهم إلىٰ الخير، كما لا يؤاخذك بذلك.

وفي ذلك سرٌّ خفيٌّ يعرفه من فهم معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، فإنه شمل الأكابر من الناس والأصاغر، غيرةً إلهيةً أن يخرج أحد عن الفقر إلىٰ الله تعالىٰ إلىٰ الغنىٰ المطلق. وانظر كيف أوقف سبحانه وتعالىٰ إعطاء الوسيلة

لسيد الأولين والآخرين علىٰ سؤال أمته له ذلك يتضح لك المعنىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الغفر علىٰ نوعين: الحيلولة بين العبد والذنب، والمسامحة به بعد الوقوع، فاللائق بالأنبياء الأول، وبغيرهم الثاني.

وسمعتُه مرارًا يقول: من مقام كُمَّل الأولياء فضلًا عن الأنبياء أن يستغفر أحدُهم من توهم ما لعلَّه سيقع في المستقبل من الغفلة عن الله عزَّ وجلَّ، أو من لازم نصحهم للخلق وتبينهم لهم الحلال والحرام، وفي الحديث: «إن من البيان لسحرًا»[1]. قال سفيان الثوري: ولا نرىٰ السحر إلا حرامًا. انتهىٰ.

ومن هنا قال الأشياخ: ينبغي للواعظ والخطيب أن لا يكشف القناع عن الأمور للسامعين بحيثُ لا يبقي لهم عذرًا يعتذرون به، بل ينزل لهم شيئًا مما يراه فوق مقامهم رحمة بهم. انتهىٰ.

وإيضاح ما قلناه من جواز المؤاخذة باللازم في حقِّ الأكابر إلا إن شاء الله تعالىٰ هو أن تعلم يا أخي أن كلَّ داعٍ إلىٰ الله تعالىٰ مأجورٌ بالأصالة، سواءٌ أطاعه قومُه أم خالفوه، وليس قصد أحد من الدعاة إشقاء أحد من المدعوين أبدًا، بل ولا يخطر ذلك لهم علىٰ بال، فهو وإن لزم من وعظه وإرشاده مؤاخذةُ أحد ممن خالفه، فهو غير مؤاخذ به لعدم القصد، ولا يؤاخذ أحد بما لم يقصده كما هو مقرر في كتب الفقه. ومما يؤيد رسول الله ﷺ في عدم طلب إشقاء أحد من أمته قوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، فتأمل. وقد قال جمهور الأصوليين: إن لازم المذهب ليس بمذهب، فكل نبي مأجور من حيثُ قصدُه. وإن وقع أن أحدًا خالفه، فهو مأجور أيضًا كأجر من أصيب في ولده وأصحابه.

فمعنىٰ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ أي ليغفر لك الله ما تقدم من مؤاخذة قومك بسبب رسالتك في حال حياتك وبعد مماتك، فطمئن يا محمد قلبَك، فإنك غير مؤاخذ بما وقع فيه عصاة أمتك من مخالفتهم شرعك، ولك من حيثُ قصدُك الخيرَ لهم أجرَ كلِّ من أطاعك، وكلِّ من عصاك لو كان أطاعك وكأنه أطاعك، لأنك تؤدي الخير لهم، وليس

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥١٤٦)، وأبو داود (٥٠٠٧).

عليك من أوزارهم شيء بسبب رسالتك.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول مرارًا: جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حضرة الإحسان على الدوام، مشاهدون للحقِّ تعالىٰ ليلًا ونهارًا، فلا يصح في حقِّهم مخالفة حقيقية، بل المخالفة تنفر من أبدانهم، كما ينفر النور من الظلمة أو عكسه، ولذلك قال المحققون: لم يكن لرسول الله ﷺ ذنب حقيقة يُغفَر، وإنما ذلك من باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، فالخطاب له، والمراد به غيره.

[معنى حديث: «إنه ليغان على قلبي»]

ثم تقول: فإن قال قائل: فما معنىٰ حديث: «إنه ليُغَان علىٰ قلبي، فأستغفر الله تعالىٰ في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»[1] انتهىٰ؟ **فالجواب:** معناه «إنه ليغان علىٰ قلبي» حين يخطر علىٰ قلبي ما أطلعني الله تعالىٰ عليه مما يقع لأمتي من بعدي من الحروب والفتن، وتضييع الواجبات، والوقوع في المنهيات، فأستغفر الله تعالىٰ لهم أكثر من سبعين مرة بحسب ما يخطر علىٰ قلبي ذكرُ ذلك. وليس في الحديث ما يُستدَل به علىٰ أن الغين الذي يستغفر الله منه من ذنب يقع هو فيه ﷺ، حاشاه ﷺ من ذلك! حاشاه! فإن أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تنفر منها الذنوب أن تقرب منها، كما تنفر الظلمة من النور. انتهىٰ.

فإن قال قائل: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»[2] الحديث، فهو الذي أخبر ﷺ بأن له خطايا، ولو علم ﷺ أنه معصوم من الذنب مطلقًا، لم يسأل المباعدة بينه وبين الذنب؛ **فالجواب:** أنه لا يلزم من سؤال العبد المباعدةَ من شيء صحة وقوعه فيه، لاسيما وهو ﷺ أعلم الخلق أجمعين بأحكام الله تعالىٰ في خلقه من حضرة الإطلاق والتقييد التي يغفر الله تعالىٰ منها لمن يشاء، ويعذب منها من يشاء، فيجب علينا حمل مثل ذلك علىٰ مناجاة رسول الله ﷺ بذلك ربَّه من باب الذل والعبودية بين يدي ربه عزَّ وجلَّ، وهضم النفس.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

ويُحتمَل أن يكون مراده ﷺ خطاياه من حيثُ تشريعُه النهي عنها لأمته، علىٰ ما مرَّ تقريرُه في لازم رسالته ﷺ، وأن الأكابر من شأنهم أن يؤاخذوا نفوسَهم باللازم وإن لم يؤاخذهم الحقُّ جلَّ وعلا علىٰ ذلك.

ومن قال المراد بالخطايا في هذا الحديث خطايا وقع فيها رسول الله ﷺ أو سيقع، فعليه الخروج منها بين يدي رسول الله ﷺ، ويا فضيحته بين يديه! فإنه لا يجد علىٰ ذلك دليلًا واضحًا من كتاب ولا سنة ولا إجماع.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: المراد بمعاصي الأنبياء وخطاياهم أمور يؤاخذهم الله تعالىٰ عليهم، ليرقيهم في مقام الأدب، تدق عن عقولنا لا نتعقلها، بل ربما كان أحدنا يتقرب بتلك الخطايا إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، ويرىٰ لنفسه المقام العالي بها عند الله تعالىٰ. ثم يجب علينا قطعًا اعتقاد أنها مؤاخذة عقاب بلطف، لا مؤاخذة توبيخ وعنف. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: لو قال قائل: إنه لا ينبغي لمثلنا أن يجيب عن نبيِّنا مطلقًا، وإنما ذلك خاص بالأولياء الأكابر أو الأنبياء بتقدير وجودهم بعده في الأرض، لإشرافهم علىٰ مقامه، لكان ذلك حقًّا، وإلا فأين مقام آحاد الناس من مقام الأنبياء حتىٰ يجيب عنهم؟!

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: لا ينبغي جواب أحد عن أحد علىٰ وجه التحقيق إلا إن أشرف علىٰ مقامه. وقد كان الإمام السهروردي[1] يقول: استعلاء مقامات الخلق علىٰ قدر استعلاء نورهم الذي رشه الحقُّ تعالىٰ عليهم حين خلقهم في الظلمة كما ورد[2]، لا علىٰ قدر سعيهم واجتهادهم واختيارهم. ومن هنا ارتقىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ

---

(١) السهروردي: يحيىٰ بن حَبَش بن أميرك، أبو الفتوح، شهاب الدين، فيلسوف، اختلف المؤرخون في اسمه. ولد في سهرورد (من قرىٰ زنجان في العراق العجمي) ونشأ بمراغة، وسافر إلىٰ حلب، فنسب إلىٰ انحلال العقيدة. وكان علمه أكثر من عقله (كما يقول ابن خلكان) فأفتىٰ العلماء بإباحة دمه، فسجنه الملك الظاهر غازي، وخنقه في سجنه بقلعة حلب. له مصنفات منها: «هياكل النور» و«حكمة الإشراق» و«رسالة في اعتقاد الحكماء». توفي: ٥٨٧هـ. الأعلام (٨/ ١٤٠) و هدية العارفين (٢/ ٥٢١).

(٢) أخرج الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال: هذا حديث حسن (٢٦٤٢) يقول: «سمعت رسول الله

اخترق السبع الطباق[1]، وصار إلىٰ حضرة قاب قوسين أو أدنىٰ من حضرة التكليم، وذلك لاستعلاء نوره علىٰ سائر أنوار الأنبياء والمرسلين صلىٰ الله عليه وعليهم أجمعين، كما دل علىٰ ذلك تعيين سماواتهم التي هم فيها، فأعلاهم مقامًا بعد محمد ﷺ إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم هارون، ثم إدريس، ثم يوسف، ثم يحيىٰ، ثم عيسىٰ، ثم آدم عليهم الصلاة والسلام، وأجمع علىٰ ذلك أهل الكشف، كما قاله سيدي علي الخواص رحمه الله.

قالوا: ولما كان الوجودُ السفليُّ كلُّه محفوظًا من نزول البلاء الذي يستأصله كلَّه ببركة محمد ﷺ، جعل الله تعالىٰ قبره في الأرض، مع مشاركة روحه الشريف لأرواح جميع الأنبياء في مواطنهم في السماوات، وجميع مواطن القرب من الحضرة الإلهية، لأن روحه الشريف منتشر نورها في جميع الوجود العلويِّ والسفليِّ، فلا يوجد في الوجود مكان إلا وفيه من نور محمد ﷺ، وكذلك في سائر الجنان.

قالوا: ومن هنا يسمي الله تعالىٰ محمدًا ﷺ نورًا، لأنه كلَّه نور، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، فالنور هو محمد، والكتاب هو القرآن.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما رقىٰ رسول الله ﷺ ليلة الإسراء إلىٰ أعلىٰ مكان لا يصل إليه بشر ولا ملَك، لأنه لم يبقَ من بشريته بقيةٌ تثبطه عن الرقي إلىٰ حضرة قاب قوسين، وكانت روحه الشريف أصفىٰ من سائر أرواح الملائكة، فلذلك ترقىٰ إلىٰ مكان لم يصل أحد منهم إليه، كما قال جبريل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] يعني بحسب صفاء روحه، و زجَّ رسول الله ﷺ بالرفرف في النور.

قال: وكان مقامه في الأرض معدودًا من عظيم فتوته، ليدفع الله تعالىٰ به العذاب عن جميع عصاة الموحدين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[الأنفال:

ﷺ يقول: إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، فألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم علىٰ علم الله»، وابن حبان (٦١٦٩) وأحمد (٦٨٥٤).

(١) إشارة إلىٰ حديث الإسراء والمعراج الذي أخرجه البخاري (٧٥١٧) ومسلم (١٦٢).

٣٣]، فشملت الآية حياته وموته، فما دام جسمه ﷺ في الأرض، فالعصاة من الموحدين آمنون من نزول العذاب الذي يستأصلهم.

وكان ﷺ يفسر الغين الوارد في حديث «إنه ليغان علىٰ قلبي»[1]، بأن ذلك الغين الذي حصل لقلبه الشريف إنما هو من حيثُ ما أطلعه الله تعالىٰ عليه مما يقع لأمته من بعده، لا من وقوعه ﷺ هو في ذنب، ويقول: لا يزيغ عن هذا الجواب إلا كلُّ زائغ عن طريق الهدىٰ، لم يشم من محبة رسول الله ﷺ رائحة. وإذا رأىٰ المؤمن الصادق جوابًا لا إشكال فيه سالـمًا من الشبه، وجب عليه الوقوف عنده، وقد ورد في الحديث الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين»[2]، فشرط ﷺ في كمال الإيمان أن يزيد العبد في محبة نبيه ﷺ علىٰ محبة أهله وولده، فمن لم يكن نبيه أحب إليه من نفسه لم يوفه حقه، وكيف يدعىٰ شخص أنه يحب رسول الله ﷺ وهو يضيف إليه النقص والعيب بارتكابه الذنب الذي يتعقله هو بعقله؟!

وتأمل الوالدة لما أحبَّت ولدها كيف لا تكاد تنسب إليه عيبًا أبدًا، بل تقول في كل ذنب وقع فيه: خزاك الله يا إبليس! أوقع ولدي في الشيء الفلاني، فإذا كان هذا قول الوالدة في حقِّ ولدها مع أن حبَّها لولدها بحكم الطبع وحظ النفس، لا بحكم الإيمان، فكيف بمن محبته إيمان، بل هي عين الإيمان؟! وإذا كان من يتشرب قلبه حب إنسان من الخلق لا يكاد يرىٰ فيه عيبًا، بل يراه كلَّه محاسن صرفًا، فكيف بسيد الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين الذي فرض محبته علىٰ الخلق أجمعين، وأحوجهم إلىٰ شفاعته يوم يقوم الناس لرب العالمين؟! فعُلِمَ أن كلَّ من نسب إلىٰ نبيِّه ذنبًا من الذنوب علىٰ حدٍّ ما يتعقله هو، فذلك دليلٌ علىٰ عدم كمال محبته له، ولا يخفىٰ حاله، نسأل الله العافية.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول مرارًا: لا ينبغي لأحد أن يتكلم علىٰ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

مقامات الأنبياء إلا نحو القطب الغوث ﷺ ممن أطلعه الله علىٰ رائحة مقامهم، فإن جميع ما كان الأنبياء يذكرونه عن أنفسهم مما يشبه أحوالنا فإنما ذلك من باب التنزل لعقولنا. وأما حالهم في أنفسهم فلا يعلمه إلا الله، ثم هم عليهم الصلاة والسلام، ألا ترون إلىٰ قوله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيرًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[1] أي سليم الصدر من جهة بعضكم بعضًا لا من جهة ما لعلَّ أحدًا يقوله في حقي، فإن سمتي العفو والصفح عن كلِّ من جنىٰ عليَّ. وكيف آمر أمتي بالصفح وأحقد أنا عليهم؟! ولا يجوز حمله ﷺ علىٰ تكدره عليهم لحظ نفسه، لعصمته ﷺ من مثل ذلك.

وكذلك القول في قوله ﷺ: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، وأرضىٰ كما يرضىٰ البشر»[2] أي صورة غضبي ورضائي صورة غضب البشر ورضاهم، والقصد مختلف، فأغضب لله إذا انتُهِكَت حرماته لا لنفسي، وأرضىٰ لله تعالىٰ إذا عُمِلَ بطاعة الله كذلك، لا لحظ نفسي.

فإن قيل: إن ذكره ﷺ بالنقص في غيبته مما يسخط الله تعالىٰ، فينبغي الغضب له، لأن ذلك من جملة انتهاكهم حرمة الله عزَّ وجلَّ؛ **فالجواب:** أن لمثل ذلك وجهان: وجه من حيثُ الحقُّ تعالىٰ من تعديهم حدوده، فيغضب لأجله؛ ووجه يتعلق بحقِّه هو ﷺ، فمن شأنه العفو والصفح عنه وعدم التكدير، فيُحمَل حاله ﷺ إن غضب أو رضي علىٰ هذين الحالين، فرجع غضبه لله ورضاه لله؛ لأنه يرىٰ نفسه ملكًا له تعالىٰ ليس له منها شيء. فقوله: «كما يرضىٰ البشر» أي خيارهم الذين يغضبون لله ويرضون لله، ولا يجوز حمله علىٰ أراذل البشر من أصحاب الرعونات، فإن ذلك جهل بمنصب النبوة، لا سيما مقام سيد الأولين والآخرين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأحمد (٣٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٣) وابن حبان (٦٥١٤).

[الردُّ على من قال: الأنبياء فيهم جزء بشري يدق ولا ينقطع]

ومن قال من المتصوفة: إن الأنبياء فيهم جزء بشري يدق ولا ينقطع؛ قلنا: ذلك في حقِّ غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أما الأنبياء فقد طهَّر الله تعالىٰ طينتَهم بسابق العناية من كل دنس، لا بعمل عملوه، ولا بخير قدموه. ويؤيد ذلك ما ورد في الصحيح من شق جبريل صدر النبي ﷺ وهو طفل، وإخراجه منه علقة سوداء وقال: «هذا حظ الشيطان منك»[1] فافهم.

وهذا الجواب أولىٰ ممن أجاب من المتصوفة بأنه يجوز له ﷺ أن يغضب لحظِّ نفسه حال كونه متجردًا عنها، من حيثُ كونُها أمة الله تعالىٰ كالوديعة عنده، يجب عليه أن يذب عنها من ينتقص من مقامها، لأن مقصودنا بالأجوبة عن الأنبياء وغيرهم سد الذرائع، وإثباتُ الغضب لحظِّ نفسه يجر إلىٰ جعله كآحاد البشر.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إنما كان يغضب ﷺ علىٰ بعض الناس رحمةً بذلك البعض، فإنه كان أرحم بالأمة من والديهم، فكان يخاف عليهم إذا انتقصوا جنابه أن يهلكهم الله تعالىٰ ولو عفا هو، لعلمه بأن الله تعالىٰ ينتقم لأصفيائه ولو تركوا حقَّهم. وقد عُلِمَ بالضرورة معنىٰ قوله ﷺ: «إنما أنا بشر أرضىٰ كما يرضىٰ البشر، وأغضب كما يغضب البشر»[2]، وأن اللائق بمقامه ﷺ أنه يرضىٰ لله ويغضب لله دون حظِّ نفسه، وإن أظهر الغضب لأحد جنىٰ علىٰ أحد، فإن ذلك تأديب ورحمة، لأن أمته ﷺ كالأولاد في حجره يؤذيه ﷺ ما يؤذيهم، ويرضيه ما يرضيهم، كما قال في فاطمة ﵂: «يؤذيني ما يؤذيها»[3].

وإيضاح ذلك أنه ﷺ لا يتأذىٰ من كلام يُقال في حقِّه، وإنما يتأذىٰ بذلك محبوه، فكأن تأذيه إن وقع إنما هو لتأذي خواص أصحابه بذلك، لا أنه يتأذىٰ مما يُقال فيه ابتداء، فكأن ما يتأذىٰ به أصحابه من سماع ما يكرهون في حقه ﷺ بلاء نزل بهم ولم يحملوه،

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٦٢) وابن حبان (٦٣٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٣) وابن حبان (٦٥١٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

فتأذىٰ لتأذيهم بذلك، فقام بالقيام بحقوقهم. انتهىٰ، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤) ومما أجبتُ به عن عرضه ﷺ نفسه علىٰ القبائل وإظهار الضجر وعدم الصبر، قال قائل: كيف وقع مثل ذلك لرسول الله ﷺ مع أن مقامه في القرب من الله والمعرفة به لا يشم رائحته أحد من الأمة؟!

والجواب: أن إظهاره ﷺ الضجر وسؤال الإقالة ليس هو لعجزه عن تحمل مثل ذلك، وإنما ذلك رحمة بأمته ﷺ، ليقتدوا به إذا وقع لهم ضيق لا يطيقونه، فإنه لو لم يتنزل لعقولهم، لما قدر أحد منهم يتبعه، بل لو تبعه ذاب روحه وجسمه.

وإذا كان الجنيد[1] يقول: لو جلس شخص من أبغض الناس إليَّ يقطِّع لحمي بمقاريض من نار، وجلس عن يميني أحب الناس إليَّ يكلمني بأطيب الكلام، ويشمني الندَّ والعنبر ما نقص هذا، ولا زاد هذا؛ فكيف بسيد الأولين والآخرين؟!

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي يقول: ما تجلىٰ تعالىٰ لي في مظهر قهر قط، وما عرفتُ القهر إلا من غيري. وكذلك كان سيدي علي بن وفا[2] يقول: فما عرفنا ولا ألفنا سوىٰ الموافاة والوصال. فافهم ذلك، واعرف قدر الأنبياء، وإياك أن تقيس أحوالهم علىٰ أحوال غيرهم، فتخطيء طريق الصواب، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي البغدادي، شيخ الصوفية. ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، وتفقه علىٰ أبي ثور، وشاهد الصالحين وأهل المعرفة، ورزق الذكاء وصواب الجواب. لم يُر في زمانه مثله في عفة وعزوف عن الدنيا. له عدة رسائل منها: «دواء الأرواح» ورسائل منها ما كتبه إلىٰ بعض إخوانه، ومسائل أخرىٰ. توفي: ٢٩٧هـ. السير (١٤/ ٦٦)، «الوافي بالوفيات» (١١/ ١٥٥).

(٢) علي بن محمد بن محمد بن وفا، أبو الحسن القرشي الأنصاري الشاذلي المالكي الصوفي، إسكندري الأصل. ولد سنة ٧٥٩هـ بالقاهرة ومات أبوه وهو صغير فنشأ هو وأخوه في كفالة وصيهما الشيخ محمد الزلعي فأدبهما وفقههما. له مصنفات منها: «الوصايا» و«المسامع الربانية» في التصوف. توفي:٨٠٧هـ. الضوء اللامع (٦/ ٢١)، الأعلام (٥/ ٧).

(٥٥) ومما أجبتُ به عن رسول الله ﷺ من جهة الصاعقة التي نزلت على حرمه الشريف فأحرت غالبه[١]، فإن بعض الناس قال: الوجود كلُّه في كرامته ﷺ، وآمن من نزول البلاء عليه كرامة له ﷺ، فكيف تنزل الصواعق على مكانه المخصوص به؟!

والجواب: أن مثل ذلك من باب تحمله ﷺ البلاء عن أمته، لما هو عليه من وفور الشفقة والحنو عليهم، كما هو مقرَّر في تعليق الأسباب على مسبَّباتها، بحسب ما سبق به العلمُ الإلهيُّ، ولا يجوز أن يظنَّ أحد من المسلمين بنبيه الذي هو سيِّد الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين أن ذلك من هوانه ﷺ على ربه، بل ذلك كفر يستحق صاحبه التأبيد في النار. وإياك والجهل، فإن رسول الله ﷺ لم يزل يتحمل الشدائد عن أمته في الدنيا والبرزخ وما بعده[٢]، تارةً بدعائه لهم، وتارةً ابتداءً كرامةً من الله تعالى له من غير دعاء، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] وهو الآن فينا حيٌّ طريٌّ في قبره ﷺ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦) ومما أجبتُ به عن قوله في حديث التشهد: «كما صليت على إبراهيم»[٣] إلى آخره، فإن بعضهم فهم من قاعدة أن «المشبَّه به أعلى من المشبَّه» أن إبراهيم أفضل من محمد ﷺ، وألَّف الفاكهاني[٤] وغيره في ذلك مؤلفات.

---

(١) وذلك في ليلة الثالث عشر من رمضان، سنة (٨٨٦هـ)، فأحرقت غالب الحرم الشريف، والقبة الخارجية، ونزل الشرر على القبة الداخلية ولم تحترق. انظر: «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى».

(٢) ويؤيد ذلك ما ذكره صاحب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» النور السمهوري، وهو من أعيان أهل المدينة المعاصرين للحادثة المذكورة: «وأخبر أمير المدينة الشريفة السيد الشريف زين الدين قسطيل الجمازي أن شخصًا من العرب صادق الكلام رأى في المنام ليلة ثاني عشر رمضان [وهي الليلة السابقة لليلة الحريق] أن السماء فيها جرادٌ منتشر، ثم عقبته نار عظيمة، فأخذ النبيُّ ﷺ النار وقال: أمسكها عن أمتي؛ فجزاه الله عن أمته -خصوصًا جيرانه- أفضل ما جزى نبيًّا عن أمته.

وحُكي أيضًا عن بواب رباط السبيل أنه ذكر مثل هذه الرؤيا عن غيره».

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٥٧) ومسلم (٤٠٥).

(٤) عمر بن علي بن سالم بن صدقة، تاج الدين أبو حفص اللخمي الإسكندري المالكي الفاكهاني، زار

والجواب: أنه ﷺ أفضل خلق الله علىٰ الإطلاق، ونقل الشيخ عز الدين بن عبد السلام[1] وغيره الإجماع علىٰ ذلك. ولا ينافي ذلك قول بعضهم: إن مرتبة كل نبي في السماء تعرف من سمائه التي هو فيها علىٰ حسب ما رآهم ﷺ ليلة الإسراء، لأن المراد في حقِّ إبراهيم مع موسىٰ ويوسف وعيسىٰ مثلًا، لا في حقِّ محمد ﷺ، لأن مقامه حضرة قاب قوسين أو أدنىٰ.

[الحكمة من وجود القبر الشريف في الأرض]

وإنما كان قبره في الأرض إعلامًا بأنه الفلك الذي يدور عليه حكمُ العالم العلويِّ والسفليِّ، فكان فوقه سبع طباق سماوية، وتحته سبع طباق أرضية، ويحصل للوجود كلِّه بركته ﷺ، فافهم.

[المراد من الصلاة الإبراهيمية إلحاق آله ﷺ بالنبيين من آل إبراهيم]

فعُلِمَ أن قوله ﷺ: «كما صليتَ علىٰ إبراهيم» لا يلزم منه تفضيل إبراهيم عليه، ولكن لما أمرنا الله تعالىٰ بالصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في القرآن، [و] لم يأمرنا بالصلاة علىٰ آله فيه، فجاء الإعلام الرباني في تعليم رسول الله ﷺ إيانا الصلاة عليه بزيادة الصلاة علىٰ الآل، فما طلب ﷺ الصلاة عليه مثل صلاة الله تعالىٰ علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم من حيثُ أعيانُهما، وإنما المرادُ إلحاقُ آل محمد بآل إبراهيم الذين هم النبيون، كإسحاق ويعقوب ويوسف، ومن كان رسولًا أو نبيًّا من نسلهم. وما علَّمنا نبيُّنا ﷺ هذه الصلاة

دمشق سنة ٧٣١هـ بعد زيارته القدس، وحج ثلاث مرات. واجتمع به ابن كثير وقال: سمعنا عليه ومعه، له مصنفات منها: «المنهج المبين في شرح الأربعين النووية»، و«التحرير والتحبير» و« رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام ». توفي: ٧٣٤هـ. أعيان العصر (٣/ ٦٤٤)، الأعلام (٥/ ٥٦).

(١) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم أبو محمد عز الدين السلمي الدمشقي الشافعي، حدث ودرس في عدة مدارس بالشام والديار المصرية، برع في الفقه والأصول، وصنف وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب. له مصنفات منها: « قواعد الأحكام في إصلاح الأنام» و«بداية السول في تفضيل الرسول » توفي: ٦٦٠هـ. العبر في خبر من غبر (٥/ ٢٦٠) وذيل مرآة الزمان (٢/ ١٧٢).

إلا بوحي من ربِّه عزَّ وجلَّ، فقصد ﷺ بالصلاة علىٰ آله العلماء الصالحين إلحاقَهم بآلِ إبراهيم في مرتبة النبوة عند الله تعالىٰ وإن لم يشرِّعوا شيئًا، لأنه لا نبي بعده، بدليل أنه ﷺ شرَّع لأمته الاجتهادَ في الأحكام، وقرر حكم ما أدَّىٰ اجتهادُهم إليه وتعبدُهم به، كما تعبَّد به من قلَّدهم، فكان في ذلك إلحاقُ المجتهدين من أمته بأهل التشريع من الأنبياء، إذ الاجتهاد تشريع لمن عقل واستبصر.

ولم يقع هذا الأمر لأمة نبي غير محمد ﷺ، فجعل الله تعالىٰ وحي آله في اجتهادهم، فإن المجتهد لم يحكم إلا بما أراه الله تعالىٰ في اجتهاده، فهي نفحة من نفحات التشريع، ما هي عين التشريع. فعُلِمَ أن لآل محمد العلماءِ مرتبة النبوة عند الله تعالىٰ، ولكن لا يظهر حكمها إلا في الدار الآخرة. وأما في الدنيا فلم يظهر من حكمها إلا نفحة الاجتهاد الذي شرعه لهم، فكان اجتهادهم في أحكام الدين بأمر مشروع من عند الله تعالىٰ.

وملخص القول في ذلك أن معنىٰ قول المصلي: «اللهم صلِّ علىٰ محمد...» أي اجعل آله المؤمنين العلماء في الصلاة عليهم «كما صليت علىٰ إبراهيم...» فيجعل آل محمد أنبياء ورسلًا في الفضل والمرتبة عندك، كما كان الأنبياء والمرسلون من آل إبراهيم، وتلحق آل محمد بما أعطيتهم من التشريع بالاجتهاد بآل إبراهيم [أصحاب][1] التشريع الحقيقي.

وقال بعضهم: وقد أعطىٰ الله تعالىٰ آل محمد التحديث، فمنهم محدَّثون- بفتح الدال المشددة- ومجتهدون، فأشبه آل محمد في ذلك آل إبراهيم من الأنبياء أصحاب التشريع. هذا ما أجاب به الشيخ محيي الدين في باب الصلاة علىٰ الميت من كتاب «الفتوحات». وقال: فحقق يا أخي ما نبهتُك عليه في هذه المسألة، ترَ الحقَّ حقًّا، والحمد لله رب العالمين[2].

ولنا في ذلك جواب آخر أطلعني الله عليه، وهو أن السبب في قول النبي ﷺ: «كما صليتَ علىٰ إبراهيم» حين علَّمنا الصلاة عليه إنما هو من حيثُ إنه كان هو المعلِّم لنا،

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر «الفتوحات» الباب (٦٩).

بدليل ما جاء في بعض طرق الحديث أنهم لما قالوا له: «يا رسول الله، قد عرفنا السلام عليك، فكيف نصلي عليك؟ تمعر وجهه ﷺ حتىٰ قالوا: ليتنا لم نسأله عن ذلك»[١] وما ذلك إلا لما رأوه[٢] من شدة حيائه ﷺ أن يعلمهم ألفاظًا فيها تفخيم له ﷺ، فما وسعه إلا التواضع مع أبيه الخليل المحبوب لسائر الملل.

ومن شك في قولي هذا، فليتأمل نفسه إذا قال له أصحابه: يا سيدي، علِّمنا ألفاظًا مُفخَمة نصير نعظِّمك بها بين الناس؛ فإنه لا يسعه إلا ألفاظ التواضع، ولو أراد أن ينطق بلفظة فيها تفخيم له، لحصل له بذلك الخجل، وهي نكتة خفية لعلها لم تخطر علىٰ بالك يا أخي، فلا يلزم من ذلك تفضيل إبراهيم علىٰ محمد ﷺ، بقرينة قوله ﷺ بأمر من ربه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٣]، وقوله: «آدم ومن دونه تحت لوائي»[٤]، فاعلم ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص يقول: الصلاة من الله رحمة، والرحمة تقتضي وجود ذنب، والأنبياء لا ذنوب عليهم، فما سأل ﷺ كثرة صلاتنا عليه إلا أدبًا مع ربه عزَّ وجلَّ وتواضعًا له.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول مرارًا: من اعتقد أن ذات أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تقبل شيئًا من المخالفات، فهو جاهل بمقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧) ومما أجبتُ به من توهم من تمعر وجه رسول الله ﷺ حين قيل له: «هذه القسمة ما أُريد بها وجه الله»[٥] أن ذلك التمعر كان مخلوطًا بحظِّ [نفس][٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٥)، وأبو داود (٩٨٠).

(٢) بالأصلين: رواه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٨)، والترمذي وقال: حديث حسن (٣١٤٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦١٥) وأحمد (١٠٩٨٧).

(٥) أخرجه البخاري (٦١٠٠)، ومسلم (١٠٦٢).

(٦) زيادة من «أ».

والجواب: أنه يجب جزمًا اعتقاد عصمته عن مثل ذلك، وأنه إنما تمعر وجهه ﷺ تقبيحًا لصنيع من نسبه إلىٰ الجور، خوفًا عليه من مقت الله عزَّ وجلَّ، لما جبله الله تعالىٰ عليه من الرحمة والشفقة علىٰ أمته، وفي الحديث: «أنه ﷺ كان لا يغضب لشيء من أمر الدنيا، وإنما يغضب إذا انتُهكت حرمات الله»[1]. انتهىٰ.

فإياكم أيها الإخوان أن تفهموا من قوله ﷺ: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر»[2] أنه يصح في حقِّه الغضب المخلوط بحظِّ نفس، فإن ذلك خطأ عظيم، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الباب الأخير من كتبنا المسمَّىٰ بـ«المنهج المبين في بيان أخلاق العلماء العاملين» فراجعه يا أخي إن شئتَ، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨) ومما أجبتُ به عنه أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]: اعلم أن رسول الله ﷺ معصوم من الشرك بإجماع، وكذلك جميع الأنبياء، ولكن لابد لكلام الله تعالىٰ من محمل يُحمَل عليه إن كان ﷺ هو المراد بهذا الخطاب، وأما إن كان المراد به غيره، فالأمر واضح.

وقد نظرنا في مصارف اللغة، فوجدنا الشرك يُطلَق علىٰ ما هو المعهود في العُرف، وعلىٰ شركة العبد نفسه في الفعل مع الله تعالىٰ ولو إسنادًا فقط، فيحمل الشرك علىٰ كلِّ ذاتٍ بما يقبله. وإذا كان ذوات الأنبياء لا تقبل شيئًا من المكروهات فضلًا عن الصغائر والكبائر، فكيف يقبل الشرك الذي هو أعظم الذنوب؟! فتأمل.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص يقول: المراد بالشرك في قوله تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] أن يشرك النبي ﷺ نفسه مع ربه في الوجود الحقيقيِّ، ليعطي التوحيد حقَّه، فكأنه تعالىٰ يقول له: لا تشرك نفسك معي من حيثُ التوحيدُ الحقُّ، فإنه لي وحدي، وأشرك نفسك معي في الوجود من حيثُ العبوديةُ، لتقوم بما كُلِفت به فيها من حيثُ كسبُك، فكلَّفه تعالىٰ أن يشهد ﷺ نفسه معدومًا موجودًا في آن واحد.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٠٣)، وأبو داود (٤٦٥٩).

ويؤيد ما قلناه قول الجنيد ﷺ: «إذا قُرِن الحادث بالقديم، لم يبق له أثر» أي ولا من حيثُ الكسبُ، «وإذا لم يبق للحادث أثر ولا وجود، حبط عمله» أي لم يوجد له عين، بل هو لله تعالىٰ وحده من غير شركة كسب للعبد. وذلك حال ناقص لا يليق بالأنبياء، إذ الكمال أن يشهد العبد نسبة العمل إليه مع كونه خلقًا لله وحده، وهناك لا يحبط من حيثُ كسبُه، بل يجازيه الله تعالىٰ عليه في الآخرة بحسب مقام ذلك العبد في العلو والانخفاض.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: كما يجب على العبد أن يشهد نفسه معدومًا موجودًا في آن واحد، كذلك يجب عليه أن يشهد عمله لله وحده في حال نسبته إليه هو، فهو من حيثُ كونُه لله تعالىٰ وحده هو باق، ومن حيثُ إنه كسب للعبد هو حابط إن لم يضف الكسب إلىٰ الله تعالىٰ بالاستمداد من القدرة الإلهية، وكأنه تعالىٰ خلق العمل وحده، ثم خلقه علىٰ عبد ظاهرًا، ليثيبه عليه فضلًا منه في فضل، فإن الذات إذا كانت مخلوقة، فصفاتها مخلوقة من باب أولىٰ. انتهىٰ.

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول في معنىٰ الآية: إن الله تعالىٰ كلَّف نبيه أن لا يشرك نفسه مع الله تعالىٰ في حركة أو سكون، لا عمدًا ولا سهوًا، بل يكون مشاهدًا لفعل ربه فيه علىٰ الدوام. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩) ومما أجبتُ عنه ﷺ أيضًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، قال قائل: إن الله تعالىٰ قد نفىٰ عنه ﷺ أنه يعلم المنافقين، وذلك نقص في العلم، وقد قال ﷺ عن نفسه إنه أوتىٰ علم الأولين والآخرين[1]، وكيف ينفي سبحانه وتعالىٰ عن نبيه

---

(١) وكأنه يشير إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٢٣٤) من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أتاني ربي في أحسن صورة. فقال: يا محمد، قلت: لبيك ربي وسعديك. قال: فيم يختصم الملأ الأعلىٰ؟ قلت: رب لا أدري، فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما بين المشرق والمغرب...» وأحمد (٢٣٢١٠) والدارمي (٢١٩٥).

علم المنافقين، مع أن حذيفة بن اليمان[١] كان يعلمهم بشهادة عمر بن الخطاب ﷺ؟ وما كان واسطة حذيفة في علمهم مع كونه ليس من أهل الوحي؟

والجواب: أن نفي علم رسول الله ﷺ ونفي [علم] عمر بن الخطاب بالمنافقين فيه منقبة عظيمة لعمر، وبيان عصمة رسول الله ﷺ من دخوله هو وعمر حضرة النفاق، فإنهما لو دخلاها لعرفا المنافقين بالمخالطة. وأما معرفة حذيفة بالمنافقين فكانت من طريق الإلهام. وقد كان عمر بن الخطاب يأتي إلىٰ حذيفة فيقول له: «هل فيَّ شيء من النفاق؟ فإنك كنت تعرف عدد المنافقين علىٰ عهد رسول الله ﷺ» أي من طريق الإلهام لا من طريق الذوق للنفاق.

فعُلِمَ مما قررناه أن نفي علم رسول الله ﷺ بالمنافقين فيه تنزيه له عن صفات النفاق لعصمته، إذ لا يعرف صفات المنافقين إلا من كان له ذوق في النفاق، أو أُوحِيَ إليه بصفاتهم من طريق جبريل، أو من طريق وحي ملك الإلهام، وهو ﷺ لم يوح إليه بذلك ولا أُلهم به عمر ﷺ كذلك تنزيهًا لمحله ﷺ، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «الأخلاق المتبولية»، والحمد لله رب العالمين.

(٦٠) ومما أجبتُ به عن رسول الله ﷺ أيضًا في قوله ﷺ: «لو يؤاخذني الله تعالىٰ وعيسىٰ بن مريم بما جنت هاتان الإصبعان- يعني السبابة والتي تليها- لعذبنا ثم لم يظلمنا شيئًا»[٢]، قال قائل: كيف صحت مؤاخذة الله تعالىٰ لمحمد وعيسىٰ مع عصمتهما، مع أن هذا اللفظ يشعر بوقوع الجناية منهما؟!

والجواب: أن وقوع هذا اللفظ من رسول الله ﷺ إنما هو علىٰ سبيل التواضع لربِّه عزَّ وجلَّ، وإظهار فضله عليه وعلىٰ عيسىٰ، مع كونه لُقِّب بأنه «روح الله» أي نفخ الحقِّ

---

(١) حذيفة بن اليمان بن جابر العبسي من نجباء أصحاب رسول ﷺ وهو صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، شهد مع النبي ﷺ أحدًا وقتل أبوه بها. وهو الذي ندبه رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب ليجس له خبر العدو، ت ٣٦ هـ. السير (٢/ ٣٦١)، أسد الغابة (١/ ٤٦٨).

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٥٧) والبزار (٩١٩٧).

تعالىٰ فيه الروح بلا واسطة ملك، فافهم. وهذا من باب حضرة الإطلاق التي للحقِّ تعالىٰ يفعل منها ما يشاء، وإلا فهو ﷺ يعرف من حضرة التقييد من طريق الوحي أن الله تعالىٰ لا يعذبه أبدًا.

وعلىٰ ذلك يُحمَل قول بعضهم: «إن رسول الله ﷺ لا يأمن مكر الله به أبدًا» أي لا يأمنه من حيثُ حضرةُ الإطلاق التي للحقِّ جلَّ وعلا يغفر منها لمن يشاء، ويعذب منها من يشاء، ثم لا يلزم من خوفهم وقوعُ المكر بهم، ويأمنه من حيثُ حضرةُ التقييد، أو يُحمَل المكر الخاص به ﷺ علىٰ المكر الذي لا ينقص مقامه بارتكاب ما مُكِرَ به فيه كالمباح، فيقع منه المباح في بعض الأوقات وهو غافل عن الكون بمشاهدة الحقِّ جلَّ وعلا، أو ذلك من باب: «إنما أنسىٰ ليُستن بي»[1].

وكذلك القول في جبريل وميكائيل حين قال لهما الحقُّ جلَّ وعلا: «هكذا كونا لا تأمنا مكري» إنما يتمشىٰ علىٰ عدم الأمن بالنظر إلىٰ حضرة الإطلاق، وإلا فهما معصومان من وقوعهما في الفعل الذي ينقص مقامهما حين مكر بهما. وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] فهو في حقِّ غير المعصوم ممن يصح [في حقِّه][2] الخسران، فاعلم ذلك، وإياك والغلط، والحمد لله رب العالمين.

(٦١) ومما أجبتُ به عن رسول الله ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣]، **قال قائل: إن رسول الله ﷺ مُستقيم قبل الأمر له بالاستقامة لعصمته، وكذلك القول في الطغيان والركون المذكورين، ولا يحتاج إلىٰ الأمر بالاستقامة إلا من يصح في حقِّه العوج، ولا يُنهَىٰ عن الطغيان والركون إلىٰ الذين ظلموا إلا غير المعصوم، وهو ﷺ معصوم من العوج والطغيان والركون المذكورات، فكيف الحال؟**

والجواب والله أعلم: أنه تعالىٰ إنما أمره بالاستقامة ونهاه عن الطغيان والركون

---

(١) أخرجه مالك بلاغًا (٢٦٤).

(٢) ساقط من «ب».

تأنيسًا لأمته الذين تابوا معه، فكأنه المخاطَب بذلك والمراد به غيره، نظير قوله تعالىٰ له: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، ومعلوم بإجماع أنه ﷺ معصوم من الرياء وعدم الإخلاص في دينه، فكان من رحمة الله بعباده المؤمنين أن يجمعهم مع رسولهم ﷺ في ضمير ﴿تَطۡغَوۡاْ﴾ و﴿تَرۡكَنُوٓاْ﴾ تأنيسًا، لا لكون الطغيان والركون قد يقع منه ﷺ لعصمته، فافهم.

ومن قال من العلماء: إن في النوع البشري ولو ارتفعت رتبته جزءًا يميل إلىٰ الطغيان والركون؛ قلنا له: ذلك في غير المعصوم؛ لأن الله تعالىٰ قد طهر طينة الأنبياء من سائر الرذائل، وجعل ذاتهم تنفر من المعاصي، كما تنفر الظلمة من النور، وذلك بسابق العناية من الله، لا بعمل عملوه، ولا بخير قدموه، إذ النبوة موهبة من الله لا تُنال بكسب.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول في معنىٰ حديث: «شيبتني هود وأخواتها»[1]: المراد بـ«أخواتها» كلُّ سورة فيها ذكر الأمر له بالاستقامة، لأنه ﷺ من شدة هضمه لنفسه، وتواضعه لربه ربما استشعر في نفسه أنه لم يوفِ بمقام الاستقامة التي أمره الله بها، وهناك يقوم في قلبه خوف الإجلال والتعظيم الذي ربما شيَّب شعره، فعُلِمَ أن هذا الخوف العظيم الذي شيَّبه لا ينافي ما هو عليه من العصمة، لأنه خوف إجلال لا خوف وقوع في ذنب ومؤاخذة عليه. ولم يزل العارفون بالله يخافون من الله عزَّ وجلَّ أن يعذبهم علىٰ أفضل عباداتهم، خوفًا من شهود النقص الحاصل فيها بالنظر لما يستحقه جلال الله، لأنهم لا يعرفون هل وفُّوا بحال مقام عبوديتهم أم لا؟ انتهىٰ، فاعلم ذلك وتأمله، وأعطِ النبوة حقَّها من التعظيم، والحمد لله رب العالمين.

(٦٢) ومما أجبتُ به من يتوهم أن أحدًا من الأنبياء في علم الله عزَّ وجلَّ أفضل من محمد ﷺ، ويقول: إن فضل محمد علىٰ سائر خلق الله تعالىٰ لم يرد لنا فيه حديث صحيح، وإنما نحن رجحناه عليهم أخذًا من عمومات الآيات والأخبار الواردة في

---

(١) أخرجه البزار (٩٢) وأبو يعلىٰ (٨٨٠) والطبراني في الكبير (٣١٨).

فضله، وبعضهم أخذ هذا التوهم من حديث: «كما صليتَ علىٰ إبراهيم»[1] من حيث إن المشبَّه به أفضل من المشبَّه عند علماء البيان.

والجواب: أن هذا توهم باطل مخالف للإجماع الذي قدَّمنا ذكره في هذا المبحث من أنه ليس بعد مقام الله تعالىٰ مقام للخلق أفضل من مقام محمد ﷺ. وقد ورد في الصحيح: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[2]، وورد «آدم ومن دونه تحت لوائي»[3]. وفي قوله في الحديث «يوم القيامة» أقوىٰ دليل لأفضليته ﷺ علىٰ سائر خلق الله عزَّ وجلَّ، فإنه لا يكون في ذلك اليوم أحد غائبًا، وقد عمَّهم بالسياق كلهم، وكفىٰ بذلك تصريحًا بأفضليته علىٰ جميع خواص البشر، حتىٰ إن من فضَّل الملائكة علىٰ خواص البشر يقول: لا بد من استثناء محمد ﷺ من ذلك. وقد روىٰ الحاكم مرفوعًا، وقال: صحيح الإسناد، أن الله تعالىٰ قال لآدم عليه الصلاة والسلام لما وقع في الخطيئة: «لولا محمد ما خلقتك»[4]، وفي رواية «أن آدم قال: يا رب أسألك بحقِّ محمد إلا ما غفرت لي. فقال الله له: يا آدم، وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه. فقال: يا رب، إنك لما خلقتني ونفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسي، فرأيت في قوائم العرش مكتوبًا: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» فعرفت أنك لم تضف لنفسك إلا أحبَّ الخلق إليك، فقال الله تعالىٰ: صدقتَ يا آدم، إن محمدًا لأحب الخلق كلِّهم إليَّ»[5]. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٦٣) ومما أجبتُ به من يتوهم في جنابه ﷺ أنه يقع في شيء من الأمور التي يتوجه عليه بها لوم، نحو قلة ذكر الله عزَّ وجلَّ، أو قلة تكبيره، أو رضاه بعدم تطهير ثيابه، أو عدم هجره للرجز، أو مَنِّه بما أعطىٰ استكبارًا، أو عدم الصبر علىٰ ما قدَّره الله تعالىٰ عليه، ونحو

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الحاكم (٣١٦)، وأبو بكر الخلال في السنة (٣١٦).

(٥) أخرجه الحاكم (٤٢٢٨) والطبراني في الأسط (٦٥٠٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٤٨٩).

ذلك، فهمًا من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ومن قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٣ - ٧].

والجواب: أن ذلك فَهْمٌ سَقيمٌ، لأنه ﷺ لم يكن قبل أمره بما ذكر أو نهيه عنه علىٰ أضداد هذه الأمور، لإجماع الأمة علىٰ كماله من بدايته إلىٰ نهايته، وما ثم له إلا مقام رفيع، أو مقام أرفع، فليس عليه ﷺ لوم في الحالة التي كان عليها قبل أن يُوحىٰ إليه بأضدادها أمرًا كانت أو نهيًا، لكونه لم يزل ذاكرًا لربه، مطهرًا لثيابه، هاجرًا للرجز، غير مانٍّ بما أعطىٰ، غير مستكثر بذلك، صابرًا علىٰ ما قدَّره الله تعالىٰ عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: سبب نزول نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الكهف: ٢٨] ما كان ﷺ يجده في نفسه من شدة الحياء من طول مجالسته لربه عزَّ وجلَّ، فإنه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، فأذن الله تعالىٰ له بطول مجالسته في ذكره، كما أشار إليه حديث: «أنا جليس من ذكرني»[1]، فإن في ضمن وجود الذكر الكثير لله عزَّ وجلَّ بأنواع الذكر طولَ مجالسة الحقِّ جلَّ وعلا، فكأنه تعالىٰ يقول له: جالسني كثيرًا، ولا تستحي من طول مجالستك لي هيبةً وتعظيمًا، فإني أحب منك ذلك، فلا تغفل عن ذكري، لتكون جليسي علىٰ الدوام كشفًا وشهودًا. انتهىٰ.

وأما قول بعض العارفين: «إن مراقبة الله تعالىٰ مع الأنفاس ليست من مقدور البشر» فإنما هو في حقِّ الأمة لا في حقِّه ﷺ. وإذا كان الشيخ أبو العباس المرسي يقول: لو احتجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددتُ نفسي من جملة المسلمين، مع كونه من آحاد الأمة، ومراقبته كانت لرسول الله ﷺ لا لله، فكيف بمراقبة سيد المرسلين لربه عزَّ وجلَّ؟! هذا اعتقادنا فيه ﷺ، فافهم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[المدثر: ٣] إلىٰ آخر النسق، فقد تقدم أنه لم يكن

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٢٨٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٠)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٥).

علىٰ ضد ذلك، وإنما أمره الحقُّ ونهاه بما ذكر لينعمه بحضرة خطابه في هذه الدار لا غير، **نظير ما أجبنا به من قال:** كيف احتاج ﷺ إلىٰ تشجيع الحقِّ تعالىٰ له في قوله: قل كذا، قل كذا، مع أن معه الإذن بذلك من حيثُ عمومُ رسالته، وإذنُه تعالىٰ له بتبليغ كلِّ ما أوحىٰ به إلىٰ الأمة، بل أمره له بذلك بنحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]؟ **فإن الجواب عن ذلك** هو ما كان ﷺ عليه من شدة الاشتياق إلىٰ سماع خطاب الحقِّ تعالىٰ له بغير واسطة جبريل أو غيره من حيثُ الجزءُ البشريُّ الذي فيه يدق ولا ينقطع[1]، لا من حيثُ جملتُه كلُّه؛ لأنه كان في رتبة الملائكة من حيثُ عدمُ حجابه عن سماع كلام ربه علىٰ الدوام، فلم يكن الاشتياق إلا لذلك الجزء الذي دق فيه، فطمأن الله تعالىٰ قلبه وأسمعه خطابه بقوله تعالىٰ له: ﴿قُلۡ﴾ وسكن ذلك الجزء من حرقة الاشتياق، فهو ولو جاء علىٰ لسان جبريل، فكأنه بغير واسطة لصفاء ذات جبريل، وكونه من جملة أمر الله، إذ هو روح، وما كان من أمر الله فلا يحجب عن الله، كما تقدم بسطه في التقرير مرارًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: أخفىٰ المعاني التي لحظها رسول الله ﷺ ولم يتجرأ ينطق بها مما فيه ضخامة له ورفعة لمقامه قولُه تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] إلىٰ آخر السورتين. وأما نحو قوله تعالي له: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فوجهه ناظر لما فيه من تزكية النفس علىٰ جميع الناس، لولا تشجيع الحقِّ تعالىٰ له بقوله له: ﴿قُلۡ﴾ ما قدر علىٰ النطق بمثل ذلك، لما هو عليه من شدة التواضع مع ربه ومع عباده،

---

(١) يأتي في كلام الإمام الشعراني الإجماع علىٰ أن الجزء البشري في الأنبياء ينقطع بالكلية، وهو الصحيح. ويمكن الجمع بينهما بأن المراد بالجزء البشري الذي ينقطع هو المتعلِّق بالشهوات والزلات والصفات البشرية النفسانية المذمومة. أما صفات الجبلة البشرية الأخرىٰ من نحو الأكل والشرب وطروء المرض الغير المنفِّر والألم والحزن والشوق فهو مما يدق ولا ينقطع.

كما أشار إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فصلت: ٦] فساوىٰ بينه وبين قومه، ثم ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾، فميز مقامه الشريف عنهم بالوحي، وجعله واسطة بينهم وبين ربهم. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٦٤) ومما أجبتُ به من يتوهم أن رسول الله ﷺ ادعىٰ أنه القاتل والرامي للمشركين حيثُ قتلهم ورماهم بالحصىٰ، فأعمىٰ أبصارهم، وأن الله تعالىٰ ما أنزل ذلك إلا تأديبًا له لدعوىٰ أنه القاتل والرامي.

والجواب: أن اللائق بمقامه ﷺ أن يُقال: إن الله تعالىٰ ما أنزل هذه الآية إلا نصرةً له وتطمينًا، فإن الله تعالىٰ قال له: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فلما غلبت الرحمةُ عليه ﷺ لحقته الرحمةُ علىٰ من قُتل ومن عمي حين رمىٰ ، فقال الله تعالىٰ له: إنك لم تقتلهم ولم ترمِهم، وإنما أنا قتلتُهم ورميتُهم وأعميتُهم، وبتقدير مشاركتك لي في ذلك فهو بإذني، فلا لوم عليك في ذلك. هذا ما ظهر لي من الجواب في هذا الوقت عن رسول الله ﷺ، فمن وجد جوابًا فوق ذلك، فهو أولىٰ بمقامه ﷺ.

(٦٥) ومما أجبتُ به عن رسول الله ﷺ حين خفتُ أن يتوهم متوهِم من قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ومن قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، ومن قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨] الآية، أنه ﷺ لولا قل صبره ما قال له تعالىٰ ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ ﴾، [الأحقاف: ٣٥] وكذلك القول في الآيتين بعدها.

والجواب: أن هذه الآيات عما فهمه هذا المتوهم بمعزل، فليس المراد أن صبره ﷺ نقص حتىٰ احتاج إلىٰ تشجيع الحقِّ تعالىٰ له بالأمر، وإنما المراد أنه ﷺ كان قد بالغ في شدَّة الصبر إلىٰ الغاية التي لم يصل [إليها][1] أحد من أولي العزم، فضلاً عن غيرهم، فكاد أن لا يصح لأحد أن يقتدي به في ذلك الصبر، فأمره الله تعالىٰ أن يتنزل من

---

(١) ساقط من «أ».

مقام الصبر الخاص به إلىٰ صبر من هو دونه في مرتبة الصبر، وهم أولو العزم من الرسل، فهو أمرٌ في باطنه مدحٌ له ﷺ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إنما قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] رحمةً به ولطفًا منه تعالىٰ له لما بالغ في شدة الصبر، وتحمل الألم إلىٰ الغاية، فأخبره الحقُّ تعالىٰ بأن ذلك بعينه عزَّ وجلَّ، أي إنه يرىٰ ما يصنع ﷺ بنفسه من تحمل ذلك الألم طلبًا للمبالغة في مرضاة الله عزَّ وجلَّ، فإن العبد إذا شهد أن ذلك البلاء من تقديرات الحقِّ تعالىٰ علىٰ عبده، وأنه تعالىٰ يرىٰ ما يصنع عبده بنفسه طلبًا لمرضاة ربه، خفف عنه الألم ضرورةً، وبقي له الأجر العظيم مع ذلك، لأنه لم يطلب من الله تعالىٰ تخفيف ذلك، وإنما الحقُّ تعالىٰ هو الذي أرشده إلىٰ أن يشهده تعالىٰ حال تألمه، فيخفف عليه شهوده لربه عزَّ وجلَّ. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول: إنما قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] إرشادًا له ﷺ أن يدوم علىٰ مقامه الشريف في الصبر، بحيث يقدر غيره علىٰ أن يقتدي به فيه من غير سخط ولا ضجر، فيكون صبره ﷺ بين الإفراط والتفريط. انتهىٰ.

وسمعتُه يقول مرارًا: ليس الأمر بالصبر خاصًا به ﷺ كما قررناه، وإنما ذلك عام في كلِّ داعٍ من أمته إلىٰ الصبر، فيتنزل أحدهم عن مقامه الخاص به إلىٰ مقام من هو دونه من الخواص والعوام، كما يتنزل ﷺ من مقامه الخاص به لمقام أولي العزم من الرسل، وكما كان أولو العزم من الرسل ينزلون إلىٰ مقام من هو دونهم من عامة الأنبياء الذين ليسوا من أولي العزم، وكما يتنزل آحاد الأنبياء إلىٰ مقام من هو دونهم من أكابر الأولياء، كالأقطاب والأوتاد وغيرهم إلىٰ آخر الدوائر. انتهىٰ. وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الباب السابع والخمسين من كتاب «الفلك المشحون في بيان أن التصوف هو ما تخلق به العلماء العاملون»[1]. وبينا فيه أن الإجماع من أهل الكشف قد انعقد علىٰ عصمته ﷺ من كلِّ شيء يتوجه به لوم عليه، فراجعه والله يتولىٰ هداك، وهو يتولىٰ الصالحين،

(١) من أوسع كتب الإمام الشعراني، وما زال مخطوطًا.

والحمد لله رب العالمين.

(٦٦) ومما أجبتُ به عنه ﷺ في قوله: «واسألوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة »[1] الحديث، ظن بعض أهل الشطح أن ذلك من جملة غيرة الحقِّ جلَّ وعلا أن يوصف أحد بالغنىٰ عن غيره دونه تعالىٰ، وفي هذا القول ما لا يخفىٰ من سوء الأدب معه ﷺ.

والجواب: أنه يجب حمل ذلك علىٰ أنه ﷺ قصد به تعليم أمته التواضع وإظهار الحاجة لبعضهم بعضًا، حتىٰ لا يزهو بعضهم علىٰ بعض، كما أنه ﷺ أخبرنا أن ربنا سبحانه ينزل إلىٰ سماء الدنيا[2]، أي ليُعلِّم الملوكَ التواضعَ مع رعاياهم، فافهم، والله أعلم.

(٦٧) ومما أجبتُ به عنه ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]**، قال قائل: كيف ذلك وهو أكثر الأنبياء عصمة؟!**

والجواب: أن ذلك علىٰ سبيل الفرض والتقدير. ويُحتمَل أن يكون المراد: يضلوك عن سبيل الله الخاص بك من طريق معاملته تعالىٰ، لعدم إشراف أكثر الناس علىٰ مقامك الخاص بك، فما ثم إلا من هو دونك في المقام لا ذوق له في المقام الذي تترقىٰ أنت إليه مع الأنفاس، حتىٰ يرشدك إلىٰ فضله والوصول إليه، وليس المرادُ بالضلال المذكور الضلالَ عن طريق الهدىٰ؛ لأن ذلك محال في حقِّه ﷺ، فالمعنىٰ: لا تطع أكثر الناس لو أرشدوك إلىٰ ما يرقيك عندهم لجهلهم به، وأطعنا فيما نرقيك به علىٰ لسان جبريل، نرقيك ونبلغك إلىٰ ما تريد.

فإن قال قائل: فما المراد بغير الأكثر الذين لم ينهه عن طاعتهم؟ **فالجواب:** المراد بهم أكابر الرسل كإبراهيم وموسىٰ وكُمَّل الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فإن لهؤلاء الأنبياء والصحابة الإشراف علىٰ مقامه ﷺ في عالم الأروح وفي عالم الأجسام، لكن علمًا لا ذوقًا.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨).

فإن قال قائل: إنه ﷺ أعلم منهم بالمقامات التي أمامه، ومثله لا يحتاج إلىٰ إرشاد غيرٍ له في الترقي إلىٰ تلك المقامات؛ **فالجواب:** أن ذلك من غيره من باب الخدمة والشفقة، كما يقول الخادم لسيده إذا كان يمشي خلفه: يا سيدي، أدر بالك لما أمامك من الوهدة[1] أو الربوة. وقد يدهش الكبير من عظمة ما تجلىٰ لقلبه، فلا يصير له التفات إلىٰ غيره، بخلاف خادم ليس عنده تلك الدهشة، فافهم. وهنا أسرار يذوقها العارفون لا تسطر في كتاب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٦٨) ومما أجبتُ به عن قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» إلىٰ أن قال: «وآدم ومن دونه تحت لوائي»[2]، قال قائل: ما وجه ذلك مع أنه ﷺ أكثر الأنبياء تواضعًا؟

والجواب: أنه لم يقل ذلك إلا بإذن من الله تعالىٰ، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ويشهد لذلك قولُه في الحديث: «ولا فخر» أي ولو فضلني الله تعالىٰ علىٰ غيري، فلا أفتخر بذلك عليه، بل أرىٰ نفسي دونه. وإنما كان آدم ومن دونه تحت لوائه يعني يوم القيامة، لأن آدم ما ظهر بعلم الأسماء إلا بحكم النيابة عن محمد ﷺ في عالم الملائكة، فتقدم محمد بالنبوة وآدم بين الماء والطين، فلما ظهر جسم محمد كان هو صاحب اللواء، فيأخذ اللواء من آدم يوم القيامة بحكم الأصالة، ويكون آدم ومن دونه تحت لوائه، وقد كانت الملائكة تحت ذلك اللواء في زمن آدم، وهم في الآخرة كذلك تحته، لكن من ظاهرية محمد ﷺ، فيظهر يوم القيامة لجميع الخلق خلافةُ رسول الله ﷺ علىٰ الجميع.

فإن قيل: قد ورد أن اللواء مشتمل علىٰ المحامد كلِّها، فما عددها؟ **فالجواب:** قد ذكر الشيخ محيي الدين أنه سأل الله أن يطلعه علىٰ عدد الأسماء المرقومة في اللواء التي يحمد اللهَ بها جميعُ الخلق، قال: فأطلعني علىٰ أن عددها ألف اسم وستمئة اسم وأربعة وستون اسمًا، مرقوم في كلِّ لواء منها تسعة وتسعون اسمًا، من أحصاها في موطن

(١) الوهدة: الأرض المنخفضة.

(٢) تقدم تخريجه.

القيامة دخل الجنة- يعني قبل الناس- وليس ذلك إلا للرجل الكامل من نبي ووليّ ووارث. ومعلوم أن المراد بالحمد هو الثناء، ولا يُثنىٰ علىٰ الله تعالىٰ إلا بأسمائه علىٰ حسب ما يقتضيه ذلك الموطن، فتُعطَىٰ الألوية السبعة التي احتوىٰ عليها اللواء الأعظم لرسول الله ﷺ ولورثته المحمديين يوم القيامة بعده. وحقيقة اللواء هو ما يجتمع الناس تحته، لأنه علامة علىٰ مرتبة الملك، ووجود الملك. وسُمِّي لواءً لأنه يلتوي علىٰ جميع المحامد، فلا يخرج عنه حمد. انتهىٰ[1]، فاعلم ذلك، واحفظ الأدب مع سيِّد الأولين والآخرين، وصدِّقه فيما يقول، والحمد لله رب العالمين.

(٦٩) ومما أجبتُ به عنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، قال قائل: كيف قدَّم خشيتَه من الناس علىٰ خشيتِه من الله تعالىٰ حين استحيا من نكاح زينب؟

والجواب: أن من كمال الكامل وقوفَه مع ما يمسك عليه المروءة العرفية، حتىٰ يأتي له أمر من الله تعالىٰ حتم، فإنه حينئذٍ يكون بحسب ما يُؤمَر، فإن كان عَرْضًا، نظر إلىٰ قرائن الأحوال، فإن كانت قرينة الحال تعطيه حكم الأمر الحتم، بادر إلىٰ القبول مبادرته إلىٰ الأمر الحتم الذي لا يسعه خلافه. وإن كانت قرينة الحال تخيره، بقي علىٰ الأمر العرفيِّ الذي يشهد له مكارم الأخلاق، ولذلك قال تعالىٰ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فهو واقف مع حكم الله تعالىٰ.

ويؤيد ما ذكرناه ثناؤه علىٰ يوسف بقوله: «لو كنتُ مكانَه لأجبتُ الداعي»[2] يعني داعي الملِك لما دعاه إلىٰ الخروج من السجن، فلم يخرج يوسف حتىٰ قال له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] يعني العزيز الذي حبسه ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠] ليثبت عنده براءته، فلا يصح له المنَّة عليه في إخراجه من السجن، بل طلب منَّة الله تعالىٰ بلا واسطة العزيز، إذ لو بقي الاحتمال لقدح ذلك في عدالته وهو

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٩٤)، ومسلم (١٥١).

رسول من الله، فلا بد من عدالته أن تثبت في قلوبهم. وكذلك الخشية التي وقعت من رسول الله ﷺ إنما كانت منه حرصًا على أن لا يردَّ دعوتَه جهالُ قريش بتزوجه زوجة من تبناه. وكان ابتلاؤه ﷺ بذلك ليُذيقه بلاء التهمة، ويتخلق بالرحمة الكاملة على كلِّ من اتُّهم ذوقًا زيادةً على تخلقه بها علمًا[1].

وكان نكاح زينب بعد من تبناه مما يقدح في مقامه عند العرب وهو رسول، فلما ذاق جرح المقام داواه الحقُّ تعالى بإبانته عن العلَّة في ذلك، ورفع الحرج عن المؤمنين كلِّهم في مثل ذلك الفعل، ثم فصل بينه وبينهم بقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فكان من الله تعالى في حقِّ محمَّدٍ ما كان من يوسف حين لم يجب الداعي، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. هكذا ذكره الشيخ محيي الدين في الباب السابع وثلاثين وخمسمئة من «الفتوحات»، والله أعلم.

هذا ما ظهر لي من الأجوبة عن رسول الله ﷺ، وأنا في خجل وحياء منه ﷺ في إقدامي على التكلم على مقامه الشريف، لعلمي بأن إجابة البعيد عن مقامه عنه بمثابة الهجو له ﷺ. وما حملنا على ذلك إلا قصدنا بجوابنا عن الأنبياء سد الذرائع التي لعلَّها تطرق عامة الناس من قياس أحوال الأنبياء على أحوالهم لا غير.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا يصلح أن يجيب عن الأنبياء إلا من عمل على تطهير باطنه من سائر الرذائل حتى لم يبق فيه شيء يفتضح بكشفه بين الناس في الدنيا والآخرة. فمن حصل له ذلك جاز له الجواب عن الرسل والأنبياء، لأنه حينئذٍ يكون له إلمام بمقاماتهم من حيثُ الصفاءُ الذي صار عنده.

(١) أثناء اطلاع بعض الأفاضل على هذا الموضوع استنكر ذلك جدًّا، إذ فهم أن النبي لم يكن متخلقًا بالرحمة قبل هذه الواقعة. والحق أن هذا الفهم بعيد عن مراد الإمام الشعراني، إذ كلام الإمام الشعراني في نوع مخصوص من الرحمة، وهي الرحمة على المتهم ظلمًا، ثم إن الإمام قد أثبت أن النبي ﷺ متخلق بها علمًا، وكان بلاؤه ﷺ ليذوق بلاء التهمة وإن كان سيدنا ﷺ لا يحتاج لذلك لتحصل منه الرحمة ابتداءً على المتهم ظلمًا، ولكن إكرامًا له ﷺ ليجمع الله له بين كمال المقامين، وليكون بلاؤه ﷺ تسلية للمتهمين ظلمًا من أمته.

وقد أنشد سيدي علي ابن وفا في حقِّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

عبادك يا مولىٰ الموالي الذين هم ... عبادك محفوظون حفظ الحبايب

من الـذر لم يظهر بصافي ذواتهم ... سوىٰ نورك الماحي لجنح الغياهب

مياه صفت ذاتًـا ومجرىٰ ومنبعًا ... وصينت عن الأكدار في كلِّ جانب

انتهىٰ. وليكن ذلك آخر ما فتح الله تعالىٰ به من الأجوبة عن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحسب استعدادي حالَ الكتابة. ومن أراد زيادة علىٰ ذلك، فليطالع كتاب «الشفا» للقاضي عياض ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(٧٠) وقد حُبِبَ لي أن أجيب عن أبوي رسول الله ﷺ لما عساه أن يخوض فيه بعض أهل الفضول من حيثُ إن ذلك يؤذي رسول الله ﷺ، فأقول وبالله التوفيق:

قد صنَّف الشيخ جلال الدين السيوطيُّ ﷺ في ذلك ستَّ مؤلفات وقد طالعتُها كلَّها، وحاصلُها ترجع إلىٰ ما أذكره لك في هذا المحلِّ، وهو أن الأدب مع رسول الله ﷺ واجب، ومن ذكر والديه بسوء فقد آذاه ﷺ، ومن آذاه فقد آذىٰ الله عزَّ وجلَّ، وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وفي القرآن العظيم﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن طالع فيما ذكره أهل السير من كلام عبد المطلب لما أراد نحر والد رسول الله ﷺ أو غيره من أولاده في قصة حفر بئر زمزم، شهد له بالتوحيد الخالص، وصاحب التوحيد سعيد بأي وجه كان توحيده، كما سيأتي في أقسام أهل الفترات؛ لأن مدار السعادة علىٰ حصول التوحيد لا علىٰ الإيمان، لأن وجوده مشروط بوجود رسول بين أظهرهم أو شريعة، وما ثم شريعة كانت في حياة أبوي رسول الله ﷺ ولا رسول.

وإيضاح ذلك أن متعلَّق الإيمان إنما هو الخبر الذي يأتي به الأنبياء عن الله عزَّ وجلَّ، ولم يكن بين أهل الفترات رسول ولا كتاب حتىٰ يؤمنوا به. وقد جعلوا ذلك لغزًا، فقالوا لنا: شخص يموت علىٰ غير الإيمان، ويدخل الجنة بغير حساب، وهو من وحَّد الله تعالىٰ

بنورٍ وجده في قلبه، ومات علىٰ ذلك، إذ الموحد سعيد بأي وجه كان توحيده كما مرَّ.

وقد قسَّم الشيخ محيي الدين أهلَ الفترات إلىٰ أقسام، وحكم لبعضهم بالسعادة ولبعضهم بالشقاء، وجعل بعضهم تحت المشيئة، فأما السعداء، فستة أقسام[١]:

الأول: من وحَّد الله تعالىٰ بنور وجده في قلبه، كقِسِّ بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيل[٢] وأضرابهما، فإن قسًّا كان يقول إذا سُئل: هل لهذا العالم خالق؟: البعرةُ تدل علىٰ البعير، وأثر الأقدام علىٰ المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وأبحر ذات أمواج، ألا تدل علىٰ العليم الخبير؟! انتهىٰ.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فكان يقول وهو ساجد: «إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم» كما ورد في البخاري[٣]. وكان يقول أيضًا: إني لأنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه، وأنا مؤمن به مصدِّق له، وأشهد أنه نبي، فمن طال عمره منكم ورآه، فليقرئه مني السلام.

ويُسمَّىٰ من وحَّد مثل توحيد قِس «صاحب دليل ممتزج بفكر» لأنه ذكر المخلوقات واعتباره فيها، وذلك هو الفكر. ومن هنا ورد أنه: «يُبعث أمة وحده»[٤]، لأنه ليس بتابع في أمره رسولًا ولا هو متبوع.

القسم الثاني: من وحَّد الله تعالىٰ بما تجلىٰ لقلبه من النور الذي لا يقدر علىٰ دفعه من غير فكر ولا رؤية، ولا نظر ولا استدلال، فهذا علىٰ نور من ربه خالصٍ غيرِ ممتزج

(١) انظر «الفتوحات» الباب (١٠).

(٢) زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، والد سعيد بن زيد، أحد الحكماء، لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها. ورحل إلىٰ الشام باحثًا عن عبادات أهلها، فلم تستمله اليهودية ولا النصراينة، فعاد إلىٰ مكة يعبد الله علىٰ دين إبراهيم. وجاهر بعداء الأوثان، توفي قبل مبعي النبي ﷺ بخس سنين. الإصابة (٢/ ٥٠٨)، الأعلام (٣/ ٦٠).

(٣) لم أجده عند البخاري، وإنما هو جزء من حديث أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد (٧٧١)، النسائي في الكبرىٰ (٨١٣١)، والحاكم (٥٨٥٩)، وكلهم قال: زيد بن عمرو بن نفيل.

(٤) جزء من حديث أخرجه البزار (١٣٣١)، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي (٤٩٥٦).

بفكرٍ في كون من الأكوان، فهذا يُحشر يوم القيامة مع الأصفياء الأبرياء.

القسم الثالث: من أُلقي في نفسه، واطلع من كشفه لشدة نوره وصفاء سرِّه وخلوص نفسه علىٰ منزلة محمد ﷺ وسيادته، وعموم رسالته باطنًا من زمن آدم عليه الصلاة والسلام إلىٰ زمن هذا المكاشَف، فآمن به في عالم الغيب علىٰ شهادة منه وبينة من ربِّه عزَّ وجلَّ، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧] يشهد له في قلبه بصدق ما كُوشف به، فهذا يُحشر يوم القيامة في ضنائن من خلقه، وفي باطنية محمد ﷺ.

القسم الرابع: من اتبع ملة حقٍّ ممن تقدمه، كمن تهوَّد أو تنصَّر أو اتَّبع ملة إبراهيم، أو من كان من الأنبياء حين عَلِم وأُعلِم أنهم رسل الله عزَّ وجلَّ يدعون طائفةً مخصوصةً إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، فتبعهم وآمن بهم وسلك سبيلهم، وحرَّم علىٰ نفسه ما حرَّم ذلك الرسول، وتعبَّد نفسه بشريعته وإن كان ذلك ليس هو بواجب عليه، إذ لم يكن ذلك الرسول مبعوثًا إليه، فهذا يُحشر مع من تبع ذلك النبي يوم القيامة، ويتميز في زمرته في ظاهريته، إذ كان شرع ذلك النبي قد تقرر في الظاهر.

القسم الخامس: من طالع في كتب الأنبياء، فعرف شرف محمد ﷺ وشرف دينه، وثواب من اتبعه، فآمن به وصدَّقه علىٰ علم وإن لم يكن دخل في شرع نبي قط ممن تقدَّم، لاسيما إن كان قد أتىٰ بمكارم الأخلاق، كحكيم بن حزام[1] وأضرابه، فهذا يُحشر يوم القيامة مع المؤمنين بمحمد ﷺ لا في العاملين بشريعته، ولكن في ظاهرية محمد ﷺ.

القسم السادس: من آمن بنبيه الذي أُرسِل إليه، وأدرك رسالة محمد ﷺ وآمن به، فهذا له أجران.

فهؤلاء ستة أقسام كلُّهم سعداء عند الله يوم القيامة لتوحيدهم، وإن لم يتصف غير القسم الأخير بالإيمان كما مرَّ.

---

(١) حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي، أبو خالد القرشي. أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه. وغزا حنينًا والطائف. وكان من أشراف قريش، وعقلائها، ونبلائها. وكانت خديجة عمته، كان إذا اجتهد في يمينه، قال: لا والذي نجاني يوم بدر من القتل. توفي:٥٤هـ. الاستيعاب (١/ ٣٦٢)، السير (٣/ ٤٤).

وأما غير السعداء فهم علىٰ أقسام: **فمنهم من عطَّل**، فلم يقر بوجود عن نظر قاصر، كلُّ ذلك القصور بالنظر إليه [غاية قوته][1] لضعف مزاجه عن قوة غيره، فهو تحت المشيئة. **ومنهم من عطَّل** لا عن نظر بل تقليد، فذلك شقيٌّ مطلق. **ومنهم من أشرك عن نظر** أخطأ فيه طريق الحقِّ، مع بذل المجهود الذي يعطيه قوته، فذلك تحت المشيئة. **ومنهم من أشرك** لا عن استقصاء نظر، فذلك شقيٌّ. **ومنهم من عطَّل** بعد ما أثبت عن نظر بلغ فيه أقصىٰ القوة التي هو عليها، مع ضعفها بالنسبة لمن فوقه، فهذا تحت المشيئة. **ومنهم من عطَّل** بعد ما أثبت لا عن استقصاء نظر ولا عن تقليد، فذلك شقي. **ومنهم من أشرك** عن تقليد محض، فذلك شقي.

فهذه أقسام أهل الفترتين بين نوح وإدريس، وبين محمد وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام: ستة أقسام سعداء، واثنان تحت المشيئة، وأربعة أشقياء كما ترىٰ، فإياك أن تحكم علىٰ أهل الفترات كلِّهم بحكم واحد من غير تفصيل، فتخطيء طريق الاستقامة، فاجعل يا أخي أبوي نبيِّك محمد ﷺ من سعداء أهل الفترات إن لم تؤمن بأن الله تعالىٰ أحياهما وآمنا برسوله ﷺ كما عليه الجهلة بمقدار رسول الله ﷺ.

وقد ذكر الحافظ الجلال السيوطيُّ رحمه الله أن الله تعالىٰ أحيا أبوي النبي ﷺ حتىٰ آمنا به. قال: وعلىٰ ذلك جماعة من الحفاظ، منهم: الخطيب البغدادي[2]، وأبو القاسم بن عساكر[3]،

---

(١) ساقط من «أ» ، «ب» مستكمل من «الفتوحات».

(٢) الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، صاحب التصانيف، وخاتمة الحفاظ. ولد: سنة ٣٩٢. سمع وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة، وارتحل إلىٰ البصرة وهو ابن عشرين سنة، وإلىٰ نيسابور وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وغير ذلك. له مصنفات منها: «الجامع، لأخلاق الراويّ وآداب السامع» «الكفاية في علم الرواية» «اقتضاء العلم والعمل». توفي: ٤٦٣هـ. السير (١٨/ ٢٧٠)، الأعلام (١/ ١٧٢).

(٣) الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر. ولد في المحرم، في أول الشهر، سنة ٤٩٩هـ، له مصنفات منها: «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الأشعري » و« تاريخ دمشق». توفي:٥٧١هـ. السير (٢٠/ ٥٥٤)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٠٩).

وأبو حفص بن شاهين[١]، والسهيلي[٢]، والقرطبي[٣]، ومحب الدين الطبري[٤]، وابن المنير[٥]، وابن سيد الناس[٦]، والصفدي، وابن ناصر الدمشقي[٧]، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) ابن شاهين أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي الواعظ. مولده ٢٩٧هـ، له مصنفات منها: «معجم الشيوخ» و«التفسير» في نحو ثلاثين مجلدًا و«معجم الشيوخ» توفي: ٣٨٥هـ. السير (١٦/ ٤٣١)، شذرات الذهب (٤/ ٤٥٤)

(٢) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد ابن أصبغ الأندلسي المالقي الضرير. ولد سنة:٥٠٨هـ. وسمع من ابن العربي، وطائفة، عمي وعمره ١٧ سنه. وكان إمامًا في لسان العرب، واسع المعرفة. له مصنفات منها: «الروض الأنف» و«التعريف والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام » توفي: ٥٨١ هـ. «طبقات الحفاظ للسيوطي» (ص: ٤٨١) وشذرات الذهب (١/ ٤٦).

(٣) محمد بن أحمد بن أبي فرح الأنصاري الخزرجي المالكي، أبو عبد الله القرطبي. مصنف التفسير المشهور، الذي سارت به الركبان، و«التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة». توفي: ٦٧١هـ. طبقات المفسرين للسيوطي (ص: ٩٢) وشذرات الذهب (٧/ ٥٨٤).

(٤) أحمد بن عبد الله بن محمد، شيخ الحرم محب الدين أبو العباس الطبري المكي الشافعي. ولد سنة ٦١٥هـ من مؤلفاته: «السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» و«الرياض النضرة في مناقب العشرة» و«ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربىٰ» توفي ٦٩٤هـ. الوافي بالوفيات (٧/ ٩٠) والأعلام (١/ ١٥٩).

(٥) أحمد بن محمد بن منصور بن القاسم القاضي، ناصر الدين ابن المنير الجذامي الجروي الإسكندراني قاضي الاسكندرية وعالمها. ولد سنة ٦٢٠هـ كان مع علومه له اليد الطولىٰ في الأدب وفنونه، له مصنفات منها: «التيسير العجيب في تفسير الغريب» «المتواري علىٰ تراجم أبواب البخاري» توفي: ٦٨٣هـ.انظر: فوات الوفيات (١/ ١٤٩) والوافي بالوفيات (٨/ ٨٤).

(٦) أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد الحافظ اليعمري الأندلسيّ الإشبيليّ المصري الشافعي المعروف بابن سيد الناس. محدث، حافظ، مؤرخ، فقيه. ولد ٦٧١هـ بالقاهرة، وتفقه علىٰ مذهب الشافعي، وأخذ الحديث علىٰ والده وابن دقيق العيد ولازمه سنين كثيرة. له مصنفات منها: «عيون الأثر» و« بشرىٰ اللبيب بذكر الحبيب » توفي ٧٣٤هـ ودفن بالقرافة. النجوم الزاهرة (٩/ ٣٠٣) معجم المؤلفين (١١/ ٢٦٩)

(٧) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي المعروف بابن ناصر الدين. ولد في محرم سنة ٧٧٧هـ بدمشق ونشأ بها فحفظ القرآن وتفقه واعتنىٰ بهذا الشأن وأفاد ودرس وتصدىٰ لنشر الحديث فانتفع به الناس. له مصنفات منها: «جامع الآثار في مولد المختار» و«مورد الصادي في مولد الهادي» و«إطفاء حرقة الحوبة بالباس خرقة التوبة ». توفي ٨٤٢هـ. الضوء اللامع (٨/ ١٠٣) والنجوم الزاهرة (١٥/ ٤٦٥).

ولفظ السهيلي بعد إيراد حديث رواه الحاكم وصححه عن ابن مسعود ﷺ قال: «سُئل رسول الله ﷺ عن أبويه، فقال: ما سألتهما ربي فيعطيني فيهما، وإني لقائم يومئذ المقام المحمود»[1]. قال: ففي هذا الحديث تلويح بأنه ﷺ يشفع فيهما في ذلك المقام، ليوفَّقا للطاعة عند الامتحان الذي يقع يوم القيامة، كما ورد في عدة أحاديث.

قال المحب الطبري: والله تعالىٰ قادر علىٰ أن يحيي له أبويه ﷺ حتىٰ يؤمنا به ثم يموتا، ويكون ذلك من إكرام الله تعالىٰ لسيِّد الأولين والآخرين. وقال القرطبيُّ: ليس إحياؤهما وإيمانهما به ممتنعًا لا عقلًا ولا شرعًا، فقد ورد في القرآن إحياء قتيل بني إسرائيل حتىٰ أخبر بقاتله. انتهىٰ.

قلتُ: وعلىٰ القول بصحة إحيائهما بعد موتهما، فيكون ذلك الإحياء مثل إحياء من قال: ﴿لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] أي إلىٰ تكملة آجالهم. وعلىٰ ذلك فما آمن أبوا النبي ﷺ إلا في زمن تكليفهما، فكأنهما آمنا به قبل أن يموتا، كما قال العلماء في سجدة أهل الأعراف أن ميزانهم ترجح بتلك السجدة، ثم يدخلون بها الجنة، فلولا أن هذه السجدة تنفعهم لما سعدوا بها ودخلوا بها الجنة. وفي التحقيق أن يوم القيامة برزخ له وجه إلىٰ الدنيا ووجه إلىٰ الآخرة، من حيثُ رجحانُ ميزان أهل الأعراف، ومن حيثُ إنه يوم جزاء.

وكان القاضي أبو بكر بن العربي المالكي يقول: ليس عندي أحد آذىٰ النبي ﷺ بأشد من أذىٰ من يقول: إن أبوي النبي ﷺ في النار، وفي حديث مسلم: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات»[2]، فيحرم جزمًا أن يُقال: إن أبوي النبي ﷺ في النار.

قال الجلال السيوطي: وقد صرَّح جماعات كثيرة بأن أبوي النبي ﷺ لم تبلغهما الدعوة، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجيًا من العذاب، ويدخل الجنة.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٣٨٥) وأحمد (٣٧٨٧).

(٢) لم أقف عليه عند مسلم، والحديث أخرجه الترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢).

قال: وهذا هو مذهبنا لا خلاف فيه بين المحققين من أئمتنا الشافعية في الفقه، والأشاعرة في الأصول. ونصَّ علىٰ ذلك الإمامُ الشافعيُّ، وتبعه المحققون من أئمتنا الأصحاب.

ومما يوضح لك أنهما ماتا ولم تبلغهما الدعوةُ كونهما ماتا في حداثة سنِّ رسول الله ﷺ. وصحح العلائيُّ وغيرُه أن والد رسول الله ﷺ عاش من العمر ثمان عشرة سنة، ووالدته ماتت في حدود العشرين. ومثل هذا العمر لا يسع الفحص عن المطلوب في التوحيد، علىٰ القول بأن الله تعالىٰ لم يحيهما حتىٰ آمنا به، مع أن ذلك الزمان الذي كانا فيه كان زمان قد عمَّ فيه الجهل والفترة. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.



الباب الثالث

فيما أجبتُ به عن الصحابة والتابعين وتابع التابعين رضي الله عنهم أجمعين

(۷۱) فمما أجبتُ به عن قول أبي بكر الصديق ﷺ لمن قال له: ألا ندعو لك طبيبًا: «إن الطبيب أمرضني» قال قائل: لمَ [لم] يقل كما قال إبراهيم الخليل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ۸۰] ويضيف المرض إلىٰ نفسه، أو كان يسكت عن ذلك؟

والجواب: أنه ربما قال ذلك بحضرة من كان قريب العهد بإسلام، وإلا فهو يعلم أن الله أمره بالتداوي ولو شهد أن الله هو الممرِض له، فلولا من كان في محله من ضعفاء الحال الذين يضيفون الأمور للأسباب ممن يقول: مطرنا بنوء كذا، لما قال: الطبيب أمرضني، فافهم والله أعلم.

(۷۲) ومما أجبتُ به عن قول الإمام عليٍّ ﷺ للصحابة: «سلوني عن طرق السماوات، فأنا أعرف بها من طرق الأرض».

والجواب: أن المراد بطرق السماوات المقاماتُ والأحوالُ، كالتوبة والزهد والتوكل ونحو كذلك، فإن السالك بهذه الطرق يصير قلبه سماويًّا طوَّافًا بالملكوت، فالمراد طرق السماوات في الأرض، لا أنه صعد بجسمه إلىٰ السماوات في اليقظة، فإن ذلك ممنوع لمثله. ويُحتمَل أن يكون مراده أنه يعرف طرق السماوات من ارتسامها في لوح قلبه، كما يقع للأولياء، لأن قلوبهم لصفائها صارت مرآةً للعالم العلويِّ والسفليِّ. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «أنا اللوح، أنا الكرسيُّ، أنا النقطة التي تحت الباء، أنا القرآن والسبع المثاني» ونحو ذلك مما نُقل عنه، والله أعلم.

(۷۳) ومما أجبتُ به عن الصحابة في قوله تعالىٰ في حقِّهم: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]: أي منكم من يريد الدنيا لآخرته ينفق ويتصدق منها، ومنكم من يريد الآخرة- أي أعمالها- لله تعالىٰ ولمشاهدته فيها،

وذلك لأن الله تعالىٰ لم يذكر إرادتهم للدنيا والآخرة لماذا، فيُحمَل علىٰ ما هو أرقىٰ في الدرجة منها، فما فوق الدنيا إلا الآخرة، وما فوق نعيم الآخرة الطبيعيِّ إلا نعيم الأرواح، وهو مشاهدة ربِّهم عزَّ وجلَّ.

[توجيه قتال سيِّدنا معاوية لسيدنا عليٍّ رضي الله عنه]

وأما قول سفيان الثوري عن معاوية[1]: «إنه كان رجلاً عالـمًا، ولكنه غلب عليه حبُّ الدنيا» فمراده أن معاوية يحبُّ الدنيا للآخرة، بقرينة قوله في وقت آخر: ما أحب أحدٌ من الصحابة الدنيا إلا ليفعل بها خيرًا.

وأما قتال معاوية علىٰ الخلافة فإنما كان مزاحمةً علىٰ الخير بحسب اجتهاده، ولا يجوز حملُه علىٰ أنه قَاتَلَ محبةً في الدنيا، فإن أقلَّ المريدين في الطريق يخرج عن الدنيا اختيارًا، فكيف بالصحابة رضي الله عنهم؟! فكان قتال معاوية علىٰ الخلافة ليفعل فيها خيرًا، من باب قوله تعالىٰ: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]. هذا اعتقادنا فيهم رضي الله عنهم أجمعين.

[توجيه موافاة الصحابة لرسول الله ﷺ حين جاءه المال]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: يجب حمل الصحابة الذين وافوا صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ يوم ورد أبو عبيدة[2] بمال من البحرين[3]، ولم يكن لهم عادة

---

(١) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي، أبو عبد الرحمن القرشي المكي. أمه هند بنت عتبة بن ربيعة، ولد قبل البعثة بخمس سنين، قيل: إنه أسلم قبل أبيه وقت عمرة القضاء، وبقي يخاف من اللحاق بالنبي ﷺ من أبيه، وما ظهر إسلامه إلا يوم الفتح، وشهد مع رسول الله ﷺ حنينًا، وأعطاه من غنائم هوازن مائة بعير ت ٦٠هـ. أسد الغابة (٥/ ٢٠١)، الإصابة (٦/ ١٢٠).

(٢) أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي المكي، أحد السابقين الأولين، شهد بدرًا مع النبي ﷺ وما بعدها من المشاهد كلها. وشهد له النبي ﷺ بالجنة، وسماه: أمين الأمة، ومناقبه شهيرة جمة. توفي: رضي الله عنه وهو ابن ٥٨ سنة في طاعون عمواس سنة ١٨هـ بالأردن. الاستيعاب (٤/ ١٧١٠)، السير (١/ ٥).

(٣) أخرج البخاري (٦٤٢٥) «أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلىٰ البحرين يأتي بجزيتها، وكان

بالمواظبة على صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ على أنهم ما حضروا ذلك اليوم إلا مسارعةً لمرضاة الله عزَّ وجلَّ، لينالوا من ذلك المال شيئًا، فينفقوه في المصالح الأخروية. ولا يجوز حملهم على محبة أخذ ذلك المال لشيء من الحظوظ الدنيوية. وهو قريب من واقعة السيد أيوب لما حثا الذهب في ثوبه حين أمطرت السماء ذهبًا، وقال له الحقُّ جلَّ وعلا: «ألم أكن أغنيتُك عن مثل هذا؟ فقال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»[1]. انتهى، فإن الحقَّ جلَّ وعلا قد أقرَّه على أخذ ذلك الذهب بهذه النية، مع أنه كان من أغنى الناس وأكثرهم مالًا. انتهى، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٤) ومما أجبتُ به عن الصحابة أيضًا في قوله تعالى في حقِّهم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فإن بعض الناس قال: إن في ذلك توبيخًا لهم، كيف يفارقون من هداهم الله به إلى دين الإسلام لأجل كلمة يسمعونها من رسول ﷺ؟! وهذا لا يقع فيه مريد صادق للأشياخ، فكيف بالصحابة ﷺ؟!

والجواب: أن ذلك القول إنما هو على سبيل الفرض والتقدير، مثل قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] مع أنه تعالى سبَّح نفسه عن اتخاذ الولد بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وبقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وبقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، فكما فرض الله تعالى المحال في اتخاذه الصاحبة والولد، فكذلك القول في وصف حبيبه نبيِّنا محمد ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب هو كفرض محال، وكذلك وصفه

رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء. قالوا: أجل يا رسول الله. قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم» ومسلم (٢٩٦١).

(١) تقدم تخريج الحديث، والجواب عن الواقعة في الفصل الثاني، الجواب رقم (٤٥).

أصحابه ﷺ بأنهم كانوا ينفضون من حوله إن لم يُلِنْ لهم الكلام ويرق لهم بقلبه، فإنه من المعلوم أنه ﷺ كان أحب إليهم من أنفسهم، حتىٰ كان سعد بن معاذ[1] ينظر السهم سائرًا إلىٰ ناحية النبي ﷺ، فيتلقاه عنه بصدره، فمن يتلقىٰ السهم الصائب عنه كيف ينفض من كلام يسمعه منه لو وقع؟! فافهم.

[توجيه قول أبي هريرة ﷺ: كنتُ أجالس رسول الله ﷺ لملء بطني]

وأما قول أبي هريرة ﷺ: «كنتُ أجالسُ رسول الله ﷺ لملء بطني»[2] فالمراد به أنني كنتُ لا أفارقه إلا إن لم أجد عنده ما يدفع عني ضرورةَ الجوع المضرِّ لعقلي وبدني، ومتىٰ وجدتُ عنده شيئًا يدفع عني كلب الجوع، لم أفارقه، مع أنه ﷺ كان عنده مداعبة، بدليل ما رواه مالك ﷺ بلاغًا[3] أن أبا هريرة أراد أن يدخل إلىٰ وليمة، فمنعوه لرثاثة ثيابه، فاستعار له ثوبًا حسنًا فأدخلوه، فلما وضعوا بين يديه الطعام، وضع كمَّه في الطعام وقال: كُلْ! فإنهم ما عزموا إلا عليك لا علىٰ أبي هريرة[4]. انتهىٰ. فمعنىٰ قوله: «لملء بطني» أي حيث وجدتُ عنده قوتي لم أفارقه حرصًا علىٰ حفظ الحديث، فاعلم ذلك.

(٧٥) ومما أجبتُ به عن أبي يزيد البسطامي ﷺ في اتخاذه ثوبًا لدخوله الخلاء خلاف الثوب الذي يقف به في الصلاة، ولاث به بعض الجهلة وقالوا: «هذا تنطع في الدين»: بأنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ أبي يزيد في ذلك، لأنه من أهل الاجتهاد في الأدب مع الله تعالىٰ، فأراد أن لا يكون ثوب خلائه الذي يحضره الشياطين ثوب صلاته الذي يدخل

---

(١) سعد بن معاذ بن النعمان الأنصاري الأشهلي البدري، الذي اهتز العرش لموته، شهد بدرًا، ورمي بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهرًا، حتىٰ حكم في بني قريظة، وأجيبت دعوته في ذلك، ثم انتقض جرحه، فمات منه سنة ٥هـ. الإصابة (٣/ ٧٢)، أسد الغابة (٢/ ٤٦١).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٧٠٨)، ومسلم (٢٤٩٢) بنحوه.

(٣) أي بقوله: بلغني.

(٤) أورده ابن رشد الجد في «البيان والتحصيل» (١٧/ ٥٥٠)، وهو شرح لكتاب «المستخرجة» المعروف بالـ«عتبية» لمحمد بن أحمد العتبي القرطبي، وهي مسائل تلقاها من تلامذة الإمام مالك ومن تلامذتهم.

به حضرة الله تعالىٰ مع الأنبياء والملائكة والمقربين، أدبًا مع حضرة الله عزَّ وجلَّ، نظير ما ورد في تحريم استقبال القبلة في الصحراء واستدبارها حال الغائط أو البول، فكما طلب الشارع أن لا تكون جهة قضاء الحاجة جهة الوقوف في الصلاة، فكذلك طلب أبو يزيد أن لا يكون ثوب خلائه هو ثوب صلاته من باب الأدب.

وقد بلغنا عن الإمام زين العابدين[1] أنه قال لولده: اتخذ لي ثوبًا لخلائي عن ثوب صلاتي، فإني رأيت الذباب يقع علىٰ العَذِرة، ثم ينزل علىٰ ثوبي في الخلاء. فقال له ولده: إن رسول الله ﷺ لم يكن له إلا ثوب واحد لخلائه ولصلاته. فرجع الإمام عن ذلك. وربما يُجاب عنه ﷺ تسهيلًا لأمته، لكونه كان يحب التخفيف عنهم، فترك فعلَ مثلَ ذلك توسعةً لهم، مع أن الأكابر لو فعل أحدُهم ذلك من ذات نفسه، لكان يقرُّه علىٰ ذلك. وأيضًا فإن الذباب كان لا ينزل علىٰ بدن رسول الله ﷺ ولا علىٰ ثيابه، كما هو مذكور في «الخصائص». فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الأكابر من العلماء والصالحين، فإنهم مجتهدون في العلم والطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٧٦) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوري ؓ في قوله: «إياكم من الرياء والعجب والتزين في الأعمال والأقوال. وإن خلصتم من ذلك، فاحذروا من تركه» فلاث به بعضهم وقال: كيف يصح التحذير من ترك الرياء والعجب والتزين؟!

والجواب: أن مراده واحذروا من حصول العجب بترك ذلك، فإن من شأن النفس أن يحصل لها العجب إذا خلصت من الشوائب، فحذَّر أصحابه من مثل ذلك، لكونه يخفىٰ علىٰ كثير من الناس. وربما كان رياؤه وإعجابه بترك الرياء والإعجاب أقبح، فتأمل.

وكان الأنطاكيُّ[2] يقول: المتزينون ثلاثة: متزين بالعلم، ومتزين بالعمل، ومتزين

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين، يكنىٰ: أبا الحسين، ولد سنة ٣٨ هـ، وحدث عن: أبيه وكان معه يوم كربلاء، وله ثلاث وعشرون سنة، وكان يومئذ موعوكًا، فلم يقاتل. كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلىٰ أن مات، وكان يلقب زين العابدين لعبادته. ت ٩٤هـ. السير (٤/ ٣٨٦) ووفيات الأعيان (٣/ ٢٦٦).

(٢) أحمد بن عاصم الزاهد الرباني الولي أبو عبد الله الأنطاكي، صاحب مواعظ وسلوك.وكان يقول: غنيمة

بترك التزين، وهو أغمضها وأحبُّها إلىٰ الشيطان. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ من هو أعلم منك بطريق الظاهر والباطن، والحمد لله رب العالمين.

(٧٧) ومما أجبتُ به عن قولهم عن إبراهيم التيمي[1] رضي الله عنه إنه ما ذُكِر أحد من إخوانه بحضرته وأثنىٰ عليه خيرًا قط، ففهم من ذلك بعض المتأخرين أنه كان يذكر إخوانه بالسوء.

والجواب: أنه ليس في كلامه ما يُفهَم منه أنه كان يذكر الناس بسوء، وإنما يُفهَم منه الوقوفُ عن الثناء فقط، والوقوف عن الثناء يحتمل أن يكون قصد به أن لا يَنقُص أجرُ أخيه في الآخرة بالثناء عليه في الدنيا، فإن السلفَ الصالحَ كانوا يعدُّون الثناء علىٰ الإنسان من جملة جزاء أعماله الصالحة، فلذلك تركه إبراهيم التيمي، وكان تركه أولىٰ في حقِّ إخوانه، فاعلم ذلك، واعمل به مع إخوانك الصادقين الذين يحبُّون منك ترك الثناء عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٧٨) ومما أجبتُ به عن الحسن البصري[2] رضي الله عنه في قوله: «من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها» واستشكله بعضهم وقال: قد ذم الصحابة نفوسهم.

والجواب: أن كلام الحسن محمول علىٰ رعاع الناس الذين يطلبون المقام عند الناس بطرق خفية بقرينة أعمالهم وأحوالهم. أما من شهدت له أعماله وأحواله بشهود النقص في أعمال نفسه خالصًا كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلا يكون ذمُّه لنفسه في الملأ مدحًا لها، فقد كان أبو بكر رضي الله عنه يقول: ليتني كنتُ تبنةً، فأكلني بعير وأخرجني عَذِرة! وكان

باردة؛ أصلح فيما بقي، يغفر لك ما مضىٰ. وقال: إذا صارت المعاملة إلىٰ القلب، استراحت الجوارح. له مصنفات منها: «دواء داء القلوب» توفي: ٢١٥هـ. السير (١٠/ ٤٨٧) والرسالة القشيرية (١/ ٧٣).

(١) إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي،الإمام، القدوة، الفقيه، عابد الكوفة، أبو أسماء. كان شابًا صالحًا قانتا لله عالمًا فقيهًا كبير القدر واعظًا. ت ٩٢هـ. السير (٥/ ٦٠) والوافي بالوفيات (٦/ ١٠٧).

(٢) الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد مولىٰ زيد بن ثابت، حضر الجمعة مع عثمان، وسمعه يخطب، وشهد يوم الدار، وله يومئذ أربع عشرة سنة. دعا له عمر وقال: اللهم فقهه في الدين، وحببه إلىٰ الناس. توفي: ١١٠هـ.السير (٤/ ٥٦٣) وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٣٥)

عمر ﷺ يقول: ليت أمي لم تلدني! فاعلم ذلك، ونزِّه الأكابر إذا مدحوا نفوسهم بحضرة الناس عن قصدهم الأغراض الفاسدة بذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٧٩) ومما أجبتُ به عن الإمام أبي حنيفة ﷺ في قوله بعدم وجوب النية في الوضوء، فإن بعضهم أنكر عليه وقال: قد قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوىٰ»[١] وهذا لم ينو، فكيف يصح وضوؤه؟! فإذا صلىٰ بهذا الوضوء كأنه صلىٰ مع الحدث.

والجواب: أنه لا يجوز الاعتراض علىٰ المجتهدين، وقد قال الإمام ذلك باجتهاد. والحديث يُحتَمل أن يكون المراد به: إنما كمالُ الأعمال بالنيات، نظير: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[٢].

وقد كان عبد الله بن عباس[٣] ﷺ يقول: لا يحتاج شيء من فروع الإسلام إلىٰ نية بعد أن اختار صاحبه الدخول في دين الإسلام، وكذلك كان أبو سليمان الدارانيُّ يقول: كلُّ ما عمل المؤمن من أعمال الإسلام مما لم تحضره فيه نية، فنية الإسلام تجزيه. انتهىٰ. لكن ينبغي حمل كلام ابن عباس والداراني علىٰ من يَقْدِرُ يُشَخِّصُ في ذهنه أعمالَ الإسلام كلَّها حين دخل في الإسلام، أو حين ميَّز وفهم حقيقة الإسلام، نظير ما قال الغزاليُّ وغيره: «يجب عليه أن يستحضر جميع أفعال الصلاة حال التكبير» فإنه محمول بلا شك عند العارفين علىٰ من يَقْدِرُ علىٰ ذلك ممن غلبت روحانيتُه علىٰ جثمانيتِه، إذ الأرواح للطافتها تقدِر علىٰ إدراك مئة ألف شيء دفعة واحدة، بخلاف الأجسام لا

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٨٩٨) والدارقطني (١٥٥٣) والبيهقي في «الكبرىٰ» (٤٩٤٥). قال ابن حجر: فائدة حديث «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» مشهور بين الناس وهو ضعيف ليس له إسناد ثابت أخرجه الدارقطني عن جابر وأبي هريرة وفي الباب عن علي وهو ضعيف أيضًا. التلخيص الحبير (٢/ ٣١).

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حبر الأمة وترجان القرآن، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، رأىٰ جبريل عليه السلام مرتين، دعا له النبي ﷺ أن يؤتيه الله الحكمة، وأن يفقهه في الدين، شهد مع علي الجمل وصفين، وكف بصره في آخر عمر، فسكن الطائف ومات بها سنة ٦٨هـ. «الإصابة» (٤/ ١٢١).

تكاد تتعقل الأمور إلا على التدريج شيئًا بعد شيء، فافهم، وإياك والاعتراض على المجتهدين، فإن حكمك حكم قريب العهد بالإسلام بالنسبة إلى من له مئة ألف سنة يطالع في كتب الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٨٠) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوريِّ وإبراهيم التيميِّ في كونهما كانا يلبسان لبس الصبيان تارةً، ولبس الملاحين تارةً، حتى لا يتميز أحد منهما عن العامة. فقال بعض الفقهاء: هذه اللبسة تخل بالمروءة، فكيف فعلها هذان الإمامان؟!

والجواب: أنهما كانا يفعلان ذلك ذبًّا عن أنفسهما أيام الحجاج بن يوسف[1] حتى لا يتعرض لهما بسوء، بقرينة أنه حبس إبراهيم التيمي، وهرب سفيان إلى اليمن، فلبس له ثوبًا معصفرًا، وخرج فلم يعرفه أحد. ولما قال: أخرجوا إبراهيم التيمي من السجن واقتلوه؛ غلطوا فأخرجوا إبراهيم النخعي[2] فقتلوه، فالمعترض على هذين الإمامين في وادٍ، وهما في وادٍ.

ويُحتمَل أن تكون لبسة العلماء في ذلك الزمان تشبه عمائم العامة في الغالب، ولم يكن يتميز عنهم من العلماء إلا بعض أفراد، بخلاف هذا العصر الذي نحن فيه، فإننا تبعنا فيه أحوال من تقدَّمنا من الخلف، فصار تميزنا اصطلاحًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أمير العراق ولد سنة ٤٠-٤١ هـ. قال عون: كنت إذا سمعت الحجاج يقرأ عرفت أنه طالما درس القرآن. وقيل: إنه كان يقرؤه كل ليلة وقال عتبة بن عمرو: ما رأيت عقول الناس إلا قريبًا بعضها من بعض؛ إلا الحجاج وإياس ابن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس. أحصي ما قتل صبراً فبلغ ذلك مئة وعشرين ألفا وعرضت بعد موته السجون فوجد فيها ثلاثة وثلاثون ألفا لم يجب على أحدهم قطع ولا صلب. توفي ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان ٩٥هـ. انظر:الوافي بالوفيات (١١/ ٢٣٧) وفيات الأعيان (٢/ ٢٩).

(٢) أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي اليماني ثم الكوفي، أحد الأعلام، كان بصيرا بعلم ابن مسعود، واسع الرواية، فقيه النفس، كبير الشأن، كثير المحاسن وكان مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانهما، وكان رجلًا صالحًا، فقيها. توفي: ٩٦هـ. السير (٤/ ٥٢٠)، حلية الأولياء (٤/ ٢١٩).

(٨١) ومما أجبتُ به عن قول حاتم الأصم[١] رحمه الله: «لا يجلس لتعليم العلم في المساجد إلا جامع للدنيا أو جاهل بما عليه من الواجبات» فقد استشكله بعضهم وقال: لم تزل الناس قديمًا وحديثًا يجلسون لتعلم العلم في المساجد، ولا يجوز أن يقال: إنهم كلُّهم جامعون للدنيا وجاهلون.

والجواب: أن كلام الشيخ جرىٰ علىٰ الغالب، وما من عام إلا ويمكن أن يدخله التخصيص إلا إن منع منه الدليل. وقد كان سفيان وطاووس[٢] وبشر الحافي[٣] وغيرهم يقولون: لا يصح لأمثالنا أن يجلس في المساجد علىٰ الحديث؛ خوفًا أن يطرقه عجب بذلك. وكان سفيان الثوري يقول: لو أدركني عمر بن الخطاب وأنا أملي الحديث، لضربني بالدِّرَّة وأقامني، وقال: مثلك لا يصلح أن يملي حديث رسول الله ﷺ، وهؤلاء لا يصلحون لسماعه. وكان عبد الله بن عباس إذا فرغ من تفسير القرآن للناس في المسجد يقول: اختموا مجلسنا بالاستغفار، كأنه يَعُدُّ جلوس مثله في المسجد ذنبًا، إذ الجالس فيه كالجالس بين يدي الله تعالىٰ بلا حجاب، وهو يسمع كلامه ويطلع علىٰ ما يخطر في نفسه، ومن يطيق القيام بمثل ذلك، أو يقدر علىٰ حفظ نفسه من الخواطر الردية التي تمر

---

(١) أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي، الواعظ الناطق بالحكمة، الأصم ولم يكن أصم وإنما أتته امرأة تسأله عن مسألة فخرج منها ريح لها صوت، فتصامم لئلا تستحي وقال لها: أسمعيني صوتك فإني لا أسمع ففرحت لذلك. ت ٢٣٧هـ.السير (١١/ ٤٨٤) اللباب في تهذيب الأنساب (١/ ٧١).

(٢) أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني اليماني، من أبناء الفرس؛ أحد الأعلام التابعين، وكان فقيهًا جليل القدر نبيه الذكر. قال ابن عيينة: قلت لعبيد الله بن يزيد: مع من تدخل علىٰ ابن عباس قال: مع عطاء وأصحابه. قلت: وطاوس قال: أيهات، كان ذلك يدخل مع الخواص. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت أحدًا قط مثل طاوس. توفي:١٠٦هـ. وفيات الأعيان (٢/ ٥٠٩) وحلية الأولياء (٤/ ٣).

(٣) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي، كان من كبار الصالحين، وأعيان الأتقياء المتورعين. ومولده بمرو. قال أحمد بن حنبل: لو كان بشر بن الحارث تزوّج لتمّ أمره. وقال إبراهيم الحربيّ: ما أخرجت بغداد أتمّ عقلًا من بشر ولا أحفظ للسانه، كأن فى كلّ شعرة منه عقلًا ت ٢٢٧هـ. تهذيب الكمال (٤/ ٩٩)، وفيات الأعيان (١/ ٢٧٤).

علىٰ باله؟! فصح قول حاتم: إنه لا يجلس في المسجد إلا جاهل بما عليه من الواجبات، أي واجبات الأدب مع الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٨٢) ومما أجبتُ به عن قول ثابت البناني[١] ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله» فاستشكله بعضهم وقال: كيف تكون النية من غير عمل أفضل من مباشرة العمل؟!

والجواب: أن مراده أن ثمرة النية الصالحة ترجح علىٰ ذلك العمل التي هي فيه، فالتفاضل بين النية وبين العمل الذي باشره المكلف، فما كلُّ عمل يكون فيه الثواب، بخلاف النية الصالحة يترتب عليها الثواب دائمًا تفضلٌ من الله تعالىٰ، وقد يريد ثابت ﷺ بأنها خير من حيث إن الرياء لا يدخلها كما قاله عكرمة[٢] ﷺ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٣) ومما أجبتُ به عن الإمام الأوزاعي ﷺ في قوله: «إذا جاء الإعراب، ذهب الخشوع من القاريء والسامعين» فقال بعضهم: فماذا يصنع والحديث لا يجوز اللحن فيه؟!

والجواب: أن مراده بالإعراب زيادة التفصح في لغة العرب عن عادة العلماء بالنطق، كالذي يتشدق بالكلام لا مطلق الإعراب، فكأن الشيخ ﷺ يحث السامع للعلم علىٰ ملاحظة تلك المعاني التي في الألفاظ ليعتبر بها، لا علىٰ مراعاة الألفاظ كما هو مشاهَد في كتب الرقائق إذا حضرها نحويٌّ، فيكون الناس يبكون، فبمجرد ما يسأل عن إعراب كلمة يذهب البكاء لوقته. وكان إبراهيم بن أدهم ﷺ يقول: لقد أعربنا في الكلام فلم نلحن، ولحنا في الأعمال، فلم نعرب، ولو عكسنا ذلك لكان أولىٰ! فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ثابت بن أسلم الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو محمد البناني مولاهم البصري، صحب أنس بن مالك أربعين سنة وكان من أعبد أهل البصرة وأكثرهم صبرًا علىٰ كثرة الصلاة ليلًا ونهارًا مع الورع الشديد ت ١٢٧هـ. مشاهير علماء الأمصار ص١٤٥، السير (٥/ ٢٢٠).

(٢) عكرمة أبو عبد الله مولىٰ ابن عباس بربري الأصل من كبار التابعين. كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. طاف البلدان، وروىٰ عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعيًا. توفي سنة ١٠٤هـ. تهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٣)، الأعلام (٤/ ٢٤٤).

(٨٤) ومما أجبتُ به عن عمر بن الخطاب ﷺ في ضربه بالدِّرَّة[1] من رآه يصلي ورقبته منخفضة، وقال له: ويحك! إنما الخشوع في القلب. انتهىٰ. قال بعضهم: كيف ساغ له ضربه بالدِّرَّة في الصلاة ولم يكرمه، لكونه بين يدي الله عزَّ وجلَّ، ولم يحسن به الظن وأنه طأطأ رقبته قهرًا عليه لا متفعلًا؟!

والجواب: أن الإمام عمر كان مجتهدًا، فرأىٰ أن ضربه بالدِّرَّة تأديبًا له، لكونه لم يترقَ إلىٰ مقام الأكابر، مع قدرته علىٰ الترقي، فيصير يخشع في صلاته أشدَّ الخشوع ولا يطأطيء رقبته، فيراه الناس فيمدحونه علىٰ ذلك. وليس في الكلام ما يشهد لكون عمر ضربه في الصلاة، فيُحتمَل أنه ضربه حين فرغ منها لما عاتبه. ولا يلزم من ضربه بالدِّرَّة أنه ظنَّ به أنه متفعِّلٌ في الخشوع، أو هو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلا اعتراض، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥) ومما أجبتُ به عن الفضيل بن عياض[2] في قوله: إذا رأيتم العالم ينشرح لذكره بالعلم والصلاح عند الأمراء وأبناء الدنيا، فاعلموا أنه مراءٍ. انتهىٰ.

والجواب: أن ذلك محمول علىٰ من ينشرح لذلك بغير نية صالحة. أما من رأىٰ أن ذلك من فضل الله عليه، فلا يقدح في إخلاصه، لأن التحدث بنعمة الله واجب، فكذلك الانشراح بها، وقد قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]، أي فرحهم بفضل الله هو خير لهم من جميع العلم والعمل به، نظير ما تقدم في تأويل أن نية المؤمن خير من عمله[3]، فاعلم ذلك، واحمل الأكابر علىٰ

---

(١) الدِّرَّة: السوط.

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود الزاهد. كان أولاً شاطرًا يقطع الطريق، ثم تاب وجاور الحرم. وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها سمع رجلا يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] فقال: يا رب قد آن. فتاب ورجع وجاور الحرم. قال ابن عيننة والعجلي وغيره: ثقة. ت ١٨٧هـ.السير (٨/ ٤٢١)، تهذيب التهذيب (٨/ ٢٩٤).

(٣) الجواب رقم (٨٢).

حسن الظن بإخوانهم، فإنهم أكثر أدبًا منك، والحمد لله رب العالمين.

(٨٦) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوري والفضيل بن عياض وغيرهم في إغلاظهم على الخلفاء إذا اجتمعوا بهم، وعدم فتحهم الباب لهم إذا استأذنوا عليهم، ومعلوم أن العلماء والصالحين أكثر الناس أدبًا مع الناس على اختلاف طبقاتهم، وأحلاهم منطقًا، وكيف صح لهؤلاء الأكابر الهرب من الخلفاء؟ ولمَ لمْ يجتمعوا بهم وينصحوهم إذا علموا منهم العوج في أحكامهم، والظلم لرعيتهم؟

والجواب: أن هؤلاء العلماء كان مذهبهم تقديم السلامة على الغنيمة، وتقديم النفرة من الولاة حسب الطاقة، لئلا يقتدي بهم من بعدهم من الضعفاء، فيهلكوا بموافقتهم على أغراضهم الفاسدة والميل إلى دنياهم، والجواب عنهم وعن أفعالهم الخبيثة. ولا يلزم من ذلك رؤيةُ هؤلاء العلماء الصالحين نفوسَهم أفضل من ولاة زمانهم، بل هم يرون نفوسهم أشرَّ من سائر الظلمة، بقرينة ما سيأتي عن الشعبي وغيره أنهم كانوا يتواضعون مع أعوان الولاة ويسألونهم الدعاء، فلولا رؤيتهم أن أعوان الولاة خير منهم ما سألوهم الدعاء. وقد لام بعضهم شعبة[1] على تقبيل يد بعض الولاة، وسؤاله الدعاء، فقال: قد يكون له أعمال صالحة تكفر عنه كلَّ ذنب فعله كلَّ يوم أو ليلة، وقد لا يكون لي أنا فعل واحد يكفر سيئاتي. انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تبادر إلى الإنكار على أحد من السلف، فإنهم كانوا أعلم منك وأعرف بمراتب الناس، وأكثر منك تواضعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٨٧) ومما أجبتُ به عن قول عمر بن عبد العزيز والفضيل بن عياض وغيرهما: «من لم تتساوَ سريرته وعلانيته في الخير فهو منافق» كيف يكون منافقًا؟ ومعلوم أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ولابد للعبد من سريرة سيئة يستحيي أن يعلم بها الناس.

---

(١) شعبة بن الحجاج بن الورد الإمام أبو بسطام العتكي الأزدي، مولاهم الواسطي شيخ البصرة وأمير المؤمنين في الحديث. قال الشافعي: لولا شعبة ما عُرف الحديث بالعراق. وقال ابن المديني: له نحو ألفي حديث. توفي: ١٦٠هـ. تهذيب الكمال (١٢/ ٤٧٩)، السير (٧/ ٢٠٢).

والجواب: أن مرادَ هؤلاء بالنفاقِ النفاقُ الأصغرُ الذي لا يخرج به العبد عن الإيمان، كما قال به ابن عباس في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فقال: هو كفر لا يخرج به صاحبه عن دين الإسلام.

وفي وصية الخضر لعمر بن عبد العزيز حين اجتمع به في المدينة المشرَّفة: إياك يا عمر أن تكون وليًّا لله تعالىٰ في العلانية، وعدوًّا له في السرِّ، أي إياك أن تُظهِر للناس الأعمال الصالحة وتخفي الأعمال السيئة، بل كن وليًّا لله تعالىٰ في السرِّ والعلانية.

وقد كان عقبة بن عبد الغافر[1] يقول: من وافقت سريرته علانيته، قال الله تعالىٰ لملائكته: هذا عبدي حقًّا، ومن خالفت سريرته في السوء علانيته، قال الله تعالىٰ لملائكته: هذا عبد يستهزيء بي لأذيقنه نار جهنم. وكان مالك بن دينار يقول: من أمر الناس بشيء لم يبلغه حاله فهو منافق، إلا إن سأله أحد عن مسألة. وكان يقول: إياك أن تكون في النهار أبا عبد الله الصالح، وفي الليل شيطانًا طالحًا. وكان أبو مسلم الخولاني[2] يقول: لي منذ ثلاثين سنة أجاهد نفسي حتىٰ خلصت من النفاق، ولم يصر لي عمل أستحيي منه إلا قربي من عيالي.

فاعلم ذلك يا أخي، واحمل كلام الأكابر علىٰ ما يوافق قواعد الشريعة، فإن مثلهم لا يجهل حقيقة النفاق الأكبر والنفاق الأصغر، والحمد لله رب العالمين.

(٨٨) ومما أجبتُ به عن مالك بن دينار ﷺ في قوله: «لو تعلمون ما أفعله إذا أغلقتُ بابي دونكم، ما جلس أحد منكم إليَّ. ولو كنتم تجدون للذنوب رائحة، ما استطاع أحد منكم أن يجلس قريبًا مني لنتن ريحي». انتهىٰ. فظنَّ بعض الناس أن ذلك من سوء ما يتعاطاه من الكبائر.

---

(١) عقبة بن عبد الغافر، تابعي جليل، كان شاكرًا صابرًا ذاكرًا، له رواية، استُشهد سنة (٨٣هـ). «حلية الأولياء» (٢/ ٢٦١) «تاريخ البخاري الكبير» (٣/ ٣١).

(٢) أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب الداراني، سيد التابعين، وزاهد العصر. قدم من اليمن، وقد أسلم في أيام النبي ﷺ ولم يره، ودخل المدينة في خلافة الصديق. كان فاضلًا ناسكًا عابدًا ذا كرامات وفضائل. توفي: ٦٢هـ وقبره بداريا بدمشق. السير (٤/ ٧) وأسد الغابة (٥/ ٢٨٨).

والجواب: أن ذلك من باب هضم النفس، واستعظام معاصي الله بالنظر لمقامهم، فربما خافوا الخسف بهم إذا فعلوا مكروهًا أو خلاف الأولىٰ. **واعتقادنا في سلفنا الطاهر أنهم كانوا مطهَّرين من الذنوب التي نقع نحن فيها، وأن لهم ذنوبًا ربما لا نعدها الآن ذنبًا**. وقد كان معروف الكرخي رضي الله عنه يقول: لي منذ ثلاثين سنة وأنا أرىٰ أن الله تعالىٰ ينظر إليّ نظر السخط، لسوء ما أتعاطاه من اشتغالي بغيره عنه. وكان تلميذه السري السَّقطِي[1] إذا قام من النوم يمسح وجهه بيده ويقول: أخاف أن يمسخني الله خنزيرًا وأنا نائم عن خدمته. وكان يقول: إني أحبُّ أن أُدفَن بمكان غير بغداد خوفًا أن لا يقبلني قبري، فأفتضح ويُسيء الناس ظنهم بأمثالي. وكان كثيرًا ما ينظر وجهه في المرآة خوفًا من المسخ، فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل أحدًا من الأكابر علىٰ ارتكابه شيئًا من الكبائر أو الصغائر، والحمد لله رب العالمين.

(٨٩) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوري رحمه الله: «لا تدعوا علىٰ حكامكم إذا ظلموكم، فإنهم ما ظلموكم وإنما جازوكم بذنوبكم». انتهىٰ. قال بعضهم: في هذا إحالة لوقوع اللوم علىٰ الظلمة جملة؛ لأن الحاكم إذا أقام حدَّ شرب الخمر مثلًا علىٰ الشارب، فلا إثم عليه[2].

والجواب: أن ذلك من باب ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، لكن لما كانت ذنوب الخلق في الدنيا غالبها خفيٌّ لا يظهر للناس، نسبوا الظلم إلىٰ الولاة سدًّا لباب الظلم، وإن كان الظالم ما تعدىٰ في نفس الأمر ما يستحقُّه الرعية، فافهم.

وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: إذا لم تتساوَ سريرةُ الناس وعلانيتُهم، فلا

---

(١) السري بن المغلس السقطي، الإمام القدوة شيخ الإسلام، أبو الحسن البغدادي، ولد: في حدود ١٦٠هـ. قال الجنيد: ما رأيت أعبد لله من السري، أتت عليه ٩٨ سنة ما رُئي مضطجعًا إلا في علة الموت. توفي: في شهر رمضان، سنة ٢٥٣هـ. السير (١٢/ ١٨٥)، الرسالة القشيرية (١/ ٤٥).

(٢) أي فلا إثم علىٰ الشارب ليظلمه الحاكم بمظلمة أخرىٰ وقد تطهر بالحد.

يستغربوا ما يحِلُّ بهم من أنواع البلايا والعقوبات. وكان يقول: كان الحجاج الثقفي بلاء من الله تعالىٰ وافق خطيئة. وكان يقول: ليس لمن ابتُلي بجور الحكام دواء أنفع من كثرة الاستغفار.

فعُلِم أنه ليس في كلام سفيان ما يدفع اللوم علىٰ الظالم، بل هو آثم بظلمه للعباد، لأن ذنوبهم التي وقع لهم العقوبة لأجلها لم تظهر في الدنيا بخلاف إقامة الحدود الشرعية، وإنما قصد تنبيه الناس للتوبة من الذنوب، ليسدوا عنهم باب مجازاة الحكام لهم لا غير، والحمد لله رب العالمين.

(٩٠) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوري أيضًا: «إذا تبسم العالم في وجه الظالم، أو وسَّع له المجلس، أو قبل هدية منه، فقد نقض عرىٰ الإسلام عروةً عروةً». انتهىٰ. كيف صحَّ نقض عرىٰ الإسلام بما ذكر، والعلماء مأمورون بحسن السياسة للملوك ولين القول لهم؟

والجواب: أن مراد سفيان بذلك الزجر والتنفير لا تحقيق المناط، علىٰ قاعدة مذهبه من أن الواجب علىٰ العالم إبقاء أحاديث الزجر والتنفير كما وردت من غير تأويل، من حيثُ إنها أبلغ في الزجر، فإنها إذا أُوِّلت ذهبت حكمتها، فإذا أَوَّل العالم حديث: «من غشنا فليس منا»[١] بأن المراد: ليس منا في تلك الخصلة فقط، وهو مِنا في جميع الصفات، استهان ضرورةً بذلك الغِشِّ، وذهب قبحه من عينه، وقلَّ ندمه واستغفاره، بخلاف ما إذا قال: «فليس منا» أي جميع خصال الإسلام، فإن الزجر والتنفير منه يستمر. ويؤيد ذلك ما قاله العلماء من أن من آمن برسل الله كلِّهم إلا واحدًا لم يصح إيمانه، لأن الإيمان لا يتبعض، فكذلك القول في تبري الشارع من إنسان لا يصح تبعيضه، والله تعالىٰ أعلم.

(٩١) ومما أجبتُ به عن الحسن البصري في قوله: «مصارمة[٢] الفاسق قربة إلىٰ الله عزَّ

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠١)، وأحمد (٩٣٩٦).

(٢) صارم فلانٌ فلانًا: قاطَعَه.

وجلَّ» كيف يكون ذلك قربة إلىٰ الله عزَّ وجلَّ والمؤمن مأمور بتقويم عوج أخيه؟! وإذا صارمه لا يصير يأمره ولا ينهاه، فكيف الحال؟

والجواب: أن مراد الحسن إن شاء الله تعالىٰ أن يصارمه بالقلب فقط. وأما الكلام بالنصح فلا ينبغي تركه، لأنه بذلك يبطل أمره ونهيه له. وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: العصاة والفسقة ضالة كلِّ داعٍ إلىٰ الله تعالىٰ. ولما أنف داود عليه الصلاة والسلام من مجالسة عصاة بني إسرائيل غيرةً لله عزَّ وجلَّ، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، المستقيم لا يحتاج إليك، والأعوج قد أنفتَ عن تقويم عوجه ومجالسته، فلماذا أُرسلت؟ انتهىٰ. فكان داود بعد ذلك يصنع الطعام ويدعو عصاة بني إسرائيل ويتألفهم بالكلام الحلو حتىٰ يقوموا. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل كلام الحسن علىٰ مصارمة الفاسق بوجه شرعيٍّ، والحمد لله رب العالمين.

(٩٢) ومما أجبتُ به عنه قول الفضيل بن عياض ﵀ كان معاوية بن أبي سفيان ﵁ من أكابر العلماء، ولكنه ابتلي بحب الدنيا[١]. انتهىٰ، كيف وصف معاوية بأنه يحب الدنيا، مع أنه صحابي، والمريد في طريق القوم لا يصح دخوله في طريق القوم إلا إن زهد في الدنيا وكرهها وصار ينقبض خاطره لرؤيتها.

والجواب: أن مراد الفضيل بذلك أن معاوية يحب الدنيا للآخرة لا للدنيا، استنادًا إلىٰ قوله تعالىٰ للصحابة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، أي يريد الدنيا للآخرة، ويريد الآخرة لله تعالىٰ، فسمىٰ الفضيل محبة الآخرة دنيا بالنسبة للمقام الذي فوقه، وثم مقام رفيع ومقام أرفع. ولا يقدح في مقام الصحابي إلا محبة الدنيا للدنيا. وأيضًا فإن قتال معاوية لعليٍّ كان باجتهاد، والمجتهد مأجور وإن أخطأ. فاعلم ذلك، واحمل كلام الأكابر وأحوالهم علىٰ أحسن الأحوال، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) قد مرَّ نسبة الشيخ هذا الكلام لسفيان الثوري، انظر الجواب رقم (٧٣).

(٩٣) ومما أجبتُ به عن قول السيِّد محمد بن الحنفية ﷺ: «من أحبَّ رجلًا من أهل النار لخير ظهر منه، أَجَرَهُ الله علىٰ ذلك» كيف صحت محبة الكافر مع وجوب كراهتنا له، ووجوب عداوته.

والجواب: أن المؤمن الكامل يكنىٰ «أبا العيون» فعين يعادي الكافر بها من حيثُ صفاتُ الكفر، وعينٌ يرحمه بها من حيثُ كونُه تحت جريان الأقدار، وعينٌ يحبُّه بها من حيثُ وصفُه بالإحسان إلىٰ الناس، فالمؤمن مأجور، وإن كان الكافر غير مأجور.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: عداوتنا للكفار عداوة صفات لا عداوة ذات، لأنها لو كانت عداوة ذات ما وجب علينا حبُّ ذاته إذا أسلم، بل كانت العداوة تدوم بدوام ذاته، فما كره الذات من كرهها إلا بحكم التبعية للصفات، وهم الجم الغفير من الناس، فإذا كرهوا أحدًا، كرهوه ذاتًا وصفة، فاعلم ذلك.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: قتالنا للكفار حتىٰ يسلموا إنما هو محبة لهم، فما أهلكناهم إلا طلبًا لسعادتهم، كلُّ ذلك قيامًا بما علينا من النصح، فإنه كما يجب علينا نصح المسلم، كذلك يجب علينا نصح الكافر، صرح به المحققون، والحمد لله رب العالمين.

(٩٤) ومما أجبتُ به عن الإمام الأوزاعي في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]: **«الصغيرة هي التبسم، والكبيرة هي القهقهة» ووافقه علىٰ ذلك الشعبي[1]، فكان يقول: «التبسم في هذه الدار من الصغائر، والقهقهة فيها من الكبائر» ثم يتلو قوله تعالىٰ:** ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] **انتهىٰ، كيف صح لهما تسمية التبسم صغيرة مع ما ثبت أنه ﷺ كان «ضحكه التبسم»[2]؟**

---

(١) الشعبي عامر بن شراحيل بن عبد، ولد في إمرة عمر بن الخطاب لست سنين خلت منها. قال عن نفسه: أدركت خمس مائة من أصحاب النبي ﷺ. وقال أبو بكر الهذلي: قال لي ابن سيرين: الزم الشعبي، فلقد رأيته يُستفتىٰ وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون. توفي: ١٠٣هـ. السير (٤/ ٢٩٤) وحلية الأولياء (٤/ ٣١٠).

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٢٢٦) والبيهقي في «الشعب» (١٣٦٢) والطبراني في الكبير (٤١٤).

والجواب: أن الإمام ﷺ ربما أراد بالتبسم الضحك الذي له صوت، لا التبسم الذي لا صوت فيه، والشيء قد يُطلَق علىٰ الشيء بضرب من التشبيه، ولا يشترط مساواته من كلِّ وجه، أو يكون خطاب الإمامين بذلك للعامة لا الخاصة، فإن الخاصةَ ربما تبسم بعضُهم وقلبه يبكي، فأراد من العوام سدَّ الباب بمنعهم من التبسم، لأنهم لا ينضبطون عليه، بل ينتقلون منه إلىٰ الضحك، ثم إلىٰ القهقهة.

وذكر العلماء أن حدَّ الضحك أن يكون بصوت يسمعه من قرب، فإن سمعه من بعد فهو قهقهة. وبالجملة فلكلٍّ مقام رجال، والحمد لله رب العالمين.

(٩٥) ومما أجبتُ به عن قول يحيىٰ بن الحسين[١] ﷺ: «إذا سألتم الله العافية، فقولوا بعدها: إن كان لنا في ذلك خير، فإن العافية ربما كانت أشدَّ ضررًا علىٰ العبد من المرض. ولو أن فرعون أصابه مرض ما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] أبدًا» انتهىٰ. فقال بعضهم: إن الشارع أطلق الأمر بسؤال العافية ولم يقيده، فالأولىٰ عدم التقييد.

والجواب: أن ذلك التقييد من باب التفويض إلىٰ الله تعالىٰ، وهو مشروع للأكابر احتياطًا لأنفسهم، بخلاف العامة تطلب من الله العافية ولا تنظر ما عليها من حصول العافية من العتوِّ والتجبر. وقد قال المحققون: إن غالب الشريعة إنما جاءت علىٰ قدْر مرتبة ضعفاء المؤمنين، ولم يجيء منها علىٰ قدْر مرتبة العارفين إلا بعض أحكام، كلُّ ذلك توسعةً للأمة، لسبق الرحمة الغضب[٢]. فعُلِمَ أن قول الشيخ في غاية الأدب مع الله تعالىٰ والتفويض إليه، فلا اعتراض، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يحيىٰ بن الحسين بن القاسم الحسني العلوي الرسي إمام زيدي. ولد بالمدينة. وكان يسكن «الفرع» من أرض الحجاز، مع أبيه وأعمامه. له مصنفات منها: «الإحكام في الحلال والحرام والسنن والأحكام» «المسالك في ذكر الناجي من الفرق والهالك». في أيامه ظهر القرامطة في اليمن وقصدوا الكعبة سنة ٢٩٨هـ لهدمها فقاتلهم ت ٢٩٨هـ. الأعلام (٨/ ١٤١)، ومعجم المؤلفين (١٣/ ١٩١).

(٢) إشارة للحديث القدسي الذي أخرجه البخاري (٧٤٢٢) من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله لما قضىٰ الخلق، كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي».

(٩٦) ومما أجبتُ به عن قول بشر الحافي: «إذا رأيتم علىٰ وجه الرجل نورًا، فاستعيذوا بالله منه» فقال بعضهم: كيف نستعيذ بالله من مؤمن طفح نور قلبه علىٰ ظاهره؟

والجواب: أن مراد الشيخ إنما هو الاستعاذة ممن ظهر نورُه علىٰ وجهه وخلا قلبه من النور، وصار لا يفرق بين الحقِّ والباطل. وصاحب هذا الحال ينبغي الاستعاذة من حاله؛ لأنه يقع حينئذٍ في كلِّ رذيلة، ولا يهتدي للتوبة منها. وليس مراده من كان نوره في قلبه مع وجهه، فإن ذلك من علامة الولاية، فافهم. **ولم تزل الأكابر كلهم يخفون أعمالهم ويؤخرون ثمرتها للدار الآخرة، فإن من عُجِّلت له ثمرة أعماله، ذهب إلىٰ الآخرة صِفْر اليدين.**

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: من نعمة الله علىٰ العبد أن يجعل نوره في قلبه، ويجعل ظاهره كآحاد المؤمنين لا يتميز عنهم بنور وجه ولا غيره، ومثل هذا الذي يذهب إلىٰ الآخرة فأجره موفر لم ينقص منه شيء، فاعلموا ذلك أيها الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

(٩٧) ومما أجبتُ به عن قول ابن السَّمَّاك[1] رضي الله عنه: «إذا ذُكِرَ بين يديكم أحدٌ من العصاة فالعنوه» قال قائلٌ: كيف ذلك؟! وقد صرح العلماء بأنه لا يجوز اللعن لمعيَّن إلا بوحي من الله، كلعن إبليس، أو يكون اللعن لجملة من الطوائف غير معينين، كقولنا: لعن الله اليهود.

والجواب: أنه ربما يكون مراد الشيخ باللعن هو السب للعاصي وتقبيح فعله، حتىٰ لا يتبعه أحدٌ علىٰ ذلك، فإن حقيقة اللعن هو الإخبار عن الله عزَّ وجلَّ بأنه طرده من حضرة قربه في الدنيا والآخرة، وهذا لا يتوصل أحدٌ إليه الآن لانقطاع الوحي، فاعلم ذلك.

ويُحتمَل أن يكون مراده بالعصاة من وقع في المكروه أو خلاف الأولىٰ، فضلًا عن الحرام، لأن لكلِّ منهيٍّ لعنًا يشاكله، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإلا

---

(١) أبو العباس محمد بن صبيح العجلي مولاهم، الكوفي، ابن السماك، كوفي قدم بغداد زمن هارون الرشيد فمكث بها مدة، وعظ الرشيد مرة، فقال: يا أمير المؤمنين! إن لك بين يدي الله مقامًا، وإنه لك من مقامك منصرفًا، فانظر إلىٰ أين تكون؟! فبكىٰ الرشيد كثيرًا. توفي: ١٨٣هـ. السير (٨/ ٣٢٨)، تاريخ بغداد (٣/ ٣٤٧).

فأين لعن الكافر من لعن المسلم إذا عصىٰ؟! والحمد لله رب العالمين.

(٩٨) ومما أجبتُ به عن سفيان بن عيينة رحمه الله لما سأله أبو نُوَاس الشاعر[١]: كيف يكتب الملكان ما همَّ به العبد ولم يعمل به؟ فقال: «إن الملكين لا يعلمان الغيب، ولكن العبد إذا همَّ بحسنة، يفوح منه رائحة المسك، فيعلمان أنه قد همَّ بالحسنة؛ وإذا همَّ بالسيئة تفوح منه رائحة النتن، فيعلمان أنه همَّ بالسيئة، فيكتبان حينئذٍ ما همَّ به العبد». قال قائل: إن الملكين لا يكتبان الهم كما صرح به الحديث[٢]، وإنما يكتبان ذلك إذا تكلم به، قال تعالىٰ في الملكين: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢] ما قال: يكتبون ما تفعلون.

والجواب: أنه يُحتمَل أنه أراد بالهمِّ العزمَ المصمِّمَ، بحسب ما أدَّىٰ إليه اجتهادُه لا مطلق الهمِّ، بقرينة ما جاء في الشريعة من الأحاديث، نحو حديث: «إن الله تعالىٰ تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»[٣].

وقد صرح الشيخ محيىٰ الدين بن العربي بأن الملكين لا يكتبان أفعال العبد إلا إذا تكلم بها، وقال: فعلت كذا وكذا، وما لم يتكلم به من الأفعال يحاسبه الحقُّ تعالىٰ عليه فيما بينه وبينه من غير كتابة الملائكة. انتهىٰ[٤]. ولعل سؤال أبي نواس إنما هو كيف يعلم الملكان ما هم به العبد؟ لا كيف يكتب الملكان؟ وذكر الكتابة تحريف، والله أعلم.

(٩٩) ومما أجبتُ به عن قول مالك بن دينار: دخلتُ علىٰ جار لي في مرض موته، وكان مُسرفًا علىٰ نفسه، فقلت له: يا فلان، تب إلىٰ الله ، فلعلك تموت تائبًا! فإذا بهاتف يقول لي من جانب البيت: إن كان توبته مثل توبتك التي تتوبها ثم تنقضها، فلا فائدة

---

(١) أبو نواس الحسن بن هانيء الحَكَمي الأديب شاعر العراق. ولد: بالأهواز، ونشأ بالبصرة. شعره في الذروة ولكن فسقه ظاهر، وتهتكه واضح، وكان من أعلم الناس باللغة. وتاب أواخر عمره. توفي ١٩٦هـ. السير (٩/ ٢٧٩)، والعبر في خبر من غبر (١/ ٢٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، والنسائي (٥٥٩٧).

(٤) انظر «الفتوحات» الباب (٤١٧).

فيها. انتهىٰ. قال قائل: كيف جعل هذا الهاتف الوقوع في ذنب بعد التوبة ثم يتوب العبد منه لا فائدة فيه، ومذهب أهل السنة والجماعة أن التوبة فيها الفائدة، وأنها تُقبل بعد نقضها، ولو عاد في اليوم الواحد سبعين مرة للأحاديث الصحيحة في ذلك(١).

والجواب: أن كلام الهاتف إنما هو من باب الاعتبار والتوبيخ، فلا ينافي قبول التوبة بعد نقضها، وقد تقدم بسط ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] أي المكثرين للتوبة، ولا يكون الإكثار للتوبة إلا إن تكرر الذنب، سواءٌ أكان من نوع واحد أو أنواع. وليست التوبة النصوح بيد العبد، إنما ذلك بيد الله، فإنه تعالىٰ ما دام يخلق للعبد الذنب فلا يمكنه التوبة، فإذا ترك الحقُّ تعالىٰ خلقَ الذنب، تاب العبد لا محالة، حتىٰ لو أراد أن يذنب لما وجد ذنبًا يقع فيه.

وربما كان مالك ﷺ حين أمر ذلك المريض المسرِف علىٰ نفسه بالتوبة ناسيًا نفسه وعنده أن مثله تائب، فنبهه الهاتف علىٰ أن يلقي باله لنفسه، فربما كانت توبته لم تُقبَل وهو يعتقد أنها قُبِلَت. **ولم يزل الحقُّ تعالىٰ من فضله يربي الأكابر بالأصاغر، ويحذرهم مما لعله يقع منهم في المستقبل،** فكلام الهاتف صحيح، ومعنىٰ «لا فائدة فيها» أي كاملة، والله تعالىٰ أعلم.

(١٠٠) ومما أجبتُ به عن وُهَيب بن الورد(٢) ﷺ في كونه كان لا يخبر الطبيب عن الألم(٣) إذا سأله ويقول: أشكو ربي إلىٰ خلقه؟! قال قائل: ليس في مثل ذلك شكوىٰ

---

(١) أخرج أبو داود (١٥١٤) من حديث أبي بكر الصديق، ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة» والترمذي (٣٥٥٩).

(٢) وهيب بن الورد بن أبي الورد القرشي المخزومي أبو أمية. ويقال: أبو عثمان المكي، من المتجردين للعبادة والمتقشفين في الزهادة والمواظبة علىٰ الجهد الجهيد والصابرين علىٰ الفقر الشديد. قال ابن المبارك: قيل لوهيب: يجد طعم العبادة من يعصي؟ قال: ولا من يهم بالمعصية ت ١٥٣هـ. مشاهير علماء الأمصار ص٢٣٤، السير (٧/ ١٩٨).

(٣) بالأصلين: الهم.

الرب جلَّ وعلا، إنما ذلك سعي في أسباب التداوي وهو سنة، فكيف الحال؟!

والجواب: أن وهيبًا ﷺ كان مشهده إذ ذاك طلب الشفاء من الله تعالىٰ، وأنه أعلم بسريرته ومرضه من الطبيب، وأرحم به منه، فلذلك لم يخبر الطبيب بحاله، وإن كان الإخبار أكمل عند الجمهور، لأن فيه استعمال الوسائط والعقاقير، وعدم تعطيلها عن استعمالها فيما خُلِقَت له، وهو معنىٰ قوله ﷺ: «اللهم اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك»[1] أي أنت الشافي لا العقاقير والطبيب، سواء استُعمِلا أو تعطلا، فإن الله تعالىٰ يخلق الشفاء عندها لا بها.

ومرض وهيب مرةً أخرىٰ، فأتوه بطبيب نصرانيٍّ، فقال له: ما تجد؟ فقال: معاذ الله أن أخبرك بما بي! فقال له القوم: أخبرنا ونحن نخبره. فقال: سبحان الله! أين عقولكم؟! أتأمروني أن أشكو ربي إلىٰ عدو من أعدائه؟! انتهىٰ.

ويُحتمَل أن يكون امتناع وهيب من إخبار الطبيب إنما هو لمحبته لدوام المرض، بقرينة أن شداد بن حكيم[2] كان كلما حُمَّ بالمرض يتصدق بمئة درهم شكرًا لله علىٰ المرض. وهو مقام عمر بن الخطاب ﷺ، كان لا يتداوىٰ بإشارة طبيب ويقول: والله لو علمتُ أن شفائي في مس أذني ما مسستُها، نِعْمَ ما يفعله ربي بي. فلكل حال رجال، ولكن التحقيق أن العبد إن خاف من الوقوع في اشمئزاز نفسه من البلاء وكثرة الضجر، فالأفضل له التداوي. وإن علم من نفسه الرضا بالمرض، فالأفضل له عدم التداوي. وكذلك من تعطَّل بالمرض عن السعي علىٰ والديه مثلًا الأفضلُ له التداوي، ليقوم بما هو أفضل من المرض- أي من أجره- والحمد لله رب العالمين.

(١٠١) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوريِّ ﷺ: «قل أن ينفك مريض عن هذه

---

(١)جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٧٥٠)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) شداد بن حكيم البلخي، أبو عثمان. من أصحاب زفر. قال ابن حبان: أحب مجانبة حديثه لتعصبه في الإرجاء وبغضه من انتحل السنن أو طلبها، وكان مرجئًا مستقيم الحديث إذا روىٰ عن الثقات. توفي٢١٠هـ. لسان الميزان (٤/ ٢٣٧).

الأربع خصال: الطمع، والكذب، والشكوىٰ، والرياء» فقال قائل: ولمَ لمْ يحمل سفيانُ المريضَ علىٰ أنه يفعل هذه الأربع لغرض محمود؟

والجواب: أن كلامه في حقِّ آحاد الناس من العوام، فإنه ربما يطمع في إحسان كلِّ من يدخل عليه يعوده، ويكذب في دعوىٰ شدَّة المرض، ويشكو إلىٰ عُوَّاده مع غفلته عن الله، ويرائي بدعواه أنه علىٰ طريقة حسنة في دينه، بخلاف الأكابر لا يقعون في مثل ذلك، وإن طمعوا فإنما ذلك في رحمة الله أو في الخلق من غير وقوف معهم، بل يرونهم أبوابًا يخرج منها عطاءُ الحقِّ تعالىٰ. وإن كذبوا فإن ذلك بكتمهم المرض أو شدَّته عن الخلق، وإن شكوا فإنما ذلك حقيقة إلىٰ الحقِّ لا إلىٰ الخلق، وإن رآوا فإنما ذلك للحقِّ من باب «أروا الله من أنفسكم خيرًا»[1] وذلك لا يقدح في كمالهم.

وقد كان محمد بن سيرين ﷺ قليل الشكوىٰ، فمرض مرضًا شديدًا، فشكا ذلك إلىٰ إخوانه، ليدعوا له باللطف حيث لم يطق حمله، فكانوا إذا قالوا له: كيف نجدك؟ يقول: أجدني في بلاء شديد، أجوع فلا أستطيع أن أشبع، وأعطش فلا أستطيع أن أروىٰ، وأرقد فلا أذوق الكَرَىٰ[2]. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الأكابر إذا اشتكوا في مرضهم علىٰ أن تلك الشكوىٰ حقيقة إنما هي إلىٰ الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٢) ومما أجبتُ به عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ حين قال في مرض موته: «اللهم اغفر للشيخ العاصي ذي القلب القاسي» فقال قائل: هذا تصريح منه بأنه كان ظالمًا علىٰ علي بن أبي طالب ﷺ.

والجواب: أن الذي عليه جمهور العلماء أن ما وقع بينه وبين عليٍّ كان باجتهاد من كلٍّ منهما. ولا يلزم من وصفه نفسه بالعاصي أن يكون مراده أنه عاصٍ في قتاله لعليٍّ، فقد يكون قال ذلك هضمًا لنفسه بين يدي ربه، أو أدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ أن النقص في

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٢٣٨)، والشاشي في المسند (١٣٢٤).

(٢) الكَرَىٰ: النوم.

الطاعات من حيثُ تركُ الحضورُ فيها مع الله معصية، كما هي عليه الأكابر من أهل الله، فقد كان الفضيل بن عياض يقول: إني لأنصرف من صلاتي وبي من الخجل والحياء من الله ما هو أعظم من انصرافي عن الزنا. وقد طلب أكابر الأنبياء من الله المغفرة لذنوبهم وخطاياهم، مع أنهم لا ذنوب لهم ولا خطيئات حقيقة. فاعلم ذلك، والزم الأدب مع الأكابر، ولا تدخل بينهم وبين ربهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٣) ومما أجبتُ به عن أبي ذر ﷺ[١] في تشديد طلوع روحه عليه، مع كونه زاهدًا في الدنيا لا علاقة له فيها تطلب روحه الإقامة في الدنيا لأجلها.

والجواب: أن تشديد طلوع الروح لا يلزم أن يكون سببه محبة الدنيا، فقد يكون ذلك رفعةً لمقام ذلك الميت، ليعظِّم الله له الأجر. ويُحتمَل أن يكون ذلك أيضًا لمحبة العبد في طاعة الله تعالىٰ، وإقامة شعار دينه، ونصرة شريعة نبيه. وقد شدَّد الله تعالىٰ علىٰ الأنبياء طلوعَ روحهم تعظيمًا لأجورهم، لأن ذلك هو الذي صاروا يقدرون عليه من أعمالهم الصالحة.

وقد سمع عطاء السُّلَمِيُّ[٢] أصحابه وهم يدعون له بالتهوين لما حضرته الوفاة، فقال لهم: لا تدعوا لي بالتهوين، بل ادعوا لي بالتشديد، لأنه آخر أعمالي. ثم قال: والله إني لأودُّ أن روحي تردد بين لَهَاتي[٣] وحنجرتي إلىٰ يوم القيامة، خوفًا مما أهجم عليه بعد الموت. فعُلِمَ أن دعاء السلف لبعضهم بأن الله يهوِّن عليهم سكرات الموت محمولٌ علىٰ من يُخاف عليه الوقوع في السخط، فيختم عمره بالسيئة، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أبو ذر الغفاري مختلف في اسمه والمشهور أنه جُندب ـ بتثليث الدال ـ بن جنادة، كان من السابقين إلىٰ الإسلام، أسلم بمكة ثم رجع إلىٰ قومه، ثم هاجر إلىٰ مكة، قيل: أسلم بعد أربعة، وهو أول من حيا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، توفي بالربذة سنة ٣٢ هـ. الإصابة (٧/ ١٠٥).

(٢) عطاء السلمي الزاهد، عابد أهل البصرة، من صغار التابعين، أدرك زمان أنس بن مالك، وسمع من الحسن البصري، أرعبه فرط الخوف من الله، مات بعد ١٤٠ هـ. السير (٦/ ٨٦).

(٣) اللهاة: لحمة مُشرفة علىٰ الحلق في أقصىٰ سقف الفم.

(١٠٤) ومما أجبتُ به عن قول وهب بن مُنَبِّه ﷺ: «لا يبلغ أحد مقام الرضا من الله تعالىٰ عليه إلا إن علم أن الله يراه علىٰ الدوام» قال قائل: هذا لا يصح لإجماع المحققين علىٰ أن مراقبة الله تعالىٰ علىٰ الدوام ليست من مقدور البشر، فكيف الحال؟!

والجواب: أن كلام وهب ﷺ محمول علىٰ الغالب من حال الأولياء، وكلُّ ما غُلِبَ عليه العبد فهو مغفور له. وقد يريد وهب مقام رضا الله عن الأكابر، كالأنبياء وكُمَّل الأولياء، لا رضاه عن آحاد المؤمنين، إذ الرضا يتفاوت بتفاوت درجات الناس، فالأنبياء وكُمَّل الأولياء في مقام المراقبة كالملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] لخلوص طينتهم من الكدورات البشرية، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٥) ومما أجبتُ به عن مالك بن دينار ﷺ في كونه كان لا يخرج مع الناس إذا دُعي[1] للاستسقاء، ويقول: «أخاف أن تمطر السماء عليكم حجارة بخروجي معكم» قال قائل: هذا قريب من القنوط من رحمة الله، وذلك لا يليق بمقام مالك بن دينار، إذ الكمال أن لا يرىٰ العبد عذاب الله أرجح من حلمه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] ومالك معدود من الكُمَّل بلا شك.

والجواب: أن الكاملَ يكنىٰ «أبا العيون» فربما كان مالك يرىٰ استحقاقه أن الله يمطر عليه الحجارة بعين، ويرىٰ فضلَه سابغًا عليه لا يعاجله بالعقوبة بالعين الأخرىٰ، ولكن فعل ذلك لينبِّه من كان في غمرة عن شهود نقائص نفسه من عموم الناس، ليأخذوا في التوبة والاستغفار قبل الخروج، حتىٰ يجابوا بنزول المطر عليهم، وليس ذلك من القنوط من رحمة الله في شيء، إنما السلف الصالح كلُّهم كانوا كذلك علىٰ قدم الخوف، ليقتدي بهم العامة في ذلك، إذ لو سلكوا طريق الرجاء، لهلك أتباعهم ووقعوا في كلِّ معصية.

وقد كان سفيان الثوري ﷺ يقول: بلغنا أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتىٰ أكلوا الميتة والأطفال، فكانوا يخرجون إلىٰ الجبال ويتضرعون فلا يُجابون، فأوحىٰ الله

(١) بالأصلين: ادعىٰ.

إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام: «قل لهم: لو عبدتموني حتىٰ صرتم كالسوط البالي ما قبلتُ لكم دعاءً حتىٰ تردوا المظالم إلىٰ أهلها» فلم يردُّوا المظالم، فماتوا كلهم عطشىٰ. انتهىٰ. ولربما كان امتناع مالك من الخروج لعلمه بأن أهل البصرة كلَّهم لا يسلمون من المظالم، فرأىٰ أن خروجه بهم لا يفيد، وكان نزول الحجارة عليهم بسببهم لا بسببه هو، وليس عنده رائحة قنوط أصلًا. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا الأكابر علىٰ المحامل التي تليق بهم، أو سلِّموا لهم أحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٦) ومما أجبتُ به عن عبد الله بن الزبير[١] حين أدخلوا عليه رجلاً قد أحدث، فدعا بالسياط ليضربه، فقال له الرجل: أسألك بمن تكون يوم القيامة بين يديه أذلَّ مني بين يديك هنا إلا عفوتَ عني. فنزل بن الزبير عن سريره وألصق خده بالأرض و قال: قد عفوتُ. قال قائل: كيف ترك ابن الزبير إقامة الحدِّ علىٰ من استحقَّ الحد بسؤاله، مع وجوب إقامة الحدود علىٰ الحاكم إذا بلغ الأمر إليه؟!

والجواب: أنه قد يكون ذلك حد قذف يتعلق بابن الزبير أو بغيره وعفا عنه، أو علم منه الرضا بما يحكم به عليه وله بقرائن الأحوال، أو عَلِمَ أنه يحصل بإقامة الحدِّ علىٰ ذلك الرجل مفسدةٌ هي أعظم من مفسدة ترك إقامة الحد، أو يكون مرادهم بقولهم في الرجل: «إنه أحدث» أي وقع فيما يوجب التعزير، فأطلقوا عليه أنه أحدث توسُّعًا، إذ المراد بالحدث في عرف السلف الزنا أو القتل ونحو ذلك.

وقد يكون ترك إقامة الحد المذكور لغلبة عظمة الله تعالىٰ علىٰ قلب ابن الزبير حين سأله الرجل به، فمنعته تلك العظمة أن يؤاخذه، ولولا سؤاله له بالله لأقامه عليه. وقد يكون ترك ذلك باجتهاد لا لمجرد السؤال وحده، والله أعلم.

(١٠٧) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوري ﷺ: «من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته،

---

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام، أول مولود في الإسلام بالمدينة من المهاجرين، بويع بالخلافة في سنة أربع وستين، وحكم علىٰ الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان وأكثر الشام، ت سنة ٧٣ هـ. تاريخ الإسلام (٢/ ٨٢٩)، الإصابة (٤/ ٧٨).

ومن أدخل الدنيا بيته، كثر تردد إبليس إليه؛ لأن الدنيا ابنته، ومن كثر تردد إبليس إليه أوقعه في العظائم، فاحذروا من التزويج» قال قائل: إن التزويج من سنن المرسلين، ولم يأت لنا في حديث واحد النهي عن التزويج، وإنما ورد التحذير منه.

والجواب: أن سفيان ﷺ لم ينه عن التزويج كما ترىٰ، وإنما حذَّر منه ليأخذ الإنسان حذره منه، وينوي به السنة وامتثال أمر الله تعالىٰ، لا محض قضاء الأوطار الفانية، فإن الحديث: «من تزوج لله كفي ووقي»[1]. انتهىٰ.

وإن صح عن سفيان أنه نهىٰ عن التزويج، فمراده من تزوج بغير نية صالحة، كما حملوا عليه قول: «إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر، فإن وُلِدَ له أولاد فقد كُسِرَت به المركب» فليس كلُّ من وُلِدَ له أولاد يُكْسَر به المركب كما هو مشاهد، فاعلم ذلك، واحمل الأكابر علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٨) ومما أجبتُ به عن أحمد بن حرب[2] التابعي الجليل في قوله: «ينبغي للرجل إذا بلغ الأربعين سنة أن يترك المعاصي جملة، وكذلك إذا طلع الشيب في رأسه، أو حج إلىٰ بيت الله الحرام، كما ينبغي له ترك الزنا إذا تزوج» قال قائل: هذه الأمور ليست سبب تحريم المعاصي، لأنها محرمة قبلها ومعها وبعدها.

والجواب: أن مراده ﷺ أن المعاصي بعد هذه الأمور أشدُّ قبحًا من فعلها قبل ذلك، كما قال العلماء: إنه يُستحَبُ للصائم تركُ الغيبة وغيرُها من المعاصي، مع أن الغيبة وسائر المحرمات يجب تركها في حال الإفطار كذلك، وإنما قصدوا أنها في الصوم أشدُّ قبحًا. ومن هنا قال كعب الأحبار[3] ﷺ: الشاب المتعبد أحب إلىٰ الله من الشيخ المتعبد. انتهىٰ،

---

(١) لم أقف عليه، وقد ذكره المؤلف في تنبيه المغترين ص٧٧.

(٢) أحمد بن حرب بن فيروز أبو عبد الله النيسابوري، الإمام القدوة شيخ نيسابور الزاهد كان من كبار الفقهاء والعباد، له مصنفات منها: «الأربعين» «عيال الله» و«الزهد». وقيل: إنه استسقىٰ لهم ببخارىٰ، فما انصرفوا إلا يخوضون في المطر، ت ٢٣٤هـ. السير (١١/ ٣٢)، العبر في خبر من غبر (١/ ٤١٦).

(٣) كعب الأحبار: هو كعب بن ماتع الحِمْيَرِي اليماني، كان يهوديًا فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ وقدم المدينة في

لأن الشاب أطاع الله تعالىٰ مع هيجان نار شهوته عليه، والشيخ أطاع الله بعد خمودها، والأجر يعظم بحسب وجود المشقة فيه، وفي الحديث: «يعجب ربك من شاب ليست له صبوة»[1]. انتهىٰ، فما قال: يعجب ربك من شيخ. وفي الحديث: «من بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيرُه شرَّه، فليتجهز إلىٰ النار»[2]. انتهىٰ، فما طلب الشارع من العبد شدةَ غلبة خيره شره إلا بعد الأربعين، ونظائر ذلك كثيرة في الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(١٠٩) ومما أجبتُ به عن سعيد بن عامر[3] رضي الله عنه أنه قيل له مرة: يا أصلع؛ فتكدر لذلك غاية التكدر، فقال قائل: هذا من أكابر التابعين[4]، فكيف تكدر من مثل هذه الكلمة؟!

والجواب: أنه لا ينبغي حمله علىٰ أن تكدره لحظ نفسه، وإنما ذلك لما ورد في الآثار أن الملائكة تلعن من وصف إنسانًا بما ليس فيه[5]، فكان تكدُّرُه إنما هو رحمة بذلك الشخص، وخوفًا عليه من اللعن المذكور، بدليل قوله لشخص آخر قال له:

أيام عمر رضي الله عنه فجالس الصحابة وكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية، ويأخذ السنن عنهم ت ٣٢هـ بحمص، وكان ذاهبًا للغزو في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه. السير (٣/ ٤٨٩)، الأعلام (٥/ ٢٢٨).

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧١)، وأبو يعلىٰ الموصلي (١٧٤٩).

(٢) ذكره الديلمي في مسند الفردوس(٥٥٤٤) وقال العجلوني في: « كشف الخفاء» (٢/ ٢٥٩) أخرجه الأزدي في ترجمة بارح عن عبد الله بن مالك الهروي بسنده إلىٰ ابن عباس رفعه. قال القاري: وأشار إليه الخطيب حيث قال: عجب من المؤلف، يقرره وعلامة الوضع لائحة عليه!! وقال القاري: قلت: وإن كان العلامة علىٰ إسناده فمسلم؛ وإلا فليس في معناه ما يدل علىٰ بطلان مبناه. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ. انظر: الموضوعات لابن الجوزي (١/ ١٧٩).

(٣) سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي القرشيمن كبار الصحابة وفضلائهم، أسلم قبل خيبر،وهاجر فشهدها وما بعدها، وولّاه عمر حمص، وكان مشهورا بالخير والزهد، ولاه عمر علىٰ بعض الشام، ت ٢٠هـ. الإصابة (٢/ ٩٢)، حلية الأولياء (١/ ٢٤٤).

(٤)الصحيح أنه صحابي، وقصة هذا الرجل القائل لسعيد بن عامر: يا أصلع، ذكرها ابن عساكر في «تاريخ دمشق» انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ١٦٥).

(٥) من كلام سعيد بن عامر. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ١٦٥).

يا أصلع، وكان لا يعرفه، فتبسم له وقال: يا أخي، ألم تكن غنيًّا عن لعن الملائكة؟! إني لستُ بأصلع. فعُلِمَ أن الأكابر محفوظون من الرعونات والغضب لحظِّ نفوسهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٠) ومما أجبتُ به عن شقيق البَلْخيِّ[١] ﷺ في قوله: «من انشرح قلبه لدخول الدنيا عليه فهو منافق» قال قائل: هذا إطلاق في محل التفصيل وذلك خطأ، فإن من انشرح لدخول الدنيا عليه، لينفقها في مرضات الله تعالىٰ، فهو محمود شرعًا، فكيف يكون منافقًا؟!

والجواب: أن كلام شقيق محمول علىٰ من يحب الدنيا لغرض فاسد، وإلا فمثله لا يجهل أن انشراح القلب لكلِّ شيء فيه مرضات الله تعالىٰ محمود شرعًا، لأنه من فضل الله ورحمته، وقد قال تعالىٰ فيهما: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، فليفتش الإنسان نفسه يعرف مقامه هل هو سالم من النفاق أم واقع فيه. ويصح حمل كلام شقيق علىٰ مرتبة الإطلاق، وأن قلب كلِّ إنسان ينشرح لدخول الدنيا عليه ولو ارتفعت درجته، ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، من حيثُ إن النفاق يدق في غير المعصومين ولا ينقطع، كما قاله المحققون، والحمد لله ربِّ العالمين.

(١١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: «أنا بحمد الله ممن تساوىٰ عنده الذهب والتراب علىٰ حد سواء» فلاث به الناس وقالوا: فلان يدعي دعاوىٰ عريضة، وهو أكذب من مُسيلَمة الكذَّاب[٢].

---

(١) الإمام الزاهد شيخ خراسان أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي، من شاهير مشايخ خراسانكان أستاذ حاتم الأصم، صحب إبراهيم بن أدهم، وكان من كبار المجاهدين، استشهد في غزاة كولان سنة ١٩٤هـ. طبقات الصوفية ص٦٣، السير (٩/ ٣١٣).

(٢) مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي الوائلي أبو ثمامة: متنبيء من المعمرين. ولد ونشأ باليمامة. وتلقب في الجاهلية بالرحمن. وادعىٰ النبوة في زمن النبي ﷺ، وتوفي النبي ﷺ قبل القضاء علىٰ فتنته، فلما انتظم الأمر لأبي بكر، انتدب له خالد بن الوليد فقضىٰ عليه وعلىٰ فتنته. وقتل ١٢هـ. الأعلام (٧/ ٢٢٦)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٦/ ٣٨٧).

والجواب: أنه لا ينبغي تكذيبه، فإنه مقام يصله المريد أول قدم يصفه في طريق القوم. وقد أجمعوا علىٰ أنه لا يصح لمريد أن يدخل طريق القوم وهو يرجِّح الذهب علىٰ التراب. فإياك يا أخي إذا لم تدخل طريق القوم أن تنكر عليهم ما ادعوه من مقاماتها. وقد أعطاني الله تعالىٰ هذا المقام، فلا فرق عندي بين الذهب والبَعْر، ويحصل لي ضيق إذا دخلت عليَّ الدنيا، وأنشرح إذا خرجت! فلله الحمد علىٰ ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٢) ومما أجبتُ به عن كعب الأحبار في قوله: «لأن يخرج من عيني قطرة من خشية الله أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بجبل من ذهب» قال قائل: القطرة من الدمع أمر خاص بالعبد لا يتعدىٰ نفعه إلىٰ غيره، فكيف يكون أرجحَ من التصدق بجبل من الذهب علىٰ الفقراء والمساكين؟!

والجواب: أن مراده بذلك أن النفس من شأنها أن تعجب بصدقتها وترىٰ بها نفسها علىٰ غيرها، بخلاف البكاء من خشية الله تعالىٰ، فإن النفس لا يدخلها عجب بذلك، بل يلحقها به الذلة والانكسار، وذلك أحبُّ إلىٰ الله تعالىٰ من التصدق بجبل ذهب، فإنه في التصدق كالوكيل الذي يؤدي أمانةً إلىٰ أهلها لا غير، وليس له فعل في ذلك، وإنما الفعل لله رب العالمين. فعُلِمَ أنه لو قُدِّر أن نفس العبد المتصدق بجبل من ذهب لا تُعجَب بذلك، فالتصدق بجبل الذهب أفضل بلا شك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٣) ومما أجبتُ به عن حبيب العجميِّ[1] ﷺ في كونه كان إذا قرأ آية فيها أن الله تعالىٰ غضب علىٰ قوم يبكي ويقول: يا رب، قد أدخلت قلبي الرحمة علىٰ هؤلاء، فإن شئتَ فاغفر لهم، وإن شئتَ عذبني عنهم. انتهىٰ. فقال قائل: كيف دخلت الرحمة للعصاة قلب حبيب مع شهرته بالولاية الكاملة؟ ولمَ لمْ يغضب عليهم تقليدًا للحقِّ تعالىٰ وابتغاء مرضاته؟

---

(١) حبيب العجمي أبو محمد البصري، زاهد أهل البصرة وعابدهم. وكان مجاب الدعوة، تؤثر عنه كرامات وأحوال. قال ضمرة بن ربيعة: حدثنا السري بن يحيىٰ، قال: كان حبيب يُرىٰ بالبصرة يوم التروية، ويرىٰ بعرفة من الغد ت ١٤٠هـ. السير (٦/ ١٤٤) الوافي بالوفيات (١١/ ٢٣٠).

والجواب: أن حبيبًا كان يرىٰ الرحمة التي دخلت قلبه من جملة رحمة الله تعالىٰ بالعصاة، ليفتح الحقُّ تعالىٰ لهم بها باب الشفاعة فيهم والدعاء لهم، مع غضبه ﷺ عليهم تبعًا للحقِّ جلَّ وعلا، فهو يرحمهم بعين، ويغضب عليهم بعين أخرىٰ، ويسلِّم لله تعالىٰ في أمرهم بعين أخرىٰ. ولا يجوز حمل حبيب ﷺ علىٰ أنه يدعي مقامًا في الرحمة بالعصاة فوق رحمة الحقِّ جلَّ وعلا، كما قد يتبادر إلىٰ الأذهان، فإن ذلك بعيد أن يقع من عارف.

وقد كان حبيب العجمي هذا من أجلِّ أشياخ داود الطائي[1]، وأجلِّ أصحاب الحسن البصريِّ ﷺ. وقد كان يقول: أدركنا الناس وهم يرون الرحمة علىٰ العصاة أفضل من الدعاء لهم. وكان مُطرِّف بن عبد الله يقول: من لم يجد عنده رحمة للعصاة، فليدع لهم بالمغفرة. وكان زهير بن نعيم يقول: وددت أن جلدي يقرض بالمقاريض ولا يعصي أحد ربه. وكان شقيق البلخي يقول: من لم يرحم الرجلَ السوءَ، فهو أسوأ حالًا منه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل أصحاب الرحمة للعصاة علىٰ أنهم يحبون رفع المعاصي من الأرض جملة؛ فإن ذلك جهل بأحكام الله في عباده لا ينبغي حمل أهل الله عليه. وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول: لولا أن الله تعالىٰ أراد أن يُعصىٰ في الأرض ما خلق إبليس. انتهىٰ. **فالعبد يؤيد ما أراد الله من حيثُ الإيمانُ بالقدر، وينكر ما أنكر الله من حيثُ الكسبُ**، والحمد لله رب العالمين.

(١١٤) ومما أجبتُ به عن سفيان بن عُيينَة ﷺ في قوله: «الزهد في الدنيا ضالة لا توجد، لأن الزهد إنما يكون في الحلال، وأنىٰ لنا وجوده حتىٰ نزهد فيه!» قال قائل: الحلال لم يزل موجودًا إلىٰ كلِّ عصر من هذه الأمة، لأن الله تعالىٰ قد أمر المؤمنين بالأكل منه، ولولا وجوده لما أمرهم بطلبه، فكيف الحال؟

والجواب: أن مرادَ سفيان بالحلال الحلالُ الصرفُ اللائق بمقام السلف الصالحين

---

(١) داود الطائي أبو سليمان بن نصير الإمام الفقيه القدوة الزاهد الكوفي، أحد الأولياء. ولد: بعد المائة بسنوات. كان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة، ثم أقبل علىٰ شأنه، ولزم الصمت، وآثر الخمول، وفر بدينه، قال ابن المبارك: هل الأمر إلا ما كان عليه داود. توفي: ١٦٥هـ. السير (٧/ ٤٢٢)، وفيات الأعيان (٢/ ٢٥٩).

قبله، كما هو شأن الخلف في اعتقادهم في السلف، فيرون أحوالهم دون أحوال من قبلهم، كما قال الحسن البصري ﷺ: والله لقد أدركنا أقوامًا كنا في جنبهم لصوصًا، ولو رأوكم لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون[١] بيوم الحساب. انتهىٰ. فمثل سفيان ﷺ لا يجهل أن الحلال اللائق بأهل كلِّ زمان موجود علىٰ اختلاف طبقاتهم من أقطاب إلىٰ آحاد العوام، لكن حلال كلِّ إنسان علىٰ قَدْر حظِّه ونصيبه من مراتب الإسلام والإيمان والإحسان، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١١٥) ومما أجبتُ به عن الحسن البصري في قوله: «من لم يجعل حبَّ الدنيا من الكبائر، فقد أخطأ الطريق» قال قائل: إن من جملة حبِّ الدنيا الشهواتِ المباحةِ، كأكل الطعام اللذيذ، ولبس الثياب الناعمة، والنوم علىٰ الفرش الوطيئة، ونحو ذلك مما أباحته الشريعة، فكيف يعد ذلك من الكبائر؟

والجواب: أن مراد الحسن ﷺ الدنيا المحرَّمةُ بإجماع، أو أن مباحَها يجرُّ إلىٰ مكروهها، ومكروهَها يجرُّ إلىٰ صغائر الذنوب، وصغائرَها تجرُّ إلىٰ كبارها، فأراد بذلك سدَّ باب الاسترسال في الشهوات، وقد ورد في الحديث مرفوعًا: «المعاصي بريد الكفر»[٢] أي تجرُّ إلىٰ الكفر، وفي الحديث: «حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»[٣]، وقيل: إنه

---

(١) بالأصلين: لا يؤمنوا، وما أثبتناه الأصوب نحويًا.

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢٣١٧) وقال: لم أر من ذكره غير أن ابن حجر المكي في شرح الأربعين قال: أظنه من قول السلف، وقيل: إنه حديث وهو معنىٰ ما قيل: الصغيرة تجر لكبيرة وهي تجر للكفر، وهو معنىٰ بريد الكفر فافهم.

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (٤٧٤) من كلام نبي الله عيسىٰ ﷺ، والبيهقي في الزهد الكبير (٢٤٧)، وقال السخاوي في «المقاصد» (٣٨٤) أخرجه البيهقي في الحادي والسبعين من الشعب، بإسناد حسن إلىٰ الحسن البصري، رفعه مرسلًا، وأورده الديلمي في «الفردوس» وتبعه ولده بلا إسناد، عن علي رفعه به، وهو عند البيهقي أيضًا في «الزهد» وأبي نعيم في ترجمة الثوري من الحلية من قول عيسىٰ بن مريم ﷺ، وعند ابن أبي الدنيا في «مكايد الشيطان» له، من قول مالك بن دينار، وعند ابن يونس في ترجمة سعد بن مسعود التجيبي من تاريخ مصر له، من قول سعد هذا.

من كلام عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، والأنبياء من حيثُ هم لا يخبرون إلا بالصدق، والرأسُ ما يتولد منه الفرع.

وكان أبو سليمان الدَّارانيُّ يقول: سببُ الكفر بالله تعالىٰ عصيانُ ما جاءت به الرسل حسدًا وكبرًا، وكلاهما من الدنيا. وكان[1] ابن المنكَدِر[2] يقول: تجيء الدنيا يوم القيامة تتبختر في زينتها، فتقول: يا ربِّ، اجعلني لأحسن عبادك قدْرًا. فيقول الله تعالىٰ: لا أرضاك له، اذهبي إلىٰ النار يا لا شيء. فتقول: يا ربِّ، ومن يحبني؟ فيقول تعالىٰ: ومن يحبُّك؛ فتلتقطهم جميعًا إلىٰ النار. انتهىٰ. وكان أبو حازم[3] يقول: يوقف من يعظِّم الدنيا بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فيُقال له: هذا الذي عظَّم ما حقَّر الله تعالىٰ، فيسقط لحمُ وجهه من شدَّة الخجل. انتهىٰ. ومثل هذه الأمور لا تكون إلا فيما هو كبيرة، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(١١٦) ومما أجبتُ به عن عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي نعم[4] وغيرهما من الصحابة والتابعين في وصالهم في الصوم الثلاثة أيام وأكثر، مع كونه ﷺ قد نهىٰ عن الوصال[5]، فإنه لا ينبغي الإنكار علىٰ من واصل من الأمة، فيُحتمَل أنه كان من الوارثين

---

(١) بالأصلين: وكلام. والصواب ما أثبتناه.

(٢) محمد بن المنكدر بن عبد الله القرشي التيمي المدني الإمام الحافظ القدوة شيخ الإسلام، أبو عبد الله القرشي. ويقال: أبو بكر أخو أبي بكر وعمر. كان من سادات قريش وعباد أهل المدينة، وقراء التابعين ت ١٣٠هـ. مشاهير علماء الأنصار ص١٠٧، السير (٥/ ٣٥٣).

(٣) أبو حازم سلمة بن دينار المديني المخزومي الإمام القدوة الواعظ، شيخ المدينة النبوية. ولد: في أيام ابن الزبير، وابن عمر، وثقه: ابن معين، وأحمد، وأبو حاتم، وقال ابن خزيمة: ثقة، لم يكن في زمانه مثله. توفي: ١٤٠هـ. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٢/ ١٩١)، الرسالة (٦/ ٩٦).

(٤) عبد الرحمن بن أبي نعم البجلي الإمام الحجة القدوة الرباني، أبو الحكم البجلي الكوفي. قال بكير بن عامر: كان لو قيل له: قد توجه إليك ملك الموت، ما كان عنده زيادة عمل، وكان يمكث جمعتين لا يأكل. توفي: في حدود ١١٠هـ. السير (٥/ ٦٢) والوافي بالوفيات (١٨/ ١٧٦).

(٥) أخرجه البخاري (٧٢٤٢)، ومسلم (١١٠٢).

لرسول الله ﷺ في مقام الوصال من غير مشقة، وما نهىٰ رسول الله ﷺ عن الوصال إلا إبقاءً علىٰ أمته وشفقةً عليهم، فمن أقدره الله تعالىٰ علىٰ مواصلة الأيام الكثيرة من غير مشقة، فلا حرج عليه. ويُسمَّىٰ هذا تحريمُ شفقة علىٰ الأمة، كتحريم الصوم في السفر لمن يحصل له به مشقة.

وبعضهم واصل الصوم وصار يأكل عند الإفطار زبيبةً أو لوزةً، أو يشرب قطرةً ونحوها مما يخرج به عن الوصال. وبعضهم كان الباعث له علىٰ ترك الأكل الحياء من الله تعالىٰ في تردده إلىٰ الخلاء، كمالك بن أنس، ومالك بن دينار، والبخاريِّ[1]، والأوزاعيِّ، وأبي عِقال المغربيِّ،[2] وغيرهم ممن مَنَّ الله تعالىٰ عليهم بدوام المراقبة وشهود أنهم بين يديه علىٰ الدوام.

وقد ذكرنا في كتاب «منهج الصدق والتحقيق»[3] أن عبد الرحمن بن أبي نعم كان لا يأكل الأكل خمسة عشر يومًا، وحبسه الحجاج في بيت وأغلقه عليه خمسة عشر يومًا، ثم فتح الباب عليه، فإذا هو قائم يصلي، وأن عبد الله بن الزبير كان يطوي سبعة أيام، فكان لا يأكل إلا يوم السبت ويفطر علىٰ سمن وعسل، وكان أبو عِقال المغربيُّ لا يأكل إلا كل ستة أشهر، ومكث عيسىٰ بن نجم[4] بالبرلس[5] سبعة عشر سنة بوضوء واحد لا

---

(١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ولد في شوال ١٩٤هـ.، سمع من ألف شيخ، وكان من أوعية العلم، يتوقد ذكاءً. له مصنفات منها: «الصحيح» و«الأدب المفرد» و«أسامي الصحابة» وغيرها، ت في شوال ٢٥٦هـ.السير (١٢/ ٣٩١) وشذرات الذهب (٣/ ٢٥٢).

(٢) أبو عقال المغربي غلبون بن الحسن بن غلبون، متصوف عالم بالحديث والأدب، له شعر، من أهل القيروان، نشأ ماجنًا خليعًا، ثم تصوف وأقبل علىٰ العلم، ورحل إلىٰ المشرق واستقر بمكة، ولازم الحرم إلىٰ أن مات ٢٩١ هـ. الأعلام (٥/ ١٢١).

(٣) ما زال مخطوطًا حتىٰ صدور هذا الكتاب.

(٤) عيسىٰ بن نجم خفير بحر البرلس. كان ؓ من أكابر الأولياء، وله المجاهدات العالية في الطريق. الطبقات الكبرىٰ للشعراني (٢/ ٩٤).

(٥) البرلس: إحدىٰ مراكز محافظة كفرالشيخ بمصر.

يأكل ولا يشرب، كما أخبرني بذلك سيدي عليٌّ المرصفيُّ رحمه الله. وكان الإمام الأوزاعي لا يدخل الخلاء إلا كل ثلاثين يومًا، فَرَقَّ بطنُه، فكان يدخل في الشهر مرتين، فكانت أمه تقول لأصحابه: ادعوا لعبد الرحمن فإنه به علة البطن! وكان سهل بن عبد الله التستري لا يأكل إلا كل ستة عشر يومًا، وكان أبو عثمان الحِيْرِي[1] لا يأكل غالب أوقاته إلا كل سنة أكلة، وكان الإمام مالك لا يأكل إلا كل ثلاثة أيام، وكذلك البخاري. انتهىٰ.

وكذلك ذكرنا في كتاب «منهج الصدق والتحقيق» أن من السلف من كان يواصل الصوم إذا لم يجد شيئًا حلالًا يأكله، وأن بعضهم كان إذا لم يجد الحلال، يستفُّ الرمل والتراب العشرين يومًا وأكثر، منهم: سفيان الثوريُّ وإبراهيم بن أدهم. وكان سفيان الثوريُّ يقول: بتُّ عند الحجاج بن فرافصة[2] خمسة عشر يومًا وهو صائم، فما رأيتُه ذاق طعامًا ولا شرابًا، ولا دخل خلاءً، ولا قام من مجلسه إلا للصلاة.

قلتُ: ويُجاب عمَّن رأىٰ تحريم الوصال في حقِّ كلِّ الناس بأنه مشىٰ علىٰ قواعد النهي الشرعيِّ، حتىٰ يأتي ما يخرِج بعض أفراده، وهذا أحوط للدين.

(١١٧) ومما أجبتُ به عن الحسن البصري رضي الله عنه في قوله: «إن المقبل علىٰ العبادة المتجرد عن الدنيا أفضل من المكتسب المتصدق بما زاد عن حاجته» قال قائل: كيف كان صاحب الخير القاصر أفضل من صاحب الخير المتعدي؟

والجواب: أن مراد الحسن بذلك من يُخاف عليه من الدخول في الدنيا فتنة، فسدَّ

---

(١) أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيدالحيري، الشيخ الإمام، المحدث الواعظ، مولده بالرَّي سنة (٢٣٠هـ). صحب قديمًا يحيىٰ بن معاذ الرازي، وشاه بن شجاع الكرماني، ثم رحل إلىٰ نيسابور قاصدًا أبا حفص الحداد، فزوجه ابنته وأخذ عنه طريقته. وكان أوحد أهل زمانه في سيرته، ومنه انتشرت طريقة التصوف بنَيسَابُور. توفي (٢٩٨هـ). «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٦٢).

(٢) حجاج بن فرافصة الباهلي البصري العابد، روىٰ عن: أيوب السختياني، وعطاء، وابن سيرين، وروىٰ عنه الثوري، ومحمد بن مطرف، ومعتمر بن سليمان، قال أبو حاتم: شيخ صالح متعبد، توفي سنة نيف وأربعين ومئة. السير (٧/ ٧٨)، تهذيب الكمال (٥/ ٤٤٧).

عليه الباب، وإلا فالحسن يعلم أن الخير المتعدي من غير فتنة أفضل. وقد قالوا: يا جامع الدنيا ليبرَّ بها الفقراء والمساكين تركك لها أبرُّ وأبرأ. انتهىٰ.

فمن لم يخف عليه من الاشتغال بالكسب فتنة، فهو[1] أفضل، كما كان عليه أكابر الصحابة. وقد مدح الله تعالىٰ أهل هذا المقام بقوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [النور: ٣٧].

وكان الجنيد ﷺ يقول كثيرًا: تجريد العبد من الدنيا أفضل من جمعها وإنفاقها. وهذا من قاعدة السلامة مقدَّمة علىٰ الغنيمة، وفي الحديث الصحيح: «لو أن رجلًا في حجره دراهم يتصدق بها، وآخر يذكر الله، لكان الذاكر لله أفضل»[2]. انتهىٰ.

وما ورد في فضل الكسب محمول علىٰ من لا يشتغل به عن مراقبة ربه، أو علىٰ من لا يصلح لعبادة ربه، فرغَّبه الشارع في الكسب، خوفًا أن تفضي به البطالة إلىٰ سؤال الناس من غير ضرورة. ومن شأن الشارع أن يرغِّب كلَّ إنسان في الاشتغال بما خُلِقَ له، بدليل ترغيب أهل الصفة في العبادة وعدم الكسب، وفي الحديث: أنه ﷺ قال لأهل الصفة يومًا: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلىٰ بطحان، فيأتي بناقتين كَوْمَاوَيْنِ؟ قالوا: كلُّنا نحبُّ ذلك يا رسول الله. فقال: لأن يترك أحدكم ذلك، ثم يذهب إلىٰ المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خيرٌ له من اثنين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع من أعدادهن من الإبل»[3]. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، ورغِّبْ من يصلح للعبادة في العبادة، ومن يصلح للكسب في الكسب، ومن يصلح لهما فيه، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أي الاشتغال بالكسب.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٩٦٩)، وذكره الهيثمي في جمع الزوائد (١٠/ ٧٤) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله وثقوا.

(٣) أخرجه مسلم (٨٠٣)، وأبو داود (١٤٥٦).

(١١٨) ومما أجبتُ به عن السيد أويس القرني[1] ﷺ في قوله: «لا يقبل الله تعالىٰ من عبد عملًا وهو يهتم بأمر رزقه» قال قائل: كيف ذلك والله تعالىٰ قد أمر العبد بالاكتساب والاهتمام بتحصيل ما يكف به العبد نفسه وعياله عن سؤال الناس؟

والجواب: أن مراد أويس من يؤديه اهتمامُه بأمر رزقه إلىٰ اتهام الحقِّ تعالىٰ والشكِّ في أنه يضيعه، لا مطلق الاهتمام. وقد صلَّىٰ أبو يزيد البسطامي مرةً خلف إمام، فلما سلَّم، قال له الإمام: من أين تأكل؟! فإني لا أراك تكتسب شيئًا! فقال له أبو يزيد: دعني حتىٰ أعيد الصلاة وأجبك. فلما سلَّم قال: إنما أعدتُ الصلاة التي صليتُها خلفك لأنك لا تعرف الله! والصلاة خلف من لا يعرف الله لا تصح. ثم قال: ترىٰ أن الله تعالىٰ يرزق الكفَّار والمشركين والكلب والخنزير ولا يرزق أبا يزيد!

وقد خزَّن ﷺ قوته عامًا رفقًا بأمته الضعفاء لا شكًّا في أن الله تعالىٰ يضيعه. وقد يكون إنما خزَّن ذلك لأن الله تعالىٰ قد أطلعه علىٰ أن ذلك القوت الذي خزنه ليس لغيره ولا لغير عياله فيه نصيب، فأحرزه لهم، ولو أنه لم يخزنه لهم لكان ذلك، لأن أحدًا لا يقدر يتناول منه ذرة، فاحمل يا أخي الأكابر علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(١١٩) ومما أجبتُ به عن علي بن أبي طالب ﷺ في قوله لما دخل مسجد الكوفة ورأىٰ فيه قاصًا يقص علىٰ الناس: من هذا؟ فقالوا: شخص يحدث. فقال: إن هذا رجل يقول: اعرفوني أنا فلان أنا فلان. قال قائل: هلا حمله السيد عليٌّ ﷺ علىٰ الإخلاص، لأن ذلك هو اللائق بمقام علي، دون سوء الظن بذلك الواعظ.

والجواب: أن مراد عليٍّ ﷺ أن لسان حال ذلك الرجل يقول ذلك وإن لم يقصده، فخاف عليٌّ ﷺ علىٰ ذلك الواعظ أن تدخله النفس، فكأنه يحذِّره بهذا القول في المستقبل،

---

(١) أويس القرني بن عامر بن جزء بن مالك المرادي اليماني القدوة الزاهد، سيد التابعين في زمانه. وفد علىٰ عمر، وروىٰ قليلًا عنه، أسلم علىٰ عهد رسول الله ﷺ ومنعه من القدوم عليه بره بأمه، وأخبر رسول الله ﷺ وأمر من أدركه من الصحابة أن يطلبوا منه الاستغفار لهم، قتل يوم صفين مع علي بن أبي طالب ﷺ سنة: ٣٧هـ. السير (٤/ ١٩)، الوافي بالوفيات (٩/ ٢٥٧).

مع اعتقاده فيه الإخلاص في ذلك الوقت وفيما مضىٰ. وقد طلب الناس من سفيان بن عُيينة أن يجلس للحديث، فقال: ما أنا بأهل لتحديثكم، ولا أنتم بأهل أن تسمعوا. ومرَّ إبراهيم بن أدهم علىٰ حلقة الأوزاعيّ، فقال: لو كان هذا الزحام علىٰ أبي هريرة لدخلته النفس! فبلغ ذلك الأوزاعيَّ، فترك التحديث من ذلك اليوم. فعُلِمَ أنه لا يلزم من إنكار هؤلاء علىٰ بعض الوعاظ أن يكون أحدهم سيء الظن به، فإن السيد عليًا وسفيان وإبراهيم كانوا أطهر قلبًا منك بيقين، فلا تقس حالهم علىٰ حالك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٠) ومما أجبتُ به عن الفضيل بن عياض في قوله: «أشتهي أن تكون داري بعيدة عن القرَّاء». قال قائل: كيف يشتهي أن يكون بعيدًا عن العلماء؟ وإنما اللائق بالناس محبة مجاورة العلماء، لينصحوهم ويعلموهم ما جهلوا من أحكام دينهم.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراضُ علىٰ الفضيل في ذلك، لاحتمال أن يكون الباعث له علىٰ ذلك القول إنما هو خشية أن يسمع منهم أمورًا لا يقدِرُ علىٰ العمل بها، فاحتاط لنفسه واشتهىٰ البعد عنهم. ويُحتمَل أنه أراد بذلك عدم وقوع العلماء في عرضه حسدًا كما هو الغالب إذا رأوا مثل أمير المؤمنين يأتي إليه ولا يأتي إليهم، فأراد ببعده عن دارهم عدم وقوعهم في الحسد رحمة بهم لا ازدراءً لهم، بقرينة قول مالك بن دينار [ومالك] بن أنس ﷺ: لا تُقبَل شهادة القراء علىٰ بعضهم بعضًا؛ لأنا وجدناهم حُسَّدًا. انتهىٰ.

وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: احذروا من القرب من القرَّاء واحذروني معهم، فإني لو خالفتُ أكثرَهم محبةً لي في أمر أراده، لخفتُ أن يسعىٰ في قتلي عند سلطان جائر. وكان بشر الحافي يقول: ما لي وللقراء والقرب منهم، فإنهم قوم إن رأوني في نعمة حسدوني، وإن رأوني علىٰ زلة هتكوني. وكان ذو النون المصري[1] يقول: إياك والقرب من القراء، فإنهم ربما رموك بالعظائم وقبل الناس ذلك منهم وقالوا: القراء لا يكذبون.

فاعلم ذلك، واحمل كلام السلف الصالح في حقِّ بعضهم علىٰ الأغراض الصحيحة

---

(١) ذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم الزاهد، شيخ الديار المصرية. ولد في أواخر أيام المنصور، قال ابن يونس: كان عالمًا فصيحًا حكيمًا. توفي: في ذي القعدة سنة ٢٤٥هـ. السير (١١/ ٥٣٢)، حلية الأولياء (٩/ ٣٣١).

والمقاصد الحسنة، فإنهم كانوا أخوف علىٰ دينهم منك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢١) ومما أجبتُ به عن حبيب العجميِّ ﷺ في قوله: «لا أعلم أحدًا من أهل عصرنا هذا سجد لله تعالىٰ سجدةً واحدةً خالصًا» فقال بعض الناس: هذا سوء ظن بالمسلمين، ولا يليق بمثل حبيب أن يقول ذلك، بل في عباد الله من يؤدي الصلاة علىٰ وجه الكمال بحكم الإرث لرسول الله ﷺ.

والجواب: أنه لا اعتراض علىٰ حبيب بذلك، لأنه ما نفىٰ إلا علمه بمن أخلص في سجوده بحكم التعيين لا بحكم العموم. وقد كان عبد العزيز بن أبي رواد[1] ﷺ يقول: لقد حججتُ ستين حجة، وعملتُ أعمالًا كثيرة من القربات، ومع ذلك فما حاسبتُ نفسي قط إلا ووجدتُ نصيبَ الشيطان من ذلك أقوىٰ من نصيب ربي عزَّ وجلَّ، فليتني خرجتُ من الدنيا كفافًا لا عليَّ ولا لي! وكان حبيب نفسه يقول: لو أوقفني الله تعالىٰ بين يديه وقال لي: ائتني بسجدة واحدة لا حظَّ للنفس والشيطان فيها لأدخلك بها الجنة؛ لقلتُ له: يا رب لا أجد ذلك، فتغمدني برحمتك إن شئت. انتهىٰ. فاعلم ذلك واحمل الأكابر علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٢) ومما أجبتُ به عن قول عبد الله بن عباس ﷺ: «ركعتان مع تدبر وتفكر خير من قيام ليلة كاملة والقلب غافل عن الله تعالىٰ» قال قائل: التفكر في معاني القرآن والذكر يشغل عن الله تعالىٰ، فيرجع الأمر إلىٰ الغفلة عن الله، فكيف الحال؟ فإن خطاب الحقِّ تعالىٰ مع شهود شيء آخر لا يصح، فإنه يذهب بقلبه إلىٰ النار وما أعد الله تعالىٰ فيها للعصاة، وإنه يذهب به إلىٰ الجنة، وما أعد الله تعالىٰ فيها للمطيعين، وإنه يذهب به إلىٰ المواريث، وما يخص كلَّ واحد، وهكذا، فأين الحضور مع الله تعالىٰ؟

والجواب: أن كلام ابن عباس ﷺ في حقِّ الكُمَّلِ من المؤمنين الذين لكلِّ شيء

(١) أبو عبد الرحمن عبد العزيز بن أبي رواد، شيخ الحرم. كان للعبادة مغتنما، وللمصائب والمحن متكتما. قال ابن المبارك: كان من أعبد الناس، ذهب بصره عشرين سنة ولم يعلم به أهله ولا ولده، توفي: بمكّة ١٥٩هـ. السير (٧/ ١٨٤)، حلية الأولياء (٨/ ١٩١).

عندهم عين ينظرون بها، فلا يشغلهم أمر عن أمر، لا مع الذين يشغلهم أمر عن أمر، فيُحمَل كلامه ﷺ علىٰ التفكر في الآداب المتعلقة بحضرة الله تعالىٰ، ليعمل بها في صلاته، لا التفكر في استنباط الأحكام مثلًا، إذ الصلاة ليست بمحلٍّ لذلك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٣) ومما أجبتُ به عن الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وبشر الحافي ﷺ في قولهم ببطلان صلاة من في جوفه لقمة من حرام، قال قائل: هذا أمر لم يتعرض له الشارع، فكيف يحكم هؤلاء ببطلان صلاة من ذُكر؟ وقد يكون الشارع إنما ترك التنبيه علىٰ ذلك توسعةً علىٰ أمته، فكيف يضيِّق هؤلاء ما وسعه رسول الله ﷺ؟

والجواب: أن مثل هؤلاء الأولياء أهلٌ للاجتهاد، فقد يكون قالوا ذلك باجتهاد، أو يكون كلامهم في حقِّ الأكابر لا في حقِّ عامة الناس، من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين». وفي الإنجيل ما يؤيد كلام هؤلاء السادات، فذكر وهب بن مُنَبِه أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام: قل لبني إسرائيل لا يدخلوا بيتًا من بيوتي إلا وقلوبهم طاهرة، ونفوسهم[1] وجلة، وأبصارهم خاشعة، وجوارحهم مُطَهَّرة، وبطونهم خالية عن الحرام، وأعلمْهم أني لا أجيب لأحد منهم دعوة ولأحد من الخلق عليه مظلمة، أو في بطنه لقمة من حرام. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٤) ومما أجبتُ به عن مالك بن دينار ﷺ في قوله: لو أوقفني الحقُّ تعالىٰ بين الجنة والنار وخيرني بين أن أصير رمادًا أو ترابًا [أو أُخَيَّرَ إلىٰ أي الدارين أصير، لاخترتُ أن أكون رمادًا][2] أو ترابًا. انتهىٰ. قال قائل: صيرورته رمادًا أو ترابًا لا يخرجه عن أن

---

(١) «أ»، «ب»: قلوبهم، والمثبت من «تنبيه المغترين».

(٢) ساقط من «ب»، وفي «أ»: وبين أصبر حتىٰ أعرف مصيري إلىٰ الجنة أو النار. والمثبت من «المتمنين» لابن أبي الدنيا، غير أنه نقله عن عثمان بن عفان.

يكون معذَّبًا، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن العبد ولو حُرق وذرِّي في الريح يحس بالعذاب ويضغطه القبر.

والجواب: أن مالكًا ﷺ لا يجهل مثل ذلك، وإنما أراد بكونه رمادًا أو ترابًا زوال التكليف من باب التمني، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا ليت أمي لم تلدني! وكما قالت عائشة ﷺ: ليتني كنتُ نسيًا منسيًّا! ونحو ذلك، فكأنه تمنىٰ حالة يكون فيها أخف همًّا وحزنًا مما قبلها، فهو من باب فرض المحال، لأن الحقَّ تعالىٰ لم يقع منه التخيير لأحد بين أن يصير رمادًا ولا ترابًا. **ولم يزل الخلق لهم كلام في حال الشدائد خلاف كلامهم في أوقات الرضا**. وقد نقل العلماء عن عمر بن الخطاب ﷺ مثل مقالة مالك بن دينار السابقة. فاحمل يا أخي كلام مالك ﷺ علىٰ أنه قاله في حال تجلي الحقِّ تعالىٰ علىٰ قلبه بالعظمة والهيبة والمناقشة، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٥) ومما أجبتُ به عن حذيفة بن قتادة[1] ﷺ في قوله: «والله لو حلف حالف أن أعمال حذيفة أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، لقلت له: صدقتَ، لا تكفر عن يمينك» ونُقل ذلك عن الحسن البصري ومالك بن دينار أيضًا. قال قائل: لا ينبغي لمؤمن أن يقول مثل هذا القول، فإنه قريب من قول العبد: أنا غير مؤمن بيوم الحساب، ولا شك في كفر من قال ذلك، فكيف الحال في قول هؤلاء الأئمة؟

والجواب: أن مراد حذيفة ومن قال بقوله أن أعماله كلَّها لا تنضبط علىٰ الاستقامة التي تستحق أن يرضىٰ الحقُّ تعالىٰ عن فاعلها، من باب هضم النفس واتهامها ومقتها في ذات الله عزَّ وجلَّ، وإلا فاعتقادنا في هؤلاء أنهم من أكمل المؤمنين إيمانًا بيوم الحساب، ولولا إيمانهم بيوم الحساب ما جاهدوا في نفوسهم كلَّ هذه المجاهدة التي نُقِلت عنهم، حتىٰ كان أحدهم يصرخ كالثور إذا ذُكِر يوم القيامة.

وقد كان حذيفة المَرْعَشِيُّ يقول: إن لم تخف أن يعذبك الله علىٰ أحسن طاعاتك

---

(١) حذيفة بن قتادة المَرْعَشِيُّ أحد الأولياء. صحب سفيان الثوري، وروىٰ عنه. وقال ابن خبيق: قال حذيفة: إن لم تخش أن يعذبك الله علىٰ أفضل عملك، فأنت هالك. توفي: ٢٠٧هـ. السير (٩/ ٢٨٣)، حلية الأولياء (٨/ ٢٦٧).

عندك، فأنت هالك. وكان سعيد بن جُبَير[1] يقول: لسنا بخائفين من الله، وإنما نحن من المغترين بحلمه علينا، فإن الخائف من الله تعالىٰ هو من بذل استطاعته في طاعة الله تعالىٰ، ثم أحسن به الظن بعد ذلك، ضد المغتر، فإن المغتر هو من تمادىٰ في المخالفات وتمنىٰ علىٰ الله المغفرة. وكان الحسن البصريُّ يقول: قد أكثر الناس من المعاصي وادعوا حسن ظنهم بربهم وهم كاذبون، ولو أحسن أحدُهم ظنَّه بربه، لأحسن العمل فيما بينه وبين الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣]. [وكان يقول: والله ما أحدنا آمن من عدم مغفرة الله تعالىٰ له، فيصير أحدنا يعمل في غير معمل][2]. وكان يقول: أرجىٰ الناس للنجاة أكثرهم خوفًا علىٰ نفسه. انتهىٰ.

وقد قدمنا أن الكامل يكنىٰ «أبا العيون» فعين ينظر بها إلىٰ نقص عمله، وعين ينظر بها إلىٰ كماله ليشكر الله تعالىٰ عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٦) ومما أجبتُ به عن عم الأحنف بن قيس لما شكا له الأحنفُ[3] وجع ضرسه، وأنه لم ينم منه ليلة كاملة، فقال له عمه: إن لي بهذا الألم ثلاثين سنة ما أظنُّ أن أحدًا علم به إلا أنت في هذا الوقت. انتهىٰ. قال قائل: فلمَ أطلع عم الأحنف غيره علىٰ ذلك، وأخرجه من عمل السرِّ الذي يضاعف إلىٰ الجهر؟ وكان الأولىٰ له عدم إطلاع ولد أخيه عليه.

والجواب: أنه لا يقدح في عمل السرِّ إظهارُه علىٰ وجه الاعتبار وتنهيض الهمة، كما أن الشيخَ يطلع المريدَ علىٰ أعماله السرِّيَّة ليقتدي به فيها ويؤجر علىٰ ذلك، وليس اللوم

(١) سعيد بن جبير بن هشام الوالبي مولاهم، الكوفي المقرىء، المفسر، الشهيد، أبو محمد الأسدي، تابعي أحد الأعلام، كان ابن عباس رضي الله عنه إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني: سعيد بن جبير، قتله الحجاج في شعبان سنة ٩٥ هـ. السير (٤/ ٣٢١)، حلية الأولياء (٤/ ٢٧٢).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي. اسمه: ضحاك، وقيل: صخر. وشهر بالأحنف؛ لحنف رجليه، وهو العوج والميل. كان سيد تميم. أسلم في حياة النبي ﷺ ووفد علىٰ عمر، كان صديقًا لمصعب بن الزبير، فوفد عليه إلىٰ الكوفة، فمات عنده بالكوفة ٧٢هـ. السير (٤/ ٨٦) وفيات الأعيان (٢/ ٤٩٩).

إلا علىٰ من يظهر أعماله علىٰ سبيل الفخر والرياء، كما هو مقرر في رسائل القوم.

وقد بلغنا أن عابدًا من بني إسرائيل كان مبتلىٰ بعدة أمراض، كلُّ مرض منها لو كان في الفيل لهدَّ قوته، وكان يكتم ذلك، فلم يزل به إبليس حتىٰ أوقعه في إظهاره، وذلك أنه أتاه في صورة عابد وقال: ادعُ لي، فإن بي صداعًا؛ فدعا له، ثم غاب عنه يسيرًا فجاءه وقال: ادع لي؛ فدعا له، فلم يزل يغيب ساعة ويرجع ويقول: ادعُ الله لي حتىٰ اشتد غضب ذلك العابد، فقال بشدة خلق: أنا لي كذا كذا سنة وبي من الأمراض ما لا يجيء مرضك عشر معشاره، وأنا كاتم ذلك! فولىٰ إبليس وهو يصفق ويقول: قد حبط أجر صبرك، أنا إبليس. انتهىٰ.

وقد ذكر العلماء أن شكوىٰ المريض مرضه لأخيه لا بأس به، ليدعوَ له بالصبر أو الشفاء أو بدوام مقام الرضا والتلذذ بذلك المرض، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٧) ومما أجبتُ به عن حاتم الأصم في قوله: «إذا أظهر صاحب المصيبة بموت ولده مثلًا الجزع، فلا تعزوه» قال قائل: كيف ذلك والتعزية إنما شُرعَت تسكينًا للجزع؟

والجواب: أنه ربما كان مرادُ حاتم الزجر والتوبيخ لصاحب تلك المصيبة في إظهاره الجزع من تقدير الله تعالىٰ، مع قدرته علىٰ عدم إظهاره، ليتنبه علىٰ ما وقع فيه من سوء الأدب بترك تعزية الناس له، فيندم ويستغفر من الإثم الذي وقع فيه. وكان يقول: من عزَّىٰ صاحب مصيبة قد أظهر السخط وعدم الرضا بموت ولده أو قريبه، فقد شاركه في الإثم. وقد كان أبو سعيد البلخيُّ[1] يقول: من أُصيب بمصيبة، فمزَّق ثوبًا أو ضرب خدًّا، فكأنما أخذ رمحًا يقاتل به ربَّه عزَّ وجلَّ. وكان مورق العجليُّ[2] ﷺ يقول: ما أعلم أحدًا

(١) أبو سعيد البلخي خلف بن أيوب العامريّ الإمام الفقيه الحنفيّ مفتي أهل بلخ وخراسان، كان إمامًا زاهدا ورعًا. أخذ الفقه عن القاضي أبي يوسف، والزهد عن إبراهيم بن أدهم، انتهت اليه رياسة المذهب في زمانه، رحمه الله تعالىٰ. توفي: ٢٢٠هـ. السير (٩/ ٥٤١)، تهذيب الكمال (٨/ ٢٧٣).

(٢) مورق بن مشمرج بن عبد الله العجلىٰ أبو المعتمر البصرىٰ، من أحلم أهل البصرة علىٰ الحقيقة وأكثرهم تعبدًا وفضلًا، قال: تعلمت الصمت في عشر سنين، وما قلت شيئًا قط إذا غضبت أندم عليه إذا زال غضبي،

أُوجَر علىٰ موته إلا أحببتُ موته. فعُلِمَ أن كلام حاتم مراده به إظهار الغضب لجناب الحقِّ جلَّ وعلا، فإن كلَّ من لم يرض بقضاء الله، كرهه الله، ومن كرهه الله فقد استحق الهجر وعدم تسليته في موت ولده أو قريبه.

وكان وهب بن مُنبِّه يقول: شكا نبي من الأنبياء ما ناله من المكروه إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، فأوحىٰ الله إليه: كم تشكوني ولست بأهل ذم، هكذا كان بدو شأنك في علم الغيب، فلم تسخط علىٰ حسن قضائي عليك؟ أفتريد أن أعيد الدنيا من أجلك، وأبدل ما في اللوح المحفوظ بسببك، وأقضي لك بما تريد دون ما أريد، ويكون ما تحب دون ما أحب أنا؟ فبعزتي حلفت لئن تلجلج هذا في صدرك مرةً أخرىٰ، لأسلبنك ثوب النبوة، ولأوردنك النار ولا أبالي. انتهىٰ.

قلتُ: وقوله: «لأسلبنك... إلىٰ آخره» هو علىٰ سبيل الفرض والتقدير، فقد أجمع العلماء علىٰ أن المعصوم لا يصح سلبُه لعصمته. وإيضاح ذلك أن كلَّ ما جاء العبدَ من طريق الوهب الإلهيِّ من غير سؤال لا يصح سلبه، وما جاءه من طريق الكسب والسؤال يصح سلبه، والنبوة وهب لا كسب بإجماع، وربما سبق في علم الله تعالىٰ أن ذلك الكلام لا يتلجلج في صدره ثانيًا، فينتفي المشروط بانتفاء الشرط، وما كلُّ ما توعَّد الله به عباده يكون واقعًا إلا إن ورد به نص، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٨) ومما أجبتُ به عن قول أبي سليمان الداراني: «الرحمة للعصاة من أخلاق المرسلين» قال قائل: كيف ذلك وقد قاتلوا المشركين بالسيف؟ ولو أنهم رحموهم ما قتلوهم.

والجواب: أن قتال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمن خالف أمر الله تعالىٰ من جملة الرحمة له، فكأنه يرده إلىٰ طاعة الله تعالىٰ ليرضىٰ عنه بالسيف، كما يردُّ الوالدُ ولدَه عن مواضع الهلاك بالعصا، فمن قوة شفقة الرسل علىٰ من خالف ومحبتهم فيه أن

توفي بعد سنة ١٣٠ هـ. مشاهير علماء الأمصار ص١٤٦، تاريخ الإسلام (٣/ ١٧١).

ردوه إلىٰ طاعة ربه بالسيف، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٢٩) ومما أجبتُ به عن قول الفضيل بن عياض: «إن رد دانق[1] من الحرام أفضل عند الله من خمسمئة حجة» فقال قائل: كيف يكون رد الدانق أفضل من خمسمئة حجة؟ مع أن مثل الدانق أمر يتهاون به غالب الناس.

والجواب: أن كلام الفضيل صحيح؛ لأن من قواعد الشريعة أن «السلامة مقدَّمة علىٰ الغنيمة» انتهىٰ. وذلك لأن صاحب ذلك الدانق الحرام قد لا يرضيه يوم القيامة تلك الخمسمئة حجة في دانقه. وقد كان الفضيل ﷺ يقول: إياك وطريق الضلالة، ولا يغرك كثرة الهالكين، وعليك بطريق الهدىٰ، ولا يضرك قلة السالكين.

وقد سئل سفيان الثوريُّ ﷺ عن كثرة الثواب في العمل اليسير كحديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[2]، فقال: مقادير الثواب لا تُدرَك بالقياس. انتهىٰ. علىٰ أن في رواية عن الفضيل: «أفضل من خمسمئة حجة في زادها شبهة». انتهىٰ.

ومما وقع للفضيل أنه كان لا يأكل من خبز السوق الذي [لا][3] يذكر عليه صاحبه اسم الله كقوله: تبارك الله. وقالوا له مرة: مثل هذا سهل! فقال: إن سهلكم هذا أخاف أن يوردني النار. انتهىٰ. وكان الشعبي يقول: من طلب من الفقهاء الرخصة عند الشبهات، فعلمه زاده إلىٰ النار.

وبالجملة، فالفضيل وأضرابه كانوا من المجتهدين في الأعمال التي يترقَّون بها والتي ينزلون بها، فلا اعتراض عليهم في مثل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٠) ومما أجبتُ به عن السيد عمر بن عبد العزيز ﷺ في قوله: «إن ولدي ليأخذ تفاحة من الفيء، فأنتزعها من فيه وكأنما أنتزعها من قلبي». انتهىٰ. قال قائل: كيف قال:

---

(١) الدَّانِقُ: سُدسُ الدرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٣) ومسلم (١٠١٦).

(٣) زيادة من عندنا اقتضاها السياق.

«وكأنما أنتزعها من قلبي»؟ وكيف غلب عليه مرضاة نفسه علىٰ مرضاة ربه مع علو مقامه حتىٰ شقَّ عليه نزعها من فم ولده؟ ولمَ لمْ يكن إخراجها من فم ولده سهلًا عليه تغليبًا لرضا الله تعالىٰ؟

والجواب: أنه ليس مراده بشدة نزعها عليه تغليب حظِّ نفسه، وإنما مراده تغليب جانب رضا الحقِّ جلَّ وعلا علىٰ جانب حظِّ نفسه، فكأنه قال: إنه لم يمنعني ما عندي من الشفقة والحنو علىٰ ولدي من نزع تلك التفاحة من فم ولدي، لكونه أخذها قبل القسمة. علىٰ أنه في بعض الروايات قال: إني لأنتزعها خوفًا من الله تعالىٰ، وكأنما أنتزعها من قلبي، مع أنه ﷺ كان يعلم بالقرائن مسامحة أهل الغنيمة لولده بمثل التفاحة، وقد قال علماء الشريعة: إن تارك المعصية مع شدة شهوته إليها أعظم أجرًا ممن تركها وليس عنده ميل إليها. فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الأكابر، فإن مشاهدهم فوق مشهدك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣١) ومما أجبتُ به عن العائذ بالله المزني[١] ﷺ في كونه كان إذا حقَن[٢] ببول أو غائط وهو في الطريق، يبول أو يتغوط في ثوبه، ولا يفعل ذلك في طريق الناس ولا في أفنية دورهم. قال قائل: إن في ذلك تضمخا[٣] بالنجاسة، وإتلافًا للثياب من غير ضرورة، ولو أنه قضىٰ حاجته في أفنية دور الناس، لربما طاب خاطرهم بذلك.

والجواب: أن الإمام العائذ بالله تعالىٰ كان من أهل الاجتهاد في مثل ذلك، فأدَّىٰ اجتهادُه وخوفُه من السؤال عن بوله وتغوُّطه في الطريق يوم القيامة أن يفعل ذلك في ثياب نفسه، لكونه أخفَّ حالًا من السؤال عن حقوق الناس بتقدير السؤال عنه يوم القيامة.

---

(١) لعل المقصود عائذ بن عمرو بن هلال المزني، أبو هبيرة البصري. له صحبة، شهد بيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ. وروىٰ عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر الصديق ﷺ. تهذيب الكمال (١٤/ ٩٨).

(٢) حقن البول: حبسه.

(٣) التضمخ: التلطخ.

وقد وقع للإمام النووي أنه كان يكتب حال التأليف في خلوة الكتب بجامع الأشرفية[١]، وكان الباب يرتد عليه بعنف، فلم يجد ما يرده به إلا السكين، فوضع قعرها من جهة الباب، وذُبابتها[٢] من جهة ركبته حتىٰ خرج الدم، فقيل له في ذلك، فقال: خروج دمي أخف من حرِّ[٣] السؤال عن باب الوقف يوم القيامة. فاعلم ذلك، واسلك طريق الورع تعرف أن إتلاف مالك كلِّه أهون عليك من إتلاف دانق للغير، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٢) ومما أجبتُ به عن قول الإمام الشافعيِّ كأبي أمامة الباهليِّ[٤] رضي الله عنه: «من لم يُنِلْك الخير في حياته، فلا ينبغي البكاء علىٰ مماته» قال قائل: لِمَ لمْ يأمر بالبكاء علىٰ الأخ إذا مات لله تعالىٰ إذا لم يحسن إلىٰ إخوانه، لأنه أعتقهم من تحمل منته في الدنيا والآخرة؟

والجواب: بأن كلام أبي أمامة كالإمام الشافعي جرىٰ علىٰ الغالب في الناس، وإلا فمثل الإمام الشافعيِّ لا يجهل مثل ذلك، بقرينة قوله: أعزُّ إخوانِك من لا فضل له عليك، لأنه أعتقك من رقِّه، وقوله: الإحسان يَرِق الإنسان. انتهىٰ.

وإياك والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ أكابر العلماء، فإنك ما وصل إليك العلم الذي تجادل به إلا منهم، وهم أعلم منك بأمور الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٣) ومما أجبتُ به عن قول عبد الله بن مسعود: «اللهم وسع عليَّ الدنيا وزهدني فيها، ولا تضيقها عليَّ وترغبني فيها» قال قائل: كيف صح من ابن مسعود رضي الله عنه طلب التوسعة في الدنيا، مع علمه بأنها فتنة؟ ولا فرق بينه وبين من يقول: اللهم اسقني سمًّا

---

(١) دار الحديث الأشرفية إحدىٰ دور تعليم الحديث الشريف تقع في مدينة دمشق في منطقة سوق العصرونية بجوار الباب الشرقي لقلعة صلاح الدين.

(٢) ذُبابة السكين: حَدُّ طرفيها.

(٣) بالأصلين: حث، والصواب ما أثبتناه.

(٤) أبو أمامة الباهلي صُدَيُّ بْنُ عَجْلانَ بن وهب، غلبت عليه كنيته، توفي النبي ﷺ وله ثلاثون سنة، كان يسكن حمص، قال سفيان بن عيينة: كان أبو أمامة الباهلي آخر من بقي بالشام من أصحاب رسول الله ﷺ توفي٨٦هـ عن ٩١ سنة. الاستيعاب (٢/ ٧٣٦)، السير (٣/ ٣٥٩).

واحفظني من الموت، أو ارزقني حرامًا واحمني من أكله، ولا يخفىٰ ما فيه.

والجواب: أن مراد عبد الله بن مسعود ﷺ أن الله يوسع عليه الدنيا بشرط الزهد فيها لا مطلقًا، فكأنه يقول: إن لم تزهدني فيها، فلا توسعها عليَّ، فهو سؤال صحيح لا اعتراض فيه شرعًا، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٤) ومما أجبتُ به عن قول سفيان الثوريِّ ﷺ: «إني لأترك لبس الثياب الحسنة في الجمعة والعيدين خوفًا أن أدخل علىٰ عدوي الغم والحزن إذا رأىٰ أثر نعمة الله عليَّ» قال قائل: كيف تُترَك السنة مراعاةً لخاطر الحسدة مع فسقهم بحسدهم؟

والجواب: أن مثل سفيان ﷺ كان مجتهدًا، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أن تركَ لبس ثياب الزينة والبياض مداراةً للأعداء أرجحُ في ميزان حسناته من فعل تلك السنة وغيظ الأعداء. وربما هيج لبسُه الثيابَ الحسنةَ الحسدَة ووقعوا في غيبته، فارتكبوا حرامًا بسبب تلك السنة. وقد كان ميمون بن مهران[1] ﷺ يقول: إن أردت أن تسلم من شرِّ عدوك، فعمِّ عليه أمرك. انتهىٰ. وبالجملة فلا اعتراض علىٰ المجتهدين، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٥) ومما أجبتُ به عن قول عمر بن الخطاب ﷺ: «مروا القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا» قال قائل: كيف ذلك والقرب معدود من جملة صلة الرحم لما فيه من حصول السرور؟

والجواب: أنه ربما كان مراد عمر ﷺ أن مجاورة القرابات تحرك عندهم الحسد علىٰ من كان منهم في نعمة. وقد قالوا في المثل السائر: «العداوة في الأهل، والحسد في الجيران» فإن كان القريب جارًا فهو أشد حسدًا، وذلك [لأنه][2] يرىٰ أن أصله وأصل

---

(١) أبو أيوب ميمون بن مهران، إمام أهل الجزيرة ومفتيها. قيل: مولده عام ٤٠هـ. أعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة، فنشأ بها، ثم سكن الرقة، قال سليمان بن موسىٰ: هؤلاء الأربعة علماء الناس في زمن هشام بن عبد الملك: مكحول، والحسن، والزهري، وميمون بن مهران. ت ١١٧هـ. حلية الأولياء (٤/ ٨٢)، السير (٥/ ٧١).

(٢) ساقط من «ب».

صاحب تلك النعمة واحد، ولا يرىٰ الأسباب التي رفع الله بها ذلك القريب. وبتقدير أن صاحب النعمة يشرك قريبه في نعمة، فهو لا يرىٰ فضلًا بذلك، ولذلك ورد: «أفضل الصدقة علىٰ ذي الرحم الكاشح»[١] أي المضمر عداوته في كشحه[٢]، لأنه لا ينشر لقريبه فضلًا إذا أحسن إليه، بخلاف الأجانب.

فعُلِمَ أن كلام عمر ﷺ في حقِّ العامة. أما أصحاب العلم والدين، فمجاورتهم لقراباتهم أفضل. ومن هنا استحب العلماء جمع الأقارب في مكان واحد من المقبرة، لانتفاء المانع الذي كان يُخاف منه حال حياتهم، **فإن من كمُلَت رياضة نفسه كان حكمه حكم الميت في عدم الحسد**، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٦) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوري في شبعه في بعض الأوقات، ثم يقول: قالوا: «أَشْبِعْ الزنجيَّ وكِدَّه[٣] في العمل». قال قائل: الشبع مذموم لكونه يكسل عن العبادة.

والجواب: أن مثل سفيان ﷺ كان حاكمًا علىٰ نفسه لا يضرُّه الشبع، بخلاف من كانت نفسه حاكمة عليه، بدليل قوله في وقت آخر: من أدخل في بطنه فضول الطعام، أخرج من لسانه فضول الكلام. انتهىٰ. فلو علم سفيان أن ذلك الشبع يضرُّه ما فعله، فيحمل شبعه ﷺ علىٰ الشبع الذي لا يضرُّ ولا يكسل عن الطاعات دون الشبع المنهيِّ عنه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٧) ومما أجبتُ به عن محمد بن كعب القُرَظيِّ[٤] التابعيِّ الجليل في قوله: «لا ينبغي لعبد أن يعاهد الله تعالىٰ علىٰ أنه لا يفعل الشيء الفلاني في المستقبل، فإن من أعظم المسلمين

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٣٠) وابن خزيمة (٢٣٨٦) والطبراني في «الكبير» (٣٩٢٣).

(٢) كَشْحُ الإِنْسَانِ: الجزء الجانبي من جسمه ما بين الضلوع والخاصرة.

(٣) كَدَّ فلانًا: ألحَّ عليه فيما يكلِّفه من العمل إلحاحًا يُرْهِقُه.

(٤) محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي أبو حمزة المدني، من حلفاء الأوس، وكان أبوه من سبي قريظة سكن الكوفة ثم المدينة، وكان من أفاضل أهل المدينة علمًا وفقهًا وعبادة، وكان مجاب الدعوة كبير القدر، ت ١٢٠ هـ. السير (٥/ ٦٥)، تهذيب التهذيب (٩/ ٤٢٠).

في المسلمين جرمًا من طلب معارضة أقدار الله تعالىٰ التي ينفِذها فيه في المستقبل، ويطلب أن لا ينفذ قضاءه السابق فيه». انتهىٰ. قال قائل: كيف يأثم من عاهد الله تعالىٰ أن لا يعصيه في المستقبل، وقد بايع رسول الله ﷺ الرجال والنساء من الصحابة علىٰ مثل ذلك؟

والجواب: أن مراد محمد بن كعب ﵁ من العبد أن يكون ساكنًا تحت جريان الأقدار التي لا مرد لها، ولا تخلو المقدَّرات من أن تكون محمودة أو مذمومة، فالمحمود يقول فيه: الحمد لله، والمذموم يقول فيه: أستغفر الله، لأن ميزان الشرع مع كل مؤمن يزن بها كلَّ ما يبرز علىٰ يديه من الأعمال والأقوال، هذا الذي يلزم العبد. وأما معاهدته أن لا يفعل كذا في المستقبل، فليس ذلك له، لأن خلق الأفعال كلِّها إلىٰ الله لا إلىٰ العبد. ثم إن كان سبق في علم الله تعالىٰ الوقوع في ذلك الأمر الذي عاهد الله علىٰ تركه ثم فعله، صار عليه الإثم من جهتين: من جهة المعصية الأصلية، ومن جهة نقض العهد. ولو أنه لم يعاهد ربه علىٰ ذلك، لكان عليه الإثم من جهة واحدة. وأما مبايعته ﷺ أصحابه علىٰ ترك أمور في المستقبل فذلك كان بوحي من الله عزَّ وجلَّ. ومقصود الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ كلِّهم أن يخففوا عن الخلق الإثمَ لا أن يزيدوهم إثمًا.

وأما عزم العبد علىٰ أن لا يعصي ربه في المستقبل من غير معاهدة، فذلك من شروط التوبة كما هو معلوم، وهو يتولد من الإقلاع عن الذنب. ومن فهم ما قلناه علم حكمة قوله تعالىٰ: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾[الممتحنة: ١٢] فإن ذكر الاستغفار عقب المبايعة لا يكون إلا عن ذنب. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ أفعال الأكابر وأقوالهم إلا بنص صريح، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٨) ومما أجبتُ به عن قول مالك بن دينار وشقيق البلخيِّ وأبي عبد الله الأنطاكيِّ[١]

---

(١) أحمد بن عاصم الولي أبو عبد الله الأنطاكي، صاحب مواعظ وسلوك. كان يقول: غنيمة باردة؛ أصلح فيما بقي، يغفر لك ما مضىٰ. وقال: إذا صارت المعاملة إلىٰ القلب، استراحت الجوارح. وكان أبو سليمان الداراني يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته. من تصانيفه: «دواء داء القلوب» توفي: ٢١٥هـ. الرسالة القشيرية (١/ ٧٣)، حلية الأولياء (٩/ ٢٨٠).

ﷺ في الغيبة المحرمة التي لا يشعر بها أكثر الناس الغيبة بالقلب، وذلك أن يثبت العبد عيب أخيه في قلبه، ثم يصير يخاف أن يتكلم به خوفًا من إظهار عداوته له. قال قائل: الغيبة لا تكون إلا بلفظ أو إشارة كما ثبت في السنة. وأما ما لا يتكلم به العبد فهو مغفور لحديث: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»[١].

والجواب: أن مثل هؤلاء الأئمة لا يجهلون ما قاله هذا القائل، وإنما أرادوا بهذا القول سدَّ باب الغيبة مطلقًا بترك الأمر الذي تتولد الغيبة منه، وهو إثبات ذلك في القلب، فإن اللسان إنما هو ترجمان للقلب. وقد كان الأنطاكيُّ ﷺ [يقول][٢]: من تجرَّأ علىٰ سوء الظن بأحد، تجرأ علىٰ التصريح بغيبته، ومن تجرأ علىٰ التصريح جرَّه ذلك إلىٰ أن يقول في الناس الزور والبهتان. انتهىٰ.

ولم يزل الأكابر من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين يحذرون أصحابهم من الوقوع في الغيبة، لشدَّة حلاوتها في نفوس غالب الناس، حتىٰ لا يكاد أحدهم يستطيع رد نفسه عنها. وكان حاتم الأصم يقول: ثلاث إذا كُنَّ في مجلس فإن الرحمة عن أهله مصروفة: ذكر الدنيا، والضحك، والوقيعة في الناس. وقد كان مالك بن دينار يقول: الغيبة فاكهة القرَّاء- يعني علماء زمانه- فكيف بعامة زماننا هذا؟! وكان محمد بن سيرين يقول: ربما استغاب[٣] أحدهم مَن عَلِمَه وقع في ذنب، ويزعم أن غيبته نصرة للدين، ويقع هو في أمثالها، فلا ينكر علىٰ نفسه، ولا ينصر الدين.

وكان عوف ﷺ يقول: نلتُ من عرض الحجاج بن يوسف يومًا عند محمد بن سِيْرين[٤]،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) بالأصلين: تستغيب. والمثبت الصواب.

(٤) محمد بن سيرين أبو بكر الأنصاري البصري، مولىٰ أنس بن مالك ﷺ. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ﷺ، قال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أحد أعلم بالقضاء من ابن سيرين. وقال أبو عوانة: رأيت محمد بن سيرين في السوق، فما رآه أحد إلا ذكر الله. ت ١١٠هـ. السير(٤/ ٦٠٦)،حلية الأولياء (٢/ ٢٦٣).

فقال لي: يا عوف، إن الله تعالىٰ حكم عدل، فكما ينتقم من الحجاج، كذلك ينتقم للحجاج، وربما كان أصغر ذنب فعلتَه أنت أشدَّ عليك يوم القيامة من أعظم ذنب فعله الحجاج. انتهىٰ.

وكان شقيق البلخيُّ إذا بلغه أن أحدًا وقع في عرضه يذهب إليه في داره ويقول له: يا أخي، ما لك ولشقيق تحمل عنه ذنوبه؟! يكفيك ما ارتكبتَه من الذنوب. ونام شقيق مرةً عن ورده في الليل، فعاتبته امرأته، فقال لها: لا تعتبيني إذا نمتُ عن وردي، فإن غالب علماء بلخ وزهَّادها يصلون لي ويصومون ويتصدقون ويفعلون الخير. فقالت له: كيف؟! فقال: يبيتون يصلون طول الليل ويصبحون صائمين، ثم ينالون من عِرْضِ شقيق ويأكلون من لحمه، فتكون جميع عباداتهم في ميزاني يوم القيامة. انتهىٰ.

فإن قلت: إن قوله هذا فيه سوء ظنٍّ بعلماء بلخ، ولا ينبغي أن يحملهم علىٰ ذلك؛ فالجواب: أنه يُحتمَل أن ذلك ثبت عنده بطريق شرعي، فأجاب امرأته بذلك سدًّا لباب اعتراضها عليه بغير علم، وردعًا لها عن الوقوع في أعراض الناس.

وكان مالك بن دينار يقول: كفىٰ بالمرء إثمًا أن لا يكون صالحًا، ثم يقع في أعراض الصالحين. وكان وكيع بن الجراح[1] يقول: سدُّوا أبواب الغيبة عنكم، فإنه لم يسلم منها إلا القليل، وهي من أقبح الأعمال والأقوال، وإياكم وسوء الظن بأحد، فإنه مقدِّمة الغيبة.

وكان أبو إمامة يقول: إن العبد ليُعطَىٰ يوم القيامة كتابه، فيرىٰ فيه حسنات لم يعملها، فيقول: يا رب أنىٰ لي هذا؟! فيقول: هذا بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر. وإن العبد ليعمل الحسنات العظيمة فلا يراها في صحيفته يوم القيامة، فيقول: يا ربِّ، أين حسناتي؟! فيُقال له: ذهبت باغتيابك للناس[2]. انتهىٰ.

---

(١) وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الرؤاسي، أبو سفيان، الكوفي، أحد الأعلام. ولد: سنة ١٢٩هـ. من مصنفاته: «تفسير القرآن» و«السنن» و«والمعرفة والتاريخ» و«الزهد» قال أحمد بن حنبل: ما رأيت أحدا أوعىٰ للعلم ولا أحفظ من وكيع. توفي: ١٩٧هـ. تاريخ بغداد (١٣/ ٤٧١)، السير (٩/ ١٤٠).

(٢) أخرجه الخرائطي في «مساويء الأخلاق» (١٩١) وابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٢٢)، فيه الحسن بن دينار

وكان عبد الله بن مبارك يقول: لا تذكروا أهل البدع بغيبة إلا بحضرة من يُبلغهم إلا من يسب أبا بكر وعمر ﵄. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك وقلبك ما استطعت، والحمد لله رب العالمين.

(١٣٩) ومما أجبتُ به عن خالد بن صفوان التابعي[١] ﵁ في قوله: «قبول النميمة شرٌّ من النميمة» قال قائل: كيف ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها»[٢]، فكيف جعل خالد وزر الفرع أعظم من وزر الأصل؟

والجواب: أنه ربما قصد بذلك سدَّ باب النميمة، فإن النمَّام إذا لم يُصدقه الناس وكذبوه في وجهه ومن ورائه، تفتر همته عن نقل النميمة، ولا ينشطه إليها إلا قبولها منه. وقد سُئل معروف الكرخي عن مقالة خالد هذه، فقال: إنما كان قال: «قبول النميمة شرٌّ من النميمة» لأن النميمة رواية، وقبولها إجازة. انتهىٰ. وقد كان إبراهيم بن أدهم يقول: امتحنتُ الداخلين عليَّ، فلم أر أحدًا منهم يسلم من إدخال الكدر عليَّ، إما أن يبغض إليَّ أصدقائي، أو يبلغني كلام أعدائي. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٠) ومما أجبتُ به عن الصحابة والتابعين الذين حضروا عند الإمام عليٍّ ﵁ مع رجل وقع في حدٍّ، فقال لهم السيدُ عليٌّ: أنشدكم بالله أن كلَّ من أتىٰ هذا الحدَّ منكم أن ينصرف؛ فانصرفوا كلهم. قال قائل: هذا يوهم أن كلَّ من كان حاضرًا هناك من الصحابة والتابعين وقع في ذلك الحدِّ، وذلك تجريح للصحابة والتابعين، إذ الحدُّ لا يخلو أن يكون قتلًا أو زنًا أو شرب خمر ونحو ذلك من الكبائر.

عن خصيب بن جحدر، فالحسن قال النسائي متروك والخصيب كذبه شعبة والقطان. انظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣٨٣٠) (٦/ ٢٣٩٩).

(١) خالد بن صفوان بن الأهتم أبو صفوان المنقري الأهتمي البصري. وفد علىٰ عمر بن عبد العزيز. قيل له: أي إخوانك أحب إليك؟ فقال: الذي يغفر زللي ويقبل عللي ويسد خللي. عاش إلىٰ أن أدرك خلافة السفاح العباسي وحظي عنده. وكان يرمىٰ بالبخل توفي: نحو ١٣٣هـ. السير (٦/ ٢٢٦) الأعلام (٢/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥).

والجواب: أنه قد يريد بالحدِّ هنا ما يوجب التعزير، فأطلق عليه الحد توسعًا، كإيذاء الناس بعضهم بعضًا بغيبة أو سوء ظن ونحو ذلك، وإلا فوقوع هذا الجم الغفير كلّه في الزنا مثلًا من أبعد البعيد. هذا ما حضر في الجواب والقصة رواها البيهقي في «السنن الكبرىٰ» في باب حدِّ الخمر، والحمد لله رب العالمين.

(١٤١) و مما أجبتُ به عن مَعْمَر[١] ﷺ في قوله: «إن أردت السلام من شرِّ الناس، فاترك الإحسان إليهم» وفي قوله: «قد صار المعروف والإحسان اليوم سُلَّمًا للسوء حتىٰ قالوا: اتق شرَّ من تحسن إليه» وفي قوله: «أصل كلِّ عداوة اصطناع المعروف إلىٰ اللئام» ونقل ذلك أيضًا عن الإمام الشافعي. قال قائل: كيف هذا القول مع قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ومع حديث: «تهادوا تحابوا»[٢]، وحديث: «القلوب جبلت علىٰ حبِّ من أحسن إليها»[٣]. انتهىٰ.

والجواب: أن مرادَ مَعْمَر ﷺ ومن قال بقوله التحرزُ مما يتولد من الإحسان إلىٰ اللئام، لا النهي عن نفس الإحسان، وذلك أن الإنسان إذا أحسن إلىٰ شخص أكثر ذلك الشخص من القرب منه، فربما صار يحصي عليه زلاته، ثم إذا وقع بينه وبينه عداوةٌ صار يهجوه بتلك الزلات في المجالس، فكان سبب حصول الشرِّ منه ذلك الإحسان. ولو أنه لم يحسن إليه لكان منه بعيدًا، بل ربما كان يرىٰ البعد عنك أولىٰ. وقد قالوا: من طلب محبة الإنسان بلا إحسان، فقد أخطأ الطريق. وقالوا: من لا ينفعك فلا عليك منه. فاعلم ذلك، وأحسن إلىٰ كل برٍّ وفاجر بطريقه الشرعي، لاسيما من يكفر إحسانك ولا يشكره،

---

(١) معمر بن راشد أبو عروة الأزدي البصري، نزيل اليمن. ولد سنة ٩٦هـ. طلب العلم وهو حدث، وكان من أوعية العلم، مع الصدق، والتحري، والورع، والجلالة، وحُسن التصنيف. من مصنفاته: «الجامع» في السيرة. توفي: ١٥٣هـ. السير (٧/ ٥)، تهذيب الكمال (٢٨/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه مالك (١٦) والبيهقي (١١٩٤٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٥٧٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١) والشهاب القضاعي في «مسنده» (٥٩٩).

فإنه أثقل في الميزان يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٢) ومما أجبتُ به عن إبراهيم بن أدهم في قوله: «بئس الأخ الذي لا تتجرأ أن تفتح كيسه في غيبته وتأخذ حاجتك منه» قال قائل: قد يكون عدم تجرئه علىٰ فتح كيس أخيه هو قياسه علىٰ نفسه هو، فلا ينبغي ذم صاحب الكيس.

والجواب: أن كلام إبراهيم جرىٰ علىٰ الغالب في الناس من العوام. وما قاله هذا المعترض يحمل علىٰ ما إذا كان المال لأحد من الأولياء الذين أجمع الناس علىٰ زهدهم في الدنيا، فربما قاسه فاتح الكيس علىٰ نفسه، فربط الكيس ولم يأخذ منه شيئًا، فكان عدم تجرئه علىٰ فتح ذلك الكيس إنما هو قياس أخيه علىٰ نفسه لا بخل صاحب الكيس. وقد جاء جماعة إلىٰ بيت سفيان الثوريِّ في غيبته، فاخرجوا جميع ما فيه من المتاع والطعام وتصدقوا به، ثم جاء سفيان فبكىٰ وقال: لقد ذكرتموني بأحوال السلف الماضين وعاملتموني بأخلاقهم ولست منهم. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٣) ومما أجبتُ به عن أبي ذرٍّ ﷺ حين أرسل له عثمان بن عفان مالًا مع عبد له، وقال: إن قبله منك فأنت حر. فرده وقال: إن كان فيه عتقك فإن فيه رقي. قال قائل: كان الأولىٰ قبوله لأجل عتق ذلك العبد، لاسيما والمال من مثل عثمان بن عفان تبعد فيه الشبهة.

والجواب: أن أبا ذرٍّ كان من أهل الاجتهاد في ترجيح الأعمال وتقديم بعضها علىٰ بعض، فرأىٰ ردَّ ذلك المال وعدمَ عتق ذلك العبد أرجح في ميزانه من أخذ المال وعتق العبد، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٤) ومما أجبتُ به عن محمد بن الفضل[1] في قوله: «من لم يدارِ الناس لم يجد حلاوة الإيمان» قال قائل: ما وجه تعلق مداراة الناس بالإيمان بالله وملائكته وكتبه

---

(١) أبو عبد الله محمد بن الفضل بن العباس البلخي الواعظ. قال: ما خطوت أربعين سنة لغير الله وما نظرت أربعين سنة في شيء فاستحسنته حياء من الله وما أمليت علىٰ ملكي منذ ثلاثين سنة خطيئة ولو فعلت ذلك لاستحييت منهما. توفي: ٣١٩هـ. السير (١٤/ ٥٢٣)، صفة الصفوة (٢/ ٣٤٢).

ورسله وبالقدر خيره وشره؟

والجواب: أن وجه تعلق ذلك بالإيمان أنه من حسن الخلق الذي أمر الله تعالىٰ به. وقد كان محمد بن الفضل هذا يكثر من مجالسة أعدائه ويلاطفهم بالكلام الحلو، ويعزم عليهم أن يأكلوا في داره، ويقول: إن ذلك يخمد عداوتهم. وانقطع آخر عمره في داره، فكان لا يخرج إلا للجمعة والجماعة، وكتب علىٰ باب داره: رحم الله من لا يعرفنا ولا نعرفه، فإنه لم يأت لنا أذىٰ إلا ممن يعرفنا. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٥) ومما أجبتُ به عن جعفر بن حميد[1] ﷺ في قوله: «من لم ينقص من أصدقائه كل يوم واحدًا فهو قليل العقل» كيف ذلك وكثرة الأصدقاء مطلوبة حتىٰ كان الإمام الشافعي ﷺ يقول:

وليس كثير ألف خل وصاحب ... وإن عدوًا واحدًا لكثير

وكان يقول: لولا مجالسة الأصدقاء في هذه الدار ما أحببت البقاء فيها.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الاعتراض في ذلك، لأن مراده أن الإنسان كل يوم ينقص قيراطٌ من مروءته ومن عقله، ومن كرمه ومن سخائه، ومن قوته ومن عمره. ومن كثرت أصدقاؤه كثرت عليه الحقوق، واشتغل بهم عن التهيؤ لآخرته. علىٰ أن الأصدقاء قد قلُّوا جدًا، حتىٰ لا يكاد الإنسان يظفر بصديق به نفع، بل فتَّش أهلُ العصور الماضية علىٰ صدِيق فلم يجدوه، حتىٰ كان وهيب بن الورد ﷺ يقول: خالطتُ الناس الذين كنتُ أعدُّهم أصدقاء خمسين سنة، فما وجدتُ أحدًا منهم غفر لي زلة، ولا ستر لي عورة، ولا أقال لي عثرة، ولا أمنته علىٰ نفسي إذا خالفته في هواه المذموم. انتهىٰ. فعُلِمَ أن مراد جعفر ﷺ أن كلَّ من لم يشتغل بأمر آخرته عن الاشتغال بالناس فهو قليل العقل، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جعفر بن حميد القرشي، وقيل: العبسي. ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال ابن منجويه مات بعد الثلاثين ومائتين وبلغ تسعين سنة وقال مطين مات يوم الجمعة لاحدىٰ عشر بقيت من جمادىٰ الآخرة سنة (٢٤٠هـ). «تهذيب التهذيب» ابن حجر (٢/ ٧٠).

(١٤٦) ومما أجبتُ به عن قول إبراهيم بن أدهم ﷺ: «لا يحبُّ اللهَ من أحبَّ الدنيا» قال قائل: كيف صح هذا القول ولا بد للعبد من محبة الدنيا من مال وزوجة وولد ورئاسة وطعام ومنام وكلام؟ وكيف صح لإبراهيم نفي محبة الله تعالىٰ عن محب الدنيا أصلًا ورأسًا إذا أحب الدنيا والحقُّ تعالىٰ محبوب بالطبع لإحسانه لنا بالخلق والرزق والمعافاة من البلايا وغير ذلك؟

والجواب: أن مراد إبراهيم بذلك نفي المحبة الكاملة، وإلا فلا يصح لعبد عدم محبة ربِّه من كل وجه، وقد قال ﷺ: «جبلت القلوب علىٰ حبِّ من أحسن إليها»[1]. انتهىٰ. ومعلوم أن الله تعالىٰ هو المحسن الحقيقيُّ لنا، فلا يصح من أحد عدم محبته بالكلية. ولما علم العارفون حاجتهم إلىٰ الدنيا، قلبوا محبتهم لها لأغراض صحيحة، فأحبوا المال للإنفاق في مرضات الله تعالىٰ، وليفوزوا بخطاب الله تعالىٰ لهم بقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، فإنه تعالىٰ ما خاطب بقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلا أصحاب الجدة والمال دون الفقراء والمساكين، وأحبوا الولد والزوجة لكونهما جزءًا منهم، فإذا أحبوهما فكأنهما أحبوا أنفسهم وذواتهم، وذلك لا يقدح إلا مع الغفلة عن الله تعالىٰ، وأصحاب هذا المقام لا يغفلون بمحبة أنفسهم عن الله تعالىٰ، لأنهم يرون أولادهم وزوجاتهم تحت يدهم كالأمانة عندهم لله تعالىٰ، وليس لهم منها شيء.

وأما حبهم للرئاسة فهم يحبونها من جهة كونها من صفات الحقِّ جلَّ وعلا، إذ هو المالك للعالم كلِّه، لا من جهة شفوف نفوسهم بها علىٰ إخوانهم. وكذلك القول في الطعام والكلام والمنام، فيطعمون ذاتهم من جهة كونها أمة من إماء الله، وينامون ليزيلوا الملل والتعب الحاصل من الأعمال، ويتكلمون باللغو ترويحًا للنفس من التحجير الحاصل من ضبط أقوالهم علىٰ قانون الشرع والمراقبة، ويصير أحدهم يثاب علىٰ هذه الأمور كلِّها بالنية الصالحة، فافهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد كان أبو بكر الوراق[1] ﷺ يقول: لا تطمع في حب الله وأنت تحب الدنيا، ولا تطمع في الأنس بالله وأنت تخالط الخلق، ولا تطمع في رضا الله وأنت تخالط الظلمة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: كلُّ سالك في الطريق لابد أن ينتهي في سلوكه إلىٰ صورة بدايته، لكن يكون القصد مختلفًا، فيمسك الدنيا في نهايته ويزاحم عليها لأغراض صحيحة، كما كان يفعل في حال بدايته بأغراض فاسدة، ويحبُّ القرب من الناس تبركًا بهم كما كان يفعل ذلك بهم في حال بدايته طمعًا فيهم وهكذا، **فمن رآه حال نهايته لم يفرق بينه وبين أبناء الدنيا**. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واسلك طريق القوم حتىٰ تصير تقلب أعمال الدنيا إلىٰ ما فيه رضا الله، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٧) ومما أجبتُ به عن مالك بن دينار في قوله: «لأن يجالس الرجل كلبًا خيرًا له من جليس السوء» قال قائل: كيف جعل مالك الكلب خيرًا من الإنسان مع ما شرفه الله تعالىٰ به من الصفات؟

والجواب: أن مراده أن الكلب لا يستغيب أحدًا من الخلق عنده، ولا ينقل إليه نميمة، بخلاف بني آدم، فالخيرية راجعة للأثر والصفات التي تقع من الكلب والإنسان، وإلا فمالك يعرف بيقين أن النوع البشري أشرف من الكلب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٨) ومما أجبتُ به عن الربيع بن خثيم[2] في قوله: «لا يقل أحدكم: أستغفر الله وأتوب إليه، فيكون ذلك ذنبًا وكذبًا إن لم يفعل، ولكن يقول: اللهم اغفر لي وتب عليَّ»

(١) أبو بكر محمد بن إسماعيل بن العباس البغدادي المستملي الوراق. ولد سنة ٢٩٣هـ. قال الخطيب: سألت البرقاني عن محمد بن إسماعيل. فقال: ثقة ثقة. توفي: في ربيع الآخر ٣٧٨هـ. السير (١٦/ ٣٨٨)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٥).

(٢) الربيع بن خثيم بن عائذ، أبو يزيد الثوري، الكوفي، أحد الأعلام. أدرك زمان النبي ﷺ وأرسل عنه. قال له ابن مسعود: يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين. توفي: ٦٥هـ. السير (٤/ ٢٥٨)، تهذيب الكمال (٩/ ٧٠).

فلاث به بعض طلبة العلم وقال: إن قول «استغفر الله» ورد في السنة، وقال الإمام النووي: إن معناه اللهم اغفر لي، فكيف ينهىٰ عنه؟

والجواب: أن كلام الربيع في قوله: «اللهم اغفر لي» محمول علىٰ حال أهل البداية، لبقاء رعونات نفوسهم، ويحمل قوله: «أستغفر الله» علىٰ توبة العارفين، علىٰ أن المعنىٰ في «أستغفر الله» للطلب، فكأنه يقول: اللهم اغفر لي، ثم إن رأىٰ الاستغفار من عند نفسه فهو يراه بإلهام الله تعالىٰ، فرجع الأمر إلىٰ الله تعالىٰ. وعلىٰ ما قررناه يُحمل قول الفضيل بن عياض ورابعة العدوية[1]: استغفارُنا يحتاج إلىٰ استغفار، أي لعدم خلوص توبتنا، فإنهما إن قالا ذلك في حال بدايتهما فظاهر، وإن قالاه في حال كمالهما فهو هضم لنفسهما، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٤٩) ومما أجبتُ به عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله بعدم صحة توبة القاتل عمدًا بأنه ربما قال ذلك زجرًا وتنفيرًا عن القتل وعن الإعانة عليه، فرارًا من مواطن سخط الله عزَّ وجلَّ، وإلا فمثل ابن عباس لا يخفىٰ عليه قبول توبة القاتل، ولا حديث: «الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا»[2] كما رواه البخاري وغيره. وقد سُئل عكرمة ومجاهد[3] ومسروق[4] عن ذلك، فقالوا: لا نغلق بابًا فتحه الله تعالىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رابعة العدوية أم عمرو بنت إسماعيل العتكية البصرية الزاهدة العابدة الخاشعة. قال خالد بن خداش: سمعت رابعة صالحًا المري يذكر الدنيا في قصصه، فنادته: يا صالح، من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

توفيت:١٣٥هـ وقيل: ١٨٠هـ. السير (٨/ ٢٤١)، الوافي بالوفيات (١٤/ ٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٣) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي الأسود الإمام شيخ القراء والمفسرين، مولىٰ السائب بن أبي السائب المخزومي. قال ابن جريج: لأن أكون سمعت من مجاهد، فأقول: سمعت مجاهدًا، أحب إلي من أهلي ومالي. توفي: ١٠٤هـ.السير(٤/ ٤٤٩)، حلية الأولياء (٣/ ٢٧٩)

(٤) مسروق بن الأجدع بن مالك الوادعي الهمداني.عداده في كبار التابعين، وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ. قال يحيىٰ بن معين: مسروق ثقة، لا يسأل عن مثله. ويقال: شهد صفين، فوعظ، وخوف، ولم يقاتل. توفي: ٦٣هـ.السير(٤/ ٦٣)، الأعلام (٧/ ٢١٥).

(١٥٠) ومما أجبتُ به عن يحيىٰ بن معاذ ﵀ في قوله: «من تاب ثم نقض، ثم تاب ثم نقض، فهو متلاعب بالدين» قال قائل: كيف يكون متلاعبًا والله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؟ ومعلوم أن التوَّاب هو من يكثر التوبة عُقَيب كلِّ ذنب.

والجواب: أن مراد يحيىٰ بن معاذ[١] ﵀ سدَّ باب النقض للتوبة حسب الطاقة من حيثُ إن صورته صورة المتلاعب، وإن كان غير متلاعب في نفس الأمر. وقد كان مجاهد ﵀ يقول: من لم يتب كلَّ صباح ومساء فهو من الظالمين. وسُئل الحسن البصريُّ عمَّن يتوب ثم ينقض، ثم يتوب ثم ينقض وهكذا، فقال: ما أراه إلا مؤمنًا فَعَلَ أفعالَ المؤمنين.

وكان عبد الله بن حبيب يقول: إنكم لن تطيقوا غضب الله عليكم كلما عصيتم، فأصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين. وكان سعيد بن الُمسَيِّبِ[٢] يقول في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]: إنها نزلت فيمن يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب. وكان عبد الله بن عمر[٣] يقول: من وقع في خطيئة ثم تذكرها بعد مدة، فوجل منها قلبه، محيت من صحيفته. وكان حبيب بن أبي تمام[٤] يقول: من وقع في ذنب فخاف من

---

(١) يحيىٰ بن معاذ الرازي الواعظ، من كبار المشايخ، له كلام جيد، ومواعظ مشهورة. من أقواله: لست أبكي علىٰ نفسي إن ماتت، إنما أبكي علىٰ حاجتي إن فاتت. خرج إلىٰ بلخ وأقام بها مدة ورجع إلىٰ نيسابور، ومات بها سنة ٢٥٨هـ. السير (١٣/ ١٥)، الرسالة القشيرية (١/ ٦٥).

(٢) سعيد بن المسيب بن حزن الإمام العلم أبو محمد القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة. وسيد التابعين في زمانه. ولد: لسنتين مضتا من خلافة عمر ﵁. وكان يقول﵀: ما أحدٌ أعلم بقضاءٍ قضاه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، ولا عمر مني. توفي:٩٤هـ.السير (٤/ ٢١٧)، حلية الأولياء (٢/ ١٦١).

(٣)عبد الله بن عمر بن الخطاب، وُلِدَ سنة ثلاث من البعثة، أسلم وهاجر مع أبيه، استُصغر يوم بدر وأحد، أول مشاهده الخندق، من فقهاء الصحابة ومفتيهم وزهادهم، أحد المكثرين من رواية الحديث، وأحد العبادلة الأربعة، وآخر من مات بمكة من الصحابة، توفي سنة ٧٣هـ. «الإصابة» (٤/ ١٥٥).

(٤) أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي، كان نصرانيًا فأسلم، مدح الخلفاء والكبراء. ولد: في أيام الرشيد. جالس الأدباء، وأخذ عنهم، وكان يتوقد ذكاء. وسَحَّت قريحته بالنظم البديع، فسمع به المعتصم، فطلبه، وقدمه علىٰ الشعراء، وله فيه قصائد. من مصنفاته: «الحماسة» و«فحول الشعراء»

الله أن يعذبه عليه، غفر الله له.

وكان عبد الرحمن بن قاسم[1] يقول: إذا كان الكافر يُغفَر له كلُّ ذنب إذا أسلم، فنرجوا من الله تعالىٰ أن يكون المسلم أولىٰ بذلك إذا تاب، فإن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام، أي كتكرار الشهادتين مرة بعد أخرىٰ. وكان وهب بن مُنَبِه يقول: من قدَّم الاستغفار علىٰ الندم فهو كالمستهزيء بالله تعالىٰ وهي توبة الكذابين. انتهىٰ.

قلتُ: ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ﴾ [المائدة: ٧٤] فأخَّر الاستغفار عن التوبة التي منها الندم بجعل الواو للترتيب، والله أعلم.

وسُئل يحيىٰ بن معاذ عن المسلم إذا وقع في ذنب يكره إطلاع الناس عليه أكثر من إطلاع ربه عليه، هل ذلك من هوان منه بربه؟ فقال: لا، وإنما ذلك من شدة معرفته بكرم ربه وجوده وظنه أنه تعالىٰ لا يفضحه، بخلاف الناس. وكان ﷺ إذا قرأ قوله تعالىٰ: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤] يقول: إلهي ما أكرمك! إذا كان هذا قولك فيمن قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] فكيف يكون رفقك بمن يقول: أشهد أن لا إله إلا أنت؟ وكان يقول: ذنب واحد بعد توبة أقبح من سبعين ذنبًا قبلها. وكان إبراهيم بن أدهم يقول: ما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يُعذبه، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وعمدة هذا الباب حديث: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم أكثر من سبعين مرة»[2]. وأجمع أهل السنة علىٰ ذلك، ولا يغترُّ بقول مالك بن دينار: دخلت علىٰ جار لي وهو محتضر وكان مسرفًا علىٰ نفسه، فقلت له: يا أخي، تب إلىٰ الله تعالىٰ، فلعلك

و«كتاب اختيارات من شعر الشعراء» توفي :٢٣١هـ. السير (١١/ ٦٣) ومرآة الجنان (٢/ ٧٧).

(١) عبد الرحمن بن قاسم الشعبي أبو المطرف: قاضي مالقة (بالأندلس) كانت تدور عليه الفتيا بقطره أيام حياته. وكان يذهب إلىٰ الاجتهاد، له «مجموع» في الأحكام. توفي: ٤٩٩هـ. الأعلام (٣/ ٣٢٣) ومعجم المؤلفين (٥/ ١٦٥).

(٢) تقدم تخريجه.

تموت علىٰ ذلك، فإذا بهاتف يقول لي: إن كانت توبته كتوبتك، فلا فائدة فيها. انتهىٰ[(١)].

فذلك من باب التدقيق علىٰ الأكابر من الأفراد، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥١) ومما أجبتُ به عن عمر بن الخطاب ﵁ في قوله: «ما تركت لي كلمة الحقِّ من صديق، وسيأتي علىٰ الناس زمان يكون صالحهم فيه هو من لا يأمر بمعروف ولا ينهىٰ عن منكر، فيقول الناس: ما رأينا منه إلا خيرًا؛ لكونه لم يغضب لله حين انتُهكت حرماته». قال قائل: كيف سمَّىٰ من لا يأمر بمعروف ولا ينهىٰ عن منكر صالحًا؟

والجواب: أنه صالح أي عند الناس لا عند الله تعالىٰ، إذ الصالح عند الله تعالىٰ هو من عادىٰ الفاسقين لله، ولم يغش أحدًا من المسلمين، ومن سلك هذا المسلك فمن لازمه غالبًا عدم مدح جيرانه ومعارفه له. وكان علي بن أبي طالب يقول: من غضب لله غضب الله له. انتهىٰ.

وكان سفيان الثوريُّ يقول: لا يلزم أحدًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا فيما أجمعت عليه الأمة، أما ما اختلفوا فيه فلا يلزم إلا إن كان فاعل المنكر يعتقد تحريمه. وكان حذيفة بن اليمان يقول: سيأتي علىٰ الناس زمان تكون مجالستهم لجيفة حمار أحب إليهم من مجالسة من ينصحهم. وكان عبد الله بن مسعود يقول: إذا مات الرجل ولم يذمه أحد من جيرانه، فاعلموا أنه مداهن في دينه. وكان مالك بن دينار يقول: أوحىٰ الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ الملائكة أن صبُّوا العذاب صبًّا علىٰ قرية كذا وكذا، فقالت الملائكة: يا رب إن فيهم عبدك فلانًا العابد. فقال تعالىٰ: اسمعوني ضجيجه من العذاب، فإن وجهه لم يتمعر قط إذا انتُهكت محارمي.

ولما دخل أبو إسحاق الفزاري[(٢)] علىٰ هارون الرشيد قال له يوسف بن

---

(١) وقد تقدَّم الجواب عن هذه الواقعة في الجواب رقم (٩٩).

(٢) أبو إسحاق الفزاري إبراهيم بن محمد بن الحارث الشامي، كان مولده بواسط سكن الشام مات سنة ست وثمانين ومائة كان من الفقهاء والعباد والحفاظ والزهاد ممن عنىٰ بالعلم ولزم الورع والحلم ورابط بالثغر إلىٰ أن مات، قال أبو حاتم: اتفق العلماء علىٰ أن أبا إسحاق الفزاري إمام يقتدىٰ به، بلا مدافعة. توفي:

أسباط[1]: كيف تدخل علىٰ هذا الرجل وعنده فُرُش حرير؟ فقال: ما بلغك إلا الحرير؟! أين الدماء والفروج والأموال؟! ولكنا إنما دخلنا عليه لضرورة. وقد أدركنا السلف الصالح وهم يقولون: إن العالم إذا دخل علىٰ ظالم ولم يُسأَل فهو في سعة، وأني لم أسال عن شيء من مظالم هذا الرجل وأنا جالس عنده، ولو قيل لي: هل هذا الفرش مثلًا حرام؟ لقلت: هو حرام. انتهىٰ.

فإن قال قائل: في جواب أبي إسحاق هذا نظر، فقد صرحوا بأنه يحرم علىٰ الشخص أن يحضر مكانًا فيه منكر إلا إن كان يقدر علىٰ إزالته؛ فالجواب: أن أبا إسحاق كان مجتهدًا في ذلك، فأدَّىٰ اجتهاده إلىٰ أنه لا لوم عليه في الحضور. وقد قالوا لسفيان الثوري مرة: أيأمر الرجل من يعلم أنه لا يقبل منه؟ فقال: نعم، ليكون معذرة عند الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٢) ومما أجبتُ به عن الإمام مالك حين أرمىٰ كتابه «الموطأ» في الماء وقال: «إن ابتل فما حاجة لي بتأليفه». قال قائل: قد يكون خالصًا لله ولو ابتل، فكان الأولىٰ عدم رميه في الماء من حيثُ إن فيه إتلافًا للأحاديث وللورق.

والجواب: أن الإمام ﷺ كان مجتهدًا مطلقًا، فلا اعتراض عليه فيما أدَّىٰ اجتهادُه إليه. وقد يكون بينه وبين الله تعالىٰ علامة يعرف بها إخلاصه من عدمه، وهي الابتلال وعدمه، كما كان لسهل بن عبد الله علامة في الطعام الذي يأكله، فيضرب في يده عرق، فيعلم أنه حرام. وأصحاب العلامات لا اعتراض عليهم إذا عملوا بها في أنفسهم، وإنما اللوم عليهم لو أمروا الناس بالعمل بها.

١٨٥هـ. مشاهير علماء الأمصار ص٢٨٩، السير (٨/ ٥٣٩).

(١) يوسف بن أسباط الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم. روىٰ عن: محل بن خليفة، والثوري، وزائدة بن قدامة. وعنه: المسيب بن واضح، وعبد الله بن خبيق، وغيرهما. توفي: في حدود٢٠٠هـ. السير (٩/ ١٦٩) والوافي بالوفيات (٢٩/ ٤٥).

وقد بلغنا عن الحكيم الترمذي أنه أوصىٰ برمي جميع مؤلفاته في الدجلة[1]. وقال: إن الخضر وعدني أن ملوك البحر يحفظونها لي في البحر إلىٰ قرب قيام الساعة، فيخرجونها ليحيوا بها الشريعة، وأنهم لما روموها خرجت يدان من البحر، فالتقطت الكتب ونزلت بها إلىٰ قعر الدجلة. وكذلك بلغنا عن الإمام النووي أنه أوصىٰ أصحابه بغسل «الروضة»، وقال: في قلبي منها شيء. انتهىٰ.

ولم يزل الصالحون يخافون من وقوع العجب في أعمالهم، حتىٰ كان عمر بن عبد العزيز إذا كان يخطب وخاف العجب علىٰ نفسه، يقطع ذلك الكلام، وإذا كتب كتابًا فيخاف العجب فيه مزقه، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شرِّ نفسي. وكان حذيفة المَرْعَشيُّ ﷺ يقول: إن لم تخف أن يعذبك الله علىٰ أفضل أعمالك، فأنت هالك. ومن بات قائمًا فأصبح يرىٰ نفسه علىٰ النائمين، فقد حبط عمله. وكان الحسن البصري يقول: لو أن عمل ابن آدم يكون كله حسنًا لهلك من العجب، ولكن الله ابتلاه بشهود النقص فيه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٣) ومما أجبتُ به عن سفيان الثوريِّ ﷺ في قوله: «أكثر ما أكون راجيًا للخير حين تقل أعمالي الصالحة». قال قائل: كيف ذلك؟! وإنما ينبغي أن يكون الأمر بالعكس.

والجواب: أن مراد سفيان أنه معتمد علىٰ فضل الله تعالىٰ لا علىٰ الأعمال. ولو أنه كان معتمدًا علىٰ أعماله، لخاف من وقوع العذاب به إذا قلت أعماله الصالحة. وقد كان حسان بن سنان ﷺ[2] يطلب الدعاء من أعوان الولاة ويقول: لعلَّ أحدَهم يكون فيه خصلة يحبها الله، وفيَّ خصلة يبغضها الله تعالىٰ، وربما رأيت نفسي خيرًا منه، فكان خيرًا

---

(١) الدجلة: أحد نهري العراق، والنهر الآخر الفرات.

(٢) حسان بن سنان بن أوفىٰ بن عوف التنوخي الأنباري، ولد سنة ٦٠هـ. ورأىٰ أنس بن مالك ﷺ ودعا له، فجاء من نسله قضاة ووزراء وصلحاء. وكان نصرانيًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية، وكان يعرب الكتب بين يدي ربيعة لما ولاه السفاح الأنبار. توفي ١٨٠هـ. «الجواهر المضية» (١/ ١٨٥) و«وفيات الأعيان»(٢/ ١٩٤).

مني. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٤) ومما أجبتُ به عن أحمد بن حرب التابعيِّ ﷺ في قوله: «من نظر إلىٰ بستان أو بنيان بشهوة، سلبه الله تعالىٰ حلاوة العبادة أربعين يومًا». قال قائل: قد صرح العلماء بإباحة النظر إلىٰ بساتين الناس وبيوتهم ودوابهم، فضلًا عن بستان الإنسان وبيته ودابته، والعقوبة لا تكون إلا في الحرام كما هو مقرر في أصول الفقه، فكيف الحال؟

والجواب: أن هذا من باب ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] أي سؤال تقرير للنعمة، لا سؤال عقاب وعذاب. ولم يزل الحقُّ تعالىٰ يؤاخذ المقربين بحسنات الأبرار، لشدة اعتنائه بعبادة المقربين. وقد تقدم في الجواب عن السيد داود عليه الصلاة والسلام[1] أن الأكابر يؤاخذون بالنظر إلىٰ السماء ونحوها من المخلوقات إذا كان ذلك النظر علىٰ غير وجه الاعتبار والتحميد لله عزَّ وجلَّ، فيُحْمَل كلام أحمد بن حرب ﷺ علىٰ من نظر إلىٰ بستانه أو بيته علىٰ وجه التعجب والفخر، بقرينة قول أبي سليمان الداراني: من نظر إلىٰ بستانه أو داره فأعجب به، فكفارته أن يتصدق به. والحمد لله رب العالمين.

(١٥٥) ومما أجبتُ به عن يحيىٰ بن معاذ ﷺ في قوله: «من أراد أن ينظر إلىٰ أهل جهنم، فلينظر إليَّ». قال قائل: هذا القول من علامة القنوط من رحمة الله، وهو من الكبائر، فكيف الحال؟

والجواب: أن هذا من باب هضم النفس وشهودها عظمة الله عزَّ وجلَّ، فهو يرىٰ أنه استحق العقوبة في جهنم، ولكنه يرجو فضل الله وعفوه ومغفرته. ومعلوم أن القانط لا يرجو رحمة الله تعالىٰ ومغفرته أبدًا، بقرينة قول سفيان الثوريِّ ﷺ: من لم ير أنه هالك فهو هالك. وكان الحسن البصري يقول: من أعجب العجاب نجاة أمثالنا من النار، وكيف يرجو النجاة من النار من جميع أعماله تجرُّه إلىٰ النار؟ وكان يقول: رب داخل جهنم بالثناء عليه. وكان مالك بن دينار يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ أول من تُسعَر

---

(١) انظر الجواب رقم (٤٢).

به النار فلينظر إليّ. وأقوال السلف في مثل ذلك كثيرة، ولا يلزم منها القنوط من رحمة الله، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٦) ومما أجبتُ به عن إبراهيم بن أدهم في قوله: «من زعم أن أكل الشهوات لا تضرُّه، فقد أعظم الفرية على الله عزَّ وجلَّ». قال قائل: إن الله تعالىٰ أذِن لنا في أكل الشهوات المباحة، ولو أنه تعالىٰ علم أنها تضرنا[١] لم يبحها لنا، لأنه تعالىٰ بعباده رؤوف رحيم.

والجواب: أنه ينبغي حمل كلامه ﷺ علىٰ الشهوات المحرَّمة أو المكروهة، ويكون ضررها استحقاق العذاب في الأولىٰ، ونقص الأجر في الثانية، كما حملوا علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف:٢٠] الآية، فإنه تعالىٰ ما جازاهم بعذاب الهُوْن إلا باستكبارهم في الأرض بغير الحقِّ، وبفسقهم الحاصل من ارتكابهم المحرَّمات. وأما الشهوات المباحة فقواعد الشريعة تشهد بإباحتها، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٧) ومما أجبتُ به عن قول أبي بكر الصديق ﷺ: «من استطاع أن يبكي فليبك، ومن لم يستطع فليتباك» وقول عمرو بن العاص: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا». قال قائل: كيف أمر هذان الصحابيان من لم يجد عنده داعية للبكاء أن يتفعل فيه، مع أن ذلك من الرياء؟

والجواب: أنه ليس في ذلك أمر بالرياء، إنما ذلك من باب قولهم: لا تتركوا العمل إذا خفتم الرياء أو العجب، بل اعملوا واستغفروا. ولم يزل الأشياخ يعلمون من المريدين الرياء والعجب والتفعل في المقامات، ثم يسارقونهم بالأمر بترك ذلك شيئًا فشيئًا. ولو أنهم أمروهم بالإخلاص الكامل أولًا لما استطاعوا، ومن هنا قالوا: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٨) ومما أجبتُ به عن ثابت البناني ﷺ حين قال له أنس بن مالك ﷺ: ما أشبه عينيك بعينىٰ رسول الله ﷺ! فبكىٰ وتفاعل في البكاء حتىٰ عمشت عيناه غيرةً علىٰ عيني

---

(١) بالأصلين: لم، خطأ ظاهر.

رسول الله ﷺ أن يشبه بهما غيرهما. انتهىٰ. فقال قائل: كان الأولىٰ لثابت عدم التسبب في تعميش عينيه واستجلاب الضرر لنفسه، وكان يكفيه أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ذلك الشبه، لأن القرائن تعطي أن رسول الله ﷺ لا يتكدر من كون عيني ثابت تشبه عينيه ﷺ.

والجواب: أن ذلك وقع من ثابت بطريق الاجتهاد وغيرةً علىٰ رسول الله ﷺ، وإن لم يتأثر هو بذلك. كما قال الإمام الشافعي ﷺ: لا تقصر في حقِّ أخيك اعتمادًا علىٰ مروءته وحسن خلقه. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٥٩) ومما أجبتُ به عن الفضيل بن عياض في قوله: «حملة القرآن يُسألون يوم القيامة عما يُسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام». قال قائل: الأنبياء معصومون من الإخلال بالعمل بشيء من القرآن، ومن عمل بالقرآن كاملًا كان كالأنبياء، فما بقي عليه لوم حتىٰ يُسأل عنه.

والجواب: أن مراده أن حامل القرآن مطالبٌ بالعمل بجميع أحكام القرآن، ولا سبيل له إلىٰ ذلك، فهو يُسأَل عن كلِّ شيء أخلَّ به من أحكامه سؤالَ توبيخ وتقريع لا سؤالَ تكريم كالأنبياء، أين المعصوم من كلِّ ذنب ممن هو غارق في الذنوب؟! ولما علم رسول الله ﷺ من العلماء العجز عن العمل بأحكام القرآن كلِّها قال رسول الله ﷺ: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها»[1].

وكان أبو سليمان الداراني يقول: الزبانية إلىٰ حملة القرآن أسرع منهم إلىٰ عبدة الأوثان، لكونهم خالفوا ما حملوه. وكان يوسف بن أسباط كلما ختم القرآن يستغفر الله تعالىٰ سبعمئة مرة، ثم يقول: اللهم لا تمقتني بتلاوة كلامك من غير عمل به سبعمئة مرة. وكان الفضيل بن عياض يقول: مقام حامل القرآن يجل أن يعصي ربه، وكيف يصح له يعصي ربه وكلُّ حرف منه يناديه لا تعصِ ربك؟! وكذلك تناديه كلُّ جارحة منه. وكان مالك بن دينار يقول للقراء: القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض،

(١) أخرجه أحمد (٦٦٣٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٦٠) والطبراني في «الكبير» (٢٥).

فقولوا لي: ماذا زرع القرآن في قلوبكم من الخوف والورع والزهد وغير ذلك؟! انتهىٰ.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: من فرح كلما ختم القرآن ولم يطالب نفسه بالعمل فهو من المغرورين، إنما ينبغي البكاء والنحيب عند ختمه، لأن القرآن ما أنزل إلا للعمل به لا للتلاوة فقط. فاعلم ذلك، وكن من الخائفين من ربك كلما تلوت كتابه، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٠) ومما أجبتُ به عن الفضيل أيضًا في قوله: «من لم يحبس جميع جوارحه عن المعاصي والشهوات فهو مفطر وإن جاع، ومن حبس جوارحه عن المعاصي فهو صائم». قال قائل: كيف ذلك ولم يبلغنا في ذلك شيء عن الشارع؟

والجواب: أن الفضيل كان مجتهدًا في مثل ذلك، فأدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ إفطار من عصىٰ الله تعالىٰ ولو بالنظر واللمس، ويؤيده ما ورد في الغيبة من كونها تفطر الصائم. ويُحتمَل أن يريد أن العاصي في الصوم كالمفطر من حيثُ نقصانُ الأجر في أحكام الآخرة حين[1] يوفى العامل أجره، والله أعلم.

(١٦١) ومما أجبتُ به عن قول عبد الواحد بن زيد[2]: «من ذاق طعم محبة الله لم يجد للنار ولا للبرد ألمًا في الدنيا والآخرة» كيف ذلك ونحن نرىٰ أكبر العلماء لا يستطيع أن يضع أصبعه في النار؟ ولا شك أنه محب لله عزَّ وجلَّ.

والجواب: أن مراده المحبة الخالصة من العلل التي سرت في جسمه كله وهي السرُّ القائم بالعبد. ومعلوم أن سرَّ الله لا سلطان للنار عليه، وأكثر من ذلك لا يُقال. ومن الدليل علىٰ أن الله لا يعذِّب محبوبه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ

---

(١) بالأصلين: حتىٰ.

(٢) شيخ الصوفية وواعظهم، عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري. قال معاذ بن زياد: سمعت عبد الواحد بن زيد غير مرة يقول: ما يسرني أن لي جميع ما حوته البصرة بفلسين. قال ابن حبان: كان ممن غلب عليه العبادة حتىٰ غفل عن الإتقان، فكثرت المناكير في حديثه. توفي: بعد ١٥٠هـ. السير (٧/ ١٧٨) «شذرات الذهب» (٢/ ٣٤٦).

﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] أي لو كنتم أحباءه ما عذَّبكم، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٢) ومما أجبتُ به عن قول أبي سليمان الداراني: «كلُّ ما أشغلك عن الله فهو مشؤوم عليك، حتىٰ العلم والعمل». انتهىٰ. قال قائل: كيف يشغل العلم والعمل عن الله تعالىٰ مع أنهما مأمور بهما؟

والجواب: أن مراده ما إذا دخل الرياء والإعجاب فيهما، فإنهما حينئذ يشغلان عن الله، أما إذا أخلص فيهما فلا، بل يجمعان قلب العبد علىٰ ربه، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٣) ومما أجبتُ به عن قول ذي النون المصريِّ: «أقرب الناس إلىٰ الوقوع في الكفر فقير ذو عيال ولا صبر له». انتهىٰ. قال قائل: ما رأينا فقيرًا قط وقع في الكفر بسبب ذلك واختاره علىٰ الإسلام بعد أن ذاقه، فكيف الحال؟

والجواب: أن مراده أنه يقع في ألفاظ السخط علىٰ مقدور الله عزَّ وجلَّ بسبب الفاقة والعيال وعدم الصبر، لا أنه يختار الكفر دينًا لأجل ذلك، فافهم. ولعل هذا الحال هو الفقر الذي استعاذ منه رسول الله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٤) ومما أجبتُ به عن وهب بن مُنبِه ومالك بن دينار والفضيل بن عياض ونحوهم في استشهادهم بالتوراة والإنجيل والزبور ونحو ذلك. قال قائل: كيف يستشهد هؤلاء بغير القرآن والحديث وفيهما غنية عن سائر الكتب القديمة، وقد قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال ﷺ: «ما تركت شيئًا يقربكم إلىٰ الله إلا وقد أمرتُكم به، ولا شيئًا يبعدكم عن الله إلا وقد نهيتكم عنه»[1]، ورأىٰ رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطالع في كتب دانيال عليه السلام، فزجره وقال: «أمتهوكون فيها يا عمر، والله لقد جئتكم بشريعة بيضاء نقية»[2].

(١) أخرجه البيهقي (١٣٤٤٣) وفي «شعب الإيمان» (١١٤١) والشافعي في «المسند» (٦٧٣) والبغوي في «شرح السنة» (٤١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) والدارمي (٤٤٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٤).

والجواب عن هؤلاء: أن مثلهم لا يجهل أن شريعتنا جامعة لسائر أحكام الشرائع كلِّها، وأن صاحبها لا يحتاج إلىٰ الاستشهاد بغيرها من الكتب، وإنما مرادهم أن الأمر بالتقوىٰ والورع والزهد وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن المعاصي، لم يزل في كلِّ عصر من أعصار الأنبياء، لكن هنا دقيقة ينبغي التفطن لها، وهو أن الله تعالىٰ ربما خاطب داود بأمور لا تليق بمقام الأنبياء ظاهرًا، فيُحمَل علىٰ أن المراد بها غير داود، كما قالوا في نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] و﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، **فإن الأمم لا تحتمل صولة الخطاب الإلهيِّ، فخاطب بذلك الأنبياء لقوتهم والمراد به أممهم،** فاعلم ذلك، وإياك والغلط والمبادرة إلىٰ الإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٥) ومما أجبتُ به عن الإمام الأعظم أبي حنيفة ﷺ في قول بعضهم: إنه يقول في دين الله بالرأي، وإنه يقدم القياس علىٰ النص، وغير ذلك مما لا يصح لعاقل نسبته إليه، فإن هذا كلام متعصب قليل الأدب، لم يشم لمقام المجتهدين رائحة، ولم تزل الأشراف تبتلىٰ بالأطراف، وما ثَمَّ أعزُّ من الورع في المنطق في كلِّ زمان.

وقد أدرك الإمام أبو حنيفة ﷺ بعض الصحابة، وأخذ العلم عن كبار التابعين، كعطاء[1] وعكرمة والأسود[2] وعلقمة[3] وغيرهم من نحو ثلاثمئة عالم. ولو لم يكن من معرفة مقامه في العلم إلا قول الإمام مالك ﷺ لما سُئل عنه: ماذا أقول في رجل لو ناظرني في أن نصف هذه الأسطوانة ذهب ونصفها فضة لقام بحجته؟! وكذلك قول

---

(١) عطاء بن أبي رباح أسلم أبو محمد القرشي مولاهم. كان من أوعية العلم. قال بشر بن السري عن عمر بن سعيد عن أمه: أنها رأت النبي ﷺ في منامها، فقال لها سيد المسلمين: «عطاء بن أبي رباح» توفي: ١١٤هـ. السير (٥/ ٧٨)، حلية الأولياء (٣/ ٣١٠).

(٢) الأسود بن يزيد بن قيس أبو عمرو النخعي، الكوفي. وكان الأسود مخضرمًا، أدرك الجاهلية والإسلام. قال ابن عون: سئل الشعبي، عن الأسود بن يزيد، فقال: كان صوامًا، قوامًا، حجاجًا. توفي: ٧٥هـ. السير (٤/ ٥٠)، حلية الأولياء (٢/ ١٠٢).

(٣) الإمام الفقيه الحجة علقمة بن مرثد أبو الحارث الحضرمي الكوفي، قال الإمام أحمد: هو ثبت في الحديث. توفي: ١٢٠هـ. السير (٥/ ٢٠٦)، الوافي بالوفيات» (٢٠/ ٤٧).

الإمام الشافعيّ ﷺ: الناس كلُّهم عيال في الفقه علىٰ الإمام أبي حنيفة، أي الناس الذين عاصروه ﷺ. وقد بسطنا الكلام علىٰ مناقبه في «الميزان الخضرية» فراجعها.

وأما قول من قال: إنه ﷺ يقدِم القياس علىٰ النص، فكلام صدر من متعصب بغير حقٍّ. وقد اجتمع به الإمام جعفر الصادق[1] وسفيان الثوريُّ وجماعة من كبار التابعين حين بلغهم عنه ذلك، وقالوا له: بلغنا أنك تقدم القياس علىٰ النص. فقال: معاذ الله أن أقع في مثل ذلك! إنما أنظر الحكم في القرآن، فإن لم أجده نظرتُ في السنة، فإن لم أجده نظرتُ في أقضية الصحابة، فإن لم أجده فيها، فحينئذٍ أقيس مسكوتًا عنه علىٰ منطوق به بجامع العلة. فقام سفيان وقبَّل رأسه. فهذا ما رواه الإمام أبو جعفر السيرامادي بسنده الصحيح.

وأما ما نُقِل عن سفيان الثوريِّ بتقدير صحته عنه من أنه قال: إن أبا حنيفة قد حلَّ عرىٰ الإسلام عروة عروة، فالمراد بذلك أنه حلَّ مشكلات المسائل المنعقدة المرتبطة في بعضها كارتباط الزر في العروة، فحلها وسهلها علىٰ الأفهام، فهو مدح لأبي حنيفة ﷺ لا ذم له، بقرينة قول أبي مطيع البَلْخيِّ[2]: سمعتُ سفيان الثوريَّ ﷺ يقول: ما رأيت أعلم ولا أعبد ولا أورع ولا أزهد من الإمام أبي حنيفة ﷺ. ونحو ذلك أيضًا ما نقله أبو مطيع البلخي عن الإمام مالك بتقدير صحته عنه من أن الإمام مالكًا قال له: من عالم بلدكم اليوم؟ قال: الإمام أبو حنيفة. فقال مالك: فإذن لا يحل لعالم أن يسكن بلادكم. انتهىٰ. فإن مالكًا أراد بذلك والله أعلم مدح الإمام أبي حنيفة بالعلم والزهد والورع، وأنه يكفي أهل البلد التي هو فيها علمًا، فإذا سكنها عالم آخر، فقد عطَّل نفسه، لعدم

---

(١) الإمام الصادق جعفر بن محمد بن علي القرشي الهاشمي، ولد: سنة ٨٠هـ. وكان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. توفي: ١٤٨هـ. السير (٦/ ٢٥٥)، الأعلام (٢/ ١٢٦).

(٢) الحكم بن عبد الله أبو مطيع البلخي الفقيه صاحب كتاب «الفقه الأكبر» تفقه بأبي حنيفة وولي قضاء بلخ، وكان بصيرًا بالرأي وكان ابن المبارك يعظمه. وقيل: كان من رؤوس المرجئة. قال ابن معين: هو ضعيف. وقال أبو داود: تركوا حديثه لأنه كان جهميًا. توفي:١٩٩هـ. انظر: «الوافي بالوفيات» (١٣/ ٧٠) و«تاج التراجم» لابن قطلوبغا (ص: ٣٣١).

حاجتهم إلىٰ علمه مع وجود الإمام أبي حنيفة عندهم. والعالم من شأنه طلب نشر العلم في بلد يحتاج الناس إليه فيه، فلا يحل له تضييعه بمكثه بمكان لا يُحتاج إليه فيه، بل يجب عليه الرحيل إلىٰ محل يُحتاج إليه فيه ينشر علمه فيه، ويحيي به الشريعة.

فقد علمت أن الإمام ﷺ ما كان يقيس إلا بعد أن لم يجد ذلك الحكم في كتاب ولا سنة ولا في أقضية الصحابة، وهذا أمر لا يختص بالإمام، بل جميع الأئمة ومقلدوهم يقيسون كذلك إذا لم يجدوا نصًا. وأما مع وجود النص الصحيح فهم لا يحتاجون إلىٰ قياس، ويجب عليهم العمل بالنص. ثم بتقدير أنه عمل بالقياس عند فقده النص فهو معذور، لأن الأحاديث كانت متفرقة في زمنه مع علماء التابعين في المدائن والثغور، بخلاف بقية الأئمة، فإن الحفاظ رحلوا في طلب الحديث، وجمعوا أحاديث الشريعة، فأجابت الشريعة بعضها بعضًا، فلذلك قلَّ القياس في مذاهبهم بالنسبة لمذهب الإمام أبي حنيفة ﷺ، فاعلم ذلك واحفظ لسانك في حقِّ الإمام أبي حنيفة وغيره، وإلا خيف عليك المقت والعياذ بالله تعالىٰ. وإذا كان من ينكر علىٰ بعض الأولياء قد مات علىٰ غير الإسلام، كما وقع لمن أنكر علىٰ سيدي أحمد البدوي[1]، فكيف بالإمام الأعظم سيِّد الأئمة في السبق؟! والحمد لله رب العالمين.

(١٦٦) ومما أجبتُ به عن تجريح الحفاظ لبعض رواة الحديث، ولم لا أحسنوا الظن بالناس وتركوا التجسس علىٰ جرحهم، بأن الحفاظ إنما فعلوا ذلك نصرة لشريعة رسول الله ﷺ، خوفًا أن يدخل فيها ما ليس منها، لعدم عصمة الرواة، فيكلفون الأمة بما ليس من شريعة محمد ﷺ. وقد كان الإمام عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي هريرة: لئن

---

(١) سيدي أحمد البدوي أبو الفتيان أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر القدسي الأصل الملثم. ولد سنة ٥٩٦هـ. أقام بمكة إلىٰ أن مات أبوه سنة سبع وعشرين، وعرف بالبدوي لملازمته اللثام. ولبس لثامين لا يفارقهما، وعرض عليه التزويج فأبىٰ لإقباله علىٰ العبادة. حفظ القرآن، وقرأ شيئًا من الفقه علىٰ مذهب الشافعي، ثم صار إلىٰ مصر سنة ٦٣٤هـ فأقام بطندتا من الغربية علىٰ سطح دار لا يفارقه. توفي يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول ٦٧٥هـ. انظر: «حسن المحاضرة» (١/ ٥٢١) «شذرات الذهب» (٧/ ٦٠٢).

لم تترك كثرة الحديث لألحقنَّك بأرض دَوس.

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ يقول: جميع الحفاظ مأجورون في تجريحهم لبعض الرواة، كما أن المجروحين مأجورون، فإن أحدهم قد يكون عدلًا ثقة مأمونًا في نفس الأمر، وتكون الإشاعة عنه بما يفسِّقُه مثلًا من كلام الحسدة والأعداء. قال: لكن لا يخفىٰ أن في ضمن ذلك التجريح رحمة خفية، وهي التخفيف عن الأمة بترك العمل بتلك الأحاديث التي ضُعِّف رواتها، وذلك مما يحبُّه الشارع ﷺ لأمته، فإنه كان يكره كثرة سؤالهم له خوفًا من تنزل الأحكام التي يشق عليهم العمل بها لكثرتها، ويقول لهم: «اتركوني ما تركتكم»[1]، وقال للسائل عن فريضة الحج: «أكل عام يا رسول الله؟ قال: لا، ولو قلت نعم، لوجبت ولما استطعتم»[2]. انتهىٰ.

فعُلِمَ أنه لو لم يقع من الحفَّاظ تضعيف للرواة، لكانت الأحاديث الضعيفة كلُّها يجب علىٰ الناس العمل بها، لأنها إما حسنة حينئذٍ أو صحيحة. وأيضًا فإن أحاديث الشريعة التي سبق في علم الله أن تعمل الأمة بها علىٰ سبيل الوجوب هي ما وقع العمل به الآن من الأحاديث الصحيحة والحسنة، وما زاد علىٰ ذلك فالعمل به غير واجب، فالشريعة محفوظة من النقص فيها أو الزيادة، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: للحفاظ من الأجر والثواب في نظير تجريحهم للرواة بحسب اجتهادهم، مثل ما لو سبَّح أحدهم الله تعالىٰ أو حمده، ولا يجوز حمل الحفَّاظ علىٰ حظ النفس في التجريح، حاشاهم من ذلك.

وقد كان الإمام البخاريُّ ﷺ مع كثرة تجريحه للرواة ورده روايتهم يقول: أرجو من فضل الله تعالىٰ أنه لا يطالبني يوم القيامة بوقوعي في غيبة أحد من المسلمين. فقيل له يومًا: فماذا تصنع في تجريحك للرواة؟ فقال: ذاك من الدين يُثاب أحدنا عليه ثواب الواجب، وما حرِّمت الغيبة إلا إذا كانت للتفكه في أعراض الناس والتشفي منهم لا لغرض صحيح.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٦٧٩) والنسائي (٢٦١٩)، وابن ماجه (٢).

(٢) تقدم تخريجه.

وسمعتُ شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف[1] رحمه الله يقول: لو أن الحفَّاظ صححوا الأحاديث التي قيل بضعفها أو حسَّنوها، يشق على الأمة العمل بها، ولم يكن لهم عذر في تركها، بخلاف ما ضُعِّف، فإن للناس فيه فسحة، لكون العمل بها راجعًا إلى اختيارهم، من باب ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤]، مع أن الحقَّ تعالى قد قيَّض للأحاديث الضعيفة جماعةً من أهل الورع والاحتياط، فعملوا بها على وجه الاستحباب، حتى لا يفوت الأمة العمل بشيء من السنة. وكان ذلك من جملة ما حُفِظَت به الشريعة عن النقص. انتهى.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: كما أن إحسان الظن بجميع رواة الشريعة واجب، فكذلك مناقشتهم واجبة، ولا يقال: إحسان الظن بهم أولى مطلقًا، ولا مناقشتهم أولى مطلقًا، بل كلٌّ في محله واجب بحسب ظهور الريبة وعدمها، وكما يحرم على الراوي التظاهر بالعدالة وهو في الباطن بخلافها، لتصحح الحفاظ حديثه أو يحسنوه، فكذلك يحرم عليه التظاهر بالريبة، ليردُّوا حديثه بقصد التخفيف عن الأمة. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٦٧) ومما أجبتُ به عن وهب بن مُنبِه في قوله: «إن لنا جنة برزخية وردت في القرآن ولا يشعر بها كلُّ أحد» فلاث به بعض المجادلين وقال: هذه جنة ما رأينا أحدًا نبه عليها!

والجواب: أنه قد نبه عليها ابن أبي المنصور وجماعة منهم أبو القاسم بن قسي[2] والمجريطي والشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنهم.

وعبارة ابن أبي المنصور: واعلم يا أخي أن لنا جنة برزخية أشار إليها القرآن العظيم

(١) إبراهيم بن محمد بن أبي بكر المري القدسي الشافعي، قاضي القضاة، برهان الدين، بن أبي شريف. ولد في ذي القعدة سنة ٨٣٦هـ. دأب في العلم، وبرع في الفنون، وتصدى للإقراء والإفتاء. وصنف كتبا منها: «شرح قواعد الإعراب» لابن هشام و«منظومة في القراءات» و«نظم النخبة» وولي قضاء الديار المصرية في ذي القعدة سنة ٨٣٩هـ. توفي: ٩٢٣هـ ودفن بالقرب من ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه. انظر: «طبقات المفسرين» للداوودي (١/ ١٨) «الضوء اللامع» (١/ ١٣٤).

(٢) أحمد بن قسي الأندلسي أبو القاسم ت ٥٤٥ هـ من تصانيفه: خلع النعلين. معجم المؤلفين (٢/ ٥١).

ولم يصرح بها في نحو قوله تعالىٰ: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥]، قال: وإنما كانت برزخية لأنها لا هي محسوسة، كقوله تعالىٰ: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ [الطور: ٢٠]، ولا هي روحانية، كقوله تعالىٰ: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥]، فوصف الله تعالىٰ الجنان علىٰ حسب تفاوت عقول الناس.

قال: وقد صرح المسيح عليه الصلاة والسلام بما أومأنا إليه من النعيم الروحاني، فقال للحواريين حين أوصاهم وفرغ من وصيته: فإذا فعلتم ما أمرتكم به كنتم غدًا معي في ملكوت السماء عند ربي وربكم، وترون الملائكة حول عرشه تعالىٰ يسبحون بحمده ويقدسونه، وأنتم هناك متلذذون بجميع اللذات من غير أكل ولا شرب. انتهىٰ.

وإنما صرح المسيح عليه الصلاة والسلام بذلك ولم يرمزه لأن خطابه كان مع قوم قد هذبتهم التوراة وكتب الأنبياء، وكانوا متهيئين لتصورها وقبولها، بخلاف أمر نبيِّنا محمد ﷺ، فإنه اتفق مبعثه في قوم أُميين أهل براري غير مرتاضين بعلوم ولا مقرين ببعث ولا نشور، بل ولا عارفين بنعيم ملوك الدنيا فضلًا عن معرفتهم بنعيم ملوك الآخرة، فلذلك جاء أكثر أوصاف الجنان في كتابهم جثمانية، تقريبًا لفهم القوم وترغيبًا لنفوسهم. انتهىٰ.

[الحكمة في كون أنهار الجنة أربعة من غير نقصان ولا زيادة]

فإن قيل: فلم كانت أنهار الجنة أربعة من غير زيادة: ماء ولبنًا وخمرًا وعسلًا؟

فالجواب: إنما كانت أربعة لأن التجلي العلمي لا يقع إلا في هذه الأمور الأربعة، ولكل قسم منها أهل، فأهل أنهار الماء هم أصحاب العلوم التي يدخلها الرأي، وأهل اللبن الحليب الذي لم يتغير طعمه إما لعقده أو مخضه أو ترييبه لأصحاب علوم أسرار الشريعة من الأئمة المجتهدين، وأهل أنهار الخمر الأمناء أصحاب العلوم الذوقية كعلم الخضر ﷺ، وأهل أنهار العسل المصفَّىٰ هم أهل العلم بطرق الوحي والإيمان وصفاء

الإلهام. انتهى[1]. ذكره بعض أهل الكشف ولم نر ما يخالفه.

(١٦٨) ومما أجبتُ به عن قول وهب بن مُنبِه أيضًا: «إن أجسام أهل الجنة تنطوىٰ في أرواحهم، فتكون الأرواح ظروفًا للأجسام، عكس ما كانت في دار الدنيا». قال قائل: إن هذا لم يرد لنا فيه خبر، فمن أين وصل وهب إلىٰ معرفة ذلك؟

والجواب: أنه لا ينبغي التوقف في مثل ذلك، ويُحمَل وهب علىٰ أنه رأىٰ في ذلك شيئًا عن النبي ﷺ، لأن مثل ذلك لا يُقال من قبل الرأي، وقد وافقه أهل الكشف علىٰ ذلك، وعبارة الشيخ محيي الدين: الذي أعطاه الكشف الصحيح أن أجسام أهل الجنة تنطوي في أرواحهم، فتكون الأرواح ظروفًا للأجسام، فيكون الظهور والحكم في الدار الآخرة للروح لا للجسم، ولهذا يتحولون في أي صورة شاؤوا كما هم اليوم عندنا الملائكة وعالم الأرواح. قال: وتتجوهر أبدان أهل الجنة بحسب صفاء أعمالهم الصالحة في دار الدنيا من الشوائب، فكلُّ من كان أكثر إخلاصًا في علمه وعمله وتوحيده كان أشف وأنور. انتهىٰ[2].

فإن قلت: فهل يباح دبر النساء والحور العين في الجنة من حيثُ إنها دار إطلاق لا تحجير فيها، أم الدبر محرَّمٌ في الدنيا والآخرة؟ فالجواب: الذي أعطاه الكشف أنه ليس لأهل الجنة أدبار مطلقًا لا ذكورًا ولا إناثًا، لأن الدبر إنما جعله الله مخرجًا للغائط، ولا غائط هناك ولا بول كما صرحت به الأحاديث، وجميع ما يأكلونه ويشربونه يخرج رشحًا كرشح المسك. ولولا أن الذكر وفَرْج المرأة بهما كمال النعيم بالجماع، لما كان للرجل ذكر ولا للمرأة فرج تُجامع فيه، أو تلد منه إن وقع هناك ولادة، كما قيل من أنه يولد لأهل الجنة أولاد روحانيون لا من جنس البشر ولا من جنس الحور، فإذا ولدوا ذهبوا في علم الله تعالىٰ لا يعودون إلىٰ والديهم، والله أعلم.

(١٦٩) ومما أجبتُ به عن قول أبي يزيد البسطامي: «إن رسول الله ﷺ متنعم في

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٤٤٩).

(٢) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٢٩٣).

الجنة بجميع ما فيها من النعيم، وإنه مشارك لجميع أهل الجنة علىٰ اختلاف طبقاتهم من أعلىٰ وأدنىٰ، فلا أحد يتنعم بنعيم أكل أو شرب أو جماع أو غيرها إلا وهو ﷺ مشارك له في نعيمه». قال قائل: كيف يصح ذلك وكلُّ ذات منفردة عن الأخرىٰ؟ وكيف يستلذ شخص بطعام أو شراب يدخل في جوف غيره، أو بذكر غيره إذا دخل في فَرْج؟

والجواب: أن العقل معزول هنا عن ذوق أحوال الآخرة، وما له في هذه الدار إلا الإيمان فقط.

فإن قلت: فأوضحوا لنا ذلك؛ فالجواب: نعم، وذلك أن الله تعالىٰ لما جعل آدم وذريته خلائف في الأرض وعمَّارها، ورشحهم للخلافة فيها، آتاهم كلَّ آلة يدبرون بها أمور دنياهم وأسباب معاشهم، وقد خلقهم في الدنيا للآخرة، فاحتاجوا للعقل والنطق آلتين لهم يتوصلون بهما إلىٰ تدبير معاشهم في الدنيا، وتهيئة أسباب معادهم حسب ما جاءتهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فأما ما يتعلق بأمور الآخرة وأسرار الشرائع من معرفة كيفية الثواب والعقاب، وأوصاف الجنة والنار بحقائقها دون وقائعها، وكيفية سؤال الملكين وجوابهما، وكيفية الحشر والنشر، والصراط والميزان وقراءة الكتب، وكيفية الحوض والشفاعة، ورؤية الله عزَّ وجلَّ في غير جهة، وسماع كلامه بغير صوت ولا حرف، وغير ذلك من تفاصيل لذات الثواب وآلام العقاب التي تستغرق فيها النفوس لذة كانت أو ألـمًا، سيما لذة النظر إلىٰ وجه الله الكريم، وألم الفزع الأكبر، فإن العقل بمجرده لا يستقل بدركه، اللهم إلا أن يمد الله تعالىٰ بعض خواصه في هذه الدار بنور الكشف، فلا منع من ذلك، فإن العقل إنما جعله الله تعالىٰ آلة للعبد في هذه الدار يدرك به تفاصيل الأوامر والنواهي، ويعرف به مصالح المعاش ومفاسده. ولقد صدق بعض العارفين حيث قال: الألسنة عن درك حقائق الأمور الأخروية محتبسة، والعقول عن إدراك حقائقها مختلسة، وإنما أخبرنا الكتاب والسنة عن أمور الآخرة علىٰ سبيل الإجمال والإرسال بما يقرِّب من الأفهام معانيها، فغاية النطق أن يخبر بها علىٰ الجملة إيجابًا للإيمان بها، وغاية العقل [البحث

عن تجويزها أو استحالتها، فإذا أخبر بها الصادق مجملة، واستجازها العقل مرسلة، وجب الإيمان بها صدقًا، والاعتقاد لها حقًا، ثم يجب كف الفكر عن][1] البحث عن كيفياتها، وردعه عن أن يشرئب للطمع في درك حقائقها، فإن الفكر عن ذلك مصدود، كما أن البصر عن سماع الصوت مردود، اللهم إلا أن يُكاشَف بعض الأولياء من أحوال الآخرة بشيء في حال غيبته عن الخلق وشهوده للحقِّ، فإنه في ذلك الوقت يكون مسلوب النطق، مغلوب العقل، لأنه حينئذ يشاهد أمورًا لا تسع لها ظروف الحروف، ولا تنتهي إليها العقول، كما قالوا:

وإن قميصًا خيط من نسج تسعة ... وعشرين حرفًا عن معانيه قاصر

ومن تأمل هذا المعنىٰ، انكشف له كثيرٌ من الغوامض التي درج عليها المتقدمون مكلفين عقولهم ما ليس في وسعها، طمعًا في أن ينالوا ما لا يُنال، فكانت عاقبتهم الحيرة والضلال. وإن من هذا القبيل قراءة أهل العَرَصَات الكتب المكتوبة بخط الملائكة الكرام الكاتبين، ولا شك أنها بخلاف كتابة أهل الدنيا، ولهذا يُقال لكتابة لا يُقدَّر علىٰ قراءتها: كأنها خط الملائكة! ومن ذلك أيضًا ما يخلق الله تعالىٰ من إدراك لذات كثيرة من نعيم الجنة مطعومها ومشروبها، وملبوسها ومشمومها ومنكوحها علىٰ حالة لا تُوجَد في الدنيا، كما وردت به الأخبار الصحيحة في ثواب الأعمال. وتلك الإدراكات بلذاتها لا تضاهي شيئًا من الإدراكات التي تُدرَك بها اللذات الدنيوية، فإنها وإن كانت تشاكلها في الجنسية والتسمية، فلها اختصاصات عجيبة تكِلُّ العقول عن إدراكها. وقول ابن عباس ﷺ: «ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا بأسمائه» أصل كبير في هذا الباب. انتهىٰ.

قلتُ: ولعدم تلك الإدراكات في الدنيا لا نجد في أنفسنا لذة النظر إلىٰ وجه الله الكريم، ولا غير ذلك من اللذات التي وعدها الله تعالىٰ لأهل الجنة، كما لا يجد الصبي في صباه لذةَ الجاه، لأنه لم يُخلَق له إدراك ذلك. والدليلُ علىٰ ذلك قولُه ﷺ عن رب

---

(١) ساقط من «ب».

العزة جلَّ وعلا: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، بَلْهَ ما أطلعتُهم عليه ثم قرأ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧]»[١]. وهذه خطة ضلَّت فيها الفلاسفة، فأنكروا أمور الآخرة.

وإذا قد صح لك أن العقل لا يطلع علىٰ كنه حقائق الأشياء الغيبية، ولا يبلغ إلىٰ منتهىٰ أسرارها، علمنا أن غايته أن يقيس ما لم يره علىٰ ما رآه، بأدنىٰ شبه يكون بينهما. وقد جاءت الشرائع بأشياء يعجز العقل عن معرفة عللها وكيفياتها، ولكنه إذا حكم بإجازتها، وجب الإيمان بها، كالحشر والنشر في الآخرة، وكالوجه والقدم والنزول في صفات الله تعالىٰ، وكذلك القول في معرفة مقادير الشرائع والعبادات.

وقد درج السلف الصالح من الصحابة والتابعين علىٰ التصديق بها جزمًا، ومنعوا أصحابهم من البحث عنها، وردُّوها إلىٰ علم الله بسرِّ القدَر المنهي عن الخوض فيه، وقالوا: أمرُّوها كما جاءت بلا كيف، ولم تجد الشُّبه إلىٰ عقائدهم سبيلًا لقوتها وصلابتها، وذلك لحداثة[٢] الإسلام وقرب العهد من زمان الوحي، ومشاهدة التنزيل ومهبط جبريل، فلما أن دَرَج القرن الأول ثم الذين يلونهم وهم خير القرون، نبعت الأهواء من كل صقع، وباض الشيطان بكلِّ قطر، ونفث في عُقد عَقد القلوب، وجال في الخواطر بخطواته، حتىٰ تزلزلت القواعد والعقائد، واضطربت الآراء، وكثرت مقالات أهل الأهواء، كالقرامطة والزنادقة والمعتزلة والرافضة خذلهم الله أجمعين، إذ ألَّفوا الكتب في الضلالات وبثوها في الأمصار، ودعوا إليها الأغبياء من الناس، فشاعت البدع، وفشا البهتان، وانحلت عقد العقائد، وذلك لبعد الخلق عن زمان المبعث، قال تعالىٰ: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦].

وقد كان الصديق الأكبر ﷺ يقول: طوبىٰ لمن مات في أوائل الإسلام. وكان الشيخ أبو [محمد] طاهر القزويني يقول: اعلم أن المعتقدين اليوم وإن صحت عقودهم وراجت نقودهم، فكثيرًا ما يتخالج في ضمائرهم خواطر الشكوك، من كثرة ما يقرع مسامعهم من

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) بالأصلين: لفضاضة. والفُضَاضَة: ما تفرَّق من الشيء عند كسره. وهو غير مناسب للسياق.

غشية أهل الأضاليل، ولعدم إمام محقق يبين لهم مصادر الأمور ومواردها. وربما يموت أحدهم علىٰ وخز بين ضلوعه من تجسيم وشبه منكرة لا يتجرأ أن يسأل عنها، ولا يجد أحدًا يشفي الغليل بجوابه، فلا يزال يخفي ذلك عن نفسه، فكيف بغيره؟! فهذا الذي دعاني إلىٰ أمثلة كثيرة في مضايق مشكلات التوحيد وغيره مما سبق في الباب الأول.

إذا علمت ذلك فلنرجع إلىٰ الجواب عن السؤال، فنقول وبالله التوفيق: من الدليل علىٰ كون محمد ﷺ يشارك أهل الجنة كلَّهم في نعيمهم قوله ﷺ: «من سنَّ سنةً حسنةً، فله أجرُها وأجرُ من عمل بها»(١) فله ﷺ أجر جميع العاملين بشريعته، سواء المتقدمين علىٰ زمانه من الأنبياء وأتباعهم أو المتأخرين عنه ﷺ والمقارنين له حال حياته. وإذا كان له أجرهم كلهم، فهو مشارك لهم في جميع نعيمهم وإن لم يصح لغالب الناس تعقل مثل ذلك في هذه الدار.

وفي عقيدة الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور ﷺ: واعلم يا أخي أن محمدًا ﷺ ملأ الجنة، فلا مؤمن يتنعم بجنة إلا ومحمد ﷺ متنعم معه بنعمته، مشارك له فيها، لأن الوليَّ وغيرَه من أهل الجنة ما وصل إلىٰ ذلك النعيم إلا باتباع شريعته ﷺ، فلهذا كان سرُّ النبوة قائمًا به في تنعيمه، كما أشار إليه الحديث المتقدم.

فإن قيل: ففي أين مكان يكون ﷺ يوم القيامة قبل دخول الجنة؟ **فالجواب**: تكون منزلته في هذا اليوم بين يدي «الحكم العدل» من حضرات الأسماء الإلهية، لينفذ الأوامر الإلهية في ذلك اليوم العظيم، فكلُّ أهل الموقف يأخذون عنه في ذلك الموطن، لأنه وجه كلُّه يُرىٰ من جميع جهاته، وله من كلِّ جانب إعلام من الله تعالىٰ يفهم عنه ما يريد علىٰ لسان ملك بصوت وحرف لكمال النعيم والأنس.

[محلُّ شجرة طوبى]

فإن قلت: فأين محل شجرة طوبىٰ؟ هل هي في دار رسول الله ﷺ تبعًا لشريعته من حيثُ عمومُها، فإنه ما من بيت ولا مكان في الجنة إلا وفيه فرع من شجرة طوبىٰ كما

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥).

ورد[١]، أو هي في دار غيره من خواص الأنبياء أو الصحابة؟

فالجواب: الذي أعطاه الكشف أن شجرة طوبىٰ في منزل الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وهي حجاب مظهر نور فاطمة الزهراء ﷺ. وأما كون جميع أماكن الجنة لا يخلو عن أن يكون فيها فرع من فروع شجرة طوبىٰ، فالسر فيه إظهار مقام السيدة فاطمة ﷺ، ليكون سرُّ كلِّ نعيم في كلِّ جنة ودرجة، وبيت ومخدع، ونصيبُ كلِّ مؤمن في الجنة من نورانية فاطمة الزهراء في حجاب ذلك الفرع. وذكر مثل ذلك في الباب الحادي والسبعين وثلاثمئة من «الفتوحات المكية» والحمد لله رب العالمين.

(١٧٠) ومما أجبتُ به عن قول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ: «من جمع شعب الإيمان كلها، فهو الذي يتبوأ من الجنة حيث يشاء». قال قائل: فما الحكمة في ذلك؟ وما المراد بهذه الجنة؟ هل هي الفردوس أو دار السلام أو غير ذلك من الجنان الثمانية؟

والجواب: المرادُ بهذه الجنة جنةُ الأعمال، إذ الجنان ثلاثة في الأصل، وهي: جنة الأعمال، وجنة الميراث، وجنة المنن. وجنة الأعمال مشتملة علىٰ بضع وسبعين جنة علىٰ عدد شعب الإيمان لا تزيد ولا تنقص كما أعطاه الكشف، والبضع من الواحد إلىٰ التسع، فصح قول الإمام: إن من جمع شعب الإيمان كلَّها، فهو الذي يتبوأ من الجنة حيث يشاء.

[صورة مجاورة الجنان لبعضها البعض]

فإن قلت: فما صورة مجاورة الجنان الثمانية لبعضها بعضًا؟ **فالجواب**: صورتها صورة دوائر ثمانية جنة في قلب جنة، أعلاها جنة عدن بمنزلة دار الملك يدور عليها ثمانية أسوار، بين كل سورين جنة، ويلي جنة عدن في الفضل، جنة الفردوس، ثم جنة الخلد، ثم جنة النعيم، ثم جنة المأوىٰ، ثم دار السلام، ثم دار المقامة. وكلُّ جنة من هؤلاء يصدق عليها اسم أخواتها، فجنة النعيم مثلًا جنة خلد وجنة عدن وجنة فردوس

---

(١) لم أقف عليه فيما اطلعت عليه من مصادر، وقد ذكره الشعراني في الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٨١٣) من كلام الشيخ أبي الفضل الأحمدي.

وجنة مأوىٰ وجنة مقامة ودار السلام، وهكذا.

فإن قلت: فأي جنة تتصل بمقام الوسيلة الخاص برسول الله ﷺ؟ فالجواب: الذي أعطاه الكشف أن جميع الجنان متصلة بمقام الوسيلة الخاصة به ﷺ، وذلك ليتنعموا بشهود طلعته ﷺ، فسائر الجنان تتفرع من الوسيلة، لأن لها شعبة [في كل جنة، ومن تلك الشعبة يظهر وجه محمد ﷺ لأهل تلك الجنة]، فهي في كل جنة أعظم منزلة يكون فيها.

فإن قلت: فما الحكمة في كون درجات الجنة موازية لدركات أهل النار كما أعطاه الكشف؟ فالجواب: أن الحكمة في ذلك أن الدارين هما مظهر الأمر والنهي، ولا يخلو العبد أن يعمل بالأمر ويجتنب النهي أم لا، فإن عمل بالأمر كانت له درجة في الجنة معيَّنة لذلك العمل خاصة، وفي موازنة هذه الدرجة المخصوصة لهذا العمل الخاص إذا تركه المكلف درك من النار لو سقطت حصاة من تلك الدرجة في الجنة، لوقعت علىٰ خط الاستواء في ذلك الدرك من النار. وإذا ترك الإنسان العمل بما أُمِرَ كان ذلك الترك هو عين سقوطه إلىٰ ذلك الدرك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٧١) ومما أجبتُ به عن قول سعيد بن جبير: «إن أهل الجنة أكلهم دائم لا ينقطع، لقوله تعالىٰ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]» هل المراد أنهم دائمًا يأكلون، أم المراد بالدوام أنهم يأكلون متىٰ يشتهون الأكل فقط؟

والجواب: أن المراد أن الأكل لا ينقطع عنهم متىٰ اشتهوه، لا أنهم يأكلون دائمًا.

فإن قيل: فإذن التنعم ليس هو بدوام الأكل، وإنما هو بما يكون به الغذاء للجسم؛ **فالجواب**: والأمر كذلك.

فإن قيل: فما المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] مع أنه لا شمس هناك ولا قمر؟ **فالجواب**: المراد بالبكرة والعشي الحركة التي كانت تسير بالشمس، ويظهر من أجلها طلوعها وغروبها، فإن هذه الحركة موجودة في الفلك الأطلس الذي هو سقف الجنة كما أعطاه الكشف، وجميع الكواكب السيارة في النار كلها سابحة

فيها كسباحتها الآن في أفلاكها علىٰ حد سواء، ولولا ذلك ما عرف أهل التقويم متىٰ يكون الكسوف، ولا كم يذهب من ضوء الشمس عن أعيننا، فلولا المقادير الموضوعة والموازين المحكمة التي علمها الله تعالىٰ للمقوِّمين، ما علم أحد منهم ذلك. انتهىٰ.

وذكر الشيخ الكامل محيي الدين ﷺ في الباب الثامن والتسعين وثلاثمئة من «الفتوحات» في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] ما نصه: اعلم أن لأهل الجنة مقادير يعرفون بها انتهاء مدة الشمس في الدنيا في طلوعها وغروبها، فيعلمون بتلك المقادير حدَّ ما كان في الدنيا بكرة وعشيًّا، وعند ذلك يتذكرون أنه كان لهم في ذلك الزمان حالة تُسمَّىٰ الغداء والعشاء، فيأتيهم الله تعالىٰ عند هذا التذكر برزق بكرةً وعشيًّا، فهو رزق خاص في وقت خاص معلوم عندهم، وما عدا ذلك فأكلها دائم لا ينقطع، إذ المراد بدوام الأكل إنما هو النعيم بما يكون به الغذاء للجسم، فإن الإنسان إذا أكل حتىٰ شبع، فليس ذلك بغذاء ولا يأكل علىٰ الحقيقة، وإنما هو كالجابي الجامع للمال في خزانته، وخزانةُ كلِّ إنسان هي معدته، فإنها خزانة لكلِّ ما جمعه من الأطعمة والأشربة، ثم إذا رفع يده من الطعام والشراب، فحينئذ تتولاها الطبيعة بالتدبير، وينتقل ذلك الطعام والشراب من حال إلىٰ حال، ويتغذىٰ بذلك في كلِّ نَفَس يخرج منه علىٰ الدوام، فهذا هو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [مريم: ٦٢]، ولولا ذلك لبطلت الحكمة في ترتيب نشأة كلِّ متغذٍ.

ثم إذا خلت الخزانة من الطعام والشراب، حرَّك الطبع ذلك الجابي إلىٰ تحصيل ما يملؤوها به، فلا يزال الأمر هكذا في الجنة دائمًا أبدًا، فعُلِمَ أن الجسم محتاج إلىٰ التغذي في كلِّ نفس دنيا وآخرة. انتهىٰ.

فإن قلت: قد سبق الجواب الخامس قبله[1] أن بعضهم قال: إنه يولد لأهل الجنة أولاد روحانيون لا من جنس البشر ولا من جنس الحور، فما الصحيح من ذلك؟ فالجواب: قد ذكر الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والستين وثلاثمئة من «الفتوحات» ما نصه:

(١) الجواب رقم (١٦٨).

قد اختلف أصحابنا في هذا النوع الإنساني هل تنقطع أشخاصه بانقضاء مدة الدنيا أم لا؟ فمن لم يُكْشَف له قال بانتهائه، ومن كُشِفَ له قال بعدم انتهائه، وهو الصحيح، إذ التوالد في النوع الإنساني باقٍ، لكن في المثل لا في العين، وذلك لأن الله تعالىٰ لم يوجد شيئًا في العالم الذي لا أكمل منه إلا وله مثال في خزائن الوجود من كرسيه سبحانه وتعالىٰ. والأمثال التي تحوي عليها هذه الخزائن لا تتناهىٰ أشخاصها، فلا تزال الأمثال توجد في كلِّ نوع في كلِّ زمان فرد في الدنيا والآخرة لبقاء كلِّ نوع، فكما ينكح الرجل منا المرأة الآدمية الإنسانية، كذلك ينكح بنو آدم السعداء الحوراء في الزمن الفرد.

[صورة خلق الحور العين]

فإن قيل: فهل الحور العين علىٰ صورة خلق الآدميين أم لا؟ **فالجواب:** هم علىٰ صورة الآدميين، ولكن لسن بآدميين. **فإن قلت:** فهل يقدر الرجل أن يجامع جماعةً من زوجاته في آن واحد من غير تقدم ولا تأخر أم لا؟ **فالجواب:** نعم، كما أعطاه الكشف، فينكح الرجل جميع من عنده من النساء والحور العين من غير تقدم ولا تأخر، مثل فاكهة الجنة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣]، فهي تُقْطَف دائمًا من غير فقد، مع وجود أكل وطيب طعم، فإذا أفضىٰ الرجل إلىٰ الحوراء أو الأنسية، كان له في كلِّ دفعة شهوة ولذة لا يقدر قدْرُها، لو وجدها أحد من أهل الدنيا لغُشِي عليه من شدَّة حلاوتها، فيكون منه في كلِّ دفعة ريح مثيرة تخرج من ذكره، فيتلقاها رحم المرأة، فيكون من حينه فيها ولد في كلِّ دفعة، وتكمل نشأته ما بين الدفعتين، فيخرج مولودًا مصوَّرًا مع النفس الخارج من المرأة روحًا مجردًا طبيعيًّا، فهذه صورة التوالد الروحاني من البشر مع الجنس المختلف والمتماثل، ولا يزال الأمر كذلك دائمًا أبدًا. ويشاهد الآباء ما يولد منهما من ذلك النكاح، ثم تغيب الأولاد عنهما، كالملائكة الذين يدخلون البيت المعمور كل يوم ثم لا يعودون[1].

فإن قلتَ: فهل لهؤلاء الأولاد نعيم؟ **فالجواب:** أنه لا نعيم لهم في الأمور المحسوسة،

---

(١) انظر «الفتوحات» الباب (٣٦٩).

ولا حظَّ لهم أيضًا في النعيم المعنوي، إنما نعيمهم برزخيٌّ كنعيم صاحب الرؤيا بما يراه في حال نومه، فإذا استيقظ لم يجد شيئًا، وذلك لما يقتضيه النشأ الطبيعي، فلا يزال النوع الإنساني يتوالد أبد الآبدين، ولكن علىٰ حكم ما ذكرنا(١).

فإن قلتَ: فهل تتوالد الأرواح البشرية في الآخرة؟ فالجواب: نعم، صرَّح به الشيخ محيي الدين في «الفتوحات» وغيرها، وذلك لأن للأرواح في الآخرة اجتماعات برزخيات مثل ما لها في الدنيا، فيرىٰ أحدهم أنه ينكح زوجته ويُولَد له منها أولاد علىٰ حدٍّ سواء، فمن أُقيم في هذا المقام من الأولياء، فلا فرق بين الدنيا والآخرة في حقِّه، فإذا نكح من حيث روحُه زوجته من حيثُ روحُها، تولَّد له أولاد من ذلك النكاح الذي وقع بينهما روحانيون يخالفون حكم المولود من النكاح الحسي، فلا يشبهونه في الجسم ولا في الصورة المحسوسين، إنما هم ملائكة كرام، وأرواح مطهرة. فهذه صورة توالد الأرواح، لكن لابد أن يكون ذلك عن تجلٍّ برزخيٍّ، كتجلي الحقِّ تعالىٰ للنائم في نومه في صورة مقيَّدة، إذ البرزخ أوسع الحضرات، فإنه يقبل وجود المحالات العقلية فيه.

وكان أبو القاسم بن قسي رحمه الله يقول: صورة توالد أهل الجنة صورة نشإ الملائكة أو الصور من أنفاس الذاكرين لله تعالىٰ، وما يخلقه الله تعالىٰ من صور الأعمال، كما ورد بذلك الأحاديث(٢). انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر: نفس المصدر السابق، ونفس الباب.

(٢) منها ما أخرجه أحمد (١٨٦١٤) واللفظ له، والحاكم (١٠٧) وغيرهما عن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ جنازة، فجلس رسول الله ﷺ علىٰ القبر، وجلسنا حوله كأن علىٰ رؤوسنا الطير وهو يلحد له، فقال: «أعوذ بالله من عذاب القبر» ثلاث مرار، ثم قال: إن المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، تنزلت إليه الملائكة كأن علىٰ وجوههم الشمس، مع كل واحد منهم كفن وحنوط، فجلسوا منه مد البصر، حتىٰ إذا خرج روحه، صلىٰ عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفُتِحَت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم، فإذا عرج بروحه قالوا: رب عبدك فلان، فيقول: أرجعوه، فإني عهدت إليهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ. قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه، فيأتيه آت فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟

(١٧٢) ومما أجبتُ به عن قول ذي النون المصري ﵀: «ليس يُعطىٰ أحد في الجنة كلَّ ما يريد». فقال قائل: كيف ذلك والله تعالىٰ يقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]؟

والجواب: أن ذلك لا ينافي الآية، لأنه ليس كلُّ مراد مشتهًىٰ، ولذلك لم يقل: «ولكم فيها ما تريد نفوسكم» إذ الإرادة تتعلق تارةً بما يُلْتَذ به، وتارة بما لا يُلتَذ به، والشهوة لا تتعلق إلا بما يُلتَذ به، فلذلك علَّق تعالىٰ الحكم بها في نعيم أهل الجنة. وإيضاح ذلك أن السعداء أخذوا الأعمال الصالحة بالإرادة والقصد، وأخذوا النتائج بالشهوة، فمن رُزِقَ الشهوة في حال العمل، فالتذ بالعمل التذاذه بنتيجته، فقد عُجِّل له

فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ ، فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض علىٰ المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فيقول له: صدقت. ثم يأتيه آت حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول: أبشر بكرامة من الله ونعيم مقيم، فيقول: وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، كنتَ والله سريعًا في طاعة الله، بطيئًا عن معصية الله، فجزاك الله خيرًا. ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا كان منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأىٰ ما في الجنة قال: رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلىٰ أهلي ومالي، فيقال له: اسكن. وإن الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت عليه ملائكة غلاظ شداد، فانتزعوا روحه، كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، وتنزع نفسه مع العروق، فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن لا تعرج روحه من قبلهم، فإذا عرج بروحه، قالوا: رب فلان بن فلان عبدك، قال: أرجعوه، فإني عهدت إليهم أني منها خلقتهم،وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ، قال: فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه، قال: فيأتيه آت فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، فيقول: لا دريت ولا تلوت. ويأتيه آت قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بهوان من الله، وعذاب مقيم. فيقول: وأنت، فبشرك الله بالشر من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، كنت بطيئًا عن طاعة الله، سريعًا في معصية الله، فجزاك الله شرًّا، ثم يقيض له أعمىٰ أصم أبكم في يده مرزبة، لو ضرب بها جبل كان ترابًا، فيضربه ضربة حتىٰ يصير ترابًا، ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرىٰ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين». قال البراء بن عازب: «ثم يفتح له باب من النار ويمهد من فرش النار».

نعيمه. ومن رُزِقَ الإرادة في حال العمل من غير شهوة، فهو صاحب مجاهدة، وينال النتيجة بشهوة، ولكنها فوق الأولىٰ.

فإن قلت: لِمَ لم تكن شهوات الدار الآخرة تحجب أهل الجنة عن ربهم كما هو في الدنيا؟ **فالجواب:** إنما كانت الشهوات في الجنة لا تمنع شهود تجليات الحقِّ جلَّ وعلا مع أنها أعظم لذة من لذة شهوات الدنيا، لأن التجلي هناك علىٰ الأبصار دون البصائر، وليست الأبصار بمحل الشهوات، بخلاف التجلي في هذه الدار، فإنه علىٰ البصائر والبواطن دون الأبصار والظواهر. ومعلوم أن البواطن التي هي محل الشهوات لا يصح فيها جمع الشهوة والتجلي في آن واحد. ومن هنا جنح العارفون والزهاد إلىٰ التقلل من الدنيا وشهواتها في هذه الدار حين رأوها حاجبة لهم عن شهود الأمر علىٰ ما هو عليه، **فإن المانع عن إدراك العلوم والأنوار والتجليات إنما هو كدورات الشهوات والشبهات الشرعية الهادمة لركن الورع في الجوارح**، مع أن كدورات الشهوات تؤثر في الاستعداد وتورث الحجاب وإن كان المطعم والمشرب والمنكح مثلًا حلالًا، ذكره الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والعشرين وثلاثمئة من «الفتوحات»، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٣) ومما أجبتُ به عن قول وهب بن مُنبِّه: «إن أهل الجنة يزورون ربهم في الجنة علىٰ قدْر مجالستهم له في دار الدنيا». قال قائل: إن الآخرة دار تُخرَق فيها العوائد، فمن أين جاء التقييد بالقدْر المذكور؟

فالجواب: أن مجالستهم لربهم بقدر مجالستهم له في دار الدنيا بحكم الأصل، ثم إن العادة قد تُخرَق، فيمد الله تعالىٰ لهم في كلِّ مجالسة ما شاء. وقد صرح الشيخ محيي الدين بنحو ذلك في الباب الثامن وتسعين ومئة من «الفتوحات» فقال: اعلم أن زيارة العبد لربِّه في الجنة علىٰ قدْر صلاته، وأما رؤيته له فهي علىٰ قدر حضوره معه في صلاته، ومجالسته تعالىٰ معه تكون علىٰ قدْر العبادات من الواجبات والمندوبات، وترك الحرام والمكروهات. وأما المباح فمجالسته تكون بحسب النية فيه. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٤) ومما أجبتُ به عن قول سعيد بن جُبَير ﷺ: «إن في الجنة سوقًا لحِسَان الصور إذا دخله المؤمن وأعجبته صورة، دخل فيها من غير أن تنتقل تلك الصورة من صاحبها إليه». قال قائل: هذا يشبه المحالات.

والجواب: قد قدمنا قريبًا أن أحوال الآخرة لا تبلغ العقول كنهها، بل العقول معزولة عن دركها. وقد صرح الشيخ محيي الدين بذلك في الباب التاسع والتسعين في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٣]، فقال: قد تأول بعضهم ذلك علىٰ فصول السنة، وأن الفاكهة تنقضي بانقضاء زمانها، ثم تعود في السنة الأخرىٰ، فهي دائمة التكوين في الفصول لا تنقطع، وهذا مبلغ علم الناس، والذي عندنا من طريق الكشف في قوله تعالىٰ: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٣] أن الله تعالىٰ يجعل لنا فيها رزقًا يُسمَّىٰ قطفًا[١] وتناولاً، كما يجعل الله تعالىٰ لعالم الجن في العظام رزقًا وما ترىٰ ينقص من العظام شيء، ونحن بلا شك نأكل من ثمر الجنة قطعًا مع كون الثمرة في موضعها من الشجرة ما زالت عينها، إذ الجنة دار بقاء[٢] تتكون الأمور فيها، وليست دار انعدام.

قال: وكذلك الحكم في سوق الجنة يدخل العبد في أي صورة شاء من صور السوق، مع كوننا علىٰ صورتنا لا ينكرنا أحد من أهلنا، ونحن نعلم يقينًا أننا لبسنا صورة جديدة تكوينية مع بقائنا علىٰ صورتنا، فأين العقول والمعقول هنا؟! انتهىٰ.

فإن قلتَ: فإذن حكم الصورة التي يدخل فيها الإنسان حكم الحاجة التي يشتريها العبد من السوق ثم يدخل بها داره؛ **فالجواب**: وهو كذلك، لأن هذه الصور كلَّها برازخ تتقلب فيها أعيان أهل الجنة، فيدخل أحدُهم في كلِّ صورة أراد وينصرف بها إلىٰ أهله. وقد يرىٰ جماعةٌ صورةً واحدة، فيشتهيها كلُّ واحد منهم، فيدخلون كلُّهم فيها ويلبسونها، ويحوزها كلُّ واحد من تلك الجماعة، والناس الذين لا يشتهونها واقفون ينظرون إلىٰ كلِّ واحد وهو يدخل في تلك الصورة وينصرف بها إلىٰ أهله، والصورة

---

(١) بالأصلين: قطعًا. خطأ من الناسخ، والمثبت من نص «الفتوحات».

(٢) بالأصلين: بها. خطأ من الناسخ، والمثبت من نص «الفتوحات».

كما هي في السوق ما برحت منه، ولا يعرف ما قلناه إلا من كشف الله تعالىٰ عن قلبه الحجاب، فأدرك أحوال الآخرة مشاهدة عين من هذه الدار، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٥) ومما أجبتُ به عن سيدنا ومولانا عبد الله[1] الملقب بـ«جحا»[2] فيما يضيف الناس إليه من الحكايات المضحكة، حتىٰ ربما أن بعض الناس يسخر به ولا يقيم له وزنًا.

والجواب: أن جحا هذا من التابعين ﷺ، كما رأيتُه بحظ الشيخ جلال الدين الأسيوطي ﷺ، قال: وكانت أمه خادمة لأم أنس بن مالك ﷺ. وكان الغالب عليه السذاجة وصفاء السريرة، فلا ينبغي لأحد أن يسخر به إذا سمع بذكره في حكاية، بل يسأل الله تعالىٰ أن ينفعه ببركاته.

قال الشيخ جلال الدين: وغالب ما يُنقَل عنه من الحكايات المضحكة لا أصل له، كما بينَّاه في كتاب «الحكايات المسندة» فرضي الله عنه وأرضاه، والحمد لله رب العالمين.



---

(١) كذا بالأصلين، وليس اسمه «عبد الله» فلعله ثناء من الإمام الشعراني عليه بالعبودية.

(٢) جحا أبو الغصن دجين بن ثابت اليربوعي، صاحب النوادر رأىٰ أنسًا ﷺ، وروىٰ عنه ابن المبارك وغيره، قال عباد بن صهيب: حدثنا أبو الغصن جحا وما رأيت أعقل منه ـ قال كاتبه: لعله كان يمزح أيام الشبيبة، فلما شاخ أقبل علىٰ شأنه، وأخذ عنه المحدثون. السير (٨/ ١٧٢).

البَابُ الرَّابِعُ

فيما أجبتُ به عن غير الصحابة والتابعين من الخواص والعوام فتحًا لباب حسن الظن بالمسلمين

(١٧٦) فمما أجبتُ به عن أشعب الطمَّاع[1] عفا الله عنه في كونه كان يفتُّ الخبز علىٰ دخان الجيران، وينسبه الناس إلىٰ الطمع المذموم.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد اللوث به من حيثُ الطمعُ المذكور، وإنما يجب حمله علىٰ حسن الظنِّ بجيرانه واعتقاده فيهم الكرم، وأنهم لا ينسونه من افتقاده بالطعام، فلغلبة ظنِّه فيهم الخير وطيب النفس، فتَّ خبزه علىٰ دخانهم. وهذا يقع كثيرًا للفقراء إذا كان جارهم كريمًا لا ينساهم من طعامه، وإذا نسوا إرسال الطعام عاتبهم عليه. فإياك يا أخي واللوث بمثل أشعب هذا، واحمله علىٰ المحامل الحسنة، تسلم من الإثم وسوء الظن، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٧) ومما أجبتُ به عن قول القاضي عياض في كتاب «الشفا»: «وشذ الشافعيُّ فقال بوجوب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ في الصلاة» اعلم يا أخي أن بعض الناس شنَّع علىٰ القاضي عياض بسبب هذه العبارة، وقال: إن كتاب «الشفا» موضوع لتعظيم رسول الله ﷺ، والقول بوجوب الصلاة علىٰ النبي ﷺ مناسب لما قصده في كتابه، فكيف يجعل القول بوجوب الصلاة عليه شاذًا؟!

والجواب: أن مرادَ القاضي عياض بالشذوذ هنا انفرادُ الإمام الشافعيِّ ومن قال بقوله بزيادة التعظيم لرسول الله ﷺ، وأن اللائق بمقامه ﷺ وجوب الصلاة عليه في الصلاة وفاءً بحقِّه ﷺ، لكونه واسطة لنا في جميع الخيرات، وليس مراد القاضي الشذوذ

---

(١) أشعب الطماع، هو أشعب بن جبير، يقال: إن اسمه شعيب، وكنيته أبو العلاء، وهو أشعب ابن أم حَميدة، وقيل أم حُميدة، وأم حميدة كانت مولاة لأسماء بنت الصديق، عمر دهرًا طويلًا، وأدرك زمن عثمان بن عفان ﷺ. وله نوادر مأثورة، وأخبار مستظرفة ت ١٥٤ هـ. تاريخ الإسلام (٤/ ٢٥).

الذي هو الضعف كما توهم.

وإيضاح ذلك أن الناس في الصلاة علىٰ مقامين: فمقام الأكابر اللائق به وجوب الصلاة علىٰ النبي ﷺ، لعدم حجابهم بها عن شهود الحقِّ في الصلاة، وهذا مراد الشافعي ومن تبعه، بخلاف قول من قال بعدم الوجوب، فإنه راعىٰ مقام الأصاغر الذين يحصل لهم الغيبة والحجاب بكلِّ ما سوىٰ الله في صلاتهم، فإن اللائق بهؤلاء استحباب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ لا وجوبها، لاسيما وموضوع الصلاة بالأصالة للاشتغال بالله ذكرًا ومشاهدة دون غيره ولو ارتفعت رتبة ذلك الغير، وقد قال الجنيد رحمه الله: من شهد الخلق حُجِب عن الحقِّ، ومن شهد الحقَّ حُجِب عن الخلق. انتهىٰ.

قلتُ: ومراده بمن شهد ذلك حال نقصه، إذ الكمال شهود الحقِّ مع الخلق وعكسه، ويعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، مع الفرقان الدائم بين الله وبين خلقه. وهذا المقام هو الذي أشار الشافعيُّ إلىٰ أهله بالوجوب، لقدرتهم علىٰ شهود النبي ﷺ في تلك الحضرة العظيمة التي تذهل فيها العقول من غير حجاب باشتغالٍ بالصلاة عليه. ومن فهم ما قلناه لم يقل بضعف أحد القولين، بل يرىٰ كلَّ قول له أهل، وهو جمع حسن ومحمل صحيح كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله تعالىٰ في مواضع من هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكتب للولاة خطه بقدر مدة ولاية أحدهم وعزله، ويرمز ذلك بخطٍّ لا يعرفه إلا هو، ولاث الناس به وقالوا: إن كان صادقًا في معرفته بذلك، فليكتبه لنا بالخط الذي يُقرأ، أو يخبرنا بما في جيب أحدنا من الدراهم أو غيرها، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «من حدثكم بعد رسول الله ﷺ بما يكون في غد فكذِّبوه»[1] أي لأن الوحي قد انقطع، ولا تُعلم الحوادث المستقبلة إلا بالوحي.

والجواب: أنه لا ينبغي تكذيب هذا الشيخ عملًا بقول عائشة رضي الله عنها، لأن مرادها علم الأمور المستقبلة علىٰ وجه القطع بها، لا علىٰ نوع من الترجيح، فإن الإلهام للأولياء باقٍ لهذه الأمة، وحقيقته أنه وحي من الله لخواص عباده علىٰ لسان ملك مغيَّب عن

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

ذلك الملهم، فيسمع كلام الملك بأذن قلبه أو بأذن رأسه، ويخبره بما يقع في المستقبل، لكن لا يجب عليه العمل به إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة وموافقته لهما في قواعد الوجوب، وإلا فهو مخيَّر بين القول بالوجوب والاستحباب.

وقد أجمعوا على أن سماع كلام الملَك ورؤية شخصه حال كلامه من خصائص الأنبياء[1]. وأما غيرهم فإن رأى شخص الملَك لا يسمع له كلامًا، وإن سمع كلامه لا يرى له شخصًا، لقصوره عن مقام الأنبياء. وأيضًا فإن الوليّ يدعو إلى الله بشرع مقرَّر ثابت لا شك فيه، فلا يحتاج إلى مزيد تثبت، بخلاف النبي يحتاج إلى مثل ذلك، لأنه يريد إحداث شرع مستقل ربما ينسخ بعض شريعة من قبله.

وقد يكون مطمح بصر الوليّ ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا أو اللوح المحفوظ، فيخبر بما يراه فيهما من طريق الكشف، لكن ما يراه في اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يُمحَى، بخلاف ما يراه في ألواح [المحو][2] والإثبات، كما هو مقرَّر في كلام العارفين.

وأما رمز الشيخ مدة الولاية والعزل بقلم لا يعرفه إلا هو، فلا ينبغي اللوث به وتجهيله بسبب ذلك، لأن ما أخبر به من جملة أسرار الله التي جعلها في قلوب خواص عباده، فكان الرمز لها أليق. وقد رمز الله تعالى في القرآن مثل ذلك كثيرًا، مع أنه العالم الخبير بما كان وما يكون، نحو قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿حمٓ﴾ ﴿طسٓمٓ﴾ ونحو ذلك، كقوله تعالى ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] وقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] فانظر

---

(١) نقل الإمام هنا الإجماع على عدم اجتماع رؤية الملَك وسماعه للأولياء، ويفهم منه أن لا مخالف لذلك، لكنه في الجواب رقم (٨٠٠) ذكر أن رأي الجمهور عدم اجتماع رؤية الملك وسماعه، وذكر أن هناك قولًا يخالف الجمهور.

(٢) ساقط من الأصلين.

كيف أجمل سبحانه وتعالىٰ تمتيعه لقوم يونس بقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وإلىٰ إجماله ﴿قَلِيلًا﴾ في الآيتين الأخرتين، ولم يبين مقدار ذلك، فهذا الشيخ الذي رمز هذا السرَّ قد مشىٰ علىٰ سَنَن الأخلاق الإلهية، فلا ينبغي الاعتراض عليه، والحمد لله رب العالمين.

(١٧٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يفتي تبعًا للإمام مالك وغيره بعدم قبول شهادة الفقهاء علىٰ بعضهم بعضًا لما يظهر منهم من الحسد لبعضهم، فلاث به بعض المتصوفة وقال: كان ينبغي له حسن الظن بالمسلمين، ولكن قد قاس هذا أحوال الناس علىٰ ما عنده من الحسد.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لاحتمال أن يكون قصد بذلك الزجر والتنفير، لا تحقيق وجود العداوة بين الفقهاء، فكأنه يرشدهم إلىٰ [عدم][1] معاملة بعضهم بعضًا كمعاملة الأعداء من باب الاحتياط للأموال والأعراض.

وقد أجرىٰ بعضهم هذا الحكم في حقِّ كلِّ طائفة بينهم مزاحمة علىٰ شيء من الأغراض الدنيوية، وهو ظاهر، فإن معارضة كلِّ واحد لأخيه في الوصول إلىٰ ما طلبه من الأغراض، يورثه الغضب والحقد والحنق، فيحمله ذلك غالبًا علىٰ أن يقول في حقِّ من عارضه ما لا يليق كما هو مشاهد بين الناس.

وعبارة الإمام مالك، وكذلك مالك بن دينار: لا أقبل شهادة القراء علىٰ بعضهم بعضًا، لأني رأيتهم حسدًا. انتهىٰ[2]. وإيضاح هذا الكلام أن الحاسد معدود من الأعداء، ولا يُقبَل شهادة العدو في عدوه شرعًا.

فإن قال قائل: فمن أي دليل اطلع الإمام مالك علىٰ ما في قلوب الناس من الحسد، ومعلوم أن مثله مطهَر من الحسد، فليس عنده شيء يقيس عليه غيره؛ **فالجواب:** أن له الوصول إلىٰ العلم بما في قلوب الناس من حيثُ الإلهامُ الصحيحُ، فلا يلزم من رؤيته

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٢) انظر الجواب رقم (١٢٠).

الحسد في الناس أن يكون ذلك قياسًا علىٰ حاله هو. وحَمَلَه علىٰ ذلك الأخذُ بالاحتياط للشاهد والمشهود له أو عليه.

فلا ينبغي لمن يعلم من نفسه الحسد أن يشهد علىٰ أحد[1]، لأنه ربما حمله الحسد علىٰ أن يشهد بغير علم، كما قالوا في القاضي إنه لا ينبغي له الحكم بين الناس في حال غضب أو جوع شديد، لأنه مشغول الفكر بذلك عن تحقيق الحكم، بل قال الإمام الشافعيُّ: لا تشاور من ليس في بيته دقيق. فاحمل يا أخي العلماء وغيرهم علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٠) ومما أجبتُ به عن أبي القاسم الجنيد ﷺ فيما نقله بعض الصوفية عنه أنه كان يقول: «لا يبلغ العبد درجة الحقيقة والولاية حتىٰ يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق». وقد شنع العلماء عليه ذلك كلَّ التشنيع وقالوا: كيف يشهد في إنسان ألف صديق بأنه زنديق، ويكون ذلك الإنسان من أولياء الله عزَّ وجلَّ، هذا خروج عن الشريعة بإجماع كلِّ مسلم.

والجواب: أن مثل هذا القول يجب علىٰ كلِّ مسلم تنزيه الجنيد عنه، لإجماع العلماء علىٰ أنه شيخ الطائفة الصوفية كلِّهم. وقد نقل ابن السبكي[2] في «الطبقات»[3] عنه أنه كان يقول: لو رأيتم رجلًا متربعًا في الهواء، فلا تعبأوا به حتىٰ تنظروه عند الأمر والنهي، فقد يكون راكبًا أحدًا من مردة الشياطين الذين يوافقهم فيما يريدون منه، فوقف به في الهواء، ليفتن ضعفاء العقول في دينهم. وأنه كان يقول: طريقنا هذا مشيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ويفهم معانيهما المسطورة في كتب العلماء، لا يُقتدىٰ به

---

(١) بالأصلين: لأحد. والمثبت يستقيم به السياق.

(٢) عبد الوهاب بن علي العالم الفقيه المحدث النحوي الناظم تاج الدين أبو نصر ابن العلامة قاضي القضاة السبكي. ولد بالقاهرة سنة: ٧٢٨ قرأ علىٰ الذهبي كثيرًا من مصنفاته وغيرها، وأفتىٰ ودرس، وصنف كتبًا منها: «طبقات الشافعية الكبرىٰ» و«معيد النعم ومبيد النقم» و«الأشباه والنظائر» ت ٧٧١هـ. «الوافي بالوفيات» (١٩/ ٢١٠)، «شذرات الذهب» (٨/ ٣٧٨).

(٣) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» مطبوع.

في هذا الشأن. وكان يقول: الطرق كلها مسدودة[1] إلا علىٰ المقتفين آثار رسول الله ﷺ. وأنه كان يقول: إذا رأيتم من يدعي التصوف يشاور أصحابه بكلام لا يتجرأ أن يصرح به علىٰ رؤوس الأشهاد، فاعلموا أنه زنديق. انتهىٰ.

فانظر يا أخي إلىٰ كلامه هذا، تجزم يقينًا بأن من ينقل عليه شيئًا يخالف ظاهر الكتاب والسنة فنقله باطل، كيف يصح ممن جعله الله تعالىٰ قدوة للخلق، وداعيًا إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ بصيرة أن يتكلم بشيء يخدش ظاهر الشريعة بعد أن أمنه الشارع ﷺ عليها؟!

وقد بلغنا عنه أنه كان من أشد القائمين علىٰ الحلاج[2] لما صدر عنه بعض كلمات توهم مخالفة الشريعة، وقال له: قد فتحتَ في الإسلام ثلمة لا يسدُّها إلا رأسك. ومما يؤثر عن الجنيد أنه كان يقول: لو كنت ذا سلطان لضربتُ عنقَ كلِّ من يقول: ما ثم إلا الله، لأن إطلاق هذا الكلام ينفي الأحكام والشرائع، والعباد وسائر المخلوقات، ويعطِّل حضرات جميع الأسماء الإلهية. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تنقل عن الجنيد المقالة السابقة، فإنها مدسوسة عليه بيقين، دسَّها عليه بعض الزنادقة، ليروج بها أمره إذا أُسنِدت إلىٰ الجنيد حين علم إطباق الناس علىٰ جلالته وعلمه، وشهدوا أن طريقه طريق مقوَّم علىٰ الكتاب والسنة، كما دسُّوا علىٰ الإمام أحمد بعضَ العقائد الفاسدة، وكتبوها ووضعوها تحت وسادته في مرض الموت حين علموا أنه إمام في السنة مقدَّم، لتروج بذلك عقيدتَهم الفاسدة، منها أن الله تعالىٰ جسم محصور علىٰ صورة آدم، ومنها أن القرآن مخلوق، وغير ذلك مما ينافي حاله الذي كان عليه.

وإياك أن تعتقد أن الله تعالىٰ يوحي إلىٰ قلوب الأولياء بما يخالف ما جاء به محمد

---

(١) بالأصلين: مشدودة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الحسين بن منصور أبو عبد الله - ويقال: أبو مغيث - الفارسي، البيضاوي، الصوفي. صحب سهل بن عبد الله التستري والجنيد وأبا الحسين النوري. قال ابن خلكان: والناس في أمره مختلفون: فمنهم من يبالغ في تعظيمه، ومنهم من يكفر. ورأيت في كتاب «مشكاة الأنوار» للغزالي فصلًا طويلًا في حاله، وقد اعتذر عن الألفاظ التي كانت تصدر عنه. ت ٣٠٩هـ. السير (١٤/ ٣١٣) «الأعلام» (٢/ ٢٦٠).

ﷺ ويقول: إن علماء الشريعة محجوبون عن مثل ذلك، كما يقع فيه بعض المتسلقين علىٰ طريق الصوفية مع جهلهم بقواعد الشريعة، فإن ذلك كفر صريح. **ويجب عليك اعتقاد أن جميع الأولياء إلىٰ يوم القيامة محبوسون في دائرة شريعة محمد ﷺ لا يصل إليهم علم من غيرها أبدًا؛ لأنه ﷺ ممد لجميع الأكوان العلوية والسفلية.**

وقد وقع في سنة سبع وخمسين وتسعمئة أن شخصًا نقل المقالة المتقدمة عن الجنيد ﵁، فبلغ أمره إلىٰ مولانا السلطان سليمان[1] نصره الله، فجمع له المفتين وقضاة العساكر بالروم، وقالوا له: كيف يشهد ألف صدِّيق في شخص أنه زنديق وتقول بولايته؟! فما درىٰ ما يقول، وطالبوه بالنقل الصحيح عن الجنيد، فلم يجد، وقالوا له: إن لم ترجع عن اعتقاد ذلك، ضربنا عنقك؛ فرجع. فإياك يا أخي والدخول في بحر الظلمات، والحمد لله رب العالمين.

(١٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكامل الذي يصلي علىٰ النبي ﷺ أو يسبح ربه بقوله: «سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» أو «اللهم صلِّ علىٰ محمد ﷺ عدد خلقك، ورضا نفسك... إلىٰ آخره» فلاث به بعض المتصوفة وقال: هذا التسبيح والصلاة بالعدد لا يليق بمقام الكمال، وإنما يليق بالمحجوبين عن كمال تنزيه الحقِّ جلَّ وعلا، وذلك لأن صلاة الحقِّ تعالىٰ علىٰ نبيِّه لا افتتاح لها ولا انتهاء، فلا تقبل عددًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل ذلك، لورود العدد في الكتاب والسنة في كيفيات التسبيح والتحميد[2]. وأيضًا فإن الشيخ لا يجهل ما قاله هذا المتصوف، وإنما

---

(١) السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان الحادي عشر من ملوك بني عثمان، ولد سنة ٩٠٠هـ، وكان سلطانًا سعيدًا ملكًا، أيده الله لنصر الإسلام تأييدًا. ولي السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان، واستمر في السلطنة ٤٩ سنة، وهو سلطان غاز في سبيل الله، مجاهد لنصرة دين الله. توفي: ٩٧٤هـ. «النور السافر» (ص: ٢٦٣) «شذرات الذهب» (١٠/ ٥٤٩).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٥٠٠) من حديث سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ علىٰ امرأة وبين يديها نوىٰ - أو حصىٰ - تسبح به، فقال: «أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا - أو أفضل - فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما

مراده بالعدد وقوعه في سؤال العبد كلما تكرر سؤاله للحقِّ تعالىٰ أن يصلي علىٰ رسول الله ﷺ، أو يجعل العدد في جانب الحقِّ تعالىٰ من باب الفرض والتقدير، فهو عبارة عن كثرة صلاة العبد علىٰ نبيه مقابلة كون محصور بكون محصور.

وقد سمعتُ مرة هاتفًا يقول لي: ما صدر منك إلىٰ الحقِّ تعالىٰ من الأقوال والأفعال مقيَّدٌ محصور مكيَّف، وما صدر من الحقِّ تعالىٰ إليك لا يصح وصفه بتقييد ولا حصر ولا تكييف. انتهىٰ. فيحتاج العبد إلىٰ عينين: عين يشهد بها التقييد من جهته، وعين عدم التقييد والتكييف من جهة الحقِّ تعالىٰ، ليحوز مقام الكمال في المعرفة بالله تعالىٰ وبنفسه هو، فإذن حقيقة العدد راجعة إلىٰ العبد لا إلىٰ الله، فقوله في الحديث: «من صلىٰ عليَّ واحدة صلىٰ الله عليه بها عشرًا»[1] من باب المشاكلة والتنزل للعقول، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير الذي مات له ولد عزيز فقال: «يا ربِّ، أشهدك أني قد سامحته بحقِّي الذي كان لي عليه، فسامحه بحقِّك الذي عليه» فلاث به بعض الناس وقال: في هذا الكلام رائحة من سوء الأدب مع الله تعالىٰ حيث جعل مسامحته أصلًا، ومسامحة ربه فرعًا.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا القائل، لاحتمال أن يكون مراده بذلك مناجاة الحقِّ جلَّ وعلا، نظير قوله تعالىٰ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] مع أن الحقَّ تعالىٰ لا يحكم إلا بالحقِّ، فأمر تعالىٰ نبيَّه ﷺ أن يناجي ربَّه بذلك، أي إنك يا رب قد وعدتنا في دار الدنيا أن تحكم بين رسلك وأعدائك بالحقِّ، فكأنه يطالب ربه بما وعده لا غير. إذا علمت ذلك، فمعنىٰ كلام الشيخ المذكور: اللهم إنك قد أخبرتنا علىٰ لسان رسولك أنك لا ترضىٰ عن الولد حتىٰ يرضىٰ عنه والده، وها أنا يا رب قد رضيتُ عنه، فارض يا رب عنه؛ فهو كناية عن قوة إيمان هذا الشيخ بما أخبر الشارع عن ربه من رضاه وسخطه.

خلق بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك» والترمذي (٣٥٦٨)

(١) أخرجه مسلم (٤٠٨) وأبو داود (١٥٣٠).

وهذا من باب قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فإنه جعل ذكره فرعًا عن ذكر عبده، والحمد لله ربِّ العالمين.

(١٨٣) ومما أجبتُ به عن العالم الذي ربَّاه شخص من حين كان طفلًا، وأنفق عليه مالًا كثيرًا حتىٰ صار رجلًا، ثم وقع بينه وبينه عداوة، فأنكر فضله وإحسانه عليه طول عمره، فلاث الناس به وقالوا: ما بقي أحد يستحق أن يُفعَل معه خير في هذا الزمان، وأطالوا لسانهم فيه.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم لأجل إنكاره فضل من رباه، وأنفق عليه المال المذكور، لاحتمال أنه أراد بعدم شكره لمن أحسن إليه توفير الأجر له في الآخرة، إذ الشكر للمحسن معدود عند القوم من جزاء الأعمال، وربما أكثر الإنسان من شكر من أحسن إليه في الدنيا حتىٰ أوفاه جميع أجره في الدنيا، وذهب إلىٰ الآخرة صِفْر اليدين من الأجر المذكور.

ويُحتمَل أيضًا أن يكون هذا ممن غلب عليه شهود ذلك الإحسان الذي حصل له علىٰ يد من رباه من الحقِّ جلَّ وعلا ببادئ الرأي، فلم ير لذلك المحسن جميلَه عليه إلا من حيثُ كونُه رسولًا في حمل تلك الأرزاق إليه، فهو كالقناة التي يجري إليه منها الماء، فالحقيق بالشكر من حفر البئر وأجرىٰ الماء في القناة لا القناة. وكان هذا من مقام عائشة ﷺ في حال قصة الإفك، ثم رقاها الله تعالىٰ إلىٰ شهود شكر الوسائط مع شكر الحقِّ تبارك وتعالىٰ كما عليه الكُمَّل، عملًا بحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[(١)]، سواء كانت الهاء عن الجلالة مضمومة أو مفتوحة، فإنهم قالوا لها حين نزلت براءتها من السماء: «قومي إلىٰ رسول الله ﷺ فقبلي رأسه، فقالت: لا أقوم إلىٰ أحد ولا أشكر إلا الله»[(٢)]. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واسلكوا الطريق، تعرفوا الأجوبة الحسنة عن الإخوان، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤) وأحمد (٧٥٠٤).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاي (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(١٨٤) ومما أجبتُ به عن محمد الغزالي ﵁ في قوله: «ليس في الإمكان أبدع مما كان». انتهىٰ. وقد خبط الناس في ذلك عشواء، وألَّفوا فيه مؤلفات، منهم الشيخ برهان الدين البقاعي[1]، ومنهم شيخ الإسلام صلاح الدين الصفدي، فمنهم من كفَّر حجة الإسلام، ومنهم من جهَّله.

والجواب: أن كلامه ﵁ في غاية التحقيق والعلم، لأنه ما ثم في الوجود إلا رتبتان: رتبة قِدَم، ورتبة حدوث، فالحقُّ تعالىٰ له مرتبة القدم، والعالمُ كلُّه له رتبة الحدوث، فلو خلق الله تعالىٰ مهما خلق دنيا وأخرىٰ، فلا يصح أن يرقىٰ عن مرتبة الحدوث، فـ«ليس في الإمكان أبدع مما كان» فلا يُقال: هل الحقُّ تعالىٰ يقدِر علىٰ أن يخلق قديمًا؟ فإنه سؤال مهمَل مؤذِن بالجهل المحض من صاحبه.

وإن أراد الإمام الغزاليُّ أن كلَّ ما كان في الوجود لا يصح أن يرقىٰ عن مرتبة نقصه أو كماله الذي جعله الحقُّ تعالىٰ له، صح أيضًا، فإن العلم الإلهيَّ إذا تعلق بأمر لا يصح فيه زيادة ولا نقص. وإيضاح ذلك أن العالَم هو معلوم علم الله عزَّ وجلَّ، فلا يمكن أن يخرج عن صورة ما تعلَّق به العلمُ، فلا زيادة ولا نقصان، بل كلُّ شيء كاملٌ في ذاته، فـ«ليس في الإمكان أبدع مما كان». هذا ما فتح الحقُّ تعالىٰ به عليَّ في الجواب[2].

وقد سئل الشيخ العارف بالله تعالىٰ الشيخ محمد المغربي الشاذلي[3] شيخ الجلال

---

(١) إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط برهان الدين البقاعي، الشافعي المحدِّث المفسِّر الإمام العلاّمة المؤرِّخ، ولد سنة ٨٠٩ هـ، من مصنفاته: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، عنوان العنوان، سر الروح وغيرها، ت ٨٨٥ هـ. شذرات الذهب (٩/ ٥٠٩)، الأعلام (١/ ٥٦).

(٢) ومن الأجوبة أيضًا ما ذكره الشيخ الصاوي في حاشيته علىٰ «شرح الخريدة»: «أن المراد بالإمكان إمكان الخلائق، فالمعنىٰ ليس في إمكان الخلائق تغيير ما أراده الله وأبدعه، فالمنفي تعلق قدرة الخلق». وقال الشيخ العلامة بصيلة في «تقريراته علىٰ الصاوي»: «ولك أن تقول: ليس في الإمكان أبدع بحسب ما يسع العقول تفصيلًا وإن حكمت إجمالًا بجواز أبدع، أو أنه خرج مخرج المبالغة ولم يرد حقيقته». انظر: «مجموع حواشي الخريدة» (١/ ٤١٩) دار الإحسان.

(٣) كان ﵁ من الراسخين في العلم. أخذ الطريق عن سيدي الشيخ أبي العباس السرسي تلميذ سيدي محمد

السيوطي عن ذلك، فقال: قول الغزالي صحيح، لأن الله تعالىٰ امتنَّ علينا بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٤٨]، ومعلوم أن الحقَّ تعالىٰ لا يقع منه امتداح إلا لما هو غاية ونهاية، وإلا فكيف يُمتدَح الحقُّ تعالىٰ بمفضول؟! انتهىٰ.

وقد سألتُ مرةً سيدي عليًّا المرصفيَّ ﵀ عن قول الغزالي هذا، فقال: هو كلام صحيح، فإن الوجود خلق الله تعالىٰ، ولا يصدر عن الكامل إلا كامل من حيثُ الحكمةُ الإلهيةُ، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فاعلم ذلك يا أخي، فإنه يُكتب بنور الأحداق، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٥) ومما أجبتُ به عن البيَّاعين الذين يطوفون في الأسواق حال صلاة الجمعة، والذين يمرون علىٰ الناس وهم يصلون بأنه لا ينبغي المبادرة بالإنكار عليهم ممن هو داخلٌ لصلاة الجمعة، أو ممن سلَّم من صلاة الجمعة، بل يبحث المنكِر عن حالهم، فإن رأىٰ لهم عذرًا، سكت وإلا أنكر عليهم، وإن وجد أحدهم جاهلًا علَّمه ثم بعد ذلك ينكر عليه، فربما كان ترك الجمعةَ لجهله بوجوب الجماعة فيها. ومن العذر للطوَّافين حال صلاة الجمعة أن يكون علىٰ أحدهم دين وحلف صاحبه أنه إن لم يوفه اليوم حبسه مثلًا، أو اشتكاه لحاكم لا بصيرة عنده ونحو ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا امتنع من الإفتاء فيما يتعلق بالسلطان أو ولاة بلده، لاسيما إن تعلق ذلك بالفلاحين، وعصىٰ أحدهم بسبب تلك الفتوىٰ عن وزن مال السلطان، ولاث العامة بذلك العالم بسبب ذلك، فإنه يجب حمله علىٰ عذر شرعي لو عرضه علىٰ أصحاب العقول لعذروه في مثل ذلك. وليس كلُّ عذر يقدر العالم أن يبديه، فإياك يا أخي من المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من امتنع من الفتيا، فإن لحوم العلماء سمٌّ

الحنفي ﵁، وكان من أولاد الأتراك، وإنما اشتهر بالمغربي لكون أمه تزوجت مغربيـًا، وكان الغالب عليه الاستغراق ﵁، وكان بخيلًا بالكلام في الطريق عزيز النطق بما يتعلق بها، توفي: في شهر ربيع الأول ٩٢٢هـ. «الطبقات الكبرىٰ للشعراني» (٢/ ١٠١).

قاتل، وهم أعلم منك بأحكام الشريعة، والله أعلم.

(١٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا حجَّ في محفة[1] ولاث به الناس وقالوا: إن ذلك مخالف لحديث: «المحرم أشعث أغبر» بأنه ربما كان له عذر في ركوبها، وأن المَحَارَة[2] لا تكفيه في مد رجليه، أو لا يقدر علىٰ الصلاة فيها قائمًا مثلاً لو خاف خروج الوقت إن نزل في مضيق كالعقبة، أو لم يجد ما يعادله في المحارة، أو خاف من وقوع حمله، أو ضياع حوائجه إن نزل، ونحو ذلك من الأغراض الشرعية. ولا يجوز حمله علىٰ طلب الرفاهية أو التكبر. ومن شك في العذر، فله أن يسأل صاحب تلك المحفة ويأخذ منه الجواب، ويبني عليه مقتضاه ظاهرًا، وليس له أن ينازعه في نيته، مع أن ركوب المحفة بلا عذر جائز شرعًا، فالأمر سهل. فاحمل يا أخي العلماء والأولياء علىٰ المحامل الصحيحة حسب الطاقة، فإن ثوابَ حجتك كلّه لا يرضىٰ به من أساءت الظن به يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٨) ومما أجبتُ به عن فقيه يقرأ القرآن أو فقير يذكر الله في الليل جهرًا إذا كان جاره أميرًا أو غنيًّا، ولاث به جيرانه الفقراء من الدنيا وقالوا: إنه لا يجهر بالقراءة أو الذكر إلا ليستمطرَ بذلك البرَّ والإحسانَ من جاره: بأنه قد يكون غافلًا عن مراعاة جاره مطلقًا، وإنما جهر ليُسْمِعَ الجنَّ أو الملائكةَ الكرامَ الكاتبين، فإنه ما ثم شيء أحب إلىٰ الجن والملائكة من سماع القرآن والذكر أبدًا. وهذا يقع لي في الليل كثيرًا، فأجهر بالقرآن، فأحسُّ بالجنِّ يدخلون من طيقان البيت وشبابيكه، فإذا فرغت من الذكر أو القراءة، أحسُّ بخروجهم

---

(١) المِحفة: قال في «لسان العرب»: المحفة مركب كالهودج إلا أن الهودج يقبب والمحفة لا تقبب. قال ابن دريد: سميت بها لأن الخشب يحف بالقاعد فيها أي يحيط به من جميع جوانبه». والذي يظهر لي من خلال قراءة نص الإمام الشعراني هذا. وبعد مراجعتي لبعض اللوحات التي رسمها بعض المستشرقين أن «المحارة» هي المحمل الذي يكون علىٰ بعير واحد، أما المحفة فتكون محمولة علىٰ جملين أحدهما أمام الآخر، بحيث تكون محمولة بينها، ولذلك تكون أرحب وأوسع.

(٢) المحارة: محمل الحاج، كالهودج.

بتزييق الأبواب. وكذلك الحكم فيمن يقرأ القرآن في حانوته أو ماشيًا أو راكبًا أو يذكر الله تعالىٰ جهرًا طول نهاره، يجب حمله علىٰ أنه إنما يفعل ذلك لينبه الغافلين عن الله، ولتنزل الرحمة علىٰ أهل السوق أو الناس الذي يمرُّ عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(١٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم إذا صلىٰ في الصف [الأخير][1] وترك الأول وما بعده لغيره، ولاث الناس به وقالوا: الإيثار في القرب الشرعية مكروه: بأنه ربما كان لذلك العالم أو الفقير عذر صحيح يمنعه من الوقوف في الصف الأول مثلًا، ولا ينبغي لأحد حمله علىٰ أنه ترك الصف الأول مثلًا تهاونًا بالسنة أو بالثواب.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد شيخ الطريق، وكذلك سيدي محمد الغمري[2]، وسيدي مدين، وسيدي علي الخواص وغيرهم يصلُّون دائمًا في آخر صف ويقولون: إن الرحمة تستقر علىٰ [أهل][3] الصف الأخير، فإن الرجل إذا غُفِر له، غُفِر لمن خلفه.

وقالوا يومًا لسيدي أحمد الزاهد: قد قال رسول الله ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها»[4]. فقال: هذا لا ينافي ما نحن فيه، فإن مراد الشارع بالرجال هنا الكُمَّلُ من الأولياء، فمن شهد في نفسه الكمال في مراتب الإيمان والإحسان، فليتقدم. وأما أنا فلم أشهد في نفسي إلا النقص، وقد قال ﷺ أيضًا: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[5]، وقال ﷺ: «صفوا كما تصف الملائكة

---

(١) زيادة من عندنا اقتضاها السياق.

(٢) شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن عمر بن أحمد الواسطي ثم الغمري الشافعي. ولد سنة ٧٨٦هـ بمنية غمر، ونشأ بها فحفظ القرآن، و«التنبيه» ثم قدم القاهرة فأقام بالجامع الأزهر للاشتغال مدة، من مصنفاته: «النّصرة في أحكام الفطرة» و«محاسن الخصال في بيان وجوه الحلال» و«الانتصار لطريق الأخيار» ت ٨٤٩هـ. «شذرات الذهب» (٩/ ٣٨٦)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٨).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه مسلم (٤٤٠) وأبو داود (٦٧٨) والترمذي (٢٢٤).

(٥) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٣٢) وأبو داود (٦٧٤) وابن ماجه (٩٧٦).

بين يدي ربها»(١). انتهىٰ. فما أمر ﷺ بالصلاة خلفه في الصف الأول إلا أولي الأحلام -يعني البالغين- وأولي العقول -يعني الزهاد في الدنيا- فإن في حديث الترمذي: «الدنيا دار من لا دار له، يجمعها من لا عقل له»(٢) فنفىٰ ﷺ العقل عمَّن يجمع الدنيا ولا ينفقها في سبيل الله تعالىٰ شحًّا وبخلًا، وأحدُنا لا يخلو عن جمع شيء من الدنيا عنده، ولا عن منع المحتاج إليه، فلسنا من أهل الصفوف الأُوَل. وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ: لو أوصىٰ رجل بمال لأعقل الناس، لصرفته إلىٰ الزهاد في الدنيا.

وقوله في الحديث: «صفوا كما تصف الملائكة عند ربها»(٣) أي في التقدم والتأخر، أي فكما لا يتقدم آحاد الملائكة كملائكة التسخير علىٰ أكابرهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، فكذلك لا ينبغي لمن يعلم من نفسه رقة الدين أن يتقدم علىٰ غيره من المسلمين الذين لم يظهر عليهم شيء من صفات النقص، وكلُّ مؤمن يجب عليه أن يرىٰ غيره من المسلمين أفضل منه، كما درج عليه السلف الصالح والعلماء العاملون.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: لا ينبغي أن يصلي بالوليِّ إلا الولي، فقد بلغنا أن شخصًا من أئمة بني إسرائيل تقدَّم للصلاة، فإذا بقائل يقول له: لا تتقدم علىٰ من هو أفضل منك، فتأخر ذلك الشخص. انتهىٰ.

وقد قالوا: ما اجتمع ثلاثة إلا وكان منهم ولي لله عزَّ وجلَّ، لأنه تعالىٰ قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ومعلوم أنه لا يجالس إلا أولياءه دون أعدائه. انتهىٰ.

فقد علمت أنه لا يتقدم بين يدي الملوك عادة إلا أكابر أهل حضرتهم من العلماء العاملين، فمن علم من نفسه أنه منهم فليتقدم، هذا ما عليه أشياخ الطريق. وأما طائفة الفقهاء فوقفوا علىٰ ظاهر الحديث، وأمروا بالمسابقة إلىٰ الوقوف في الصف الأول

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٣٠) بنحوه، وأبو داود (٦٦١) والنسائي (٨٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤١٩) وابن أبي شيبة (٣٥٧٠٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٥٣).

(٣) تقدم تخريجه.

مطلقًا ولو للعامة، فلكل رجال مشهد.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إنما قال ﷺ: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ»[1] ليحفظوا أقواله وأفعاله، وينقلوها إلىٰ من بعدهم[2] من الأعراب وغيرهم ممن لا يحسن أن ينقل أفعاله ﷺ وأقواله علىٰ وجهها إلىٰ الناس، وكان ذلك الزمان زمان تنزل الأحكام، فلما استقرت الأحكام، كان الحكم بحسب الأفهام، فمن الناس من جعل للأئمة بعده ما كان له ﷺ من طلب القرب منه في الصلاة، ومن الناس من قال: زال ذلك الحكم الذي كان لرسول الله ﷺ، وصار بعض المأمومين أعلم بالشريعة من الإمام. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من رأيتموه من العلماء أو الفقراء يصلي في الصف الأخير، فربما كان الحامل له علىٰ ذلك الحياء والخجل من الله عزَّ وجلَّ، أو من رسول الله ﷺ، خوفًا أن يخالف قوله ﷺ: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهىٰ»[3] فإنه لم يأمر ذلك إلا كُمَّلَ الرجال والعقلاء الزاهدين في الدنيا، ومن لم يكن زاهدًا فيها، فهو يرىٰ نفسه بعين النقص، فلا حرج عليه في صلاته في غير الأول.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي أن يتقدم للصلاة في الصف الأول أو الثاني أو الثالث مثلًا إلا من علم من نفسه يقينًا أنه أقلُّ ذنوبًا ممن يصلي أمامه، فإن علم من نفسه أنه أكثرهم ذنوبًا أو شكَّ في ذلك، فليتأخر إلىٰ الصف الذي يليهم أدبًا.

وسمعتُ أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: حكم أكابر الرجال إذا وقفوا في الصلاة بين يدي الله عزَّ وجلَّ حكم المجرم إذا فسق وأتوا به إلىٰ الوالي، فهو يتمنىٰ أن الأرض تبتلعه ولا يقف بين يديه حياءً منه وخجلًا من الناس، فلا يزال يرعد من هيبة الوالي حتىٰ يحصل منه العفو والمسامحة، وكذلك حكم الكُمَّل من أولياء الله تعالىٰ، ولله المثل الأعلىٰ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٣٢)، وأبو داود (٦٧٤).

(٢) بالأصلين: بعده. والصواب ما أثبتناه.

(٣) تقدم تخريجه.

ففتش نفسك يا أخي وقت كلِّ صلاة، فإن وجدت نفسك لم تقع في ذنب طولَ عمرك، فتقدم للصف الأول، وإلا فظل في الصف الثاني وما بعده، بحسب مشهدك في نفسك الوقوع في المعاصي قلة وكثرة، ولا تلبس علىٰ نفسك، فإن الناقد بصير، ومن ظنَّ بنفسه أن ذنبه غُفِر له حين تقادم عهدُه، فهو كالمتهور في دينه، فقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام في حقِّ عاصٍ من عصاة بني إسرائيل كان تاب إلىٰ ربه، ومكث سبعين سنة لا يأكل دسمًا ولا ينام مضطجعًا: «يا داود، قل لفلان العابد: ما لي لا أراك تبكي مع الباكين، ولا تنوح مع النائحين علىٰ ذنوبك الماضية؟ أتظن أنني قد غفرت لك؟ بأي دليل وصل ذلك إليك؟» وفي رواية: «أتظن بتقادم عهدك بالذنوب، وحلمي عليك، وعدم معاجلتك بالعقوبة عليها أني قد غفرت لك؟ فأي ملَك أخبرك عني بذلك؟ وما يدريك أني [غير][1] ساخط عليك إلىٰ يوم تلقاني؟! انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: كثيرًا ما يذنب العبد الذنب العظيم أيام صباه، فيظنُّ بنفسه أيام شيخوخته أن ذلك الذنب قد غفره الله له، والحال أن الحقَّ تعالىٰ لم يزل ساخطًا عليه إلىٰ ذلك الوقت. وربما يصير هذا الشيخ يزاحم علىٰ الوقوف في الصف الأول، نظرًا لكونه طعن في السن وينسىٰ ذنبه، وما هكذا درج السلف الصالح، فكان أحدُهم إذا وقع في ذنب لا يزال ذا حياء وخجل من ربِّه حتىٰ يموت ويجاوز الصراط.

وبالجملة، فالأدب من أمثالنا مطلوب مع العلماء والصالحين الذين يصلون في غير الصف الأول وما يليه إلىٰ الأخير، مع قدرتهم علىٰ التقدم إلىٰ ما أمامه. ولا يجوز حملهم علىٰ أنهم يفعلون ذلك رغبةً عن السنة، أو تهاونًا بأمر الشارع، فقد رأيتُ غالب أهل العلم في الجامع الأزهر يصلون في أماكنهم في الأروقة وغيرها من غير نكير فيما بينهم، وإنما ذلك لحملهم بعضهم بعضًا علىٰ أعذار مقبولة في الشرع إن شاء الله تعالىٰ.

(١٩٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح إذا أكثر من التردد إلىٰ الأمراء والعمَّال[2]

---

(١) زيادة ضرورية اقتضاها السياق.

(٢) أي الولاة ونحوهم.

وقضاة العساكر[١] مثلاً، ولاث الناس بعرضه بسبب ذلك: بأن ذلك مبني علىٰ النية والقصد، أو التصريح لنا بقصده ولم يُعرف قصده هذا هل هو لقصد الدنيا أو لقصد الآخرة، ولا صرح لنا بقصده فما بقي إلا سوء الظن به[٢]، وذلك لا يجوز شرعًا. ولأي شيء لا يحمل العبد أخاه علىٰ وجوه الخير؟! كأن دخل لذلك الأمير أو جالس ذلك العامل وألان له القول ليميل إليه بالمحبة، فيصير يقبل شفاعاته في المظلومين، أو دخل عليه ليحوِّطه في جميع أحكامه بآيات الله تعالىٰ [وكلماته التامة حتىٰ لا يزيغ عن الشريعة في أحكامه، وحتىٰ لا يعاجله الله تعالىٰ][٣] بالعقوبة إذا زاغ، ونحو ذلك من المحامل الحسنة.

وقد رأيت سيدي عليًّا الخواص مع تمكنه في مقام الولاية كثيرًا ما يهدي إلىٰ الظلمة قدور العسل النحل والغنم والأوز دون الفقراء من جيرانه، ويقول: إنما نعطي الظلمة، ليصير أحدهم يقبل شفاعتنا في المظلومين، وإنما نمنع الفقراء رحمةً بهم وشفقةً عليهم أن ينقص مقامهم في الفقر بأكل لحم الضأن والعسل النحل مثلًا. وربما كان ذلك من شبهة، فنشفق علىٰ أجسامهم من النار. انتهىٰ.

وقد كان سيدي عبد القادر الدشطوطي ينام في بيوت الظلمة وحاشيتهم، وإذا سلَّم علىٰ أحد منهم، ضمَّه إلىٰ صدره وقبَّله، ولا يفعل ذلك مع الفقراء، فقيل له في ذلك، فقال: الفقير لا يظلم أحدًا ولا يشوش عليه، بخلاف الأمراء وحاشيتهم، فإننا نستميل خاطرهم إلينا، ليقبلوا شفاعتنا، والأعمال بالنيات. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(١٩١) ومما أجبتُ به عن العلماء والفقراء إذا دخل أحدهم مواضع المكوس والخمور والحشيش وبنات الخطا، وجالس أهل هذه المعاصي، ولاث الناس بعرضه: أنه يجب

---

(١) عرف هذا اللقب الوظيفي في مصر في العصر العثماني حين ألغىٰ سليمان القانوني مناصب القضاة الأربعة، وأحل محلهم منصب قاضي العسكر يعاونه نوَّاب من كل مذهب. انظر «الألقاب والوظائف العثمانية» د. مصطفىٰ بركات، (ص١٣٤).

(٢) هكذا الموضع في الأصل.

(٣) ساقط من «ب».

علىٰ كلِّ مسلم يخاف علىٰ دينه أن يحمله علىٰ أنه ما دخل هذه المواضع وجالس أهلها إلا ليميل خاطرهم إليه، حتىٰ يقبلوا منه النصح ويأتمروا بمعروفه، فإن أهل هذه المعاصي لم يزل بينهم وبين العلماء النفرة وعدم المحبة، لأنهم في حجاب عن طريق الهدىٰ، وقلوبهم في أكنة لا يصغون إلىٰ كلام ناصح، لينفذ الله تعالىٰ فيهم قضاءه وقدره، فيجب حمل كلِّ من دخل علىٰ هؤلاء من العلماء والصلحاء أنه إنما دخل أماكنهم ليعظهم ويخوفهم من عذاب الله، أو ليحوِّطهم من نزول البلاء وحلول العقوبات بهم، لاسيما ومن شأن العالم أو الصالح تبرئته من المعاصي، ويبعد وقوعه في الزنا أو شرب الخمر أو بلع الحشيش، أو تقريره العصاة علىٰ فعل ذلك، ووقوعه في هذه المعاصي أبعد من البعيد، فما بقي إلا وجوب حمله علىٰ المحامل الحسنة، ولأي شيء يلوث الناس بعرضه، ويحملونه علىٰ الوقوع في الأمور البعيدة من حاله، ويتركون الأمور الظاهرة منه؟!

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا رأينا امرأة من بنات الخطا تدخل وتخرج بيت أحد من إخواننا من العلماء والفقراء والأمراء والمباشرين[1] والتجار وغيرهم، فلا يجوز لنا اللوث بعرض أحد منهم وحمله علىٰ أمر مذموم، بل يجب علينا حمله علىٰ أن بنت الخطا إنما دخلت لعياله لحاجة لها عندها، أو دخلت لها تسألها أن تقول لزوجها يشفع فيها عند الوالي، أو ليدعو لها بالتوبة ونحو ذلك، كما سيأتي بسطه في مواضع، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي يضطرب قلبه إذا قلل الله تعالىٰ عنه الرزق، ولاث به الفقراء وقالوا: هذا أمر يقدح في الإيمان والتوكل، وهو نقص كبير في العلماء.

والجواب: أن اضطراب قلب المؤمن في أمر رزقه لا يقدح في إيمانه، وإنما يقدح في كماله فقط الكمال النسبي بالنظر إلىٰ كلِّ ذات، وذلك لأن اضطراب القلب لا يقدح في الإيمان إلا إن كان صاحبه متهِمًا للحقِّ جلَّ وعلا أنه يضيعه. أما إذا كان الاضطراب ليس

(١) المباشر: الموظف الإداري في الدولة المملوكية.

معه تهمة، فذلك لا يكاد يخلص منه إلا الكُمَّل علىٰ خلافٍ في ذلك، إذ الجزء البشري يدق في الكامل ولا ينقطع، وما خرج عن ذلك سوىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد صرح الشيخ محيي الدين في باب الجنائز من «الفتوحات» بأن اضطراب قلب المؤمن في أمر رزقه لا يقدح في إيمانه، لأن هذا الاضطراب ليس هو عن تهمة للحقِّ تعالىٰ بأنه لا يرزقه، وإنما هو لاضطراب البشرية، لعدم الصبر وللإحساس بألم الفقد، فهو يعلم بالإيمان أن الله تعالىٰ يرزقه [ولا بد من حيثُ كونُه حيوانًا، وأنه لا يموت حتىٰ يستكمل رزقه، ولكن الله تعالىٰ لم يعلمه متىٰ يأتيه رزقه][1]، ولم يطلعه عند فقد السبب الجالب للرزق هل فرغ وجاء أجله، فيكون فزعه من الموت، فإن للموت فزعًا، أم رزقه لم يفرغ في علم الله، فيكون اضطراب قلبه لجهله بوقت حصول الرزق بانقطاع السبب، فيخاف منه المرء الجوع المتوقع، أو من دوامه إن كان وقع، فهذا سبب الاضطراب. انتهىٰ[2].

وقال في الباب الثامن والسبعين وأربعمئة من «الفتوحات» في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]: اعلم أن الحقَّ تعالىٰ لابد أن يوصل إلىٰ كلِّ مخلوق رزقه الذي قسمه، وليس ذلك من إهانة العبد عليه تعالىٰ ولا كرامته كما قيل، فإن الله تعالىٰ يرزق البر والفاجر، والمكلَّف وغير المكلَّف. وغاية اعتنائه تعالىٰ بالعبد أن يرزقه حلالًا لا شبهة فيه، ويستخلص له الحلال كما يستخلص اللبن من بين فرث ودم، قال تعالىٰ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، والبقية هو كلُّ ما حل لكم تناوله من جميع الأشياء التي تقوون بها علىٰ طاعة ربكم. وليس رزق العبد إلا ما تقوم به نشأته، وتدوم به قوته وحياته، لا ما جمعه وادخره، فإن هذا قد يكون لغيره، وحسابه علىٰ جامعه. انتهىٰ.

وقال في الباب الثامن والثمانين وأربعمئة في قوله تعالىٰ: ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] : اعلم أن رزق ربك هو ما أعطاه لك مما أنت عليه في وقتك. وأما ما لم يعطه

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٦٩).

لك ففيه تفصيل: فإن كان لك فلابد من وصوله إليك؛ وما ليس لك فلا يصل إليك قط، فلا تتعب نفسك في غيرمطمع.

قال: ومرادنا بقولنا: «إن كان لك» أن تأخذه على الحد المشروع، فإن ما أُخِذ من حرام لا ينبغي إضافته إلى الله تعالى أدبًا، وإنما يُضاف إلى الطبع. انتهى.

[تأويل لمذهب المعتزلة في الرزق الحرام]

قلتُ: ولعل هذا مراد المعتزلة في قولهم: إن الحرام ليس برزق، أي يضاف إلى الله تعالى، فإن غالب خطأ الفرق الإسلامية إنما هو خطأ إضافيٌّ لا مطلق، فما منع أكابر المعتزلة من إضافة الزرق الحرام إلى الله تعالى إلا من باب ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ومن باب حديث: «والخير كله في يديك، والشر ليس إليك»[1] أي لا يُضَاف إليك على وجه التشريف، ويُضَاف إليك بحكم الخلق والقسمة. والذي نعتقده في المعتزلة أنهم يعتقدون أن الله تعالى خالق رزق العباد وقاسمه لهم من حلال وحرام، بل اليهود والمجوس كلهم يعتقدون ذلك، فكيف تظنُّ بمثل الإمام الزمخشريِّ أن يعتقد أن الله تعالى ليس برازق للعبد الذي تغذى بالحرام وهو يشاهد عجز نفسه عن تحصيل ذرة من رزقه إلا إن قسمها الله له؟! ولم يزل المتأخرون من العلماء ينصبون الخلاف بينهم وبين أخصامهم بلازم المذهب والقول، ولازم المذهب ليس بمذهب على الراجح.

وقد سمع سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله فقيهًا يقول في دعائه: اللهم أغنني بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك؛ فنهاه عن ذلك، وقال: قل: بالحلال عن الحرام، وبالطاعة عن المعصية، من غير إضافة. فقال له الفقيه: إن هذا هو لفظ الحديث! فقال: صحيح، ولكنه لبيان الجواز، بقرينة قوله ﷺ: «والشر ليس إليك»[2]، وقول الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأضاف المرض إلى نفسه من حيثُ إن

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٧١) أبو داود (٧٦٠).

(٢) تقدم تخريجه.

بروحه علىٰ الاسم «الكريم» كان كريمًا، أو علىٰ «الحليم» كان حليمًا، أو علىٰ الاسم «الغفور» كان غفورًا، أو علىٰ الاسم «الرحيم» كان رحيمًا وهكذا، فلا ترجع روح الولي من ذلك الإسراء إلا وقد تخلقت بما قُسِمَ لها من الأخلاق الحسنة، فيتعجب الناس من مثل ذلك، لسرعة رقيه إلىٰ المراتب العالية في ليلة، كأن يكون عهدهم به بخيلًا، فيصبح من أكرم الناس، أو راغبًا في الدنيا [فيصبح][1] من أزهد الناس، أو جاهلاً فيصبح من أعلم الناس وهكذا. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٤) ومما أجبتُ به عن الأئمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين في اختلافهم في الأحكام التي فهموها من الكتاب والسنة، وذلك بتوجيه كلام كلٍّ واحد منهم، ورد كلامه إلىٰ الكتاب والسنة، وبيان أنهم لم يخرجوا عن الشريعة في شيء، وأن الشريعة تشملهم وتعمهم، والكلام علىٰ ذلك يستدعي مجلدات، ولكن ندلك يا أخي [علىٰ][2] نبذة صالحة في الطهارة وآلاتها، والصلاة ومتعلقاتها، غير مستوعبين لمسائل الخلاف كلِّها، لتقيس علىٰ ذلك غيره، فأقول وبالله التوفيق:

وجه من قال: **«إن الطهارة لا تصح بالماء المستعمل في فرض الطهارة»**: أن الخطايا خرت فيه كما وردت به الأحاديث[3]، وما خرت فيه الخطايا فهو مستقذر حسًّا وشرعًا، فلا ينبغي لمؤمن أن يتطهر به، لأن من شأن مقام الطهارة أنها تزيد الجسد نظافة وتقديسًا، والطهارةُ من غسالة الخطايا تزيد الجسد تقذيرًا، فلو كُشف للعبد، لرأىٰ الماء المستعمل في الميضأة التي يردُّها الناس كالذي وقع فيه جملة من الحيوانات الميتة

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٢) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٣) منها ما أخرجه مسلم (٢٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء -، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء -، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء - أو مع آخر قطر الماء - حتىٰ يخرج نقيا من الذنوب» والترمذي (٢).

كالكلاب والحمير وسائر الحيوانات علىٰ اختلاف طبقاتها، إذ هي مثال للمعاصي التي خرت في الماء من زنا ولواط وشرب خمر، وغيبة ونميمة ومواقعة في الناس، ونحو ذلك من كبائر وصغائر ومكروهات.

فرحم الله الإمام أبا حنيفة ﷺ حيثُ جعل غسالة الطهارة فيها ثلاثة أقوال، كلُّ قول منها مثال لذنب، **فأحد الأقوال** أنها كالنجاسة المغلظة، وهو مثال لغسالة الكبائر؛ **ثانيها**: أنه كالنجاسة المتوسطة، وهو مثال للصغائر؛ **ثالثها**: أنه كالنجاسة المخففة، وهو مثال للمكروهات. ومعلوم أن خطايا المكلَّف لا تخرج عن هذه الثلاثة، فوجه كونها كالنجاسة المغلظة الأخذ بالاحتياط، فيجعل غسالة ذلك المتوضيء كأنها كبائر. [ووجه كونها كالنجاسة المتوسطة كون الغالب علىٰ الناس الوقوع في الصغائر دون الكبائر][1]. ووجه كونها كالنجاسة المخففة حمل ذلك المتطهر علىٰ أنه ارتكب المكروه إحسانًا للظن به دون الكبائر والصغائر. ووجه كونها طاهرة في نفسها غير مطهِرة لغيرها -كما قال به الإمام الشافعي- حمل ذلك المتطهر علىٰ أنه ارتكب خلاف الأولىٰ فقط، ومثل ذلك لا تكون غسالته نجاسة مخففة فضلًا عن المتوسطة والمغلظة.

فعُلِمَ أن الأئمة ما بين مبالغ في الاحتياط، وما بين متوسط، وما بين مخفف. ويؤيد هذا التقسيم المذكور في الغسالة قولُه ﷺ لعائشة لما قالت لرسول الله ﷺ: «حسبك من صفية -يعني قصيرة- فقال: لقد قلتِ كلمة لو مزجت بماء البحر لَمَزَجَتْهُ»[2] أي لو قُدِّرَت جسمًا وطُرِحت في البحر، لغيرته كلَّه وانتنته، فإذا كان مثل هذه الكلمة تغير ماء البحر هذا التغير العظيم، فكيف بالذنوب العظيمة إذا خرجت في ميضأة صغيرة أو كبيرة عرفًا؟!

فرحم الله مقلدي الإمام أبي حنيفة حيثُ لم يتطهروا من الفساقي التي تردُّها الناس في المساجد، وجعلوا الطهارة بما لم يُستعمل كماء الآبار، أو ما يصبُّ في الحوض المغطَّىٰ ويخرج الماء منه من خرق صغير، فإن ذلك في غاية النظافة والحياة

---

(١) ساقط من «ب».

(٢)جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤٨٧٥) والترمذي (٢٥٠٢) وأحمد (٢٥٥٦٠).

لأعضاء الطهارة، لاسيما أعضاء أمثالنا الذين أشرفت أعضاؤهم على الموت من كثرة المخالفات، فهيهات أن ينعشها الماء الذي لم يُستعمَل! وبالجملة فما فعلوه أولىٰ بكل حال، فإنه إن كان هناك ضعف للجسد، قوي وانتعش، وإن لم يكن ضعف، ازداد حسنًا ووضاءة.

وقد كان سيدي علي الخواص لا يتوضأ من فساقي المساجد أبدًا، مع كونه كان شافعيًّا، ويقول: إنها قد تقذرت من الخطايا. وسمعتُه يقول: كان الإمام أبو حنيفة من أهل الكشف، فكان يرىٰ غسالة الخطايا ويميز بعضها عن بعض، ويميز غسالة المكروه عن خلاف الأولىٰ، وغسالة خلاف الأولىٰ عن الأولىٰ. انتهىٰ. هكذا فلتعرف منازع أقوال الأئمة الذين جعلهم الله تعالىٰ قدوة للعباد. انتهىٰ. فقلتُ له: فما الحكم في الماء الذي توضأ منه صبي أو من أسلم قبل الوضوء ولم يذنب؟ فقال: هو مستعمل، وحكمه أنه طاهر في نفسه غير مطهر لغيره، وإن رأىٰ صاحب الكشف فيه تقذيرًا فهو من حيثُ ذنوبُ الأرواح، فإنها مكلَّفة من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢] بتكليف خاص لا يعرفه إلا أهل الكشف.

[وجه من جوَّز الطهارة بالماء المستعمل]

فقلتُ له يومًا: فما وجه من جوَّز الطهارة بالماء المستعمل؟ فقال: وجهه أن تقذير الماء بالخطايا المعنوية أمر غير مشهود لعامة المؤمنين، ولا يعرف ذلك إلا أهل الكشف، فمن كُشِف له عن تقذير الماء بالخطايا، امتنع من الطهارة به، ومن لم يُكشَف له فهو عنده نظيف، فله التطهر به، ويؤيد ذلك حديث: «خلق الله الماء طهورًا»[1] أي يُتطَهر به المرة بعد المرة عند من يرىٰ جواز الطهارة به. وكان سيدي عليًّا الخواص يقول: مادام الماء ينبت الزرع، فالطهارة به صحيحة. انتهىٰ، ويصح تنزيله علىٰ كلام أهل الظاهر.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، وأشار إلىٰ حديث أبي سعيد الخدري الذي أخرجه أبو داود (٦٦) «الماء طهور لا ينجسه شيء» والترمذي (٦٦) وابن ماجه (٥٢٠).

[وجه من جوَّز إزالة النجاسة بالمائعات من غير الماء]

وأما وجه من جوَّز إزالة النجاسة بالمائعات[1] فهو بالقياس علىٰ طهارة النعل المتنجس بانسحاق النجاسة بالتراب أو الرمل أو الحجر ونحو ذلك، كما ورد أن النعل المتنجس يطهره ما بعده من التراب الذي يمشي عليه[2].

[وجه من منع الوضوء والغسل من الماء المعتصَر من الأشجار ونحوها]

وأما وجه من منع الوضوء والغسل وإزالة النجاسة بالماء المعتصَر من الأشجار والنبات وإن كان أصله مستفادًا من الماء الطهور فهو لكون الطهارة ما شُرِعت إلا لإنعاش[3] الأعضاء مما حصل لها من المعاصي والغفلات من الموت أو الضعف أو الفتور، ليقوم العبد إلىٰ مناجاة ربه ببدن حي، ومعلوم أن الماء المعتصَر من الأشجار والنبات ضعيف الروحانية، فإن الروحانية التي كانت فيه قد انتقلت إلىٰ الحَبِّ والنواة والأغصان والورق، حتىٰ امتدت وكبرت واخضرت، فلذلك ضعفت روحانية ذلك الماء المعتصَر، وصار لا ينعش بدنًا. ومن شك في قولي، فليجرب من غير أن يصلي به شيئًا.

وكذلك القول في الماء المستعمل كماء الفساقي مع ماء النهر أو البئر ونحوهما، فإن المتطهر يحس بانتعاش بدنه بالماء الذي لم يُستعمَل أكثر من انتعاشه بغيره، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

[وجه من منع صحة الطهارة بالماء الذي لم يُذكَر اسم الله عليه]

وأما وجه من منع صحة الطهارة بالماء الذي لم يُذكَر اسم الله عليه فهو لأن كلَّ ما لا يُذكَر اسم الله عليه، فهو كالميتة وليس فيه بركة. وأما من حمل قوله ﷺ: «لا وضوء لمن

---

(١) هو مذهب أبي حنيفة في رواية عنه، وإليه ذهب أحمد بن حنبل.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٨٥) من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وطيء أحدكم بنعله الأذىٰ، فإن التراب له طهور» وابن حبان (١٤٠٤)، والحاكم (٥٩١).

(٣) بالأصلين: لإنعكاس. والصواب ما أثبتناه.

لم يذكر اسم الله عليه»[1] علىٰ الكمال فوجهه واضح، كحديث: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»[2]، وحديث: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[3] فأصل الترتيب سنة ثابتة، ونهض به إلىٰ الوجوب الاجتهاد، فالأئمة بين مخفِّف ومشدِّد في ذلك.

وأما وجه من أوجب الترتيب والمضمضة والاستنشاق في الوضوء أو الغسل لا بحدث الأكبر فهو أن الوضوء الذي لم يُرتَّب لم يُنقَل إلينا فعله عن رسول الله ﷺ، وقد قال في الحديث الصحيح: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[4].

وأما وجه من لم يوجب الترتيب فهو أن المقصود كون المصلي لا يقوم للصلاة مثلًا إلا بعد كمال طهارة تلك الأعضاء، سواء أتقدم هذا أم تأخر، [وكان عليٌّ رضي الله عنه يقول: لا أبالي بأي أعضاء الوضوء بدأت][5].

وأما وجه وجوب المضمضة والاستنشاق فلأن معاصي الفم واللسان أكثر من معاصي غيرهما، لحديث معاذ: «وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» والآيات والأخبار في إثم أكل الحرام كثيرة في الكتاب والسنة. وأما معاصي الأنف فأظهرها شم ما لا يجوز للعبد شمه، وكونه محلًا يظهر منه الأنفة والكبر، فالترتيب ثابت بالسنة أولًا، ثم نهض به إلىٰ الوجوب الاجتهاد، وكذلك المضمضة والاستنشاق.

وأما وجه من أوجب غسل الأذنين، فلكونهما طريقًا إلىٰ وصول سوء الظن بالناس، من حيثُ ما يسمعانه من نقائص الناس، فكانت معصيتهما ذلك. ولما نظر الشارع إلىٰ طريق كونهما طريقًا لما ذكرنا، فقد خفف عن أمته بمسحهما.

وأما وجه من أوجب الموالاة من حيثُ الاعتبارُ والحكمةُ فهو أن الطهارة إنما شُرِعت

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود (١٠١) والترمذي (٢٥) والنسائي (١٦٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٥) ساقط من «أ».

لإنعاش البدن الذي مات أو ضعُف أو فتر -كما ذكرنا آنفًا- من المعاصي أو الشهوات أو الغفلات، فلو لم تجب الموالاة، لأدَّىٰ ذلك إلىٰ زيادة البطء في زمن الطهارة، كأن يغسل المكلَّف وجهه بعد الصبح، ثم يغسل يديه قبل الزوال، أو قبيل خروج وقت الظهر، مع وقوعه في الغيبة والنميمة والاستهزاء بالناس والسخرية بهم، وكثرة الضحك وكثرة أكل الشهوات، وطول زمن الغفلات، فمثل هذا الوضوء وإن كان صحيحًا في ظاهر الشرع من حيثُ إنه صدق عليه أنه وضوء كامل، فكأن صاحبه لم يتوضأ، لموت الأعضاء أو ضعفها أو فتورها بما وقع فيه من المحرمات والمكروهات فيما بين غسل تلك الأعضاء من ابتداء الوضوء إلىٰ انتهائه، فذهب بذلك حكمة الوضوء من إنعاشه البدن قبل الوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فالمولاة من أصلها سنة، ونهض بها إلىٰ الوجوب الاجتهاد.

وأما وجه من قال: «إن النية لا تجب في الوضوء والغسل عن الجنابة والحدث، وتجب في التيمم» فهو لكون الماء له قوة، فيحيي بطبعه الجسد، وإن لم يكن بنية، بخلاف التراب، فإنه ضعيف الروحانية، فاحتاج إلىٰ نية تقوية للهمة، [والهمة][1] من شأنها أن تؤثر فيما قابلها.

وعمدة من لم يوجب النية في الوضوء والغسل قول ابن عباس ﷺ: «لا يحتاج شيء من فروع الإسلام إلىٰ نية بعد أن اختار صاحبه الدخول في الإسلام» ذكره الجلال السيوطي في جامعه الكبير. وقد علل ذلك الحنفية بأنه وسيلة، والنية لا تجب في الوسائل، وإنما تجب في المقاصد، ومن أوجب ذلك جعل الوضوء من المقاصد.

وأما وجه من قال: «ينقض النوم ولو كان صاحبه متمكنًا» فهو لأن النوم أمر برزخي، فكأنه كالحياة من وجه، وكالموت من وجه، كالجنس المشترك، فلا هو هو في محل التكليف الخالص، ولا في حضرة الله الخالصة، فكان نقض الوضوء به من باب الاحتياط.

وأما وجه من قال: «لا ينقض نوم الممكن مقعده [من مقره] [2]» فهو لكون الجالس

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) زيادة من «أ».

يكاد [يكون](١) مستيقظًا، لتعلق روحه بالملأ الأعلىٰ، فهو رخصة، بخلاف المضطجع أو من كان هزيلًا، فربما خرج منه شيء لا يحس به، بدليل ما ورد أن الصحابة كانوا ينامون جلوسًا ويصلون ولا يجددون طهارة(٢).

وأما وجه من قال: «لا ينقض مس الفرج قبلًا كان أو دبرًا» فهو لأن الناقض حقيقة ليس هو الفرْج، وإنما الذي يخرج من الفرْج، وذلك لأن من لازم الأكل والشرب الغفلة بلذته عن الله تعالىٰ، فلذلك لو قُدِّر أن ذلك المتوضيء لم يعص ولم يغفل عن الله، فالبدن تضعف رُوْحَانيته بعدم الموالاة، فيصير كالأرض العطشىٰ، فأمرنا الله تعالىٰ بالتنزه عما يخرج من فضلاته بالغسل للمحل والأعضاء التي يغلب عليها الوقوع في المعاصي الناشئة من الأكل والشرب، ولو أننا لم نأكل لكنا كالملائكة لا نبول ولا نتغوط ولا نشتهي النساء لا بمس ولا جماع، ولا كان لنا دم يجري، ولا قهقهنا، ولا كان لنا صُنَان(٣)، ولا حصل في بدننا جذام ولا برص، ولا استغبنا أحدًا ولا كفرنا، ولا غير ذلك من جميع ما ورد النقض به في الأخبار والآثار، فإنه ليس لنا ناقض إلا وهو متولد من الأكل، فعلم أن حديث: «من مس فرْجه فليتوضأ»(٤) خاص بالأكابر الذين يتنزهون من مس [مجاور الفضلات، وكذلك نضح السراويل خاص بأكابر الأكابر الذين يتنزهون من مجاور المجاور]، وأن حديث: «هل هو إلا بضعة منك»(٥) عند من لا يقول بنسخه خاص برعاع الناس من الفلاحين والترابيين ونحوهم، إذ النقض بالذكَر والفرْج إنما هو لكونه مجاورًا للخارج لا لذاته، كما بسطنا الكلام عليه في كتاب «الميزان».

---

(١) زيادة ضرورية لاستقامة السياق.

(٢) أخرج أبو داود (٢٠٠) عن أنس ﷺ قال: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَنْتَظِرُونَ الْعِشَاءَ الأَخِرَةَ حَتَّىٰ تَخْفِقَ رُءُوسُهُمْ، ثُمَّ يُصَلُّونَ وَلَا يَتَوَضَّئُونَ»، وأصل الحديث عند مسلم (٣٧٦).

(٣) الصُّنان: رائحة الإبط الكريهة.

(٤) أخرجه أبو داود (١٨١) وابن ماجه (٤٨٢) والنسائي (٤٤٤).

(٥) جزء من حديث أخرجه أبو داود (١٨٢) والترمذي (٨٥) وابن ماجه (٤٨٣).

وأما وجه من نقض الوضوء بمس الذكر باليدين إلىٰ المرفقين ظهرًا وبطنًا، فلأن اليد في حديث: «إذا أفضىٰ أحدكم بيده إلىٰ فرجه»[1] يشمل ذلك كله، فهو أحوط ممن يخص النقض ببطن الكف فقط، عملًا بتخصيص الإفضاء بذلك في اللغة.

وأما وجه من قال: «لا ينقض لمس المرأة الأجنبية» فهو لكون اللمس والمس وردا في القرآن كنايةً عن الجماع، فجعل الباب واحدًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي تجامعوهن. وهذا خاص برعاع الناس. وأما الأكابر المتنزهون عن القرب مما نهاهم الله عنه، فينقضون بلمس المرأة بالبشرة وما أُلحِق بها.

وأما وجه من لم ينقض بلمس المحارم، فهو لكون علة النقض عنده إنما هو الالتذاذ والشهوة، وذلك بعيد وقوعه في المحارم مع بعضهم بعضًا.

وأما وجه من نقض بالمحارم فضلًا عن الأجانب، وبالصغيرة التي لا تُشتهىٰ عادة، فهو لكون النساء يُطلَقن علىٰ ذلك كلِّه، قال تعالىٰ في فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤] أي أطفالهم من الإناث حين يولدن، فكما أطلق الشرع عليهم النساء في هذه الآية، فكذلك القول في لمسهن، فالباب واحد حتىٰ يأتي نص يخرجه عن ذلك.

وأما وجه من قال: لا ينقض أكل لحم الجزور، فهو لأن النقض به ليس لذاته، وإنما هو لكون الشياطين يركبون الإبل، فهو خاص بالأصاغر. وأما غيرهم فأُمِرُوا بالتنزه عن كلِّ ما قرب من الشيطان، فهو خاص بالأكابر.

وأما وجه من جوَّز الاستمتاع بما بين السرة والركبة في الحائض ونحوها، فهو لأن الله ما حرَّم ذلك، وإنما حرَّم الوطء في الفرْج فقط، لما فيه من الأذىٰ الذي هو الدم المتولد منه الجذام عادة، بدليل قول الإمام أبي حنيفة بجواز وطء الحائض إذا انقطع دمها وغسلت فرْجها فقط، فإن وجوب تعميم البدن إنما هو زيادة تنزيه لمجاورته للفرْج وانتشار الدم بالعَرَق عادةً، أو الشك فيه، أو سريان الضعف في سائر الجسم كلِّه إذا خرج منه دم الحيض، نظير قوله: «فإنه لا يدري أين باتت يده». فعُلِمَ أن تحريم الاستمتاع بما

---

(١) أخرجه النسائي (٤٤٥)، وأبو داود (١٨١) والترمذي (٨٢).

زاد علىٰ الفرج تحريم حريم، ومن حام حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه، فيُحمَل تحريم الحريم علىٰ الشاب، وتحريم المقاصد علىٰ الشاب وغيره.

وأما وجه من قال: «**يصح التيمم بالحجر مع وجود التراب**» فهو لأن جميع ما علىٰ الأرض أصله من الماء، والطين، [فالطين] ما رست منه، والحجر ما تموج منه، ولذلك يقطر الحجر ماء إذا أُوقد عليه النار، فهو خاص بالأصاغر.

وأما وجه من قال: «**لا يصح بالحجر**» فلبعده عن طبع الماء وضعف روحانيته، فهو خاص بالأكابر.

وأما وجه من قال: «**يصلىٰ بتيممه ما شاء من الفرائض**» فلكونه بدلًا عن الماء عند بعضهم، والبدل له حكم المبدَل، وإن لم يكن هذا الحكم له من كلِّ وجه، لنقص أعضاء التيمم عن أعضاء الوضوء، وضعف روحانيته عن روحانية الماء.

وأما وجه من قال: «**لا يصلىٰ فيه إلا فريضة واحدة، وما شاء من النوافل**» فهو لكونه طهارة غريبة، وليس بدلًا عن الوضوء كما قاله بعضهم، إنما هو عبادة مستقلة أُمرنا به عند فقد الماء، أو المرض مثلًا، ولم يرد لنا أن أحدًا من الصحابة جمع به بين فريضتين، والأصل وجوب الطهارة لكلِّ فريضة. انتهىٰ توجيه بعض أقوال الأئمة في الطهارة.

[توجيه أقوال الأئمة في الصلاة]

وأما توجيه أقوال الأئمة في الصلاة فأقول، وبالله التوفيق:

وأما وجه من قال: «**يجب علىٰ المصلي استحضار جميع أفعال الصلاة وأقوالها وتشخيصها في ذهنه حال التكبير للإحرام**» فهو لكونه ماهية النية، فلا تصح النية إلا مع استحضار منويها، وهو خاص بالأكابر الذين انطوت أجسامهم في أرواحهم، فكان الحكم لأرواحهم، إذ الأجسام لكثافتها لا تقدر علىٰ تعقل شيء إلا بعد شيء، بخلاف الأرواح تدرك الأشياء دفعة واحدة، فلذلك كان من لم يوجب ذلك يخصه بالأصاغر الذين غلبت أجسامهم علىٰ أرواحهم، فهذا في حقِّ قوم، وذاك في حقِّ قوم، ولكن من دخل حضرة الله بالروح فهو المصلي حقيقة، وغيره إنما هو متشبه بالمصلين.

وأما وجه من أمر المصلي بالاستعاذة من الشيطان في قراءة كلِّ ركعة، فهو لكون غالب الناس عزمه ضعيف، فلا يقدِر علىٰ أن يدفع الشيطان عن القرب منه بالاستعاذة الأولىٰ، فلذلك أمر بالاستعاذة عند كلِّ قراءة، لمعاودة الشيطان له المرة بعد المرة، فهو خاص بالأصاغر.

وأما وجه من قال: «يستعيذ مرة واحدة» فهو لأن الشيطان إذا سمع الاستعاذة فرَّ من ذلك المصلي، فهو خاص بالأكابر.

فإن قال قائل: قد قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٩٨] ولا شك أن قراءة كلِّ ركعة قراءة جديدة، لتخلل الركوع والسجود والجلوس والقيام بين كلِّ قراءة؛ **فالجواب:** ذلك تشريع في حقِّ الضعفاء من الأمة، بخلاف الأقوياء الذين يطردون إبليس عنهم بالاستعاذة في الركعة الأولىٰ، فلا يحتاجون الاستعاذة بعد ذلك إلىٰ فراغ الصلاة.

وأما وجه من أوجب البسملة في قراءة الفاتحة كلَّ ركعة، فهو الاتباع لرسول الله ﷺ، فإنه ﷺ كان يجهر بالبسملة تارةً، ويسر بها أخرىٰ، فمن سمعه قال بها. ومن لم يسمعه وقف عند ما سمع من البداءة بـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

وأما وجه ذلك من حيثُ الاعتبارُ والحكمةُ، فهو لأن اسم المخاطب لا ينبغي ذكره إلا في الغيبة عن مشاهدته، والصلاة كلها مشاهدة، فلا يحسن أن يُذكَر فيها اسم الله إلا إن صرح الشارع بالأمر بذلك، فمن شاهد الحقَّ تعالىٰ بقلبه، كفاه مناجاته له من غير ذكر اسمه، **فلكلِّ واحد من المجتهدين مشهد.** وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: «يا عبدي، إذا لم ترني فالزم اسمي، فأنا ثَمَّ». انتهىٰ، فأمر الله تعالىٰ العبد إذا لم ير ربه أن يلزم ذكر اسمه. ومن هنا لغز بعض العارفين هذه المسألة في شعره:

بذكر الله تزداد الذنوب ... وتنطمس البصائر والقلوب

وأشار إلىٰ ذلك الشبليُّ أيضًا بقوله لمن قال له: متىٰ تستريح؟ فقال: إذا لم أر لله تعالىٰ ذاكرًا! فإن معنىٰ ذلك أني لا أستريح إلا في حضرة الشهود، فإن الذكر تارةً يتركه الفقير لما يجده من الشهود، وتارةً يتركه لما يجده من الحجاب، فيُحْمَل كلام الشِّبليِّ

علىٰ الحال الأول، لأنه هو اللائق بحاله، فكأنه قال: لا أستريح إلا إن دخلتُ حضرة الله تعالىٰ وشهدتُه تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول مرارًا: حضرة الله حضرة خرس وبهت لا كلام فيها إلا بما أُمر به العبد، قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وأما وجه من قال: «يرخي يديه بجنبه حال القيام» فهو لأن النفس من شأنها أنها لا تقدر علىٰ مراعاة شيئين معًا في آن واحد، فإن العبد إن راعىٰ يديه وحفظهما عن أن ينزلا عن مكانهما تحت الصدر، غفل عن مشاهدة ربه في مناجاته. وإن راعىٰ مشاهدة الحقِّ تعالىٰ، غفل عن مراعاة يديه، فيُحْمَل قول من قال: «إنه يضعهما تحت صدره» علىٰ حال الأكابر، ومن قال: «يرخيهما بجنبيه» علىٰ حال الأصاغر. وإذا تعارض عندنا أمران راعينا الأفضل منهما، ولا شك أن اشتغال المصلي بمراعاة شهود الحقِّ لا ينفك عنه أفضل من مراعاة محل وضع اليدين، لأن مشاهدة الحقِّ تعالىٰ هي روح الصلاة. وأما الأقوال والأفعال فهي كالجسم لها، فمن حصل الروح فقد حصل علىٰ الحقيقة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا يؤمر بوضع اليدين تحت الصدر ومراعاتهما من غير انفكاك اليدين عن إحديهما إلا الأكابر من الأولياء، أما غيرهم فلا يقدِر علىٰ مراعاة ذلك، بل دخلت عليه مراعاة الإقبال علىٰ الله وعدم الالتفات إلىٰ غيره. وربما وضع المصلي يديه تحت الصدر، وغفل عنهما بمناجاة ربه، فتكون[1] تحت السرة، كما وقع ذلك لكثير من الصحابة والتابعين، فمن شهد الحال الأول قال به، ومن شهد الحال الثاني قال به، واتباع ما صح في الحديث أولىٰ.

وبهذا حصل الجمع بين قولي الإمام مالك وتلميذه الإمام الشافعي ﷺ، فكلام الإمام مالك في حقِّ الأصاغر، وكلام الإمام الشافعي في حقِّ الأكابر. وقد أمَّن الشارع ﷺ الأئمة علىٰ شريعته وعلىٰ أمته، فلا يخالفها مجتهد إلا بدليل آخر أقوىٰ من الأول

---

(١) بالأصلين: فهو لا.

أو أظهر، فما خرج أحد من الأئمة عن الشريعة أبدًا، وكلُّ قول له منزع، فافهم.

وأما وجه من قال: «لا تصح الصلاة إلا بفاتحة الكتاب»(١) دون غيرها من القرآن والأذكار فوجهه ظاهر في السنة. وأظهر دليل في وجوب الفاتحة حديث مسلم وغيره: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، يقول العبد: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فأقول: ذكرني عبدي، فيقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فأقول: حمدني عبدي، فيقول العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فأقول: أثنىٰ عليَّ عبدي، فيقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فأقول: مجدني عبدي... إلىٰ آخره»(٢) فإنه فسَّر فيه الصلاة بقراءة الفاتحة، وجعلها جزءًا من الصلاة.

وأما وجه [من يجيز](٣) **للمصلي أن يقرأ ما تيسر من القرآن**، فهو أن القرآن صفة من صفات الحقِّ جلَّ وعلا، وصفاته كلُّها متساوية لا تقبل التفاضل. فإن أوردوا عليه حديث: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»(٤)، قال: المراد لا صلاة كاملة، نظير «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»(٥).

فإن قال قائل: إن نفي الكمال مبني علىٰ التفاضل، وأنتم قلتم: إن القرآن من حيثُ هو قرآنٌ لا يقبل التفاضل؛ **فالجواب**: وهو كذلك، والتفاضل إنما هو من حيثُ القاريءُ والقراءةُ لا المقروء.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة خاص بالكُمَّل الذين يشهدون معاني القرآن كلَّها في الفاتحة، فإن الله كلَّفهم كلَّما صلُّوا أن يحيطوا بمعاني القرآن كلِّه في صلاتهم. وعدم وجوب الفاتحة خاص بالأصاغر الذين لا يقدرون علىٰ استخراج جميع القرآن من الفاتحة، لأن القرآن جمع للقلب علىٰ الله

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥) وأبو داود (٨٢١).

(٣) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

تعالىٰ، فكلُّ آية قرأها العبد، جمعت قلبه علىٰ الله تعالىٰ من حيثُ إن القرآن صفة من صفات الله تعالىٰ، والصفة لا تفارق الموصوف، وبجمعه علىٰ الله تعالىٰ يحصل مقصود الصلاة الذي هو الحضور مع الله تعالىٰ، وكذلك القول فيمن أجاز الصلاة بذكر اسم الله تعالىٰ هو في حقِّ من جمعه الاسم علىٰ الله تعالىٰ، هذا كلُّه من حيثُ الاعتبارُ لا من حيثُ الأدلةُ الشرعيةُ، فافهم.

وأما وجه من أمر المصلي بمراعاة الإدغام والإقلاب والإخفاء وغير ذلك من الأداءات المعروفة بين العلماء، فهو من باب: «حسِّنوا القرآن بأصواتكم»[1] أي حسنوا ألفاظه بأصواتكم، إذ المراد بالقرآن هنا القراءة لا المقروء؛ لأن المقروء من صفات الله، وصفات الله تعالىٰ في غاية الحسن، فلا تقبل التحسين. ثم إن ذلك خاص بالأكابر الذين لا يشغلهم مراعاة الأنغام والإظهار والإدغام مثلًا عن مشاهدة الحقِّ جلَّ وعلا في الصلاة، كما أن الأمر بالقراءة ساذجًا في حقِّ الأصاغر الذين يشغلهم مراعاة الأنغام عن كمال الإقبال علىٰ الله في الصلاة. وهو حال أكثر الناس سلفًا وخلفًا.

وأما وجه من قال: «إن طول القيام في القراءة أفضل من طول الركوع والسجود» فهو في حقِّ الأصاغر الذين لا يقدرون علىٰ طول المكث بين يدي الله تعالىٰ في محل القرب الذي هو حال الركوع والسجود، بخلاف الأكابر الذين يقدرون علىٰ طول المكث بين يدي الله تعالىٰ، فإن قصر القيام وطول الركوع والسجود بطريقه الشرعيِّ أفضل، ليصير له وقت يدعو فيه لنفسه ولإخوانه، ويشفع فيهم عند ربه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: من رحمة الله تعالىٰ بعبده المؤمن خطور الأكوان علىٰ قلبه وهو بين يدي ربِّه في ركوع أو سجود، وذلك لأن اشتغاله بالأكوان فيه رائحة حجاب عن شهود تلك العظمة التي تجلَّت له، ولولا ذلك لذاب عظمه أو تفصلت مفاصله، كما يشهد لذلك ما جاء في بعض طرق حديث الإسراء من أنه ﷺ [لما] دخل حضرة «قاب قوسين» استوحش وارتعد، لعدم مشاهدة جنسه هناك، فسمع صوتًا يشبه

---

(١) جزء من حديث أخرجه الدارمي (٣٥٤٤) وأبو داود (٦٦٤) والنسائي (١٠١٥).

صوت أبي بكر يقول: «يا محمد، قف إن ربك يصلي» الحديث(١)، فكان في ذلك رحمة به ﷺ، مع أنه أشد الناس تحملًا للشدائد، وأقواهم علىٰ شهود عظمة الله عزَّ وجلَّ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إذا سمعتَ عن أحد من الأكابر أنه طوَّل القيام، فذلك إنما هو تشريع لأصحابه، لما في القيام من رائحة البعد عن حضرة الله بالنسبة للركوع والسجود، وإلا فاعتقادنا في أكابر الصحابة والتابعين أن مقام أحدهم فوق مقام كلِّ عارف من الأولياء، فلا يُقال طول القيام دائمًا أفضل، ولا طول الركوع والسجود دائمًا أفضل، إنما الحق ما ذكرناه من التفصيل.

وأما وجه من أبطل الصلاة بتطويل الاعتدال عن الركوع والسجود الأول أو بترك الطمأنينة في الركوع والسجود، ووجه من لم يبطلها بذلك، فهو أن الاعتدال ما شرع إلا تنفيسًا للمصلىٰ من مشقة ثقل الركوع والسجود، فمن الأئمة من بالغ في الرحمة بالأكابر(٢)، فأمرهم بعدم تطويل الاعتدال لما فيه من الحجاب، ومنهم من أمر الأمة بتطويله ليستريحوا بذلك من ثقل العظمة التي تجلت لهم في ركوعهم وسجودهم، ولولا ذلك التطويل لما استطاع أحدهم أن ينزل للسجود لشدَّة توالي العظمة عليه، فرجع الأمر إلىٰ حالين للأصاغر والأكابر، فمن قال: لا يطول الاعتدال، أراد حال الأكابر، ومن قال: يطوله، أراد حال الأصاغر. فالأكابر يقدرون علىٰ توالي العظمة علىٰ قلوبهم، والأصاغر لا يقدرون، فإن نظر الأكابر إلىٰ الحجاب إذا رفعوا من الركوع والسجدة الأولىٰ، صاحوا. وإن نظر الأصاغر إلىٰ توالي عظمة الركوع والسجود علىٰ قلوبهم، صاحوا، فكان في الاعتدال رحمة للأصاغر من حيثُ ميلُهم للحجاب، وكان فيه عذاب علىٰ الأكابر من حيثُ ردُّهم للحجاب، وكان في السجود رحمة بالأكابر من حيثُ ميلُهم لرفع الحجاب، وكان في السجود عذاب علىٰ الأصاغر من حيثُ عجزُهم عن تحمل توالي العظمة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: طول الاعتدال، وطول الطمأنينة في

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١١٩)، والسيوطي في اللآلىء المصنوعة (١/ ٢٦).

(٢) بالأصلين: الأمة. والمثبت من «الميزان» وهو الأنسب للسياق.

الركوع، وطول الجلسة بين السجدتين خاص بالأصاغر، فإن أحدهم لما كان قائمًا يقرأ فتجلت له عظمة الله تعالىٰ، خضع له فركع، فرحمه الله بطول الطمأنينة، ليستريح بها إن كان غافلًا عن كمال التعظيم، ويمتعه بها إن كان حاضرًا، ليحصل له الإدمان علىٰ تحمل عظمة السجود الذي هو أقرب ما يكون العبد فيه من ربه، كما ورد[1]. وربما لم يقدر العبد علىٰ كمال الطمأنينة في الركوع، لعظيم ما تجلىٰ لقلبه من عظمة ربه، فرجع إلىٰ الاعتدال بسرعة من غير تطويل.

وكذلك القول في السجود، بل هو أولىٰ بعدم قدرة العبد علىٰ تطويله أو تطويل الجلوس بين السجدتين، فتراه يقصر الطمأنينة في السجود، ويطيل الجلوس بين السجدتين ليستريح، فيطلب الرفع من السجدة الأولىٰ إلىٰ الجلوس بسرعة، فربما طوَّل السجود أو قصَّر الجلوس، فكاد يهلك؛ لأن السجود أقرب حضرة يدخلها المصلي في صلاته. وربما حكمت عليه الهيبة من الله تعالىٰ، فارتعد وكاد لحمه وعظمه يذوب، فكان إسراعه بالرفع من السجود إلىٰ الجلوس بين السجدتين وإلىٰ جلسة الاستراحة من جملة رحمة الله تعالىٰ وتنفيسه عن العبد. انتهىٰ.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﵀ يقول: وجه من قال بالمبالغة في تطويل الاعتدال عن الركوع والسجود الرحمةُ بالضعفاء الذين لا يقدرون علىٰ طول الخضوع في الركوع والسجود، لما يتجلىٰ لهم من العظمة والهيبة، وقصره خاص بالأقوياء، فيكفيهم أدنىٰ اعتدال يتنفسون به من مشقة ما تجلَّىٰ لقلوبهم من عظمة ربهم. فما نُقِل عن الإمام أبي حنيفة من تخفيف الاعتدال خاص بالأكابر، وما نُقِلَ عن الإمام الشافعي من تطويله بقدر الذكر الوارد فيه خاص بالمتوسطين، وما نُقِلَ من تطويله كغيره من الأركان خاص بالضعفاء العاجزين.

وقد كان ﷺ يطول الاعتدال تارةً بقدر الذكر الوارد فيه، وتارة يخففه جدًّا، وتارة

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥).

يطوِّله حتىٰ يقول الصحابة: «لعله نسي»[١] كلُّ ذلك ليقتدي به الأقوياء والضعفاء والمتوسطون. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس بين السجدتين كأنه جالس علىٰ الرَّضْف[٢] -يعني الحجارة المحماة- وذلك لطلب رجوعه إلىٰ السجود بسرعة، إما لمحبته للسجود لما فيه من القرب، وإما لثقل الجلوس عليه من جهة الحجاب حقيقةً، أو تشريعًا لأمته الأقوياء وهو الظاهر، لأنه ﷺ أقوىٰ الخلق عزمًا، وأكثرهم حضورًا مع الله عزَّ وجلَّ، فإنه أبو الحضرة، وابن الحضرة، وأخو الحضرة، فلا أحد من البشر أكثر جلوسًا فيها منه، وإنما كان يخفف الصلاة رحمة بأمته، كما ورد أنه ﷺ كان يطوِّل الأولىٰ علىٰ الثانية، وكانت صلاته بعد إلىٰ التخفيف أقرب. انتهىٰ. وذلك لأن غالب الناس لا يقدر علىٰ طول الوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ مع الهيبة والتعظيم، بل تزهق روحه ويخرج من الحضرة قهرًا عليه. وإن وقف غافلًا عن مشاهدة الحقِّ تعالىٰ، فصلاته إلىٰ الإثم أقرب، فكان التخفيف أولىٰ بكلِّ حال، ولذلك ورد الأمر بالتخفيف، وقال ﷺ للإمام: «فإذا صلَّىٰ أحدكم لنفسه، فليطول ما شاء»[٣] -يعني بقدر طاقته- بخلاف جماعة المأمومين، فإنهم لا ينضبطون[٤] علىٰ حال واحد.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما اشترط بعض الأئمة كمال الاعتدال عن الركوع والسجود رحمةً بالضعفاء من الأمة الذين لا يقدرون علىٰ توالي شهود عظمة الله عزَّ وجلَّ في حال ركوعهم وسجودهم، فلو أراد أحدهم أن ينزل إلىٰ السجود من غير اعتدال، أو يعود إلىٰ السجود ثانيًا بعد رفع قليل، لربما زهقت روحه وخرجت عن حضرة الله الخاصة قهرًا عليها، فلذلك شرع لنا الشارع ﷺ الاعتدال لنستريح فيه من ثقل تلك

---

(١) أخرجه البخاري (٨٢١) ومسلم (٤٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٩٩٥)، والترمذي (٣٦٦) والنسائي (١١٧٦).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري(٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧).

(٤) بالأصلين: لا ينضبطوا. والمثبت الأصوب نحويًّا.

العظمة التي لا تطيقها مفاصلنا[1]، وبالغ في الأمر بالاعتدال رحمة بأمته، حتىٰ قال: «لا صلاة لمن لم يقم فيها صلبه»[2]، وفي رواية: «لا ينظر الله تعالىٰ إلىٰ صلاة من لم يقم صلبه في الصلاة»[3] أي لا صلاة كاملة أو لا صلاة أصلاً. أما وجه لا صلاة كاملة، فهو لأن عجزه عن تحمل تلك العظمة يشغله عن كمال مقام إقباله علىٰ الله تعالىٰ، لما يجده من الألم حتىٰ يكاد يخرج من حضرة الله تعالىٰ، ففات هذا كمال الصلاة. وأما وجه لا صلاة أصلًا، فهو لكون روحه خرجت من حضرة الشهود بالكلية من شدة عجزه وضعفه. انتهىٰ.

فعُلِمَ من جميع ما قررناه أن أصل الاعتدال مأمور به جزمًا لابد منه لكلِّ مصل من الأكابر والأصاغر، وإنما الخلاف في تخفيفه وتطويله، فالقوي يقدر علىٰ النزول إلىٰ السجود والرجوع إليه مع أدنىٰ رفع، والضعيف لا يقدر علىٰ ذلك، بل لابد من التطويل ليستريح كما مرَّ تقريرُه، فإن العبد كلما ضعف خُوطِب بتطويل الاعتدال، وكلما قوي طُولِب بتطويل السجود والركوع. وإيضاح ذلك أن من وصل إلىٰ محل القرب من الركوع والسجود الذين هما محل القرب الأعظم من الحقِّ جلَّ وعلا، فلا يؤمر بالرجوع إلىٰ محلِّ الحجاب إلا لحكمة. ومن هنا ضعف العبد عن تحمل طول شهود عظمة الله عزَّ وجلَّ، فافهم.

فإن قيل: فلم ثنىٰ السجود دون الركوع؟ **فالجواب**: إنما ثنىٰ لأن السجدة الأولىٰ امتثال للأمر عكس ما وقع لإبليس، والثانية كالشكر لله علىٰ حصول امتثال الأمر؛ فتأمل ذلك فإنه نفيس لا تكاد تجده في كتاب.

وأما وجه مشروعية **جلسة الاستراحة**[4]، فهو رحمة بالضعفاء من الأمة، كلُّ واحد علىٰ

---

(١) بالأصلين: تفصل مفاصلهن. والصواب ما أثبتناه وهو موافق لمعنىٰ ما في «الميزان» للمؤلف.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٨٧١) والبيهقي في السنن (٥٢١٣) وأحمد (١٦٢٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢٨٣)، والطبراني في «الكبير» (٨٢٦١) بنحوه.

(٤) هي جلسة خفيفة بين كل ركعتين ليس بينهما تشهد، كالركعة الأولىٰ والثانية، والثالثة والرابعة، فيجلس المصلي جلسة خفيفية بعد الرفع من السجود الثاني للركعة الأولىٰ، وكذا بعد الرفع من السجود الثاني للركعة

قدْر حظِّه ونصيبه من القوة والضعف، وذلك لأن العظمة التي تجلت للمصلي في حال سجوده لا عظمة فوقها، لأنها حضرة تقرب من حضرة قاب قوسين أو أدنىٰ، كما أشار إلىٰ ذلك حديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1]، فلو أن المصلي المستحضِر لعظمة الله عزَّ وجلَّ، طلب النهوض من السجود إلىٰ القيام من غير جلسة الاستراحة لما قدِرَ، وكان كالتكليف بما لا يطاق، فلذلك شُرعَت جلسة الاستراحة رحمة بالعباد.

ومن شك في قولي هذا ممن صلاته صورية لا حقيقية، فليلزم نفسه في حال سجوده ويجمع حواسه كلَّها بين يدي ربه، بحيث لا يصير في ذهنه شهود لشيء من الكون إلا الله وحده وذلك الأمر الذي يدعو ربه لأجله لا غير، فإنه لو أراد أن يقوم من السجود إلىٰ القيام لا يقدِر.

وتقدم أن خطور الأكوان علىٰ قلوب الضعفاء حال سجودهم من جملة رحمة الله بهم، ولولا ذلك لتقطعت مفاصلهم وماتوا عن آخرهم، فإن كلَّ من تجلىٰ له من عظمة الله تعالىٰ ما فوق طاقته صُعِق، كما وقع للسيد موسىٰ عليه الصلاة والسلام، فإذا كان من تجلَّىٰ له الحقُّ تعالىٰ بما فوق طاقته من أولي العزم يُصْعَق، فكيف بأمثالنا؟! وقد بسطنا الكلام علىٰ أسرار الصلاة في كتاب مستقل فراجعه.

وأما وجه من لم يوجب الصلاة علىٰ النبي ﷺ في التشهد الأول وأوجبها في الأخير، فهو لأن التشهد الأول ليس هو بآخر صلاة، وإنما يشبه آخر الصلاة الثنائية فقط، فلذلك سُنَّت فيه الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ ولم تجب، لأن سلطان الحضرة بالأصالة إنما هو للحضور مع الله تعالىٰ ومناجاته دون غيره، ولكن لما رأىٰ الأئمة أنه لا يصح لأحد من الأمة أن يسلك طريق الدخول إلىٰ حضرة الله تعالىٰ من غير أن يكون قدم نبيه ﷺ أمامه، استحب بعضهم الصلاة عليه وبعضهم أوجبها، فالاستحباب للأصاغر والوجوب للأكابر الذين يقدرون علىٰ مشاهد الحقِّ تعالىٰ من الخلق، كما مر إيضاحه في الجواب

الثالثة. وهي مستحبة عند الشافعية.

(١) سبق تخريجه.

عن قول القاضي عياض «وشذ الإمام الشافعي فقال: بوجوب الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ»[١] في الباب الرابع، فراجعه.

[وأما وجه من قال بوجوب تقديم التحيات والشهادتين علىٰ الصلاة علىٰ النبي ﷺ فهو من حيثُ إن خطاب الملك فيما يخصُّه مقدَّم علىٰ ما يخص غيره. وأما تقديم الشهادتين، فلكونهما من الإيمان، فلذلك قُدِّما علىٰ الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ وإن كان هو الواسطة العظمىٰ لنا، وأعظم المخلوقين مقامًا. ومن حقق النظر وجد رسول الله ﷺ يحب ذلك لكونه من جملة الأدب مع ربه عزَّ وجلَّ][٢].

وأما وجه من قال: «**تجب نية الخروج من الصلاة**» فهو لأن المصلي كان في حضرة الله الخاصة، ومن الأدب إذا أراد الإنسان فراق كبير أو أحدًا من إخوانه أن يستأذن في المفارقة إلىٰ موضع آخر دون تلك الحضرة، تعظيمًا لذلك الكبير، واستمالة لقلب إخوانه، فالله تعالىٰ أحقُّ بذلك. وتأمل يا أخي إذا قام جليسك من مجلسك من غير استئذان كيف تجد في نفسك منه وحشة، لإخلاله بالتعظيم والأدب، عكس ما تجد من الأنس إذا استأذنك قبل المفارقة.

وأما وجه من لم يوجب **نية الخروج من الصلاة**، فهو لنظر المصلي إلىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ، وكثرة مسامحته لعباده في إخلالهم بالأدب معه، أو لكون مشهده أنه بين يدي الله تعالىٰ لا يصح انصرافه عنها، كما عليه أصحاب الأحوال. وأيضًا فلو أن ذلك كان يحبه الشارع لأمرنا به ولو في حديث واحد.

وأما وجه من قال: «**ينصرف من مكان الصلاة عن يمينه مقدِّمًا رجله اليسرىٰ**» فهو لشرف جهة اليمين. وأما تقديم الرجل اليسرىٰ فهو لكون البقعة التي ينتقل إليها بعد الصلاة دون حضرة الصلاة، كما مر تقريره في نظيره من نية الخروج من الصلاة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الانصراف من الصلاة من أي جهة شاء

---

(١) الجواب رقم (١٧٧) ، (١٠٧٥).

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من «ب».

خاص بالأكابر، وتخصيص الانصراف عن جهة اليمين خاص بأكابر الأكابر الدائرين مع الأمر لا مع العلل، فيرجح ما رجَّح الحقُّ تعالىٰ، ويميز بين شرف اليمين علىٰ اليسار، ومن شهد التساوي في الأمور، فهو تحصيل الحاصل، وما جعل الله الترقي إلا في امتثال أمره واجتناب نهيه، لا بفعلهما بحكم الاتفاق من غير علم بالأمر.

وأما وجه من قال: «**ينبغي للمصلي أن ينتقل للنفل من موضع فرضه**» فهو ليميز بين حضرة مناجاة الله تعالىٰ في الفرائض، وبين مناجاته في النوافل، أو حضرة الفرائض أكمل من حضرة النوافل، بدليل قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ المتقربون بمثل أداء ما افترضتُ عليهم، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه»[1]، فجعل حضرة النفل بعيدة عن حضرة الفرائض في المقام، فكذلك يكون الحكم في المكان.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من توالت عليه عظمة الله فشهدها في كلِّ جهة، فالمستحب له الانصراف عن أي جهة شاء، لشرف سائر الجهات عنده وتقديسها. ومن شهد عظمة الله في جهة دون أخرىٰ، كان الأولىٰ به اليمين في الأولىٰ دون الثانية، نظير ما ورد في دخول المسجد والخروج منه. انتهىٰ.

وفي هذا القدر من الجواب عن الأئمة كفاية لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، فرحم الله تعالىٰ الأئمة الأربعة وغيرهم، ما كان أنور قلوبهم! وأشد شفقتهم علىٰ الأمة تخفيفًا وتشديدًا! فأمروا الضعيف بالرخصة، وأمروا القوي بالعزيمة دون الرخصة، ليعامل كلُّ واحد ربَّه بحسب مقامه.

وإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ تضعيف أقوال الأئمة إذا خالفت الراجح في مذهبك، فإنهم كلَّهم علىٰ هدىٰ من ربهم كشفًا ويقينًا، لا ظنًّا وتخمينًا. وسيأتي زيادة علىٰ ذلك آخر الباب الثاني عشر فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٥) ومما أجبتُ به عن المدرِّس الذي نقل إليه شخص ترجيحًا في مسألة عن أحد من أقرانه في الدرس، فتكدر وعبس وجهه، وقال: ما مع أحد إذن بأن ينقل إليَّ شيئًا من

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، وابن حبان (٣٤٧).

ترجيحات أهل هذا الزمان، فإني لا أعتمده. فلاث به الناس وقالوا: كان ينبغي له أن يصغي لما رجحه غيره من أقرانه، ليُستفاد ويشكر صاحبه بالعلم والدين، ولكن «عدو المرء من يعمل بعمله».

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا المدرس، فقد يكون بمعزل عما فهمه هذا المعترض، وهو محب لذلك العالم، ومعتقد فيه العلم والصلاح، وإنما تكدَّر وعبس وجهه لئلا يعود ذلك الناقل يرجع إلىٰ نقل عن أحد ثاني مرة، لعدم الثقة بترجيح أهل العصر مادام أحدهم في قيد الحياة، فإنه قد يرجع عما أفتىٰ به أو رجحه، فيصير ذلك المدرس ينقل ذلك عنه، والحال أنه رجع عنه. ومن هنا نهىٰ الإمام الشافعيُّ ابنَ عبد الحكم[1] أن يروي شيئًا عن الحيِّ مادام حيًّا، لاحتمال الرجوع عنه أو النسيان.

[توجيه رفض الرمليِّ إصلاح المواضع التي أرسلها إليه الخطيب الشربينيُّ]

وقد وقع أن بعضهم نقل لسيدي الشيخ محمد الرمليِّ[2] عن الشيخ شمس الدين الخطيب الشربينيِّ[3] أنه حكىٰ ترجيحًا عن الشيخ شهاب الدين الرمليِّ[4] والد سيدي

---

(١) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم المصري، الإمام الفقيه مفتي الديار المصرية، المالكي، صاحب مالك. ولد: سنة: ١٥٥هـ. قال ابن حبان: كان ممن عقل مذهب مالك، وفرع علىٰ أصوله. وله مصنفات منها: «سيرة عمر بن عبد العزيز» و«القضاء في البنيان» و«المناسك». توفي: في شهر رمضان٢١٤هـ وله نحو ٦٠ رحمه الله. السير (١٠/ ٢٢٠)، «وفيات الأعيان» (٤/ ١٩٣).

(٢) محمد بن أحمد بن حمزة شمس الدين الرملي، فقيه الديار الصرية في عصره، ومرجعها في الفتوىٰ، يقال له الشافعي الصغير، ولي إفتاء الشافعية، وجمع فتاوىٰ أبيه، وصنف شروحًا وحواشي كثيرة، من مؤلفاته: عمدة الرابح، غاية المرام، نهاية المحتاج إلىٰ شرح المنهاج، ت ١٠٠٤هـ بمصر. الأعلام (٦/ ٧)، «البدر الطالع» (٢/ ١٠٢).

(٣) محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين، فقيه شافعي مفسر من أهل القاهرة، درَّس وأفتىٰ في حياة أشياخه، وانتفع به خلائق لا يحصون، من مصنفاته: السراج المنير، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، مغني المحتاج، ت ٩٧٧ هـ. الكواكب السائرة (٣/ ٧٢)، شذرات الذهب (١٠/ ٥٦١).

(٤) أحمد بن أحمد بن حمزة شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين الرملي الأنصاري الشافعي. تلميذ القاضي زكريا. من مؤلفاته: «شرح الزبد» لابن أرسلان و«شرح منظومة البيضاوي في النكاح» و«رسالة في شروط

محمد، فقال: لا أحد ينقل إليّ شيئًا مما ينقله بعض الناس عن والدي، فإن والدي قد رجع عن كثير من ترجيحاته قبل موته؛ فبلغ ذلك الخطيب، فأرسل إليه بعض مواضع ليصلحها، فقال: كلُّ إنسان يتحمل نقل ما رآه من الشيخ. فلاث بعضُ مجاوري جامع الأزهر بسيدي الشيخ محمد وبالخطيب وقالوا: إنما امتنع سيدي محمد من الإصلاح بغضًا في الخطيب، لكونه طرز كتابه شرح المنهاج بإفتاء والد سيدي محمد وترجيحاته، فكان يحبُّ أن ينفرد هو بها في شرحه الذي شرحه دون الخطيب.

والجواب: أنه لا يجوز حمل سيدي محمد على مثل ذلك، لأن في ذلك نشر علم والده، فكيف يكره من ينشر علمه ويزيده ثوابًا وأجرًا؟! فصار كلٌّ منهما كالأقوال التي اختلف الأصحاب في نقلها عن الإمام الشافعي، فلكلٍّ من الأصحاب العمل بما سمعه أو بلغه من طريق نقله هو، فاعلم ذلك، وإياك وحمل الأشياخ على أحوالك الناقصة، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الذي يقول: لا يجتمع الفقراء النصَّابون بشيخ إلا وهو على شاكلتهم من النصب؛ لأن الشيخ أو الأمير مثلًا كالسوق يُساق إليه ما يعرف الناس نفاقه[1] فيه؛ فلاث بهذا العالم جماعة الشيخ وقالوا له: هذا طعن في الأشياخ، ولا يلزم من كون جماعة الشيخ نصابين كذَّابين أن يكون الشيخ كذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم، لأن كلامه جرى على الغالب، أو تأديب وتنبيه للشيخ أن يلقي باله إلى جماعته ويعرِّفهم الأدب وطريق الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال. **ولم يزل السلف الصالح يحذِّرون إخوانهم وينبهونهم على نقائصهم ونقائص أصحابهم محبةً ونصحًا، لا بغضًا وتعنيفًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.**

الإمامة». و توفي:٩٧١هـ. «الكواكب السائرة» (٣/ ١٠١) و«شذرات الذهب» (١٠/ ٥٢٥).

(١) أَنْفَقَ تُجَّار السُّوقِ السِّلْعَةَ: رَوَّجُوها.

(١٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكذِّب من ادعىٰ القطبية من أهل عصره، ولاث به عصبة ذلك القطب وكادوا يخرجونه عن دائرة الإسلام، وقالوا: من شأن القطب الخفاء، فلا يعرفه الأفراد من الأولياء، فكيف قدمت علىٰ التكذيب بغير علم؟!

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ اللوث بمن أنكر قطبية أحد من مشايخ هذا الزمان، لما هم عليه من التظاهر بمحبة الدنيا، وعدم الورع والزهد والخشية، وقلة العلم واحتياج أحدهم إلىٰ علم آحاد الطلبة، فإن من شرط القطب أن يكون غنيًا عن علم العلماء كما كان الخضر ﷺ.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: حكم من يدعي القطبية من هؤلاء المشايخ حكم خلبوص المغاني إذا خرج في صورة أمير أو قاض، ولولا علم أصحاب النوبة بجهله بمقام القطبية لقتلوه بالحال في ساعته.

[صفات القطب]

وقد حُبب لي أن أذكر لك يا أخي صفةَ القطب التي ذكرها من اجتمع به من الأولياء الصادقين، كالشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ أبي الحسن الشاذلي وغيرهما، فأقول وبالله التوفيق:

قال الشيخ محيي الدين في الباب السبعين[1] ومئتين من «الفتوحات»: اعلم أن اسم القطب في كلِّ زمان «عبد الله» و«عبد الجامع» المنعوت بجميع الأسماء الإلهية تخلقًا، وهو مرآة الحقِّ تعالىٰ، ومجلىٰ النعوت المقدَّسة، ومحل المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت، وعين الزمان، وصاحب علم سرِّ القدَر بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، وله علم دهر الدهور، والغالب عليه الخفاء، محفوظ في خزائن الغيرة، ملتحف بأردية الصون، لا يعتريه قط شبهة في دينه، ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه، كثير للنكاح راغب فيه، محب للنساء، يوفي الطبيعة حقَّها علىٰ الحدِّ المشروع، ويوفي الروحانية حقَّها علىٰ الحدِّ

---

(١) في «أ»: التسعين. والموضع في الطبعات التي بين أيدينا من «الفتوحات» في الباب (١٦٠).

الإلهيِّ، يضع الموازين ويتصرف علىٰ المقدَار المعيَّن المؤقت له، لا يحكم عليه وقت، وإنما هو لله تعالىٰ وحده، حاله دائمًا العبودية والافتقار، يقبِّح القبيح، ويحسِّن الحسن، يحب الجمال المقيَّد في الزينة والأشخاص، تأتيه الأرواح في أحسن الصور، يغار لله، ويغضب لله، ويذوب عشقًا، له الإطلاق من حيثُ المظاهرُ، لا يُظِهر روحانيته إلا من خلف حجاب الغيب أو الشهادة كآحاد العبيد، لا يرىٰ من كل شيء إلا محل نظر الحقِّ تعالىٰ منه، يضع الأسباب ويقيمها، ويدل عليها ويجري بحكمها، ينزل إليها حتىٰ تحكم عليه وتؤثر فيه، لا يكون له ربانية علىٰ أحد بوجه من الوجوه، مصاحب لهذا الحال دائمًا، إن كان صاحب دنيا وثروة تصرف فيها تصرف عبد في مال سيِّد كريم، وإن لم يكن بيده دنيا وكان علىٰ ما يفتح الله به عليه، لم يستشرف له نفس إلىٰ ما في يد الناس، بل يقصد بنفسه عند الحاجة بيت صديق ممن يعرفه، يعرض عليه ما تحتاج إليه طبيعته كالشافع لها عنده، فيتناول لها منه قدَر ما يحتاج إليه وينصرف، لا يجلس عن حاجته إلا لضرورة[1]، فإن لم يجد حاجته، لجأ إلىٰ الله تعالىٰ في حاجة طبيعته، لأنه مسؤول عنها وواليًا عليها، ثم ينتظر الإجابة من الله فيما سأل، فإن شاء أعطاه ما سأل في الحال أو بعد مدة، فإن لم يعطه شيئًا ألح في الدعاء والشفاعة في حقِّ طبيعته، لأن من مرتبته الإلحاح دائمًا، بخلاف أصحاب الأحوال، فإن الأشياء تتكون عن هممهم لما عندهم من الربانية علىٰ الخلق، والقطب منزه عن مثل ذلك، لا تُطْوىٰ له أرض، ولا يمشي في هواء ولا علىٰ ماء، ولا يأكل أو يشرب من غير سبب، ولا يطرأ عليه شيء من خرق العوائد إلا في النادر لأمر يراه الحقُّ تعالىٰ له، فيفعله من غير أن يكون ذلك مطلوبًا له، يجوع اضطرارًا لا اختيارًا، و يصبر عن النكاح كذلك لعدم الطول، يعلم من تجلي النكاح ما يبعثه علىٰ طلبه والتعشق به، لا يتحقق له مقام العبودية في شيء مثل ما يتحقق له في النكاح، لا يرغب في النكاح للنسل، بل لمجرد الشهوة، فنكاحه كنكاح أهل الجنة.

وإنما كان يتحقق له مقام العبودية في النكاح أكثر من غيره لما فيه من شهود الضعف

---

(١) هذه الجملة مضطربة بالأصلين، وقد أثبتناها من «الفتوحات» ومختصرها للمؤلِّف.

حال الوقاع، وقهر اللذة المفنية له عن إحساسه، لكنه قهر لذيذ، وذلك من علوم الأسرار، فلذلك جهله أكثر الأولياء وجعلوه من الشهوة الحيوانية تزهو أنفسهم عن الإكثار منها.

ومن شأن القطب أن أنفاسه عزيزة، لا يدخل له نفس إلا تلقاه بأحسن أدب، ولا يخرج له نفس إلا شيَّعه كذلك بأحسن أدب من غير تكلف لذلك، مقامه جامع لأحوال الرسل والأنبياء والأولياء وكُمّل المؤمنين، فهو الرجل الكامل الذي حصل له الدنانير الأربعة التي توزن بها أحوال الرجال. انتهىٰ.

وقال أيضًا في الباب الأحد وخمسين وثلاثمئة: من شأن القطب الوقوف دائمًا خلف الحجاب، فلا يعلم الحقَّ تعالىٰ إلا من خلف هذا الحجاب حتىٰ يموت، فإذا مات لقي الله تعالىٰ بلا حجاب إلا حجاب العظمة، فهو كالحاجب الذي ينفذ أوامر الملك، وليس له من الله تعالىٰ إلا صفة الخطاب لا الشهود، لشدة أدبه ﷺ مع الله وحيائه. انتهىٰ.

وقال أيضًا في الباب السادس والثلاثين وثلاثمئة: اعلم أن الله تعالىٰ لا يولي عبدًا مرتبة القطابة حتىٰ ينصب له سريرًا في حضرة المثال يقعد عليه، تنبيء صورة ذلك المكان عن صورة المكانة، كما تنبيء صورة الاستواء علىٰ العرش عن صورة إحاطة الحقِّ تعالىٰ علمًا بكل شيء. فإذا نُصب له ذلك السرير، خلع عليه التخلق بأسماء الله تعالىٰ التي يطلبها العالم وتطلبه، فيظهر بها حللًا وزينة متوَّجًا مسوَّرًا مُدَمْلِجًا[1]، وذلك لتعمه الزينة علوًا وسفلًا ووسطًا، وظاهرًا وباطنًا، فإذا قعد علىٰ ذلك السرير، قعد بصورة الخلافة، وأمر الله تعالىٰ جميع العالم بمبايعته علىٰ السمع والطاعة في المنشط والمكره، فيدخل في بيعته كلُّ مأمور من أدنىٰ وأعلىٰ إلا الملائكة العالون المهيَّمون في جلال الله تعالىٰ، فإن هؤلاء عابدون الله بالذات لا بالأمر، فأول من يدخل عليه للمبايعة الملأ الأعلىٰ علىٰ اختلاف مراتبهم الأول فالأول، فيأخذون بيده علىٰ السمع والطاعة، ولا يتقيدون بمنشط ولا مكره، لأنهم لا يعرفون هاتين الصفتين فيهم، ومعلوم أن الشيء لا يُعرَف إلا بضده، فهم دائمًا في منشط لا يعرفون له طعمًا، لعدم ذوقهم للمكره.

---

(١) دملجَ الشَّيْءَ: ضَمَّه وسَوَّاه وأحسن صنعته.

واعلم يا أخي أن ما من روح يدخل عليه للمبايعة إلا ويسأله عن مسألة في العلم الإلهي، فيقول له: يا هذا أنت القائل كذا؟ فيقول: نعم. فيقول له في المسألة وجهان يتعلقان بالعلم بالله تعالىٰ، أحدهما أعلىٰ من الذي كان عند ذلك الروح، فيستفيد منه كلٌّ من بايعه، وحينئذٍ يخرج عنه.

فإن قلت: فهل هذه المسائل التي يسأل عنها كلُّ قطب مسائل معينة تتكرر لكلِّ قطب، أم هي مسائل تتجدد بتجدد القطب؟ **فالجواب**: ليست هي مسائل معينة يتكرر السؤال بها لكلِّ قطب، وإنما هي بحسب ما يخطر الله تعالىٰ ذلك الوقت لكلِّ سائل مما جرىٰ له فيه كلام قبل ذلك.

[أول المبايعين للقطب الغوث]

فإن قلتَ: فما أول مبايع له؟ **فالجواب**: قال الشيخ محيي الدين: أولُ مبايع له العقلُ الأولُ، ثم النفسُ، ثم المقدَّمون من عمَّار الأرض والسماوات من الملائكة المسخَّرة، ثم الأرواحُ المدبِرةُ للهياكل التي فارقت أجسادها بالموت، ثم الجنُّ، ثم المولَّدات، ثم سائر ما سبح الله تعالىٰ من مكان ومتمكن، ومحل وحال فيه، إلا العالون من الملائكة كما مرَّ، وكذلك الأفراد الذين لا يدخلون تحت دائرة القطب وما له فيهم تصرف، فإنهم لا يدخلون لأنهم كُمَّل مثله مؤهلون لما ناله هذا الشخص من القطبية، لكن لما كان الأمر يقتضي أن لا يكون في الزمان إلا قطب واحد يقوم بهذا الأمر، تعين ذلك الواحد، ولكن [لا][1] بأَولَوية، وإنما يسبق العلم فيه بأن يكون هو القطب وفي الأفراد من يكون أكبر منه مقامًا في باب العلم بالله تعالىٰ، نظير ما قالوا في نصب الإمام الأعظم، فإنه يجب أن لا يكون أكثر من واحد، لئلا يقع التنازع والفساد، فإن حكم الإمام الأعظم في الوجود حكم القطب[2].

فإن قلتَ: فهل يكون من ظهر بالإمامة بالسيف قطبًا في نفس الأمر؟ **فالجواب**: نعم، قد يكون قطبًا كما وقع لأبي بكر وعمر ومن بعدهما، وقد لا يكون قطبًا، فتكون الخلافة

(١) ساقط من الأصلين، مستكمل من «الفتوحات».

(٢) انظر: «الفتوحات» الباب (٣٣٦).

لقطب الوقت الذي لا يكون إلا بصفة العدل، ويكون هذا الخليفة الظاهر من جملة نوَّاب القطب في الباطن من حيثُ لا يشعر، إذ الجور والظلم يقع من الأئمة الظاهرين، وأما القطب فلا يكون إلا عادلًا. ومن هنا كان لا يُعزل إلا بالموت[١].

فإن قلت: فهل القطبُ محلُّ نظر الله تعالىٰ من العالم كما قيل؟ **فالجواب:** نعم، ومنه يتفرع جميع الأمداد الإلهية علىٰ جميع العالم العلويِّ والسفليِّ. قال الشيخ محيىٰ الدين: وأركان الدين الحنيفيِّ أربعة: الأنبياء، والمرسلون، والأولياء، والمؤمنون. والركن الأعظم هو الرسالة، فهي كالحجر الأسود من أركان الكعبة، وقد أبقىٰ الله تعالىٰ من الرسل ثلاثة: إدريس، وإلياس، وعيسىٰ، والرابع الخضر، لكنهم من باطنية محمد ﷺ، فالواحد من هؤلاء الأربعة هو القطب المقصود، والثلاثة الباقية كبقية أركان البيت، فالاثنان منهم هما الإمامان والأربعة هم الأوتاد، **فبالواحد من هؤلاء الأربعة يحفظ الله** الإيمان، **وبالثاني يحفظ الله** تعالىٰ الولاية، **وبالثالث يحفظ الله** النبوة، **وبالرابع يحفظ الله** الرسالة[٢]، **وبالمجموع يحفظ الله** الدين الحنيفي، فحقيقة مقام القطبية إنما هو لواحد من هؤلاء الأربعة، والقطب الظاهر دائمًا نائب عنه، فاعلم ذلك، **وإياك والمبادرة إلىٰ وصف أحد بالقطبية بالجهل**[٣]. وسيأتي في الباب الثالث عشر[٤] نبذة صالحة في أحوال القطب[٥]، فراجعها والحمد لله رب العالمين.

(١٩٨) ومما أجبتُ به عن العالم أو الفقير أو غيرهما إذا كثر تردد امرأة من بنات الخطا إلىٰ بيته ليلًا ونهارًا، وصار ذلك العالم أو الفقير[٦] مثلاً يخرج معها إلىٰ خارج

---

(١) انظر: «الفتوحات» نفس الباب السابق.

(٢) بالأصلين: الولاية. والمثبت من نص «الفتوحات».

(٣) انظر: «الفتوحات» الباب (٧٣).

(٤) قد أشرنا في المقدمة إلىٰ سبق قلم المؤلف في عد الأبواب، فالصحيح هنا الباب الثاني عشر.

(٥) الجواب رقم (١٢٧٧). وكذلك انظر الجواب (٩٥٧).

(٦) بالأصلين: الأمير. وما أثبتناه الأنسب للسياق.

الباب يباسطها[١] ويضحك معها ويمزح، فلاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا ينبغي وقوعه من عاقل، لأنه فعل الأراذل.

والجواب: أنه تقدم في هذا الباب أنه لا يجوز اللوث بالعالم بمثل ذلك[٢]، فقد يكون تردد بنت الخطا إلىٰ بيته إنما هو ليعلمها أمور دينها ويتوِّبها ويعلمها شرائط التوبة. ويُحتمَل أن بنت الخطا إنما دخلت لعياله لتبيع عليها منديلًا مثلًا، أو تشتريه منها وتدفع إليها ثمنه من وجه حلال دون مهر البغي. أو تحملها علىٰ أنها إنما دخلت علىٰ ذلك العالم أو الصالح أو المباشر ليشفع لها عند الوالي في تهمة وقعت فيها. ولا يجوز حمل صاحب البيت علىٰ أمر مذموم من وقوع في الفاحشة أو مقدماتها. وإن رأينا العالم أو الصالح أو غيرهما يُهْدِي إلىٰ بنت الخطا هدية، أو يدخل هو عليها كلَّ قليل، حملناه علىٰ أنه دخل عليها وعندها من يمنع الخلوة بها من محارمها أو غيرهم، وأنه قصد بذلك تمييل خاطرها إليه، ليتوِّبها من المعاصي ويخوفها من عذاب الله تعالىٰ ونحو ذلك.

فاعلم ذلك، واحمِ سمعَك وبصرَك من أعراض الناس وتحمل أوزارهم يوم القيامة، فإن جميع أعمالك التي أخلصت فيها ربما لا تفي بحقِّ شخص واحد من كذا كذا ألف وقعت في عرضهم بسوء ظنك، والحمد لله رب العالمين.

(١٩٩) ومما أجبتُ به عن الذين يتغالون في شراء المماليك الحسان الوجوه من الأمراء والمباشرين والتجار وغيرهم، ولاث الناس بعِرضهم وظنوا بهم السوء بأنه يجب حملهم علىٰ محامل صحيحة، ويحرم علىٰ كلِّ مسلم أن يلوث بهم إلا إن احتفت بذلك قرائن تدلُّ علىٰ ذلك، فإن القرائن إحدىٰ الأدلة في الشريعة، وليس كل من يتغالىٰ في ثمن المماليك والعبيد يكون قصده الفاحشة، وإنما الأكابر من شأنهم إذا وسَّع الله تعالىٰ عليهم أن يحبوا الجمال في ثيابهم ومراكبهم، ودورهم وعيالهم وعبيدهم مشاكلة لحالهم، فلا يكاد أحدهم يحب ملبسًا حقيرًا، أو زوجة شوهاء، أو عبدًا صورته غير

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصلين، وما أثبتناه الأقرب للرسم والسياق.

(٢) الجواب (١٩١).

جميلة عادة، فلا يحب أن يستخدم من المماليك والعبيد إلا صِبَاح الوجوه، ويحصل عنده هم وكرب برؤية من كان غير صبيح الوجه، لا سيما الوزراء ومن والاهم من جماعة السلطان الأعظم نصره الله.

وقد بلغنا أن من آداب الوزير مع السلطان أن لا يوقف بين يديه أحدًا من أصحاب العاهات، بل يقضي حاجته من غير أن يجمعه علىٰ السلطان، وأنه إن حصل لأحد من الوزراء عاهة من جذام أو برص ولم يعزله السلطان، استنابوا عنه شخصًا سليمًا جميل الصورة، غيرةً علىٰ بصر مولانا السلطان أن يقع علىٰ من فيه نقص في بدنه. والذي نقول به: إن الوزراء وجميع من يتغالىٰ في ثمن المماليك والعبيد سالمون مما يفسقهم، وأنهم غائبون عما يظنه الفسقة فيهم قياسًا علىٰ نفوسهم الغوية.

وقد دخل القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي[1] الذي أفتىٰ بقتل الحلاج رحمه الله علىٰ أمير المؤمنين المعتضد[2] فرأىٰ واقفًا علىٰ رأسه جماعة من المماليك الصِّبَاح الوجوه، فوقع في نفس القاضي شيء، فلما أراد الانصراف، قال له المعتضد: والله يا قاض، ما خلعت سراويلي قط علىٰ فاحشة منذ وعيتُ علىٰ نفسي. فخجل القاضي واستغفر من سوء ظنه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك وإياك وسوء الظن، **وإن رأيتَ شيئًا بعينك، فاستر تخلقًا بأخلاق الله عزَّ وجلَّ**، فإنه تعالىٰ يرىٰ العيب ويستر صاحبه، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل البصري المالكي قاضي بغداد، ولد سنة ١٩٩هـ واعتنىٰ بالعلم من الصغر. كان عالما متقنًا فقيهًا. له مصنفات منها: تآليفه «الموطأ» و«أحكام القرآن» و«المبسوط» في الفقه. توفي في شهر ذي الحجة سنة ٢٨٢هـ. السير (١٣/ ٣٣٩)، الأعلام (١/ ٣١٠).

(٢) المعتضد بالله الخليفة أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أبي أحمد طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد الهاشمي العباسي. ولد في أيام جده: سنة ٢٤٢هـ. كان ملكًا مهيبًا، شجاعًا، جبارًا، شديد الوطأة،قال المسعودي: كان قليل الرحمة، إذا غضب علىٰ أمير حفر له حفيرة، وألقاه حيًا، وطم عليه. توفي: ٢٨٩هـ. السير(١٣/ ٤٦٣)، «شذرات الذهب» (٣/ ٣٧١)

(٤٠٠) ومما أجبتُ به عمَّن كان يتردد إلىٰ إخوانه ويعودهم إذا مرضوا، ثم ترك التردد والعيادة وتأثر إخوانه منه بأنه ربما كان له عذر يمنعه من لقاء الناس ومجالستهم، لكون الحقِّ تعالىٰ كشف له عيوبه ونقائصه، فصار يستحيي من مجالسة الناس، كما يقع لي ذلك كثيرًا. ومن هنا تركتُ حضور الولائم، لكثرة من أظن به أنه رأىٰ عيوبي. وقد وقع لي ذلك في وليمة، فسألتُ الله أن يجعل لي من ذلك فرجًا، فقيل لي في سرِّي: أنوِ الشفاء من عيوبك برؤيتهم لك علىٰ وجه التبرك بهم، فنويتُ ذلك، فزال عني الخجل.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ يقول: ربما جالستُ أحدًا من الإخوان، فأرىٰ نفسي كالفاسق الذي جلس مختفيًا بجانب شيخ الإسلام، فهو يخاف أن أحدًا يشعر به. وكان يقول: إياك أن تتكدر من أخيك إذا قطع زيارتك وعيادتك مدةً طويلةً علىٰ خلاف عادته، فربما لم يجد له نية صالحة يزورك أو يعودك بها. وإياك أن تحمله علىٰ الكبر والعداوة لك، فإن ذلك يأكل حسناتك كما تأكل النار الحطب، وربما كان سبب انقطاع أخيك عنك وقوعك في ذنب، فإن في حديث الطبراني مرفوعًا: «ما توادَّ اثنان في الله فَيُفَرَّق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما»[1] انتهىٰ. ففتش يا أخي نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠١) ومما أجبتُ به عن بعض التجار أو العوام إذا عمل وليمة ودعا الأكابر من الولاة وأبناء الدنيا والعلماء والصلحاء، ثم أجلس الولاة وأبناء الدنيا في صدر المجلس، وأجلس العلماء والصالحين قريبًا من مواضع النعال، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: هذا إزراء بالعلماء والصالحين، بأنه ربما كان الحامل له علىٰ فعله ظنه في العلماء والصالحين أنهم لا يتغيرون بذلك، لموت نفوسهم بالرياضة والمجاهدة كما هو الغالب، بخلاف أبناء الدنيا، فلذلك راعىٰ خاطرهم دون العلماء والصلحاء.

فإن قال قائل: كان ينبغي تعظيمهم من حيثُ العلمُ، وتقديمُ ذلك علىٰ حسن ظنِّه بهم؛ **فالجواب:** أن ظنه المذكور لا يلزم منه احتقارهم، بل هو عين تعظيمهم، عملًا بحديث:

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٣٨٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٠١).

«من تواضع لله رفعه الله»[1]، إذ العالم أو الصالح هو صدر المجلس حيث جلس، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا دعاك أحدٌ إلىٰ وليمة، فأجلسك موضع النعال، ثم قدَّم إليك ما فضل من الخدام والغلمان وغيرهم، فافرح بذلك، وإياك والتكدر من ذلك، فإنه دليل علىٰ كونك متكبرًا، والله لا يحب المتكبرين، فلو كنتَ عاقلًا لأشغلك كراهة الحقِّ تعالىٰ لك عن طلب تعظيم صاحب الوليمة لك، وفي القرآن العظيم: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[الحج: ١٨]، وبان لك بذلك نور قلب صاحب الوليمة، وأنه ما أجلسك عند النعال إلا لاستحقاقك ذلك بتكبرك علىٰ إخوانك، وفي الحديث: «الكبر بطر الحقِّ وغمط الناس»[2]. انتهىٰ. وبطر الحقِّ دفعه ورده، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم، فقد علمت أن في تكدرك من جلوسك عند النعال دفع الحقِّ، واحتقار غيرك برؤيتك أنهم لا يستحقون التقدَّم عليك في المجلس والطعام، ولو كنت متواضعًا لا كبر عندك، لكان من شأنك إذا أجلسوك في صدر المجلس وقدَّموا لك أطايب الطعام أن تقوم وتدع ذلك لإخوانك. انتهىٰ.

وكان سيدي الشيخ عبد العزيز الديريني، وسيدي عبد الله المنوفي[3] ﷺ إذا دعي أحدُهما إلىٰ وليمة وأجلسوه هو وأصحابه عند النعال وقدَّموا لهم فضلة الناس، يقول: اشكروا الله الذي ستر عن الناس عيوبكم ونقائصكم، وجعلهم يعتقدون فيكم الصلاح والتواضع، فإنهم لولا ظنُّوا بكم موت نفوسكم وكثرة التواضع، لكانوا حسبوا حسابكم، وخافوا من ألسنتكم، وأجلسوكم في صدر المجالس كما يفعلون بأصحاب الرعونات النفسانية.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٨٩٤) وابن أبي شيبة (٣٤٦٦٣) وابن ماجه (٤١٧٦).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩١) وابن حبان (٥٤٦٦) والطبراني في «الكبير» (١٠٥٣٣).

(٣) أبو محمد عبد الله المنوفي. كان مالكي المذهب، عالمًا صالحًا زاهدًا، صاحب كرامات وأحوال، نشأ بالقاهرة، وحفظ القرآن، وتفقه واشتغل علىٰ علماء عصره، وبرع في مذهبه، وجمع بين علمي الطريقة والحقيقة، وكان للناس فيه اعتقاد حسن ومحبة وانقياد إليه إلىٰ الغاية، توفي: ٧٤٩هـ. «المنهل الصافي» (٧/ ٩٠)، «الوافي بالوفيات» (١٧/ ٣٧٣).

وكان سيدي عبد الله المنوفي يقول لأصحاب الوليمة: لا تأتوا لنا إلا بالفضلة التي في الأواني، ليحصل لنا بركات الآكلين، فإن البركة تستقر في آخر طعام يكون في الإناء. وكان كثيرًا ما يبادر قبل أصحابه إلىٰ لعق الصحون، ويقول لهم: اغتنموا التبرك بفضلة جميع من أكل من العلماء والصالحين من غير تعب، ثم يقول لهم: تعلموا حسن الظن بالناس، فإن أصحاب الطعام لولا ظنُّوا بنا الخير وموت النفوس ما أطعمونا فضلة الناس. انتهىٰ.

وقد وقع أن زوجة سيدي مجاهد النبراوي[1] دعت امرأة سيدي عبد العزيز الديريني إلىٰ حضور ختان أولادها، وفرشت لها البيت بالبسط والمُضَرَّبات[2]، فلما دخلت عليها، ووجدتها عجوزًا خلقة الثياب، طوت البسط وقالت: اجلسوها في المطبخ علىٰ نخ حلفا[3]، فلما جاء سيدي عبد العزيز فأخذها، قال لها: كيف وجدتِ عرس أولاد أختك؟ فقالت: لم تلتفت أختي إليَّ، وأمرت الجواري بجلوسي في المطبخ! فقال لها: فهل فعلت ذلك بأحد من النساء غيرك؟ فقالت: لا! فقال: هذا دليل علىٰ شدَّة محبتها لك دون غيرك، لتصيري تنظري الطبيخ، وكلَّ شيء استوىٰ أطعموك منه من غير تعب. انتهىٰ.

فانظر يا أخي إلىٰ هذه المحامل الحسنة، واقتدِ بعباد الله الصالحين. ولعلَّ هذه الأمور التي حمل هذان الشيخان أصحاب الوليمة عليها لم تخطر لك علىٰ بال، لكثرة الرعونات والخبائث التي في باطنك، وتنبه لنفسك ولا تكن من الغافلين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٠٢) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا دخل عليه أحد من طلبة

---

(١) سيدي مجاهد النبراوي هو جد السيد مجاهد الأحمدي صاحب الضريح المعروف بالجامع الأحمدي. وبين السيدين عدة وسائط في النسب. وضريح السيد مجاهد بنَبَرُوه التابعة لمحافظ الدقهلية بمصر. انظر «السيد مجاهد الأحمدي الشاذلي» لأبي حامد المالكي، دار الإحسان، (ص١٥). وهو يعد الكتاب الوحيد الذي جمع أخبار السيد مجاهد الأحمدي وترجم له.

(٢) المُضَرَّبَةُ :كساءٌ أو غطاءٌ كاللحافِ ذو طاقيْن مخيطيْنِ خياطةً كثيرةً وبينهما قطنٌ ونحوُه.

(٣)النُّخ :البساط الطويل. والحلفا: نبات عُشبِي مُعَمَّر من الفصيلة النَّجيليَّة، أوراقه مستطيلة خيطيَّة أو أسَلِيَّة النَّصل يلتفُّ بعضُها علىٰ بعضٍ وتُصنع منها الحُصُرُ والقُفَفُ والحِبالُ .

أقرانه أو تلامذتهم ولم يبش في وجهه، ولا قدَّم له طعامًا، بل عبس في وجهه، ولاث ذلك الطالب وشيخه به، وصار يحكي ذلك لكلٍّ من دخل عليه ويقول: كما تحققنا عداوته لنا ولجماعتنا، بأنه لا يجوز حمله علىٰ سوء الظن به، وإنما الواجب علىٰ ذلك الطالب وشيخه أن يقول: إنه لم يفعل ذلك إلا وفاء بحقِّنا ومصلحةً لمريدنا في غيبتنا، لا بغضًا لنا وبخلًا بالطعام، وإنما خاف علىٰ طالبنا من تزلزل عقديته فينا إذا أكرمه وبش في وجهه، فلا يصير ينتفع علىٰ يده ولا يدنا .

ثم إن الواجب علىٰ الشيخ وتلميذه أن يرجعا علىٰ أنفسهما باللوم الذي لم يحملا ذلك العالم أو الشيخ علىٰ محمل حسن، ويقولا لأنفسهما: ما الشيخ إلا للمريد! والله لا أنا شيخ ولا أنت مريد!

فاعلم ذلك، واعمل عليه فإنه نفيس، ونظف باطنك من السوء لتصير تحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا سمعناه يمدح نفسه بالعلوم والأخلاق، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا عاملًا بعلمه أو زاهدًا في الدنيا لما مدح نفسه، بأنه ربما كان الحامل له علىٰ ذلك عدم اعتناء طلبته بما يقرره من دقائق العلوم المحرَّرة، وعدم الاعتماد علىٰ الترجيحات التي يذكرها لهم، فقصد بمدحه نفسه بحضرتهم أن يفتح أحدهم مسامعه ظاهرًا وباطنًا لسماع كلامه وفهمه، من باب ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]. ولو أنه علم من طلبته أنهم يعرفون نفاسة علمه، لما كان مدحه لهم، فافهم.

وقد أجمعوا علىٰ أن للعالم أن يذكر نفسه بالصفات الحميدة التي خلقه الله بها، ليبادر الناس إلىٰ أخذ علمه بالقبول، بخلافه لو كان مجهولًا. ويُحتمَل أن الشيخ مدح نفسه بالعلم والعمل من باب التحدث بالنعمة، ومن مدح نفسه صادقًا فلا حرج عليه. والظاهر من حال الأشياخ الصدق، ولا يجوز حملهم علىٰ الكذب.

(٤٠٢) وكذلك مما أجبتُ به عن الشيخ الذي رماه الحسدة والأعداء بالعظائم، وصار يكذِّبهم ويجيب عن نفسه ولاث الناس به وقالوا: لو كان شيخًا صالحًا لرضي بعلم الله فيه، بأنه لا يلزم من جوابه عن نفسه كونه ممن لا يكتفي بعلم الله فيه، وإنما [أجاب] لغرض صحيح، كأن خاف من تزلزل عقيدة أصحابه فيه إذا لم يجب عن نفسه ويقولون: لولا أنه وقع فيما رُمِي به لأجاب عن نفسه؛ فيفقدون النفع به، ولو أنه علم من طلبته صحة اعتقادهم فيه لما كان أجاب عن نفسه، بل كان يسكت عن ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: للعلماء والأشياخ في الجواب عن نفوسهم وفي مدح نفوسهم وعلومهم مشاهد صحيحة: **فمنها أن يكون مشهد أحدهم أن** أفعاله وأقواله وعلومه ومعارفه كلَّها لله تعالىٰ بحكم الأصل، ثم خلع آثارها عليه، فهو يغار لله تعالىٰ أن ينقص أحد ما يجريه علىٰ جوارحه من الأقوال والأفعال، فهو يجيب عن أفعال الحقِّ من حيثُ كمالُها وحكمتُها؛ **ومنها أن يكون مشهده** أن ذاته كلها خلق لله تعالىٰ، فهو يتكدر ممن يقول له: يا أعور، يا أعرج، يا أجذم، يا أبرص، ونحو ذلك من حيثُ إنه يعيب خلق الله، ويعترض علىٰ مقدوراته في خلقه؛ **ومنها أن يشهد** أن نفسه من جملة إماء الله تعالىٰ، وأنها وديعة عنده قد أمنه الله تعالىٰ عليها، وأمره بالذب عنها وكف الأذىٰ عنها، ودفع كل ما يحصل لها به تكدير وتشويش؛ **ومنها أن يكون مشهده** كثرة الشفقة علىٰ أعدائه، فيخاف إن سكت علىٰ ما يقولون فيه أن ينقص دينهم، فهو يرد عن نفسه ليكذِّبهم الناس فيما أضافوه إليه، ليخف عنهم الإثم؛ **ومنها أن يكون مشهد** أحدهم أنه حامل كتاب الله وشرع رسول الله ﷺ، فهو يغار لله ولرسوله أن أحدًا ينقص حامل القرآن والعلم إكرامًا لله ولرسوله، وهو غائب عن حظِّ نفسه جملة، بل ربما لم يخطر له حظٌّ نفسه علىٰ بال؛ **ومنها أن يكون مشهد** أحدهم وجوب الانتصار لنفسه من حيثُ كونه عبدًا لله ليس له من نفسه شيء؛ **ومنها أن يكون مشهد أحدهم** في الجواب عن نفسه طلب الخير للمسلمين حتىٰ يأخذوا منه علومه ونصحه بالقبول، فهو يغار علىٰ كلِّ شيء يفوتهم الخير، سواء أكان ذلك الخير علىٰ يديه أو يد غيره من أقرانه. **ومحكُّ**

الصدق في ذلك أن يتكدر إذا سمع أحدًا ينقص العلماء كما يتكدر إذا نقصوه هو علىٰ حد سواء، ومتىٰ لم يتساو عنده ذلك، فهو دليل علىٰ أنه لم يتخلص في تكديره من حظّ نفسه، فليعمل علىٰ تخليصها من ذلك. وبقي مشاهد كثيرة يعرفها أهل الله تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: جواب الأشياخ عن نفوسهم أو سكوتهم عن ذلك إنما هو دائر مع المصالح، فلا يُقال: الجواب أولىٰ مطلقًا ولا السكوت أولىٰ مطلقًا. انتهىٰ.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ إذا بلغه عن أحد أنه نقصه في الحال يذهب إليه ويقول له: جزاك الله تعالىٰ يا أخي عني خيرًا، فإنك ذكَّرتني بعيوبي ونقائصي التي كنتُ عنها غافلًا، لأتوب منها أو آخذ حذري من الوقوع فيها في المستقبل، وحميتني أيضًا من الوقوع في العجب أو من دوامي عليه، فإن أقبح الذنوب عند الله عجب المؤمن بأحواله. انتهىٰ. ولعل ذلك المنقِص لأخي المذكور لم يخطر علىٰ باله شيء مما حمله أخي المذكور عليه من المقاصد الحسنة، وإنما كان قصده محض تنقيصه بين الناس إزدراءً له وبغضًا له، وعداوة وحسدًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول مرارًا: من أراد أن يحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، فلينظف باطنه من سائر الراذائل، وما دام باطنه لم يتطهر من ذلك، فمن لازمه سوء الظن بالناس قياسًا علىٰ نفسه هو.

[كيفية معرفة الشيخ عيب مريده]

ثم يقول: **فإن قال قائل**: فمن أين يعرف الشيخ عيب مريده؟ ومن مقام الشيخ طهارة الباطن من سائر الأدناس. **فالجواب**: أن للشيخ طرقًا يطلع بها علىٰ عيب المريد، ليدله علىٰ دوائه: منها الكشف، ومنها الإلهام، ومنها مقابلة باطن المريد لمرآة قلب الشيخ، فيرتسم في قلب الشيخ جميع نقائص المريد، لصفاء مرآة قلب الشيخ، لكن لا يحصل ذلك إلا من مريد صادق وشيخ صادق وقع بينهما اتحاد بالباطن. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٥) ومما أجبتُ به عن الصاحب والجار إذا مات لجاره ولد أو أخ عزيز، وجامع زوجته في تلك الليلة وطبخ ملوخية، ثم احتج بأن جماعه تلك الليلة إنما هو إظهار للرضا بقضاء الله تعالىٰ بموت ولد أخيه، وكذلك طبيخه الملوخية، ولا يجوز حمله علىٰ الشماتة بجاره وفراغ قلبه من مشاركته في الهم كما قد يُتوهَم. وأما توجعه له فإنه من باب التعزية، فإنه سنة مؤكدة، ولا يجوز حمله علىٰ الرياء بذلك.

وسمعتُ شخصًا يقول لسيدي عليًّا الخواص ﷺ: يا سيدي إن جاري فلانًا دخل الحمام اليوم، مع كون ولدي الكبير مات الليلة، وما هكذا حق الجار! فقال الشيخ له: ولأي شيء لا تحمله هو وزوجته علىٰ أنهما قصدا بذلك الجماع إظهار الرضا عن الله تعالىٰ بما قدَّره عليك دون غلبة الشهوة الطبيعية عليهما؟! فتب يا أخي عن سوء الظن بالمسلمين. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل علىٰ أمير، فرأىٰ تحته فرشًا فيه صور حيوانات، فقال: لا أدخل حتىٰ يرفع هذا الفرش. فرفعوه ثم جلس فقضىٰ حاجته من الأمير، ثم إن الأمير أرسل له خمسين دينارًا [نقشوا عليها][1] شخصين وشخصًا إلىٰ داره، فنظر إلىٰ الشخوص التي عليها وقبَّلها ووضعها في كيس في رأسه، فأخبر الأمير بذلك، فقال: يالله العجب! لم يدخل إلينا لأجل صور تُدَاس! ثم إنه أخذ الدنانير التي فيها الصور ووضعها علىٰ رأسه! أين صلاحه؟!

والجواب: أنه لا ينبغي اللوث بهذا الشيخ لأجل ذلك، لاحتمال أنه أخذها ليسبكها ويذهب صورة الأشخاص التي عليها، ثم يتصدق بها عن الأمير ولا يأخذ منها شيئًا لنفسه، كما وقع ذلك لبعض الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٧) ومما أجبتُ به عمن وقع في معصية كبيرة واشتُهرت عنه في بلده، وصار الناس يزدرونه بسببها، لظنهم إصراره عليها، بأنه لا يجوز ازدراؤه ولا حمله علىٰ الإصرار عليها،

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

بل الواجب حمله علىٰ التوبة من تلك المعصية علىٰ الفور[١]، «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٢] كما صرح به الحديث الصحيح. ثم إن تكررت تلك المعصية منه، حملناه علىٰ أنه يتوب عقب كلِّ مرة، وإن عاد في اليوم والليلة سبعين مرة وأكثر كما ورد في الأحاديث[٣] والأحكام إلىٰ الشارع يضعها كيف يشاء حيث شاء، فليس لأحد منا أن يجد في نفسه حصرًا وضيقًا من تكرر أخيه في الوقوع في المعصية، فإنه تابع لتقدير الحقِّ تعالىٰ عليه كثرةً وقلةً، ولم يعلم منه الإصرار علىٰ ذلك، فكيف يحتقره؟! ثم لو قُدِّر أنه أصر علىٰ الذنب، حملناه علىٰ أنه غير مُصرٍّ علىٰ الإصرار، وأنه يتوب فورًا كلما يقع منه إصرار، وهكذا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا يجوز لمسلم أن يزدري أخاه بذنب وقع فيه، لاسيما إن تقادم عهده، بل الواجب عليه أن يحمل أخاه علىٰ أنه تاب عقب تلك المعصية كما هو الغالب في المؤمنين، فإن[٤] من شأن كلِّ مؤمن أن يحصل له هذا الندم عقب الزلة، وهو الركن الأعظم للتوبة، لاستلزامه الإقلاع وعزمه أن لا يعود، ورَدَّ ظلامات ما يمكن ردُّه للآدميين، وكيف يجمع التائب بين ندمه وعدم الإقلاع وعزم أن لا يعود يقع في مثلها، وعدم تحرك نفسه إلىٰ رد المظالم؟! هذا أبعد من البعيد، بل ورد في الحديث: أن إبليس يعتزل ويبكي كلما رأىٰ ابن آدم سجد، ويقول: «يا ويلي أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار»[٥]، فقوله: «يا ويلي» فيه إشعار بالندم، فلولا أنه سبق في علم الله تعالىٰ عدم قبول توبته، لكان قبل الله توبته

---

(١) بالأصلين: الأثر.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) من حديث أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب، كمن لا ذنب له» والبيهقي في «الكبرىٰ» (٢٠٥٦١) والطبراني في الكبير (١٠٢٨١).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٥١٤) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة» والترمذي (٣٥٥٩) والبيهقي في «الكبرىٰ» (٢٠٧٦٥).

(٤) بالأصلين: أو.

(٥) تقدم تخريجه.

عند الندم، وترجع القبضتان إلىٰ واحدة، وهي قبضة السعادة، وذلك محال، فقبول توبته محال، فإذا كان إبليس يقع له الندم عند المخالفة، فالمؤمن الموحِد لله أولىٰ بذلك.

وكان سيدي عبد القادر الدشطوطي ﷺ يقول: لولا أن سبق في علم الله الحكم علىٰ من عصاه أو حصول التوبة عقب الذنب لكلِّ من وقع في معصية من الموحِدين، لمحق الله تعالىٰ العصاة عن آخرهم. قال: وثم من العصاة من لا يمسي كلَّ ليلة أو يصبح إلا وهو مغفور له إما إكرامًا لمحمد ﷺ، أو بسبب أعمال صالحة عملها ولم يكترث بها. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن أهلَ الإصرار الذين يموتون من غير توبة أندرُ من النادر، وهم أهل رحمة الامتنان التي ليست في مقابلة عمل، فاعلم ذلك، وانظر لظلم نفسك بالذنوب طول الليل والنهار، تجده أكثر من ظلم من ترىٰ نفسك عليه من الظلمة بيقين، فارجُ له من المغفرة ما ترجوه لنفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٨) ومما أجبتُ به عن القاضي الذي يتولىٰ القضاء ببذل مال، ولولا المال ما ولوه، بأنه لا يجوز لنا المبادرة إلىٰ الإنكار عليه وحمله علىٰ أنه قصد بتلك التولية الدنيا وأخذ الرِّشَا علىٰ الأحكام، بل تصبر حتىٰ تخالطه وتنظر بقرائن الأحوال ما هو الباعث له علىٰ ذلك، فربما كانت نيته بالتولية أن يُكْتَب في جملة حكَّام الشريعة الحاكمين بالعدل حسب الطاقة، ولم يخطر له الدنيا علىٰ بال، فإن الإنكار لا يسوغ في مثل ذلك إلا بعد الاطلاع علىٰ النية، ونحن لم نطلع عليها، فإنكارنا عليه من باب الفضول، وهو إلىٰ الإثم أقرب من الأجر. فاعلم ذلك، فإن أصحاب المناصب لو توقفت ولايتهم في كلِّ زمان علىٰ تقديم الأصلح، لربما ضاعت بعض مصالح العباد، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٩) ومما أجبتُ به عن قول بعض الفقراء: دخلتُ حضرة الله تعالىٰ، أو خرجت من حضرة الله تعالىٰ، أو رأيتُ فلانًا في حضرة الله تعالىٰ ونحو ذلك، وأنكر عليه الناس لتوهمهم أن حضرة الله تعالىٰ هي التي كان رسول الله ﷺ فيها ليلة الإسراء في السماوات، والحقُّ أنه لا يسوغ الإنكار علىٰ الفقراء إذا قالوا مثل ذلك، فإن مرادهم بحضرة الله

تعالىٰ هو شهود العبد بأنه بين يدي ربه، فمادام هذا الشهود يصحبه، فهو في حضرة الله، فإذا حُجِب عن ذلك فقد خرج من الحضرة، فليس المرادُ بالحضرة مكانًا مخصوصًا[١] في السماء أو في الأرض، إنما الحضرة عامة في كلِّ مكان، وربما حصلت للفقير في بيت الخلاء أو حال الجماع، فيكاد يذوب من الخجل، فاعلم ذلك، **وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أهل الطريق وأنت لم تدخل طريقهم**، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٠) ومما أجبتُ به عمَّن ترك قيام الليل وأنكر عليه إخوانه ذلك وقالوا: فلان قد نكث عهد الفقراء وأعرض عن طريقهم، بأنه ربما كان الباعثُ له علىٰ ترك قيامه في الليل استحكامَ هيبة الله عزَّ وجلَّ حين رأىٰ الحجب مرفوعة في الثلث الآخر من الليل، فصار كلما استحضر أنه بين يدي الله، تكاد مفاصله تتقطع، وصار يسأل الله إسدال الحجاب عن ذلك الشهود، وربما كان وقع في فاحشة ولم تصح له توبة، فصار يستحيي [من دخول حضرة الله تعالىٰ حين يرىٰ نفسه كأنه ملطَخ بعذرة من فوقه إلىٰ قدمه، فصار يستحيي][٢] أن يقف بين أهل الحضرة علىٰ ذلك الحال، لأن أهل الحضرة أنبياء وملائكة وأولياء، وكلُّهم مطهَرون من سائر الأدناس، غير متلطخين بشيء من قاذورات المعاصي، فلما رأىٰ نجاسة ذاته وثيابه بتلك الفاحشة مثلًا، خاف أن يقذِّر تلك الحضرة الشريفة الطاهرة بوقوف مثله فيها، فترك قيام الليل واستحيا من أهلها كما يستحيي العريان الذي لم يجد ما يستر عورته، أو كما يستحيي أن يجلس في مجلس الناس الذين رأوه علىٰ فاحشة وجرَّسوه في شوارع البلد بكرش[٣] علىٰ رأسه، وكثيرًا ما يستحضر الإنسان في وقت أن جميع ذنوبه التي فعلها طول عمره لم تُغفَر، ويرىٰ نفسه كمن تلطخ بعذرة كلب أو خنزير وعذرة جميع الحيوانات علىٰ اختلاف طبقات تلك المعاصي التي وقع فيها، فيكاد يتمنىٰ أن الأرض تبتلعه ولا يراه أحد علىٰ تلك الحالة.

---

(١) بالأصلين: مكان مخصوص. وما أثبتناه هو الصواب نحويًّا.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) الكِرش: معدة الحيوان.

وقد وقع لي مثل ذلك لما حججتُ في سنة ثلاث وستين وتسعمئة، فكدتُ أهلك، وصرتُ أقول في دعائي في الصلاة وفي الطواف: اللهم إن حضوري في هذا الموقف قد نجَّس أهل حضرتك، فلا تؤاخذني بذلك يا أرحم الراحمين. فكنتُ أشهد وقوفي بين أهل الموسم يقذِّر حضرتهم، هذا أمر شهدتُه في نفسي.

وحكىٰ لي سيدي الشيخ عبد القادر الدشطوطي ﷺ قال: استجلت فيَّ هيبة الله عزَّ وجلَّ مرة، فكنتُ إذا مثلتُ نفسي بين يديه عزَّ وجلَّ، أكاد أذوب كما يذوب الملح في الماء، فكنتُ لا أصلي سوىٰ الفرائض، لكونها لا رخصة فيها. وأما النوافل فتركتُها جملة. قال: ودخلتُ مرة في صلاة الضحىٰ، فلم أقدِر علىٰ إتمامها وخرجتُ منها، وألقىٰ الله تعالىٰ في سري أنه عذرني في ذلك الانصراف. قال: ولا يعذر صاحب هذا المقام إلا من ذاقه في نفسه. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي من ترك قيام الليل من إخوانك علىٰ استحكام هيبة الله عزَّ وجلَّ في قلبه، أو علىٰ عدم القسمة الإلهية، وأن الحقَّ تعالىٰ يسامحه في ترك حضور ذلك الموكب، كما يعذر السلطان من علم عذره من جنده في عدم حضوره الموكب مع محبته له، ولله المثل الأعلىٰ، فاسلك يا أخي الطريق تعرف أحوال أهلها، والحمد لله رب العالمين.

(٢١١) ومما أجبتُ به عن العلماء إذا أنكروا علىٰ أهل التصوف شيئًا من أحوالهم التي يتقربون بها إلىٰ الله تعالىٰ، وصار المتشبهون بالصوفية ينكرون علىٰ العلماء كذلك ويقولون عنهم: إن هؤلاء محجوبون عما نحن فيه، بأنه يجب حمل العلماء علىٰ أنهم ما أنكروا علىٰ الفقراء لحظِّ نفس، وإنما ذلك نصرة لجانب الشريعة التي توهموا مخالفة الصوفية لها، فإن العلماء حماة الشريعة المطهَرة، ويجب عليهم الإنكار علىٰ كلِّ من خالف ظاهرها، لاسيما **وغالب طلبة العلم في كل زمان ليس لهم ذوق في علم الحقيقة ولا يتطلبون علمها، ولا يجتمعون بمن يوصلهم إليها،** وقد أمر رسول الله ﷺ علماء أمته أن يذبوا عن شريعته بعد موته حسب طاقتهم، وقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء

المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ»(١)، انتهىٰ. إذ ظاهر الشريعة هو الذي عليه مدار الدين في هذه الدار. وأما علوم الحقيقة فمحلها الدار الآخرة.

ثم إنه لو تأمل الصوفي في نفسه لوجد اللوم عليه هو الذي خالف ظاهر الشريعة حتىٰ أنكر طالب العلم عليه. وقد أجمع المشايخ علىٰ أنه لا يكون الصوفيُّ صوفيًّا حتىٰ يحبس نفسه في قمقم الشريعة، ويختم عليها بخاتم الحقيقة. انتهىٰ. فكان من نعم الله تعالىٰ علىٰ ذلك الصوفيِّ إنكار ذلك العالم عليه، لأنه لو تركه وما خالف فيه ظاهر الشريعة، لربما كان يُكتَب من الأئمة المضلين عن سواء السبيل.

فيا سعادة من كان مقيمًا في مثل جامع الأزهر، فإن أهله لا يكاد أحدهم يقره علىٰ ما يخالف ظاهر الشريعة، بخلاف من كان في حارة أو قرية بعيدًا عنهم، فإنه ربما كان من الهالكين، وهو يظن نفسه ممن يحسن صنعًا، وقد قالوا: يُحرَم علىٰ الصوفي أن يتظاهر بكلِّ أمر لا يشهد له ظاهر الكتاب والسنة، وإن كل من تظاهر بمثل ذلك فهو جاهل بطريق القوم، فإنها محررة علىٰ الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٣) ومما أجبتُ به عن العوام الذين رأينا أحدهم يتعاطىٰ عبادة فاسدة بنقص ركن أو شرط، بأن أحدهم ربما كان يجهل وجوب تعلم أحكام العبادات عليه، فلا ينبغي المبادرة للإنكار عليه إلا إن علمنا منه العلم بأحكام الشريعة ثم خالفها بعد ذلك ذاكرًا لها غير ناسٍ، ولا ينبغي أن نأمره بإعادة ما مضىٰ إلا بطريق شرعي، لأنه ربما كان لا يعتقد وجوب تعلمها عليه علىٰ الوجه الذي عليه العلماء، فنعلمه أحكام الشريعة، ونعرِّفه بأنه كان الواجب عليه تعلم أحكام الصلاة عند بلوغه، ليأتي بالعبادة علىٰ الوجه المشروع، ونعلمه بأن بعض العلماء أوجب عليه قضاء جميع العبادات الواجبة ولم يعذره في جهله بها، لكونه نشأ ببلاد الإسلام.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجة (٤٢) وأحمد (١٧١٤٥) والحاكم (٣٢٩).

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: إذا رأيتَ شخصًا علىٰ فعل لا يوافق الشريعة، فانظر إلىٰ من ناصيته بيده سبحانه وتعالىٰ أولًا، ثم أنكر عليه ما يخالف الشريعة ثانيًا، أو علِّمه الشرع إن كان جاهلًا ثم أنكر عليه، وفي ذلك أدب مع الله تعالىٰ ومع الشريعة. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٣) ومما أجبتُ به عن أرباب الأحوال الذين يخالفون ظاهر الشريعة، وإذا أنكر عليهم أحد من العلماء عطبوه أو سلبوه من علمه، كيف صحَّ لهم القدرة علىٰ عطب من أنكر عليهم أو سلبه مع أنه مخالف للشريعة؟ ومخالفها لا كرامة له، ولا يقدِرُ عادةً علىٰ التأثير في غيره، لأنه لا يؤثر في غيره إلا بإمداد الله تعالىٰ بالقوة، والله لا يمد المبطل علىٰ وجه الكرامة له.

والجواب: أن أرباب الأحوال نوع من المجاذيب، والمجاذيب لا تكليف عليهم، ومن لا تكليف عليه فلا يسوغ لنا الإنكار عليه، فربما حارب الحقُّ تعالىٰ من أنكر عليه من حيث إن عقله مخبوء في حضرته تعالىٰ، فلا يسلمه تعالىٰ لمن يؤذيه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لو أن الفقيه أنكر علىٰ من خالف الشريعة خالصًا مخلصًا، لم يقدر أحد علىٰ سلبه، لاستناده إلىٰ الشارع، ولكنه أنكر مخلوطًا بحظِّ نفسه، فلذلك عطبه الفقراء وسلبوه. فأخلِص يا أخي في إنكارك وأنا أضمن لك أن أحدًا لا يقدر علىٰ أن يعطبك أبدًا.

وقد قلتُ مرةً لسيدي الشيخ محمد الشناوي[1]: إني رأيتُ بعض فقراء سيدي أحمد البدوي يفعلون أمورًا تخالف ظاهر الشريعة، وإذا أنكر عليهم أحد عطبوه، كيف ذلك؟ فقال: يا ولدي إنهم لا يعتقدون مخالفة ذلك للشريعة، ولو أنهم علموا مخالفته لها ما

(١) العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد الشناوي الشيخ الصالح العالم المربي السالك، شيخ الفقراء بالشرقية، كان من أهل الإنصاف والأدب، وكان يلقن الرجال والنساء والأطفال كلمة التوحيد في أي بلد دخل إليه، وكان ﷺ يقول: أشعلنا نار التوحيد في هذه الأقطار، فلا تنطفيء إلىٰ يوم القيامة، ٩٣٢ هـ. الكواكب السائرة (١/ ١٩٧)، الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٧١٠).

قدروا علىٰ التأثير في أحد. انتهىٰ، فاعلم ذلك واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٤) ومما أجبتُ به عن من قال من الصوفية: إن العلم حجاب عن الله عزَّ وجلَّ؛ ولاث به العلماء بسبب ذلك وقالوا: كيف تجعل العلم الذي هو نور حجابًا عن الله عزَّ وجلَّ، وأنه كلما ازداد علمًا ازداد حجابًا، وقد قال الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فكيف يُؤمَر رسول الله ﷺ بطلب ما يكون به الحجاب؟

والجواب: أن المسألة عما فهمه هذا المنكِر بمعزل، فإن مراد القوم إنما هو إثبات أن العبد دائمًا خلف علمه، وأن علمه دائمًا بينه وبين الله عزَّ وجلَّ لا يمكن أن العبد يتقدم في معاملة ربه علىٰ علمه أبدًا، فهو كلام في غاية التحقيق. فإذن يا أخي ما عرف الحقَّ تعالىٰ إلا علمك لا أنت، وليس مشهودك من معرفة الحقِّ تعالىٰ إلا ما علَّمك. ولا ينبغي أن يفهم أحد عن القوم أنهم قالوا ذلك ذمًّا للعلم، فإن من ذم العلم فقد مدح الجهل، وذلك لا يقوله عاقل.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: العلم دائمًا حجاب علىٰ صاحبه وهو خلفه، ضاق علمه بالله تعالىٰ وأحكامه أو اتسع، لا يمكنه أن يتقدم علىٰ علمه أبدًا. فلا ينبغي لأحد أن يظن بالقوم أن أحدهم يذم العلم الذي بأيدي العلماء أبدًا، وكيف يظن بهم ذلك وهم يشهدون أن الشريعة هي أساس طريقهم سداها ولحمتها منها؟! وأن أحدهم يحتاج إلىٰ ميزان الشريعة في كلِّ حركة وسكون، وما ثم لهم ميزان يزنون بها أحوالهم غيرها، هذا أبعد من البعيد. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ القوم وأنت جاهل باصطلاحهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٥) ومما أجبتُ به عن العالم العظيم أو الشيخ في الطريق إذا تولىٰ نظرًا علىٰ وقف أو يتيم، وزاحم الناس علىٰ ذلك، وبذل مالًا في أخذه النظر عليه، ولاث الناس به وقالوا: قد فسدت الدنيا إذا كان العلماء والمشايخ صاروا يزاحمون علىٰ الدنيا، فكيف بغيرهم؟!

والجواب: أنه يجب شرعًا حملهم علىٰ أن أحدهم ربما زاحم علىٰ ذلك حيثُ وثق

بدين نفسه، لتمكنه في مقام الزهد في الدنيا دون غيره، ولم يجد أحدًا من أقرانه يمكن في هذا المقام مثله، فخاف علىٰ دين إخوانه من باب الاحتياط لهم إذا تولوا النظر علىٰ ذلك الوقف أن يطمع أحد في شيء من مال الوقف بغير حقٍّ، أو لا يقدر علىٰ العدل بين المستحقين، أو لا يقدر علىٰ تخليص خراجه ونحو ذلك، فحمل ذلك عن إخوانه شفقةً علىٰ دينهم، ومحبةً فيهم، لا حبًّا في الدنيا، فلا إنكار إلا علىٰ من وجد أصلح منه للنظر علىٰ ذلك الوقف، ثم زاحم عليه لأجل حظِّ نفسه.

فإياك أن تظن بالعلماء والصالحين أنهم مثلك في محبة الدنيا، فإن بين مقامك ومقامهم كما بين السماء والأرض، وتأمل قتال بعض الصحابة علىٰ الخلافة، فإنه يحرم جزمًا أن تظن بهم أن ذلك محبة في الدنيا، وإنما ذلك ليقوموا بالعدل فيها، ويمنعوا القوي أن يأخذ ما ليس له بحقٍّ من أموال بيت المال، فكان كلُّ صحابي يطلب أن يحمل عن أخيه تلك الكلفة والمشقة، ويفرِّغ أخاه للعبادة ﷺ. فإياك يا أخي ولحوم العلماء والصالحين، فإنها سم ساعة لدينك، واحملهم علىٰ ما حملت به الصحابة، فإنهم ورثتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٦) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين إذا صلىٰ أحدهم إمامًا وسها كثيرًا في صلاته، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا حاضرًا بقلبه مع الله في صلاته، ما سها فيها هذا السهو، ولكن قلبه مشتت في أودية الدنيا ونحو ذلك، بأنه قد يكون سهوه مما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله عزَّ وجلَّ، لا بسبب أمور الدنيا، فمن عظيم ما تجلىٰ لقلبه من عظمة الله تعالىٰ، ذهل عن عدد ما صلَّىٰ وما قال مثلًا.

وأيضًا فإنه ليس لنا اطلاع علىٰ ما في نفس الإمام، ولا نعلم ما في نفسه إلا بإخباره لنا عن ذلك، فإذا قال: إنه خطر لي في صلاتي أن أتزوج امرأةً جميلةً مثلًا، أو أبني دارًا، أو أغرس بستانًا ونحو ذلك، فتسلسلت فيَّ الخواطر حتىٰ لم أدر ما صليت؛ فحينئذٍ لنا الاعتراض عليه الذي لم يرض نفسه بالسلوك حتىٰ ماتت خواطره المذمومة، أو لكونه لم يفرِّغ نفسه من أمور الدنيا قبل دخوله في الصلاة، ولم يعرف آداب مناجاة الحقِّ سبحانه وتعالىٰ، فإن من

آداب العبد إذا ناجىٰ ربه أن لا يلتفت بقلبه لشيء من زخارف الكونين، وليس له مقصد إلا مولاه، فكيف يشغله عنه [شيء][1] هو أقل عند العارفين من جناح بعوضة؟!

ثم اعلم يا أخي أن مقام الذهول عما صلىٰ العبد مقام شريف بالنسبة لمن كان حاضرًا مع الأكوان، أو مع ما يفعله من الأركان والسنن، لكن ثم مقام أعلىٰ منه وهو حضور العبد مع الله تعالىٰ، وشهود تجلي عظمته في قلبه، ثم لا يحجبه ذلك عن معرفته بعدد ما صلىٰ مثلًا، وهذا مقام الكمال الموروث عن رسول الله ﷺ، ولذلك قال: «إنما أنسىٰ ليُسْتنَّ بي» أي ولو لم أنسَ لم يقع مني سهو لما أنا عليه من التمكن، مع أن تجلىٰ الحقِّ عزَّ وجلَّ لقلبه بالعظمة أمر لا يتحمله أحد من خلق الله تعالىٰ إلا بتأييد منه، ولولا أن رسول الله ﷺ كان أقوىٰ من الجبل كما نبه الحقُّ تعالىٰ علىٰ ذلك بقوله: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ [الحشر: ٢١] الآية لما قدر علىٰ مشاهدة الخلق مع الحقِّ، فعُلِمَ أن كلَّ من كمل في المقام، صار يشاهد عظمة الحقِّ تعالىٰ في قلبه، ويشاهد جميع أفعاله التي كُلِّف بها في صلاته، لا يشغله أحد الأمرين عن الآخر. فاحمل يا أخي شيخك في العلم والطريق علىٰ أحسن الأحوال، ولا تحمله علىٰ حال نفسك الناقص، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٧) ومما أجبتُ به عن العالم العظيم أو الصالح في الناس إذا رأىٰ أحد من العوام له رؤيا تؤذن بإزدرائه ونقص مقامه ولاث الجاهلون به وقالوا: هؤلاء كلهم نصابون علىٰ الخلق، كذابون علىٰ الله، بأنه قد تكون تلك الصورة القبيحة التي رآها العامي في منامه مثلًا إنما هي صورة الرائي لا صورة ذلك العالم، «فإن المؤمن مرآة المؤمن»[2] ولا يرىٰ الإنسان في المؤمن إلا صورة نفسه لا صورة المرآة.

ومما وقع أن شخصًا جاء إلىٰ الشيخ أبي يزيد البسطامي ﷺ وقال: يا سيدي، رأيتُ الليلة صورتك صورة خنزير! فقال: صدقت يا أخي، فإني مرآة الوجود، فرأيتَ نفسك فيَّ، فحسبتَ أنك أنا. انتهىٰ.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، والبيهقي في الكبرىٰ (١٦٦٨١) والبخاري في« الأدب المفرد» (٢٣٨)، بنحوه.

فإياك يا أخي من النفرة من العالم أو الصالح إذا رأىٰ أحد لهما رؤيا قبيحة، فربما كان من إراءة الشيطان، لينفر الناس عن ذلك العالم الذي يهديهم إلىٰ طرق الهدىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٨) ومما أجبتُ به عن الفقير أو العالم إذا رأيناه يأخذ من الولاة مالًا أو ثيابًا أو طعامًا ونحو ذلك وبادر الناس إلىٰ الإنكار عليه بسبب ذلك، بأنه لا يلزم من أخذ ذلك المال أن العالم أو الفقير أخذه لغير ضرورة، فقد يكون محتاجًا إلىٰ مثله، أو أخذه علىٰ اسم أصحاب الضرورات من المديونين أو العرايا الذي مرضوا بالحب الفرنجي، فيتمهل من يريد الإنكار حتىٰ يعلم من يأخذ ذلك المال، أو يأكل ذلك الطعام، أو يلبس ذلك الثوب، ثم بعد ذلك ينظر إن أخذه ذلك العالم لنفسه أو لغيره من غير ضرورة، أنكر عليه وإلا وجب عليه التسليم.

ثم لا يخفىٰ أنه لا يلزم أن يكون كلُّ شيء في يد الولاة يُفتَىٰ بتحريم الانتفاع به، فقد يكون ذلك حلالًا أحل من المال الذي في يد شيخ الزاوية، فإن كان المنكَر عليه من أهل الكشف وكُشِف له أن ذلك المال الذي في يد ذلك الأمير حلالًا، فهو مع كشفه؛ وإن لم يكن عنده كشف، كفاه فتوىٰ أئمة الشرع، فقد أفتوا أن الظالم لو غصب مالًا ووضعه في كمه مثلًا، ثم تواریٰ عنَّا بجدار وأعطانا مالًا من كمه، جاز لنا أخذه والانتفاع به، لاحتمال أنه أبدله لما تواریٰ عنا. فحقق يا أخي كون ذلك المال مثلًا حرامًا، ثم أنكر علىٰ من انتفع به من غير ضرورة، وما لم تتحقق تحريمه، فلك الإنكار علىٰ صاحبه ندبًا وتورعًا لا وجوبًا، والحمد لله رب العالمين.

(٢١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أوصىٰ أصحابه أن يكثروا من دعاء الناس إلىٰ المشي في جنازته، أو أن يصلوا عليه في مثل جامع الأزهر، وعن الشيخ الذي أوصىٰ أصحابه وقال: لا تعلموا بي أحدًا إذا متُّ، أو سكت عن ذلك؛ ولاث الناس بهما، فقالوا في الأول: إنه مُراءٍ حتىٰ بعد موته، وقالوا في الثاني: إنه رجل مخنفس معجب بعلمه، يرىٰ نفسه غنيًّا عن دعاء إخوانه له، ونحو ذلك، بأنه لا يجوز اللوث في واحد منهما، لأن

الأول قد تكون نيته بكثرة جمع الناس للمشي في جنازته شهوده كثرة ذنوبه، فرأىٰ أنها علىٰ كثرتها لا يكفي فيها شفاعة ناس قليل عادةً.

وأما الثاني فربما قصد عدم منَّة الناس عليه في الشفاعة فيه، وعوَّل علىٰ فضل ربه، لاسيما وهو يعلم أنه قد أيس من مكافأتهم بعد موته علىٰ مشيهم معه. وقد يكون من أهل التفويض إلىٰ الله تعالىٰ، فاكتفىٰ بإعلام أصحابه بموته بعضهم بعضًا للصلاة عليه، فلم يوص بذلك أصلًا أو سكت عنه. وربما كان قوله: «لا تعلموا بموتي أحدًا» كثرة الحياء من الله عز وجلَّ، وخوف الفضيحة منهم يوم القيامة إذا كُشف لهم عن معاصيه التي عملها طول عمره. وقد كان الفضيل بن عياض يقول: إياك وكثرة المعارف، فإن الرجل إذا وقعت له فضيحة يوم القيامة، كان من يعرفه قليلًا، فهو أحسن ممن يكون معارفه كثيرة.

ويُقاس علىٰ ما ذكرناه من حفر لنفسه قبرًا، أو أوصىٰ بأن يجعلوا عليه قبةً أو مقصورةً، فيُحمَل علىٰ أنه قصد بفعل ذلك التشبه بالصالحين قياسًا علىٰ حاله أيام حياته. وقد أباح القوم ذلك علىٰ وجه التبرك بزيهم، فاعلم ذلك، واحم سمعك وبصرك وقلبك، وفوض أمر مقاصد الخلق إلىٰ ربهم.

وقد مدح الله ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾[الزمر: ١٨]، فعُلِمَ أنه لا يجوز حمل من أوصىٰ بكثرة الناس في جنازته علىٰ الرياء وحبِّ الشهرة والمفاخرة بجنازته، ولا حمل من أوصىٰ بأن لا يتبع جنازته أحد علىٰ العجب بنفسه وسوء ظنه بالناس، وأن الله لا يقبل شفاعتهم فيه ونحو ذلك، فإنه غيبة، وهي أقبح من غيبته حال حياته، لأنه ربما أمكنه براءة ذمته ومسامحته، بخلافه بعد موته، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٠) ومما أجبتُ به عن الفقير المجهول الحال الذي يكثر من حضور الولائم حتىٰ لا تفوته وليمة في بلده ولا في مقبرة، وصار الناس يسمونه ضبعًا، بأن الواجب علىٰ كلِّ مسلم إحسان الظنِّ به، فربما كان من رجال الله الذين يحضرون الولائم بقصد سترة أهلها بين الناس، لاسيما ولائم الأعراس، فكلُّ طعام حضروه أو نظروا إليه أو أكلوا منه أو حملوا منه صحنًا، أنزل الله فيه البركة أضعافًا مضاعفة. وربما طلب ذلك الفقير أن يعطوه من

سائر أنواع الطعام، فيدفعوه ويخرجوه ويقولوا له: أنت طماع! فيرفع الله تعالىٰ البركة من ذلك الطعام الذي منعوه منه، وينكشف حال صاحب الوليمة. ولو أنهم كانوا أعطوه ما طلب، لربما كفىٰ أهل البلد وفاض عليهم. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وأكرموا الفقراء المجهولين الذين يدخلون في أعراسكم وولائمكم رجاءَ بركتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢١) ومما أجبتُ به عن الفقراء المجهولين الذين يحضرون آلات اللهو، ويناموني في خانات بنات الخطا دون المساجد، ويصير الناس يقعون في أعراضهم ولا يحتفلون بأمرهم ويزدرونهم، بأنه لا يجوز الإنكار عليهم ببادئ الرأي، لاحتمال أن يكونوا من رجال الله الذين يشفعون في العصاة كلما عصوا، ويسألون الله تعالىٰ عدم نزول البلاء عليهم حالَ معاصيهم، ويُسَمَّون «رجال الرحمة» يوجدون كثيرًا في بيت الوالي، وفي بيت كلِّ من يجور في حكمه، ولولا وجودهم لربما محق الله تعالىٰ العصاة عن آخرهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] بسلطانهم فيها.

وقد أدركتُ من رجال هذا المقام جماعة، منهم الشيخ وحيش[1] الذي كان بمدينة النحرارية، والشيخ تميم الذي كان بناحية شبين الكوم، كانا لا يفارقان بنات الخطا ولا مواضع ضرب العود والغناء. فابحث يا أخي عن أحوال مثل هؤلاء، ثم أنكر بعد ذلك أو اسكت، فربما صدمك أحد من هؤلاء فأتلف بدنك أو دينك.

واعلم يا أخي [أن][2] الإنكار لا يسوغ التشديد فيه إلا علىٰ من يُتبَع علىٰ أفعاله عادةً من الفقراء وطلبة العلم ووجوه الناس. أما أرباب الأحوال فما نرىٰ أحدًا يتبعهم علىٰ أفعالهم، لأنهم عند الناس كالمجاذيب.

وقد أخبرني السيد الشريف العالم الصالح الشيخ شرف الدين بزاوية الخطيب بمصر

---

(١) علي وحيش كان ﷺ من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال، وكان يأتي مصر، والمحلة، وغيرهما من البلاد، وله كرامات، وخوارق. مات رحمه الله تعالىٰ بالنجارية سنة ٩٧١هـ ﷺ. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٢٩).

(٢) زيادة ضرورية لاستقامة السياق.

أن شخصًا من أصحابه كان ناظر الخاص[١] قام عليه عدو، فعزله وأخذ وظيفته وسلب نعمته، فخرج إلىٰ القرافة يحمل الأولياء حملته، فرأىٰ شخصًا مكشوف الرأس يبول علىٰ أوراكه واقفًا، والهواء يرد رشاس بوله علىٰ وجهه، فقال له ناظر الخواص المعزول: يا سيدي، اجعل ظهرك للهواء وبُلْ. فقال: يا مسكين، لو كنتَ في دركي لقضيتُ حاجتك. فقال له: يا سيدي، وأين دركك؟! فقال له: العريش[٢] وأنت رايح للشام. فقال[٣] له: يا سيدي، ومن صاحب درك مصر؟ فقال: حسن الخلبوص الذي في خان بنات الخطا بناحية زفتىٰ، فرح إليه يقضي حاجتك. فذهب إليه، فوجد واحدة من بنات الخطا راكبة علىٰ ظهره وهي تصفعه في عنقه، فلما رآه قال لها: انزلي، فإنهم أرسلوا لنا خرية من مصر! فنزلت وقال له: قد قُضِيت حاجتُك ارجع. فرجع إلىٰ مصر، فوجد خصمه جالسًا في داره وهو أخرس مكسح، وذلك أنه خرج له سبع عظيم من حائط البيت وقال له: ارجع عن فلان وإلا أكلتك! وفتح له فمه، فانزعج منه، فخرس وتكسح، وكتب له في ورقة: قد رجعت عنك، فخذ وظيفتك. ثم حكىٰ للسلطان ما جرىٰ له. انتهىٰ.

فإياك يا أخي ثم إياك من الإنكار علىٰ من لا تعرف حاله، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٢) ومما أجبتُ به عن الذين ينامون في محاريب الأئمة ولا يراهم أحد يصلون مع وجود عقل التكليف، ويصير الإمام والناس ينكرون عليهم، بأن أحدهم ربما كان من رجال الله الذين يخرِّبون ما بينهم وبين الناس، لخبث الزمان حتىٰ لا يكاد أحدهم يعتقدهم.

وقد حكىٰ لي الشيخ محمد الإمام بجامع سمانود البحري قال: كان شخص عليه بِشْت[٤] وقحف ينام في محراب الجامع، فكلما أردت الصلاة في المحراب أجده نائمًا فيه، فوكزته برجلي في ضلعه يومًا، وقلتُ له: قم! فقام ودفعني في حائط المحراب،

---

(١) ناظر الخاص هو الذي ينظر في خاصّ أموال السلطان.

(٢) العريش: إحدىٰ مدن محافظة شمال سيناء بمصر.

(٣) بالأصلين: فقلتُ.

(٤) البِشْتُ: كِسَاءٌ من صَوف غليظ النَّسج، لا كُمَّيْن لَهُ، يرتديه أهْلُ الريف في الشتاء.

فوجدتُ نفسي في أرض قفراء وعرة، ليس فيها أنيس، فصرتُ أمشي في الوعر حتىٰ جُرِحَت أقدامي وخرت الدم، فلففتُ علىٰ رجلي قطعةً بعد قطعةٍ من عمامتي حتىٰ تقطعت كلُّها. ثم تراءت لي شجرة فقصدتُها، فوجدتُ عندها عين ماء، فشربتُ منها وغسلتُ وجهي، ورأيت موضع أقدام في الأرض مبلولة فتبعتها، فإذا بجماعة عليهم ثياب نظيفة في ذروة جبل، وإذ بذلك الشخص الذي كان في المحراب هو إمام الجماعة، فلما سلَّم من صلاة العصر، التفت إلىٰ الجماعة وقال: من فيكم يشهد فيَّ بأني لا أصلي؟ فقالوا بأجمعهم: حاشاكم من ذلك! قال: فبرئوني عند هذا الرجل! فتاب الإمام إلىٰ الله تعالىٰ وقال: لا أعود! فقال الشيخ: ليقم واحد منكم يردُّه إلىٰ سمانود، فإن المصلين ينتظرونه، لكن بشرط الكتمان. فقام واحدٌ وقال له: هل تعرف كم بينك وبين سمانود؟ فقال: لا! فقال: سفر سنة كاملة! ثم دفعه فخرج من حائط المحراب وعمامته مشرمطة[1]، وانقطع الشيخ عن محراب سمانود من ذلك اليوم. وقد بسطنا الكلام علىٰ أحوال هؤلاء الرجال في «العهود المحمدية» والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٣) ومما أجبتُ به عن المدرسين إذا تزاحموا علىٰ التدريس ومكانه في مثل جامع الأزهر، وقال الناس: إن ذلك كله من علامات الرياء وحب الشهرة، بأن الواجب علىٰ كلِّ مسلم أن يحمل كلًّا من العالِـمَين علىٰ أنه قصد أن يكون مجلسه بارزًا للناس يعرفه الناس بمكانه، ليستفتوه ويسألوه عن العلم، كما قالوا ذلك في مجلس القاضي. ولا يجوز حمل العلماء علىٰ الرياء وحبِّ الشهرة، لاسيما إن أظهر أحدهما الفرح والسرور إذا كبرت حلقة درسه وعظَّمه الناس، فإن بركة علمه تمنعه من مثل هذا القصد، أو من إصراره عليه إذا وقع له، فيجب حمله علىٰ عدم الرياء، والتوبة من ذلك فورًا كلما خطر له ذلك. وليس لأحد الدخول بين الخلق ونياتهم، أو بينهم وبين ربهم، كما أشار إليه حديث: «أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني

(١) أي مكونة من شراميط، وهي قطع القماش الصغيرة.

دماءهم وأموالهم إلا بحقِّ الإسلام وحسابهم علىٰ الله»[١]. انتهىٰ. فانظر كيف قال: «وحسابهم علىٰ الله» أي من أجل تحقيق نياتهم.

فإياك يا أخي ثم إياك من ظنِّ السوء بالعلماء وحملهم علىٰ حال نفسك الناقص، لاسيما إن ترافع العالمان إلىٰ الحكَّام، وطلب كلٌّ واحد أن يجلس في صدر جامع الأزهر أو صحنه مثلًا، فإن النية إذا صلُحت، كان طلب الاستعانة بالحكام مطلوبًا، لأنه غرض شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٤) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا وسَّع الله تعالىٰ عليه الدنيا، فتوسع فيها في مأكله وملابسه ومناكحه وداره، ولم يطعم فقيرًا منها شيئًا، وصار الناس يقولون: هذا الشيخ لم يشم لطريق القوم رائحة، ويخرجونه من مقام الزهد في الدنيا، بأن هذا الشيخ ربما كُشِفَ له أن الفقراء ليس لهم فيما بيده من الدنيا، فعمل بكشفه. ومصداق ذلك عدم دخولهم إلىٰ شيء من الدنيا علىٰ يديه، فإنه لو كان لهم فيه نصيب، لوصل إليهم ولو بالنصب والغصب، فافهم.

وربما كان هذا الشيخ يحبُّ صدقة السرِّ، لكونها تضاعف علىٰ صدقة العلانية بسبعين ضعفًا، فهو يخاف من إظهارها، فيظنُّ الناس أنه بخيل، والحال أنه أكرم من جميع من في البلد.

أو ربما كان ذلك الشيخ من رجال الله المتمكنين في مقام العبودية الذين يسألون الله تعالىٰ أن لا يجعل لأحد علىٰ يديهم رزقًا، خوفًا من أن يخطر علىٰ بالهم أن لهم منَّة علىٰ أحد من عباد الله في الدنيا والآخرة. وإنما لم يسألوا الله تعالىٰ أن يجعل أرزاق معارفهم علىٰ يدهم ويحفظهم في ذلك من رؤية المنة، احتياطًا لأنفسهم من الوقوع في مُسمَّىٰ المنة، وجعلوا المنَّة لله وحده علىٰ عباده كما هو في نفس الأمر.

فإن قال قائل: قد يكون لهذا الشيخ أتباع، فيتبعونه علىٰ التوسع في الدنيا، ويمنعون

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢١).

الفقراء بخلًا، ولا يذوقون مشهده فيهلكون، وذلك غش منه لأصحابه؛ قلنا: قد يكون هذا الشيخ لا أتباع له، أو له أتباع وسأل الله تعالىٰ أن يحفظهم من أن يتبعوه في ذلك، وأجاب الله تعالىٰ دعاءه.

وربما قصد ذلك الشيخ بإظهار توسعته في مآكله وملابسه وغير ذلك إظهارَ نعمة الله تعالىٰ عليه، وسدَّ باب افتقاد الأغنياء له بالهدايا، كما هو شأن أكابر العلماء والصالحين. ومعلوم أن إظهار العبد نعمة الله عليه مطلوب شرعًا، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ: ١١]. وقد رأىٰ رسول الله ﷺ رجلًا رث الثياب، فقال له: «أما لك مال؟ فقال: لي من كل المال يا رسول الله. فقال له: أفلا يُرىٰ أثر نعمة الله عليك»[1] رواه الطبراني وغيره.

فإن قال قائل: إن من يتوسع في الدنيا في مثل هذا الزمان لا يجد ذلك من حلال، وإنما هو من الحرام والشبهات، ومعلوم أن ترك ذلك أولىٰ من أخذه والتوسع فيه وإظهار النعمة عليه به، ومعلوم أن إظهار العبد للنعمة لا يكون مطلوبًا منه إلا إن وجد ذلك من حلال؛ **فالجواب**: أنه قد يكون هذا الشيخ ممن اعتنىٰ الله تعالىٰ به، واستخلص الحلال الكثير من بين فرث الحرام ودم الشبهات، كما عليه الأكابر من الأولياء، كسيدي عبد القادر الجيلي، والشيخ محمد الحنفي[2]، والشيخ مدين، والشيخ أبي الحسن البكري[3] وولده سيدي محمد البكري[4] وأضرابهم، بقرينة وصول ذلك إليهم بغير سؤال منهم

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٦) والنسائي (٥٢٢٣) والطبراني في «الكبير» (٦٠٨).

(٢) محمد بن حسن بن علي التيمي البكري الشاذلي، أبو عبد الله شمس الدين الحنفي صوفي مصري من أهل القاهرة. اشتهر بأخبار حكيت عنه مع السلطان فرج بن برقوق وغيره.من مصنفاته: «الروض النسيق في علم الطريق» شرح به كلام شيخه محمد العجان ت ٨٤٧هـ. الأعلام (٦/ ٨٨) و«الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٩).

(٣) محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الحسن البكري الصديقي مفسر متصوف مصري، من علماء الشافعية. ولد وتوفي بالقاهرة، شاع ذكره في أقطار الأرض مع صغر سنه. له مصنفات منها: «تسهيل السبيل» في تفسير القرآن، ويسمىٰ «تفسير البكري» و«شرح العباب» و«عقد الجواهر البهية في الصلاة علىٰ خير البرية». ت ٩٥٢هـ. «الأعلام» (٧/ ٥٧)، «شذرات الذهب» (١٠/ ٤١٩).

(٤) محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري الصديقي الشافعي الأشعري المصري، أبو المكارم

وبلا واسطة حال أو قال، وربما صار المُهدِي إليهم يقبِّل رجلهم ليقبلوا منه هديته، فلا اعتراض إلا علىٰ من يطلب الدنيا من الناس من غير ضرورة أو علىٰ اسم الفقراء، ويختص بها دونهم، أو من يتوسع في الدنيا لحظِّ نفسه غافلًا عن الشكر وعن إظهار النعم عليه، أو يتبعه الناس علىٰ مثل ذلك من غير ذوق لمقامه.

واعلم يا أخي أن المذموم من الدنيا إنما هو **الميل بالقلب إليها لغير غرض شرعي، وأما كونها في اليد دون القلب، فذلك مطلوب شرعًا**، ولو كان المراد تركها من اليد لما أقرَّ النبي ﷺ أحدًا من الصحابة علىٰ التجارة.

ثم إننا إذا رأينا وليًّا بخيلًا، فمن الواجب حمله علىٰ أن ذلك ليس ببخل حقيقة، وإنما هو منه لحكمة، تخلقًا بأخلاق الله تعالىٰ، فإن من أسمائه «المانع» فهو تعالىٰ يمنع من شاء من عباده لحكمة دون بخل تعالىٰ الله عن ذلك. فإياك والاعتراض علىٰ الأشياخ ثم إياك، فإنك دونهم في العلم بالله تعالىٰ وبأحكامه بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٥) ومما أجبتُ به عن المقريء إذا قرأ القرآن في وليمة والي أو أمير مثلًا ودعا لمن حضر من الباشاه أو قاضي العسكر أو الدفتردار مثلًا بدوام ولايته، وأن يفسح في أجله، وأكثر من الابتهال في الدعاء، وحمله الناس علىٰ الرياء والسمعة للأمير، ليحسن إليه ويميل إليه، بأن ذلك سوء ظن به، وذلك حرام، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه دعا لذلك الأمير أو القاضي لغرض شرعي، من حيثُ إن بوجود وليِّ الأمر مثلًا يحفظ الله تعالىٰ نظام العالم والشريعة عن الاختلال، فلو كان هناك أحد من أهل الكشف وقال للناس: إن هذا إنما دعا للأمير رياءً وسمعة؛ قلنا لهم: هذا كشف شيطانيٌّ، وقد حرَّم الله تعالىٰ العمل به، وحرَّموا علىٰ صاحبه إخبارَ الناس به، وأوجبوا عليه التوبة منه فورًا.

وكان سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا رأيتُم عالمًا أو شيخًا في الطريق يمدح أميرًا

شمس الدين. ولد ٩٣٠ هـ، أخذ علوم الشرع والتصوف عن أبيه شيخ الإسلام أبي الحسن، وتفقه علىٰ جماعة غيره، كان عظيم الحلم، واسع الصدر، حسن الخلق جدًا، لا يقابل من يؤذيه، ولا ينتقم ممن يعاديه، توفي سنة ٩٩٤ هـ. النور السافر ص٣٦٩، الكواكب الدرية (٣/ ٤٥٩)، معجم المؤلفين (١١/ ٢٨١).

ويبالغ في مدحه، فاحذروا أن تحملوه علىٰ أنه محبة لغرض دنيوي، وإنما الواجب أن تحملوه علىٰ أنه إنما أحبه لله عزَّ وجلَّ من حيثُ إن الله تعالىٰ أمَّره علىٰ المسلمين، وأعطاه التصرف فيهم، فمن كرهه فكأنه يرجِّح نظره علىٰ مراد الله تعالىٰ، فإياكم أن تكرهوا من ولّاه الله تعالىٰ [عليكم لظلمه لكم مثلًا، فإنه ما ظلمكم في زعمكم إلا بأعمالكم، فتوبوا من كل ذنب يعلمه الله تعالىٰ] منكم، وأنا أضمن لكم أنه يصير بإذن الله تعالىٰ يحسن إليكم.

وإن كان أحدكم ولابد كارهًا لذلك القاضي أو الأمير مثلًا، فليتعرف ذلك من توجهه إلىٰ الله تعالىٰ، كأن يتوضأ ويصلي ركعتين لا يحدِث فيهما نفسه، ثم يسأل الله تعالىٰ أن يطلعه علىٰ حال ذلك الشخص عنده، نظير ما ورد في الاستخارة[1]. وإن دعا بدعائها كان أولىٰ، ثم بعد ذلك يعمل بما ينشرح به صدره أو ينقبض، فإن ألقىٰ الحقُّ تعالىٰ محبته في قلبه فذاك، ووجب عليه محبته زيادةً علىٰ محبته الأولىٰ، وإن ألقىٰ في قلبه الحقُّ تعالىٰ كراهته، توقف عن الكراهة، فربما يكون ذلك تلبيسًا من إبليس، وقد نهانا الشارع عن الدعاء علىٰ السلطان وعلىٰ ولاة الأمور أدبًا مع من ولاهم سبحانه وتعالىٰ، فالعاقل من أتىٰ البيوت من أبوابها. والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٦) ومما أجبتُ به عن من كان يترددُ إلينا ليلًا ونهارًا، ثم تركنا أيامًا وشهورًا أو سنين كأنه لم يعرفنا بأنه ربما كان سبب تركه التردد إلينا اشتغاله بأمور مهمة في دينه أو دنياه مقدَّمة شرعًا علىٰ زيارتنا أو عيادتنا، أو[2] أنه لا يجد نية صالحة يأتي إلينا بها، أو ربما

(١) حديث الاستخارة أخرجه البخاري (٧٣٩٠) من حديث جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن. يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر - ثم تسميه بعينه - خيرًا لي في عاجل أمري وآجله - قال: أو في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري وآجله - فاصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به» وأبو داود (١٥٣٨).

(٢) بالأصلين: إذ.

قصد بذلك إدخال الراحة علينا بعدم تعبنا في مكافأته بالتردد إليه بحكم العدل، أو ربما رأىٰ منا ما يكره، ففارقنا بحقٍّ، وقد كان رسول الله ﷺ يتفقد من ينقطع عن مجلسه من أصحابه، وكثيرًا ما يذهب إلىٰ من انقطع عن مجالسته ويقول له: «لعلك وجدت منا أو من أصحابنا شيئًا تكرهه»[١]. انتهىٰ. قلتُ: وهذا من باب التشريع لأمته ﷺ.

ثم إن هذا الأمر خاص بمن صحبنا من آحاد الناس. أما الأكابر كالعلماء والصالحين والأمراء، فمن الواجب عدم العتب عليهم، بل نرىٰ الفضل لهم في عدم التردد، فإن جميع ما معنا من المدد لا يساوي خطوة واحدة يخطوها أحدهم إلينا، لاسيما قاضي العسكر أو الدفتردار[٢]، فإن مجيء أحد منهما إلينا يدخلنا في غاية التعب من جهة الشفاعة عنده في عمال السلطان وأرباب الوظائف، فلا يسعه أن يجيبنا إلىٰ الشفاعة فيهم، لأن الدفتردار معد لجمع مال السلطان في خزانته لا أن يسامح فيه العمال، والقاضي مجتهد في تقديم الأصلح علىٰ غيره، فهو أعلم منا بأحوال الناس.

وقد كان الأمير إبراهيم الدفتردار يتردد إليَّ قبل أن يتولىٰ وظيفة الدفتردارية، فلما تولىٰ أرسل يقول لي: إنما تركتُ التردد إليك رحمةً بك وشفقةً عليك من التعب في شفاعات العمال، وأنا والله باقٍ علىٰ محبتي واعتقادي؛ فقبلتُ منه ذلك، وشكرتُ فضله عليه.

وقد كان لي صاحب يجالسني ليلًا ونهارًا ثم انقطع عني، فأرسلتُ أقول له: إنك أوحشتنا كثيرًا! فقال: والله ما تركتُ التردد إلا لكوني أرىٰ نفسي لا أصلح لصحبتكم، فإني علمتُ من نفسي كثرة وقوعي في غيبة أعدائي بحضرتكم، وخفتُ أن يغلب عليكم الحياء مني، فلا تردُّوا عمن اغتبتُه، فيحصل لكم الإثم، فاحتطتُ لنفسي ولكم؛ فصدقتُه وقبلتُ منه ذلك العذر، وشكرتُ فضله علىٰ ذلك.

---

(١) لم أقف عليه، لكن تفقده ﷺ لأصحابه ورد في وصف أبي هالة له عليه الصلاة والسلام أخرجه الترمذي في الشمائل (٣١٩)، والطبراني (٤١٤).

(٢) الدفتردار: المسؤول عن سجلات الحسابات وقيود سجلات الخزينة. وكان دفتردار العاصمة إستانبول بمثابة وزير المالية حاليًا، يتبعه دفتردار لكل ولاية أدنىٰ مرتبة منه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رحمه الله يقول: من أدب الفقير الدال علىٰ صدقه في طلب الطريق أن يشكر فضل كلِّ من لم يتردد إليه، فإنه ربما دخل عليه وهو في ذكر أو علم أو مراقبة، فشغله عن ذلك أو عن كمال الإقبال فيه، وكدَّر عليه وقته. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل من ترك التردد إليك علىٰ الكبر أو غيره من المحامل السيئة، فإن ذلك حرام عليك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا أصغىٰ إلىٰ من مدحه في مجلس، ولم يقل مثلًا: نحن من أقل الناس؛ فلاث الناس به وقالوا عنه: إنه يحب مدحه في المجالس، ولو كان يكره ذلك، لزجر المادح له، عملًا بحديث: «احثوا في وجوه المادحين التراب»[1] ونحو ذلك، بأنه لا يلزم من سكوت الشيخ علىٰ مدحه رضاه به، فقد يكون سكوته إنما هو من الخجل الذي حصل له من ذلك المدح، كما هو شأن غالب الناس، ولذلك ورد فيمن مدح أخاه بحضرة الناس: «قطعت ظهر أخيك»[2]. انتهىٰ.

ويُحتمَل أيضًا أن يكون في ذلك الوقت في مقام الرياضة لنفسه، فرأىٰ أن إيهام الناس أنه راضٍ بالمدح أقوىٰ في رياضتها، وأبعد عن حظوظها، من حيثُ إن الناس لا يعظمونه بذلك، وإنما يعظمونه بكثرة التواضع.

ثم بتقدير أن الشيخ فرح بالمدح، فيُحمَل علىٰ فرحه بذلك من حيثُ شهودُه أن الله تعالىٰ هو المجري له علىٰ لسان ذلك المادح، مع حفظ الشيخ من رؤية نفسه بذلك علىٰ الناس، فيصير المادح يمدح والشيخ ذائب من شدة الخجل من الله تعالىٰ ومن الناس. وتأمل إذا اطلع إنسان علىٰ فاحشة، وخاف منه العاصي أن يذكرها للناس، ثم إن العالم بتلك المعصية صار يمدح ذلك العاصي في المجالس بعد ذلك كيف يصير يخجل منه كلما مدحه، وكذلك الشيخ إذا مدحه إنسان بين يدي ربه العالم بسريرته، وأخذ ذلك

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٢)، وأبو داود (٤٨٠٤) وابن حبان (٥٧٦٩).

(٢) ذكره بهذا اللفظ المتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٥٢) وعزاه للطبراني في الكبير ولم أجده فيه، والحديث عند البخاري (٢٦٦٣) بلفظ: «قطعت عنق صاحبك»، ومسلم (٣٠٠٠).

المدح علىٰ لسان الحقِّ تعالىٰ يكاد يذوب من الخجل.

وفي كلام ابن عطاء الله في كتاب «الحكم»: «العارفون إذا مُدِحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحقِّ، والعبَّاد إذا مُدِحوا انقبضوا لشهودهم ذلك من الخلق». انتهىٰ.

وقد قالوا: من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها. وقالوا: إذا مدحك أحد في الملأ فاسكت، فإنه أقوىٰ في رياضة النفس. ولكن بلغنا عن الإمام أبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين أنهم كانوا يقولون إذا مُدِحوا: «اللهم اجعلنا خيرًا مما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون». ومدح عدو مرة الإمام عليًّا[1] في مجلس، فقال له الإمام: أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٨) ومما أجبتُ به عن فقراء الأحمدية أو البرهانية أو الرفاعية مثلًا إذا لبس أحدهم لباس الصالحين، ثم فعل أفعالًا لا تليق بالفقراء الصادقين، بأن أحدهم ربما كان جاهلًا بقواعد الطريق، فظن أنه لبس الذي يكفيه، فهو معذور من هذا الوجه، وإن كان غير معذور من جهة عدم تعلمه قواعد طريق سلفه في الماضي، فعلِّمه يا أخي قواعد طريق سلفه، ثم أنكر عليه بعد ذلك إذا خالفها. وإن رأيته لا يهتدي للتعلم كغالب السمران من فقراء الأحمدية، فأعرض عنه ولا تتعب نفسك فيه، وربما تكون سريرته عند الله أطهر من سريرتك، فإياك واحتقاره، والحمد لله رب العالمين.

(٢٢٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الحيِّ أو المدفون إذا سرق اللصوص أمتعته أو ستره أو شمعه أو قناديله، وقال الناس: لو كان هذا وليًّا لله عزَّ وجلَّ، لقيد السارق حتىٰ مسكه الناس وأسلموه للوالي، بأن ذلك لا يقدح في كمال ولاية الوليِّ، بل من كماله أن الدنيا كلَّها لو كانت بيده ثم أخذها لص منه، لا يطالبه بذلك لا دنيا ولا أخرىٰ، فإن الدنيا لا تزن في عيون الأولياء جناح بعوضة، فماذا يخص ذلك الولي من جناح البعوضة إذا قُسِّم علىٰ أهل الأرض جميعًا حتىٰ يقيد مسلمًا موحدًا يحب الله ورسوله، ليسلمه الناس إلىٰ

(١) بالأصلين: عليٌّ، والمثبت الصواب نحويًا.

الوالي، فيعاقبه أو يقتله ويصير ذلك في ذمته؟!

فعُلِمَ أنه لا يجوز احتقار ذلك الشيخ الذي سرقوا ستره مثلًا، بل ذلك دليل على كماله في الطريق وكرم نفسه، فإنه ﷺ يعلم أن الستر والشمع المعلَّق لم يأمر الشرع به، إنما ذلك معدود من البدع[1]. وأيضًا فإنه قد ورد مرفوعًا: «ما جُبِل وليٌّ لله تعالىٰ إلا علىٰ السخاء وحسن الخلق»[2] والسخي لا يتأثر علىٰ شيء أُخذَ منه، ولا يؤذي مسلمًا بسببه.

وربما كان ذلك اللص الذي أخذ ذلك الستر ما أخذه حتىٰ شاور الشيخ بقلبه وقال له: دستور يا سيدي آخذ هذا الستر، لأجعله غطاء علىٰ أولادي في الشتاء! كما وقع لسيدي أحمد الزاهد، فسمع شخص قائلًا يقول في الليل وهو خارج القبة: دستور يا سيدي أحمد آخذ هذا الستر. فقال له الشيخ من ضريحه: خذه وأرحني منه! انتهىٰ. هكذا أخبرني به بوَّاب جامعه بخط المقسم. فإياك يا أخي ثم إياك أن تقع في حقِّ أولياء الله إذا سرق أحد متاعهم ولم يؤذوا الذي سرقه.

وإياكم إذا عرفتم ما قررناه أن تحكموا علىٰ الوليِّ الذي قيَّد السارق بالنقص وتقولوا: لو كان كاملًا لسامح السارق؛ فإن ذلك قد لا يكون بواسطته، بل بغير خاطره، وإنما القدرة غارت علىٰ السارق في إخلاله بحرمة أولياء الله تعالىٰ عادة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٠) ومما أجبتُ به عن الإمام الغزالي في قوله بوجوب الخشوع في الصلاة والحضور مع الله تعالىٰ فيها من أولها إلىٰ آخرها، وقال الفقيه في حقِّه: هذا منزع صوفيٌّ لا يجب العمل به علىٰ الأمة، بأن مراد الإمام ﷺ أن ذلك واجب علىٰ الأكابر كأهل العلم والصلاح، لا علىٰ العوام، فإن مثل الإمام الغزالي لا يجهل مثل ذلك، فلكل مقام رجال.

ومن هذا الباب قوله ﷺ بوجوب تشخيص أفعال الصلاة كلِّها حال النية والتكبير، فإن الشيخ ما ذكر ذلك إلا في حقِّ الأولياء الذي غلبت روحانيتهم علىٰ جثمانيتهم، إذ

---

(١) أي معدود من البدع الحسنة، فهو مباح وليس بواجب حتىٰ يطالب به.

(٢) أخرجه الديلمي (٦٢١٤)، وذكره السيوطي في اللآليء المصنوعة (٢٧٧)، وقال: قال الدارقطني: الحديث لا يثبت.

من شأن الأرواح أن تقدر علىٰ تشخيص أفعال الصلاة كلِّها في لمحة، بخلاف أصحاب الجثمانيات، فإن أحدهم لا يتعقل شيئًا إلا بعد شيء علىٰ التدريج، وذلك يستدعي أن الإمام يفرغ من صلاة الرباعية، ولا يستحضر الناوي جميع أفعال الصلاة وأقوالها، فافهم.

وإياك أن تقول عن كلام أهل الطريق في مثل ذلك: «هذا منزع صوفي» وتسكت، بل عقِّبه بقولك: لا يقدر أمثالنا علىٰ المشي عليه، أدبًا مع أصحاب ذلك المقام من النبي ﷺ ومن الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء العاملين، فإن اعتقادنا فيهم كلهم أن روحانيتهم كانت قد غلبت علىٰ جثمانيتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣١) ومما أجبتُ به عمن اعتزل الناس في بيته، ولاث الناس به وحملوه علىٰ التكبر، بأن حمله علىٰ مثل ذلك لا يجوز، فإن العزلة من السنن المشهورة في السنة، ولكن قد قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ تصير السنة بدعة»[1]، فإذا ترك البدعة يقول الناس: تركت السنة، انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إذا انقطع صاحبكم في بيته واعتزل الناس، فإياكم أن تحملوه علىٰ التكبر أو غيره من المحامل السيئة، فربما كان الباعث له علىٰ العزلة شهوده في نفسه كثرة نقائصه، فاستحيا أن يجلس لأجلها مع الناس. وربما شهد من نفسه قلة ضبط لسانه عن الوقيعة في الناس، فخاف أن يتبعه الناس علىٰ ذلك أو يسيئوا الظن بمن وقع هو في عرضه، فلا يقدرون بعد ذلك علىٰ شهود الكمال فيه،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٢٥٩) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: سيجيء في آخر الزمان أقوام، تكون وجوههم وجوه الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين، أمثال الذئاب الضواري، ليس في قلوبهم شيء من الرحمة، سفاكون للدماء، لا يزعون قبيحًا، إن تابعتهم واربوك، وإن تواريت عنهم اغتابوك، وإن حدثوك كذبوك، وإن أمنتهم خانوك، صبيهم عارم، وشابهم شاطر، وشيخهم لا يأمر بمعروف، ولا ينهىٰ عن منكر، الاعتزاز بهم ذل، وطلب ما في أيديهم فقر، الحليم فيهم غاو، والآمر بالمعروف فيهم متهم، المؤمن فيهم مستضعف، والفاسق فيهم مشرف، السنة فيهم بدعة، والبدعة فيهم سنة، فعند ذلك يسلط الله عليهم شرارهم، ويدعو أخيارهم فلا يستجاب لهم» والطبرني في «الصغير» (٨٦٩).

لاسيما إن خاف من السامعين أن يبلِّغوا ذلك لمن وقع في عرضه، فيؤذونه أشدَّ الأذىٰ، فهو صاحب مصيبة في دينه، وذلك عذر مقبول في عدم خروجه إلىٰ الناس. ولم يزل خواص الناس في كلِّ عصر يحتاطون لأنفسهم، ولا يخالطون إلا من علموا منه الصداقة والود، وقليل ما هم.

فاحمل يا أخي أخاك إذا انقطع في بيته علىٰ المحامل الحسنة، وإياك أن تتكدر ممن لا يجالسك، وأقلل أنت الآخر من مجالسته احتياطًا لدينه ولدينك، فإنه قلَّ مجلس لغو مباح إلا وتقع فيه الغيبة، فهو إلىٰ الإثم أقرب، ومن شك فليجرب، وقد كان الناس في الزمن الماضي إذا اجتمعوا يستفيد بعضهم من بعض، فصاروا اليوم يسخر بعضهم من بعض. وقد تمنىٰ الإمام الشافعي صديقًا يوافقه فلم ييسر له وأنشد:

أحب من الإخوان كل مواتي ... وكل غضيض الطرف عن عثراتي

يوافقني في كل أمر أرومه ... ويحفظني حيًّا وبعد مماتي

فمن لي بهذا ليت أني أصبته ... فقاسمته ما لي مع الحسنات

وأنشد أيضًا:

صديق ليس ينفع يوم بؤس ... قريب من عدو في القياس

وما يبقىٰ الصديق بكل عصر ... ولا الإخوان إلا للتأسي

خبرت الدهر ملتمسًا بجهدي ... أخا ثقة فأكداني التماسي

تنكرت البلاد عليَّ حتىٰ ... كأن أناسها ليسوا بناسِ

وأنشدني والدي رحمه الله:

الناس داء دفين لا دواء لهم ... العقل قد حار فيهم فهو منذهل

إن جئتَ منبسطًا سمُّوك مسخرة ... أو كنت منقبضًا قالوا به ثقل

وإن تخالطهم قالوا به طمع ... وإن تجانبهم قالوا به ملل

وإن تزندقت قالوا فيك منقصة ... وإن تزهدت قالوا زهده حيل

إلىٰ آخر ما قال.

وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: لا غم يعدل فراق الإخوان، ولا سرور يعدل اجتماعهم، ولكن أين الإخوان؟! وكان يقول: لولا مجالسة الإخوان في هذه الدار، والتهجد في الأسحار، ما أحببتُ البقاء فيها. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٢) ومما أجبتُ به عن قول بعض الصوفية: أنا أعرف بعض أخبار السماوات التي تقع فيها كلَّ يوم؛ ولاث الناس به بسبب ذلك، بأنه قد يصدق في ذلك إذا وقع بينه وبين الملَكين الكاتبين الحافظين اتحاد ومحادثة، فصارا يخبرانه عما يقع في السماوات، كقولهم فلان رُدَّ عمله، فلان عمله مقبول، فلان يحبُّه الله، فلان يبغضه الله، ونحو ذلك.

وقد يكون ذلك الفقير ممن غلبت روحانيته علىٰ جثمانيته، فصارت روحه طوَّافة بالملكوت الأعلىٰ، يسمع ما يُقال هناك كلما نام، إذ الممنوع إنما هو الطواف في السماوات بالجسم، وأما الروح فلا منع منه، كما أن الممنوع من رؤية الملائكة إنما هو حال تكليمهم للعبد، أما سماع كلامهم من غير رؤية أشخاصهم، أو رؤية أشخاصهم حال عدم كلامهم، فلا منع، فلا يجمع بين رؤية الملك وسماع كلامه معًا إلا رسول، وذلك لأنه يريد أن ينشيء شرعًا جديدًا، أو ينسخ شرع من قبله ويثبت شرعًا آخر، فاحتاج إلىٰ زيادة تقوِّي قلبَه، بخلاف الوليِّ، فإنه إنما يدعو بشرع ثابت مقرَّر قبل وجوده هو، ولو أنه أتىٰ بشرع يخالف شرعه نبيه لا نقبله منه، فافهم.

وقد كان ثابت البناني ﷺ يقول بعد صلاة المغرب وبعد صلاة الصبح كلَّ يوم: السلام علىٰ الملَكين الكريمين الكاتبين الحافظين، اكتبا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص] أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأشهد أن الجنة حقٌّ، وأن النار حقٌّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. فما مات حتىٰ كلَّمه الملكان، وكانا يخبرانه بأعماله وأعمال أصحابه المقبولة والمردودة، ليشكر الله تعالىٰ علىٰ المقبولة، ويستغفر الله تعالىٰ من

المردودة. هكذا ذكره ابن نجاح[1] في كتابه «سبل الخيرات».

وقد أجاب الشيخُ عبد الغفار القوصيُّ[2] رحمه الله بنحو ما ذكرناه في قول الشيخ أبي الحجاج الأقصريِّ[3] رحمه الله لمن سأله عن حاجة: «اصبر حتىٰ ينزل عليَّ عزرائيل، أو حتىٰ أسأل عنها جبريل» ونحو ذلك، فقال: إن قلوب العارفين لها تطواف بالملكوت الأعلىٰ، فربما أشرفت علىٰ ما يقع في السماوات مما يتعلق بأعمال أهل الأرض الصاعدة كلَّ يوم. قال: ولا منع من ذلك إلا إن ادعىٰ الوليُّ أن الملَك يأتيه بشرع جديد. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تبادر إلىٰ القول بتكفير من قال: صافحتُ جبريل هذه الليلة مثلًا، فإنه ورد في الحديث: «أنه يصافح قوَّام ليلة القدر»[4]. وقد يخرق الله العادة لبعض أوليائه فيصافحه في غير ليلة القدر، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٣) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا بالغ في التواضع حتىٰ صار يقوم للفسقة ويقول:

---

(١) يحيىٰ بن نجاح بن القلاس، أبو الحسين القرطبي: متفقه. من أهل قرطبة. حج واستوطن مصر، ومات بها. له كتاب «سبل الخيرات في المواعظ والوصايا والزهد والرقائق». توفي:٤٢٢ هـ. الأعلام» (٨/ ١٧٤).

(٢) عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد الأنصاري القوصي، المعروف بابن نوح: فاضل متصوف، أصله من الأقصر -بصعيد مصر- اشتهر بقوص. يتصل نسبه بسعد بن عبادة. من مصنفاته: «الوحيد في سلوك أهل التوحيد». توفي: ٧٠٨ هـ بالقاهرة. «الأعلام» (٤/ ٣١).

(٣) يوسف بن عبد الرحيم بن عربي القرشي المهدوي الأقصري، أبو الحجاج: من كبار الصوفية في عصره. نزل بالأقصر -بصعيد مصر- وقبره فيها معروف إلىٰ الآن. وكان في شبابه مشارفًا للديوان. وتجرد وكثر أتباعه. وهو من أهل الرواية والعلم.من مصنفاته: «منظومة في التوحيد» توفي: ٦٤٢هـ. «الطبقات الكبرىٰ للشعراني» (١/ ١٣١)، «الأعلام»(٨/ ٢٣٨).

(٤) أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٤٤) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام في كبكبة من الملائكة يصلون علىٰ كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل، فإذا كان يوم عيدهم، يعني يوم فطرهم، باهىٰ بهم ملائكته، فقال: يا ملائكتي ما جزاء أجير وفىٰ عمله؟ قالوا: ربنا جزاؤه أن يوفىٰ أجره. قال: ملائكتي عبيدي وإمائي قضوا فريضتي عليهم، ثم خرجوا يعجون إليَّ بالدعاء، وعزتي وجلالي وكرمي وعلوي وارتفاع مكاني لأجيبنهم، فيقول: ارجعوا فقد غفرت لكم وبدلت سيئاتكم حسنات، قال: فيرجعون مغفورا لهم».

هم أحسن حالًا مني، ولاث الناس في عرضه وقالوا: يُكره القيام للفسقة أو يحرم، بأنه ربما كان مشهده صحيحًا في أن ذلك الفاسق أحسن حالًا منه عند نفسه، فهو عنده من أهل الفضل، والقيامُ لأهل الفضل سنةٌ، فلا عتب على الفقير ما دام له عين واحدة، فإذا صار له عدة عيون، كان مأمورًا بترك القيام للفاسق إيثارًا لجناب الله عزَّ وجلَّ، فإن من ينتهك حرمات الله تعالىٰ فهو ممن أهانه الله تعالىٰ، فلا ينبغي تعظيمه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، فعُلِمَ أن الكامل هو من يرىٰ كمال غيره من الفسقة عليه بعين، ويرىٰ كمال نفسه عليهم بعين أخرىٰ.

[نوع دقيقٌ خفي من سوء الظنّ]

واعلم يا أخي أن مما يخفىٰ من سوء الظن قول بعضهم: لو لا أخشىٰ أن يسيء فلان فيَّ الظنَّ لفعلتُ كذا وكذا، فإن خوفه منه أنه يسيء به الظن هو سوء ظن به. وكذلك قولك: لولا أخشىٰ أن تكبر نفس فلان إذا تواضعتُ له، لكنت أتواضع له، لأنك جعلته ممن يتكبر بالتواضع له، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٤) ومما أجبتُ به عمن تقدم للصلاة علىٰ جنازة بحضرة أقرانه وأخروه فلم يتأخر، ولاث الناس به وقالوا: إنه يحب الرئاسة، بأنه ربما كان الحامل له علىٰ التقدم خوفه علىٰ أقرانه وقوعهم في العجب بأنفسهم إذا صلوا أئمة في الجنازة العظيمة في مثل جامع الأزهر، فاحتاط لإخوانه وتحمل عنهم وزر العجب الذي لعله يقع من أحد منهم، لاسيما وهو مستحضِر أمر الموت وما يلقاه الميت، فإن حبه للرئاسة في ذلك الوقت بعيد جدًّا.

فإن قال قائل: إن خوفه العجب علىٰ أصحابه سوء ظن بهم وإحسانًا للظن بنفسه؛ قلنا: هذا من باب تحمل الأذىٰ عن الإخوان بحكم الفرض والتقدير، فلا يُمنَع منه. فإياك يا أخي وسوء الظن بمن تقدم للصلاة في المحافل، فإن أجر صلاتك علىٰ الجنازة ومشيك معها وحضورك دفنها لا يعادل سوء ظنك بذلك الإمام، فقد خسرت وما ربحت. وإن خطر ذلك في نفسك، فتب علىٰ الفور واستغفر الله، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي يمكن الناس من تقبيل يده أو رجله ولا يضمها عنهم، ويقول الناس عنه: إن هذا من التكبر المنهي عنه، لاسيما إن استدعىٰ هو منهم ذلك، بأنه ربما كان محجوبًا بشهود النعمة عن شهود نفسه، فيرىٰ أن الخلق إنما يتبركون بنعمة الله تعالىٰ عليه لا به هو، وربما لم يخطر علىٰ باله أن التعظيم له.

وقد كان أبو يزيد البسطامي ﵀ إذا خرج علىٰ الناس يصيرون يتمسحون بمرقعته ويتبركون بها، فلامه بعض أصحابه في ذلك، فقال: إنهم لم يتبركوا بأبي يزيد، وإنما يتبركون بخلعة الله تعالىٰ التي ألبسها له وزينها في عيون الناس. انتهىٰ. فكل من مكَّن الناس من تقبيل يده أو رجله أو طلب هو منهم ذلك، حملناه علىٰ أنه إنما مكنهم من ذلك أو أمرهم به من حيثُ تبركُهم بنعمة الله تعالىٰ الجديدة لا به هو، فهو يرىٰ نفسه كأنها أجنبية عن صفات التعظيم. ورأيتُ بعضَهم يقبل رجل نفسه ويقول: إنما أقبل خلعة الإسلام التي ألبسها لي الحقُّ جلَّ وعلا.

وكان سيدي علي ابن وفا ﵀ يقول: من قدر علىٰ كتم أسرار العباد وصبر علىٰ تعظيمهم له بغير صدق واستهزاءً به ولم يخبر بذلك أحدًا، فله أن يمكِّن الناس من تقبيل يده، نظير ما ورد في الحجر الأسود من أنه يعرف من استلمه بحقٍّ ومن استلمه بغير حقٍّ، ولا يعلم بذلك المستلم. انتهىٰ. فلعل من رأيناه يمكِّن الناس من تقبيل رجله يكون من أهل هذا المقام.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: إياك أن تحمل من رأيت الناس يقبلون رجله من العلماء علىٰ أنه يحب ذلك، فربما يكون يكره ذلك أشد الكراهة، والناس من شدة اعتقادهم فيه يقبلون رجله كرهًا عليه، أو ربما كان ممن يرىٰ إظهار فضل الله عليه واجبًا فضلًا عن كونه مستحبًا.

وكان يقول: لو كان المعترض علىٰ تقبيل رجل العالم متواضعًا، لأمر الناس بذلك، لأن المتواضع يرىٰ الناس كلَّهم أهل فضل، بل كان هو أولهم تقبيلًا، فاللوم علىٰ المعترض الذي تكبر حتىٰ لم ير غيره أهلًا لأن تقبل الناس رجله، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٦) ومما أجبتُ به عن من لا يمكِّن الناس من تقبيل رجله ويزجر من يفعل معه ذلك، وقال الناس فيه: إنما يفعل ذلك رياء [وسمعة، ليزداد الناس فيه فيه اعتقادًا، ويصفوه بكثرة التواضع، وإلا فهل يحب مثل ذلك في الباطن][١]، بأنه لا يجوز حمله علىٰ ذلك، فقد يكون ممن تجلىٰ الحقُّ تعالىٰ علىٰ قلبه بالعظمة الإلهية، فصار يرىٰ نفسه من أذلِّ خلق الله، فهو يود أن تبتلعه الأرض إذا قبَّل أحد يده أو رجله، حياءً من الله تعالىٰ وخجلًا منه [أن][٢] يعظِّمه المحجوبون في حضرة ربه، ويجعلوه ممن شارك ربه في صورة صفات التعظيم. وهذا أشدُّ علىٰ أهل هذا المقام من ضرب السيف.

وربما كان مشهده أن ذلك من باب الاستدراج له، فإنه يعلم بنقص نفسه وما وقع فيه من الزلات التي لو اطلع الخلق عليها ما سلَّموا عليه، فضلًا عن تقبيلهم رجله، فهو يرىٰ نفسه لا يستحق أن أحدًا يقبل رجله، ويكاد يذوب من الخجل. وفوق هذا ما هو أعلىٰ منه، وهو أن يدفع عنه الناس بقلبه، فلا يهتدي أحد لتقبيل يده ولا رجله، ولا أن ينزل له من دابته أو حانوته من شدة نفرة قلبه من ذلك، وهو مقام الكُمَّل ﷺ أجمعين.

فعُلِمَ أن الناس في تقبيل يدهم أو رجلهم علىٰ أقسام، منهم من يحبُّ أن يُفعَل به ذلك لحظِّ نفس، فذلك مذموم، ومنهم من يحب ذلك إظهارًا لفضل الله تعالىٰ عليهم، ومنهم من يكره ذلك أدبًا مع ربه عزَّ وجلَّ، ومنهم من يدفع الناس عن ذلك بقلبه من غير لفظ. فاحمل يا أخي العلماء والفقراء علىٰ أحد المحامل الثلاثة، وإياك أن تحملهم علىٰ المحمل الأول، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح الذي يسأل الناس الدنيا ويقول: أعطوني فإني فقير، ويصير يظهر الكراهة لكلِّ من لم يعطه شيئًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر ينافي أحوال الصالحين والعلماء العاملين، بأنه يجب حمله علىٰ أنه محتاج إلىٰ ما طلب لنفسه أو لعياله أو لأحد من إخوانه، ولا يجوز لأحد أن يسيء به الظن فيأثم، وفي

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

حديث الطبراني مرفوعًا: «ليس المعطي بأفضل من السائل إذا كان محتاجًا»[1] فشهد ﷺ لصاحبه أنه مأجور فيه لا يسوغ لأحد الإنكار عليه. وأما كراهته لمن لم يعطه ما طلب فيجب حمله علىٰ أنه إنما كرهه تقبيحًا لصنيعه، وخوفًا عليه من فوات الأجر الحاصل له بالعطية، لا لحظِّ نفسه هو، فحكمه كمن عبس في وجه ولده إذا فعل ما لا يليق، فإن كلَّ عاقل لا يحمله علىٰ كراهة ولده، وإنما يحمله علىٰ الشفقة عليه.

فعُلِمَ أن من حمل العالم أو الصالح الذي يلح علىٰ الناس في السؤال، ويظهر لهم الكراهة إن لم يعطوه علىٰ محمل سيء، فقد باء بإثم من الله عزَّ وجلَّ، لاسيما إن كان يسأل أحدًا من الولاة أو الصالحين، فإن في حديث أبي داود مرفوعًا: «فإن كنت ولابد سائلًا، فاسأل الصالحين أو ذا سلطان»[2] أي لأن الصالحين والسلطان لا يمنون بما أعطوا. وكذلك من حمل السائل الملح علىٰ غير مصلحة المسؤول، فقد أساء به الظن، فإنه ما ألح إلا ليحصل لذلك المسؤول الأجر، فاعلم ذلك.

(٢٣٨) ومما أجبتُ به عن الذي يرد ما جاءه بغير سؤال، ولاث به الناس وقالوا: إن رسول الله ﷺ قال: «ما جاءك من هذا المال بغير سؤال فخذه فتموله، فإنما هو رزق ساقه الله تعالىٰ إليك»[3] الحديث أو كما قال، بأنه ربما كان مشهده العجز عن تحمل منة المتصدقين عليه مثلًا، فردَّ ذلك وصبر علىٰ الجوع أو العري مثلًا، أو ربما كان المتصدق أو المهدي مثلًا ممن لا يتورع في مكسبه، فردَّه عليه تورعًا، فقوله ﷺ: «ما جاءك من هذا المال» يشير به إلىٰ الحلال، بقرينة قواعد الشريعة المطهرة، نحو حديث: «دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك»[4]، وقوله ﷺ: «فمن ترك الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه»[5].

---

(١) أخرجه الطبراني «الكبير» (١٣٥٦٠)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٣٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٤٦)، والنسائي (٢٥٨٧)، وأحمد (١٨٩٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٩٣٦)، و الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٣٦٣) وابن حبان (٣٤٠٤) و والطبراني (٤١٢٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٣٩٧) وابن حبان (٧٢٢).

(٥) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وكان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: لا ينبغي لفقير أن يقبل شيئًا ممن يأكل بدينه من الفقراء الذين لا حرفة لهم، وإنما يحسن إليهم الناس لاعتقادهم فيهم الصلاح، فمثل هؤلاء يجب علينا رد كل ما يأتوننا به من الدراهم والطعام والثياب ونحو ذلك.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي ﷺ يقول: يجب علىٰ أهل الطريق رد مال كلِّ من لا يتورع في مكسبه خوفًا أن يتبعه أصحابه علىٰ ذلك، كما لا ينبغي لهم أخذ هدية كل من لا يتحد بهم من مريديهم، خوفًا أن يورث ذلك عندهم الإدلال علىٰ الشيخ، ويرون لهم الفضل عليه، فلا ينتفعون به، بخلاف هدية من اتحد بهم، فإنه يرىٰ جميع ما يعطيه لشيخه هو من فضل شيخه عليه، ويرىٰ نفسه هو الذي يأكل من صدقة شيخه. انتهىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والفقراء إذا ردُّوا ما جاءهم بغير سؤال، فإنهم أعلم منك بالشريعة، ولولا أنهم رأوا الرد أفضل من الأخذ لما ردوا، والحمد لله رب العالمين.

(٢٣٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح الذي يشاحح في البيع أو الشراء علىٰ جديد نقرة[1]، ويقول الناس عنه: حاشا أن يكون هذا عالمًا أو صالحًا وهو مشاحح علىٰ جديد! بأنه ربما كان مشهده أن يفتح في عين ذلك المشاحَح- اسم مفعول- [عدم][2] التساهل في حقوق الناس في الدنيا، أو ممن يكره أن يكون له يوم القيامة فضل علىٰ أحد من خلق الله تعالىٰ إكرامًا لمن هم عبيده سبحانه وتعالىٰ، أو لمن هم من أمته ﷺ، كما عليه أكابر الأولياء.

فإن قال قائل: فلأي شيء لم يسامح ويسقط حقَّه؟ **قلنا:** إسقاط الحقِّ منَّة فوق منَّة، فصار يُرِه بذلك فضله أكثر ممن أعطىٰ ولم يسامح. ثم لا يخفىٰ أن كلَّ عارف بالله تعالىٰ يكره أن يشارك ربه في صفة من صفات المدح ولو بالاسم، فهو يحب التخلق بها دون الحمد عليها من الناس، ويحب أن يكون الفضل والمدح لله وحده كما هو في نفس الأمر.

---

(١) جديد نقرة: من أقل العملات قيمة في ذلك العصر.

(٢) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

ومن هنا تعلم يا أخي أن الفقير الذي لا يطعم الناس شيئًا يجب حمله علىٰ أنه ترك ذلك إيثارًا لجناب الله تعالىٰ، لا بخلاً ولا شحًّا في الطبيعة، فهو يودُّ أن يكون الحقُّ تعالىٰ لم يجعل لأحد علىٰ يديه رزقًا احتياطًا لنفسه، وخوفًا أن يخطر في باله أن له منة علىٰ أحد من خلق الله عزَّ وجلَّ، ولو أنه لم يخف علىٰ نفسه من ذلك، لسأل الله تعالىٰ أن يجعل رزق أهل بلده أو إقليمه مثلًا كلَّه علىٰ يديه. وربما أعطاه الله تعالىٰ ثواب من أطعم جميع أهل بلده أو إقليمه بنيته الصالحة من [غير][1] تعب ولا مناقشة، قياسًا علىٰ ما ورد فيمن نوىٰ قيام ليلة، فأخذ الله بروحه إلىٰ الصباح[2].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: إياكم والبخل، فإنه مذموم عند الله وعند الخلق. وإياكم أن تروا أن الفقير الذي يطعم الناس الطعام أفضل ممن لا يطعم الناس شيئًا، فقد يكون صاحب ذلك السماط يأخذ الحرام والشبهات ويطعم الطعام رياء وسمعة، وعليه حسابه يوم القيامة، أو يكون ذلك الذي لا يطعم الناس شيئًا ممن اصطفاه الله تعالىٰ وحماه من أن يطعم أحدًا شيئًا شفقةً عليه أن يخطر في باله منة علىٰ أحد، فإنه قل محسن يسلم من خطور ذلك علىٰ قلبه، ولو بشكر الله تعالىٰ عليه. فاعلم ذلك وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار وأنت جاهل بمقامات الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الزاوية إذا انتصر لولده أو خادمه أو صاحبه وخاصم من ظلمه، وقال الناس: حاشا لله أن يكون هذا من العلماء العاملين أو الصالحين! فلو كان عاملًا بعلمه أو صالحًا، لأمر ولده وخادمه وصاحبه بالصبر علىٰ الأذىٰ كما جرىٰ عليه العلماء والصالحون في الزمن الماضي، بأنه يجب حمله علىٰ أنه ما انتصر لولده وخادمه وصاحبه حمية جاهلية أو لغرض نفساني، وإنما انتصر لهم وفاء

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه النسائي (١٧٨٧) عن أبي الدرداء ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَىٰ فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّىٰ أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَىٰ وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، وابن ماجه (١٣٤٤)، وابن حبان (٢٥٨٨).

بحقِّ صحبتهم له، فإنه وليهم، ويجب علىٰ الوليِّ أن يكشف عن من هو تحت تربيته كلَّ شيء يؤذيه، وفي الحديث: «كلكم راع ومسوؤل عن رعيته»[1]، مع أن الولد والخادم وغالب الأصحاب عادة ليسوا بأهل أن يأمرهم الشيخ بالتحمل، لعجزهم عن مثل ذلك، فإياك يا أخي ولحوم العلماء والصالحين، فإنهم سم ساعة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤١) ومما أجبتُ به عن أكابر العلماء والصالحين إذا قابلوا المسيء عليهم أو علىٰ أصحابهم بالإساءة، ولاث الناس بهم بسبب ذلك وقالوا: لو كان هؤلاء علماء أو صالحين لاحتملوا الأذىٰ ولم يقابلوا أحدًا بسوء، بأنه ربما كان ذلك من العلماء والصالحين زجرًا لذلك المسيء وتنفيرًا له من الوقوع في مثل ذلك مع أحد من المسلمين، لا بقصد التشفي للنفس. وربما كان ذلك من العالم أو الصالح بقصد تطهير ذلك المسيء من الإثم بوقوعه في الأذىٰ، فطلبوا بمقابلته أن يأتي يوم القيامة وليس لأحد عليه حقٌّ يعوقه عن دخول الجنة.

وربما كانت المقابلة من العالم أو الصالح بقصد حصول العدل بين ذاته وذات أخيه. وربما كانت المقابلة المذكورة بقصد أن لا يرىٰ العالم أو الشيخ له فضلًا علىٰ أحد من المسلمين في الدنيا، ولا في الآخرة أدبًا مع الله ومع رسوله ﷺ كما مر تقريره مرارًا. وربما ترك العالم أو الصالح مسامحة من جنىٰ عليه في دار الدنيا وأخَّر الصفح عنه إلىٰ الدار الآخرة احتياطًا لنفسه، لينظر هل يحتاج إلىٰ ذلك الحقِّ أم هو مستغنٍ عنه؟ فإنه ورد في الصحيح أن العبد يوم القيامة يودُّ أن لو كان له حقٌّ علىٰ والديه وادعىٰ به عليهما[2]. وكثيرًا ما يعطي العبد غيره المال الكثير ثم يفتقر، فيندم علىٰ ذلك ويقول: ليتني تركتُ لنفسي منه شيئًا، فربما وقع له في الآخرة نظير ذلك إذا سامح بحقِّه في الدنيا.

فاعلم ذلك وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من العلماء والصالحين إلا بنصٍّ

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) لم أقف عليه.

أو إجماع. وأما بالفهم فهم أعلم منك بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٤) ومما أجبتُ به عمَّن عمل وليمة ودعا أكابر العلماء والفقراء والأمراء دون غيرهم، ولاث الناس الذين لم يدعوهم به وقالوا: هذه الوليمة كلها رياء وسمعة، بأنه قد يكون ممن غلب عليه عدم الفرقان بين مراتب الناس، أو ممن أعطاه الله الفرقان، ولكن قصد بدعوة المشايخ والعلماء التبرك بآثارهم في داره، وليستره الله تعالىٰ بين أهل بلده في تلك الوليمة، فيكفيهم ذلك الطعام ولا يعقبها شرٌّ ولا نكد كما هو الغالب في هذا الزمان، فلا يعمل الإنسان فيه فرحًا أو مهمًا إلا ويعقبه شرٌّ ونكدٌ!

وأما دعاء الأمراء والأكابر فهو أقرب إلىٰ الإجابة عند القوم في الأمور الدنيوية إما تكبيرًا لهم بين العباد، وإما استدراجًا، وذلك لأن الله تعالىٰ ما أشهر اسمهم في دار الدنيا ويريد أن يخذلهم برد دعائهم، بقرينة استجابته تعالىٰ دعاء فرعون لما توقف النيل وقال: يا رب، استرني بين عبادك؛ فأطلع له النيل تلك الليلة، ولم يشمت القبط فيه.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: إذا احتمل فعل أخيك أمرين حسنًا وقبيحًا، فاحمله علىٰ الحسن، ولا تحمله علىٰ السوء تكن من أهل السوء، واستر كلَّ من اطلعت علىٰ عيبه، يستر الله عيبك. والحمد لله رب العالمين.



الباب الخامس[1]

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٤٤٣) فمما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم إذا دُعِي إلىٰ وليمة ولم يحضر، ولاث الناس به وقالوا: إنما يفعل مثل ذلك تكبرًا، بأنه قد يكون له عذر شرعي، فقدَّمه علىٰ حضوره تلك الوليمة، أو اختل شرط من شروط وجوب الحضور[2]. وربما كان له عذر يستحيي أن يذكره لصاحب الوليمة من ارتكابه ذنبًا عظيمًا أورث عنده الخجل من اجتماعه بالناس، كما هو الغالب من حال من اشتُهر في حارته بإفساد جارية مثلًا، فإنه يمكث زمانًا يستحيي أن يجالس الناس، لاسيما جلوسه في الوليمة بين غالب أهل البلد.

وقد يكون ذلك الشيخ أو العالم ممن كشف الله تعالىٰ له عيوبه ذلك اليوم، فصار يرىٰ نفسه كأن عورته مكشوفة، وقد عذر العلماء العريان في عدم حضوره صلاة الجمعة والجماعة. وممن أدركته علىٰ هذا القدم الشيخ أبا الحسن الغمري[3]، والشيخ عليًّا

(١) في الأصلين: السابع. والصحيح ما أثبتناه، وقد ذكرنا سبب ذلك في المقدمة..

(٢) يجب عند السادة الشافعية إجابة دعوة الوليمة بشروط منها:

١- إسلام الداعي والمدعو.

٢- عموم الدعوة، بألا يقصد التخصيص، كأن يقصد تخصيص الدعوة للفقراء دون الأغنياء مثلا، وليس المراد أن يعم جميع الناس بالدعوة.

٣- أن يدعوه في اليوم الأول، فلو كانت الوليمة ثلاثة أيام -كما كان يحدث قديمًا - لم تجب الدعوة إلا في اليوم الأول.

٤- عدم العذر المانع من الحضور.

(٣) أبو الحسن محمد بن أبي العباس أحمد الغمري المصري الشافعي الصوفي، الصالح الورع، قال الشعراني: جاورت عنده ثلاثين سنة ما رأيت أحداً من أهل العصر علىٰ طريقته في التواضع والزهد وخفض الجناح، ت ٩٨٩ هـ. الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٧٤٨)، الكواكب السائرة (٢/ ٢٣).

الخواص، وأخي أفضل الدين، كان أحدهم يستحيي أن يجلس مع أحد من الناس. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الوقيعة في أعراض العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٤) ومما أجبتُ به عن الإمام الغزالي رحمه الله في كنسه العذرة من ملاقي بيت الخلاء بلحيته حين قامت نفسه من رؤيتها، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: قيام نفسه من رؤية العذرة لا تبيح تضمخه بالنجاسة، بأن ذلك من الغزاليِّ من باب ارتكاب أخف المفسدتين، وقد تعارض عنده كبر النفس والتضمخ بالنجاسة، ولا شك أن النجاسة أخف، لأن التضمخ بها صغيرة، والكبر من الكبائر بإجماع، فلو لم يكنس العذرة بلحيته، لدام كبره، فعليه في كلِّ لمحة إثم الوقوع في كبيرة ما دام الكبر مصاحبًا له، ولا هكذا التضمخ بالعذرة، فإن الغزالي أزالها في الحال، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[1]، وفي الحديث: «إن الله لا يحب المتكبرين»[2]، وثبت في السنة «أن رسول الله ﷺ مرَّ علىٰ شاة ميتة، فأخذ ﷺ بأذنها وقال: أترون هذه الشاة قد ألقاها أهلها لهوانها عليهم؟ قالوا: نعم. قال: والله للدنيا أهون علىٰ الله من هذه علىٰ أهلها»[3]. انتهىٰ. فكما جاز مس الشاة النجسة للاعتبار بها، فكذلك يجوز التضمخ بالنجاسة لغرض شرعي. وقياسًا علىٰ الاستنجاء أيضًا، بجامع وجوب إزالة النجاسة المحسوسة والمعنوية ولو علىٰ التراخي، لأنه لا يجب إزالتها فورًا إلا إن عصىٰ بالتنجيس، وذلك لا يكون إلا في غير وجه الاعتبار، وفي غير ارتكاب أخف المفسدتين. وقد بلغنا أن الإمام الغزالي أزالها فورًا.

وبالجملة فمن نوَّر الله تعالىٰ قلبه لا يتوقف في مثل ذلك، فإن علاج الكبر ومخالفة

(١) أخرجه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٩).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولعل الإمام يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٥٧)، وأبو داود (١٨٦)، وأحمد (١٤٩٣٠).

النفوس مطلوب شرعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٥) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي لا حرفة له ويتوسع في المآكل والملابس من هدايا الناس، وصار الناس يقولون فيه: إن هذا يأكل بدينه وعلمه، وإنه أقبح حالًا ممن يأكل الدنيا بالطبل والمزمار، بأنه لا يلزم من كون العبد لا حرفة له أن يصير يأكل بدينه، فقد يسخر الله تعالىٰ له عباده، فيعطونه كلَّ ما يحتاج إليه من غير منَّة عليه ولا نظر إلىٰ أعماله الصالحة، بل ربما لا يخطر لهم المنَّة علىٰ بالهم.

وأيضًا فإن العبد لا يكون ممن يأكل بدينه إلا إذا قصد بعبادته الدنيا، ولا اطلاع لنا علىٰ نية ذلك العالم أو الشيخ، وإذا احتمل فعل العالم أمرين، حملناه علىٰ أحسنهما، بل حمله علىٰ الوجه القبيح أبعد من البعيد، لأنه لم يزل يحذِّر الناس من الأكل بدينهم، فكيف يقع هو فيه؟! وقد أقر رسول الله ﷺ أهل الصُّفَّة علىٰ أكلِّهم من صدقات الناس وهداياهم من غير حرفة، وكفىٰ بذلك دليلًا.

وكان جماعة من مشايخ الطريق علىٰ قدم أهل الصُّفَّة، منهم شيخ الجنيد ابن التكريتي، ومنهم عتبة الغلام[1]، وأحمد بن أبي الحَوَاري[2]، وبشر الحافي، كان أحدهم يتعبد، فإذا جاع خرج فسأل الناس علىٰ الأبواب قدر حاجته، ويقول: كسبناهم الأجر باللقيمات التي أعطوها الناس من غير حصول كبير منه؛ رضي الله عنهم. وربما اجتمع عند العالم أو الفقير مالٌ كبيرٌ يشكُّ في حله، فعمل به طعامًا وعزم الناس فأكلوه، فلا حرج عليه كالمال الضائع.

---

(١) عتبة بن أبان البصري. كان يشبه في حزنه بالحسن البصري. وذكر مخلد بن الحسين عتبة الغلام، وصاحبه يحيىٰ الواسطي، فقال: كأنما ربتهم الأنبياء. من كلامه قال: من عرف الله، أحبه، ومن أحبه، أطاعه. توفي: في حدود ١٧٠هـ. السير (٧/ ٦٢)، «الوافي بالوفيات» (١٩/ ٢٩٠).

(٢) أحمد بن أبي الحواري عبد الله بن ميمون أبو الحسن الثعلبي الغطفاني الدمشقي الزاهد، أحد الأعلام، أصله من الكوفة. ولد: ١٦٤هـ. قال يحيىٰ بن معين: أظن أهل الشام يسقيهم الله به الغيث. توفي:٢٤٦هـ. السير (١٢/ ٨٥)، «شذرات الذهب» (٣/ ٢١١).

وبالجملة فللكسب أقوام، وللعبادة أقوام، وللجمع بينهما أقوام وهو الأكمل، فالناس بين فاضل ومفضول في كلِّ عصر بحسب القسمة الأزلية، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٦) ومما أجبتُ به عن العوام إذا لم نرهم يرتكبون كبيرة ولا يصرون علىٰ صغيرة، وازدراهم بعضُ طلبةِ العلم، ونسبوهم إلىٰ الفسق بعدم اشتغالهم بالعلم علىٰ مصطلح العلماء، بأن العوام لا يكلَّفون بمثل ذلك، فلا يفسقون بتركه. ولم يزل العلماء في كلِّ عصر يقرون العامة علىٰ عباداتهم إذا لم يروا أحدًا منهم أخلَّ بواجب، ويكتفون منهم بما يشهدونه ويسمعونه من أفواه الفقهاء وأفعالهم، بل غالبهم يعرف محرمات الشريعة وواجباتها لا يكاد يخفىٰ عليه شيء منها، وبعضهم صار يعرف المنهيات والمأمورات، فيُكْتفَىٰ منه بذلك، وإن لم يميز بين الحرام والمكروه، ولا بين الواجب والمندوب، ويكفينا فعله لذلك المأمور، واجتنابه لذلك المنهي، ويُحمَد علىٰ أنه فعل المأمور علىٰ وجه اعتقاد وجوبه، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في «كتاب المنن الكبرىٰ».

وكان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ يقول: ما من أحد من أصناف البشر إلا وهو فاضل من وجه، مفضول من وجه آخر ما عدا رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالعوام وإن نقصوا من حيثُ عدمُ تحقيقهم مراتب العلم، فقد أكرمهم الله تعالىٰ بأمور تكمِّلُهم، منها صحة اعتقادهم في الله ورسوله، وكثرة اعتقادهم في العلماء والصالحين. ومنها سلامة عقائدهم من الشُّبَه الكلامية والاعتقادات الفلسفية التي تطرق غالب المتكلمين. ومنها أن أحدهم يأكل من عمل يده ويتصدق بفاضل ذلك علىٰ المحتاجين طول النهار. ومنها عدم ادعاء أحدهم العلم والتكبر به علىٰ الناس. ومنها عدم تطلعهم إلىٰ ما في أيدي الناس استغناء بحرفتهم. ومنها إذا وقعوا في ذنب لا يزال أحدهم في خجل وحياء من الله عزَّ وجلَّ حتىٰ يلقاه، لا يرىٰ أن ذلك الذنب مُحي عنه بطاعة من الطاعات، بخلاف الفقيه مثلًا، فربما عمل طاعة وظنَّ أن ذنبه قد مُحي بها. انتهىٰ.

فإياك يا أخي وازدراء من لم يظهر له فضيلة بين الناس، فإن الله تعالىٰ أخفىٰ أولياءه في عباده كما ورد[١]، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٤٧) ومما أجبتُ به عن العالم الذي وقف عن الاشتغال بالعلم واشتغل بالعمل بما علم، ولاث به أقرانه وقالوا: هذا مقت، لأنه يترك العلم ويعطل، بل بلغني أن بعضهم سماه مرتدًا! بأنه مثل هذا العالم قد مشىٰ علىٰ قواعد السلف الصالح، كالإمام أبي حنيفة، وداود الطائي، والإمام مالك، وسفيان الثوري وغيرهم، كانوا يقولون للناس: تفقهوا ثم اعتزلوا. وكان الإمام مالك يقول: أدركنا الناس وأحدُهم يتفقه إلىٰ سن الأربعين، [فإذا بلغ الأربعين][٢] لزم داره وأغلق بابه. انتهىٰ. لاسيما إذا كان ذلك العالم الذي انقطع للعبادة لا يحتاج الناس إلىٰ علمه اكتفاءً بغيره في البلد، فإنه لا لوم عليه بوجه من الوجوه، اللهم إلا أن يكون هذا العالم قد انفرد بفهم العلم ولا أحد يقوم مقامه، فمثل هذا يُعتَرض عليه في تركه العلم واشتغاله بالتعبد، لأن اشتغاله بالعلم حينئذٍ فرض عين أو كفاية، وهو أفضل من النوافل.

وقد يكون من ترك الاشتغال بالعلم إنما تركه لعدم الإخلاص فيه، كما وقع لبشر الحافي، فإنه كان يملي الحديث ثم تركه، فقالوا له: ماذا تقول لربك إذا قال لك: لم تركت إملاء الناس شريعة نبيي ﷺ؟ قال: أقول له: يا رب، قد أمرتني في ذلك بالإخلاص، ولم أجد عندي إخلاصًا. انتهىٰ.

فاعلم ذلك واشهد فضل من انقطع للعبادة من أقرانك عليك، واسأله الدعاء، فإن الله تعالىٰ قد نوَّر قلبه، واسأل الله تعالىٰ أن يجعلك مثله، فإن العلم لا قرار له يقف العبد عليه، ثم يرجع للعمل به. وإياك واحتقارك لمن اعتزل الناس، واقبلوا علىٰ الاعتقاد فيه بسبب ذلك، فإن ذلك حسد منك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم الكلام عليه.

(٢) ساقط من «ب».

(٢٤٨) **ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الزاوية إذا اتخذ له سفيهًا يسافه عنه السفهاء، ولاث الناس به بسبب ذلك وصاروا يقولون: لو كان هذا عاملًا بعلمه، لكان يحتمل الأذىٰ من جميع الناس، ولا يمكن أحدًا يجيب عنه،** بأنه قد مشىٰ علىٰ قواعد السلف، فقد كان حسان بن ثابت[1] مرصدًا للمناضلة عن رسول الله ﷺ، والعالم أو الشيخ حامل شريعة رسول الله ﷺ، فمن طعن فيه فقد طعن فيما فعله من الشريعة، ولا تخلو الدنيا من السفهاء في كلِّ عصر، والعالم وشيخ الزاوية منصب أحدهم يجل عن مسافهة السفهاء، فإنه إذا سافهه صار مثله في السفه، وإن كان الشارع قد أباح مقابلة السيئة بالسيئة لا لمن لا يقدر علىٰ احتمالها. وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: ينبغي للعالم أن يكون عنده سفيه يسافه عنه. انتهىٰ. فالأعمال في مثل ذلك بالنيات.

وقد يكون العالم قصد باتخاذ السفيه عنده نصرة ما معه من الشريعة والدين، كما كان حسان بن ثابت، لاسيما في هذا الزمان الذي ارتفع فيه الحياء من غالب الناس، وربما قالوا في العالم كلامًا زورًا وبهتانًا لا يقدر هو علىٰ النطق بمثله يخرج به عن سياج العلماء والصالحين إلىٰ سياج الفسقة والمنافقين.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: من شأن العلماء والصالحين رقة الطبع، فلا يصبر أحدهم يقدم علىٰ سماع كلام أحد من الثقلاء، فإذا كان عند أحدهم شخص بذيء اللسان يقابل الثقيل بمثل كلامه نفعهم نفعًا عظيمًا. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: قد اكتفىٰ الناس في زماننا هذا عن الأعمال بالأقوال، وتبدلت الأمور وفسدت الأحوال، وظهر الناس بأخلاق السباع تارة، والكلاب تارة، والثعالب تارة، والبهائم والحشرات تارة، وأخلاق الجنِّ والشياطين

---

(١) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري، يكنىٰ أبا الوليد. سيد الشعراء المؤمنين، المؤيد بروح القدس. قال ابن سعد: عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين في الإسلام. توفي: ٥٢هـ ﷺ. السير (٢/ ٥١٢) و«الاستيعاب» (١/ ٣٤١).

تارة، ثم مع ذلك يدعي أحدهم الزهد والورع، ويطلب منك أن تترك ما شهدته منه من سوء الأخلاق وتصدقه في دعواه، فإن شاكله العالم وقابله بنظير أخلاقه، قامت عليه القيامة، وإن صدَّقه وقع في النفاق، فالعالم من عذر العالم في اتخاذه عنده من له لسان يتقي [به][1]، وأنشد في ذلك:

إذا لم يكن للكرم شـوك مكلب رعته المواشي من جميع الجوانب

انتهىٰ. فإياك يا أخي ثم إياك من إنكارك علىٰ العالم أو الشيخ ما ذكرناه، فإن اتخاذه السفيه من باب ارتكاب أخف المفسدتين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٩) ومما أجبتُ به عن الوليِّ إذا سُلِبَ الكرامات والمكاشفات التي كانت تظهر منه وعليه، وصار الناس يقولون عنه: إن فلانا مُقِت، بأنه لم يُسلب ولم يُمقَت، وإنما خلع الحقُّ تعالىٰ عليه ما هو أكمل مما كان فيه. وقد أجمع الأشياخ علىٰ أن الكرامات يدخلها المكر والاستدراج، والكشف يُطلِع صاحبه علىٰ عورات الخلائق التي يفعلونها في بيوتهم، فمن زالت كرامته وكشفه، فقد أراد الحقُّ تعالىٰ به خيرًا. وإيضاح ذلك أن كمال الولي إنما هو بلزوم أوصاف العبودية، وبكونه عبدًا مملوكًا لا يقدر علىٰ شيء، كما هو في نفس الأمر.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا سُلِبَ أحدُكم الكرامات والأحوال التي كانت تقع علىٰ يديه، فليكثر من شكر الله علىٰ ذلك، فإن الصادق من شأنه أن يزداد بالسلب تمكينًا، لأنه مع الله بما أحب، لا مع نفسه بما تحب.

وكان يقول: كثرة كرامات الولي دليل علىٰ ضعيف إيمان قومه به، ولو كان إيمانهم قويًّا لما احتاجوا إلىٰ ظهور كرامة ممن يدعوهم إلىٰ الله تعالىٰ. قال: ومن هنا قلَّت الكرامة في الصحابة، وكثرت فيمن بعدهم.

---

(١) زيادة ضرورية لاستكمال السياق.

قال: وما احتاج الأنبياء إلىٰ ظهور المعجزات إلا لكون أحدهم يدعو الناس إلىٰ شرع جديد، والولي لا يدعو إلا إلىٰ شرع ثابت مقرر عند قومه، فلذلك لم يحتج إلىٰ كرامة تؤيده وإن قدر أنه وقع علىٰ يديه كرامة فإنما ذلك ببركة اتباعه شرع نبيه ﷺ.

فإياك يا أخي أن تزدري وليًّا سُلِبَ الكرامة ما دام علىٰ قدم الاستقامة في الأعمال، فإن ذلك جهلٌ منك بأحوال القوم، إذ هي ثمرة أعمالهم ومجاهداتهم، وهم لا يرضون بأخذ ثواب أعمالهم في هذه الدار، ويذهبون إلىٰ دار البقاء وأحدهم صفر اليدين من الثواب، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٠) ومما أجبتُ به عن الصوفيِّ إذا امتنع من الصلاة خلف بعض أئمة المساجد، وصلَّىٰ منفردًا أو مع زوجته أو ولده مثلًا، ولاث جماعة الشيخ بذلك الإمام وقالوا: لو لا أنه كُشِفَ للشيخ عن سوء حال هذا الإمام أو ارتكابه أمرًا مبطلًا للصلاة، ما ترك الصلاة خلفه، بأنه ربما كان الباعث علىٰ ترك الشيخ الصلاة خلفه شهود الشيخ نقص صلاة نفسه، فهرب من تحمل منَّة ذلك الإمام إذا حمل عنه ذلك النقص، أو ترك الصلاة خلفه شفقةً عليه من وقوعه في تحمله نقص صلاة ذلك الشيخ زيادة علىٰ تحمل نقص صلاة نفسه.

وربما كان ذلك الشيخ ممن يرىٰ كراهة الصلاة خلف محب الدنيا أو خلف الموسوس الذي يشك في أفعال نفسه. وكان الشيخ إبراهيم المقيم بجامع آل ملك[1] ﷺ لا يصلي قط خلف إمام يحب الدنيا، ويقول: إن في الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[2] فمن أحبها فقد جمع جميع خطايا بني آدم عليه، وذلك لا يصلح أن يكون

---

(١) أنشأه الأمير المملوكي البحري آل ملك الجوكندار الناصري، ما بين عامي ٧١٩هـ/ ١٣١٩م و٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، ويقع في شارع أم الغلام المتفرع من شارع الأزهر بحي وسط القاهرة.

(٢) تقدم تخريجه.

إمامًا، لأن حكمه حكم من تلطخ بعذرة أو بول من فرقه إلىٰ قدمه في بدنه وثيابه، ولا شك في بطلان صلاته. قال: وقد صليتُ مرةً خلف إمام يحب الدنيا، فشهدت تلطخ ثيابه بسائر النجاسات بعين بصري لا بعين إيماني، فما قدرتُ أحرم خلفه، فقال لي شخص: أتبعك في ذلك؟ فقلتُ له: لا، أنت لا تشهد ما أشهد، وما ترىٰ إلا ثيابًا طاهرة، وبدنًا نظيفًا. انتهىٰ.

فلكل مقام رجال، فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ فقير ترك الصلاة خلف أحد من الأئمة، ولا اعتقاد السوء في ذلك الإمام بقول ذلك الفقير، أو بامتناعه من الصلاة خلفه، بل نسلم لكلٍّ منهما حاله.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: ينبغي لصاحب الكشف إذا كُشِفَ له عن نقص صلاة إمامه أن يصلي خلفه، ويستغفر لنفسه ولذلك الإمام بينه وبين الله تعالىٰ، ولا يفشي ذلك النقص للناس، فيحصل من ذلك عدة مفاسد. انتهىٰ.

وكان أخي أفضل الدين إذا اطلع علىٰ نقص صلاة إمامه، يجعل ذلك النقص لنفسه دون إمامه، ويقول: المؤمن مرآة المؤمن، ولا يرىٰ الإنسان في المرآة إلا صورة أعمال نفسه. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥١) ومما أجبتُ به عن الوليِّ الذي ليس له تصريف في الكون، وعفَّ عليه الذباب وصار يطرده عن نفسه فلا يطيعه، ولاث الفقراء الجاهلون به وقالوا: كيف يدعي الولاية أو يعتقدها أصحابه فيه وهو لا يقدر علىٰ رد ذبابة عن نفسه؟! ثم ينقلون عن الفرغل بن أحمد[1] أنه طلع للسلطان الأشرف برسباي[2]، فرأىٰ الذباب يقع علىٰ وجهه، ومملوك

---

(١) محمد بن أحمد السميعي، يعرف بالفرغل، مدفون في أبي تيج بالصعيد كان ﷺ من الرجال المتمكنين أصحاب التصريف، توفي: سنة نيف وخمسين وثمانمائة رضي الله تعالىٰ عنه آمين. الضوء اللامع (٧/ ١٣٠)، «الطبقات الكبرىٰ للشعراني» (٢/ ٩٢).

(٢) الملك الأشرف برسباي بن عبد الله أبو النصر الدّقماقي الظّاهر الجاركسي، سلطان الدّيار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية، الثاني والثلاثون من ملوك التّرك، والثامن من ملوك الجراكسة. توفي:

علىٰ رأسه ينشه عنه، فقال له الفرغل: كيف ترىٰ نفسك سلطانًا وأنت لا تقدر تردُّ عن نفسك الذباب؟! ثم قال له: رح يا ذباب عن السلطان برسباي؛ فطار الذباب كله من حضرته. وكذلك ينقلون عن سيدي عبد القادر الجيلي أن الذباب كان لا يجلس علىٰ بدنه ولا ثيابه، فقالوا له في ذلك، فقال: الذباب لا يجلس إلا علىٰ قذر الدنيا أو عسل الآخرة، وأنا حر من رق الدارين. انتهىٰ.

والجواب: أن الكامل من شأنه أن الوجود كله يصير يؤثر فيه، ولا يؤثر هو في شيء من الوجود إلا بأمر شرعي، والحقُّ تعالىٰ لم يأمره بنش الذباب بخصوصه عن وجهه، ولو أمره بذلك لكان ينشه امتثالًا للأمر لا لحظِّ النفس.

وقد يكون ذلك الولي الذي يقع عليه الذباب قد تحقق بعدم تلطخه بشيء من دنس الدنيا وعسل الآخرة، أي العمل لأجل ثوابها، ثم ترقىٰ عن ذلك المقام إلىٰ الإحسان إلىٰ الذباب بمص دمه الفاسد من بدنه، أو شربه دموعه السائلة من عينيه، ليؤجره الله تعالىٰ علىٰ ذلك وإن لم يقصد هو ذلك، لعلمه بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، إذ العارف يعرف أن الله تعالىٰ أخفىٰ رضاه في طاعته، فقد يكون رضاه تعالىٰ أو عفوه ومغفرته لذلك الوليِّ متوقفًا علىٰ صبره علىٰ [مص] الذباب لدمه أو شربه من دموعه.

وقد رؤي الإمام الغزالي بعد مماته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي ورحمني. فقيل له: بماذا؟ فقال: كنتُ أكتب، فنزلت ذبابة علىٰ الحبر الذي علىٰ القلم، فصبرتُ لها حتىٰ شربت من ذلك الحبر، فغفر الله لي ذنوبي بذلك. انتهىٰ.

ورأىٰ بعض الأولياء أن القيامة قد قامت، وأُمر الناس بالمشي علىٰ الصراط، فمرَّ العارفون بالله تعالىٰ، فأكلت النار جوانبهم، فلما مرَّ أرباب الأحوال، انزوت النار منهم وقالت: جوزوا يا مؤمنون، فقد أطفأ نوركم لهبي. انتهىٰ. فحكىٰ ذلك لشيخه، فقال: يا

٨٤١هـ. انظر: «شذرات الذهب» (٩/ ٣٤٧) «المنهل الصافي» (٣/ ٢٥٥).

ولدي، الكاملون ماتوا تحت جريان الأقدار، فما بقي لهم حركة تدفع عنهم ما يؤذيهم رضًا بما يفعله الله بهم، والناقصون بقيت فيهم بقية يدفعون بها الأقدار عن أنفسهم، فبين أرباب الأحوال وبين الكُمَّل في مقام الأدب كما بين السماء والأرض. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الخوض في أعراض الأولياء بالجهل، فإن جميع ما معك من الأعمال الصالحة لا يفي بكلمة تقولها في حقِّهم يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٢) ومما أجبتُ به عن العالم إذا منع تعليم الناس، ولاث الناس به وقالوا: قد ورد «من كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» بأنه ربما تفرَّس في الطلبة أنهم يتعلمونه لغير الله تعالىٰ، فيمنعهم حتىٰ يصلح الله تعالىٰ نيتهم، أو لم ير عنده في تعليمهم إخلاصًا لله تعالىٰ، كما مر في امتناع بشر الحافي من إملاء الحديث، أو رأىٰ في نفسه أمراضًا من الكبائر يجب عليه علاجها فورًا، فاشتغل بعلاجها وإزالتها، كالكبر والحقد والحسد والغل ونحو ذلك.

وكان الإمام الشعبي لا يعلِّم أحدًا العلم إلا إذا رآه عازمًا علىٰ العمل به، وإلا قال له: كيف أعلمك ما يكون زادك إلىٰ النار؟ وسأله مرة إنسان عن مسألة وهو يضحك، فهجره ثلاثة أشهر وقال: زيادة العلم إنما هي زيادة التكاليف، ومن شأن من يطلب زيادة التكاليف أن يتعلمها وهو يبكي، مخافة أن لا يوفي بالعمل بها، فكيف يطلبها وهو يضحك، ويتخذ العلم لهوًا ولعبًا؟! انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل من سألته عن مسألة ولم يجبك عنها علىٰ محمل حسن، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٣) ومما أجبتُ به عن من يؤذي الناس بلسانه ويقول الناس: إنه من الأشرار بشهادة رسول الله ﷺ في حديث: «شرُّ الناس من تركه الناس اتقاء فحشه» بأنه لا ينبغي

المبادرة إلىٰ الإنكار عليه من كلِّ وجه، فربما كان الحقُّ تعالىٰ جعله آلة يخلِّص بها حقوق عباده من بعضهم بعضًا، عقوبةً لهم بميزان العدل بينهم، ثم يؤاخذه بذلك في الآخرة، وربما لم يجعل عليه تبعة في الآخرة فضلًا منه ورحمة، فينبغي لمن شكا من لسانه أن يفتش نفسه، ثم يشكو منه بعد ذلك، فربما كان آذىٰ شخصًا بلسانه، فلم يقابله بنظير ذلك لضعف حاله، فسلَّط الله تعالىٰ عليه شخصًا لا حقَّ له عنده، فآذاه بلسانه في نظير ما كان آذىٰ ذلك الضعيف. فعُلِمَ أنه لا ينبغي لمن آذىٰ الناس أن يشكو ممن آذاه، بل يسأل الله أن يكون ذلك كفارة لما وقع هو فيه من أذىٰ الناس، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٤)ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا أظهر النفرة من مريده حين اجتمع بشيخ آخر- وصار الناس يقولون: إنما تشوش هذا حبًّا للرئاسة علىٰ المريدين، أو لبغضه في ذلك الشيخ، وكلاهما مذموم شرعًا، بأنه لا يجوز حمل الأشياخ علىٰ شيء من هذين المحملين، وإنما الواجب حملهم علىٰ المبالغة في النصح، وسدِّ الأبواب التي تفوِّت [علىٰ] المريد الفوائد. وقد أجمعوا علىٰ أنه لا يجوز لشيخ أن يقرَّ مريده علىٰ أن يشرك معه في المحبة والانقياد شيخًا آخر، ومتىٰ سامحه في ذلك فهو من الغاشين لرعيتهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، والأولياء علىٰ الأخلاق الإلهية، فكما أن الله تعالىٰ لا يغفر أن يُشرَك به، فكذلك الأشياخ لا يسامحون مريديهم بذلك، وقالوا: كما أنه لا يكون للعالم إلهان، ولا للمرأة زوجان، كذلك لا يكون للمريد شيخان.

فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ الأشياخ بالجهل، فإنهم خرجوا بحمد الله عن حظوظ أنفسهم، فيجب حملهم علىٰ ذلك كشفًا ويقينًا، أو إيمانًا وتسليمًا، ولا يجوز حملهم علىٰ الأغراض الفاسدة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٥) ومما أجبتُ به عمَّن يتورع في هذا الزمان عما في أيدي الناس، وجاور في جامع الأزهر مثلًا فلم يأكل من خبزه الموقوف علىٰ المجاورين، ولا من مائه الموقوف عليهم، وصار فقهاء الجامع ينكرون عليه ذلك، كأنه وقع في خطيئة، وربما كان إنكارهم عليه إنما هو لتميزه عنهم بالورع عند الأكابر الواردين علىٰ الجامع، بأنه ربما كان الشخص من رجال الورع الذين أقامهم الله تعالىٰ فيه من صغرهم علىٰ يد شيخ من مشايخ عصرهم، **فإن جميع المقامات المحمدية لها قوم يقومون بها إلىٰ يوم القيامة،** فليفتش المنكر علىٰ المتورع نفسه، فإن رآها تكرهه لأجل تميزه عليها، وجب عليه التوبة من الاعتراض عليه، وإن رآها تظهر الكراهة منه خوفًا عليه من فتنة التميز في ذلك الزمان، فله ذلك حيث سلم قلبه من الكراهة.

ويُسمَّىٰ هؤلاء المتورعون أقطاب الورع الذين يدور عليهم المقام. وقد أدركتُ منهم جماعة، منهم الشيخ نور الدين الخضري، وجدي الشيخ علي الشعراني[1]، والشيخ شمس الدين الدهشوري[2]، وجماعة أحياء في الجامع اليوم لا ينبغي تعيينهم خوفًا عليهم من التميز، لا يأكلون للجامع طعامًا، ولا يشربون له ماء مدة إقامتهم فيه، ولم يعلم بهم إلا قليل من الناس. وقد شكا لي شخص منهم مرةً من قيام أقرانه عليه، وكثرة إيذائهم له، فأمرته بالصبر.

وقد كان جدي أيام مجاورته يملأ سقاءه من بحر النيل، ويشرب منه الأسبوع، وكانت والدته ترسل له من الريف مع الثقات القراقيش، فيأكل منهما، ولم يأكل من فراخ الأبراج الحَمَام حتىٰ مات. وقال له شخص مرة: إن نحل بلدكم يأكل زهر فواكهنا؛

---

(١) علي بن أحمد شهاب الدين بن محمد بن موسىٰ الشعراني، كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك يستدل بالآيات القرآنية، والحديث علىٰ الوقائع، كان من المدققين في الورع، ويقول: الأصل في الطريق إلىٰ الله تعالىٰ طيب المطعم، ت ٨٩١ هـ. الطبقات الكبرىٰ للشعراني (٢/ ٦٦٤)، الكواكب الدرية للمناوي (٤/ ٣٤٥).

(٢) شمس الدين محمد الدهشوري ذكر نجم الدين الغزي في الكواكب السائرة (٣/ ٤) أن والده البدر أخذ علىٰ يده القرآن بقراءاته. ولم أقف له علىٰ ترجمة.

فلم يأكل من عسل النحل في بلده إلىٰ أن مات، وكان لا يأكل طعام شيخ بلد ولا مباشر ولا قاضٍ ولا تاجر يبيع علىٰ من لا يتورع في ماله رحمه الله.

فيجب محبة كلِّ من كان بهذه الصفة لله تعالىٰ، من حيثُ إنه قائم بإحياء مقام النبوة في التورع، ويُخاف علىٰ من يكرهه بغير طريق شرعي سوءُ الخاتمة، نسأل الله العافية، فاعلم ذلك.

(٢٥٦) ومما أجبتُ به عن الذين يسألون الناس بالحال والقال تصريحًا وتعريضًا، ومن لم يعطهم شيئًا يصير أحدهم يوبخه في المجالس بين أقرانه، مع أنه يدعي أنه من الصالحين، بأنه ربما كان الحاث له علىٰ السؤال بالإلحاح والتصريح قصده النفع لذلك المسؤول، أو لذلك المحتاج، أو قصده النفع لهما معًا، مع منع نفسه، من باب قوله تعالىٰ: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي ادع لهم بأن يسمحوا بذلك ولا يبخلوا به مصلحة لهم وللمساكين. قال الشيخ [...] رحمه الله: [...][١]. وكان ابن التكريتي شيخ الجنيد لا يأكل إلا مما يسأله علىٰ الأبواب[٢].

فإن قال قائل: فلأي شيء لم يدع لهم هذا الذي يسألهم الصدقات؟ ولمَ لمْ يترك توبيخهم في المجالس كما كان رسول الله ﷺ يفعل؟ **قلنا**: لو علم منهم الإجابة إلىٰ دفع صدقاتهم بطيبة نفس وانشراح لم يوبخهم، فما وبخهم إلا حيث عرف منهم ولو بالقرائن أنهم يتكدرون من ذلك، فكان التوبيخ من باب وجوب مقاتلة الإمامِ مانعَ الزكاة، فافهم.

ومن أدركته من رجال هذا المقام الشيخ أبو بكر الحديدي[٣]، والشيخ شهاب

---

(١) هكذا بالأصلين سقط اسم الشيخ وقوله.

(٢) لم أقف علىٰ من يسمَّىٰ ابن التكريتي من مشايخ الجنيد. والمشهور أن حمَّادًا الدباس شيخ سيدي عبد القادر هو الذي كان يأكل بالمنامات، فيأتيه المنام أن يسأل فلانًا، فيذهب إلىٰ بابه ويسأله قوت يومه.

(٣) أبو بكر الحديدي: أبو بكر، الشيخ الصالح، العابد الزاهد، الحديدي. أخذ الطريق عن سيدي أحمد بن مصلح المنزلاوي. وكان يغلب عليه البسط والانشراح، ومع ذلك شديد الحرص علىٰ السنة لا يسامح أحدًا في شيء من أدائها. توفي بالمدينة المنورة سنة:٩٢٥هـ. انظر: «الكواكب السائرة» (١/ ١٢٠).

الدين المسيري[١]. وفي عصرنا هذا الشيخ الطهراني فيسألون الناس بالإلحاح، ويفرقون ذلك علىٰ المساكين والمحتاجين بقصد نفع الناس لبعضهم بعضًا، وقلبهم غافلٌ عن محبة الدنيا للأغراض النفسانية، فإياك والاعتراض علىٰ أمثال هؤلاء، وتحملهم علىٰ حال نفسك، فتخطيء الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٧) ومما أجبتُ به عن الذين تجردُّوا من ملابس الدنيا حتىٰ تعرىٰ أحدهم، وصار في وسطه مئزر[٢] فقط، وترك لبس العمامة والقميص جملة، وصار يطلب من الناس المال والطعام، ومن لم يعطه سلقه بلسانه الحديد، فلاث الناس به وقالوا له المثل السائر: حتىٰ يشاكل بعضك بعضًا! كيف تظهر الزهد في الدنيا، ثم تأخذها من الناس بالإلحاح بغير طيبة نفوسهم؟! بأنه ربما كان من رجال الله المتجردين عن الدنيا ظاهرًا وباطنًا، وإنما يفعل ذلك تسترًا علىٰ مقامه، خوفًا من إحداق الناس عيونهم به[٣]، فيعتقدونه اعتقادًا كليًّا، فيشغلونه بالتردد إليه عن عبادة ربِّه. وربما كان يقصد بذلك تنفيرهم منه جملة.

وربما كان سبب تجرد ذلك الفقير شدة ضعف بدنه من ثقل تجليات الحقِّ تعالىٰ علىٰ قلبه وبدنه، حتىٰ صار يعجز عن حمل قميصه، حتىٰ إنه لولا وقوفه في الصلاة أو رؤية الناس لعورته، ما جعل في وسطه مئزرًا، بل كان عريانًا صرفًا. وكان من رجال هذا المقام سيدي إبراهيم الدسوقي[٤] وسيدي علي وفا، كانا يقولان: لقد بلغ بنا العجز عن

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد شهاب الدين المسيري، ثم القاهري، الشافعي، ويعرف بابن حذيفة. قدم القاهرة فاشتغل بالفقه والعربية يسيرًا وتردد لبعض الشيوخ وأدمن مطالعة «شرح المنهاج» للتقي الحصني وكان قد كتبه أو جله بخطه. مات في أحد الربيعين سنة: ٨٧٥هـ. انظر: «الضوء اللامع» (٢/ ٩٢).

(٢) المئزر: الإزار، وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

(٣) بالأصلين: له.

(٤) سيدي إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد الدسوقي الهاشمي الشافعي، شيخ الخرقة البرهامية، وصاحب المحاضرات القدسية، والعلوم اللدنية، والأسرار العرفانية، من كلامه رضي الله عنه: عليك بالعمل بالشرع، وإياك وشقشقة اللسان بالكلام في الطريق دون التخلق بأخلاق أهلها. ت ٦٧٦ هـ. شذرات الذهب (٧/ ٦١١)، الكواكب الدرية (٢/ ٣٢٠).

تحمل القميص وحمل ليمونة.

وممن أدركته من رجال هذا المقام الشيخ عبد العال المدفون بمدينة قليوب[1]، وجماعة ذكرناهم في الطبقات.

ولعل جميع العراة الآن من المجاذيب أصل تجردهم من الثياب عجزهم عن حمل ثيابهم. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار ثم إياك، واحمل كلَّ من رأيته عريانًا علىٰ أن باطنه متجرد من محبة الدنيا كذلك، ليشاكل بعضه في اعتقادك بعضًا، وتسلم من تبعته. وكذلك ينبغي أن تحمل كل من رأيته يصلي جالسًا من الفقراء علىٰ أنه إنما صلَّىٰ جالسًا، لعجزه عن القيام، ولو لم تعرف له مرضًا متقدمًا، والحمد لله رب العالمين.

(٢٥٨) ومما أجبتُ به عن من يلبس الملابس الفاخرة من العلماء والصالحين، وصار الناس يلوثون به ويقولون: لو كان هذا من الصالحين، لزهد في ملابس الدنيا! ومثل ذلك من يتعنت في لبس الثياب النقية البياض من الجبب والبعلبكي، وصار أقرانه يقولون: كلُّ ذلك من الرعونات النفسية، والصادق في الطريق لا يبالي ما لبس [كما كان السلف الصالح، بأنه][2] ربما بلغ مقام التجرد في الدنيا، وخرج عن الرعونات النفسية، وصار لا يبالي ما لبس، وإنما يفعل مثل ذلك تحدثًا بنعمة الله عزَّ وجلَّ، وسدًّا لباب توجه الناس إليه بالصدقات والهدايا، كما عليه الطائفة الشاذلية يلبس أحدهم الثياب الفاخرة النقية ولا يملك عشاء ليلة!

وقد يكون لبس ذلك الفقير الثياب النقية البياض إنما هو قيامًا بالعدل بين الباطن والظاهر، فإن باطنه لما من الله تعالىٰ عليه بالخلوص من سائر الأدناس، كان من العدل

---

(١) قال الشعراني: الشيخ عبد العال المجذوب، كان ﷺ يمدح النبي ﷺ فيحصل للناس من إنشاده عبرة ويبكون، وكان سواكه مربوطًا في إزاره، وكفنه لم يزل مربوطًا علىٰ بطنه إلىٰ أن توفي. ولما دنت وفاته دخل لنا الزاوية، وقال: الفقراء يدفنون في أي بلد. فقلت: الله أعلم فقال: في (قليوب) فكان الأمر كما قال بعد ثلاثة أيام، ودفن قريبًا من القنطرة التي في وسط قليوب وبنوا عليه في سنة:٩٠٣هـ. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٦٠).

(٢) ساقط من «ب».



وسمعتُ سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: ممن ثبت عندنا أنه يربي المريدين في قبره سيدي أحمد البدوي، وسيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنهما، فإن الله تعالىٰ قد أعطاهما التصريف وتأديب أولادهما وهما في القبر.

قال: ونحن ممن جرَّب ذلك، لكن لا بد من عرض كل شيء يقولونه لمريدهما علىٰ الكتاب والسنة، لعدم عصمة المريد. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أمر تلامذته بحلق لحاهم أو بلبسهم الطراطير أو غير ذلك مما لم تأمر به الشريعة أو مما نهت عنه، بأنه ربما كان ذلك من باب ارتكاب أخف المفسدتين، كما تقدم في الجواب عن الإمام الغزالي في كسح النجاسة بلحيته[١]، فأراد الشيخ بأمر مريده بحلق لحيته ولبسه الطرطور مثلًا كسر قفص طبع مريده، وإزالة رعونات نفسه من الكبر والنفاق المانعين من وصول الخير إلىٰ باطنه، إذ النفس المتكبرة ممنوعة من المواهب مادامت تطلب المقام عند الخلق، فإذا مزَّقت مقامها عندهم وراعت ربها فقط، فهناك يُرجَىٰ لها الخير.

ثم إن هذه الطريق إنما هي لأفراد من أهل الطريق الذي غلبت عليهم الأحوال. وأما جمهورهم فلا يفعلون بمريديهم[٢] شيئًا يخالف ظاهر الشريعة أبدًا، وقالوا: مخالفة آداب الشريعة في الظاهر عنوان علىٰ مخالفتها في الباطن.

وممن أدركته ممن كانت الأحوال تغلب عليه سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي[٣]، وقد سرىٰ في أصحابه حلق اللحىٰ إلىٰ وقتنا هذا، بخلاف من غلب علىٰ حاله من

---

(١) انظر الجواب (٢٤٤).

(٢) بالأصلين: فلا يفعلون ممن يريدهم.

(٣) أبو السعود محمد بن دغيم الجارحي القاهري، الفقيه الصّوفي، المتعبد المتنسك. كان والده من أعيان كوم الجارح والمتسببين به في أنواع المتاجر، فنشأ الشيخ أبو السعود علىٰ خير، وحفظ القرآن العظيم، واشتغل في الفقه والنحو. من مصنفاته: «حزب الشكوىٰ» و«دفع الهم والبلوىٰ» توفي: ٩٢٩هـ . «شذرات الذهب» (١٠/ ٢٣١)، «هدية العارفين» (٢/ ٢٣٢).

المتمكنين، كسيدي علي المرصفي ﵀، فلم يقع من أصحابه شيء من ذلك، فالناس بين متمكن وأمكن، ورفيع وأرفع، والسلامة في اتباع ظاهر الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦١) **ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي مكث زمانًا يربي المريدين، ثم بعد ذلك تَلْمَذ لبعض فقراء العصر، فلاث الناس به وقالوا: هذا دليل علىٰ أنه كان كاذبًا في دعوىٰ معرفة الطريق أيام مشيخته السابقة، ولولا ذلك ما احتاج إلىٰ أن يتلمذ لغيره بعد ذلك،** بأنه لا يلزم من ذلك أنه كان متفعلًا في الطريق، فقد يكون وقع في سوء أدب فكُسِفَت[1] شمس ولايته، واحتاج إلىٰ من يربيه ثانيًا. وقد يكون كاملًا في طريق الولاية، ولكنه تلمذ لذلك الشيخ حين رأىٰ حاله أكمل من حاله، أو تَلْمَذ له حين رأىٰ كبرًا في نفس ذلك الشيخ يمنعه أن يستفيد الأدب من غيره، فتلقن هذا الشيخ عليه، وصار يعلمه الأدب شيئًا بعد شيء في حجة أنه تلميذ له بحيث لا يشعر بواحد[2]. وكان علىٰ هذا القدم الشيخ عبد الحليم بن مصلح[3] وأخي أفضل الدين، كان إذا ظهر لأحدهما من أحد كبر منعه من قبول النصح من أقرانه، يتلمذ له ويصير يسارقه بتعليم الآداب في حجة أنه متعلم منه، والحال أنه هو الشيخ لذلك الشيخ.

ووقع لسيدي محمد الشناوي أنه ربىٰ جماعة من المريدين وكمل حالهم، ثم أذن لهم بتسليك المريدين، ثم تلقن علىٰ سيدي الشيخ علي المرصفي وقال: لا أحب إلا أن أكون تابعًا.

فعُلِمَ أنه لا ينبغي لأحد حمل الشيخ الذي ربىٰ المريدين زمانًا، ثم إنه تَلْمَذ لشيخ أن يكون متفعلًا في أيام مشيخته الأولىٰ، فربما طلب تقوية حاله بإذن الشيخ الآخر له،

---

(١) بالأصلين: فكُشفت. والصواب ما أثبتناه.

(٢) كذا بالأصلين، أي بحيث لا يشعر بواحد من الآداب أنه يتعلمها من الشيخ التلميذ.

(٣) عبد الحليم بن مصلح المنزلاوي الصّوفي. كان من الأخلاق النبوية علىٰ جانب عظيم، وكان متواضعًا، كثير الإزراء بنفسه والحطّ عليها، وجاءه مرة رجل، فقال له: يا سيدي خذ عليّ العهد بالتوبة، فقال: والله يا أخي أنا إلىٰ الآن ما تبت، والنجاسة لا تطهّر غيرها. توفي: نحو ٩٣١هـ ببلده. «شذرات الذهب» (١٠/ ٢٤٩)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١١٧).

والطريق لا قرار لها يقف العبد عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا رأيناه ضرب شخصًا في مجلسه بغير ذنب ظهر لنا، وبادر الناس إلىٰ الإنكار عليه وقالوا: ما رأيناه فعل ذنبًا يستحق به الضرب، بأنه ربما كان ذلك المضروب حكَّم ذلك الشيخ في نفسه، ورضي بمؤاخذته له علىٰ الخواطر، فقام وضربه مؤاخذةً له علىٰ خاطر قبيح خطر له.

فلا ينبغي أنَّ أحدًا يبادر إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ حتىٰ يتأمل ويتربص، فإن مثل الأشياخ لا يقع في ظلم أحد ابتداءً بغير سبب، اللهم إلا أن يكون ذلك الشيخ ممن يغلب عليه الحال، قلنا الإنكار عليه من حيث إن صاحب الحال ناقص مأمور بالترقي إلىٰ مقام الكمال. ومصداق جواز إنكارنا عليه أن الحق تعالىٰ يؤاخذه في الدنيا علىٰ ما فعله، فإن ضرب مسلمًا ثم حمىٰ نفسه بالحال من متولي الحدود مثلًا، فهو دليل علىٰ أن الحقَّ تعالىٰ لا يؤاخذه بذلك في الآخرة أيضًا إن شاء الله تعالىٰ.

وقد مر شخص من أصحابنا علىٰ الشيخ محيسن المجذوب[1]، فقام الشيخ محيسن وضرب الرجل وكسر ذراعه، فشكا لسيدي علي الخواص، فأعلم بذلك أصحاب النوبة، فأدبوا الشيخ محيسن علىٰ ذلك بأن رمح أحدهم فرسه علىٰ رجله، فقطعت مشط رجله، فلم تزل مدودة[2] إلىٰ أن مات؛ لأن جرح أصحاب النوبة لا يختم إلا بموت صاحبه قهرًا بذلك، علىٰ أن صاحب الحال ظالم يستحق التأديب، بخلاف الشيخ الكامل.

وقد حكىٰ الشيخ عبد الغفار القوصي رحمه الله أن بعض أولياء عصره كان جالسًا علىٰ الكرسي يعظ الناس، فنزل وضرب شخصًا علىٰ رأسه، ثم رجع إلىٰ الكرسي، فقال له

---

(١) محيسن البرلسي الشيخ الصالح المجذوب بمصر، كان من أرباب الكشف أقام أولاً بسلاف، ثم انتقل إلىٰ الرميلة، وكان يوقد النار عنده كثيرًا ليعرف أصحاب الجذب من الأولياء أنه لا بد من وقوع فتنة وكان إذا صب ماءً عليها انقطعت الفتنة. توفي: ٩٤٩هـ ودفن في تربة الأمير جانم المجاورة لقبة الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه. انظر: «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٤٦)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٢٤).

(٢) أي يأكل فيها الدود.

شخص: هذا حرام عليك يا سيدي الشيخ! أيش فعل هذا حتىٰ ضربته؟! فقال المضروب: اسكت! فإني أستحق أكثر من ذلك. فقالوا له: وما ذاك؟ فقال: اغتبتُ في نفسي وليًا من أولياء الله تعالىٰ، وضربني تعزيرًا. فخجل ذلك المنكر علىٰ الشيخ بين الناس. انتهىٰ.

وكذلك بلغني عن شيخ آخر أنه كان جالسًا يقرر في العلم، فترك التقرير وضرب شخصًا من الطلبة خطر في نفسه أنه أفضل من بعض الحاضرين وصدَّقه علىٰ ما في نفسه، ثم استغفر وتاب، فقال له الشيخ: أما علمت أن الكبر من الكبائر. انتهىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء إذا جلست عندهم أو بلغك ذلك عنهم، حتىٰ تسألهم عن سبب ذلك، ولا تنس قصة موسىٰ مع الخضر عليهما الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا صار يستجلب الأمراء والأكابر من أبناء الدنيا إلىٰ التردد إليه ولا يغفل عن ذلك، ولا عن إرسال أصحابه لهم بنحو قوله: سيدي يحبكم ولا يغفل عن ذكركم؛ ولاث به الناس بسبب ذلك، وقالوا: هذا خلاف ما كان عليه المشايخ الذين مضوا، وما للفقير وصحبة الأمير؟! بأنه قد يكون بمعزل عما فهمه هؤلاء المعترضون، وإنما قصد بذلك ائتلاف قلب الأمير عليه ليصير يقبل شفاعاته في المظلومين، ولا يحوجه إلىٰ كبير توجه إلىٰ الله في قضاء الحوائج، وقد قالوا: تحويل الجبل من مكانه بتوجه الفقير أسهل عليه من تحويل قلب أمير.

وقد يكون لذلك الأمير أو الدفتردار مثلًا نصيب عند الشيخ في التربية والسلوك، كما وقع لسيدي يوسف العجمي[1] مع صاحب المدرسة الشيخونية[2]، فاستجلبه الشيخ إلىٰ

---

(١) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الله بن عمر الكرديّ، الكوراني الأصل، المصري الدار والوفاة، المعروف بالشيخ يوسف العجميّ. هو أول من أحيا طريقة الشيخ الجنيد ﷺ بمصر بعد اندراسها، وكان لا يأخذه في الله لومة لائم، مع فضيلة غزيرة ومعرفة تامّة بالتصوّف. له رسالة سمّاها: «ريحان القلوب والتوصّل إلىٰ المحبوب». توفي: ٧٦٨هـ ودفن بزاويته بقرافة مصر الصّغرىٰ. انظر: «النجوم الزاهرة» (١١/ ٩٤) و«الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٥٩)

(٢) هو الأمير شيخون ت ٧٥٦هـ والمدرسة الشيخونية نسبة إليه، وهي مدرسة هائلة جعل فيها المذاهب

صحبته تارة بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ، وتارة بطريق الظاهر، ليأخذ وديعته التي عند الشيخ، **فإن نفَّروا أحدًا عنهم كان بحقٍّ، وإن استجلبوه كان بحقٍّ.**

فاحمل يا أخي كلَّ ما تراه يقع من الأشياخ وأهل العلم علىٰ المحامل الحسنة، ولا تقسهم علىٰ نفسك، فإنهم أعلم منك بيقين وأعرف بطريق الظاهر وطريق الباطن، لأنهم خرجوا عن حظوظ نفوسهم أول دخولهم في الطريق، وما بقيت حظوظهم إلا في ابتغاء مرضات الله تعالىٰ في جميع حركاتهم وسكناتهم ﷺ، فتنبه لذلك يا من هو غارق في حظِّ نفسه ليلًا ونهارًا.

(٢٦٤) ومما أجبتُ به عن الوليِّ صاحب الحال، كثير العطب للناس، ولاث الفقراء به وقالوا: هذا قليل الأدب مع الله تعالىٰ ومع رسوله ﷺ، ولو كان عنده أدب لما آذىٰ أحدًا من الأمة إكرامًا لمن هم عبيده[1] تعالىٰ، أو لمن هم من أمته، إذ العمل بالحال كالعمل بالجوارح الظاهرة علىٰ حدٍّ سواء، فكما عليه اللوم شرعًا إذا ضرب أحدًا بغير حقٍّ، فكذلك عليه اللوم إذا أثر فيه بالحال بمرض أو عزل عن ولاية ونحو ذلك، بأنه قد يكون مغلوبًا بحاله، وربما سأل الله تعالىٰ بأن لا يجعله آلةً للسوء فلم يجبه إلىٰ ذلك، لسبق العلم الإلهي بأن يكون آلة لتنفيذ قضائه تعالىٰ في خلقه، كالجلاد عند الوالي، فكما لا بد للناس من جلَّاد في طريق الظاهر، فكذلك لا بد لهم في طريق الباطن من جلَّاد كذلك، وقد سَمَّىٰ الحقُّ تعالىٰ نفسه «الظاهر» و«الباطن»، وحكمه تعالىٰ نافذ في الدولتين.

فالزم يا أخي الأدب مع أصحاب الأحوال. وإن كانت حجة الله تعالىٰ متوجهة عليهم شرعًا، فذلك إلىٰ الله تعالىٰ لا إليك، والسلامة مقدمة علىٰ الغنيمة، وإنكارك عليهم باللسان لا يكفي، ولكن إن كان لك حال تغلب حالهم فأدِّبهم به، وإلا فلا تلتفت إلىٰ أحوالهم، فإنهم كالمجاذيب، والحمد لله رب العالمين.

الأربعة ودار للحديث وخانقاه للصوفية، ووقف عليها شيئًا كثيرًا. البداية والنهاية (١٤/ ٢٩٥).

(١) بالأصلين: عنده. والصواب ما أثبتناه.

(٢٦٥) ومما أجبتُ به عمَّن لا يراه أحد يزجر أصحابه عن قبيح ولا يأمرهم بأمر من المشايخ المسلِّكين في البلد، ولاث به الناس وقالوا: جميع ما يقع من أصحابه من الأذىٰ للناس فهو في عنقه، بأنه ربما كان من مقامه أن يربي أصحابه بالنظر إليهم بالقلب من غير لفظ، كما كان عليه الشيخ أبو العباس المرسي، وسيدي إبراهيم المتبولي، وسيدي علي الخواص وأضرابهم، ويقولون: إذا كانت السلحفاة تربي أولادها بالنظر، وكلٌّ من توارىٰ عنها ضعف، فكيف بالواحد منا؟! انتهىٰ.

ولكلِّ شيخ جماعة يرثونه في المقام إلىٰ يوم القيامة، فيربون[1] جماعتهم بالنظر، ويقوم ذلك النظر إليهم مقام التربية باللفظ وأكثر. وكلامنا فيمن سبق في علم الله أنه ينتفع بتربيتهم، «فلا يقال: أين تربية فلان لجماعته وهم يؤذون الناس الآن؟! فإن الشيخ قد فعل ما كُلِّف به، وكونهم لا يمتثلون أمره، فذلك إلىٰ الله لا إليه».

وسمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: كانت طريقة سيدي إبراهيم المتبولي أنه يربي بالنظر، وكذلك سيدي أحمد البدوي، فكان أحدهم إذا نظر إلىٰ مريد، أغناه عن الرياضة والمجاهدة.

وكان بعضهم يضع في خبزه الأمداد لمن يستحق الإمداد، والأمراض لمن يستحق التأديب، فيأكل الأول فيزداد أدبًا ومعرفة بالطريق، ويأكل الثاني فيزداد مرضًا في بدنه وضيقًا في معيشته، حتىٰ يكون أصعب عليه من الضرب والهجر. فامسك يا أخي لسانك في حقِّ الأشياخ حتىٰ تخالطهم وتعرف مصطلحهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٦٦) ومما أجبت به عمَّن يقول من الأشياخ: ما بقي مع أحد من العلماء علم نستفيده، وإنما ننظر في كلامهم لنرىٰ ما أنعم الله تعالىٰ علينا دونهم، أو ليطابق ما كشف لنا من العلوم، فنزداد بذلك يقينًا، بأنه ربما يكون صادقًا فيما قال، وذلك أن العبد إذا مَنَّ الله تعالىٰ عليه بكشف الحجاب، أعطاه علمًا من لدنه كما وقع للخضر عليه الصلاة والسلام، فاستغنىٰ به عن علم العلماء. وقد زعم بعضهم أن الله تعالىٰ أعطاه من لدنه

---

(١) بالأصلين: فيرثون. والصواب ما أثبتناه.

[علمًا]، فأدرك به علوم الأولين والآخرين بحكم الإرث لرسول الله ﷺ. وقال بعضهم: وبتقدير صحة ذلك، فقهو مقام عزيز يكون لبعض الأولياء لا كلهم؛ فيحتمل أن يكون هذا الشيخ منهم، فإن كان صادقًا، فقد صدقناه، وإن كانت الأخرىٰ رجع الأمر عليه دوننا. وقد ثبت هذا القول عن سيدي الشيخ أبي العباس المرسي كان يقول: إذا انجلىٰ القلب صار مرآةً للوجود، فيخبر صاحبه بما مضىٰ وما هو آت. وكان يقول: إنما ننظر في كتب غيرنا لننظر ما أنعم الله به علينا لا لنستفيد منها علمًا لم يكن عندنا. وكذلك كان يقول الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر[1]. وكان كثيرًا ما يقول أيضًا: كتاب الفقير هو قلبه. انتهىٰ.

فسلِّم يا أخي للفقراء دعاويهم تسلم، والحمد لله رب العالمين

(٢٦٧) ومما أجبتُ عن الأشياخ إذا وعد أحدهم أحدًا بعطية صدقة أو هدية أو غير ذلك ثم أخلف، ولاث الناس به وقالوا: هذه من خصال المنافقين، فكيف يكون هذا شيخًا؟! بأنه ربما بدا له بعد الوعد مصلحة له أو للموعود ترجح علىٰ الوفاء بذلك الوعد، من باب قوله ﷺ: «إني لأحلف علىٰ يمين فأرىٰ غيرها خيرًا منها، فأكفر عن يميني وآتي الذي هو خير»[2] الحديث، فكما كفَّر ﷺ عن يمينه ورأىٰ الحنث خيرًا، فكذلك الوليُّ له خلف الوعد لما هو خير له أو للموعود، ولا يكون ذلك الفعل مذمومًا إلا إذا أخلفه تهاونًا بالأمور الشرعية، كما يشهد لذلك قواعد الشريعة فافهم، والله أعلم.

(٢٦٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعطي الناس العطايا الجزيلة، ثم إذا تكدَّر منهم صار يقول: هذا جزاء الخير الذي عملناه معك! فلاث الناس به بسبب هذا القول

---

(١) **الشيخ أبو السعود ابن أبي العشائر** رضي الله عنه هو شيخ الخرقة السعودية في مصر وقراها. وأصله من باذبين قرية بقرب واسط العراق. وكان الناس يسمعون عند خلع نعله أنينًا كأنين المريض، فسألوه عن ذلك، فقال: هي نفسي أخلعها عند النعال، فتئن عند زوال تكبرها ورئاستها. ومات بالقاهرة في يوم الأحد تاسع شوال سنة أربع وأربعين وستمئة، وقبره بالقرافة ظاهر يُزار كل يوم أربعاء وكل يوم سبت. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني ترجمة رقم (٢٨٤) طبعة دار الإحسان.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

وقالوا: لو كان هذا شيخًا ما منَّ علىٰ الناس، بأنه قد يكون قلبه غافلًا عن رؤية منته علىٰ الناس جملة وإنما يربيهم بذلك، لئلا يكفروا نعمة المحسن إليهم الذي هو المحسن الحقيقي، وعملًا بحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1]، فأراد الشيخ بصورة المنِّ عليهم أن لا يعودوا لمثل ذلك، فيفوتهم الأجر الذي جعله الله تعالىٰ لهم في نظير شكر المحسن، لا ليشكروا فضله هو، فإن الشيخ من مقامه أن لا يرىٰ له فضلًا علىٰ أحد من عباد الله، لأنه قد خرج عن شهود كونه يملك مع الله شيئًا من أول قدم وضعه في طريق التوحيد، فإن التوحيد علىٰ ثلاثة أقسام: **الأول**: توحيد الملك لله. **الثاني**: توحيد الفعل لله. **الثالث**: توحيد الوجود الحقِّ لله. فاعلم ذلك، واحمل شيخك إذا منَّ عليك علىٰ التربية لك بقطع النظر عن وقوعه في حظ نفسه.

(٢٦٩) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا خاط علىٰ ثوبه رقعة حمراء أو سوداء أو خضراء، ولاث به الفقيه وقال: هذا يشبه الغيار والزنار[2] الذي لليهود والنصارىٰ، بأن الفقير ربما قصد بتلك الرقعة التشبه بأصحاب المرقعات من الفقراء، ليميلوا إلىٰ مجالسته، ولا ينفروا من مجالسته إذا رأوا صورة ملابسه ملابس أهل الدنيا، أو وضع الرقع خوف الإعجاب إذا كانت قطعة نفيسة.

وقد يكون قصد بوضع الرقع التبرك بأصحابها من سيدي عبد القادر الجيلي، أو سيدي أحمد بن الرفاعي، أو سيدي أحمد البدوي ونحوهم حين بالغ في الاعتقاد فيهم. وربما أنه لم يخطر علىٰ باله قط فعل ذلك موافقة للكفار، ولا يكون اللوم إلا علىٰ من قصد ذلك. ولم تزل مرقعات الفقراء في كل عصر مشتملة علىٰ ألوان شتىٰ، ويقرُّهم العلماء علىٰ ذلك من غير نكير فيما بينهم.

وقد كان سيدي علي الخواص يخيط في زيق[3] جبته شرموطًا أحمر تبركًا بسيدي

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤) وقال: حديث صحيح، وأحمد (٧٩٣٩)، وابن حبان (٣٤٠٧).

(٢) الغيار والزنار: علامة أهل الذمة.

(٣) زِيقُ القميص: اليَاقَة، وهي مَا أحاط من القميص بالعنق.

أحمد البدوي، فقالوا له مرةً: لم لا تتعمموا بشملة حمراء؟ فقال: لا أقدِرُ علىٰ القيام بحقِّها إلا إن ساويت صاحبها في المقام، وهذا أمر يعجز مثلي عنه، وقد رأىٰ بعضهم رسول ﷺ في المنام، فسأله عن مقام سيدي أحمد البدوي، فشهد له رسول الله ﷺ بأنه ما ثم في عصره أكبر فتوة منه.

فعُلِمَ أن خياطة الرقعة المخالفة للونْ ذلك القميص مباح بين الفقراء، ولا يقال: إن ذلك كالغيار والزنار، لأن ذلك الأمر قد تغير، واكتفىٰ المسلمون بتميز اليهود والنصارىٰ بالعمائم الصفر والزرق.

ومما وقع لسيدي عبد الرحيم القناوي[1] أنه مرَّ عليه كلب فقام له، فقال الناس له في ذلك، فقال: إنما قمتُ لزي الفقراء الذي في عنقه! فنظروا إليه فوجدوا في عنقه طوقًا من جبة فقير، **وتعظيم الأولياء مطلوب شرعًا**، حتىٰ إن بعضهم كان لا يمشي في حارة شيخه بنعل اقتداء بالإمام مالك حين ترك المشي في نعل مدة إقامته في المدينة المشرفة، خوفًا أن يقع نعله علىٰ مكان قدم رسول الله ﷺ. انتهىٰ. **ولا يخفىٰ أن للفرع من الأدب نظير ما للأصل وإن تفاوت المقام.**

وقد فعلتُ أنا مثل ذلك في حارة سيدي عليٍّ الخواص، فنهاني عن ذلك وقال: نحن عبيد مذنبون لا نستحق مثل هذا الأدب. انتهىٰ. فامتثلت أمره لكونه أولىٰ من سلوك الأدب. فاعلم ذلك، وانتحل للأشياخ الأجوبة الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٢٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الكبير في الطريق إذا تكلم في حقِّ أمير أو فقير أو غيرهما بكلام فيه تنقيص له، ولاث الناس به وقالوا: كيف يكون هذا عالمًا أو شيخًا وهو يقع في غيبة الناس؟ بأنه ربما كان قصده بذلك الكلام أن الناس يبلغونه

(١) عبد الرحيم بن أحمد بن حجون الشريف الحسيب النسيب، إمام من الأئمة العارفين. أقام بمكة سبع سنين ثم قدم إلىٰ (قنا) من صعيد مصر وأقام بها، لا يكاد قبره (بقنا) يخلو من زائر وقاصد وعابر. ذكره المنذري في تاريخه فقال: كان أوحد زمانه، أحد الزهاد المشهورين، من أعيان الصالحين. ت ٥٩٢ هـ. «الوافي بالوفيات» (١٨/ ١٩٣)، الكواكب الدرية (٢/ ٢٦٣).

لذلك الأمير أو الفقير مثلًا، ليفتش نفسه وما فيها من النقائص، فيتوب منها ويستغفر، لا للتشفي في عرض أخيه كما هو الغالب، فإن الشيخ لا يصل إلىٰ مرتبة التصدر للتربية حتىٰ ينظر إلىٰ محاسن الوجود، ويعمىٰ عن مساويء الخلق أجمعين فلا يتنبه لها إلا إن نبهه الحقُّ لها من طريق الإلهام وحينئذٍ يداويه. وما من شيخ يوليه الله تعالىٰ علىٰ تربية عباده إلا ويخرجه عن رعونات النفوس جملة، ويصير يفرح بكلِّ من قدَّمه الله عليه في دين أو دنيا، ويراه أفضل منه ظاهرًا وباطنًا، وأنه لا يصلح أن يكون تلميذًا له، فكيف يقصد بذلك الكلام الغيبة المحرمة؟! هذا أبعد من البعيد.

وقد حطَّ مرة سيدي عليٌّ الخواص علىٰ بعض أصحابه، فلاث الناس به، فقلتُ لهم: إنما قصد الشيخ بذلك زوال إعجاب ذلك الفقير بنفسه حين بلغه أن الأمير الدفتردار زاره البارحة. ثم إن ذلك الفقير ذكر فضل الشيخ علىٰ ذلك، وصار يقول: من بقي بعد موت هذا الشيخ يشفق علينا مثل هذه الشفقة أو يخاف علينا. انتهىٰ.

فاعرف يا أخي مقام الأشياخ ولا تحمل أحوالهم علىٰ مثل أحوالك، تخطيء الطريق وتحرم مددهم. وإذا كان أحدهم يقول: لولا أخشىٰ أن تكون غيبة، لقلتُ: إن اليهودي الفلاني أعلم بالطب من اليهودي الفلاني، فكيف يقع في عرض مسلم موحد؟! والحمد لله رب العالمين.

(٢٧١) ومما أجبتُ به عمَّن لم يخدم زوجته أو خادمه أو صاحبه إذا مرض من المشايخ، وصار يقولون: ما بقي أحد من هؤلاء المشايخ خير، فكم خدمته زوجته لما مرض بالحب الفرنجي! وكذلك خادمه وصاحبه، فلم يعاملهم بشيء لا بنفسه ولا بوكيله ولا بثمن مستجلب، مع أنهم أنفقوا عليه جملة أموالهم! بأنه ربما قصد بذلك تطهير زوجته أو خادمه أو صاحبه بسرعة، فإنهم في حجر تربيته كاليتيم في حجر وليِّه، بل هو أعلىٰ شفقة عليهم من أبيهم الطينيِّ.

ورأيتُ هذا يقع كثيرًا من سيدي عليٍّ الخواص في حقِّ أصحابه ويقول: إنما أقصد بعدم افتقادهم بما يحتاجون إليه في المرض، ليتخلصوا إلىٰ مقام الالتجاء لربهم دون

الخلق، ليصطفيهم الله تعالىٰ، فإنه لا يصطفي عبدًا قط وهو يركن إلىٰ غيره إلا بإذنه.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأولياء، فإنهم [أعلىٰ منك](١) حكمًا وعلمًا، وربما كنت أنت بالضد من ذلك، واحمل المشايخ علىٰ أحسن المحامل ترضِ ربك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٧٢) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا وقع له أنه اختلىٰ بامرأة أجنبية، ولاث به الناس وقالوا: قد وقع في الحرام، بأنه ربما اختلىٰ بها سهوًا وغفلة، لضعف داعيته إلىٰ تناول شهوات النفوس، فلم يبق عنده ما يذكِّره بتحريم الخلوة بالأجنبية كما هو الغالب علىٰ الفقراء، بخلاف من قويت داعيته إلىٰ الجماع مثلًا، فإنه يتذكر بذلك الجماع أو مقدماته هل ذلك حرام أو حلال، فإن حكم غالب الفقراء الصادقين حكم العنين الذي لا يعرف للجماع لذة.

فإياك يا أخي والإنكار علىٰ الفقراء في خلوة أحدهم بالأجنبية حتىٰ تفتش هل هو ذاكر للتحريم أو ساه عنه؟ ثم أنكر بعد ذلك ما أنكره الشرع.

وأما إذا قال الفقير: أنا لا أتأثر بالخلوة بالأجانب؛ قلنا بالإنكار عليه، لأنه علامة علىٰ جهله بأحكام الشريعة. وقد سُئل الإمام أبو القاسم النصراباذي شيخ خراسان في عصره عمَّن يقول: أنا لا أميل للنساء، فلا عليَّ لوم في مجالستي للأجانب. فقال الشيخ: ما دامت الأشباح باقية، فإن الأمر والنهي باقٍ في حقِّ كلِّ مكلَّف، ولا يجتريء علىٰ الشبهات إلا من بعرض المخالفات. انتهىٰ.

ولكل شيء قرائن تدل عليه، فتشهد للعبد بالصدق أو بالكذب. ومن خرق سور الشريعة، فقد وقع في الخديعة. فاعلم ذلك وتحقق الأمور، ثم بعد ذلك أنكر، والحمد لله رب العالمين.

(٢٧٣) ومما أجبتُ به عمَّن لم يحمل همَّ إخوانه إذا نزلت بهم مصيبة، ولاث الناس

---

(١) زيادة يقتضيا السياق.

به حين تزوج أو بنىٰ دارًا أو غرس غرسًا أيام مصيبتهم، وقالوا: قد قال رسول الله ﷺ: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[1]. انتهىٰ. فشخص نفاه النبي ﷺ من كمال الإيمان، فكيف يكون وليًّا لله عزَّ وجلَّ؟! بأنه قد يكون معتقدًا كمال صاحب المصيبة وقوة تحمله للبلاء والمحن، فلا يحتاج لمثله. وقد يكون من أرباب المجاهدات والرياضات، فمتىٰ يُحمَل عنه شيء من البلاء، نقص استعداده، وضعف عن تحمل البلاء الآتي في المستقبل.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من تحمَّل عن إخوانه البلاء أيام رياضتهم وإدمانهم، أساء في حقِّهم من حيثُ يرجو الأجر والثواب؛ فإن كلَّ بلاء نزل علىٰ العبد، فهو إدمان للبلاء الآتي، ومعلوم أن البلاء إذا نزل علىٰ من لا إدمان عنده، هدم أركانه، بخلاف من كان له به عادة سابقة. انتهىٰ. وقد بسطنا الكلام علىٰ هذا المحلِّ وعلىٰ ما يرد عليه من الأسئلة في كتاب «المنن الكبرىٰ» فراجعه[2].

فعُلِمَ أنه لا لوم علىٰ من لم يهتم بأمر المسلمين إلا إذا علم عجزهم عن تحمل ذلك البلاء. أما عند علمه بقدرتهم علىٰ تحمله، فلا لوم عليه عادة، فلا يقال التحمل دائمًا أفضل، ولا عدم التحمل تسليمًا لله أفضل، بل كلٌّ أفضل في محله، مع أن تحمل هموم الإخوان لا ينافي التسليم لله تعالىٰ في أمرهم، والله أعلم.

(٢٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يحمل حملات الولاة، وأن له مدخلًا في ولايتهم أو عزلهم، ويطلب منهم علىٰ ذلك مالًا، ولاث العلماء به وقالوا: لا يصح لأحد أن يحمل حملة أحد، إذ المقدَّر كائن لا محالة، وغير المقدَّر لا يحتاج إلىٰ تحمل، وما بقي إلا النصب وأكل أموال الناس بالباطل.

والجواب: أن الأشياخ لا يجهلون مثل ذلك، وإنما ذلك من باب تعليق الأسباب

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٤٧٣) وفي «الصغير» (٩٠٧).

(٢) «المنن الكبرىٰ» (١/ ٤٠٦).

علىٰ مسبباتها، فما أخذوا الأموال إلا بعمل يستحق أحدهم أخذ الأجرة عليه شرعًا، كالجعالة يستحق من رَدَّ الآبقَ ما جعلوه له وإن لم يكن له أثر في رده إلىٰ مالكه، لأن التأثير للقدرة الإلهية لا للراد، فافهم وتأمل لما يرمي عليك عدوك حجرًا يكسر رأسك، فجاء إنسان ورده عنك، كيف تصير تشكر فضله، مع أنه ما رده إلا لعدم تقدير وصوله إليك، فلو أراد الله وصوله إليك لم يقدر أحد علىٰ رده.

وبالجملة فالأولياء علىٰ قسمين: منهم من يتحمل بأجرة؛ ومنهم من يتحمل احتسابًا، لكن في الأمور المعلَّقات كما مرت الإشارة إليه، لا علىٰ الأمور المحتم وقوعها.

وكان سيدي عليٌّ الخواص إذا دخل علىٰ مريض فإذا رأىٰ مرضه يقبل النقل حمله، وقام المريض وضعف هو، وإن لم يقبل النقل، دعا له بالصبر وانصرف، والله أعلم.

(٢٧٥) ومما أجبتُ به عمَّن صار يعبس في وجوه أصحابه والواردين عليه بعد أن كان يتبسم في وجوههم وينشرح لرؤيتهم، ولاث الناس به وقالوا: إن فلانًا قد تغير حاله وازدرىٰ الناس وصار متكبرًا، ونحو ذلك من الألفاظ، بأن تعبيسه قد يكون سببه انكشاف أمور الآخرة له، لا سيما إن طعن في السن، فإن كلَّ من كُشِف حجابه ورأىٰ ما أمامه من الأهوال في القبر وما بعده، ضاق وقته عن اللهو واللعب مع الناس.

وقد كان الحسن البصري لا يراه [أحد][1] إلا ظنَّ أنه قريب عهد بمصيبة لما به من الحزن، وكذلك الفضيل بن عياض ﷺ. وممن أدركته علىٰ هذا القدم سيدي محمد بن عنان وسيدي عليٌّ الخواص وسيدي عليٌّ النبتيتي[2] وشيخ الإسلام زكريا ﷺ، كنتَ لا ترىٰ أحدهم متبسمًا إلا في النادر لأمر اقتضاه.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) علي النبتيتي الشافعي الشيخ الإمام العالم العلامة، المقيم ببلدته نبتيت من أعمال مصر. كان رفيقًا للقاضي زكريا في الطلب والاشتغال، كان الناس يقصدونه إلىٰ موضع إقامته بناحية نبتيت للعلم والإفتاء والإفادة، والتبرك، والزيارة من سائر الآفاق. توفي يوم عرفة: ٩١٧هـ ودفن ببلده. «الكواكب السائرة» (١/ ٢٨١)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٠٩).

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: إذا بلغ الرجل أربعين سنة، فلا ينبغي له أن يأكل شهوة، ولا أن يضحك ولا أن ينام الليل إلا غلبة، وكلُّ يوم لا يدخل عليه أحد ممن يشغله عن الله، يراه يوم عيد. وما من العارفين أحد إلا وتمنىٰ أواخر عمره أنه لم يكن عرف أحدًا ولا عرفه أحد.

فإياك يا أخي أن تظن سوءًا بمن كان يتبسم في وجهك إذا دخلت عليه، ويباسطك في الكلام، ويقدم إليك الطعام، ثم ترك ذلك كله، وأقم له العذر، لاسيما إن جاوز الأربعين سنة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا رأيناه يقبل علينا بالإحسان ويدبر عنا بعدمه، وصار الناس يلوثون به ويقولون: إن محبة هذا لنا لغير وجه الله، بأنه ربما كان غائبًا عما ظنه الناس به، وإنما أقبل علينا تبعًا للحقِّ جلَّ وعلا من حيثُ إنه تعالىٰ يحب المحسنين، فأحبنا لمحبة الله عزَّ وجلَّ، ثم لما أدبرنا عن الإحسان أدبر عنا كذلك، إذ يبعد من العالم أن يحب أحدًا للدنيا بعد معرفته بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] أي يحب بعضهم بعضًا لله تعالىٰ لا لعلة دنيوية، فإن من احتاج في محبة أخيه إلىٰ إحسان، فكأنه لم يمتثل أمر ربه في محبة أخيه. وهذا الأمر يبعد أن يقع فيه العالم، فيجب حمله علىٰ المحامل الحسنة اللائقة بمقامه، ولا يجوز لمحب الدنيا حمله علىٰ المحامل السيئة قياسًا علىٰ نفسه هو، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٧) ومما أجبتُ به عمَّن يقول من المشايخ: إن الله تعالىٰ أطلعني علىٰ ملكوت السماوات، مع أن الواحد منا إذا قال له: فما في كفي؟ لا يعرفه، مع أن الواحد منا أقرب إليه من السماوات بيقين.

والجواب: أنه لا اعتراض علىٰ من يقول ذلك، فقد يكون صادقًا في أن الله تعالىٰ أطلعه علىٰ ملكوت السماوات دون ملكوت الأرض. وقد كان الشيخ محيي الدين رحمه الله يقول: من أولياء الله من يكشف له علىٰ ملكوت السماوات والأرض علىٰ التفصيل،

ومع ذلك لا يعرف ما في جيبه، لأنه مع الحقِّ تعالىٰ بحسب ما يطلعه عليه لا مع نفسه، فلا تَعَشُّقَ له إلىٰ مقام ولا حال من ذات نفسه. انتهىٰ.

فعُلِمَ أنه لا يلزم من معرفته الأمور الباطنة البعيدة أن يعرف الظاهرة القريبة، فقد يُطلعه الله تعالىٰ علىٰ الباطنة ولا يُطلعه علىٰ الظاهرة لحكمة بالغة، هذا مع أن الشيخ الذي قال: إن الله تعالىٰ أطلعني، لم ينسب لنفسه قدرةً ولا فعلًا، فلا اعتراض عليه، إلا لو لم يُضف الأمر إلىٰ الحقِّ جلَّ وعلا وأضافه إلىٰ نفسه، ثم عجز عن معرفة شيء في الكون، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي اطلع من طريق كشفه علىٰ قرب مريده من الزنا بامرأة، فمد يده، فحال بين فرجها وبين ذكر مريده، ولاث الفقراء به وقالوا: هذا لا يجوز لما فيه من كشف سوءات الناس، وهو قريب من التجسس علىٰ عيوب الناس، وذلك منهي عنه شرعًا، بأنه لا يجوز الاعتراض علىٰ هذا الشيخ لأنه أزال منكرًا، وليس هو من باب التجسس، لأن الكشف أمر يقيني لا ظني، ولا فرق حينئذٍ بين من يزيل المنكر الظاهر، وبين من يزيله من طريق كشفه في الوجوب عليه، وفي الحديث: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده»[1]، وقد غير هذا الشيخ المنكر.

وقد وقع مثل ذلك لسيدي محمد الغمري مع مريد له، فقال بعض أقرانه: ما كان ينبغي للشيخ أن يفعل مثل ذلك، لأنه لا يخلو إما أن يكون ذلك الزنا مقدَّرًا مبرَمًا أم لا، فإن كان مقدَّرًا فلا يقدر علىٰ منعه بيده، وإن لم يكن مقدَّرًا فلا يحتاج إلىٰ مد اليد. وقد أجبتُ أنا عن سيدي محمد هذا بأن الذي فعله هو الصواب، لأن الله تعالىٰ أمرنا بإزالة المنكرات وكفٍّ من شرع في فعلها عنها، وكلفنا ذلك، فلا يخرج عن العهدة إلا بذلك، فإن كانت مقدرة، فقد فعلنا ما كُلِّفنا به، وإن لم تكن مقدرة فقد فعلنا ما كلفنا به، فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤٩) وأبو داود (٤٣٤٠).

(٢٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: اجتمعتُ بالخضر عليه الصلاة والسلام مرارًا وقال لي كذا وكذا؛ ونازعه بعض الفقهاء في حياته، وصاروا يستدلون عليه بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية[1] وغيره، ويقولون: إن الخضر قد مات في آخر القرن الأول من الهجرة، لقوله ﷺ: «بعد مئة سنة من يومنا هذا لا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض الآن أحد»[2]، بأن هذا الشيخ صادق في اجتماعه بالخضر عليه الصلاة والسلام في مثل هذا الزمان، والحديث المذكور لا ينافي ذلك، لأنه ما من عام إلا ويقبل التخصيص.

وقد حكىٰ الإمام اليافعي[3] التواتر بين الأولياء علىٰ حياة الخضر عليه الصلاة والسلام، وكثرة اجتماعهم به في السياحات وغيرها. وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول: اجتمعتُ بالخضر عليه الصلاة والسلام ما لا أحصي، فلو جادلني الآن ألف فقيه علىٰ أنه مات لم أرجع إليهم. وكان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول: «خصلتان أكرههما من الفقيه: قوله بموت الخضر، وقوله بكفر الحلاج». انتهىٰ.

قلتُ: وممن أدركته من مشايخنا الذين يصرحون باجتماعهم بالخضر الشيخ عليٌّ الضرير النبتيتي والشيخ عليٌّ الخواص والشيخ أفضل الدين رضي الله عنهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٠) ومما أجبتُ به عن العلماء والمشايخ الذين يأكلون من أطعمة الولاة ولا يراهم أحد يتورعون، ثم بعد ذلك يدعي أحدهم الصلاح، ولاث الناس بهم بسبب ذلك

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس تقي الدين ابن تيمية، ولد في حران وتحول به أبوه إلىٰ دمشق فنبغ واشتهر. له مصنفات منها: «الفتاوىٰ» و«السياسة الشرعية» و«منهاج السنة» وغيرها. ومات معتقلًا بقلعة دمشق ٧٢٨هـ فخرجت دمشق كلها في جنازته. «الوافي بالوفيات» (٧/ ١١)، «الأعلام» (١/ ١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧).

(٣) عفيف الدّين أبو محمد عبد الله بن أسعد شيخ الحجاز اليافعي اليمني ثم المكيّ الشافعي. ولد قبل ٧٠٠هـ بقليل، حببت إليه الخلوة والانقطاع والسياحة في الجبال، وصحب الشيخ علي الطواشي، وهو الذي سلّكه الطريق، له مصنفات منها: «مرآة الجنان، وعبرة اليقظان، في معرفة حوادث الزمان» ثم جاور بمكّة، وتزوج بها، وبها توفي: ٧٦٨هـ. «شذرات الذهب» (٨/ ٣٦٢)، «الأعلام» (٤/ ٧٢).

وصاروا يقولون: إن شخصًا من الأولياء كان يرىٰ النبي ﷺ في منامه كثيرًا، فدخل يومًا علىٰ أمير يشفع عنده في مظلوم، فجلس علىٰ بساطه، فانقطعت عنه رؤية رسول الله ﷺ من ذلك اليوم، ثم رآه بعد سنين من بعيد وقال: يجلس علىٰ بساط الظالمين ويطلب رؤيتي! لا سبيل إلىٰ ذلك. انتهىٰ. بأنه ربما كان يسأل الله تعالىٰ كلما يريد يأكل من طعام الولاة أن يميز له الحلال من الحرام حتىٰ يأكله، أو كان من أهل العلامات، كما كان الحارث المحاسبي، فكان له عرق يضرب في يده إذا مدَّها إلىٰ طعام فيه شبهة. وكان من رجال التمييز جماعة أدركناهم، منهم أخي الشيخ أفضل الدين، قدَّمتُ إليه يومًا رغيفًا، فصار يرمي منه شيئًا ويأكل الباقي، وقال: لي عادة مع الله تعالىٰ أن يميز لي الدقيق المختلط بحرام ويعزله لي وحده. فقلتُ له: الدقيق؟! فقال: الدقيق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]. انتهىٰ. فيُحتمَل أن يكون ذلك العالم أو الشيخ ممن يستجيب الله تعالىٰ دعاءه، ويميز له الحلال من الحرام، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨١) **ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن جبريل يأتيني كلَّ قليل ويحادثني، وكذلك عزرائيل والمسيح عليه الصلاة والسلام، ويصير الناس يلوثون به،** بأنه قد يكون صادقًا في ذلك، فإنه قد ورد نزوله ليلة القدر ومصافحته لمن أقامها إيمانًا واحتسابًا[1]، وكل ما جاز وقوعه لآحاد الناس مرةً في السنة مثلًا، يجوز أن يخرق الله تعالىٰ العادة فيه لبعض أوليائه بالتكرار ما شاء الله.

وقد نقل الشيخ عبد الغفار القوصي عن الشيخ تاج الدين بن شعبان[2] أنه كان إذا سأله إنسان عن شيء لا يعرفه، قال له: اصبر حتىٰ يجيء جبريل وأسأله عنه؛ فأفتىٰ بعضهم بكفره. قال الشيخ عبد الغفار: ولا ينبغي تكفيره بذلك، لأنه ليس بمستحيل،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تاج الدين بن شعبان بن إبراهيم بن محمد، كان كبير الشأن، وهو شيخ الشيخ ناصر الدين بن عبد القوي، وكانت له أحوال شريفة ومواجيد وأخبار عزيزة، كان من أقران الشيخ عبد الرحيم القناوي. جامع كرامات الأولياء (١٦١٩)، ذيل مناقب الأولياء ص١٩٦

فإن قلوب الأولياء ﷺ طوَّافة بالملكوت، ولها مخاطبات لملائكته ومحادثات. ثم لا تُسمَّىٰ تلك المحادثة نبوة ولا وحيًا ولا إرسالًا. انتهىٰ.

وأما عزرائيل فكان الشيخ محمد الشربيني[1] رحمه الله يقول: جاءني عزرائيل مرارًا، وأخبرني بما بقي من أجل فلان وفلان، وكان الأمر كما قال. انتهي. وأخبرني ولده الشيخ أحمد أنه مرض مرضًا شديدًا وأشرف علىٰ الموت، ونزل عزرائيل لقبض روحه، فقال الشيخ: ارجع إلىٰ ربك فراجعه، فإن ذلك الأمر نسخ، وبقي من عمره ثلاثون سنة[2]. قال الشيخ أحمد: وقد بقي منها سنة وأربعون يومًا، فكان الأمر كذلك.

وأما المسيح عليه الصلاة والسلام فذكر الطبري وغيره أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام نزل بعد ما رُفِعَ ثلاث مرات، وقالوا: إذا ثبت نزوله ثلاث مرات، فلا مَنْعَ من نزوله بعد ذلك، لكن لا يعرفه كلُّ أحد إلا في نزوله آخر الزمان. وذكر أيضًا أن جماعة من أصحاب الجذام والبرص والعاهات كانوا يقفون خارج أجمة[3] بوص ينتظرون المسيح [إذا] خرج منها، فراجعه. وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في «الفتوحات المكية» أنه اجتمع بالمسيح عليه الصلاة والسلام، وتاب علىٰ يديه في الطريق، وأمره بالسياحة. انتهىٰ[4].

---

(١) الشيخ محمد الشربيني رحمه الله تعالىٰ، شيخ طائفة الفقراء بالشرقية كان من أرباب الأحوال والمكاشفات، وكان ﷺ يتكلم علىٰ سائر أقطار الأرض كأنه تربىٰ فيها. وكراماته كثيرة. توفي: قبل ٩٢٠هـ ودفن بزاويته سربين، وقبره بها ظاهر يزار ﷺ. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١١٨).

(٢) نزول سيدنا عزرائيل ﷺ بحسب ما في صحيفته المكتوب فيها الأجل المعلَّق. وقول سيدي الشربيني هو بحسب إطِّلاع الله له علىٰ أن بقاء ابنه متوقف علىٰ شرط، وهو شفاعة الشيخ، فتشفع الشيخ ودعا ربه ببقاء ابنه، فتقبل الله دعاءه وعلم الشيخ ذلك بإلهام إلهي، فأخبر الملك بأن ما في صحيفته قد نُسخ، أي بظهور الحكم الأزلي ببقاء الابن. ولو نفذ الموت ولم تُقبل شفاعة الشيخ لكان هذا هو حكم الله الأزلي الذي لا يتغير.

أما عن الحكمة في نزول عزرائيل ﷺ وعودته فهي إظهار الله تعالىٰ كرامة وليِّه وعظم شأنه عنده، وظهور حكم القضاءين المعلَّق والمبرم.

(٣) الأَجَمَة : الشجر الكثير الملتَف.

(٤) انظر الجواب (١٤) من أجوبة الشيخ الأكبر علىٰ الحكيم الترمذي، الباب (٧٣)، «الفتوحات».

فاحمل يا أخي من ادعىٰ الاجتماع بملائكة السماوات علىٰ التصديق، إلا إن ترتب علىٰ ذلك مفسدة في الدين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن الحق تعالىٰ يرضىٰ لرضاي، ويغضب لغضبي؛ وصار الناس يلوثون به بسبب ذلك وقالوا: من أين يعرف ذلك؟ وليس هو بنبي يُوحىٰ إليه، وإنه يجب تكذيب مثل هذا، بأنه قد يكون صادقًا، فقد ورد في الصحيح أن الله عزَّ وجلَّ يرضىٰ لرضا الوالدين، ويغضب لغضبهما[1]، فيُحتمَل أن يكون أخبر بذلك، لكون أولاده يرضونه تارة ويسخطونه تارة. ويُحتمَل أنه أخبر بذلك بعلامات يعلمه الله إياها، فهو من باب التجربة مع الحقِّ جلَّ وعلا لا من باب الوحي.

وقد ادعىٰ شخص في عصر سيدي إبراهيم المتبولي ذلك، وكان كلُّ من دعا عليه مات، وكلُّ من غضب عليه خربت دياره، فبلغ خبره إلىٰ سيدي إبراهيم، فسأل الله تعالىٰ في موته، فمات لوقته، وقال: لو بقي هذا لأمات خلقًا كثيرًا. ومما وقع له كما حكته زوجته أنه دعاها لفراشه ليلة، فقالت: اصبر حتىٰ ينام الأولاد. وكانوا سبعة، فقال: أماتهم الله؛ فماتوا كلُّهم تلك الليلة. انتهىٰ. فسلِّم يا أخي للأولياء كلَّ ما لم يعارض نصًّا أو إجماعًا من سائر الممكنات، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٣) ومما أجبتُ به عمَّن يقول: إن الله تعالىٰ أعطاني أنني أنادي من شئتُ من أصحابي في سرِّي فيأتي، وأنادي من شئتُ أن لا يأتي أو يرجع من الطريق، فيفعل، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: إن السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لم يقع له مثل ذلك، وإنما ناداهم بصوت جهوري، فأخذه الله تعالىٰ بأن سمعه من بعيد كمن سمعه من قريب. وقد وقع للسيد عمر بن الخطاب ﷺ وقال: يا سارية، الجبل الجبل، وكان عمر

---

(١) أخرج الترمذي (١٨٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «رضىٰ الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد» والحاكم (٧٢٤٩) وقال الذهبي: صحيح علىٰ شرط مسلم، وابن حبان (٤٢٩) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢).

بالمدينة، وسارية بنهاوند[(١)] بالعجم، فسمعه وبينهما نحو شهر. وكذلك وقع لسيدي أحمد بن الرفاعي[(٢)] كان يعظ الناس على الكرسي، فيسمعه جميع البلاد التي حول بلده، فكانت الكرامة في ذلك زيادة امتداد الصوت لا غير، نظير وضع رسول الله ﷺ أصابعه في الإناء، فزاد الماء حتى أروى الجيش[(٣)]، ولم يبلغنا أن أحدًا أظهر كرامة بلا مادة أبدًا.

والجواب: أن [نداء][(٤)] الولي في سره حكمه عند الله تعالى كالصوت الجهوري، فلا بدع أن الله تعالى يوصله إلى سماع المريدين بواسطة الارتباط الذي يكون بين المريد وبين شيخه.

وكان أخي أفضل الدين ﷺ له هذا المقام، فربما كان جالسًا عندي، فقال: مقصودي أنادي فلانًا بالقلب ليحضر، وفلانًا ليرجع إن كان في الطريق؛ فيأتي أحدهما ويرجع الآخر. انتهى.

ويقع لي ذلك كثيرًا، فيأتيني من يُجعَل لي على يديه خير، ويرجع من يحصل على يديه شرٌّ من وقوعه في غيبة أو نميمة ونحو ذلك، فالتسليم للعبد أسلم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٤) ومما أجبتُ به عمَّن يقول: أنا ممن أخبر رسول الله ﷺ عنه أنه يجدد شريعته[(٥)]، ولاث الناس به بسبب ذلك، وأنكروا تجديده للدين، بأنه قد يصدق تجديده ولو بتعليم

(١) كذا بالأصلين، وفي «البداية والنهاية» أنها كانت مدينة دارابجرد. راجع: «البداية والنهاية» (١٠/ ١٧٥).

(٢) أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني أبو العباس، الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن (من أعمال واسط - بالعراق) وتفقه وتأدب في واسط، وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير. وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وتوفي بها: ٥٧٨ هـ. «الطبقات الكبرى» للشعراني (١/ ١٢٠)، «الأعلام» (١/ ١٧٤).

(٣) كما حدث يوم الحديبية والحديث أخرجه البخاري (٤١٥٢)، وابن حبان (٦٥٤٢).

(٤) ساقط من «ب».

(٥) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» والحاكم (٨٥٩٢) والطبراني في «الأوسط» (٦٥٢٧).

حتىٰ إن بعضهم يخفي كثيرًا من العلوم والعبادات المتعلِّقة بالقلوب والجوارح، لئلا يعلم بذلك الناس، فيتوجه عليهم اللوم شرعًا إذا علموا ذلك ولم يعملوا به.

وقد أرسل الله تعالىٰ محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، **وكذلك ينبغي للدعاة بعده أن يكونوا كذلك رحمةً لقومهم، فلا يظهروا لهم من العلوم والأعمال إلا بقدر ما يعلمون منهم الطاقة والدوام عليه**، ولم يزل الناس الداعون إلىٰ الله يتنازلون لأتباعهم، ولو أنهم طلبوا من أتباعهم أن يتبعوهم علىٰ وصف الكمال الذي هم عليه لما استطاعوا، فعُلِمَ أن كلَّ عالم أو شيخ اختفىٰ عن أهل عصره، فليس عليه لوم، بل هو ماشٍ علىٰ سنن من كان قبله.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي رحمه الله يقول: أسباب الظهور للعلماء وأشياخ الطريق شيئان: العلم بقوة همة الطالب، والقدرة علىٰ العمل[1] بما علم. وهذان الأمران قد تودع منهما ما بقيت الدنيا. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: الداعي إلىٰ تظاهر أشياخ الطريق بأسباب الصلاح شيئان: وجود المعتقدين فيهم من الأمراء والأكابر ليقبلوا شفاعهم في المظلومين، وصدق المريدين في طلب الطريق. وهذان الأمران مفقودان الآن غالبًا، فالتظاهر بالعلم بالصلاح لماذا؟! وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من تظاهر بالعلم والصلاح بغير ضرورة، فهو بعيد عن الإخلاص، فإنهم قالوا الظهور يقطع الظهور. انتهىٰ.

فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ من يخفي نفسه في هذا الزمان إلا بعد معرفتك بشروطه، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٦) ومما أجبتُ به عمَّن يقول من الفقراء: «لا موجود إلا الله» ولاث العلماء به وقالوا له: الإطلاق في محل التفصيل خطأ، بأنه قد يريد أنه لا موجود بذاته إلا الله، وأما عباده كلهم فهم موجودون بإيجاد ربهم لهم لا بذواتهم، وهذا هو الذي يجب حمل ذلك الفقير علىٰ إرادته.

ثم إن هذا القول لا يقع إلا ممن غلب عليه الوله والجذب، مع قلة بضاعته في علوم

(١) بالأصلين: العلم. والصواب ما أثبتناه.

الشريعة، فلو كان متضلعًا من علوم الشريعة، لم يقع في هذا الإطلاق الذي يلزم منه عدم وجود المكلفين، وعدم نزول الشرائع والتكاليف. وقد كان الإمام الجنيد ﷺ يقول: لو كنت ذا سلطان لضربتُ عنق كلِّ من يقول: لا موجود إلا الله؛ لما يترتب علىٰ هذا الإطلاق من المفاسد. انتهىٰ. فابحث يا أخي عن حال الناطق بهذه الكلمة ثم أنكر عليه، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يزكي الناس في المحاضر، ثم يظهر أن ذلك المزكَّىٰ -اسم مفعول- كان فاسقًا حال تزكية الفقير له، فلاث الناس به وقالوا: يحرم علىٰ مثل هذا أن يزكي أحدًا، بأنه قد يكون ممن غلب عليهم رؤية محاسن الناس دون مساوئهم، فما زكَّىٰ إلا من هو عدل عنده، فلا ينبغي الاعتراض عليه، إلا لو كان يعلم فسقه ثم زكاه. ومن هنا قال المحققون: لا ينبغي للفقير أن يرجح ولا يجرح، لعدم نظره إلىٰ أحوال غيره، ولأن الله تعالىٰ يمحو ما يشاء ويثبت. ومن هنا ورد فيمن يزكي غيره أن من الأدب أن يقول: أحسبه كذا، أوأظنه كذا، ولا يزكي علىٰ الله أحدًا[1]. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ والعالم إذا اطلعا علىٰ جهل أحد بالعلم أو بتحقيقه، أو بطريق القوم، وجلس يدرِّس في العلم أو يربي في الطريق، ورأيناهما ساكتين[2] علىٰ ذلك لا ينكران عليه، ولاث بهما الناس بسبب ذلك وقالوا: هذه مداهنة في دين الله تعالىٰ وغش للناس، بأن يحملهما علىٰ أنهما ينصحانه بينه وبينهم، وإنما يسكتان بحضرة الناس سترةً لعورة طلبة العلم وأهل الطريق، تخلقًا بأخلاق الله تعالىٰ، فإنه يرىٰ العيب ويستره.

فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إذا رأيتَ أحدًا منهم ساكتًا

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٦٦٢) من حديث أبي بكرة ﷺ قال: «أثنىٰ رجل علىٰ رجل عند النبي ﷺ فقال: ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك مرارا. ثم قال: من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكي علىٰ الله أحدًا أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه» ومسلم (٣٠٠٠).

(٢) بالأصلين: ساكتان. والصواب ما أثبتناه.

علىٰ من يدرِّس أو يسلِّك الناس وهو لم يبلغ مقام الكمال، بل احمله علىٰ أنه ينصح ذلك الذي يدرِّس أو يسلِّك، أو يترك نصحه خوفًا من مفسدة أعظم من مفسدة النصح، لا سيما إن كان ذلك القاصر مستندًا إلىٰ الولاة وهم يعتقدون علمه وصلاحه، ولا يصغون لقول أحد فيه، فربما وقعت بسبب نصحه فتنة أخربت البلد، كما وقع للشيخ نصير الدين الطوسي[1] مع الشيخ نجم الدين الكبرىٰ[2]، فحملته النفس وراح إلىٰ التتار ودخل بهم بغداد، فكان خرابها علىٰ يديه، وأرموا كتب المجتهدين في الدجلة، حتىٰ صارت الخيل تمر علىٰ الكتب إلىٰ ذلك البر. **فاعرف يا أخي زمانك**، فإنه أخبث من زمان نصير الدين بيقين، والحمد لله رب العالمين.

(٢٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق أو العالم إذا فرَّ من أهل الجذام أو البرص، وأنفت نفوسهما عن مخالطتهما والأكل معهما وشرب فضلتهما مثلًا، ولاث الناس بهما بسبب ذلك وقالوا: هذا الأمر لا يليق إلا بالعوام، أما العلماء والأشياخ فهم أهل توكل علىٰ الله تعالىٰ، لا يليق بهما التطير من مثل ذلك، بأنهما ربما كسفت شمس علمهما حين تطيرا، **فإن العالم والصالح قد يتوارىٰ علمهما وتوكلهما عنهما**، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة في أن الإيمان يزيد وينقص. ويُحتمَل كونهما من أهل التوكل علىٰ الله تعالىٰ، وإنما نفرت نفوسهما من المجذوم مثلًا رحمةً بتلامذتهما الضعفاء اليقين، اقتداءً برسول الله ﷺ في نحو قوله: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[3] فإنه ما قال ذلك إلا

---

(١) محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر، نصير الدين الطوسي: فيلسوف. كان رأسًا في العلوم العقلية، علامة بالأرصاد والمجسطي والرياضيات. ولد بطوس (قرب نيسابور) له مصنفات منها: «شكل القطاع» و«تحرير كتاب المناظر» توفي: ٦٧٢ هـ. «فوات الوفيات» (٣/ ٢٤٦)، «الأعلام» (٧/ ٣٠).

(٢) نجم الدين الكُبرىٰ أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي، الإمام العلامة القدوة المحدث شيخ خوارزم في عصره. من علماء الصوفية، طاف البلاد وسمع بها الحديث. كان ملجأ للغرباء، عظيم الجاه لا يخاف في الله لومة لائم، قتل شهيدًا علىٰ باب خوارزم. السير (٢٢/ ١١١)، الأعلام (١/ ١٨٥).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٧٠٧)، وأحمد (٩٧٢٢).

لضعيف الإيمان. وأما قوي الإيمان، فقال له ﷺ: «لا عدوىٰ ولا طيرة»(١).

فعُلِمَ أنه لا يلزم من نفرة العالم أو الصالح من المجذوم أن يكون لضعف يقينه جزمًا، فقد يكون تنزلًا للتلامذة، أو ميلًا للضعف وهضم النفس، فخاف أن يقع منه تطير، فيقع في النقص.

وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ: إياكم ومعاشرة الأجذم والأبرص والأعرج والأفْحَج(٢) وكل من في بدنه عاهة أو نقص، فإن عنده التواء ومعاشرته عسرة. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٠) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا مرَّ علىٰ العالم الكبير راكبًا ولم ينزل له، ولاث الناس بالفقير وقالوا: هذا يرىٰ نفسه علىٰ العلماء، بأنه ربما ترك النزول سهوًا، أو كان يظن بذلك العالم أن نفسه قد تهذبت بالعلم، وأنه لا يتكدر ممن لم يعظمه، بل ربما لم يخطر له طلب تعظيمه علىٰ باله.

ومثل ذلك ما إذا مرَّ عليه العالم وهو جالس فلم يقم له، يجب حمل الفقير علىٰ أنه ما ترك القيام إلا لظنه فيه التواضع، إذ يبعد عن الفقير أن العالم يحب القيام له مع معرفته بقوله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»(٣). انتهىٰ. فما ترك القيام للعالم إلا لظنه فيه الدين والخير.

ثم إن مثل ذلك لا يقع إلا من الفقير الذي ينظر بعين واحدة. أما الكامل فإنه يكنىٰ «أبا العيون» فينظر إلىٰ العالم بأنه متواضع بعين، فلا ينزل له ولا يقوم، وينظر إليه بالتعظيم بعين أخرىٰ، إما لكونه متواضعًا في نفسه، أو لتظاهره بالعلم بقطع النظر عن ملاحظة تواضعه، فإنهم قالوا: أعظم الناس درجة عند الله أكثرهم تواضعًا له. وقالوا: أحق الناس بالتعظيم عالم تواضع للعامة. فينبغي للفقير أن يعظِّم العالم وينزل له ويقوم

(١) سبق تخريجه.

(٢) الأفحج: من تدانَتْ صدورُ قدميه وتباعدَتْ عَقِباه.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥) وأحمد (١٦٨٣٠)

له. وفي كلام الإمام الشافعي ﷺ: لا تقصِّر في حقِّ أخيك اعتمادًا على مروءته. انتهى، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير في الطريق المتمكن في مقام الزهد والورع إذا احتاج الناس إليه في الشفاعات عند الأمراء، فهرب من ذلك، وقال له أقرانه: إما أن تكون كاملًا في الطريق، فيجب عليك القرب من الأمراء والشفاعات عندهم في المظلومين؛ لعدم خوفك حينئذ من الآفات، وإما أن تكون ناقصًا، فيجب عليك إظهار النقص وترك التصدر لتربية المريدين، بأنه قد يكون له عذر آخر غير ما ذُكر، كأن يطلبوا منه المكاشفات بما يقع لهم ولأصحابهم في المستقبل، فلا يقبلون شفاعته ويحترمونه إلا إن كاشفهم على ما طلبوا. ومعلوم أن الكامل لا كشف عنده بأمور الدنيا، وليس من شأنه أن يتعشق إلى حصول مقام، ولا أن يتوجه إلى الله في تحصيله، لارتفاع مقامه عن مثل ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: لا يتم للفقير شفاعة عند أمير إلا إن كان من أهل الكشف، وإلا فلا فرق بينه وبين آحاد الناس، بل ربما كان الأمير يرى نفسه أفضل من ذلك الفقير، لاسيما إن كان يحسن إليه، فإن حرمته تذهب من قلبه بالكلية، ويصير معدودًا من جملة عياله. وسمعتُه مرة أخرى يقول: قد يهرب الفقير من الأمير تعظيمًا له من حيثُ إن الله تعالى خلع عليه خلعة الإمارة، ورفع مقامه بالتصريف في الوجود.

وسمعتُه مرةً أخرى يقول: قد يبعد الفقير عن الأمير تعظيمًا له، لجهله بالأدب معه، أو لعلم الفقير بأن ذلك الأمير من أهل الامتحان للفقراء يخاف أن يمتحنه فيكشف عورته بين الناس، فإنه ما كل فقير يقع له نصرة إذا امتُحن. وقد بلغنا أن سلطان المغرب سمع بخبر سيدي أبي العباس المرسي وكثرة اعتقاد الناس فيه، فأرسل خلفه وأحضره بين يديه، وعمل له دجاجًا ودسَّ فيها دجاجة مخنوقة، لينظر حفظ الله تعالى له، فلما وضعوا الدجاج بين يديه، قال: ارموا هذه الدجاجة للكلاب. وأشار إلى المخنوقة، فاعتقده السلطان اعتقادًا تامًا. انتهى. فلولا عناية الله تعالى لسيدي أبي العباس بهذا الكشف ما كان السلطان اعتقده.

فاحمل يا أخي كلَّ شيخ هرب من مخالطة الأمراء والشفاعة عندهم علىٰ عذر أوجب ذلك، لاسيما وقت غضبه علىٰ إنسان، فإن الأمير إذا غضب خرج من يد أصحابه الخواص، فضلًا عن غيرهم.

وكان سيدي علي الخواص ﵀ يقول: من لم يكن له حال يحميه من تصرف الولاة فيه، فبعده عنهم أولىٰ. وسمعتُه مرة أخرىٰ يقول: يجب علىٰ الشافع أن يكون من أهل الرحمة علىٰ الأمير إذا شفع عنده، وإلا أهلكه إذا خالف شفاعته بعد بيان الأدلة الشرعية التي يوردها عليه حال غضب ذلك الأمير، فينبغي له مراعاة الجهتين: المشفوع فيه، والمشفوع عنده. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا بادر إلىٰ الإنكار علىٰ من يراه يكلم أمَّه أو زوجته أو ابنته في شارع، أو يساررها في خلوة، فأنكر عليه لظنه أنها امرأة أجنبية، فلاث الناس به وقالوا: هذا من سوء الظن الذي لا يليق بالفقراء، ولِمَ لَمْ يحمله علىٰ أن تلك المرأة زوجته أو أخته مثلًا كشفًا أو حسن ظن به؟! بأنه لا يلزم من مبادرته إلىٰ الإنكار أن يكون لا كشف عنده أو سيء الظن، فقد يكون حسن الظن به، ولكن أنكر عليه احتياطًا له أن يقع أحد في عرضه بسبب ذلك، فإن الشيطان يجري من بني آدم المارين عليه وهو يكلم امرأة في الطريق مجرىٰ الدم، فخاف الشيخ عليه وعليهم وعلىٰ تلك المرأة، وقد قال ﷺ لاثنين رأياه وهو يكلم عمته صفية: «علىٰ رسلكما إنها صفية»[1] فخاف ﷺ عليهم أن يقذف الشيطان في قلبهما شيئًا، يعني من سوء الظن فيهلكا، فكما أنه ﷺ حذَّرهما من أن يطرقهما سوء ظن به وبعمته مع عصمته ﷺ من سوء الظن بمسلم، فكذلك ينبغي حمل الشيخ إذا حذَّر أحدًا من الوقوع في سوء الظن أنه عامله معاملة من يسيء الظن مع عدم سوء الظن، فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٣) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ المشهور بالورع والدين إذا وقع أنه دخل

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٢٨١) ومسلم (٢١٧٥).

على أمير وأكل من طعامه، وبادر الناس إلى الإنكار عليه، بأنه لا ينبغي لأحد المبادرة إلى الإنكار عليه، لأنه ربما رأى المصلحة في الأكل من طعامه ذلك الوقت ترجح على ما يترتب من ترك الأكل، لاسيما وذلك العالم من المشهورين بالورع والدين كما أشرنا إليه أولًا، فكيف ننسخ ما نعرفه من ورعه طول عمره بأكلة واحدة من شبهة؟! هذا تهور في الدين، بل يتربص وينظر في حاله أو نسأله عن سبب ذلك الأكل، فإن رأينا له عذرًا سكتنا، وإلا فإن كان ناسيًا ذكَّرناه، أو جاهلًا بما يترتب على ذلك أعلمناه بجهله، وقلنا له: ما ذكرت لنا ليس هو بعذر يسوغ لك به الأكل من مال الولاة، لذهولك عما يترتب عليه، إلا أن يكون من أهل الاجتهاد في الترجيح، فنسلم له، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا صار يعظِّم الأمراء ويحملهم على المحامل الحسنة، ويذب عن أعراضهم، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: لو أمكنه لسجد لهم، بأنه ربما كان تعظيمه لذلك الأمير أدبًا مع الله تعالى الذي ولَّاه تلك الولاية لا حبًّا[1] له لحظِّ نفس، فإن مثل العالم الكبير يبعد محبته للولاة لحظ نفسه وتعصبه لهم بالباطل، وقد نهى ﷺ عن الطعن في الأئمة[2] وفيمن ولوه ولاية من حيث إنهم أتم نظرًا من آحاد رعيتهم الطاعنين فيهم.

وبلغنا أن الأصمعي[3] دخل على هارون الرشيد[4] فوعظه، فقال له هارون: يا أبا عبد

---

(١) بالأصلين: بغضًا، ولا يستقيم المعنى إلا بما أثبتناه.

(٢) من ذلك قوله ﷺ فيما أخرجه الترمذي (٢٢٢٤) « «من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله»، وقوله فيما أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٠١٥): «لا تسبوا أمراءكم، ولا تغشوهم، ولا تبغضوهم، واتقوا الله واصبروا؛ فإن الأمر قريب».

(٣) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. مولده ووفاته في البصرة. وكان الرشيد يسميه «شيطان الشعر» له مصنفات منها: «الإبل» و«خلق الإنسان» «النبات والشجر» ت ٢١٦هـ «السير» (١٠/ ١٧٦)، «الأعلام» (٤/ ١٦٢).

(٤) هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر الهاشمي العباسي. كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي. ولد بالري سنة ١٨٤هـ. وقيل: إنه كان يصلي في خلافته في

الله إن كنت أعلم منا، فنحن أعقل منك وأتم نظرًا وتدبيرًا في حقِّ أنفسنا وفي حق رعيتنا، فلا تنصحنا في ملا، ولا تغشنا في خلا. انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: ينبغي للعالم أو الفقير أن يعوِّد لسانه التبجيل لولاة زمانه، حتىٰ يغلب علىٰ لسانه ذلك في غيبتهم وحضورهم علىٰ حدٍّ سواء، ليخرج من صفة النفاق، فربما تكلم في غيبتهم بما يستحيي أن يواجههم به. قال: وتأمل أدب الإمام أبي حنيفة ﵁ لما منعه الخليفة الفتوىٰ كيف لم يفت ابنته في الليل حين سألته عن الدم الخارج من بين الأسنان: هل ينقض الوضوء؟ وقال لها: سلي عن ذلك عمك حمادًا، فإن إمامي منعني الفتيا ولم أكن ممن يخون إمامه بالغيب. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي كلَّ من رأيته من العلماء والفقراء يعظِّم الأمراء علىٰ المحامل الحسنة، لتخلص من تبعته في الآخرة. وقد ورد أن الزبانية تمسك من تكلم في عرض الناس بالظن وتقول له علىٰ الصراط: أثبت ما قلته في حق فلان. نسأل الله العافية، فإياك من مثل ذلك ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا دعاه أحد إلىٰ وليمة، فحضر ولم يأكل من طعامه دون الناس كلِّهم، ولاث الناس به، فإن كان الداعي فقيرًا قالوا: إنه كسر خاطره بترك الأكل؛ وإن كان من أقرانه كشف سوأته بين الناس وقالوا: لولا أنه عرف في طعامه حرامًا أو شبهة لما امتنع من أكله، وبعضهم صار يقول: كما تبين لنا أنه عدو له ونحو ذلك، بأنه قد يكون ذلك العالم أو الشيخ عما فهمه الناس بمعزل، ويكون المانع له من الأكل أمر لا ينبغي له تفسيره، وقد يكون ذلك الطعام عمل من كسب امرأة، فنذرت عمله إن شُفِي ولدها مثلًا، فترك الأكل منه تورعًا وتنزهًا عن الأكل من كسب النساء. وقد يكون صاحب ذلك الطعام ممن يبيع علىٰ الظلمة، أو يقبل هداياهم، أو ممن ساعد الولاة في عمل الطعام، أو كان صاحبها ممن يأكل بدينه ولو ظنًّا، بحيث توفرت القرائن بأنه لولا إظهاره الزهد والورع ما اعتقده أحد ولا أهدىٰ إليه

كل يوم مائة ركعة إلىٰ أن مات، ويتصدق بألف، ت ١٩٣هـ. «السير» (٩/ ٢٨٦) «شذرات الذهب» (٢/ ٤٣١).

شيئًا، فمثل هذا يسوغ للمتورع ترك الأكل من طعامه.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: كلوا من طعام المحبين، ولا تأكلوا من طعام المعتقدين، فإن من اعتقدكم لا يطعمكم إلا لظنه الصلاح فيكم، بخلاف من يحبكم، فإنه يطعمكم علىٰ كل حال، كالأم مع ولدها علىٰ حد سواء.

وكان يقول: إذا شك أحدكم في طعام أحد هل يأكل بدينه أم لا، فليقدر تجريد ذلك الأحد من جميع صفات الصالحين، ويلطخه بصفات الفاسقين، وينظر فكل من أهدىٰ له شيئًا بعد ذلك، فهو لله تعالىٰ فليأكل منه، وكل من امتنع من الهدية لو اطلع علىٰ نقائصه، فلا ينبغي له الأكل من طعامه الذي أهداه له.

وكان يقول: لا ينبغي لمتورع أن يأكل من طعام الصنايعي العاجز عن الكسب، ولا من طعام من عليه دين إلا أن يكافيء الصنايعي، ويدفع عن المديون قيمة ذلك الطعام للدائن.

وكان يقول: من علامة المتهور في مكسبه أن ينوع طعام تلك الوليمة علىٰ أنواع، فإنه لو تورع ما وجد لونًا واحدًا من حلال، فمثل هذا للمتورع عدم الأكل من طعامه، ولا التفات إلىٰ كسر خاطره، فإنه كالطفل، والأطفال لا يجابون إلىٰ كلِّ ما طلبوا.

وكان سفيان الثوري إذا دعي إلىٰ وليمة يأخذ معه رغيفًا، ويصير يأكل من رغيفه ويقول: كلُّ واحد يأكل ما يعتقد حله. وفعل ذلك الحسن البصري أيضًا، وكان يقول: دخلتُ علىٰ السيد عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، فقدَّم إليَّ نصف رغيف ونصف خيارة، وقال: كل يا حسن، فإن هذا زمان لا يحتمل الحلال فيه السرف. انتهىٰ.

وسأل رجل النووي عن فضل الصف الأول، فقال له: انظر رغيفك من أين هو، وصل في الصف الأخير ولا لوم عليك.

فاحمل يا أخي العلماء والأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، فإنهم أعرف منك بطريق الظاهر والباطن، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في طريق القوم إذا دخل علىٰ أحد

من الولاة وصار يسأله شيئًا من الدنيا، ويلح عليه في ذلك، ويظهر له الغضب إن لم يعطه شيئًا، ولاث الناس به بسبب ذلك، بأنه قد يريد أن يرد ذلك الطعام الذي يأخذه مثلًا إلىٰ من غصبه منه ذلك الأمير مثلًا، فيخلِّص ذمة ذلك الأمير بالإلحاح وإظهار الأدب. وإن كان ذلك المغصوب مثليًّا، أخذ منه مثله أو قيمته وردها إليه. وإن كان من جملة الأموال الضائعة، أخذها منه وصرفها في مواضعها الشرعية، إذ الغالب علىٰ الولاة أن يصرفوا مال المصالح في شهوات نفوسهم المباحة أو المحرَّمة، فأراد ذلك العالم أو الشيخ أن لا يلحق ذلك الأمير تبعة يوم القيامة بسبب ذلك.

فإن قال قائل: إن سؤال العالم أو الشيخ المال من الأمير يفوِّت عليه قبول شفاعاته في المظلومين، لازدرائه وعدم اطلاعه علىٰ قصد ذلك العالم من طلب تخليص ذمته؛ **فالجواب:** أنه قد يكون ذلك العالم له حال يمنع به ذلك الأمير أن يزدريه بسبب سؤاله المذكور، بل يزداد فيه اعتقادًا كلما سأله في شيء، كما عليه أرباب الأحوال.

فاعرف يا أخي قصد ذلك العالم أو الشيخ، ثم أنكر عليه ما خالف الصراط المستقيم، ولا تبادر إلىٰ الإنكار إلا بعد العلم بحاله، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصالح إذا كان صاحب مال، وسأله فقير شيئًا يستعين به علىٰ عمل وليمة لختان أولاده مثلًا، فلم يعطه شيئًا، فلاث به وصار يذمه في المجالس وعند الأقران، بأنه قد يكون المانع له من الإعطاء عدم وجود نية صالحة، أو عدم اعتقاده الحل فيما بيده من ذلك المال، فلا يُطالَب بالتصدق به علىٰ أحد، فاحتاط لنفسه وللسائل، فمنعه لحكمة لا لبخل، فلا ينبغي للسائل ذمه إلا إن علم يقينًا أنه منعه بخلًا، ومن أين له ذلك؟! اللهم إلا أن يكون ذلك السائل من أولياء الله تعالىٰ، وخاف علىٰ ذلك الشيخ من أن يكون منعه بخلًا، فله أن يذمه تقبيحًا لصنعه، كما يفعل ذلك مع مريديه إذا خاف عليهم من تلبيس نفوسهم، بخلاف من يتكدر من عدم إعطائه لغير مصلحة تعود علىٰ المانع، فليس له ذلك. وقد يظهر الوليُّ التكدر من حيثُ يفوت ذلك الشيخ الأجر حين منعه لا لحظ نفسه، ولكلٍّ شخص علامات تدل علىٰ قصده لا تخفىٰ

علىٰ عاقل، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٨) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا صار يوافق نفسه في هواها بعد أن كان يخالفها، فصار يتزوج المنعمات، ويلبس المحررات، ويركب الخيول المسومات، ويسكن في القاعات المرخمات، ونحو ذلك، ولاث الناس به وقالوا: قد رجعت ثمرة عمله ومجاهداته طول عمره إلىٰ الدنيا، وما غفل إبليس عن أحد، بأنه قد يكون ممن بلغ درجة الكمال وأُمر بأن يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وقد كانت نفسه هي المطية التي كان يركب عليها الأهوال أيام المجاهدات، فلما أوصلته إلىٰ مقام الكمال، طلبت منه بعض أجرتها تقويةً ليقينها، ومبادرةً لإعطائها حقَّها، كما هو الأمر في الأجير إذا فرغ من العمل الذي استُؤجر عليه. وقد قالوا: إن النفس تقول لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صوَّعتك. انتهىٰ.

وفي تفسير بعض العارفين لقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ [فاطر: ٣٢] أن المراد بهذا الظالم من حمل نفسه فوق طاقتها في العبادة طلبًا لمرضاتنا، وليس المراد من ظلم نفسه بارتكاب المعاصي، لأن هذا ليس مصطفىٰ من العباد، وإن كان مصطفىٰ بالنظر لمن هو أكثر معاصي منه، ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي لم يظلم نفسه ولم يكرمها، وهو متوسط في الطريق، ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي سبق بها لنفسه قبل أن يُطلَب ذلك منه وهو الكامل، فأعطاها أجرتها قبل أن تسأله أجرتها، فإن العمل يطلب الأجر بذاته، والله غني عن العالمين. وكأن الكامل وكيل عن الحقِّ تعالىٰ في إعطاء النفس حقَّها الذي جعله الله تعالىٰ لها فضلًا منه ومنَّةً، وهو نفسه خارج عن نفسه كالأجنبي، من باب التجريد في علم المعاني.

وقد حكىٰ الشيخ محيي الدين ﷺ عن معروف الكرخي أن زوجته برَّدت له ماءً في كوز أيام الصيف، فنام فرأىٰ حورية جميلة فقال: لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرَّد في الكيزان؛ فتناول معروف الكوز فضرب به الأرض، فقال تلميذه السري السقطي: فلقد رأيتُ شفقه في الأرض لم يُرفع حتىٰ علاه التراب. انتهىٰ. قال الشيخ

محيي الدين: ومثل معروف الكرخي لا يجهل أن تبريده الماء كان أولىٰ إعطاءً لنفسه حقَّها. ولعله فعل ذلك تنشيطًا لهمة تلامذته، وفتحًا لباب مجاهداتهم لنفوسهم حتىٰ يبلغوا مراتب الكمال. انتهىٰ.

وكان الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: قد يصل الولي إلىٰ حدٍّ يحرم عليه مخالفة نفسه، وذلك إذا أفنىٰ العبد مراده في مرضات الله، فصار رضاه هو رضا الله، وسخطه هو سخط الله. انتهىٰ.

قلتُ: وهذا فيه ما فيه، **فإن الأغراض النفسانية تدق مع صاحبها في المقامات ولا تنقطع بالكلية؛ فلابد من جزء يبقىٰ من البشرية يسخطه ما يرضىٰ الله، ويرضيه ما يسخط الله، وما خرج عن ذلك سوىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،** فاعلم ذلك، فإنه نفيس ربما لا تجده في كتاب، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة وإن لم تذقها في نفسك، كما تنزه المعصومين عما لا يليق بمقامهم من الأنبياء علىٰ السماع دون ذوقك لمقامهم، والحمد لله رب العالمين.

(٢٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا فرح بكثرة المعتقدين والتلامذة، وحمله الجهلة علىٰ أنه إنما يحب ذلك فخرًا ورياء وحظ نفس، بأنه قد يكون ممن عافاه الله تعالىٰ من الفخر والرياء، وإنما يحب كثرة المعتقدين والتلامذة محبة لله عزَّ وجلَّ من حيثُ كثرةُ طاعاتهم لله تعالىٰ، وتوبتُهم من المعاصي إذا صحبوا الفقراء عادة. وقد يكون مشهد هذا الشيخ أنه مرتبة إدمان للمريدين، فهو يحب كثرة التلامذة، ليدمنوا فيه دون جناب مقدورات الحقِّ جلَّ وعلا، فيجري بهم معه في الصبر علىٰ مصاريف الأقدار المخالفة لهواه وهواهم، كشدة المرض وعدم وجود ما يصرفه علىٰ الدواء، وقساوة قلوب الناس عليه، فإن رضي المريد بذلك، يرقىٰ إلىٰ الرضا عن الله تعالىٰ بما قدَّره عليه. **وقد أجمعوا علىٰ أن كلَّ مريد لم يصبر علىٰ مقارع الأستاذ، لم يظفر بعروس الوداد، ولا يشم من الأدب مع الله تعالىٰ رائحة. انتهىٰ.**

وقد كان سيدي يوسف العجمي ﷺ يقول للتلامذة: تعالوا حتىٰ أعلمكم الأدب مع الله تعالىٰ، ثم يتنكر عليهم ويخالفهم في جميع ما يهوونه، فيقول لأحدهم: إني أحب

طلاق زوجتك، وأحب خروجك من وظائفك ودارك وتعطيها لفلان، ويذكر بعض الأعداء والحاسدين له، فإن انشرح بذلك، قال: هنيئًا لك، ها أنت وربك؛ وإن تكدر لذلك قال له: مالك وللطريق؟! اذهب إلىٰ الحرفة في السوق. انتهىٰ.

فإياك يا أخي، والمبادرة إلىٰ الاعتراض علىٰ من تراه يزاحم أقرانه علىٰ التلامذة والمشيخة، فربما يكون ذلك لأغراض صحيحة يرضاها الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا قال له أحد: ادع لي واقرأ الفاتحة، فزجر السائل عن ذلك، ولاث به الناس وقالوا: قد قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحىٰ: ١٠] فأطلق السؤال ولم يعين، فشمل سؤال الدنيا والعلم والدعاء وكلَّ شيء يُسأل العبد فيه.

والجواب: أن هذا الشيخ قد يكون ممن انكشفت له عيوبه وقبائحه التي عملها طول عمره ذلك الوقت، وصار ذا خجل حياءً من الله عزَّ وجلَّ، فلا يقدر أن يدعو لأحد، ولا أن يناجيه بالقرآن، فحكمه حكم من كبسوه بجارية من جواري الوالي، ثم أتوا به ليعاقبه الوالي، فقال له شخص: اشفع لي عند الوالي في جريمتي؛ فلا يردُّ له جوابًا اشتغالًا بخوفه علىٰ نفسه من العقوبة، وربما يقول الناس لذلك السائل: أما لك ذوق! الذي خائف علىٰ نفسه من الوالي كيف يشفع في غيره عنده؟!

وربما تفرس الشيخ في السائل عن العلم التعنت، أو السائل للدنيا التكثر، أو سبق منه السؤال مرارًا والشيخ يمنعه، فلم يرجع، فزجره الشيخ لأجل ذلك، وفي الحديث: «إذا رجعتم السائل المرة والمرتين، فلا عليكم أن تزجروه في الثالثة»[1]. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي من سألته الدعاء أو قراءة الفاتحة مثلًا فلم يفعل علىٰ محمل حسن، وإياك أن تحمله علىٰ التكبر، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٨٣٣) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رددت علىٰ السائل ثلاثًا فلا عليك أن تزبره» والخطيب في تاريخ بغداد (١٨/ ٢٧).

(٣٠١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: كنا قبل أن نجتمع بالقوم من أشرار الناس، أو يقول: هذا الأمر مما وقع لنا أيام البداية؛ فيلوث الناس به بسبب ذلك، فيقولون عنه في الأول: إنه الآن صار يعتقد في نفسه أنه من خيار الناس، فصار ذنبه ذنب إبليس. ويقولون عنه في الثاني: إنه خيار الآن يقول إنه قد انتهىٰ في مقامات الطريق.

والجواب: أنه ربما كان هذا الشيخ عما فهمه الناس عنه بمعزل، فيُحتمَل أنه قصد بذلك مدح أهل الطريق، بقطع النظر عن حاله هو، ليشوق الناس إلىٰ طريق الصالحين حين علموا أن كلَّ من صحبهم يصير من خيار الناس لا يؤذي أحدًا، ولا يقابله بأذىٰ مثلًا، بل هو يحسن إلىٰ البر والفاجر لله تعالىٰ لا لعلة دنيوية أو أخروية.

[فإن قيل: يلزم من قوله: «وقع لي كذا أيام بدايتي» أنه صار منتهيًا][1] قلنا: قوله: «وقع لي كذا أيام بدايتي» فليس المراد به أنه صار الآن منتهيًا، وإنما قصد بذلك التأريخ فقط، فكأنه قال: كنتُ قبل الشهر الفلاني كثير الشرِّ والخصام كلُّ من خاصمني خصمته، فمنَّ الله تعالىٰ عليَّ بحسن الخلق في الشهر الفلاني، فهو من باب التحدث بالنعم لا من باب التفاخر، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٢) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا مرض أحد من إخوانه ولم يعده، ولم يرسل له شيئًا يستعين به، أو لم يأت به إليه، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا المريض غنيًّا، لكان ذهب إليه ولو لم يدعه إلىٰ عيادته، ولكنَّ الفقير ما أحد يلتفت إليه، بأنه قد يكون المريض هو المانع للناس من المجيء إليه، خوفًا من تحمل منتهم، كما هو الغالب علىٰ الفقراء الصادقين، فيصير ذلك المتخلف عن عيادته يعتذر له، والحال أن المريض هو الدافع له عن المجيء بهمته.

وقد يكون له عذر يمنعه من الحضور عنده لا يمكنه أن يذكره، كأن كانت زوجة ذلك المريض تعشقه من غير علم زوجها، أو لم يجد عنده نية صالحة يعوده بها، أو

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وجد نية صالحة يعوده بها، ولكن من عادته أن يحسن إلىٰ من يعوده بالسكر والدراهم وغير ذلك، فلم يجد ذلك، فاستحيا أن يقابله بيده فارغة، أو وجد عنده الدراهم وغيرها، ولكن من وجه فيه شبهة فاستحيا من الله تعالىٰ ومن ذلك المريض أن يطعمه ما فيه شبهة، وربما كانت الوفاة في تلك المرضة، فختم عمره بأكل الشبهات، وأساء ذلك المهدي علىٰ نفسه وعليه بذلك. والأجوبة عن الأصحاب كثيرة. ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٣) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يذكر الله تعالىٰ في السوق بصوت جهوري إما في حانوته طول النهار، وإما وهو ماش يتردد فيه، ولاث الناس به، وقالوا: لو أنه ذكر الله تعالىٰ في بيته أو في سره، لكان أفضل، بأنه ربما كان يجهر تنبيهًا للغافلين، إذ السوق محل اللغط، فلولا رفع صوته بالذكر ما سمعه أحد ولا ذكر الله تعالىٰ بذكره، وفي الحديث: «من قال لا إله إلا الله مادًّا بها صوته، محت عنه كلَّ ذنب كان عليه»[١]، وكذلك ورد الأمر بالجهر في السوق بـ«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو علىٰ كلِّ شيء قدير»[٢] ووعد الشارع قائلها بمغفرة ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر.

وقد يكون ذلك منه بقصد أن الناس يسمعون ذكره، فيذكرون الله تعالىٰ بذكره، فما جهر هذا بالذكر إلا محبة في الله عزَّ وجلَّ. وقد يقصد بذلك دفع البلاء عن أهل السوق الغافلين. ورأيتُ [بعضهم يذكر الله تعالىٰ في السوق إذا دخله، ويجعل ثواب ذلك في صحائف كل غافل، ورأيتُ][٣] بعضهم يشفع في أهل السوق إذا دخل، فلا يخرج منه حتىٰ ينظر أمارات قبول شفاعته فيهم عند الله عزَّ وجلَّ. فإياك يا أخي والإنكار علىٰ من يذكر ربك علىٰ كلِّ حال بطريقه الشرعي أدبًا مع ربك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٢٨)، وابن ماجه (٢٢٣٥)، والدارمي (٢٧٣٤) والحاكم (٢٧٣٤).

(٣) ساقط من «ب».

(٣٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير في الطريق إذا وقع أحد من أصحابه في زلة أو تهمة، وصار الشيخ يسعىٰ في خلاص ذلك المتهوم بفلوس عند الولاة كما يفعل العوام، ولاث به الناس وقالوا: لو كان هذا شيخًا، لحمىٰ صاحبه بالحال عن تحكم الظلمة فيه، ولم يحتج إلىٰ غرامة فلوس، بأنه قد يكون سبب عدم حماية ذلك الصاحب إنما هو عدم صدقه في توجهه إلىٰ الشيخ، فلو صدق توجهه إليه لحماه. وقد يكون سبب غرامته الفلوس عدم استحقاقه الحماية لكثرة معاصيه أو قبحها. وقد يكون غرامة تلك الفلوس رحمة بذلك المتهوم، فربما كان يستحق الضرب الشديد والحبس، فشفع الشيخ فيه ورد ذلك إلىٰ غرامة الفلوس، كمن استحق النار فصالح بالرماد.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ إذا لاذ به أحد من أصحابه في دفع نازلة نزلت عليه يقول له: لو أن نازلتك نزلت علىٰ إبراهيم ماذا كان يصنع؟! أما كان يحملها؟! العبد أقل من أن يعاند القدرة. انتهىٰ. فاحفظ يا أخي لسانك في حق الأولياء، ولا تكلفهم معارضة الأقدار في الخلق، فإنهم أهل التسليم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا بالغ في الخوف من إبليس، ولاث به المريدون وقالوا: لو كان لهذا الشيخ وصلة بحضرة الله تعالىٰ ما خاف من إبليس كلَّ هذا الخوف، فإنه ليس له قدرة علىٰ أن يغوي أحدًا من أهل الحضرة، ومن شرط الشيخ الكامل دوام الإقامة في الحضرة.

والجواب: أن من كمال الشيخ كثرة خوفه من إبليس كلما ترقىٰ في المقامات، فإنه بالمرصاد للأكابر ينتظر غفلة تطرأ علىٰ قلوبهم، فيركب أحدهم كما يركب أحدنا حمارته، ويصرفه فيما يريد كما يصرف أحدنا حمارته، فهو واقف تجاه قلب العبد علىٰ الدوام، فإن غفل ركبه، وإن ذكر نزل عنه. والناس في ذلك علىٰ أقسام بين مقل ومكثر في الغفلة والركوب، فمن الناس من لا يركبهم إبليس أصلًا، وهم الأنبياء والمحفوظون من الأولياء ما داموا محفوظين، ومنهم من يركبهم علىٰ الدوام، وهم المصرون علىٰ المعاصي، ومنهم من هو طول النهار يركبهم وينزل عنهم، وهم المخلوطون في الأعمال والغفلات.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لو لم يكن من التحذير من شدَّة كيد إبليس إلا في قوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] فإذا كان سيد الأولين والآخرين لا يقدر علىٰ رد إبليس عنه إلا بالاستعاذة بالله، فكيف بغيره؟!

ومما يؤيد ما قلناه ذكر الاستعاذة بالاسم الجامع لحقائق جميع الأسماء الإلهية دون غيره من الأسماء التي هي كالفروع منه، ليسد عنه جميع الطرق التي يأتي للعبد منها، فإنه إذا رأىٰ العبد قد استعاذ بالاسم «الرحيم» مثلًا يأتيه من طريق الاسم «المنتقم» مثلًا، وهكذا في سائر الأسماء، فلو كان يقاوم إبليس خَلْقٌ، لأمرنا الحقُّ بالاستعاذة من إبليس بأكابر الملائكة أو أولي العزم من الرسل، فافهم، فلا يستهين بكيد إبليس إلا جاهل بكيده. وأما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦] أي بالنسبة لكيد القدرة الإلهية.

وقد دخل الشِّبليُّ[1] مرة خربة، فرأىٰ فيها عجوزًا شوهاء، فصاح بأعلىٰ صوته: أدركوني! فاجتمع إليه أهل حارته، وقالوا له: مالك؟ فقال: خفت من إبليس أن يوقعني بهذه العجوز! فكلُّ عارف لا يستبعد وقوعه في أكبر الكبائر أبدًا، بخلاف الجاهل.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إن إبليس لا يفارق الأعوج ولا المستقيم، فإن الأعوج من إخوانه، والمستقيم يتربص به ريب المنون، ليوقعه في مخالفة إذا غفل عن ربه، وما خرج عن تسليطه عليه إلا من دام عليه حضور قلبه بأن الله تعالىٰ يراه وهو بين يديه، وتُسمَّىٰ هذه «حضرة الله» التي يدخلها العارفون بقلوبهم.

فاعلم ذلك، وزد في تعظيم كلِّ من رأيته يخاف من إبليس، فإن ذلك من أكبر علامات العرفان، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس الشبلي أبو بكر البغدادي شيخ الطائفة، مولده بسامراء. وكان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك، كان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر، صحب الشيخ أبا القاسم الجنيد، ت ٣٣٤هـ ببغداد. «السير» (١٥/ ٣٦٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٢٧٣).

(٣٠٦) **ومما أجبتُ به عن الشيخ المشهور بالولاية إذا رأيناه يخاف من الناس أو من المؤذيات، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا وليًّا لله ما خاف من غير الله. ويستدلون عليه بما نُقِلَ عن الأولياء الذين كانوا يركبون السباع، ويصيحون علىٰ الثعبان فيموت، ونحو ذلك،** بأن الخوف مما ذُكِرَ من علامات الكمال. ثم إن خوف الولي من الحيوانات يرجع إلىٰ الخوف من الله عزَّ وجلَّ، فهو يخاف أن الله تعالىٰ يسلطهم عليه بذنوبه السابقة واللاحقة، فرجع خوفهم من الخلق إلىٰ الخوف من الله عزَّ وجلَّ، هذا مشهد الكُمَّل.

وأما أرباب الأحوال فلا يخافون من مخلوق لنقصهم، فإن الله تعالىٰ حجبهم عن شهود الخلق وأن لهم فعلًا مع الله تعالىٰ، والكامل يشهد الحق والخلق معًا، ويخاف من تسليطهم عليه، ولو لم يخف منهم، لعطلهم عن فعل ما استعملهم الحقُّ تعالىٰ فيه، وذلك لا يصح، **فالكامل كلما ارتفع مقامه خاف من أضعف الحيوانات، والناقص كلما نقص لم يخف ولا من الفيل.** وإيضاح ذلك أن العارف يعرف أن الله تعالىٰ أمنَّه علىٰ نفسه، وأمره بدفع الآفات التي تضرها في الدنيا والآخرة، فهو يخاف من كلِّ من يؤذيها، ليقوم بما كُلِّف به.

ومما وقع لي وأنا صغير أن الحال كان يغلب عليَّ، فأنام في مقبرة أحجرة الثعابين في الليالي المظلمة، فكانت الثعابين يدورون حولي وفوقي من العشاء إلىٰ الصباح وكأني في حجر أمي، وأستحضر ذلك يقينًا، وأنا الآن أخاف من ناموسة! وكذلك كنتُ أنام بالقصد في المواضع المعمورة بالجنِّ، وكان الجني إذا قبضت عليه يصيح مني ويخاف.

فاعلمْ ذلك وإياك أن ترجِّح صاحب الحال الذي يركب السباع علىٰ الكامل الذي يخاف منها، **فإن الصاحي مقدَّم علىٰ السكران، وصاحب الحال سكران بالحال،** والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٧) **ومما أجبتُ به عن أكابر العلماء والأولياء إذا رأىٰ أحدهم منكرًا ولم يظهر التشديد في إزالته، ولاث به الناس وقالوا: لو كان هذا له قدم في العلم أو الولاية، لغار لله تعالىٰ حين انتُهكت محارمه،** بأنه قد يكون ذلك العالم أو الوليُّ ممن أطلعه الله تعالىٰ

علىٰ أن ذلك المنكر من علامات الساعة التي صحت عن الشارع من طريق النقل أو من طريق الكشف، فهو ينهىٰ عن فعل ذلك برفق أدبًا مع الشريعة فقط، وإلا فإذا حق القول الإلهيُّ والتقدير الربانيُّ بوقوع شيء، فلابد من وقوعه، وتلاشىٰ الجزء الاختياري في ذلك عند صاحب هذا المشهد، ومن بالغ في المعارضة في عدم وقوعه، فهو كالمعارض للقدرة بنفسه، أو كالساعي في تكذيب الشارع فيما أخبر من وقوعه بين يدي الساعة.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: قال لي سيدي إبراهيم المتبولي: يا عليُّ، إذا أدركتَ النصف الثاني من القرن العاشر، فلا تتصدر لإزالة منكرات الولاة وغيرهم، إلا إن أعطاك الله تعالىٰ الكشف التام، لتعرف الأمور التي أخبر الشارع بوقوعها حتمًا مبرمًا والأمور المعلَّقة، لتشدد في الثاني وتخفف في الأول. ولولا أن الله تعبدنا بالنهي عن المنكر مطلقًا، لكان من الأدب التسليم لكلِّ ما حقَّ به القلم وعدم إنكاره. انتهىٰ.

فإياك يا أخي أن تقع في عرض العلماء والأولياء إذا لم ترهم يشددون في إزالة المنكرات وتقول: ما بقي أحد يغار للشريعة! فربما كان ذلك المنكر الذي لم يعتنوا بالتشديد في إزالته مما حق به القلم.

وإياك وازدراء الظلمة، واعذرهم بما تعذر به نفسك، فإنك تظلم نفسك ليلًا ونهارًا، وترجو عفو الله عنك وعدم مؤاخذتك، فكذلك ينبغي أن ترجو لهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو العالم الكبير إذا زاره أحد من الأمراء أو قضاة العساكر، فصار ذلك الشيخ أو العالم يقبل رجله ويقول: استغفر الله يا سيدي! نحن أحقُّ بالسعي إليكم! ومثلنا لا يستحق مشي مثلكم إليه، ونحو ذلك، وصار الناس يلوثون به ويقولون: هذا أزرىٰ بطريق الفقراء، إنما اللائق أن الأمير هو الذي يقبل رجل الفقير، بأن ما فعله هذا العالم أو الشيخ هو الكمال والأدب مع الله تعالىٰ ومع ذلك الأمير، وما نهىٰ الشارع إلا عن التواضع للأغنياء لأجل مالهم، وهذا الشيخ لم يتواضع للأمير إلا بقصد الأدب مع الله تعالىٰ الذي ولَّاه تلك الولاية لا غير.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: من أدب الفقير أن يقوم للأمير إذا ورد عليه، ويقبل يده، ويبش له في وجهه، ويقدم له الطعام والشراب، ويسأله الدعاء، وإذا خرج شيَّعه إلىٰ باب الزاوية أو الدار، مكافأةً للأمير علىٰ بعض فضله عليه وتواضعه له، ولو أنه وقف مع ولايته وكبريائه، ما طلع لزيارة ذلك الفقير، فشخص يخلع إمرته وكبرياءه لأجلك، ويراك أعلىٰ مقامًا منه، كيف يليق أن تتكبر عليه أو تمكنه من تقبيل يدك فضلًا عن رجلك؟! انتهىٰ.

فعُلِمَ أن كل فقير تساهل في تمكين الأمير من تقبيل يده، فهو قليل الأدب، ويا فضيحته من ذلك الأمير يوم القيامة حين تظهر فضائحهم! وكان أخي أفضل الدين يقول: كلُّ فقير تساهل في تعظيم الأمير إذا رآه، فهو جاهل بطريق الأدب، وربما كانت أعمال ذلك الفقير التي عملها طول عمره لا تقابل مشي ذلك الأمير ولا طلوعه له. وقد كان أخي أفضل الدين يتأثر من كل من سحب أحدًا من الأمراء إلىٰ زيارته، ويقول: اللهم اغفر لفلان ولا تؤاخذه فيما فعل معي من السوء. انتهىٰ.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي إذا بلغه أن أميرًا قد عزم علىٰ زيارته، يذهب هو إليه ويقول: أنا فلان الذي بلغني أنك عزمتَ علىٰ زيارته، ثم يقول: كلُّ فقير تساهل بمشي الأمراء إليه، فقد تساهل في دينه. وكان إذا عرض عليه أحد من الأمراء مالًا ورده عليه، يقول له: والله يا سيدي إن خاطري بذلك طيب؛ يقول له الشيخ: أنا خاطري ما هو طيب بأخذه؛ فيزداد الشيخُ في قلب الأمير تعظيمًا. انتهىٰ. فعُلِمَ أن كلَّ فقير رأىٰ نفسه أحقَّ بسعي الأمير إليه، فهو ساذج أو خفيف العقل، لا سيما إن كان الأمير يحسن إليه.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ يقول: ما زار أمير فقيرًا إلا وذلك الأمير يرىٰ نفسه دون الفقير، فما لقيه إلا فقرًا، فوجب جزمًا إكرامه أكثر مما يكرم به الفقراء، لأن الفقير ليس له مقام يتنزل فيه الفقير بخلاف الأمير. انتهىٰ. وكان ﷺ يُقَبِّل رجل الأمير، ولا يَقْبَل منه هدية، ويقول: هذا أدبنا مع ولاتنا في هذه الدار، وسيعلمنا الله تعالىٰ الأدب مع أكابرنا في الآخرة إذا انتقلنا إليها. انتهىٰ. فاعلم ذلك فإنه نفيس، واحمل العالم أو

الشيخ إذا عظَّم الأمراء علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٠٩) ومما أجبتُ به عن الفقير إذا انقطع في كهف جبل أو خرابة من خرائب بلده، وصار يرسل للناس السلام ويقول: فلان أوحشنا وفلان أوحشنا؛ فلاث الناس به وقالوا له: يعني يأكل بعضك بعضًا! كيف تعتزل عن الناس وتصير تسأل عنهم؟! لو كنتَ صادقًا لفرحتَ كلَّ يوم لا يأتيك فيه منهم أحد، بأنه ربما كان له عذر في انقطاعه عن الناس، كأن أجلسه أصحاب التصريف في ذلك المكان، وحجروا عليه أن لا يزور أحدًا ولا يدخل البلد، ووعدوه إن خرج بالعقوبات الباطنة التي لا يستطيعها، ولو أنهم مكنوه من زيارة إخوانه لما انقطع عنهم. وأما إرساله السلام لهم فلا حرج عليه فيه من أصحاب التصريف، فحكم هذا حكم من كان في الحبس ولا يمكنه السجَّان أن يخرج، فلا يُطالَب بزيارة أحد ولا عيادته، بل العتب علىٰ إخوانه حيث لم يزوروه ولم يعتقدوه مع قدرتهم علىٰ ذلك.

وقد أخبرني الشيخ حسن العراقي[١] المدفون فوق الكوم المطل علىٰ بركة الرطلي[٢] أنه لما رجع من السياحة إلىٰ مصر، لم يمكنوه من دخول السور، فمكث في القرافة عشر سنين. وكذلك وقع للشيخ إبراهيم الذي كان جالسًا في جامع آل ملك بالحسينية[٣] أنهم أجلسوه في الجامع نحو خمسين سنة، فما كان يخرج منه إلا لضرورة.

فاحمل يا أخي كل من انقطع عن الناس علىٰ المحامل الحسنة، وإياك أن تحمله علىٰ التكبر، أو علىٰ شيء من أغراض النفوس المذمومة، تخسر دنيك والعياذ بالله

---

(١) الصالح العابد الزاهد ذو الكشف الصحيح والحال العظيم الشيخ حسن العراقي، كان ﷺ قد عمر نحو مئة سنة وثلاثين سنة، توفي ﷺ سنة نيف وعشرين وتسعمئة. «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني، دار الإحسان، الكواكب السائرة (١/ ١٨٦).

(٢) تعرف الآن ببركة الرطل، وهي إحدىٰ مناطق حي باب الشعرية.

(٣) يقع الجامع في شارع أم الغلام بحي الجمالية التابع لمحافظة القاهرة. وقد بناه الأمير الكبير سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار، من أمراء الناصر محمد بن المنصور قلاوون.

تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٠) ومما أجبتُ به عن الواعظ الذي يزاحم علىٰ الوعظ، وله في مقابلة وعظه مرتب في بيت المال، أو هدايا من التجار وغيرهم، ولاث به الناس وقالوا: من شرط الواعظ الزهد في الدنيا، فكيف يزاحم هذا عليها؟ بأنه لا يجوز الاعتراض عليه، لأنه ربما كان الله تعالىٰ محا من قلبه محبة الدنيا من سنين عديدة، وأنزل في قلبه محبة الآخرة، ومحبة الخير والنصح للأمة، ويود أنه لو وجد أحدًا يعظ مكانه ويترك هو ذلك الوعظ، فلا يجد أحدًا يصلح إما في نفس الأمر وإما في ظنه.

وقد كان العلماء والوعاظ في الزمن الماضي يأخذون الأجر علىٰ الوعظ وتعليم العلم من غير نكير عليهم، وكانوا يحملون أحدهم علىٰ الفقر والحاجة، كما أنهم يحملون من ترك أخذ الأجرة علىٰ عدم الحاجة، إذ العمل يطلب الأجر بذاته، سواء أخذه في الدنيا أم في الآخرة، وأجره في الدارين علىٰ الله تعالىٰ لا علىٰ الخلق، فإن جميع ما تعطيه الناس له إنما هو من صدقات الحقِّ تعالىٰ بالأصالة، فهو يعظ لله، ويأخذ تلك الأجرة من الله تعالىٰ علىٰ يد عباده ابتداء فضلًا منه تعالىٰ لا في نظير ذلك الوعظ حقيقة.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: من استعمل جوارحه في شيء ولم يأخذ عليه أجرة، فقد ظلم جوارحه، ويُخاف عليه ما هو أشد من أخذ الأجرة، وهو قيام الجاه في قلوب الخلق، فالكامل من طلب علىٰ عمله أجرًا، فإن كان محتاجًا إليه استعمله، وإن كان غنيًّا عنه دفعه إلىٰ المحتاجين إليه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣١١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا كان عليه دين، وصار يماطل الناس مع قدرته علىٰ الوفاء، ولاث الناس به وقالوا: لو كان هذا مؤمنًا بيوم الحساب، لبادر بوفاء دينه، ولم يحوج الناس إلىٰ مطالبته، بأنه قد يفعل ذلك سترة لمقامه في الطريق حيثُ اشتُهر بين الناس بالصلاح والكرم والجود، فجعل تلك المماطلة كالزبل الذي يعفنون به أصول الأشجار، ليزيد ثمرتها حلاوةً ونضجًا.

فإن قال قائل: إن المماطلة تفتح باب سوء ظنِّ الناس به، وتمنع المريدين من الاعتقاد فيه، فيفقدون النفع به؛ **فالجواب:** أن هذا من باب تعارض المفسدتين، فقدَّم هذا الأولىٰ منهما، وهو نجاة نفسه من الهلاك. وقد يكون هذا ممن أعطاه الله تعالىٰ التمكين، فيماطل الناس صورةً وهو يود الوفاء لهم بسرعة، كلُّ ذلك ليدفع عن نفسه الفتنة، ولا يورث ذلك قلة الاعتقاد فيه، كما عليه الأكابر من الأولياء، فيخرجون بأعمالهم من الدنيا كاملة موفرة الأجر للدار الآخرة لم يأخذوا من أجرهم شيئًا. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الطعن في أفعال الأكابر، فإن له حلاوة في النفوس الغوية، واحملهم علىٰ المحامل اللائقة بالصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لإخوانه: فلان شقي! فلان سعيد! ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا يجوز، بأنه ربما كان مطمح نظره اللوح المحفوظ، فأخبر بالواقع، وربما كان مطمح نظره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا، ويعرف من أصحابه التصديق له، فقصد بذلك الترغيب لقوم، والترهيب لقوم، ليزيد المطيع في الطاعة، ويتوب العاصي من المعصية، ويطلب محو شقاوته من ألواح المحو. وقد يكون ذلك من الشيخ امتحانًا لمريده، لينظر هل هو راض عن ربه فيما يقدره عليه أم لا؟ وقد كان معروف الكرخي ﷺ يقول: لي منذ ثلاثين سنة وأنا أرىٰ أن الله تعالىٰ ينظر إليَّ بعين الغضب.

وقد يكون الشيخ أراد بالشقاوة الشقاء في العمل الدنيوي والأخروي، من حيثُ كونُه متعبًا للجسد، لا الشقاء الأخروي الموجِب للعقوبات.

ووقع لسيدي أحمد الزاهد أنه مكث ثلاثين سنة يرىٰ اسمه في الأشقياء وهو صابر محتسب، وكان ذلك من الله تعالىٰ اختبارًا له، وهو الذي رضاه. وما امتحن الحقُّ تعالىٰ به أولياءه، يجوز لأوليائه أن يمتحنوا به تلامذتهم؛ لأنهم علىٰ الأخلاق الإلهية، كما أشار إليه حديث: «تخلقوا بأخلاق الله»[١].

---

(١) لم أقف عليه، وذكره ابن حجر الهيتمي في الفتاوىٰ الحديثية ص٢٠٨، والقسطلاني في إرشاد الساري (٥/ ٣٤١).

فصدِّق يا أخي الأولياء تغنم، وإلا فسلِّم لهم لتسلم، اللهم إلا أن يعارض قولهم أو فعلهم نصًا أو إجماعًا، فلك حينئذ الإنكار عليهم نصرةً للشريعة. وقد قال سيدي عبد القادر الجيلي لشخص مرة: إني لأرىٰ نار الكفر تلتهب فيك! فقال له شخص: من أين علمتم ذلك؟! فقال: علمتُه من طريق الإلهام الصحيح، وقد قال ﷺ في شخص قاتل معه قتالًا شديدًا: «إنه من أهل النار»[1] فقتل ذلك الشخص نفسه استعجالاً لطلوع روحه لما جرح تصديقًا لرسول الله ﷺ، وما كان لرسول الله من طريق الوحي، يجوز أن يكون للأولياء من طريق الإلهام أو الكشف، إلا أن يقول ذلك النبي: هذه الخصلة لا تكون لأحد بعدي. فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٣) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين الذين يدخلون علىٰ الولاة ولا يراهم أحد ينكرون عليهم منكرًا مما يقعون فيه، بأنه ربما كان ذلك العالم أو الصالح لم ير حالة دخوله علىٰ ذلك الأمير منكرًا أصلًا، أو رآه ولكنه عجز عن إزالته بالقول أو الفعل أو التوجه إلىٰ الله تعالىٰ، فلا يجوز حمل العالم علىٰ أنه رأىٰ منكرًا يقدر علىٰ إزالته وتركه مداهنة لذلك الأمير رجاء بره وإحسانه له، كما يظنه أهل السوء بالعلماء. وقد تقدم أن من أولياء الله تعالىٰ جماعة يدخلون علىٰ الظلمة ليلًا ونهارًا، ليكفوهم عن الظلم تارة بالتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أن يمنعهم من الزيغ عن الشريعة، وتارة بتحويطهم بالآيات والأذكار، وكثيرًا ما يؤدبون أحدهم بالعزل والحبس والخزي. انتهىٰ.

وكان سيدي عليٌّ الخواص ؒ يقول: يحتاج من ينكر علىٰ الولاة إلىٰ سياسة عظيمة، أو حال تحميه من تصريفهم فيه، وربما دخل العالم علىٰ أمير في شفاعة، فلاث به الناس

---

(١) إشارة الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٢٠٣) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: شهدنا خيبر، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال، حتىٰ كثرت به الجراحة، فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة، فأهوىٰ بيده إلىٰ كنانته فاستخرج منها أسهما فنحر بها نفسه، فاشتد رجال من المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، صدق الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه. فقال: قم يا فلان، فأذن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر» ومسلم (١١١) وغيرهما.

لما ضرب شخصًا في حضرته بغير حقٍّ، فيجب حمله علىٰ أنه عرف من نفسه العجز عن تخليص ذلك المظلوم منه، أو خاف أن يشتط ذلك الظالم به لو نهاه عن ذلك، وفعل به ما لا يطيق الصبر عليه من الضرب والحبس مثلًا. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مات له زوجة مثلًا، وأرسل يدعو الأكابر من مشايخ الزوايا وعلماء جامع الأزهر وغيره إلىٰ الصلاة علىٰ الجنازة، ولاث الناس به، وقالوا: إنما يفعل مثل هذا رياء وسمعة، أي انظروا إلىٰ جنازتي وكثرة حضور الناس إليها كزفة الحنان[1].

والجواب: أنه لا يجوز اللوث به، لاحتمال أن يكون دعا الأكابر من الناس يرجو بركة دعائهم لزوجته وفاء بحقها عليه، وهو غائب عما ظنه الناس فيه وبمعزل. ولو أن كلًّ من دعا الناس إلىٰ خير، حملناه علىٰ الرياء والسمعة، لربما ترك الناس دعاء بعضهم بعضًا إلىٰ الخيرات، فاعلم ذلك، ولا تدخل بين قلوب العباد وربهم، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير أو العالم الكبير إذا رأىٰ الناس له المرائي الحسنة وفرح بها، وصار يحكيها لكلِّ داخل عليه، ولاث به الفقراء بسبب ذلك وصاروا يقولون: هذا من أهل الغرور، ومن رضي بالمنامات، بالمنىٰ مات! ويحكون أن مالك بن دينار رأوا له أنه دخل الجنة وهو يتبختر فيها، فقال للرائي: أما وجد إبليس أحدًا يسخر به غيري وغيرك؟! انتهىٰ.

والجواب: أنه ربما كان هذا العالم أو الشيخ ممن رزقه الله تعالىٰ حسن الظن به، والاتكال علىٰ عفوه تعالىٰ، لا علىٰ أعمال نفسه الصالحة، فيأخذ مثل ذلك من باب البشرىٰ من الله عزَّ وجلَّ، وهو مع ذلك شديد الخوف من الله تعالىٰ، لا يأمن نزول العذاب به لحظة واحدة، بل يرىٰ أنه قد استحق الخسف به، لولا عفو الله تعالىٰ وحلمه عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: الرؤيا الصالحة من وحي الله تعالىٰ

(١) أي زفة حنّة العروس.

لذلك العبد علىٰ لسان ملك الإلهام، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاة الصبح يقول لأصحابه: «هل رأىٰ أحد منكم رؤيا أعبرها له»(١)، فكان يحب ﷺ أن يرىٰ أثر الوحي في أمته. فعُلِمَ أنه لا يستهين بالرؤيا إلا جاهل بأحكام الشريعة.

ومن جملة نعم الله تعالىٰ علىٰ العبد أن يرىٰ الناس له الرؤيا الحسنة تارة، والرؤيا الردية تارة، ليزداد عملًا صالحًا في الأول، ويتنبه لنقصه في الثاني، فيتوب ويندم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إذا اعتنىٰ الحقُّ تعالىٰ بالعبد، أراه في المنام صورة تقصيره في الطاعات، أو غير ذلك من الأمور التي يجهلها في اليقظة، فيأتيه بها ملك الإلهام، فيخبره بها.

وبالجملة، فالناس علىٰ ثلاثة أقسام في ذلك: فمنهم من غلب عليه الرجاء؛ ومنهم من غلب عليه الخوف؛ ومنهم من اعتدل عنده الخوف والرجاء تفويضًا إلىٰ الله تعالىٰ، وتسليمًا لأمره. فمن غلب عليه الخوف، كان من شأنه رؤية المنامات الردية، أو يراها الناس له كصورة ظنه بنفسه حال اليقظة؛ ومن غلب عليه الرجاء، كان من شأنه رؤية المنامات الحسنة كصورة ظنه بنفسه كذلك، ومن اعتدل خوفه ورجاؤه لا يرىٰ ولا يرىٰ الناس له، لا حسنًا ولا قبيحًا، كما عليه الأكابر من الأولياء الذين لا يحتاجون إلىٰ ترغيب ولا ترهيب، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٦) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين إذا لبس أحدهم الطيلسان دائمًا وأرخاه علىٰ عينيه، ولاث به الأقران وغيرهم وقالوا: إنه لم يفعل ذلك إلا حبًّا في المشيخة والتميز، بأنه لا يجوز حمل العلماء والصالحين علىٰ ذلك، فربما كان أحدهم يفعل ذلك حياءً من الله تعالىٰ، أو من الخلق، أو ليكف بصره به عن فضول النظر، أو اقتداء برسول الله ﷺ، فقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يفعل ذلك، وألَّف فيه الجلال السيوطيُّ ﷺ مؤلَّفًا سماه «الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان» وقال: من أنكر علىٰ فاعله يُخشَىٰ عليه الكفر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٥) والترمذي (٢٢٩٤).

ولو لم يفعله الشيخ إلا بقصد التأسي به ﷺ، لكفاه ذلك دليلًا. فإياك يا أخي أن تظنَّ بالعالم أنه فعل ذلك بقصد التمشيخ، فتخطيء طريق الهدىٰ، وليس لك الدخول في مقاصد الخلق بينهم وبين ربهم.

فإن قلتَ: إن الحقَّ تعالىٰ لا يحجبه شيء، فكيف يصح للعبد أن يفعل ذلك حياءً، والحكم واحد في حال وجوده وفي حال عدمه؟ **فالجواب**: أن الحقَّ تعالىٰ قد جعل الشرع يتبع العرف في كثير من الأحكام، وهذا منها، فحكم بإبطال صلاة العاري في الظلمة، فإذا لبس ثوبًا حكم بصحة صلاته. ومعلوم أن جبال الأرض كلَّها وجميع الكثائف لا تحجب الحق تعالىٰ عن رؤية العبد، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي زاويته علىٰ شارع، أو يَرِد عليها الأمراء والأكابر، فقال لإخوانه المجاورين: لا تذكروا مجلس الذكر إلا علىٰ الشارع، أو عند دخول الأمير الفلاني الزاوية؛ فسمعه بعض الناس فلاث بعرضه وقال: هذا من علامات الرياء بيقين، ولو كان خالصًا في ذكره، لأمر المجاورين بذكر الله في الإيوان البعيد عن الشارع، وفي أوقات لم يكن أحد من الأكابر يدخل في الزاوية، كما كان عليه السلف الصالح.

والجواب: أنه ربما كان قصده بذكر الله تعالىٰ في الإيوان الذي علىٰ الشارع دون غيره محبته في ذكر الله عزَّ وجلَّ للمارين في الشارع، ليحصل بذلك الأجر والثواب للفقراء والذاكرين بذكرهم، ولا هكذا الإيوان البعيد.

وأما حثُّ الفقراءِ علىٰ الذكر بحضرة الأمير دون غيبته، فينبغي حمله علىٰ طلب حصول الرقة في قلب ذلك الأمير، لما رأىٰ الشيخ عنده من الغلظة وقساوة القلب، من حيث إن سماع ذكر الله تعالىٰ يورث رقة القلب. وربما قصد الشيخ بذلك أن يعرف الأمير مقامه في الطريق، ليصير يقبل شفاعته بسهولة، بخلاف الشيخ المجهول المقام.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد إذا طلب أحد منه شفاعة عند أمير لا يعرفه، يقول له: خذ أحدًا من وجوه الناس واسبقني إلىٰ بيت الأمير، وقل لمن في الباب من جماعته:

سيدي الشيخ جاكم[١]؟! فإذا قالوا: أي الأشياخ؟ فقولوا لهم: سيدي أحمد الزاهد. فإذا قالوا: أي زاهد هذا؟ فقولوا لهم: مثلكم يجهل هذا الرجل! واذكر ما شئت من تعظيمي عندهم، فإذا رأيتموني قد أقبلتُ، فاخرجوا من الباب وتلقوني بتقبيل اليد والأخذ بعضدي، فإذا رأىٰ ذلك جماعة الأمير فعلوا كذلك، فعظموني عند الأمير، فتقبل شفاعتي فيك، بخلاف ما إذا ذهبتُ إلىٰ الأمير وهو جاهل بحالي، فإن عظمت نفسي سقطت من أعينهم، وإن سترت نفسي لا يعرفوني. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وأنهم لا يعملون شيئًا إلا لأغراض صحيحة كما فعل سيدي أحمد الزاهد، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٨) ومما أجبتُ به عمَّن احتجب في بيته عن العلماء والصالحين، ولم يخرج للناس إلا في النادر، ولاث الناس به وقالوا: لا ينبغي الاحتجاب إلا للملوك، وأما العلماء والفقراء فلا يجوز لهم ذلك، فربما جاءهم أحد في حاجة، فلم يجدهم، ما ذاك إلا تكبر علىٰ الناس، بأنه قد يكون السبب الباعث له علىٰ الاحتجاب إنما هو الحياء من الناس، أو عدم معرفته بالأدب اللائق بكلِّ إنسان، أو خوفًا علىٰ إخوانه القاصرين أن يقل تعظيمهم له إذا خالطهم كثيرًا، ويهون في أعينهم، فيعدموا النفع به، وهذا غرض صحيح ثبت عن السلف فعله[٢]، فلا ينبغي [الإنكار][٣] علىٰ قاصده.

وتأمل يا أخي الكعبة لما كثر من أهل مكة رؤيتها كيف خفت حرمتها عندهم، فلا يكاد أحدهم يبكي إذا رآها، بخلاف الحجاج الذين أتوها من بعيد. وكذلك القول في جلوس الخطيب في خلوة الخطابة إنما جعلوا ذلك احترامًا للخطيب، ليخرج بعد احتجابه مُهابًا في العيون بخلعة المراقبة التي كان فيها مع الله عزَّ وجلَّ في الخلوة، فيعظ الناس فيسمعوا وعظه ويؤثر فيهم عادة، ولا هكذا الحكم فيما إذا كان جالسًا عند المنبر

---

(١) أي جاءكم.

(٢) بالأصلين: قوله.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

يلغو ويمزح مثلًا، ثم طلع المنبر عقب ذلك، فإنهم لا يجدون له هيبة، ولا يؤثر كلامه في قلوبهم. فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، ولا ترجمهم بحجارتك، والحمد لله رب العالمين.

(٣١٩) ومما أجبتُ به عن العالم الذي سأله شريف أن يتزوج بابنته الفقيرة، فردها ثم تزوج بنت ظالم من رعاع الناس لا يُعرَف له أب، فلاث الناس به وقالوا: إذا كان العلماء صاروا يردون الشريفة لفقرها، ويتزوجون بنات الظلمة لسحت الدنيا، فالموت الآن خيرٌ لكلِّ مسلم، بأنه ربما كان رد العالم للشريفة ليس هو لفقرها، وإنما ذلك لعلمه بعجزه عن الوفاء بحقِّها، بخلاف بنت الظالم، فإن من حقِّ الشريفة أن يقوم لها زوجها كلما مرت عليه، ويقدم لها نعلها، ولا يتزوج عليها ولا يتسرىٰ، ولا يجلس علىٰ مكان أو فراش أعلىٰ من مكانها أو فرشها، لأنها بضعة من رسول الله ﷺ.

فاحمل يا أخي هذا العالم الذي لم يتزوج الشريفة الفقيرة علىٰ المحامل الحسنة، فإنه أكثر منك تعظيمًا للشريفة، وأعرف بما يجب لها من الأدب، ولا يجوز لك حمله علىٰ الأغراض الفاسدة في تزوجه بنت الظالم، فربما كان قصده بتزوجها خفة حقِّها عليه، وعدم مراعاتها بما يراعي الشريفة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٠) ومما أجبتُ به عن طلبة العلم إذا رأيناهم يسعون علىٰ وظائف أحد قد مات من الأحياء، ولاث الناس بهم وقالوا: هذا مما يفسق به الإنسان عرفًا، أو مما يخل بمروءته، بأنه ربما يكون ذلك الساعي أحقَّ من غيره، كأن شرط الواقف تقديم الأحوج علىٰ غيره، وكان لأحدهم كلَّ يوم ثلاثة أنصاف مع قلة عياله، وله هو كل يوم نصف مع كثرة عياله، فما زاحم هذا إخوانه إلا لعلة إنصافهم، ومثل ذلك لا يفسق به ولا يخل بمروءته عرفًا.

وبأنه ربما كانت تلك الوظيفة التي يسعىٰ عليها في يد من لا يستحقها شرعًا أو بشرط الواقف[1]، كمن بيده قراءة جزء ولا يعرف الخط. وكثيرًا ما يكون بيد إنسان وظيفة لأبيه

---

(١) أي بأن شرط الواقف شروطًا معينة فيمن يستحق الوظيفة من الوقف.

الفقيه، فلما مات والده عمل له عمامة كبيرة، فاعتقد الناظر أنه فقيه، فقرره من غير بحث عن حاله ونحو ذلك.

فاحمل يا أخي طلبة العلم علىٰ المحامل الحسنة، وإياك والخوض في أعراضهم بالظنّ الفاسد، فإنه هلاك لدينك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢١) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا قال لمريده: إذا ناداك شخص وأنت تقرأ القرآن أو الحديث أو كتب العلم، فلا تجبه حتىٰ تقول بقلبك: دستور يا الله، أو دستور يا رسول الله، أو دستور يا إمام مذهبي مثلًا أن أكلم فلانًا، ثم بعد ذلك كلمه علىٰ حاجته؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا بدعة في الدين، ولم يبلغنا ذلك في كتاب ولا سنة، بأن مثل ذلك من جملة الأدب الذي لا تأباه الشرائع، ولا يتوقف في فعل مثل ذلك إلا شخص جافي الطبع لم يشم من الأدب مع الأكابر رائحة.

(٣٢٢) وكذلك مما أجبت به عن قول بعض الأشياخ لمريده: إياك أن تمد رجلك في ليل أو نهار من غير ضرورة إلا بعد قولك: دستور يا الله، أو دستور يا رسول الله، أو دستور يا شيخي، فلاث به بعض المجادلين وقال له: إن هذا من جملة التنطع في الدين، ولم يرد لنا الأمر بمثل ذلك في كتاب ولا سنة، بأنه أدب لا تأباه الشريعة، نظير ما قدمناه آنفًا من قول الإنسان: دستور يا الله إذا كان يقرأ القرآن. وتأمل يا أخي لو مددت رجلك في الدرس في وجه شيخك كيف يقوم الناس كلُّهم عليك، فهل رأيت في ذلك دليلًا بخصوصه؟!

وقد بلغنا عن السيد إبراهيم بن أدهم أنه مد رجله في ليلة، فسمع هاتفًا يقول له: يا إبراهيم، ما هكذا ينبغي مجالسة الملوك، قالوا: فلم يمد إبراهيم رجله حتىٰ مات. وهذا الأمر وإن كان مباحًا في الشرع، ففعله من الأدب.

وقد بلغنا عن الإمام النووي أنه كان يكتب داخل خلوته، فكان الباب يرتد عليه، فيضع ذبابة السكين علىٰ وركه، وقعر السكين إلىٰ الباب، ويقول: جرح جسدي بذبابة السكين أهون عندي من جرح خشب الوقف. **فلكل مقام رجال**، وإياك والإنكار علىٰ

من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا نهىٰ تلامذته عن النوم علىٰ ذنب باطن، كالحسد والحقد، والمكر والكبر، والغشّ والغلّ ومحبة الدنيا، قياسًا علىٰ ما قاله العلماء في كراهة النوم للجنب، فلاث به بعض المجادلين وقالوا له: هذا بدعة! ولم يأت لنا في الشريعة التصريح بالنهي عن ذلك.

والجواب: أنه لا ينبغي لأحد الاعتراض علىٰ هذا الشيخ، لأنه أمر بمعروف، وهذه الأمور التي نهىٰ تلامذته عنها أشد قبحًا من النوم علىٰ جنابة، خصوصًا محبة الدنيا، فإنها رأس كلِّ خطيئة، كما ورد في الحديث: «أن رسول الله ﷺ قال لأنس ﷺ: يا بني، إن استطعت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غل ولا حقد ولا حسد فافعل»[١]. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷬ يقول: إياكم أن تناموا علىٰ محبة الدنيا، فربما أخذ الله روحكم علىٰ تلك الحالة، فيحشر أحدكم مع مبغوض لله تعالىٰ لم ينظر إليه نظر رعاية وإجلال منذ[٢] خلقه، قال: ولعل غالب الناس لا يعدون محبة الدنيا خطيئة!

وقد كان الفضيل بن عياض يجمع أصحابه ويقول: تعالوا بنا نتوب من الذنب الذي لا يهتدي إليه كلُّ أحد وهو حب الدنيا. انتهىٰ. وكان ﷺ إذا لم تغتسل زوجته لا ينام تلك الليلة في البيت التي هي فيه ويقول: إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه خبث، وإذا امتنعت الملائكة من دخوله، حضرت الشياطين، فلم أكن أنام مع الشياطين.

فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ كلِّ شيء فيه أدب مع الله تعالىٰ أو مع خلقه، وإن لم يرد ذلك صريحًا في الشرع، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نهىٰ إخوانه عن قراءة حزب الشاذلي، أو سيدي أبي العباس المرسي، أو سيدي محمد وفا ونحوهم مما فيه تصريح من المريد

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٨)، والطبراني في الأوسط (٥٩٩١)، وأبو يعلىٰ الموصلي (٣٦٢٤).

(٢) بالأصلين: مثل. والأقرب للصواب ما أثبتناه.

بسؤال الله تعالىٰ أن يجعله من أكابر أهل حضرته، ولاث به أتباع هؤلاء المشايخ وقالوا له: المشايخ الذين وضعوا هذه الأحزاب كانوا أعلم منك بآداب السؤال، بأن هذا الشيخ ما منعهم من مثل ذلك إلا لما رأىٰ عندهم من الكسل والانكباب علىٰ محبة الدنيا ونحو ذلك، فكان حكم أحدهم حكم زبال يقول في دعائه: اللهم أعطني هذه الساعة ولاية السلطنة موضع السلطان، أو زوجني ابنته هذا الوقت بغير سؤال مني ونحو ذلك، فإنه كالمستحيل، بخلاف من تدرَّج في مقامات الوزارة حتىٰ صار وزيرًا أعظم[1] مثلاً، فلهذا أن يسأل الأمور العالية. ولعل سيدي أبو الحسن وغيره ما وضعوا هذه الأحزاب إلا للمترشحين لدرجات الولاية الكبرىٰ، لا لآحاد الناس من الظلمة والسوقة والفلاحين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال لبعض المجادلين: البعيد لا يحب الله تعالىٰ؛ فاستفتي فيه العلماء، فأفتىٰ بعضهم بكذبه وتعزيره، وقالوا له: من أين عرفت ذلك؟! وما ثم وحي في هذا الزمان! بأن هذا الشيخ لا ينبغي الاعتراض عليه ولا تعزيره، فربما قصد أنه لا يحب الله تعالىٰ المحبة الكاملة، أو رآه ينام الليل وقت التهجد المشروع، فنفىٰ محبته للحقِّ تعالىٰ عملًا بحديث الترمذي وغيره مرفوعًا: «إن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، كذب من ادعىٰ محبتي فإذا جنه الليل نام عني»[2]. انتهىٰ.

فلو تأمل من ينام الليل نفسه بعين الإنصاف، لحكم علىٰ نفسه بكذبه في دعواه المحبة لله عزَّ وجلَّ، فضلًا عن أن يزكي نفسه ويستفتي العلماء، فيا فضيحة أمثالنا يوم

---

(١) صدر أعظم أو وزير أعظم -بالتركية العثمانية- هو أعلىٰ منصب تحت السلطان، وهو الذي يحمل ختم السلطنة، وسلطة تعيينه وعزله حق للسلطان فقط.

(٢) لم أقف عليه عند الترمذي، وقد ذكره القشيري في الرسالة القشيرية (٢/ ٥٦٠)، وابن رجب في لطائف المعارف ٤٤، وأخرجه من كلام أبي سليمان الداراني أبو طاهر السلفي في الطيوريات، (٩٦٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٣٨).

القيامة حين تظهر الأسرار، وتهتك الأستار[1]! نسأل الله العافية.

(٣٢٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا دخل علىٰ أمير لا يعرفه، فوجد عنده عالمًا آخر من أصحاب الأمير، فلم يعرِّف الأميرَ بمقام ذلك العالم[2] ولم يربه عنده، ولم يثن عليه بكلمة واحدة، فلاث به العالم الداخل وقال: هذا علامة علىٰ كراهته لي. وصدَّقه بعض الناس علىٰ ذلك، بأن ذلك العالم الذي هو صاحب الأمير ربما خاف علىٰ صاحبه الداخل من الفتنة بتعظيمه عند الأمير الذي لا يسلم من الجور والظلم غالبًا، والميل ركون إليه بلا شك. ويحتمل أنه إنما ترك تعظيمه عند ذلك الأمير خوفًا من نقص أجره بثنائه عليه ونحو ذلك، فهو بمعزل عما قاله الناس فيه بالظن.

وقد كان السلف الصالح متحابين لا يرىٰ أحدهم أنه أحق بما له من أخيه، ومع ذلك كان أحدهم لا يذكر شيئًا من محاسن أخيه بين الناس، ويقول: أخاف أن ينقص أجره بالثناء عليه. وكان أخوه يشكره علىٰ عدم شكره له، رضي الله عنهم أجمعين. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ حمل الناس علىٰ المحامل السيئة، فيصيرون أعداءً لك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سأله فقير شيئًا، فلم يعطه له، ثم جاءه شخص من الظلمة أو حاشيتهم، فأعطاه ذلك الشيء بغير سؤال، فلاث به الناس وقالوا: هذا لا يخاف إلا من الظلمة، وأما الفقير المستنِد إلىٰ الله تعالىٰ فما عليه منه، ونحو ذلك، بأنه قصد بإعطائه ذلك للظالم تمييل خاطره إليه، ليقبل شفاعته في المظلومين. وأما الفقير فلا يظلم أحدًا، ولا يحتاج إلىٰ أن يشفع أحد عنده، لاسيما إن علم الشيخ من طريق كشفه أن ذلك الشيء لم يُقسَم للفقير، وإنما قُسِم لذلك الظالم، فما أهداه الشيخ هذه الهدية إلا بنية صالحة، وهو بمعزل عما فهمتَه عنه يا أخي.

---

(١) بالأصلين: الفجار.

(٢) بالأصلين: الحال. والصواب ما أثبتناه.

ولو[1] قدِّر أنه أعطاه ذلك إتقاء شره، فليس ذلك لخوفه علىٰ عرضه منه، وإنما ذلك شفقة منه علىٰ دين صاحب اللسان المنقي[2]، فإياك يا أخي والمحامل السيئة، فتهلك نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا قال: أنا أعلم خلق الله الآن قلمًا وفمًا؛ ولاث به الناس لا سيما الأقران، وقالوا: هذا كذب صريح، بأنه قد يريد: أنا أعلم خلق الله بذنوبي التي عملتُها طولَ عمري، أو أعلم منهم بأمتعة داري، أو بما تحت ثيابي أو نحو ذلك، أو يريد تخصيص ذلك بأهل حارته فقط، وما من عام إلا ويمكن أن يدخله التخصيص. ويبعد من العالم الكبير أن يريد الإطلاق، فإنه يعلم أن في علماء زمانه المتفرقين في سائر أقطار الأرض، بل وفي أتباعهم من هو أعلم منه بيقين.

وقد حُكي عن الشيخ جلال الدين السيوطيِّ ﷺ أنه قال مرة: أنا أعلم خلق الله تعالىٰ الآن قلمًا وفمًا؛ فأنكر عليه علماء عصره ذلك، فقال لهم: فكيف يقول أحدكم عن شيخ الإسلام: إنه أقضىٰ القضاة؟! فلولا أن المراد به عدم الإطلاق، لكان ذلك القول حرامًا، فإنه يشمل أنه أقضىٰ من جميع الأنبياء والمرسلين، بل ومن رب العالمين علىٰ وزان أحكم الحاكمين. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٢٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا رد هدايا التجار المتورعين جملة، ولاث الناس به وقالوا: إن رسول الله ﷺ قبل الهدية، فرده لهدية فلان المتورع دليل علىٰ كراهته له أو تكبره عليه، ونحو ذلك.

والجواب: أن هذا العالم قد يكون عما فهمه هؤلاء بمعزل، وأنه يحب صاحب الهدية، ويراه أفضل منه، وإنما رَدَّ هديته لكونه علم حاجة ذلك المهدي إليها أكبر منه،

---

(١) بالأصلين: لقد. والصواب ما أثبتناه.

(٢) يعني اللسان البذيء، وفي المثل العامي المصري: «أسمعني من المنقي يا خِيارُ» أي انتقىٰ أقبح الألفاظ وأوجع العبارت يا خيار، جمع خَيِّر.

فأراد مواساته بها مقابلة إيثار بإيثار، أو علم عنده حصول ندم عليها بعد أن أرسلها، فأحب أن يردَّها له، ليهديها لغيره، أو له بنية صالحة غير هذه، أو علم منه طلبه المكافأة عليها، ويُحتمَل أنه ردَّها حين علم من نفسه عجزه عن مكافأته عليها، أو حين علم بالقرائن أن لها عنده قدرًا عظيمًا، فكانت كطعام البخيل من حيثُ إن نفسه تتبعها.

وقد كان سيدي عليٌّ الخواص ﷺ لا يأكل من هدية قال صاحبها لغلامه: لا تسلمها إلا للشيخ، ويقول: لولا أن لها عنده قدرًا ما قال ذلك. وكان إذا شدد أحد عليه في الأكل من شيء وقال: اجبر بخاطري، لا يأكله ويقول: لولا عظمة ذلك عنده ما شدد عليَّ في أكله.

فإن قال قائل: هذا منه سوء ظنٍّ بذلك الشخص، وهلا حمله على محمل حسن، كأن عزم عليه محبة فيه لا لعظمة ذلك الطعام مثلًا عنده؟ **فالجواب**: أن ما فعله الشيخ من جملة الاحتياط، فإن الأمر يحتمل ويحتمل، فعامله بترك الأكل من طعامه، كما كان يعامل البخيل من باب الفرض والتقدير، لا من باب التحقيق كما قررناه في معنى حديث: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[1]، أي عاملوهم كمعاملة من يسيء به الظن، لا أنكم تسيؤون بهم الظن، والله أعلم.

(٣٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يؤثر نفسه على إخوانه في مأكل أو ملبس أو مجلس ونحو ذلك، ولاث الفقراء به وقالوا: إن الله تعالى مدح المؤثرين على أنفسهم في القرآن، ولو كان هذا وليًّا لله تعالى، ما قدَّم نفسه على الناس.

والجواب: أن الإيثار ما هو مطلوب إلا من أهل البدايات، ليخرج أحدهم عن محبة نفسه الطبيعية والبخل الذي فتح عينه عليه في الدنيا، فإذا خرج عن البخل وشح الطبيعة، كان من المعروف تقديم نفسه، عملًا بحديث: «الأقربون أولى بالمعروف»[2]،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٩٨) والبيهقي في «السنن» (٢٠٤١٦) وابن أبي الدنيا في «مدارة الناس» (١١٣).

(٢) قال السخاوي حديث: «الأقربون أولى بالمعروف» ما علمته بهذا اللفظ، ولكن قال النبي ﷺ لأبي طلحة: «أرى أن تجعلها في الأقربين» رواه البخاري (٢٧٥٢). انظر: «المقاصد الحسنة» (١٤١) (صـ: ١٣٤).

وحديث: «ابدأ بنفسك»[١]، ولا أقرب إلىٰ الإنسان من نفسه، فقد يكون هذا الشيخ ممن خرج عن شح الطبيعة، وبلغ مرتبة الكمال، فبدأ بنفسه امتثالًا لأمر الشارع له بذلك. **ومن شأن الكامل أن لا يظلم نفسه ولو بتقديم غيرها عليها إلا بأمر شرعي**، فاعلم ذلك وتأمله، فإن فيه الجمع بين الآثار والأحاديث الواردة في فضل الإيثار، وفي تقديم العبد نفسه علىٰ غيره، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣١) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا صدَّق من قال: أنا من الأنبياء، وقال له: صدقتَ! ولاث الناس به بسبب ذلك، وقالوا: لا يخلو إما أن يكون هذا جاهلًا، فلا يصلح أن يجلس لتربية المريدين، وإما أن يكون عالمًا، فقد خالف قوله تعالىٰ في محمد ﷺ إنه خاتم النبيين، بأنه ربما كان عما فهموه عنه بمعزل، وإنما صدَّقه[٢] لظنه أنه يدعي أنه من أنبياء الأولياء أصحاب التعريف الإلهي بالأحكام الذين يخبرون عن الله علىٰ لسان ملك مغيَّب عن عيونهم من طريق الإلهام[٣]، وذلك معدود من قسم الولاية، فكأنه قال له: أنا ولي لله، فقال له: صدقت؛ إحسانًا للظن به من حيث إنه أعرف بنفسه، فليس الممتنع إلا لو قال: أنا من أنبياء الله الذين يوحي الله تعالىٰ إليهم شرعًا علىٰ لسان جبريل عليه الصلاة والسلام. لكن الذي ينبغي عدم إطلاق لفظ النبوة علىٰ وليٍّ، لأن ذلك تحجر علىٰ الأولياء ولو كانوا من أهل وحي الإلهام، فاعلم واعرف مصطلح القوم قبل إنكارك عليهم.

[توجيه لقول الجيلاني: خضتُ بحرًا وقف الأنبياء بساحله]

وقد حملوا علىٰ مثل ذلك قول سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ: «خضت بحرًا وقف الأنبياء بساحله»[٤] وقالوا: مراده بذلك أنبياء الأولياء أصحاب الإلهام لا أنبياء الوحي علىٰ لسان جبريل.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٩٧) وأبو داود (٣٩٥٧).

(٢) بالأصلين: قدمه. والصواب ما أثبتناه.

(٣) وقد تقدم أنه لا تجتمع رؤية الملك وسماعه لغير الأنبياء، في الجواب (٢٣٢).

(٤) وينقل أيضًا عن أبي يزيد البسطامي، وهو الأشهر، ولا إشكال في وروده عن كل منهما.

[الفرق بين تعريف الوليّ، ووحي النبي]

والفرق بين التعريف والوحي أن الوحي يأتي بشرع مستقل من عند الله تعالىٰ، والتعريف نهايته تفهيم ذلك الوليّ مشكلات الوحي، بمثابة من يشرح كلام النبوة من العلماء لا غير، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا ترك زيارة إخوانه ولم يتردد لأحد منهم جملة في عزاهم ولا في عرسهم، ولاث الناس به وقالوا: هذه عداوة لا تليق بالفقراء، وكيف يدعي هذا الصلاح وهو يكره إخوانه لحظ نفس؟! ونحو ذلك، بأنه قد يكون المانع له من زيارة أخيه خوفه من التزين له بأعماله وأقواله، كما هو الغالب من الشيخين إذا اجتمعا، فيذكر كلٌّ منهما لأخيه محاسن أعماله وأحواله، فخاف هذا العالم من وقوعه في ذلك، أو وقوع أخيه كذلك، فاحتاط لنفسه ولأخيه، ولو أنه كان غلب عليه معرفته بضبط لسانه ولسان أخيه، لما ترك زيارته.

وقد اجتمع الفضيل بن عياض بأخ له في الله تعالىٰ [فقال][1]: يا فضيل، لعل هذا المجلس مما يرضي ربنا. فقال الفضيل له: أو لعله يسخط ربنا! [فقال له: كيف؟][2] فقال: أليس قد عمد كلٌّ واحد منا إلىٰ محاسن أحواله فذكرها لأخيه، فكان كلٌّ واحد منا بمثابة إبليس حيثُ قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص: ٧٦] فقيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٦] إلىٰ آخره. فاعلم ذلك، واحمل أخاك علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا قال له عالم آخر: أريد مؤاخاتك؛ فأبىٰ ولم يجب إلىٰ ذلك، فلاث به وحمله علىٰ أنه إنما ترك مؤاخاته ازدراءً له، بأنه ربما كان عمَّا ظنه أخوه بمعزل، وإنما ترك ذلك احتياطًا لنفسه، لرؤيته عجزه عن القيام بشروط الصحبة من إعطائه له كلَّ ما طلبه منه بطيبة نفس، حتىٰ لو قال له أخوه: طلق لي زوجتك، أو أعطني رِزْقَتك مثلًا، فتلعثم كان لا يصلح للصحبة.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ساقط من «ب».

وسمعت سيدي عليًا الخواص ﵀ يقول: لا ينبغي للعبد أن يجيب أحدًا إلىٰ مؤاخاته في الله تعالىٰ إلا إن كانت نفسه طيبة بتحمل أوزاره كلِّها يوم القيامة عنه، وإن استحق دخول النار، دخلها عنه وأعتقه من دخولها. انتهىٰ.

وقد جاء رجل لإبراهيم بن أدهم، فقال: أريد أن أصحبك. فقال له إبراهيم: إن طابت نفسك وانشرحت بمقاسمتي لك في جميع أموالك أجبتك. فقال الرجل: إن نفسي لا تطيب بذلك. فقال: اذهب بسلام. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي من لم يجبك إلىٰ الصحبة علىٰ أن سبب ذلك حصول شيء يضرك أو يضره في الدين، فكما لا تسمح نفسه بأن يحمل عنك أوزارك وتبعات الخلائق التي عملتها طول عمرك من مال وعرض، فكذلك أنت الآخر ربما لا تسمح نفسك بذلك، فأراد بترك الصحبة سلامتك وسلامته من النفاق، فنعم ما فعل، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سأله الأمير الذي يعتقده عن حال أحد من إخوانه ليصحبه، فقال: هذا شيطان نصَّاب لا ينبغي لمثلكم صحبته؛ فلاث به الناس وذلك الشيخ المسؤول عن حاله، وصاروا يقولون: هذا دليل علىٰ عداوته لنا وخوفه منا أن نزاحمه في سحت الدنيا الذي يعطيه له الأمير ونحو ذلك، بأن اللائق حمل ذلك العالم أو الشيخ علىٰ أنه ما قال ذلك للأمير إلا محبةً في ذلك الشيخ خوفًا أن يصحب ذلك الأمير، فيحسن إليه فيركن إليه، فيقع في مخالفة قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

ويحمل قوله «شيطان» علىٰ مطلق البعد عن ذلك الأمير أو غيره، فلا كذب فيه إن شاء الله تعالىٰ، فإنه يقال: «بئر شَطُون» أي قعرها بعيد عن فمها. وقوله: «نصاب» أي ينصب علىٰ تحصيل الخيرات، كما ينصب الإنسان علىٰ تحصيل الدنيا بالحيل.

وكان هذا الأمر من شأن سيدي عليٍّ الخواص، فكان إذا خاف علىٰ دين أحد من إخوانه إذا صحب أميرًا، يقطع في عرضه عند ذلك الأمير وينفره من صحبته، ويقول: بتقدير أنه يتشوش منا في الدنيا، فسوف يشكرنا علىٰ ذلك في الآخرة. انتهىٰ.

وهذا أمر لا يقدر علىٰ التخلص منه كلُّ أحد، بل يختلط ذلك بحظ النفس، وهو من باب تعارض المفسدتين للإنسان في حقِّ أخيه. فربما أدىٰ اجتهاد الفقير إلىٰ أن تجريحه لفظًا لا معنىٰ عند ذلك الأمير أنفع لأخيه من تزكيته عنده، ففعل معه الأخف منهما، وهو سلامته من الركون إلىٰ ذلك الأمير، فإن ترك صحبته أخف من أن تمسه النار يوم القيامة.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله إذا جرحه إنسان عند أمير كان عازمًا علىٰ صحبته وشدة الاعتقاد فيه، يشكر فضله ويقول: جزاك الله عني خيرًا، أرحته من التدنس بصحبتي ورؤية وجهي الذي يقسي النظر إليه القلب. انتهىٰ.

(٣٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا كان أحد من الأمراء يعتقده، ثم ظلم شخصًا، فسألوه الشفاعة فيه عنده، فأبىٰ وقال: صدري ما هو منشرح لذلك؛ فلاثوا به وقالوا: إنما فعل ذلك خوفًا أن ينفر منه، فيقطع عنه إحسانه، فقدَّم هذا دنياه علىٰ آخرته، فإن الشفاعة مطلوبة شرعًا، سواء أقبل الظالم ذلك أو لم يقبل، لكن قد ذهب العلماء الزاهدون أهل المروءات، ونحو ذلك من الألفاظ، بأنه ربما ترك الشفاعة في ذلك المظلوم في ذلك الوقت أنفع له. وربما كان ذلك لعذر لا ينبغي ذكره، كأن جرح فيه أحد عند ذلك الأمير، وذكر فيه العُجَر والبُجَر[1]، حتىٰ إن ذلك الأمير بعد ذلك الاعتقاد التام فيه، ما بقي يقدر يسمع له ذكرًا، كما وقع لبعض إخواننا حين كان يشفع عند الأمير محمد الدفتردار وعند الوزير، فتربص هذا الشيخ في الشفاعة حتىٰ يجد من يميل خاطر الأمير، ثم بعد ذلك يشفع. وقد قالوا: إن أردت أن تطاع، فقل ما يستطاع. وقد كثر الآن تجريح الناس بعضهم لبعض عند الأمراء، فقل اعتقادهم في العلماء والصالحين، ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله إذا شفع عند أمير لا يعرفه، يرسل من يربيه عنده أولًا، ثم إذا دخل عليه يقول له: يا أمير، قد جئنا نشفع في فلان عندكم، فإن كان التأديب فيه بلغ حدَّه عندكم، فشفعونا فيه، وإلا فنحن معكم عليه حتىٰ يتأدب، فإننا نعرف من

---

(١) ذكَرَ عُجَرَه وبُجَرَه: عيوبَه وأمرَه كلَّه ما أخفىٰ منه وما أبدَىٰ.

الأمير الرحمة للخلق، ولا يشدد علىٰ أحد إلا بقدر تأديبه لا غير. انتهىٰ. وهي سياسة نافعة، فينبغي لكلِّ شافع أن يقولها للأمير، ولا يلزمه بالإفراج عنه كرهًا بالكلام اليابس، فربما قسَّىٰ قلبه علىٰ ذلك المظلوم نكايةً في ذلك الشافع لقلة سياسته.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا كل من سألتموه في الشفاعة في مظلوم من العلماء والصالحين ولم يجبكم إلىٰ ذلك علىٰ أنه له عذر، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا حضر في عقد مجلس بين العلماء عند الملوك والأمراء في حادثة، وبدأ هو بالكلام قبل الناس، وقال لكلِّ من أراد أن يتكلم: اسكت يا فلان، أنا أولىٰ بالكلام في هذا المجلس؛ ولاث به الناس والحاضرون وقالوا: إنه لا يحب أن يكون الأمر إلا له وحده، بأنه ربما قصد بذلك سترة الحاضرين في ذلك المحفل العظيم، فخاف أن أحدهم يتعلثم في تلك المسألة، أو يرتج عليه الكلام، فحمل ذلك عنه.

وقوله: «أنا أولىٰ بالكلام منكم» محمول علىٰ أن مراده: أنا أولىٰ بتحمل ذلك التعلثم والارتجاج عنكم، ففديتكم شفقةً عليكم بين العوام، ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد الفخر بالعلم علىٰ إخوانه الحاضرين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي لا يعرف أحد من أصحابه لطعامه طعمًا لا في المواسم ولا في غيرها، مع أن له كلَّ يوم من معاليم وظائفه وغيرها ما يزيد علىٰ نفقته أضعافًا مضاعفة، ولاث به الناس وطلبته بسبب ذلك، بأنه ربما كان لا يعتقد حلَّ ما بيده من المال، ويكره إطعام أحد من إخوانه منه، فيصير لهم المهنأة بأكله وعليه هو حسابه يوم القيامة. أقل ما يكون في دخول الشبهة فيه أخذه معاليم الوظائف التي لا يحضرها لا بنفسه ولا بنائبه، وهو يعلم أن العبد لا يُكلَّف بإطعام أحد إلا إن وجد ذلك من حلال لا تبعة فيه، ويفتي الناس بذلك. وأما هو نفسه فله الباع الطويل في دخوله إلىٰ حلِّ أكله من ذلك، كما هو مقرر في كتب الفقه، فلا اعتراض لنا عليه.

فاحمل يا أخي شيخك الذي تقرأ عليه علىٰ أحسن المحامل، ليقع لك النفع علىٰ

وهذا أمر لا يقدر علىٰ التخلص منه كلُّ أحد، بل يخلط ذلك بحظ النفس، وهو من باب تعارض المفسدتين للإنسان في حقِّ أخيه، فربما أدىٰ اجتهاد الفقير إلىٰ أن تجريحه لفظًا لا معنىٰ عند ذلك الأمير أنفع لأخيه من تزكيته عنده، ففعل معه الأخف منهما، وهو سلامته من الركون إلىٰ ذلك الأمير، فإن ترك صحبته أخف من أن تمسه النار يوم القيامة.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله إذا جرحه إنسان عند أمير كان عازمًا علىٰ صحبته وشدة الاعتقاد فيه، يشكر فضله ويقول: جزاك الله عني خيرًا، أرحته من التدنس بصحبتي ورؤية وجهي الذي يقسي النظر إليه القلب. انتهىٰ.

(٣٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا كان أحد من الأمراء يعتقده، ثم ظلم شخصًا، فسألوه الشفاعة فيه عنده، فأبىٰ وقال: صدري ما هو منشرح لذلك؛ فلاثوا به وقالوا: إنما فعل ذلك خوفًا أن ينفر منه، فيقطع عنه إحسانه، فقدَّم هذا دنياه علىٰ آخرته، فإن الشفاعة مطلوبة شرعًا، سواء أقبل الظالم ذلك أو لم يقبل، لكن قد ذهب العلماء الزاهدون أهل المروءات، ونحو ذلك من الألفاظ، بأنه ربما ترك الشفاعة في ذلك المظلوم في ذلك الوقت أنفع له. وربما كان ذلك لعذر لا ينبغي ذكره، كأن جرح فيه أحد عند ذلك الأمير، وذكر فيه العُجَر والبُجَر[1]، حتىٰ إن ذلك الأمير بعد ذلك الاعتقاد التام فيه، ما بقي يقدر يسمع له ذكرًا، كما وقع لبعض إخواننا حين كان يشفع عند الأمير محمد الدفتردار وعند الوزير، فتربص هذا الشيخ في الشفاعة حتىٰ يجد من يميل خاطر الأمير، ثم بعد ذلك يشفع. وقد قالوا: إن أردت أن تطاع، فقل ما يستطاع. وقد كثر الآن تجريح الناس بعضهم لبعض عند الأمراء، فقل اعتقادهم في العلماء والصالحين، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله إذا شفع عند أمير لا يعرفه، يرسل من يربيه عنده أولًا، ثم إذا دخل عليه يقول له: يا أمير، قد جئنا نشفع في فلان عندكم، فإن كان التأديب فيه بلغ حدَّه عندكم، فشفعونا فيه، وإلا فنحن معكم عليه حتىٰ يتأدب، فإننا نعرف من

---

(١) ذكَرَ عُجَرَه وبُجَرَه: عيوبَه وأمرَه كلَّه ما أخفىٰ منه وما أبْدَىٰ.

الأمير الرحمة للخلق، ولا يشدد علىٰ أحد إلا بقدر تأديبه لا غير. انتهىٰ. وهي سياسة نافعة، فينبغي لكلِّ شافع أن يقولها للأمير، ولا يلزمه بالإفراج عنه كرهًا بالكلام اليابس، فربما قسَّىٰ قلبه علىٰ ذلك المظلوم نكايةً في ذلك الشافع لقلة سياسته.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحملوا كل من سألتموه في الشفاعة في مظلوم من العلماء والصالحين ولم يجبكم إلىٰ ذلك علىٰ أنه له عذر، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٦) ومما أجبتُ به عن العالم إذا حضر في عقد مجلس بين العلماء عند الملوك والأمراء في حادثة، وبدأ هو بالكلام قبل الناس، وقال لكلِّ من أراد أن يتكلم: اسكت يا فلان، أنا أولىٰ بالكلام في هذا المجلس؛ ولاث به الناس والحاضرون وقالوا: إنه لا يحب أن يكون الأمر إلا له وحده، بأنه ربما قصد بذلك سترة الحاضرين في ذلك المحفل العظيم، فخاف أن أحدهم يتعلثم في تلك المسألة، أو يرتج عليه الكلام، فحمل ذلك عنه.

وقوله: «أنا أولىٰ بالكلام منكم» محمول علىٰ أن مراده: أنا أولىٰ بتحمل ذلك التعلثم والارتجاج عنكم، ففديتكم شفقةً عليكم بين العوام، ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد الفخر بالعلم علىٰ إخوانه الحاضرين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير الذي لا يعرف أحد من أصحابه لطعامه طعمًا لا في المواسم ولا في غيرها، مع أن له كلَّ يوم من معاليم وظائفه وغيرها ما يزيد علىٰ نفقته أضعافًا مضاعفة، ولاث به الناس وطلبته بسبب ذلك، بأنه ربما كان لا يعتقد حلَّ ما بيده من المال، ويكره إطعام أحد من إخوانه منه، فيصير لهم المهنأة بأكله وعليه هو حسابه يوم القيامة. أقل ما يكون في دخول الشبهة فيه أخذه معاليم الوظائف التي لا يحضرها لا بنفسه ولا بنائبه، وهو يعلم أن العبد لا يُكلَّف بإطعام أحد إلا إن وجد ذلك من حلال لا تبعة فيه، ويفتي الناس بذلك. وأما هو نفسه فله الباع الطويل في دخوله إلىٰ حلِّ أكله من ذلك، كما هو مقرر في كتب الفقه، فلا اعتراض لنا عليه.

فاحمل يا أخي شيخك الذي تقرأ عليه علىٰ أحسن المحامل، ليقع لك النفع علىٰ

يديه، وتقوم بواجب حقه في الأدب. وإياك أن يكون لك بين إخوانك كلام في حقه وبين يديه كلام آخر، فإن ذلك أقبح من كلِّ قبيح، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا أراد سفر الحجاز، وصار يسأل الأمراء ومشايخ العرب وغيرهم في المال والزاد والجمال وغير ذلك، ولاث الناس به وقالوا: إن هذا الحج وزره أكثر من ثوابه، ونحو ذلك، بأنه ربما كان ينفق ذلك المال الذي فيه الشبهة علىٰ المحتاجين إلىٰ مثله في طريق الحجاز. كمن هرب جمله بعد أن أخذ كراه، أو من مات جمله وصارت أمتعته وعياله علىٰ الأرض لا يجدون من يحملهم ونحو ذلك، ولا يأكل هو منه ولا يركب.

وبتقدير أنه يأكل من ذلك ويركب، فيجب حمله علىٰ أنه ما أكل من ذلك ولا ركب إلا عند الضرورة، كأن وقعت[1] منه نفقته التي كان أعدها لمؤن الطريق، أو ماتت جماله ونحو ذلك. ولا يجوز حمله علىٰ أنه أخذ الشبهات بالأصالة ليأكل منها أو يركب، فإن ذلك يبعد وقوعه من العالم أو شيخ الطريق. فاشتغل يا أخي بنفسك ولا تنظر في عيوب الناس تقع في الهلاك. وفي كلام السيد عيسىٰ عليه الصلاة والسلام للحواريين: «لا تنظروا في عيوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في عيوبكم كأنكم عبيد لهم». انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٣٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا رأيناه يمدح نفسه المدح المفرط بين جماعة، ولاث الحاضرون به وقالوا: لو لا خوفنا من لسانه، لكذبناه فيما ادَّعاه في المجلس، بأنه قد يكون غرضه بذلك المدح أمرًا مباحًا، ليميز به صديقه من عدوه حين قاسىٰ من الناس الذين قرَّبهم الشدائد والمحن، ولو أنه كان امتحنهم قبل التقريب، لأخذ حذره منهم، أو أمن منهم وأخرج من أقواله وأفعاله علىٰ كلِّ أحد منهم ما يناسبه.

وقد كان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: من أراد أن يعرف عدوه من صديقه، فليمدح

---

(١) بالأصلين: وجب. والمثبت الأنسب للسياق.

نفسه بين جماعة وينظر وجوههم، فمن رآه قد انشرح بذلك، فليعلم أنه صديق ليس عنده حسد؛ ومن رآه قد عبس وجهه وظهر عليه كرب، فليعلم أنه عدو حسود في صورة صديق، وربما كان قصده من صحبة ذلك الشيخ أن يحصي عليه عيوبه ليهجوه بها وقت غضبه عليه، أو كان جاسوسًا من عند أحد من أعداء ذلك الشيخ الذي زاحمه علىٰ صحبة أمير مثلًا، بقصد معرفة عيوبه ونقائصه علىٰ لسان ذلك الجاسوس، حيثُ كان لا يجتمع معه في مجلس، كما وقع ذلك لبعض إخواننا حين زاحمه شخص علىٰ صحبة الأمير محمد الدفتردار. انتهىٰ.

وقد ذكرنا في كتاب «المنن والأخلاق» أن من علامة عماء قلوب المريدين أن يحوجوا شيخهم إلىٰ تزكية نفسه عندهم، ولو كانت قلوبهم تنظر لعرفوا مقام شيخهم ونفاسة كلامه بالرؤية والمخالطة، ولم يحوجوه إلىٰ مدح نفسه كلما أراد أن يوصل إليهم فائدة. انتهىٰ.

فعُلم أن مدح العبد نفسه بين الناس لغرض صحيح لا يضره، بل قد يجب لما يترتب عليه من الفائدة أو ترك الإثم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا زاره الباشاه[١] مثلاً، وصار يحكي لكلِّ داخل ذلك ويقول: زارني الباشاه أمس؛ ولاث به الناس وقالوا: لو كان هذا فقيرًا ما أظهر الفرح بمثل ذلك، بأنه قد يكون سبب ذكره للناس ذلك ما سمعه من قول بعض المعتقدين: إن فلانًا زاره الباشاه أمس، فلم نر في قلبه فرحًا ولا سرورًا لذلك، ولو أنه زار غيره من المشايخ مثل فلان وفلان، لكان طار من الفرح، فأراد هذا الشيخ الثبات والرسوخ، ليدفع عن نفسه فتنة ذلك التميز، فإن كلَّ صادق مع الله تعالىٰ يكره كلَّ ما فيه تميز عن أقرانه من حظوظ النفس.

وقد وقفتُ مرةً مع والدي الذي كلفني يتيمًا رحمه الله[٢] علىٰ ركن حائط، فقال لي: انظر

---

(١) الباشا أو الباشاه المقصود به والي مصر.

(٢) وهو سيدي خضر، جرىٰ ذكره في «الطبقات» ولم يترجم له.

هذا الركن. فنظرته فإذا هو مشخة[١] للكلاب، فقال لي: لم كان الكلاب تشخ على الركن دون غيره؟ فقلت له: لا أدري! فقال: لأنه خرج عن سمت إخوانه من الحجارة وتميز عنهم، فكان جزاؤه بول الكلاب عليه. انتهىٰ، فاعتبرتُ بذلك.

فاعلم يا أخي ذلك، وانتحل لإخوانك الأجوبة الحسنة ولو إقناعية إذا لم تصل إلىٰ الأجوابة التحقيقية، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤١) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا سمع كلامًا باطلًا أو نميمة، فنقله إلىٰ الناس وحصل من ذلك فتنة كبيرة، ولاث الناس به بسبب ذلك، بأنه ربما كان من شدة صفائه يعتقد أن أحدًا لا يكذب، فنقل ذلك غافلًا عما يترتب عليه من المفاسد، فلا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه حتىٰ يتبين أنه عرف حرمة نقل الكلام وما يترتب عليه، فإن كان لم يعرف ذلك عرفناه ذلك، ثم أنكرنا عليه إن تعمد ذلك، ونقول له: قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال ﷺ: «كفىٰ بالمرء إثمًا أن يحدث بكلِّ ما سمع»[٢]، وقال ﷺ: «وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟»[٣] ونحو ذلك من الأحاديث.

وسمعتُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: أكذب الناس الصالحين! فقلتُ له: كيف؟! فقال: لأن قلوبهم صافية ساذجة، يعتقد أن أحدًا لا يكذب ولا يحلف بالله باطلًا، فينقل كلام الكاذب علىٰ اعتقاد أنه صدق. وإنما سميناهم صالحين اتباعًا للعرف عند الناس، وإلا فالصالح حقيقة هو المحفوظ من الآثام ظاهرًا وباطنًا، المميز بين ما أباح الله وبين ما حرَّم الله، وبين ما يسخط الله وبين ما يرضي الله.

فليتنبه شيخ الزاوية لمثل ذلك وإلا أوقع العداوة[٤] بين الناس، وصار معدودًا من

---

(١) أي محل يتغوط فيه الكلاب ويتبولون.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٩٢) واللفظ له، ومسلم (٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣)، والحاكم (٣٥٤٨).

(٤) بالأصلين: العين.

جنود إبليس، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا انتصب لمعاداة الصالحين في العرف وخدَّام المساجد، ولم يحترمهم لله عزَّ وجلَّ من حيثُ اشتهارُهم بخدمته، ولاث الناس بذلك العالم وقالوا: لو كان هذا له قدم في معرفة الله تعالىٰ، لم يؤذِ خدَّام نبيه ولا أولياءه، بأنه لم يعترض عليهم إلا بوجه شرعيٍّ كما هو الغالب علىٰ العلماء، فلا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه حتىٰ يجتمع به وينظر ما يقول.

وبأنه قد لا يعتقد صلاح من سماه الناس صالحًا، ولو أنه اعتقد ولاية الله تعالىٰ له، ما آذاه أبدًا، لأن منصب العلماء يجل عن مثل هذا الجهل العظيم الذي يوعد الله تعالىٰ من وقع فيه بالمحاربة له.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من رحمة الله عزَّ وجلَّ بالعلماء الذين يؤذون الأولياء أنه تعالىٰ لم يجعل أحدًا منهم يعتقد ولاية ذلك الفقير الذي يؤذيه، فإنهم لو عرفوا ولايته ثم آذوه، لتعرضوا لعذاب الله تعالىٰ ومقته لهم في الدنيا والآخرة.

وسمعته يقول مرارًا: الأذىٰ حرام بغير حقٍّ لجميع المسلمين، ولكنه للأولياء أشد. قال: وليس للولي تعريف أعظم من قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] فمن آمن واتقىٰ فهو ولي الله حقًّا، ومن قال: إن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] استئناف كلام جوابه ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] فهو خلاف الظاهر. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي للشيخ أن يغير خاطر شيخ آخر إلا إن كان أكثر قيامًا لليل منه، وذلك أن الله تعالىٰ يراعي خاطر من كان أكثر قيامًا له في الليل ممن كان نائمًا، فربما شكا القائم ذلك النائم لله عزَّ وجلَّ، فقبل منه شكواه، ومقت ذلك الشيخ النائم، نظير من كان في خدمة ملك يقدمه عليه ضرورة بكثرة الخدمة، ولله المثل الأعلىٰ.

فمن عادىٰ أحدًا من خدَّام المساجد أو قوَّامي[1] الليل، فليستعد للسهر الدائم ليلاً ونهارًا، وإلا أخذوه وهو نائم. فاعرف يا أخي حال العالم الذي يؤذي خدام المساجد والصالحين عرفًا، ثم أنكر عليه أو اترك ذلك والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا قال لأصحابه: سلموا لي أحوالي ولا تنكروا عليَّ أبدًا؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا خلاف ما بلغنا عن الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين، والعلماء العاملين، وكيف ينبغي لغير معصوم أن يقول مثل ذلك لأصحابه، ويسد عن نفسه باب النصح؟ بأنه ربما عرف من أصحابه بعدهم عن ذوق مقاماته، وخاف عليهم من حبِّ الرئاسة، ومن الإخلال بواجب حقِّه، ولم يمنعهم من النصح، فما حمله علىٰ مثل ذلك إلا الخوف علىٰ أصحابه مما يقطعهم عن الترقي.

ثم إن ذلك العالم أو الشيخ لا يخلو إما أن يكون ذاكرًا لما وقع فيه من المخالفات والرذائل مثلًا، فهو يندم ويتوب ويستغفر، ويبعد منه الإصرار وعدم التوبة. وإن كان وقع في ذلك غفلةً أو سهوًا، فذلك محمول عنه من حيثُ الإثمُ، فعُلِمَ أنه لا ينبغي لأحد الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إلا بعد الاجتماع بهم أو الاستفهام منهم علىٰ يد ثقة في النقل ماذا قصدوا بذلك الفعل والقول مثلًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا كان في حارته منكر دائم، كقبض المكوس أو بيع الخمر ونحو ذلك مما يفعله الناس اختيارًا من غير إكراه، وصار ذلك العالم أو الشيخ يمرُّ عليه في النهار كذا كذا مرة وهو ساكت، فلاث به بعض المجادلين وقال: يجب عليك أن تأمرهم بمعروف كلما مررت ولو ألف مرة في النهار، وإلا فسقت بذلك، ووجبت عليك التوبة، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه إلا بعد اجتماعنا به، فقد يكون ممن يقول بعدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا ظن أن ذلك

(١) بالأصلين: قوَّامين. والأصول نحويًّا ما أثبتناه.

لا يؤثر في فاعل المنكر امتثالًا للأمر ولا اجتنابًا للنهي[1]، لا سيما إن كان ذلك المنكر يتعلق بجماعة مولانا السلطان، فإن الأدب من أمثالنا رد الأمر في ذلك إلىٰ السلطان، لكونه أقوىٰ علىٰ إزالته منا بيقين. وإن كان ولابد من إزالتنا له، فليسافر أحدنا إلىٰ السلطان ويخبره به، ويسأله في إزالته، فإن جماعته يمتثلون أمره في ذلك دوننا.

ومن شك في قولنا هذا من طلبة العلم، فليجمع له عشرة أنفس مثلًا من طلبة العلم ويذهب بهم إلىٰ محاكم القضاة، فضلًا عن المكس، ويمنعوا الناس من إعطاء فلوس الدعوىٰ والقانون، وينظروا ما يقع لهم، وهناك يصير أحدهم يقيم العذر لذلك العالم أو شيخ الزاوية إذا مرَّ علىٰ ذلك المنكر وهو ساكت. فعُلِمَ أنه لا يفسق بعدم إنكار المنكر إلا من كان له قدرة علىٰ إزالته من غير ضرر يلحقه، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٥) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا دعا لكافر بدخول الجنة، فلاث به بعض المجادلين وقال: كيف يطلب لكافر دخول الجنة؟! بأنه يجب حمله علىٰ أنه قصد بذلك أن الله يمنُّ عليه بالإسلام ثم يدخله الجنة، وإلا فأدنىٰ المسلمين درجة يعلم أن الكافر لا يدخل الجنة، ولا يجوز الدعاء له بدخولها مع كفره، ففي الكلام إضمار لا بد منه.

---

(١) للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروط:

١- أن يكون الفعل منكرًا في مذهب الفاعل، أي يكون المنكر المنهي عنه منكرًا بالإجماع، فـ«لا يأمر المخالفين له في المذهب بما لا يجوزونه، ولا ينهاهم عما يرونه فرضًا عليهم».

٢- أن يكون الناصح عالمًا بما يأمر به أو ينهىٰ عنه.

٣- ألا يؤدي نصحه إلىٰ منكر أكبر منه.

٤- أن يعلم أو يغلب علىٰ ظنه أن إنكاره المنكر مزيل له وأن أمره بالمعروف مؤثر فيه ونافع.

فإذا فقد الشرط الأول، فلا وجه للأمر أو الإنكار لكونه أمرًا مختلفًا فيه، والقاعدة «إنما ينكر المتفق عليه لا المختلف فيه». وأما فقد الشرطين الثاني والثالث فيسلب الجوازَ، فلا يجوز حينئذٍ الإقدام علىٰ الأمر أو النهي. وأما فقد الشرط الرابع فإنما يسقط الوجوب فقط ويبقي الجواز والندب. ينظر: «متن الرسالة» ابن ناجي (٢/ ٤٤٨)، «شرح الرسالة» زروق (٢/ ٤١٦)، «عقد الجواهر الثمينة» جلال الدين السعدي (٣/ ١٣٠٢)، «فتاوىٰ الخليلي» محمد الخليلي (١/ ٥٦).

وقد وقع لمعروف الكرخي أن جماعة كانوا في مركب في الدجلة وبين يديهم الخمر وآلات اللهو، فقالوا له: يا سيدي، ألا تنظر إلىٰ هؤلاء وما تجاهروا به؟! فادع الله تعالىٰ عليهم. فقال: اللهمَّ كما فرحتهم في الدنيا، ففرحهم في الآخرة. فقالوا له: كيف ذلك؟! فقال: إنه تعالىٰ لا يفرحهم في الآخرة إلا إن تاب عليهم في الدنيا. انتهىٰ.

قال شيخ الإسلام زكريا في شرحه لرسالة القشيري: وهذا من حسن سياسة معروف ﷺ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال له شخص: ادع لي بدخول الجنة؛ فأبىٰ وقال له: مالك وللجنة! فلاث الناس به وقالوا: قد ورد في الشريعة الأمر للعبد بأن يسأل ربه أن يدخله الجنة برحمته، فكيف يمتنع هذا من سؤال الجنة لمسلم؟! ولكن هذا دليل علىٰ جهله، بأنه قد يكون المانع له من سؤاله لذلك الشخص دخول الجنة الخوف من نزول البلاء به، وعدم صبره عليه، فاحتاط له بترك الدعاء ذلك الوقت، كما في حديث: «حفت الجنة بالمكاره»[١]، وكما في قول سيدي عمر بن الفارض[٢]:

ولقد أقـول لمن تحرش بالهوىٰ عرضتَ نفسك للبلاء فاستهدف

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: إنما كان السلف الصالح يسألون الله العفو ولا يتجرؤون أن يسألوه الرضا ودخول الجنة هضمًا لنفوسهم، وفي الحديث: «أهل الجنة كل ضعيف متضعف»[٣]. انتهىٰ.

وكان سفيان الثوري ﷺ يقول: إنما خاف الأكابر من البلاء لما فيه لا لذاته، ثم

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٨٢٢) والترمذي (٢٥٥٩) وابن حبان (٧١٨) وغيرهما.

(٢) أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، يلقب بسلطان العاشقين. قال صاحب «وفيات الأعيان»: سمعت أنه كان رجلًا صالحًا كثير الخير، علىٰ قدم التجرد، جاور بمكة زمانًا. توفي: ٦٣٢ هـ. «الأعلام» (٥/ ٥٥)، «وفيات الأعيان» (٣/ ٤٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، (٢٨٥٣).

يقول: والله ما أدري ماذا يقع مني إذا ابتليت، فلعلي أقع في الكفر ولا أشعر. انتهىٰ.

فما تركوا سؤال الجنة إلا لما يقع لهم من الابتلاء في طريقها لا لذاتها، وفي الحديث: «أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام دخل علىٰ مبتلىٰ، فقال: يا ربِّ، عافه من هذا البلاء، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا موسىٰ، تسألني له العافية وقد سبق في علمي أنه من أهل الجنة، والجنة لا تُنال إلا بالبلاء»[1].

فعُلِمَ أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ شيخ في الطريق إذا ظهر منه ما يتبادر إلىٰ أفهام العوام، وإنما الأدب أن يسأل عن ذلك أهل العلم ثم ينكر عليه بما أنكروه عليه، فإن العوام تصغر عن مثل ذلك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في حال حلول البلاء به: اللهم إن كان ذلك برضاك فزدني؛ فأنكر عليه الفقراء ذلك وقالوا له: لست من رجال البلاء، هذا من الأدلة علىٰ جهلك، بأنه قد يكون ذلك الوقت في مقام الرضا، ومعلوم أن الراضي بالبلاء يصير ينشرح لزيادته وينقبض لفراقه، فما تكلم هذا الشيخ إلا بلسان ذلك المقام، فلا يلزم منه الجهل.

ولو أنه نزل عن مقام الرضا لم يقل ذلك، بل كان يسأل الله العافية، كما وقع لسمنون المحب[2] أحد رجال «رسالة القشيري» أنه كان به أسر البول، فقال يومًا: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني؛ فشدد الله تعالىٰ عليه، فصار يدور علىٰ مكاتيب الأطفال ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب. انتهىٰ.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يكون العبد راضيًا عن الله تعالىٰ بالبلاء يكره فراقه من وجه، وصار يحب العافية من وجه آخر، كما هو شأن الأولياء من

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) سمنون بن حمزة وكنيته أبو الحسن ويقال: أبو القاسم، صحب السري وأبا أحمد القلانسي ومحمد بن علي القصار وغيرهم، كان ظريف الخلق، أكثر كلامه في المحبة وكان كبير الشأن. وكان من الشعراء، له مقطوعات في غاية الجودة. وهو من أهل البصرة. سكن بغداد وتوفي بها: ٢٩٠هـ. «الرسالة القشيرية» (١/ ٩١)، «الأعلام» (٣/ ١٤٠).

الكُمَّل بحكم الإرث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد ورد أن الله تعالىٰ لما ابتلىٰ عبده زكريا عليه الصلاة والسلام بالنشران تحت المنشار، فلما وصل إلىٰ دماغه قال: آه، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: «أما تقدم منك طلب القرب مني؟ أما علمت أن أهل حضرتي أكثر الناس بلاء؟ أما علمت أن من أسمائي الصبور؟ لئن قلت: آه مرة ثانية، لأمحون اسمك من ديوان النبوة»[1]. انتهىٰ. فكلَّفه الله تعالىٰ بالصبر تحت المناشر من وجه مقام الصبر، مع أنه عليه الصلاة والسلام كان يتلذذ بذلك من وجه مقام الرضا، لأن من **شأن المحب أنه لا يحس بالألم مادام يشاهد محبوبه**. وقد أنشد الشبلي في ذلك:

والهجر لو سكن الجنان تحولت نعم الجنان علىٰ العبيد جحيمًا
والوصل لو سكن الجحيم تحولت نـار الجحيم علىٰ العبيد نعيمًا

قلتُ: وقوله تعالىٰ في الحديث السابق: «لأمحون اسمك من ديوان النبوة» هو من حضرة الإطلاق التي يفعل الحقُّ تعالىٰ منها ما يشاء، أو ذلك علىٰ سبيل الفرض والتقدير، فإن النبي معصوم، فلا يصح سلبه من النبوة لعصمته. هذا بتقدير ثبوت هذا الحديث عن الله عزَّ وجلَّ، والله أعلم.

فعُلِمَ أن ذلك الشيخ ما قال: اللهم إن كان في هذا البلاء رضاك فزدني إلا بلسان السكر من لذة الرضا، فلا اعتراض عليه إلا إذا صحا من سكره.

وقد بلغنا أن عصفورًا راود عصفورة في قبة سليمان عن نفسها فأبت، فقال لها: تمتنعين مني وأنا لو شئتُ لقلبتُ القبة علىٰ سليمان! فحملت الريح كلامه إلىٰ سليمان، فأرسل إليه فأحضره بين يديه، وقال له: ما حملك علىٰ ما قلت وأنت تعجز عن مثل ذلك؟! فقال: مهلًا يا نبي الله! فإني عاشق لها، والعشاق لا حرج عليهم في مثل ذلك، لأنهم يتكلمون بلسان العشق والسكر، لا بلسان العلم والصحو والتحقيق. فخلىٰ سليمان سبيله. انتهىٰ.

ومما يدل علىٰ مسامحة القوم بما يقولونه في سكر الحال أن الحسين الحلاج لما صُلِبَ وقُطِّعت أطرافه، بلغ ذلك الشبلي فقال: لا إله إلا الله! سكرتُ أنا والحلاج من شراب

---

(١) لم أقف عليه.

واحد، فدام سكره وصحوتُ أنا من سكري، فلم يحل بي ما حلَّ به. فبلغ الحلاج ذلك وهو على الخشب، فقال: هكذا يزعم الشبليُّ، لو شرب من شرابي، لفُعِل به كما فُعِل بي. انتهى.

فقدَّم الأشياخ قول الشبليِّ لصحوه على قول الحلاج لسكره. وإنما لم يسامحوه بما وقع منه حال سكره لاختلاف الناس في صحوه لاسيما العلماء، فلو تحققوا سكره ما آخذوه. وقد عرضوا أمره على الشيخ أبي القاسم الجنيد، فأرسل يقول له: قد فتحتَ في الشريعة طاقةً لا يسدُّها إلا رأسك. انتهى.

وفي قصة العصفور السابقة عذر عظيم للعشاق من القوم إذا شطحوا بمثل قول سيدي عمر بن الفارض:

وطوفان نوح عند نوحي كأدمعي … وإيقاد نيران الخليل كلوعتي

ولولا زفيري أغرقتني أدمعي … ولولا دموعي أحرقتني زفرتي

وحزني ما يعقوب بث أقله … وكل بلاء أيوب بعض بليتي

ونحو ذلك من الألفاظ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٨) **ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعو على عدوه أو يدعو لصديقه، فلا يُستجَاب له، مع تكرر ذلك منه، فلاث الناس به وقالوا: لو كان هذا من أولياء الله تعالى، لاستجاب الله تعالى دعاءه**، بأنه قد يكون من الرجال الكُمَّل الذين يسألون الله تعالى أن لا يستجيب لهم دعاء في حقِّ عدو حال غضبهم عليه، أو لا يستجيب لهم دعاء لأحد في تحصيل شيء من أمور الدنيا الزائدة عن الضرورة، وأجاب الله تعالى سؤالهم. وما رَدَّ الله تعالى هذا الوليِّ لهوانه عليه، وإنما ذلك إجابة لسؤاله رحمةً بعدوه، وشفقةً على إخوانه من الغفلة عن الله تعالى إذا وسَّع عليهم من الدنيا.

وقد مكث شخص على باب سيدي أحمد بن الرفاعي ثلاثة أيام يطلب منه أن يدعو له دعوة واحدة، فلم يجبه سيدي أحمد إلى ذلك وقال: الرجل المتمكن في الطريق إذا قُضِيت له بسؤاله حاجة في الدنيا، نقص تمكنه درجة، ولا أحب أن أنقص درجة وأبعد عن حضرة ربي لأجل تحصيل شهوة لشخص تحجبه عن حضرة ربِّه عزَّ وجلَّ.

وقد كان لداود عليه الصلاة والسلام جبار يؤذيه، فكان داود عليه الصلاة والسلام كلما دعا عليه لا يجد[١] إجابة، فقال: «يا رب، كم أدعوك فلا تستجيب لي؟! فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: إنما أبطيء عليك بإجابة دعائك في حقِّ هذا الجبار، لأعاملك بمثل ذلك إذا ظلمت أحدًا ودعا عليك، فإن طلبت سرعة الإجابة لدعائك في حق عدوك، فلا تستغرب سرعة إجابة دعاء عدوك في حقِّك»[٢]. انتهىٰ.

وفي رواية أخرىٰ: أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داود: «إنما لم أجب دعاءك علىٰ خصمك بسرعة لأعلمك الحلم، ولتتخلق بأخلاقي، فإني أحلم علىٰ من عصاني ولا أعاجله بالعقوبة، مع أنه يأكل رزقي ويعبد غيري». انتهىٰ.

ويؤيد ذلك ما ورد أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام شكا إلىٰ ربه من جفاء بني إسرائيل، [فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا موسىٰ فقال له: اصبر علىٰ جفاء بني إسرائيل][٣] كما صبرتُ أنا علىٰ من يأكل رزقي، ويعبد غيري»[٤]. ولما دعا موسىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ قارون، وأخذته الأرض إلىٰ عنقه، وصار يقول: يا موسىٰ يا موسىٰ، يستغيث به فلم يغثه، أوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا موسىٰ، كيف استغاث بك قارون فلم تغثه؟ وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته[٥]. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وعظِّم الشيخ الذي لا يستجيب الله تعالىٰ دعاءه علىٰ الشيخ الذي أجاب الله تعالىٰ دعاءه بطريقه الشرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٣٤٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا أخرج كتب العلم التي شرط واقفها أن لا تخرج من مكانها إلا لترميم أو غيره من الضرورات، ولاث به بعض المجادلين

---

(١) بالأصلين: يرجو.

(٢) لم أقف عليه

(٣) ساقط من الأصل، مستكمل من «الأخلاق المتبولية» للمصنف.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٤/ ٥٤٥). وانظر: «تفسير الطبري» ط هجر (١٨/ ٣٣٥).

وقالوا: شرط الواقف كنص الشارع لا يجوز لأحد مخالفته. وقد اختصر الإمام النووي «الروضة» كلَّها من نسخة الرافعي في خلوة كتب الوقف ولم يخرجها، ولكن ذهب العلماء العاملون في هذا الزمان، بأن هذا العالم قد يكون له عذر في إخراجها من مكانها، كأن لم يجدها في غيرها من المدارس، وشق عليه الرواح والمجيء حال مطالعتها، لاسيما من كان يؤلف ويشرح كتب الحديث والفقه ويفسر القرآن.

وقد استفتي الشيخ جلال الدين السيوطي خاتمة الحفاظ بمصر رحمه الله عن جواز نقل الكتب التي شرط واقفها أنها لا تخرج من مكانها، فأجاب: الذي أقول به الجواز. وقد رأيتُ شيخاي شيخ الإسلام يحيىٰ المناوي[1] وشيخ الإسلام علم الدين البُلقيني[2] يستعيران الكتب من المدرسة المحمودية[3]، ويمكث الكتاب عندهما سنين عديدة، وهما الإمامان المقتدىٰ بهما، فإنهما كان من الفقه بالمحل الأعلىٰ، حتىٰ بلغا رتبة الاجتهاد في ترجيح المذهب. وكان المناوي من الصوفية، وله أحوال وكرامات، فلولا أنهما كانا يريان ذلك جائزًا [ما فعلاه][4].

قال: وفي قواعد الشريعة أنه يجوز أن يستنبط من النص معنىٰ يخصصه، فإذا كان هذا في نص الشارع، ففي نص الواقف أولىٰ، فيُقال هنا: إن مقصود الواقف بشرطه إنما هو تمام النفع وتمام الحفظ، فإذا وُجِدَ من يحتاج إلىٰ الانتفاع بكتاب منها حال تأليفه

---

(١) شرف الدين يحيىٰ بن محمد بن محمد بن محمد، ولد سنة: ٧٩٨هـ ولازم الشيخ ولي الدين العراقي، وتخرج به في الفقه والأصول وتصدىٰ للإقراء والإفتاء، وولي تدريس الشافعي وقضاء الديار المصري، وله تصانيف، منها: «شرح مختصر المزني». توفي: ٨٧١هـ. وهو آخر علماء الشافعية ومحققيهم. «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٣٥٣)، «الأعلام» (٨/ ١٦٧).

(٢) البُلقيني علم الدين صالح بن شيخ الإسلام سراج الدين، حامل لواء مذهب الشافعي في عصره، ولد سنة ٧٩١هـ وأخذ الفقه عن والده وأخيه، والنحو عن الشطنوفي، والأصول عن العز ابن جماعة. وحضر عند الحافظ أبي الفضل العراقي في الإملاء. ت ٨٦٨هـ. «حسن المحاضرة» (١/ ٤٤٤)، «النجوم الزاهرة» (١٦/ ٣٣٣).

(٣) تعرف الآن بمسجد الكردي بمنطقة الدرب الأحمر بالقاهرة.

(٤) ساقط من «ب».

لكتب العلم ولا يمكنه الانقطاع لأجل ذلك في مكان الوقف، ووثقنا بدوام حفظه له وصونه، جاز الإخراج له، وكان ذلك مستثنىٰ من المنع، وتخصيص لعموم لفظ الواقف بهذا المعنىٰ المستنبط، كما خصصوا قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] بغير المحارم، واستثنوها بالمعنىٰ المستنبط وهو الشهوة، مع أنه لا دليل علىٰ استثناء المحارم من آية أو حديث سوىٰ هذا الاستنباط، فكذلك القول هنا.

قال: وقد ذكر الحافظ عماد الدين ابن كثير[١] في تاريخه أن علماء بغداد منعوا الفقهاء في بعض السنين من إقراء الأطفال في المساجد إلا شخصًا واحدًا كان موصوفًا بالصلاح والخير، فاستثنوه من المنع، وأنهم استفتوا الماوردي[٢] من أئمة الشافعية، والقدروي[٣] من أئمة الحنفية وغيرهما، فأفتوا باستثنائه، واستدلوا بأنه ﷺ أمر بسدِّ كلِّ خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر الصديق ﷺ، فقاسوا استثناء هذا الرجل علىٰ استثناء خوخة أبي بكر الصديق ﷺ. قال: وهو استنباط حسن دقيق لا يدركه إلا أكابر العلماء.

قال الجلال السيوطيُّ ﷺ: وقد استندتُ إلىٰ قولهم حين استفتيتُ قديمًا عن أبنية القرافة، فأفتيتُ بهدمها كلِّها كما هو المنقول إلا مشاهد الصالحين، قياسًا علىٰ ما أفتىٰ به الماوردي والقدوري. لكن في مسألة إخراج الكتب أمران ينبغي التفطن لهما: أحدهما:

---

(١) عماد الدّين إسماعيل بن عمر بن كثير، الفقيه الشافعي. ولد سنة: ٧٠٠هـ وقدم دمشق وله سبع سنين. وحفظ «التّنبيه» و «مختصر ابن الحاجب» وتفقه بالبرهان الفزاري، والكمال بن قاضي شهبة، ثم صاهر المزّي.من مؤلفاته: «البداية والنهاية» و«التفسير» و«جامع المسانيد العشرة» ت ٧٧٤هـ. «شذرات الذهب» (٨/ ٣٩٧)، «هدية العارفين» (١/ ٢١٥).

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي، الشافعي، الإمام العلامة له مصنفات منها: «الحاوي» و«الإقناع» و«أدب الدين والدنيا» مات في ربيع الأول سنة ٤٥٠هـ وقد بلغ ستًا وثمانين سنة. «السير» (١٨/ ٦٤) و«الوافي بالوفيات» (٢١/ ٢٩٧).

(٣) أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان البغدادي القدوري. قال الخطيب: كتبت عنه، وكان صدوقًا، انتهت إليه بالعراق رئاسة الحنفية. من مصنفاته: «مختصر القدوري» و«التجريد» توفي: في رجب ٤٢٨هـ وله ٦٦ سنة. «السير» (١٧/ ٥٧٤)، «الأعلام» (١/ ٢١٢).

أنه لا يُستعار من هذه الخزانة إلا ما لا يتيسر وجوده في غيرها مما ليس فيه شرط يمنع الخروج. الثاني: أن لا يمكث الكتاب عند المستعير إلا بقدر الحاجة فقط. ومدرك هذين الأمرين أن ما جاز للضرورة يتقدر بقدرها. انتهىٰ. فإياك والإنكار علىٰ العلماء بالجهل، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٠) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا قال للمجاورين: اخرجوا من عندي، فقد أتعبتموني بكلفتكم؛ فلاث به الفقراء وقالوا: إن رزقنا علىٰ الله تعالىٰ لا علىٰ هذا الشيخ، وكيف يدعي هذا الشيخ مقام الإيمان بأن الله تعالىٰ هو الرازق، ويكره هو إقامة الفقراء في بيت الله عزَّ وجلَّ؟! ومثل هذا ما كان يصلح أن يعمل شيخًا! ونحو ذلك من الكلام الذي لا ينبغي في حقِّ الشيخ، بأنه ربما قصد بقوله: «اخرجوا عنىٰ» تنشيط همتهم والاشتغال بالقرآن والعلم دون الكسل والنوم، لا لأجل رؤية نفسه أن بيده رزقهم، فإن أدنىٰ المسلم درجة لا يدعي ذلك، والذي يعتقدونه في مشايخ الطريق الآن في مصر أنه لو كان أهل مصر كلهم عائلة أحدهم لم يحمل همًّا، لأن أحدهم يعلم أن الله تعالىٰ ما قيَّد عبدًا في مكان إلا ويسوق إليه رزقه فيه، أو يخرجه هو إليه ليأتي، فإن رزق العبد علىٰ قسمين: قسم قسمه الله تعالىٰ له بلا سعي، فهذا لا يحتاج إلىٰ سعي؛ وقسم أوقف الله تعالىٰ الوصول إليه علىٰ السعي، فلابد فيه من السعي، فلا يُقال: السعي أفضل مطلقًا، ولا التوكل أفضل مطلقًا من غير سعي، فافهم.

علىٰ أن التوكل عند المحققين لا ينافي السعي أيضًا، فيسعىٰ وهو متوكل علىٰ الله لا علىٰ المخلوقين. وفي كلام سيدي عليٍّ الخواص ﷺ: المرزوق في طلب رزقه حائر، والرزق في طلب صاحبه دائر، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥١) ومما أجبتُ به عن الثقلاء الذي يحصل لمن جلسوا عنده ثقل منهم، ويقع الناس في غيبتهم إذا قاموا وولوا ظهورهم، بأن الثقيل لا يحس بنفسه أنه ثقيل، ولا يُؤاخَذ العبد إلا بما شعر به، فلا يجوز غيبتهم بذلك، ولا ينفع فيهم وعظ ولا تربية في الغالب. وقد قال العلماء: إذا ضربتم أولادكم وحصل لهم إدمان علىٰ ضربكم، وصار لا يؤثر

فيهم تأديبًا، فكلوا أمرهم إلىٰ الله تعالىٰ وادعوا لهم.

وقد يكون حصول الثقل من مجالسة ذلك الثقيل إنما هو لعدم مداهنته في الدين لجليسه، فليتنبه الفقير لمثل ذلك ويناقش نفسه. ومن لم يظهر له من نفسه شيء من الأعذار، فليصبر علىٰ الثقيل حتىٰ يقوم، فإن الله تعالىٰ مع الصابرين.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يباسط الثقيل ويقول له: إنا نحبكم كثيرًا، فلا تقطعونا من المجالسة. فقيل له في ذلك، فقال: إنما أفعل ذلك بقصد التحمل عن أصحابي، فإنه لا بد له من جليس، فأنا أحمل عنهم ثقل تلك المجالسة. وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول إذا جلس إليه ثقيل سوء: اللهم اغفر لنا وله، وأرحنا منه[1]. رواه الجلال السيوطي رحمه الله.

وكان حماد بن سليمان يقول: من رأىٰ نفسه ثقيلًا كان خفيفًا، ومن رأىٰ نفسه خفيفًا كان ثقيلًا. وكان حماد بن سلمة إذا رأىٰ ثقيلًا قال: ﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان: ١٢]. وكان الزهري يقول: إذا طال جلوس الثقيل عندكم فاصبروا، فإن ذلك كالرباط في سبيل الله. ومزح الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه [مع الأعمش مرة، فقال له][2]: مم عمشت عيناك؟ فقال: من النظر إلىٰ الثقلاء وأنت منهم! فضحك الإمام أبو حنيفة من ذلك. ودخل الإمام عليه مرةً، فأطال الجلوس، فقال: لعلي أثقلتُ عليكم. فقال: أنا أحس بثقلك وأنت في بيتك بعيدًا عني، فكيف لا أحس بثقلك وأنت في بيتي؟!

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والغيبة في الثقيل إذا قاربك، فإنها غيبة بغير حقٍّ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٢) ومما أجبتُ به عن بعض المتورعين الذين يتورع أحدهم إذا ركب دابة بأجرة أو عارية أن يأكل أو يشرب زيادة علىٰ ما كان في بطنه قبل الركوب، ولاث به بعض المجادلين وقال: هذا من التنطع في الدين، بأنه لا يكون من التنطع في الدين إلا إذا أمر

---

(١) أخرجه الدولابي في الكنىٰ (١١٠٠) وابن الأعرابي في المعجم(١٧٨٦).

(٢) ساقط من «ب».

الناس به، أو شقَّ ذلك عليه. وأما إذا سهل عليه فلا حرج، كما كان عليه السلف الصالح، فقد كان أحدهم إذا وقع سوطه من يده خارجًا عن الطريق، يبرك الدابة ويمشي يأخذ سوطه، ويقول: إني استأجرتها لتذهب بي هكذا لا هكذا.

وكان سيدي عبد العزيز الديريني يضرب الدابة بكمه إذا حَرَنت(١) مثلاً، ويقول: إن عبد العزيز لا يحتمل أكثر من الضرب بالكمِّ إذا وقع القصاص لهذه الحمارة مني يوم القيامة. فاعلم ذلك ولا تنكر إلا ما لا تقبله الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٣) ومما أجبتُ به عمَّن كان مشهورًا في بلده بالصلاح وإرشاد المريدين، فاختفىٰ أمره وترك إرشاد الناس، فلاث الناس به وقالوا: إن الذي كان فيه أكمل بلا شك، ولكنه سُلِبَ الصلاح بيقين، بأنه قد يكون ما هو فيه الآن أكمل من حيثُ اشتغالُه بمراقبة الله تعالىٰ وحده، وثم مقام كامل ومقام أكمل، فإرشاد الناس وإن كان خيرًا، فالاشتغال بالله وحده أكمل، لما يطرق الداعي إلىٰ خير من الغفلة عن الله تعالىٰ في بعض الأوقات، ونصب المكائد للخلق، ولا يكاد صاحب هذا الحال يشهد أنه بين يدي الله تعالىٰ إلا في النادر، وفي الحديث: «لي وقت لا يسعني فيه [غير] ربي»(٢). انتهىٰ.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإياكم أن تزدروا فقيرًا اختفىٰ بعد الشهرة، ونفر منه الناس والتلامذة، فإنه قد مشىٰ علىٰ قواعد الصادقين من أهل الطريق، فإنهم قالوا: علامة الفقير الصادق أن يخفىٰ بعد الشهرة، ويذل بعد العز. ومن أدركناه علىٰ هذا القدم الشيخ

---

(١) حَرَنَتِ الدابة: امتنعت عن السير.

(٢) قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٩٢٦): حديث: «لي مع الله وقت لا يسع فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»، يذكره المتصوفة كثيرًا، وهو في رسالة القشيري لكن بلفظ: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي» ، ويشبه أن يكون معنىٰ ما للترمذي في «الشمائل» ولابن راهويه في «مسنده» عن علي في حديث طويل: «كان ﷺ إذا أتىٰ منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله تعالىٰ، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس».

محمد السروي[١]، والشيخ شهاب الدين الوفائي، والسيد العجلوني[٢] بناحية برصا من الروم، رضي الله عنهم أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسافر من نحو مصر إلىٰ الروم[٣] في طلب مرتب أو مسموح أو نحو ذلك، ويلوث الناس به ويقولون: حاشا أن يكون مثل هذا من أولياء الله عزَّ وجلَّ، بأنه قد يكون ممن كُشِفَ له عن ذلك الرزق في الروم، وأنه متوقف علىٰ سفره إليه، فسافر إليه، والكشف من أقل درجات المريدين الصادقين، فكيف بالأشياخ؟! ومن قال: إن الأشياخ الكبار لا كشف لهم، فإنما مراده أنه لا كشف لهم في الاطلاع علىٰ عورات الناس. وأما الكشف الذي يطلعهم علىٰ محاسن الخلق وعلىٰ ما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم، فلا منع منه، فافهم.

وبأنه قد يقصد بسفره في طلب الرزق موافقة إخوانه الذين يسافرون في طلب الرزق، حتىٰ لا يتميز عنهم، حين خاف علىٰ نفسه من فتنة التميز، ومن إقبال الأكابر والأمراء عليه، واشتغاله بهم دون الله تعالىٰ، وقول الناس: فلان زاهد في الدنيا لا يسعىٰ عليها كغيره، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يفضح الناس ويوبخهم بين الناس، ولاث به الناس وقالوا: هذه قلة سياسة منه، وكان الأولىٰ أن يذكر ذلك لإخوانه فيما بينه وبينهم،

---

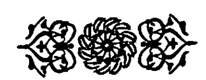
(١) الشيخ محمد السروي المشهور بأبي الحمائل أحد الرجال المشهورة في الهمة والعبادة، وكان يغلب عليه الحال فيتكلم بالألسن العبرانيه، والسريانية، والعجمية، وكان إذا قال قولا ينفذه الله له. ووقائعه مشهورة بين أصحابه ﷺ ومات ٩٣٢هـ رحمة الله عليه بمصر وصلىٰ عليه بالجامع الأزهر ﷺ. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١١٠)، الكواكب السائرة (١/ ٢٩).

(٢) محمد بن إسماعيل بن محمدشمس الدين العجلوني الشافعي قاضي عجلون. كان من الفضلاء المتمكنين، ذو يد طولىٰ في القراءات والفقه، ومشاركة حسنة في الحديث، والأصول والنحو. ت ٩٥٥هـ ودفن بباب الصغير بمقبرة أهله. «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٤١) «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٧).

(٣) المقصود بها بلاد تركيا الآن، وإستانبول تحديدًا.

لأن من نصح أخاه جهرًا، فقد فضحه وشانه، ونحو ذلك، بأنه قد يكون هذا الشيخ علم ثبات قلب ذلك المنصوح وعدم مراعاته الخلق، ورآهم عنده كالجماد، أو يكون يعلم أن النصح لا يؤثر فيه إذا نصحه سرًّا، فنصحه في الملأ، ليقبح في عينه ذلك الأمر الذي نُصح من أجله، إذ الغالب على الناس مراعاة الناس عادةً دون الله تعالىٰ، فيمتنع أحدهم من المعصية بحضرة الناس، ويجاهر ربَّه بها، فإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا نزل به ضيف، فلم يأته بفرش ولا غطاء ولا أكل ولا شرب، ولاث الناس به، بأنه قد يكون إنما ترك إكرامه لعدم وجود ذلك من وجه حلال، أو وجد ذلك، ولكن خاف عليه من ترك قيامه تلك الليلة للتهجد لو أطعمه وسقاه، وغطاه وفرش له طَرَّاحة، ففعل معه ما هو الأصلح بحسب اجتهاده. اللهم إلا أن يحصل للضيف بترك الأكل والدفا مرض مثلًا، فلنا اللوث بذلك الشيخ. وأما مع عدم حصول ذلك، فلا ينبغي اللوث به، والحمد لله رب العالمين.



الباب السادس

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٣٥٧) ومما أجبتُ [به] عن العالم الكبير إذا كبَّر عمامته جدًّا، وجعل عليها طيلسانًا، وركب الخيول المسوَّمة، والثياب الفاخرة ونحو ذلك، ولاث الناس به وقالوا: أيش خلَّىٰ هذا لأبناء الدنيا والظلمة من الدنيا؟! بأنه قد يكون له نية صالحة في ذلك كأن يتميز عن العامة ليصير الناس يسألونه عن أمر دينهم، كما جلس النبي ﷺ فوق مصطبة عالية دون أصحابه ليسأله الناس عن أمور دينهم[١]، وكذلك ثبت عنه أنه طاف على الناقة ليراه الناس، فيسألوه عن أمور دينهم ومناسكهم[٢].

وقد لبس الإمام الشافعي حلة بألف دينار، وكذلك كان محمد بن الحسن يلبس ويقول: هذا شيء يسر الصديق ويكمد العدو.

وأما تقشف بعض العلماء الماضين كالقاضي بكار[٣]، والشيخ عز الدين بن عبد السلام[٤]،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٦٩٨) عن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهري أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتىٰ يسأل، فطلبنا إلىٰ رسول الله ﷺ أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه، قال: فبنينا له دكانا من طين، فجلس عليه، وكنا نجلس بجنبتيه. قلت: والدكان: الدكة البنية للجلوس عليها. النهاية (٢/ ١٢٨).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (١٢٧٣) من حديث جابر بن عبد الله يقول: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع علىٰ راحلته بالبيت، وبالصفا والمروة، ليراه الناس، وليشرف وليسألوه، فإن الناس غشوه» وأبو داود (١٢٧٣) والنسائي (٣٩٥٥) وغيرهما.

(٣) القاضي بكار بن قتيبة بن أسد بن عبيد الله الثقفي، العلامة المحدث الفقيه الحنفي، كان من القضاة العادلين ولد سنة ١٨٢ هـ، كان بكّار بكّاءً تاليًا للقرآن، صالحًا دينًا، وقبره مشهور، وقد عُرِف باستجابة الدّعاء عنده، ت ٢٧٠هـ. «وفيات الأعيان» (١/ ٢٧٩)، «تاريخ الإسلام» (٦/ ٣٠٣).

(٤) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم أبو محمد عز الدين السلمي الدمشقي الشافعي، حدث

فذلك لأنهم كانوا مشهورين بالصلاح، ويعرفهم الخاص والعام، فاستغنوا بتعظيمهم بالزهد والصلاح عن حسن الملابس، فكان القاضي بكار له رداء علىٰ بدنه ولبدة علىٰ رأسه، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام له فروة يلبسها في الشتاء من جهة الصوف، ويلبسها في الصيف من جهة موضع السلخ. ولما غضب من السلطان صلاح الدين بن قلاوون حمل أمتعة بيته كلَّها علىٰ حمارته، وأركب زوجته فوق ذلك، فأدركه السلطان بناحية قطية[1]، فصالحه ورده، وقالوا للسلطان: إن خرج هذا الشيخ من بلادك خربت، رضي الله عنه.

وبالجملة فللجمال أقوام، وللجلال أقوام، فإياك والاعتراض علىٰ أهل فريق منهم، وتأمره أن يلبس خلاف لبسته، فإن ذلك من الجهل، فإن كلاهما مباح، بل ربما تكون الملابس الحسنة مستحبة من باب شكر النعمة أو واجبة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٨) ومما أجبتُ به عن الواعظ إذا بالغ في الحطِّ علىٰ الناس من علماء وفقراء وغيرهم، ولاث به الناس وقالوا: هذا من شدَّة سوء ظنه بالناس ونسيان نفسه، ولو أنه نظر إلىٰ عيوب نفسه لاشتغل بها عن الناس، بأنه لا يلزم من توبيخه لعموم الناس اعتقاده أنهم متلطخون بما ينهاهم عنه، فقد يكون ذلك علىٰ سبيل الفرض والتقدير، كأنه يحذرهم من الشيء قبل وقوعه.

كما لا يلزم من تصدره للوعظ أن ينسىٰ نفسه وعيوبه، بل رأيتُ بعضهم يجعل الوعظ كلَّه لنفسه، ويخاطب بقوله: «يا هذا» نفسه دون غيره، فلا يلزم من وعظ الناس رؤية الواعظ نفسه عليهم، ولا غناه عمَّا يعظ الناس به. وقد كان الحسن البصري ﷺ يقول: لولا حديث بلغني عن رسول الله ﷺ من قوله: «سيأتي علىٰ الناس زمان يكون

ودرس في عدة مدارس بالشام والديار المصرية، وتفقه علىٰ فخر الدين ابن عساكر وبرع في الفقه والأصول، وصنف وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب. له مصنفات منها: «قواعد الأحكام في إصلاح الأنام» و«بداية السول في تفضيل الرسول» توفي: ٦٦٠هـ. «العبر في خبر من غبر» (٥/ ٢٦٠) و«ذيل مرآة الزمان» (٢/ ١٧٢).

(١) قطية: قرية كانت تقع في شبه جزيرة سيناء في الطريق بين مصر والشام. وقد اندثرت الآن.

واعظ القوم فيه أرذلهم»[1] ما وعظتكم.

فحسِّن يا أخي ظنَّك بالعلماء والخطباء، وخذ كلامهم في حقِّ نفسك، ولا تنظر في عيوب واعظك، كما درج عليه السلف الصالح، والحمد لله رب العالمين.

(٣٥٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا أمر مريده بإعادة صلاة صلاها وفي باطنه غلٌّ أو حقد، أو مكر أو حسد، أو عجب أو كبر، أو محبة للدنيا بحيثُ يرجِّح الذهب علىٰ التراب، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا أمر لم يتعرض له رسول الله ﷺ، ولم يأمر أصحابه بإعادة صلاة من أجله أبدًا، فهو من التنطع في الدين.

والجواب: أنه يُحتَمل أن يكون هذا الشيخ ممن غلب عليه شهود تلك الذنوب الكبائر، وصار يشهدها كما يشهد النجاسة الظاهرة علىٰ حدٍّ سواء، فأمر مريده بإعادة تلك الصلاة من باب الندب لا من باب الوجوب، أو أدَّىٰ اجتهادُه إلىٰ إعادتها وجوبًا، فإن في القوم مجتهدين في أمور الباطن، كما هو الأمر في أمور الظاهر، ولكلٍّ مقام رجال، فإن الكُمَّل يرون باطنهم بين يدي ربهم كظاهرهم علىٰ حد سواء، عملًا بحديث مسلم وغيره: «إن الله تعالىٰ لا ينظر إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم»[2]. انتهىٰ. فكانت القلوب أولىٰ بالتطهير، لكون الحقِّ تعالىٰ جعلها محل نظره، وإن كان نظره تعالىٰ لا يتحيز.

وأيضًا فإنهم يقولون في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]: إنها محكَّمة في حقِّ الأكابر لا منسوخة. فإياك والإنكار علىٰ الأشياخ من غير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال لتلامذته: من فعل كذا وكذا، حفظ الله عليه الإيمان؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه، وقد رُفعَت الأقلام وجفت الصحف، وقال: إنه لم يثبت

---

(١) لم أقف عليه.أوقد ذكره الشعراني في لطائف المنن ص٦٩٢.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجه (٤١٤٣) وابن حبان (٣٩٤).

عن النبي ﷺ شيء من ذلك.

والجواب: أن هذا ربما يكون من الأمور المعلَّقة علىٰ فعل شيء، فيفعلها العبد تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ، ليدفع عنه السوء، فإن الله عزَّ وجلَّ يحب العبد المتملق بين يديه بصدق.

وقد حكىٰ الشيخ عبد الغفار القوصي عن بعض الأولياء أنه اجتمع بالخضر عليه الصلاة والسلام، فقال: يا نبي الله، أنا خائف من سلبي الإيمان قبل الموت. فقال له الخضر عليه الصلاة السلام: قد سألتُ محمدًا ﷺ عمَّا يحفظ الله تعالىٰ به علىٰ العبد الإيمان، فقال:يقرأ بعد صلاة الصبح كلَّ يوم آية الكرسي و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ إلىٰ آخر السورة، وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [آل عمران: ٢٦] إلىٰ قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٧]، فمن واظب علىٰ ذلك، أمنه الله من سلب الإيمان حتىٰ يلقي ربه. انتهىٰ. وفي هذه القصة صحة اجتماع الخضر بمحمد ﷺ، خلاف ما عليه بعضهم.

وذكر صاحب «بستان العارفين» بسنده إلىٰ عبد الله بن عمر ﵄ أنه قال: «قلتُ: يا رسول الله، علمني شيئًا يحفظ الله به عليَّ الإيمان حتىٰ ألقىٰ ربي عزَّ وجلَّ، فقال: صلِّ كلَّ ليلة ركعتين بعد المغرب، تقرأ في كلِّ ركعة منها سورة «القدر» مرة وسورة «الإخلاص» ست مرات و«المعوذتين» كل واحدة مرة، فإن الله تعالىٰ يحفظ عليك الإيمان حتىٰ توافي القيامة»[1]. انتهىٰ.

فكما أن للإنسان العمل بمثل هذين الأمرين الواردين عن الخضر عليه الصلاة والسلام وعن ابن عمر، فكذلك للتلامذة العمل بما يقوله لهم شيخهم وإن لم يعرفوا مستنده، حملًا علىٰ أنه رأىٰ في ذلك شيئًا عن رسول الله ﷺ. ومن كان عنده توقف في قول أحد من مشايخ الزمان في ذلك، فليعمل بما رُوي عن الخضر وابن عمر.

وقد جوَّز المحدثون العمل بالحديث الضعيف بثلاثة شروط: أن لا يكون ضعيفًا بمرة؛ وأن يكون له أصل يرجع إليه؛ وأن لا يعتقد الفاعل وجوب العمل به عليه أو علىٰ

---

(١) لم أقف عليه. وكذلك لم أجده في «بستان العارفين» للإمام النووي.

الأمة. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا عمل مولدًا أو عرسًا واسع الطعام، وساعده في ذلك بعض الولاة والعمال، فلاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: ما حصل من الإثم في عمل هذا الطعام يرجح علىٰ ما حصل فيه من الأجر من جهة أكل الناس الحرام والشبهات، وتضييع الطباخين وخدام هذا الشيخ في تلك الليلة الصلاة مطلقًا أو في جماعة أو خروجها عن وقتها كما هو الغالب، فلو أن هذا الشيخ ترك عمل ذلك لكان أولىٰ، لأنه لو وزن أجر ذلك الطعام وثواب المنشدين والمدَّاحين لا يجيء لإثم خروج الصلاة عن وقتها تلك الليلة، بأن الشيخ قد يكون ممن غلَّب التسليم، فلم يعارض ما جاء به الولاة من مواد ذلك الطبيخ، أو يكون ممن لا يعتقد في أموالهم الحرمة، ووكل ذلك إلىٰ الآكلين من ذلك الطعام، وبأننا لم نره يأمر أحدًا بالأكل من ذلك الطعام، فكان كالأجنبي في عمله، وكأن جماعة اجتمعوا وتساعدوا في عمله لأجل أصحابهم وأهل حارتهم أو بلدهم، فلم يكن للشيخ مدخل فيه سوىٰ الاسم، وكأنهم قالوا له: دستور نجتمع ونعمل طعامًا للناس، ونشيع أن ذلك من عندك. فقال لهم: افعلوا؛ فليس عليه إثم في ذلك. وأما من أخرج الصلاة عن وقتها، فليس علىٰ الشيخ من ذلك اعتراض، إنما الاعتراض علىٰ تارك الصلاة.

ومما يقع لي بحمد الله أني ما عُمِلَ عندي عرس أو ختان أو عقيقة وحضرتهم في شيء من ذلك، ولا دعوتُ أحدًا إلىٰ الحضور، فيُحتمَل أن غيري من الفقراء كذلك. وليس اللوم إلا علىٰ من يطلب عمل ذلك، ويسأل الولاة في المساعدة في طعامه بنفسه أو بوكيله بالحال أو بالقال.

فاحفظ لسانك أن تقفو ما ليس لك به علم، فتدخل إلىٰ بيوت العلماء فتأكل طعامهم وتقرض في أعراضهم وفي نظامهم في ذلك العرس والطعام، فيخسره منك، بل الواجب عليك إذا أكلت من طعام عمله شخص أو عمل في بيته أن تمدحه وتشكر فضله، وترد عنه غيبة من يستغيبه إن كنتَ ولدَ حلال، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا قال: يا شقاوة من حُرِم دخول الجنة؛ فلاث به بعض المتمشيخين وقال: هذا دليل من هذا الشيخ أنه لم يبلغ مقام الرجال، ولو بلغه لكان راضيًا عن الله تعالىٰ، ولو أدخله النار وأحبط جميع أعماله الصالحة، بأنه يجب حمله علىٰ أنه ما قال مثل ذلك لشهوات مطاعم الجنة ومناكحها مثلًا، وإنما أراد به شقاوة عدم مجالسة الله عزَّ وجلَّ في الجنة لا غير، فإن من لا يدخلها لا يرىٰ ربَّه ولا يجالسه.

وقد أجمع أهل الله عزَّ وجلَّ قاطبة أن حزن الوليِّ علىٰ فوات حظِّه من رؤية الحقِّ تعالىٰ لا ينقص مقامه، بل يعلو مقامه بذلك، فلو كان لهذا المعترض ذوق لأحوال القوم، لكان حمل كلام هذا الشيخ علىٰ محمل حسن، فإن الناس في العبودية المصطلح عليها بين القوم ثلاثة أقسام: عبودية للدنيا وذلك للعوام؛ وعبودية للجنة وذلك للمريدين؛ وعبودية لله وذلك للعارفين، فيقال: عبد الدنيا، عبد الجنة، عبد الله. **وكلُّ عبد يحمل حال غيره علىٰ حاله لا يتعداه إلا تفعلًا لا ذوقًا**، فاحمل يا أخي غيرك علىٰ ما فوق حالك ولو تفعلًا، فإنه خير لك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا حزن علىٰ فراق جماعته له، ولاث بعض الفقراء به بسبب ذلك، وقالوا: لو كان كاملًا لم يحزن علىٰ فراق صاحب، لأنه مع الله لا مع الخلق، وكلُّ من جاء يجيء، وكل من راح يروح، بأنه لا ينبغي المباردة إلىٰ الاعتراض عليه إلا بعد معرفة الباعث علىٰ ذلك الحزن، فقد يكون حزنه علىٰ من فارقه إنما هو من جملة تعطيله عن فعل الخير الذي كان يحصل له علىٰ يديه، دون فوات مشيخته عليه.

وقد يكون لذلك المريد الذي فارق الشيخ حقٌّ علىٰ الشيخ من جهة الدنيا، فكان الشيخ يكافئه عليه بإرشاده له في طريق الآخرة، فإنه بمثابة الدين الظاهر علىٰ حدٍّ سواء، فحزن ذلك الشيخ الذي لم يوفيه حقَّه المذكور في الدنيا، وخاف من مطالبته به في الآخرة في يوم لا يتحصل من أعمال العبد التي هي في عينه كالجبال مقدار أوقية من أجر، لكثرة

دخول الآفات فيها. وقد استعاذ رسول الله ﷺ من همِّ الدين[1]، فعُلِمَ أنه لا يجوز لأحد حمل الشيخ الذي أظهر الحزن علىٰ فراق إخوانه له علىٰ الأغراض النفسانية أبدًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا مكَّن إخوانه من تقبيل يده أو رجله، ومن مشيهم بين يديه مثلًا إذا ركب في شوارع بلده، ولاث الناس به وقالوا: هذا يحبُّ المشيخة علىٰ إخوانه، ولولا ذلك لم يمكن أحدًا منهم يقبِّل يدَه ولا يمشي بين يديه، لأن في ذلك إذلالًا لإخوانه وعزَّة نفس له، بأنه قد يكون ممن غلبت عليه السذاجة والحضور مع الله تعالىٰ إذا ركب، فلم يخطر علىٰ باله ما يفعله إخوانه به، وما كلُّ فقير يبلغ مرتبة الكمال، فيراعي شيئين معًا في آن واحد.

وقد قلتُ مرةً للشيخ أبي الحسن البكري: إن جماعتك أنزلوا شخصًا مسلمًا عن دابته لما لقيك تجاه الورَّاقين، وقالوا له: انزل أدبًا مع الشيخ. فقال: والله إنه ليس لي علم بذلك، فإني آخذ في الجمعية أول ما أركب، فلا يصير بي ذهن لأحد من الخلق. فصدَّقتُه علىٰ ذلك.

فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، ولا تنازعهم في نياتهم ومقاصدهم، فإنك لم تكلف بمثل ذلك، وهو من باب التجسس الذي نهىٰ الله تعالىٰ عنه، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناه يقوم لبعض العصاة ويعظِّمهم، ولا يقوم لبعض طلبة العلم والفقراء، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: هذا لم يشم لطريق الشرع رائحة، فإن الفقراء وحملة القرآن أحق بالتعظيم، بأنه قد يكون ممن أعطاه الله تعالىٰ الكشف علىٰ مقامات الناس في حضرة الله عزَّ وجلَّ، فعظَّمهم كما هناك، فلم ينظر إلىٰ ثيابهم ولا إلىٰ مقامهم بين الناس المحجوبين.

---

(١) في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٣٦٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل، والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال» ومسلم (٢٧٠٦).

وقد وقع لسيدي ياقوت العرشي أنه قام لعاصٍ مرةً، وأجلسه بجانبه، ثم إنه دخل عليه شخص من علماء إسكندرية، فلم يلتفت إليه، فلاث به بعض الحاضرين، فقال: نحن لا نعظِّم الناس بحسب مقامهم عند العامة، وإنما نعظِّمهم بحسب مقامهم عند الله عزَّ وجلَّ، وإن هذا العاصي أَذَلُّ نفسًا بين يدي الله عزَّ وجلَّ من ذلك العالم لتكبره ورؤية نفسه علىٰ المسلمين، والله لا يحب المتكبرين. وفي كلام العارفين: المتكبر ينتظر من الله المقت، والمذنب ينتظر من الله العفو. انتهىٰ.

ويُحتمَل أن الشيخ إنما قام للعاصي تمييلًا لخاطره، ليكون ذلك وسيلة إلىٰ قبول نصحه بخلاف العالم، فإنه لا يحتاج إلىٰ مثل ذلك لاستقامته. ويُحتَمل أنه إنما يترك القيام للعلماء لظنِّه فيهم كراهة القيام لهم، فلم يدخل عليهم ما يكدِّر خاطرهم.

وكان سيدي عليٌّ الخواص وسيدي عليٌّ المرصفي رحمهما الله يقولان: إن هذه الدار ليست بمحل[1] الشهرة بالصلاح، وإنما محل ذلك في الدار الآخرة يوم تظهر السرائر. وكانا يعظمان الفقير الخامل الذكر أكثر من الفقير المشهور بالصلاح والكرامات، ويقولان: إن هذا الخامل يخرج من الدنيا ورأس ماله كامل لم ينقص من أجره شيء، وصاحب الشهرة قد بدد أجر أعماله وعلومه شرقًا وغربًا، وخرج من الدنيا مفلسًا من الأجور. انتهىٰ. فاعلم ذلك، فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دعا أحدًا إلىٰ خير، فلم يسمع له، فتشوش منه، ولاث الناس به وقالوا: إن فلانًا يموت علىٰ المشيخة، وما عليه إلا البلاغ، لأنه نائب النبي ﷺ، فلا ينبغي له التكدُّر ممن لم يسمع له لحظ نفسه ونحو ذلك، بأنه يجب حمله علىٰ أنه إنما تكدَّر مصلحة لذلك الشخص الذي لم يسمع له في الخير، ولم يتكدَّر لحظِّ نفسه.

وأنه لو علم منه أنه يجيب إلىٰ ما دعاه إليه بسهولة، لكان دعاه برفق ورحمة، فما أظهر له التكدُّر إلا ليردَّه إلىٰ امتثال أمره في الخير بذلك. ولا يخفىٰ أن كلَّ داعٍ إلىٰ الله

---

(١) بالأصلين: لمحل. والصواب ما أثبتناه.

تعالىٰ لا بد أن يتخلق بالرحمة علىٰ العباد، ويودُّ لهم كلَّ خير في الدنيا والآخرة، حتىٰ إنه من شدة المحبة يودُّ أنهم لو كانوا كلُّهم من أهل الجنة، ولم يدخل النار أحد منهم.

وأصل هذا المقام كان لرسول الله ﷺ، فكان من شدَّة محبته الخير لأمته يودُّ أنهم لو كانوا كلُّهم مؤمنين، فأنزل الله تعالىٰ عليه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، فعلم من ذلك أن حكم القبضتين لا بد منه. ومن هنا قال بعض العارفين: من أدب الكامل أن لا يطلب رفع المعاصي من الأرض جملة أدبًا مع الله تعالىٰ، حيثُ سبق أن يكون الخلق علىٰ هذا الحكم شقي وسعيد. فاعلم ذلك يا أخي، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٧) ومما أجبتُ به عن الشيخين في العلم أو الطريق إذا تنازعا في مريد، وطلب كلُّ واحد منهما أن يجعله مريدًا له دون غيره، فلاث الناس بهما وقالوا: كلٌّ هذا حظ نفس، وإلا فالمريد لمن يريد، بأنه قد يكون لذلك المريد نصيب في الإرشاد عند كلِّ واحد منهما، فصار كلُّ واحدٍ يبادر لإيصال ذلك الخير إليه؛ لأنهما لم يعلما وقت حصول ذلك له علىٰ يديهما في الترجيح.

ولا يجوز حملهما أو أحدهما علىٰ حظِّ النفس، بل الواجب أن يظنَّ بكل منهما خلوصه من حظ نفسه، والمناقشةُ في النية والقصد ليس هي لنا، وإنما هي للشخص نفسه، فعليه تفتيش نفسه في كلِّ عمل عمله، فإن رآها تحبُّ الخير لذلك المريد بكل حال، ولا تفرق بين كون[1] ذلك الخير الذي حصل له علىٰ يدها أو يد غيرها، حكم لها بالإخلاص. وإن رآها ترجح أن يكون ذلك الخير علىٰ يدها دون غيرها، فليحكم عليها بالرياء، إلا أن يحب ذلك لنفسه من حيث كونه معروفًا و«الأقربون أولىٰ بالمعروف»[2]، فما رجح كون الخير علىٰ يديها إلا لكونها أقرب، نظير من بدأ بجاره في الهدية، أو أجاب دعوته، أو قدمه إذا كان بعيدًا عن حارة الأقرب لقرابة ونحوها، فليس المذموم

---

(١) بالأصلين: كل. والصواب ما أثبتناه.

(٢) تقدم تخريجه.

في تنازع الشيخين إلا تنازعهما عليه[1] لحظ نفس، وذلك راجع إلىٰ قصدهما إلا إلينا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: علامةُ صدق الداعي إلىٰ الله خالصًا بلا محبة رئاسة أن يكون ذلك العاصي لو تاب إلىٰ الله من ذات نفسه من غير دعاء أحد له، لكان أحبَّ إليه من توبته بدعائه. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا رأيناه يحبُّ كثرة المجاورين عنده، ولاث به الأقران الذين لا مجاورين عندهم، وقالوا: إنما يفرح بكثرة المجاورين لأنه اتخذهم شبكة يصطاد بها الدنيا، وليتميز بهم علىٰ الأقران، بأنه يجب حمله علىٰ اتباع السنة المحمدية، فإنه ﷺ اتخذ أهل الصفة عنده ولم يأمرهم بالكسب، وكانوا أربعمئة رجل، وكان إذا بعث إليه أحد بصدقة، أرسلها لهم ولم يتناول منها شيئًا. وإذا بعث إليه أحد بهدية، يتناول منها شيئًا جبرًا لخاطر صاحبها، ثم يرسلها لهم.

ثم إن رأينا ذلك الشيخ يشارك الفقراء المقيمين عنده في الصدقة، حملناه علىٰ الفقر والحاجة دون حظ[2] النفس. ويُحتمَل أنه قصد بمجاورة الفقراء عنده أنهم يذكِّرونه بفقرهم وحاجتهم إليه فقره إلىٰ الله تعالىٰ، فكلما نسي افتقاره إلىٰ الله تعالىٰ، ذكَّره هؤلاء، فكانوا نعمة من الله تعالىٰ عليه. ولا يجوز حمله علىٰ أنه جعلهم شبكة يصطاد بها الدنيا كما يقوله الأعداء والحسدة، فاعلم ذلك، وسلِّم للخلق مقاصدهم ونياتهم، ولا تنازعهم فيها، والحمد لله رب العالمين.

(٣٦٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق الذي يسأل الولاة والأغنياء القمح والدراهم والثياب وغيرها للفقراء المقيمين عنده، ولاث الناس به وقالوا: مذهب جمهور السلف الصالح عدم السؤال، وإنما يأخذون ما أتاهم بغير سؤال، مع أن غالب هؤلاء المجاورين المقيمين عنده قادرون علىٰ الكسب، ولا يشتغلون بعلم، فلو أخرجهم لعمل الحرف لكان

---

(١) بالأصلين: عليهما. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: شرط. والصواب ما أثبتناه.

أفضل، وما حبس ﷺ أهل الصفة في المسجد إلا لكونهم كانوا حملة علمه كأبي هريرة وأبي ذر وأبي الدرداء وصهيب[١] وأضرابهم، فحبسهم عنده ليرووا عنه الأحاديث للأمة بعده، لفراغ بالهم إلىٰ ذلك، بخلاف هؤلاء المقيمين عند فلان. ونحو ذلك من الاعتراضات.

والجواب: أنه يجب حمل هذا الشيخ الذي يسأل الدنيا لجماعته علىٰ أنه ما سأل لهم إلا لفقرهم، وعدم وجود حرفة بأيديهم، أو عجزهم عن الكسب، وكما أن أهل الصفة كانوا يروون عن رسول الله ﷺ الأحاديث، فكذلك جماعة هذا الشيخ يروون عنه علمه في الفقه والتصوف، وإن لم يكونوا أهلًا لذلك فهم يقرؤون القرآن ويشتغلون بحفظه. وقد صرح العلماء بأن من اشتغل بحفظ القرآن يُعطىٰ من الزكاة كالمشتغل بالعلم، صرح به الأردبيلي[٢] صاحب كتاب «الأنوار» وغيره.

وكان علىٰ قدم السؤال سيدي الشيخ عثمان الحطاب[٣] أحد أولياء مصر المشهورين، فكان عنده نحو مئة يقرؤون القرآن ويذكرون الله تعالىٰ، وكان يسأل لهم الأمراء في أيام السلطان قايتباي[٤]. وطلع للسلطان يومًا فقال: أعطنا شيئًا من القمح والأرز والعدس. فقال له: يا شيخ عثمان، أيش لك حاجة بهؤلاء الفقراء؟! أخرجهم يروحوا بلادهم!

---

(١) صهيب بن سنان أبو يحيىٰ النمري، ويعرف بالرومي؛ لأنه أقام في الروم مدة. وهو من أهل الجزيرة، سبي من قرية نينوىٰ، من أعمال الموصل. كان من كبار السابقين البدريين. توفي: بالمدينة، في شوال سنة ٣٨هـ وكان ممن اعتزل الفتنة، وأقبل علىٰ شأنه ﷺ. «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٧)، «الأعلام» (٣/ ٢١٠).

(٢) يوسف بن إبراهيم الأردبيلي الشافعي، جمال الدين: فقيه. من أهل (أردبيل) من بلاد (أذربيجان) قال ابن قاضي شهبة: ذكره العثماني في من هو باق إلىٰ سنة ٧٧٥هـ وقال: كبير القدر، غزير العلم، أناف علىٰ السبعين، وهو باق بأردبيل. له كتاب «الأنوار لأعمال الأبرار» في الفقه. «الدرر الكامنة» (٦/ ٢٥٨) «الأعلام» للزركلي (٨/ ٢١٢).

(٣) عثمان بن محمد بن أحمد بن محمد السراجي المحلي، ويعرف بالحطاب ولد سنة ٨٢٠ هـ، حفظ القرآن وجوده واختص بالشيخ سليم فأقام معه. جلس لإقراء الأبناء احتسابًا بالمدرسة السيفية، ت سنة ٩٠٢ هـ. «الضوء اللامع» (٥/ ١٣٧).

(٤)الملك الأشرف قايتباي المحمودي. السلطان الحادي والأربعون من سلاطين الترك، والخامس عشر من ملوك الجراكسة. كان صالحًا محبًّا للصوفية، معتقدًا ومعظمًا لأولياء عصره. توفي سنة ٩٠١هـ. «سلم الوصول إلىٰ طبقات الفحول»، «الأعلام» (٥/ ١٨٧).

فقال له: وأنت الآخر أيش لك حاجة بهؤلاء المماليك؟ فقال: هؤلاء عسكر الإسلام! فقال: وهؤلاء الفقراء عسكر القرآن. فتبسم السلطان ورسم له بما طلب، وخلفه علىٰ هذا القدم الشيخ إبراهيم الرحبي[1] بباب جامع الأزهر ﷺ كان يسأل للفقراء المقيمين عنده جميع ما يحتاجون إليه.

وكذلك كان سيدي أبو الحسن الشاذلي وسيدي يوسف العجمي، لكن الأول كان يسأل لأصحابه بالحال، والثاني بالقال، ويقول كلٌّ منهما: لا أربي أصحابي علىٰ الاعتماد علىٰ رزقه ولا مرتب. وعرض الملوك علىٰ هذين الشيخين الهدايا والرِّزَق[2] فردوهما. فاعلم ذلك، واحمل أشياخ الطريق علىٰ الأحوال اللائقة بالصالحين من حسن المقاصد، ولا ترجمهم بحجارتك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا نسب أحدًا من المسلمين إلىٰ الفسق تعريضًا أو تصريحًا، فلاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: هذا لا يليق به! ولا ينبغي أن يكون الشيخ يقذف أعراض المسلمين، بل لو رأىٰ أحدًا علىٰ معصية، وجب عليه ستره، إلا إن دعاه حاكم إلىٰ الشهادة في حدٍّ من حدود الله تعالىٰ ونحو ذلك، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، فقد يريد بقوله لمسلم: يا فاسق مثلًا الفسقَ اللغوي، وهو مطلق الخروج عن السنة المحمدية، إذ الفسقُ في اللغة: الخروج، يُقال: فسقت النواةُ، إذا خرجت من قشرها، ومن خرج عن السنة المحمدية قيد شبر في مأكله أو ملبسه أو نومه أو في معاملته لله تعالىٰ أو لخلقه، فقد انسحب عليه اسم الفسق، فأي شخص يدعي الآن سلامته من مثل هذا الفسق؟! هذا أمر قد صار متعذرًا جدًا علىٰ الأكابر، فضلًا عن غيرهم.

فاعلم ذلك يا أخي، واحمل من سمَّاك فاسقًا علىٰ الفسق اللغوي، وأنه وصفك

---

(١) إبراهيم الرحبي الشيخ الصالح، كان مقيمًا في زوايته علىٰ باب جامع الأزهر، وكان له في بدايته سياحات كثيرة، كان يخدم كل من مرض في الجامع بنفسه، وينحي القذر من تحته، مات في آخر شوال سنة ٩٥٤هـ. «الكواكب السائرة» (٢/ ٨٧).

(٢) جمع رِزْقة، وهي أرض أو غيرها مما يُغلُّ يُصرف رَيعُها علىٰ المسجد وخدمه ونحو ذلك.

بذلك حقًّا، وإياك أن تشتكيه لحاكم إلا إن سألته وصرح لك بمراده، وإن صفحتَ عنه كان أفضل، قال ﷺ: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم»[١].

وقد كان مالك بن دينار ؓ يقول: لو نادىٰ منادٍ علىٰ باب المسجد: ليخرج أفسق الناس، لسبقتُ إلىٰ الباب. وكان الفضيل بن عياض يقول: من أراد أن ينظر إلىٰ مراءٍ؛ فلينظر إليَّ. وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ؒ يقول: من قيل له في هذا الزمان: يا فاسق، أو يا منافق، أو يا نصاب، أو يا كذَّاب علىٰ الله، فلا ينبغي له التكدر، بل يرىٰ ذلك من أصدق وصف وُصِفَ به، فإن السلامة من ذلك أعزُّ من الكبريت الأحمر. انتهىٰ؛ فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا قال لأحد: يا جاهل؛ لا سيما إن قال ذلك لعالم آخر، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: ربما يكون هذا الذي سماه جاهلًا أعلم منه بالشريعة، ولا ينبغي أن يُسمَّىٰ إنسان جاهلًا إلا إن كان جاهلًا بأحكام الشريعة الخمسة[٢]، وهذا عارف بها، فكيف يليق بالشيخ الكذب؟!

والجواب: بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فإنه لا يخرج أحد عن الجهل إلا إن علم الأمور كما يعلمها الله تعالىٰ أو رسوله ﷺ، وكلُّ من كان يجهل حكمًا واحدًا من أحكام الشريعة الصريحة[٣] أو المستنبطة في سائر المذاهب المستعملة والمندرسة، انسحب عليه اسم الجهل.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؒ يقول: لا ينبغي لأمثالنا أن يشهد في نفسه أنه عالم أو عارف، إلا إن كان يقدر علىٰ استنباط جميع أحكام الشريعة من الكتاب والسنة. وكذلك سمعتُ سيدي عليًّا الخواص ؒ يقول: لا يكون الشيخ أستاذًا في الطريق إلا إن كان علىٰ قدم أبي القاسم الجنيد الذي كان يقول: ما نزل من السماء علم، وجعل الحقُّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٧٥) والنسائي (٧٢٥٣) والبيهقي (١٧٦٢٧).

(٢) وهي: الإيجاب، الندب، التحريم، الكراهة، الإباحة.

(٣) بالأصلين: الصحيحة. والصواب ما أثبتناه.

تعالىٰ للخلق إليه سبيلًا إلا وجعل لي فيه حظًّا ونصيبًا. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ الصدق في كل ما يشتمونك به، فإن مقامهم الصدق، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينزل إلىٰ بلاد الريف، ويدور علىٰ بلاد الفلاحين يأخذ عليهم العهد بالوضوء والصلاة وعدم السرقة ونحو ذلك، وحمله أقرانه علىٰ حب الشهرة بالمشيخة، وجمع حطام الدنيا، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، لأنه قائم بفرض كفاية، ولولا نزوله لكان الإثم علىٰ أقرانه كلِّهم. ولا ينبغي الإنكار علىٰ من قام بفرض الكفاية، بل ربما يكفر المنكر بذلك، وفي القرآن العظيم: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية.

فاحفظ لسانك يا أخي، فإن من قال في إنسان ما ليس فيه تمسكه الزبانية علىٰ الصراط، ويقولون له: أثبت ما قلت في حقِّ فلان؛ فإن لم يقدر رموه في النار، نسأل الله العافية، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ المكشوف الرأس الذي يدخل علىٰ الولاة ويأكل من طعامهم ويدعي مقام الكشف، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: من يأكل الحرام والشبهات من لازمه ظلمة القلب، فلا يكون له كشف صحيح، إنما ذلك كذب ونصب، وقالوا له: لأي شيء تكشف رأسك من الطاقية والقلنسوة والعمامة، وتلبس علىٰ جسمك الثياب الفاخرة؟! والعمامة سنة، ولا يليق بمن كشف رأسه إلا المرقعات، ونحو ذلك من الاعتراضات.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من فعل ما ذُكر، فقد يكون ممن أعطاه الله تعالىٰ الكشف الصحيح، مع أكله من طعام الولاة، لكونه تعالىٰ يستخلص له الحلال الذي في طعامهم بحوله وقوته، كما يستخلص اللبن من بين فرث ودم.

وأما كشف الرأس فقد يكون من شدة حرارة الأمداد النازلة عليه من الوجود. ومصداق ذلك عدم وجع عينيه إلا في النادر، فله عذر في كشفه. وأما بدنه فلما في لبسه الثياب الفاخرة من إظهار نعم الله تعالىٰ عليه أسوة إخوانه المسلمين، فلا يُمنَع من ذلك،

ولا يؤمر بمشاكلة رأسه في العري، أو لبسه المرقعات التي تنادي على صاحبها بالفقر وإن لم يقصد ذلك. فسلِّم يا أخي للفقراء أحوالهم ما لم يعارضوا نصوص الشريعة أو الإجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان جالسًا يمزح بين الناس، وليس في يده سبحة، ورأسه مرفوعة ينظر إلىٰ الناس والحيطان والسماء، فدخل عليه جماعة من الأكابر، فترك المزح وأخذ في يده سبحة، وأطرق رأسه، فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا من علامات النفاق، فكيف يدعي هذا العلم والصلاح؟! وقد كان الفضيل بن عياض ﷺ يقول: لو قيل لي: إن أمير المؤمنين داخل عليك الآن، فسويتُ لحيتي بيدي لدخوله، لخفت أن أُكتَب في جريدة المنافقين. انتهىٰ. فكان الواجب علىٰ هذا دوام المزح وعدم الإطراق وأخذ السبحة، ليخرج عن صفة النفاق.

والجواب: أنه ربما فعل ما فعل بنية صالحة، وذلك أنه كان غافلًا عن الله تعالىٰ حال مزحه، فلما دخل عليه من يستحيي منه عادةً، تذكر أنه بين يدي الله تعالىٰ، فترك المزح وأخذ السبحة وأطرق أدبًا مع الله تعالىٰ، ولم يزل العبد يغفل ويتذكر. ولا يجوز حمل هذا الشيخ في ذلك علىٰ الرياء لمن دخل عليه، لأنه سوء ظن به، وهو حرام بإجماع المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٥) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي ينشر رداءه خلف ظهره إذا ركب أو مشىٰ في السوق، ولا يضمه حول عنقه كآحاد الناس، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: إنما يفعل ذلك للتمشيخ، لأن ذلك صار علمًا علىٰ ذلك، بأنه يجب حمله علىٰ أنه إنما فعل ذلك بنية صالحة، كالتبرك بالصالحين، أو أنه اتخذ ذلك عادةً أسوة الناس الذي يفعلون ذلك مع غيبته عن مقاصدهم. وبأنه قد صار شعارًا علىٰ أهل الطريق الذين يربون المريدين، فللشيخ أن يفعله ليتميز بذلك عن العامة، ويعرفه المريدون فيسألوه عن آداب الطريق، نظير العَذَبَة والطيلسان، وليس لأحد الإنكار إلا مع تبين الحال.

وقد استفتي شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر[1] عن إرخاء العَذَبَة ونشر الرداء علىٰ الظهر، فقال: إن فعل ذلك بنية صالحة فلا بأس. وإن فعله بقصد التمشيخ حرم، مع أن العذبة في أصلها سنة ثابتة، ومن فعل السنة وجب حمله علىٰ الإخلاص حتىٰ يتبين لنا خلافه، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٦) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم إذا شاوره شخص في أخذ الطريق أو العلم عن أحد من الأقران، فلم يرِّغبه في الأخذ ولا في القراءة عليه، فلما قال له: أريد أن أقرأ عليكم، وآخذ عنكم الطريق؛ رغَّبه في ذلك كلَّ الترغيب، فلاث به الناس وقالوا: هذا من أكثر علامات الرياء وحب المشيخة، ولو كان صادقًا لمدح له العلم وكلَّ طريق القوم حين شاوره علىٰ الأخذ عن غيره، كما مدح ذلك حين قال له: أريد أن آخذ عنك أو أقرأ عليك علىٰ حد سواء، بأنه لا يجوز لأحد حمله علىٰ الرياء بمجرد ذلك، فربما يكون له قصد صحيح في ذلك، أو ربما رأىٰ عند ذلك المريد أو الطالب عدم الإخلاص وفساد القصد حين مشاورته في الاجتماع علىٰ غيره، ثم حصل له الإخلاص وصلحت نيته عند مشاورته أن يقرأ عليه، فلذلك رغَّبه في العلم والاشتغال بالطريق. ولو أنه كان الأمر بالعكس، لنفَّره من القراءة عليه والأخذ عنه، ومدح له العلم والطريق حين شاوره أن يأخذهما عن غيره، **فالفقراء دائرون مع الحقِّ لا مع حظوظ النفوس، كما يعرف ذلك من خالطهم مع صحة الاعتقاد، فاعلم ذلك**، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا صلَّىٰ بجانبه أمير أو كبير، ورأيناه زاد في صورة الخشوع والإطراق زيادة أكثر من عادته في الصلاة بحضرة أصحابه

---

(١) ابن حجر، إمام الحفاظ في زمانه، قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ثم المصري. ولد سنة ٧٧٣هـ وعانىٰ أولًا الأدب وتعلم الشعر فبلغ فيه الغاية، ثم طلب الحديث، فسمع الكثير، ورحل وتخرج بالحافظ أبي الفضل العراقي، وانتهت إليه الرحلة والرياسة في الحديث في الدنيا بأسرها، وله تصانيف منها: «شرح البخاري» و«تغليق التعليق» و«تهذيب التهذيب». توفي:٨٥٢هـ. «حسن المحاضرة» (١/ ٣٦٣)، «ذيل طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص: ٢٥١).

المعتادين، فلاث به الناس وقالوا: هذا من علامة ريائه لذلك الأمير، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه ولا نسبته للرياء، لاحتمال أنه يذكر بتعظيمه لذلك الأمير والأدب معه الأدب مع الله تعالىٰ والخشوع بين يديه، فزاد في ذلك علىٰ وجه الإخلاص لا الرياء، فإن الأمراء والأكابر في هذه الدار من آيات الله، أو علامة علىٰ آياته، وهو أحد الأوجه التي أجاب بها بعض العارفين عن رسول الله ﷺ حين كان يقبل علىٰ صناديد قريش دون فقرائهم، لأن الصناديد ظهروا بمظهر الكبرياء والعظمة اللذين لا يليقان إلا بالله عزَّ وجلَّ، فكان يقبل عليهم إكرامًا للمظهر الذي ظهروا به، بخلاف الفقراء، فافهم.

فعُلِمَ أنه يجب علينا إذا رأينا عالـمًا أو شيخ زاوية صلَّىٰ عنده الباشاه يومًا، فزاد في الإطراق وضم الأكتاف والرعدة أن نحمله علىٰ الإخلاص في ذلك، وأن عظمة الباشاه ذكرته بعظمة الله تعالىٰ، فزاد في الأدب والخشوع مع الله تعالىٰ لا مع ذلك الأمير. ومن حمل الناس علىٰ المحامل السيئة بسوء ظنِّه، فلا يلومنَّ إلا نفسه، بخلاف الأمور المحققة التي لا تقبل التأويل، كاجتماع الفساق[1] العالمين بالتحريم علىٰ شرب الخمر مثلًا، فله الإنكار عليهم قطعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دُعي إلىٰ وليمة، فأخذ معه جماعة كثيرة، فأكلوا طعام الوليمة كلَّه، ولم يتركوا لغيرهم شيئًا، فلاث بهم الناس وقالوا: هذا لا يحل له فعله، فإن الطعام لم يعمل له وليمة وحده، بأنه قد يكون صاحب الوليمة أمره بأن يأتي بأصحابه كلِّهم، وبأنه قد يكون من شأنه المكافأة بالدعاء لصاحب الطعام بالبركة الخفية في رزقه، فيعوضه الله تعالىٰ بكلِّ لقمة أكلها الشيخ وجماعته أضعافها طولَ تلك السنة، بخلاف ما يأكله آحاد الناس.

وقد يكون ذلك الشيخ من أصحاب الكشف بأن ذلك الطعام قسمه الله تعالىٰ له ولجماعته دون غيرهم، فأكلوه علىٰ علم وبيان، كما وقع مثل ذلك لسيدي ياقوت

---

(١) في «أ»: العيَّاق.

العرشي. ومصداق صحة كشفهم أنهم أكلوا الطعام كلَّه ونزل جوفهم. وأما كونه حلالًا أو حرامًا فذلك أمر آخر لا يخفىٰ ميزانه في الشريعة.

وأيضًا فإن الشيخ وجماعته قد أكلوا ذلك الطعام بحضرة صاحبه أو خدَّامه، ولم يمنعوهم ولم يقولوا لهم: افضلوا لغيركم شيئًا، فليس علىٰ الشيخ اللوم إلا إن قال صاحب الطعام مثلًا: تبتُ إلىٰ الله تعالىٰ أني أدعو هذا الشيخ وجماعته مرةً ثانيةً، فإنهم فضحونا مع الناس ونحو ذلك، وما لم يقل صاحب الطعام مثل ذلك، فحسن الظن واجب، والحمد لله رب العالمين.

(٣٧٩) ومما أجبتُ به عمَّن يقول عن نفسه: أنا من الصالحين؛ فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا من الصالحين ما زكَّىٰ نفسه بذلك، بأنه قد يكون من الصالحين حقيقة أو علىٰ قدْر حاله، أو أراد: أنا صالح للجنة أو للنار، أو صالح لأن أكون إمامًا في المسجد أو غير ذلك من الحرف والصنائع، وقد يكون أراد أنه من الصالحين حقيقة عند نفسه لا في نفس الأمر.

وسمعتُ أخي أفضل الدين يقول: كلُّ من ادَّعىٰ مقام الولاية أو الصلاح، فانظروا في أعماله، فإن وجدتموها موافقةً للكتاب والسنة، فقولوا: صدقت، وإياكم والمبادرة إلىٰ الإنكار عليه دون النظر في أفعاله وأقواله وأحواله وعقائده، فإنه تهور في الدين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه تساوىٰ عنده الذهب والتراب علىٰ حدٍّ سواء، ثم رأيناه يعالج في فتح المطالب وعمل الكيمياء، فلاث الناس به وقالوا: هذا نصَّاب، شيطان في صورة إنسان، ولو أنه كان صادقًا في تساوي الذهب والتراب في قلبه، لما كان أتعب نفسه في عمل الكيمياء وحفر الكيمان ونحو ذلك، بأنه قد يكون صادقًا في تساوي الذهب والتراب عنده من حيثُ الميلُ إليه، كما يقع للمريد في ابتداء دخوله في الطريق، ثم طلب بعد ذلك الدنيا لينفق منها علىٰ نفسه وعياله وإخوانه، كما يفعل أولياء

الله الذين يتاجرون في الدنيا، فتكون الدنيا في يدهم لا في قلبهم. فلا يلزم من تساوي الذهب والتراب في قلب فقير أن يترك الدنيا بالكلية ويصير يسأل الناس.

وربما كان صادقًا في معرفة عمل الكيمياء وفتح المطالب، فبأي دليل نكذِّبه ونسميه نصَّابًا أو شيطانًا؟! وقد أخبرني الشيخ الصالح شمس الدين البوصيري[١] أحد جماعة سيدي الشيخ أبي السعود الجارحي أن سيدي أبا السعود فتح المطلب الذي بين كيمان مصر العتيق، وأخرج منه مقدار ثلاث ويبات[٢] من الذهب، وصاغه سبائك وأوفى منها عدة ديون للناس بالمشاهدة، وتصدق بالباقي.

وقد عمل أخي أفضل الدين رحمه الله بحضرة من أثق به نحو ألف مثقال ذهبًا من شيء اشتراه من العطار بدرهم، فسألتُه عن ذلك، فقال: هو صحيح، وإن شئتَ علمتُك إياه. فقلتُ له: لا. فألح عليَّ، فقلتُ له: لا. ثم حكىٰ ذلك لبعض إخواني وقال: ما كنتُ لأعلمه ذلك، ولكن امتحنتُه في محبته للدنيا. وكان ذلك أول صحبتي له.

وقال لي مرة: عمل الكيمياء من جملة علم الحكمة، والحكمة لا تدخل قلبًا يرجِّح الذهب علىٰ التراب. فامتحن يا أخي كلَّ من يدعي صحة عمل الكيمياء علىٰ يديه، فإن كان يرجِّح الذهب علىٰ التراب، فاعلم أنه نصاب.

وقال لي مرة أخرىٰ: لا يصح عمل الكيمياء إلا من أهل الكشف علىٰ أسرار المعادن والنبات وعلىٰ معرفة الأوزان. وأما من طلب عملها من بطون الكتب، فهو يشغل نفسه بالتعب من غير فائدة، فإن أصحاب هذا العلم مأخوذ عليهم العهد من عهد الإمام جابر[٣] صاحب العلم رضي الله عنه أن لا يذكر أحدهم قط في كتابه تدبيرًا كاملاً، بل يحذفون منه

---

(١) شمس الدين البوصيري كان عالمًا بنقول ذهب الشافعي، محدثًا أصوليًا مفسرًا مقرئًا، وله النظم البديع الشائع، والصبر العظيم علىٰ تفريعات الشيخ أبي السعود، وكان يفتي علىٰ الأربع مذاهب. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٠٧).

(٢) الوَيْبَة: اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مُدًّا ، وهو مكيال يختلف بحسب البُلدان.

(٣) بدر الدين النوزي، وفي «الكواكب السائرة» محمد التوزي الشيخ الفاضل الصالح الورع، كان من أكابر

كثيرًا من الأركان والشروط، ويكلوا ذلك إلىٰ العالم بالصنعة من طريق الكشف [غيرةً علىٰ الحكمة أن يعطاها من ليس من أهلها. انتهىٰ.

وقد أدركتُ أنا من كان يعملها من طريق الكشف][1] ويتصدق منها ليلاً ونهارًا ولا يأكل منها شيئًا، وهو الشيخ بدر الدين النوزي[2] بجامع الحاكم رحمه الله، كان يخرج كل يوم بنحو ثلاثة أقداح فضة، فلا يرجع منها بشيء، وأعطاني منها مرات فضة حجرًا لا يخالطها[3] شيءٌ من النحاس رحمه الله.

فاحمل يا أخي كلَّ من يدعي معرفة عمل الكيمياء وفتح المطالب علىٰ الصدق في نفس الأمر. وإياك أن تجيبه إلىٰ أن يأخذ منك مالًا ليطبخ لك به، فإنه نصاب، إذ العارف بالصنعة لا يحتاج إلىٰ فلوسك ولا يعلمك شيئًا.

وقد طلب ولد الشيخ بدر الدين النوزي من والده أن يعلمه ذلك في مرض موته، فأبىٰ وقال: هذا الأمر يحتاج إلىٰ عقل وافر، ودماغ يقبل، فإنك إن صحت معك قتلوك، وإن لم تصح معك قتلوك[4]. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨١) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي تورع عن الأكل من وقف خانقاه سعيد السعداء[5]،

الأولياء المستورين، وذا قدم راسخ في العبادة مع إخفائها، كان مع الفقهاء فقيهًا، ومع الفقراء فقيرًا، ومع العارفين عارفًا، وكان يعتقده أكابر الدولة ويكرمونه، ويهدون إليه الهدايا، وكان يفرقها علىٰ المحتاجين، ت سنة ٩٣٠هـ. «الكواكب السائرة» (١٩٤)، «الكواكب الدرية» (٣/ ٣٥٣).

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط في «ب».

(٣) بالأصلين: يحملها. والصواب ما أثبتناه.

(٤) في «الطبقات الوسطىٰ» أن الذي طلب ذلك هو الأمير تغري بردي قال: «وخدمه الأمير تغري بردي الأستادار خدمة طويلة، فقال له: يا تغري بردي، لا يخلو الأمر: إما أن يأذن الله لك في العمل، فتصح معك فيقتلك السلطان؛ وإما أن لا تصح معك فتكون زَغَلي، فيقتلك السلطان كذلك ويسلب نعمتك. فاستغفر عن ذلك الخاطر وتاب إلىٰ الله تعالىٰ». الطبقات الوسطىٰ (٢٧٩/ ٢).

(٥) خانقاه سعيد السعداء: كانت هذه الخانقاه في الأصل دارًا سكنها عدة أشخاص في العصر الفاطمي. ثم أمر صلاح

ولاث به الفقهاء وقالوا: إن واقفها كان سلطانًا عادلًا وعمَّرها بإذن من رسول الله ﷺ كما أُشيع ذلك عنه، ولكن قد قال بعضهم: خالفوا تعرفوا.

والجواب: أن المتورع من الأكل من وقف الخانقاه المذكورة وغيرها مما وقفها خاص بالصوفية قد أتىٰ معروفًا، فلا يسوغ الإنكار عليه.

وقد أراد ناظرها أن يسكن الشيخ عبد الله المنوفي شيخ الشيخ خليل المالكي[1] صاحب «المختصر» بها، ويرتب له خبزًا منها، فأبىٰ وقال: هذه موقوفة علىٰ الصوفية، وأنا لستُ بصوفيٍّ، إنما الصوفيُّ من كان علىٰ قدم الشيخ الجنيد وأضرابه المذكورين في «حلية أبي نعيم» وفي «رسالة القشيري» ونحوهما، وقد قالوا: الصوفيُّ من عمل بعلمه كلِّه علىٰ وجه الإخلاص الكامل، ومن أين أصل إلىٰ ذلك؟! انتهىٰ، فاعلم ذلك، فإن لكلِّ مقام رجالًا. وقد كان الجلال السيوطي رحمه الله لا يأكل من خبزها، وكان شيخ الإسلام زكريا يأكل منه -وكنتُ أطالع له- نحو عشر سنين، وكنتُ أتغدىٰ معه كلَّ يوم من خبزها ويقول: إنما نأكل من هذا الخبز تبركًا بصاحبه، فإنه كان ملكًا عادلًا، وهو أطيب عندي مما في أيدي الناس اليوم. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يشارك المسلمين في همومهم حتىٰ إنه يشارك المعاقبين في بيوت الولاة في سائر أقطار الأرض في سائر الجرم والتهم إذا بلغه ذلك، حتىٰ إنه يحس بضرب المقارع والكسَّارات وحرارة الخوذة المحماة علىٰ رأسه، ولاث الناس به وقالوا: هذا كله كذب ونصب! بأنه قد يكون صادقًا في ذلك، كما عليه أرباب الأحوال الذين لهم ارتباط بالعالم. وقد أخبرني الشيخ الصالح سيدي عبد القادر

الدين الأيوبي بتحويلها إلىٰ دار للصوفية حيث أوقفت علىٰ فقراء الصوفية من مختلف بلاد العالم الإسلامي. وتقع هذه الخانقاه بحي الجمالية بجوار مدرسة الجمالية الابتدائية بالقاهرة.

(١) ضياء الدين أبو المودة خليل بن إسحاق الجندي، الإمام الهمام أحد شيوخ الإسلام والأئمة الأعلام، من كبار فقهاء المالكية المجمع علىٰ جلالته. وكتابه «مختصر خليل» من أشهر الكتب المعتمدة في فقه المالكية، توفي سنة ٧٧٦هـ.

الدشطوطي أنه شارك مرة شخصًا وضعوا الخوذة المحماة علىٰ رأسه في بيت الوالي، فصار الشيخ يحس بأن دهن رأسه سال ونزل علىٰ وجهه، فصار يمسحه لظنه أنه من خارج الجلد، والحال أنه من داخله.

فصدق يا أخي من ادعىٰ مثل ذلك ما دمتَ لم تذق ذلك، فإنه أولىٰ من تكذيبك له، اللهم إلا إن ترتب علىٰ ذلك أمر يخالف الشرع، فتكذيبه أولىٰ نصرةً للشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه لا يحب شيئًا في الوجود إلا إن علم أن الحقَّ تعالىٰ يحبه وإلا كرهه حتىٰ العفو عنه، ولولا أن الحق تعالىٰ أخبر أنه يحب العفو عن عباده ما أحبَّ العفو عنه، بل كان يحب العقوبة إذا أحبها الله، ولاث به العاجزون من الفقراء وقالوا: هذا أمر يعجز عنه البشر.

والجواب: أن ذلك ممكن من جملة الممكنات، فتصديقه أولىٰ، فإنه مقام بينه وبين الله تعالىٰ. وإن كان غير صادق فيه، فحسابه إلىٰ الله لا إلينا، والتكذيب لا يشرع لنا إلا في الأمور الممتنعة شرعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا صلىٰ في المسجد علىٰ سجادة وطَرَّاحة دون الحصير، حتىٰ إنهم أبطؤوا عليه يومًا بالسجادة، فصار واقفًا بلا صلاة حتىٰ فرشوها له، فلاث به الناس وقالوا: هذا كله تكبر علىٰ الله ونحو ذلك، بأنه قد يكون من رجال الجمال بين يدي ربهم دون رجال الذلِّ والانكسار، فكلما تذكروا أنهم عبيده، ازدادوا عزًّا وتجملًا، خوفًا أن يزدريهم الناس المحجوبون عن معرفة أحوالهم، **فإن للذل أقوامًا، وللعز أقوامًا، وكلٌّ كامل في مقامه.**

وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلي يبخر سجادته بالند والعنبر، ويلطخها بالمسك والكافور، تعظيمًا لحضرة الصلاة، كما أشار إليه حديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(١) وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا تحويه الجهات، فافهم، وإياك والمبادرة

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥) والنسائي (١١٣٧).

إلىٰ الإنكار علىٰ أفعال العلماء والصالحين، فإنهم أعرف منك بالأدب مع الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أحضر مع الله تعالىٰ في حال جماعي، كما أحضر في حال صلاتي، فأنكر عليه المجادلون ذلك، بأنه قد يكون صادقًا في ذلك، فإن جميع الأكابر تحضر مع الله تعالىٰ في سائر شهوات النفوس من جماع وغيره، كما يحضرون معه في الصلاة بجامع مشروعية ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: جميع المأمورات والمباحات ما شرعها الله تعالىٰ لعباده إلا ليحضروا معه فيها لا غير، فمن حضر فيها ازداد بها حياة؛ ومن غاب فيها ازداد بها موتًا لقلبه، وعلىٰ ذلك يُحمل ما ورد في ذم حل الشهوات وأنها تحجب عن الله تعالىٰ، فصدِّق يا أخي العارفين فيما يدعونه من وجداناتهم، فإن كلَّ مقام أنكره المريد، حرم الوصول إليه عقوبة له، فإياك ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لمريده: إذا عرض لك الشيطان، فاصرخ عليه باسمي، فإنه يهرب عنك؛ فلاث الناس بهذا الشيخ وقالوا: هذا ما بلغنا عن أحد من الأنبياء أنه قاله لأحد من أصحابه، فكيف بمن ولايته غير محققة؟! وقد قال تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، **فلم يأمره بالاستعاذة منه بغير الله، لعجز ذلك الغير عن دفعه ونحو ذلك من الاعتراض.**

والجواب: أن الشيخ لا يجهل ما اعترض به عليه، ولكنه لـمَّا علم عجز مريده عن دفع إبليس عنه بالاستعاذة بالله تعالىٰ لجهل ذلك المريد بالله عزَّ وجلَّ، قال له: اصرخ عليه باسمي لأسمعك، فأستعيذ بالله لك نيابة عنك. وإيضاح ذلك أن المريد ربما كان يعتقد في الله تعالىٰ صفات التشبيه، وأنه تعالىٰ في جهة العلو مثلًا دون السفل، وذلك ليس هو الله الذي أُمر العبد بالاستعاذة به من الشيطان، بل هو من تخيلات النفس الجاهلة بالله، ومثل ذلك لا يدفع الشيطان، فافهم وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا وقع في غيبة أحد في مجلسه، ولاث به الناس وقالوا: كيف يكون هذا وليًّا لله تعالىٰ وهو يقع في أعراض الناس؟ بأنه ربما قصد بذلك التحذير منه أو التعريف بحاله ونحو ذلك مما يباح ذكره شرعًا، ويحرم حمله علىٰ أنه قصد بتلك الغيبة التشفي في عرض أخيه. وربما كان يستحيي أن يواجه ذلك الشخص بما تكلم به في غيبته، فتكلم به بحضرة من يعرف أنه يبلغه له مبادرةً لنصحه ومحبةً في أن يأخذ في اكتساب الفضائل ويترك الرذائل.

ثم لا يخفىٰ أن الخلق في حجر تربية العارف كالأطفال في حجر وليِّهم يقبح في أعينهم كلُّ صفة مذمومة، ولا يراعي كونهم يتكدرون من ذلك. فاعلم ذلك واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دعي إلىٰ وليمة، فلما جاء إلىٰ باب الدار قال: من هنا من العلماء؟ قالوا: فلان، فرجع وقال: لا أدخل مكانًا فيه فلان؛ فلاث الناس به وقالوا: كيف يدعي هؤلاء العلم وهم في حظوظ نفوسهم لا يخرجون منها؟! بأنه قد يريد بقوله: لا أدخل مكانًا فيه فلان الأدب مع ذلك العالم أو الشيخ، وجعل المجلس له وحده، أي لا ينبغي لمثلي النصَّاب الكذَّاب أن يجعل نفسه مثل هذا الشيخ الصادق، فيصير الناس يقولون: من حضر عند فلان من الأشياخ؟ فيقولون: فلان وفلان، فيجعلون رأسه برأسه، **وكلُّ صادق يحب إضعاف نور نفسه وتقوية نور أخيه.**

وقد وقع لسيدي محمد بن عنان أنه دعي إلىٰ وليمة، فلما وقف علىٰ الباب قال: من هنا من الأشياخ؟ فقالوا: سيدي علي المرصفي، فرجع فلاث به الناس، فلما بلغه ذلك قال: إنما قصدتُ انفراده في ذلك المحفل أدبًا معه، فإنه شيخ مصر الآن. انتهىٰ[1].

---

(١) وجاء في «الطبقات الوسطىٰ» للمصنف في ترجمة سيدي محمد بن عنان: «وكان ﷺ يحفظ ود أخيه حيًّا وميتًا. ودُعي مرةً إلىٰ وليمة، فلما جاء باب الدار، قال: من حضرها هنا من الفقراء؟ فقالوا له: سيدي علي المرصفي؛ فرجع، فقيل له: هل بينكم وبينه وقفة؟ فقال: لا، وإنما كان بينه وبين أخي الشيخ نور الدين الحسني وقفة، وصحبته متقدمة عليه، فأحببت الوفاء بحق أخي في عدم مواددة من بينه وبينه وقفة، وإلا فأنا

فاعلم ذلك، وإياك أن تحمل العلماء والأشياخ على شيء من رعونات النفوس، والحمد لله رب العالمين.

(٣٨٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا رأيناه لا يبكي عند سماع القرآن، ولا يخشع كغيره من الفقراء، وقال الناس: لو كان هذا من الصالحين، لكان أرق قلبًا من جميع هؤلاء الباكين، بأنه ربما بلغ مقام الكمال، أو وصل إلى مقام الاعتماد على عفو الله عزَّ وجلَّ دون شيء من أعماله، فنظر إلى السوابق، فرآها لا تتغير بالبكاء ولا بالتملق، فلم يظهر منه شيء من ذلك.

وربما كان بكاؤه بقلبه أكثر من بكاء البكَّائين بعيونهم كما قاله الحسن البصري، فكان يقول: ليس البكاء بالعيون وإنما البكاء بالقلوب. وربما دخل العارف إلى مقام يكون البكاء عنده مفقودًا أصلًا، كما أشار إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله حين رأى الناس يبكون: هكذا كنَّا حتى قست قلوبنا، أي قويت وصلبت في تحمل الشدائد في الدنيا والآخرة. فافهم وسلِّم للأكابر أحوالهم ومواجيدهم التي لا يعارضها نص ولا إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الزاوية إذا قرأ أحدهما القرآن بمعلوم دنيوي، ولاث بهما بعض الناس وقالوا: هذا أمر يخالف أحوال العلماء والمشايخ الذين يزعم هؤلاء أنهم على قدمهم، كالشيخ الجنيد والشيخ محيي الدين النووي وأضرابهما.

والجواب: أن ذلك لا يقدح في كمال الشيخ، فإنه معه الإذن من الشارع في أخذ الأجرة على قراءة القرآن في حديث الرقية[1]، وفي حديث: «أحق ما أخذتم عليه أجرًا

بحمد الله لا أكره أحدًا إلا لغرض شرعي». ولا تعارض بين الحكايتين، فيحتمل أنه راعى ود أخيه سيدي نور الدين الحسني، وأيضًا قصد الأدب مع العارف المرصفي.

(١) إشارة إلى حديث أخرجه البخاري (٥٧٣٧) من حديث ابن عباس: «أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ مروا بماء، فيهم لديغ أو سليم، فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل فيكم من راق، إن في الماء رجلًا لديغًا

كتاب الله»[1]، فذكر الأجر، فشمل الأجر الدنيوي والأخروي، لاسيما إن كان ذلك العالم أو الشيخ [فقراء من الدنيا. وقد يكون هذا العالم أو الشيخ][2] يقرأ أحدهما القرآن لله عزَّ وجلَّ، ثم يأخذ ذلك المعلوم ابتداءً عطاءً من الله عزَّ وجلَّ، لا في مقابلة قراءته [القرآن]، كما عليه طائفة من الأولياء كسيدي محمد السروي وشيخ الإسلام زكريا ونحوهما، فلا اعتراض علىٰ الشيوخ إلا في فعل ما نهىٰ الله عنه، لا ما أمر به أو سكت عنه، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الزاوية إذا سامح زوجته في الخروج إلىٰ مواضع الوعاظ، ولاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه تعليم زوجته أمور دينها، ولا يمكنها من الخروج صيانة لها، ومثل ذلك أيضًا الأعراس.

والجواب: قد يكون هذا الشيخ رأىٰ أن تعليمه لزوجته أمور دينها لا يكفيها فيما تريده من العلم، وليس عنده أحد من جنسها تستأنس به في العمل بما تسمعه منه، بخلاف الواعظ، فما أذن لها في الخروج للواعظ إلا لمصلحة ترجح علىٰ مصلحة تعليمه هو. وقد يكون سبب إذنه لها في حضور الواعظ علمه بعدم سماعها لكلامه لما لها عليه من الإدلال، فلا تصغي لما تسمعه منه، كما قالوا: ولد العالم وزوجته لا ينتفعان به عادة.

وأما حضور الأعراس فذلك مباح، وربما كان علىٰ زوجته مكافأة لصاحبة العرس، بأن حضرت عرسها لما زوجت ولدها مثلًا، فكافأتها بذلك الحضور، ولم يزل العلماء والصالحون يرسلون عيالهم إلىٰ بيوت أصحابهم في كلِّ أمر مهم من عرس أو عزاء أو غيرهما، فتهنيء أو تعزي كما يهنيء الرجال بعضهم بعضًا أو يعزون، ولم يبلغنا إنكار

أو سليمًا، فانطلق رجل منهم، فقرأ بفاتحة الكتاب علىٰ شاء، فبرأ، فجاء بالشاء إلىٰ أصحابه، فكرهوا ذلك وقالوا: أخذت علىٰ كتاب الله أجرًا، حتىٰ قدموا المدينة فقالوا: يا رسول الله، أخذ علىٰ كتاب الله أجرًا. فقال رسول الله ﷺ: إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله» وابن ماجه (٥١٤٦) بنحوه، والبيهقي في «السنن» (١١٦٧٦).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ساقط من «ب».

أحد علىٰ حضور مثل ذلك إلا بعذر شرعي.

فاحمل يا أخي ذلك الشيخ الذي أرسل زوجته إلىٰ الواعظ أو العرس علىٰ أنه لولا وثق بدينها ما أرسلها، ولا تدخل بين الظفر واللحم فضولًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الطريق إذا تركا عندهما شيئًا من الدنيا دائمًا زائدًا عن حاجتهما، وسألهما فقير شيئًا منه، فلم يعطياه شيئًا، فلاث بهما الفقراء وقالوا: قد كان ﷺ لا يبيت علىٰ دينار ولا درهم، وإذا لم يجد من يقبل ذلك منه، لم يأوِ تلك الليلة إلىٰ منزله، بأن ما فعله هذا الشيخ أكمل في المقام، فإن في بني آدم جزءًا دائمًا يضطرب من هَمِّ الرزق لا يسكن إلا مع وجود شيء عنده في الدار، وتسكين ذلك الجزء الذي يضطرب أولىٰ من التصدق علىٰ الفقراء مع ذلك الاضطراب الذي ربما يؤدي إلىٰ تهمة الحقِّ تعالىٰ في رزقه وأنه تعالىٰ يضيعه.

وأما كونه ﷺ كان من شأنه أن لا يبيت عنده دينار ولا درهم، فإن ذلك تنهيضًا لهمة أمته، وكثرة فتوتهم وسخاوتهم علىٰ الفقراء والمساكين، وليس ذلك لخوفه ﷺ من فتنة الدنيا لعصمته وعدم اضطراب شيء من أجزاء يقينه اهتمامًا بأمر الرزق، بخلاف غيره، فلا يلزم أن يكون ذلك دليلًا. وقد خزَّن ﷺ لأهل بيته قوت سنتهم ليسكن ما عندهم من الجزء المضطرب، فاعلم ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: إنما قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»[١] مع أن في ضمن ذلك خوف الاضطراب إيثارًا لإظهار الحاجة إلىٰ الله تعالىٰ صباحًا ومساءً الذي هو[٢] أعظم أوصاف العبودية، فإن الغالب علىٰ الناس نسيان ربهم إذا وسَّع عليهم الدنيا، فدعا ﷺ لآله بما هو الأهم والأفضل. فتأمل ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥).

(٢) بالأصلين: اللذين هما.

(٣٩٣) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يلبس من شراميط[1] الكيمان[2] علىٰ بدنه وعلىٰ رأسه، ويرد ما جاءه من الثياب، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: لو لبس هذا قميصًا أو جبة مثل أبناء الفقراء، لكان أولىٰ من لباس الشهرة، بأنه ربما شاهد أهوال يوم القيامة وشدة الحساب، فخاف من تبعات الخلائق، فاختار خلاصه من ذلك بشراميط الكيمان التي رماها أهلها زهدًا فيها، فقدم هذا خلاص نفسه.

وأما كون لبس القميص ونحوه يكف عنه ألسنة الناس، فليس ذلك بعذر عنده، لأنهم مأمورون شرعًا أن يحملوا كلَّ مسلم علىٰ المحامل الحسنة، فاللوم عليهم لا علىٰ ذلك الفقير، ولم يزل الكلام الفضول يقع ممن لا يتورع في منطقه، حتىٰ إن لابس الشراميط لو أطاعهم ولبس الجبة مثلًا، فلابد أن الناس يعترضون عليه من وجه آخر وهكذا. فاحفظ يا أخي نفسك من الاعتراض إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا مات أحدهما ووجدوا بعده أموالًا كثيرة من ذهب وفضة وثياب وغير ذلك، مع أنه كان يقبل الزكاة، فلاث الناس به بسبب ذلك، بأنه قد تكون تلك الأموال والثياب جاءته من وجه فيه شبهة وردها علىٰ أهلها، فحلفوا أن لا يقبلوها، فوضعها عنده حتىٰ يموت وفوَّض أمرها إلىٰ الله تعالىٰ بعده يفعل فيها ما يشاء، فلا اعتراض علىٰ هذا الشيخ بسبب ذلك شرعًا. وأما كونه كان يقبل الزكاة، فيُحمَل علىٰ أنه من أحد الأصناف الثمانية، وما كان عنده من المال لا يراه دخل في ملكه حتىٰ ينفق علىٰ نفسه منه. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، فربما كان ذلك العالم أورع منك فرجًا ولسانًا ورجلًا، وأذنًا وعينًا وقلبًا، وإياك والدخول بين الظفر واللحم ظلمًا وعدوانًا، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا هجر أحدهما تلميذه

---

(١)شراميط: جمع «شرموطة»، وهي كلمة عامية تعني الثوب البالي الممزق.

(٢)الكيمان: جمع كوم، وهو كلُّ ما اجتمع وارتفع له رأسٌ من تراب أو رمل أو حجارة أو قمح أو نحو ذلك.

لكونه تركه واشتغل مع شيخ آخر، وتكدر لذلك ولاث الناس به، بأنه يجب حمله علىٰ محمل حسن، كأن رأىٰ عند نفسه من العلم ما ليس عند ذلك الشيخ الآخر، أو عرف من تلميذه سوء الخلق، فخاف من فتنة تقع بينه وبين ذلك الشيخ، فيمقته فلا يفلح، فقال: أنا أتحمل سوء خلق ذلك المريد عن أخي فلان ولا أمقته، بخلاف غيري. وهذا غرض صحيح لا يُمنَع الشيخ منه، فإياك أن تحمله علىٰ شيء من الأغراض النفسانية، فتقع في الإثم، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ينفخ بطون الولاة، أو يحبس بولهم بالحال أو الهمة أو باستخدام، ولاث العلماء به وقالوا: هذا شيء لم يفعله رسول الله ﷺ [ولا أحد من أصحابه والتابعين، وما لم يفعله رسول الله ﷺ][1] ولا كُمَّل أتباعه، ففعله مذموم، مع قاعدة تحريم أذىٰ الناس إلا بطريق شرعي، والنفخ وحبس البول ما هو طريق شرعي.

والجواب: أنه قد يكون هذا الشيخ ممن أعطاه الله تعالىٰ التصريف في الولاة بالتأديب والعزل، فيكون في ذلك عبدًا أذِن له سيدُه في تأديب عبدٍ آخر أساء الأدب علىٰ رعيته وظلمهم. وكان علىٰ هذا القدم سيدي إبراهيم الجعبري[2]، والشيخ شمس الدين الحنفي الشاذلي، وسيدي إبراهيم المتبولي، والشيخ محمد الشربيني، وليس هو لكلِّ وليٍّ إنما هو لأفراد منهم. وعلامة كونه مأذونًا له في ذلك أن يحمي نفسه بالحال من الولاة، فيتصرف فيهم ولا يقدر أحد منهم أن يتصرف فيه، إذ الحكّام عند الأولياء كالأطفال تحت حجر وليِّهم، مع أن من أرباب الأحوال من يقتل الظالم أصلًا فضلًا عن تأديبه بالنفخ ونحوه ثم يطلقه، ولكن ذلك حرام عند أهل الطريق، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) إبراهيم بن عمر بن إبراهيم برهان الدين الرَّبَعي الجعبري الشافعي شيخ القراء. مولده في حدود: ٦٤٠هـ. ولي مشيخة حرم الخليل ﷺ، فأقام به بضعاً وأربعين سنة. له مصنفات منها: «نزهة البررة في القراءات العشرة» و«رسم التحديث في علم الحديث» وغيرها، توفي في شهر رمضان المعظم سنة: ٧٣٢هـ. «أعيان العصر وأعوان النصر» (١/ ١٠٣) و«شذرات الذهب» (٨/ ١٧١).

(٣٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يعرف اسم الله الأعظم [أو يسمع حديث الموتىٰ، فقالوا له: علِّمنا الاسم الأعظم](١) أو أسمعنا حديث الموتىٰ، فلم يجبهم إلىٰ ذلك، فلاث الناس به وقالوا: هو كذاب، بأنه ربما كان صادقًا فيما ادعاه، فإنه لا بد لكل وليٍّ من معرفة اسم الله الأعظم وسماع عذاب القبر ورؤية نعيمه، لأنه نوع من كرامات الأولياء، ولا يلزم من عدم تعليمهم الاسم الأعظم للناس جهلهم به، ولا من عدم إسماعهم عذاب القبر عدم صدقهم، لأن ذلك خاص تعليمه بأهل الأسرار المتمكنين، وما كلُّ أحدٍ يحتمل حمل السرِّ، ولذلك بخل العارفون بتعليم اسم الله الأعظم خوفًا أن يتصرفوا به في غير المحل المستحق له، كما وقع لبلعام بن باعوراء(٢). وقد سأل بعض العلماء ربه أن يعلمه اسمه الأعظم، فرأىٰ الباري جلَّ وعلا في منامه، فقال: إنك طلبتَ أن أعلمك اسمي الأعظم، وأنت لا تطيق القيام بحقِّ ذلك، فإني حليم علىٰ من عصاني، صبور علىٰ من آذاني، وأنت لو أعطيتك ذلك لم تحلم ولم تصبر. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحفظ لسانك من حقِّ العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٨) ومما أجبتُ به عن الواعظ الذي جلس للوعظ بغير سؤال من الناس، فلاث به بعض المجادلين وقال: إن هذا الوعظ من أصله بدعة إلا في الخطب الواردة في الشريعة، فلو أن الناس سمعوا وعظ الخطيب كلَّ جمعة وعملوا به لكفاهم، ولكنهم لم يعولوا علىٰ العمل بما سمعوا، فإذا كان أحدهم لا ينتفع بالأمور المشروعة، فكيف ينتفع بالأمور التي لم تُشرَع؟

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الواعظ لأنه قائم بفرض كفاية، وليس هو بدعة، بل هو سنة كما جرىٰ عليه السلف والخلف. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يعظ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) بلعم ويقال بلعام بن باعوراء بن شتوم بن قرشيم بن ماب بن لوط بن حران بن آزر. وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه. له ذكر في القرآن. قال قتادة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] قيل: بلعم، وقيل أمية بن أبي الصلت. انظر: «مختصر تاريخ دمشق» (٥/ ٢٤٦).

أصحابه ويخوفهم، ويأمر بعضهم أن يقرأ عليه القرآن، ويبكي في مجلسه ويدعو لهم. ولعل مراد من قال من السلف: إن القصص بدعة، أراد بذلك التسمية، فيقول: إنها ذكرىٰ ولا يقول: إنها قصصًا، لأن تسمية الوعظ ذكرىٰ هو الذي كان علىٰ عهد رسول الله ﷺ.

وقد ورد أنه كان لعبد الله بن رواحة[١] مجلس علىٰ عهد رسول الله ﷺ يذكر الناس فيه إذا انصرف النبي كالمعيد لهم ما قاله رسول الله ﷺ، ولم يزل الأمر علىٰ ذلك من الخلفاء الراشدين إلىٰ وقتنا هذا. وثبت أن عمر بن الخطاب ﵁ أذن لتميم الداري[٢] أن يذكر الناس، وكان عمر بن الخطاب يجلس إليه في مجلسه ذلك. وكذلك ثبت أن عثمان بن عفان ﵁ أذن لكعب أن يذكر الناس. وثبت أن عمر بن الخطاب ﵁ بعث عبد الله بن مسعود إلىٰ أهل الكوفة ليذكرهم ويعلمهم أحكام دينهم، وبعث كذلك أبا هريرة إلىٰ البحرين والأمصار في جماعة يكثر تعدادهم، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «منهج الصدق والتحقيق في تفليس غالب المدعين للطريق» فراجعه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: كثرة الوعاظ مطلوبة الآن، لأن أوعية القلوب تخرقت، وصار كلُّ شيء سمعه العبد بأذن يخرج من الأذن الأخرىٰ، وصارت خطب الجمع والأعياد لا تكفيهم، فإياكم والإنكار علىٰ أحد من الوعاظ، بل اشكروه وقووا عزمه علىٰ ما هو فيه، فإنه ينفع المؤمنين.

وسمعتُه يقول: كلما أظلم الزمان بموت العلماء، طُولب الباقون بكثرة السرج العلمية، ليضيئوا علىٰ الناس بها، وما علىٰ الواعظ من نسيانهم وعظه إذا قاموا من مجلسه من شيء[٣].

---

(١) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة أبو عمرو الأنصاري الخزرجي البدري. شهد بدرًا، والعقبة. كان من كتاب الأنصار. قال أنس: كان ابن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه يقول: تعال نؤمن ساعة. استشهد في موقعة مؤتة (بأدنىٰ البلقاء من أرض الشام) سنة: ٨هـ. «السير» (١/ ٢٣٠)، «حلية الأولياء» (١/ ١١٨).

(٢) تميم الداري أبو رقية بن أوس بن خارجة اللخمي الفلسطيني. صاحب رسول الله ﷺ. وفد تميم الداري سنة ٩هـ فأسلم. كان عابدًا، تلاءً لكتاب الله. وهو أول من أسرج السراج بالمسجد. وكان راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين. توفي: ٤٠هـ. «أسد الغابة» (١/ ٤٢٨)، «الإصابة» (١/ ٤٨٧).

(٣) بالأصلين: بشيء.

انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٣٩٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا درَّس أحدهما العلم طولَ عمره، وسلَّك المريدين طولَ عمره، فلم يحصل لأحد منهم علىٰ يديه نتاج، ولاث به الأقران وقالوا: هذا من فساد نيته، بأنه لا يلزم من عدم انتفاع أحد به فساد نيته وقصده، بل أجره موفَّر، فيعطيه الله تعالىٰ يوم القيامة مثل ثواب من انتفع به الناس، لأنه كان يودُّ الخير لجميعهم، ولكن لم يقسم الله تعالىٰ لهم علىٰ يديه انتفاعًا.

وقد يطَّلِع الشيخ من طريق كشفه علىٰ عدم عمل الطالب بما يسمعه منه، فيتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في محو ذلك من قلبه كلما علمه، شفقةً عليه من العذاب يوم القيامة. وقد ورد أن النبي يأتي يوم القيامة ومعه السواد الأعظم، ويأتي النبي ومعه العصابة، ويأتي النبي ومعه العشيرة، ويأتي النبي ومعه الثلاثة، ويأتي النبي وليس معه أحد[1]. انتهىٰ. ولا يجوز أن يُقال في حقِّ النبي الذي لم يتبعه أحد أن ذلك من فساد نيته، وكذلك القول في العلماء والصالحين.

وفي القرآن العظيم عن نوح عليه الصلاة والسلام قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ـ ٦] إلىٰ آخر النسق، فهذا نبي من أولي العزم لم تنفذ همته في هداية قومه، فسقط قول من يقول: لو كان الواعظ صادقًا لأثر وعظه في القلوب، فإنه لا أصدق من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد علمت تخلف غالب قومهم أو كلِّهم عن الإيمان بهم وبما جاؤوا به، فعُلِمَ أنه لا يجوز ازدراء العالم والمسلِّك إذا لم يُفتَح علىٰ أحد علىٰ يديهما، بل ذلك راجع إلىٰ القسمة الإلهية، فاحفظ لسانك يا أخي، فإن لحوم الأولياء سُمٌّ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٥٤١) من حديث ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل، هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلىٰ الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير. قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب...» ومسلم (٢٢٠).

(٤٠٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أنكر عليه جماعته وتفرقوا عنه، وصاروا يحطون [عليه][١]، ولاث الناس به وقالوا: لو وجد أصحابه عنده خيرًا وصدقًا ما تفرقوا عنه، بأن تفرقهم عنه دليل علىٰ عدم مداهنته لهم وأمرهم بما يخالف أهوائهم النفسانية التي تشغلهم عن الله تعالىٰ من تطليق نسائهم التي كلُّ واحدة منهن لا تستحق سف[٢] النُّخَالة[٣] حافًّا، وترك الوظائف التي لا يستحقون معلومها لعدم مباشرتهم لها بأنفسهم أو نائبهم ونحو ذلك، لأن طريق القوم كلَّها جِدٌّ وجهادٌ لا صلح فيه. وقد قال السيد عمر بن الخطاب ﷺ: ما تركت لي كلمة الحق من صديق.

وربما كان الشيخ الذي جماعته كثيرة أنقص مقامًا ممن فرت عنه جماعته، لكونه يداهنهم في دينهم ويوافقهم علىٰ أغراضهم، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك وقلبك من الكلام والظن الفاسد، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا جاءهما زائر من إخوانهما، فلم يأذنا له في الدخول، فلاث بهما وتبعه الناس علىٰ ذلك وقالوا: ما كان ينبغي لهما ذلك، وحملوهما علىٰ التكبر، بأنه قد يكون أحدهما في أمرٍ أهم من مقابلة هذا الزائر، كأن يكون العالم في تحرير مسائل في العلم يحتاج الناس إليها، أو يكون الشيخ في حال جمعيته ومراقبته للحقِّ تعالىٰ، فإذا دخل ذلك الزائر، تبددت تلك المسائل من ذهن العالم، وتشتت قلب الشيخ من تلك الحضرة.

ومن علامة أن له عذرًا كونه لم يخرج لصلاة الجماعة ذلك الوقت، وفي القرآن العظيم: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾[النور: ٢٨] فشيء شهد الحق تعالىٰ أنه أزكىٰ للعبد، فكيف يتكدر منه؟! والله ما هذا إلا قصور!

وقد أصاب العالم أو الشيخ الذي لم يأذن في الدخول لمثل هذا، فإن الزائر لله تعالىٰ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سَفَّ الشيء سَفًّا: تناوله يابسًا غير معجون.

(٣) النُّخَالَة: ما بقي من الشيء بعد نَخْلِه.

لا يدخل على المزور إلا السرور، وهذا ربما أدخل على زائره الغم وحمل الهم من تقطيع عرضه في المجالس الذي لم يأذن له، فكان عدم زيارة مثل هذا أفضل، فاعلم ذلك وإياك وسوء الظن، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أفطر عند ظالم في رمضان، فلاث به الناس، بأنه قد يكون ممن كُشِفَ له عن حِلِّ ذلك الطعام أو عن حرمته، ولكن قسمه الله تعالىٰ له تلك الليلة، وسأل الله تعالىٰ في دفعه عنه، فلم يجبه إلىٰ ذلك، فأكله ثم تاب، أو تقيأه بعد ذلك. وإن قال لنا: إن الحرام لا يؤثر فيَّ؛ كذبناه.

[أثر اللقمة الحرام فيمن يتناولها]

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من شرط كلِّ ولي أن يكون أبعد الناس عن الحرام والشبهات، ولكن قد يقسم الله تعالىٰ له الحرام لحكمة يطلعه عليها، فيسلم لله ويأكل ثم يتقيأه ويستغفر، وكلُّ من قال: إن الحرام لا يؤثر فيَّ؛ كذبناه، لأنه خَرَقَ إجماعَ القوم، فقد أجمعوا علىٰ أن للقمة الحرام **أثرًا في كلِّ شخص بما يناسب مقامه،** فأثرها في العوام وقوعهم في أعمال مذمومة لم يكن لهم فعلها عادة، وأثرها في طلبة العلم والمريدين قساوة في القلب وثقل في الطبيعة، وأثرها في المتوسطين في الطريق غفلتهم عما يعود عليهم نفعه من أعمال الدارين، وأثرها في الكاملين كثرة الخواطر التي لا منفعة فيها، وأثرها في الأكملين منعهم من دخول قلوبهم حضرة الله عزَّ وجلَّ في صلاة أو غيرها، وأثرها فيمن هو أعلىٰ من ذلك أمور يذوقونها[1]. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن الأشياخ منهم المعافىٰ ومنهم المبتلىٰ، ولكن جرت سنة الله تعالىٰ في حفظ أوليائه عن أكل الحرام والشبهات من طريق الكشف أو العلامات، فمنهم من تتعب[2] نفسه

---

(١) بالأصلين: يدومونها. والمثبت من «الأخلاق المتبولية» للمصنف. والقول فيها منسوب لسيدي إبراهيم المتبولي، من أول قوله: «إن للقمة الحرام أثرًا في كلِّ شخص بما يناسب مقامه... إلخ».

(٢) بالأصلين: تلعب. والمثبت من «الأخلاق المتبولية» للمصنف.

إذا أكل شيئًا فيه حرام، فيلقيه لوقته؛ ومنهم من تحصل له ظلمة في باطنه، فيلقيه في الحال؛ ومنهم من يحصل له أوجاع، فيلقيه لوقته. ويقع لي ذلك كثيرًا في ضيافة الفلاحين، وفي طعام المباشرين، وفي لبن الجاموس، لكونه لا ينضبط في العادة علىٰ الرعي من زرع صاحبه.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: ينبغي لكلِّ فقير من هذا الزمان إذا حضر بين يديه طعام أن يقول بتوجه تام: اللهم إن كان فيه شبهة، فاحمني من أكله، فإن لم تحمني منه، فلا تجعله يقيم في بطني لحظة، وإن جعلته يقيم في بطني، فاحمني من الوقوع في المعاصي التي تنشأ منه عادة، فإن لم تحمني من المعاصي، فتب عليَّ، فإن لم تتب عليَّ فاعف عني، فإن لم تعف عني، فصبرني علىٰ العذاب يا أرحم الراحمين. والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بات عنده ضيف في رمضان، فأخرج له كسرة يابسة فقط، مع قدرته علىٰ التوسعة علىٰ الضيف، فأصبح الضيف يلوث به بين الناس، بأنه قد يكون فعل ذلك محبةً في حصول الأجر له، واعتقادًا فيه أنه يحب من يفعل معه ذلك أيام الصوم، كما عليه طائفة الفقراء، فيكرهون من يخرج له طعامًا كثيرًا في رمضان، فظنَّ هذا أن ذلك من الفقراء، فخاب ظنه فيه، فهو معذور، لأنه لم يفعل ذلك بخلًا، بل بنية صالحة، فلا حرج عليه في ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأكل من طعام الولاة، ولا يأكل من طعام العُبَّاد والزهاد، فلاث الناس به وقالوا: لو عكس الأمر لكان أولىٰ له، ولكن غالب الناس قد صار اليوم أعمىٰ القلب، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار حتىٰ يُسأل ذلك الشيخ عن حكمة ذلك، فربما كان طعام ذلك الأمير أتاه من وجه حلٍّ علىٰ يد ذلك الشيخ، كأن أهدىٰ شخص من أصحاب الشيخ لذلك الأمير خروفًا ولبنًا وأرزًا، فطبخه الأمير ذلك اليوم ودعا الشيخ إلىٰ الأكل منه.

وقد يكون طعام ذلك الزاهد أو العابد أتاه من وجه حرام، فقبله من صاحبه من غير تفتيش. وقد يكون ذلك إنما أهداه الناس له لاعتقادهم فيه الصلاح، فهو أخبث من مال

الأمير، لأن الأمير يأكل بجعالته[1] مثلاً، والعابد يأكل بدينه. فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، ولا تبادر للاعتراض وتقول: قد كسر الشيخ بخاطر ذلك العابد، فإن جبر الخاطر لا يكون إلا إذا كان الطعام لا شبهة ولا منَّة ولا مكافأة ونحو ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا دخل علىٰ عالم يعوده في مرضه، وقالوا له: ادع له بالشفاء، فأبىٰ فلاث الناس به، وقالوا له: إذا لم تدع له، فلأي شيء جئت؟! بأن هذا الشيخ ربما امتنع من الدعاء بحقٍّ، وذلك أن المرض يكون علىٰ ثلاثة أقسام لا رابع لها: إما عقوبة، وإما كفارة، وإما رفع درجات، فإن كان عقوبة، فلا ينبغي الدعاء إلا إذا بلغت العقوبة حدَّها وأشرفت علىٰ الختام، كما سبق به العلم الإلهيُّ، وكما يشفع ﷺ يوم القيامة فيمن حقَّ عليه دخول النار من عصاة الموحدين، فإنه لا يشفع فيهم إلا إن علم أن العقوبة قد أشرفت علىٰ الفراغ؛ وإن كان المرض كفارة لذنوب ذلك المريض، فلا ينبغي سؤال الشفاء منه قطعًا، فيحتاج العائد للمريض إلىٰ كشف أو فراسة، ليعلم ذلك المرض أي الأقسام. قالوا: ومن علامة العقوبة أن يكون المريض كثير الضجر والقلق والسخط لا صبر عنده. ومن علامة الكفارة أن يصحبه الصبر، وهو عدم الضجر. ومن علامة رفع الدرجات التلذذ به، وانشراح الصدر لدوامه، وكراهة الشفاء منه.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي امتنع من الدعاء للمريض علىٰ أنه رآه في أحد هذه الأقسام، [كأن] لم تشرف العقوبة علىٰ الفراغ. وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يدعو للمريض بالشفاء من باب المنة والفضل وينصرف، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يتحمل عن المريض مرضه، ويلوث به طلبة العلم ويقولون: لا يخلو إما أن يكون ذلك المريض قدَّر الله تعالىٰ له مدةً، فلا يصح لأحد أن ينقص منها لحظة، ولا أن ينتقل عنه إلىٰ غيره؛ وإن كان لم يقدره علىٰ

---

(١) الجَعَالَةُ: ما يُجْعلُ علىٰ العمل من أجرٍ.

ذلك المريض، فما حمل هذا الشيخ عنه شيئًا، إنما هي أوهام.

والجواب: أنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه قد يريد بالتحمل عن المريض ما لم يقدره الله تعالىٰ عليه حقيقةً، من باب النية الصالحة وتعليق الأسباب علىٰ مسبباتها، كمن رأىٰ حجرًا نازلًا علىٰ شخص رماه به أعداؤه، فتلقاه عنه، فصار ذلك الشخص يشكر فضْل من تلقاه عنه، ويحبه أشدَّ المحبة، ولو أنك قلت له: إن فلانًا لم يحمل عنك الحجر، لا يلتفت إليك.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: لا يصح لأحد أن يتحمل عن أحد ما قدَّره الله تعالىٰ عليه أبدًا، وما تحمله العابد عن المريض ليس هو عين مرض المريض، وإنما ذلك نظيره إن وقع أنه مرض حين ادعىٰ تحمله، وإن لم يمرض أُجِر علىٰ ذلك بالنية الصالحة، كما يؤجر من عزم علىٰ فعل خير فلم يقسم له، فيعطيه الله أجر نيته، قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوىٰ»[1] لم يقل: وإنما لكل امريء ما عمل، فافهم، والله أعلم.

(٤٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال له شخص: ادع الله لي أن يقسم لي الطاعات التي تستغرق عمري ليلًا ونهارًا، فأبىٰ ولم يدع له، فلاث به بعض الناس بسبب ذلك وقالوا: هذا سؤال مطلوب شرعًا، فكيف يتركه هذا الشيخ؟! ما هذا إلا لجهله بالشريعة! بأنه قد يكون ترك دعاءه له بذلك خوفًا عليه من رؤية نفسه بذلك علىٰ الناس، فاحتاط له، وقد سأل ثعلبة رسول الله ﷺ أن الله تعالىٰ يكثر ماله فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأعاد السؤال ثانيًا وثالثًا ورسول الله ﷺ يعرض عنه، ثم قال له: «يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيق القيام بشكره» فأبىٰ إلا أن رسول الله ﷺ يدعو له بكثرة المال، فقال ﷺ: «اللهم أكثر ماله» فلما كثر ماله، ترك صلاة الجماعة، ثم ترك صلاة الجمعة، ثم منع الزكاة، وقال لرسل رسول الله ﷺ: ما هذه إلا أخت الجزية! فأنزل الله تعالىٰ في شأنه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]، فلما أخبره بما أنزله الله في شأنه، أتىٰ بصدقته فلم يقبلها منه رسول الله ﷺ، فلما توفي ﷺ جاء بها إلىٰ أبي بكر فلم يقبلها، فلما توفي جاء بها إلىٰ عمر، فلم يقبلها، وتوفي في خلافة عثمان[1]. نسأل الله العافية، فكما خاف ﷺ علىٰ ثعلبة من الدعاء له بما طلب من حيثُ عاقبتُه، كذلك خاف هذا الشيخ علىٰ من سأله الدعاء له بكثرة الطاعات، فقل من تتوالىٰ عليه الطاعات ليلًا ونهارًا إلا ويرىٰ نفسه علىٰ إخوانه.

وقد كان سيدي علي الخواص إذا سأله إنسان أنه يدعو له بكثرة الصيام والقيام وتوالي الطاعات يقول: اللهم إن كان في ذلك خيرًا له، فأعطه ذلك، وإلا فاصرفه عنه. ويقول: إن الطاعات لها طغيان كطغيان المال.

[تعديل المؤلف بعض عهود «البحر المورود» بطلب من الشيخ شهاب الدين الحنفيّ]

ومما وقع أنني قلتُ في «العهود»: «أُخذ علينا العهود أن لا نطلب من الله تعالىٰ كثرة الطاعات» فرأىٰ ذلك الشيخ العالم الصالح الشيخ شهاب الدين ابن الجلبي الحنفي،فأتىٰ وقال: مقصودي ترفعون هذا العهد من الكتاب، فإن كثرة الطاعات مطلوبة شرعًا؛ فأطلعته علىٰ مرادي، فقال: قيِّد ذلك. فقلتُ: «إلا بشرط السلامة من الآفات التي تطرق المطيعين من الإعجاب ونحوه» فارتضىٰ مني ذلك رحمه الله.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: يجب علىٰ العبد الرضا باليسير من الرزق، ومن لم يقدر علىٰ القيام بشكر قليل النعمة، فهو بكثيرها أعجز. انتهىٰ، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والمشايخ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال: الحمد لله الذي نمتُ عن وردي في هذه الليلة؛ فلاث به الناس وقالوا: كيف يحمد الله علىٰ عدم وقوفه بين يدي الله تعالىٰ في الموكب

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٤٨)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٧٣).

الإلهيِّ في وقت يقول الله فيه: «هل من سائل فأعطيه سؤله؟ هل من [مبتلىٰ][١] فأعافيه؟ هل من مستغفر فاغفر له» ما هذا إلا من الجهل المبين، بأنه قد يريد الحمد علىٰ ذلك من حيث العافيةُ بقطع النظر عن وقوفه بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فإنه لولا العافية ما نام تلك الليلة.

وقد يكون الباعث له علىٰ الحمد المذكور شهوده قذارة نفسه ذاتًا وصفات، فغار علىٰ أهل ذلك الموكب أن يقف مثله في صفوفهم، حياءً منهم وتعظيمًا لحضرة الله تعالىٰ أن يقف فيها بين يديه وهو متلطخ بالمعاصي والرذائل، كما مر إيضاحُه أول الباب.

وكان أخي أفضل الدين ﵀ يقول: إذا فاتك قيام الليل، فاشكر الله علىٰ العافية حتىٰ لا يفوتك الأجر من جميع الوجوه. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٠٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا زار من اشتُهر بالسحر مثلًا وسأله الدعاء، ولاث به الناس وقالوا: مثل هذا لا ينبغي للعلماء والصالحين زيارته، لأن فيه إضلالًا للعوام، ويقولون: لولا أنه رجل عظيم ما زاره العلماء وأهل الصلاح، بأن ذلك العالم أو الشيخ قد يكون ممن غلب عليه حسن الظن بالمسلمين ورؤية محاسنهم دون مساوئهم، أو لم يبلغه سوء عن ذلك الشخص أبدًا، وإنما بلغه أنه من الصالحين، فزاره بتلك النية، فلا ينبغي الإنكار علىٰ مثل هذين الشيخين إلا بعد إعلامهما بما يترتب علىٰ زيارتهما من إضلال العامة. وكان من ذلك جوابي عن سيدي الشيخ ناصر الدين الطبلاوي[٢]، والشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني[٣] حين زارا شخصًا مشهورًا

---

(١) ساقط من الأصل، مستكمل من «الجواهر والدرر» للمصنف.

(٢) محمد بن سالم بن علي الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام، بقية السلف الكرام الشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي، أحد العلماء الأفراد بمصر. كان ﵁ مشهورًا في مصر برؤية رسول الله ﷺ وأقبل عليه الخلائق إقبالًا كثيرًا بسبب ذلك، فأشار عليه بعض الأولياء بإخفاء ذلك، فأخفاه. له مصنفات منها: «بداية القاري في ختم صحيح البخاري» توفي: عاشر جمادىٰ الآخرة ٩٦٦هـ ودفن في حوش الإمام الشافعي ﵁. «الكواكب السائرة» (٢/ ٣٣)، «شذرات الذهب» (١٠/ ٥٠٦).

(٣) محمد الخطيب شمس الدين الشربيني القاهري الشافعي. انتفع به خلائق لا يحصون، وأجمع أهل

بالنصب، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا كان عليه ثياب بيض مبخرة يوم الجمعة، فنزعها وخرج للجمعة في ثياب دنسة سود، فلاث الناس به وقالوا: هذا مخالف لما ثبت في السنة، بأنه قد يكون له عذر في ذلك، كأن كان مديونًا ولا يجد له وفاء، أو علم أن عدوه يحضر ذلك الجامع وخاف منه أن يتحرك عنده الحسد والعداوة زيادة علىٰ ما كان عليه، فإن أصعب ما علىٰ العدو رؤيته لعدوه وهو لابس ثيابًا نفيسة مبخرة، ولا يخفىٰ أن السنة إذا كان في طريقها أمر محرم يكون تركها أولىٰ ولو كان المحرم مظنونًا وقوعه. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين إلا بعد أن تستفهم عن ذلك الفعل.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: تخلقوا بالرحمة علىٰ عدوكم، واطلبوا من الله تعالىٰ أن يمنَّ عليه بتخفيف العداوة والشحناء من حيثُ ارتكابُه الإثم بسببكم، فلا تطلبوا الزيادة عليه من العداوة بلبسكم الثياب المبخرة، وصحبتكم مع الناس إذا مررتم عليه، فتهلكوه أو تدخلوا عليه الغم والكمد. انتهىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٤١١) ومما أجبتُ به عن شيخ الزواية إذا دُعي إلىٰ حضور في ختم درس أو عقد مجلس، فلم يحضر، فلاث به الناس وقالوا: لو حضره لازداد به علمًا، ولكنه شخص متكبر يحب الرياسة، وما وجد له رياسة في مثل مجالس العلماء، لكونهم أكثر علمًا منه ونحو ذلك، بأنه قد يكون يعلم من نفسه عدم القدرة علىٰ كتمانه ما يقع من الحاضرين من الغلط مثلًا في ذلك المجلس، وإذا كان في طريق السنة وقوع في محرم كان الأولىٰ تركه فضلًا عن البدعة. وغالب من يحضر مثل هذه المجالس يصير حكويًّا لما وقع فيه فيقول: فلان غلط، وفلان أراد الجلوس في صدر الحلقة فأخروه لأنه ما هو مقامه، وفلان رد علىٰ الشيخ بحق، وفلان لم يتكلم كلمةً لخبث باطنه، وفلان زجره فلان،

مصر صلاحه ووصفوه بالعلم والعمل، والزهد والورع، وكثرة النسك والعبادة، له مصنفات منها: «السراج المنير» في التفسير و«الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع» توفي: ٩٧٧هـ. «الكواكب السائرة» (٣/ ٧٢) و«شذرات الذهب» (١٠/ ٥٦١).

ونحو ذلك، فليس ترك ذلك الشيخ الحضور محبة في الرياسة، ولا لتكبره، ولا لدعواه الغنىٰ عن علم العلماء، ولا التنقيص لمن دعاه لحضور الختم، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا كان له عدو يؤذيه ويبالغ في إيذائه، ويشرب الخمر ويفسق، فمات فحزن الشيخ عليه وقال: مات من كان يحصل لنا الأجر والثواب بصبرنا عليه؛ فلاث به فقير وقال: لأجل حصول الثواب لك بالصبر تحب أن عدوك يعصي الله تعالىٰ! فقال: كيف؟! فقال: حزنك علىٰ موته من لازمه محبتك لعصيانه، بأن هذا الشيخ لم يقصد ذلك ولم يخطر له علىٰ بال، وإنما خطر في قلبه حصول الثواب بسبب حياته لا غير، بقطع النظر عن سبب حصول الأجر، ولا يؤاخذ الشخص إلا بما فعل، فكان في حزنه عليه إعلامنا بما أنعم الله تعالىٰ به عليه من جهة تحمله الأذىٰ من عدوه، لا إعلامنا بمحبته لإقامته بالمعصية، فافهم والله أعلم.

(٤١٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا قال لنقيبه: لا ترد شيئًا قط يعطيه الوزير فلان، أو المحتسب للفقراء أبدًا؛ فسمعه شخص من طلبة العلم، فلاث به وهتكه في المجالس وصار يقول: هؤلاء كلهم نصَّابون يأكلون الحرام، وقد سمعته بأذني يقول: كذا وكذا، لا حدثنا ولا أخبرنا[1]، بأنه قد يكون خاف من عداوة ذلك الأمير أو المحتسب إذا ردَّ هديته ويصير يعارضه في الشفاعات، ولا يقبل له شفاعة في مظلوم، لما هو عليه من شدة البأس، وكبر النفس، وضعف الاعتقاد.

ثم إنه لا يلزم من قول الشيخ للنقيب: «لا ترد من فلان شيئًا» أنه يأكل منه أو يطعمه لجماعته، فقد يرسله لمن هو محتاج إليه من الفقراء والمساكين. وقد فعلتُ مثل ذلك في ضحية أرسلها لي بعض الكشَّاف، فذبحتها وفرقتها علىٰ الكلاب، فاحمل يا أخي الفقراء علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يريد بقوله: «لا حدثنا ولا أخبرنا» التأكيد علىٰ كونه سمع بأذنه دون واسطة.

(٤١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا طلب أحد من طلبة العلم صحبته، فقال له: اترك العلم وأنا أصحبك؛ فلاث به وصار يقول: كيف يأمرني فلان بترك الاشتغال بالعلم الذي يقرب إلىٰ الله بإجماع، ويحفظ الشريعة عن الضياع؟! بأنه قد يكون اطلع من طريق كشفه علىٰ عدم إخلاص ذلك الطالب في علمه، فأراد له الوقوف عن زيادة العلم حتىٰ يداويه من ذلك الرياء، وإلا فكلٌّ من شمَّ رائحة طريق القوم يعلم أن سداها ولحمتها شريعة، فكيف يأمر الطالب بتركها؟!

وقد قال لي السيد الشريف يوسف بجامع الأزهر ﷺ: دخلتُ يومًا علىٰ سيدي عليٍّ المرصفي ﷺ، فسألته الصحبة، فقال لي: اترك دروسك كلَّها في العلم وتعال؛ فنفرت نفسي منه، فقال لي: يا ولدي، إنما طلبتُ بذلك مداواتَك بكثرة ذكر الله تعالىٰ حتىٰ ينجلي باطنك، وتشهد أن العلم كلَّه لله لا لك، وكذلك جميع أعمالك الصالحة، فتصير تضيف ذلك إلىٰ الله تعالىٰ، وتستحيي منه أن تضيف منه شيئًا لنفسك، فتخرج عن الشرك في علمك وعملك، وعن الرياء جملة؛ فيا ليتني أطعتُ الشيخ! انتهىٰ. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أشياخ الطريق إلا بعد أن تستفهمهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناهما يباسطان شربة الخمر، وأصحاب المكوس ونحوهما من أرباب المعاصي، ولاث الناس بهما بسبب ذلك وقالوا: الواجب علىٰ هؤلاء العلماء والأشياخ هجر مثل هؤلاء تقبيحًا لأفعالهم، لا إيناسهم بالكلام الحلو ومباسطتهم، بأن ذلك العالم أو الشيخ قد يريدان بذلك تأليفهم علىٰ الميل إليهما، لينصحاهم، فيقبلوا نصحهما.

وقد يكون ذلك العالم يرىٰ ذلك المكَّاس أخف ظلمًا من غيره، وطلب منه الولاة أن يزيد في الجباية[1]، فصار ذلك العالم يباسطه ويأمره بعدم الوقوع في الزيادة. وقد يكون ذلك العالم أيضًا يرىٰ هجر ذلك الظالم ليس هو لله، وإنما ذلك لحظ نفس، وكان علىٰ ذلك الشيخ عبد العزيز الديريني فكان يقول: كلامنا للعصاة وتقويم عوجهم أولىٰ

(١) بالأصلين: جهة.

من هجرهم، وإنما يليق الهجر بالعلماء الأكابر الغوّاصين على دقائق النفوس. انتهىٰ.

وأيضًا فربما كان أحدهم يرىٰ أخاه علىٰ بعض الرذائل ليلًا ونهارًا فلا يهجره، فلما وقع بينه وبينه أظهر فيه العُجَر والبُجَر[1]، وهجره وزعم أن هجرته لله، والحال أنها لحظ نفس. فحرر يا أخي سبب إنكارك، ثم أنكر، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا صاحب صاحبه أحدًا من المشهورين بالفساد، فلم ينهه عن مثل ذلك، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا غش للصاحب، والنصح من الإيمان، بأنه ربما كان ذلك العالم أو الشيخ يعرف من صاحبه الصدق والصلاح، ولولا أن ذلك الشخص المشهور بالفساد صالح ما صحبه، أو يكون ذلك الشخص من أهل الفساد حقيقةً وصحبه صاحبه ليبغضه في طريق الفساد. ومن كان يعتقد مثل ذلك، فليس له هجر صاحبه، لعدم السبب الموجب للهجرة.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: إذا صاحب صاحبك الذي هو صالح عندك أحدًا من الأشرار، فلا تتكدر منه، بل احمل ذلك الشرير علىٰ الصلاح، واجعل إشاعة الشر عنه لا حقيقة لها، بل هي من إشاعة الحسدة والأعداء، كما هو الغالب من الناس. انتهىٰ. فاعلم ذلك، ولا تنكر إلا ما تحققتَه بطريقه الشرعيِّ، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي دخل علىٰ عالم يزوره وقال: لولا أخاف أن نفسه تزداد كبرًا، لقبلتُ رجله بحضرة تلامذته، لأزيدهم اعتقادًا فيه، ولكن لي العذر في ذلك؛ فلاث به الفقراء وقالوا: ولأي شيء تسيء الظن بالعلماء وتجعلهم يتكبرون بتقبيل الناس أيديهم أو أرجلهم، ولم لا فعلت أنت الأدب معه وأحسنت به الظن؟!

والجواب: أنه يُحتمَل أن الفقير ترك تقبيل رجل العالم احتياطًا له، لا تحقيقًا لسوء الظن به، فرأىٰ تخليصه من شهود رؤية نفسه أولىٰ من طلب زيادة اعتقاد الطلبة. وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله يقبل رجل العالم، ويسأل الله تعالىٰ له

---

(١) بالأصلين: العجز والضجر.

أن يحفظه من رؤية نفسه بسبب ذلك.

فعُلِمَ أنه لا يلزم من ترك الفقير تقبيل رجل العالم سوء الظن به، وإنما عامله معاملة من يسيء به الظن من غير سوء ظن، وذلك لا يقدح في الفقير، وعليه يحمل حديث: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[1] أي عاملوهم معاملة من يسيء بهم الظن من غير أن يسيء بهم الظن، لأن سوء الظن لم يأمرنا به الشرع، والله أعلم.

(٤١٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا سأله أحد عن مسألة في الدين، فلم يجبه عنها مع معرفته بها، فلاث به السائل وقال: «من كتم علمًا أُلجِم بلجام من نار يوم القيامة»[2]، بأنه قد يكون ذلك الإنسان سأل الشيخ عن تلك المسألة وقلبه غافل عن الله وعن العمل بها وعن الشيخ، والأشياخ لا يجيبون من يطلب العلم مع الغفلة، فأراد الشيخ بذلك تعليم ذلك السائل الأدب، وإلا فهو يعلم أن العبد ربما خاطب ربَّه في الصلاة وهو غائب عن شهوده تعالىٰ ويحلم تعالىٰ عليه، فما قال الشيخ للمريد: «لا تسألني إلا وأنت مستحضر لي» حبًا للتبختر والرياسة، وإنما ذلك ليدمنه علىٰ الحضور مع الله تعالىٰ إذا خاطبه، فافهم واعرف مصطلح القوم، ثم بعد ذلك أنكر ما خالف الشرع، والحمد لله رب العالمين.

(٤١٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا سأله فقير شيئًا، وألح عليه فازداد عليه قساوة[3]، فلاث الناس به وقالوا: من شأن الفقراء أن يعطوا المحتاجين بلا سؤال، فكيف يمنعهم هذا بعد السؤال؟! ما هذا إلا خروج عن آداب أهل الطريق! بأنه لا يلزم من منعه أن يكون ذلك بخلًا، فقد يكون الشيخ إنما منعه لحكمة، إما ليخلصه من الاعتماد علىٰ الناس دون الله، أو لكون الشيخ كُشِفَ له أن ذلك الذي سأله فيه ليس هو من رزقه، أو رأىٰ عنده تكبرًا عنده السؤال لحظِّ نفس، فأراد أن يذل نفسه ونحو ذلك، ولا يخفىٰ أن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦٦).

(٣) بالأصلين: فساده. والمثبت هو الأليق بالسياق.

قلوب الفقراء أرقُّ من قلوب غيرهم، فلا يقسون علىٰ أحد إلا لحكمة. وقد سُئل الحسن البصري: إذا كثُر السائلون لنا فبمن نبدأ؟ فقال: بمن يرق قلبكم عليه أكثر. انتهىٰ، فإياك والاعتراض وحمل الفقراء علىٰ البخل، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا تردد إلىٰ أماكن الروافض وجالسهم وباسطهم، فلاث الناس به وقالوا: فلان يميل إلىٰ مذهب الروافض، بأنه ربما تردد إليهم ليسارقهم بفضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويعلمهم أن لمحبة أهل البيت حدًّا لا يتعدونه إلىٰ عداوة أحد من الصحابة، وأن من تعدَّىٰ إلىٰ ذلك فهو مخطيء، سواء كان أولئك الروافض يصرحون بالسب أو يخفونه عن غيرهم. ولا يلزم من إظهار العالم المحبة لخدَّام أهل البيت أن يكون رافضيًا، ولكن الورع في المنطق لم يزل في كلِّ عصر أعزَّ من الكبريت الأحمر. وكان الإمام الشافعي يعظِّم أهل البيت كثيرًا، فلاث به بعض الناس، فأنشد:

إن كان رفضًا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وكذلك أُخرِجَ الإمام البخاري من مدينة بخارىٰ بسبب ما قصَّه في حب أهل البيت[1].

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من يحب أهل البيت وخدَّامهم، بل الواجب عليك أن تشهد له بصدق المحبة لرسول الله ﷺ، إلا أن يظهر منه ما يخالف ظاهر الشريعة. وقد تردد إليَّ بعضُ الروافض الذين كانوا يسبُّون معاوية وعمرو بن العاص، فلا زلتُ بهم حتىٰ ترضوا عنهما، فالحمد لله رب العالمين.

---

(١) المعروف أن خروج الإمام البخاري من نيسابور بسبب محمد بن يحيىٰ الذهلي، وذلك لما رأىٰ «إقبال الناس إليه، واجتماعهم عليه فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول: اللفظ بالقرآن مخلوق، فامتحنوه في المجلس. فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أم غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه، فقال الرجل: يا أبا عبد الله فأعاد عليه القول، فأعرض عنه ثم قال في الثالثة، فالتفت إليه البخاري وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة. فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه وقعد البخاري في منزله». سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١١).

(٤٢١) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا أوصىٰ زوجته أن لا تتزوج أحدًا بعده، فلاث به الناس وقالوا: لا يخلو إما أن يكون كُشِفَ له أنها تتزوج بعده، فلا فائدة لوصيته لها، وإما أن يكون كُشِفَ له أنها لا تتزوج بعده، فلا فائدة لوصيتها، مع سوء أدبه مع الشارع ﷺ في مزاحمته له فيما خصَّه الله تعالىٰ به من النهي عن نكاح زوجاته من بعده، ولو أن ذلك ينبغي لغيره ﷺ، لمنع الصحابة من تزويج نساء أبي بكر وعمر وبقية العشرة المشهود لهم بالجنة.

والجواب: أن ذلك لا يقع إلا من أرباب الأحوال دون الكاملين. ومعلوم أن أرباب الأحوال حكمهم حكم المجاذيب الذين لا تكليف عليهم، وهم كجلبان السلطان الذين يُكرَمون لأجل حرمة السلطان لا لفضيلتهم.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقول: إياكم أن تتزوجوا زوجة مجذوب مات عنها أو جُذِبَ وهي في عصمته، فربما قتلوا الزوجة أو الزوج أو هما معًا، كما وقع لسيدي محمد الشويمي[١] وسيدي بهاء الدين[٢]، فالعمدة في ذلك علىٰ التجربة لا علىٰ دليل ورد عن الشارع. وقد قالوا لسيدي محمد المغربي شيخ الجلال السيوطي: هل تمنع من يتزوج عيالك من بعدك؟ فقال: لا، ذلك خصيص برسول الله ﷺ. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والإنكار إلا بطريق شرعيٍّ، لتكون في حماية الشارع، فإن أرباب الأحوال لا يعطبون إلا من أنكر عليهم تعصبًا لا نصرةً للشريعة. أما المستندون للشريعة فليس لأحد من أرباب الأحوال قدرة علىٰ التأثير في أحد منهم، أدبًا مع الشارع ﷺ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) محمد الشويمي ، كان من أرباب الأحوال العظيمة، وهو أحد المجاذيب المقيمين عند الشيخ مدين، قال السخاوي: كان من قدماء أصحابه ممن زرته ودعا لي بالمغفرة عقب رجوعه من الحج، مات في ذي القعدة سنة ٨٦٧هـ. «الضوء اللامع» (١٠/ ١٢٣)، «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٩١).

(٢) بهاء الدين المجذوب، كان من أكابر العارفين، وكان كشفه لا يخطيء، ومكاشفاته مشهورة بين الأكابر بمصر وعامة الناس، مات رحمه الله سنة نيف وعشرين وتسعمائة، وهو مدفون بالقرب من باب الشعرية بزاويته. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٢٥).

(٤٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال له مريد: يا سيدي، خذ عليَّ العهد أنني ما عدتُ أعصي الله تعالىٰ في المستقبل أبدًا؛ [فأبىٰ](١)، فلاث الناس به وقالوا: **كيف يطلب منه شخص أن يعزم أنه ما عاد يعصي الله عزَّ وجلَّ، فيأبىٰ؟! هذا خروج عن الطريق،** بأن ما فعله الشيخ أولىٰ مع هذا الطريق، فقد يكون كُشِفَ للشيخ أن ذلك المريد نقض عهد شيخه، ثم جاء يريد نقض عهد الشيخ الثاني، وأنه لا يخلو إما أن يكون الله تعالىٰ قدَّر علىٰ المريد المعصية بعد أخذ العهد عليه أم لا، فإن كان قدَّرها عليه ثم وقع فيها، كان عليه إثمان: إثم من جهة وقوعه في المعصية، وإثم من حيثُ نقضُه العهد. ولو أنه لم يأخذ عليه العهد بترك تلك المعصية، لكان عليه إثم واحد، وهو فعل المعصية. وأما إن كان الحقُّ تعالىٰ لم يقدِّر عليه معصية، فلا فائدة للعهد، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الكبير الذي تَلْمَذ لشخص لا يصلح أن يكون تلميذًا له، ولاث به الناس وقالوا: إنما فعل الشيخ ذلك استهزءًا بهذا الفقير، والاستهزاء لا يليق بأهل الطريق.

والجواب: أن ذلك قد لا يكون استهزاءً به، وإنما علم الشيخ بالقرائن كبر نفس ذلك الفقير وحبه للمشيخة، وعدم انكباس نفسه أنه يتلمذ لأحد من أقرانه، وما وجد هذا الشيخ طريقًا إلىٰ إرشاده إلا بأن يتلمذ له ظاهرًا، أو يصير يسأله سؤال جاهل بالطريق، ثم يقول له: الذي فهمتُه كذا وكذا، فهل ذلك صحيح أم لا؟ فيستفيد ذلك المتمشيخ الحكم، ولا يشعر به أحد. وهذه طريق دقيقة لا يعرفها كلُّ أحد، وهي من أعظم طرق السياسة. وكان أخي أفضل الدين يفعلها كثيرًا مع المتمشيخين. فعُلِمَ أن تلمذ الشيخ لهذا المريد لم يكن استهزاءً، وإنما هو رحمة به، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أذن لمريده بلبس الصوف قبل خمود بشريته،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

فلاث الناس به وقالوا: هذا خلاف ما درج عليه الأشياخ المتقدمون، بأنه قد يكون ألبسه الصوف حين كُوشِف بحاله، وأنه سيصير من الفقراء الصادقين وراثة محمدية، فقد ورد أنه ﷺ كان نبيًّا قبل أن يُخلق آدم عليه الصلاة والسلام[1]. انتهىٰ. فقد يكون هذا الشيخ لما تحقق أنه لا بد أن يبلغ مقام الكمال، قدَّم الخلعة علىٰ الولاية، من باب التعبير بالماضي عن المستقبل المحقَّق الحصول، فلا ينبغي الإنكار علىٰ الشيخ في مثل ذلك.

كما أنه قد يأذن للمريد في تربية المريدين قبل موته، ليكون معه الإذن في التربية إذا بلغ بعد موت أستاذه مقام الكمال، لئلا يكون دعيًّا في الطريق لا أب له، فيلوث الناس به ويقولون: من أجلسك؟ من أذن لك؟

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يلقن الشيخ المريد، فلا يظهر له شأن إلا بعد موته، فربما وقع له إذن من شيخ بعد موت شيخه، فيظن الناس أنه خليفة الثاني، والحال أن مدده إنما هو من شيخه الأول. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الصغير إذا لقَّن شيخًا أكبر منه سنًّا، ولاث الناس به وقالوا: كان من الأدب أن لا يجيبه أدبًا معه، ولكن ما بقيٰ أحد معه أدب! بأنه ربما كان مأذونًا للشيخ الحديث السن في تربية من هو أكبر منه سنًّا، لأن كبر سنِّ أهل الطريق إنما هو بكثرة العلم والسبق بالدخول فيها، وقد تلمذ للإمام الشافعي جماعة من العلماء كانوا في سن الإمام مالك، وتلمذ للإمام النووي جماعة كانوا في سن جدوده، وتلمذ لسيدي يوسف العجمي جماعة أسن منه، وهكذا، فلا اعتراض إلا علىٰ من لا قدم له في الطريق، أو كان دون ذلك التلميذ في العلم والمعرفة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يعرض للناس بأن يأخذوا عنه الطريق، ويلوث به الناس ويقولون: لو كان هذا شيخًا لما أذل الطريق، فإن من شأنها العزة بأن يكون صاحبها مطلوبًا لا طالبًا.

---

(١) تقدم تخريجه.

والجواب: أنه لا اعتراض على هذا الشيخ، لأن كلَّ داعٍ إلى الله إنما يدعو الناس إلى الله لا إلى نفسه، وربما أعطاه الله تعالى قوةً صار يدعو الناس إلى الله، ولا يزداد في عيون المدعوين إلا عزًّا وهيبة، مع أنه يرى نفسه دون المريدين، فهو يربيهم ويعلمهم الأدب في حال رؤيته أنهم أحسن حالًا، فلا يظن أن أحدًا من الأشياخ يظن أنه أكمل مقامًا من مريده أبدًا، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حقِّ أهل الطريق، واعتقد صدقهم إذا قالوا لك: تعال ندلك على الله، أي على أدب دخولك حضرته، فربما كان صادقًا في ذلك فلا تجيبه، فتندم حين لا ينفعك الندم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يكثر من أكل الشهوات ومن الجماع والنوم، ولاث به الفقراء بسبب ذلك وقالوا: هذه الأمور التي يفعلها فلان معدودة من فسق العارفين، وقد ذم الله تعالى الكفار بقوله في معرض التوبيخ لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وما ذم الله عليه الكفار، فالمؤمنون أولى بالذم عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي الاعتراض على الأشياخ بذلك من حيثُ ذاتُهم، فإن من مرتبة الأشياخ أن يصير أحدهم يحضر مع الله في كلِّ شيء، ومع كلِّ شيء، فلا يضره تناول الشهوات إلا لأمر خارجيّ، كأن يقتدي به أتباعه في مثل ذلك فيهلكون.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: عادات الأشياخ تنقلب لهم عبادات، بخلاف التلامذة، فمن أكل من الأشياخ الشهوات، أثيب [على] ذلك بالنية؛ ومن أكلها من المريدين حُجِبَ عن الله وتأخر في المقام. فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض على الأشياخ بالجهل، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي انطفى نور الاعتقاد فيه بين الناس بعد أن كان الأمراء والأكابر يترددون إليه ويعتقدونه، فلاث به الناس وقالوا: فلان سُلِبَ الصلاح الذي كان معه، بأنه لا يلزم من الخفاء بعد الشهرة نقص مقامه، بل ذلك أعلى، فإن الله تعالى يحبُّ من عباده الأخفياء الأبرياء الذين إن غابوا لم يُفتقَدوا، وإن حضروا لم يؤبه لهم[1].

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩) من حديث عمر بن الخطاب «أنه خرج يومًا إلى

وقد يكون ذلك الشيخ الذي اختفىٰ هو الذي سأل ربه في الخفاء، وأن يجعل ذلك الظهور الذي كان هو فيه لأقرانه، بشرط أن يحفظهم الله من الآفات، فإن الكامل لا يسعه غير الاشتغال بربه وحده.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: إذا أراد الله عزَّ وجلَّ بعبد خيرًا، جعل نوره في قلبه، ليعرف ما يأتي وما يذر، ويكون مجهولًا بين الناس. وإذا أراد الله بعبد شرًّا، جعل نوره علىٰ وجه، فاعتقده الخاص والعام، وحجبه بالناس عن ربه. وكان إذا رأىٰ فقيرًا نوره علىٰ وجهه يقول: اللهم اكفنا السوء بما شئت وكيف شئت، إنك علىٰ كلِّ شيء قدير.

وكان يقول: أكمل الناس في الفقراء من كان كالحمارة المحمَّلة، فإنك تراها منكسة الرأس صابرة علىٰ ثقل حملها، لا تعلم هو لمن، ولا تعلم بنفاسته ولا بخسته، ولا تطلب علىٰ ذلك عوضًا في الدارين، ولا تدري أين ينتهي بها حملها، فمثل هذا يخرج من الدنيا بثمرات أعماله كاملة موفرة لم ينقص منها شيء، بخلاف من كان بالضد من ذلك، فربما ذهب إلىٰ الآخرة صفر اليدين من الخير، لتبدد ثمرات أعماله في أودية المعتقدين له. انتهىٰ.

فاعلم ذلك واعتقد في الفقير الخامل الذكر أكثر من المشهور إن أردت الانتفاع به، والحمد لله رب العالمين.

(٤٢٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا توسوس في الوضوء أو مخارج الحروف في القراءة في الصلاة، ولاث الناس به وقالوا: كيف يدعي هذا الولاية وإبليس يلعب به؟ بأنه قد يكون إذا توضأ أو قرأ يحصل له حضور مع الله تعالىٰ، فيذهل عن نفسه، فكلما أفاق من تلك الدهشة، استقبلته دهشة أخرىٰ وهكذا، كما يعرف ذلك

مسجد رسول الله ﷺ فوجد معاذ بن جبل قاعدًا عند قبر النبي ﷺ يبكي؟ فقال: ما يبكيك؟ قال: يبكيني شيء سمعته من رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ، يقول: إن يسير الرياء شرك، وإن من عادىٰ لله وليًا، فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يُدْعَوا، ولم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدىٰ، يخرجون من كل غبراء مظلمة» والحاكم (٧٩٣٣) وقال الذهبي: صحيح، والطبراني في «الكبير» (٣٢١).

من له ذوق في مقامات المشاهدة للحقِّ تعالىٰ. وإيضاح ذلك أن السهو في الوضوء والصلاة له طريقان: طريق حجاب عن الله تعالىٰ، وطريق حجاب [عما سوىٰ الله](١)، واللائق بالأنبياء والأولياء حملهم علىٰ الثاني.

فإذن حمل هذا الشيخ علىٰ الذهول لأجل اشتغاله بمشاهدة جمال الحقِّ تعالىٰ أو مشاهدة جلاله أولىٰ من حمله علىٰ أن ذلك من الشيطان. فالكاملون دائمًا دهشىٰ بين جلاله وجماله، ولولا أن الله تعالىٰ يمنُّ علىٰ أحدهم بالحجاب أو بإمداده بالقوة، لما عرف عدد ما يصلي، ولا معنىٰ ما يقرأ. وإن شككتَ في قولي هذا، فادخل الخلوة علىٰ يد شيخ، ورض نفسك بالجوع وترك الشهوات، فهناك تعرف صدقي. والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقرر لجماعته أن كل عوج يكون في زوجة الرجل أو خادمه أو دابته أصله منه، ثم نرىٰ زوجته تخالفه، وعبده يأبق، وحماره يشمص(٢)، وهو مع ذلك يدعي الاستقامة والصلاح، فكيف الحال؟

والجواب: أن القواعد أكثرها أغلبي لا كلي، فقد يكون هذا الشيخ مستقيمًا في نفسه ظاهرًا وباطنًا، ولكنه يحمل الأذىٰ عن الناس بصبره علىٰ نشوز المرأة، وإباق العبد، وشموص الحمار مثلًا بقصد الأجر والثواب. وقد ورد أن سارة ﷺ كان خلقها في غاية الحدة والشدة، حتىٰ شكا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام منها إلىٰ ربه، والحال أنه عليه الصلاة والسلام من أكرم المرسلين خلقًا، فافهم.

وممن أدركتهم من الأولياء المكملين يصبرون علىٰ عوج عيالهم وأصحابهم ودوابهم الشيخ محمد السروي، والشيخ علي الخواص، والشيخ عبد الحليم بن مصلح، كانوا في غاية الرياضة وحسن الخلق، ومع ذلك فكانت زوجة أحدهم تضربه وتهجره وتخرجه من البيت في البرد، فينام خارج الدار بلا غطاء ولا وطاء. وكان من أشدهم حدة وخلقًا زوجة سيدي علي الخواص ﷺ، ثم بعد ذلك لما ماتت تبع نعشها براية بيضاء علىٰ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) يشمص: تسرع بالكلام. ولعل المراد بها هنا أن حماره يهرب أو لا يطاوعه.

جريدة، فقالوا له في ذلك، فقال: كان لها فضل عليَّ، وما بقي أحد يحصل لي على يديه الخير مثلها.

فعُلِمَ أن قول الفضيل بن عياض: «إني لأعصي الله تعالىٰ فأعرف ذلك في خلق حماري وزوجتي وخادمي» جري علىٰ الغالب من أن المرأة صورة نفس زوجها، وكذلك الحمار والخادم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣١) ومما أجبتُ به عن شيخ مجلس الذكر إذا أسكت الجماعة عن الذكر وهم في وسط المجلس أقرب للهمة، فلاث به الفقراء وقالوا: كان ينبغي لهذا الشيخ الصبر علىٰ الفقراء حتىٰ يظهر منهم فتور عن الذكر، بأنه قد يكون ممن له حال مع الله تعالىٰ وأمارة يعرف بها وقت السكون ووقت الذكر، من حصول انشراح في قلبه أو قبض، فحمل الشيخ علىٰ أنه إنما أسكتهم عن الذكر عملًا بتلك العلامة دون الغفلة والهوىٰ أولىٰ.

وكان سيدي عليٌّ المرصفيُّ ﷺ لا يسكت الفقراء في مجلس الذكر إلا بعد قوله بقلبه: دستور يا رب اسكت عبادك عن الذكر، ليخرجوا إلىٰ ما كُلِفوا به من أمر معاشهم، أو دستور يا رسول الله اسكت هؤلاء الذاكرين. ثم ينتظر ما يحصل في قلبه من إسكاتهم أو استمرارهم في الذكر، ويقول: إن رسول الله ﷺ هو الشيخ الحقيقي لنا كلنا. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ أصحاب المراتب، فإن الله حكَّم كلَّ صاحب مرتبة في مرتبته، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي ترك تلقين المريدين وتربيتهم بعد أن كان متصدرًا لذلك، ولاث به الناس وقالوا: إن حقيقة المشيخة هي النصح للأمة، ومن ترك المشيخة فقد ترك النصح، بأنه لا اعتراض علىٰ هذا الشيخ لأن حكم الوليِّ حكم أهل الولايات الظاهرة، فترىٰ أحدهم قائمًا بأحكام ولايته مادام متوليًا فيها، فإن عزله من له الولاية عليه وأمره بالاشتغال بأمر آخر فعله، فيُحمَل هذا الشيخ علىٰ أنه إنما ترك المشيخة بإذن كما كان دخلها بإذن.

وقد كان الشيخ نور الدين الحسني[1] متصدرًا لإرشاد المريدين وتربيتهم، فبينما هو يلقن جماعة من المريدين في مدرسة السلطان حسن بالرُّميلة[2]، إذ سمع قائلاً يقول: يا قفة شيوخ[3] بعثماني. فترك التلقين إلىٰ أن مات وقال: قد ألقىٰ الحقُّ تعالىٰ في قلبي [من] كلام هذا الشخص أن الطريق وأهلها قد رخصوا. وكان مع ذلك القائل قفة شيوخ خشب من التي يسرح النساء بها الكتان. وكذلك وقع لسيدي محمد الشناوي وسيدي أبي العباس الحريثي[4] رحمهما الله تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رضي الله عنه يقول: حكم من يتصدر لتربية المريدين في زماننا هذا حكم فقيه فتح المكتب يوم الخميس العصر، وطلب أن الأطفال الذين انصرفوا من الظهر إلىٰ دور أهلهم يأتونه فيقرؤون عليه، فبتقدير أن أهلهم يرسلونهم له قهرًا عليهم، فليس معه منهم إلا أجسامهم لا قلوبهم، فماذا تفعل الأجسام بلا قلوب؟! انتهىٰ.

وكان يقول: حكم الخلق الآن حكم الحجاج إذا رجعوا من الحج وأشرفوا علىٰ رؤية أوطانهم، وتفرق كلٌّ واحد لداره، فأراد إنسان أن يقطرهم[5] كما كانوا في ابتداء سفرهم، فلا يجيبه أحد، فهكذا حال الناس اليوم. وسمعته يقول: الناس اليوم في الدنيا

---

(١) نور الدين الحسني: كان مقيمًا في مدرسة السلطان حسن، وهو رفيق سيدي علي بن خليل المرصفي في الطريق. أخذ عنه خلائق لا يحصون. وكان جميل الأخلاق، إذا جلس عنده أحد لا يكاد يحب مفارقته. «الطبقات الوسطىٰ» (٢/ ١٧٩).

(٢) الرُّميلة: منطقة قريبة من قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين بالقاهرة. وفيها الآن جامع ومدرسة السلطان حسن وجامع الرفاعي.

(٣) قفة شيوخ: خشب من التي يسرح النساء بها الكتان. والعثماني: عملة قليلة القيمة.

(٤) الشيخ يوسف الحريثي -رضي الله تعالىٰ عنه- كان رضي الله عنه علىٰ قدم عظيم في اتباع السنة، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وكان يميل إلىٰ إخفاء العبادات جهده. كان رضي الله عنه يكره لولده أبي العباس رضي الله عنه تلقينه للناس الذكر ويقول: يا ولدي أيش بلانا بهذه الطريق، وكان علىٰ هضم النفس دائمًا. توفي رضي الله عنه: ٩٢٤هـ ودفن بجامع البشير رضي الله عنه. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٢٧)، «الكواكب الدرية» (٣/ ٤٧٠).

(٥) أي أن يرتبهم في تنسيق واحد كالقطار.

كأنهم في سفينة مشحونة بهم، وقد أشرفت بهم علىٰ ساحل الآخرة، وما بقي إلا نزولهم منها إلىٰ بر الآخرة، وما بقيت لهم داعية إلىٰ الرجوع إلىٰ الدنيا.

فاعلم ذلك، وسَلِّم للأشياخ أفعالهم، فإنك لم تُكلَّف بالإنكار علىٰ من هو أعلىٰ مقامًا منك لجهلك به، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٣) ومما أجبتُ به عن العلماء والمشايخ إذا دعاهم العامة إلىٰ السلطان أو نائبه إذا وقع بهم نازلة من ظلم ونفي، وضرب وحبس مثلًا وقالوا لهم: اشفعوا فينا عند ذلك السلطان أو نائبه، فأبوا وقالوا: ها أنتم وولاتكم. فلاث العامة بهم وقالوا: ما بقي علىٰ وجه الأرض الآن من يقوم في الدين ولا من يتحمل هموم المسلمين، بأن الاعتراض علىٰ هؤلاء العلماء والمشايخ جهل، ولا يلزم العلماء والأشياخ الشفاعة إلا فيمن أخذت[1] العقوبة فيه حدَّها، وأشرف علىٰ الفراغ منها. وأما من هو مُصِرٌّ علىٰ معصية ذلك السلطان أو الأمراء وليس علىٰ باله توبة منها، فالشفاعة فيه مردودة، لعدم استحقاقه الشفاعة فيه.

وحكم الخلق الآن مع تصاريف الأقدار حكم قوم خالفوا هدي رسلهم وحلَّ بهم الدمار، ولكن إن أراد العلماء والصالحون الشفاعة في عامة المسلمين، فلينادوا في جميع الرعية الذين ظُلِمُوا: معاشرَ المسلمين، توبوا إلىٰ الله تعالىٰ عن جميع الأمور التي تخالف شرع نبيكم، ونحن نشفع فيكم عند السلطان أو نائبه. فإن أجابوهم ولم يبق منهم واحد مخالف، فليشفعوا حينئذٍ، فإنهم يُجابون، وتكون الشفاعة حينئذٍ فكَّ مجلس، واستعمال المسبَّبات في أسبابها لا غير. انتهىٰ.

وسمعته مرة أخرىٰ يقول[2]: الظلم أمر مركب من الرعية والولاة، فيقدِّر الله تعالىٰ علىٰ الرعية الوقوع فيما سبق به العلم أنه يقع بين يدي الساعة، ويقدِّر علىٰ الولاة مؤاخذتهم بذنوبهم، أو ببعضها علىٰ حسب ما سبق في علمه، فكما لا سبيل للرعية إلىٰ ترك ما قدَّره الله عليهم مما سبق في علمه، فكذلك لا سبيل للولاة أن يتركوا عقوبتهم

---

(١) بالأصلين: أثبت. وما أثبتناه الأنسب للسياق.

(٢) كذا بالأصلين، ولعله يعني سيدي الخواص، ولعل الكلام السابق من كلامه، أو سقط قوله الأول عند النسخ.

التي جعلها الله علىٰ يديهم بحسب ما سبق في علمه. فإن قال الرعية للولاة: إن الله تعالىٰ نهاكم عن الظلم والجور فارجعوا عنا؛ قالوا لهم: استقيموا في أحوالكم واتركوا المعاصي سرًّا وجهرًا، ونحن نرجع عنكم. فإن قالوا: ذلك ليس في أيدينا؛ قال لهم الولاة: وكذلك ليس رجوعنا عنكم في أيدينا، إنما نحن مسلَّطون عليكم بذنوبكم، فكم زنىٰ أحدكم؟! وكم شرب الخمر؟! وكم ضرب المسلمين حتىٰ أدمىٰ جلودهم بغير حق؟! وكم حبسوا مظلومًا؟! وكم تعاونوا في بعضهم بعضًا، وأخرجوا بعضهم من أوطانهم؟! وكم؟! وكم؟! وكم؟! انتهىٰ.

فعُلِمَ أن طلب استقامة الخلق في هذه الدار ما بقي يمكن، لتحكم الوعد السابق من الشارع، فكذلك الحكم في الولاة. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين حين لم يجيبوك للشفاعة عند الولاة، فإنهم لهم أعذار لا تعرفها أنت، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا طلب أحد منه ورقة إلىٰ أمير مثلًا، فقال له: ما أنا فارغ لك، وليس لي قلب لذلك. فولَّىٰ وهو يسبُّ ذلك الشيخ ويقول: ما بقي أحد فيه خير، بأن ذلك الشيخ قد يكون في أمر أهم من تلك الحاجة، أو يكون من شرطه أنه إذا أرسل كتابه أو قاصده في حاجة، يصير ملاحظًا له كذا كذا يوم حتىٰ يصل إلىٰ ذلك الأمير، وربما كان عليه عدة حوائج مثل هذه الحاجة أو أهم منها، فيعجز عن ملاحظة الكلِّ جملة واحدة، وكلُّ من عمي عن ملاحظته، لم يقض ذلك الأمير له حاجة.

ومن هنا كنتُ أقول لمن طلب مني كتابًا ليسافر به للأمير الفلاني بعد عدة أيام: اصبر إلىٰ ليلة السفر، فإني لا أطيق ملاحظتك من هذا الوقت إلىٰ أن تقضىٰ حاجتك. انتهىٰ. وهذا سرٌّ قلَّ من يعرفه من الفقراء، فالحمد لله رب العالمين.

(٤٣٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دق أحد بابه، فغضب وتكدر غاية التكدير، وفعل بالداق ما لا خير فيه، فلاث الناس به وقالوا: هذا أمر سهل لا يحتاج إلىٰ كلِّ هذا التكدير والغضب! بأنه قد يكون في بيته في جمعية قلب مع الحقِّ جلَّ وعلا في حضرة

خشعت فيها الأصوات لا يعادلها شيء من مملكة الدنيا، فأراد ذلك الداق أن يخرجه من تلك الحضرة، فاستحق من ذلك الشيخ أن يقابله كما يقابل السلطان من يريد أن يأخذ مملكته منه. وورد في الحديث: «إذا كان أحدكم يصلي، فأراد إنسان أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبي فليقاتله فإنه شيطان»[1]. انتهىٰ. وذلك لأنه أراد أن يشغله عن مناجاة ربه، فكذلك من دق الباب.

فاعلم ذلك، وإياك والاعتراض علىٰ الفقير إذا غضب وخرجت أخلاقه علىٰ من دَقَّ عليه الباب، فإنه كمن ضربه بسيف، كما يعرف ذلك من سلك الطريق. وهو أولىٰ بالغضب ممن دخل عليه وهو يجامع زوجته بيقين، إذ التشويش والتكدير تابع لعظمة ذلك الأمر المحبوب الذي يذهب بذلك الدق، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لمريده إذا وجدت في حال مناجاتك أُنسًا ملأ قلبك، وخشوعًا هدَّ أركانك، فطلبت الزيادة منه، فاقطع تلك العبادة، فإنها تحجبك عن الله؛ فسمعه بعض المجادلين فلاث به وقال: كيف تأمره بقطع عبادة لأجل ما حصل له فيها من الإنس والخشوع؟! هذا أمر مخالف للشريعة، وقد مدح الله تعالىٰ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه أمر مريده بمعروف، وذلك أنه خاف عليه من وجود الأنس والخشوع أن يكون هو الباعث له علىٰ التهجد مثلًا، فيكون ذلك حظه من الله تعالىٰ، ومثل هذا لنفسه قام لا لله عزَّ وجلَّ.

وقد أجمع العارفون بالله عزَّ وجلَّ علىٰ أن الحقَّ جلَّ وعلا لا يصح لمخلوق الأنس به، لانتفاء المجانسة بينه تعالىٰ وبين عبده بوجه من الوجوه، فما أنس من أنس إلا بما من الله لا بالله، فافهم، فإن هذا أمر غلط فيه خلق كثير، وغاب عنهم أن حضرة ذات الحقِّ تعالىٰ حضرة هيبة وبهت، ورعدة وخوف، وذلك ينافي الأنس عند المحققين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩)، ومسلم (٥٠٥).

فعُلم أن هذا التلميذ ما أنس إلا بما هو مشاكل له من تقريبات الحقِّ تعالىٰ وخلعته التي خلعها عليه، لا بالله عزَّ وجلَّ، فلما خاف هذا الشيخ علىٰ مريده أن يقف علىٰ ما تجلىٰ لقلبه من المظهر [الذي خشع له، ومن الأنس بما تخيل أنه الحق. خاف عليه أن يكون يعبد ذلك المظهر][1] الذي أقامه من مخيلته، فيكون كالعابد للوثن، وتعالىٰ الله في علياء ذاته عما تخيله هذا المريد. ومن هنا قال العارفون: إن عبادة الله تعالىٰ مع الغيبة عن التخيل أقوىٰ في التنزيه من عبادة العبد بين يدي ربه كأنه يراه. فأراد هذا الشيخ لهذا المريد أن يقطع تلك العبادة حتىٰ يرقيه بالتدريج إلىٰ مقام يعبد الله تعالىٰ علىٰ الغيب من غير شهود له كما هي عبادة الأكابر، فيعبد أحدهم الله تعالىٰ وهو يعتقد أن الله تعالىٰ يراه ولا يراه هو.

وقد أجمعوا أيضًا علىٰ أنه ما عبده عينًا إلا الأنبياء وكُمَّل ورثتهم. وأما غيرهم فهم يعبدونه في المظاهر التي تجلت لقلوبهم، وبينهم وبينه سبعون ألف حجاب، فللحقِّ تعالىٰ أن يقول لهؤلاء: ما أحد منكم عرفني حتىٰ تكون عبادته لي، بخلاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكُمَّل ورثتهم، فإنهم عبدوه حقًّا، فافهم.

وقد أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه الصلاة والسلام: قل لفلان العابد: ما قبلتُ من عبادتك شيئًا، لأنك إنما تحب القيام في الظلام بين يدي لما تجده من اللذة والأنس، فلحظ نفسك قمت لا لي. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العارفين إلا بدليل صحيح شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال: قرأتُ الليلة في التهجد ألف ختم؛ فلاث به الناس لاسيما طلبة العلم وقالوا: هذا أمر تحيله العقل، وبعضهم يصير يسخر به ويضحك عليه.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأنه ما ادَّعىٰ إلا ممكنًا بين الفقراء عادة، وأين إيمان هذا المنكر بكرامات الأولياء التي هي فرع المعجزات؟! وإذا كانت الكرامة ليست من فعل العبد وإنما هي من فعل الله علىٰ يد ذلك العبد، فما

---

(١) ساقط من «ب».

وجه التوقف؟! فإن الله علىٰ كلِّ شيء قدير. وقد قالوا: من شكَّ في الكرامات شكَّ في المعجزات، ومن شكَّ في المعجزات شكَّ في القدرة، ومن شكَّ في القدرة كفر، فإنكار الكرامات سُلَّمٌ للكفر، نسأل الله العافية.

ولعل سبب إنكار الكرامات وقوف المنكر بعقله علىٰ أنها فعل العبد استقلالًا، وذلك جهل، ولو أنه أضافها لله تعالىٰ لما كان يجوز له التوقف، فوجه الكرامة حقيقة إنما هو إجابة الحقِّ تعالىٰ لذلك العبد المخصوص عنده فيما سأله فيه، كما يجيب النبي إلىٰ ظهور المعجزة التي طلبها قومه منه وقت التحدي به لا غير، فتكون إجابته إلىٰ ما طلب هو الكرامة، كما أن إجابة النبي ﷺ إلىٰ انشقاق القمر حين طلبه قومه هو المعجزة، وإلا فليس لعبد قدرة علىٰ أن يشق القمر نصفين، فافهم.

وقد آمنتُ بكرامات الأولياء أحياءً وأمواتًا. وقد وقع أن أخي الشيخ أبا العباس الحريثي رحمه الله جلس عندي مرةً في رمضان، فصليت المغرب والسنة بعده، وتعشينا طعامًا، ثم شرع يقرأ القرآن، فختمه قبل مغيب الشفق خمس مرات، فحكيت ذلك لسيدي الشيخ عليٍّ المرصفي رحمه الله فقال: بداية صالحة، وإن شاء الله تعالىٰ يصير يقرأ أكثر من ذلك. قال: وقد وقع لي أيام السلوك أنني قرأتُ القرآن في اليوم والليلة ثلاثمئة ألف ختمًا وستين ألف ختمًا، كلَّ مقدار درجة ألف ختم! فقلتُ له: يا سيدي بالحروف والأصوات؟! قال: نعم، ولكن هذا لا يكون إلا حين تغلب الروحانية علىٰ البشرية، فإن الروحانية في قدرتها أن تنطق [بمئة ألف حرف مثلًا معًا، بخلاف البشرية لا تقدر علىٰ النطق بحرف إلا بعد النطق][1] بما قبله من تلك الكلمة. انتهىٰ.

ومما وقع لي أني صليتُ خلف إمام الزاوية الصبح، فقرأ الإمام في الركعة الأولىٰ سورة «المزمل» فشرعت في قراءة «الفاتحة» فقرأتُ من أول «البقرة» إلىٰ محل قراءة الإمام في سورة «المزمل» قبل أن يركع، هذا أمر وقع لي وآمنتُ به، فإنه يجب علىٰ من وقعت علىٰ يديه الكرامة أن يؤمن بها كما يؤمن بها إذا وقعت علىٰ يد غيره، فاعلم

---

(١) ساقط من «ب».

ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق الذي يقوم للزبال أو القنواتي إذا مر عليه، ولاث به بعض المجادلين وقال: ليس هؤلاء من أهل الفضل الذين يُندَب القيام لهم عادة.

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار علىٰ مثل ذلك، لأن المراد بأهل الفضل كلُّ من كان له فضل عليك في علم أو عمل دنيوي أو أخروي، كالحدَّاد والحرَّاث والطبَّاخ وغيرهم ممن لا يرتكب كبيرة، ولا يصر علىٰ صغيرة، ويصلي الصلوات في أوقاتها، ويقوم الليل، فإن هؤلاء وافقوا الناس في العبادة، وزادوا عليهم بالحِرَف التي تنفعهم، فكم يتغدىٰ أو يتعشىٰ من طعام الطباخ إنسان، وكم يغتسل من الحمام الذي سخنوا ماءه بقمامة الزبال خلائق في الشتاء وغيره، ولولا ذلك الماء المسخَّن لربما أخرج خلق كثير صلاة الصبح عن وقتها.

وكان سيدي عليٌّ الخواص يقوم للقنواتي[1] كلما مر عليه، ويقول: هذا قائم عنا بفرض كفاية، ونجَّس بدنه وثيابه لأجلنا. فقال له يومًا فقيه: إن كسب هذا مكروه، وكذلك الحجام. فقال الشيخ: هذا لا يقدح في كونهم أهل فضل علينا، لأن أهل الفضل عندنا هم كلُّ من شهدنا نفوسنا دونه. انتهىٰ.

وبالجملة فلا يتوقف في مثل القيام للزبال والقنواتي إلا أصحاب الأنفس الأبية، فإن هؤلاء أولىٰ بالقيام لهم من بعض حاشية الولاة الذين يقوم لهم هذا الفقيه. علىٰ أنه لا ينبغي المنازعة إلا في استحباب القيام لا في جوازه، وفاعل الجائز لا ينبغي الاعتراض عليه، فاعلم ذلك واهضم نفسك، فربما يكون ذلك الزبال أو القنواتي أفضل عند الله منك وأطهر قلبًا.

وقد قال لي مرة زبَّال كان في حمام الحردوتي: ما أتذكر أنني عصيتُ الله تعالىٰ قط منذ وعيتُ علىٰ نفسي. وكذلك قال لي جلبي من بيت الوالي، وكان قد طعن في السن، وكان ينام عندنا مدة سنين، ثم أنه استأجر له دكانًا وصار ينام فيه، فقلتُ له: لم تركت النوم عندنا؟! فقال: رأيتُ أعمىٰ عندكم تحرك بالليل وهو نائم، فخرج منه ريح في

---

(١) القنواتي: ما نسميه الآن بعامل المجاري.

المسجد، فخفتُ أن يخرج مني كذلك وأنا نائم. فانظر يا أخي إلىٰ حال جلبي الوالي الذي ربما كان أنك ترىٰ نفسك عليه، واحفظ لسانك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٣٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا حصل له مرض، فصار يصيح حتىٰ أقلق الجيران، فقال الناس: كيف يكون هذا شيخًا وهو يصيح من المرض كالأطفال؟! بأن ذلك لا يقدح في كماله، بل هو دليل علىٰ كماله كما مر تقريره في الجواب عن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام، فإن الكُمَّل قد رقت أرواحهم وأبدانهم، وزالت كثافتهم، وما بقي عندهم قوة في نفوسهم يقاومون بها القهر الإلهيَّ، فكان من فضل الله تعالىٰ أن حبسهم حال بدايتهم في مقام الصبر والتجلد وتجرع المرارات، ليعطيهم أجر الصابرين، ثم إنه الله تعالىٰ ينقلهم أواخر أعمارهم إلىٰ مقام الرضا، ليعطيهم أجر الراضين، ثم يردهم إلىٰ مقام الصبر بعد الرضا، لكون **أجر الصبر أعلىٰ من مقام الرضا** علىٰ خلاف ما يتبادر إلىٰ الأذهان، فرضا العبد عن ربه هو الأصل في مقام العبودية، والترقي إنما هو في وجود الألم والإحساس به. ومن هنا قال المحققون: الواجب علىٰ الراضي بالبلاء المتلذذ به الشكر لا التصبر ولا الصبر. وهنا أسرار يذوقها العارفون لو أظهرناها لرأيت عجبًا، فعُلِمَ أن الكامل هو من يتأثر من قرصة برغوث، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي قال: لا أحبُّ زيارة أحد من هؤلاء الفقهاء[1] لي، وكل يوم يزورني فيه فقيه يكون عندي معصية، فلاث الناس به وقالوا: هذا يزدري العلماء، ومن ازدرىٰ عالمًا كفر، بأنه قد لا يريد ما يتبادر إليه الأذهان، وإنما مراده إجلال العلماء عن أن يزوروا مثله من حيثُ حقارتُه عند نفسه. ومصداق ذلك أن هذا الفقير كثير الزيارة للعلماء والتبرك بهم، فلو أنه كان مقصوده بهذا الكلام ازدراءهم ما مشىٰ إليهم وزارهم في بيوتهم، فافهم. وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: لا ينبغي لفقير أن يمكِّن أحدًا من العلماء أن يزوره أبدًا، بل الذي ينبغي أن يذهب هو إليهم. انتهىٰ.

---

(١) بالأصلين: الفقراء. والصواب ما أثبتناه بدليل السياق.

وأنا بحمد الله تعالىٰ ممن يكره زيارة العلماء له إجلالًا لهم. وكثيرًا ما أجعل ثواب عملي بتقدير قبوله ذلك اليوم في صحائف أخي الشيخ الصالح شمس الدين الخطيب الشربيني، وفي صحائف أخي الشيخ الصالح سراج الدين الحانوتي، وأخي الشيخ الصالح الشيخ بدر الدين الشهاوي[١]، وأخي الشيخ الصالح عبد الرحمن الأجهوري[٢]، وأخي الشيخ الصالح شمس الدين البرهمتوشي[٣]، والشيخ شمس الدين الطَّنِّيخي[٤] ﷺ. ثم لا أرىٰ أن ذلك يكافئهم علىٰ مشيهم إليَّ، فاعلم ذلك، وإياك وحمل الفقراء علىٰ المحامل السيئة والتكبر، فإن ذلك جهل منك بأحوالهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤١) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال للأمير الذي يتردد إليه: إن كنت تجتمع بي فلا تجتمع بفلان، شخص من أقرانه، فلاث به الناس وقالوا: هذا دليل علىٰ محبة فلان لأبناء الدنيا وللرياسة، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ تعرف قصده بذلك، فقد يكون أراد نفع ذلك الأمير، حيثُ طلب منه أن يأخذ بيده في الشدائد،

---

(١) لم أقف له علىٰ ترجمة، لكن الشيخ كان من كبار العلماء حتىٰ إن المحبي في «خلاصة الأثر» (٤/ ٤٦٢) قال في ترجمة يحيىٰ بن أبي السعود بن يحيىٰ ابن الشيخ العلامة بدر الدين الشهاوي المصري. وللشيخ كتاب مطبوع بعنوان «الطراز المذهب في معرفة الصحيح من المذهب»، وقال محققه: كان حيًا سنة ٩٦١هـ.

(٢) زين الدّين عبد الرحمن الأجهوري المالكي الشيخ الإمام العلاّمة، الزاهد الخاشع، مفتي المسلمين. له مصنفات منها: «شرح مختصر الشيخ خليل» و«القول المصان عن البهتان» وكان الشيخ ناصر الدّين اللقاني إذا جاءته الفتيا يرسلها إليه من شدة إتقانه وحفظه للنقول. توفي: ٩٦١هـ في ربيع الأول، ودفن في زاويته المرتفعة داخل باب الشعرية. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٧٦) و«الكواكب السائرة» (٢/ ١٥٨).

(٣) الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الحنفي من مشايخ عصر الشعراني بمصر، تليذ الشيخ المغوسي الذي قام بالجامع الأزهر بالوعظ والتدريس مدة مديدة. سلم الوصول إلىٰ طبقات الفحول (٤/ ٢٤٨).

(٤) محمد بن محمود، الشيخ الصالح المجمع علىٰ جلالته ونفعه للعباد، الشيخ شمس الدين الطنيخي المصري، الشافعي إمام الجامع العمري. كان كريم النّفس، حافظًا للسانه، مقبلًا علىٰ شأنه، زاهدًا، خاشعًا، سريع الدمعة، لم يزاحم قطّ علىٰ شيء من وظائف الدنيا، رحمه الله تعالىٰ. توفي: ٩٦٣هـ. انظر: «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٩١) و«الكواكب السائرة» (٢/ ٥٧).

ويدفع عنه كيد الأعداء والحاسدين، فقال له: إن كنت تطلب مني ذلك، فاترك التردد لكلِّ أحد، وهناك يصح لي أن أدخل في حملتك بتوجه كامل. وهذا سر لا يعرفه كلُّ أحد، بل يظنون أن كثرة صحبة الأشياخ أقوىٰ من صحبة واحد، وذلك خلاف ما بنىٰ الله عليه الوجود في التوحيد، فمن طلب النصرة من شيخين، فكمن طلبها من ربين، فلا يصح له نصرة، فإياك وحمل الشيخ إذا نهىٰ الأمير عن الاجتماع بغيره علىٰ حب الانفراد بالمشيخة والصيت في بلده، فإن ذلك افتراء علىٰ الأشياخ، واحمله علىٰ النية الصالحة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل عليه أحد من أبناء الدنيا أو طلبة العلم، فلم يتبسم له ولم يحتفل بأمره، فخرج من عنده وهو يقطع في عرضه ويقول: أنا ظالم الذي أمشي إلىٰ واحد متكبر ونحو ذلك، بأنه ربما كان من رجال الله الذين يجب عليهم توديع الأنفاس الأربعة وعشرين ألف نفس في اليوم والليلة، فلا يترك نفسًا يفارقه إلا شاكرًا منه في ذلك بحضوره مع الله تعالىٰ، ومن حضر مع الله تعالىٰ لا يصير له التفات إلىٰ الخلق، فأكبر الملوك عنده في ذلك كآحاد العوام علىٰ حد سواء، فافهم.

وسمعت سيدي عليًّا الخواص ﵁ يقول: من أخلاق القوم الاشتغال بتوديع الدقائق والدرج والساعات، وخروج أوقات الصلوات، وتوديع الأيام والليالي والجمع، والشهور والسنين بالأعمال الصالحة، فلا يصير لأحدهم وجهة إلىٰ الخلق، وكيف حال من تشهد عليه هذه الأوقات كلها بما عمل فيها من القبائح والمعاصي؟! فإن حكم من كشف الله تعالىٰ عنه الحجاب من الصالحين حكم مجرم كثُرت جرائمه، واجتمعت عليه شهود عدول لا يرد لهم شهادة، فقبل الحاكم شهادتهم وهيأ لهم آلات العقوبة، وهو يرىٰ ذلك فلا يصير له وجهة للتبسم في وجه أحد، ولا أن يشتغل بالقيام له ومحادثته.

وكان أخي أفضل الدين ﵀ لا يكاد أحد يراه ضاحكًا، فقالوا له في ذلك، فقال: كيف أضحك وثلاثمئة وستون شاهدًا يشهدون عليّ بين يدي الله عزَّ وجلَّ؟! فقالوا له: وما ذاك؟! فقال: ما أفعل حركة مذمومة إلا وثلاثمئة وستون مفصلًا في جسدي يشهدون عليّ، أو كيف

أضحك وقد كتبت الملائكة أعمالي كلَّها في دواوين السماء؟! ما أعرف ماذا يفعل الله بي.

وقد بسطنا الكلام علىٰ عدد الدقائق والدرج والساعات والأيام والليالي والملائكة الكرام الكاتبين عند انسلاخ الجمعة والشهر والسنة في كتاب «المنن الكبرىٰ» فراجعها.
وإيضاح ما قلناه: أنه كلما زاد عدد الشهود كان الوليُّ أضيق صدرًا وأكثر حزنًا. فاعلم ذلك واحمل الفقراء علىٰ أحوالهم لا علىٰ أحوالك، واعذرهم في اشتغالهم بتوديع هذه الأمور عنك، وعن الإقبال عليك، لتسلم من سوء الظن، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا دخل عليه شيخ الإسلام وهو يقرر في شيء من رسائل القوم، فمضىٰ في تقريره ولم يعزم عليه أن يقرر، فلاث به جماعة شيخ الإسلام وقالوا: كان اللائق به أن يعزم علىٰ شيخ الإسلام أن يقرر من حيثُ كونُه أعلم منه، بأنه ربما قصد بعدم عزومته عليه في التقرير سترته بين الحاضرين من المريدين، فربما كان جاهلًا بمصطلح القوم، فقرر خلاف مرادهم، فافتضح بذلك، فكان عدم عزومة الشيخ عليه بالتقرير أولىٰ به، وأكثر أدبًا معه.

وقد وقع لي أنني كنتُ أقرر مرة في شيء من العقائد، فدخل علينا شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين الفتوحي الحنبلي[1] رحمه الله، فاشتدتُ عليه بالتقرير، فأبىٰ وقال: لا أعرف هذا الاصطلاح! فأعجب الحاضرون أدبه وإنصافه.

وحكىٰ الشيخ تاج الدين في كتاب «لطائف المنن» أن مشايخ الإسلام اجتمعوا في خيمة في وقعة المنصورة، كالشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ مكين الدين الأسمر[2] وأضرابهم، فبينما هم يقررون في «رسالة القشيري»

---

(١) أحمد بن عبد العزيز بن علي، شهاب الدين الفتوحي الحنبلي، المعروف بابن النجار قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية. مولده :٨٦٢هـ. ومشايخه تزيد علىٰ مائةٍ وثلاثين شيخًا وشيخة، وكان عالمًا عاملًا متواضعًا، طارحًا للتكلف. توفي: ٩٤٩هـ وصلي عليه غائبةً بدمشق يوم الجمعة يوم عيد الأضحىٰ منها. انظر: «الكواكب السائرة» (٢/ ١١٣) و«شذرات الذهب» (١٠/ ٣٩٦).

(٢) مكين الدين الأسمر عبد الله بن منصور بن علي المقريء، قرأ القرآن علىٰ أبي القاسم الصفراوي وأقرأ

إذ دخل عليهم الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ، فقالوا بأجمعهم: لا يقرر هذا الكلام إلا أنتم. فقال: أنتم بحمد الله مشايخ الإسلام وكبراء الوقت، وقد تكلمتم وما بقىٰ لكلام مثلي محل. فقال له الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لابد. وأطرقوا كلُّهم رؤوسهم، فحمد الله الشيخ أبو الحسن وصلَّىٰ علىٰ نبيه ﷺ، وشرع يتكلم، فصاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام وخرج من الخيمة، ونادىٰ بأعلىٰ صوته: هلموا إلىٰ هذا الكلام القريب العهد من الله تعالىٰ فاسمعوه! انتهىٰ.

فإياك يا أخي أن تعزم علىٰ أحد من أهل العلم أن يقرر في شيء من علوم القوم إلا إن كنت تعلم أنه يعرف مصطلح القوم ويقرر كلامهم علىٰ مرادهم وإلا فضحته، وإن طلبت سترته بين الجماعة، فقرر أنت ثم اعرض عليه كالمستشير له قيامًا بواجب حقِّه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان له جار مكَّاس أو مشاعلي يوسط الناس ويخوزقهم، ويضرب رقابهم بأمر الوالي، فمات فقدموه للصلاة عليه فلم يفعل، فلاث به الناس وقالوا: كان الواجب عليه أن يصلي علىٰ جاره وفاءً بحقه، بأنه ربما كان المانع لذلك العالم أو الشيخ شهود كثرة ذنوب نفسه وذنوب ذلك المشاعلي، فلم ير له وجهًا عند الله تعالىٰ يشفع به في جاره. ومن القواعد عند القوم أنه **لا ينبغي لأحد التقدُّم لمرتبة إلا إن كان من أهلها.** ومعلوم أن الصلاة علىٰ الميت شفاعة فيه، ولا ينبغي أن يتصدر للشفاعة إلا من ليس عليه ذنب، فالعالم أو الشيخ لما رأىٰ نفسه من أهل الذنوب، عرف ضعف عزمه عن إجابة دعائه في أن يرضي الله تعالىٰ عن ذلك المشاعلي جميعَ أخصامه، فترك ذلك لمن يكون أهلًا لذلك من العلماء والصالحين ممن ليس عليهم ذنب: إما لعدم وقوعهم فيه، وإما كونهم تابوا منه وقبل الله توبتهم.

ثم إن قدِّر أن الحاضرين كلَّهم شهدوا في أنفسهم هذا المشهد، وجب علىٰ واحد

جماعة، كان فقيهًا صوفيًا عارفًا كبيرًا، ذا مقامات ومنازلات ومكاشفات، وهو من أجل أتباع سيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ ت ٦٩٢هـ. «الوافي بالوفيات» (١٧/ ٣٤٤)، الكواكب الدرية» (٤/ ٦٠٣).

منهم أن يتقدم ويصلي بالناس قيامًا بفرض الكفاية وإلا أثموا كلُّهم. فاعلم ذلك، وأقم العذر للناس حسب الطاقة، وإياك والمبادرة بالإنكار، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال: لا أحب أن يعفو الله عني في هذا اليوم؛ فلاث به السامعون وقالوا: هذا لفظ لا يجوز، بأنه ربما كان بينه وبين الله علامة يعرف بها الذنوب التي يعفو الله تعالىٰ عنه فيها والتي يؤاخذه فيها، وكان من مقامه أنه لا يحب شيئًا إلا إن رأىٰ أن الحقَّ تعالىٰ يحب ذلك الشيء، فقال: لا أحب أن يعفو عني في هذا اليوم، فأحببتُ المؤاخذة، لكون الحق تعالىٰ أحبها لي، فافهم.

وكان بعضهم يقول: وعزتك وجلالك لولا ما ورد في الحديث أنك تحب العفو والعافية[1] ما أحببتُها. وهذا مقام عزيز قلَّ من يتخلق به، فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلىٰ مقامًا منك في العلم والمعرفة، فمن بادر إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، ربما استدرجه الشيطان إلىٰ الإنكار علىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد كان الإمام الشافعي يقول: الإنكار فرع من النفاق. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا طلب منه أمير أو محتسب المؤاخاة فأبىٰ، ولاث به الناس وقالوا: كان ينبغي له أن يجيبه إلىٰ الأخوة، ليصير يشفع عنده في المظلومين، ويطالبه بحقوق الصحبة، بأنه ربما كان ذلك العالم أو الشيخ رأىٰ من نفسه العجز عن القيام بشروط صحبة ذلك الأمير مثلًا، فقدَّم خلاص نفسه علىٰ الشفاعة في الناس مثلًا، فإن من شروط الأخوة عند القوم أن يطلب نفس الأخ بأن يشرك ذلك الظالم في جميع أعماله الصالحة، فيعطيه نصف ثواب أعماله، ويتحمل عنه نصف أوزاره، ومن لم يؤاخِ أخاه علىٰ مثل ذلك، فعزل صحبته أولىٰ.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٥١٢) من حديث أنس بن مالك، أن رجلاً جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله أي الدعاء أفضل؟ قال: سل ربك العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة. ثم أتاه في اليوم الثاني فقال: يا رسول الله أي الدعاء أفضل؟ فقال له مثل ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث فقال له مثل ذلك. قال: فإذا أعطيت العافية في الدنيا وأعطيتها في الآخرة فقد أفلح» وابن ماجة (٣٨٤٨) وأحمد (١٢٢٩١).

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من لم تطب نفسه على أن يتحمل عن الظالم جميع تبعاته يوم القيامة، فترك صحبته له أولى، فاعلم ذلك، وأقم المعاذير لكل من طلبت مؤاخاته فأبى، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم الكبير إذا عمل طعامًا واسعًا، وأوصى جماعته إذا استوى الطعام، فلا يعطوا أحدًا منه في وعاء، حتى يتعشى الناس الذين دعوناهم؛ فصار الجماعة يمنعون الناس، فلاث به الناس وقالوا: هذا شر الطعام بنص الشارع، ولو كان هذا الشيخ أو العالم يعمل بعلمه وقصد بطعامه وجه الله، ما منع أحدًا، بأن هذا الشيخ أو العالم لم يمنع أحدًا إلا لعلة أرادها في نفسه، واللائق بنا حمله على علة حسنة، كخوفه على الطعام أن يفرغ، فقدَّم من دعاهم إلى طعامه دون من لم يدعهم.

وليس هذا من باب دعوة الأغنياء دون الفقراء، إنما هو من باب تقديم جماعة في الأكل على جماعة، ولا منع من ذلك، لأنه لم يخص الفقراء بالتحجير، بل حجر على الفقراء والأغنياء معًا، ولا يكون طعامه شرَّ الطعام إلا إذا خص الأغنياء بالدعوة كما صرح به الحديث[1]، فتأمل، وإياك وحمل الناس على المحامل السيئة وتحجيرك عليهم في أموالهم وليسوا تحت حجرك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٨) ومما أجبتُ به عن العالم إذا نسب أحدًا من مشايخ عصره إلى البخل، كأن رأى دخله كثيرًا وليس عليه وارد، ومن علامة الولي السخاء وحسن الخلق، وفي الحديث: «ما جبل ولي لله تعالى إلا على السخاء وحسن الخلق»[2]، بأن هذا العالم معذور فيما نسبه إليه، فإن الإنسان ما له إلا الظاهر. ثم إن تكدَّر ذلك الشيخ من العالم إذا نسبه إلى البخل، فهو تكدير في غير محل، واللوم عليه لا على العالم حيثُ لم يطعم أحدًا شيئًا، فلو أطعم الناس لكان ذلك العالم هو أول من يشهد له بالكرم.

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٥١٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: «شر الطعام طعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله ﷺ» ومسلم (١٤٣٢).

(٢) تقدم تخريجه.

[لكن لا يخفىٰ علىٰ العالم أن من أولياء الله تعالىٰ من يقبض الله يده عن العطاء، ويبسط قلبه بالكرم][1] فيود أن لو كان جميع من علىٰ وجه الأرض يأخذ رزقه علىٰ يديه، فيعطيه الله تعالىٰ أجر من عال العالم كله بالنية الصالحة من غير أن يرىٰ له منة علىٰ أحد من خلق الله تعالىٰ، كما مر بيانه مرارًا في هذا الكتاب، فيكون هذا الولي من أكرم الخلق في دولة الباطن، ولا يشعر به كلُّ أحد.

فاعلم ذلك أيها العالم، وإياك والمبادرة إلىٰ نسبة أحد من مشايخ عصرك إلىٰ البخل حيث تراه لا يطعم أحدًا شيئًا، لاحتمال أن يكون من رجال الخفاء الذين حجبهم الله تعالىٰ عن أعين الخلق، وإن أنكرت عليه البخل، فأنكر وقلبك معظِّم له، **فإن كل من تظاهر لنا بشيء من المحاسن كالصلاح، فالأدب منا قبوله، فإن كان صادقًا فقد قمنا بما علينا، وإن كان كاذبًا رجع إثم ذلك عليه لا علينا**، فننكر عليه ما تظاهر به قيامًا بواجب الشرع، ونسلم له في الباطن ما يدعيه مما لا دليل عليه ظاهرًا.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إذا أراد الله بعبد خيرًا وأن يخرج من الدنيا برأس ماله كاملًا موفرًا، خلع عليه خلعة الكرم في باطنه، وقبض الدنيا عن يده، وذلك لأنه قلَّ من يتكرم علىٰ الناس في الظاهر إلا ويخطر علىٰ باله أن له فضلًا علىٰ الناس، ولو في حجة التحدث بالنعمة، فيرىٰ له فضلًا علىٰ الخلق مع الله تعالىٰ، لأن الجزء البشري الذي يدعي ذلك في الإنسان يدق ولا ينقطع، فلذلك حمىٰ الله وليَّه المخصوص من ذلك، وأعطاه الأجر التام بالنية من غير مباشرة للعمل الظاهر. انتهىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٤٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا صار يسمع آلات اللهو، ولاث الناس به بسبب ذلك وقالوا: كيف يكون ذلك عالمًا أو شيخًا وهو يقع في المحرمات، بأنه ربما يكون مذهبه أن الحكم دائر مع العلة في جميع الأمور لا في بعضها فقط، فرأىٰ أن سماع آلات الملاهي لا تلهيه عن ذكر الله ولا عن الصلاة، فقال بإباحته،

---

(١) سقط بالأصلين.

وإن كان عليه اللوم من حيثُ مخالفتُه لجمهور العلماء من أئمة المذاهب في قولهم بالتحريم، فاستفهم يا أخي من ذلك العالم أو ذلك الشيخ الأمر، ثم أنكر عليه الإنكار اللائق بالمختلف فيه أو المجتمع عليه.

ولم يزل أفراد من العلماء والفقراء في كلِّ عصر يحضرون سماع العود والطنبور، ويزعمون أن ذلك لا يورث عندهم غفلة، وبعض الناس يسلِّم لهم حالهم، وبعضهم ينكر عليهم. وممن بلغنا أنه كان يسمع العود من الصحابة معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، ومن تابع التابعين مسلم بن خالد الزنجي[1] شيخ الإمام الشافعي وشيخ الإمام البخاري، كان لا يملي الحديث حتىٰ يُضْرب العود بين يديه، ويُطلَق البخور بالنِّدِ والعنبر، ويجتمع خواص الحاضرين. ومن المتأخرين جماعة منهم الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، وسيدي علي بن وفا، وجماعة كثيرون ذكرهم الشيخ أبو المواهب الشاذلي في كتابه الذي ألفه في حكم السماع، وقال: لو كان ذلك مفسِقًا عند الإمام الشافعي والإمام البخاري ما أخذا الحديث عن مسلم بن خالد الزنجي[2]، ثم بعد أن نقل تحريمه عن قوم وإباحته عن قوم، قال: وبالجملة فظاهر المذاهب الأربعة التحريم. انتهىٰ.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: من ادَّعىٰ أن سماع آلات اللهو لا تؤثر فيه، فأغضبوه علىٰ غفلة، فإن ملك نفسه ولم يغضب فهو صادق في أن سماع آلات اللهو لا تضره، وإن لم يصح لكم امتحانه، فاحملوه علىٰ أن ذلك لا يضره، وإن كان عليه اللوم شرعًا من جهة أنه حامٍ حول حمىٰ الله تعالىٰ، فإن تحريم الشرع علىٰ قسمين: قسم مقاصد، وقسم وسائل، ويسمىٰ الأول: التحريم الأصلي، ويسمىٰ الثاني: تحريم

---

(١) أبو خالد مسلم بن خالد المخزومي، الزنجي. المكي، مولىٰ بني مخزوم. ولد: ١٠٠هـ أو قبلها بيسير، تابعي من كبار الفقهاء. كان إمام أهل مكة. أصله من الشام. لقب بالزنجي لحمرته، أو علىٰ الضد، لبياضه. وبه تفقه الإمام الشافعي قبل أن يلقىٰ مالكًا. وهو الذي أذن للشافعي بالإفتاء، ت ١٩٧هـ وقيل: ١٨٠هـ. انظر: «السير» (٨/ ١٧٦)، «الأعلام» (٧/ ٢٢٢).

(٢) المنسوب إليه ضرب العود قبل التحديث من شيوخ الإمام الشافعي والبخاري هو إبراهيم بن سعد. انظر: «فرح الأسماع برخص السماع» أبو المواهب الشاذلي، (ص٦٥).

الحريم، وذلك كالاستمتاع بالحائض في الفرج حرام بالنص، وفيما بين السرة والركبة حرام تحريم الحريم، وكذلك تحريم نحو السمسمة أو قطرة الماء علىٰ الصائم هو من باب تحريم الحريم، فإنه لا يؤثر في البدن الشهوة المنافية لحكمة الصوم، بخلاف نحو اللقمة والتمرة، كما أوضحتُ ذلك في كتاب «المنن والأخلاق».

فأنكر يا أخي علىٰ الفقير الذي يسمع العود كإنكارك عليه الأمر المختلف فيه دون المجمع عليه قيامًا بظاهر الشريعة، وأنت مُسلِّم له في الباطن أن ذلك لا يؤثر فيه غفلة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو الصوفي إذا تكدر من تلميذه إذا فارقه وتبع طريقة شيخ آخر، ولاث الناس بهما، فقال الفقراء: لا ينبغي للعالم أن ينهىٰ أحدًا عن طريقنا، فإنها حقيقة الشريعة. وقال الفقهاء: لا ينبغي لصوفي أن ينكر علىٰ طريقنا لأنها أساس الحقيقة، بأن كلًّا من هذين الشيخين جاهل بحقيقة طريق صاحبه، ولو كانا يعلمان حسبة الشريعة والحقيقة ما أنكر أحدهما علىٰ من يجتمع بالآخر، بل كان كلٌّ منهما يؤيد الآخر. وقد قال القوم: شريعة بلا حقيقة عاطلة، وحقيقة بلا شريعة باطلة. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن الشريعة هي المشي علىٰ الظاهر من غير مطالبة بالحقائق، كما أشار إليه خبر: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّ الإسلام وحسابهم علىٰ الله»[1]. انتهىٰ. فما قال: «وحسابهم علىٰ الله» إلا إشارة إلىٰ أن هذه الدار يكفي الداعي إلىٰ الله تعالىٰ فيها من الدعوىٰ أن يطيعوه في الأمور الظاهرة فقط، ولم يؤمر أن يشق قلوبهم وينظر ما فيها، فإن ذلك إنما هو إلىٰ الله تعالىٰ يجازيهم به في الآخرة.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٥) من حديث ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم علىٰ الله» ومسلم (٢١).

وقد مكث المنافقون علىٰ عهد رسول الله ﷺ زمانًا طويلًا، ولولا ما أنزل الله تعالىٰ فيهم من الآيات ما نهاهم من حيثُ أمراضُ باطنهم، وذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ [التوبة: ٩٥]، وقوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦٢].

وبالجملة فمن كان مؤمنًا بما يفعل ويقول، فقد خرج عن النفاق، وكان حنيفيًا شرعيًا، ومن لم يؤمن كذلك حكمنا بإسلامه في هذه الدار، وأمره إلىٰ الله في الآخرة كما هو مقرر في كتب الأصول، فاعلم ذلك، ولا تنكر علىٰ الفقيه أو الفقير عرفًا إلا بعد علمك بأنه يعلم معه طريق الآخر وإلا أعلِمه بذلك، ثم أنكر عليه إذا خالف.

ولو كان العالم أو الصوفي كاملًا لما أنكر علىٰ الآخر ما هو سدىٰ طريقه ولحمها، إذ الشريعة والحقيقة لا يصح افتراقهما في نفس الأمر، وإنما يفترقان في مثل مسألة شهادة الزور إذا حكم بها الحاكم وهو لا يشعر بأنها زور، ولم يتبين له الأمر في الدنيا، بخلاف ما إذا حكم ببينة عادلة، فإن الحكم صحيح ظاهرًا وباطنًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا عانىٰ علم الرُّوحاني، ولاث به الناس وقالوا: لو كان هذا عالمًا أو شيخًا في الطريق، لعلم أن كلَّ ما لم يرد صريحًا في الكتاب والسنة لا ينبغي فعله، بل قال بعضهم: إن علم الرُّوحاني الذي فيه الطلسمات والتهاطيل حرام، لأن تلك الطلسمات أو التهاطيل ربما كانت كلمات كفر، فكيف يليق بالعالم أو الشيخ في الطريق فعلها وتعاطي أسباب المقت وسوء الظن به؟! فإنه لا يسمىٰ عند غالب الناس إلا بالساحر.

والجواب: أن العالم إذا كَمُلَ في مقام العلم أو المعرفة، أعطاه الله تعالىٰ أسرار العلوم والمعارف في اللغة السريانية والعبرانية زيادةً علىٰ اللغة العربية، فلا يكتب من الطلسمات والتهاطيل مثلًا إلا ما يعلم أنه من أسماء الله عزَّ وجلَّ المنزهة عن السب والنقائص، ولا يجوز لأحد حمل العلماء والأشياخ علىٰ أنهم جاهلون بمعاني تلك الأسماء والطلسمات والتهاطيل، فإن مقامهم يجل عن مثل ذلك، كما علموا معنىٰ

﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓر﴾ و﴿الٓمٓر﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿طسٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾، فللعلماء والعارفين الاطلاع علىٰ سائر الطرق الموصلة لقضاء حوائج الخلق في هذه الدار مما رتَّب الله تعالىٰ عليه أمرًا من الأمور، سواء أورد ذلك في الكتاب والسنة، أو استخرجه العلماء منهما. وربما علم ذلك العالم أو العارف أن ذلك التأثير الذي طلبه لا يكون إلا من طريق ما استخرجه العلماء من الكتاب والسنة، دون ما جاء صريحًا فيهما، فيأتي البيوت من أبوابها. وقد يكون ذكره الأسماء العبرانية أو السريانية أو الطلسمات دون أسماء الله العربية غيرةً علىٰ أسرار الله تعالىٰ أن تذاع بين من ليس من أهلها، كما أخفىٰ الله تعالىٰ اسمه الأعظم ولم يطلع عليه إلا الخواص، لئلا يفعلوا به الأفاعيل التي لا يليق فعلها مما لم يأذن فيه الشرع.

وقد وضع الأكابر من العلماء والصالحين الدوائر والخواتم بالأسماء العبرانية، كالإمام جابر بن حيان، وذيٰ النون المصري، والإمام الغزالي، والسهروردي، والإمام البوني[1]، وشيخ الإسلام ابن جماعة، والشيخ إبراهيم بن زُقاعة[2]، والشيخ عبد العزيز الديريني، والشيخ أبي الحسن الشاذلي، وجماعة لا يحصون، وتصرفوا بها في الكون، وحبسوا بها بول الأمراء والأكابر، ونفخوا بها بطونهم، وقطعوا بها رؤوسهم بإذن الله. ولولا علمهم بجواز مثل ذلك من قواعد الشريعة ما فعلوه، فهم وأسماؤهم وخواتمهم كالآلة لذلك التأثير، والله تعالىٰ هو الفاعل. وقد يكون ذلك الاسم السرياني أو العبراني مثلًا هو الاسم الأعظم وعمَّاه ذلك العالم أو العارف عن العوام.

---

(١) أحمد بن علي بن يوسف البوني، نسبة إلىٰ بونة بإفريقية، وهي اليوم عنابة في الجزائر. كان مجاب الدعوة، أخذ عن خلق، وانتمىٰ إليه جمع غفير. له عدة مؤلفات منها: «تنزيل الأرواح في قوالب الأشباح»، وغيرها.

(٢) برهان الدين إبراهيم بن محمد بن بهادر بن أحمد القرشيّ الغزي النّوفليّ الشّافعي، المعروف بابن زُقّاعة. ولد: ٧٤٥هـ. وتحول للقاهرة بعد الكائنة العظمىٰ بدمشق فقطنها وسكن مصر علىٰ شاطيء النيل له مصنفات منها: «دوحة الورد في معرفة النرد» و«لوامع الأنوار في سيرة الأبرار» توفي: ٨١٦هـ ودفن خارج باب النصر. انظر: «النجوم الزاهرة» (١٤/ ١٢٥) و«الضوء اللامع» (١/ ١٣٠).

وكان الشيخ إبراهيم الحصري[1] والشيخ شمس الدين الحنفي الشاذلي[2] والشيخ إبراهيم المتبولي ﷺ يتصرفون بالاسم الأعظم كثيرًا في الولاة بقدر تأديبهم ورجوعهم عن ظلم رعيتهم بحبس البول والضرب في الرأس والرمد، فإذا علموا أنهم تأدبوا ورجعوا، رفعوا ذلك عنهم، ويقولون: الفقير لا يد له ولا لسان ظاهرًا يرد به الولاة عن ظلمهم، وإنما يتصرف بسرِّه، ولا يُنسب إلىٰ ساكت قول، وبتقدير أن ذلك الأمير عرف أن ذلك من تصريف الشيخ فيه، فلا يمكنه الاطلاع علىٰ ذلك العلم الذي تصرف به فيه.

وقد كان السلطان الملك الأشرف[3] في أيام سيدي إبراهيم الجعبري يرمي الرمايا علىٰ الناس، فأرسل الشيخ يشفع عنده، فقال: الشيخ في زاويته يعبد الله، أيش له في أمور السلطنة؟! فحبس سيدي إبراهيم بوله، فعجز جميع الحكماء عن إطلاقه بكلِّ حيلة، فقالوا له: هذا من بركة الشيخ! فأرسل يستغيث به، فقال للرسول: قل له: تب إلىٰ الله عن ظلم الرعية وأنا اسأل الله تعالىٰ إطلاق بولك في هذا اليوم. فقال: تبتُ إلىٰ الله تعالىٰ عن ذلك. فأرسل له الشيخ إبريقًا فيه ماء، وقال: قولوا له: يستنجي بهذا الماء يفرج الله عنه. فكان بعد ذلك يحترم الشيخ إلىٰ أن مات ولا يرد له شفاعة.

---

(١) إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحصري، أديب من أهل القيروان. نسبته إلىٰ عمل الحصر. له مصنفات منها: «زهر الآداب وثمر الألباب» ومختصره «نور الطرف ونور الظرف» و«المصون في سر الهوىٰ المكنون» وله شعر فيه رقة، توفي ٤٥٣ هـ. «السير» (١٨/ ١٣٩)، «الأعلام» (١/ ٥٠).

(٢) محمد بن حسن بن علي التيمي البكري الشاذلي، أبو عبد الله شمس الدين الحنفي: صوفي مصري، من أهل القاهرة. كان ﷺ من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه. توفي: ٨٤٧هـ.انظر: «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٩)، «الأعلام» (٦/ ٨٨).

(٣) الملك الأشرف خليل بن قلاوون المنصور. تولىٰ السلطنة بعد وفاة والده المنصور قلاوون سنة (٦٨٩هـ) إلىٰ أن قتل سنة (٦٩٣هـ). كان شهمًا شجاعًا عالي الهمة، حسن النظر، كان قد عزم علىٰ غزو العراق واسترجاع تلك البلاد من أيدي التتار، واستعد لذلك، ونادىٰ به في بلاده. وقد فتح في مدة ملكه - وكانت ثلاث سنين - عكا وسائر السواحل، ولم يترك للفرنج فيها معلمًا ولا حجرًا، وفتح قلعة الروم وبهسنا وغيرها. والراجح أن واقعته مع سيدي إبراهيم الجعبري كانت أيام ولايته عهد أبيه قبل أن يتولىٰ السلطنة، فقد انتقل سيدي إبراهيم سنة (٦٨٧هـ).

وكذلك وقع أن شخصًا استفتىٰ القضاة الأربعة في منع سيدي إبراهيم من الجلوس علىٰ الكرسي وقال: إنه يلحن في الحديث. فامتنع ثلاثة من الإفتاء، وأفتىٰ واحد بمنعه، فبينما القضاة الأربعة نازلون من القلعة، إذ قال الشيخ لأهل مجلسه: قولوا معي: شقع بقع، يالله يقع. فوقع ذلك المفتي من فرسه[1]، فقصفت رقبته، فقال الثلاثة: الحمد لله الذي لم نفتِ بمنعه.

وكذلك وقع له مع نصراني بندر الطور حين رمىٰ الصابون علىٰ جماعته، وقال له: يا نصرانيُّ، إن رجعتَ ترمي علىٰ جماعتي شيئًا من الصابون، قطيت هذا القلم. فقال في نفسه: وما لك لا تقطه؟! فقطه فوقعت رأس النصراني.

وكذلك وقع لسيدي محمد الحنفي مع السلطان شعبان[2] حبس بوله، فلما تاب أرسل له رغيفًا مبسوسًا بزيت، وقال له: كُلْه يفرج عنك. فكان الأمر كذلك، فلم يزل يقبل شفاعته حتىٰ مات.

والأعمال بالنيات في مثل ذلك، والفاعل هو الله، ولا فرق في ذلك أن يكون حبس البول أو النفخ مثلًا بآلات يفعلها، أو بتوجه القلب إلىٰ الله تعالىٰ، فحكمه حكم دعوة الولي إذا صادفت قدْرًا.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: العلماء والأولياء أعرف بأسماء الله تعالىٰ السريانية والعبرانية من غيرهم، وأكثر تعظيمًا لها، ولكن لما رأوا الأسماء العربية كثيرة التداول فيما بين الناس ولم يعطوها حقَّها في التعظيم، لم يتصرفوا بها غيرةً عليها، وتصرفوا

---

(١) في «الطبقات الوسطىٰ» للمصنف: «ووعظ الناس يومًا فبكوا كلهم، فقال لهم: قولوا معي: شقع بقع، يالله يقع. فجاء الخبر أن بعض القضاة من المنكرين علىٰ الشيخ طلع للسلطان وشاوره أنه يمنع الشيخ من الجلوس للوعظ، فبينما القاضي نازل من الباب المدرج وإذا به وقع فانكسرت عنقه، وكان قاضي القضاة المالكية». الطبقات الوسطىٰ، (٢/ ٤٢)

(٢) الملك الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر بن المنصور قلاوون. بُويع وله من العمر قريب من العشر، وذلك سنة (٧٦٤هـ) بعد زوال مملكة الملك المنصور بن المظفر حاجي بن الملك الناصر محمد بن قلاوون. قُتل سنة (٧٧٨هـ).

بالأسماء المجهولة عند غالب الناس، كما حُكِي أن ذا النون المصري كان يلصق اليد المقطوعة والإصبع المقطوع بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» فلصق مرة يد سارق، فقال: سألتك بالله أن تعلمني هذا الاسم الذي تهمهم به على اليد فتلصق! فقال: أقول «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: بس...؛ فوقعت يده، ولم يقدر ذو النون على إلصاقها بعد ذلك.

وسمعته مرة أخرى يقول: يُشترَط في العالم أو الشيخ إذا تصرف أحدهما في الناس بما يكتبه أو يقوله أن يكون ذلك بقصد الإصلاح لا لحظِّ نفس، وأن لا يتصرف في أحد بما يسوؤه إلا بعد أن لم يسمع منه بالكلام الطيب.

قال: ومحكُّ الصدق في ذلك أن يتساوى عنده ظلم نفسه وظلم غيره، ومتى رجَّح ظلم نفسه بكثرة التوجه إلى الله تعالى مثلًا على ظلم غيره، خرج عن الأدب، إلا أن يكون مشهده أن نفسه أولى بدفع الأذى عنها من غيره، عملًا بحديث: «الأقربون أولى بالمعروف»[1]، ولا أقرب إلى الإنسان من نفسه.

فعُلِمَ أن العالم أو الشيخ ما عدل عن الآيات والأذكار الواردة في الكتاب والسنة وتصرف بغيرها إلا لحكمة. وقد يقوى عزم الولي وتوجهه إلى الله تعالى بالأسماء العبرانية والطلسمات مثلًا، ويضعف في توجهه بالأسماء العربية وعكسه، فيكون مع ما قوى به عزمه، فلا اعتراض عليه في كتابة الطلسمات، لأنه لم يعدل عن الآيات لاستهانته بها، وإنما هو لعدم وجود الصدق في توجهه بها من حيثُ الداعيةُ بها، فافهم، فالعلماء والأشياخ محفوظون إن شاء الله تعالى من الجهل بأسمائه ومعاني تلك الطلسمات والتهاطيل. ولو كانوا يجهلون معانيها ما قدموا على التصرف بها في منافع العباد، لعلمهم بأن الله تعالى رتَّب الأسباب على المسبَّبات، سواء أكانت كونية أو ربانية.

وقد بلغنا أن أهل مدينة سهرورد أنكروا على الشيخ شهاب الدين السهروردي، ورموه بالعظائم وقالوا: إن كان هذا وليًّا لله تعالى، فليظهر لنا كرامة! فتوجَّه إلى الله تعالى في إطفاء جميع النار التي في المدينة، وصاروا كلما قدحوا الزناد طفي شرره،

---

(١) تقدم تخريجه.

فجاؤوا إلىٰ الشيخ يطلبون تطييب خاطره، فقال القاضي: هذا سحر لا كرامة! فازدادوا إنكارًا، ورجعوا عن تطييب خاطره، فمكثوا سبعة أيام ولا ينضج عندهم طعام، فأتوا إليه، فقال: ما بقيت النار تخرج لكم إلا من دبر الكلب الميت الذي في حارة بني فلان بنفخ القاضي في دبره. فمسكوا القاضي وأكرهوه علىٰ ذلك، فلما نفخ في دبر الكلب خرجت جمرة من فمه، فأخذها الناس وتابوا إلىٰ الله تعالىٰ عن الإنكار. انتهىٰ. فاعلم ذلك والزم الأدب مع العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٢) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ في الطريق إذا كان له إخوان تربي هو وإياهم من الصغر في حارة واحدة علىٰ يد شيخ واحد، ثم رفع الله تعالىٰ رتبته عليهم بولاية دنيوية أو أخروية، كإمارة أوكمشيخة الإسلام والولاية الكبرىٰ، فالتهىٰ بأحوال تلك الولاية عن إخوانه، وصاروا لا يرون منه ذلك التبسم ولا ذلك الانبساط الذي كان يفعله معهم قبل تلك الولاية، فلاثوا به وتكدروا منه وقالوا: هذا من علامة وجود المكر والخبث في باطنه، وقد قال الإمام الشافعي: «شر الناس اللئيم. قالوا له: وما ذاك؟ فقال: لأنه إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه» وأكثروا من الاستدلال علىٰ أنه متكبر ونحو ذلك، بأنه لا يلزم من عدم إقباله علىٰ إخوانه وعدم مباسطته لهم الخبث واللوم والتكبر، لاحتمال أن يكون إنما فعل لاشتغاله بواجبات حقوق رعيته وتدبير مصالحهم الدنيوية أو الأخروية في طريق الظاهر أو الباطن، وكلام الإمام الشافعي إنما هو فيمن جفا أقاربه وأنكر معارفه احتقارًا لهم، بقرينة قوله ﷺ: إذا ولي أخوك ولاية، فارض منه بعشر الودِّ الذي كان منه قبلها، لأنه إنما كان يباسطك ويمازحك حين كان فارغًا من تلك الولاية، وقد أتاه ما يشغله عنك وجوبًا عليه، وغاية مباسطتك أن تكون من السنة، وثواب الواجب أعلىٰ من ثواب المستحب. انتهىٰ.

وقد كان الإمام عمر بن عبد العزيز كثير التبسم لأصحابه وخدمه وعياله، فلما ولي الخلافة لم يره أحد متبسمًا وقال: قد أتاني ما شغلني عن مثل ذلك، وضاق عمري عن المزح والمداعبة. فعذره الناس في ذلك، فأقم يا أخي العذر لمن صار عالمًا أو شيخًا في الطريق دونك.

(٤٥٣) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا أتاه مظلوم وقال له: يا سيدي، اقضِ حاجتي إما بسؤالك لله تعالىٰ بلا واسطة، وإما بواسطة كرسول الله ﷺ، أو غيره كالأمراء وحاشيتهم، فزجر السائل أو سكت، فلم يرد له جوابًا، فلاث به ذلك المظلوم وقال: النفس التي رأيتها مع فلان أعظم من نفس أمير المؤمنين، فيا رِيته[1] رد لي جوابًا! بأنه قد يكون في ذلك الوقت ممن غلب عليه التفويض والتسليم لله تعالىٰ وشهوده أنه أشفق علىٰ ذلك المظلوم من أمه، أو يكون ممن كُشِفَ له أن تلك الحاجة لا تُقضَىٰ علىٰ يديه، أو يكون سكوته لكونه يقضيها له بالقلب ولا يحب أن أحدًا يطلب عليه، كما هو الغالب من حال الأشياخ، وربما قضىٰ أحدهم الحاجة عند الله، ثم أرسل صاحبها إلىٰ شيخ آخر في حارته ليكبِّره في عينه حين رآه لا يعتقد فيه.

فالزم يا أخي الأدب، ولا تبادر بالإنكار علىٰ الشيخ إذا لم يرد لك جوابًا لاحتمال أن يكون أخذ في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ وقضاء حاجتك بمجرد سماع كلامك، فلم يبق له وجهة إلىٰ خطاب أحد من الخلق، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٤) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي لا نراه يصوم شيئًا من النوافِل، ولاث الناس به وقالوا: فلان ما هو فقير إلا بالاسم والزي، ولو كان فقيرًا لما أفطر يوم الاثنين والخميس والأيام البيض مثلًا. وقد رأينا كثيرًا من العوام الذين ليس لهم اسم في الفقر مواظبين علىٰ صيام الاثنين والخميس والأيام البيض والأشهر الحرم، وما تميز الفقراء إلا بكثرة العبادة ونحو ذلك من الألفاظ، بأن الشارع ﷺ ما سنَّ صيام هذه الأيام إلا للقادرين علىٰ الصوم كما هو معلوم من قواعد الشريعة، وربما يكون هذا الفقير ممن مزاجه حار لا يقبل الجوع، ويحصل له ضرر في جسمه أو في عقله، كما هو الغالب علىٰ الفقراء، فترىٰ أحدهم يتنفس فيخرج من فمه هواء حار كوهج النار.

وأنا بحمد الله ممن يضره الصوم لضعف بدني، وغالب أوقاتي أجرُّ رجلي جرًّا من الجوع تارة لعدم موافقة ما أجده من الطعام لمزاجي، وتارة لوجود شبهة فيه. وقد

---

(١) كذا بالأصلين، و«رِيته»- بكسر الراء- كلمة عامية مصرية تعني «ليته».

عرضتُ حالي مرةً علىٰ سيدي الشيخ عليٍّ المرصفي رحمه الله، فقال: مزاجك محدود، فلا تصم إلا ما تجد لك قدرة عليه. وسألتُه الخلوة، فقال: مزاجك لا يقبلها، ولكن افعلها ولو يومًا وليلة عملًا بالسنة. انتهىٰ.

فالزم يا أخي الأدب مع الفقراء، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار من غير دليل، فإنما الصوم لإضعاف الجوارح التي يُخاف من وقوعها في المعاصي إذا شبع العبد، والفقير من شرطه أن لا يأكل إلا عند الحاجة بقدر الضرورة، فلا تشتهي جوارحه المعصية، وقد كفاه الله المؤنة. ومصداق ذلك أن نراه قليل الكلام، ضعيف الصوت، قليل الضحك، قليل الغفلة، فلو أن الفقير المحتاط لنفسه رأىٰ عنده ميلًا للمعاصي، لكان صام وجاع وجاهد نفسه في ذلك، لكن ينبغي لمن مزاجه حار أن يخبر أصحابه بذلك، لئلا يلوثوا به، أو يقتدوا به في عدم الصوم، والله عليم حكيم، فاعلم ذلك. والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٥) ومما أجبتُ به عن بعض فقراء الزاوية وبعض الجيران الذي لا يحضرون مجالس الذكر التي فيها، أو لا يواظبون عليها، وصار فقراء الزاوية المواظبون علىٰ العبادة يلوثون بهم ويقولون: ما هذه إلا قساوة عظيمة لهذا المجلس الذي في الزاوية نحو ثلاثين سنة، ولا أحد من الجيران يحضره، وهم يسمعونه صباحًا ومساءً، بأن ذلك لم يُقسَم لهم أولًا. وقد يكون أحدهم ذاكرًا لله تعالىٰ بقلبه وهو في بيته من افتتاح المجلس إلىٰ انتهائه. وقد يكون له عذر شرعي في نفس الأمر يستحيي أن يذكره لفقراء الزاوية.

وقد يكون الفقير المنكِر عليه ممن يعجبه عمله، ويرىٰ به نفسه علىٰ إخوانه، حتىٰ ربما ظنَّ بنفسه أن الله تعالىٰ يدخله الجنة بغير حساب دون ذلك الفقير الذي لم يحضر مجلس الذكر، والحال بالعكس.

فإياك يا أخي أن تزدري أحدًا من فقراء الزاوية الذين لا يتعبدون بالذكر والقرآن الآن مثلًا، فربما كانوا أحسن حالًا منك مع الله تعالىٰ من حيثُ طهارةُ سرائرهم. وربما كانوا يعتقدون فيك الصلاح، ويعوِّلون علىٰ أخذك بيدهم يوم القيامة وأنت بالعكس، فتعتقد فيهم النقص وأنهم ليسوا بأهل أن يأخذوا بيد مثلك يوم القيامة، لما عندك من الكبر والإعجاب.

وهذا الأمر يقع فيه فقراء الزاوية كثيرًا في حقِّ إخوانهم، فترىٰ الذي يشتغل بالعلم أو الذكر أو تلاوة القرآن ويتهجد في الليل يزدري من لم يكن عنده اشتغال، فليحذروا من ذلك. فلم يزل جماعة من العلماء والأشياخ منهم من يطلع فقيهًا، ومنهم من يطلع خادمًا، ومنهم من يطلع حليسًا عشيرًا[1]، ومنهم من يطلع زغلاً بعد طول العشرة للفقراء، فالأشياخ كعمل الدجاج[2] ربما يطلع ثلثه فاسدًا قذرًا متننًا.

لكن لا بأس يا أخي بالعتاب اللطيف للفقير والجار اللذين لا يحضران المجلس من غير احتقار له، ويقول له: والله إني أودُّ لك يا أخي أن لا يفوتك مجلس من مجالس الخير محبةً فيك، مع رؤيتك أن ذلك الجار أو الفقير حال تركه للذكر معك أحسن حالًا منك وأحب إلىٰ الله تعالىٰ، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٦) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا دعا الناس إلىٰ أخذه العهد عليهم من مشايخ الأسواق والدلالين والطباخين وغيرهم ممن لا يتفرغ عادة للتقيد بآداب الطريق، ولاث الناس به وقالوا: كيف يدعو هذا الشيخ فلانًا وفلانًا إلىٰ أن يتلمذوا له، مع عدم داعيتهم للطريق؟! ما ذلك إلا خفة عقل وطلب رياسة، بأنه لا يجوز حمله علىٰ مثل ذلك، فربما قصد بذلك إدخالهم في سلسلة القوم من حيثُ سندُهم بالتلقين، ليصيروا محفوظين ببركة أولياء الله الذين هم في السلسلة، ولم يقصد بذلك تسليكهم الطريق، أو قصد ذلك إحسانًا للظن بالله تعالىٰ أن يلهمهم بعد دخولهم في السلسلة طلب طريق القوم، محبةً في تكثير سواد أهل الله تعالىٰ وأتباعهم.

فإياك يا أخي والدخول بين قلوب الخلق وبين ربهم، فإنك لم تكلف بمثل ذلك، واحمل الخلق علىٰ أحسن المحامل، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا طلب تجديد التلقين علىٰ جماعته كلَّ صباح

---

(١) حَلِسَ الرَّجُل بالمَكان وفِيه: لَزِمَهُ؛ والعشير: الصديق.

(٢) ربما يقصد بعمل الدجاج: بيض الدجاج، فقد يخرج من الدجاج فاسدًا.

ومساء، ولاث مشايخ العصر به وقالوا: هذا لم يُعهَد لأحد من الأشياخ الذين مضوا، إنما بلغنا أنهم يلقنونهم أولا ليدخلوهم في السلسلة، وثانيًا ليسلكوهم في المقامات لا غير، بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ، ولا الاحتجاج عليه بأحوال السلف الماضين، لأن الزمان قد أخذ في القهقرى، وضعفت همم المريدين كلَّ الضعف، بخلاف الأشياخ الماضين ومريديهم كانوا في غاية شدة العزم والهمة. فكان أحدهم ربما يتلقن على شيخه مرةً واحدةً، فيصير عزمه متوقدًا إلى أن يموت. فما لقن هذا الشيخ جماعته كلَّ يوم أو كلَّ قليل إلا لشهوده منهم خمود نار عزمهم وفتور همتهم، فقصد بذلك تحريك عزمهم إلى أفعال الطريق. ولو أنه علم منهم قوة العزم ما جدد عليهم التلقين.

وربما رآهم في غاية الهمة، ولكن قصد بذلك زيادة الحياة لقلوبهم، من باب: «الوضوء على الوضوء نور على نور». فإياك والمبادرة إلى الإنكار على الأشياخ، فإن مثلهم لا يجهل أحوال الطريق و[لا][1] يقع فيما لا ثمرة له، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق أو العالم الكبير إذا صار أحدهما يستجلب كلَّ من يدخل عليه ويقول: أي شيء بلغك اليوم من أخبار الناس؟! فلاث الفقراء به وقالوا: هذا أمر لا ينبغي لفقير أن يفعله، لاحتمال أن ذلك يجرُّ إلى ذكر نقائص الناس، بأنه ربما كان قصده من سماع أخبار الناس الدعاء لمن أصابه همٌّ أو غمٌّ، أو التأسي به في ذلك، وبأنه لا يقر الداخل عليه على الغيبة في أحد، بل ينكر عليه أشد الإنكار.

وقد كان السلف الصالحون يسألون عن إخوانهم وعن أحوالهم، فإن كان أحدهم محتاجًا إلى شيء واسوه به، أو مريضًا عادوه، أو صاحب مصيبة عزوه، أو محتاجًا إلى مساعدتهم في حاجة ساعدوه، ولا يرون بذلك بأسًا. فاحمل يا أخي هذا الشيخ الذي يسأل عن أخبار الناس على المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٥٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا استعان بالولاة على خصمه، واشتكاه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

من بيوتهم وغرَّمه فلوسًا وانتصر عليه، ولاث الناس به وقالوا: هذا ليس من صفات الأشياخ، ولو كان هذا شيخًا، لاحتمل أذىٰ خصمه، أو ردَّه عنه بتوجهه إلىٰ الله تعالىٰ، أو قلل شرَّه ونحو ذلك، بأن ذلك لا ينافي صفات الأشياخ من كلِّ وجه، فإن العارف مخيَّر بين احتمال الأذىٰ، وبين تأديب خصمه بشرِّه، وبين الاستعانة عليه بالحكام، ثم يرىٰ الحكام من جملة جند الله تعالىٰ له، وذلك الاستناد إليهم من جملة الاستعانة بالله تعالىٰ، لأن للحق تعالىٰ الفعل بآلة، والفعل بلا آلة، قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]، كلُّ ذلك من العارف يكون بحسب المصالح الشرعية لنفسه ولخصمه لا لحظِّ نفس. وقد قال المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي مع الله، فلم يخرجه ذلك عن الاستناد إلىٰ الله تعالىٰ، لأنه يرىٰ الناصرين له من قومه من جملة نصرة الله تعالىٰ له، فافهم.

فعُلِمَ أن الشيخ لا يخرج عن طريق القوم بالشكوىٰ إلىٰ الحكام، إلا إذا كان ذلك لحظ نفس محض، كما يقع فيه العوام، فيشتكي بعضهم بعضًا، ولا يرون أن الحكَّام من جملة نصرة الله لهم، بل يقصرون نصرهم عليهم، وهم غافلون عن الله تعالىٰ جملة، بخلاف العارف، فإنه حاضر بقلبه مع الله تعالىٰ حال خصامه وشكواه للحكام، كما يحضره في العبادة، بجامع أن كلًّا منهما طاعةً لله عزَّ وجلَّ، فيأخذ لنفسه حظَّها من الخصم إعطاءً لحقها الواجب لها عليه، وعملًا بالعدل بين ذاته وذات خصمه لا تشفيًا للنفس. فافهم وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العارفين لعلو مقامهم ومشاهدهم، كما لا ينبغي لآحاد العوام الإنكار علىٰ شيخ الإسلام في الأمور التي طريقها دقة الفهم ولم ترد صريحة عن الشارع، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٠) ومما أجبتُ به عن العالمين أو الشيخين في الطريق إذا صار كلٌّ واحد منهما يحط علىٰ الآخر ويرسل له الكلام الجافي، ولاث الناس بهما وقالوا: كيف يقع هؤلاء العلماء والصالحون في المشاحنة لبعضهم بعضًا وهما يعلمان أنه لا يُرفَع للمشاحن

عمل؟! ونحو ذلك من الألفاظ، بأنه يجب حمل كلٍّ من العالم أو الشيخ على أنه ما حطَّ علىٰ أخيه إلا بحقٍّ: إما تقبيحًا للأمور المذمومة في عينه، لئلا يقع فيها في المستقبل؛ وإما أن يكون وقع فيها فيما مضىٰ، كلُّ ذلك نصيحةً له ومصلحةً لا لغرض نفساني، فإن مقام العلماء والصالحين يجلُّ عن مثل ذلك، ولهم ذنوب فيما بينهم يهجرون بعضهم عليها لا يعدها غالب الناس ذنوبًا، فإذا رأىٰ أحدهم أن صاحبه لا يرجع إلىٰ ذلك الحقِّ الذي دعاه إليه إلا بالحط عليه حط عليه مصلحة له، وقيامًا بواجب نصحه مع أنه يود أن أخاه يرجع إلىٰ الحق بدون ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يجوز للعوام نسبة العلماء والصالحين إلىٰ المشاحنة إذا رأوهم يحط بعضهم علىٰ بعض، لأن ذلك إنما يقع منهم مبالغة في النصح، فهم في حال حطٍّ بعضهم علىٰ بعض يحبُّون بعضهم أشدَّ المحبة، بل بعضهم يحبُّ من حطَّ عليه أكثر ممن يجيب عنه وعن أحواله بالأجوبة الحسنة، ويقولون لنفوسهم عن ذلك الذي يحطُّ عليهم: هذا هو يحبُّك حقًّا. انتهىٰ.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: من لم يقَظ[1] أخاه مرات في نصحه له، لم يوف بحق نصحه، ولذلك قال السيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما تركت لي كلمة الحق من صديق. انتهىٰ، أي صديق في عرف الناس من الأعراب الذين كانوا يردون المدينة لبيع أو شراء، ويحتسب عليهم ويضربهم بالدِّرَّة ممن كان الناس يعدونهم من عوام الصحابة، وإلا فأكابر الصحابة لا يعدون صديقهم إلا من ينصحهم ويكلمهم بالحق من غير مداهنة، فافهم، وإياك والغلط. انتهىٰ.

فاحمل يا أخي الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وارفع مقامهم عن حظوظ الأنفس، وإلا خسرت بركتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ إذا خاصمه أحد بغير حقٍّ، وصار يحط عليه في المجالس، فأرشده إخوانه إلىٰ الصلح فأبىٰ، فلاثوا به وقالوا: من شرط

---

(١) يقَّظَه: نبهه وحذره.

العلماء العاملين والأشياخ من العارفين أن يسامحوا من آذاهم بغير حقٍّ، ثم يعتذروا بعد ذلك إليه، ويلوموا نفوسهم ويقولوا لها: أنت ظالمة علىٰ فلان، ولو أنك وافقتيه علىٰ أغراضه ما تكدَّر منكِ، ونحو ذلك من الألفاظ، بأن هذا العالم أو الشيخ ربما كان قصده بعدم البداءة بالصلح مصلحةً تعود عليه أو علىٰ خصمه، كأن كان في مقام الرياضة لنفسه وخاف إن بدأ ذلك الخصم بالصلح، تمادىٰ في غيِّه مع غيره من العلماء أو الفقراء، فكان عدم البداءة بالصلح أولىٰ له، وزجرًا لخصمه. وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: لا تبدأ بالصلح لمن خاصمك بغير حقٍّ، فتذل نفسك في غير محلٍّ، وتكبر نفسه بغير حقٍّ. انتهىٰ. وقال ﷺ: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان، فهو محمول علىٰ غير ما ذكرناه من المصالح.

وقد يُسأل العالم في براءة ذمة عدوه مما قاله فيه، فيأبىٰ لذكره الناس بسوء، كما وقع لشيخنا الشيخ جلال الدين السيوطي ﷺ، فإنه قال لخواص أصحابه عند الموت: اشهدوا عليَّ أنني أبرأتُ ذمة جميع من أذاني من الناس حال إيذائهم لي، وإنما أخفيتُ ذلك عنهم وضيَّقتُ في الرد عليهم تقبيحًا لذكرهم الناس بالنقائص، ورميهم بالظنون الكاذبة، ومصلحةً لتلامذتي لئلا تغير همتهم عن أخذ العلم عني إذا قبلوا تجريح الحسدة فيَّ. انتهىٰ.

فاعلم ذلك واحمل أحوال العلماء والصالحين علىٰ أحسن المحامل ولا ترجمهم بحجارتك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا قام أحدهما في المحافل لأحد من حاشية الظلمة أو غيرهم ممن لا يستحب القيام له، ولاث الحاضرون به وقالوا: هذا لا يليق بالعلماء والصالحين، ولكن ما بقي أحد إلا وهو يراعي أبناء الدنيا، ولو كان هذا فقيرًا ما قام أحد له ونحو ذلك، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ ذلك العالم أو الشيخ إذا قام لمن ذُكِرَ، لأنه ربما كان له عذر شرعي في ذلك، كأن يخاف مفسدةً من عدم القيام له ترجح ضررها عليه وعلىٰ جماعته علىٰ مفسدة القيام، كما قالوا فيمن يحب القيام له من الولاة: إننا نقوم له وندعوا الله تعالىٰ أنه لا يؤاخذه بذلك، وأن يكشف

له الحجاب حتىٰ يرىٰ نفسه من أحقر خلق الله، ويصير يتأذىٰ بالقيام له أكثر مما يتأذىٰ الأمراء وأصحاب الأنفس من عدم القيام لهم.

وقد كان شيخنا شيخ الإسلام زكريا وشيخ الإسلام الكمال القادري[1] يقومان لذي اللسان المتقي كالشعراء ونحوهم ممن لا يضبط لسانه في العلماء وغيرهم، ثم يستغفران الله تعالىٰ من مثل ذلك.

وثم جماعة من العلماء والفقراء غلب عليهم شهود نقائصهم وكمالات الناس، فيرون جميع المسلمين فوقهم في الفضل والكمال. فمثل هؤلاء غافلون عن ميزان من يستحق القيام ومن لا يستحقه، فتسلم لهم حالهم إن لم يقبلوا التعليم. والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٣) ومما أجبتُ به عن العلماء والصالحين إذا وضعوا خطوطهم مثلًا بتزكية أحد من الولاة في المحاضر، ولاث الناس بهم وقالوا: ما بقىٰ أحد يعمل بعلمه! كيف يزكي هؤلاء الأمير فلانًا أو القاضي فلانًا مع وقوعه في كذا وكذا؟! ويذكرون أمورًا تفسقه عندهم، بأنهم ربما كان لهم أعذار في ذلك لا يطلعون عليها كلُّ أحد، أو أدَّىٰ اجتهادهم إلىٰ أن ذلك القاضي أو المحتسب مثلًا أصلح من في البلد.

ثم إن وصفوا أحدًا من الولاة بزهد أو ورع أو خوف من الله تعالىٰ أو صلاح، حملناهم علىٰ أنهم وصفوهم بذلك بحسب اجتهادهم، أو متأولين ذلك بأنه زاهد بقدْر ما أعطاه الله تعالىٰ، ورع بقدْر ما رزقه الله، خائف بقدْر ما جعل الله في قلبه من الخوف، صالح بقدْر ما أعطاه الله تعالىٰ من صفات الصالحين، وأنه ليس مراده أهل هذه المقامات المعروفين بين العلماء والصوفية، فافهم، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين، فإنهم أعلم منك بأحكام الشريعة، واحمِ سمعك وبصرك وقلبك

---

(١) محمد بن علي الشيخ الإمام العلامة، قاضي القضاة شيخ الإسلام، كمال الدين الطويل القاهري الشافعي، قاضي الشافعية بالديار المصرية. ولد: ٨٤٦هـ. قال الشعراوي: كان إمامًا في العلوم والمعارف، متواضعًا عفيفًا ظريفًا، لا يكاد جليسه يمل من مجالسه انتهت إليه الرئاسة في العلم، ووقف الناس عند فتاويه، وكانت كتب مذهب الشافعي كأنها نصب عينيه ت بالقاهرة ٩٣٦هـ. «الكواكب السائرة» (٢/ ٤٥).

من الظنون الفاسدة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٤) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا عمل وليمة عرس أو ختان، وكتب بعض أسماء الناس الذين يحضرون من العلماء والفقراء دون بعض، فلاث به الذين لم يكتب أسماءهم وقالوا عنه: إنه لا يحبنا من قبل اليوم، ووقعوا في عرضه، بأنه ربما قصد بذلك إجلال الذين لم يحضروا عن الحضور، أو عدم إتعابهم نفوسهم في المشي إلىٰ مثله، لاسيما إن كان أحدهم ممن أكب الناس عليه في الاشتغال بالعلم أو الاستفتاء، أو كان مشغولًا بالتأليف أو مصالح زوجته الشديدة البأس عليه، أو ممن غلبت عليه مراقبة الله تعالىٰ في مكان دون مكان، فخاف أن يتفرق قلبه بالذهاب إلىٰ تلك الوليمة، ونحو ذلك من الأعذار التي لا تخفىٰ علىٰ من في قلبه نور.

ويحرم علىٰ من لم يُدعَ أن يحمله علىٰ التكبر أو العداوة، أو أنه ترك كتابة اسمه لغير غرض صحيح، أو أن يقع هو وجماعته في عرضه، فاعلم ذلك يا أخي، واحمِ سمعك وبصرك وقلبك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٥) ومما أجبتُ به عن العالم الذي ينهىٰ الناس عن مطالعة كتب التوحيد التي وضعها الصوفية، ويحطُّ علىٰ كلِّ من بلغه أنه يطالع فيها، لاسيما كتب الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ، ولاث به جماعة المريدين لأشياخ الطريق، وصاروا يقولون عن ذلك العالم: إن هذا منكِر علىٰ الأولياء، فيُخاف عليه سوء الخاتمة، بأنه لا يلزم من نهيه الناس عن مطالعة كتب الصوفية أن يكون منكِرًا لأصل طريق الأولياء، وإنما أنكر علىٰ من يطالع كتبهم خوفًا عليه من فهم شيء من أحوالهم علىٰ غير مرادهم، فيضل في نفسه ويضل غيره، ولا يلزم من ذلك أيضًا أن يكون يعتقد أن كلام الصوفية مخالف لظاهر الشريعة، فربما كان يعتقد أنه لبُّ الشريعة، ويتدين به في نفسه.

وقد أخبرني الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري[1] ﷺ أن الشيخ كمال الدين

---

(١) الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري، كان ﷺ من الراسخين في العلم، وانتهت إليه الرئاسة في علو السند

ابن أبي شريف ﷺ[1] سمع شخصًا ينشد كلام سيدي عمر بن الفارض ، فقال له: اسكت قطع الله لسان البعيد! ثم لما انصرف السامعون، أرسل وراء المنشد في بيته وقال له: اسمعني شيئًا من كلام هذا الأستاذ! فأنشده، فصار يتواجد حتىٰ وقعت عمامته، وقال له: إنما قلتُ لك اسكت خوفًا علىٰ السامعين من فهم شيء علىٰ غير وجهه عند القوم فيهلك، ولم يمكنني في ذلك المجلس إلا ذلك. انتهىٰ.

وكذلك بلغنا عن الشيخ عز الدين ابن جماعة أنه كان ينكر علىٰ جماعته مطالعة كتب الصوفية ويطالعها هو في بيته، حتىٰ إنه شرح كتاب «الفصوص» للشيخ محيي الدين شرحًا عظيمًا[2].

وكذلك بلغنا عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه كان يُقِرُّ الفقهاء المنكرين علىٰ الشيخ محيي الدين علىٰ إنكارهم، ويقول لخواص أصحابه: إن كان في هذا الزمان وليٌّ كامل لله عزَّ وجلَّ فهو الشيخ محيي الدين! فإذا قيل له في ذلك، يقول: إنما سكتُّ علىٰ كلام المنكرين علىٰ الشيخ لأنهم ما تعدوا فهمهم، ويجب عليهم إنكار كلِّ ما لم يفهموه من الكلام إذا كان ظاهره الفساد، وإن كان التسليم لهم أولىٰ في مذهب أهل الورع. انتهىٰ.

فاعلم ذلك أيها المريد، واحمل أنت وشيخك ذلك العالم الذي نهاك عن مطالعة كتب الصوفية علىٰ المحامل الحسنة، ولا يجوز لك ولا لشيخك نسبته إلىٰ كراهة أحد

بالكتب الستة وغيرها، وكان يقرأ السبع وله صوت بالمحراب لم يسمع السامعون في عصره مثله. وكان ﷺ يتفقد الأرامل، والمساكين، والعميان، ويتعب لهم في حوائجهم ت ٩٢٩هـ ودفن بتربته خارج باب النصر. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٢٦).

(١) محمد بن محمد بن أبي بكر بن علي المري القدسي، الشيخ كمال الدين أبو المعالي ابن أبي شريف الشافعي. ولد في ذي الحجة سنة: ٨٢٢هـ. بالقدس الشريف، ونشأ بها، وحفظ القرآن العظيم. ولازم خدمة العلم، فبرع في الفقه والأصلين والعربية، وغيرها. من تصانيفه: «حاشية علىٰ شرح العقائد» للتفتازاني و«حاشية علىٰ شرح جمع الجوامع» للجلال المحلي و«شرح الإرشاد في الفقه» لابن المقريء. ت ٩٠٦هـ بمصر. «شذرات الذهب» (١٠/ ٤٤)، «الأعلام» (٧/ ٥٣).

(٢) لم أقف عليه، فربما كان مقصد الشيخ أنه شرحه في بعض المجالس الخاصة، أو يكون المخطوط مفقودًا.

من أولياء الله تعالىٰ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٦) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا قال: أنا أحب من يؤذيني وينقصني في المجالس أكثر ممن يحسن إليَّ ويمدحنىٰ فيها؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقالوا له سرًّا: يكذب البعيد! فإن هذا [بعيد][1] **عن طبع البشر،** بأنه لا ينبغي لأحد تكذيبه في ذلك لا سرًّا ولا جهرًا، فإن الفقير إذا كُشِفَ حجابه ورأىٰ أهوال يوم القيامة وما يقع فيها من المؤاخذات، صار يرىٰ من أساء عليه أحب ممن أحسن إليه، بل يرىٰ جميع من في الوجود من المسلمين محسنًا إليه، إذ الناس ثلاثة أقسام لا رابع لها: محسن إلىٰ الناس بإعطائهم المال والطعام وغيرهما من منافع الدنيا؛ ومحسن إليهم بحسناته في الآخرة قهرًا عليه أو بطيبة خاطره، كما يقع لبعض الناس في دار الدنيا؛ ومحسن إليهم بعدم الإحسان بشيء من أمور الدنيا والآخرة من حيثُ إنه أعتقهم من تحملهم مننه في الدنيا والآخرة، ولاشك أن المحسن إليهم بحسناته في الآخرة أعلىٰ الأقسام في الإحسان، لأنه إنما يعطي الناس أعماله الصالحة التي تعب فيها في دار الدنيا، وإنما يتحمل عنهم من أوزارهم، فقول هذا الشيخ: أنا أحب من يسيء عليَّ أكثر ممن يحسن إليَّ حقٌّ وصدق، فإياك والمبادرة إلىٰ إنكار مشاهدة الفقراء بالجهل، وسلِّم لهم كل ما لم يرد النهي عنه في كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا خاف من السفر ليلًا أو نهارًا أيام قطع العرب الطريق، ولاث به بعض الناس وقالوا: لو كان هذا شيخًا صادقًا، ما خاف من قطَّاع الطريق، وكان لا يخشىٰ إلا الله تعالىٰ، كما جرىٰ عليه المشايخ الذين أدركناهم كفلان وفلان، بأنه لا ينبغي لأحد الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان لا يخاف إلا الله، ولكنه خاف علىٰ اللصوص من حصول الإثم بسببه أو بسبب جماعته. ولو أنه عرف من اللصوص أنهم يأخذون ثيابه مثلًا بغير ضرب أو جرح لما خاف من السفر المذكور، وكان يعطيهم ما طلبوا بطيبة نفس منه.

---

(١) زيادة يقتيضها السياق.

فإن قال قائل: كان ينبغي له أن يسافر ولو ضربوه أو جرحوه، ويبرئ ذمتهم في الدنيا والآخرة رجاء ثواب الله؛ **فالجواب**: أنه لا يجوز لمؤمن أن يعرض نفسه لمن يؤذيها من حيثُ إن الله تعالىٰ أمَّنه عليها وقال: ﴿ تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ولكن إن وقع له ضرب أو جرح من غير تعاطيه أسبابه، فلا حرج عليه، ثم إن العفو خير له، سواء تعاطىٰ السبب أم لا، فاعلم ذلك.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يخاف الولي من السفر في الليل وحده أو مع جماعة لا يكفون في رد قطَّاع الطريق، حياءً من الله عزَّ وجلَّ من حيثُ إنه الصاحب في السفر لأمور لا يمكن إفشاؤها بين العامة. قال: وقد وقع لي أنني قمتُ ليلةً أتهجد قبل أن تصف صفوف المتهجدين في سائر أقطار الأرض، فما كنتُ إلا هلكتُ، فإن المؤمن كثير بأخيه. قال: ومن هنا شَرَع الله تعالىٰ الجماعة في الصلوات رحمةً بعباده الذين يعرفون ما هي الصلاة، فلولا أن الحقَّ تعالىٰ آنسهم برؤية بعضهم بعضًا بين يديه، لربما تقطعت مفاصلهم! ويؤيد ذلك ما جاء في بعض طريق حديث الإسراء برسول الله ﷺ أنه سمع صوتًا يشبه صوت أبي بكر يقول له: «يا محمد، قف إن ربك يصلي»[1]، فآنسه في تلك الحضرة بسماع صوت أبي بكر. قال: وربما كان ذلك إنما جاء تشريعًا لأمته ﷺ. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٨) ومما أجبتُ به عن شيخ العلم أو الطريق إذا أرخىٰ علىٰ عينيه الطيلسان لما ركب في شوارع بلده مثلًا، ولم يقل لأحد السلام عليكم، أو سلموا عليه فلم يرد علىٰ أحد منهم السلام جهرًا، فلاث الناس به وقالوا: هذا تكبر ما رأينا مثله في الأمراء، بل رأينا الباشاه إذا ركب يصير يسلم علىٰ الناس يمينًا وشمالًا، بأن هذا الشيخ ربما كان سبب إرخائه الطيلسان مثلًا علىٰ عينيه الحياء من الله تعالىٰ، ثم أخذ في الجمعية بقلبه مع الله تعالىٰ، فلم يصر له

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٦٧٣) وأورده ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ١٤٣) وليس فيه ذكر لأبي بكر رضي الله عنه، وذكره القسطلاني في «المواهب اللدنية» (٢/ ٤٨٢) وفيه ذكر أبي بكر.

وجهة إلىٰ الخلق، كما مر تقريره في هذا الكتاب[1]، فهو عما نهمه المعترضون بمعزل.

فإن قال قائل: كيف يرخي الطيلسان حياءً من الله عزَّ وجلَّ، ومعلوم أن الحقَّ تعالىٰ لا يحجبه شيء؟ فالجواب: أن الشرع قد تبع العرف في كثير من المسائل، كوجوب السترة علىٰ المصلي في خلوة أو في ظلمة حيثُ لا يراه أحد من الخلق، فما عللتَ به ذلك، فعلل به إرخاء الطيلسان، فاعلم ذلك، واحمِ سمعك وبصرك.

وكان الإمام مالك رحمه الله يقول: أول من[2] ضرب الخيمة في طريق الحج من الخلفاء السيد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال لأصحابه: احجبوني عن الناس، فإني أستحيي من نظرهم إليَّ. انتهىٰ. وكلُّ مقام وقع لصحابي لا بد له ممن يقوم به إلىٰ يوم القيامة، فقد يكون صاحب هذا الطيلسان عثماني المقام، والحمد لله رب العالمين.

(٤٦٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا كان يسلِّك الناس ويرشدهم إلىٰ الخيرات، وأقبل الناس عليه إقبالًا كثيرًا وانتفعوا بعلمه وآدابه، ثم ترك ذلك كله وجلس في بيته لا يسأله أحد عن مسألة، فلاث به طلبة العلم وقالوا: لو دام علىٰ ما كان فيه أولًا، لكان أفضل له، بأنه قد يكون ممن كشف الله تعالىٰ له عن أمور الآخرة وأحوالها، فشرع في التأهب لها بتصفية الأعمال من الشوائب التي ما كان يلقي إليها باله حال اشتغاله بتعليم العلم، ولا شك أن كلَّ عمل دخل [فيه][3] الرياء والعجب مثلاً فتركه أولىٰ.

وقد كان الإمام الغزالي رحمه الله يقول لما دخل في طريق القوم: لقد ضيَّعنا عمرنا في البطالة. فقيل له: إنك قد صرتَ بذلك العلم حجة الإسلام! فقال: وما ينفعني التلقيب بحجة الإسلام إذا قال الله تعالىٰ لملائكته يوم القيامة: هاتوا حجة الإسلام أناقشه علىٰ كلِّ فعل فعله أو قول قاله، هل أراد به وجهي ونصرة شريعة نبيي، أو أراد بذلك الجاه في قلوب الناس ونشر الصيت بالعلم والصلاح؟ انتهىٰ.

---

(١) الجواب (٣١٦).

(٢) بالأصلين: ما. والصواب ما أثبتناه.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

وقال: كان السلف الصالح كلُّهم يتفقهون في دينهم أولًا، ثم يعتزلون الناس ويتأهبون لمعادهم بعد ذلك، فلا يكمل حالهم إلا بالعلم والتأهب، ولو أنهم تأهبوا بلا علم، أو علموا بلا تأهب، لفاتهم خير كثير.

وكان سيدي عليٌّ المرصفي رحمه الله يرغِّب طلبة العلم حال شبابهم في الاشتغال به، ثم إذا بلغ أحدهم ما قُسِمَ له يقول: تأهب يا أخي لمعادك، فقد صرتَ تعرف الحلال والحرام، والمحمود والمذموم، وما بقي إلا محاسبة النفس عما فعلت. وقال: ولا تكمل حالك إلا بذلك. ومن هنا قالوا: أعز شيء يكون في زماننا فقيه صوفي، أي لأن غالب الفقهاء ربما يموت وهو مقبل على الاشتغال بالعلم من غير إخلاص، لا يناقش نفسه في عمل من الأعمال.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من الأدب تسليم الصوفي للفقيه وعكسه، لأنه لا بد من قائم بكلٍّ من الطريقين في كلِّ عصر. ولو أن الفقيه طالب نفسه بالإخلاص في أول أمره، لألهاه ذلك عن التبحر في العلم، ولم يصل أحد إلى درجة الإفتاء والتدريس، فكان من رحمة الله بالأمة أن حجب عن العلماء أمر معادهم حتى يتبحروا في علم الشريعة، ويفتوا للناس ويدرسونهم، ولذلك كان علماء السلف يؤخرون شرح كتاب الجنائز إلى آخر أبواب الفقه، خوفًا أن تفتر همتهم عن الاشتغال بالعلم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: قد يرزق الله تعالى بعض عباده الإخلاص في علمه وعمله من بداية أمره، فلا يشغله العلم عن التأهب لمعاده، ولا التأهب لمعاده عن الاشتغال بالعلم، كما وقع للإمام البغوي[1] والشيخ أبي إسحاق الشيرازي[2] والإمام

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، المحدث المقرئ، صاحب التصانيف، وعالم أهل خراسان، كان سيدًا زاهدًا قانعًا. من مصنفاته: «شرح السنّة» و«معالم التنزيل» و«المصابيح» ت ٥١٦هـ بمَرْوُروذ، ودفن عند شيخه القاضي حسين. «مرآة الجنان» (٣/ ١٦٢) و«النجوم الزاهرة» (٥/ ٢٢٤).

(٢) إبراهيم بن علي بن يوسف أبو إسحاق الشيرازي الفيروزابادي، شيخ الشافعية في زمانه، لقبه جمال الدين. ومولده بفيروزاباد سنة: ٣٩٣هـ تفقه بشيراز على أبي عبد الله البيضاوي. من مصنفاته: «التنبيه» و«المهذب» و«التبصرة» توفي: ٤٧٦هـ. «الوافي بالوفيات» (٦/ ٤٢) «النجوم الزاهرة» (٥/ ١١٧).

الرافعي[1] والإمام النووي وأضرابهم، ولكن هذا النوع في العلماء قليل، فإن النفس إذا تعشَّقت العلم وحصل لها به رياسة، عسر عليها مفارقته.

وقد جاء الشيخ فخر الدين الرازي[2] إلىٰ الشيخ نجم الدين الكبرىٰ ببغداد يطلب الطريق إلىٰ الله تعالىٰ، فقال له الشيخ نجم الدين: أنت لا تصلح للطريق. فقال: يا سيدي إن شاء الله ببركتكم نقدر بإذن[3] الله تعالىٰ عليها. فقال له ثانيًا وثالثًا: لا تقدر، والشيخ فخر الدين لا يرجع، فقال له الشيخ نجم الدين: قم فادخل هذه الخلوة. ففعل، ثم توجه الشيخ نجم الدين إلىٰ الله في محو جميع ما كان في صدر الشيخ فخر الدين من العلوم، فصار جاهلًا في الحال كأنه لم يسمع بمسألة واحدة من تلك العلوم، فصاح بأعلىٰ صوته في الخلوة: لا أطيق! فقال له: اخرج. فلما خرج قال: أعجبني صدقك! إذا كنت لا تقدر علىٰ مفارقة حظك لحظة، فكيف تطلب الطريق إلىٰ الله تعالىٰ؟! أما علمتَ أن طريق القوم كلَّها مبنية علىٰ مخالفة النفس، وترك كلِّ ما دخلته النفس من علم وعمل. فقال: تبتُ إلىٰ الله تعالىٰ عن طلبها، حتىٰ تحصل لي عناية من الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: ليس الشأن أن يسلِّك الشيخ كلَّ يوم ألفًا من العوام، وإنما الشأن أن يسلِّك فقيهًا في مئة عام. انتهىٰ.

وقد عدوا من كرامات سيدي الشيخ أبي العباس المرسي أنه سلَّك ثلاثين قاضيًا. فاعلم يا أخي ذلك، وإياك والإنكار علىٰ من ترك تدريس العلم أواخر عمره، واشتغل

---

(١) أبو القاسم عبد الكريم ابن العلامة أبي الفضل محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسين الرافعي، القزويني. مولده: ٥٥٥هـ. فقيه، من كبار الشافعية، كان له مجلس بقزوين للتفسير والحديث، وتوفي فيها. من مصنفاته: «التدوين في ذكره أخبار قزوين» و«الإيجاز في أخطار الحجاز» و«المحرر» ت ٦٢٣هـ. «شذرات الذهب» (٧/ ١٨٩) «الأعلام» (٤/ ٥٥).

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري، الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب، الفقيه الشافعي. له مصنفات منها: «تفسير القرآن الكريم». توفي: ٦٠٦هـ. «وفيات الأعيان» (٤/ ٢٤٨) و«تاريخ الإسلام» (١٣/ ١٣٧).

(٣) بالأصلين: في.

ذلك، فيحس بضربه المقارع والكسَّارات وحرارة الخوذة الموضوعة على الرأس وغير ذلك، وإن كان بينه وبين المعاقَب بعد المشرقين، لما بينه وبين أخيه المسلم من شدة الارتباط، وفي الحديث مرفوعًا: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له جميع البدن بالحمى والسهر»[1]. انتهى.

ويقع لي ذلك كثيرًا بحمد الله تعالى، لكن في حقِّ من بيني وبينه صحبة دون من لم أعرفه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من شك في حصول تألم فقير بما يتألم به أخوه المسلم، فلينظر إلى أم الميت وأبيه بعد موته، وما يحصل في جسمهما من الحرارة والغم والحزن والكرب، حتى ربما يحس أحدهم أن جسمه محشوًا جمرًا من شدة حزنه عليه، يعرف صدق من يدعي ذلك، فإن أقل ما يكون من محبة الفقراء الصادقين لبعضهم بعضًا أن يكون كمحبة الوالدة لولدها.

وقد كان بجوار الإمام أبي القاسم الجنيد شخص زَمِن جالس في خرابة محبةً في مجاورة الجنيد لا غير، فلما مات الجنيد أنشد ذلك المزمن تجاه نعشه وهو يبكي:

وآسفي من فراق قوم ... هم المصابيح والحصون
والأمن والخير والأماني ... والسحب والمزن والسكون
لم تتنكر لنا الليالي حتى ... توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب ... وكل ماء لنا عيون

ثم فُقِدَ ذلك الزَّمِن، فلم يُرَ بعد ذلك! فإياك يا أخي والإنكار على الأولياء فيما يدعونه من مواجيدهم مما لا يعارض نصًّا ولا إجماعًا، والحمد لله رب العالمين[2].

(٤٧٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: طفت الليلة هذه مشارق الأرض ومغاربها من بحار وجبال، ومدائن وقفار، ورجعتُ في مقدار ثلاث درج مثلًا، فلاث به الناس وقالوا:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) وقد تقدم جواب آخر لمثل هذا الاعتراض، انظر (٣٨٢).

هذا كذب صريح، بأنه قد يريد الطواف بقلبه، وذلك صحيح، لأن القلب إذا انجلىٰ صار كالمرآة الكرة، إذا قوبل بالوجود العلوي والسفلي ارتسم كلُّه فيه، فمعنىٰ طفتُ: اطلعتُ.

ويقع لي أنني أمر ببصري القلبي علىٰ جميع المدائن والبحار والبراري التي وصل إليها علمي، وأرجع في مقدار درجة. وهذا أمر لا يصدِّق به إلا من ذاقه، فاعلم ذلك، وإياك والإنكار علىٰ من يدعي مثل ذلك، فإنه مقام أصحاب النوبة، فيطوف أحدهم مشارق الأرض ومغاربها وهو جالس في مكانه.

وكان من شأن سيدي عبد القادر الدشطوطي أنه يقف ويلتف ثلاث مرات، فكان أولياء عصره يقولون: إنه يطوف في كلِّ مرة جميع الدنيا. وكان الشيخ محمد بن عنان يُسمَّىٰ بين الأولياء «أبو الجُنُوب» فقلت لسيدي علي الخواص: ما معنىٰ ذلك؟ فقال: كلما يقلِّب جنبه علىٰ الأرض يدور المشرق والمغرب. انتهىٰ.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: لو ناداني مريدي من مسيرة ألف عام لأتيته قبل تمام النداء. وكذلك كان يقول سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ، ويشهد لصحة وقوع هذه الأمور قصة آصف بن برخيا وإتيانه بعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان إليه.

وممن أدركته في مصر يدير بلاد الهند والسند والروم والعراق والمغرب وبلاد السودان: الشيخ محيسن، والشيخ علي أبو خوذة[١]، والشيخ محمد الشربيني رضي الله عنهم أجمعين، فاعلم ذلك، وصدِّق من يدعي ذلك، فإنه لا يعارض شيئًا من أحكام الكتاب والسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا أنكر وجود أصحاب النوبة[٢] من الأولياء وقال: إنه لم يأت فيهم بخصوصهم حديث، بأن هذا العالم معذور في مثل ذلك، فإن من شأن أصحاب النوبة الخفاء في كلِّ عصر، وكثير من الصالحين لا يعرفهم فضلًا

---

(١) الشيخ علي أبو خوذة، كان أسمر قصيرًا، وعلىٰ رأسه خوذة من حديد، مات بطريق المحلة، وحمل إلىٰ مصر، ودفن بقرب جامع شرف الدين سنة نيف وعشرين وتسعمائة. الكواكب الدرية (٣/ ٤٢٤).

(٢) أصحاب النوبة: الأولياء رجال دولة القطب.

عن غيرهم، وما رأيت أعرف بأصحاب النوبة في جميع أقطار الأرض من سيدي عليّ الخواص رحمه الله، كان يعرف صاحب درك كلّ قطر ويقول: تولى درك القطر الفلاني في هذه الليلة فلان بعد موت فلان.

وكان إذا سُئل في حاجة عند أمير يقرأ الفاتحة ويهديها في صحائف رسول الله ﷺ، ثم في صحائف صاحب النوبة في ذلك الخط، ويسأله في قضائها ويقول: إن من الأدب مع أصحاب النوبة أن لا ينفرد أحد عنهم بقضاء حاجة، فإن قلوب الحكام بيد تصريفهم بإذن الله، فيقلبون قلوب الحكام كما يريدون، فربما تعداهم فقير وسأل الأمير في قضاء الحاجة دونهم فيعارضونه، فلا تُقضَىٰ له حاجة، وهم في بيوت الحكَّام علىٰ اختلاف طبقاتهم لا يتميزون في ملبس ولا غيره، وربما كان أحدهم ترجمانًا عند القاضي أو رسولًا. ومن شأنهم الاطلاع علىٰ ما يخطر في قلوب الخلق وعلىٰ ما يفعلونه في قعور بيوتهم، ولهم تأديب الخلق علىٰ مثل ذلك.

وكان سيدي عليٌّ الخواص رحمه الله يقول: من أدب الفقير إذا خرج من بيته أو زاويته لحاجة أن يقول بقلبه: دستور يا أصحاب النوبة أخرج في قضاء هذه الحاجة، ثم إذا رجع استأذنهم في الرجوع كذلك. ومن الأدب معهم أيضًا أن لا يمشي أحد في درك من أدراكهم وهو محدِث ولا غافل القلب عن ذكر الله عزَّ وجلَّ، فإنهم يحبون من يراعي معهم الأدب. انتهىٰ.

ومما وقع لي أنني أخرجتُ مرة ريحًا تجاه شون السلطان بمصر العتيق، فناداني شخص منهم كان حيَّاكًا من نحو عشرين ذراعًا، وقال لي: ما هكذا الأدب! تخرج في دركنا الريح! فمن ذلك اليوم ما مشيتُ في شارع من شوارع مصر إلا وأنا علىٰ طهارة.

وكذلك وقع لي تجاه سوق الصاغة بمصر أنني كنتُ أمشي غافلًا، فأحسستُ بنفسي أن ورائي تمساحًا يريد أن يبتلعني، فقامت كلُّ شعرة في بدني فالتفتُ، فإذا شخص مكشوف الرأس، أحمر العينين، شَعِث الشعر، واضع لحيته خلف أذني، فقال لي: استيقظ لنفسك ولا تعد تمشي في دركي غافلًا! فمن ذلك اليوم ما أتذكر أنني مشيتُ في ذلك المكان غافلًا أبدًا. فاعلم ذلك يا أخي، والزم الأدب مع أولياء الله تعالىٰ، وصدِّقهم فيما يدعونه

ما لم يدعوا باطلًا في الشريعة، كالنبوة بعد رسول الله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الزاوية إذا أوصىٰ جابي الوقف الذي تحت نظره أنه يجنزر[1] الفلاح الذي امتنع من وزن الخراج، أو يحبسه ويمشيه حافيًا من بلد إلىٰ بلد، ولاث الناس به وقالوا: أيش خلىٰ هذا للظلمة؟! ولكن ذهب العلماء العاملون، والأولياء والصالحون، وما بقي إلا الجماعة الذين يتشبهون بالظلمة، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ العالم أو الشيخ إلا بعد الفحص والتفتيش، فقد يكون ذلك المال مما ألزم به المستحقون ذلك الناظر، واشتكوه من بيوت الحكام والمفتشين، ورأىٰ أن جابيه أرفق بالفلاحين من جماعة الكاشف أو شيخ العرب، فهو من باب ظلم دون ظلم إن كان الفلاحون مفلسين[2]، وإن كانوا قادرين فلا حرج علىٰ العالم والشيخ في ذلك.

والجنزير كالحبل الذي يضعه رسول الحاكم إذا خاف هروب الخصم منه وعجز عن لحوقه. فاحمل يا أخي العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، لأنهم أشفق منك علىٰ المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا فتح باب السؤال للجماعة المقيمين عنده، وصار يسأل التجار والمباشرين والولاة والمحترفين، ولاث الناس به وقالوا: ما لهذا وللمشيخة، فإن الله تعالىٰ لم يكلِّفه أن يكسر وجهه للناس لأجل نظام مشيخته، بل كان الأولىٰ له أن يقول للجماعة المقيمين عنده: اعملوا لكم حرفة، أو اخرجوا فاسألوا أنتم الناس، بأن سؤال هذا الشيخ للفقراء أولىٰ من سؤالهم لأنفسهم، لأن الشيخ كالأمير إذا لم ينفق علىٰ جنده وخدَّامه، عصوا أمره وذهبت رئاسته عليهم وطاعتهم له. ولو أنه أمر جماعته بالحرفة أو سؤال الناس، لتعوقوا عن السير في الطريق، وربما عادوا كلَّ من لم يعطهم شيئًا أو استغابوه، لقصورهم بصرهم عليه، بخلاف الشيخ لا يعادي من لم يعطه شيئًا ولا يستغيبه، لأنه إنما يسأل الله تعالىٰ من أبواب خلقه قيامًا بالأسباب، ولا يرىٰ

---

(١) فعل من الجنزيز، وسيبين الشيخ معناه آخر الجواب.

(٢) بالأصلين: مفسدين.

المنع والعطاء إلا من الله تعالىٰ، فإن أعطاه أحد من الخلق شيئًا، شهده من الله، وشكر الواسطة أدبًا؛ ومن منعه رأىٰ أن الله تعالىٰ لم يقسم له شيئًا علىٰ يديه، فرضي بالقسمة، أو صبر علىٰ تلك الضرورة إلىٰ أن يفرجها الله تعالىٰ.

وقد تقدم في هذا الكتاب أن من الفقراء من يُكشَف له عن رزق في الروم، فيسافر إليه، فيقول الناس: هذا أمر لا يليق بالفقراء! وهو جهل منهم، فإن الرزق علىٰ قسمين: رزق سبق في علم الله أنه يُساق إلىٰ العبد، فهذا لا يحتاج فيه إلىٰ سعي؛ ورزق سبق في علم الله تعليق وصول العبد إليه علىٰ السعي، فلابد له من السعي، والعبد بين هذين الأمرين تارةً يذهب إلىٰ رزقه، وتارة يأتي رزقه إليه، فلا يُقال: السعي أفضل مطلقًا، ولا التوكل من غير سعي أفضل مطلقًا.

علىٰ أن السعي لا ينافي التوكل، فهو يسعىٰ إلىٰ رزقه وهو متوكل علىٰ الله تعالىٰ لا علىٰ سعيه وحذقه. وتقدم أيضًا قول رسول الله ﷺ: «فإن كنت ولابد سائلًا، فاسأل الصالحين أو ذا سلطان»[1] أي لأن الصالحين والسلطان لا يمنون بما أعطوه لحقارة الدنيا عندهم. فافهم، واحمِ سمعك وبصرك ولسانك في حق الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٧٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا رأيناه يزاحم أقرانه علىٰ صحبة الأمراء، أو يتوصل إلىٰ مصاحبتهم بالحيل، ولاث الناس به وقالوا: هذا دليل علىٰ قيام الساعة، إذا كان مشايخ العلم والطريق صاروا يزاحمون علىٰ الدنيا، فالموت خير للمؤمن في هذا الزمان، بأنه يجب حمل ذلك العالم أو الشيخ علىٰ أنه ما زاحم أقرانه علىٰ صحبة ذلك الأمير إلا بنية صالحة، كأن رآهم لا يلتفتون إلىٰ الشفاعة عنده في أحد من المظلومين، أو لا ينصحونه في أحواله، أو يفعلون ولكنه أحبَّ مشاركتهم في الخير، أو رآهم عاجزين عن أمر ذلك الأمير بالمعروف، وعرف هو من نفسه القدرة علىٰ ذلك. ويحرم حمله علىٰ أنه إنما يزاحم محبةً في الدنيا، لأن ذلك من سوء الظن، ودخول فيما بين العباد وبين ربهم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٤٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يرىٰ رسول الله ﷺ في هذا الزمان يقظةً لا نومًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر لم يبلغنا وقوعه لأحد من أكابر الصحابة فضلًا عن غيرهم، ولا يصح لأحد يرث مقامًا إلا من باطنية الصحابة، ولكن قد كثر الكذَّابون في هذا الزمان علىٰ الله تعالىٰ، فضلًا عن نفسه ﷺ، بأنه قد يكون صادقًا في ذلك، ولا يلزم من كونه لم يبلغنا ذلك عن الصحابة أن يكون ذلك لم يقع لهم، فقد يكون وقع لأحدهم ولم يبلغنا ذلك. وقد رأيتُ ورقةً بخط الشيخ جلال الدين السيوطي عند شخص من تلامذته فيها: إنني رأيتُ رسول الله ﷺ في اليقظة خمسًا وسبعين مرة. انتهىٰ. وناهيك بصدق هذا الرجل. وأخبرني الشيخ عبد القادر الشاذلي[١] أحد أصحابه أنه سمع الشيخ يقول حين دُعي إلىٰ شفاعة عند السلطان الغوري وأبىٰ: لولا أخشىٰ أن رؤية رسول الله ﷺ يقظةً تنقطع عني بدخولي علىٰ الأمراء أو جلوسي علىٰ فرشهم، لطلعتُ للسلطان وشفعت.

وقد كان سيدي محمد بن زَيْن[٢] بمدينة النحرارية[٣] يرىٰ النبي ﷺ كثيرًا، فأخذوه في شفاعة إلىٰ حاكم البلد، فجلس علىٰ بساطه، فانقطعت عنه الرؤيا، فسأل بعض من كان يرىٰ النبي في عصره عن سبب ذلك، فسأل[٤] رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال له:

---

(١) عبد القادر بن محمد بن أحمد الشافعي الشاذلي، فاضل شافعي مؤذن مصري من تلاميذ الجلال السيوطي. له بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين، رد العقول الطائشة إلىٰ معرفة ما اختصت به خديجة وعائشة. توفي في حدود سنة ٩٣٥ هـ. «هدية العارفين» (١/ ٥٩٨)، «الأعلام» (٤/ ٤٣).

(٢) بالأصلين: رزين، والصواب ما أثبتناه، وهو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن زين بن محمد بن زين الطنتدائي الأصل النحراري الشافعي. ولد قبل (٧٦٠هـ) بالنحرارية من الغربية، ونشأ فحفظ القرآن بأبيار، وارتحل إلىٰ القاهرة فتلقىٰ العلم علىٰ بعض علمائها. وله نظم كثير في العلم والمديح النبوي. وهو مطبوع في غالب شعره علىٰ صناعة المعاني والبيان في المقابلات ونحوها، ولكلامه وقع في القلوب وفيه حكم ومعان، كل ذلك مع الصلاح والزهد، وكونه خيرًا منورًا مهابًا، ذا أحوال وكرامات. مات في مستهل ربيع الأول سنة (٨٤٥هـ) بعد رجوعه من الحج. «الضوء اللامع» (٧/ ٢٤٦)، «الأعلام» (٦/ ١٣٣).

(٣) النحرارية: تُعرف الآن بـ«النَّحَّارية»، وهي إحدىٰ قرىٰ مركز الزيات التابع لمحافظة الغربية بمصر.

(٤) بالأصلين: فقال له. والصواب ما أثبتناه.

تجلس على بساط الظالمين وتطلب رؤيتي! لا سبيل إلى ذلك. انتهى.

وممن سمعتُه من أهل عصرنا هذا يصرِّح برؤية رسول الله ﷺ الشيخ محمد الصوفي[1] المقيم بمدينة الفيوم، والشيخ عمر المغربي التواتي وجماعة ذكرناهم في «طبقات الصوفية». وكان الشيخ محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي رحمه الله يقول: المراد برؤية النبي ﷺ يقظة رؤيته في الصورة التي تنشأ من همة الرائي بواسطة صدق محبته للنبي ﷺ، لأن ذاته الشريفة المدفونة في المدينة منزهة عن كلفة المجيء والرواح، هذا هو الحق الصراح. انتهى. فاعلم ذلك، واحمِ سمعك ولسانك في حقِّ العلماء والصالحين إذا ادَّعوا شيئًا من الممكنات، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نهى جماعته أن يجلسوا عنده أو عند غيره من العلماء والصالحين إلا على طهارة ظاهرة وباطنة [من القاذورات][2] كالحدث والخبث، والكبر والحسد، والمكر والخديعة وحب الدنيا، ونحو ذلك، فلاث به بعض المجادلين وقال: هذا أمر لم يبلغنا أن رسول الله ﷺ أمر به أحدًا من أصحابه، مع أن مقامه أفضل من سائر الأولياء بما لا يتقارب، بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ بسبب ذلك، لأنه أدب في الجملة. وقد قررنا مرارًا أن الأشياخ فيهم مجتهدون في الطريق كالمجتهدين في مذاهب الشريعة، فكما أن الأئمة أوجبوا أو حرَّموا وندبوا وكرهوا أشياء باجتهادهم وسلَّم المقلدون لهم في ذلك، فكذلك أشياخ الطريق.

---

(١) لعله أبو النجا الفيومي محمد بن خلف بن محمد، صحبه المصنف سبعة أيام، وكان جبلاً راسخًا في علم القراءات وفي الحديث والتفسير. كان يعظ الناس في جامع الأزهر وغيره. وفي ليلة موته شاع في بلاده أنه قُطِّب تلك الليلة، فمكث في القطبية دون الليلة، فلذلك كان هجير أصحابه في طريق جنازته:

هـذي جـنـازة عـاشـق ... لـيـلـة وصـالـو مـات

ولم يزالوا على ذلك حتى دُفن، رحمه الله. وكانت وفاته سنة (٩١٦هـ). انظر ترجمته في «الطبقات الوسطى» دار الإحسان، ترجمة رقم (٥٣٥) (٢/ ٤٤٨).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وقد ورد الأمر بالوضوء لعيادة المريض[1] ، لكونه كثير التوجه إلىٰ الله تعالىٰ في إزالة مرضه، فكذلك ينبغي الطهارة لمجالسة الشيخ، لكثرة توجهه إلىٰ الله تعالىٰ، فكأن المريض والشيخ يشاهدان ربهما، فلأجل تخيُّلهما أنهما بين يدي الله عزَّ وجلَّ، ندب الأشياخ الطهارة لمن جالس الشيخ تعظيمًا لذلك التخييل، وإن كان الحقُّ تعالىٰ لا يتحيز بمكان، فافهم.

وسمعت سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: نفحات الحق تعالىٰ وجوده وكرمه لم تزل متوجهة إلىٰ عباده ليلًا ونهارًا، فكلُّ عبد ينبغي له الاستعداد بالطهارة، ليتلقىٰ ذلك المدد وهو متطهر تعظيمًا لله تعالىٰ. انتهىٰ. وقد رأيتُ سيدي عليًّا الضرير النبتيتي لم يزل مادًّا يده إن كان جالسًا أو مضطجعًا أو ماشيًا أو راكبًا، فقيل له في ذلك، فقال: نفحات جود الحقِّ تعالىٰ متوجهة إلىٰ عباده ليلًا ونهارًا، فأنا أتعرض لتلك النفحات. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وعظِّم الأشياخ، ولا تجلس عندهم إلا وأنت متطهر باطنًا وظاهرًا، ليعطوك من مدد الله الفائض عليهم، لا سيما شيخك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دق شخص علىٰ باب خلوته أو داره مثلًا، فقام ودفع الشخص، فوقع علىٰ ظهره أو وجهه، أو ضربه بعصا أو لكمه بيده ونحو ذلك، فلاث به الناس وقالوا: هذا فعل المجانين، بأنه ليس بمجنون، وإنما هو مجذوب في حضرة الحقِّ تعالىٰ، أي حضرة مراقبته، والجذب قريب من الجنون، فلما كان ذلك الشيخ في حضرة المناجاة مع الحقِّ تعالىٰ أو حضرة مراقبته، فأشبه من كان في الجنة وقاتل من يريد إخراجه منها مفاجأةً، غافلًا عن الميزان الشرعي في ذلك، فهو معذور لذهاب عقله عن ملاحظة أحوال الدنيا.

ويؤيد ذلك ما ورد فيمن اجتاز بين المصلي والسترة من الأمر بمقاتلته إذا لم

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٠٩٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من توضأ فأحسن الوضوء، وعاد أخاه المسلم محتسبا بوعد من جهنم، مسيرة سبعين خريفا»، والطبراني في الأوسط (٩٤٤١).

يندفع إلا بها[١]، فافهم.

ولا يذوق هذا إلا من دخل طريق الخلوة والرياضة. وهناك يعذر من ضرب الداق للباب. ومن هنا أوصىٰ الأشياخ فقراء الزاوية أن لا يفتح أحدهم خزانته أو يقفلها إلا بالهُوَيْنَىٰ من غير خبط وتزييق للباب، وكذلك لا يمشي أحدهم ويدك بقدمه علىٰ الأرض، ولا يرفع صوته إلا لعذر شرعي، كلُّ ذلك رحمة بالفقراء. وكان الشيخ تاج الدين الذاكر[٢] يفرش زاويته كلها لبابيد[٣] سودًا، فقلتُ له في ذلك، فقال: حتىٰ لا يسمع الفقير الذي في الخلوة وقع قدم المار عليه، فيشغل قلبه. انتهىٰ.

ويقع لي أنه إذا دق داق علىٰ الباب أني أحس بأن قلبي انفلق، وأمكث ساعة دهشًا، وربما أصيح بالداق فيهرب ويقول: عهدي بفلان عاقل! وما رأيته اليوم إلا مجنونًا! فليجتنب أصحاب الفقراء الدق علىٰ أبوابهم، خوفًا أن يصيح أحدهم علىٰ الداق فيخرس أو يتكسح، كما وقع ذلك لجارية سيدي الشيخ تاج الدين المتقدم ذكره حين دقت عليه باب الخلوة، ولم تزل خرساء مكسحة حتىٰ ماتت. وكان الشيخ هو الذي يتولىٰ غسل ثيابها ونقل القذر من تحتها ويقول: قد حصل ذلك لها بسبب صياحي عليها. انتهىٰ. فاعرف أحوال الفقراء يا أخي قبل أن تنكر عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لمن أراد أن يأخذ عنه الطريق: رح معافىٰ، ولا تعرِّض نفسك للجذام والبرص والأمراض التي لا ينفع فيها طبيب، والفقر المدقع،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٦٩٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع أحدا يمر بين يديه وليدرأه ما استطاع، فإن أبىٰ فليقاتله فإنما هو شيطان» وابن ماجه (٩٥٤) والنسائي (٧٠٣٨).

(٢) تاج الدّين عبد الوهاب الذاكر المصري الشيخ الصّالح المسلك المربي المجد الدّاعي إلىٰ الله تعالىٰ. كان ﷺ وجهه يضيء من نور قلبه ذا سمت حسن، وتجمل بالأخلاق الجميلة تكاد كل شعرة منه تنطق، وتقول: هذا ولي الله. مكث خمسا وعشرين سنة لم يضع جنبه علىٰ الأرض إنما ينام جالسا علىٰ حصير توفي ٩٢٢هـ ودفن بزاويته قريبًا من حمّام الدودحين. «شذرات الذهب» (١٠/ ١٥٦) و«الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٠١).

(٣) جمع لُبَّادَة، وهي ما يُلْبَسُ من اللُّبُود للوقاية من المطر والبرد.

وقساوة قلوب الخلق عليك مع ذلك؛ فلاث به بعض الناس وقال: هذا تنفير للناس عن طلب الطريق، وما هكذا كان الأشياخ الذين أدركناهم، إنما كانوا يُرغِّبون الناس فيها، ويعدونهم بكل خير إن دخلوها، بأن هذا الشيخ لا ينبغي الإنكار عليه، لأنه أعلم ذلك المريد من باب النصح بما يقع له في الغالب إذا دخل الطريق من البلايا والمحن، فخاف عليه إن رغَّبه فيها أن يدخل في عهد الفقراء ثم لا يصبر علىٰ تلك البلايا والمحن، فينكث عهد الفقراء، فيعذبه الله عذابًا لم يعذب به أحدًا من العالمين، كما قاله الإمام أبو القاسم الجنيد رحمه الله.

وقد قال سيدي عمر بن الفارض في قصيدته اليائية:

رح معافًىٰ واغتنم نصحي وإن ... شئتَ أن تهوىٰ فللبلوىٰ تَهَي

وقال في قصيدته الفائية:

ولقد أقول لمن تحرش بالهوىٰ ... عرضت نفسك للبلا فاستهدف

وأنشد الحلاج لما أخرجوه للقتل:

سقاني ثم حياني ... كفعل الضيف بالضيف

فلما همت في سكري ... أراد القتل بالسيف

هذا جزاء من يشرب ... مع التنين في الصيف

لكن لا يخفىٰ أن الأشياخ حكماء علماء، فلا يذكرون للمريد الآفات التي تستقبله في الطريق إلا إن علموا أنه غير محبوب لله عزَّ وجلَّ بالاختصاص الإلهيِّ؛ إذ المحبوب لا يُمتحَن، وإنما يُمتحَن من يدعي المحبة بغير صدق، فيبتليه الله تعالىٰ ليطلعه علىٰ صدقه أو كذبه.

فإن قال قائل: إن الأنبياء محبوبون بالإجماع وقد ابتلاهم الله تعالىٰ؛ **فالجواب:** أن كل نبي محب ومحبوب، فهو من حيثُ بشريتُه محب، ومن حيثُ روحانيته محبوب، فما ابتُلي أحدهم إلا من حيثُ الجزءُ البشري، فإنه يدق في الأكابر ولا ينقطع

بالكلية[١]، ومنه قال رسول الله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيرًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[٢]، وفي رواية: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، وأرضىٰ كما يرضىٰ البشر»[٣]. انتهىٰ، أي من حيث الجزءُ البشريُّ الذي فيَّ. ويحتمل أن يكون قال ذلك تشريعًا لأمته، ليقتدوا به في صبره علىٰ البلايا التي تصيبهم لا اختبارًا له ﷺ لأجل ما فيه من الجزء البشري، فإنه ذهب منه ﷺ بالكلية، فلم يحتج إلىٰ امتحان جملة. وهذا هو الذي نختاره ويثلج له الصدر. لكن قوله تعالىٰ في أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] فيه رائحة أن ذلك البلاء كان اختبارًا له. والله أعلم بحقيقة مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورة، فاعلم ذلك وإياك والاعتراض علىٰ أشياخ الطريق بغير علم في شيء من أحوالهم إلا بنص صريح، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي أنه يعبد الله تعالىٰ خالصًا مخلصًا لا خوفًا من ناره، ولا رجاء لثوابه، فلاث به الناس وقالوا: فلان يدعي الدعاوىٰ العريضة والمقامات التي لا توجد في هذا الزمان، بأنه لا ينبغي اللوث به، لأن هذا المقام يكون للمبتديء أول دخوله في الطريق، فإن الطريق مبنيَّة علىٰ التوحيد لله تعالىٰ في الفعل والملك والوجود، فمن لم يكن ذلك مشهده ببادئ الرأي ثم يضيف ذلك إلىٰ الخلق ثانيًا لأجل أحكام التكليف، فهو لم يدخل طريق القوم، فلا ينبغي الإنكار علىٰ الشيخ إذا ادَّعىٰ مقام المريدين، بل ذلك منه غاية التواضع.

وإيضاح ذلك أن المريد إذا أطلعه الله تعالىٰ كشفًا علىٰ أنه تعالىٰ هو خالق لأفعاله، خرج عن نسبة العمل لنفسه ما عدا نسبة التكليف، وعن طلب الثواب به، وعن رؤية نفسه به علىٰ إخوانه، لأن أحدًا لا يطلب ثوابًا بفعل غيره، ولا يرىٰ به نفسه علىٰ أحد،

---

(١) قد تقدم أن عدم انقطاع الجزء البشري خاص بالأولياء دون الأنبياء، انظر الجواب (١٩٢). وتقدم أيضًا التوفيق بين تعارض القولين في الحاشية في الجواب (٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وأحمد (٣٧٥٩).

(٣) سبق تخريجه.

وهذا هو مقام الإخلاص الذي غلط فيه غالب الناس، فيرىٰ أحدهم العمل لنفسه شهودًا ولا يراه [لله تعالىٰ] إلا إيمانًا، ثم يريد أن يخلص فلا يقدر، وربما مات علىٰ ذلك.
ومن فهم قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] عرف ما قلناه، فإنه تعالىٰ نكَّر أحدًا، فشمل نفس العبد إذا أشركها مع ربه في العمل، فمن أشرك نفسه مع ربه، فقد خرج عن الإخلاص، إلا إن كان ذلك من حيث نسبةُ التكليف المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإنه تعالىٰ أثبت للعبد المشاركة من حيثُ كونُ العبد محلًا لظهور الأفعال، لأنها لا تظهر إلا في جسم. ولولا إضافة الحقِّ تعالىٰ العمل إلىٰ العبد ما كان يسوغ له أن يدَّعي العمل بوجه من الوجوه. ومن هنا قالوا: إن العارف إذا تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا يقولها إلا علىٰ سبيل التلاوة للقرآن تصديقًا للحقِّ جلَّ وعلا، وإلا فهو يستحيي في تلك الحضرة من الحق تعالىٰ أن يرىٰ له شركة حقيقية في الفعل، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: ما أمر الشارع العبد بأنه يعبد الله كأنه يراه إلا إرشادًا لطريق الإخلاص، فإن العبد في تلك الحضرة يرىٰ الفعل كله خلقًا لله تعالىٰ، لا يرىٰ لنفسه منه شيئًا كشفًا ويقينًا، فيخرج عن الشرك والرياء جملة واحدة. انتهىٰ.

فعُلِمَ أنه لا اعتراض علىٰ الشيخ إذا قال: إني عبدتُ ربي خالصًا مخلصًا؛ لأنه مقام يصل إليه المريد أوائل دخوله في الطريق. وقد كانت رابعة العدوية تقول: الواجب علىٰ كل مسلم أن يعبد الله تعالىٰ، لا خوفًا من ناره ولا رجاء لجنته. وتقول: قد ورد في بعض الكتب الإلهية أن الله تعالىٰ يقول: «ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار، لو لم أخلق جنة ولا نارًا ألم أكن أهلًا لأن أطاع؟». انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك أن تصغىٰ لمن يقول إن هذا مقام الخواص، كما يقع فيه من لم يدخل الطريق، فيقول عن كلِّ شيء لم يذقه في نفسه: هذا مقام الخواص. والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٤) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سمعناه يقول لنفسه أو غيره: إذا رأيتَ جماعة القاضي أو الدفتردار مثلًا، فاشكرني بحضرتهم، وصرِّح بأني

من أولياء الله تعالىٰ، فلعلهم يحسنون إلينا بشيء؛ فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا من علامة ريائه قطعًا، ولو كان مخلصًا ما تلفظ بمثل ذلك، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بمجرد سماعنا ذلك، فربما كان ذلك لغرض شرعي، كأن يعرف ذلك القاضي أو الدفتردار مكانه في العلم والصلاح، فيصير يقبل شفاعته ولا يحوجه إلىٰ تزكية نفسه إذا قال له: من أنتم؟ وما اسمكم؟ وما صفتكم؟ فقصد الشيخ بوصفه بالولاية سرعة قضاء ذلك القاضي أو الأمير تلك الحاجة التي يشفع فيها عنده.

ومعنىٰ قول الشيخ: «صرِّح بولايتي له» أي لأني مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله إلىٰ آخر أوصاف الإيمان، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣]، فأنا مؤمن بالله من الشرك.

ومعنىٰ قوله: «فلعله يحسن إلينا» أي يقبل شفاعتنا، فيكسبنا الأجر فيحسن إلينا، فاعلم ذلك.

وقد كان سيدي أحمد الزاهد إذا دُعِي إلىٰ شفاعة عند أمير لا يعرفه، يقول لصاحب الحاجة: اذهب فخذ لك أحدًا من وجوه الناس، واذهب إلىٰ بوابة الأمير الفلاني، فقل لجماعته: سيدي الشيخ جاءكم، فإذا قالوا: من هذا الشيخ؟ فقل لهم: أحمد الزاهد. فإذا قالوا: من هذا الزاهد؟ فقل لهم: مثلكم يجهله! إنه رجل عظيم من أولياء الله تعالىٰ! ثم إذا رأيتني جئتُ، فاخرج من البوابة وقبِّل يدي واعضدني من تحت إبطي، فيرىٰ ذلك جماعة الأمير فيفعلون مثل فعلك، ثم يخبرون الأمير بمقامي، أو يرىٰ هو ذلك الفعل معي، فيعظمني الآخر علىٰ التقليد لجماعته، فيقضي حاجتك، بخلاف ما إذا ذهبتُ إليه وهو لا يعرفني وسألني من أنت؟ فإن زكيت نفسي استخف عقلي، وإن كتمتُ حالي لم يلتفت إليَّ. انتهىٰ. فإياك يا أخي والاعتراض علىٰ الأشياخ قياسًا علىٰ ما تفهمه بفهمك القاصر أو الجائر، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول في أيام الفصول: من أعطاني كذا وكذا حملت حملة ولده ولا يموت في هذا الفصل؛ فلاث الناس به وقالوا: هذا كفر، بأنه ربما كان من أهل الكشف الذين أطلعهم الله تعالىٰ علىٰ بعض أعمار الخلائق، ورأىٰ في ألواح المحو والإثبات أن فلانًا إذا دفع لفلان كذا وكذا، زدنا له في عمر ولده، فقال الشيخ ذلك اعتمادًا علىٰ ما رآه من طريق كشفه. وأما أخذه المال علىٰ ذلك فهو حلال، لأنه كأخذ الأجرة علىٰ الرقية، وقد أقر رسول الله ﷺ أصحابه وقال: «اضربوا لي معكم فيها بسهم»[1]. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: الأولياء في أخذ الجعالة علىٰ تحمل حملات الناس علىٰ قسمين: منهم من يأخذها؛ ومنهم من يتعفف عنها، وهم الأكثر من الأولياء. انتهىٰ.

وقد أرسل إليَّ الباشاه محمد نائب مصر دراهم أيام الفصل في جملة فقراء مصر، لأحمل حملة ولده فلا يموت في ذلك الفصل، فرددتها وقلتُ: لا يخلو إما أن يكون قد سبق في علم الله أن ولده يموت في هذا الفصل، فلا أقدر أنا ولا غيري أن نرد عنه الموت، فعلىٰ أي معنىٰ آخذ ماله؟! وإما أن يكون سبق في علم الله موته، فما فعلتُ شيئًا استحق به أخذ ذلك المال، وإن سبق في علم الله تعالىٰ توقف حياته علىٰ دعائي من باب توقف الأسباب علىٰ المسبَّبات، فأنا أفعل ذلك احتسابًا لوجه الله تعالىٰ. انتهىٰ. فاعلم ذلك يا أخي وإذا بلغك عن فقير شيء من الأفعال التي لا يقبلها عقلك، فسلِّم له، أو استفتِ عليه العلماء العاملين، ثم أنكر، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي دخل بستانًا فيه تين وتفاح وغير ذلك، وقال لجماعته: كلوا واشبعوا قبل أن يجيء صاحب الغيط أو الحارس، فيمنعكم من الأكل. وكان معه فقيه فخرج ورجع إلىٰ البلد، وصار يحكي ذلك للناس، فيلوثون بالشيخ وبجماعته وينكرون عليه أشد الإنكار، بأن ذلك الشيخ ربما اطلع من طريق كشفه أن ذلك الفقيه ليس له نصيب في صحبته، ولا في الأكل من ثمر ذلك البستان، فطرده عنه

---

(١) تقدم تخريجه.

بذلك القول، فإن للأشياخ مكرًا خفيًا بمن يريد صحبتهم فيمتحنونه، ليظهر له صدق نفسه أو كذبها، فإن من شرط المريد أن يعتقد أن شيخه أعلم منه بالشريعة، بل لا يعرف من أسرار الله إلا ما أخبره به شيخه.

وقد وقع مثل هذه الحكاية لسيدي ياقوت العرشي، فخرج يومًا هو وجماعته [إلىٰ بستان فيه تين ورمان وموز خارج إسكندرية، وكان معه فقيه كثير الإنكار، فدخل الشيخ وجماعته ذلك البستان][1] فوجدوا صاحبه غائبًا، فقال الشيخ للفقيه ولأصحابه: كلوا واشبعوا من هذا التين قبل أن يجيء صاحبه فيخرجكم. فأكل جماعته إلا الفقيه، فقال: هذا يحرم عليكم. وفهم من قول الشيخ: كلوا واشبعوا، أي كلوا حرامًا واشبعوا منه قبل أن يجيء صاحب البستان، فيمنعكم من أكل هذا الحرام، وبالغ في الإنكار عليهم وقال: إن استحللتم ذلك كفرتم. فبينما هم كذلك، إذ دخل صاحب البستان وقال للشيخ: قد خرجتُ لكم عن هذه البطن التي في بستاني كلِّها من التين من أول أمس، فخجل الفقيه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أحد من الصوفية، فإنهم أورع منك بيقين، واحملهم علىٰ المحامل الحسنة مادمت لم تدخل طريقهم، فربما كُشِفَ لأحدهم أن صاحب البستان قد خرج لهم عن ثمرته بطيب نفس، وصار ذلك عنده كالتصريح بالعزومة علىٰ حدٍّ سواء. وقول الشيخ: «كلوا واشبعوا قبل أن يجيء صاحب البستان، فيمنعكم من الأكل» لا يقتضي تحريم ذلك الأكل الواقع قبل المنع، كما لو قال لجماعة: أذنتُ لكم أن تأكلوا حتىٰ أمنعكم من الأكل، فهم يأكلون بإذنه ويتركون الأكل بإذنه، ولا حرج عليهم في ذلك. ولو كان هذا الفقيه حسن الظن بالفقراء لم يفهم عنهم غير ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا عمل المخبظون ليلة تحت بيته في شارع أو خليج، فصار جالسًا في الشباك أو الطاق ينظر إليهم إلىٰ الصباح، فلاث الناس به وقالوا: هذا لا يليق بالعالم ولا بالشيخ، بأنه ربما كان ذلك العالم أو

---

(١) ساقط من «ب».

الشيخ إنما جلس يحوطهم من نزول البلاء عليهم حال لهوهم ولعبهم وغفلتهم بأسماء الله تعالىٰ، كما يفعله رجال الرحمة الذين يجلسون في مواضع الظلم والمكوس، فلا يزال أحدهم يتضرع ويبتهل إلىٰ الله تعالىٰ في الحلم عليهم، ثم المغفرة لهم.

وقد فعلتُ ذلك مرةً حين عمل بعض جيراني من الظلمة عرسًا، وأتىٰ بخيَّال الظل والمخبظين، فلم يأخذني نوم إلىٰ الصباح وأنا أحوطهم وأدعو لهم، ولو علمتُ بأن صاحب العرس لا يسلط جماعته عليَّ بالضرب ورميي في الخليج إذا منعتهم لمنعتهم، فاعلم ذلك واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا حدَّثه أحد من إخوانه حديثًا لا ينبغي إشاعته، وقال: لا تتكلم به لأحد؛ فامتلأت الحارة بذلك أو البلد، فلاث به ذلك الشخص وقال: كيف يجوز لهذا العالم أو الشيخ أن يفشي سرَّ من استودعه سرَّه، وصار العالم أو الشيخ يحلف له فلا يصدقه، ويقول: إني لم أخبر بذلك أحدًا غيرك، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ ذلك العالم أو الشيخ، وحمله علىٰ أنه يقع في إفشاء السرِّ، لاحتمال أن تكون تلك الإشاعة إنما حصلت ممن كان حاضرًا عندهما من الجنِّ، كما يقع كثيرًا للناس.

وأنا ممن وقع لي ذلك، فاستحفظني أمير المؤمنين مرةً كلامًا، فلم أنطق به لأحد، فوجده عقب ذكره ذلك لي في جامع الأزهر، وحلف لي بالطلاق الثلاث أنه لم ينطق به لغيري، وكذلك أنا لم أذكره لأحد.

وقد حكىٰ الشيخ محيي الدين أنه عمل قصيدة بمدينة بالقيروان في شاب صحبه من القيروان اسمه محمد بن المثنىٰ نحو أربعين بيتًا، فلما دخل تلمسان رأىٰ شخصًا ينشدها، فقال: من أين وصلت إليك هذه القصيدة؟! فقال: وصلت لي علىٰ يد شخص من منذ تسعين يومًا. فحسب الوقت الذي نظمها فيه، فوجده مطابقًا للتسعين يومًا، وبين القيروان وتلمسان ما لا يخفىٰ من طول المسافة، فتعجب الشيخ محيي الدين من ذلك، وقال: إني لم أخبر بها أحدًا، وإنما قلتها في نفسي. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رضي الله عنه يقول: إياك أن يراك أحد من العلماء والصالحين علىٰ فاحشة، فتظن به أنه يذكرها للناس، فإن ذلك منك سوء ظن به، بل الواجب عليك أن لا تحدث بذلك نفسك. وأما حديث: «استحي من الله كما تستحيي من رجلين صالحين من أهلك»[1]، فلا ينافي ما ذكرناه، لأن الحديث ورد في وقوع الحياء، ونحن إنما نتكلم في كشف العالم لعورات الناس. وكان يقول: من حق العالم أو الصالح أن لا يخاف من إفشائهما الأسرار، كما لا يخاف الإنسان من إفشاء الأرض التي عصىٰ فيها أن تخبر به الناس في الدنيا. فاعلم ذلك وصدِّق العالم والشيخ إذا أنكرا أنهما حدثا أحدًا ما حدثتهما به، واجعل ذلك من كلام الجنّ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٨٩) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي قال: أنا أحب كلَّ شيء ينكس رأسي بين الناس، ولو كان معصية! فلاث به الناس وقالوا: كيف يحبُّ هذا معصية الله عزَّ وجلَّ، وإنما الواجب علىٰ العبد كراهة المعاصي فرارًا من مواضع غضب الله تعالىٰ عليه، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقير بمجرد هذا القول، فربما كان مقصوده بذلك ذكر نقائصه [للإخوان ليدعوا له حتىٰ يصير يكره المعاصي، كما يذكر المريد لشيخه نقائصه][2] وعيوبه الباطنة، ليدله علىٰ الخلوص منها، أو أنه رأىٰ أن تلك المعصية التي تقع منه أخف مما يراه في نفسه من العجب والكبر والفخر، فأحب الوقوع في أخف المفسدتين من حيثُ الأثرُ الحاصلُ بارتكاب المعصية، ولا يجوز حمل الفقير علىٰ أنه يحب المعاصي لذاتها، فإن ذلك بعيد من مثله أن يقع فيه. وفي الحكم لابن عطاء الله: «معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا» أي من حيثُ الأثرُ المترتبُ عليهما.

فمراد الفقير بقوله لإخوانه: «أنا أحب المعاصي التي تنكس رأسي في الدنيا» التوبيخ لنفسه، أي إن نفسي الخبيثة تحب كلَّ ما ينكس رأسها في الدنيا والآخرة، فادعوا لها بإصلاح

---

(١) أخرجه ابن عبدي في «الكامل» (٥/ ١٤٢)، وهو عند أحمد في «الزهد» (٢٤٨) بلفظ: «أوصيك أن تستحي الله عز وجل، كما تستحي رجلا صالحا من قومك»، والطبراني في الأوسط (٥٥٣٩).

(٢) ساقط من «ب».

الحال. ويُحتمل أن يكون مراده: أنا أحب المعصية من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ، لا من حيثُ إني كاسب لها. فاعلم ذلك، واحمِ سمعك ولسانك عن سوء الظنِّ، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان طول عمره معتزلًا في بيته عن الأمراء والأكابر وهم يأتون إليه، ثم إنه ترك العزلة وصار يدور عليهم في بيوتهم يزورهم ويسألهم الدنيا، فلاث الناس به وقالوا: هذه خاتمة سوء وقعت لفلان، ولو أنه كان عكس هذا الحال، وختم عمره بالاعتزال عن الناس لكان أفضل، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم أو الشيخ، فقد يكون خاف علىٰ نفسه من فتنة الجاه بتردد الأكابر إليه، فترك العزلة لكونها كانت سببًا في ترددهم إليه، لأن من شأن الناس طلب القرب ممن هرب منهم، وهربهم ممن خالطهم، فأراد هذا الشيخ إزالة ذلك الجاه بترك العزلة وسؤالهم الدنيا: إما لينفقها علىٰ الفقراء والمساكين، أو علىٰ نفسه وعياله بطريقه الشرعي، بقصد نفع الأغنياء والفقراء. وهذا الحال أفضل من الحال الذي كان فيه أولًا.

فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من كان مخالطًا ثم اعتزل، أو كان معتزلًا ثم خالط، واحمل كلًّا منهما علىٰ أحسن حال، وأنه ما خالط أو اعتزل إلا بنية صالحة، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ الله قبله أو معه أو بعده؛ فلاث به بعض طلبة العلم وقال: رؤية الله تعالىٰ ممتنعة للمؤمنين في الدنيا، فكيف يدعي هذا رؤية الله؟ بأنه لا ينبغي الإنكار، فقد يكون مراده برؤية الله رؤية كونه تعالىٰ خالقًا لذلك الشيء علىٰ حذف مضمر، وليس مراده الرؤية التي تكون للمؤمنين في الآخرة، ولا بد من هذا التأويل. وأصل هذا المقام كان لأبي بكر الصديق ﷺ، ثم لعمر، ثم لعثمان ﷺ، لكن مقامهم كان متفاوتًا، فكان أبو بكر يقول: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ الله قبله. وكان عمر يقول: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ الله معه. وكان عثمان يقول: ما رأيتُ شيئًا إلا ورأيتُ الله بعده. ومرادهم رأيتُ الله فاعلًا، فما وقعت الرؤية إلا علىٰ

شهود صفة الخلق لا علىٰ كنه الذات، وهذا أمر لا ينبغي إنكاره، فإن كل إنسان لا يتبادر لذهنه إلا ما هو الغالب عليه.

وقد وقع أن شخصًا ادعىٰ رؤية الله عزَّ وجلَّ، فأتوا به إلىٰ سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ، فقال: هذا شخص صادق في دعواه، لكنه ملبَّس عليه، وذلك أنه خرق من قلبه إلىٰ بصره خرق، فرأىٰ الحقَّ تعالىٰ بعين بصيرته، فظن أنها ببصره. انتهىٰ. أي فإن رؤية الله تعالىٰ بالبصيرة ليس بممنوع؛ لأنه إيمان.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﷺ يقول: من ادعىٰ من الفقراء رؤية الله في هذه الدار فهو ملبَّس عليه، لأنه لا يرىٰ إلا ما قام في خياله، وتعالىٰ الله عما يخطر بالبال من الأشكال. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل كلام السيد أبي بكر وعمر وعثمان ومن قال بقولهم علىٰ أن في الكلام إضمارًا، لا بد من ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دخل علىٰ السلطان أو الوزير مثلًا وحياه بالانحناء له دون قوله: السلام عليكم ورحمه الله وبركاته؛ فلاث به بعض العلماء وقال: هذه بدعة مكروهة أو حرام لا ينبغي فعلها، بأنه ربما فعل ذلك نسيانًا للسنة حين رأىٰ جماعة السلطان يخضعون له برقابهم، فوافقهم غافلًا عن السنة، أو أنه كان ذاكرًا لها، ولكنه خاف ضررًا من جماعة السلطان كأن يدفعوه ويخرجوه ويبهدلوه ونحو ذلك.

وإيضاح ذلك أن السلام أمان، فكأن من يسلِّم يعطي الأمان لمن سلَّم عليه، ويقول: أنت في أمان مني. ومعلوم أن السلطان أو الوزير لا يخاف من ذلك العالم أو الشيخ عادةً حتىٰ إنه يعطيه الأمان منه، فإذا قال أحد من الرعية للسلطان: السلام عليك، فليس معناه إعطاء الأمان للسلطان من جهة خوف السلطان من ذلك المسلِّم أن يبطش به مثلًا، وإنما معناه أنت في أمان مني يا مولانا السلطان أني أخرج عن طاعتك، فهو طاعة له، وتصريح بأنه تحت أمره لا يخرج عنه.

ومن هنا تعرف يا أخي الجواب عن قول المصلي في الصلاة: «السلام عليك أيها

النبي ورحمة الله وبركاته» أي أنت في أمان مني يا رسول الله أن أخرج عن شرعك، فيطمئن خاطر نبيه بذلك، ويدخل عليه السرور به، فإنه ﷺ أشد الناس حرصًا علىٰ حصول الخير لأمته.

وقد نقل الجلال السيوطي رحمه الله عن كتاب «التحيات» لأبي طالب الجمحي رحمه الله أن أشرف التحيات تحية العرب، وهي قول العبد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكانت تحية الأكاسرة السجود لهم وتقبيل الأرض بين يديهم، وتحية الفرس طرح اليدين علىٰ الأرض بين يدي الملك. وتحية الحبشة عقد اليدين علىٰ الصدر بين يدي الملك بسكون. وتحية الروم كشف غطاء الرأس من بُعْدٍ مع تنكيس الرأس. وتحية النوبة إيماء الداخل علىٰ الملك بالدعاء بالإصبع. وتحية البجا[1] وضع يد الداخل علىٰ كتف الملك، فإن بالغ في الخدمة، رفعها ووضعها مرارًا. انتهىٰ.

قال الجلال السيوطي: وهذا سرٌّ جمع الشارع لفظ التحيات في الصلاة، أي إن الله تعالىٰ هو المستحِق لجميع التحيات التي يتحيا بها الملوك في سائر أقطار الأرض، لأنه تعالىٰ ملك الملوك. انتهىٰ. فاعلم ذلك ونزِّه العلماء والصالحين عن الوقوع في مخالفة السنة إلا بطريق شرعي تجده مفتوحًا عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا دخل عليه جماعة من العلماء يزورونه، فلم يلتفت إلىٰ أحد منهم، ولم يوجه له خطابًا، فلاثوا به وقالوا: نحن الظالمون الذين نزور جاهلًا متكبرًا، ولو كان أحدنا حوله برٌّ كالأمراء والأغنياء، لأقبل عليه وكلَّمه وتبسم في وجهه ونحو ذلك، بأنه لا ينبغي لهؤلاء المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان في ذلك الوقت في تحرير وجه الشريعة وطريقها ليمشي عليه هنا، ليستقيم في المشي علىٰ الصراط في الآخرة، فإن حقيقة المشي علىٰ الصراط إنما هو هنا لا هناك، فإنه لا يمشي هناك إلا علىٰ صورة مشيه علىٰ صراط الشريعة هنا، فمن زاغ هنا زاغ

---

(١) البجة أو البجا أو البجاة اسم يطلق علىٰ الشعب الذي يسكن ما بين ساحل البحر الأحمر ونهر النيل في السودان وعلىٰ امتداد من الشمال مروراً بمنطقة مثلث حلايب.

هناك، إلا أن يأخذ الحق تعالىٰ بيده، ومن استقام هنا استقام هناك.

فمن دخل علىٰ فقير وهو مشغول بتحرير وجه الشريعة، وطلب منه كلامًا أو تبسمًا فهو كمن يطلب من الماشي علىٰ الصراط يوم القيامة وهو يرعد كالقصبة الفارسية خوفًا من الوقوع في النار أن يشتغل به، ويقدم له ما يأكل وما يشرب.

وكان سيدي علي المرصفي رضي الله عنه يقول: الخوف من النار في الحقيقة إنما هو هنا لا هناك، فإياك أن تدخل علىٰ فقير فلم يلتفت إليك فتتكدر منه، واعذره فربما يكون في تحرير أمر يستقيم به علىٰ الصراط، فإن من كان كذلك لا يصير له وجهة إلىٰ الخلق، ولو دخل عليه أكبر ملوك الدنيا لم يلتفت إليه. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وصَفِّ نفسك من الرعونات قبل أن تدخل علىٰ أحد من الأشياخ، لتخرج سالـمًا من المقت. وفي كلام الشيخ أبي تراب النَّخْشَبِي رضي الله عنه: إذا ألف القلب الإعراض عن الله، صحبته الوقيعة في أولياء الله. انتهىٰ. فلو كنت يا أخي مقبلًا علىٰ الدار الآخرة فضلًا عن الإقبال علىٰ ربك، لالتهيتَ عن الخلق، ولما وجدتَ لك فراغًا إليهم.

[رد قول المعترض بأن تلك المحامل الحسنة ليس المحمول عليها من أهلها]

فإن قلتَ: هذه الدرجة التي حملت فلانًا عليها ليس هو من أهلها؛ **فالجواب:** أنه قد يمنُّ الله تعالىٰ عليه بها ذلك الوقت الذي دخلتَ عليه فيه. فاعلم ذلك، واحمِ سمعك وبصرك ولسانك وقلبك من استعمالها في غير مرضاة الله، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أخذ جماعة الوالي أو رسل قاضي الشريعة غريمًا من زاويته وبهدلوا جماعته، فلاث الناس به وقالوا: لو كان هذا شيخًا صادقًا وله مروءة، ما مكَّن أحدًا يأخذ الغريم من زاويته، ولكن قد ذهب الفقراء الصادقون ونحو ذلك، بأنه لا يقدح في مقام الولي أخذ ولاة السياسة أو الشريعة غريمًا من زاويته، ولا يلزم من ذلك عدم صدقه في الطريق، وقد يعطيه الله تعالىٰ التصريف في الولاة بالعزل[1] والنفخ

---

(١) بالأصلين: بالعزم.

وحبس البول، حتىٰ يكاد أحدهم يهلك، ويترك ذلك أدبًا مع الله تعالىٰ ومع شريعته.

وقد أمرنا رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة لولاة الأمور ما لم يأمرونا بمعصية الله عزَّ وجلَّ، وكلُّ فقير تكدَّر من كبس زاويته بأعوان الولاة وأخذ الغريم الذي احتمىٰ به منهم وقال: هذه بهدلة لخرقة الفقراء، فهو جاهل بطريق الأدب، فإن خرق ناموس الشريعة أقبح من خرق ناموس الفقراء، ولو كان الفقير صادقًا لساعد أعوان الولاة علىٰ إخراجه من زاويته، لكن محل ذلك ما إذا لم يكن مظلومًا، فافهم.

وقد كان الشيخ محمد بن عنان من أكابر الأولياء في عصره، وكبس السلطان الغوري[1] زاويته بالوالي، وأخذ منها شخصًا كان عليه مال للسلطان، فقالوا له: يا سيدي، في هذا خرق ناموس الفقراء! فقال: عدم خرق ناموس المملكة مقدَّم! مع أنه ﷺ لو سأل الله تعالىٰ أن يهلك جماعة الوالي كلَّهم، لربما أجابه الله تعالىٰ، لما كان عليه من الصدق مع الله تعالىٰ.

فعُلِمَ أنه لا يلزم من عدم عطب الشيخ لجماعة الولاة الذين كبسوا زاويته أن يكون عاجزًا عن ذلك، وإنما يجب حمله علىٰ أنه تركه لما هو عليه من الرحمة والشفقة علىٰ المسلمين من الولاة وغيرهم. وإن وقع أن شيخًا عطب أحدًا من الأمراء ونحوهم، حملناه وجوبًا علىٰ أن ذلك بإذن من الله تعالىٰ له من طريق الإلهام، فتراه ينفخ ذلك الأمير ويرىٰ أن الله تعالىٰ هو الفاعل لا هو. وإن وقع أنه قُتِلَ بتوجهه، حملناه علىٰ أن عمر ذلك المقتول انتهىٰ حين توجه الشيخ فيه، لا أن الشيخ قتله قبل انتهاء أجله، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «المنن»، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يخرج من مصر مثلًا يتلقىٰ النائب الذي ولّاه السلطان بها من نحو مدينة غزة، فلاث الناس به وقالوا: إنما سار إليه ليتعرف به، ويستمطر منه دنيا أو وظيفة، ولو كان هذا شخصًا من العلماء أو الصالحين ما ذهب إلىٰ لقائه من هذه المسافة، بأنه ربما كان من أصحاب النوبة بمصر، فخرج إلىٰ ذلك النائب

---

(١) الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري، تولىٰ سلطنة مصر بعد الملك الأشرف جان بلاط سنة (٩٠٦هـ)، وقتل سنة (٩٢٢هـ) في حروبه مع الدولة العثمانية.

ليقع بصره عليه ويكسر سَوْرَته[1] وحدته التي هو داخل بها. وربما لم يكن من أصحاب النوبة، ولكن دعاه أصحاب النوبة إلىٰ الخروج معهم تكثيرًا لسوادهم.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: لا يتولىٰ أمير ولا قاضٍ من بلاد الروم علىٰ مصر إلا خرج إليه أصحاب النوبة، فتلقوه من العريش الذي هو آخر درك أولياء مصر، فإن درك أولياء الشام يبتديء من الشام إلىٰ العريش. فإن جاء ذلك الأمير أو القاضي من البحر، تلقوه من مدينة إسكندرية، فلا يزال أحدهم يهضم نفس ذلك الأمير أو القاضي، ويميل قلبه بالرحمة علىٰ الرعية. حتىٰ لا يدخل مصر إلا وهو في غاية الأدب والرقة والعفة عن أموال الرعية، ولولا ذلك لدخل مصر بصولة وزفرة، فبطش في العمال وغيرهم، ولم يحتمله أحد. ثم لا بد من توجه أصحاب النوبة كذلك في الرعية، ليرجعوا عن ظلمهم ومعاصي ربهم، ويستقيموا حدَّ الاستقامة الممكنة لأمثالهم، وإلا فلا يقدِر أحد أن يرد عنهم ذلك الأمير أو القاضي أو الوالي، ولسان حاله يقول: أنا ظلُّكم، فإن كان أحدكم أعوج، فأنا أعوج تبعًا لكم قهرًا عليَّ، وإن كان أحدكم مستقيمًا، فأنا مستقيم تبعًا لكم، ولو أردتُ أن أتعوج لم أقدر.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إذا خرج الأمر الإلهيُّ السماويُّ من حضرة الأمر، خرج وله صولة عظيمة لا يحتمله إلا من أيده الله تعالىٰ بقوة زائدة علىٰ مقدور البشر، ولذلك يمكث نازلًا مدة ثلاث سنين، فلا يصل إلىٰ الأرض إلا بعدها كما يراه أهل الكشف، فيصل إلىٰ الأرض وقد انسحقت تلك الصولة في الأفلاك وما بينها، حتىٰ صار يحتمله أدنىٰ الخلق، ولولا ذلك لما أطاق حمله أحد. انتهىٰ.

وكذلك القول في الأمر الخارج من حضرة السلطان سليمان ابن عثمان[2] مثلاً يخرج من حضرته وله صولة عظيمة، من حيثُ إن الله تعالىٰ حكَّم السلطان في أهل الأرض،

---

(١) سَوْرَةُ الغضب: شدَّته.

(٢) سليمان ابن السلطان سليم العثماني. مولده سنة (٩٠٠هـ)، وتسلطن سنة (٩٢٩هـ). له فتوحات عظيمة وجهاد مشهور. ومات سنة (٩٧٤هـ). انظر: «الطبقات الوسطىٰ» (٢/ ٢٦٢).

وملّكه رقابهم. وقد قال أهل الكشف: إن دواوين ملوك الأرض على صورة دواوين أهل السماء، حتىٰ إن الملائكة الذين يكتبون السيئات يكونون علىٰ يسار الداخل إلىٰ الحضرة الإلهيّة، ككاتب السيئات في الأرض الجالس في سجن المجرمين والمديونين، فلولا خروج أولياء مصر إلىٰ ذلك النائب أو ذلك القاضي أو الدفتردار مثلًا وتعويقه في الطريق نحو الشهرين والثلاثة، لدخل بزفرة عظيمة، وتصير العامة يستبطئون دخوله، ويسحبونه بالقلب، ولا يعرفون أن ذلك رحمة بهم.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واحفظوا لسانكم في أولياء زمانكم إذا تلقّوا ولاتكم، فإن في ذلك مصلحتكم. وإن ظلمكم أحد من الولاة، فلوذوا بأوليائكم ولو من طريق الإيمان بوجودهم، فإما يعزلونه لكم، وإما يخففون عنكم الظلم، فإن قلوبهم بيد تصريف الأولياء بإذن الله، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للأمير أو غيره: إذا كان لك إلىٰ الله تعالىٰ حاجة، فتوجه إليّ بقلبك، وإياك أن تشرك معي غيري من المشايخ، فإنها لا تُقضَىٰ. فسمعه بعض الناس، فلاث به وقال: هذه دعوىٰ عريضة! بأنه لا يلزم من ذلك القول أن يكون صاحبه يرىٰ نفسه أفضل من مشايخ عصره، وإنما ذلك إرشاد له، لتُقضىٰ حاجته بسرعة من غير بطء كما جُرِّب، إذ الوجود كله مبني علىٰ التوحيد ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقد كان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله يقول لتلامذته: من كان منكم له إلىٰ الله حاجة، فليقسم عليه بي، وإياكم أن تشركوا معي أحدًا من الأحياء والأموات. انتهىٰ.

ووقع لسيدي محمد الحنفي الشاذلي رضي الله عنه أنه مشىٰ علىٰ بحر النيل من مصر إلىٰ الروضة، وتلميذه يمشي خلفه، وقال له: قل: يا حنفي، ولا تغفل عني. فوسوس له إبليس وقال له: قل «يا الله» أعظم من الحنفي، فقال: يا الله؛ فغرق، فالتفت إليه سيدي محمد الحنفي وقال له: إنك لا تعرف الله حتىٰ تسأله أن يمسك قدميك علىٰ الماء! قل: يا حنفي! فقالها، فطفا علىٰ الماء ومشىٰ عليه. انتهىٰ.

والسرُّ في ذلك صحة الارتباط وصدق التوجه لا غير. حتىٰ إن ذلك الشيخ لو لم يكن **أهلًا لفعل ما سُئل فيه، جعله الله أهلًا لموضع** صدق المريد.

وقد خبرتُ أنا هذا الباب أشدَّ الخبر مع الولاة الذين يترددون إليَّ من الكشَّاف ومشايخ العرب، فلم أقدر آخذ بيد أحد منهم إذا نزلت به شدَّة وهو يشرك معي غيري؛ كما أن غيري من الفقراء لا يقدر أن يأخذ بيده وهو يشركني معه في الاعتقاد، ولو كان ذلك الغير من أكبر الأولياء.

فعُلِمَ أن قول الشيخ لمن طلب منه قضاء حاجة: «لا تتوجه إلىٰ أحد غيري وأنا أقضيها لك» ليس مراده بذلك الدعوىٰ للصلاح، ورؤية نفسه علىٰ مشايخ عصره، إنما مراده سرعة قضاء الحاجة بحسب ما عوَّده الله عزَّ وجلَّ، حتىٰ لو أن صاحب الحاجة توجه إلىٰ أحد في قضاء حاجته، ثم جاءه يأخذ خاطره يقول له: لا تشركني معه، تقف قضاء حاجتك، ويحسِّن اعتقاده في ذلك الآخذ. فاعلم ذلك، واحمِ نفسك ولسانك من سوءِ الظن بالمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول للناس: فلان يُعزَل من ولايته، فلان يدوم في ولايته، ونحو ذلك من الأمور المستقبلة، فلاث الناس به وقالوا: لا ينبغي للفقير أن يخبر بمثل ذلك ويبيح بسره، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، فقد يكون له في ذلك غرض صحيح، كما إذا رأىٰ شيخ عرب أو كاشف يظلم في بلاده حين بلغه أن الولاة يعزلونه عن قريب، يقول له: إنك باقٍ في ولايتك، وما بلغك إنما هو من الكذب علىٰ أفواه الناس؛ وذلك لئلا يخرب البلاد ويزيد في البلص[1] ويقول: أبلص شيئًا لنفسي، وأضعف الفلاحين حتىٰ يعجزوا عن وزن الخراج قبل أن يجيء غيري. والكذب جائز في المصالح، وإن كان هذا الشيخ من أهل الكشف وأخبر عما رأىٰ، فكشفه يكذبه أو يصدقه، فلا اعتراض لنا عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رضي الله عنه يقول: ينبغي للفقير أن يبين للأمير إذا ظلم

---

(١) بَلَصَهُ من المال: لم يترك له منه شيئًا.

رعيته أن ذلك مؤذن بعزله وخراب دياره، ولا يحتاج ذلك إلىٰ كشف، بل التجارب تكفي في ذلك، فإن دار الظالم خراب ولو بعد حين، فحكم من يعدل في رعيته كمن يلطخ جدار داره كلَّ يوم بجبس أو طين، حتىٰ يصير جداره كسور المدينة. وحكم من يظلم رعيته كمن يهد كلَّ يوم من جداره طبقة، فلا يزال كذلك حتىٰ يقع جداره كلُّه، هذا مع ما يصيبه من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. وسمعتُه يقول: من كان مطمح نظره اللوح المحفوظ، فله الإخبار عن الأمور المستقبلة ولا حرج، فإنه لا بد من وقوعها. ومن كان مطمح نظره ألواح المحو والإثبات الثلاثمئة وستين لوحًا، فلا ينبغي له أن يخبر عن شيء من الأمور المستقبلة، لأنه ربما أخبر عن شيء وتغير الحكم بعد ذلك، فيسميه الناس كذَّابًا، ويسوء ظنُّهم بالفقراء، مع أنه صادق فيما أخبر، ثم لما تغير الحكم لم يسألوه عنه، ولو أنهم سألوه لأخبرهم بتغير الحكم. انتهىٰ. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وسلِّموا للمدعي ما يدعي من جميع الممكنات ما لم يعارض نصًّا أو إجماعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٤٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي نهىٰ مريده عن الحج أو عن زيارة القرافتين، فلاث الناس به وقالوا: كيف يمنع مريده من الحج إلىٰ بيت الله الحرام أو زيارة نبيه عليه الصلاة والسلام أو الأولياء والصالحين؟! بأنه ربما رأىٰ ذلك المريد جاهلًا بالأدب المتعلِّق بالحج أو بالأدب مع الأولياء. وربما كان الباعث لذلك المريد علىٰ الحج أو زيارة القرافة هوىٰ نفس، كالتفرج علىٰ البراري والجبال وغيرها من الأماكن القريبة. وربما كان الباعث له علىٰ زيارة الوليِّ رؤية الناس المجتمعين في مولده مثلًا. ولو أن الشيخ كان مدفونًا في خزانة ولا قبة عليه ولا تابوت ولا أحد يجتمع عنده، لما وجد عنده داعية لزيارته، فأراد الشيخ أن يعلمه الأدب مع الله ورسوله وأوليائه، ثم يأذن له في الزيارة.

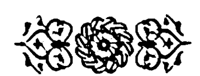
وقد رأيتُ شخصًا يزور القرافة كلَّ جمعة، ويركب بغلته ويمشيها علىٰ قبور الأولياء المهجورين، ليصل إلىٰ سور الأولياء المشهورين، فنهيتُه عن ذلك فأبىٰ، فقلتُ له: تعدم

بصرك ومالك وتدخل الحبس، فكان الأمر كذلك! وقال لي يومًا: قد زرنا اليوم سبعمئة شيخ، وخاطرك عليّ، فإن عليّ الدين. فقلتُ له: كيف تزور سبعمئة شيخ ولا يقضون لك حاجة؟! هذا دليل على أن زيارتك لهم هوىٰ نفس.

فحرر يا أخي النية لزيارة الصالحين ثم زرهم، ولا تتخذها كمواضع النزهة، فتبول وتحدث علىٰ قبورهم، وتروث بغلتك عليها، فإن ترك زيارتك حينئذٍ أولىٰ.

وأخبرني شخص أنه حصل له حصر بول وهو نائم عند السادات من بني وفا[1]، فاستعظم أن يبول قريبًا منهم، فابتعد عنهم جدًّا، ثم جلس يبول بالقرب من قبر مهجور، فإذا بصاحب القبر يقول له: أتدري أن صاحب هذا القبر أعظم مقامًا عند الله من بنى وفا؟! قال: فتركتُ البول وقمتُ مرعوبًا. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.





---

(١) جامع السادات الوفائية بالقرب من جامع سيدي ابن عطاء الله السكندري بجبل المقطم، وقد دفن فيه كلُّ مشايخ بني الوفا.

الباب السابع

في جملة أخرى من الأجوبة عن عموم الناس

فأقول وبالله التوفيق:

(٤٩٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سافر الحجاز وصار يزاحم بجماله في المضايق، ليكونوا في الطريق السهلة، وإذا نزل زاحم لتكون جماله داخل الناس وجمال جاره خارجًا، فلاث به الناس وقالوا: من شرط المؤمن أن يؤثر أخاه علىٰ نفسه، ولكن أين المؤمن؟! فقال لهم قائل: إن هذا شيخ في الطريق! فقالوا: نعم! هو شيخ بالاسم! وإلا فأين الأشياخ؟! بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بسبب ذلك، فربما شهد من نفسه ومن جماعته شدَّة الضعف والعجز عن حماية جماله من الوقوع في الوادي أو من اللصوص، ورأىٰ قوة جاره علىٰ ذلك، فزاحم علىٰ الداخل، وجعل جاره خارجًا لقوته إما بالحال مع الله، أو بالأمور الظاهرة. ولو أنه رأىٰ نفسه قويًّا وجاره ضعيفًا، لخرج وأدخله وجماله.

وكذلك القول في تقطير الجمال، فإذا زاحم العالم أو الشيخ أن تكون جماله أول القطر مثلًا، فلا ينبغي الإنكار عليه، لأنه ربما رأىٰ قوة جاره وضعف حاله، فخاف اللصوص علىٰ جماله وأمتعته إن تأخر لا سيما في الليل. وربما كان ذلك الشيخ من أهل الكشف، فرأىٰ الملائكة تحرس كلَّ من تأخر في القطر وقرب من الأماكن التي يُخاف منها وقوع الجمال في الوادي، فاكتفىٰ بحراسة الملائكة، ولولا الملائكة لكان الشيخ جعل نفسه مكانه، وأدخله إلىٰ المكان الأمين.

وقد وقع لي لما حججتُ في سنة ثلاث وستين وتسعمئة مع الأمير عيسىٰ شيخ البحيرة أنني نزلت في محطة الأزلم[1]، فجعلتُ جمال صديقي سيدي محمد

(١) الأزلم: قلعة تقع إلىٰ الجنوب من مدينة ضباء علىٰ بعد ٤٥ كم منها، وهي من محطات طريق الحج المصري خلال العصر المملوكي والعهد العثماني.

الحنفي[١] داخلاً وجمالي خارجًا، وكان قطره خارجًا، فرأيت تلك الليلة الملائكة وهي تحرس جمالي، وجاء بدويٌّ يسرق جملًا، فقطع جماعة الأمير رأسه تلك الليلة، فاعلم ذلك، واحمل العلماء والصالحين على المحامل الحسنة. والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٠) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا سافر الحجاز، وأخذ ما يركبه وما يأكله وما يشربه من أمير الحجّ ذهابًا وإيابًا، فلاث الناس به وقالوا: إذا كان العلماء ومشايخ الطريق صاروا يحجون بالمال الحرام، فما بقي في الحياة خير! بأنه لا ينبغي الإنكار على ذلك العالم أو الشيخ بذلك، فربما كان ذلك الطعام أو الجمال جاءت الأمير من وجه حل أكثر مما بأيدي ذلك العالم أو الشيخ، وكان أمير الحج هو السائل في ذلك، ويرى المنة للشيخ في قبول ذلك منه، لاسيما والعالم أو الشيخ يكون من أورع الناس عادة، فلولا رأى حل ذلك الطعام والجمال مثلًا ما أكله ولا ركبها. وتأمل يا أخي تسميته عالمًا أو شيخًا دونك لولا أن الناس رأوا معه علمًا وصلاحًا زائدًا عليك ما لقبوه بذلك.

وقد كان في جوارنا شيخ، فكان لا يزال يطلب من عيسى[٢] الطعام والماء والفلوس حتى سئم جماعة الأمير منه، وحلف لي أنه لم يذق منه شيئًا، إنما كان يطعمه للمحتاجين الذين غلب عليهم الحياء وليس لهم عادة بسؤال الناس، فاعلم ذلك يا أخي، واحم سمعك ولسانك، فربما كُشِف للشيخ أن طعامه في تلك الحالة ذاهبًا وراجعًا يكون من طعام أمير الحج، فترك حمل الزاد في تلك السنة على علم منه وهو معتمد على الله الذي قسمه لا على ذلك الأمير، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠١) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا سافر الحجاز وساء خلقه في الطريق على

---

(١) لعله شمس الدين السبريسي، شيخ الإسلام، يقول المصنف: « صحبته نحو عشرين سنة، فما أظن أن كاتب الشمال كتب عليه فيها شيئًا. وكان كثير الصمت لا تكاد تسمع منه كلمة لغو أبدًا. وكان عالـمًا بالقراءات السبع. وولاه السلطان الغوري مشيخة الإسلام كرهًا عليه. شرح كتاب «المختار» شرحًا عظيمًا، وسافر إلى مكة المشرفة فمات بها ﷺ». «الطبقات الوسطى» ترجمة (٥٤١) بتصرف.

(٢) أمير الحج المتقدم ذكره قريبًا.

خلاف ما كان عليه في الحضر، وصار ليس له وجهة إلىٰ أحد، ولا يضحك ولا يباسط أحدًا من إخوانه، فلاثوا به وقالوا: كان الأولىٰ له العكس إن كان شيخًا، لأن السفر إنما سُمي بذلك لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، فكان ينبغي للشيخ المباسطة لإخوانه، وعدم[1] التعبيس في وجوههم، والتكرم بكلِّ ما زاد عن حاجته أولاً فأولاً، بأنه ربما كان من الذين كان عليهم دَرَك الحجِّ في تلك السنة، فلم يزل من حين خرج من بركة الحاج[2] يدور بقلبه وعينيه علىٰ الركب جملًا جملًا من حين يسير الركب إلىٰ أن ينزل، فإذا نزل لم يزل يحوطه كذلك من السارق ومن عجز الجمال والمشاة، ويسأل الله أن يمدهم بالقوة إلىٰ أن يصلوا الدار ومحل أوطانهم.

وصاحب هذا الحال لا يصير له وجهة إلىٰ مباسطة مع أحد، وربما كان يحس ببدنه أنه ذائب ليلًا ونهارًا من شدة التعب في تلك الحملة، كأنه شرب رطلًا من السم، كما جربتُ أنا ذلك، فإنىٰ كنتُ لم أزل متوجهًا إلىٰ الله مراقبًا له من حين أركب إلىٰ أن أنزل، ومن حين أنزل إلىٰ أن نسير، وأرىٰ كلَّ جمل عجز عن المشي أو كلَّ متاع سُرق إنما هو بتقصيري في تحويطه، وأني مسؤول عنه في الدنيا والآخرة. وهذا أمر لا يسلِّم لصاحبه إلا من ذاقه في نفسه، فاعلم ذلك يا أخي، واعذر الشيخ إذا عبس في وجهك في طريق الحج، أو بخل عليك بشيء طلبتَه منه، فربما كان يدخره لمن هو أحوج إليه منك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا حمَّل الجمال في طريق الحج فوق طاقتها عادة، وأخذ معه طرَّاحة ولحافًا وكثيرًا من الثياب والآلات التي تكون في الحضر من غير ضرورة ظاهرًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا الشيخ ليس في قلبه رحمة، بأنه ربما كان متوجهًا إلىٰ الله تعالىٰ أن يمد تلك الجمال بالقوة كلما سار، فيصير عندها الحمل الثقيل عادة كحمل الريش. وربما كان يرىٰ الملائكة يحملون الأثقال التي علىٰ جماله، فلا

---

(١) بالأصلين: لعدم.

(٢) بالأصلين: الحجاج. والصواب ما أثبتناه، وهي منطقة تابعة لحي المرج التابع لمحافظة القاهرة عاصمة مصر، كانت المحطة التي يتجمع فيها الحجاج المسافرون بطريق البر من مصر إلىٰ الحجاز وعند عودتهم منها.

يكاد الجمل يحس بشيء من الثقل.

وقد رأيتُ أنا ليلةً ملائكةً في الهواء معهم سلاسل بخطاطيف يضربون الخُطَّاف في أسفل المحارة[١] أو الزاملة[٢] ويرفعونها، فيصير الجمل يمشي فارغًا وحمله فوقه في الهواء كالظلة، هذا أمر شهدتُه في وادي العقيق بعيني. ومع ذلك كنتُ أرحم الجمل من أن أحمل عليه القلص الكبير، وكنتُ أشربه من قمقمة تَسَعُ رطلين من الماء، وكنتُ أطعم جملي السكر والكعك، وأقبِّل فمه كلما أردتُ ركوبه وإذا نزلتُ، وأقول له: اجعلني في حلٍّ، فإن البهائم تفهم ما يُقال لها، وإنما تعجز عن النطق.

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الشيخ إذا تخاصم مع الجمَّال وقال له الجمَّال: قتلت جمالي، وهذا لا يجوز لك! ولم يكن مؤمنًا بصحة توجه الشيخ إلىٰ الله تعالىٰ في تخفيف أحمال الجمال، ولا بأن الملائكة تحمل عنهم أحمالهم، اللهم إلا أن يجمع الناس علىٰ كذب ذلك الشيخ، وضعف توجهه إلىٰ الله تعالىٰ، وأن مثله لا يقدر علىٰ ذلك، قلنا بالإنكار[٣] عليه بظاهر الشرع، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا جاءته ملاقاة الأزلم أو العقبة من دقيق وبقسماط وجبن وغير ذلك، فلم يعط جيرانه في الركب من ذلك شيئًا، فلائوا به وقالوا: هذا خروج عن صفات العلماء والأشياخ، لا سيما إن تعلق بذلك خاطر عيالهم وغلمانهم، بأن تلك الملاقاة ربما كانت من وجه شبهة أرسلها له بعض الولاة أو حاشيتهم كما هو الغالب، فلم ير إطعام ذلك الجار منها محبةً فيه، وصيانةً له عن أكل الشبهات في طريق الحج، فيدنسه بعد تلك المغفرة التي حصلت له بالحج. وربما ادخره لمن هو أشد حاجة من ذلك الجار. وربما كُشِفَ له أنه ليس لذلك الجار نصيب

---

(١) المحَّارة: شبه الهودج، غير أنها لا قبة لها، والله أعلم.

(٢) الزاملة: ما يُحمَل عليه من الإبل وغيرها. والجمع: زَوَامِلُ. «الوسيط». والظاهر أن المراد بها هنا شيء يوضع فيه الأمتعة ونحوها علىٰ ظهر البعير.

(٣) بالأصلين: الإنكار.

في الأكل من تلك الملاقاة، فمنعه منها لعدم القسمة لا بخلًا وشحًا في الطبيعة.

فرِض يا أخي نفسك حتىٰ تتخلص من الرعونات، وتصير تحمل الناس علىٰ المحامل الحسنة، وتسلم من الآثام بسوء ظنِّك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٤) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا سافر إلىٰ الحجِّ وحفظ الله تعالىٰ الركب في تلك السنة من قطَّاع الطريق، ومن موت الجمال ومن الغلاء، وقال الناس كلُّهم: هذا ببركة وجود سيدي الشيخ في الركب في هذه السنة؛ فأصغىٰ إلىٰ ذلك وأظهر السرور هو وجماعته، أو عرَّض هو بذلك وقال: إنما حُفِظ ببركة الفقراء الذي حجُّوا في هذه السنة- يعني الذين أنا منهم- ولاث به الناس بسبب ذلك، بأنه ربما قصد بإصغائه إلىٰ ذلك أو ادعائه إزالة العجب الذي حصل في نفسه بكثرة شكر الناس له واعتقادهم فيه، فأراد بذلك تغيير ما حصل عندهم من كثرة الاعتقاد، من حيثُ إن التبري من الصلاح وعدم الدعوىٰ يزيدهم اعتقادًا فيه، أو عرف أن حماية الحج تلك السنة ليس هي من أجله، وإنما هي من أجل حج أحد من إخوانه، فأراد الشيخ أن يستر أخاه في تلك السنة، فادَّعىٰ هو أن الحفظ في تلك السنة من أجله، وآثر أخاه بالخفاء الذي هو أكمل من الظهور في هذا الزمان محبةً فيه واحتياطًا له، وليس في قلبه هو شيء من الدعوىٰ، بل يرىٰ أن وجوده في الموقف بعرفة ينجس ذلك الموقف. وهذا أمر يفعله الفقراء كثيرًا، فينفعون الناس كلَّ النفع، ويضيفون ذلك إلىٰ غيرهم من أقرانهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ ﷺ يقول: من شأن الفقراء المتمكنين أن يكون أحدهم علىٰ قدم في العبادة والزهد، لا يقدر أحد من أهل عصرهم يمشي عليه، ومع ذلك لا يشعر بهم أحد، مع مشاهدة الناس لأعمالهم الزكية بعيونهم[1] ليلاً ونهارًا، فترىٰ أحدهم يدفع الناس عن شهود كمالاته بقوة عزمه، فلا يلحق أحد بشيء من كمالاته، من باب ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، قالوا: وهذا هو الذي

(١) بالأصلين: بعيوبهم. والصواب ما أثبتناه

يخرج من الدنيا بأعماله كاملة موفرة لا ينقص منها ذرة. بخلاف من لحظ الناس كمالاته واعتقدوه وشكروه، فربما ذهبت ثمرة أعماله في الدنيا، وقدم على الآخرة وهو صفر اليدين من الحسنات. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من يدعي الدعاوىٰ العريضة، فربما كان يقصد بذلك تنفير الناس عنه. والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا وقع أحد في عرضه ثم جاء يصالحه، فلم يقدر علىٰ رضا خاطره، وساق عليه السياقات فلم يقبل، فلاث الناس به وقالوا: الراية البيضاء علىٰ العوام الذين يقبلون السياقات، ويسامحون بعضهم بعضًا، وكيف يدعي هذا العالم العلم، أو الشيخ الصلاح، وهو يعلم أن الصفح خير من المؤاخذة ونحو ذلك؟! بأنه ربما كان ليس عنده له شحناء ولا بغضاء، وإنما قصد بذلك إظهار فضل أخيه علىٰ نفسه، حتىٰ يقول الناس: انظروا إلىٰ تواضع فلان مع هذا العالم أو الشيخ، وانظروا ما عند هذا من الرعونات والحقد والشحناء، والله إن هذا أحسن حالًا من الشيخ. وربما كان قصده بعدم قبول السياقات عليه تقبيح الوقوع في أعراض الناس في عينه، حتىٰ لا يعود يقع في عرض أحد كما مرَّ تقريره مرارًا.

ولا يجوز حمل هذا العالم أو الشيخ علىٰ المحامل السيئة، كما أنه لا ينبغي للشيخ أو العالم كذلك أن يحمل من وقع في عرضه [إلا] علىٰ المحامل الحسنة، وأنه ما نقصه في المجالس إلا خوفًا عليه من العجب بأعماله، كما كان عليه السلف الصالح لا التشفي منه.

وقد كان السلف الصالح لا يمدح أحدهم أخاه أبدًا، ويقول: أخاف أن ينقص أجر أخي بفتح باب المدح فيه من الناس إذا ذكرتُ لهم أحواله العالية، وأعماله الزاكية. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٦) ومما أجبتُ به عن العالم السمين أو الشيخ السمين حين لاث به الناس وقالوا: من شرط الوليِّ أن يكون الحقُّ تعالىٰ يحبه، وقد ورد أن الله تعالىٰ يكره الحبر السمين[1]-

(١) جزء من حديث أخرجه «البيهقي في الشعب» (٥٢٨٠) من كلام كعب، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح

أي العالم السمين- فكيف يُجمع بين ولاية هذا وكراهة الله تعالىٰ له؟! بأن هذا الحديث جرىٰ علىٰ الغالب، وما من عام إلا ويمكن أن يدخله التخصيص إلا إن أجمع العلماء علىٰ خلافه، ومراده ﷺ من كان سمنه من الأكل، وأما من كان سمن من المحبة لله تعالىٰ، فلا يقدح في ولايته السمن.

وقد كان الشِّبْلي رحمه الله من أسمن الناس، فقالوا له يومًا: لاشك في محبتك لله عزَّ وجلَّ، ولكن نراها تضني وأنت سمين! فقال صحيح، ولكنها إنما تضني إذا لم يصل صاحبها إلىٰ مقصوده، فأما إذا وصل إلىٰ مقصوده، فإنه يصير يسمن مع الأنفاس. وكان كثيرًا ما يقول: كلما أتذكر أني عبد أزداد سمنًا.

وقد أدركتُ من رجال هذا المقام جماعة منهم الشيخ إبراهيم الدقدوسي كان إذا صام سمن، وإذا أكل هزل، وذلك أنه إذا صام ارتفع حجابه، فأحب الله تعالىٰ، وإذا أكل حجب فنقصت محبته.

وأما معنىٰ الحديث علىٰ لسان الزهاد والعباد فهو ذم للعالم لقلة ورعه، إذ لو تورع عن الحرام والشبهات، لم يجد شيئًا يسمن به. فاحفظ لسانك وقلبك يا أخي عن سوء الظنِّ بالناس، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا نزل بأهل بلده بلاء، وسألوه أن يدعو الله تعالىٰ برفعه عنهم، فدعا ودعا ودعا ولم يجبه الحق إلىٰ ذلك، فلاثوا به وقالوا: كنا نعتقد فيه الصلاح، ولكن قد ظهر لنا حاله مليح[1]، بأنه لا يلزم من عدم إجابة دعائه عدم [صلاحه وولايته، وإنما سبب عدم إجابة دعائه عدم][2] استحقاق أهل بلده رفع البلاء عنهم لكثرة معاصيهم. وقد فعل هذا الشيخ ما سألوه فيه، ولم يبق عليه لوم، فليتوبوا إلىٰ الله تعالىٰ

المال» من كلام عمر رضي الله عنه (٣٥٢).

(١) كذا بالأصلين، وتركناها علىٰ حالها دون تصويبها نحويًّا لأنها محكية عن كلام العوام.

(٢) ساقط من «ب».

ليجيب الله تعالىٰ دعاءه برفع البلاء عنه. وأما مع إصرارهم علىٰ الذنوب، فلا يقدر القطب الغوث علىٰ رد العقوبة عنهم.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: من أراد رفع البلاء عن أهل زمانه، فلينادِ فيهم: معاشر الناس، توبوا كلُّكم إلىٰ الله تعالىٰ من كلِّ معصية ظاهرة أو باطنة، والبلاء يرفع عنكم.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﷺ يقول: ليس لأهل النصف الثاني من أهل القرن العاشر أنفع من كثرة الاستغفار، وذلك لأن الذنوب تترادف عليهم، فلا يعرفون عدد ذنوبهم ليتوبوا منها، وهناك يمسك الله تعالىٰ ألسنة الأولياء عن الدعاء لهم، ويقبض قلوبهم عن رجاء الإجابة، فيصير الناس في وادٍ من نار لا يرجىٰ إطفاؤها، أو كسمك كان في بركة ماء ثم نشف الماء عن السمك، فصارت الكلاب والحدادي تفسخه في النهار، وصارت الذئاب والثعالب تفسخه بالليل، ولا بقي يرجىٰ عود الماء إليه إلىٰ قيام الساعة.

وسمعتُه أيضًا يقول: قد صار الناس اليوم كأنهم محبوسون في قفص، وتحكمت فيهم أعمالهم السيئة، فليس في قدرتهم رد المعاصي المقدَّرة عليهم، ولا رد الجزاء الذي سبق به الوعد من الله عليه، وما بقي إلا الصبر أو التصبر.

فإياك يا أخي أن تقول: إن الأولياء قد انقرضوا وما بقي أحد منهم، فإنهم والله موجودون، ولكن اختفوا لخبث الزمان، وعدم رجوع الخلق إلىٰ طاعة مولاهم، وحاشا الأولياء أن يأتوا البيوت من غير أبوابها، فيريدوا رفع البلايا مع تمادي الخلق في المعاصي، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٨) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية الذي يأكل من ضيافة الفلاحين الزارعين في وقف الزاوية التي لم يشرطها الواقف لهم، ولاث به الفقراء الصادقون وقالوا: هذه الضيافة حرام، لأنها من قسم هدايا العمال، فكما أن العامل إذا ترك العمالة أو عزل منها لم يهد أحد إليه هدية، فكذلك هذا الشيخ إذا عزل من النظر علىٰ هذا الوقف لا يأتيه أحد من فلاحيه بهدية، بل يتحول بها إلىٰ الناظر الجديد، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار

علىٰ هذا الشيخ لدقة مدرك هذا الأمر، بل غالب العلماء ربما لم يتورع عن ذلك ويقول: هذا أمر كان للنظَّار قبلي ولم أحدثه عليهم؛ فعلِّم يا أخي هذا الشيخ الورع، ثم اعترض عليه بعد ذلك إذا أكل من هذه الضيافة من غير أن يكافيء أصحابها بما يقابل ثمنها، هذا ما درج عليه العلماء العاملون، والحمد لله رب العالمين.

(٥٠٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يزور أحدًا من إخوانه، ولا يعوده إذا مرض، ولا يهنيه بنعمة، ولا يعزيه بمصيبة، ولاث الناس به بسبب ذلك، بأنه ربما لم يجد عنده إخلاصًا في الزيارة أو العيادة، فصار ينتظر نيةً صالحةً يأتيه بها فلم يجدها، أو ربما رأىٰ النعمة نقمة علىٰ صاحبها فلم يأت إليه، فإن أظهر له السرور بها، كان ذلك مساعدة له علىٰ الاستدراج، وإن أظهر له الحزن ربما ظن به العداوة، فترك الحضور جملة، هذا ما عليه غالب الناس من متصوفة الزمان.

وأما أهل الكمال فيحضرون ويظهرون الفرح موافقةً لما عنده، ويظهرون الحزن كذلك موافقة لما عنده، ولهم في نفسهم معاملة أخرىٰ مع الله تعالىٰ، فيسأل أحدهم ربَّه أن لا تكون تلك النعمة نقمة، ولا تلك المصيبة مصيبة، بل كفارةً وطهورًا أو رفع درجات، فالنعمة نقمة من حيثُ الحقوقُ المتوجهة علىٰ صاحبها، والمصيبة نعمة من حيثُ الأجورُ التي فيها لصاحبها صبر أم لم يصبر، فإن صبر كان له أجران: أجر المصيبة، وأجر صبره [1] عليها.

وقد يكون هذا الشيخ الذي لم يزر أخاه ولم يعده إذا مرض يكتفي بحضور القلب مع أخيه في العبادات كلما يقف هو وإياه في حضرة الله الخالصة في الصلاة ليلًا أو نهارًا، كما عليه طائفة من الأولياء الذين طهرهم الله تعالىٰ من الغل والحقد والشحناء، فلم يحتج أحد منهم إلىٰ مداراة ولا مجابرة خاطر، لكن ثم من هو أكمل من هؤلاء، وهم من حضر عند أخيه بجسمه مع قلبه، وذلك لأنه قام بالسنة، ولعلها هي الحالة التي كان السلف الصالح يزورون بعضهم بعضًا عليها، فإن من يكتفي بزيارة القلب من غير

---

(١) بالأصلين: صير أجره. والصواب ما أثبتناه

حضور بالبدن ناقص، فهو كمن يقول: أنا أخضع لله تعالىٰ بالقلب، ولا أحتاج إلىٰ الخضوع بالجوارح. ومعلوم أن ذلك لا يكفي في التكليف.

فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك إذا رأيت فقيرًا يمر من تحت زاوية فقير كلَّ قليل ولا تراه يطلع له، فتقول: إن أحدهما يكره صاحبه. أو كل واحد يكره الآخر، فإن ذلك سوء ظنٍّ بالفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أخل بواجب حق أحد من العلماء ولم يعتذر إليه، فلاث الناس به وقالوا: إنما ترك الاعتذار لفلان استهانةً بحقه، وذلك لا يجوز، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، لاحتمال أنه ربما ترك الاعتذار لذلك العالم اعتمادًا علىٰ مروءته ودينه وخيره، ولولا ذلك لكان اعتذر إليه. وربما ترك الاعتذار هروبًا من تزكية نفسه عند من اعتذر إليه، فقد قالوا: الاعتذار تزكية للنفس وتهمة للمعتذر إليه. انتهىٰ.

وإيضاح ذلك أن المعتذر ظنَّ فيمن أخل هو بحقه أنه أخذ في نفسه[1] عليه، فأراد باعتذاره أن يزيل ما في نفسه، كأنه يقول: لم أخل بحقك، واتهامك لي باطل، فقد زكَّىٰ نفسه وجرح أخاه.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: لا اعتذار بين عارفين، لأن كلًّا منهما يحمل أخاه علىٰ المحمل الحسن، ويجب علىٰ كلٍّ من المحجوبين الاعتذارُ للآخر، وإلا أدىٰ إلىٰ الحقد والشحناء. وكذلك يجب علىٰ العارف أن يعتذر للمحجوب تنزلًا لعقله إذا وقع في حقِّه، لأنه لا يحمل العارف إلا علىٰ حال نفسه، كما أن المحجوب كذلك يعتذر للعارف لظنه أنه يؤاخذه، مع أنه غير مؤاخذ له، ومن هنا قال الإمام الشافعي: لا تقصر في حقِّ أخيك اعتمادًا علىٰ مروءته. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، واحمل الشيخ إذا لم يعتذر لذلك العالم علىٰ أنه ظنَّ بذلك العالم خيرًا وأنه[2] مثله لا يؤاخذ بذلك، فترك الاعتذار له، ولو أنه ظن أنه يؤاخذه بذلك الخلل

---

(١) بالأصلين: تفتيشه. والصواب ما أثبتناه بدلالة السياق.

(٢) بالأصلين: زاره. والصواب ما أثبتناه

لاعتذر إليه، والحمد لله رب العالمين.

(٥١١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي كان له مجلس ذكر يجتمع فيه خلائق، فتركه وجعل موضعه درسًا في النحو أو في المنطق، فلاث الفقراء به وقالوا: هذا الشيخ رجع إلىٰ وراء، بأنه لا يلزم من ذلك رجوعه إلىٰ وراء، فقد يكون ممن أعطاه الله تعالىٰ مقام الكمال، فصار يحضر مع الله تعالىٰ في كلِّ علم لا يجمع صاحبه علىٰ حضرة الله عادة، ويتساوىٰ عنده في الحضور مع الله تعالىٰ القرآن والنحو والمنطق، وصار كل علم في الوجود يجمعه علىٰ حضرة ربه، كما كان عليه الأكابر من القوم كسيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أبي السعود ابن الشبلي[1]، والشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ، فإن المنقول عنهم أن أحدهم لم يزل يدرس في العلوم الشرعية وآلاتها من بيع وشراء ورهن وضمان ونحو وأصول، ولا يرىٰ بذلك بأسًا، فلما تأخر الزمان ضاق حال الفقراء، وصاروا ينهون جماعتهم عن الاشتغال بهذه العلوم، وذلك من علامات نقصهم، فإنه ما دام الفقير يجمعه علىٰ الله شيء دون شيء فهو ناقص.

فاحمل يا أخي هذا الشيخ علىٰ الكمال، وأنه حاضر بقلبه مع الله تعالىٰ في حال قراءته النحو، كما يحضر مع الله حال الذكر علىٰ حد سواء. وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: جميع ما أمر الله تعالىٰ به ما شرعه بالأصالة إلا ليجمع العبد علىٰ ربه، فإن وقع أن أحدًا حُجِب به عن ربه فذلك لأمر عرض له في نيته أفسدها. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا عضل ورد كلَّ من جاء يخطب ابنته أو موليته، حتىٰ طلع الشيب في رأسها، ولاث الناس به حين رد العلماء والصالحين وقالوا: هذا مخالف للسنة، بأنه ربما كُشِف له أن بنته أو موليته لم تُقسَم لجميع من خطبها،

(١) أبو السعود بن الشبل العطار الزاهد، صحب الشيخ عبد القادر، وصار من كبار الفقراء، وله كرامات وأحوال وقبول عظيم، غلب عليه الفناء فكان لا يأكل ولا يلبس إلا أن يطعموه أو يلبسوه، ولا يكاد يتكلم إلا جوابًا، توفي سنة ٥٨٢ هـ. «تاريخ الإسلام» (١٢/ ٧٥٦).

فصار ينتظر من قُسِمت له.

وقد كان جدي رحمه الله لا يجيب أحدًا إلىٰ خطبة ابنته إلا ليلة العرس، فيجيبه ويكتب كتابه تلك الليلة ويقول: قد يجيب الإنسان إلىٰ خطبة ابنته من لم يكن له عندها نصيب، فيتعذر عليه الدخول بها، وكلما شرع في الدخول حصل دونه موانع، فيحصل له وللزوجة وأهلها الضرر، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حق الأشياخ، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٣) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا مات فوجدوا وراءه مالًا عظيمًا[١]، مع كونه كان يقبل الزكاة ويسأل من الناس، فلاث الناس به وقالوا: ياما[٢] تُفضَح القيامة من خلائق! انظروا هذا المال الذي وُجِد بعد فلان! مع كونه كان يظهر لنا الفقر، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، لاحتمال أن يكون وصل إليه من وجه فيه شبهة، فلم ينشرح قلبه للأكل منه، ولا للتصدق به، فتركه إلىٰ وقت موته، وفوَّض أمره إلىٰ الله تعالىٰ يفعل فيه ما يشاء. ولو أنه كان حلالًا لكان أنفقه وتصدق منه. فاحمل يا أخي العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة في كلِّ ما وُجِد بعدهم من النقود والثياب والأمتعة، وإياك وحملهم علىٰ البخل والشح، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا رأىٰ سكران، فقال: دعوه، هذا من أولياء الله عزَّ وجلَّ؛ فلاث به العلماء وقالوا: كيف يكون هذا السكران من أولياء الله عزَّ وجلَّ، هذا خروج عن الشريعة، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه بمجرد هذا القول حتىٰ يُستفهَم عن مراده، فربما كُشِفَ له أنه وليٌّ في علم الله، بأن يتوب الله عليه بعد ذلك ويصطفيه، فأخبر عما يؤول إليه أمره.

وقد تقرر عند علماء الشريعة أن العبد لا يخرج من الإيمان بوقوعه في معصية، فكذلك القول في الولاية لا يخرج عنها بالمعصية، لأن الولاية فرع من مقام الإيمان،

---

(١) مضىٰ قريبًا منه في الجواب (٣٩٤).

(٢) كلمة عامية مصرية معاها «كم».

ومرتبة من مراتبه. وأما حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[1] فالمراد به أنه ليس بمؤمن بأن الله تعالىٰ يراه حال تلك المعصية، لا أنه خرج من جملة الإيمان، إذ لو كان عالمًا بأن الله تعالىٰ يراه ما قدر علىٰ الوقوع في معصية. ويؤيده حديث الطبراني وغيره: «إذا أراد الله تعالىٰ إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم»[2] الحديث، أي سلبهم تعقل نظر الله تعالىٰ إليهم ذلك الوقت لا عقل التكليف جملة، فافهم، فإن ذلك خرق لإجماع المسلمين، ورد لنصوص الشريعة المصرِّحة بعذاب طائفة من عصاة المكلفين.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رضي الله عنه يقول: قد يجتمع في الشخص الواحد الخير والشر في وقت واحد، فيكون وليًا لله تعالىٰ من وجه، عدوًا له من وجه آخر. وأطال في أدلة ذلك، ثم قال: وبالجملة فشواهد ذلك في الكتاب والسنة لا تُحصَر خلاف ما عليه من يُكفِّر المؤمن بالكبيرة، أو يقول بإحباط العمل بها ولو تاب قبل موته منها. فاعلم ذلك، واحمل كلام الأولياء علىٰ المحامل الحسنة إذا تكلموا بشيء من طريق كشفهم.

وقد كان سيدي عبد القادر الدشطوطي لم يزل ينام عند نصراني في باب البحر، ويعزم عليه جماعة من قضاة الحارة أن ينام عندهم فلا يجيبهم، فكانوا يلوثون به ويقولون: يقدم النوم عند نصراني علىٰ النوم عند أهل العلم؛ فيقول: ليس هذا نصرانيًا، إنما هو مسلم موحد! فبعد قليل أسلم النصراني وحسن إسلامه، وصح كلام الشيخ رضي الله عنه، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا كان قليل النوافل جدًا من صلاة وأذكار وصيام، ولاث الناس به وقالوا: ما بقي عالم عامل بعلمه في هذا الزمان، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ حتىٰ تتأمل في حاله، فإن رأيناه محفوظًا من الوقوع في أعراض الخلائق، عفيفًا عن أموالهم، حسن الظن بهم، سلمنا له ذلك، فإن من لا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

(٢) تقدم تخريجه.

تبعة عليه لأحد من الخلق يكفيه قليل النوافل. وإن رأيناه يقع في أعراض الناس، ويأكل أموالهم بالباطل، اعترضنا عليه وقلنا له: أكثر من النوافل لتعطي منها الأخصام يوم القيامة، وإلا حمَّلوك من أوزارهم يوم القيامة، ثم قذفوك في النار كما ورد[1].

فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من تراه قليل الأوراد والنوافل، حتىٰ تنظر في أحواله، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وإنما أمر الخلق بالإكثار من النوافل ليعطوا منها أخصامهم يوم القيامة، أو ليرفع بها درجاتهم في الجنة، من باب ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤] لا من باب الإلزام، وعليك بالنظر في عيوب نفسك، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٦) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا صنَّف أحدهم كتابًا وحرره وتعب فيه، ثم أخذه بعض الأعداء فرموه في البحر أو حرَّقوه، فتغير الشيخ لذلك وتكدَّر، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا مخلصًا فيه ما تغيرت منه شعرة، ولكن أين الإخلاص اليوم؟! بأنه لا يجوز حمله علىٰ أنه تكدَّر لحظ نفسه، وإنما يجب حمله علىٰ أنه تكدَّر علىٰ ذلك من حيثُ كونُه شريعة لرسول الله ﷺ، كما يتكدَّر إذا فعلوا ذلك بكتاب غيره من الأقران علىٰ حد سواء. **فإن قال قائل**: هذا بعيد وقوعه من علماء هذا الزمان؛ **قلنا له**: هذا سوء ظن بالعلماء، وهو حرام عليك.

وكذلك القول في طَمِّ[2] البئر التي حفرها شخص وسبل ماءها، ثم جاء شخص فطمَّها، يجب حمل صاحبها إذا تكدر علىٰ أنه إنما تكدر لأجل حاجة الناس إليها، أو

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضىٰ ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» والترمذي (٢٤١٨) وابن حبان (٤٤١١).

(٢) طَمَّ الحفرة بالتراب: رَدَمَهَا وسوَّاها بالأرض.

أنه تكدر حزنًا وشفقة علىٰ قلة دين من أتلف الكتاب أو طمَّ البئر، لا علىٰ نسبة ذلك إليه، إذ المؤلف أو فاعل الخير إذا صلحت نيته لا عليه بعد ذلك إن أبقاه الله في الوجود أو أذهبه. فإياك أن تحمل العالم أو الشيخ مثلًا علىٰ تكدره لحظ نفسه، فإن ذلك دخول بين العبد وبين ربه ونيته، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناه فرحًا مسرورًا لما نزلت بعدوه مصيبة من عزل من وظيفة أو موت ولد عزيز وفقد مال ونحو ذلك، فلاث الناس به وقالوا: كيف يظهر فلان السرور والشماتة بأخيه المسلم، مع كونه يدعي العلم والصلاح؟! هذا أمر لا يجوز في الشريعة، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار، فربما كان سروره إنما هو بالثواب المرجو لذلك العدو عند الله تعالىٰ، عملًا بحديث: «اللهم من آمن بي وصدقني وعلم أن ما جئتُ به الحق من عندك، فأقلل ماله وولده، وحبب إليه لقاءك. ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم أن ما جئتُ به الحق من عندك، فكثر ماله وولده، وأطل عمره، ولا تحبب إليه لقاءك»[1]. انتهىٰ. وهذا يقع فيه الساذج بحسب ما فهمه من هذا الحديث، ولو أنه كان حاذقًا لأظهر لعدوه الحزن كما يفعل غيره، وأخفىٰ سروره وفرحه كما يفعله الكُمَّل من الأولياء، ولكنْ الحذق قليل[2] في المباركين من العلماء والفقراء، كما أن إظهار الفرح والسرور بمصيبة عدوهم أبعد من البعيد، وإن وقعت فليس ذلك علىٰ وجه الشماتة والتشفي منه، فاعلم ذلك واحفظ لسانك في حق العلماء والصالحين وغيرهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٨) ومما أجبتُ به عن سهل بن عبد الله التستري رحمه الله في قوله: إن لله تعالىٰ عبادًا لو سألوه أن لا يدخل أحدًا من أمة محمد النار لأجابهم، ولكن لا يفعلون لأنهم لا يحبون إلا ما أحب سبحانه وتعالىٰ؛ فلاث به بعض المجادلين وقال: لا بد [من دخول][3] طائفة

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٣٣)، والطبراني في «الكبير» (٥٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٦١)، وابن أبي شيبة (٦٧٤).

(٢) بالأصلين: قليلاً. والصواب نحويًا ما أثبتناه.

(٣) ساقط من «أ».

من الموحدين النار، ثم يخرجون منها بالشفاعة. بأنه لا إنكار على سهل بذلك، لأنه كفرض المحال، ولم يزل العلماء يفرضونه. وإلا فكيف يقع من ولي أن يسأل الله تعالىٰ في تغيير ما سبق به علمه، ويعارض بذلك ما أخبر به الشارع ﷺ؟! هذا أبعد من البعيد.

وقد نسبوا إلىٰ الإمام الغزالي رحمه الله أنه نقل عن سهل بن عبد الله أنه قال: إن لله عبادًا لو سألوه أنه لا يقيم الساعة لم يقمها، أو أنه يقيمها الآن لأجابهم. وأن الإمام الغزالي نقل ذلك ساكتًا عليه، وأنا أقول: حاشا الإمام الغزالي من مثل ذلك لمعارضته النصوص القطعية.

وكان سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: إذا بلغكم شيء يخالف الشريعة عن العلماء والصالحين، فلا تبادروا إلىٰ الإنكار عليهم اعتمادًا علىٰ الإشاعة. فربما كانت من إشاعة الأعداء، وقيسوا تلك المقالة علىٰ حال ذلك العالم أو الصالح، فإن كان مثله يجهل مثل ذلك، فعلِّموه الحكم ثم أنكروا بعد ذلك عليه. وإن كان مثله لا يجهله، فردوا عنه وقولوا: حاشا فلانًا أن يقع في مثل ذلك. وكان كثيرًا ما يقول: إذا رأىٰ أحدكم في كلام أحد من الأشياخ كلامًا يوهم خلاف الشرع، فلا ينكر أحدكم عليه إلا بعد قوله: دستور يا سيدي أنكر عليك خوفًا أن يتبعك أحد علىٰ التدين بذلك. وكان يقول: لا ينبغي أن ينكر علىٰ مثل الإمام الغزالي إلا من كان أعلم منه، فإن الجاهل ربما ينكر علىٰ العالم بفهمه السقيم ما لم يرده العالم. انتهىٰ.

وتقدم أوائل الباب الرابع الكلام علىٰ تأويل قول الإمام الغزالي: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»[1] وأنه كلام صحيح، أي لأن الوجود علىٰ قسمين: قديم، وحادث، فالحق تعالىٰ له رتبة القدم، والعالم كله له رتبة الحدوث، فلو خلق تعالىٰ ما خلق، فلا يرقىٰ عن رتبة الحدوث. وأيضًا فإن الله تعالىٰ خلق الخلق في أحسن تقويم وأعطىٰ كل شيء خلقه، أي كماله بحسب ما سبق به علمه، فلا يصح أن يرقىٰ عن صورته التي سبق بها العلم أبدًا، لأنه يؤدي إلىٰ تقدم جهل به، وتعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وعبارته في «الإحياء»: اعلم يا أخي أن ما قسمه الله تعالىٰ في هذا الوجود من رزق وإيمان وكفر ليس

---

(١) الجواب رقم (١٨٤). وسيأتي جواب آخر عن نفس القول في الجواب (٧٦٨).

في الإمكان أحسن منه ولا أتم ولا أكمل[1]. انتهىٰ.

وقد أنكر ذلك عليه جماعة من أهل عصرنا وغيرهم، وقالوا: هذا يلزم منه أن كفر الكافر أحسن من إيمانه، والإمام الغزالي بالمحل الأسنىٰ من العلوم والمعارف، كما أوضحنا ذلك في الباب العاشر من كتابنا المسمىٰ بـ«منهج الصدق والتحقيق» فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

(٥١٩) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا وقع في المعصية، فقال: الحمد لله الذي لم يقدِّر تعالىٰ عليَّ أكثر من هذه المعصية! وإذا وقع علىٰ يديه طاعة قال: الحمد لله الذي لم يقسم لي دونها من الطاعات؛ فلاث به بعض المجادلين وقالوا: لا ثمرة لهذا الحمد، فإن ما قسمه الله تعالىٰ لك في الأزل لا يزيد ولا ينقص من طاعة أو معصية، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأن ذلك بالنظر إلىٰ حضرة المحو والإثبات والتغيير والتبديل، وما قاله هذا المعترض إنما يكون بالنظر إلىٰ ما في علم الله تعالىٰ الذي هو أم الكتاب، ويصح للعبد أن يحمد ربه علىٰ أمر من باب الفرض والتقدير، فإنه كان قادرًا علىٰ أن يقدِّر عليه معصية أكثر من تلك المعصية ويكرر وقوعه فيها حتىٰ يموت، وكان قادرًا أن لا يقسم له [إلا يسيرًا من الطاعات، أو][2] لا يسيرًا ولا كثيرًا. ولو توقف حمد العبد علىٰ أن ما قسمه الله تعالىٰ للعبد وقدَّره عليه لا يزيد ولا ينقص لما كان يصح لأحد حمد ربه، ولا كان الشارع شرع لنا الحمد أبدًا، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك في حقِّ المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: «أعرف تلامذتي من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢]، ولا أزال أربيهم في الأصلاب وأنا في صلب آبائي حتىٰ وصلوا إليَّ؛ فلاث به الناس وقالوا: هذا معارض لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا

---

(١) انظر «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٥٨).

(٢) ساقط من «ب».

تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فقد سبقه إلىٰ مثل ذلك الإمام علي رضي الله عنه وسهل بن عبد الله التستري، حتىٰ كان سهل يقول: أعرف تلامذتي من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وأعرف من كان هناك عن يميني، ومن كان عن شمالي. *انتهىٰ*.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ لا ينافي ذلك، لأن المراد بالبطون ما يشمل بطون الذوات، أي لا تعلمون شيئًا من ذواتكم، إنما تعلمونه بتعليمنا لكم، وهذا محل وفاق لا يخرج عنه أحد من الخلق، فلولا تعليم الله تعالىٰ للعبد ما علم شيئًا، قال تعالىٰ لسيد الخلائق أجمعين: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ثم إن مقام معرفة التلامذة من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لا يكون إلا لمن صفت ذواتهم من الكدورات البشرية، فلم يحجبهم اختلاف الأطوار عن شهود تلامذتهم. أما من غلبت عليه الكدورات البشرية فربما [أنه][1] لا يعلم بتلامذته إلا بعد معاشرة طويلة.

وكان الشيخ أبو السعود ابن أبي العشائر يقول: قد أطلعني الله علىٰ تلامذتي وعلىٰ من يُفتَح له علىٰ يدي ومن لا يُفتَح له. وكان يقول لخادمه سيدي حاتم إذ قال له: يا سيدي، خذ عليّ العهد. يقول له: يا ولدي، ما أنت من تلامذتي، وإنما أنت من تلامذة شيخ يأتي من بلاد المغرب اسمه أبو العباس البصير[2]. فلما كان بعد عشر سنين قال له: إن شيخك وصل إلىٰ بيلاق فاذهب إليه. فلما اجتمع به قال له مشافهة: جزىٰ الله عني أخي أبي السعود خيرًا. ثم أخذ عليه العهد.

ولما أراد سيدي أحمد بن الرفاعي أن يأخذ العهد علىٰ فقير نظر إلىٰ جبهته ثم

---

(١) زيادة من «أ».

(٢) الشيخ أبو العباس البصير رضي الله عنه، أصله من المغرب، ثم قدم مصر فقطنها، وكان من أصحاب الكشف التام والقبول العام. وكان من معاصري الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر، وكان كل منهما يكاتب الآخر. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ١٣٨)، «الكواكب الدرية» (٢/ ٣٣٦).

امتنع، فقال له المريد: يا سيدي، أما تأخذ عليَّ العهد؟! فقال: يا ولدي، إني أرىٰ داعي أبي الوفا ابن عقيل[1] علىٰ جبهتك، فاذهب إليه. انتهىٰ.

فكانوا ﷺ يعرفون أصحابهم، فمن ادعىٰ ذلك المقام اليوم صدَّقناه، لأنه ادعىٰ ممكنًا سبقه الناس إلىٰ مثله، ولا اعتراض عليه إذا صار يستجلب المريدين إلىٰ صحبته، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا دُعي إلىٰ جنازة ولد أحد من أقرانه أو والده أو زوجته فلم يحضر، فلاث الناس به وقالوا: الآن تحققنا عداوته له، بأنه يجب حمله علىٰ عذر شرعي ولا يجوز سوء الظن به. وإن طلب صاحب الجنازة مقابلته بما يسوؤه في وهمه، فلا يحضر الآخر جنازته إذا دُعِي إليها، وأما غيبته فلا تُباح بمثل ذلك.

وكان سيدي علي الخواص ﷺ لا يعتب علىٰ أحد لم يحضر له جنازة أو لم يعده وهو مريض، ويقول: هو خير، فإن فعله كان له أجر، وإن لم يفعله فهو الذي فوَّت ذلك الأجر علىٰ نفسه. وكان في أوقات يعتب علىٰ من لم يعده ولم يحضر جنازته ويوهمه التشويش، والحال أنه غير متشوش ويقول: إنما نفعل معه ذلك ليقبح في عينه الإخلال بحقوق الإخوان. وتارة يقول: إنما أظهرتُ لفلان التشويش لتفويته الأجر علىٰ نفسه، لا لفوات حقي أنا بقطع النظر عن تفويت الأجر في حق نفسه، فأوهمه أني متشوش منه لحظ نفسي حتىٰ لا يعود إلىٰ مثلها، فإنه أقطع عنده من إظهاري التشويش لأجل فوات الأجر الخاص به. وهذا أمر يقع كثيرًا من الأقران في حق بعضهم بعضًا ويتعادون بسببه، فليحذر المؤمن من ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي وقع في عرض شخص في زاوية، ثم ذهب إليه

---

(١) أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي، شيخ الحنابلة، ومصنف التصانيف اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته. وكان يعظم الحلاج، فأراد الحنابلة قتله، فاستجار بباب المراتب عدة سنين. ثم أظهر التوبة حتىٰ تمكن من الظهور له تصانيف أعظمها «كتاب الفنون» توفي سنة ٥١٣ هـ. «تاريخ الإسلام» (١١/ ٢٠٣)، «الأعلام» (٤/ ٣١٣).

وقال له: إني وقعت في عرضك وقلتُ في حقك كذا وكذا بحضرة فلان وفلان؛ فحصل بذلك فتنة أشد من وقوعه فيه بالغيبة من ورائه، فلاث العلماء بهذا الشيخ وقالوا: هذا من الجهل وقلة الاشتغال بالعلم، بأنه ربما كان الحامل له على إعلامه بما قاله في عرضه من ورائه قوة إيمانه بأحوال يوم القيامة، وأنه لا بد من وقوفه بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فأراد بذلك تنصله منه في الدنيا قبل الآخرة ولو بتقبيل نعله غافلًا عما يترتب على إعلامه من شدَّة الفتنة. وهذا أمر يقع فيه كثير من الساذجين الذين لا يحسبون العواقب.

وقد وقع في مثل ذلك بعض الصحابة، وجاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إني زنيت بفلانة، ولم يكن علم بذلك إلا الله تعالى، فحصل بذلك فتنة بين أهل تلك المرأة عظيمة، ولامه بعض الصحابة وقالوا له: «هلا سترتَ نفسك»[1] فقصد ﷺ بإعلام رسول الله ﷺ أنه يطهره ويقيم عليه الحد حين أعطاه إيمانه بالحساب أن عذاب الدنيا أهون، فعُلِمَ أنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ الذي أعلم من وقع في عرضه بما وقع.

[تفصيل حسن لمظالم العباد]

وقد حبب لي أن أوضح لك يا أخي هذا المحل على تفصيل حسن، فأقول وبالله التوفيق:

اعلم يا أخي أن لمظالم العباد ثلاثة دواوين: ديوانًا لا يغفره الله تعالى وهو الشرك، ثم هو قد يرجع إلى ظلم النفس التي هي من جملة العباد؛ وديوانًا لا يغفره الله تعالى بالأصالة، وهو مظالم العباد من مال أو عرض؛ وديوانًا لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد لنفسه بارتكاب المعاصي دون الشرك، وهذا يغفره الله تعالى بالتوبة الصادقة.

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٦٣) من حديث عبد الله قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقض في ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله، لو سترت نفسك. قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئا، فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلا دعاه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة؟ قال: بل للناس كافة» والبيهقي في «السنن» (١٧٠٨٥) وفي «شعب الإيمان» (٦٦٨٢).

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: مظالم العباد علىٰ ثلاثة أقسام: قسم يتعلق بالنفوس؛ وقسم يتعلق بالأموال؛ وقسم يتعلق بالأعراض. فأما النفوس فأحكامها معروفة في كتب الفقه، كقتل العمد والخطأ، ووجوب القَوَد[1] والدية والكفارة وغير ذلك. وأما الأموال فإنه لا بد من ردها إلىٰ المظلوم أو وارثه، فإن تعذر ذلك لم يبق غير التصدق بها عن صاحبها. فإن عجز عن رد المظالم في الدنيا، فليستكثر من الحسنات التي تُوفَىٰ منها الغرماء عند الميزان، فإن لم يفعل فليتأهب لتحمل أوزار المظلوم وأثقاله علىٰ ظهره يوم القيامة، كما ورد في الصحيح من أن العبد إن كانت له حسنات، أُخِذ من حسناته وأُعطِي المظلوم، وإن لم يكن له حسنات طُرِح عليه مِن سيئات المظلوم، وكُتِب له كتاب إلىٰ النار[2].

وأما الأعراض فقد ذكر بعض المحققين فيها تفصيلًا حسنًا، وهو أنه إن كانت المظلمة غيبة أو نميمة أو نحوهما، فلا يخلو من أحد حالين: إما أن تكون بلغت المظلوم أم لا، فإن بلغته تعين وجوب التحلل، وإن لم تبلغه كان تبليغها أذىٰ جديدًا، وربما أورث ذلك الحقد وانقطاع المودة ونحو ذلك مما هو أصعب من تلك المظلمة، فالطريق في ذلك كثرة الاستغفار له دون تبليغه ودون طلب التحلل منه. انتهىٰ.

واعلم يا أخي أن من الذنوب ما يشتبه أمره علىٰ صاحبه، فله وجه إلىٰ مظالم النفس، وله وجه إلىٰ مظالم العباد، كالزنا والتلوط مثلًا، فإن الأمر في ذلك يحتاج إلىٰ تفصيل ليظهر بواسطته وجه الصواب، وهو أن يقال: إن كان المفعول به مختارًا، كانت تلك المعصية من مظالم النفس؛ وإن كان الفاعل قد راوده وعاوده واستتر له، كان ذلك من مظالم العباد الصعبة، لأنه آذىٰ تلك الصورة وقهرها وجرَّأها علىٰ المعصية، «ومن سن

---

(١) القود: القصاص بقتل القاتل.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» والترمذي (٢٤١٩).

سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها[1] مع أنه هتك عرضهم وأذى أهلهم وحملهم العار، وأوجب لهم الحرص على قتله أو آذاه ولو بعد مدة طويلة، ثم يدخلون النار. وكذلك يكون بهذا الفعل مورثًا للحقد والضغائن بسبب ذلك ولو بالإشاعة، كما هو مشاهد في أولاد الفلاحين والعربان. وهو من أعظم المظالم المؤثرة في النفوس لقبح ذكره، فضلًا عن فعله، وكثيرًا ما يقتل الشخص من يراه يفسق بولده أو زوجته أو أخته ولا يملك نفسه عن ردها عن قتله.

وقد قلت مرة لسيدي علي الخواص رضي الله عنه: هل يغفر الحج مظالم العباد؟ فقال: لا، بل ولا يغفرها الجهاد الذي هو أعظم من الحج، وقد ثبت في الصحيح: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله مقبلًا غير مدبر هل يغفر الله لي؟ فقال رسول الله ﷺ: يغفر الله لك كل شيء إلا الدَّين»[2]. انتهى.

فإن قيل: فأي دليل على أن الجهاد أعظم من الحج؟ فالجواب: أن من الدليل على كون جنس الجهاد أفضل من جنس الحج قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ [التوبة: ١٩] إلى قوله ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠] ولم يثبت في ذلك عند الحفاظ شيء من الأحاديث. فاعلم ذلك وتأمله فإنه نفيس، واحفظ لسانك في حق الفقراء، فإن الغالب عليهم السذاجة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدعي الولاية الكبرى، وتلوث الناس به ويقولون: أين علامات الولاية؟ أين كراماته؟ أين خوارقه؟ فإن الولي إذا لم يكن له

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠١٧)، والترمذي (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه النسائي (٣١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو يخطب على المنبر، فقال: أرأيت إن قاتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، أيكفر الله عني سيئاتي؟ قال: نعم ثم سكت ساعة، قال: أين السائل آنفا؟ فقال الرجل: ها أنا ذا، قال: ما قلت؟ قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، أيكفر الله عني سيئاتي؟ قال: نعم، إلا الدين، سارني به جبريل آنفا» والدارمي (٢٤٥٦) وابن حبان (٤٦٥٤).

كرامة، فلا فرق بينه وبين آحاد الناس، إذ الكرامة للولي كالمعجزة للنبي، بأن هذا الشيخ لا ينبغي الإنكار عليه، فربما كان صادقًا، إذ الولاية أمر يتعلق بالباطن، فغالب أعمالها قلبية لا يطلع عليها إلا الله تعالىٰ. ومن قال: لا بد للولي من أعمال تميزه عن العامة؛ قلنا له: ما كل عامل بالطاعات يكون مقبولًا، فإذن لا اعتماد علىٰ الطاعات.

فابحث يا أخي أولًا علىٰ معرفة باطن من ادعىٰ الولاية من طريق كشفك، ثم أنكر إذا رأيتَ قلبه خرابًا من الإيمان والتقوىٰ، فإن الله تعالىٰ قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: أعمال الأولياء أكثرها قلبية، وما أظهروا منها إلا بقدر ما يحتمله أتباعهم فقط، ولولا الأتباع ما أظهروا منها شيئًا، فمن أعمالهم القلبية عدم محبة الدنيا، وعدم الإصرار علىٰ ذنب، وعدم الرياء والعجب، والكبر والحقد وسوء الظن بالمسلمين، وكثرة الالتجاء إلىٰ الله تعالىٰ دون أحد من خلقه، إلا مع شهود أن ذلك الأحد من جملة ما ينصر الله به عبده، فمن وجدتم فيه هذه الصفات فهو من أولياء الله تعالىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: إذا كان ليس كلُّ معترف بذنبه ينجو من العقوبة، ولا كلُّ عامل بالطاعة يكون مقبولًا، ولا كلُّ عاصٍ من المسلمين يكون معذَّبًا، ولا كلُّ متقرب إلىٰ الله يكون محبوبًا، فمن أين يعرف آحاد الناس الولي من غيره، فسلموا لكل من ادعىٰ الولاية تسلموا. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي محمد المُنَيِّر رحمه الله يقول: من علامة الوليِّ أن يكون رافضًا للدنيا، ذا فهم في الكتاب والسنة، رحيمًا بالخلق، صابرًا علىٰ أذاهم، يدعوهم إلىٰ حضرة ربهم برحمة وشفقة وتعظيم، فمن جمع هذه الصفات فهو وليٌّ لله حقًّا. انتهىٰ.

وسمعتُه مرارًا يقول: من علامة الولي أن يحضر مع الله في حال أكله وشربه وجماعه، ويغيب عن شهود نفسه، حتىٰ لو أكل مقدار زبيبة غافلًا عن الله تعالىٰ، خرج من أدب الولاية، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٤) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا جاءه شخص من طلبة العلم يطلب الطريق إلى الله تعالى، فهدَّ عمامته وعممها له كعمامة خلبوص المغاني. وأمره بأن يشد وسطه ويشمر لباسه إلى الركبة، وأن ينطَّ[1] في الهواء إذا خرج بتلك الهيئة إلى السوق. فلاث به الناس وقالوا: هذا خروج عن آداب أهل الطريق الذين أدركناهم. وإنما يكون سلوك الناس بالأعمال الصالحة، بأن هذا الشيخ لا ينبغي الإنكار عليه. لأنه ربما اطلع من طريق كشفه على أن هذا الطالب لا يُفتَح عليه في طريق القوم إلا إن خالف العوائد وخرق ناموس نفسه، وخرج عن مراعاة الخلق، فبادر إلى فعل ذلك ليقرب عليه الطريق. فإنه ما **كل عامل بالطاعة يكون ذليلًا في نفسه، بل الغالب على أهل الطاعات أن أحدهم يزداد بها كبرًا على أقرانه.**

وقد دخل بعض العلماء على السيد عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، إني قد عملتُ بعلمي وزهدتُ في الدنيا حتى تساوى عندي ذهبها وترابها، وتركتُ جميع أهوية نفسي، ومع ذلك فلم يزدد قلبي إلا قساوة وحجابًا! فقال له عمر ...: لأنك فعلت ذلك بالهوى، وتركت الهوى للهوى، ولم تخلص في ذلك. فقال: صدقت يا أمير المؤمنين قد أُتيت من قِبَل نفسي.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: لا حرج على الفقراء في أي هيئة لبسوا، لعدم مراعاتهم العوائد التي اصطلح الناس عليها، فلأحدهم أن يلبس كهيئة الجند، وإن اعترض معترض طالبناه بالدليل، ولعله لا يجد دليلًا ينهى عن مثل ذلك نهي كراهة ولا تنزيه.

وسمعتُه ﵁ يقول: لا تعبؤوا بطالب العلم إذا جاءكم يطلب الطريق أو يقرأ عليكم شيئًا من رسائل القوم حتى تمتحنوه بمخالفة هوى نفسه، فقد يقرأ عليكم مثل «رسالة القشيري» كلها، ويفهمها وهو في حظ نفسه لا ينتفع منها بكلمة، وربما كان يرى نفسه أنه أقوى فيها منكم، وأنه صار صوفيًّا بذلك. وإن شككتُم في قولي، فامتحنوه بمخالفة هواه المباح شرعًا، كأن يخرج إلى السوق في ثياب من ليس من حرفته كالسوقة والفلاحين والزُّعر، فإن امتثل أمركم وخرج بها إلى السوق بانشراح صدر فهو صادق، وإن لم يفعل ذلك، أو فعله مع

---

(١) نطَّ الصبي: قفز.

خجل، فاعلموا أنه لم يؤهل للطريق، إذ الطريق كلها مبنية علىٰ مخالفة الهوىٰ. انتهىٰ.

فعُلِمَ أنه لا اعتراض علىٰ الشيخ الذي هدَّ عمامة العالم مثلًا، ومن اعترض عليه، فهو جاهل بأركان الطريق، وما لم يسلِّم العالم نفسه إلىٰ الشيخ ويحكِّمه في نفسه يتصرف فيها بما يشاء من مخالفة الأهوية، فهو غير صادق، وغير الصادق رجوعه من أول الأمر أبعد له من المقت، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان له مجلس علم أو ذكر في مسجد، فجاء عالم أو شيخ آخر يعقد له مجلسًا في مكانه وأقامه منه، وفرَّق جماعته، وساعده الحكام علىٰ ذلك، فجلس الشيخ الأول أو العالم الأول عابسًا، ولاث به الناس وقالوا: هذا علامة علىٰ عدم إخلاصه، وأيش يضره لو كان الناس كلهم علماء وصالحين؟! لكنه يحب الانفراد بالصيت دون أقرانه، بأنه لا ينبغي حمله علىٰ الرياء وحب الصيت وأنه تكدَّر لفوات ذلك عليه، وأنه يجب حمله علىٰ أنه إنما عبس حزنًا علىٰ نفسه حين اتهمها بالرياء أو انكشف له حاله، فحزن لأجل ذلك وعبس، والحال أنه ازداد محبةً في ذلك العالم أو الشيخ الذي طرأ عليه، لكونه أنقذه من النار، أو حذَّره من شيء ربما كان يقع فيه في المستقبل. فاحفظ ذلك، واحفظ لسانك في حقِّ العلماء والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٦) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا صار يكتب في مراسلاته: «كتبه فلان خادم الشريعة، أو كتبه فلان الذاكر» فلاث الناس به وقالوا: انظروا إلىٰ فلان يزكِّي نفسه بأنه عالم أو ذاكر، بأن مثل ذلك لا ينبغي الإنكار علىٰ الإنسان لأجله، فقد يكون ذلك ليعرف الناس بعلمه أو بكثرة ذكره من باب التحدث بالنعمة، وليأخذ الناس عنه العلم وآداب الطريق، لا سيما في بلد لا يعرفه أحد فيها. ولا يجوز حمله علىٰ الرياء وحب الشهرة، فإن ذلك أمرٌ راجع إلىٰ النية، ومثلنا لا اطلاع له عليها.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: من كمال الرجل تخلقه بالاسم الظاهر

والباطن، فلا يبطن أمره كله، ولا يظهر أمره كله. وكان الإمام الشافعي يقول: ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من عمل فيما بينه وبين الله تعالى، فإن كل ما ظهر للخلق قليل الجدوى في الآخرة. انتهى.

وقد ذكرنا في مقدمة كتاب «المنن الكبرى» عدة ممن ذكر مناقب نفسه في كتاب من العلماء، فراجعه، وإياك وحمل الناس على المحامل التي تسوؤهم لو بلغتهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٧) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق الذي دخل هو وجماعته الوليمة، فأكلوا غالب طعامها، فلاث بهم الناس وقالوا: هؤلاء ما هم إلا عفاريت! أو هم معانون من الجنِّ! بأن هذا الشيخ وجماعته قد يكونون ممن جاؤوا يتحملون عن صاحب الوليمة البلاء النازل عليه طول سنته أو طول عمره بتلك الأكلة عنده، حتى لو علم بذلك صاحب الوليمة، لكان هو السائل في أكلهم طعامه كله، ومنع غيرهم.

وقد وقع مثل ذلك للشيخ دمرداش[1] المدفون خارج الحسينية بمصر أن أميرًا عمل له طعامًا واسعًا، وأرسل وراءه ووراء جماعته، فحضر الشيخ فقط، [فقال][2]: يا سيدي، أرسل وراء الفقراء؟ فقال: أنا آكل موضعهم. فأكل سماط ذلك الأمير كلَّه وحده، هكذا أخبرني خليفته الشيخ كريم الدين[3].

وكذلك أخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمه الله أن سيدي محمد بن هارون[4] بسنهور

---

(١) قال عنه الإمام الشعراني: الشيخ دمرداش المحمدي رضي الله عنه أجل أصحاب سيدي الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي المدفون في حوش السلطان برقوق بصحراء مصر المحروسة مات رضي الله عنه سنة نيف وثلاثين وتسعمئة، ودفن بزاويته رحمه الله. انظر: «الطبقات الوسطى» للشعراني ترجمة رقم (٤١١).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) محمد بن أحمد بن محمد الخلوتي كريم الدين الدمرداني الصوفي الشافعي ولد سنة ٨٩٦هـ. من مصنفاته: «رد المتوقف بلا محالة في الابتداء بالذكر بالجلالة» و«الطراز الذهبي على أبيات ابن العربي». توفي سنة ٩٨٦هـ. انظر: «هدية العارفين» (٢/ ٢٥٥).

(٤) قال عنه الإمام الشعراني: سيدي محمد بن هارون السنهوري. وكان عالـمًا صالحًا جامعًا بين الحقيقة

المدينة[1] كُشِفَ له عن بلاء ينزل على البلد، فذبح عشر بقرات قربانًا، وطبخها وجعلها في أوعية كبارًا، وقال: لا تمنعوا أحدًا. فجاء فقير فقال: أطعموني؛ فقدموا له ماجورًا[2] فأكله، ثم آخر فأكله، وهكذا حتى كاد يأتي على الطعام كلِّه، فدفعه النقيب وأخرجه، فنزلت على البلد صاعقة من السماء فأحرقتها، فكانت سبب خرابها إلى يومنا هذا. انتهى.

وكذلك بلغني عن سيدي عبد الله[3] المدفون على خد باب جامع الزاهد بمصر[4] أنه كان يأكل البقرة وحده بنحو ألف رغيف. وكذلك كان الشيخ تاج الدين الذاكر يأكل نحو الإردب من العيش ولا يخرج له فضلة، وإنما يحترق ذلك في بطنه. فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والخوض في أعراض الفقراء وأنت لم تعرف مقاصدهم.

وكذلك وقع لسيدي يوسف أبو طاقية أحد أصحاب سيدي محمد الحنفي أنه أكل سماطًا وحده ولم يشبع، فقال له الشيخ: ما فعلت في ذلك الطعام كله؟ فقال: نقلتُه للأسرى ببلاد الفرنج. انتهى. والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٨) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا سأله الناس عن أحد من

والشريعة، وكان إذا خرج من الجامع يوم الجمعة، يشيعه جميع من حضر الجامع إلى داره بقصد التبرك. ومناقبه كثيرة مشهورة في بلاده وغيرها. لم يتيسر معرفة تاريخ وفاته. وضريحه بسنهور المدينة.انظر: «الطبقات الوسطى» للشعراني الترجمة (٣٠٣) طبعة دار الإحسان.

(١) سنهور المدينة: إحدى قرى مركز دسوق التابع لمحافظة كفر الشيخ بمصر.

(٢) نوع من الأواني.

(٣) كذا بالأصلين، والصواب أن اسمه إبراهيم بن عبد ربه كما في «الطبقات الوسطى» للمصنف: قال: «المدفون على باب جامع سيدي أحمد الزاهد ﷺ. كان من أرباب الأحوال.دخل مرة بيت سيدي مدينفي مولده الكبير، فأكل طعام المولد كله وما عشوا الناس إلا من السوق. وكان يأكل في بعض السنين لحم بقرة كاملة ويطوي بعدها عن الأكل سنة. ولما مات طلب زين الدين الأستادار طلب أن يأخذ سيدي إبراهيم يدفنه في تربته، فعجز الناس أن يحركوا النعش، فلم يقدروا، فصلوا عليه قبالة الجامع ودفنوه في خد الجامع في المكان الذي هو فيه الآن». توفي سنة (٨٧٨هـ). انظر: «الطبقات الوسطى» (٢/ ٨٠٨)، «الكواكب الدرية» للمناوي (٣/ ١٣٧).

(٤) جامع سيدي أحمد الزاهد: يقع بشارع البحر القريب من ميدان الشعرية بمحافظة القاهرة عاصمة مصر.

أقرانه، فقال: بئس من ذكرتموه! وصار ينفِّر الناس عن صحبته أو صهارته[1]. فلاث به الناس وقالوا: هذا يقع في أعراض الناس. فكيف يدعي العلم والصلاح ويخالف ما هو حامله من العلم؟! بأنه لا يجوز حمل هذا العالم أو الشيخ على ما يتبادر إلى الأذهان، وإنما الواجب حمله على أنه خاف على أخيه الفتنة والاشتغال بصحبة الناس عن ربه عزَّ وجلَّ، فنفَّر الناس منه على طريقة السلف الصالح. فكان أحدهم يسأل أخاه أن ينفر عنه كلَّ من غلب على ظنِّه أنه يشغله عن ربه عزَّ وجلَّ. ويشكر فضله على ذلك. وإن عرَّف به أحدًا يشغله عن ربه يتكدر منه، فأراد هذا العالم أو الشيخ إحياء سنة السلف الصالح التي ماتت، فاعلم ذلك، وإياك وحمل الناس على المحامل السيئة. والحمد لله رب العالمين.

(٥٢٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناه يسعىٰ في تحصيل شهوات نفسه، ويذل نفسه في تحصيلها، ولاث الناس به وقالوا: كيف يدعي هذا الصلاح وهو يعشق النساء الجميلات، ويذل في طلبهن مثلًا؟! بأنه ربما كان يحب تلك الشهوات بتحبيب الله تعالىٰ له ذلك، لا بحكم الطبع النفساني، كما قال ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعِلَت قرة عيني في الصلاة»[2]، فانظر إلىٰ قوله: «حُبِّبَ» ولم يقل «أحببت». فاعلم ذلك، وإياك أن تحتقر عالمًا سعىٰ في تحصيل شهوة من الشهوات، وتحمله علىٰ شهوة الطبع، فإن ذلك سوء ظن به، وهو لا يجوز، بل احمله علىٰ أنه وارث في ذلك المقام لرسول الله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا أنكر أولياء الله في عصره، وصار كل من قالوا له: هذا ولي ينكره، ولاث الفقراء به بسبب ذلك، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه، لأنه ما تعدَّىٰ علمه الذي جعله الله تعالىٰ عنده، ولم يكلف الله تعالىٰ عبدًا إلا بحسب ما أعطاه.

وقد كان سيدي أبو العباس المرسي رحمه الله يقول: معرفة الولي أدق من معرفة الله عزَّ

---

(١) كذا بالأصلين، بمعنىٰ مصاهرته.

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٤٠)، وأحمد (١٢٢٩٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٦٧٦).

وجلَّ؛ لأن الله تعالىٰ معروف لعباده بالقدرة الإلهية، وأما الولي فليس عنده ما يميزه، ومتىٰ يعرف الإنسان ولاية من يأكل ويشرب، وينام ويغفل، ويجوع ويمرض، ويبول ويتغوط مثله، وقد تقدم الجواب بذلك بأبسط مما هنا.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ﷺ يقول: إنما يؤاخذ الله تعالىٰ الناس بإيذاء أوليائه لا بنفي ولايتهم، لجهلهم بهم وعدم دخول الناس المنكرين حضرة الله تعالىٰ، ولو أنهم دخلوها لعرفوا أولياء الله تعالىٰ بالعين لا بالسماع، فهم معذورون في نفيهم من الولاية بحسب علمهم.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص ﷺ يقول: من اغتاب وليًا من أولياء الله، عذَّبه الله بعذاب لم يعذِّب به أحدًا من العالمين. فاعلموا ذلك أيها الإخوان، وإذا سُئلتُم عن ولي فقولوا: الله أعلم بحقيقة أمره حتىٰ يطلعكم الله علىٰ حاله. والحمد لله رب العالمين.

(٥٣١) ومما أجبتُ به عن العالم أو شيخ الطريق إذا كان يتمايل في صلاته إذا وقف فيها، ولاث به بعض الناس وقالوا: إن رسول الله ﷺ نهىٰ عن مثل ذلك وقال: «لا تمايلوا في الصلاة تمايل اليهود»[1]، بأن رسول الله ﷺ إنما نهىٰ عن التمايل من يتفعل فيه، أما من تمايل لما حصل له في قلبه من عظمة الله تعالىٰ، فلا حرج عليه، لأنه لا تفعُّل له فيه، فيجب حمل هذا العالم أو الشيخ علىٰ أنه ما تمايل إلا لما حصل له من عظمة الله تعالىٰ دون التفعل الذي هو من شأن اليهود.

وإيضاح ذلك أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام كان إذا ورد عليه الوارد من الله عزَّ وجلَّ في صلاته أو حال مناجاته يصير يتموج به باطنه كبحر ساكن هب عليه ريح شديد، فيموج وتتلاطم أمواجه، فكان تمايل موسىٰ عليه الصلاة والسلام بحق. وأما اليهود فلم

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو الشيخ الأصفهاني في «ذكر الأقران» (١٦٦) عن أم رومان قالت رآني أبو بكر أتميل في الصلاة فزجرني زجرة كدت أن أنصرف من صلاتي ثم قال: قال رسول الله ﷺ إذا قام أحدكم في صلاته فليسكن أطرافه ولا يتميل تميل اليهود فإن سكون الأطراف في الصلاة من تمامها، وذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٨٢٥).

يدركوا ذلك السر، فتشبَّهوا به في صورة الفعل ولم يعرفوا ما حركه في نبض. فلهذا نهانا رسول الله ﷺ عن تمايل اليهود، وهو أن يتمايل من غير وجد، لا مطلقًا. فافهم واحمل العالم أو الشيخ إذا تمايل على أنه ما فعل ذلك إلا غلبة، لأنه انظهر من حالهم، وإياك والدخول بين العلماء والصالحين وبين نياتهم ومقاصدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا رأيناه يطمئن في الصلاة على أقل مراتب الطمأنينة في الفرض والنفل إمامًا كان أو مأمومًا. لا سيما إن كان المأمومون يسألونه في التطويل بهم، ولاث به الناس بسبب ذلك وقالوا: الأفضل للعلماء والصالحين أن يأتوا بالطمأنينة والأذكار على أكمل مراتبهما، بأنه ربما كان ممن يتجلى له عظمة الله في صلاته ويضعف عن تحملها، فهو يسارع إلى التخفيف حسب طاقته عن نفسه وعن المقتدين به. وكان هذا مقام السيد عبد الله بن عمر، فقالوا له في ذلك، فقال: أبادر الوسواس، أي لأن العبد إذا طال وقوفه في حضرة الله تعالى مع الهيبة زهقت روحه وخرجت إلى محل الحجاب قهرًا عليه، وما كلُّ عبد يقسم له الحضور الدائم. ومعلوم أن تخفيف الصلاة مع الحضور خير من تطويلها مع الشتات في أودية الدنيا.

(٥٣٣) وكذلك يُجاب عن العالم أو الشيخ إذا طوَّل جدًّا، بأنه إنما طوَّل حياءً من الله عزَّ وجلَّ أن ينصرف من حضرته إلى شهوات نفسه، وما كلُّ إمام يقدر على مراعاة حال المأمومين والاشتغال بهم حال الوقوف لمناجاته لله عزَّ وجلَّ. فاعلم ذلك واحمل العلماء والصالحين على المحامل الحسنة، وإن لم تجد شيئًا منها فاسكت إذا سُئِلَ عنها من هو أعلم منك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا أغلق بابه عند الأكل، ولم يمكِّن أحدًا من الناس يدخل عليه، مع أنه بحمد الله في غاية الوسع في الدنيا، فلاث الناس به وقالوا: هذا من شدة البخل، و«أقبح من كل قبيح صوفي شحيح»[1]، بأنه لا يلزم من إغلاقه الباب حال

---

(١) ينسب هذا القول لأحمد بن عطاء بن أخت أبي علي الرُّوذبَارِي رحمه الله المتوفي سنة (٣٦٩هـ). انظر

الأكل البخل، فقد يكون سبب غلقه الباب لخوفه من الداخلين أن يفرِّقوا قلبه عن الله تعالىٰ حال الأكل، من حيثُ إن من شروط الفقراء الأكل مع الحضور بقلوبهم مع الله تعالىٰ، فيعتقد أحدهم أنه في حضرة الله تعالىٰ، وأنه ينظر إليه من حين يأكل إلىٰ أن يفرغ، كما يعتقد ذلك حال صلاته علىٰ حدٍّ سواء، بجامع أن كلًّا منهما مشروع، وكما نُهي عن فعل كلِّ شيء يفرِّق قلبه في الصلاة، فكذلك الحكم في كلِّ ما يفرق قلبه عن الحضور في الأكل.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ يقول: إني لآكل وأنا أصلي، فقيل له: كيف؟! فقال: آكل وأنا حاضر القلب مع الله تعالىٰ. انتهىٰ.

وكان جدي ﷺ يتقيأ كلَّ لقمة أكلها غافلًا، وإذا بذر حبًّا أيام الحرث وهو غافل لا يأكل منه، ويعلمه بعلامة ليجعله وحده أيام الحصاد ولا يأكل منه شيئًا. وجاءه مرةً شخص يزوره من الأكابر وهو يبذر، فقال له شخص: أعطني البذر واشتغل أنت بالسلام عليه؛ فأبىٰ وقال: حضور قلبك في حال البذر ما هو مثل حضوري. وكان يقول: كلُّ بذر لم يكن صاحبه حاضر القلب فيه هاف[1] وقلَّت البركة فيه.

فاعلم ذلك يا أخي، واحفظ لسانك في حقِّ الفقراء الذين يغلقون أبوابهم حال الأكل، وإياك أن تحملهم علىٰ البخل وشحِّ النفس، فإنهم في وادٍ وأنت في وادٍ، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا وصفه أعداؤه بفعل الرذائل وازدراه الناس بسبب ذلك، فبلغه ذلك، فصار يكثر من الأعمال ويعلِن بها لهم، فلاث الفقراء به وظنوا به أنه إنما زاد في الأعمال الصالحة وأعلن بها ليزيل ما في نفوس الناس من الازدراء له، ويكذِّب المنقصين له بالفعل لحظ النفس، بأنه لا ينبغي حمله علىٰ هذه النية الفاسدة، وإنما الواجب حمله علىٰ أنه إنما أكثر من الأعمال الصالحة ليخف الإثم عن أعدائه ومن صدَّقهم [من حيثُ كونُهم كانوا سببًا لوقوع الناس في إزدرائه، فقصد

«الطبقات الوسطىٰ» للمصنف (١/ ٤١١) دار الإحسان.

(١) هَافَ ورقُ الشجر هَيْفًا: سقط.

بذلك تخفيف الإثم عن أعدائه، وعمّن صدّقهم] إذا كذّبهم بفعله، ولا يجوز حمله علىٰ أنه قصد بذلك حظ نفسه فقط دون مصلحة الأعداء ومن صدقهم. فإن ذلك معدود من دناءة الأخلاق التي لا تليق بالعلماء والصالحين.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إذا لاث الناس بعرض الفقير، وجب عليه تفتيش نفسه من الصفات الرديئة، ليلوم نفسه دون من لاث به، ويتوب إلىٰ الله تعالىٰ فيرضىٰ عنه، فإذا رضي سرىٰ ذلك الرضا إلىٰ قلوب عباده المؤمنين، فيحبونه ويرونه بعين الكمال. وقد قال السلف الصالح: من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته. ومن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وإذا رأيت أحدًا وقع في زلة واشتهر بها بين الناس، فصار يذكر الله ويكثر من العبادة، فاحمله علىٰ أنه يفعل ذلك خالصًا، لا ليزيل ما في نفوس الناس لحظ نفسه كما يتوهمه العوام، فإن ذلك سوء ظن به، بل احمله علىٰ أنه تنبه بتلك الزلة علىٰ الإخلاص لله تعالىٰ حين تاب ورجع إليه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٦) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أكل طعامًا في وليمة مثلًا، فلما فرغ قال لبعض العلماء: تعال فصب علىٰ يدي الماء؛ فلاث به الحاضرون وقالوا: هذا سوء أدب! كيف تأمر من هو أعلىٰ مقامًا منك يا جاهل أن يصب عليك؟! بأنه لا ينبغي اللوث بهذا الفقير، لأنه ربما قصد بذلك العمل بحديث: «سيد القوم خادمهم»[٢]، فقصد بذلك السيادة له عليه ظاهرًا في ذلك الوقت، كما هو الأمر عليه باطنًا، وليس مقصوده بذلك ازدراء العالم، معاذ الله أن يقصد الفقراء ذلك! والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٧) ومما أجبتُ به عن الفقيه الذي ينكر علىٰ من يجتمع بالصوفية من طلبته، ويقول: هؤلاء أَكَلَة بَطَلَة[٣] ولو اشتغل أحدهم بالعلم كان أفضل مما هو فيه، بأنه معذور

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ١٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) بَطَلَة: من البطالة.

في إنكاره؛ لأن طريق الصوفية غير مألوفة لمخالفتها للنفوس، فهي تنفر منها بالطبع، ولا يكاد يأتلف علىٰ أهلها إلا نادر من طلبة العلم، ولو أن المنكر دخلها لعرف أنها مشيَّدة بالكتاب والسنة وآداب الأئمة، ولم يجد شيئًا من آدابها يخالف الشريعة أبدًا، لأن حقيقة الصوفي عالم عمل بعلمه علىٰ وجه الإخلاص لا غير.

وقد كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ينكر طريق الصوفية ويقول: وهل ثم لنا طريق إلىٰ الله غير العلم الذي بأيدينا؟! فكان يتوهم أنها طريق خارجة عن الشرع، فلما اجتمع بسيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي اعتقد في الصوفية غاية الاعتقاد، وصار يقول: من أعظم دليل علىٰ أن القوم قعَّدوا علىٰ قواعد الشريعة وقعَّد غيرهم علىٰ الرسوم ما يقع علىٰ يد القوم من الكرامات والخوارق التي هي فرع المعجزات، ولا يقع شيء من ذلك علىٰ يد فقيه قط، ولو بلغ في العلم ما بلغ إلا إن سلك طريقهم. انتهىٰ.

وكذلك وقع للإمام الغزالي رحمه الله. ومما وقع للشيخ عبادة المالكي[1] أن جماعة من طلبته تركوا حضور درسه واجتمعوا بسيدي مدين رضي الله عنه، فصار يقول: هؤلاء مُقِتُوا! كيف يتركون الاشتغال بالعلم الشريف الذي خيره متعدٍّ إلىٰ الأمة، ويشتغلون بأمر قاصر علىٰ أنفسهم؟! فبلغ ذلك القول إلىٰ سيدي مدين، فدعاه إلىٰ حضور مولده الكبير الذي يحضره مشايخ الإسلام الأربعة وأكابر الدولة، وقال للحاضرين: لا أحد يقوم للشيخ عبادة، ولا يفسح له إذا جاء. فلما حضر فعلوا ذلك، فجلس عند النعال مُغضَبًا، ثم رفع سيدي مدين رأسه وقام وقال: هاتوا الشيخ عندي. فلما جلس بجانب سيدي مدين قال له: حَضَر سؤالٌ. فقال: قولوا. فقال: هل يجوز القيام للمشرك إذا طلب من المسلمين ذلك مع أمنهم من شره؟ فقال: لا يجوز ذلك. فقال: لم؟ فقال: لتعظيمه المشرك لغير غرض شرعي. فقال له سيدي مدين: الله عليك! أما تكدَّرت من عدم قيام الناس لك في هذا المجلس؟! فقال: نعم. فقال: كأن لسان حالك يقول: قوموا لي كما تقوموا لربكم

(١) نور الدين عبادة بن علي بن صالح بن عبد المنعم، فقيه مالكي، برع في الفقه والأصلين والعربية، وأفتىٰ ودرس. توفي سنة (٨٤٦هـ). «حسن المحاضرة» (١/ ٤٦٢)

في الصلاة! فدارت هذه الكلمة فيه، ثم انتصب الشيخ عبدة قائمًا وقال: اشهدوا أنني أسلمتُ على يدي سيدي مدين إسلامًا جديدًا. ثم طلب منه تلقين الذكر فلقنه، وترك الآخر درسه، وأقام يخدم الشيخ إلى أن حضرته الوفاة، فأوصى أن يدفن تحت عتبة تربة الفقراء في موضع خلع الفقراء نعالهم، فقبره تحت العتبة. وأراد بعضهم أن يحول باب التربة عنه، فجاءه في المنام فقال: لا تغير الباب. رضي الله عنه.

فاعلم ذلك، ولا تنكر على من ينكر على الصوفية، [...][1] ثم إذا خالطهم ورأى أحدًا منهم على بدعة، فحينئذ ينكر عليه معه ويعذره بحق، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي بالغ في تطويل القيام في الصلاة، فقال له بعض الفقراء: لو أطلتَ الركوع والسجود كان أفضل، لما فيهما من القرب من حضرة شهود الله، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]؛ وعن الشيخ الذي خفف القيام وأطال الركوع والسجود، فقال له بعضهم: لو أطلت القيام لكان أفضل، لأنه وصف العبيد العاملين في خدمة ربهم، قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، بأنه لا ينبغي الإنكار على واحد من هذين الشيخين، لثبوت فعلهما عن رسول الله ﷺ، فكان تارة يطيل القيام، وتارة يطيل الركوع والسجود تشريعًا لأمته، فمنهم المحجوب وغير المحجوب، والقوي والضعيف، فأدنى الناس مقامًا من أطال الوقوف، وفوقه في المقام من أطال السجود، فلو أراد الأدنى[2] أن يطيل الركوع لاحترق من القرب، ولو أراد من فوقه وهو الذي أطال الركوع أن يطيل السجود، لاحترق من شدة القرب، كما أشار إليه حديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[3]، فكل من هذين الشيخين ينبغي حمله على حال، ولا يقال تطويل القيام أفضل مطلقًا، ولا

---

(١) سقط بالأصلين.

(٢) أي من يطيل القيام.

(٣) تقدم تخريجه.

تطويل الركوع والسجود أفضل مطلقًا. وكلٌّ مصلٍّ يعرف حال نفسه، فإن وجد الراحة في طول القيام دون ما بعده، كان القيام في حقِّه أفضل، وإن وجد الراحة في الركوع وما بعده كان ذلك في حقِّه أفضل.

وقد كان مالك بن دينار والفضيل بن عياض وإبراهيم ابن أدهم وأضرابهم يطيل أحدهم القيام من العشاء إلىٰ أن يتخوف طلوع الفجر فيركع. وكان عثمان بن عفان وسفيان الثوري وبشر الحافي يطيل أحدهم السجدة من العشاء إلىٰ الفجر، فيصير يطوف في غرف الجنة وقصورها، وفي النار وطبقاتها إلىٰ الصباح. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والصالحين، فإنهم أعلم منك بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٣٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لبس يوم الجمعة الثوب الأسود أو الأزرق مع أن عنده الثياب النقية البياض، أو لبس في العيدين الثياب الدنسة الخلقة مع وجود الثياب النفيسة، فلامه الناس في ذلك، فقال: هذا أفضل عندي؛ فلاث به الفقهاء وقالوا: هذا يرجِّح نظره علىٰ مأمورات الشرع، وهو من الجهل العظيم، بأنه لا ينبغي الاعتراض عليه، فربما رأىٰ عنده محبة البياض والثياب النفيسة إنما هو لهوىٰ النفس لا اتباعًا للسنة فترك ذلك، وهو أحد المذهبين. والمذهب الآخر يفعل السنة ويستغفر مما خالطها من الهوىٰ. وفي كلام السهروردي: «[اعمل][1] وإن خفت العجب مستغفرًا». انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يسلم العبد من هوىٰ كامن في أعماله، ولكن العارفون يقلبون ذلك الهوىٰ إلىٰ اتباع السنة، ولذلك قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من شح مطاع، وهوىٰ متبع»[2] فلم يستعذ من مطلق الشحّ والهوىٰ، لأنه من طبع البشر، وإنما [استعاذ من طاعة النفس في الشحّ واتباعها لهواها دون طلب مرضاة الشارع. قال:

(١) ساقط في الأصلين، مستكمل من «اليواقيت والجواهر».

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البزار (٣٣٦٦) من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «المهلكات ثلاث: إعجاب المرء بنفسه، وشح مطاع، وهوىٰ متبع» والطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٦٥).

ولا يخفىٰ أن][1] وقوع مثل هذه الاستعاذة من رسول الله ﷺ إنما هو من باب التشريع لأمته، وإلا فهو ﷺ معصوم من طاعة النفس في الشحّ واتبعها في الهوىٰ. انتهىٰ.

وقد رأيتُ سيدي عليًّا الخواص يصلي الجمعة والعيدين في عباءة ويقول: إن مثلنا لا يخلو عن هوىٰ نفسه في لبس الثياب النقية النفيسة في الأعياد والجمع. لا بد أن يكون لبسها ممزوجًا بهوىٰ نفس، فمن أقدَّره الله تعالىٰ علىٰ أن يلبسها طلبًا لمرضاة الله تعالىٰ من غير هوىٰ نفس فليفعل، وإلا فلا يُطالَب بلبسها، لأن الهوىٰ إذا خالط المأمورات الشرعية دنَّس قلوب أصحابها. انتهىٰ.

وكان سفيان الثوري ومالك بن دينار والشعبي يصلون الأعياد والجمع في العباءة والثياب الدنسة، ويقولون: قلب نقي في ثوب دنس أحب إلىٰ الله من قلب دنس في ثوب نقي. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الصالحين.

(٥٤٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يتكلم علىٰ أصحابه في الطريق ويقول: لا تحسبوا أنني أعلم ما أقول قبل أن أقول لكم، إنما أنا مستمع لكم كأحدكم؛ فلاث به العلماء وقالوا: من شرط المتكلم بشيء أن يكون علمه موقورًا في قلبه قبل أن ينطق به، فكيف يكون كالمستمع بعد سماعه؟! بأن هذا الشيخ ربما كان ممن مَنَّ الله تعالىٰ عليه بالإلهام الصحيح الموافق للشريعة الظاهرة، فصار لا يعرف شيئًا من أحكام الشريعة التي لم يطلع عليها إلا من طريق إلهامه، فصار ينتظر الجواب عن كلِّ مسألة سُئل عنها من باب إلهام الحقِّ تعالىٰ.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؒ يقول: من شرط الشيخ في جميع ما يجري علىٰ لسانه أن يكون راقد النفس، شغله مطالعة نِعَم الحقِّ تعالىٰ عليه في ذلك، فهو فيما يجريه الله تعالىٰ علىٰ لسانه كآحاد المستمعين. انتهىٰ.

ومما وقع لي أن شخصًا سألني عن صلاة الجمعة متىٰ فُرِضت؟ ولم يكن عندي

---

(١) ساقط من «ب».

علم بذلك من طريق النقل، فتوجهتُ إلىٰ الله تعالىٰ، فألهمني أنها فرضت ثاني عشر ربيع الأول[1]، فقلتُ ذلك للسائل، فكشف عنها من تفسير القرآن للخازن، فوجد ذلك منقولًا، فشكرتُ الله تعالىٰ علىٰ ذلك.

ونظير ما نحن فيه من كون الشيخ فيما يقوله كالمستمع ما يقع للغوَّاص علىٰ الدُّرِّ في البحر، فإنه يجمع بين الصدف في مخلاته، ولا يرىٰ ما اشتمل عليه الصدف من الدر إلا إذا خرج من البحر، ويشاركه في رؤية الدُّرِّ من كان علىٰ الساحل. وإيضاح ذلك أن البحر نظير حضرة الوحي، وإخراج الصدف من البحر نظير خروج الملك بالوحي[2] من حضرة علم الله.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إذا كَمُلَ الرجل في مقام العرفان، صار ترجمانًا للحضرة الإلهية، فيكون دائمًا ناظرًا إلىٰ ما يبرز من حضرة الحقِّ[3]، مصغيًا لما يرد علىٰ قلبه منه، فكأنه مؤدٍ أمانة للناس. انتهىٰ. وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «منهج الصدق والتحقيق»، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤١) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا كان الناس يتزاحمون علىٰ صحبته ويبالغون في الاعتقاد فيه، ثم فروا عنه بأجمعهم، فلاث به الناس وقالوا: لو كان هذا صادقًا، لكان أتباعه يزدادون كثرةً علىٰ الدوام، بأنه قد يكون هو الذي تعاطىٰ أسباب الخفاء، وسأل الله تعالىٰ أن يفرقهم عنه، لظنِّه بنفسه الرياء مثلًا أو بهم، فسأل الله تعالىٰ تفرقتهم عنه حتىٰ تنصلح نيته ونيتهم، **فإن النفوس مجبولة علىٰ حبِّ الشهرة والتعظيم في قلوب الناس، ولا تترك ذلك إلا عجزًا،** ثم إذا كَمُلت في مقام الولاية، زهدت في ذلك إذا خافت أن يُشتغَل به عن الله تعالىٰ، ثم إذا كَمُلَت الكمالَ التامَ طلبت كثرة الاجتماع بها وكثرة المريدين، لتفيض عليهم من العلوم والأسرار حين أفاضها الله عليها.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: ليحذر الفقير كلَّ الحذر من تزاحم الناس

---

(١) انظر تفسير الخازن (٧/ ٩١).

(٢) المقصود بالوحي: ما يشمل وحي الإلهام الذي يكون للأولياء. وقد تقدم كلام الإمام عنه في (٣١).

(٣) بالأصلين: حضرة الحضرة. والصواب ما أثبتناه.

عليه يطلبون منه الإرشاد، فربما كان ذلك من الله تعالىٰ ابتلاءً واختبارًا، أو مكرًا واستدراجًا، إذ النفوس مجبولة علىٰ محبة قبول الخلق لها، ومحبة الشهرة بالعلم والصلاح.

وسمعتُه مرارًا يقول: من شرط الفقير ما دام ضعيف الحال أن لا يستجلب قلوب الناس لمحبته بالكلام الحلو وإطعام الطعام والبشاشة ونحو ذلك، ولكن إذا بلغ الكتاب أجله وتمكَّن في مقام الولاية والإرشاد، وعلم بتعريف الله تعالىٰ أنه مراد لتربية المريدين، فحينئذٍ له استجلاب الناس بكل حيلة، ويصير يكلمهم بشفقة ورحمة كما ينصح الوالدُ ولدَه البار به. انتهىٰ.

وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقول: لا ينبغي لشيخ أن ينصح المريد إلا في حال صفائه من الكدورات والرعونات، ومن لم يكن الصفاء من شأنه، فليتربص للنصح وقتًا آخر، لأن الكلمة تقع في سمع المريد الصادق كالحبة التي بُذرَت في الأرض، فإن كانت مسوَّسة فاسدة، ازدادت فسادًا فلا تنبت ولو بالغ صاحبها في صبِّ الماء عليها ليلًا ونهارًا. قال: ومن أعظم الفساد مخالطة الهوىٰ لتلك الكلمة، وقد قالوا: قطرة من الهوىٰ تكدِّر بحارًا من العلم. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، وعظِّم كلَّ شيخ أو عالم حالَ فرار الناس عنه، وإياك وازدراءه، فإن ذلك حرام، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٢) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا سمعناه يقول: ما بقي في مصر مثلًا مسلِّك؛ فلاث الناس به وقالوا: إنه يعرِّض بتعظيم نفسه، أي ليس فيها مسلِّك غيري، بقرينة تلقينه الذكر للناس وأخذه العهد عليهم، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما يكون صادقًا فيما قال، وقصد بذلك نصح الناس، ونصح ذلك الشيخ الذي ورَّط نفسه في المشيخة.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يُسمَّىٰ مسلِّكًا إلا من سلَّك الناس في طرقهم التي عيَّنها لهم الحقُّ تعالىٰ في الأزل، فلا يأمر أحدًا بالمشي في غير طريقه التي حدَّها الحقُّ تعالىٰ، كلُّ ذلك بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، فإنه كان يسلِّك الناس

في طرقهم التي عيَّنها الحق تعالىٰ لهم، ويكلم الناس علىٰ قدْر عقولهم، وهذا أمر عزيز وجوده في هذا الزمان.

فيجب الفحص عن أحوال المشايخ الذين نفاهم هذا الشيخ، فربما كانوا جاهلين بطريق السلوك، ولا يجوز حمله علىٰ الأغراض الفاسدة، وأنه يحب أن لا يوصف بالمسلِّك إلا هو فقط. وقد قدمنا في هذا الكتاب عن سيدي عليٍّ المرصفي ﷺ أن من شرط الشيخ أن يعرف تلامذته من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢][١]، وذلك ليكون علىٰ بصيرة في نفسه، ويدعو كلَّ واحد من طريقه التي جعلها الحقُّ تعالىٰ له، فإن لكلِّ مريد طريقًا تخصُّه، وإن كان الدعوة في أصلها واحدة تجمع سائر طرق[٢] الهدىٰ.

وسمعتُه ﷺ يقول: المسلِّك كالفلاح يعرف الأراضي والغروس، وما يصلح لكل أرض من حب القمح أو الباقلا أو الحمص أو القطن وغير ذلك، إن لم يكن ذلك كشفًا وفراسة كان تجربة. انتهىٰ.

فاعلم ذلك، أو سلِّم للشيخ المنكِر أدبًا معه، فربما كان صادقًا، وإياك وتجريح الأشياخ الذين أنكر عليهم، فربما كان محجوبًا عن معرفة مقامهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٣) ومما أجبتُ به عن شيخ الطريق إذا أوصىٰ أصحابه بأن يبلغوه ما وقع من بعضهم بعضًا من ورائه في حقه، فلاث به الناس وقالوا: هذا مخالف لقوله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي إلا خيرًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[٣]. انتهىٰ؛ بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان قصده بذلك مداواتهم من النفاق الواقع منهم في حقِّه، فيتوبون منه ويستغفرون الله تعالىٰ، وما حُرِّمت النميمة بالأصالة إلا لغير مصلحة شرعية.

ثم من أصدق دليل علىٰ صدق الشيخ أن لا تراه يتكدَّر إذا بلغه عن أصحابه أنهم

---

(١) جواب (٥٢٠).

(٢) بالأصلين: طريق.

(٣) تقدم تخريجه.

ذكروه بسوء، بل يبادر إلىٰ ذكر ذواتهم ببشاشة وانشراح لخروجه عن حظ نفسه. وأما قوله ﷺ: «لا تبلغوني عن أصحابي... إلىٰ آخره» فهو تشريع للأمة. وإلا فهو ﷺ كان معصومًا من الغضب لنفسه، فافهم، وإياك والإنكار على الأشياخ من غير تأمل وتربص، فإن من شأنهم أن يدوروا مع الحقِّ حيث دار.

وقد رأيتُ بعض فقراء الزوايا يسمع أحدهم الكلمة في حقِّ الشيخ. فيستحيي أن يذكرها له، فما زالوا كذلك حتىٰ انفتحت علىٰ الشيخ أبواب خربت منها الزاوية. ولو أنهم كانوا أخبروه بكلِّ كلمة سمعوها في حقِّه أولًا فأولًا. لكان سدَّ تلك الأبواب كلَّها، فلم يحصل في الزاوية خلل، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٤) ومما أجبتُ به عن العابد الذي غشيته امرأة، فخاف علىٰ نفسه الفتنة، فقطع مذاكيره، فلاث به العلماء وقالوا: ما كان يجوز له ذلك، بل ولو وقع في الزنا لا يجوز له قطع ذكره الذي عصىٰ ربَّه به، بأن هذا العابد ربما فعل ذلك تقديمًا لدفع العار عن نفسه في الدنيا والآخرة باجتهاد منه، مع غفلته عن تحريم الشرع قطع شيء من أعضائه بغير طريق شرعي، ولو أنه استحضر أمر الشرع وتحريم ذلك عليه لما وقع في مخالفته.

وممن رأيتُه من أولياء عصرنا قطع ذكره حين خاف علىٰ نفسه الفتنة الشيخ عبد الرحمن المجذوب[1] المدفون قريبًا من جامع الملك الظاهر بيبرس ﷺ، وكان حاله عظيمًا حتىٰ سمعتُ سيدي عليًّا الخواص مع كماله ﷺ يقول: ما جلستُ عند الشيخ عبد الرحمن إلا ورأيتُ نفسي كالقط عند السبع. انتهىٰ.

ونقل وهب بن مُنبِّه ﷺ أن عابدًا من بني إسرائيل كان يُقال له «يونا» وكان من أجمل شباب زمانه، فوقع بصر بنت الملك طالوت عليه فعشقته، فلم تتوصل إليه إلا بإظهار الوله

---

(١) الشيخ عبد الرحمن المجذوب ﷺ كان من الأولياء الأكابر. وكان سيدي علي الخواص ﷺ يقول: ما رأيت قط أحدًا من أرباب الأحوال دخل مصر إلا ونقص حاله إلا الشيخ عبد الرحمن المجذوب. مكث مقعدًا نحو خمس وعشرين سنةً، أقعده الفقراء. وكان يخبر بوقائع الناس في سائر أقطار البلاد. مات ﷺ سنة ٩٤٤ هـ، ودُفن بزاويته قريبًا من جامع الملك الظاهر بالحسينية، وقبره ظاهر يُزار. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» ترجمة (٤٥٤).

والزهد في الدنيا، فسألت والدها أن يدعها تسيح في البراري تعبد الله تعالىٰ، فأجابها إلىٰ ذلك، فساحت في البرية التي فيها صومعة يونا، فاجتمعت به، فقال: أعوذ بالله منك! فقالت: إنما خرجتُ لأعبد الله معك. فأرسل أَعْلَم والدها بأن يرسل وراءها، فأشار عليه بعض أصحابه أن يرسل وراء يونا العابد ويوصيه بأن يدعها تعبد الله معه وتستأنس به فأبىٰ، فعزم عليه طالوت، فقال: أمهلني ساعة. ثم دخل خلوة وقطع مذاكيره ووضعها في علبة وختمها، ثم قال للملك: خذ لي هذه الوديعة حتىٰ نرجع من السياحة، فأخذها وختم عليها بخاتمه، ثم خرج، فاجتمع بابنته في البرية، فلم تزل تعبد الله معه سنة، ثم قالت له: إني ذبتُ عشقًا عليك، فارحمني بأن تقع عليّ، ثم نتوب أنا وإياك، فإن باب التوبة مفتوح! فأبىٰ وأخرجها من حضرته بعنف ففارقته، فرأت شابًا يرعىٰ غنمًا، فراودته عن نفسه، فوقع عليها فحملت منه، ثم رجعت إلىٰ بيت والدها فوجدوها حبلىٰ، فقالوا لها: ما شأنك؟! فقالت: وقع عليّ عابد اسمه يونا وأنا نائمة، [ما][1] استيقظتُ إلا وهو بين رجلَي! فأرسل الملك وراءه فأتوا به عباد بني إسرائيل، فقالوا: يا يونا، بعد تلك العبادة كلِّها تقع في مثل ذلك؟! فأمر الملك بقتله، فقال له يونا: أسألك بالله لا تقتلني حتىٰ ترد إليّ وديعتي؛ فأجابه إلىٰ ذلك، فأخرج له العلبة، فوجد ختمه عليها ففتحها، فإذا فيها مذاكيره مقطوعة، ثم كشف ثيابه فوجده ممسوحًا، فاعتذر إليه وخلىٰ سبيله وقال: اجعلني في حلٍّ مما ظننتُه بك. انتهىٰ.

فانظر يا أخي كيف غلب علىٰ هذا العابد الخوف من الوقوع في الزنا، ورأىٰ غضب الله تعالىٰ فيه أشد من غضبه في قطع مذاكيره، فقدَّم الأخف علىٰ الأشد، ومثل هذا مأجور وإن أخطأ عند بعضهم، فنسلم له حاله إذا فعل ذلك بنفسه. وأما إذا فعل ذلك بغيره إذا خاف عليه، فهي مسألة قتل الخضر للغلام الذي خاف أن يرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي خرج من خلوته، فغشي علىٰ الناس من هيبته،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

فلائوا به وقالوا: هذا من استخدام الجان لا من صفات الولاية. ونسبوه إلىٰ النصب والسحر، بأنه لا يجوز المبادرة إلىٰ حمله علىٰ المحامل السيئة. بل الواجب حمله علىٰ أن تلك الهيئة التي خرج علىٰ الناس بها إنما هي مكتسبة من مجالسة الحقّ جلّ وعلا، وقد وقع لرسول الله ﷺ مثل ذلك، فروىٰ الترمذيُّ أن امرأة أتت النبي ﷺ. فلما وقع بصرها عليه، أرعدت من هيبته، فقال: «هوني عليكِ. فلستُ بملك ولا جبّار. إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[١]. انتهىٰ.

وحكىٰ القشيري عن أبي يزيد[٢] أنه كان يقول لمريده: لأن تراني علىٰ ما أنا عليه في باطني خير لك من أن ترىٰ ربك ألف مرة! فلاث العلماء به، فقال: إنه إذا رآني بعين التعظيم انتفع بي، وإذا رأىٰ ربه لا يعرف أنه هو، فلا ينتفع برؤيته. فكابره فقيه في ذلك، فقال: امكث هنا حتىٰ أخرج إليك. فخرج من الخلوة، فبمجرد ما وقع بصر الفقيه عليه مات لوقته، فقالوا له في ذلك، فقال: رآني من حيثُ حقيقتي، فلم يطق ذلك فمات. انتهىٰ.

فاعلم [ذلك]، واحمل الصالحين إذا وقعت هيبتهم في قلوب الناس علىٰ أن تلك الهيبة إنما هي من هيبة الله أو من هيبة رسول الله حين كان مجالسًا لله تعالىٰ أو لرسول الله في الخلوة. وممن أدركتُه من أهل هذا المقام سيدي الشيخ أبا العباس الغمري[٣] وسيدي عليًّا المرصفي رحمهما الله تعالىٰ، كان الشخص إذا وقع بصره علىٰ أحدهما يصير يرعد ساعةً طويلةً.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي يقول: لو ظهر للناس مقام الولي لعبدوه، يعني

---

(١) لم أقف عليه عند الترمذي، وإنما أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢) من حديث أبي مسعود قال: «أتىٰ النبي ﷺ رجل، فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له: هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد» والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٣٦٦) ووافقه الذهبي، والطبراني في «الأوسط» (١٢٦٠).

(٢) أبي يزيد البسطامي.

(٣) أبو العباس الغمري أحمد بن محمد المشهور بالولاية والعلم، كان وافر الجلالة، ظاهر المهابة، قدره عظيم، نظيره في عصره عديم، وكان يكثر عمارة المساجد بالريف، يقال إنه عمر خمسين جامعًا، وكان له كرامات كثيرة يحفظها جماعته ت سنة ٩٠٥هـ. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٦٨٧)، «الكواكب الدرية» (٣/ ٣٤١).

لأطاعوه فيما يأمرهم به من الخير، ولم يتخلف منهم إلا من سبقت له الشقاوة. وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: من أدب الفقير إذا كان مجالسًا لله تعالىٰ في الخلوة ثم أراد الخروج أن يقول: اللهم أسدل عليَّ الحجاب حتىٰ لا يعرف بمقامي أحد، وذلك ليخرج من الدنيا وهو كامل الحال. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلامذته: صلاتكم هذه لا يقبلها الله تعالىٰ مع كونهم أتوا بها كاملة من حيثُ شروطُها وأركانُها وأبعاضُها، فلاث به بعض الفقراء وقال له: من أين عرفت أن الله تعالىٰ لا يقبلها؟! فقد تكون أكمل عند الله تعالىٰ من صلاتك. انتهىٰ؛ بأن هذا الشيخ ربما قال ذلك لتلامذته تنهيضًا لهم، ليترقوا من رخص الشريعة إلىٰ عزائمها، لا جهلًا بأحكام الشريعة الظاهرة، فكأنه يقول لتلامذته: لا تلتفتوا لظاهر العبادة دون باطنها الذي هو الحضور مع[1] الله تعالىٰ فيها، بقرينة ما ورد من الأحاديث في ذلك. وفي بعض الكتب الإلهية يقول الله تعالىٰ لملائكته: «اكتبوا عمل عبدي فلان، واكتبوا أين كان قلبه حال العمل». انتهىٰ. فليس مراد الشيخ القطع بأن الله تعالىٰ لا يقبل تلك الصلاة مثلًا، وإنما ذلك ترهيب لتلامذته.

وقد كان سيدي علي المرصفي رحمه الله كلما أراد الفقراء قراءة الورد يقول لهم: احضروا قلوبكم مع الله في وردكم. فقال له شخص يومًا: جماعتكم بحمد الله يحضرون لا يحتاجون إلىٰ من يذكِّرهم. فقال الشيخ: نعم، ولكن لا بأس بتذكيرهم بذلك احتياطًا للإخوان، وقد يكون منهم من قلبه شارد في أودية الدنيا، وقد كان ﷺ يأمر بتسوية الصفوف والاستقامة كلما قام إلىٰ الصلاة[2]، ولم يكتف بقول ذلك مرة أو مرتين مثلاً.

فافهم، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار من غير تأمل، وتفكر في أحوال الأشياخ، فربما

---

(١) بالأصلين: إلىٰ. والأنسب ما أثبتناه.

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٢٣) من حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «سووا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة» ومسلم (٤٢٥).

تحملهم على محامل [لم][(١)] يريدوها، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لتلامذته: إن أردتم الترقي في الطريق، فقدموا محبتي على محبة غيري من الخلق، ولو كان أعلى مني مقامًا؛ فلاث به الناس وقالوا: انظروا إلى هذا الجهل الذي كاد أن يكون كفرًا. فإنه دخل في إطلاق هذا القول تأخيرُ محبة رسول الله ﷺ التي [هي] شرط في صحة الإيمان، وتقديم محبته التي هي مستحبة، بأنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار على هذا الشيخ، لأنه ربما قصد بتقديم محبته غرضًا صحيحًا، وذلك كأن يعلِّم ويبيِّن لذلك المريد حقيقة محبته ﷺ أو غيره من أكابر الأولياء، وأن من شرط كمالها أن لا يخالفه ﷺ في شيء من شرعه، وليس مراد الشيخ الاستهانة بجناب رسول الله ﷺ أو غيره من أكابر الأولياء، حاشا الأشياخ من ذلك!

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: محبة الشيخ سُلَّمٌ للترقي إلى كمال محبة رسول الله ﷺ، ومحبة رسول الله ﷺ سُلَّمٌ للترقي إلى محبة الله عزَّ وجلَّ؛ فكأن الشيخ يقول: أحبوني وبالغوا في محبتي لأعلمكم الأدب مع رسول الله ﷺ، فإن مثلكم جاهل بمقامه، فإذا بلغتم الغاية في محبته ﷺ وبالغتم في اتباع شريعته، ترقيتم إلى محبة الله تعالى، وصحت لكم محبته تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١] أي تريدون محبته أو الزيادة منها، ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] من باب تعليق الأسباب على مسبَّباتها، فمن لم يحصل له الأصل، لم يحصل له الفرع.

وسمعتُه مرة أخرى يقول: الشيخ مرتبة إدمان المريد، فمن لم يُحكِم الأدب مع شيخه، لم يَشُم من طريق الأدب مع رسول الله ﷺ رائحة، وهو فريق وشيخه فريق، وإذا كان المريد كذلك بطل ترقيه ضرورة. انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك والمبادرة إلى الإنكار على الأشياخ، فإنهم أكثر تعظيمًا لرسول الله ﷺ منك، وإنما كلامهم رموز ولغوز، وما قالوا لمريدهم: «قدمنا في المحبة» إلا لعملهم بجهله بمقام النبوة، فكأنهم يقولون له: لا تتعدانا إلى النبي ﷺ إلا بعد أن

---

(١) زيادة ضرورية لاستقامة السياق.

نعلِّمَك الأدب معه، ونعرِّفك برعاية[1] مقامه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يُلبِس الخرقة للمريدين من عَرَقية[2] أو رداء أو قميص، وعن المريد الذي حكَّم هذا الشيخ في نفسه يتصرف فيه كما يتصرف الوالد، فلاث بهما بعض الفقهاء وقال: هذا الفعل لم يثبت فيه شيء عن رسول الله ﷺ، لأن الصوفية يروون ذلك عن الحسن البصري عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ، ومعلوم أن الحسن البصري لم يجتمع بعليٍّ فضلًا عن روايته عنه. وأما التحكيم المذكور فلم يرِد فيه شيء عن رسول الله ﷺ، فالأولىٰ ترك إلباس الخرقة المذكورة وترك التحكيم، ويكتفي بالنصح من كلِّ مسلم رآه علىٰ فعل مذموم، كما كان عليه الصحابة والتابعون، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ إنكار ما ذُكر بالإشاعة من آحاد الناس، وإنما ينبغي الإنكار لمثل ذلك ممن يكون أعلم الناس بطريق الظاهر والباطن، ونظر في كلام أهل الطريقين، فلم يجد لهم مستندًا، فحينئذٍ له الإنكار.

وقد أثبت الحفَّاظ اجتماع الحسن البصري بعلي بن أبي طالب وإلباسه الخرقة، فروىٰ الضياء المقدسي[3] بسند صحيح كما قاله الجلال السيوطي وغيره أن الحسن البصري كان يقول: سمعتُ عليَّ بن أبي طالب ﷺ يقول حين قتلوا عثمان: اللهم اشهد أني لم أحضر ولم آمر بذلك؛ فهذا صريح بأن الحسن اجتمع بعليٍّ.

وروىٰ سيدي يوسف العجمي بسنده المتصل إلىٰ عليٍّ ﷺ أنه ألبس الحسن البصري الخرقة التي يتداولها الصوفية فيما بينهم. وروىٰ أيضًا بسنده عن أويس القرني ﷺ أنه لبسها من يد علي بن أبي طالب، ومن يد الإمام عمر بن الخطاب ﷺ حين اجتمعا به،

(١) بالأصلين: براعة. والصواب ما أثبتناه.

(٢) العَرَقية: طاقية قطنية صغيرة تلبس تحت الطواقي الصوف، لامتصاص العرق.

(٣) الضياء المقدسي محمد بن عبد الواحد بن أحمد ضياء الدين، أبو عبد الله السعدي المقدسي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي، صاحب التصانيف والرحلة الواسعة. ولد: ٥٦٩هـ له مصنفات منها: «فضائل الأعمال» و«الأحكام» و«الأحاديث المختارة» و«الموافقات» توفي: ٦٤٣هـ. انظر: «السير» (٢٣/ ١٢٦) و«الأعلام» (٦/ ٢٥٥).

عملًا بوصية رسول الله ﷺ، فللبس الخرقة طريقان: عن الحسن عن عليٍّ، وعن أويس عن عمر بن الخطاب وعليٍّ رضي الله عنهما.

وإنما كان الشيخ محيي الدين بن العربي وغيره يلبسون الخرقة للمريدين ويقولون: «هذا علىٰ سبيل التبرك بأفعال السلف» لعدم ثبوت حديثها في عصرهم. قال الشيخ محيي الدين: ولما لم أجد فيها حديثًا لبستُها من يد الخضر عليه الصلاة والسلام عند الحجر الأسود، وأخذ عليَّ العهد بالتسليم لمقالات الشيوخ. انتهىٰ[1].

وكان الإمام السهروردي رحمه الله يقول: إنما ألبس الشيخ الخرقة للمريد بيانًا لصحة ارتباط المريد بشيخه ومربيه، وإظهارًا لرضاه بتحكيم الشيخ فيه، فلا ينبغي لأحد إنكار مثل ذلك، فإن التحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية، فالأخروية أولىٰ بذلك، وكيف ينبغي لفقيه أن ينكر علىٰ مريد تحكيمه شيخًا من أهل الطريق في نفسه لمصالح دينه، ليرشده ويهديه ويعرِّفه طرق المواجيد، ويبصِّره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل الشيطان، مع حسن ظنه فيه وكثرة اعتقاده. وهذا أمر لا يجوز لمسلم إنكاره.

[دليل لبس الخرقة للصوفية][2]

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إلباس الخرقة للمريد إنما هي إشارة إلىٰ تفويضه أمره إلىٰ الشيخ، ودخوله في حكمه الذي هو حقيقة شرع الله وشرع رسول الله ﷺ. وفي الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في المنشط والمكره»[3]. انتهىٰ.

وفي إلباس الخرقة معنىٰ المبايعة، إذ هي عتبة الدخول في الصحبة التي هي المقصود الأصليُّ الكليُّ، فبواسطتها -يعني الصحبة- يسري من باطن الشيخ إلىٰ المريد حال عظيم كسراج يقتبس من سراج.

---

(١) انظر «الفتوحات المكية» الباب (٢٥).

(٢) العنوان علىٰ هامش الأصلين.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧١٩٩) ومسلم (١٧٠٩).

قال: وفي القرآن العظيم: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] فذكر تعالىٰ تحكيم الأمة لرسول الله ﷺ، ولا شك أن في تحكيم المريد شيخه إحياء لسنة التحكيم المذكور بعد موت الصحابة ﭫ. وفي الآية أيضًا تعليم الصحابة الأدب مع رسول الله ﷺ، فإن تعالىٰ شرط عليهم التسليم لرسوله ﷺ فيما يحكم به عليهم، ونفىٰ عنهم الإيمان إن لم يسلموا له تسليمًا، أو كان عندهم حرج من حكمه عليهم، **وما ثبت لرسول الله ﷺ من الأدب فهو ثابت للشيخ الداعي إلىٰ شرعه وإن تفاوت المقام. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأشياخ، فربما كان لهم مستند في ذلك لو عرضوه عليك لم تنكره.**

وقد كانت عَذَبة شيخنا شيخ الإسلام زكريا نحو ذراع، فقلتُ له يومًا: إن الثابت في الأحاديث أن عَذَبته ﷺ كان طولها أربع أصابع، فقال: صحيح ذلك، ولكن هكذا أخذناها عن أشياخ الطريق، ولا بد لهم فيها من دليل. انتهىٰ. والحمد لله رب العالمين.

(٥٤٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا طعن في السن ولزم بيته ولم يخرج إلا لفريضة أو عيد أو غيرهما من الأمور المؤكَّدة في الشريعة، وترك زيارة إخوانه وعيادتهم والمشي في جنائزهم ونحو ذلك، فلاث به الناس وقالوا: لو خرج للناس لكان أفضل، وقد قال ﷺ: «حق المسلم علىٰ المسلم سبع» فذكر منها: «وعيادة المريض وتشييع الجنائز»[1] بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ إلا بعد الفحص عن الأمر الذي انقطع في بيته لأجله، فربما كان في تحرير كتبه التي ألَّفها خوفًا أن تخترمه المنية قبل تحريرها.

وربما كان جلوسه في بيته ليتفكر في ذنوبه التي فعلها طولَ عمره، ليتوب منها توبة جديدة، ويتنصل منها ويكثر من الاستغفار، وربما صارت وجهته إلىٰ مشاهدة الحقِّ

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما الذي وقفت عليه عن البراء بن عازب ﭬ قال: «أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس...» أخرجه البخاري (١٢٣٩) ومسلم (٢٠٦٦).

تعالىٰ بحكم المراقبة له، فلم يبقَ له فراغ إلىٰ غيره، وربما كان قد أخذ في التأهب للدار الآخرة، ورأىٰ ذلك واجبًا عليه، فاشتغل به عن بعض السنن والفضائل.

وتأمل يا أخي من مات له ولد عزيز كيف لا يطالبه أحد بزيارة ولا عيادة لمريض ذلك اليوم، لكونه مشغولًا بالحزن وبشراء الكفن وحفر القبر وتغسيل الميت، فكذلك حكم من تأهب للانتقال للدار الآخرة، وقد قالوا لبشر الحافي: ألا تتزوج وتفعل السنة؟ فقال: إني قد شغلتُ بالفرض عن السنة. قيل له: فما هو؟! قال: علاج نفسي ومخالفتها في كلِّ شيء كان فيه حظها ولو عبادة. انتهىٰ.

وممن أدركتُه علىٰ هذا القدم من العلماء وأشياخ الطريق الشيخ زكريا، وتلميذه الجلال السيوطي، والشيخ برهان الدين بن أبي الشريف، والشيخ ناصر الدين اللقاني[1]، والشيخ برهان الدين القلقشندي[2]، وشيخ الإسلام الششيني الحنبلي[3]، وسيدي علي المرصفي، والشيخ محمد السروي، والشيخ عبد القادر الدشطوطي، والشيخ

(١) الشيخ الإمام الورع الزاهد المجمع علىٰ جلالته الشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي رحمه الله. انتهت إليه الرئاسة بعد أخيه الشيخ شمس الدين في العلم والعمل والتحقيق والوقوف عند قوله، وجاءته الأسئلة من بلاد المغرب والتكرور واليمن والحجاز والشام والروم. وتخرج به جماعةٌ مذهبه الموجودون الآن، فلا يوجد مالكي إلا وهو من طلبته أوطلبة طلبته. مات رحمه الله سنة ثمان وخمسين وتسعمئة. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» الترجمة (٥٥٦) طبعة دار الإحسان.

(٢) قال عنه الإمام الشعراني: شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين القَلْقَشَندي الشافعي رحمه الله كان عالـمًا صالحًا زاهدًا، قليل اللغو والمزح، مقبلًا علىٰ أعمال الآخرة، حتىٰ ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل. انتهت إليه الرياسة في علوم السنة في الكتب الستة والمسانيد والأجزاء. توفي سنة (٩٢٢هـ) قبل دخول السلطان سليم مصر، وكأن الشمس كانت في مصر فغربت، رضي الله عنه، وكانت جنازته خاصة بالأمراء والعلماء والصالحين. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني، الترجمة رقم (٥١٠).

(٣) قال عنه الإمام الشعراني: شيخنا وقدوتنا إلىٰ الله تعالىٰ شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين الششيني الحنبلي رضي الله عنه كان عالـمًا زاهدًا، نقيًا تقيًا، عفيفًا متواضعًا، طالما رأيته يدرس العلم علىٰ نخ خلقٍ ليس فوقه شي. وكان إمامًا في التفسير والمذهب. توفي سنة: ٩١٩هـ. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني، الترجمة رقم (٥١١).

حسن العراقي المدفون فوق الكوم المطل علىٰ بركة الرطلي[1]، وجماعةٌ ذكرناهم في «الطبقات» جلسوا كلُّهم في بيوتهم أواخر أعمارهم، تاركين للزيارة والعيادة ونحو ذلك إلىٰ أن ماتوا. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك بأحكام الكتاب والسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ في الطريق إذا قال لمريده: لا تدخل المسجد لصلاة الجمعة أو غيرها إلا إن كان باطنك سالمًا من محبة الدنيا ومن الكبر والحقد والحسد، وغير ذلك من الذنوب، أو تائبًا من ذلك توبةً نصوحًا؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا شرط لم يقل به أحد، وكيف يترك العبد صلاة الجماعة بشرط لم يصرِّح به الشارع؟! بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما قصد بهذا الشرط الكمال، فقال: لا تدخل المسجد وفيك شيء من كبائر الباطن علىٰ وجه الأدب مع الله تعالىٰ فقط، وهو قائل بوجوب الحضور لصلاة الجمعة والجماعة، فكأنه يقول لمريده: إن المسجد بيت الله الخاص، فلا ينبغي لك مجالسته إلا وأنت سالم من الذنوب الظاهرة والباطنة، غير متلطخ بشيء منها. وهذا الأمر لا ترده السنة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: لا ينبغي للمجاورين في المساجد أن يكون في باطن أحدهم غلٌّ أو حقد، أو مكر أو كبر أو عجب، فإنهم علىٰ أقدام أهل الفقه من الصحابة ﷺ، وإنما الواجب عليهم أن يكونوا كما قال الله تعالىٰ في حقِّ أهل الجنة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وكلُّ فقير كان في قلبه غلٌّ أو حقد لأخيه الصالح فليس هو مقابلًا له، لأن من شرط المقابلة استواء السريرة والعلانية، ومن كان مضمرًا لأخيه سوءًا، فليس هو بمقابل له،

(١) كانت بركة الرطلي من أحسن متنزهات مصر في العصرين المملوكي والعثماني، وكانت تشغل الجزء الشمالي الشرقي من أرض الطبالة التي كانت متنزهًا منذ زمن الدول الفاطمية. وقد زالت البركة وردمت في مدة حكم الخديوي اسماعيل. والبركة كانت تشغل المنطقة المحصورة الآن بين شارع الظاهر شمالًا وغربًا وشارع غالي وما في امتداده جنوبًا، وشارع موازئ لشارع البكرية شرقًا.

ولا مسرور بصحبته ورؤيته كما أشار إليه. وخصَّهم بجلوسهم على السرير المشتق من السرور، فهكذا كان أهل الفقه كأبي هريرة وأبي الدرداء وصهيب وبلال الذين يتشبه بهم المجاورون، ويستدلون على من أنكر عليهم جلوسهم في المسجد للغو والأكل وغير ذلك، ويقولون: كان أصحاب الصفة يأكلون وينامون ويتوضؤون في المسجد، فيُقال لهؤلاء: فهل كانوا يحبُّون الدنيا ويجمعونها، ويلغون في المسجد ويخاصمون بعضهم بعضًا، ويستغيبون بعضهم بعضًا فيه، ويفعلون ما يفعلون؟! وإيضاح ذلك أن مثار الحقد والغل والحسد والكبر منشؤها حب الدنيا، وأهل الصُّفَّة لا يلوون على زرع ولا أهل ولا مال ولا جذع، كما وصفهم رسول الله ﷺ(١).

فإياك والاعتراض على هذا الشيخ بغير علم ولا أدب، فيُخاف عليك المقت ودخول النار، فإن الكبر الذي يدخل صاحبه النار هو ردُّ الحق واحتقار الناس، فإنك لولا احتقرتَ هذا الشيخ ما أنكرتَ عليه، ولو كنتَ تعتقد أنه أعلم منك لسلمتَ له نهيه مريدَه أن يجلس في المسجد وهو متلطخ بشيء من المعاصي، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥١) ومما أجبتُ به عن الفقراء الذين يطالبون من كان وقع في ذنب وهجروه بعمل طعام لإخوانه، وضيَّقوا عليه حتى باع ثيابه وعمل بثمنها طعامًا لهم، فلاث بهم الناس وقالوا: هذا أمر خارج عن الشريعة، فإن الشريعة إنما أباحت الأكل مما عمله صاحبه بطيب نفس من غير تضييق، بأنه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار، فربما كان ذلك المهجور قد بايع الفقراء على أنهم يتحكمون فيه كيف شاؤوا، وأن يكرهوه على كلِّ شيء يعود به عليه نفعه في الدنيا والآخرة ما دامت نفسه تنفر من الخير وتشُح بالإنفاق على الإخوان، فكانت تلك المبايعة كالعهد أو الوعد، فطالبوه بالوفاء به وجوبًا أو ندبًا، بقرينة رضاه بما يفعله معه إخوانه، وتوبيخه لنفسه مساعدةً لإخوانه عليها كما هو معروف بين القوم.

وعبارة الإمام السهروردي في كتابه «عوارف المعارف»: ويستحب للمهجور إذا استغفر وقبل الشيخ والإخوان استغفاره أن يقدِم إليهم طعامًا، وإن لم يفعل فلإخوانه مطالبته بذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٢)، والترمذي وقال: حسن صحيح (٢٤٧٧).

مبادرةً إلىٰ كمال حصول ائتلاف قلوب إخوانه عليه، وذلك لتشاكل قلوبهم عند الاجتماع ظواهرهم. قال: وهذا أمر قد انفرد القوم بمراعاته دون سائر طوائف أهل الإسلام. انتهىٰ. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ أشياخ الطريق، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٢) **ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قال لجماعته: إذا ذكرتم الله تعالىٰ قيامًا، فدوروا** حال الذكر **بنقل أقدامكم يمينًا أو شمالًا حتىٰ يرجع كلٌّ واحد إلىٰ محل وقوفه الأول،** وقال لهم: **هذا أمر مستحب؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: من أين جاء الاستحباب ولم يبلغنا ذلك في حديث؟!** بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليهم، فربما قصد بذلك استحباب أشياخ الطريق أخذًا من الشريعة، فإنها أمرت بالعدل في كل شيء، فيحصل لكل بقعة بذلك الدوران نصيب من ذكر كلٍّ واحد من الجماعة، وقد ورد في الحديث: «إن البقاع تتفاخر علىٰ بعضها بعضًا وتقول: هل مر بك اليوم ذاكر؟»[1] الحديث، وأمر الشارع أن من انقطع شسع نعله من رجل أن ينعَلهما جميعًا أو يمشي حافيًا عدلًا بين الرجلين[2]، ونهىٰ ﷺ عن إيطان المكان الواحد في المسجد للصلاة كإيطان البعير[3]، وأمر إذا ذهبنا إلىٰ صلاة العيد أن نذهب في طريق ونرجع في آخر[4]. فإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الفقراء بغير علم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٦٢) من حديث أنس بن مالك قال: «قال رسول الله ﷺ: ما من صباح، ولا رواح إلا وبقاع الأرض تنادي بعضها بعضا: يا جارة هل مر بك اليوم عبد صالح صلىٰ عليك أو ذكر الله؟ فإن قالت: نعم، رأت لها بذلك عليها فضلًا»، وأبو يعلىٰ (٤١١٠)، وابن أبي شيبة (٣٤٧٥٧).

(٢) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة، ليحفهما جميعا، أو لينعلهما جميعا»، ومسلم (٢٠٩٧).

(٣) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه أبو داود (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال: «نهىٰ رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب، وافتراش السبع، وأن يوطن الرجل المكان في المسجد كما يوطن البعير» وابن ماجه (١٤٢٩) والنسائي (١١١٢).

(٤) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٢٦) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «كان النبي ﷺ إذا كان يوم عيد خالف الطريق»، والترمذي (٥٤١).

(٥٥٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي منع بعض الناس من شكوىٰ جاره الذي يضرب العود ويغني ويجلس مع بنات الخطا وغير ذلك من بيت الوالي. ولاث به الممنوع وقال: لو مكنني من شكواهم. لجاء الوالي ومسكهم ومنعهم من الاجتماع علىٰ هذه المنكرات طوعًا أو كرهًا. ولكن قد صار الناس كلهم اليوم مداهنين في دينهم، ويبيعون دينهم ودنياهم، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ. لأنه إنما منع من يشتكيهم من بيت الوالي عملًا بوصية الله تعالىٰ بالجار. ويكفيه أن يقول لهم: هذا الأمر ما هو مليح، فتوبوا إلىٰ الله تعالىٰ منه. وقد أراد بعض التابعين أن يشتكي جارًا له من شربه الخمر من الشُّرَط، فمنعه عبد الله بن عمر وقال: لا تفعل. انتهىٰ.

وكان للإمام أبي حنيفة جار يغني ويضرب العود. فكبس عليه الوالي، فصار يغني في بيت الوالي ويقول:

أضاعـوني وأي فتًـىٰ أضاعـوا

فبلغ ذلك الإمام أبا حنيفة، فدخل علىٰ الوالي وشفع فيه وقال: ما أضعناك يا أبا فلان. انتهىٰ.

فكن يا أخي ساترًا لعيوب إخوانك وجيرانك ما أمكن، ما داموا يخفون معاصيهم ليستر الله تعالىٰ عورتك في الدنيا والآخرة. وقد رأىٰ سيدي عبد القادر الجيلي سكران يتمايل في السوق، فأراد أن يرفعه إلىٰ القاضي، فقال: يا عبد القادر، الله قادر أن يجعلك مثلي، ويجعلني مثلك! فكف عنه سيدي عبد القادر، وسأل الله تعالىٰ له التوبة.

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تكن عونًا للشيطان علىٰ إخوانك العصاة، فتشمته بهم بشكواهم إلىٰ الوالي، إذ الوالي لا ينضبط عادة علىٰ فعل الأمور الشرعية بهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٤) ذومما أجبتُ به عن الفقراء المقيمين في زوايا الأشياخ إذا صاروا يسعون علىٰ وظائف الناس، ويكتب أحدهم في قضية: فلان الغمري، أو المديني، أو الأحمدي، أو الرفاعي، أو البرهاني؛ فلاث بهم الناس وقالوا: يا ليتهم لا يُنسَبُون إلىٰ هؤلاء الأشياخ!

فإن أحدًا من هؤلاء الأشياخ لم يكن يحب الدنيا ولا يسعىٰ علىٰ وظائف أحد، ولا تصح النسبة إلىٰ وليٍّ إلا بعد المشي علىٰ قدمه، بأن هؤلاء الفقراء وربما قصدوا بقولهم: الرفاعي أو الغمري مثلًا مجرد المحبة لهم دون دعوىٰ المشي علىٰ قدمهم، وقد ورد في الصحيح أن شيخًا قال: «يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم. فقال: المرء مع من أحب»[1]. انتهىٰ. فأثبت ﷺ لهم المحبة وإن لم يلحقوا بالقوم، **ولم يزل المحبُّون في كلِّ عصر يدعون المحبة، ولا يصدق منهم إلا القليل.** وربما قصد أحد هؤلاء الفقراء التبرك بذكر شيخه والحماية به وسرعة قضاء الحكَّام لحاجته.

وأما سعي الفقراء علىٰ وظائف الناس، فينبغي حملهم علىٰ المحامل الحسنة والأعذار الشرعية، وربما قصد أحدهم بالسعي علىٰ وظيفة أخيه منعه من أكل الحرام، كأن يأخذ معلومها ولا يحضر لا بنفسه ولا بنائبه. وربما كان الذي كانت الوظيفة بيده عاميًّا لا يصلح لها. ففتش يا أخي أولًا علىٰ استحقاق من سعوا عليه لتلك الوظيفة، ثم أنكر، ولا ينبغي الحكم علىٰ جميع الناس بحكم أفراد منهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي قدم علىٰ بلده أمير أو قاض، فبدأ الشيخ بزيارته قبل الناس، فلاث الناس به، وعن الشيخ الذي لم يزر ذلك الأمير أو القاضي وصبر حتىٰ أتاه ذلك القادم في بيته وقبَّل يده، ولاث به الناس كذلك وقالوا عن الأول: إنه مع كل خيل مُغِيرَة، وله عادة أن ينحشر في الولاة، وعن الثاني: إنه يحب الناموس والمشيخة، ولو أنه ذهب إلىٰ الأمير مثلًا وسلَّم عليه، لكان أولىٰ من مجيء الأمير إليه، ولكن رأىٰ أن مجيء الأمير إليه أقوىٰ في الصحابة[2]، بأنه لا ينبغي المبادرةُ إلىٰ الإنكار علىٰ الأول ولا الثاني، أما الأول فربما قصد ببداءته بالسلام علىٰ ذلك القادم العمل بالسنة في ذلك،

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٢) كذا بالأصلين، وهي بمعنىٰ الصحبة. وقد تكون الصخابة، من الصخب، أي أن صحبة الأمير تحدث صخبًا حول الشيخ، فليتفت الناس إليه.

وقد ورد: «للقادم دهشة. فتلقوه بالترحيب». وأما الذي قدمه دون تأخره حتى وجد نية صالحة يأتي ذلك الأمير بها.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول في حق الولاة القادمين على بلد الفقير أن يبدأهم بالسلام، ولا ينبغي أن يحوجهم إلى المجيء إليه إلا لعذر شرعي، لأنه من أهل البلد، والقادم يحتاج إلى من يؤنسه، لأنه غريب على كل حال. وكلامنا في حق الشيخ الذي له عادة بمخالطة الولاة لمصالح العباد. أما من يحب الخمول، فلا يُطالَب بالملاقاة لأحد من الولاة. انتهى.

فاعلم ذلك، واحم سمعك وبصرك ولسانك عن الاعتراض على العلماء والصالحين، فربما كانت أعمالك الصالحة عندك جميعها لا يرضى بها ذلك العالم في غيبة واحدة اغتبتَه بها، فتذهب إلى الآخرة صِفْر اليدين من الحسنات. وربما ظننتَ حال غيبتك لأحد أنك أحسن حالًا منه وأكثر طاعةً لله، والحال أنك قد أفلستَ من جميع حسناتك بغيبتك فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ أو الأمير الذي يأمر غلامه أو عبده أن يلمسه ويغمز ظهره وأوراكه وأكتافه بحائل بحضرة الناس كثيرًا، ولاث الناس به وقالوا: هذا أمر لا ينبغي فعله، لأنه يفتح باب اللوث بعرضه، لا سيما الفقير المتقشف، فإن الغمز ترفه لا يليق بالمتعبد، بأنه لا ينبغي الإنكار على واحد من الشيخ والأمير، أما الشيخ فلأنه يستعين به على العبادة، فإنه يقوم مقام النوم في الراحة من حيثُ تخفيفُ التعب من العبادة، وقد ثبت في السنة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «دخلت على رسول الله ﷺ وإذا غلام له حبشي يغمز ظهره، فقلتُ: يا رسول الله، ما شأنك؟ فقال: إن الناقة اقتحمت بي»[1] فيُقَاس بذلك من حصل له شدة تعب من العبادة أو الركوب أو المشي، وما كره السلف ذلك إلا لمن يستجلب به النوم المفوِّت للخيرات، فإنهم يفرون من الراحات والرخص إلا لغرض شرعي.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٢٦)، وفي «الأوسط» (٨٠٧٧) والبزار (٢٨٢).

وقد رأيتُ سيدي محمد بن عنان لم يزل الفقراء يغمزون له بطون رجليه كلَّ قليل، لكونه كان من فرسان الليل رضي الله عنه. فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ العلماء والأكابر إلا بطريق شرعي، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ في الطريق إذا مرَّ ولم يسلِّم علىٰ إخوانه الجالسين أو القائمين وتكرر ذلك منه، فلاث الناس به وحملوه علىٰ الكبر، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه، فربما كان ترك السلام نسيانًا له حين كان قلبه منتشرًا في أودية الدنيا، أو كان هؤلاء الجماعة في جمعية قلب مع الله تعالىٰ، [فخاف أن يسلِّم عليهم، فيفرق قلوبهم. وربما كان تركه السلام لجمعية قلبه مع الله تعالىٰ. وربما كان] من غم حصل له من كلام الأعداء فيه، أو كان يفكر في استنباط مسألة في الشريعة من آية أو حديث، أو كان علىٰ حدث، فإن الأكابر يغلب عليهم التعظيم لأسماء الله تعالىٰ، فيجلونها عن أن يتلفظوا بها علىٰ حدث، و«السلام» اسم من أسماء الله تعالىٰ. وقد ورد: «أن رجلًا مرَّ علىٰ النبي ﷺ وهو يبول، فلم يرد ﷺ عليه السلام حتىٰ كاد الرجل أن يتوارىٰ، فضرب ﷺ بيده علىٰ الحائط ضربتين، ومسح بإحديهما وجهه، وبالأخرىٰ ذراعيه، ثم رد علىٰ الرجل السلام، وقال: إنه لم يمنعني أن أردَّ عليك السلام إلا أني لم أكن علىٰ طهر»[1]. وفي رواية أخرىٰ أنه ﷺ توضأ ثم اعتذر إليه، وقال: «إني كرهت أن أذكر الله إلا علىٰ طهر»[2]. انتهىٰ. ويُقاس برد السلام من باب أولىٰ البداءة به، لأنه إذا كان الواجب الذي هو رد السلام يُترَك لأجل الحدث، فالبداءة به من باب أولىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ [الإنكار][3] علىٰ من ترك البداءة بالسلام، أو لم يرده فورًا وتقول: هذا مخالفة للسنة، واحمله علىٰ المحامل الحسنة كما تقدم. اللهم إلا أن يكون بينه وبين من ترك السلام عليه عداوة وشحناء، فالواجب البداءة والرد علىٰ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٠) واللفظ له، ومسلم (٣٧٠)، والترمذي (٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود (١٧)، وابن حبان (٨٠٣) والطبراني في «الكبير» (٧٨١).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

الفور، ولو كان محدِثًا مسارعة لزوال العداوة وطلبًا لرضا الله عز وجل. وفي الحديث في المتشاحنَين: «وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»(١). والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٨) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يسافر إلىٰ الحجاز من البلاد البعيدة بلا زاد، ويعتمد علىٰ سؤال الناس، فلاث العلماء به وقالوا له: إن الله تعالىٰ أمرك بالزاد، وسفرك هذا مخالف للسنة، بأنه ربما كان من الذين راضوا نفوسهم حتىٰ صارت تصبر عن الأكل الشهر والشهرين وأكثر من غير أن يضعُف له بدن، ومثل هذا لا يحتاج إلىٰ الزاد عادة، وإن كان عليه اللوم من جهة تحجيره علىٰ الحقِّ تعالىٰ بقلبه أن لا يغير عليه ما عوَّده به من الاستغناء عن الأكل مدة السفر مثلًا، ومعلوم أن الحقَّ تعالىٰ لا يدخل تحت تحجير عباده عليه، ولا لوم عليه في عدم الوفاء بما وعد لسعة الإطلاق، ولذلك لم يسافر العارفون إلا بالزاد ولو علموا من أنفسهم القوة علىٰ الصبر علىٰ ترك الأكل مدة السفر، احتياطًا لأنفسهم وأدبًا مع الله تعالىٰ أن يحجروا عليه في أمر أراده، حتىٰ إن بعضهم منع من التحجير علىٰ الله من طريق الرجاء لما فيه من ترجيح المغفرة مثلًا علىٰ المؤاخذة، وقالوا: ارجُ فضل الله تعالىٰ من [غير](٢) تحجير عليه، فإنه تعالىٰ ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفيَّ رضي الله عنه يقول: من عباد الله من يسكت عن السؤال حياءً من الله تعالىٰ، وقوة يقين بأنه تعالىٰ لا يضيعه، ولا يسأل إلا إذا رأىٰ الحق تعالىٰ يحب منه السؤال، فيسأل حينئذ إظهارًا للفاقة والحاجة عبودية لا ترجيح فيها للعطاء علىٰ المنع.

ونقل السهروردي في الباب السادس عشر من كتابه «عوارف المعارف» أن أبا جعفر الحداد(٣) شيخ الجنيد رضي الله عنه كان يسأل الناس علىٰ الأبواب إذا جاع، ولم يكن له كسب إلا السؤال، فكان يخرج بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين علىٰ قدْر الحاجة، فيكون

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٠٧٧) ومسلم (٢٥٦٠).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) أبو جعفر الحداد، صحب أبا تراب وأكابر العُبَّاد، كان شديد الاجتهاد معروفًا بالإيثار، مكث عشرين سنة يعمل في كل يوم بدينار، وينفقه علىٰ الفقراء ويصوم. تاريخ بغداد (١٤/ ٤١٣).

ذلك معلومه، فيأكله في يومين. وكان إبراهيم بن أدهم لما دخل البصرة يطوي الأيام ويخرج ليلة فطره، فيسأل على الأبواب قدْر إفطاره ثم يرجع. وسافر سفيان الثوري من الحجاز إلى بلاد اليمن بلا زاد معتمدًا على السؤال في الطريق. انتهى.

فإياك يا أخي والاعتراض على فقير خرج بلا زاد من مصر مثلًا إلى الحجاز، حتى تنظر حاله في الطريق، فإن رأيتَه احتاج إلى زاد، فأنكر حينئذٍ، وإن رأيتَ القدرةَ ساعدته إلى مكة من غير حاجة إلى زاد، فقل له يدعو لك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٥٩) ومما أجبتُ به عن العالم أو الفقير إذا حضر في جنازة وقدَّموه للصلاة فتقدم، وهناك من هو أعلم منه وأصلح، فلاث الناس به وقالوا: كان ينبغي له رد الأمر إلى من هو أعلم منه وأكثر صلاحًا، بأنه ربما حصلت له دهشةٌ من كثرة الحاضرين واشتغالٌ بأحوال الموتى، فذهل عن ملاحظة من هناك من العلماء والصالحين، فلما قدموه صلَّى وهو غائب عن معرفة مراتب الناس في ذلك الوقت، فاعلم ذلك، وإياك والمبادرة إلى الإنكار على العلماء والفقراء وأنت لم تعرف مقاصدهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٠) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي حضر جنازة عظيمة في مثل جامع الأزهر، وظنَّ بنفسه أنهم يقدمونه على العلماء الذين هناك، فتأخر في غمار الناس، أو نزع عمامته لئلا يعرفه الناس فيقدموه، فلاث به الحاذقون من الفقراء وقالوا: هذا الذي فعله فلان فرع عن شهوده الكبر في نفسه، ولأي شيء لم يبالغ في التواضع حتى يصير لا يخطر على باله أن أحدًا يقدمه للصلاة على تلك الجنازة، بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الفقير، لاحتمال أن يكون من أولياء الله الكُمَّل الذين بلغوا في التواضع غايته، ثم تنازلوا في المقام احتياطًا لأنفسهم، واتهامًا بأنها تحب الكبر. وربما كانت تحب التقديم على الحاضرين لغرض صحيح، فأجابها الحقُّ تعالى إلى ما طلبت مصلحةً لها وللميت، وربما كان ذلك استدراجًا ومكر إلهيًا به، والكامل يُكنَى بـ«أبي العيون» فعين ينظر بها إلى نفسه في الحقارة، فلا يخطر في باله أن أحدًا يُقدِمه للصلاة أبدًا، وعين ينظر بها إلى خوف عتب العلماء الحاضرين عليه إذا تقدم عليهم، فيترك التقدم، وعين ينظر بها إلى ما

في قلوب الناس من التعظيم له. فاختفى خوفًا أن يقدموه، وعين يكون مشهدًا به الحق تعالىٰ غائبًا عن التعظيم والتحقير. فاعرف يا أخي قصد الفقير إذا تقدم على الجنازة، ثم أنكر أو سلَّم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦١) ومما أجبتُ به عمَّن وُلِدَ له ولد أو تزوج امرأةً جميلةً من العلماء الأكابر أو الفقراء الصادقين، فلم يعمل لإخوانه وليمة ولا عقيقة. وأظهر الحزن والغم، ولاث به أصحابه وقالوا: إنما فعل ذلك هروبًا من كلفة الطعام وبخلًا وشحًا. بقرينة أنه كان يضحك معنا وينبسط قبل حصول المولود أو التزويج، وهي حيلة لا يتخلص عندنا بها من العتب عليه، بأنه لا ينبغي اللوث به، فربما كان من الذين ينظرون الأمور بفرد عين[1]، وغلب عليه خوف الفتنة بذلك الولد أو تلك المرأة الجميلة، عملاً بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقوله: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وحديث: «ما تركت علىٰ أمتي فتنة هي أشد عليهم من النساء»[2]، وحديث: «الولد مبخلة مجبنة»[3] أي يورث البخل ويجبن عن الخروج للجهاد، فربما نظر ذلك العالم أو الفقير إلىٰ وجه الفتنة دون كون ذلك نعمة، فحزن ودخل عليه الغم والهم، ولو أنه كان كاملًا لنظر إلىٰ الفتنة بوجه، وإلىٰ النعمة بوجه، وأعطىٰ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأظهر السرور والفرح، وعمل الطعام ودعا إخوانه إليه، وأخفىٰ الحزن إلا بحضرة من يقتدي به في ذلك.

ومن فتنة المرأة أنها تشغل عن عبادة الله عزَّ وجلَّ إن كانت جميلة أو شوهاء، لأنها إن كانت جميلة أصابته في قلبه، فكلما دخل حبُّها قلبه، لحقه الفرح بها فنسي ربه، وإن كانت شوهاء أصابته في ظاهره، فكلما نظر إليها لحقه الغم واشتغل بذلك عن ربه أيضًا، لكن ضرر الشوهاء وفتنتها أخف من الجميلة، لأن الحق تعالىٰ غيور لا يحب أن يرىٰ في قلب

---

(١) أي ينظر الأمور من جهة واحدة، بخلاف الكامل فهو يرىٰ الأمر بعدة عيون (وجوه) كما مر تقريره.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠).

(٣) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٦) والطبراني في «الكبير» (٧٠٣) وابن أبي شيبة (٣٢١٨٠).

عبده المؤمن محبةً لمخلوق إلا بأمره، وهو لم يأمرنا بمحبة الزوجة وإنما حذَّرنا منها، فافهم. وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول: المرأة تنجِس وتغلِس[1] وتفلس. انتهىٰ.

ومن فتنة المرأة مطلقًا أنها تحوج زوجها إلىٰ جميع علائق الدنيا، وتمنعه من كمال الزهد والورع. وقد كان سفيان الثوري يقول: إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر، فإن وُلد له منها أولاد فقد كُسِرت به المركب. وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: من تعود أفخاذ النساء لم يفلح. قال النووي: أي اشتغل بمؤنتهن. وكان الشافعي رضي الله عنه يقول أيضًا: لي منذ ثلاثين سنة أسأل أصحابي المتزوجين وأقول: هل رأيتم من التزويج خيرًا؟ فما منهم أحد إلا وقال: ما رأيتُ منه خيرًا قط. فاعلم ذلك، واحفظ قلبك ولسانك من سوء الظن، وذكر الناس بالسوء، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٢) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أرسل له أحد من الولاة مالًا، فردَّه بحضرة الناس، ثم إنهم جاؤوا له به وهو وحده فأخذه، فلاث به الولاة وقالوا: إنه لم يرد مالنا في المرة الأولىٰ تورعًا، وإنما ذلك رياء وسمعة خوفًا علىٰ ناموسه، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه بمجرد ذلك، فربما رده في المرة الأولىٰ لاستغنائه عنه، أو لما رأىٰ في نفسه من الاستشراف لذلك المال، فرده عملًا بحديث: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف له، فخذه فتموله، وما لا فلا تتبعه نفسك»[2]، ثم إن ذلك الاستشراف مثلاً زال من نفسه في المرة الثانية، فلذلك أخذه. وفرض المسألة في المال الحلال. أما الحرام والشبهات فيرده أبدًا ما عاش بطريقه الشرعي.

فإياك يا أخي أن تسيء الظن بفقير أعطاه الناس شيئًا فرده مرات، ثم بعد ذلك أخذه وشكر فضل صاحبه وتقول: إنه لم يرده أولًا إلا تعززًا ورياء بين الناس، فإن ذلك لا يجوز ظنه بمسلم، إذ الفقراء من شأنهم أن يأخذوا المال بحقٍّ، ويردوه بحق لا لحظ نفس، فافهم.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: يُشترَط فيمن يأخذ المال الذي جاءه

---

(١) الغلس: شدة ظلمة آخر الليل.

(٢) تقدم تخريجه.

من غير استشراف نفس أن لا يأخذ ذلك المال إلا بعد أن تستوي يد الملائكة ويد الآدميين، وبعد تلاشي الأسباب في عين الأسباب اعتمادًا على الله تعالى. فربما كان من رد المال أولًا وثانيًا، ثم أخذه بعد ذلك لم يبلغ هذا المقام في الأولى والثانية، ثم بلغه في الثالثة؛ فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا لا أُحاسب على ما آكله من الطعام أبدًا، مع أننا نراه يأكل مما في أيدي الناس الآن، ومعلوم قلة ورعهم في هذا الزمان. فكيف الحال؟

بأنه ربما كان من الأولياء الذي فنىٰ اختيارهم في اختيار الله، وتدبيرهم في تدبيره، فصار الحقُّ تعالىٰ يستخلص لهم بقدرته الحلال من بين فرث ودم، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون.

وقد كان الشيخ حمَّاد الدبَّاس[1] رحمه الله يقول: أنا لا آكل إلا من طعام الفضل المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦]، لأن بقية الله هو الحلال الخالص. وكان يقول: كل جسم[2] تربىٰ من طعام الفضل لا يسلط الله عليه البلاء في القبر ولا النار. وكان أكثر أكله من فتوح الغيب، وذلك أنه كلما جاع يري الحقُّ تعالىٰ أحدًا من أصحابه قائلًا يقول له: احمل إلىٰ حمَّاد الدبَّاس كذا وكذا، فيصبح ذلك الرائي فيأتيه بما أُمر به. وكثيرًا ما يرىٰ الشيخُ حمَّادٌ قائلًا يقول له: اطلب رزقك من فلان، فإنا قد أحلناه عليك بكذا وكذا؛ فيرسل له النقيب، فيأخذ منه ما أحيل به عليه في المنام. انتهىٰ. وهو مقام عزيز.

وقد كان أبو الحسين النوري يطوف على الأبواب ويمد يده ويقول: شيء لله! فأخبروا بذلك الجنيد، فقال: لا بأس بذلك للنوري، فإنه لم يسأل الناس إلا ليعطيهم الله تعالىٰ الأجر في الآخرة. فكان بذلك ساعيًا في مصلحة الغير غائبًا عن حظِّ نفسه،

---

(١) **الشيخ حمَّاد بن مسلم الدَّبَّاس** رحمه الله كان أحد العلماء الراسخين في علوم الحقائق. انتهت إليه الرئاسة في التربية، وانعقد عليه إجماع الشيوخ، وانتمىٰ إليه معظم مشايخ بغداد. وكان يقول: أقرب الطرق إلىٰ الله تعالىٰ حبه، ولا يصفو حبه حتىٰ يبقىٰ المحب روحًا بلا نفس، فإن من له نفس لا يصح أن يذوق من محبة الله شيئًا أبدًا. انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٢٥٦).

(٢) في «ب»: طعام. والصواب ما أثبتناه.

وكانت يده بذلك هي اليد العليا، فإنه أعطىٰ المعطي الثواب في الآخرة الذي هو خير من ذلك الرغيف مثلًا «واليد العليا خير من اليد السفلىٰ»(١).

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يفتح الله تعالىٰ باب الرزق الحلال علىٰ عبد إلا بعد كمال شغله بالله تعالىٰ، فحينئذٍ يَمُنُّ الله تعالىٰ عليه برزق حلال لا تعب فيه ولا نصب. وكان يقول: إذا تحقق الفقير بمقام الكمال، كان أخذه العطاءَ من أيدي الخلائق أكمل في المقام، لاستعماله الخلائق فيما خُلِقوا له. وسمعتُه أيضًا يقول: إتيان الرزق للفقير علىٰ أيدي الخلائق أحب إلىٰ الله تعالىٰ من إتيانه له علىٰ يد القدرة الإلهية كما كان يأتي مريم عليها السلام.

ويُحتمَل أن يكون مراد الشيخ بقوله: «أنا لا أحاسب علىٰ ما آكله» أن يكون مقامه أنه لا يأكل دائمًا إلا إن اضطر إلىٰ الأكل، وذلك بأن يخاف علىٰ عقله أو قواه من الجوع أن يذهب. وكان ذلك من مقام سهل بن عبد الله التستري، كان يقسم عقله وقواه ومعرفته إلىٰ سبعة أجزاء، فلا يأكل حتىٰ يذهب منها ستة أجزاء. انتهىٰ. فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ الأولياء واستبعاد ما يدعونه من المقامات قياسًا علىٰ نفسك. وكان جدي رحمه الله يقول: من أكل الحلال الخالص لا يبلىٰ له جسم في الأرض. فدفنوا والدي عليه بعد عشرين سنة، فوجدوه طريًّا كأنه دُفِنَ ذلك اليوم، وكان قد أحكم الحلال رضي الله عنه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٤) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أمر مريده الشاب التائق إلىٰ النكاح الواجد لأهبته بطلاق زوجته الجميلة ثالث يوم من دخوله بها، لكونه تزوج بغير إذنه، فأطاعه وقلبه معلَّق بها، ولاث به الناس وقالوا: هذا خلاف السنة، وخلاف المنقول عن السلف الصالح، فلم يبلغنا أن رسول الله ﷺ أمر أحدًا من أصحابه حين دخل في الإسلام بطلاق زوجته، وكذلك جميع الأشياخ، حتىٰ قالوا: من أدب الشيخ إذا صحب أحدًا من المريدين أن لا يؤاخذه بما مضىٰ، وإنما يؤاخذه بما يقع منه في المستقبل، وكان من شأنه

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٤٢٧) ومسلم (١٠٣٤).

ﷺ أن لا يقول لشيء وقع لم وقع ولا لشيء تُرِك لم تُرِك أدبًا مع الله تعالىٰ. فكان الأدب من هذا الشيخ أن لا يأمر هذا المريد بطلاق زوجته، بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ إلا بعد تربص وتأمل في حاله وما يريده من ذلك المريد من الخيرات. فإن رأيناه يريد من المريد أن يصير قدوةً للناس في الطريق، فلا اعتراض عليه. [و] لو كانت الدنيا كلها في يد المريد وقال له: اتركها، بل من الواجب عليه في حكم أهل الطريق طاعة الشيخ في ذلك، لأنها كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة.

وإن رأيناه يطلب من المريد أن يكون شيخ خرقة كما عليه القادرية والرفاعية مثلًا، فهذا لنا الاعتراض عليه في أمره المريد بطلاق زوجته. لأن مراسم طريق أهل هذه الخرق أمر سهل ربما يكون التزويج أفضل منه.

وفي مختصر الشيخ خليل المالكي أنه ليس لصائم النفل الخروج منه إلا بأمر والد أو شيخ، فكما جاز الخروج من الصوم بأمر الشيخ، كذلك يجوز الخروج من النكاح بأمره، بجامع أن كلًّا منهما مأمور به، بل النكاح أخف، لأنه يجوز لصاحبه الخروج منه مطلقًا، بخلاف الصوم بعد التلبس به لا يجوز إلا بأمر والد أو شيخ.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي ؒ يقول: الجماع من أعظم لذة تكون للنفس، فلا ينبغي لفقير أن يقدم عليه إلا لضرورة شرعية لا لمطلق شهوة النفس، بل ينبغي تحرير نيته لله تعالىٰ، ثم يقصد به غرضًا صحيحًا ثم يتزوج. قال: والحاذق يعرف أوان التجرد وأوان التأهل للتزويج، فإن رأىٰ نفسه صلحت وانسلخت من الرعونات، فقد استحقت إدخال الرفق عليها، لأنها حينئذٍ صارت مطواعة منقادة تحب كل ما يُراد منها شرعًا. وإن رأىٰ رعونات نفسه باقية، فالتزويج له مشؤوم قاطع عن الطريق. انتهىٰ.

وسمعتُه مرةً أخرىٰ يقول: إذا صبر المريد عن التزويج حتىٰ بلغ مقام الرجال، انتخب الله تعالىٰ له الزوجة الصالحة التي تعينه علىٰ دينه انتخابًا، وهيأ الله تعالىٰ له أعوانًا وأسبابًا ونعمة برفق يدخل عليه، ورزق يُساق إليه. وإذا استعجل بالتزويج قبل أن يبلغ مقام الرجال، كان تزويجه من النقصان والخسران، لاستفزاز الطبع له، ومخامرة

الجهل بثوران دخان الشهوة المغطِّية لشعاع نور العلم، وانحطاطه من أوج العزيمة إلىٰ حضيض الرخصة. وقد سمَّىٰ الأشياخ هذا الاستعجال حيض الرجال، لأنه يقطع عن العبادة كما يقطع الحيض الصلاة والصوم. وسمعتُه ﷺ يقول: أوان التزويج للفقير إذا بلغ إلىٰ حدٍّ لا يشغله عن الله شاغل. انتهىٰ.

فإياك يا أخي والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ حكم الأشياخ علىٰ مريديهم، فإنهم حكَّموا الشيخ في أنفسهم، وأمَّنوه علىٰ كلِّ شيء يرقيهم إلىٰ دخول حضرة ربهم، وعلىٰ كلِّ شيء يعوقهم عنها، إذ الشيخ كالمجتهد، والمريد كالمقلِّد له علىٰ حد سواء. انتهىٰ. وقد بسطنا الكلام علىٰ ذلك في الباب الثالث عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق»، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يدخل المريدين الخلوَة، ولاث به بعض المجادلين وقالوا له: أي فائدة في الخلوة وقد سبق من الله تقسيم الخلق إلىٰ نبي وولي وعدوٍّ مطرود؟! فالولي ولي، والعدو عدو، وشجر الشوك لا يصير بالعِلاج تفاحًا، وشجر التفاح لا يصير بترك العلاج شوكًا، بأنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ الشيخ في إدخاله المريد الخلوة، لأن الخلوة لا يصير بها غير الوليِّ وليًّا، وإنما ذلك من باب رياضة النفوس وكشف الأخلاق، ليستريح الناس من شرِّ ذلك الفقير، ويصير يعرف الحقَّ والباطل بالنور الحاصل له من تلك الوحدة والعزلة. وأما الولاية فذلك أمر آخر لا يتوقف علىٰ خلوة.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ؒ يقول: للخلوة تأثير عظيم في القلب تنتج لصاحبها تنوير القلب، والزهد في الدنيا، وحلاوة الذكر، وصدق المعاملة مع الله تعالىٰ في جميع العبادات، لكن بشرط المشي علىٰ قواعد الشريعة، فمن لم يمشِ في خلوته عليها، أنتجت له شرًّا من أنواع الطغيان وامتلاء النفس بالغرور والخيال[1]، بل بلغنا أن بعض النصارىٰ اختلىٰ باسم من أسماء الله تعالىٰ، فطار به في الهواء وصار يكاشف الناس بما في ضمائرهم، حتىٰ افتتن به خلق كثير، فللخلوة تأثير في صفاء الباطن مطلقًا،

---

(١) بالأصلين: المحال.

لكنها تنتج لأهل الخير خيرًا، ولأهل الشر شرًّا.

فاعلم ذلك، وسلِّم للأشياخ ما يفعلونه لا سيما الخلوة، فإنه ﷺ اختلىٰ في غار حراء تشريعًا لأمته، وإن كان ذلك قبل رسالته، فإنه كان نبيًّا وآدم بين الماء والطين[1]، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: تخلقتُ بأخلاق الله، أو تخلقتُ بأخلاق رسول الله؛ فلاث به فقيه وقال: لا يقدر أحد علىٰ التخلق بأخلاق الله، ولا بأخلاق رسول الله علىٰ الكمال، فكيف يصح لهذا الشيخ إطلاق التخلق بها؟! بأنه ينبغي حمله علىٰ أنه أراد أنه تخلق بها بقدْر حظِّه ونصيبه، كما قالوا في معنىٰ حديث: «تخلقوا بأخلاق الله»[2] أي خذوا حظَّكم من التخلق بها في الاسم دون الحقيقة والكنه، فلا اعتراض علىٰ الشيخ بما قال، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٧) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الكبير إذا جلس يأكل مع النصارىٰ أو اليهود في جمعية، ويضحك معهم وينشرح، فلاث به الناس وقالوا: ليس للعالم أو الشيخ أن يفعل ما يزري به، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ الشيخ في مثل ذلك، لأنه من جملة التواضع المشروع، وإنما يزري به فعله شيئًا يخالف الشريعة. وقد عزم شخص من أمراء الشام علىٰ الشيخ أبي النجيب السهروردي رحمه الله أن يأكل عنده، فلما دخل وجد الأسارىٰ من الفرنج عنده مقيدين، فمد السماط وجلس الشيخ معهم كأحدهم يأكل معهم، وظهر لجميع الحاضرين أن ذلك من الشيخ تواضع وانكسار وانسلاخ من الكبر علىٰ الفرنج بإيمانه وعلمه وعمله.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: إنما نُهِي العبد عن الضَّعَة لا التواضع، إذ الضعة أن يضع الإنسان نفسه في مكان يزري به، ويفضي إلىٰ تضييع حقِّه، بخلاف

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه، وذكره القسطلاني في إرشاد الساري (٥/ ٣٤١).

التواضع، فإن أهل المجلس كلَّهم يعظمونه ويحمدونه لأجله.

وكان الإمام السهروردي يقول: الضَّعَةُ هي النزول من الإفراط إلىٰ حضيض التفريط، وفي رواية عنه: التواضع هو رعاية الاعتدال بين الكبر والضَّعَة. انتهىٰ.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: حد الاعتدال في التواضع أن يرضىٰ العبد بمنزلة دون ما يستحقه عادة، ولو أن الشخص كان يأمن جموح نفسه، لأوقفها علىٰ حد ما تستحقه من غير زيادة ولا نقصان، ولكن لما كان الجموح من جِبِلة النفس، احتاجت إلىٰ التداوي بالتواضع، لتقف دون ما تستحقه، لئلا يتطرق إليها الكبر. انتهىٰ.

وسمعتُه أيضًا يقول: الفرق بين الكبر والتكبر هو أن الكبر رؤية العبد في نفسه أنه أكبر من غيره، والتكبر إظهاره ذلك. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن جلوس هذا العالم أو الشيخ علىٰ الأكل مع النصارىٰ واليهود من التواضع لا من الضَّعَة، كما تشهد له القرائن، فلا اعتراض إلا علىٰ من شهدت القرائن بوقوعه في الضَّعَة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٨) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي يقول: الإيثار مكروه في الأمور الدنيوية والأخروية مطلقًا؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا له: لا يكره الإيثار إلا في القرب الشرعية فقط، وأما في غيرها فهو محمود. فقال الفقير: بل هو مكروه مطلقًا. فقالوا له: أنت جاهل، بأنه لا ينبغي الاعتراض علىٰ هذا الفقير، لأنه ربما أراد أنه مكروه في حقِّ الكُمَّل من الأولياء، لأنهم يشهدون أن نفوسهم أولىٰ من غيرها، عملًا بقوله ﷺ: «الأقربون أولىٰ بالمعروف»[1]، وقيل: إليه أشار بقوله ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[2]، وإنما مدح الله تعالىٰ المؤثرين علىٰ أنفسهم ليخرجوا من شحِّ الطبيعة التي فتحوا أعينهم عليه في الدنيا، فإذا خرجوا عنه أمروا بعد ذلك بالبداءة بأنفسهم، لأنها أقرب الأقربين إليهم، فإذا تعدوها إلىٰ الأبعد من غير طريق شرعي، فقد ظلموها.

---

(١) تقدم الكلام عليه.

(٢) تقدم تخريجه.

أو يكون مراد هذا الفقير بكراهة الإيثار مطلقًا أن المؤثر لا يسلم من شهود منته على أخيه إذا آثره على نفسه ولو خطورًا على باله، اللهم إلا أن يكون ممن يشهد المنة لله تعالى في جميع الأمور ببادئ الرأي، ولا يرى له ملكًا مع الله تعالى، فهذا لا يشهد له منَّةً على أحد، وهو الإيثار المشروع الذي كان عليه السلف الصالح، كانوا يرون لمن آثروه المنَّة عليهم من حيثُ إنه كان سببًا لهم في إيصال صدقة الحقِّ تعالى على عبده إليهم، كما أوضحنا ذلك في كتاب «المنن الكبرى»، والحمد لله رب العالمين.

(٥٦٩) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا أكثر من المزح والضحك، ولاث الناس به وقالوا: هذا لا يليق بالأشياخ، إنما شأن الأشياخ عدم ذلك، فإن من مزح استُخِف به، وإذا استخف الناس بالعالم أو الشيخ قلَّ نفعُه، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه بمجرد المزح والضحك، وإنما يسوغ الإنكار عليه إذا وقع الاستخفاف به، وقد كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا، ولم يزل الناس في كلِّ عصر فيهم المنبسِط والمنقبِض، والمازح والمعبِس، ومن عقل العاقل العبوسة تارة والمزح أخرى بحسب الوقت، وسلوك حالة واحدة انحراف عن الاعتدال. وتقدم في هذا الكتاب قول الإمام الشافعي ﵀: الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط. انتهى. وفي كلام الإمام علي ﵁: لا بأس بالفكاهة يخرج الرجل بها عن حد العبوس. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ أتى من خلف زاهر بن حرام[1] واحتضنه من ورائه بكفيه، فالتفت فأبصر النبي ﷺ فقبل كفيه، فقال رسول الله ﷺ: «من يشتري العبد؟ فقال: إذن تجدني كاسدًا يا رسول الله. فقال: ولكنك عند الله ربيح. ثم قال رسول الله ﷺ: لكل حاضر بادية، وبادية آل محمد زاهر بن حرام»[2]. انتهى. وإنما كان بادية

(١) زاهر بن حرام الأشجعي، كان حجازيًا، يسكن البادية في حياة رسول الله ﷺ «الاستيعاب» (٢/ ٥٠٩)، «الإصابة» (٢/ ٤٥٢).

(٢) أخرجه ابن حبان من حديث أنس بن مالك (٥٧٩٠)، وأبو يعلى (٣٤٥٦) والبيهقي في «السنن» (٢١١٧٢) وأحمد (١٢٦٤٨).

لأنه كان لا يأتي إلىٰ النبي ﷺ إلا ومعه طرفة يهديها للنبي ﷺ، يعني من فواكه البادية.

وقد ذكرنا في الباب الثالث عشر من كتاب «منهج الصدق والتحقيق» الفرق بين المزح والمداعبة، وأن المداعبة هي ما لا يغضب جِدُّها، وأن المزح ما يغضب جِدُّه، وكذلك ذكرنا جملة صالحة من مزحه ﷺ مع أصحابه ومزحهم معه، ومزح الصحابة والتابعين بعضهم مع بعض، فراجعه تعرف ما يقبل الإنكار من المزح وما لا يقبله، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٠) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق إذا صاحب أميرًا وصار يكثر من الثناء عليه في المجالس، ويظهر له المحبة ويقول: أحبُّه أكثر من ولدي العزيز أو الوالد العزيز؛ فلاث الناس به وحملوه علىٰ أن ذلك كله لإحسانه إليه لا لعلة أخرىٰ، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار عليه بمجرد ذلك، وإنما يسوغ الإنكار بعد تأمل وتبصر في مراده بذلك، فربما يكون قصده بإظهار المحبة لذلك الأمير تمييل قلبه إليه، ليصير يقبل شفاعته في مظلوم، لا لشيء يأخذه علىٰ ذلك من الأمير أو من المشفوع له. وقد كان زيد بن أسلم[1] ﵁ يقول: بلغنا أن نبيًا من الأنبياء كان يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس. وكان عطاء ﵁ يقول: لأن يرائي الرجل سنين ليكتسب بذلك جاهًا يعيش به مؤمن خير له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه. انتهىٰ.

فإن قلت: إن هذا مقام لا يصح إلا لمن اطلع الله تعالىٰ علىٰ باطنه، فلم يجد فيه شيئًا من محبة المال والجاه، حتىٰ لو أن ملوك الأرض كلَّهم وقفوا في خدمته، ما رأىٰ نفسه بذلك علىٰ أحد من إخوانه، ولا استطال به عليهم؛ **قلنا:** ويُحتمَل أن هذا الشيخ أو العالم يكون له هذا المقام، فلا اعتراض عليه بشكره للأمير في المجالس. ثم إننا لو رأيناه

---

(١) زيد بن أسلم الإمام، الحجة، القدوة، أبو عبد الله العدوي، العمري، المدني، الفقيه. كان له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ قال أبو حازم الأعرج: لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيها، أدنىٰ خصلة فينا التواسي بما في أيدينا، وما رأيت في مجلسه متماريين، ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا. توفي في ذي الحجة، سنة: ١٣٦هـ. انظر: «السير» (٥/ ٣١٦)، «الأعلام» (٣/ ٥٦).

يأخذ مالًا من الأمير لا ينبغي لنا اللوث به، بل تحمله على أنه أخذه لغيره من الفقراء والمساكين الذين لا حرج عليهم في أكل مثل ذلك المال، أو لحاجة نفسه الضرورية.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص رحمه الله يقول: من الفقراء من يكون دائرًا مع رضا الله حيث أراه، فإن رأى الحقَّ تعالىٰ يحب منه الثناء علىٰ ذلك الأمير لتحصيل مصالح للناس، أثنىٰ عليه وإلا انقبض عليه. ومن الفقراء من يستحيي أن يذم أحدًا من المسلمين من حيثُ كونُهم عباد الله، فهو يثني عليهم أدبًا مع الله تعالىٰ. ولولا أن الله تعالىٰ أمره أن يذم بعض أفعالهم المخالفة للشريعة ما ذمها. انتهىٰ.

فاعلم ذلك واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، فإن جميع أعمالك الصالحة لا تكفي أحدهم يوم القيامة في كلمة واحدة قلتَها فيه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: يكره مجالسة الواحد، بخلاف مجالسة الاثنين فما فوقهما، فإنه مستحب؛ فطالبه فقيه بالدليل علىٰ ذلك فسكت، فلاث به وقال له: أنت جاهل، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه إلا بعد تربص وتأمل، فربما كان مشهده في ذلك صحيحًا، ولا يلزم من سكوته جهله بالدليل، فربما علمه ورأىٰ عند هذا المنكِر تعنتًا أو حجابًا عن فهمه، فكتمه عنه.

ومما لاح لي في ذلك أنه ربما أخذ كراهة مجالسة الواحد من قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] إلىٰ آخر النسق، فإنه تعالىٰ ما جعل مجالسته إلا للثلاثة دون الاثنين، وإن كانت معيته عامة سارية مع كلِّ واحد واثنين، بقرينة قوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] فما كره هذا الشيخ مجالسة الواحد إلا لكون الحقِّ تعالىٰ لا يكون جليسًا لهما، واستحب الثلاثة لكون الحقِّ تعالىٰ يكون جليسًا لهم فيها.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا يجالس الحقُّ أحدًا من أعدائه أبدًا، وإنما يجالس أولياءه. ومن هنا قالوا: ما اجتمع ثلاثة من المسلمين إلا وكان فيهم وليٌّ لله عزَّ وجلَّ، استنباطًا من قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. فاعلم ذلك،

ولا تبادر إلى الإنكار على الفقراء إلا إن خالفوا نصًا أو إجماعًا، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يمنع من في قلبه غلٌّ أو حقد أو حسد من المريدين أن يحضر في أول الوقت في صلاة الجماعة، ويقول: جاهدوا نفوسكم في إزالة ذلك إلى أن يضيق الوقت جدًا ثم صلوا؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا أمر لم يأمر به الشارع ﷺ، والصلاة أول الوقت مع شيء من أمراض الباطن أفضل، بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ، لأن ما أمر به أولى من الصلاة أول الوقت مع مصاحبة شيء من الكبائر الباطنة، وعدم أمر الشارع بإزالة الأمراض الباطنة قبل الدخول في الصلاة ولو فاتت فضيلة أول الوقت لا ينافي ما قاله هذا الشيخ، فربما كان ذلك منه ﷺ توسعةً لعوام أمته، ولو أن أحدًا عرض عليه أمراضه الباطنة وقال: يا رسول الله، مقصودي أزيلها من باطني ثم أصلي في الوقت ولو آخره؛ لقال له: افعل، تعظيمًا لحضرة الله تعالى أن يقف أحد بين يديه وقد لطَّخ قلبه الذي هو محلُّ نظر الله تعالى من العبد بشيء نهاه عنه إجماعًا. وقد ورد في صحيح مسلم مرفوعًا: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وثيابكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[1] يعني بذلك اعتناء الحقِّ تعالى بالقلوب أكثر من الظواهر.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: كان أصحاب رسول الله ﷺ يستقصون في طهارة الباطن من الرعونات والأدناس، ويتساهلون في طهارة الظاهر، عكس ما عليه الموسوِّسون اليوم. وربما كانت تلك الوسوسة من جملة هوى النفوس، بقرينة أنه إذا اتسخ ثوب أحدهم يحصل له غم وضيق صدر إذا لبسه، ويتسخ باطنه بالحقد والمكر والغلِّ والحسد والكبر والرياء والنفاق والإعجاب وغير ذلك، ولا يضيق له صدر، ولا يحصل بذلك عنده غم. انتهى.

وإذا كان في طريق الفضيلة أمر مذموم، فإزالة المذموم أولى، كما قالوا في رائحة الخلوف بعد الزوال إذا تأذى بها الناس فإزالتها أولى، وكما رخصوا في عدم حضور الجمعة والجماعة إذا كان به رائحة كريهة عجز عن إزالتها، فاعلم ذلك، ولا تبادر إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

الإنكار إلا بنص أو إجماع، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٣) ومما أجبتُ به عن سيدي محمد البكري وغيره ممن يتكلم في طريق القوم بكلام لا يفهمه أحد من الحاضرين، فلاث به الناس وقالوا: هذا كلام لا ثمرة له، ولو أنه قرر للناس شيئًا في الوضوء والصلاة لكان أفضل له. بأنه لا ينبغي الإنكار على هذا الشيخ، فربما كان في مجلسه من يفهم كلامه من الناس الذين لا يؤبه لهم أو من علماء الجن، فإنهم يحضرون مجالس علماء الإنس كثيرًا كما هو مشهور بين الأولياء، كالشيخ عثمان[1] إمام جامع الأزهر، وسيدي محمد الحنفي الشاذلي وأضرابهما.

ففتش يا أخي أهل المجلس أولًا، فإن لم تجد أحدًا يفهم كلامه من الإنس والجنّ، فهناك يسوغ لك الإنكار عليه، لأنه كالعبث. ومن هنا قال المحققون: إن حروف الهجاء أوائل السور لها أهلٌ يفهمون معناها، وكذلك الآيات المتشابهات، وكذلك الأحكام التي لا تَعقِلُ غالبُ الناس لها علةً، كالغسل من نجاسة الكلب بسبع إحداها بتراب عند من يقول بطهارته، ويقول: ذلك تعبديٌّ لا يُعقَل، ولولا ذلك لأدّى إلى أن الشارع خاطب الناس بما لا يعقلون، وذلك عبث. انتهى.

ويُحتمل أن الله تعالى جعل هذه الأمور امتحانًا واختبارًا لإيمان عباده المؤمنين، لينظر تعالى وهو العالم بسرائرهم إلى قلوبهم هل يسلّمون علم ذلك إلى الله ويؤمنون به، أم يردونه بعقولهم ويؤولونه؟ والله أعلم.

وقد كان أحمد بن سريج[2] ينكر على الجنيد ما يتكلم به من الكلام الذي لا يفهمه

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الإمام المقريء الضرير فخر الدين إمام الجامع الأزهر، ولد سنة ٧٢٥ هـ، بمدينة بلبيس، وقرأ القرآن الكريم بالقراءات السبع والعشر على جماعة، أم بالجامع الأزهر زمانًا، وأخذ الناس عنه القراءات، ورحلوا إليه من الأقطار، وتخرج به خلائق، توفي سنة ٨٠٤ هـ. «المنهل الصافي» لابن تغري بردي (٧/ ٤١٨).

(٢) الشيخ الإمام الورع الزاهد أحمد بن سريج ، صحب الإمام أبا القاسم الجنيد، وكان يقول: ما عرفنا الإسلام إلا من حين صحبنا الجنيد . وكان لا يترك قيام الليل في سفر ولا حضر، ويقول: كيف ينبغي لمن

غالب الناس، فتنكر يومًا وحضر مجلس الجنيد، فلما رجع قال لأصحابه: لم أفهم من كلامه شيئًا، ولكني وجدتُ صولة الكلام ليست بصولة مبطِل! انتهىٰ. وكذلك القول في بعض كلام سيدي محمد البكري ونحوه.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفيَّ ﵀ يقول: ربما كان نطق الفقير بالكلام الذي لا يفهمه أحد من الحاضرين تنفيسًا له، ولولا إخراجه لفسد بدنه وطلع فيه الخراجات والدمامل، وإذا تعارض عند العاقل هلاك نفسه وهلاك غيره، قدَّم سلامة نفسه. انتهىٰ.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي ﵀ يقول: العارف إن نطق بما عنده من الأسرار هلك الناس، وإن كتمها أهلك نفسه، فهو كجهنم لولا أذن الله تعالىٰ لها بنفسين في الشتاء والصيف لذابت وتفانت[١]. انتهىٰ.

فاعلم ذلك يا أخي ولا تبادر إلىٰ الإنكار إلا علىٰ من أنت أعلم منه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٤) ومما أجبتُ به عن العالم إذا تَلْمَذ لبعض من يدعي الطريق من أهل هذا الزمان بغير حق، ولاث الناس بذلك العالم وقالوا: كيف يتلمذ فلان مع كونه من أهل العلم إلىٰ شخص نصَّاب شيطان؟! بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ ذلك العالم، بل ذلك دليل علىٰ حسن ظنه بالمسلمين، لا سيما إن كان لذلك الشيخ عمامة صوف وعذبة وهو كثير الإطراق[٢]، فإنه يزداد فيه اعتقادًا، وهو معذور في التتلمذ له، لأن العالم ليس له إلمام بالطريق ولا بمصطلح أهلها ولا بشروطهم، ولا يعرف المحقَّ من المبطِل، فلا ينبغي

يدعي محبة الله عز وجل أن ينام عن خدمته أوقات المواكب الإلهية؟! توفي سنة (٣٠٦هـ). انظر: «الطبقات الوسطىٰ» للشعراني الترجمة (٥٦٢).

(١) إشارة إلىٰ ما أخرجه البخاري (٣٢٦٠) من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلىٰ ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»، ومسلم (٦١٧).

(٢) بالأصلين: الاطراد. والصواب ما أثبتناه.

الإنكار عليه إلا بعد طول صحبته لذلك الشيخ، ورؤيته منه أفعالًا تخالف ظاهر الشريعة يبعد وجه تأويلها عن أن يكون مرادًا.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي يقول: إذا رأيتم أحدًا من طلبة العلم تلمذ لمن ليس له قدم في طريق القوم، فإياكم أن تصرِّحوا بالنصح له وتأمروه بالتباعد عنه إلا بعد سياسة تامة، وهو أن تقولوا: إن من شرط الشيخ أن لا يخفىٰ عليه شيء من دقائق أحكام الكتاب والسنة، وكلُّ شيخ ادَّعىٰ الطريق وهو يجهل شيئًا من أحكامهما فهو نصَّاب. فإن كنتَ تشك في صدق شيخك، فاسأله عن شيء من دقائق أحكام الشريعة تعرف حاله، وتدخل في صحبته علىٰ يقين من أمره، وإلا فنحن نعرف من دينك أنك تفارقه إذا رأيته يجهل ذلك. انتهىٰ. وإياك أن تقول لطالب العلم: إنك أخطأت في تلمذك لفلان، فإنه جاهل بالكتاب والسنة؛ فربما قال ذلك له عنك، فحصلت فتنة كبيرة، لا سيما إن كان بعض الأمراء يعتقده.

فعُلِمَ أنه لا لوم علىٰ العالم إلا إن تلمذ لمن رآه جاهلًا من غير نية صالحة، فلو تلمذ له ليعلمه هو أحكام الشريعة، فذلك محمود حيث علم أنه لا ينقاد له إلا علىٰ هذه الصورة، لأنه لو أظهر له جهله وقال له: تعال اقرأ عليَّ شيئًا من كتب الشريعة، نفر منه ولم يجبه، كما هو الغالب فيمن غلب عليه حبُّ الرئاسة بغير حق، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٥) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي أرسل[١] وراء أكابر العلماء الذين لا يصلح أن يكون تلميذًا لهم في ظاهر الأمر في حاجة من الحوائج، ولاث الناس به وقالوا: هذا قليل الأدب، ولو كان معه أدب لذهب إلىٰ العالم وسأله حاجته، فإنه لا يرسل وراء الناس إلا من هو أكبر منهم عادةً، ولكنه قصد أن يقول الناس: لو لا أن فلانًا رجل عظيم ما امتثل فلان العالم أمره وحضره، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الفقير، لأنه ربما كان ذلك واردًا علىٰ سبب، كأن تنازع هو وجماعة في كون ذلك العالم متواضعًا أم متكبرًا، فقصد الفقير بذلك بيان تواضعه إذا أرسل وراءه وحضر، فلا ينبغي الاعتراض علىٰ الفقير إلا

---

(١) بالأصلين: نزل. والصواب ما أثبتناه.

إذا أرسل وراء العالم استهانةً بحقِّه لا لفائدة. وأما إذا قصد بذلك بيان شدة تواضعه وفقد نفسه، ليزيد الناس في اعتقاده وينتفعوا بعلمه بعد أن كانوا ينسبونه إلىٰ التكبر فلا.

وقد وقع أن إبراهيم ابن أدهم استدعىٰ سفيان الثوري ليحضر عنده من الشام إلىٰ الرَّمْلة، فكبر ذلك علىٰ الناس وقالوا: سفيان أجلُّ من أن يُستدعَىٰ من هذا المكان البعيد! فقال إبراهيم: إنما دعوتُه لأريكم تواضعه وفقد نفسه. انتهىٰ. فانتحل يا أخي الأجوبة للعلماء والفقراء إلىٰ سبعين جوابًا قبل أن تنكر عليهم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: إن من عباد الله من يأخذ وسوسة إبليس المذمومة وخواطر نفسه المذمومة عن الله تعالىٰ، فيرد إبليس خاسئًا، فلاث به الناس وقالوا: كيف يصح أخذ الأمور المذمومة عن الله تعالىٰ وهو لا يأمر بالفحشاء؟! هذا يشبه كلام الزنادقة، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فإنه ادعىٰ أمرًا ممكنًا من حيثُ مرتبةُ الإلهام، وهو أن كلَّ شيء وسوس به إبليس وكلَّ شيء زينتْه له نفسه ينظر إليه من حيثُ التقديرُ الإلهيُّ قبل وصوله إلىٰ النفس والشيطان، من باب قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٨]. ثم إنه لا يلزم من الإلهام بالمذموم العمل به، لأن معنىٰ قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا ﴾ أي لتجتنبه، ﴿وَتَقْوَاهَا ﴾ أي لتعمل بها.

ثم إن الذي أُلهِمَ المذمومَ من العصاة لو حقق النظر وجد الحق تعالىٰ غير راضٍ عنه فيه، فكان يتركه ضرورة عملًا بالشريعة، إذ لا يصح لأحد أن يعصي ربه علىٰ الكشف بأنه تعالىٰ يراه أبدًا، لا بد من حجاب ولو غفلة أو سهوًا ونسيانًا، وتقدَّم مرارًا في هذا الكتاب أن معنىٰ حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[1] الحديث، أي وهو مؤمن بأني أراه، فلو استشعر نظري إليه ما وقع في معصية، وليس المراد به نفي الإيمان بجميع الأمور التي أمرنا الله تعالىٰ بالإيمان بها، كملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيرِه وشرِّه، فافهم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٥٧٧) ومما أجبتُ به عن الفقير الذي ذهب إلىٰ زيارة عالم أو صالح. فوجد عنده الأمير الذي يتردد إليه ويعتقده، فرجع من الباب ولم يدخل من غير أن يعلموا به، فلاث به الناس الذي رأوه قد رجع وقالوا: ما يحب فلان المشيخة إلا له وحده، وإنه ما رجع إلا لخوفه من ذلك الأمير أن ينقطع عن التردد إليه ويقول: لولا أن فلانًا أعلىٰ مقامًا من فلان ما ذهب لزيارته، فأقتصر أنا عليه أولىٰ، ولو كان صادقًا لدخل لزيارة ذلك العالم أو الصالح وقبَّل رجله بحضرة ذلك الأمير وزاده اعتقادًا فيه، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ حمله علىٰ ما ذُكِر، وإنما الواجب علينا حمله علىٰ أنه قصد بعدم دخوله إيثار ذلك العالم أو الصالح علىٰ نفسه، بجعل المجلس مع الأمير كلّه له، ولو أنه دخل ربما عظّمه الأمير، فخدش مقام ذلك العالم أو الصالح عنده بتعظيم غيره في مجلسه، وربما لم يعظِّمه فيحصل عند ذاك المزور إعجاب بنفسه ولو خطورًا، [فلذلك رجع. وربما كان ذلك الزائر الذي لم يعظِّمه الأمير أعلىٰ مقامًا من ذلك المزور كما هو الغالب، فتتحرك نفس الزائر كذلك، ويقول في نفسه ولو خطورًا][1]: أنا الظالم الذي أزور مثل فلان بحضرة الأمير الذي يعتقدني وأشفع عنده.

وقد وقع لي أنا مثل ذلك مع شخص من أكابر العلماء لم يطلع زاويتي قط لا في هناء ولا في عزاء، فطلع لي يومًا فرأىٰ عندي أميرًا يعتقدني، فقال له ذلك الأمير: تردد إلىٰ هذه العتبة ولا تقطعها، يحصل لك خير؛ فتغير وجهه، فطأطأتُ علىٰ رجله فقبلتُها، لأجبر الخلل الذي حصل له من ذلك الأمير، فلم ينجبر. ومن ذلك اليوم ما طلع لي ولو بلغتُ من المرض ما بلغت. ولما لاث أصحابي [به][2] قلتُ لهم: إنما فعل مثل ذلك خوفًا عليَّ من إعجابي بنفسي، فأهلك ولا أشعر، فجزاه الله تعالىٰ عني خيرًا. فاعلم ذلك، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، وأمر أصحابك بذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٨) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ الذي كان يشدد علىٰ الناس في الأمر

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

بالمعروف والنهي عن المنكر في ابتداء حاله، ثم صار يخفف في ذلك أو يسكت، فلاث به الناس وقالوا: لو كان عكس الأمر، لكان خيرًا له، ليموت علىٰ حالة كمال، فإن الأمر بالمعروف كلما تقاربت الساعة ينبغي التشديد فيه أكثر، لكثرة وقوع الناس في المعاصي، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا العالم أو الشيخ بمجرد ذلك، فربما أنه كان في ابتداء أمره لا يشهد أن رحمة الله تعالىٰ غلبت غضبه، ثم شهدها أواخر عمره، فخفف في الأمر والنهي، أو سكت عن ذلك بطريقه الشرعي، فلا اعتراض عليه إلا بوجه ما. ومعلوم أن رحمة الله تعالىٰ لا تغلب غضبه إلا إذا كان المخالفون لأمره أكثر من المطيعين له، فلما شهد العالم أو الشيخ ذلك، غلب عليه التسليم لله تعالىٰ، وإن كان الإنكار لا ينافي التسليم عند الكُمَّل، إنما ينافيه عند الناقص الذي ينظره بفرد عين.

وأيضًا فإن كمال الله تعالىٰ لا يقبل الزيادة، كما أنه لا يقبل النقصان، سواء عصىٰ الخلق أمره أو أطاعوه بإرادته، فهما عنده سواء، وإنما النفع بالطاعات والضرر بالمعاصي راجع إلىٰ الخلق، والله غني عن العالمين، اللهم إلا أن يَغِير علىٰ نقص الطاعات من حيثُ إن ثوابها يرجع مثله إلىٰ رسول الله ﷺ، لكونه هو المشرِّع لها فلا حرج، لأن كماله ﷺ يقبل الزيادة، بخلاف الحقِّ جلَّ وعلا.

وبالجملة فيحتاج الفقير أن يكون له عدة أعين، فعين ينظر بها إلىٰ انتهاك حرمة الحقِّ جلَّ وعلا في عيون المحجوبين بتعدي حدوده والإدبار والغفلة عن طاعته، فيجب عليه الإنكار؛ وعين ينظر بها إلىٰ كمال الحقِّ تعالىٰ علىٰ الدوام، سواء أطاعه عباده أم عصوه، فيخفف في الإنكار؛ وعين ينظر بها إلىٰ أن الله هو الخالق لأفعال العباد خيرها وشرِّها، وأنه لا مدخل لهم في إيجاد الفعل إلا نسبة التكليف والكسب إليهم فقط، فيسكت علىٰ ذلك، لأنه حينئذٍ جَبْريٌّ محض، فهو فوق من يرىٰ الفعل لنفسه ويقف مع ذلك، ودون من يرىٰ الفعل لله مع شركة العبد له في صورة الفعل في الظاهر، لأن للحقِّ تعالىٰ الفعل بلا آلة والفعل بآلة، وهو الفاعل حقيقةً في الصورتَين لمن كشف الله تعالىٰ عنه الحجاب، كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك في كتاب «المنن الكبرىٰ».

فاعلم ذلك، واتبع ما ورد، فقد ورد «أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باقٍ إلىٰ يوم القيامة»[1] وورد: «إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهوىً متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع عنك أمر العامة»[2]. وإياك والمبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ من هو أعلم منك بالشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٧٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي هجر مريدَه لما ترك مجلس الذكر معه، وجلس يطالع في علم، فلاثوا به الفقهاء وقالوا: لا ينبغي الهجر إلا في ارتكاب شيء من المنهيات، وأما الاشتغال بالعلم فهو محمود شرعًا، فكيف يهجره عليه؟! بأن هذا الشيخ لم يهجره من حيثُ اشتغالُه بالعلم إلا لما يعلمه بالكشف أو بالقرائن من[3] فساد نية ذلك المريد في الاشتغال به، من حيثُ إنه أمين علىٰ الأعمال التي ترقيه والتي تردُّه إلىٰ أسفل، فما أمره بأمر مفضول ونهاه عن الأفضل إلا لما في ذلك الأفضل من الآفات، ولو أنه أتىٰ بالأفضل خالصًا مخلصًا لم يتغير عليه.

وسمعتُ سيدي عليًّا المرصفي رحمه الله يقول: لا ينبغي لمريد أن يترك مجلس الذكر مع الفقراء ويشتغل بصلاة النافلة، وإن كانت الصلاة خير موضوع كما ورد، لأن اشتغال المريد حال الذكر بغير ما فيه إخوانه، تشتت قلوب الضعفاء، وربما قالت لهم نفوسهم: قوموا فصلوا أفضل لكم؛ فيكسر قلب الذاكرين، وربما تراسلوا في الوضوء وصلاة النافلة، فأضعفوا قلوب الباقين في المجلس، وفاتهم جلاء القلب الذي أراده الشيخ لهم بالذكر. ثم لا يخفىٰ أن مجلس الذكر محاربة للشيطان وجهاد له، فكما حرَّم الشرع الانصراف من الصف علىٰ المجاهد إلا متحرِّفًا لقتال أو متحيزًا إلىٰ فئة يقاتل

---

(١) أخرج البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٥١٣) عن عبد الرحمن بن العلاء الحضرمي، قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول: «إنه سيكون في آخر هذه الأمة قوم لهم مثل أجر أولهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقاتلون أهل الفتن»، وأحمد مختصرًا (١٦٥٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤) وابن حبان (٣٨٥).

(٣) بالأصلين: بين. والصواب ما أثبتناه.

معها، فكذلك حكم الانصراف من مجلس الذكر. انتهىٰ. فاحمل الأشياخ يا أخي علىٰ المحامل الموافقة للشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٠) ومما أجبتُ به عن شيخ الزاوية إذا أخرج من الزاوية من لاث الفقراء بعرضه وصدَّقوا فيه كلَّ فاحشة ببادئ الرأي، ولاث به طلبة العلم وقالوا له: هذا خلاف الشرع إنما يخرج من ثبت في حقِّه الفاحشة، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ الشيخ في إخراجه من لاث الناس بعرضه، لأنه ربما كان إخراجه من جهة تساهله في حفظ ظاهره، حتىٰ صار الناس يصدِّقون فيه الفاحشة ويقولون: وجهه وجه شيطان! ولو أنه كان حفظ ظاهره لرد الناس عنه وتعصبوا علىٰ خصمه وقالوا: تكذب علىٰ فلان هذا! ما هو وجه شيء من هذا!

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تبادر إلىٰ الإنكار علىٰ شيخ حتىٰ تجتمع به وتسأله عن مراده، وعن العلة في إخراجه، لا عن حقيقة الفعل[1]، فقد ورد: «لا تسأل الرجل فيمَ ضرب زوجته»[2]، انتهىٰ. والمريد حكمه في ذلك كالزوجة من حيثُ إنه ربما تعاطىٰ ذنبًا لا ينبغي إفشاؤه لآحاد العامة، لكونهم لا يعدونه ذنبًا أو لغير ذلك، فإن حال الفقراء لا ينبغي أن يطلع عليه إلا من هو منهم أو يعتقد فيهم، وقد قالوا: ذكر الكلام لغير أهله عورة يجب سترها. انتهىٰ.

فاعلم ذلك يا أخي، وسلِّم لشيخ الزاوية ما يفعله مع مريده، وربما كان ذنب أحدهم قبيحًا لا ينبغي النطق به، فجعل له الشيخ ذنبًا أخف منه وأظهر هجره وتأديبه عليه، صيانةً لخرقة الفقراء، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يُدخِل الناسَ الأجانب علىٰ عياله، ويجلس هو وإياهم عندها، أو ربما قام لحاجة وترك أحدهم عندها، فلاث به العقلاء وقالوا: هذا استحسال علىٰ العيال، بأنه ربما كان سالمًا من الآفات، فقاس عياله وأصحابه علىٰ نفسه،

---

(١) بالأصلين: الدين.

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٤٧) من حديث عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ قال: لا يسأل الرجل فيما ضرب امرأته» وابن ماجة (١٩٨٦)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٧٣٤٢)، وأحمد (١٢٢).

فمثل هذا لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار والتشنيع عليه حتىٰ تستفهمه عن حاله، فإن رأيناه حسن الظن بالناس لا يعتقد فيهم سوءًا، قلنا له: قد ورد عن رسول ﷺ أو عن أصحابه: «الحزم سوء الظن»[١] وقوله أو قولهم أيضًا: «احترسوا من الناس بسوء الظن»[٢]، فامتثل أمر نبيك وأمر أصحابه ﷺ، فإنه أكمل في العاقبة من حسن ظنك في هذا الزمان. وقد تساهل في ذلك جماعة، فدخلوا علىٰ غفلة، فوجدوا صاحبهم مع عيالهم، فحصلت لهم فتنة عمياء، فإن سكتَ سكتَ علىٰ أمر عظيم، وإن تكلم وقع له حد القذف أو استحقه.

فاعلم ذلك يا أخي، وعامل إخوانك في هذا الزمان معاملة من يسيء بهم الظنَّ، مع عدم سوء الظن، ولا تقل: إن فلانًا قد صار شيخًا فلا يقع في فاحشة، فإن ذلك تهور، سواء كان شيخ طريق أو شيخًا من حيثُ شيبُه، فإن في الحديث: «إن الله يبغض الشيخ الزاني»[٣]، فلولا أن له وجودًا في الناس لما قال ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٢) ومما أجبتُ به عن الفقير أو طالب العلم إذا أشاع عنه العامة أنه يولف[٤] النساء والشباب، ولاث به من لا يعرفه، بأنه لا يلزم من تأليفهم أن يكون ذلك لغرض فاسد، فقد يكون تأليفه لهم إنما هو علىٰ الخير، إما ليقبح في عينهم الذنوب التي يخاف عليهم من الوقوع فيها في المستقبل، وإما ليرغبهم في التوبة، أو ليحفظهم من أخدان السوء، وكلُّ من ظنَّ به سوءًا فهو وصفه، كما مر تقريره في مقدمة الكتاب، فإن الكلام صفة المتكلم، إلا أن يكون ذلك لغرض شرعي من باب الاحتياط لا التحقق، فلا حرج علىٰ المتكلم ولا يكون من صفته، فافهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه. والمعنىٰ كما تقدَّم: عاملوهم معاملة من يسيء الظن من غير أن تسيئوا الظنَّ.

(٣) إشارة إلىٰ جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٥٦٨) من حديث أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم...»، والنسائي (٢٥٧٠) وابن حبان (٣٣٤٩)، وأحمد (٢١٣٥٥).

(٤) ولَّف بين الشَّيئين: ألَّف بينهما، وجمعهما في تناسق وانسجام.

وإذا قامت عندك القرائن فيمن لاث الناس بعرضه بأنهم صادقون، فحذِّر الأطفال منه، أو أخبر بذلك أولياءهم احتياطًا للفريقين من غير أن يلحق بهم السوء، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا صار يجس المريدين إذا ناموا وينظر من بشرته منتشرة من غيره، فلاث به بعض الناس وقالوا: هذا أمر لا يجوز، لأنه من باب التجسس الذي نهىٰ الشرع عنه، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما أنه ما فعل ذلك إلا خوفًا من مفسدة هي أشد من مفسدة جس أولئك النائمين الذين يغلب عليهم الخيانة لعهده، فدفع أشد المفسدتين بأخفهما، وصار يعرف من يخون عهده بكثرة الأكل الزائد علىٰ المشروع وينكر ذلك، فلو أن المريد قال للشيخ: أنا لا أشبع إذا أكلت؛ قال له الشيخ: لو كنتَ صادقًا ما انتشرت لك جارحة، بل كنت تمكث الشهر وأكثر لا تنتشر لك جارحة في ليل ولا نهار مما كان عليه المريدون الصادقون. وهناك يقيم الشيخ علىٰ هذا المريد الأدب، فرجع تجسس الشيخ إلىٰ مصلحة ترجع إلىٰ المريد، وما حرِّم التجسس إلا فيما فيه ضرر يرجع علىٰ العبد، **فحكم الشيخ حكم من يريد أن يداوي طفلًا ينكر مرضه**، وهذا لا منع منه، فافهم، واحمل الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٤) ومما أجبتُ به عن العالم أو الشيخ إذا جاءه مسكين له مركب أيام سخرة السلطان، وطلب منه أن يشفع فيه عند القبطان مثلًا، فلم يجبه إلىٰ ذلك وقالوا: مثل الشيخ لو يشفع في هذا المسكين لقبلوا شفاعته، ولكن الفقير ما أحد ينظر إليه! بأن هذا الشيخ ربما علم بالقرائن أنه متىٰ شفع في هذا مسكوا مركب من هو أحوج منه وأشدُّ فقرًا وعيالًا، فكأنه يقول: أطلقوا هذا وأمسكوا هذا، كما يفعله أعوانهم، فكان تركه الشفاعة أخلص لذمته، وأكثر أدبًا مع مولانا السلطان، فإن من أدب كلِّ فقير أن يقدم حاجة مولانا السلطان علىٰ حاجة نفسه، لكون السلطان لا يُسخِر إلا في المصالح العامة، كحمل زاد المجاهدين وأمتعتهم ودوابهم ونحو ذلك.

وقد قالوا: شرط وجوب الشفاعة أو استحبابها أن ترتفع الظلامة أصلًا. وأما إذا شفع في الإفراج عن واحد، فأفرجوا عنه ومسكوا آخر. فكأنه لم يشفع شيئًا. إذ المسلمون كلُّهم أخوة للفقير، ليس لأحد منهم ترجيح في مثل ذلك إلا بشدة الفقر والمسكنة. فيحتاج الشافع إلىٰ خبرة بأحوال الناس، وذلك في غاية العسر، ولا يكاد يقف أحد علىٰ أمر يُعتمَد عليه فيه. فاعلم ذلك، واحمل الفقراء علىٰ المحامل الحسنة. والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٥) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يسلم علىٰ الملكين الكريمين الكاتبين عند الصبح وعند العصر، ويواظب علىٰ ذلك، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا شيء لم يُنقَل **عن رسول الله ﷺ وتركه أولىٰ.** بأنه لا ينبغي اللوث بالشيخ الذي يسلم علىٰ الملكين، بل هو مطلوب، لأنه يجدد علىٰ العبد الإيمان بحضور الملكين عنده ليلًا ونهارًا، حتىٰ يتحفظ فلا يقع في معصية، وكذلك في عبادته، فيؤديها علىٰ وصف الكمال النسبي من حضور وخشوع وطمأنينة وغير ذلك، لئلا يستعجل الملكين في الأمور المهملات، فإنهم رسل الله تعالىٰ إليه.

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يحصل له رعدة شديدة عند صلاة الصبح والعصر زيادةً علىٰ بقية الصلوات، ويقول: من أدب الفقير إذا جاءه رسول السلطان أن يعظمَه ويكرمَه ويرعدَ من هيبته، لا سيما ملك الشمال، فإن حكمه حكم جلبي الوالي الذي أرسله يأخذ المجرم إلىٰ العقوبة أو يحرر سببها، ومن له عقل خاف.

فعُلِمَ أن السلام علىٰ الملكين وإن لم يرد فالشريعة، تقبله ولا تأباه، وكم من بدعة حسنة أقرها العلماء، فاعلم ذلك والزم الأدب مع كلِّ من تأدب مع الله تعالىٰ أو مع رسله، وإن لم يرد في ذلك حكم بخصوصه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٦) ومما أجبتُ به عن الشيخ إذا جاءه شخص من أكابر العلماء وشكا له من قلة حياء تلميذ ذلك الشيخ أو ولده مثلًا، فلم يرد علىٰ العالم جوابًا، فخرج العالم وهو يلوث به ويقرض في عرضه ويقول: شكوتُ له تلميذه أو ولده، فلم يردَّ عليَّ جوابًا، كأنني ما أنا مسلم عنده! بأن ذلك الشيخ ربما تكدَّر من تلميذه أو ولده غيرةً علىٰ ذلك العالم أن

ينتهك أحدًا ممن يلوذ به حرمته، فسكت يتفكر فيما يفعله به من التأديب، ويخلِّص حظَّ الشرع من حظِّ العصبية حميةً جاهليةً، فإن دخيلة ذلك التلميذ أو الولد ما اشتدت إلا من شيء وقع له من ذلك العالم، إذ العقوبة تكون[1] علىٰ قدْر الذنب كبرًا وصغرًا، والعالم في العادة لا يُطاق في الخصام، لقوته علىٰ إقامة الحجج علىٰ خصمه، والاحتجاج علىٰ صحة فعل نفسه.

ثم لو تأمل هذا العالم في غضبه علىٰ الشيخ الذي لم يجبه لرآه حمقًا، فإن جواب الخصم لا يكون إلا بعد سماع دعوىٰ خصمه الآخر، وخصم هذا العالم لم يكن حاضرًا، فكيف ينبغي للعالم اللوث بالشيخ لكونه لم يجبه في غيبة خصمه؟!

وقد كان سيدي عليٌّ المرصفيُّ رحمه الله إذا شكا أحد إليه من أحد يقول له: لا نسمع منك إلا إن رضيتَ بتصديقنا كلام خصمك في حقِّك كذلك؛ فإن قال: رضيتُ بذلك، قال له: قل، وإن لم يرض بذلك دفعه عنه.

فاعذر يا أخي الشيخ إذا سكتَ، فربما كان مشتغلًا بتخليص قلبه من العصبية مع ولده أو تلميذه، ليحكم لك بما تحب، فإن تخليص ذلك عسر عادة، واحمل العلماء والصالحين علىٰ المحامل الحسنة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٧) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تكون رقبته مرفوعة إذا كان وحده، فإذا حضر عنده أحد أطرق رأسه وحنىٰ، فلاث به بعض الحذَّاق وقال: هذا من علامة الرياء، ولو كان هذا من الصالحين لم يتغير عليه الحال بدخولٍ. وقد كان الفضيل بن العياض يقول: لو قيل لي: إن أمير المؤمنين داخل عليك الساعة؛ فسويتُ لحيتي بيدي لدخوله، لخفتُ أن أُكتَب في جريدة المنافقين. انتهىٰ كلام المعترض.

والجواب عن هذا الشيخ: أنه ربما كان شأنه أن يتذكر بدخول الخلق عليه شيئًا من عظمة الله عزَّ وجلَّ، فيطرق لذلك، كما ورد في مسند البزار مرفوعًا: «استحِ من الله كما

(١) في «أ»: تغمر، وفي «ب»: تعظم.

تستحيي من رجلين من صالحي قومك»[1]، انتهىٰ. فقد جعل ﷺ هذين الرجلين مرتبة يترقي الإنسان منها إلىٰ مقام الحياء من الله تعالىٰ، فالشيخ عما ظنه هذا المعترض بمعزل.

وقد سمعتُ سيدي عليًا البحيريَّ[2] المدفون بقبة الشيخ محمد المُنيِّر خارج الخانكاه ﷺ يقول: كلما قرب العبد من حضرة ربه، كانت رقبته أشد انحناء، كما أن من كان صدره قائمًا فهو علامة علىٰ شدة بعده عن حضرة ربِّه. فإذا رأيتَ يا أخي فقيرًا مكسور الرقبة، فاحمله علىٰ كونه قريبًا من حضرة الله عزَّ وجلَّ، وإياك وحمله علىٰ الرياء تحشر مع الخاسرين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يأمر أصحابه بالكسب الشرعي بالبيع والشراء وعمل الصنائع، ليوفوا منه دَينهم ويقول: ما أخذتموه من صدقات الناس التي أعطوها لكم لا يكفي مثلكم في وفاء دَينه؛ فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا أمر لم تأمر به الشريعة، وجميع ما أخذه الفقير من الصدقات والزكوات، وأوفىٰ به دَينه يحصل به الوفاء شرعًا، بأن هذا الشيخ لا يجهل مثل كلام هذا المعترض، ولكن أراد لمريده الكمال والأخذ بالعزائم، وإعلامًا له بثقل الدَّين، وأن من كمال الوفاء أن يكون المال الذي يوفي منه دينه علىٰ صورة كسب الدائن له، ليخرج من عهدته في الآخرة من جهة الحلِّ والتعب في تحصيله، فليس تعب البردار[3] الذي يتكلم كلَّ كلمة بدينار عند الحكام، كتعب الصنايعي[4] الذي يعمل طول نهاره بثلاثة أنصاف مثلاً.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيدي علي البحيري ، كان علىٰ قدم السلف الصالح في العلم والزهد والورع والبكاء والخوف من مواقف القيامة، قال الشعراني: صحبته عشرين سنة، وكان جامعًا بين الحقيقة والشريعة، وكان أكثر أوقاته في الريف، يدور البلاد فيعلم الناس الدين، ويرشدهم إلىٰ طريق التقوىٰ، مات في شوال سنة ٩٥٣ هـ. «الطبقات الكبرىٰ» للشعراني (٢/ ٧٩٣).

(٣) البردار: هو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة، متحدثًا علىٰ أعوانه والمتصرفين فيه.

(٤) أي صاحب الصنعة، كالنجَّار والخيَّاط ونحوهما.

وقد بلغنا أن زبيدة ابنة القاسم[1] رآها الفضيل بن عياض ﷺ بعد موتها وكانت كثيرة الصدقة، فقال لها: ما فعل الله تعالىٰ في تلك الصدقات التي كنت تتصدقين بها؟ فقالت: أخذ أجرها أربابها، وأعطوني ثواب النية الصالحة لا غير. انتهىٰ. فاعلم ذلك، واحمل كلام الأشياخ علىٰ المحامل الحسنة، لأنهم يأخذون دائمًا نفوسهم بالعزائم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٨٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي تعدَّىٰ الحدودَ في مجازاة من أنكر عليه، وحدفه[2] خلف جبل قاف[3] مثلًا، ولاث الفقراء به ورموه بالفسق عند العارفين، وقالوا: من شرط الوليِّ التخلق بالرحمة علىٰ الجاهلين، وقد عاتب الله تعالىٰ نبَّيه ﷺ لما دعا علىٰ قومه وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فلما كسروا ثنيته وسال الدم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان تلك المجازاة بإذن من ربه عزَّ وجلَّ بأمارة تكون بينه وبين الله، تأديبًا لذلك الجاني علىٰ أولياء الله ومصلحةً له وللوجود.

وتأمل يا أخي ولد اللَّبُؤة[4] في حجرها هل يستطيع أحد أن يأخذه من بين يديها ويؤذيه؟! فكذلك الأولياء هم في كفالة تربية الحقِّ جلَّ وعلا وفي حمايته، فمن آذاهم فقد آذىٰ الله، فربما كانت غيرة ذلك الوليِّ وتأديبه لذلك المنكِر إنما هو لله تعالىٰ لا لحظٍّ

---

(١) كذا بالأصلين. والصواب أنها زبيدةُ بنت جعفر بن المنصور، زوج أمير المؤمنين الرشيد. واسمها أمة العزيز. أما «زُبَيدة» فهو لقبها، لقبها به جدها أبو جعفر المنصور لبياضها. كانت كثيرة الصدقة، وخدمة اليت الحرام والحجيج. توفيت سنة (٢١٦هـ).

(٢) حدفه: أي رمىٰ به.

(٣) يرد ذكر جبل «قاف» كثيرًا في كلام الأولياء، ويصفونه بأنه جبل عظيم طوق الله به الأرض، وطوَّق هذا الجبل بحية عظيمة قد جمع الله رأسها إلىٰ ذنبها بعد استدارتها بهذا الجبل. ولا يصل إليه إلا الوليُّ المتمكن. ويرىٰ الأستاذ سعيد النورسي أن جبل «قاف» الذي يتكلم عنه الأولياء هو من عالم المثال، وصورته في عالم الشهادة «جبال الهيمالايا» ، فهي «بذرة «قاف» ذي عجائب موجود في عالم المثال». انظر: «الفتوحات المكية» (٣/ ١٣٠)، سعيد النورسي «صيقل الإسلام» (٩٦).

(٤) اللَّبُؤة: أنثىٰ الأسد.

نفسه، فإن من شرط الولي أن يرضىٰ بضرب السيف في وجهه ولا يرىٰ أحدًا تعرض بالسوء لمن هو في كفالة الله عزَّ وجلَّ. وقد كان الحجاج مع شدة ظلمه وسفكه الدماء لا يقتل أحدًا صلَّىٰ الصبح ذلك اليوم في جماعة، لما ورد: من أن «من صلَّىٰ الصبح في جماعة كان في ضمان الله عزَّ وجلَّ»[1].

وقد دخل جماعة من علماء مصر علىٰ سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه ممتحنين له، فقال للخادم: ادفعهم خلف جبل «ق» فدفعهم، فأقاموا هناك مدة سنة طعامهم الضفادع، ثم قال للنقيب: ردهم، فقد بلغت العقوبة حدَّها؛ فردهم حفاةً عراةً، قد ذابت ثيابهم وعمائمهم، فتابوا إلىٰ الله تعالىٰ، ثم أخذوا عنه الطريق. وكذلك وقع لسيدي إبراهيم الجعبري وسيدي إبراهيم المتبولي وغيرهم، وهو كلُّه محمول علىٰ أن ذلك غيرةً لله تعالىٰ لا لحظِّ نفوسهم، إذ لو كانوا في حظِّ نفوسهم ما قدَر أحدُهم علىٰ دفع أحد إلىٰ جبل «ق» ولا غيره، فاعلم ذلك والزم الأدب مع الأولياء، فهم أرحم منك بالخلق، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٠) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: أنا أعلم من جميع علماء مصر، ولا أعلم فيهم أحدًا يساويني في العلم، بل ولا في الشام والحجاز والروم والعجَم، والهند والسند، والغرب وغير ذلك، فلاث الناس به وقالوا: هذا مجنون أو كاذب! فإن الله تعالىٰ بث العلم في هياكل الخلق في سائر أقطار الأرض، فعند كلِّ إنسان من العلم ما ليس عند غيره، ومن هنا أُمِرَ ﷺ بالمشاورة لأصحابه قبل أن يعطيه الله تعالىٰ علم الأولين والآخرين. وقد ادعىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام أنه أعلم خلق الله تعالىٰ، فقال له الحقُّ جلَّ وعلا: بل عبدنا الخضر أعلم منك. وكذلك وقع للحسن البصري أنه ادَّعىٰ العلم، فعجَّزه الله تعالىٰ بأن سأله شاب عن البعوضة هل لها كرش أو مصران؟ فما درىٰ الحسن ما يقول، وأطالوا في الاستدلال.

والجواب عن هذا الشيخ: أنه لم يقل إنه أعلم خلق الله تعالىٰ في سائر العلوم، وإنما

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٦٥٧) من حديث جندب القسري يقول: «قال رسول الله ﷺ: «من صلىٰ صلاة الصبح فهو في ذمة الله...» والترمذي (٢٢٢) بنحوه.

أطلق اللفظ وقصده شيء معين في نفسه، ككونه أعلم بما تحت ثيابه من عورته، أو أعلم بأمتعة داره، أو بعدد ماله ونحو ذلك، فهو عما فهمه الناس عنه بمعزل. وقد مدح الله تعالىٰ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

وقد يريد أنه أعلم بنوع خاص من العلم، ككونه أعلم أهل مصر مثلًا بالجمع بين الآيات والأخبار ومذاهب المجتهدين وغيرهم، فإن مثل ذلك مرتبة من مراتب الولاية قلَّ أن يُعطاها من ليس له قدم في الولاية، فإن سمع آيات الصفات التي فيها التنزيه والتشبيه حملها علىٰ حالين، وردَّ التنزيه لمرتبة علم الله تعالىٰ بنفسه أو علم أنبيائه وأوليائه به، وردَّ التشبيه لمرتبة علم آحاد المؤمنين بربهم، ولذلك يجب عليهم صرفُ كلِّ ما خطر ببالهم علىٰ الفور.

وإن سمع أحاديث الشريعة وآثارها وأقوال المجتهدين ومقلديهم، ردَّها إلىٰ حالَيْن تخفيف وتشديد، ولكلٍّ منهما رجال في حال مباشرتهم للتكاليف، فمن قوي منهم خوطب بالعزيمة، ومن ضعف منهم خوطب بالرخصة، سواء أكان ذلك في مذهب واحد أو مذاهب مختلفة، فلا يخرج عن المرتبتين، فلا يؤمر الضعيف بالصعود لمرتبة العزيمة، ولا يؤمر القوي بالنزول لمرتبة الرخصة بغير شرطها، فكما أن القوي علىٰ هدًىٰ من ربه في مرتبته، كذلك الضعيف علىٰ هدًىٰ من ربه في رخصته، كما أوضحنا ذلك في كتاب «الميزان الخضرية» فراجعها.

وهذا علم لا تكاد تجده مع أحد من علماء الزمان، وإن شككتَ في قولي، فأسألهم تعرف صدقي يقينًا، فليس في الشريعة تناقض كما يظنه بعضهم، لأن مقام الشارع وأكابر العلماء يجلُّ عن التناقض، وقد قال تعالىٰ: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]. وكان ﷺ يكلم كلَّ إنسان بما يناسب مقام ذلك الإنسان في العلو والانخفاض، لكونه رحمةً للعالمين، وربما سأله إنسان عن أفضل الأعمال، فأجابه بأمر، ثم سأله آخر عن ذلك، فأجابه بأمر آخر، فإن سأله من يتهاون بالصلاة أول وقتها عن أفضل الأعمال، قال

له: «الصلاة على أول وقتها»(١) أو من يتهاون بالجهاد، قال له: «الجهاد في سبيل الله»(٢)، أو من لا يبر والديه، قال له: «بر الوالدين»(٣) أو من لا يحتمل الأذى؟ قال له: «احتمال الأذى»(٤) أو من لا يهتم بأمر المسلمين، قال له: «إغاثة اللهفان»(٥) وهكذا فكان يكلم كلَّ إنسان بما يراه ناقصًا فيه.

وكذلك القول في المعاصي، فكان ﷺ يقبِّحها في عيون الناس بحسب علمه بتساهلهم فيها، فقال: «أكبر الكبائر بعد الشرك بالله قتلُ النفس» وقال لآخر: «عقوق الوالدين»، وقال لآخر: «اليمين الفاجرة» وقال لآخر: «قطيعة الرحم» وقال لآخر: «الزنا بحليلة جاره»، وقد جمعها كلَّها في حديث الشيخين لسائل واحد، فبين له مراتب المعاصي، ليعطيها مرتبتها في الندم تخفيفًا وتشديدًا(٦). وتأمل قوله ﷺ لمن قال له: «أوصني؟ فقال

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه البخاري(٥٢٧) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين. قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني» ومسلم (٨٥) وغيرهما.

(٢) تقدم تخريجه وهو الحديث السابق.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) لم أقف على حديث بهذا اللفظ، لكن احتمال الأذى وردت فيه أحاديث كثيرة، منها ما جاء في صحيح مسلم (٢٥٥٨) عن أبي هريرة، أن رجلا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

(٥) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أبو يعلى الموصلي (٤٢٩٦) من حديث أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله، والله يحب إغاثة اللهفان» وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (٢٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٥١).

(٦) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه (٥٩٧٦) من حديث أبي بكرة عن أبيه ﷺ قال:«قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور. فما زال يقولها، حتى قلت: لا يسكت» ومسلم (٨٧).

له: لا تغضب، فردد مرارًا فقال له: لا تغضب»[1] لكونه رآه كثير الغضب، كما أوضحنا الكلام على ذلك في كتاب «العهود المحمدية»، فاعلم ذلك، وسلِّم للأشياخ ما يدعونه من العلم تسلم، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩١) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول: العارفون لا يموتون وإنما ينقلون من دار إلىٰ دار، فلاث به بعض طلبة العلم وقال: إطلاق ذلك لا يجوز، فإن الله تعالىٰ قد كتب الموت علىٰ جميع بني آدم من المرسلين فمن دونهم، بأنه لا ينبغي المبادرة إلىٰ الإنكار علىٰ هذا الشيخ، لأن مراده أن العارف يموت في الدنيا عن تصرفاته النفسانية دون الشرعية، فلا يصير له مراد فيها، فيكون حيًّا في مرضاة الله، ميتًا في مرضاة نفسه. وقد أشار إلىٰ ذلك قوله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلىٰ ميت يمشي علىٰ وجه الأرض، فلينظر إلىٰ أبي بكر الصديق ﷺ»[2]. انتهىٰ. ولذلك أُعطِي مقام الخِلَّة لرسول الله ﷺ، كما أعطي إبراهيم الخِلَّة الكبرىٰ من حيثُ غلبةُ التسليم علىٰ قلبه، وصبرُه تحت مجاري الأقدار. وصاحبُ هذا الحال لا يكون له علاقة دنيوية يتغير لأجل مفارقتها أو يلتفت إليها، فكأنه ينتقل من دار إلىٰ دار، بخلاف من له علاقة في الدنيا من مساكن وبساتين وأموال ووظائف، فإنه يموت ويحصل له الشدَّة في طلوع روحه.

فإن قال قائل: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء يُشدَّد عليهم طلوع الروح كما ورد، مع أنهم لا علاقة لهم في الدنيا؛ **فالجواب:** أن شدَّة طلوع روح الأنبياء والأولياء إنما يكون من حيثُ شفقتُهم علىٰ قومهم الذين لم يبلغوا مقامات الكمال التي كانوا يطلبونها لهم، فكلُّ نبي ووليٍّ يود الحياة ليرقِّي قومه إلىٰ مقامات الكمال والأدب مع الله تعالىٰ مصلحةً لهم، وتعظيمًا لجناب الله عزَّ وجلَّ، فشابهوا أهل الدنيا في اسم العلاقة، وفارقوهم في المقصد، فافهم، وسلِّم للأولياء دعاويهم، فإن مثلهم يبعد عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦) والترمذي (٢٠٢٠).

(٢) لم أقف عليه، وقد ذكره ابن الملك في شرح المصابيح (٥٤٠١)، ولعل الشيخ يشير إلىٰ خروج سيدنا أبي بكر ﷺ من ماله لله ورسوله، وكذلك الميت حين موته يخرج عن ماله، ويذهب للورثة.

الكذب، لخروجهم عن أهوية النفوس الدنيوية، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٢) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو شيخ الطريق الذي يقول: أعطاني الله تعالىٰ [من] العلوم والمعارف ما لم يعطه لأحد من أهل عصري؛ فلاث به الناس وقالوا: هذه دعوىٰ عريضة أو كذب، بأنه قد يريد بذلك أن ما أعطاه الله تعالىٰ له ليس هو عين ما أعطاه لعبد آخر، وإنما هو مثاله لا مِثْله- بكسر الميم وسكون المثلثة- لأنه لابد فيه من زيادة أو نقص ولو بحرف واحد. وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذليُّ يقول: والله لقد أتيتُ في هذه الطريق بما لم يأتِ به أحد من المتقدمين. انتهىٰ. فيُحمَل علىٰ أن ما أتىٰ به ليس هو عين ما أتىٰ به غيره، وإنما يشابهه في الاسم فقط دون الحقيقة والكنه.

فإياك يا أخي والمبادرة [إلىٰ الإنكار][1]، لا سيما علىٰ أقرانك الذين رفعهم الله تعالىٰ عليك، فإن مواهب الله تعالىٰ لا تختص بمن يطلبها باستعداد، بل قد تأتي بغتة. وقد كان أبو الحسن الشاذلي يأتي بالعلوم الغريبة ثم يضيفها لغيره، فيقبلها الناس ويكتبونها دون ما يضيفه إلىٰ نفسه، فيقول: إن هي إلا إسرائيلية! كذَّبوا بمحمد ﷺ حين رأوه حسدًا وعدوانًا، وصدَّقوا بموسىٰ حين لم يروه. انتهىٰ. فاعلم ذلك، وسلِّم للشيخ الذي يدعي، تسلم من تبعته، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٣) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي لا يشفع عند الحكَّام إلا فيمن يحبُّه دون من يكرهه، أو من لا يحبه ولا يكرهه، فلاث به الفقهاء وقالوا: الشفاعة مطلوبة من كلِّ قادرٍ عليها في حقِّ من يكره الشافع ومن يحبه، بل هي فيمن يكرهه أفضل وأعظم أجرًا، بأن هذا الشيخ ربما جرَّب فوجد الشفاعة فيمن يكرهه لا تُقبَل، لعدم اعتقاده في الشافع، فكأنه يرده بقوله له: حسِّن اعتقادك فيَّ، لأشفع لك، وتُقبَل شفاعتي فيك، بخلاف المحب، فإنه من شدَّة اعتقاده يظن أن ذلك الأمير لا يردُّ لذلك الشيخ شفاعة، فيحقق الله ظنَّه، ويخيب ذلك العدو، كما يخيب من لا اعتقاد له ولا إنكار عقوبةً لهما.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

وسمعتُ سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول: المدار في قبول الشفاعة وسرعة قضاء الحاجة على صحة اعتقاد صاحب الحاجة، وصدق توجهه إلى ذلك الشيخ الذي يشفع له، لا على الشيخ. قال: ومن علامة صحة اعتقاده فيه أن تصير كلُّ شعرة في بدن صاحب الحاجة تعتقد أن ذلك الأمير لا يرد شفاعة ذلك الشيخ أبدًا، ومتى تردد في كونه يقبله أو يرده، فليس هو بصادق، فلا يستحق قبول الشفاعة فيه، ولو بالغ ذلك الشيخ في التوجه في قضائها. ومن هنا قالوا: تحويل الجبل بتوجه الفقير أهونُ عليه من تحويل قلب أمير. انتهى.

وسمعتُ سيدي عليًا المرصفي رحمه الله يقول: إياكم أن تظنُّوا في فقير أنه يحب نسبة قبول الشفاعة إليه دون أحد من أقرانه، فإن ذلك ظنٌّ كاذب، إذ الفقير الصادق يحبُّ قضاء حوائج الناس وإدخال السرور عليهم مطلقًا، لأنه دائر مع حصول[1] الخير للمسلمين، سواء أكان ذلك على يده أو غير يده، ومتى أحب أن تكون قضاء الحاجة على يديه فقط، فقد خرج عن الصدق وهو في حظ نفسه. انتهى.

فاعلم ذلك، واحمل كلام الشيخ[2] الذي لم يشفع فيمن ينكر عليه على العجز عن تحويل قلب الأمير إلى قبول الشفاعة في ذلك المذنِب مثلًا، ولا يجوز حمله على أنه قدر على ذلك ثم تركه لحظِّ نفس.

وقد اختبرتُ أنا هذا الباب أشدَّ اختبار، ووجدتُ المعوَّل على صدق المتوجِه إليَّ لا على[3] توجهي أنا، وربما أتاني أعزُّ المعتقدين فيَّ يريد مني أن أشفع فيه، ويريد الله تعالى عدم قضائها على يدي، فيفرغ الله تعالى اعتقادي من باطنه، فلا أقدِر على قضاء حاجته. وربما أتى الغريب الذي ليس بيني وبينه صداقة، فيرزقه الله تعالى صحة الاعتقاد، فيقضي حاجته في الحال. وربما كانت الحاجة صعبة جدًّا، كغضب الأمير على من سرق متاعه ونقب داره، ويريد مني المجرم تطييب خاطر الأمير عليه، فأقول

---

(١) بالأصلين: حضور. والصواب ما أثبتناه.

(٢) بالأصلين: المشايخ. والصواب ما أثبتناه.

(٣) بالأصلين: إلى. والصواب ما أثبتناه.

له: لا أقدر أمشي لك في هذه الحاجة إلا إن وضعتني في كفة، وجميع أهل مصر في كفة، ورجحتني عليهم؛ فيدعي ترجيحي فلا أصدِّقه، فلا أزال أردد عليه القول حتىٰ يتبين لي صدقه فأمشي له، فيحوِّل الله تعالىٰ قلب ذلك الأمير إلىٰ العفو عنه.

واعلم يا أخي أنه لا فرق بيني وبين غيري في ذلك، بل كلُّ من حصل عنده ترجيح له، سهَّل الله تعالىٰ قضاء حاجته علىٰ يديه. ومما يخفىٰ علىٰ كثير من الناس أن أحدهم يأخذ مع كتاب الفقير كتابًا آخر من أكابر العلماء إلىٰ الأغنياء أو الأمراء، فلا تُقضَىٰ له حاجة للشركة في التوجه، فلذلك كنتُ أقول له: إن أردتَ قضاء حاجتك، فلا تأخذ مع كتابي كتاب أحد. فإن كان معتقدًا في أصحاب تلك الكتب كلِّهم قلتُ له: استخر ربَّك يرجِّح لك أحدًا منهم، واقتصر علىٰ كتابه، فإن الشركة في مثل ذلك توقف قضاء الحاجة، بخلاف الشركة في الأمور الظاهرة، فإنها تسرع بقضاء الحاجة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٤) ومما أجبتُ به عن الأمير الذي يرد شفاعة العلماء والصالحين ولا يقرأ لهم كتابًا ويقول: أما هؤلاء الذين يسمون نفوسهم علماء، فإنما هم عبيد الدنيا. وأما الذين يدعون المشيخة فكذَّابون نصَّابون، يريدون بقبولنا شفاعتهم رواج أمرهم عند العامة بأخذ الهدايا، أو الصيت بالصلاح، لا تفريج كرب المكروبين، إنما يطلبون أن يُقال: قد شفع الشيخ الفلاني عند الأمير الفلاني، فما جعلهم مشايخ عند الناس إلا قبولنا شفاعتهم! ولاث الناس بذلك الأمير وقالوا: إنه ظالمٌ كلبٌ لا يعتقد في الصالحين، بأنه ما قال ذلك في حقِّ العلماء والصالحين إلا لجهله بمقامهم، وعدم دخوله دائرتهم، وعدم معرفته بالأمور التي تميز الصادق من الكاذب، فمثل هذا لا ينبغي الإنكار عليه، لأنه لا يعرف مقام العلماء ولا الصلحاء.

وقد سمعتُ سيدي عليًّا المرصفي ﵀ يقول: من أدب الأمير مع الفقير أن يقوم لكتابه إذا ورد عليه، ثم يقبله ويضعه علىٰ عينيه، كما يفعل بمكاتبات السلطان إذا وردت عليه.

وقد روىٰ وهب بن مُنبِّه أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما ورد عليه كتاب والده بمصر، قام له وقبَّله ووضعه علىٰ عينيه، ثم قال: أتدرون لم فعلتُ ذلك؟ قالوا: لا. قال:

لأنه من سنة الملوك مع الصالحين، وبذلك يدوم ملكهم. انتهىٰ.

فينبغي لنا إعلام الأمير الذي يزدري الفقراء بذلك، وكذلك ينبغي لنا أن نعلمه أن من مقام الفقراء أن الله تعالىٰ يسلِّم ذلك الأمير الذي سلَّموا عليه في كتابهم من سائر الآفات في الدنيا والآخرة، وإن كان ذلك الأمير مرتكبًا شيئًا من المعاصي، تاب الله تعالىٰ عليه وسامحه في جميع التبعات التي عليه في الآخرة، فمن ردَّ كتاب الفقير فكأنه يردُّ عليه ذلك، فلا يسلم من الآفات، ولا يسامحه الله بالتبعات.

وقد ذكر صاحب كتاب «الدلالة علىٰ الله»[1] أن من عباد الله من يقبل الله تعالىٰ شفاعته في كل عاصٍ من المسلمين، ومنهم إذا مرَّ علىٰ جماعة يشربون الخمر، فسلَّم عليهم، أو مروا عليه فسلَّموا، فرد عليهم السلام، غفر الله تعالىٰ لهم تلك المعصية وما قبلها، انتصارًا لأوليائه، لئلا يخذلهم عند أعدائه.

قال: فينبغي لمن يصحب الأمراء أن ينبههم علىٰ هذا السرِّ العظيم، ليصير أحدهم يعظِّم كتاب الفقير إذا ورد عليه، من حيثُ إن سلام الفقير علىٰ الأمير كالبشارة له علىٰ أن الله تعالىٰ يسلِّمه من جميع الآفات.

وسمعتُ أخي أفضل الدين ﷺ يقول: ينبغي للفقير إذا كاتب أحدًا من الولاة أن لا يكتب له «سلام الله علىٰ فلان» حتىٰ يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في سلامته من سائر الآفات، ويرجو إجابة الحقِّ تعالىٰ له في ذلك، فإن لم يرجُ الإجابة، فهو كالكاذب علىٰ الله في أنه أعطاه الأمان من الآفات. انتهىٰ. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٥) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير أو الشيخ الذي صحب أميرًا وأكثر من مجالسته، وصار الأمير كلما أراد أن يتصدق بشيء علىٰ فقير يمنعه، وصار الناس يقولون: الشيخ الفلاني سيئة من السيئات عند الأمير. وربما أراد الفقير أن يدخل علىٰ الأمير يسأل شيئًا، فيقول له جماعة الأمير: اصبر حتىٰ يخرج فلان من عند الأمير لئلا يعارضك، بأنه لا ينبغي الإنكار علىٰ هذا الشيخ، فربما كان ذلك الطعام أو الدراهم من الحرام أو الشبهات، فمنع

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد البكري، المتوفي سنة (٣٨٠هـ).

الأمير من التصدق بها، لعدم قبول الحقِّ تعالىٰ ذلك منه. كما ورد مرفوعًا: «لا يكتسب عبد مالًا من حرام فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبله الله منه، ولا يتركه خلفه إلا كان زاده إلىٰ النار»[1] الحديث.

وربما كان ذلك السائل لا يليق به الأكل من الشبهات إما لعلو مقامه، وإما لعدم شدَّة حاجته إلىٰ ذلك، لاستغنائه عنه بغيره. وربما رأىٰ الشيخ أن تلك الدراهم التي يأخذها ذلك الفقير من الأمير تتلف قلبه ويدخل إبليس فيه، فمنع الأمير من ذلك خلاصًا له ولذلك الفقير.

وقد أجمع القوم علىٰ أن الدنيا ابنة إبليس، فمن أدخل محبتها قلبه لغير غرض شرعي فكأنه مكَّن إبليس من دخول قلبه والسكن فيه، فما وفىٰ أجرُ سدِّ خلة الفقير بفساد قلبه، حيثُ كان ذلك الطعام أو المال سببًا لدخول إبليس فيه، فينبغي لكلِّ من أعطىٰ فقيرًا مالًا أن لا يعطيه له حتىٰ يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في أنه لا يستعين به علىٰ معصية، ولا ينقص له به مقام، ولا يغفل به عن الله، ولا يدخل به إبليس قلبه، ويرجو الإجابة لدعائه، ثم بعد ذلك يعطيه. وكان هذا من شأن سيدي عليّ الخواص ﵁، ولا يقدر علىٰ المشي عليه إلا من صحت معاملته مع الله ومع خلقه، فاحتاط لهم كما يحتاط لنفسه، فاعلم ذلك، واحفظ لسانك وقلبك في حقِّ العلماء والصالحين، فإن لهم مدارك تدق علىٰ مثلك، وما يريدونه للفقير خيرٌ مما يريده الفقير لنفسه، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٦) أجبتُ به عن الشيخ الذي سأله إنسان في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ في تحصيل وظيفة أو تزويج امرأة جميلة أو دنيا عريضة ونحو ذلك، فقال للسائل: أنا دعائي لا يُقبَل، اذهب إلىٰ تلميذي فلان فاسأله، فإن دعاءه أقرب إلىٰ الإجابة من دعائي؛ فلاث به هذا السائل وقال: هذه طردة من الشيخ، ولو كنتُ من أبناء الدنيا لدعا لي وتوجه إلىٰ الله في قضاء

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه الحاكم (٢١٣٧) من حديث ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ: لا يغبطن جامع المال من غير حله - أو قال: من غير حقه - فإنه إن تصدق لم يُقبل منه، وما بقي كان زاده إلىٰ النار» وأحمد (٣٦٧٢) بنحوه، والطبراني في «الكبير» (١٠١١١) بنحوه.

حاجتي، بأنه قد يكون صادقًا في أن دعاء تلميذه أقرب إلى الإجابة من دعائه من حيثُ إن المريد قد قصر بصره على الدنيا وقضاء أوطارها، فهو يتوجه بكليته في تحصيلها محبةً في ذلك السائل، أو يرى التقرب إلى الله تعالى بذلك، ولا هكذا العارف بالله تعالى، فإنه إذا رأى أن عدم تحصيل تلك الوظيفة أو تلك المرأة الجميلة مثلًا أفضل لذلك السائل، يتوجه إلى الله تعالى في تعسيرها عليه، محبةً في ذلك السائل، وتقربًا إلى الله تعالى محبةً للخير لأخيه المسلم، عملًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠] ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وعملًا بقول عبد الله بن عمر ﵄: ما أُعطي أحد من الدنيا شيئًا إلا نقص ذلك من مقامه في الآخرة، وإن كان عند الله كريمًا. انتهى.

فقد علمتَ أن قوةَ التوجه إلى الله تعالى في تحصيل أمور الدنيا خاصٌ بالمحجوبين عن الآخرة، وقوةَ التوجه إلى الله في تحصيل شيء من أمور الآخرة خاصٌ بالعارفين، فمن سأل عارفًا تحصيل شيء من الدنيا المذمومة، فكأنه يسأله في التوجه إلى الله تعالى في تعسير ذلك عليه، إذ الخلق كالأطفال في حِجْر تربية الأولياء، فلا يرون لهم إلا ما كان أصلح لهم مما يعلي مقامهم في الآخرة.

وسمعتُ سيدي عليًّا الخواص ﵀ يقول: كلما بالغ العارف في التوجه إلى الله تعالى أن يعسِّر على ذلك المحبِّ أسبابَ دنياه، ويصبره على ذلك، [فهو][1] مقابلة الإحسان بالإحسان، ومتى توجه العارف لهذا المحبِّ في تحصيل الدنيا التي يخاف من اشتغاله بها عن ربه فقد أساء في حقِّه. وكثيرًا ما يزيد طالب الحاجة اعتقادًا في المريد ويقل اعتقاده في العارف، ويقول: جربناهما فوجدنا المريد أسرع في قضاء الحوائج من شيخه. فليحذر صاحب الحاجة من مثل هذا الظنِّ، فإنه جهل منه، وليصن وجوبًا [قلبه عن][2] ذلك، فإنه من الأشرار، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٧) ومما أجبتُ به عن العالم الكبير إذا نزل ببلده بلاء، فقال: لو كان في هذه

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

البلد أحد من الصوفية الصادقين، لسألوا الله تعالىٰ في رفع هذا البلاء. ولكن ما بقي أحد من المشايخ ليُستجَاب له دعاء؛ فلاث الفقراء بهذا العالم وقالوا: هذا علامة علىٰ عدم اعتقاده في الصالحين، بأنه لا ينبغي اللوث بهذا العالم. ولا يلزم من قوله هذا عدم اعتقاده في الصالحين، فقد يريد أن العلة في عدم إجابة دعاء الأولياء عدمُ استحقاق العامة رفع البلاء عنهم، لا عدم صدق الأولياء، وكلُّ وليّ يعرف من يستحق رفع البلاء عنه ومن لا يستحق، ولكن ربما أقسم الناس علىٰ ذلك الوليّ أن يتوجه إلىٰ الله تعالىٰ في رفع البلاء عنهم، فيتوجه إلىٰ الله في رفعه إبرارًا لقسمهم عليه بالله، ويسأل الله تعالىٰ لهم رفع البلاء من باب المنة والفضل، لا من باب الاستحقاق، فإن الخلق قد استحق غالبُهم الخسف به لولا عفو الله تعالىٰ! فكم زنا! وكم لواط! وكم شرب خمر! وكم تعاون في الناس عند الحكَّام! وكم أذىٰ لبعضهم بعضًا حتىٰ عزل كثير من الناس بعضهم بعضًا من وظيفته التي بها معاشه! وأخرجوه من وطنه الذي نشأ فيه! وكم! وكم! وكم! ولما علم الأولياء استحقاق الناس نزول البلايا والمحن، وأنه لا يمكن العامة التوبة من سائر المعاصي، سكتوا عن الدعاء وأخروا ذلك للدار الآخرة، لعلمهم بعجز أمثالهم عن التصدر لمثل ذلك حتىٰ يجدوا محلًا قابلًا لذلك.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه يقول: إذا دخل النصف الثاني من القرن العاشر، قبض الله [التصريف][1] من غالب الأولياء لموانع تقوم بهم وبالخلق ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]. انتهىٰ.

فعُلِمَ أن قول هذا العالم: «ما بقي أحدٌ من مشايخ هذا الزمان يُستجَاب له دعاء» صحيح علىٰ التأويل المذكور، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٨) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي أمر تلميذَه أو غيرَه بالوضوء من الكلمة التي أُعجِبَ بها ولو كلمة خير، فلاث به بعض الفقهاء وقال: هذا تنطع! وإنما ورد ذلك عن

---

(١) ساقط من «ب».

عائشة ﵂ في الغيبة والنميمة[١]،ولم يرد لنا عن الشارع في هذا الباب شيء من ذلك، بأنه لا ينبغي اللوث به، فإن العجب معدود من الكبائر، فهو أشد من الغيبة عند من يقول إنها من الصغائر. وقد يكون هذا الشيخ إنما أمر مريده بالوضوء علىٰ وجه الندب خروجًا من الخلاف، فلا اعتراض عليه بذلك. وكان أخي أفضل الدين ﵀ يتوضأ من الكلمة التي لا تَعْنيه ومن اللغو، ويقول: إن ذلك أولىٰ من تجديد الوضوء بلا سبب. انتهىٰ.

وما رأيتُ لهذا المقام بعده فاعلًا إلا أخي الشيخ عبد الرازق الإمام بزاوية شيخنا سيدي عليّ الخواص، فوقع له أنه تكلم عندي مرةً بكلمة لا تعنيه، فقام وتوضأ منها، فعلمتُ أنه تحقق بهذا المقام. وكان سيدي عليٌّ الخواص إذا تكلَّم بكلمة لغوًا غسل فمه فقط، فاعلم ذلك، ولا تنكر علىٰ من يأمر الناس بما لا تنقله الشريعة، والحمد لله رب العالمين.

(٥٩٩) ومما أجبتُ به عن الشيخ الذي يقول لتلامذته: نزهوني عن كلِّ مقام يخطر ببالكم؛ فلاث به بعض الفقهاء وقالوا: هذا أمر لا يكون إلا للباري جلَّ وعلا، بأنه لا ينبغي الإنكار عليه بمجرد هذا القول حتىٰ تستفهمه عنه، فربما أراد بهذا القول: لا تجعلوني كأحدكم في كلِّ مقام ذقتموه، فإني بخلافه، ومن جعل نفسه مساويًا لشيخه في المقام عُدِم الترقي، وربما وقف مع ذلك المقام وقال: قد ساويتُ شيخي، فيفارقه وهو ناقص. وقد أجمع القوم علىٰ أن كلَّ من لم يعتقد في شيخه أنه أعلم بالله تعالىٰ منه، فاته النفع علىٰ يديه.

وقد كان سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي ﵁ يقول لأصحابه: لا تقيسوني بأحد، ولا تقيسوا عليَّ أحدًا، يعني من مشايخ عصره. وكان يفتح لهم بذلك باب تعظيمه في عيونهم لينتفعوا به، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) لم أقف عليه، وجاء في الصمت لابن أبي الدنيا (٦٥٨) عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: «يتوضأ أحدكم من الطعام الطيب، ولا يتوضأ من الكلمة الخبيثة يقولها»، وابن أبي شيبة (١٤٢٦).

الكتب النادرة التي تطبع لأول مرة

فهرس المحتويات